التفسير الكبير

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني

لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

المجلد التاسع

من سورة الشمس إلى سورة الهُمزة

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: التفسير الكبير- المجلد التاسع

الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠م

AT-TAFSĪR AL-KABĪR
"Commentary of The Holy Qur'ān "

By: Ḥaḍḥrat Mirzā Bashīr -ud- Dīn Maḥmūd Aḥmad,
Khalīfatul Masīḥ II

Volume: 9

SŪRAH AL-SHAMS TO SŪRAH AL-HUMAZAH

(Arabic Translation)

Translated from Urdu by: Abdul Momin Tahir

© Islam International Publications Ltd.

First Published in UK in 2010 by:
Al Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed and bound in Great Britain by:

ISBN: 978-1-84880-412-8

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

نحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه إذ وفّقنا لإخراج المجلد التاسع من هذا التفسير القيّم بلغة حبيبه وحبيبنا محمد المصطفى ﷺ.

وقد حاز شرف تعريبه الأستاذ عبد المؤمن طاهر، وراجَعه المهندس هاني طاهر. تقبَّلَ الله سعيهما وجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأعانهما على إخراج الجزء العاشر والأخير من هذا التفسير العظيم. آمين.

ويجدر أن نوضّح بعض الأمور عن هذه الترجمة:

أوّلها: لقد قام حضرة المفسر رضي الله عنه بهذا التفسير قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، فلو أخذ القارئ الكريم هذا الأمر بعين الاعتبار سهُل عليه فهمُ كثير من الأمور والأحداث المذكورة فيه.

ثانيًا: لقد ذكر رضي الله عنه معظم الاقتباسات من الحديث النبوي الشريف والسيرة والتاريخ وغيرها من المراجع بألفاظه وأسلوبه، وليس بنصّها الحرفي. غير أن المترجم نقلها عند الترجمة بنصّها الحرفي ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أما في الأماكن الأخرى، فترجم المضمونَ مع الإشارة إلى النص الأصلي أو مرجعه في الهامش.

ثالثًا: أحيانًا أشار حضرته رضي الله عنه إلى بعض الأمور إشارةً عابرة، فقام المترجم بتوضيحها في الهامش تسهيلاً للقارئ العزيز.

رابعًا: أن ترقيم الآيات في التفسير هو باعتبار البسملة أول آية من كل سورة.

نرجو من القراء الكرام إفادتنا مشكورين بالأخطاء المطبعية وغيرها التي يجدونها في هذا المجلد، حتى نتداركها في الطبعة القادمة، إن شاء الله تعالى.

وأخيرًا فإننا نتقدم بخالص الشكر -كما نطلب من القراء الكرام الدعاء- لكل مَن ساهم في إخراج هذا الكتاب، ولا سيّما الأستاذ سيد مير محمود أحمد ناصر -عميد الجامعة الإسلامية الأحمدية (معهد تأهيل الدعاة) بربوة باكستان، لتفضُّله بالإشراف على مجموعات الأساتذة والطلاب الذين قاموا بتخريج أو توثيق معظم المراجع لهذا التفسير- والدكتور محمد حاتم حلمي، والأستاذ خالد عزام، والمهندس تميم أبو دقة، علاء حسن نجمي، الدكتور وسام البراقي، سيد مبشر أحمد أياز، معتز القزق، حسام النقيب، عبد المجيد عامر، محمد أحمد نعيم، محمد طاهر نديم، الحافظ عبد الحي بهتي، مقبول أحمد ظفر، مير أنجم برويز، سيد عمران أحمد شاه، وثاقب كامران، لمساعدتهم المشكورة في شتى المجالات العلمية والفنية. فجزاهم الله جميعًا أحسن الجزاء.

كما ندعو الله العلي القدير أن يجعل هذا التفسير سببًا لشفاء غليل الكثيرين من عباده علميًا وعمليًا وروحيًا، ووسيلةً لفهم كلامه ﷻ. آمين!

الناشر

صفر ١٤٣١ هـ

كانون الثاني / يناير ٢٠١٠ م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

بفضل الله ورحمته

هو النـــــــــــــــــاصر

كلمة عن تفسير جزء "عمّ"

يحتوي هذا المجلد على تفسير بعض السور من جزء "عمّ"، الذي نشرنا في العام الماضي تفسير نصفه الأول. وسنكمل تفسير الباقي وننشره قريبا بإذن الله تعالى، علما أن تفسير خَمس منها جاهز.

لقد تبرعتُ بعشرة آلاف روبية لنشر تفسير هذا الجزء الأخير من القرآن الكريم، وسيكون هذا المبلغ والربح الحاصل منه صدقة جارية من قِبل زوجتي المرحومـــة "مريم بيغم، أُمِّ طاهر"، غفر الله لها وأحسن مثواها. هذه الأموال ستظلّ تُنفَـــق لنشر القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والكتب التي تؤلفها الجماعـــة في تأييد الإسلام. وسيكون هذا المشروع تحت إشراف مؤسسة "التحريك الجديد". أدعو الله تعالى أن يرفع بهذه الصدقة درجاتِ المرحومة والمغفور لها، وأن يجعلـــها سببًا لتقربها إلى الله باستمرار.

العبد المتواضع

مرزا محمود أحمد

بتاريخ ٢٥/١٢/ ١٩٤٦م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

مكية وهي ست عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

إنها سورة مكية؛ فقد روي عن ابن عباس أنها نزلت بمكة، وقد رُوي مثله عن ابن الزبير. وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ أمرنا بقراءة سورتَي الشمس والضحى في صلاة الظهر (فتح البيان).. مما يعني أن على المرء أن لا يقرأ في صلاة الظهر سورًا طويلة، وأن لهاتين السورتين علاقة بوقت الظهر.

ويرى القس "ويري" (R. Wherry) أن النصف الأول من هذه السورة نزل في السنة الأولى من البعثة النبوية، أما نصفها الثاني ففي السنة الثالثة أو الرابعة، بدليل أن النصف الأخير منها يحتوي على أحداث معارضة الأنبياء، ولا يمكن أن يتطرق القرآن إلى هذا الموضوع إلا إذا كانت المعارضة العلنية المنظمة لمحمد في مكة قد بدأت فعلاً، وحيث إنها بدأت في السنة الرابعة من البعثة فثبت أن النصف الثاني من هذه السورة نزل في تلك الفترة. (تفسير "ويري" المجلد الرابع ص ٢٤٩)

وأقول لا شك أن هذه السورة نزلت في بداية البعثة، ومن الوارد جدّا أن تكون قد نزلت في السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة أيضًا، ولكن قد أخطأ القسيس "ويري" في ظنه أنّ نصفها الأول نزل في السنة الأولى باعتبارها تتحدث -إجمالا- عن معارضة الأنبياء، بينما نزل نصفها الثاني فيما بعد في السنة الثالثة أو الرابعة؛ ذلك لأن الحديث عن معارضة الأنبياء وحده ليس دليلاً على أن معارضة النبي ﷺ كانت قد بدأت عندها فعلاً. فنحن المسلمين نؤمن أن القرآن الكريم وحي الله تعالى، ومن المحال أن نشك فيما إذا كان الله تعالى يعلم بالمعارضة القادمة أم لا، بيد أن ما يقوله

القسيس "ويري" وأمثاله من أنه لا يمكن حتى الحديث الإجمالي عن المعارضة أيضًا إلا بعد ظهور أماراتها فقول باطل. فليعلمْ هؤلاء القوم الذين يعتبرون القرآن الكريم من كلام البشر أن المرء حين يعرض على الناس أمرا جديدا يتوقع منهم الرفض والإنكار دائمًا. صحيح أنه لا يمكن أن يقدِّر في البداية شدة إنكارهم ونوعه، ولكنه يتوقع منهم الإنكار حتمًا، إذ كيف يتصور عاقل أن يعلن المرء دعوى تتعارض مع عقيدة قومه ودينهم وتقاليدهم وطقوسهم، ثم يتوقع منهم تصديقه فورا؟ كلا، بل سيرفضون قوله حتمًا. غير أنه إذا كان صادقا فسيرى في نهاية المطاف آثار القبول بتأييد من الله تعالى.

كما ذكرتُ من قبل مرارًا أنه إذا تطلب الأمر بيان تفاصيل المعارضة فإن الكتاب الحكيم يبينها حتمًا ولكن إما تلميحًا وإشارةً، أو في وقت قريب من وقوعها، لكي لا يقول المعارضون أن النبي هو مَن بدأ بالاستفزاز. فدرءًا لتهمة الإثارة والاستفزاز كان لا بد من ذكر الأحداث المشتملة على الأنباء عن المعارضة بكلمات غير جارحة. ولكننا نقول بهذا فيما يتعلق بتفاصيل الأحداث القادمة، أما القول أن الحقّ يواجَه بالمعارضة دائما فهو ليس مما يثير حفيظة الناس؛ ففي كل يوم يقول الناس في مجالسهم إن كل حقيقة جديدة تلقى المعارضة دائمًا، ولكن قولهم هذا لا يثير أحدا ولا يغيظه ولا يؤدي إلى أي فتنة أو فساد.

الواقع أن القسيس "ويري" قد اضطُر لهذا الاستدلال لأنه وُلد بعد نزول القرآن بقرون؛ فيريد تحديد زمن نزول سُوَره بعقله. إنه يفكر أنه ما دامت هذه السورة تتحدث عن المعارضة وليس عن معارضة محمد (ﷺ)، بل معارضة قوم نبي خلا من قبله (أي ثمود)، فلا بد أن تكون الآيات الأخيرة منها نزلت بعد أن بدأ محمد (ﷺ) يواجه معارضة منظمة في مكة. ولكي نثبت أن أسلوب استدلاله باطل كليًّا نضرب له مثالاً مبنيًّا على أحداث التاريخ لا يمكنه إنكاره البتة.

إن زمن المسيح الموعود عليه السلام مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية كله مؤرَّخ، وقد أوحى الله إليه في زمن لم يكن قد نشر فيه كتابه "البراهين الأحمدية: "جاء نذير في الدنيا، فأنكره أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويُظهر صدقه بصولٍ قويٍّ

شديدٍ؛ صولٍ بعد صولٍ". (التذكرة، ص ٨١). فهذا الوحي يتحدث عن معارضة سيواجهها ﷺ من الناس، كما يتحدث عن هجماتٍ ربانية مضادة لهذه المعارضة، ولكن الله تعالى قد استخدم هنا كلمة "الدنيا"، وهكذا وسَّع مفهوم نطاق المعارضة والمعارضين؛ إذ يمكن أن يفهم منه المسلمون أن هذا الوحي يتحدث عن المسيحيين، ويمكن أن يفهم منه المسيحيون أنه يتحدث عن المسلمين. ثم تحدَّثَ الوحي عن المعارضة بشكل عام بدلاً من أن يصرح الله تعالى فيه أن متصوفة المسلمين وأكابرهم وعلماءهم خاصة سيعارضونه، فقال: "فأنكره أهلها وما قبلوه". وقد تلقى المسيح الموعود ﷺ هذا الوحي عندما كان يؤلف "البراهين الأحمدية" وكان الناس يكنّون له حبًّا وتقديرًا عظيمين حتى إن الشيخ محمد حسين البطالوي -وهو الذي صار فيما بعد أكبر معارضيه ﷺ وبذل كل ما في وسعه في عداء الأحمدية، ومَنَعَه كبرُه وغروره من قبول أي شيء- قال عند قراءة "البراهين الأحمدية": "إن ما نراه.. حين نضع هذا العصر وأحواله في الاعتبار.. أنه لم يُنشَر مثيل لهذا الكتاب منذ بدء الإسلام إلى هذا اليوم، ولا نعلم ما يمكن أن يحدث في مستقبل الأيام، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرا."

ثم كتب في مدح المسيح الموعود ﷺ: "ثم إن مؤلِّفه مثابر في نصرة الإسلام بماله ونفسه وقلمه ولسانه وحاله وقاله بحيث إن من النادر أن تجد له مثيلا بين المسلمين السابقين."

ثم خوفًا من أن يعتبر أحد رأيه مبالغا فيه، أكده بقوله: "ومَن يعتبر قولنا هذا مبالغةً تمشيًا مع أسلوب الآسيويين.. فعليه أن يدلنا على كتاب واحد على الأقل تصدَّى بكل قوة وبرهان لأعداء الإسلام من كل الطوائف.. وخاصة من الآرياسماج والبراهموسماج الهندوسيتين.. ويقدم لنا أسماء ثلاثة أو أربعة من أنصار الإسلام الذين نصروه بأموالهم وأنفسهم وأقلامهم وألسنتهم مثلَه، فتحدَّوا أعداء الإسلام ومنكري الوحي أنَّ مَن كان في شك من نزول الوحي من الله تعالى فليأت إلى صاحب التحدي نفسه ويشاهد بنفسه ظاهرة الوحي، بل إن صاحب التحدي

قد أذاق الأمم الأخرى طعم هذه المشاهدة والتجربة." (مجلة "إشاعة السنّة"، المجلد السابع ص ١٦٩، من شهر يونيو إلى أغسطس ١٨٨٤)

فنرى أنه في الوقت الذي كانت الدنيا تشيد فيه بالمسيح الموعود عليه السلام، وكان كبار الولاة وعِلْية القوم يراسلونه طالبين منه الدعاء لهم، وكان العلماء والعامة يكنّون له الحب والاحترام، ولم يكن ثمة آثار للمعارضة، أوحى الله إليه: "جاء نذير في الدنيا، فأنكره أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويُظهر صدقه بصولٍ قويٍّ شديدٍ؛ صول بعد صولٍ".

فترى كيف رسم هذا الوحي الرباني أنواع المعارضة التي نتعرض لها اليوم أو قد سبق أن تعرضنا لها رسمًا موجزًا مكتملا. على المرء أن يفكر مَن ذا الذي أخبر المسيح الموعود عليه السلام أن الدنيا ستعارضه معارضة شديدة تستدعي صولاتٍ متكررة من الله تعالى لإظهار صدقه عليه السلام. لقد كان المسيح الموعود عليه السلام يعلن أنه خادم الرسول ﷺ، فإذا كان الله تعالى قد أخبر خادمَ الرسول ﷺ سلفًا أنه سيتعرض لمعارضة شديدة في وقت لم يكن فيه أية آثار للمعارضة، فليس صعبًا على الإنسان "الذكي" مثل القس "ويري" أن يعرف أنّ الله تعالى قادر أن يخبر سيدَ هذا الخادم أيضا بأن معارضته قريبة. ولكن التعصب الموجود عند القسيسين عادة والمعارضة العامة للإسلام قد جعلا من الصعب جدا على القس "ويري" أن يفهم كيف علم محمد (ﷺ) في بداية دعوته بأن المعارضة قريبة مع أنه لم يكن هناك أي آثار لها. فليعلم القسّ "ويري" أن الأمر هنا لا يتعلق بعلم محمد ﷺ، بل بعلم الله تعالى. ومع ذلك لو افترضنا جدلاً أن هذه السورة من تأليفه ﷺ فليعلمْ "ويري" أن كل مَن يعرض على الناس أمرًا جديدا مخالفًا لعقائدهم وتقاليدهم وطقوسهم فإنه يدرك جيدًا أنهم سيعارضونه حتمًا، وإنْ لم يعلم نوعية المعارضة وشدّتها. فعندما نزل أول وحي على النبي ﷺ ذهبت به خديجة -رضي الله عنها- إلى ورقة بن نوفل، فقال له إن قومك سيعارضونك حتى يُخرجوك من مكة، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ. (البخاري، كتاب بدء الوحي)

فلو اعتبرنا هذه السورة مما نزل في السنة الأولى من البعثة فنرى أنه حتى ورقة بن نوفل كان قد أخبر النبي ﷺ عن مخاوفه وأخبره صراحة أن قومه سيعارضونه.

باختصار، إن ورود ذكر المعارضة في هذه السورة ليس وحده دليلاً على أنها نزلت قريبًا من زمن المعارضة أو خلالها. نعم، إن ورود بعض التفاصيل عن المعارضة في سورة ما يمكن أن يكون دليلاً على نزولها في زمن المعارضة أو قريبًا منها، ولكنه ليس دليلاً قطعيًا على ذلك. خلاصة الكلام، إن ورود ذكر معارضة الأنبياء في آخر هذه السورة ليس وحده دليلاً على أنها نزلت في السنة الثالثة أو الرابعة، بل هو استنتاج باطل تمامًا. قد تكون هذه السورة قد نزلت في السنة الثالثة فعلاً، ولكن اعتبارها مما نزل في بداية السنة الثالثة أو الرابعة بحجة أنها تتحدث عن معارضة الأنبياء مرجعه عداوة القسيس فحسب.

الترتيب والترابط:

يزعم المستشرق السير وليام موير أن سور الفجر والبلد والشمس والليل والضحى طابعها ما يسمى بالإنجليزية (soliloquires).. أي مناجاة النفس (تفسير "ويري" المجلد ٤ ص ٢٥١)، بمعنى أنها من قبيل حديث المرء مع نفسه متأثرا بما يختلج في قلبه من خواطر وأفكار. ويقصد وليام موير من هذا أن محمدًا (ﷺ) كان يتأمل في حالة قومه معتكفًا في غار حراء، فاتخذ بعض القرارات بشأن ما كان قومه فيه من مساوئ وشرور، فدوّن خواطره وقراراته تلك في هذه السور. مما يعني أن هذه السور عند المستشرقين إنما هي آهات كانت تنطلق من قلب النبي ﷺ المضطرب.. إنها ابتهالات رفعها إلى الله تعالى برؤية سوء حال قومه.. إنها صراخ وبكاء سُمع دويّه في غار حراء المظلم. فبينما كانت الدنيا منغمسة في ملذاتها، والناس غافلين عن الله تعالى.. متّبعين خطوات الشيطان، كان محمد رسول الله ﷺ يتأوه في ساعات انفراده برؤية ما فيه قومه من سوء وفساد، ويثير ضجة بابتهالاته أمام الله تعالى، ويقضي يومه في كرب شديد. وفي نهاية المطاف ظهرت للدنيا آهاته وابتهالاته وصيحاته وبكاؤه وعويله في صورة هذه السور.

أيًّا كان قصد العدو من هذا القول إلا أنه قول جميل حقًا. لا شك أنه أراد أن يقول أن مضامين هذه السور إنما هي بنات أفكار محمد، حيث سجل فيها ما كان يختلج في قلبه من مشاعر وأحاسيس، ولكننا نعرف أن الله تعالى أيضا يعبّر عن مشاعر البشر في وحيه. إذا كانت هذه مشاعر محمد ﷺ فهذا يعني أن اختيار الله تعالى له لرسالته في محلّه تماما، حيث اختار لها شخصا مشاعره منسجمة مع مشيئته تعالى. إذًا، فنحن لا نرفض قول العدو هذا، بل نقبله من منظور آخر، ونقول إذا كان صحيحا أن هذه السور تعبير عما كان يختلج في قلب محمد ﷺ من أفكار وخواطر فهذا دليل على ما كان يقاسيه من آلام وما يهيج في قلبه من أفكار وعواطف برؤية بؤس العبيد واليتامى في المجتمع، إذ كان ﷺ يفكر أن قومه لن يتقدموا ما لم يغيّروا سلوكهم. فالعدو يمكنه أن يعتبر هذه السور كلام إنسان واختلاق محمد (ﷺ)، إلا أنه لا بد له من الاعتراف بعظمة وصلاح ذلك الإنسان، إذ كان سبب فضله على غيره أنه كان لا يطيق السكوت على ظلم الضعفاء وهضم حقوق الفقراء والبائسين ولا يقدر على سماع آهات اليتامى والمساكين، فلا يمكن إنكار صلاحه وعظمته. فإنه برؤية هذه الأحوال السيئة كان يؤْثر العيش في ظلمة غار حراء منعزلا عن الدنيا وضوضائها بعض الوقت، ثم يرجع إلى الناس ولكنه ما كان يرجع إليهم طمعًا في المال أو العزّ والجاه أو الحكم والسيادة، بل لينهض بهذه الطبقة المقهورة في المجتمع ويصلح حالهم ويزيل ما بهم من فساد ليقفوا في صفوف الشعوب المتقدمة في العالم. إن وليام موير جعل مضامين هذه السور من قبيل مناجاة المرء نفسَه وتعبيرِه عن خواطره التي تختلج في قلبه خلال تأملاته العميقة، ولكنا نقول إذا كانت هذه هي أفكار محمد ﷺ.. وإذا كانت هذه هي العواطف التي كانت تختلج في أعماق نفسه ﷺ - أي إذا كان ﷺ يقول في نفسه ليس هناك مَن يهتم بهؤلاء العبيد ويكفل هؤلاء الأيتام ويرعى هؤلاء المساكين، لذا فعليّ أن أخرج من هذه الخلوة في غار حراء ولا أبرح حتى يرتدع كبار القوم وعِليتهم عن مظالمهم- فإن هذه الأفكار في حد ذاتها تبلغ من الطهر والقداسة بحيث إن أي إنسان عنده مسحة من العقل سيعترف بفضل محمد ﷺ حتمًا.

ليس أمامنا إلا خياران؛ فإما أن نعتبر القرآن كلام الله تعالى أو كلام إنسان؛ فإذا اعتبرناه كلام الله فلا اعتراض، وإذا اعتبرناه من نسج خيال الإنسان فلا شك أنه إنسان طاهر بحيث لا يمكن لأحد إنكار طهره وقداسته.

ولفهم الصلة الموجودة بين هذه السورة وغيرها من السور يجب أن نعلم أن هذه السور الخمس -التي تكلمنا عنها من قبل في معرض الحديث عن ترتيب السور- تتحدث عن ضرورة مساعدة الفقراء والنهوض باليتامى والمساكين، حيث قال الله تعالى في سورة الفجر ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(الآيات:١٨-٢١)، وقال في سورة البلد ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(الآيات:١٣-١٨)، ثم تحدّثَ عن هذه الأخلاق هنا في سورة الشمس فقال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الآيات:٩-١١)، ثم قال تعالى في سورة الليل ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(الآيات:٦-١١)، ثم قال فيها أيضا ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾(الآيات:١٨-٢٠)، ثم قال تعالى في سورة الضحى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الآيات:١٠-١٢). وقد تبين من ذلك أن هذه السور الخمسَ وثيقةُ الصلة فيما بينها حيث تحثّ على الأخلاق الفاضلة ولاسيما الأخلاق ذات الصلة الوثيقة برقي الأمم، والتي تدعو إلى النهوض بالمظلوم المقهور والبائس الفقير، وإلى اتخاذ التدابير المناسبة لرقيهم. وهذه العواطف وإنْ سماها العدو مشاعرَ محمد ﷺ نفسه، إلا أنها تبيّن أن ما دفع محمدا ﷺ إلى إصلاح المجتمع هو عاطفة خدمة الفقراء والنهوض باليتامى والمساكين.

لقد قال صاحب "البحر المحيط" أن صلة هذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد أقسمَ بمكة من قبل، وأقسمَ هنا بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي.

إنني أقدر صاحب "البحر المحيط" أكثر من أي مفسر آخر، لأنه مولع مثلي ببيان العلاقات بين السور والترابط بينها، ولكنه للأسف قد ذكر هنا أمرا سطحيا جدا. والحق أن هذه السور الخمس عميقة الصلة فيما بينها مضمونًا، ولو ربطنا مضمون سورة البلد بمضمون سورة الشمس لارتبطت هذه الأخيرة بالتي قبلها تلقائيا، فلا يبقى هناك مشكلة في بيان ترتيب هذه السورة؛ ذلك لأن السورة التي تسبقها تتحدث عن مساعدة الفقراء، كما أن السورة التي تليها أيضا تحثّ على الإنفاق على الفقراء والمساكين، وهكذا فإن هذا المضمون وحده يربط سورة الشمس بما قبلها وبعدها ربطا عميقا. ولو أن صاحب البحر المحيط اكتفى بتبيان هذا الأمر لكان قوله معقولا جدا، ولكنه ذكر أمرًا بلغ الغاية في السطحية فقال: لمّا أقسمَ الله تعالى بمكة في السورة السابقة فقال تعالوا نقسم الآن بأشياء من العالم العلوي والعالم السفلي. لقد اضطر لهذا التأويل المتكلف لأنه لم يفطن إلى الترتيب الحقيقي لهذه السور. لا شك أن الإنسان إذا فكر في شيء تطرّقَ فكره إلى شيء يرتبط به، فمثلاً إذا فكر أنه لم يقابل فلانًا من أصدقائه انتقل ذهنه إلى زوجته وأولاده ثم إلى وطنه، وهكذا يظل تفكيره مشغولاً بشتى الأشياء التي لها صلة به. لا شك أن هذا يحدث وأن فكرةً تولِّد فكرة أخرى، ولكن هذه القاعدة تتعلق بالبشر لا بالله تعالى. إن الإنسان ينسى الكثير من الأشياء، وعندما يفكر في شيء يتذكر أشياء أخرى مرتبطة به، ولكننا لا نتحدث هنا عن شعر شاعر، بل عن كلام الله تعالى الذي هو عالم الغيب، والذي هو أسمى من قاعدة "تذكُّر الحديث بالحديث".

الواقع أن الله تعالى قد بيّن في السورة السابقة غايةَ بناء الكعبة، وقال لرسوله إننا نُقسم بهذا البلد ونُقسم بإبراهيم الذي بناه، لقد بناه لكي يكون بلدا آمنا، وليَنذِر أهله حياتهم في سبيل الله تعالى دائمًا، ولكن ما هي مكة الآن؟ لقد ساءت حالها حتى إنك حِلٌّ بهذا البلد.. أي قد اعتبر أهلها إيذاءك حلالاً فيها. لقد دعا إبراهيم ربه عند بناء مكة أن تظل هذه بلدةً آمنةً على الدوام فقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البقرة:١٢٧)، ولكن ابن إبراهيم -أي محمد ﷺ نفسه- قد أصبح فيها عرضة لصنوف الأذى.

فكيف يمكن أن تقرّ عين الإنسان الذي دعا ربه أن تكون مكة آمنة لمن يأتوها من الخارج بينما جُعل ابنه فيها هدفًا لكل أنواع الأذى؟

ولو قال أهلها صحيح أن إبراهيم قد دعا لأن تظل مكة آمنة على الدوام، إلا أنه قد خرج بيننا شخص بدأ يعارض عقائدنا، فكان لزامًا علينا تفنيد أقواله ودحض عقائده ولو على حساب أمن مكة.

فالجواب: لا شك أن محمدا ﷺ يعارض عقائدكم مما يثير حفيظتكم، ولكن أنسيتم دعاءً آخر لإبراهيم عليه السلام؟ فإنه لم يدعُ أن تظل مكة آمنة فحسب، بل دعا أيضا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٠). ألا يعني دعاؤه هذا أن أهل مكة سيفسدون في يوم من الأيام؟ لو كنتم برئيين من الفساد لما كانت هناك حاجة لبعثة رسول فيكم؟ فما دام إبراهيم عليه السلام قد أنبأ ببعثة رسول فيكم، فإنه قد أخبر أيضا أن قومه سيفسدون بعده، ولذلك قد مسّت الحاجة إلى بعثة رسول فيهم يصلح عقائدهم ويزيل مفاسدهم. فلولا انتشار المساوئ فيهم لما كانت هناك حاجة لأن يُبعث فيهم رسول ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾. فقوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يدل على أنه سيأتي على أهل مكة زمان ينسون فيه آيات الله، وقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يدل أنهم سينسون كتاب الله تعالى يوما ما، وقوله تعالى ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يبين أنه سيأتي عليهم وقت يفقدون فيه صوابهم فيعتنقون عقائد موغلة في الحمق، وقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يشير إلى أنهم سيحيدون جدًا عن جادّة التقوى في يوم من الأيام، فتمسّ الحاجة إلى بعثة رسول فيهم يعود بهم إلى الهدى ثانيةً.

إذًا، قد بيّن الله تعالى هنا أن مكة قد أُسّستْ لإقامة نظام واسع يتضمن التعاليم الروحانية والعَقَدية والسياسية والمدَنية والشخصية والاقتصادية والعلمية والدولية والفكرية والأخلاقية وحكمتَها وضرورتها، ولا يكتفي بتقديم النظريات، بل يُصلح أفكار الإنسان وأعماله ومعاملاته بالفعل. فقوله تعالى ﴿يتلوا عليهم آياتِك﴾ تضمّنَ التعاليمَ الروحانية والعقدية، وقوله تعالى ﴿ويعلّمهم الكتاب﴾ إشارةٌ إلى التعاليم

السياسية والمدَنية والشخصية والاقتصادية والعلمية والدولية والفكرية والأخلاقية، وأما قوله تعالى ﴿والحِكْمَةَ﴾ فيشير إلى حكمة هذه الأحكام كلها وضرورتها، وقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِم﴾ فيعني أن تلك الأحكام لن تكون مجرد نظريات فارغة، بل تهدف إلى إصلاح فكر الإنسان وعمله ومعاملاته بصورة عملية.

إذًا، فكانت هناك نبوءة إبراهيمية عظيمة وكانت هذه مهمة كبيرة يجب تنفيذها في العالم، والقيام بها كان يتطلب أن يُبعَث ابنٌ كاملٌ في نسل إبراهيم عليه السلام، لأنها ما كانت لتكتمل بدون ابنٍ مثلِه. عندما دعا إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾ قصد من قوله ﴿فِيهِمْ﴾ قومه هو حتمًا، فكأنه قال: رب ابعثْ في قومي رسولاً كاملاً. مما يدل على أن إبراهيم كان يسلّم بضرورة بعثة ابنٍ كاملٍ في نسله لا يمكن إنجاز هذه المهمة من دونه. والآن قد فصّل الله تعالى في هذه السورة (الشمس) كفاءاتِ هذا الابن الكامل، وأخبر أن هذه المهمة لن يقوم بها إلا إنسان مزود بهذه القدرات والكفاءات.

فالحق أن الأمر قد اشتبه على صاحب "البحر المحيط" لورود كلمات الشمس والقمر والسماء والأرض هنا، فظن أن صلة هذه السورة تكمن في هذه الكلمات التي تبتدئ بها: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(الشمس:٢-٧).. فظن خطأً أن هذه الكلمات هي التي تربطها بالسورة التي قبلها حيث أقسم الله تعالى فيها بمكة، وأما الآن فقد أقسَم بالشمس والقمر والسماء والأرض. والحق أن هذه الكلمات ليست المقصود الحقيقي في هذه السورة، وإنما هي أمثلة لبيان تفصيل الهدف الحقيقي، الذي هو النفس الكاملة التي تكون مطّلعة على سبل التقوى والفجور كل الاطلاع، ثم لا تزال تطوِّرها.. أي أنها لا تكتفي بالعمل بدين الفطرة، بل تُحصِّل دينَ الشريعة أيضا. وكان الله تعالى قد ذكر هنا أمثلة الشمس والقمر وغيرهما ليسهّل علينا فهم هذه النفس الكاملة وكفاءاتها، ولكن صاحب "البحر المحيط" قد اعتبر هذه الأمثلة مقصودًا حقيقيًا هنا، مع أن المقصود الحقيقي هنا هو النفس الكاملة.

لقد قال الله تعالى في السورة السابقة أيضا ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي أننا نقدّم كشهادة والدًا ووَلَدَه أيضا.. فكان لزاما أن يبين هنا خصال هذا الولد، وهذا ما فعل فذكر أن صفات الولد الذي أنبأنا أنه سيتلو على الناس آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم هي كيت وكيت، ففصّل تلك الصفات في هذه السورة مبينًا أن هذه هي الصفات اللازمة للنفس الكاملة. كما بين أن النفس الكاملة نوعان: شمس وقمر، ثم ضرب أمثلة لهذين النوعين ليبين أن هذا الزمن بحاجة إلى هذا النوع من النفس الكاملة، وأن النبوءة الإبراهيمية لا تتحقق إلا ببعثة مثل هذه النفس الكاملة في هذا العصر. فالحق أن الشمس والقمر قد ذُكرتا هنا لبيان صفات النفس الكاملة وليستا المقصود الحقيقي لهذه السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

الشمس: الكوكب النهاري المعروف، مؤنثة. وشَمَسَ الرجلُ: امتنع وأبى. وشَمَسَ الفرسُ: كان لا يمكّن أحدًا مِن ظهره ولا مِن الإسراج والإلجام ولا يكاد يستقرّ. (الأقرب)

وهذا يعني أن الشمس تطلق على الكوكب المعروف الذي ضوءه ذاتي، وكذلك على الشخص الذي يأبى الانقياد لأحد لكونه كاملا في حد ذاته؛ إذ الشامس مَن يمتنع عن طاعة غيره. لا شك أن الذي يأبى أن يطيع غيره كِبْرًا سيئ، ولكن الذي لا يطيع أحدا لأن الله تعالى قد خلقه لقيادة الآخرين لا للانقياد لهم، فليس بسيّئ. إذًا فالإباء نوعان، أحدهما: أن لا يطيع التابع متبوعه، والثاني: أن لا يطيع المرء غيره لأنه لم يُخلق لطاعة الآخرين بل لقيادتهم، ومثاله أن الشخص العالِم حقًّا واجبُه أن يصدر الفتوى للآخرين، فلو جاءه جاهل وقال له: لا تُفْتِ هكذا،

بل هكذا، فلا بد أن يرفض قوله ويردّ عليه: لا يحق لك أن تأمرني، بل عليك أن تطيعني؛ فرفضُه ليس كبرًا، بل هذا هو منصبه. وقد استخدم القرآن الكريم لفظ الإباء بهذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(التوبة:٣٢).. والبدهيّ أن إباء الله ليس من التكبر في شيء. وكذلك يقال للملِك: أبيتَ اللعنَ.. أي قد بلغتَ من الشرف بحيث تأبى أن يقترب منك أي نوع من اللعن. وكذلك يقال: رجل أبيٌّ للذي يأبى الظلم والضيْم. فحروف ش م س تتضمن معنى الإباء أيضا. وعليه فالمراد من الشمس مَن لا يرضى بطاعةٍ غير واجبة.. أي مَن زوّده الله بكفاءات بحيث إنه لم يُخلَق للانقياد للآخرين، بل خُلق ليقوِّم العالَمَ، فلا يليق به إلا سيادة الآخرين، لا أن يطيع أحدًا منهم.

ضُحاها: ضَحا يضحو ضَحْوًا الطريقُ: بدا وظهَر. والضحى: بعد الضَّحْوة، أي حين تشرق الشمس. والضَّحْوَة: ارتفاع الشمس. وقال البعض: الضحوة: طلوعُ الشمس، والضحى: بعد الضحوة، والضَحاءُ: عند ارتفاع النهار الأعلى. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى نقدم شهادةَ الشمسَ وظهورها وضوءها.

اعلم أن كل شيء في الدنيا له اعتباران: ذاتي.. أي بحسب كميته ووزنه، ونسبي.. أي مقارنةً مع غيره من الأشياء. فمثلا هناك شجرة طولها عشرة أقدام، فالعشرة أقدام هذه هي قامتها الأصلية، ولكن لها قامة نسبيّة مقارنةً بالأشياء الأخرى، فمثلا لو نظر إليها شخص مِن فوق تلٍّ ارتفاعه عشرون قدما، فلن يرى طولَها كله، وربما يبدو له أن طولها قدمان أو ثلاثة أو أربعة. وإذا نظر إلى هذه الشجرة شخص واقف في حفرة، فيبدو له طولها ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدما. كذلك لو نظر إليها شخص من بُعد، فتبدو له قصيرة جدًّا. أو خذ مثلاً الجبال.. فمع أن ارتفاع بعضها يبلغ ألفي قدم بل أربعة آلاف بل عشرين ألفا، إلا أنها تبدو مِن بعيد كخيمةٍ كبيرة عالية. كذلك لو نظرتَ إلى شجرة وأنت مستلقٍ تحتها، لرأيتَ لها منظرا مختلفا تماما. وكذلك لو وقفتَ بجانب منارة ارتفاعها مائة وخمسون قدمًا فيبدو لك طولها ألف قدم مثلا، ولكنك لو نظرت إليها من طائرة

من فوق فتبدو لك قصيرة جدًّا. باختصار، إن لكل شيء حقيقةً ذاتية في حالته الطبيعية، وحقيقةً نسبية بمقارنته بالأشياء الأخرى.

وأضرب مثالاً آخر، هناك شخص يسهر الليالي متدبرًا في القضايا الهامة مِن فلسفة وفلك وسياسة واقتصاد وازدهار الأمم وانحطاطها، فيأتي بحلول وحِكم رائعة، ولنَقُلْ أنه تدبّرَ في مائة قضية وأتى بمائة حِكمة أو حل، فيلقى في الصباح شخصًا فيحكي له حكمة من هذه الحِكَم، فيكون عِلْم هذا الشخص بالنسبة إليه هو ١% من علمه الذاتي. ثم يلقاه آخر فيذكر له حكمتين من هذه الحِكم، فيكون علمه بالنسبة إلى هذا الشخص هو ٢% من علمه الذاتي. ثم يلقاه شخص ثالث فيذكر له ثلاثا من حِكمه، فيكون علمه بالنسبة إلى هذا الشخص هو ٣% من علمه الذاتي. فكأن له ضوءًا عِلميا هو ذاتي وضوءًا علميًا هو نسبي مقارنةً بما عَلِمَه الآخرون من حكمه وحلوله، إذ إن ضوءه الذاتي هو مائة حل لمائة قضية، ولكن ضوءه النسبي هو حلّ واحد أو اثنين أو ثلاثة فقط بالنظر إلى الآخرين؛ إذ لا يعرفون من ضوئه الذاتي إلا هذا الحد فقط. ثم يلقاه شخص رابع، فيكلمه كلاما طويلا يذكر فيه خمسين من حلوله، فينكشف عِلمه على هذا الشخص بشكل آخر تماما. ثم يلقاه شخص آخر فيحكي له كل ما عنده من حلول، فينكشف عليه علمه وحكمته انكشافا مختلفا تماما. فالشخص الأول يعرف من حقيقة هذا العالِم ١% فقط، والثاني ٢%، والثالث ١٠%، والرابع ٥٠%، والخامس يظن أنه مطلع على ١٠٠% من علم هذا العالِم مع أنه قد اهتدى لهذه الحلول والحِكم بعد تدبر طويل عميق في هذه القضايا ساهرًا الليالي تلو الليالي، وربما يكون قد نسي كثيرا مما كان يعلم ولا يعرف حقيقته العلمية معرفة تامة، بل الله تعالى يعلم حقيقته العلمية هذه تماما.

الواقع أن الإنسان خُلق مزودًا بكفاءات عديدة، كما هو مزود بملَكَة إظهارها أيضا، فمثلاً لو سألتَ أحدا: كم تعرف من الكلمات العربية؟ فربما لن يستطيع أن يعدّ أكثر من خمسين أو ستين أو مائة كلمة، ولكنك لو قدّمت له كتابًا لقال لك أنا أعرف كل ما ورد فيه من كلمات. فالواقع أن الإنسان نفسه ليس عنده إدراك صحيح لكفاءاته، فضلاً عن أن يعرفها الآخرون. فمثلاً لو وضعتَ أمام الشمس

أشياء عاكسة لضوئها بدرجات متفاوتة، فكل واحد منها يعكس ضوءها بشكل مختلف، مع أن ضوءها الذاتي ذو شدة محددة. كذلك إن للسراج ضوءا ذاتيا ذا شدة محددة يتولد منه نتيجة احتراق زيته، ولكن هناك ضوء آخر له يختلف انتشارًا وشدةً عن ضوئه الذاتي بحسب الأشياء التي تعكسه. وهذا هو المعنى الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿والشَّمْسِ وضُحاها﴾.. أي نقدم الشمس وضوءها الذاتي شهادةً.

وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

تلاها: تلا فلانا تُلُوًّا: تبِعه. (الأقرب)

وللمفسرين أقوال شتى في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم.. إن قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾.. يعني والقمر إذا طلع وأنار بعد غروب الشمس فورًا، وذلك يكون في الخامس عشر من الشهر (تفسير زاد المسير). وقال غيره: إذا كمل ضوء القمر، فصار تابعًا للشمس في الإنارة، يعني: كان مثلها في الإضاءة، وذلك في الليالي البيض.. أي من الليلة الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة (فتح القدير). وقال غيره: عندما لا يُرى القمر؛ أي آخر ليلتَي الشهر. وقال قتادة: إن الشمس إذا غربت تبعها القمر ليلة الهلال في الغروب. وقال الفراء : المراد من هذا التلوّ أن القمر يأخذ الضوء من الشمس. (الرازي)

أما من قال بالهلال فقوله خطأ بداهة، لأن القرآن قد استعمل هنا لفظ القمر، ويُطلق القمر على هذا الكوكب حينما لا يكون هلالا. أما المعاني الأخرى فأفضَلُها ما يشير إلى اكتمال القمر.. لأن القمر في ليلته الرابعة عشرة يشبه الشمس من الناحيتين؛ أي أنه يطلع فورَ غروب الشمس ويتبعها فعلاً.. كما أنه يتبعها من ناحية الضوء أيضا، أي يتلقى ضوءها بشكل كامل، فلذلك أرجّح هذا المعنى على غيره.

التفسير: يقول الله تعالى إننا نقدّم شهادةً القمرَ أيضا.. أي شخصًا قادرا على اقتباسِ الضوء وعَكْسِه، ذلك أن بعض الأشياء كالمِرآة أو الماء الصافي أو حجر

الطلق تقدر على اقتباس الضوء وعكسه، ولكن هناك أشياء ليست كذلك، فمثلا لو جلس أمامك شخص في الشمس فلن تقول له ابتعدْ من هنا لأنك تعكس ضوء الشمس الذي قد يضر عيني، ولكن لو وُضعت مرآة أمام الشمس فسوف تضر عينك ضررا كبيرا وقد تفقد بصرك بما تعكس من أشعتها. وكذلك تقع أشعة الشمس على الكلأ كل النهار ولكنك لا تتأذى برؤية الكلأ، بل تتمتع، ولكن توجد في مصر مثلا ميادين صحراوية واسعة رمالها ذات حبيبات كبيرة، وكل لامع يعكس الضوء، والرمال ذات الحبيبات الكبيرة شديدةُ اللمعان، ولذلك عندما يمر الناس بهذه الميادين الرملية يصابون بالعمى مِن أشعة الشمس المنعكسة على الرمال. ويوجد في مصر مئات العميان الذين فقدوا بصرهم بهذه الظاهرة؛ إذ خرجوا إلى تلك الرمال خطأً فعموا.

والحال نفسه بالنسبة إلى ضوء السيارة، فتقع حوادث كثيرة بسبب الأضواء الشديدة المنبعثة من السيارة القادمة. يتساءل الناس في حيرة: كيف وقع الحادث مع أن في السيارة أضواء يراها السائق من بعيد؟ ولكنهم لا يدرون أن هذه الأضواء اللامعة من بعيد تنتشر بحيث لا يدرك السائق الآخر مكانها بالضبط، فتصطدم بالسيارة القادمة. الواقع أن لمصابيح السيارة ضوءاً ذاتيا يعكسه العاكس ويزيده أضعافا مضاعفة، وينشره بعيدا ويبدد الظلام من بعيد، ولولا العاكس لظل الضوء محدودا جدا. والقمر هو العاكس في الواقع.. أي الشيء القادر على تلقّي ضوء الشمس وإيصاله إلى الآخرين. لا يظنّنَّ أحد أن أي كوكب آخر يمكن أن يجذب ضوء الشمس ويوصله إلى الآخرين مثل القمر. كلا، إنما القمر هو الكوكب الوحيد القادر بين نظامنا الشمسي على تلقّي ضوء الشمس ثم نقله وإنارة الأشياء الأخرى. ولذلك يقال عن القمر أنه ليس صالحا للعمران. لو كان صالحا للعمران لوجد فيه الكلأ والأشجار والأعشاب والغابات الواسعة، ولكنها لا توجد عليه؛ وإلا فلم يقدر على جذب ضوء الشمس ونقله إلينا. فالله تعالى جعل القمر عاكسا، فخلق عليه ميادين رملية شاسعة عاكسة عندما يقع عليها ضوء الشمس ينعكس ضوؤها وينتقل إلينا. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَالْقَمَرِ إذا تَلاهَا﴾.. أي أننا نقدّم أمامكم شخصًا

هو كالقمر، ولا نقدّمه بصورة منفردة، بل نقدمه حال كونه واقعًا أمام الشمس تمامًا، ومتلقيًا ضوءها بشكل كامل. لا شك أن من مزايا القمر جذب ضوء الشمس ونقله إلى الآخرين، ولكنه إذا لم يكن أمامها لا ينقل ضوءها للآخرين؟ إن ميزته هذه لا تنكشف ما لم يواجه الشمس، أما إذا حال بينهما شيء لم يقدر على نقل الضوء إلى الأرض، فمثلاً تحول الأرض بينهما أحيانًا فينخسف القمر، أو لا يواجه هذا الكوكب الشمسَ في ليلته الأولى بشكل كامل، فيتراءى لنا هلالاً، لا قمرًا ولا بدرا، ولكنه في ليلته الرابعة عشرة يقابل الشمسَ تماما فيعكس ضوءها بكل قوة. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَالْقَمَرِ إذا تَلاهَا﴾.. أي لا نقدم القمر وحده شهادةً، بل نقدّمه شهادةً حال كونه واقعًا أمام الشمس تماما؛ حيث يقتبس ضوءها وينير الدنيا.. وهذا يعني أن نوره لا ينكشف في أكمل صورة إلا إذا كان مقابل الشمس تمامًا، لأن هذه هي فرصة انجلاء ميزته بشكل كامل حيث يجذب ضوء الشمس، ثم ينقله إلى أشياء أخرى ويبدد به الظلام.

إذن فمفهوم الآيتين معًا بصورة كاملة كالآتي: إننا نقدم شهادةً الشمسَ التي ضوؤها ذاتي، ونقدّم أيضا ضوءها الذاتي هذا، كما نقدم القمر القادر على تلقّي الضوء من الأجسام المضيئة ثم نقله إلى غيرها، ونقدمه شهادةً حال كونه عاكسًا ضوء الشمس بشكل كامل ومنيرًا به العالم.

وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٤﴾

التفسير: واضح أن الشمس هي التي تأتي بالنهار لا أن النهار يجلّي ضوءها، ولكن حيث إن الكلام هنا من قبيل الاستعارة، إذ المراد من ﴿ضُحاها﴾ ضوء الشمس الذاتي، ولذلك فالمراد من النهار هنا وقوع الأرض أمام الشمس وكشفها لضوئها؛ فإننا حين نستخدم لفظ النهار فلا نعني أن الشمس بدأت تضيء، إذ هي مضيئة في كل حين، وإنما نعني أن أرضنا قد صارت أمام الشمس، فقوله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ يعني: حين تقع الأرض أمام الشمس فتكشف وجهها. أما

قوله تعالى من قبل ﴿ضُحَاهَا﴾ فيشير إلى ضوء الشمس الذاتي، ذلك لأنها مضيئة في كل حال، فسواء ظهرت مشرقةً أمام أهل الأرض أم غابت عنها بسبب الغيوم أو نتيجة دوران الأرض، فهذا لا يؤثر في ضوئها الذاتي، ومع ذلك لا نسمي وقت الليل نهارا، إذ لا يُطلق النهار إلا على الوقت الذي تكون الشمس فيه مواجِهةً بلدَنا، وإن كانت محجوبة عنا نتيجة الغيوم. أما إذا لم تكن مواجِهةً بلدَنا ولم تحجبها غيوم فلا نسمي ذلك الوقت نهارا ولا نقول إن الشمس مضيئة. فثبت أن للنهار مفهومًا غير مفهوم ﴿ضُحاها﴾. إن ضحى الشمس قائمٌ في كل حين، سواء ظهرت لأهل بقعة معيّنة من الأرض أم لا، لأن الضحى يدل على ضوء الشمس الذاتي، أما النهار فيختلف من بقعة إلى بقعة، إذ يطلع النهار في مختلف بقاع الأرض في أوقات مختلفة، لأن المراد من النهار مواجهة الأرض الشمس وإراءها وكشفها ضوءها لأهل بقعة من البقاع.

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٥

التفسير: أي نقدّم شهادةً الليلَ حين تَحجب الأرضُ الشمسَ نتيجة دورانها. ما هو الليل؟ إنما هو تولِّي الأرض عن الشمس وحلول الظلام بها. وحيث إن حلول الليل نتيجةٌ لدوران الأرض، فقال الله تعالى هنا نستشهد بالليل حين يغشى ضوءَ الشمس، وإلا فإن الواقع أن تَولِّي الأرضِ عن الشمس هو ما يُنتِج الليل. وكأن قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إذا جَلَّاهَا﴾ إشارةٌ إلى حالة الأرض حين تواجه الشمسَ وتُجلِّيها للناس، وأما قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ فإشارة إلى حالة الأرض حين تُولّي عن الشمس وتؤدي إلى حلول الليل بحجب الشمس عن أنظار الناس.

إذًا فهذه الآيات تتحدث عن أربعة أمور مختلفة؛ فقوله تعالى ﴿والشَّمْسِ وَضُحاها﴾ إشارةٌ إلى الشمس وضوئها الذاتي، وقوله تعالى ﴿والْقَمَر إذا تَلاها﴾ إشارةٌ إلى القمر وإلى ضوئه الذي يستمدّه من الشمس ويعكسه لنا، وقوله تعالى ﴿والنَّهارِ إذا جَلّاهَا﴾ إشارةٌ إلى الأرض وانعكاس ضوء الشمس عليها، وقوله تعالى

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ إشارة إلى الأرض وحرمانها من ضوء الشمس بسبب دورانها اليومي.

تتميز الشمس بقدرة ذاتية على إضاءة الدنيا، أما القمر فيتميز بتلقِّي الضوء، أي أنه قادر على تلقِّي ضوء الشمس ونقله إلى الآخرين مثل العاكس الذي ينشر ضوء المصباح إلى أماكن بعيدة، وسواء كان القمر منيرا أم لا، إلا أنه مزود بقدرة عكس الضوء واللمعان، فإذا واجه الشمسَ تجلّت ميزته هذه ونقل ضوءها إلى أهل الأرض. وبعد ذكر الشمس والقمر قال الله تعالى ﴿وَالنَّهارِ إذا جَلّاهَا﴾.. أي نقدم شهادةً النهارَ حين يكشف الشمس. ثم قال تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾.. أي نستشهد بالليل حين تختفي الشمس نتيجة دوران الأرض حول نفسها.

الواقع أن هذه الآيات الأربع تشير إلى أربعة عصور مختلفة، فقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ إشارةٌ إلى النبي ﷺ، حيث قال الله تعالى إننا نقدم الشمسَ أمامكم شهادةً. فما لم يُبعث شخص مضيء بنفسه يستحيل أن يتقدم أهل الأرض، خاصة في الزمن الذي يختفي فيه النور وينمحي، لأن الشعلة الخامدة لا توقِد نارًا، والسراج المنطفئ لا يضيء سراجا آخر، والعاكس لا ينفع إلا إذا كان الضوء موجودا. فإنك إذا ركَّبتَ عاكسًا على مصباح مضيء انتشر ضوؤه بعيدا. كذلك إن ضوء المصباح اليدوي الذي يعمل بالبطارية يكون ضعيفًا جدًّا، ولكن العاكس المركّب عليه ينشر ضوءه بعيدا، وإذا أزلته عاد الضوء أقل من النصف. فثبت أن العاكس إنما ينفع إذا كان الضوء موجودا بشكل أو بآخر، أما إذا انطفأ كل ضوء وانمحى كل نور فلا ينفع إلا الشيء الذي فيه ضوء ذاتيّ، ولذلك يقول الله تعالى هنا إننا نقدم لكم الشمس التي فيها ضوء ذاتي والتي هي أول وأكبر الوسائل لتبديد الظلمات.

والوسيلة الثانية للضوء هي القمر حين يكون أمام الشمس، فهو عندها ينير الدنيا بأشعته، فهاتان هما الوسيلتان لانتشار الضوء في العالم. وقد نبه الله تعالى هنا كافري مكة بهذين المثالين بأن هناك شيئين ينوّران الدنيا: شخص يملك نورًا ذاتيا، أما إذا كان نوره قد صار بعيدا عن الناس، فشخص يصبح إزاءه كالعاكس فيتلقى

نوره وينقله للناس. وليس هناك وسيلة ثالثة للضوء والنور. فأمعِنوا النظر جيدا أيها الكافرون لتعرفوا هل تملكون أية وسيلة منهما، وهل عندكم شمس ذاتُ ضوء ذاتي، أي نبيٌّ تشريعي ينفعكم مباشرةً؟ ولا تستطيعون أن تحتجوا قائلين إذا لم تكن عندنا شمس فيوجد فينا قمر يقتبس من نورها فينيرنا. كلا، إذ لا تتيسر لكم أي من الوسيلتين. الوسيلة الأولى أن تكون عند القوم شريعة، ولكن ليس لديكم شريعة نوح ولا شريعة إبراهيم أو أي نبي آخر؛ فماذا تتوقعون، وكيف تقولون إن أنوار آبائكم الخامدة ستنفعكم؟ إن حالتكم تقتضي بعثة نبي تشريعي حتمًا إذ لا توجد عندكم أي من الشرائع، فلزم أن تطلع عليكم شمس الهداية تخرجكم من هذه الظلمات إلى النور. وما لم يظهر فيكم من يحمل ضوءًا ذاتيا فلن تنفعكم هذه المصابيح القديمة المنطفئة.

والوسيلة الثانية للضوء هي القمر، ولكنه إنما ينفع إذا كانت الشمس موجودة ولكنها محجوبة عن أعين الناس، فلو قلتم إننا سننتفع بالقمر فقد كذبتم؛ إذ ليس عندكم أي شريعة حتى يظهر فيكم قمر بدون شريعة.

بعد ذلك قدّم الله شهادةً الأرضَ حين تتسبب في ظهور النهار، ثم قدّم الأرضَ شهادةً حين تُولِّي عن الشمس وتتسبب في حلول الليل على الناس.

والواقع أن هذه الآيات تشير إلى عصرين هامين للإسلام إشارة بليغة جدا، فبقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قد بيّن الله تعالى غرض الإسلام، وأخبر أن محمدا ﷺ شمس ذاتية الإضاءة، وكلما ارتفعت هذه الشمس الروحانية انتشر ضوؤها الذاتي في الأرض. وبالفعل نرى أن هذا القرآن الذي هو بين أيدينا اليوم قد خرج من نفس محمد ﷺ المطهرة المباركة، حيث اختاره الله تعالى لإنزال هذا الوحي العظيم عليه، فوصل إلينا بواسطته. فكل التعاليم القرآنية المفصلة غير المتبدلة التي قدّمها الإسلام، سواء منها ما يتعلق بتزكية النفس أو السياسة أو النظام أو الأخلاق أو الاقتصاد، قد خرجت من صدر الرسول ﷺ ووصلتنا. فكان ﷺ تلك الشمس التي كان ضحاها في حد ذاته دليلا عظيما على صدقه ﷺ سواء آمنت به الدنيا أم لم تؤمن. بل أقول: حتى لو اتخذ الناس القرآن مهجورًا بحجة أن تعاليمه فاسدة تماما،

فإن ضحى الرسول الكريم ﷺ سيظلّ متجليًا في الدنيا ما دام القرآن الكريم موجودا. إن المرء إذا أغلق عليه أبواب غرفته وقت النهار، أو إذا حجبت الأرض الشمسَ عن أنظار الناس نتيجة دورانها اليومي، فإن الشمس تكون موجودة ولا تندثر حتمًا، وإن لم يصل ضوؤها إلى الأرض التي تكون قد استدارت وولّت عنها أو إلى الشخص الذي أغلق عليه باب حجرته وقت النهار. وبالمثل يبين الله تعالى للناس بقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أنه سواء انتفعتم بنور محمد ﷺ أم لا، إلا أن نوره سيظل مشرقًا، وسيأتي يوم يعترف فيه الناس أنه ﷺ كان شمسا روحانية حقًا. فالشمس شمسٌ في كل حال سواء توجهَ إليها الناس أم أعرضوا عنها. لو توجهوا إليها لاستضاءوا من ضوئها، أما لو أعرضوا عنها فلن يضروا هذه الشمس ولا ضحاها شيئًا. لنفترضْ أن الرسول ﷺ لم يؤمن به أحد، فهل يضره هذا شيئا؟ كلا، لأن التعاليم التي أتى بها حول شتى القضايا الروحانية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والعائلية والمدنية والعلمية تدلّ على كونه شمسًا في الواقع. فما دام الله تعالى قد بعثه شمسا روحانية، فلن يضره إذا لم يؤمن به أهل مكة، ولم يصدقه العرب كلهم. لقد كان بإمكانهم أن يقولوا -في هذه الحالة- لم يتولد النهار من هذه الشمس، ولم تقتبس الدنيا منها الضوء، ولكن ما كان لهم أن ينكروا كونه شمسا. إذا أتى المرء بشريعة ربانية جديدة، فقد ثبت منذ اليوم الأول أنه شمس روحانية، وإنْ آمن به الناس بعد ألف سنة. لا شك أنه يجوز لنا في هذه الحالة القولُ إن الدنيا لم تأت أمام هذه الشمس لتضيئها إلا بعد ألف سنة، ولكن لا يجوز لنا القول أن هذه الشمس ليست مضيئة في حد ذاتها. إذن، فقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ يعني أن في محمد ﷺ نورا لا يضره معه إيمانكم به أو عدمه.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾.. أي أنه سيأتي بعد محمد ﷺ رجال هم بمنـــزلة أقماره الروحانية.. بمعنى أن محمدا ﷺ ليس في حد ذاته شمسًا مضيئة فحسب، بل قد خلق الله تعالى أُناسًا يقتبسون من ضوئه في كل زمن وينشرونه في الدنيا. وبتعبير آخر: إن محمدا ﷺ شمس في حد ذاته، كما جعل الله لهذه الشمس عواكس تنشر ضوءها. فكلما أعرضت الدنيا عن الشمس المحمدية لم يتركهم الله

على حالهم، بل أتى بقمر يقف مواجهًا لها فيقتبس ضوءها وينشره في الدنيا لتستنير الدنيا بنوره ثانية.

لو اعتبرنا الشمس والقمر والأرض من جنس الناس على سبيل المجاز، لجاز أن نقول إن الأرض حين تُعرض عن الشمس تمنُّعًا يقول لها القمر أين تهربين مني؟ سأقتبس من الشمس ضوءها وألقيه عليكِ. فكأن الله تعالى يخبر هنا أنه مهما أعرضت الدنيا عن هذه الشمس الروحانية وولّت الدبر عنها، إلا أننا سنبعث أقمارًا يقتبسون الضوء من هذه الشمس، فيبددون به ظلمات الدنيا ويحوّلونها نورا. فلو لم يكن هناك أي قمر وأعرضت الدنيا عن الشمس، لغرقت في الظلام و لم يبق هناك سبيل للنور، لذلك نجد أنه كلما جاء نبي بشريعة إلى الدنيا أعرض عنه أهلها وخيمت عليهم الظلمات، ولكن الله يعلن هنا أن محمدا ﷺ ليس نبيًّا من هذا القبيل، بل هو الشمس التي تتلوها أقمارها. إنه الحبيب الذي يطوف به عشّاقه، فإذا أعرضت عنه الدنيا تمنُّعًا ظهرت أقماره وأنارت أهلها.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذا جَلَّاهَا﴾.. أي أن شمسنا هذه ليست مضيئة في حد ذاتها فحسب، بل سيأتي زمان تقتبس فيه مِن ضوئها الدنيا. والنهار هنا لا يعني عصر حياة النبي ﷺ، بل ما بعد وفاته حين لن تكون هذه الشمس الروحانية موجودة، إلا أن وقت النهار سيذكّر الناس بأنها موجودة ، إلى أن يحلّ الليل ويغطي الناسَ فيدركون ثانية أنه لا بدّ لهم من تلك الشمس لأن البعد عنها خسران وتباب.

لقد نبّه الله تعالى هنا إلى فَرْقٍ يوجد بين الشمس المادية والروحانية. فالشمس المادية ما دامت مضيئة يظلّ النهارُ طالعًا، وإذا غابت عن الأنظار خيَّم الليل، وأما الشمس الروحانية فإنما يزداد ضوؤها بعد غيابها. وهذا يعني أن النهار المادي يطلع ما دامت الشمس المادية مضيئة أمام الناس، أما النهار الروحاني فيكتمل بعد اختفاء الشمس الروحانية عن الأعين. وبالفعل نرى أن القرآن والحديث قد أنارا الدنيا كلها، ولكنهما قد أناراها بعد وفاة النبي ﷺ وغياب هذه الشمس الروحانية عن الأنظار. هذا هو الفرق البيّن بين الشمسين الروحانية والمادية. إن نهار الشمس المادية يطلع عند طلوعها، ولكن نهار الشمس الروحانية يكتمل بعد مغيبها. عندما

تطلع الشمس المادية يبتهج الناس ويفرحون، أما الشمس الروحانية فتهبّ زوبعة من المعارضة عند طلوعها، فما مِن سبٍّ إلا كالوه لها وما من تهمة إلا رموها بها، ولم يألوا وسعًا لمنع ضيائها من الانتشار في العالم، ولكنها حين تغيب عن الأنظار المادية يزداد ضوؤها نصوعًا وانتشارا، ويقول الناس كان رجلا عظيما! وها نحن أيضا نصدّقه ونؤمن به. هذا الأمر نفسه قد أبكى عائشةَ -رضي الله عنها- مرة حتى إنها لم تستطع أن تستسيغ لقمة مِن رغيف صُنع مِن دقيق ناعم. وبيان ذلك أنه لما هزم المسلمون كسرى الفرس وقعت في أيديهم غنائم كثيرة منها طاحونة هوائية تطحن الحبوب طحنا دقيقا، وكان أهل مكة والمدينة قبلها يدقّون الحبوب بالمدقّ اليدوي الذي لم يكن يُنعِّم الطحين، فلما أُعدّ الدقيق الناعم بالطاحونة الهوائية أول مرة أمر عمر ﷺ بأن يُبعَث إلى عائشة -رضي الله عنها- لكي تأكل هي الخبز الناعم قبل أي شخص. فأمرت خادمةً لها لتعجنه وتصنع منه الخبز، فخبزتْ أرغفة ناعمة من الدقيق وقدمتها لعائشة، فأخذتْ لقمة من الخبز الناعم شاكرةً الله تعالى، وما إنْ وضعت اللقمةَ في فمها حتى ذرفت عيناها بالدموع. فقيل لها: ما يُبكيك؟ لماذا يغصّ هذا الرغيف الناعم في حلقك؟ قالت: إن الرغيف لا يغصّ في حلقي لجفافه، وإنما لنعومته. إني لا أبكي ألمًا بل فرحًا. إننا نرفل اليوم في هذه النعم ببركة النبي ﷺ، ولكنه عندما كان بين ظهرانينا لم تكن النار توقد في بيوتنا لأيام، ولم يكن الخبز عندنا إلا من دقيق خشن قد طُحن يدويًا بالمدق الحجري.. ففكّرتُ لو كان النبي ﷺ معنا لقدّمنا له هذه النعمة. لقد أصبحنا نرفل في هذه الخيرات بدلاً منه ﷺ مع أنه لا دوْر لنا في هذه الإنجازات. هذا ما أحزنني، فغصّت لقمة الرغيف الناعم في حلقي.

فالقانون الجاري في العالم الروحاني هو أن النهار يطلع بعد مغيب الشمس عن الأنظار، ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾.. أي نقدّم شهادةً النهارَ حين يجلّي الشمسَ، بمعنى أن الشمس لا تكون عندها أمام الأنظار، ولكن النهار يكون دليلا على أنها طالعةٌ حتمًا. وبالفعل نجد أنه لم يتجلَّ صدق النبي ﷺ ولم ترسخ عظمة الإسلام في القلوب في زمنه ﷺ كما في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

باختصار، هذا هو الفرق بين النهار الروحاني والمادي؛ ففي النهار المادي تكون الشمس طالعةً، أما في النهار الروحاني فتكون قد غابت، ومن أجل ذلك قال المسيح الموعود ؑ في كتيب "الوصية" ناصحًا جماعته وهو يخبرها عن قرب وفاته: "لا تحزنوا لما أخبرتُكم به ولا تكتئبوا، إذ لا بد لكم من أن تروا القدرة الثانية أيضًا، وإن مجيئها خير لكم، لأنها دائمة ولن تنقطع إلى يوم القيامة. وإن تلك القدرة الثانية لا يمكن أن تأتيكم ما لم أغادر، ولكن عندما أرحل سوف يرسل الله لكم تلك القدرةَ الثانية التي ستظلّ معكم إلى الأبد بحسب وعد الله الذي سجلتُه في كتابي "البراهين الأحمدية"، وإن ذلك الوعد لا يتعلق بي بل بكم أنتم، حيث يقول الله ﷻ: "إني جاعل هذه الجماعة الذين اتبعوك فوق غيرهم إلى يوم القيامة." فلا بد من أن يأتيكم يومُ فراقي لِيأتي بعده ذلك اليوم الذي هو يوم الوعد الدائم." (الوصية، الخزائن الروحانية، المجلد ٢٠ ص ٣٠٥)

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.. أي سيأتي على أمتك يا محمد زمان يُعرِضون فيه عن الشمس الروحانية، فيخيّم عليهم الليل بدل النهار. فعوضًا عن أن يتبعوا أحكامك وأوامرك، ينسون مكانتك ويُعرضون عن أوامرك وينغمسون في الملذات متبعين خطوات الشيطان، وعندها نقول لهم لقد نسيتمونا ولكنا لن ننساكم، ومهما صددتم عنا فإنا لن نترككم. فعندما يخيم عليهم الليل وتدعو الدنيا بلسان حالها طلوعَ الشمس، فسوف يُطْلِع الله عليهم قمرًا يقوم مقام الشمس المحمدية فيقتبس من نوره ﷺ وينشره في العالم كله.

باختصار، قد بين الله تعالى في قوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ أن هناك نفوسًا تتحلّى بفضل ذاتي وتضيء العالم، والحقيقة أنها هي القادرة على إصلاح الدنيا حقًا، وهناك نفوس أخرى هي بمثابة القمر، ولا تقدر على هداية الدنيا إلا إذا تَلَتْ شمسَها، أي لا يكون فيها ضوء ذاتي، بل يكون نورها مكتسبًا. وقد استشهد الله هنا بهذين الأمرين ليخبر أن إصلاح العالم لا يتمّ إلا بهذين النوعين من النفوس: النفس الكاملة أو التابع الكامل لها. أما النفس الكاملةُ فمذكورة في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وأما التابع الكامل فمذكور في قوله تعالى

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾. فمن المحال أن يقوم أحد بواجب الإصلاح من دون أن يتصف بإحدى هاتين الصفتين. فلن يقوم بمهمة الإصلاح إلا من كان شمسًا، أي قد خلقه الله تعالى ليأتي بشريعة من عنده تعالى، أو مَن كان تابعا كاملا لصاحب شريعة بحيث يقتبس نوره كليةً ويُتمّ الغرض الذي بُعث متبوعه من أجله. وهذا يعني أن الغرض الأصلي هو الشريعة، فعندما لا تكون الشريعة بألفاظها موجودة في الدنيا ينـــزلها الله تعالى بواسطة النفس الكاملة، وعندما تكون موجودة بألفاظها وغائبة عمليًا ينـــزلها الله ثانيةً إنزالاً ظليًّا على التابع الكامل، فيقوم بمهمة إقامة الشريعة في الدنيا.

وهنا ينشأ سؤال لا بد من الرد عليه وهو: هل مِن الصدفة أن يعطي الله تعالى بعض الأنبياء شريعة ويجعل بعضهم تابعًا لهذا النبي المشرِّع؟ وهل كان ممكنا أن يجعل الله العكسَ فيعطي التابعَ شريعةً ويجعل المتبوعَ تابعًا؟

والجواب: هذا محال. إن صاحب الشريعة وتابعه لا يُبعثان صدفةً، بل يكون كلٌّ منهما مزوَّدًا بكفاءات متفاوتة. وقد بين الله هذا بمثال الشمس والقمر هنا، فأخبرَ أن صاحب القوى الشمسية يأتي أولاً، وصاحب القوى القمرية يتلوه ويأتي بعده لتكميل مهمته.

وهناك استدلال آخر يلقي الضوء على قضية هي مهمة بالنسبة للأحمدية، وهو أن من الممكن أن يكون البعض شمسًا لعصره، ولكنه لا يصلح لأن يكون قمرًا في عصر آخر، كما يمكن أن يكون البعض قمرًا في عصر عظيم، ولكنه لا يصلح لأن يكون شمسًا في عصر أقل شأنًا؛ والسبب اختلاف قدراهم. لقد جعل الله بعضهم شمسًا وبعضهم قمرًا بالنظر لكفاءاهم الفطرية، فمع أن أحدهم يكون قمرًا في زمنه من حيث مهمته، إلا أنه يمكن أن يكون أعظم روحانية من شمسٍ في عصر آخر، ولكنه لا يمكن أن يكون أعظمَ من شمسه، لأن القمر لا يسبق شمسه لاقتباسه نوره منها. إن النار مثلا بمنـــزلة شمس، لأها تشتعل بنفسها ونورها ذاتي غير مكتسب، ولكنها تتضاءل أمام نور القمر؛ فالنار الملتهبة لا تضيء إلا بضعة أقدام حولها، وإذا أخذناها إلى مكان عالٍ فلا يصل ضوؤها بعيدا، بل لو وضعناها في مكان عال جدًّا

جدًّا لم يُر لها وجود وتحولتْ إلى ظلام. وهذا الفرق بين ضوء النار والقمر راجعٌ إلى أن القمر تابعٌ للشمس التي هي أقوى ضوءا من الأضواء الأخرى بحيث إن قمرها يصبح أقوى إنارةً من الأشياء الأخرى ذاتية الإضاءة والتي تكون بمنــزلة شموس لهذه الخاصية.

والحقيقة هي ما ذكره المسيح الموعود ﷺ في كتبه مرارا، فقال إن الله تعالى يختار الشموس من رجال مزوَّدين بملَكات الإقدام والقوة الحربية والاقتدار السياسي، لأنها كفاءات ضرورية لتطبيق الشريعة؛ ومثاله موسى ﷺ حيث كان مزوَّدًا بكل هذه القوى والقدرات. أما الأقمار فيختارها الله تعالى من رجال تغلب عليهم صفات البكاء والابتهال والرفق والنصح، فتكون حياتهم مختلفة دائما عن الشموس الروحانية. فرغم أن كلا النوعين من الأنبياء يقومون بمهمة واحدة، إلا أن عصورهم تختلف اختلافا واضحا بحيث يبدون كشخصين مختلفين. وعلى سبيل المثال قد قام موسى وعيسى عليهما السلام بمهمة واحدة، ولكن دراسة حياتهما تكشف بونًا شاسعًا بينهما. وكذلك لو نظرنا إلى حياة الرسول ﷺ والمسيح الموعود ﷺ لوجدنا بينهما فرقا واضحا؛ إذ كان طابعه ﷺ منذ البداية الإقدام والقوة الحربية وإرساء النظام، أما المسيح الموعود ﷺ فطابعه البكاء والابتهال والرفق، حيث ينصح جماعته دائما ألا يتدخلوا في السياسة، بل ينشروا رسالة الله بين الناس برفق وحبّ. وهذا الفرق يماثل الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر، فمع أن ضوء القمر مستمد من الشمس، إلا أن بينهما بوْنًا شاسعًا، حيث يختلف ضوء الشمس عن ضوء القمر كلية، وهذا ما سمّاه المسيح الموعود ﷺ الجلال والجمال. الشمس تتصف بالجلال والقمر يتصف بالجمال. لا شك أن الشمس أيضا تتصف بالجمال إلى حد ما، والقمر كذلك يتصف بالجلال إلى حدّ ما، إلا أن طابع الشمس هو القوة الجلالية وطابع القمر هو القوة الجمالية. وحيث إنهما طابعان مختلفان فلا يمكن اعتبار كل قمر روحاني أدنى من كل شمس روحانية لمجرد كونه تابعا لشمسه. فلا يصح القول أنه لّما كانت الشمس الروحانية السابقة نبيًّا تشريعيا، فهي أفضل من الأقمار كلها. كلا، إنها لن تُعتبر أعظمَ من الأقمار كلها،

وإنما تُعتبر أكبرَ من أقمارها؛ لأن كل قمر يكون أدنى مِن شمسه فقط، ولكن قد يكون بعض الأقمار أكبر من الشموس الأخرى كلها إلا شمسه. ومثاله أن ضوء النار أضعفُ كثيرًا من ضوء القمر مع أن النار مضيئة في حد ذاتها. وهذا هو الأمر الذي بينه المسيح الموعود عليه السلام في شطر بيت له في مدح الرسول ﷺ:

تیرے بڑھنے سے قدم آگے بڑھایا ہم نے

(آئينه كمالات إسلام، الخزائن الروحانية المجلد ٥ ص ٢٢٦)

أي: يا شمسي الروحانية، لما كنتِ أكثرَ الشموس إضاءةً فإن قمرك أيضا قد سبق الشموسَ كلها نورًا.

وبناء على هذا، فإننا على يقين أن المسيح الموعود عليه السلام أفضلُ درجةً من الأنبياء كلهم إلا محمدا رسول الله ﷺ. لقد رأيتُ أن بعض الناس يقعون في شبهة حول مكانة المسيح الموعود عليه السلام ويقولون: كيف يكون أفضلَ من الشموس الروحانيين؟ فمثلاً كيف يكون المسيح الموعود عليه السلام أفضل من موسى أو غيره من الأنبياء -عليهم السلام- التشريعيين المبعوثين إلى أمم أخرى؟ والجواب أن هؤلاء أنبياء عظام بلا شك، إلا أن هناك فرقًا شاسعا بين هؤلاء الشموس وبين هذا القمر، أعني المسيح الموعود عليه السلام. لا شك أنه قمر، ولكنه قمرُ تلك الشمس التي كانت أشدَّ إضاءةً من جميع الشموس السابقة، فكان لزامًا أن يكون أقوى إنارةً من تلك الشموس. ويمكن فهم هذه القضية بالمثال التالي: هناك ألفُ مصباح لها ألفُ عاكس تعكس ضوءها، وبالمقابل ثمة مصباح واحد يساوي ضوؤه ألفَي مصباحٍ، ولا شك أن عاكس هذا المصباح القوي يكون أقوى إضاءةً من هذه المصابيح الألف. لنفترضْ أن قوة ضوء بعض هذه المصابيح خمسون شمعة، وقوة بعضها مائة شمعة، ومجموع قوة أضوائها هو مائتا ألف شمعة، ويكون إزاءها مصباح واحد تبلغ قوة ضوئه ثلاثمائة ألف شمعة، فلا شك أن عاكسه سيفوق بمفرده أضواءَ المصابيح الألف كلها، وهكذا فإنه يفوق تلك الشموس رغم كونه قمرا.

واعلم أنه قد يكون المراد من الشمس والقمر هنا الأُناس عموما، وقد يراد بهما شمس الإسلام وقمره؛ فإذا أريد بهما شمس الإسلام وقمره فالله تعالى يقصد بتقديم هاتين الشهادتين أن هذين الشخصين سيشكلان دليلا على صدق النبوءة الإبراهيمية، وسيكونان سببًا في جعل مكة مركزا عظيما. وإذا أُريد بهما الأُناس عمومًا، فالمعنى أن الإصلاح يتم بمثل هؤلاء الشخصيات، أما بدونهم فالإصلاح محال، وإذا لم يبعث الله شخصية كهذه الآن لبطلت النبوءة الإبراهيمية.

وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

طحاها: طحا الشيءَ: بسَطه ومدَّه. (الأقرب)

التفسير: يفسّر النحويون "ما" في هاتين الآيتين بمفهومين؛ فبعضهم يرى إنها "ما" الموصولة بمعنى "الذي"، وتقوم مقام "مَن"، والتقدير: والسماء ومَن بناها والأرض ومَن طحاها.. أي أننا نقدّم شهادةً السماءَ ومَن بناها والأرضَ ومَن طحاها. (إملاء ما منَّ به الرحمن، والكشاف)

لقد سبق أن بيّنتُ في تفسير سورة البلد أن القرآن الكريم قد استعمل "ما" بمعنى "مَن" أيضا؛ فمثلاً عندما وُلدت مريم قالت أُمُّها: رَبِّ، كنتُ أريد أن أَلِدَ ابنًا أنذره في سبيل دينك، ولكني قد وضعتُ أنثى، فقال لها الله تعالى في الجواب ﴿والله أعْلَمُ بما وَضَعَتْ﴾(آل عمران:٣٧)، مع أن المفروض بحسب القاعدة العامة أن يقال: "والله أعلم بمَن وضعتْ". كذلك قال الله تعالى للمؤمنين ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾(النساء:٤).. أي لا مانعَ أن تتزوجوا ما تحبّون من النساء: اثنتين أو ثلاثا أو أربعا. والمرأة من ذوي العقول، والأصل أن يُقال: "فانكِحُوا مَن طاب لكم"، ولكن الله تعالى يقول: ﴿فَانْكِحُوا مَا طابَ لَكُمْ﴾. والسؤال هنا: لماذا استخدم الله في المكانين "ما" بدل "مَن"، مع أن "مَن" موجودة في اللغة ولا صعوبه في استخدامها؟

لقد أجاب صاحب "الكشّاف" على ذلك بجواب لطيف، وأراه صحيحا، حيث قال: "وإنما أُوثرتْ على "مَنْ" لإرادة معنى الوصفية"، يعني أن "ما" استُعملتْ هنا مكان "مَن" للإشارة إلى صفة غالبة في المذكور. فالمراد من قوله تعالى ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.. أي أنه تعالى أعلم بأن هذه الأنثى تتصف بصفة الذكور أيضا وعلى أحسن صورة. وحيث إن الصفة تُعتبر من غير ذوي العقول، فذُكرتْ بــ"ما" بدلاً مِن "مَن"، لأن "ما" تُستعمل لغير ذوي العقول، وذلك للإشارة إلى اتصاف هذا المذكور بهذه الصفة بشكل خاصّ. لو قال الله تعالى "والله أعلم بمن وضعت" لكان معنى ذلك أن الله يعلم أنها أنثى، وليس فيه أي إفادة، إذ هو يعلم في كل حين أأنثى هي أم ذكر، ولا داعي لأن يقال للمؤمن بالله تعالى إن الله أعلم بمن وضعت؛ لأنه يعلم مسبقا أن الله أعلم بذلك، ولكن الله تعالى قال هنا ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، للإشارة إلى أن أمّ مريم لا تعرف بما تتصف به بنتها من صفات عظيمة خارقة، إلا أن الله تعالى يعلمها، فاستخدم الله كلمة "ما" للإشارة إلى صفات مريم وقدراتها. أما لو قال الله تعالى (والله أعلم بمن وضعت) لكان المعنى أن الله يعلم أنها أنثى. فقول الله تعالى لأم مريم ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يماثل المثل القائل: "عِشْ رَجَبًا ترى عَجَبًا".. أي عندما تكبر هذه البنت ستعرفين كم هي عظيمة. وكأن قوله تعالى ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ نبوءةٌ، أما لو قال الله تعالى "والله أعلم بمن وضعت" لكان مجردَ ذِكْرِ حدَثٍ.

كذلك فقوله تعالى ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ إشارة إلى فطرة الرجال بأنهم يتزوجون بدافع العواطف في معظم الأحيان، فلا ينظرون إلى المرأة نظرة شمولية، بل يتزوجونها بسبب صفة غالبة فيها، فكم منهم يتزوجها لجمالها غاضًا النظر عن نسبها، وغير مبال ما إذا كانت ستجلب الضرر لوالديه أو لأسرته أم لا؛ إنما يعشق جمالها فيتزوجها. وكثير منهم يتزوجونها لمالها، أو لنسبها العريق وأسرتها الكبيرة، أو لتعليمها العالي، أو لشهرة أخلاقها الفاضلة. باختصار، إن الرجل يتزوج المرأة لصفة غالبة فيها؛ فقوله تعالى ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ يبين أننا نعلم أنكم لا تتزوجون النساء آخذين في الحسبان كلّ ما فيهن من إيجابيات

وسلبيات، بل تعجبكم منهن الصفة الغالبة فيهن من حُسْنٍ أو مال أو نسب أو صيت أو خُلق أو دين. إذن، فهذه الآية تشير إلى فطرة الرجل بأنه لا يتزوج المرأة، بل كأنه يتزوج صفة غالبة فيها. وهذا ما قاله الرسول ﷺ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ (البخاري،كتاب النكاح). فهذا الحديث أيضًا يبين أن الرجل يتزوج المرأة معجبًا بصفة غالبة فيها، ولكن الرسول ﷺ يوصيك أنك ما دمتَ ستتزوجها لصفة غالبة فيها فعليك بأن تتزوجها لدينها.

إن مِن أعظم محاسن اللغة العربية أنها تبين معاني واسعة جديدة بتغيير بسيط في الكلمات، ولذلك أنزل الله وحيه الأخير بهذه اللغة. والواقع أنه تغلب على المرء أحيانًا صفةٌ تخفي صفاتِه الأخرى كليًّا. كانت أم مريم -عليها السلام - تراها مجرد بنت، ولكن الله تعالى كان يرى فيها صفتها المريمية. كذلك أحيانًا ينسى الرجلُ المرأةَ ككل غاضًا الطرف عن كل ما يتعلق بها، فيُعجَب بحسنها أو نسبها أو بادرة من بوادرها، فتصبح "ما" بدلاً مِن "مَن".

باختصار، حينما لا يريد القرآن التركيز على ذات الشيء بل على صفة غالبة فيه فإنه يستعمل "ما" بدل "مَن"، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. تنبيهًا إلى أنه تعالى هو الصانع المبدع.

أما الذين لا يقبلون هذا المعنى فيقولون أن "ما" هنا مصدرية، ومنهم قتادة والمبرد والزجاج، إذ يرون أن "ما" لا تُستعمل لذوي العقول، بل تكون مصدرية في كل مكان. (البحر المحيط)

وإذا اعتبرناها هنا مصدرية فالمعنى: نُقسِم بالسماء وبصنعها.. أي نقدّم أمامكم صنع الله شهادةً. وكأن المعنى هو نفس المعنى السابق، ولكن التركيز هنا على الصنعة. أما بحسب القول الأول فعلى الصانع.

باختصار، إذا اعتبرنا (ما) بمعنى (مَن) فالمراد أننا نقدم أمامكم شهادةً السماءَ وصانعَها الذي يُذهَل المرءَ برؤية صنعته وتتجلّى له عظيم قدرته وجبروته ﷻ. فلأن التركيز هنا على صفة الله "الصانع" وعلى صنعةٍ له وهي "السماء" ورفعتها ومنافعها

من بين صنائعه الكثيرة في الكون، فقال الله تعالى ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾، ولم يقل "ومَن بناها".

كذلك لو اعتبرنا ﴿ما﴾ مصدرية في قوله تعالى ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ فالمعنى: نقدّم الأرض وانبساطها شهادةً. أما إذا اعتبرنا ﴿ما﴾ بمعنى "مَن" فالمعنى: انظروا إلى الأرض وإلى مَن بسطها؛ حيث تدل على عظيم صنعته؛ ذلك أن كثيرا من الكواكب لا تصلح لعيش الإنسان فيها، فبعضها يفتقر إلى كمية الهواء اللازمة لحياة الإنسان والكافية لدخول رئته، وبعضها يكون فيه الهواء ولكنه ملوّث لا يصلح لحياة الإنسان، وبعضها لا يمكن استقرار الإنسان عليه إذ لا يستطيع المشي عليه بل يسقط فورا ويهلك. فكأن الله تعالى أشار بقوله ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ إلى إبداع صنعه هذا، وقال ألا ترون كيف جعلنا الأرض صالحة لعيشكم عليها. لا شك أنها منّةٌ إلهية عظيمة عليكم.

لقد رأيت أن بعض الناس يظنون خطأً أن كل أرض صالحة لعيش الإنسان، فيحتارون حين يقرءون في القرآن الكريم كلمات تشيد بهذه الصنعة الربانية المتقنة بأنه تعالى جعل الأرض صالحة لعيش الإنسان عليها، ويقولون ما الفائدة من هذا الذكر؟ سنعيش على الأرض؛ إن لم تكن هذه فغيرها. وقولهم هذا يدل أنهم يجهلون حقائق علم الفَلك تماما. فقد أثبتت البحوث الحديثة أن ليس كل كوكب صالحا لعيش الإنسان، بل هناك كواكب إذا وصل الإنسان إليها مات في لحظات. والقرآن الكريم هو أول مَن كشف هذا الأمر، مما يدل على أنه كلام الله تعالى. لقد نزل القرآن على شخص أُميّ، وفي وقت كان علمُ الفلك فيه محدودا جدا، وما كان بوسع الإنسان اكتشاف مثل هذه الأسرار، ولكن الله تعالى كشف هذا السرّ اللطيف في ذلك العصر بقوله ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. أي ليس كل أرض صالحة للعيش، فإذا رأيتم الأرض فأمعِنوا النظر في هذه الصنعة البديعة لهذا الصانع العظيم؛ حيث جعل الأرض صالحة لعيشكم وهيأ لكم فيها أسباب العيش كلها.

لقد اختُرع جهاز المطياف (جهاز مقياس الطيف) قبل سبعين سنة فقط، وكانت الدنيا قبل اختراعه تجهل الحقيقة التي ذكرتها آنفًا. وباختراع المطياف اكتشف

الفلكيون أن ليس كل كوكب صالحًا لعيش الإنسان عليه. لقد قاموا بتحليل ضوء كل كوكب بالمطياف وعرفوا ما فيه من عناصر ومعادن، وعرفوا عن فضائها ومناخها، وبناء على هذه المعلومات توصلوا إلى أن ليس كل كوكب صالحا لعيش الإنسان. بينما قال الله تعالى قبل اختراع المطياف بثلاثة عشر قرنا ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. أي أمعِنوا النظر في صنعنا هذا، فقد جعلنا الأرض صالحة لعيشكم عليها. لا يسعكم القول أن هناك أراضيَ مثلها، بل ستضطرون إلى القول أن هذه هي الأرض الوحيدة التي قد خلقها الله خصيصا لعيش الإنسان وازدهاره عليها. وكأن الله تعالى ينبه هنا إلى أن مِن صفته أنه كلما خلق شيئًا هيّأ له مناخه المناسب، فكان من المحال أن يخلق الإنسان ثم لا يجعل الأرض صالحة لعيشه عليها، أو أن يخلق الإنسان بحيث لا يستطيع الانتفاع من الأرض. هذا بعيد عن عظمة الله وصنعه. إذن فكأن الله تعالى يدعونا في هذه الآيات إلى التدبر في صنعه العظيم المتجلي في السماوات والأرض قائلاً: نقدّم أمامكم السماءَ وصَنْعَها، والأرضَ وانبساطها. انظروا إلى السماء ورفعتِها والأرضِ وقابليتِها لعيش الإنسان فيها، وستدركون أن الشخص الذي تؤيده شهادات السماء والأرض لا يمكن أن يكون كاذبا، أو كيف يمكن أن يخلق هذه السماء خلقًا محكَمًا معقّدًا ويجعل الأرض صالحة لعيش الإنسان عليها، ومع ذلك تكون هذه الصنعة عبثًا فلا يكون لخلق الإنسان أي غاية. ألا تروْن أن الله تعالى قد خلق الأرض خلقًا خاصا دون الكواكب الأخرى التي يستحيل أن يعيش الإنسان أو يتنفس أو يمشي عليها، بينما خلق الأرض صالحة للناس، فيتنفسون فيها، وتعمل فيها عقولهم بكفاءة، ويسدون مما فيها كل حاجاتهم، ولولا ذلك لما كان من الممكن أن تعيش عليها الحيوانات الأخرى ولا أن يعيش عليها الإنسان لوجود مختلف الغازات في جوها. لما كان الإنسان بحاجة إلى مناخ ينمو فيه عقله ويتطور فقد زوّد الله الأرض بما يساعده على العيش عليها وعلى التطور عقليًا بلا معيقات.

بضرب مثال السماء والأرض هنا قد نبهنا الله تعالى إلى أنه ما دام قد خلق هذا الكون الهائل وسخر كلّ شيء فيه لخدمة الإنسان، فكيف يمكن أن يخلقه بلا

حكمة ولا غاية. إن خلق الله السماءَ بإتقان من ناحية، ثم بَسْطَه للأرض لتكون ملائمة لعيش الإنسان عليها، وضبط النواميس الطبيعية في نظام واسع هائل.. لدليلٌ على أنه تعالى لم يخلقها عبثًا. كأنما يقول الله تعالى للناس إنكم لا تعتبرون أعمالكم وأشياءكم تافهةً وعبثًا مهما كانت عادية وبسيطة في الواقع، فكيف تعتبرون نظام هذا الكون الهائل عبثًا؟ لا بد لكم من الاعتراف أن الله تعالى كان قد خلق الكون لغاية عظيمة، وكان لا بد أن تظهر مشيئته هذه يومًا، وتتحقق الغاية التي من أجلها خلق نظام السماوات والأرض. فما دام الله تعالى قد زوّد السماء بالرفعة والفيوض والبركات المادية في العالم المادي من جهة، وجعل الأرض صالحة لعيش الإنسان عليها وتطوُّرِه عقليا من جهة أخرى، فكيف تتصورون أنه يهتم براحتكم الجسدية ولا يهتم براحتكم الروحانية؟ وكيف يمكن أن يخلق لمنافعكم المؤقتة هذا الكون الهائل ولا يقيم لمنافعكم الأبدية أي نظام؟ كلا، فإن الله الذي لم يهمل احتياجاتكم الجسديّة لن يهمل حاجاتكم الروحانية. لو تفكرتم في السماوات والأرض بموضوعية لعلمتم أن الله الذي قد هيّأ هذه الأسباب الكثيرة لراحة أجسادكم لا بد أن يهيئ ما يساعد على ارتقائكم الروحاني، لتعيشوا عيشة روحانيّة هانئة، ولا بد أن يجعل الأرض صالحة لعيشكم روحانيا كما جعلها صالحة لعيشكم جسديا، وإلا لقيلَ أنه اهتمّ بالجسد ولم يهتم بالروح، وهيأ الأسباب للرقي المادي دون الرقي الروحاني، وهذا يتنافى مع صفات الله تعالى. الواقع أن الله تعالى قد أقام إزاء النظام المادي نظاما روحانيا أيضا، وهيأ الأسباب لارتقاء الروح كما هيأها لارتقاء الجسد، ولكن الإنسان الجاهل ينظر إلى الماديات ويغضّ الطرف عن الروحانيات، مع أن من المحال أن يجعل الله الأرض صالحة لعيش الإنسان جسديا ولا يدبّر لعيشه عليها روحانيا. فإما أن يدّعوا أن الأرض ليست صالحة لعيش الإنسان ماديا، وهو ادعاء باطل حتمًا، أو أن يعترفوا بأنها صالحة لعيشه روحانيا أيضا. وبالفعل سترى الدنيا أن الذين يعارضون الإسلام اليوم سيسارعون لقبول سيادة محمد ﷺ غدًا، ومهما سعى الأعداء لمنع الناس من تصديقه إلا أن الفطرة الإنسانية مجبولة على الخير، وهذا الخير الفطري سوف يدفعهم للإيمان بمحمد ﷺ في النهاية. فكما أن

الأرض لا تقدر أن تظل في معزل عن فيوض السماء، كذلك يستحيل أن تبقى القلوب الإنسانية في معزل عن وحي السماء. ستتأثر به حتمًا في يوم من الأيام ليتم التشابه بين النظام المادي والروحاني.

والمفهوم الثاني لهذه الآية أن عليكم التفكر في السماء والأرض لتدركوا أن السماءَ خُلقتْ للإفاضة والأرضَ خُلقتْ للاستفاضة من فيوض السماء بالتوجه إليها، لذا فمن المحال أن تظهر منكم أيّة محاسن من دون قبول هذا الشخص النوراني السماوي.. محمد رسول الله ﷺ؛ لأن عمل السماء لا يقوم به إلا السماء، وليس للأرض بد من أن تتوجه إلى السماء وتتقبل فيوضها لتنال الحياة. علمًا أن كلمة السماء في القرآن لا تعني هذا الجو الذي هو فوقنا، بل تعني كلّ النجوم والأجرام والأضواء وغيرها. فالله تعالى يقول هنا للكافرين: كما أن الأرض لا تنفع شيئا من دون السماء، كذلك لا يمكن أن تتحلّوا بأي محاسن من دون محمد رسول الله ﷺ، وكما أن الأرض لا يسعها رفض فيوض السماء، كذلك لا يسعكم رفض فيوض محمد الروحانية، فأنّى للأرض أن ترفض ضوء الشمس إذا ما تقابلتا؟ كلا، بل لا بد لها أن تستضيء من ضوء الشمس، كذلك ما دام محمد قد ظهر فلا يسع الدنيا إنكاره فترة طويلة، بل ستؤمن به في نهاية المطاف حتمًا. وقد جاء شرح هذا الموضوع في الآية التالية.

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

سوّى: سوَّى الشيءَ تسويةً: جعَله سَوِيًّا، تقول: سوَّيتُ المعوجَّ فما استوى. وسوّاه: صنَعه مستويًا. (الأقرب)

التفسير: لهذه الآية أيضا مفهومان كالآية السابقة؛ أولهما أننا نقدم شهادةً النفسَ الإنسانية ومَن جعلها معتدلةَ القوى، إذ التسوية إزالةُ عوج الشيء وجعْلُه معتدلا. لقد بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنه جعل الأرض صالحة لعيش الإنسان،

أما الآن فبيّن أنه قام بتسوية نفس الإنسان وزوّدها بقوة الاعتدال فالارتقاء. يقول الله تعالى إن في أنفسكم شهادةً أننا قمنا بتسويتها مثلما بسطنا الأرض ومهدناها، ولولا ذلك لجاز لكم القول إن مثال الأرض لا ينطبق عليكم، فما دامت النفس الإنسانية مزودة بقدرة الارتقاء بعد الاعتدال فلا يجوز لكم أن تدّعوا عكس ذلك؛ فإن النفس الإنسانية نفسها شاهدةٌ على أنها بحاجة إلى نور السماء كما أن الأرض بحاجة إلى ضوء السماء. تلاحظون دائمًا أنه إذا انقطع مطر السماء طويلاً فَقَدَت الأرضُ خضرتها ونضارتها، وذبلت أشجارها، وجفّت مياهها، فنفس الأرض التي كانت تسرّ الأعين بنضارتها وطراوتها تصبح لطول انقطاع مطر السماء قفرًا ويبابًا يستوحشها الإنسان. هذا هو حال العالم الروحاني أيضا؛ فإذا لم ينـــزل ماء وحي السماء لفترة طويلة يبست كل زروع الروحانية وانتهت خضرتها، وتوقف الارتقاء العقلي أيضا، وعندها ينكشف للعيان أن القلوب الإنسانية وثيقة الصلة بالوحي كما أن الأرض وثيقة الصلة بالسماء. الواقع أن السماء إذا لم تقم بتنقية الهواء على الأرض لاستحال عيش الإنسان عليها؛ لأنه لو اجتمع الهواء الفاسد الذي تلفظه الرئة من خلال التنفس اضطر الإنسان لأن يتنفس هذا الهواء الفاسد مرة تلو أخرى، ولكن الله تعالى قد جعل قانونًا طبيعيًّا يرتفع به الهواء الساخن ليأخذ مكانه هواء بارد نقي من الشوائب الضارة. فمثلاً لو كان في مكان مغلق ١٥٠٠ شخص ولم يرتفع الهواء الذي تنفسوه ليحلّ مكانه هواء نقي، لماتوا في دقائق، ولكن بسبب هذا القانون الرباني لا يشعر أحد أنه يفسد الهواء بأنفاسه وأن السماء لا تبرح تقوم بتنقية الهواء الفاسد أولاً بأول. الواقع أنه يجتمع أحيانًا أناس أكثر من اللازم في مكان مغلق ومع ذلك لا يتضررون بتنفسهم، لأن السماء تأخذ الهواء الذي يلوثونه فيتيسر لهم الهواء النقي للتنفس. مما يدل على أن الأرض لا يمكن لها فعل شيء مستغنيةً عن السماء.

والآن أخبر الله تعالى أن النفس الإنسانية أيضا مزودة بشتى القوى مثل الأرض؛ إذ يوجد في الإنسان طموح للتقدم وعطشٌ للصدق وندامةٌ على الخطأ وتوْقٌ لمعرفة كُنْهِ كل شيء. فبمجرد أن يصبح المولود الصغير قادرا على الكلام يبدأ بإزعاج

الوالدين من كثرة السؤال، فيقول: ما هذا؟ وما ذاك؟ فإذا رأى مصباحا قال ما هذا، وإذا رأى قطًّا سأل ما هذا، وإذا رأى كلبا قال ما هذا؟ وكلما رأى شيئا جديدا سأل أمه أو أباه عنه حتما. لقد أُلِّفتْ في أوروبا مجلدات تحتوي أجوبة على أسئلة الصغار كهذه. إنهم يقولون إن الزمن الحقيقي لنماء عقل المولود هو زمن كثرة أسئلته، ولكن الآباء لا يعرفون الأجوبة الصحيحة لأسئلته فيُلْهُونه عن هذه الأسئلة بالحديث عن أمور أخرى، فإذا سأل عن الكهرباء مثلاً فلا يعرف كل شخص الجوابَ، فكثير منهم يسكتون عند سؤاله أو يُحاولون إسكاته قائلين إنك لا تعرف هذا، إنه مصباح مضيء. ولأن الآباء لا يعلمون الأجوبة الصحيحة لمثل هذه الأسئلة فقد ألَّف الغربيون كتبًا تبيّن هذه الأمور العلمية العظيمة بكلمات بسيطة، ليتمكن الآباء من الرد على أسئلة أطفالهم ردًّا صحيحا مفهومًا بسهولة.

ثم إن من عادة الطفل أنه يأخذ في البكاء إذا قلتَ له شيئًا خطأ، فإذا قلت لطفلك عن الخبز مثلاً إنه ليس بخبز، صرخ وبكى، أو إذا كان مريضا وقلت له أنت لست مريضا، بكى أيضا؛ ذلك لأنه يحب بفطرته أن يقال له القول الحق. كذلك من عادة الطفل أنه إذا أُعطي لعبة كسَرها بعد قليل، ذلك لأنه يريد أن يعرف كُنْهَها وحقيقتَها، وعندما لا يعرف كنهها بشكلها يظن أن كُنْهَها داخلها، فيكسرها بحثًا عن حقيقتها، ثم يأخذ في البكاء أيضًا؛ وعندما يرى الكبار هذا المشهد يقولون لقد كسرها بنفسه فلماذا أخذ بالبكاء الآن! إنهم لا يدرون أنه يبكي لأنه لم يجد بداخلها شيئا مع أنه كسرها ليعرف كنهها وما بداخلها. إنه لا يبكي لكسر اللعبة، فقد كسرها بنفسه، ولكنه كسرها لمعرفة حقيقتها، وعندما لم يدرك حقيقتها أخذ بالبكاء. إنه يفكر أنه قد ضيع اللعبة و لم يعرف حقيقتها أيضا.

ثم عندما يكبر يصبح مشغوفا بشتى العلوم. والحق أن كل طفل يولع بعلمٍ يناسب مزاجه وطبيعته، فبعض الأطفال عندما يخرج من البيت يمرّ على حدّاد فيقف عنده ويراه كيف يعمل، وبعضهم يمر على النجار أو البنّاء وغيرهما، فينظر إلى عمله باهتمام بالغ، وبالتالي يحب بعضهم بحسب مزاجه الحدادة وبعضهم النجارة وبعضهم البناء وغير ذلك من أعمال. عندنا خادمة ابنُها يحب أن يكون ناسخا

للكتب عندما يكبر، ويبدو أنه قد رأى ناسخا وهو يكتب كتابة جميلة، فقرر هذا الطفل أنه سيكتب مثله كتابة جميلة عندما يكبر.

إن من أكبر أسباب الدمار في بلادنا أن الآباء لا يراعون مزاج أطفالهم وطبائعهم، فيُجبروهم على مِهنٍ لا تناسب أمزجتهم ولا يرغبون فيها، فلا يحرزون في عملهم تقدمًا رغم أنهم ينفدون أعمارهم فيه. من واجب الوالدين أن يهيئوا العمل للأولاد بحسب مزاجهم وطبائعم، أو يربّوهم منذ الصغر بحيث يكونون قادرين على القيام بأعمال يريدونها لهم. ولكن الآباء في بلادنا لا يربون الأولاد تربية تؤهلهم للقيام بأعمال يريدونها لهم، كما لا يراعون مزاج الأولاد وطبائعهم ورغباتهم عند اختيار العمل لهم، فيصبح الولد بين رغبتيْن متناقضتين؛ فإذا كبُر كان في حرب نفسانية، لأن طبعه خلاف ما أُعطيَ من عمل، فيصبح بليدا. هناك طريقان اثنان فقط لإصلاح الأجيال القادمة ورقي الأمم، فإما أن نصلح مزاج أولادنا بالوعظ والنصح فيفكروا منذ الصغر مثل تفكيرنا، ويرغبوا فيما نرغب فيه، أما إذا تركناهم أحرارا ولم نسعَ لخلق المزاج الصحيح الملائم لرغباتنا فالخيار الثاني هو أن نراعي مزاجهم فيما يختارونه من عمل أو حرفة، فإذا كان أحدهم يريد أن يكون مهندسا فلنسمح له بذلك، وإذا كان يريد تعلُّم الطب فلنجعلْه طبيبا، وإذا كان يحب التدريس فلا نمانع من أن يكون معلِّما، ذلك لأننا لم نسعَ أن نخلق فيه شخصيتنا، والآن لو رفضنا مزاجه الشخصي فمَثَلُنا كمَثَلِ طفل يشتري لعبة ثم يكسرها، ومع ذلك لا يدرك كنهها، وسنُعتبر في هذه الحال ممن ضيّع فردًا أو جزءًا نافعًا للأمة.

ثم إننا نرى أن شغف الإنسان بمعرفة شتى العلوم يزداد لدرجة أنه يحاول أحيانًا البحث عن طرق معرفة الغيب بعقله. كم أحرز الغرب من تقدم علمي حتى إنهم أنكروا الله تعالى وتركوا الدين كلية، ولكن من ناحية أخرى قد بلغ بهم الحمق أن أحدًا لو قال إنه يعلم أخبار المستقبل برؤية الكف جلسوا أمامه مادين إليه أيديهم ليخبرهم عما يخفي لهم المستقبل، وبينهم كبار البروفيسورات والمحامين والأطباء والمهندسين. وهذا يبين أن الإنسان بفطرته يريد معرفة حقيقة العالم وسرّ الكون.

لقد أنكر هؤلاء الله تعالى مغرورين بعلمهم الباطل، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على ما يوجد فيهم من عطش فطري للبحث عن مصدر هذا الكون. إن مَدَّ المرء كَفَّه إلى الآخرين حُبًا لمعرفة الغيب لدليلٌ على أنه لا يجد الطمأنينة من هذا العالم المادي، ولذلك يظل دائم القلق للحصول على علم ما وراء الطبيعة. وهذا العطش الفطري يدفعه إلى طريق مرةً وإلى آخر مرةً أخرى. فيعكف بعضهم على قراءة الكفّ، وبعضهم على أوراق اللعب، وبعضهم على النظر في النجوم، وبعضهم على وضع الخطوط على الأرض، وبعضهم على ضرب حبات السبحة، فإذا خرجت الحباتُ وترًا تفاءلَ بالنجاة، وإذا خرجت الحبات شفعًا تشاءمَ، بينما ينهمك بعضهم في إلقاء القرعة، وبعضهم في رمي الأزلام والسهام.

باختصار، كل إنسان يرغب في معرفة أسرار الكون بغض النظر عما إذا كان الطريق الذي يختاره لذلك صحيحا أم خطأ. لقد ذهبتُ إلى كراتشي مرة فعرفتُ أن سعر القطن أخذ يرتفع في السوق، مع أنه لم يكن هناك آثار لارتفاعه مطلقا، ولكن الأسعار ارتفعت فعلاً عكس المتوقع، فسألتُ الناس عن سبب ذلك فقالوا: أن ناسكًا هندوسيا جاء هنا مِن أمْرِتْسَر، فسأله التجار عن أحوال المستقبل، فقال: سيرتفع سعر القطن، فأخذ التجار كلهم يشترون القطن، فارتفع سعره. وحيث إن السعر ارتفع بدون أي سبب حقيقي وراءه، فلم يدُمْ الأمر إلا أيامًا، حيث انخفض سعر القطن جدا حتى أفلس كثير من التجار. ذلك أن القاعدة الطبيعية لارتفاع سعر بضاعة ما أن يكون العرض قليلا والطلب كثيرا، أما إذا كانت البضاعة كثيرة وصار الطلب عليها كثيرًا لسبب عابر، فإن ارتفاع سعرها يكون مؤقتا، ولذلك أصيب كثير من التجار في كراتشي بالكساد نتيجة الارتفاع العابر في سعر القطن، لأن أصحاب المصانع من مومباي ونيويورك ولانكاشاير رفضوا شراء القطن بهذا السعر.

كان من الحمق والغباء أن يستطلعوا أخبار المستقبل من ناسك هندوسي ثم يعملوا بما أخبرهم من باطل، وقد ارتكبوا هذه الحماقة لأن الإنسان يريد معرفة الغيب بطريق أو آخر، فيختار لذلك أحيانا طرقًا حمقاء مذهلة.

باختصار، إن من فطرة الإنسان البحث عن أسرار الكون، ومهما كانت هذه العلوم التي يلجأون إليها باطلة إلا أنها شهادةٌ قاطعة على أن في الإنسان عطشًا فطريًّا لمعرفة ما وراء الطبيعة، فلا يقر له قرار بدونها، فيولع بمختلف البحوث العلمية المادية، فحينًا ينقِّب في عالم الفلك، فيقوم بتحليل الأضواء والنظر في مجرى النجوم سعيًا لمعرفة أحوال المستقبل. ثم يتوجه بعضهم إلى الأرض فينقّب عن مختلف المعادن بحثًا عن الكنوز والخزائن من مناجم البرونز والحديد والذهب والفضة وما إلى ذلك. وبعضهم ينهمك في البحوث لمعرفة خواص النبات والعقاقير والمعادن لاستعمالها كدواء. وبعضهم يحاول السيطرة على الهواء والماء والكهرباء والنار والدخان. وبعضهم يسعى ليسيطر على الجن، فلو قال له أحد كذبًا إنه كاد أن يسيطر على الجن بقراءة وِرْدَ كذا، جُنَّ جنونه للسيطرة على الجن ويقول في نفسه إذا كان هذا لم يتمكن من السيطرة على الجن، فأنا سأسيطر عليهم، فيجلس في ميدان ويعمل حوله خطوطًا ويردد كلمات ظنًّا منه أنه سيجعل الجن في قبضته بهذه الطريقة. والبعض يخدع الناس بقوله إن لديه علم الكيمياء الذي كاد يحوّل به التراب ذهبًا★. فلو كانت التطورات المادية الحاصلة في الدنيا كافية للإنسان لما انشغل العاقل والجاهل في هذه الجهود. لماذا نرى عُقلاء أوروبا مشغولين في هذه الجهود مثل جهال الهند؟ هذا يدل دلالة واضحة أن العلوم المادية البحتة لا تجلب الطمأنينة لقلب الإنسان، بل يريد الإنسان البحث عن معرفة ما وراء الطبيعة.

باختصار، إن هذه الجهود المبذولة للتنقيب عن كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم المادي دليل على أن في الإنسان رغبة فطرية عارمة في البحث عن قُوة عُليا، إلا أن هذه الرغبة تختفي أحيانًا تحت العقل اللاشعوري نتيجة الأعباء المادية. أعني أن الإنسان يختفي عنه أحيانًا أن الله موجود وأنه خالق الكون، ولكن جهوده هذه تدل على أنه يبحث عن الله تعالى من حيث لا يدري. لقد لوحظ أن الإنسان يحاول في

★ هذا ما كان يُعرَف تاريخيًا بحَجَرِ الفلاسفة، حيث اعتُقد أن هناك تركيبة كيميائية يمكن أن تحوِّل المعادن الرخيصة إلى ذهب. (المترجم)

حالة اليقظة كبت ما يختلج في قلبه من أفكار، ولكنه حين يخلد إلى النوم تظهر أفكاره هذه عبر هذيانه أحيانا. فمثلا هناك كثير من السارقين الذين لا يعرف الناس عن سرقاتهم شيئًا، ولكنهم يخافون طوال النهار أن يعلم أحد بما فعلوا، فيهذون في نومهم؛ فيقول بعضهم مثلاً: لا تذهبْ في تلك الزاوية من البيت لأن فيها أموالي، أو يقول: حذار أن تعلم الشرطة بهذا الأمر، أو يقول: لقد سلبتُ فلانًا، فيعرف الناس فورا أنه هو السارق؛ وبعد تحري الأمر يجدون عنده المسروقات. كذلك يسيطر بعض القتلة على نفسه في حالة اليقظة ولكنه يهذي وقت النوم فيقول مرة: ها قد جاءت روح فلان، وتارة يقول: لماذا تضربونني؟ اعفوا عني، فإني لن أعود لمثلها أبدا، فيسمع الجيران هذيانه ويعرفون أنه هو القاتل.

إذن، يكون في العقل الباطن للإنسان حقائق وأسرار كثيرة خفية، وعندما يغفل عقله الشعوري يكشف عقله الباطن هذه الحقائق والأسرار للناس، وكما أن المجرمين يبوحون بكثير من أسرارهم خلال النوم أو الأحلام أو تحت تأثير التنويم المغناطيسي، كذلك كثير من الناس ينكرون وجود الله في الدنيا، ولكن أحوال حياتهم تكشف ما في عقلهم الباطن من أسرار وكيفيات عن الله تعالى. إنهم يظنون أنهم قد نجحوا في محو رغبة البحث عن كائن خفي من قلوبهم، ولكن أحوالهم تكشف بجلاء أنهم فشلوا في ذلك، كل ما في الأمر أنهم نجحوا في كبْت هذه الرغبة مؤقتا، وليس على الدوام. وحيث إن هذه الرغبة تظل في العقل الباطن في معظم الأحيان فلا يقرون بوجودها، إنما مَثَلُهم كمثل الطفل الذي لم يدرك كُنْهَ لعبتِه فكسرها، فهؤلاء أيضا ينكرون وجود الخالق مَلَلاً وضجرا، فيقولون لقد خُلق الكون بنفسه. فما أكثرَ ما نرى أن الطفل حين يكسر لعبته يقول إخفاء لندمه: لا أريد هذه اللعبة. والحق أنه يعبر بذلك عن غضبه وملله وضجره؛ إذ إنه كسر اللعبة لمعرفة كنهها ففشل. وهذا هو حال الملحدين أيضا، فإنهم ينكرون وجود البارئ تعالى إخفاءً لندمهم، وإلا فإن الشهادة على وجوده تعالى موجودة في عقلهم الباطن، حيث يبحثون عنه هنا وهناك، ولكنهم حين لا يجدونه ينكرونه، ويقولون: نحن لسنا بحاجة إلى أي إله، شأنَ الطفل الذين يقول: لا أريد هذه اللعبة. تقول الأم

لطفلها أحيانا على سبيل المزاح: لن أعطيك كذا، فيقول الطفل عابسا: وأنا لا أريده، ثم يمدّ إليه عينه طمعًا في اقتنائه، كذلك حال الإنسان فإنه يقول في بعض الأحيان إخفاءً لندمه: لستُ بحاجة إلى أي إله، ولكن قوله هذا لا يشفي غليله، إذ إن جهوده نفسها دليل على بطلان استنتاجه هذا. الواقع أن قول المرء عن شيء أنه وُجد بنفسه يعني أنه قد بلغ منتهى هذا الشيء، فمثلاً لو أن أحدًا مشى على ضفة نهر مسافة ميلين فقط، ثم ادعى أنه لا منبع لهذا النهر، فلا شك أن قوله يكون دليلا على حمقه، لأنه لو ظل يمشي لوجد منبعه في النهاية، كذلك من الحماقة أن يقول المرء قبل معرفة السبب النهائي لوجود الكون أن لا خالق له، إذ لا يمكن التوصل إلى هذه النتيجة إلا بعد معرفة منتهى الأسباب لا قبله. ولو كان استنتاجه هذا صحيحا فكان ينبغي أن يتوقف عن المزيد من التحسس والبحث، ولكنه مستمر في المزيد من البحث، بل قد تمت الآن اكتشافات جديدة، وأصبحت هذه البحوث عن خلق الكون بمنــزلة نهر جار، مما يعني أن الناس لم يصلوا بعد إلى منبعه، وما داموا لم يصلوا إلى المنبع فكيف يحق لهم تحديده؟ وهذه هي الحقيقة التي قد أشار الله تعالى إليها هنا بقوله ﴿وَنَفْسٍ وَما سوَّاها﴾.. أي أننا زوّدناكم بقوى عالية وأودعناكم كفاءاتٍ سامية تمكِّنكم من عبور "جسر الصراط". والواضح أنه لا يقدر على عبور الصراط إلا مَن يقدر على تجنب السقوط يمينًا وشمالا، وعلى المضي قُدُما أيضًا. وكأن الله تعالى يعلن هنا أنه زوّد الإنسان بقوة التقدّم كما زوّده بالقدرة على عدم الميل يمينا وشمالا؛ وما دام قد جعل الإنسانَ معتدل القوى والقدرات على هذا النحو، فكيف يمكن أن لا يمهد له طريقًا ولا يبلِّغه غايته. إن غاية الإنسان هو الله تعالى، ولا يمكن أن يصلها إلا إذا سار قدمًا دون أن يميل يمينا وشمالا، ذلك لأن الشخص المعتدل القوى هو مَن لا يميل إلى ناحية واحدة، فما دام الله تعالى قد خلق الإنسان معتدل القوى فهذا يعني أنه قادر على تفادي السقوط يمنة ويسرة. والحق أن نجاح الإنسان كله إنما هو في أن يمضي قدما متفاديا السقوط في الحفر على يمينه أو شماله، ولا يتوقف حتى يصل إلى غايته. وهذان الأمران هما روح الدين ولبّه، وهذه هي الحقيقة التي بيّنها المسيح الموعود عليه السلام بقوله إن أكبر أهداف الدين أن

يكون الإنسان على صلة متينة مع الله تعالى ومع بني جنسه أيضا، فلا يقصّر في أداء حقوق الله ولا حقوق العباد. (الملفوظات المجلد الثاني ص ٨٥)

خلاصة القول إن الله تعالى قد أعطى الإنسان نفسًا معتدلة القوى قادرة على التقدم بحيث يصل إلى غايته العليا، كما زوده بقوة تحميه من السقوط يمنةً ويسرة مما يساعده على تكميل أخلاقه، فيعرف ما يجب عليه فعله وما لا يجب، وما هو نافع له وما هو ضار. وما دام الإنسان مزودا بهذه القوى كلها، فكيف ينكرون ضرورة هادٍ أو معلِّم له؟

أما إذا اعتبرنا (ما) في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ مصدرية فالمعنى أن الإنسان معتدل القوى، وهذا يوجب ضرورة هادٍ له.. وهذا يعني أن الدليل هو نفسه، الفارق الوحيد هو تغيير زاوية النظر فقط؛ ذلك أننا اعتبرنا (ما) في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ بمعنى (مَن) عند بيان المفهوم الأول الذي كان: كيف لا يهتم بهدي الإنسان مَن خلقه معتدل القوى؟ وبتعبير آخر: كيف يمكن للذي خلق الإنسان بهذه الصفات والكفاءات أن لا يصف له العلاج لمشاكله ولا يهيئ له الهدى؟ أما في حالة اعتبار (ما) مصدرية فالمعنى: كيف يمكن أن يكون الإنسان مزودا بهذه القوى العظيمة ومع ذلك لا تتاح الفرصة لانكشافها وظهورها؟ فأول المفهومَيْن هو بالنظر إلى النفس، والمفهوم الثاني هو بالنظر إلى خالقها.

والمفهوم الثالث لقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ هو أننا نقدم شهادةً تلك النفسَ التي هي عظيمة والتي تتوجه إليها الأنظار تلقائيا، بمعنى أننا نقدم شهادةً النفسَ الكاملة في كل زمن، وكما نقدّم رَبَّها الذي خلقها. والنفس هنا نكرة، والتنوين في العربية يفيد التعظيم والتفخيم أيضا◆. فليس المراد مِن ﴿نَفْسٍ﴾ هنا كل نفس، بل نفسا عظيمة، والمعنى أننا نذكِّركم هنا بذلك الإنسان العظيم الذي يبلغ من العظمة بحيث يشير إليه كل بنان تلقائيا وإن لم يُذكَر اسمه.

◆ انظرْ "الجدول في إعراب القرآن" لمحمود صافي، قوله تعالى: أولئك على هُدًى من ربهم. (المترجم)

والثابت من آيات أخرى من القرآن أن كل مَن يُبعث مِن الله تعالى في أي عصر يكون محطّ الأنظار دائمًا حتى قبل دعواه، ويعترف الجميع أنه الوحيد الذي يمكن أن ينقذ القوم. فمثلاً يخبرنا الله تعالى أن قوم صالح عليه السلام قالوا له ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾(هود:٦٣).. أي يا صالح كنا نظنك على خُلق عظيم ومزوَّدًا بقوة العمل الخارقة ومهتمًا برقي الأمة، وكنا نعقد عليك آمالا كبيرة بأنك سترفع أمتك من الحضيض إلى القمة، ولكنك خيّبت آمالنا، وتَبيَّن أنه لا خير فيك، إذ بدأتَ تأمرنا أن نترك ما يفعل آباؤنا وألا نعبد الأصنام طاعةً لأوامرك. وواضح هنا أن ما اعتبره صالح عليه السلام مدعاةً لازدهار قومه لم يروه سبيلاً لرقيهم. كانوا يرون أن سبل رقيهم هي الكذب والخداع والبعد عن الله، بينما كان صالح عليه السلام يرى أن سبيل رقيهم هو الصدق والهدى والعودة إلى الله تعالى. على أية حال، كان صالح عليه السلام معقد آمال قومه حتما، وكانوا مصيبين في ذلك، غير أن ما كانوا يرونه سبب زوالهم أو انحطاطهم لم يكن صحيحا.

والمشهد نفسه نراه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمن المسيح الموعود عليه السلام. فقد كتب الصوفي أحمد جان اللدهيانوي رضي الله عنه -وهو حمو الخليفة الأول رضي الله عنه- إلى المسيح الموعود عليه السلام حتى قبل دعواه:

هم مريضوں کی ہے تمہی پہ نظر

تم مسیحا بنو خدا کے لئے

(حيات أحمد ص ٢١)

أي نحن المرضى ننظر إليك، فبالله كُنْ مسيحا لنا. وهذا يعني أن حضرته عليه السلام كان محط أنظار الدنيا منذ ذلك الوقت، وكل بنان كان يشير إليه.

وقد قال المولوي برهان الدين الجهلمي رضي الله عنه الصحابي المخلص للمسيح عليه السلام: لما سمعت عن المسيح الموعود عليه السلام في البداية بأنه ظهر في قرية في البنجاب، وأن ازدهار الإسلام منوط به حيث يردُّ على مطاعن خصوم الإسلام من نصارى وهندوس وغيرهم، اشتقتُ لرؤيته، فجئت إلى قاديان، فعلمتُ أن المسيح الموعود

عليه السلام قد سافر إلى غورْداسبور بشأن قضية مرفوعة في المحكمة، فجئتُ إلى غورْداسبور وسألت الناس عن مكان إقامته، فعرفتُ أنه مقيم في نُزُلٍ، فوصلتُ إلى النُزل. فوجدتُ الحافظ حامد علي يحرس غرفة حضرته عليه السلام، فقلت له: جئتُ لإلقاء نظرة على حضرة الميرزا، فساعِدْني في ذلك، فقال: هذا ليس وقت اللقاء، لأنه مشغولٌ في كتابة إعلان هام. فتوسلتُ إليه كثيرا، ولكنه لم يُدخلني عليه، فجلست يائسا، وقلت في نفسي: سوف أنتظر حتى يذهب الحافظ لبعض حاجته، فأدخُل بدون إذنه على المسيح الموعود عليه السلام وأرفع ستار الباب وألقي نظرة عليه عليه السلام. فذهب الحافظ بعد قليل لبعض شأنه، فرفعت الستارة، ونظرت داخل الغرفة خلسة، فرأيت المسيح الموعود عليه السلام يمشي في الغرفة بسرعة حاملا في يده ورقة، وكان ظهره إلى الباب. وكنتُ أظن أنه سيرجع ببطء وسوف أرى وجهه بتمعن، ولكنه عليه السلام رجع بسرعة لأنه كان يمشي سريعًا، فارتعبتُ وفررتُ من هناك وقلت في نفسي: لا شك أنه إنسان صادق، والماشي بهذه السرعة لا بد أن يذهب بعيدا.

(جريدة "الحَكَم" ٧ إلى ١٤ يونيو ١٩٤٣ ص ٩)

باختصار، إن من سنة الله المستمرة أن الذي يكون النفس الكاملة في عصره يُشار إليه بالبنان تلقائيا، ويقول الناس على الملأ أن هذا سيُحدث ثورة في الدنيا حتمًا. ولذلك يقول الله تعالى هنا إننا نقدم النفس الكاملة في كل عصر ونقدِّم مَن خلَقها.. أو المعنى أننا نقدم شهادةً النفسَ الكاملة في هذا العصر.. أي محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكأن الله تعالى يقول: نقدّم أمامكم شهادةً هذه النفسَ الكاملة ومَن خلقها، وكذلك أظلالَها.

إن دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تكشف لنا أنه كان نفسًا كاملة في جميع شُعب الحياة. فبينما كان الآخرون ينفقون أموالهم على أنفسهم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق جميع أمواله لمصلحة الأمة. وبينما كانوا يقضون أوقاتهم في لعب الميسر وشرب الخمر وغيرهما من الموبقات، كان صلى الله عليه وسلم يقضي كل أوقاته للنهوض بقومه. وبينما كانوا يضيعون أوقاتهم في الجهل، كان صلى الله عليه وسلم يقضي أوقاته في تحصيل العلم. وبينما كانوا يسخِّرون عقولهم في مشاغل الدنيا، كان صلى الله عليه وسلم يسخر عقله في طاعة أوامر الله

وفي إزالة معاناة بني جنسه. هذا ما فعله الرسول ﷺ قبل دعوى النبوة، أما بعد إعلانه النبوة بأمر الله تعالى فصارت كل أعماله جلية للناس بصورة عمليّة، فرأوا أنه إذا قاد جيشًا كان أفضل قائد، وإذا قضى كان أفضل قاضٍ، وإذا أفتى كان أفضل مفتٍ، وإذا عاشر أهل بيته كان أفضل زوج، وإذا تعامل مع أولاده كان أفضل أب، وإذا كان مع الأصدقاء ثبت أنه أفضل صديق. فما من مجال من مجالات الحياة إلا وفاق فيه القوم كلهم، وبلغ الذروة في المحاسن كلها. وهكذا هيّأ للدنيا دليلاً لا يُنقَض على أنه النفس الكاملة. ويقدم الله تعالى هنا هذه النفس الكاملة شهادةً ويقول للناس: هل يمكن أن يُهزَم صاحب هذه الخصال؟ من الممكن أن يُهزَم مَن بلغ الذروة في خُلُق أو اثنين، ولكن كيف يمكن أن ينهزم من هو كامل في كل خُلُق ومجال وينتصر خصومه؟ لو كان خصومه أكثرَ كفاءة فانتصارهم عليه مفهوم، ولكن كيف ينتصرون على محمد ﷺ وليس هناك أي مجال للمقارنة بين كفاءاته وكفاءاهم؟

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٩﴾

التفسير: إذا اعتبرنا (ما) في الآية السابقة بمعنى (مَن) فضمير الغائب المذكور في قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ يرجع إلى (ما)، أما إذا اعتبرناها مصدرية، فالضمير يُعيَّن بالمعنى.

وقد اعترض الذين قالوا إن (ما) هنا بمعنى (مَن) على الذين اعتبروها مصدرية قائلين: إذا كان موقفكم صحيحًا فمَن هو الفاعل في قوله تعالى ﴿أَلْهَمَهَا﴾، فالمصدر لا يكون فاعلا، والتسوية لا تُنــزِل الوحي، وإنما يُنْزِله إله قادر قوي؟

غير أن الفريق الآخر أيضا علماء كبار، فأجابوهم بأن قولكم باطل، إذ يرجع الضمير بالمعنى في اللغة العربية بكثرة، فضمير الفاعل هنا يرجع بالمعنى إلى الفاعل لفعل بناء السماء وطحي الأرض وتسوية النفس.. أي إلى الله تعالى.

ومفهوم الآية أن الله تعالى لم يتخلَّ عن النفس البشرية بعد إقامة نظام السماء والأرض وتزويد هذه النفس بقواها، بل أودعَها من الإحساس بالفجور والتقوى ما لا يمكن غضّ النظر عنه.

فسواء اعتبرنا (ما) هنا مصدرية أو بمعنى (مَن)، فإن مفهوم الآية هو أن الله تعالى قد خلق في كل إنسان نفسًا لوّامة، وجعل فيه ما يعتبر به بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة.

وليكن معلوما هنا أن هناك قضية قد أخطأ كثير من الناس في فهمها، فبدلاً من أن يقولوا إن كل إنسان يعتبر بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة، يقولون: إن كل إنسان يعتبر السيئة سيئةً كالقتل أو الكذب أو السلب، فيقول المعترض: كيف تقول إن كل إنسان يعتبر الكذب سيئا، مع أن كثيرا من الناس يقولون إنه لا مناص من الكذب، فلو كان قولك صحيحا فكان ينبغي أن يعتبر كل إنسان الكذب أو القتل أمرا سيئا.

الأمر الواقع أن كثيرا من الناس يكذبون في الدنيا، ولما كانت نفوسهم تفتقر إلى الهدى يمسخ كذبهم المستمر فطرتَهم السليمة، حتى يقولوا إنه لا مناص لهم من الكذب. أو خذوا مثلا القسوة، فكثير من الناس توجد عندهم القسوة؛ بل لقد رأيت أنه مع نصحنا الدائم لجماعتنا بأن يتحلوا بالرفق والحب عند وعظ الآخرين ولا يقسوا، إلا أنهم يميلون إلى القسوة في كثير من الأحيان بسبب عادتهم حتى إن بعضهم يقولون لي لا يطيع الناس إلا بالقسوة، ويفسُدون بالرفق. فكيف يمكن القول -والحال هذه- إن كل إنسان يعتبر القسوة سيئةً ويكرهها؟ إنه قول مخالف للواقع، لأن كثيرا من الناس يميلون إلى القسوة ولا يجتنبونها وإن وُعظوا أو نُصحوا؛ ويرون أن الرفق ليس الطريقة المثلى، بل إن إصلاح الدنيا ممكن بالقسوة فقط.

وكذلك بعض الناس لا يعتبرون السرقة سيئة، وبعضهم لا يعتبرون الكذب سيئا، وبعضهم لا يعتبرون القتل سيئا، فلو فسرنا قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بأن كل إنسان يكره السرقة أو الكذب أو القتل أو غيرها من الجرائم لكان قولا باطلا، لأن كثيرا من الناس لا يعتبرونها أفعالاً شنيعة. أو خُذوا مثلاً أكل

اللحم، فإن كثيرا من الناس -إضافةً إلى المسلمين- لا يرون في أكل اللحم أي سوء، وعلى النقيض نجد آخرين يعتبرونه إثما كبيرا، ويكرهونه بحيث إنهم يتقيأون لو تحدثت أمامهم عن أكل اللحم، دَعْكَ أن تأكله أمامهم. كان في جماعتنا أخ أسلم من السيخ، واسمه سرداد فضل حقّ، وعاش مسلما سنوات طويلة، وبلَّغ الإسلام بين الآخرين بفضل الله تعالى. لقد ظلّ يكره أكل لحم البقر كراهة شديدة لسنوات طويلة. وربما زالت كراهيته فيما بعد، ولكن في سنوات إقامته في قاديان كان شديد الكراهية للحم البقر. أتذكر جيدا أنه كان مقيمًا في دار الضيافة هنا مرة، فقرر بعض الإخوة بمن فيهم بهاي عبد الرحيم وشيخ عبد العزيز وبعض الإخوة الآخرين أن يطعموه لحم البقر جبرًا على سبيل المزاح. فلما أخبروه بقرارهم هبّ من سريره، وأخذ يقفز من سرير إلى آخر لينفلت من أيديهم. ولا أزال أتذكر هذا المنظر جيدا. فلما لم يجد مناصا خرج من غرفته وأخذ يفرّ من غرفة إلى أخرى. وبينما هم يطاردونه تقيّأ بشدة، فخاف الإخوة وتركوه وقالوا لو أجبروه الآن على أكل لحم البقر فيكون هذا ظلما عظيما.

إذن، هناك كثير من الناس يكرهون أكل اللحم بشدة، وهناك آخرون كثيرون لا يقر لهم قرار بدون أكل اللحم، ومع ذلك لا نستطيع الجزم إن كان أكل اللحم من فطرة الإنسان أم أن عدم أكله هو من فطرته.. الواقع أن العقل الواعي شيء آخر تمامًا. إن الناس لم يدركوا حقيقة العقل الواعي Conscience مطلقا. إنما العقل الواعي هو إحساس الإنسان بأن بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة، أما التمييز بين الحسن والسيئ حقًا فهذا ليس من عمل العقل الواعي، وإنما يتوقف هذا على عادة الإنسان، فكيفما كانت عادته كان إحساسه مماثلا تجاه شيء ما. على أية حال ليس في الدنيا إنسان يعتبر كل شيء حسنا أو كل شيء سيئا، بل إن كل إنسان سيقول يجب تجنُّبُ السيئ والعملُ بالحسن. وبغض النظر عما إذا كان هو يعتبر السيئ حسنا أو الحسن سيئا إلا أنه مزوَّد حتمًا بإحساس أن بعض الأشياء في الدنيا حسنة وبعضها سيئة، وعليّ أن أعمل ما هو حسن وأتجنب السيئ. وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.. أي أن كل إنسان يعتبر بعض الأشياء

سيئة وبعضها حسنة.. وهذا يعني أن كل إنسان مزود بما يستطيع به التمييز بين الحسن والسيئ، وبالتالي فلا بد من كائن يخبره ما هو حسن وما هو سيئ. هذا هو الدليل المكتمل الذي قدمه الله تعالى هنا للناس على وجوده، وليس بوسع أكبر ملحد ردّه. ولكني رأيت أن الناس عادةً لم يفهموا هذا الدليل كما ينبغي، فيقدمونه أمام الخصم بشكل ضعيف. لقد ذكر المسيح الموعود عليه السلام أيضا هذا الدليل في بعض كتبه، ومع ذلك يخطئ الإخوة في تقديمه، فعندما يتحدثون أمام الخصم بهذه الشهادة الموجودة في النفس اللوامة، يقدموها وكأن كل شخص يكره الكذب أو القتل أو السرقة. لا شك أن العقل الباطن أو الفطرة عند أي إنسان يستنكر هذه الأمور، ولكن العقل الواعي عند كل إنسان لا يستنكرها، كما لا يمكن أن يعترف الإنسان بسوئها عند النقاش، وإذا اعترف به فبعد نقاش طويل، إذ لا بد من نقل نكارتها من عقله الباطن إلى عقله الواعي، وهذا الأمر ليس بوسع كل إنسان، بل يقدر عليه الماهر في فن النقاش.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أن سارقًا جاءه مرة للعلاج، فنصحه بترك هذه الخصلة الشريرة قائلا: أنت شخص قوي يجب أن تكسب بعرق الجبين بدلاً من هذا العمل الخسيس السيئ. ألا تستحي من ذلك؟ فقال اللص: حضرة الشيخ، لا أحد يكسب بعرق جبينه مثلنا؟ فإن الآخرين يعملون بالنهار، أما نحن فنكدح بالليل؛ نسهر في الليالي الباردة القارصة ببردها ومع أننا نتعثر هنا وهناك في الظلام ونخاف الموت ومع ذلك نمضي قدما في عملنا. فمن هو أكثر منا كدحًا وجهدًا؟ يقول حضرته رضي الله عنه فأدركتُ أن فطرته قد مُسخت وتشوهت كليا وأنّ عليّ أن أتبع أسلوبا آخر لإقناعه بشناعة السرقة. فغيّرتُ مجرى الحديث معه إلى أمور أخرى، ثم بعد هنيهة سألتُه: هلا أخبرتَني كيف تقومون بالسرقة وكم شخصا يشترك في العملية؟ قال: السرقة بحاجة إلى عدة أشخاص، فأولاً نضم إلى عصابتنا شخصًا يعرف البيت الذي نريد سرقته، فهو يدلنا على تفاصيل البيت من عدد غرفه ومكان أبوابها ونوافذها حتى ننفلت منها إذا خفنا القبض علينا خلال السرقة، كما يدلنا على صناديق المال والحليّ ولونها ومكانها في الغرفة وما إذا كان المال

مدفونا في زاوية من البيت وما إلى ذلك. ويكون معنا شخص ماهر في نقب الحائط بدون إحداث أي صوت حتى لا يتنبه إلينا أحد. وبعد أن يفرغ من نقب الجدار ينفصل عنا. ثم يتقدم شخص ثالث قد حفظ تفاصيل الدار، فيدخل ويحمل الحلي والأمتعة من داخل البيت ويوصلها إلى حائط الدار، حيث يكون شخص رابع يستلم منه الأموال والحلي ويجمعها في مكان. ويكون هناك شخص خامس يقف بعيدا عن البيت لمراقبة الأوضاع، فإذا كان هناك خطر نبهنا إليه. وبعد الفراغ من السرقة نأخذ المال إلى بيتنا، ونسلم الحليّ إلى صائغ يُذيب الحلي ويصنع منه سبائك ذهبية، لأننا لا نستطيع بيع الحلي كما هي خوفًا من أن يتعرف عليها أصحابها فيُقبض علينا. ويقول الخليفة الأول ﷺ: عندها قلت للسارق: فلو نهبَ الصائغ هذا الذهب الذي جمعتموه بعرق الجبين فماذا تفعلون؟ فقال مِن فوره: لو أن هذا الخبيث سرق مالنا ضربنا عنقه، ولم نتركه حيًّا. قلتُ: كنتَ قبل قليل تقول: لا عيب في السرقة، والآن تقول سنضرب عنق الصائغ لو سرق المال! هذا يعني أن فطرتك تكره السرقة وتعتبرها عملاً يدل على خبث المرء وقلة إيمانه، وإلا فلماذا تغضب على الصائغ على عمل تقوم به أنت أيضا؟ فندم السارق. (حقائق الفرقان المجلد الأول ص ٣٧)

فالفطرة الممسوخة يمكن استثارتها أحيانًا، ولكن هذا ليس بمقدرة كل إنسان، وإنما هو من اختصاص المهرة في هذا الفن. بل الواقع أن الفطرة المشوهة الممسوخة لا تثار أحيانًا رغم بذل الجهود. فمثلا لو قلتَ للذين يعارضون أكل اللحم ويعتبرونه قتلاً للحيوان: تقتلون الديدانَ التي تتولد في جروحكم بالأدوية؟ ألا تفكرون عندها أنكم تقومون بقتل حيوانات؟ وإذا كان هذا من باب التضحية بالأدنى للذي هو خير، فلم تعترضون على أكل اللحم؟ فقد يدركون خطأهم بسماع قولك هذا وقد لا يدركون.

باختصار، إن الدليل الحقيقي الذي استعمله المسيح الموعود عليه السلام مرارًا هو أن في العقل الإنساني الواعي إحساسا بالخير والشر.. بمعنى أن كل إنسان -أيا كان دينه أو مذهبه- يملك إحساسا بأن بعض الأشياء حسنة وبعضها سيئ، ولكن هذا لا

يعني أن العقل الواعي يدرك ما هو حسن وما هو سيئ حقًا، إنما هذا من اختصاص علم الأخلاق. المراد من العقل الواعي conscience إنما هو أن كل إنسان مزوَّد بما يشعره بأن بعض الأشياء حسنة وبعضها سيئ، فإنك لن تجد في العالم كله شخصا واحدا يقول إن كل الأشياء حسنة أو كل الأشياء سيئة، كلا بل إنه يستحسن بعض الأشياء ويستنكر بعضها. فتجد السارق مثلاً يعتبر السرقة حسنة، ولكنه يستنكر القتل، أو القاتل يستحسن القتل ولكنه يستنكر إخلاف الوعد، أو الظالم يستحسن الظلم ولكنه يثور غضبا إذا كذب أمامه أحد، أو الكاذب يستحسن الكذب ولكنه يغضب إذا قتل أحد غيره. فكل إنسان ذي علاقة بأخلاق أو دين -هندوسيا كان أو مسيحيا أو مسلما أو سيخيا أو يهوديا أو عالما أو جاهلا أو كبيرا أو وضيعا- مزوَّد من عند الله تعالى بإدراك أن هناك أمورا يجب أن يقوم بها، وأمورا أخرى يجب أن يتجنبها. وإشارةً إلى هذه الكفاءة الفطرية في الإنسان قال الله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. اعلم أن الله تعالى قد استعمل هنا المصدر ولم يقل أننا ألهمناه تفاصيل الفجور وفهمناه دقائق التقوى والطهارة، بل قال ألهمناه فجوره وتقواه، ومعناه: أن كل إنسان مزوَّد بحسّ الفجور والتقوى، وأن الله تعالى زوّده بما يُشعِره أن هناك ما هو نافع له، وهناك ما هو ضار به. وهذا هو الدليل الذي قدّمه المسيح الموعود عليه السلام في كتبه وهذا ما يبينه القرآن هنا، وهذا هو الدليل الذي ذكرته في بعض كتبي أيضا، ولكن الناس يخطئون ويخوضون في التفاصيل بلا داع، فيقدِّمون حسنات وسيئات معينة كمثال، مع أن هذا الدليل لا يعني أن كل إنسان يعلم ما هو الفجور وما هو التقوى عند الله تعالى، أو أن كل إنسان يعتبر الأمور الحسنة حسنة والسيئة سيئة فعلاً، وإنما الدليل الذي يقدمه الله تعالى هنا هو أن كل إنسان مزود بإحساس أن بعض الأشياء حسنة وبعضها سيئة، ثم بعد ذلك يختلف الناس؛ فمنهم من يستحسن أمرًا ومنهم من يستنكره، والواحد منهم يثني على شيء والآخر يذمّه. ولكن لا يهمنا هنا تفاصيل هذا الاختلاف، إنما يكفينا الأمر الواقع أن عند كل إنسان إحساسا بالخير والشر من ناحية، ومن ناحية أخرى يختلف الناس في تحديد الخير والشر اختلافا كبيرا، وهذا يستلزم وجود كائن

عنده إدراك تام بضرورات الإنسان، فيوجّه كفاءته الفطرية هذه توجيهًا صحيحًا، فيخبره ما هو خير له وما هو شر له فعلاً، وما يجب عليه العمل به وما يجب تفاديه.

لقد بينت هذا المفهوم لقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على ضوء المعنى العام لقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ إشارةً إلى النفس الكاملة في كل عصر فيكون المفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أن من سنة الله تعالى المستمرة أنه يلهم النفس الكاملة في كل عصر سبل الفجور والتقوى دائما. وفي هذه الحالة نقول إنه قد حُذِفَ مضاف هنا، والتقدير: "فألهمَها أمورَ فجورها وأمورَ تقواها".

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿١٠﴾

شرح الكلمات

زكّاها: زَكَى الشيءُ: نما. وزكّاه اللهُ: أنماه. وزكّاه: طهّره. (الأقرب، والتاج)

التفسير: أي أنّ مَن وَجَّهَ نفسه إلى الصراط السويّ متّبعًا هذا الإلهامَ فقد أفلحَ. علمًا أن إلهام النبي يكون مفصلا، وإلهام الفطرة يكون مجملا، والحديث هنا ليس عن الإلهام التفصيلي بل عن الإلهام المجمل، حيث بيّن الله تعالى أن الإنسان إذا اتّبع حقًا ما أودعنا فطرته من علم مجمل بالفجور والتقوى مما يُشعِره أن في الدنيا أشياء حسنة وأشياء ضارة، وإذا تجنب الضارّ منها وعمل بالحسن منها، وطوّر نفسه بحسب هذا الهدي الفطري، فإنه يفلح.. أي يحظى بوصال الله تعالى ويتمتع بإلهامه في النهاية. ونظرًا إلى هذا المفهوم سيُعتبر قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إشارةً إلى تَلقّي الوحي الحقيقي، بينما يُعتبر قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ إشارةً إلى الوحي المجمل الفطري الذي يتمتع به كل إنسان. وببيان هذه الحقيقة قد نبهنا الله تعالى أن مَن يدرك أنّ الله قد خلقه خلقةً معتدلة، سوف يسلك سبل الاعتدال بتفكُّر وتيقُّظ، ويتجنب السيئات مستعينا بما أودع الله فطرته مِن حس الفجور، ويتبع الحسنات مستعينا بما خلق الله فيه من حس التقوى، ويسعى لتطوير نفسه سعيًا دءوبًا، ويعيش متحليًا

بالأخلاق.. فإنه يتلقى إلهام الله ووحيه ويحظى بقربه تعالى في نهاية المطاف. ذلك أن من معاني التزكية الإنماء وأيضًا التطهير، وينطبق هنا معنى إنماء النفس والنهوض بها، إذ إن هذا الإنسان يستعين بما عنده من حس الفجور والتقوى ويصعد من مقام الفطرة إلى مقام الأخلاق، ثم في النهاية يصعد إلى مقام الذين يتلقون الإلهام والوحي من الله تعالى. هذا هو المعنى الأول لهذه الآية.

أما معناها الثاني فهو باعتبار (النَّفْس) نفسًا كاملة.. أي أننا حين نخبر النفسَ الكاملة بتفاصيل الفجور والتقوى لتعرفها الدنيا بواسطته، فالذي ينتفع عاملاً بتعاليم النفس الكاملة هذه ساعيًا لتزكية نفسه فإنه يدخل في زمرة المفلحين المقربين عند الله.. وكأنه يصبح بطاعة النبي واتّباع أحكامه مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾، فيصبح قمرَ النبيّ بحسب درجته المقدرة له نتيجة اتباعه للإلهام التفصيلي الذي ينـــزل على النبي. إذ الواقع أن كل مؤمن هو قمرُ النبي بحسب درجته، وينال الفلاح المقدر له نتيجة تمسُّكه بالتعاليم الكاملة التي يأتي بها النبي. وبتعبير آخر فإن قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ يتحدث عن الوحي الجليّ ، وأما قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ فيتحدث عن الوحي الخفيّ، وذلك بحسب المعنى الأول للنفس. أما بحسب المعنى الثاني للنفس فقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إشارةٌ إلى الوحي الجليّ الذي ينـــزل على النبي، وأما قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ فهو إشارة إلى الوحي الذي يتلقاه مَن يتبع النبي. وكأن النور الذي كان ينـــزل عليه من الخارج ينبع من داخله نتيجة عمله بتعاليم النبي.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

خابَ: خابَ خيبةً: لم يظفرْ بما طلَب. وخاب سعيُه: لم ينجَحْ. (الأقرب)

دسّاها: دَسا يَدْسو دسوًا، ودَسا يَدْسى دَسْيًا: نقيضُ نما وزكا (المنجد).

دَسّاه: أغواه وأفسدَه (الأقرب). وقد قال البعض أن أصله دسَّسَها. ودسّ الشيء تحت التراب وغيره دسًّا: أدخلَه فيه وأخفاه. ودسَّسَه: مِثْلُ دَسَّه. وشُدِّد للمبالغة. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن مَن لم يؤمن بهذا الوحي فقد فشل، لأن الوحي الإلهي ينـــزل لتنمية القوى الفطرية، فمن رفضه فقد ظلَم نفسه وأهلكها.

الواقع أن التعليم الصحيح يكون مطابقا للفطرة الإنسانية دائما، والتعليم الذي يقتل العواطف الفطرية لا يكون تعليمًا حقًا، لأن الوحي إنما ينـــزل للنهوض بالنفس الإنسانية وليس لقتلها وتدمير قواها، وبناء على هذه الحكمة قد نهى القرآن الكريم عن الرهبانية، ومنع من أن يحرِّم الإنسان على نفسه الطيبات. إن الأديان الأخرى تقتل بعض قوى الفطرة الإنسانية، وتعتبر هذا القتل حسنة، ولكن الإسلام لا يستحسن ذلك، إنما يأمرنا بتسوية هذه القوى الفطرية التي زودنا الله بها مراعين الاعتدال في استعمالها. إنه لا يأمرنا بقتل الفطرة، بل يأمرنا أن نسعى للنهوض بالنفس من مقام الفطرة إلى الأعلى، لأن العلم الفطري مجمَل، والنجاة لا تُنال بالعلم المجمل. ومثال العلم المجمل قول أحد أن فلانا يقيم في لاهور، ولكن هذا لا ينفعنا شيئًا، وإنما ينفعنا أن نعرف اسم الحيّ والشارع أو الميدان الذي فيه بيته، لكي لا نعاني في البحث عنه، بل نصل إلى بيته بسهولة. فقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ يعني أنكم إذا قمتم بتطوير قواكم الفطرية كان عونُ الله حليفكم، أما إذا ضيَّعتموها بكبحها فلن تفلحوا أبدا، إذ أُعْطيتُم هذه القوى الفطرية كسلاح، ومثالها كمثل شخص يريد السفر، فتزوده بعصا وسيف. إنك تعطيه العصا لأن السيف لا يعمل في بعض المواطن، وتعطيه السيف لأن العصا لا تنفع في بعض المواقف؛ فمثلا: إذا أراد قتل أفعى صادفته في الطريق، فلن ينفعه السيف، وإنما تنفعه العصا، أما إذا تصدّى له عدوّ فلن تنفعه العصا بقدر ما ينفعه السيف. أو إذا كان في طريقه أشواك مثلاً وأراد إماطتها فستنفعه العصا لا السيف. مما يعني أن العصا والسيف كليهما ضروري له، إذ ينفعه أحدهما في مكان وينفعه

الثاني في مكان آخر، ولو أنه رمى بأحدهما باعتباره شيئا عبثا فلا بد أن يعاني كثيرا عند حاجته إليه، وسيعرف أنه قد ارتكب خطأ فادحًا حين رمى بهذا السلاح. وبالمثل فإن كلّ ما خلق الله في الإنسان من قوى وكفاءات إنما هي لنفعه والنهوض به، ولو رمينا بأحد هذه الأسلحة وقتلنا إحدى هذه القوى باعتبارها لغوا وعبثا، أبعدنا أنفسنا عن غايتنا بأيدينا. وعلى سبيل المثال قد خلق الله في الإنسان قوة العفو والانتقام أيضا، وكلتاهما تساعده كثيرا في رقيه في الدنيا إذا ما استعملها في محلها، فحينًا يجب عليه أن يعفو، وحينا ينبغي أن ينتقم، إذ ليس العفو محمودا في كل موطن، كما ليس الانتقام محمودا في كل موطن، إن كلا منهما ضروري في محله المناسب، ولكنه لو سحق قوة العفو فيه أو اعتبر قوة الانتقام لغوًا ولم يستخدمها في محلها فقد عمل على فشله بنفسه. إنما يتحقق الفلاح إذا لم نسحق الفطرة، واستخدمنا كل ما أعطانا الله من قوى في محلها، وبقدر مناسب. فمن سحق فطرته وظن أنه أصبح خلوقًا أو الذي قضى على كفاءاته الفطرية وزعم أنه قد بلغ مقاما عاليا في الصلاح فقد ارتكب خطأ فاحشا جدا. ليست حسنةً قتل الفطرة، أو إضاعة ما خلق الله فينا من قوى وكفاءات، إنما الحسنة إيقاظ الفطرة وتطويرها واستعمال قواها بشكل سليم. هذا ما أشار الله إليه هنا مبيّنا أن من يقتل فطرته ويدمر قواها فلا يفلح أبدا.

أما نظرًا إلى المعنى الثاني للدسّ فستعني هذه الآية أن مَن طوّر نفسه مستنيرا بنوره الفطري أفلح.. أي حظي بنور الإلهام والوحي، أما الذي لا يفعل ذلك فقد خاب وخسر.. أي لم يحظَ بنور الوحي مباشرة ولا بطريق غير مباشر، لأن الفطرة إنما هي بمنـــزلة مرآة وهي التي تتلقى النور من الشمس وتعكسه، فمن دفن هذه الفطرة نفسها تحت التراب فكيف يتلقى النور؟ كلا، بل سيبقى أسيرا للظلمة في الدنيا ويرحل عنها في ظلام.

كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

طغواها: طَغا يَطْغو طُغْوًا، وطَغا يَطْغي طُغًى وطُغيانًا فهو واويٌّ ويائيٌّ، وبينهما اختلاف في المعنى، إلا أنهما يشتركان في معنًى، وهو: جاوز القدر والحدّ. ومِن معاني طغا يطغى: طغا الكافرُ: غلا في الكفر. وطغا فلان: أسرف في المعاصي والظلم. وطغا الماء: ارتفع. (الأقرب). وقد قال البعض أن طغوى يعني التجاوز في المعاصي، ولكن هذا المعنى يوجد في اليائي لا في الواويّ، والطغوى واويّ، فمعنى الطغوى: التجاوز عن القدر والحدّ.

التفسير: لقد ضرب الله هنا للكافرين مثال قوم ثمود؛ وقال انظروا إلى هؤلاء القوم، فقد جاءهم نور، ولكنهم -كما عرفتهم إذ كانوا من العرب أجدادكم- رفضوا هذا النور لتجاوُزهم الحدود.. أي أنهم خرجوا عن التسوية والاعتدال الذي أراد الله لهم، فلم يطيقوا التعليم المعتدل الذي جاءهم.

لقد بين الله تعالى هنا كيف يدسّ الإنسان نفسه، فأخبر أن هذا يتم بطريقَيْن، فإما أن يخرج المرء عن القوة التي زوده الله تعالى بها، أو يتأخر عنها لأن تجاوُز الحدّ يكون بطريقين؛ فإما أن يتقدم عليه الإنسان أو يتأخر عنه، وتصرفه هذا يطمس نور فطرته، ويقضي على قواه وكفاءاته. ويخبرنا الله تعالى هنا أن هذا ما فعلت ثمود؛ حيث تجاوزوا الحدود في أعمالهم وتصرفاتهم. كان الله تعالى قد أنزل لهم منهجا وسطا، ولكنهم لم يسلكوا الطريق الوسط الذي هو جسر الصراط، والذي يجب على المؤمن السير عليه، بل كانوا يميلون عن جادة الاعتدال يمنة ويسرة بدلاً من المشي على الخطّ الوسطي.

إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٣﴾

التفسير: الموضوع الذي أشير إليه هنا نفس الموضوع المذكور في سورة الغاشية في قوله تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ حيث أخبر الله تعالى بذكر واقعة مماثلة أخرى أن الكافرين يخططون لمعارضة منظمة كما بدأت ثمود معارضة منظمة ضد نبيهم بتنصيب زعيم. فكأن الله تعالى يقول للكافرين هنا، إنكم ستضعون خطة لمعارضة الإسلام بعد فترة من الزمن كما أراد أشقى الناس من ثمود ليمنعوه من التبليغ، فتسعون للقضاء على الإسلام مستخدمين قوتكم الجماعية، ولكن اعلموا أنكم لن تنتصروا في هذه المواجهة، مثل قوم ثمود الذين خابوا وخسروا وأصبحوا هدفًا لعذاب الله تعالى.

فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٤﴾

التفسير: لقد ضرب الله هنا مثالا لطيفا، ولكن الناس لم يفهموا حكمته للأسف، وظنوا أن ناقة صالح كانت تتميز بعظمة خاصة، فلما عقرها قوم ثمود حلّ بهم عذاب الله تعالى. وقد حكى بعض المفسرين عنها حكايات عجيبة حتى قالوا أنها خُلقت من جبل و لم تكن كالنوق الأخرى (فتح البيان). فكيف ينـــزل العذاب على قوم لمجرد عقر الناقة ولا ينـــزل عليهم لإيذائهم نبيَّهم؟

الحقيقة أن صالحا عليه السلام قد بُعث في الجزيرة العربية، وكانت الناقة مَرْكَب العرب، فكان يخرج على ناقته للدعوة، وكان القوم لا يحبون أن ينشر دعوته بينهم ولكنهم ما كانوا يتصدّون له عليه السلام بطريق مباشر خوفًا أن تنتقم له عائلته، فاتبعوا لإيذائه طرقًا أخرى منها أنه عليه السلام إذا خرج على ناقته للدعوة في المناطق المجاورة فكان بعضهم يمنعونه من أن يسقي ناقته عندهم، وبعضهم كانوا يمنعونها من الرعي ليتوقف صالح عليه السلام عن أسفاره التبليغية عندما لا يجد الماء والعلف لناقته. فنصحهم عليه السلام قائلا: اتركوا ناقتي ترعى حيثما شاءت ولا تمنعوها الماء، لأن هذا يعيق

دعوتي. و لم يكن يقصد أنه يمكنهم أن يمنعوه من المجيء إليهم، ولكن إن جاءهم ناقته فعليهم أن يدَعوها تشرب من مائهم. ذلك أنه لم يكن بينهم وبين الناقة عداء، وإنما كانوا يعادون صالحا عليه السلام.. وكان اعتراضهم أنه يأتي إليهم على ناقته للدعوة مما يحدث ضجة في منطقتهم حيث يدعو الناس إلى طاعة أوامر الله تعالى، وهذا ما لم يطيقوه، فرأوْا أن السبيل لمنعه من الدعوة أن لا يدَعوا ناقته ترعى أو تشرب عندهم إذا خرج إليهم عليها. فسخط عليهم صالح عليه السلام وقال ﴿ناقةَ الله وسُقياها﴾.. أي أن ما تفعلون ليس صحيحا. دَعوا ناقتي لترعى وتشرب بحرية ولا تحولوا دون رعيها وشربها.. أي لا تمنعوني من الدعوة بِحِيلكم هذه.. واتركوني أبلّغ رسالة الله بحرية.

لقد رأيت بنفسي أنني حين أخرج أحيانا على الحصان وأمرّ ببعض القرى الأحمدية، يأخذ أهلها لجام حصاني ويوقفونه، فلا يعنون بذلك أن أنزل عن متنه وأعطيهم الحصان لكي يأخذوه لقريتهم، وإنما يقصدون بذلك أن أزورهم في قريتهم لبعض الوقت. وبالمثل لم تكن ثمود تريد إيقاف ناقة صالح عليه السلام، وإنما كانوا يريدون إيقافه من نشر الدعوة. فلما قال لهم خلّوا ناقتي ولا تتعرضوا لها بسوء، فما كان يقصد أن يتركوا ناقته ويفعلوا به ما يشاءون، إنما كان قصده ألا يمنعوه من التبليغ والدعوة. إنهم يمنعون ناقته من الشرب وهذا يعيق تبليغه دعوته ويحرم أهل تلك المناطق من الهدى.

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا

شرح الكلمات:

عقروها: عقَر الإبل: قطع قوائمَها بالسيف. (الأقرب)

التفسير: لم تُلقِ ثمود بالاً لنصيحة صالح عليه السلام، وكذّبوه وقطعوا قوائم ناقته، وبتعبير آخر: كشفوا له نيّاهم علنًا أنهم لن يسمحوا له بنشر الدعوة في أي حال مهما قال لهم.

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

دَمْدَمَ عليهم: دمدمَ الشيءَ: ألزقَه بالأرض. ودمدمَ الله عليهم: أهلكَهم. ودمدمَ فلان على فلان: كلّمه مغضبا. (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إنهم لم يطيعوا رسولنا، فأنزلنا عليهم عذابا سوّاهم بالأرض ودمَّر صغارهم وكبارهم، فلم يُبق منهم أثرًا.

هذه الآية أروعُ مثال على بلاغة القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى من قبل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.. أي أننا قمنا بتسوية الإنسان وجعلناه معتدل القوى، حيث تشهد نفس الإنسان على أنه بحاجة إلى نور السماء، والآن قال الله هنا إن ثمود لم يُقدِّروا هذه التسوية حقّ قدرها، ولم يطيعوا أوامرنا، فقمنا بتسويتهم بشكل آخر؛ فمحونا أثرهم من الدنيا. وهذه ذروة البلاغة، حيث استعمل الله الشيء الذي أنكروه بمعنى العذاب؛ فأخبر أننا قمنا بتسويتهم لأنهم أنكروا تسوية النفس، فدمرنا بلادهم وهدمنا مبانيهم وأهلكناهم بزلزال شديد لم يُبق منهم أثرا.

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

عقباها: العقبى: جزاء الأمر؛ آخر كل شيء. (الأقرب)

التفسير: الضمير في قوله تعالى ﴿عُقْبَاهَا﴾ راجع إلى ﴿دَمْدَمَ﴾، والمراد أنه إذا حان نزول الدمدمة، واستحقّ قومٌ هلاكا شاملا، فلا يبالي الله بأقاربهم، أو لا يأبه بعواقب العذاب الوخيمة. ذلك أن القوم لا يهلكون كلهم أحيانا بل بعضهم ينجون، غير أنهم يعيشون بعد ذلك في ذل وهوان، ولكن الله تعالى يخبر هنا أنه إذا أراد إبادة قومٍ فلا يأبه بمعاناة من حولهم. إن استحقت أكثرية القوم غضب الله تعالى، يدمَّر معها الصامتون الذين لا يعارضون النبي ولا يؤيدونه أيضًا، وهذا لا

يعني أن الله ظلمهم، أو أنزل العذاب عشوائيا، بل إذا قضى الله باستئصال شأفة قوم، فإنما يقضي بعدل، فحيث إن البقية الصامتة لا يأبهون بعاقبتهم فلماذا يأبه الله بهم؟

ومن معاني هذه الآية أن على أهل مكة – الذين يعارضون نبيهم كما عارضت ثمود نبيها – أن يتذكروا أن الله تعالى سينـــزل عليهم عذابا عاما كما دمر ثمود بعذاب عام. لا شك أن ثمود هلكوا كأمة، بينما عاش أهل مكة بعد غلبة رسول الله ﷺ، ولكن لا اعتراض على ذلك، لأن الهلاك لا يكون ماديا في بعض الأحيان بل يكون دينيا. لقد هلكت ثمود هلاكا ماديا كلية، أما أهل مكة فهلكوا هلاكا دينيا، فلم يبق لدينهم وطقوسهم أي أثر.

سورة الليل

مكية وهي اثنتان وعشرون آية مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية عند الجمهور. (فتح البيان)

ليكُنْ معلومًا أن لفظ الجمهور -الذي يُستعمل عادة- يعني الأكثرية حينًا، ولكنه يُستعمل لتزيين الكلام فقط في كثير من الأحيان؛ إذ الحقيقة أن الأكثرية -دَعْك الجميع- لا تكون أحيانًا متفقة على قضية، ومع ذلك يقول بعض المفسرين: الجمهور يرى ذلك، ويكون مراده أني وأمثالي نقول ذلك. إن لفظ الجمهور يعني في الاصطلاح كثرة عظيمة، وإذا استُعمل استعمالا صحيحا أصبح ذا أهمية كبيرة، لأنه إذا عُلم أن أكثر الصحابة أو التابعين أو تابعيهم رأوا هذا الرأي أصبح الأمر غيرَ عاديّ، ولكن كما قلتُ إن هؤلاء يستعملون لفظ الجمهور في كثير من الأحيان بمعنى صاحب الكتاب ومن يوافقه الرأي فحسب. إن ما يحدث أن شخصًا يفسّر حينًا آيةً بمعنى، فينقله عنه غيره، ثم شخص ثالث ثم رابع ثم خامس، فيقول الآخرون إن الجمهور يرى ذلك، مع أن المراد أن هذا المعنى ذُكر في خمسة كتب أو عشرة. لقد رأيت أنهم يستعملون لفظ الجمهور من ناحية، ومن ناحية أخرى يذكرون أن فلانًا وفلانًا من الصحابة يخالفون هذا المعنى، مما يعني أنه لا يكون المراد من الجمهور هنا سوى أن العديد نقلوا معنًى ما عن شخص واحد، وبتعبير آخر هم يعنون بالجمهور أكثرية النَّقَلة، وليس أكثرية الصحابة أو التابعين أو تابعيهم.

بيد أن ما ورد عن هذه السورة بأنها مكية عند الجمهور فهو ليس من هذا القبيل، بل هو بالمعنى الحقيقي، إذ لم نجد قول صحابي خلاف ذلك. لا شك أن بعض الناس اعتبرها مدَنيّةً، ولكن هناك صحابيان كبيران مثل ابن عباس وابن الزبير

يقولان إنها مكيّة (فتح البيان)، ولا يوجد قول لصحابي يخالف قولهما، لذا لا بد أن نفسر لفظ الجمهور بمعنى الأكثرية الغالبة.

لقد قال بعض المفسرين إن هذه السورة مكية ومدَنية أيضا (روح المعاني). ولا يرى هذا الرأي إلا الذين يقسمون السور إلى مكية ومدنية نظرًا إلى مضامينها. إنني أُقِرُّ أن مضامين السور أيضًا تساعد في تحديد زمن نزولها، بل لقد رجَّحتُ أنا أيضًا بعض الروايات على غيرها فيما يتعلق بزمن نزول السور بناءً على مضامينها، ولكن لا يجوز لأحد اتخاذ هذا القرار بناء على مجرد الاجتهاد. إن الاجتهاد يمكن أن ينفع في تأييد حادث أو رواية، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه إزاء التاريخ الثابت. من الممكن أن لا يصل أحد إلى حقيقة شيء كما ينبغي فيبني رأيه على العقل والقياس من مضمون سورة، أما الجزم بأن موضوعًا من هذا القبيل لا يوجد إلا في السور المكية أو المدنية فهو نفس الخطأ الذي يقع فيه الكُتّاب الأوروبيون. فمثلا إذا كان التاريخ يؤكد كون سورة ما مكيةً، يقول هؤلاء المستشرقون: كلا، بل هي مدَنية، لأنها تتحدث عن كذا وكذا من الأحداث، أو إذا كان التاريخ يؤكد كون سورةٍ ما مدنيةً يقولون: كلا، بل هي مكية، لأن فيها كذا وكذا من المضامين. والحق أن قولهم مجرد اجتهاد، والاجتهاد لا يغني من التاريخ شيئا. نعم، إذا كان التاريخ يعتبر سورة ما مكية مثلاً، ثم أيّدنا هذا الرأي بالاجتهاد فلا بأس في ذلك؛ أو إذا كان التاريخ يعتبر سورة ما مدنية وأيدنا هذا الرأي بالاجتهاد فهذا جائز بلا شك. باختصار إن الاجتهادَ المبني على مضمون السورة دليلٌ مرجِّحٌ، ولكنه ليس دليلاً في حدّ ذاته. فمثلاً قد اعتبر البعض هذه السورة مدَنية بناءً على مضمونها مِن دون أي شهادة تاريخية، أما أنا فأقوم باستنباط مخالف لرأيهم، ودليلي هو أن مضمون هذه السورة مقارب جدًا لمضمون السورتين السابقتين والسورتين اللاحقتين لها، والشهادة التاريخية أيضًا تؤكد أنها مكية، ولا شك أن استنباطي هذا مقبول لأن شهادة التاريخ تؤيده.

وكما قلت من قبل إن بعض السور السابقة تحثّ بشكل خاص على الصدقات أو تفقُّد الفقراء. علمًا أن بعض السور تتناول في بعض الأحيان موضوعا ما بشكل

عمومي، ولكن كل السور المشار إليها تقول إن الذين يتصدقون وينفقون على الفقراء يزدهرون، وأن الذين لا يتصدقون ولا ينفقون على الفقراء لا يزدهرون ويهلكون كأمة، وهذه السورة أيضًا تتحدث عن الموضوع نفسه. وقد روي عن عبد الله بن عباس أنه قال: "إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل" (فتح البيان). فحيث إن هذه الرواية التاريخية تؤكد أن هذه السورة مكيةٌ فبِوُسعنا تقديم شهادتها الداخلية أيضا كدليل مرجِّح ردًا على الذين يعتبرونها مدَنية، ونقول: ليست الروايات وحدها تؤكد أنها سورة مكية، بل إن مضمونها أيضًا يؤكد ذلك، ولكن لا يجوز لنا أن نقدّم الاجتهاد مخالفين هذه الرواية، إلا إذا أيدته روايات أخرى.

فمثلاً لو قدمنا أمام الناس موضوعًا ما وَرَد في القرآن وقد وردت حوله روايات متضاربة، فلا بد لنا من ترجيح الروايات التي يؤيدها القرآن الكريم، أما الاجتهاد حول بعض الأحداث فلا قيمة له وحده مقابل الروايات الثابتة تاريخيا.

والسير وليام موير يرى أن هذه السورة من أوائل السور نزولاً، ويتفق معه القسيس "ويري" أيضا غير أنه يقول إنها نزلت في زمن الدعوة العامة، أي ما بين السنة الثالثة والخامسة، لأنها تتحدث عن عذاب المنكرين. (تفسير "ويري" للقرآن)

وعندي أن رأي القسيس "ويري" صائب، لأن هذه السورة لا تنذر إنذارا عاما، بل تشير إلى أحداث معينة ستقع في المستقبل القريب.

وقد روى البيهقي عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر ﴿واللَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾ وما شابهها من سور. (فتح البيان)

الترتيب والترابط:

هذه السورة أيضًا امتداد لموضوع السور السابقة، ألا وهو رقيّ الإسلام، والفرق بينها وبين السورة السابقة لها أن الأخيرة بيّنتْ أن الغايةَ من بناء الكعبة وازدهارَ الأمة لا يتحققان إلا ببعثة إنسان يأتي بنظام كامل، وكان التركيز فيها على حياة هذا المعلِّم، أما هذه السورة فهي تركز على حياة تلاميذ هذا المعلّم

ومعارضيه. السورة السابقة بينت أن الأمة لا تزدهر من دون معلِّمٍ كفءٍ، أما هذه السورة فتبين أن المعلم الكفء لو وجد تلامذة أكفاء لأحدثَ ثورة جذرية في العالم، وأن تلاميذ محمد ﷺ هم من الطراز الأول، ولا يمكن برؤية أحوالهم أن ييأس أحد من التغيير الثوري في حياة العرب. لقد نبّه الله الكافرين هنا إلى أن حياة الذين ينضمون إلى محمد مختلفة عن حياتكم. لا شك أن الأستاذ الكفء يقوم بإنجازات عظيمة في الدنيا، وهذا ما يفعله التلاميذ الأكفاء، أما إذا وجد الأستاذ الكفء تلامذة أكفاء، فيصبح الأمر نورًا على نور، ولكن إذا وجد الأستاذ الكفء تلامذة سيئين فلا يلمع نجمه ولا يكون إنجازه عظيما، كما أن تلامذةً أكفاء لمعلِّمٍ غيرِ كفءٍ لا يحرزون رقيا عظيما. أما هنا فقد وجد الأستاذ الكفء تلامذة أكفاء، وهو دليل بيّن على غلبة دين محمد ﷺ. (للمزيد من التفصيل انظرْ لاحقًا تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿٢﴾

التفسير: قال الله تعالى في السورة السابقة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.. أي أننا نقدّم شهادةً الليلَ حين يغشى الشمسَ، أما هنا فلم يذكر مفعولاً به لفعل ﴿يَغْشَى﴾، مما يدل على أن لفظ ﴿يَغْشَى﴾ في هذه السورة أشملُ معنًى. علمًا أن قوله تعالى ﴿يغشاها﴾ في السورة السابقة يشير إلى ذلك الجانب من الظلمة الذي يتعلق باحتجاب الأرض عن الشمس فقط دون الجوانب الأخرى للظلمة، أما هنا فيمكن أن يراد بـــ ﴿يغشى﴾ معانيَ أخرى أيضا، إذ يمكن أن يراد به أن ظلمة الليل لن تخفي الشمس فقط، بل تخفي أشياء أخرى أيضا.

لقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم أنه ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾(الأعراف: ٥٥)، وقال تعالى في موضع ﴿ومِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾(الفلق:٤).. أي نعوذ بالله من

ظلمة الليل حين تغشى كل شيء، وكذلك قال تعالى في السورة السابقة أن الليل يغشى الشمسَ حيث قال ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، وحيث إن الآية قيد التفسير تحتمل هذه المعاني الثلاثة فينبغي أن نتدبر فيها لنعرف ما إذا كانت تفيد المعاني الثلاثة أو معنى واحدا أو اثنين منها فقط.

أرى أن في هذه السورة قرينة تحدِّد مفهوم هذه الآية، وتبين أن المراد إنما هو تغطية الليلِ كلَّ شيء، وهذه القرينة هي الآية التي تلتها: ﴿والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. فلو كان قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ متقدمًا على الآية قيد التفسير لكان الأَولى بنا أن نفسرها بأن الليل سيغشي النهار أو الشمس، ولكن الأمر ليس كذلك، وهذه القرينة تهدينا إلى أن المعنى هنا هو تغطية الليل للأشياء كلها. إذن، فمفهوم الآية أننا نقدم الليل شهادةً حين يغشى كل شيء من إنسان وحيوان وغيرهما.

وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٣﴾

التفسير: هناك فرقٌ بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة الشمس ﴿والنَّهارِ إِذَا جَلاَّها﴾، فقال هنالك ﴿إذا جلاَّها﴾ بينما قال هنا ﴿إذا تَجَلّى﴾، ذلك أن تلك الآية تبين أن الأرض تقابل الشمس فتُجلِّيها، أما هذه الآية فتبيّن أن النهار يتجلّى بالاستضاءة من ضوء الشمس. بتعبير آخر كان التركيز هنالك على أن هذا المعلِّم كامل في مجاله، وسينفع الدنيا بفيوضه، أما هنا فالتركيز على براعة التلاميذ. وعلى العموم لا فرق لو قلنا إن المعلم علّم التلميذ أو قلنا إن التلميذ تعلم على يد أستاذه، بيد أن في قولنا "إن الأستاذ علّم" تركيزًا على جهود الأستاذ وحسن أدائه لواجبه، وأما في قولنا "إن التلميذ تعلّم من أستاذه" فالتركيز على اجتهاد التلميذ. كذلك فالتركيز في قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ على إضاءة النهار؛ أي على كفاءات الشخص الذي هو بمثابة الأرض أو التلميذ، أما قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذَا جلَّاها﴾ فالتركيز فيه على كفاءات الأستاذ.

وليكنْ معلومًا أن الله تعالى قد ضرب هنا مثال الليل والنهار كما ضربه في السورة السابقة، ولكن المثالين يختلفان معنًى؛ ذلك أن سورة الشمس تتحدث عن ضوء النهار أولاً، ولذلك ذُكرت الشمس أيضا أولاً. فقيل ﴿والشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وقيل مقابلها ﴿والنَّهارِ إِذَا جلَّاها﴾، ثم ذُكر القمر في المقام الثاني فقيل ﴿والْقَمَرِ إذا تَلاها﴾، وقيل مقابلها ﴿واللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا﴾.. وهكذا ذُكر النهار مقابل الشمس والليل مقابل القمر. ثم كما ذُكرت الشمس أولاً والقمر بعدها، كذلك قُدّم ذكر النهار على ذكر الليل، وذلك أن الحديث هنالك عن شمس النبوة وقمر الرسالة.. أي عن الإفاضة والاستفاضة. بمعنى أن أحدًا أفاض نوره وأن الآخر استفاض من نوره، ولهذا السبب ذُكر النور والنهار قبل ذكر الليل والقمر. أما في هذه السورة فذُكر الليل قبل النهار لأن التركيز هنا ليس على كمالات الرسول ﷺ، بل على كفاءات أتباعه ومقارنتهم بالكفار، فلأن الكفر حينها كان غالبًا وكثيرًا ذُكر الليل أولاً، ولأن المسلمين كانوا قلّةً وفي المؤخرة ذُكر النهار متأخرًا. لقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة أننا قد جعلنا في أفق السماء شمسا روحانية لإضاءة العالم، ومهما حاولت الدنيا تغطية ضوئها فلن تقدر على منعه من الانتشار، بل سيزداد هذا الضوء قوة وانتشارا حتى يحيط بالعالم كله؛ ولكن بعد انقضاء زمان طويل سيعرض أهل الأرض عن هذه الشمس فيختفي ضوؤها عن الأنظار، ويغشاهم الظلام، وعندها سيخلق الله قمرًا يكتسب النور من تلك الشمس الروحانية فينير العالم تارة أخرى. فحيث إن الله تعالى قد بدأ الحديث في السورة السابقة عن عصر الإسلام فكان طبيعيا أن يبدأها بذكر الشمس والنهار، أما هذه السورة فتعقد مقارنة بين الكفر والإسلام، والكفر أسبق زمنًا من الإسلام، لذا ذُكر الليل هنا قبل النهار. ثم لما كان الكافرون في ذلك العصر كُثرًا والمسلمون قلة، فلذلك أيضًا ذُكر الليل هنا قبل النهار، وهكذا أنبأ الله تعالى أن هذا الليل الذي يغشى المسلمين سينتهي الآن ليطلع بعده النهار، أو أن أنواع الضلال والفساد الناتج عن هذا الليل سوف يزيلها الآن أصحاب النهار (للمزيد من الشرح انظرْ تفسير الآية التالية).

وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٤﴾

التفسير: كان أبو الدرداء ﷺ شديد الغلوّ حول هذه الآية؛ إذ كان يرى أن الآية الأصلية هي: "والذَكرِ والأنثى"، وليس ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثى﴾. فقد ورد عن علقمة قال: قدمتُ الشامَ، فأتى أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله؟ قال: فأشاروا إليّ. قال: قلت أنا. قال: فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأ هذه الآية: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى والذَّكَرِ والأنْثَى)؟ قال: وأنا هكذا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول. فهؤلاء يريدوني أن اقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنْثَى﴾، فلا أنا أتابعهم. (البخاري: كتاب التفسير، وتفسير الطبري)

هذا الموضوع مذكور في عدة كتب من كتب الحديث بمتون وأسانيد مختلفة عن أبي الدرداء. وليكن معلوما هنا أن الفرق بين القراءات موجود منذ البداية، والمسلمون الذين تنقصهم المعرفة الكاملة يصابون بالقلق لدى سماع مثل هذه الروايات، ويظنون أنها إذا صحّت، فلا يصح قولنا إن القرآن الكريم محفوظ تماما وأنه لم يتطرق إليه أي تغيير وتبديل. والحق أن استنتاجهم هذا باطل، لأن منكري النسخ الذين يؤمنون بحفظ القرآن الكريم حفظا تاما يعترفون أيضًا بالقراءات منذ بداية الإسلام، ومع ذلك يؤكدون أن قراءةً لا تنسخ قراءة أخرى ولا تغيّر المعنى.. أي أن من المحال أن تذكر قراءةٌ معنى لا تحمله قراءة أخرى، نعم، يمكن أن توسّع قراءة ما نفس المعنى وتصدّقه أيضا. والحق أن الله تعالى قد أنزل القرآن على سبعة أحرف (البخاري، كتاب فضائل القرآن).. أي جعل الله له سبع قراءات، وذلك بسبب الفروق الموجودة بين اللهجات العربية المختلفة وتوسيع نطاق المضامين القرآنية. فيجب أن لا ينخدع أحد بسبب القراءات فيظن أن في القرآن اختلافا، بل القراءات نتيجة طبيعية للفروق الموجودة بين اللهجات العربية المختلفة آنذاك. ففي كثير من الأحيان يكون اللفظ واحدا، ولكن ينطقه أهل بلد بطريقة وأهل بلد آخر بطريقة أخرى، وهذا لا يعني أن هذا اللفظ قد تغيرَ أو أن معناه قد تغيرَ، كلا، بل يبقى اللفظ كما هو تقريبًا، كما يبقى معناه هو هو، كل ما يحدث هو أن شعبا إذا

لم ينطق بذلك اللفظ نطقا صحيحا فإنه يصوغه بلهجته بطريقة أخرى. كان عدد سكان الجزيرة العربية في زمن النبي ﷺ قليلا نسبيًا، وكانت القبائل تعيش بعيدة بعضها عن بعض، فلذلك كان هناك فرق كبير بين لهجاتها وأساليب النطق. كانت لغتهم واحدة، ولكنهم كانوا يختلفون في نطق بعض الكلمات، وفي بعض الأحيان كانت قبيلة تستعمل كلمةً لأداء مفهومٍ بينما كانت قبيلة أخرى تستخدم كلمة أخرى لأداء نفس المفهوم. فأجاز اللهُ لرسوله ﷺ أن يسمح لمختلف القبائل باستعمال كلمات بديلة مكان كلمات يصعب عليهم نطقها، وقد ظلّ الحال على ذلك إلى أن أصبحت القبائل العربية أمة واحدة. ولولا هذا السماح لتعذرَ حفظُ القرآن وقراءته على كلّ مَن لم يكن من سكان مكة، ولم ينتشر القرآن بينهم بهذه السرعة.

وهذا الفرق اللغوي بين القبائل لا يزال قائما بين غير المثقفين حتى اليوم. إن المثقفين يتعلمون بالكتب لغة واحدة، ولكن غير المثقفين الذين يتعلمون اللغة مشافهةً، تروج فيهم اللغةُ القَبلية بدلاً من لغة الدولة. عندما ذهبتُ للحج كان مع قافلتنا شاب يمني عمره حوالي ١٧ سنة، وكان خادمًا لأخينا السيد أبي بكر الذي كان رجل أعمال، وفي الطريق كنت أحدّث هذا الفتى بالعربية، فرأيتُ أنه يفهم معظم حديثي، ويردّ على كلامي، ولكنه كان أحيانًا ينظر إلى وجهي مذهولا قائلا: لم أفهم كلامك. فكانت تأخذني الحيرة وأقول: هذا الشاب يفهم العربية، ومع ذلك يتوقف أحيانا ويقول لي: لم أفهم كلامك! فلما وصلتُ مكة المعظمة قلتُ لأحد الناس: هذا الشاب عربي ويجيد العربية، ولكنه لا يفهم كلامي أحيانا، فلا أدري سبب ذلك. فأخبرني الرجل أن هذا الشاب يمني، وهناك اختلاف كبير بين اليمنيين والحجازيين حول معنى بعض الكلمات، فلا يتفاهمون أحيانا. ثم حكى لي طريفة أنه كانت في مكة امرأة ثرية، وكان عندها خادم يمني، وكانت المرأة تدخن النرجيلة، وكان إناء النرجيلة عندهم من الزجاج، ويسمونه الشيشة. فقالت للخادم يومًا: غيِّر الشيشةَ؛ وكانت تقصد أن يغيّر ماءَها، فقال لها: ستّي، هذا طيب.. أي لا يزال هذا الإناء جميلا. فقالت له: قلتُ لك غيِّر

الشيشةَ. فقال لها في حيرة: ستّي، هذا طيب! فزجرتْه وقالت: أخادمي أنت أم سيّدي؟ قلتُ لك غيِّر الشيشةَ. أتغيِّرها أم لا؟ فحمل الشيشة خارج الغرفة وضربها بالأرض وكسرها. فقالت: ماذا فعلت؟ كسرتَ هذا الإناء الغالي؟! فقال: لقد قلتُ لك مرارًا إنه طيب، ولكنك لم تقبلي قولي، فلماذا تغضبين الآن؟ فكادت تَميّزُ من الغيظ. فقال لها بعض مَن يعرف اللهجة اليمنية: لا ذنب لخادمكِ، لأننا نحن الحجازيين نعني بتغيير الشيشة تغييرَ مائها، أما اليمنيون فيعنون بالتغيير الكسر.. ففَهِمَ خادمك أنك تريدين كسر الشيشة، ولذلك كان يقول لك مرارا: ستّي، هذا طيب، فلماذا تريدين كسره. فلمّا أصررتِ عليه بتغيير الشيشة كسرها المسكين.

فترى أن جملة (غَيِّر الشيشة) بسيطة، ولكن بسبب الفرق في اللهجات فهِمها الخادم اليمني على عكس مراد سيدته. ومثل هذه الكلمات التي يختلف معناها باختلاف اللهجات لو قرئت في القرآن بصورتها الأصلية لأدركنا مدى معاناة القبائل المختلفة في فهم القرآن الكريم، فدرءًا لهذا النقص أجاز الله لهم استبدالها بكلمات مماثلة في المعنى تساعدهم على فهم القرآن، ولا تشُقُّ على أصحاب القبائل المختلفة. وهكذا ظلّ المفهوم القرآني كما هو، وأعطاهم الله كلماتٍ أو تعابير أخرى مكان الكلمات والتعابير التي لا يعرفونها، وذلك حفاظا على مفاهيم القرآن الكريم وحتى لا يصعب عليهم فهمه نتيجة اختلاف اللهجات، بينما ظلت القراءة الأصلية للقرآن هي هي باللهجة الحجازية.

وبعد الاطلاع على هذا التفصيل لا يصعب على أحد أن يدرك أنّ هذا الإذن كان مؤقتا، وأن الوحي الأصلي هو نفس ما نزل على رسول الله ﷺ في البداية، وكان استعمال كلمات مترادفة مكان بعض الكلمات الأصلية جائزا ما دامت القبائل العربية لم تتّحد بعد. وفي خلافة عثمان رضي الله عنه لما أصبحت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية اتّحدت القبائل العربية بدلاً من أن يبقى أهل مكة أو المدينة أو نجد أو الطائف أو اليمن منغلقين على أنفسهم في مناطقهم الخاصة غير مطلعين على لهجات الآخرين وتعابيرهم، إذ صار الحكم عندها بيد أهل المدينة

الذين شكّل المهاجرون إليها من مكة شريحة كبيرة فيها. ثم إن أهل المدينة أنفسهم كانوا قد تعلموا اللهجة المكيّة بصحبة المهاجرين. كان زمام الحكم وتطبيق القانون والمال بيد أهل المدينة وكانوا محط أنظار الناس كلهم، فكان أهل الأمصار الأخرى كالطائف ونجد ومكة واليمن وغيرها يفدون إلى المدينة بكثرة، ويخالطون الأنصار والمهاجرين فيها ويتعلمون منهم الدين، فأخذت لغة الجميع تتوحد. ثم إن بعضهم كان قد استقر في المدينة، فصارت لغتهم حجازية أيضا، ولما كان هؤلاء يرجعون إلى بلادهم علماءَ وأساتذةً فلا بدّ أن يكون لهم تأثير على أهالي منطقتهم. كما أن الحروب أتاحت للقبائل المختلفة فرصة العيش معًا، ولأن القادة كانوا من أكابر الصحابة فكانت صحبتهم ورغبة الناس بتقليدهم عاملا كبيرًا على توحيد اللغة. فمع أن أهل القبائل المختلفة وجدوا صعوبة في فهم لغة القرآن الكريم في البداية، إلا أن المدينة لما أصبحت مركزا للعرب بحكم كونها عاصمة للدولة، وأخذت شتى القبائل والشعوب يفدون إليها تباعا وبكثرة، فلم يكن هناك مجال لهذا الاختلاف في اللهجات، لأن كل المسلمين ذوي المزاج العلمي كانوا قد تعلموا لغة القرآن، فلما وقفوا على لغته حقَّ الوقوف أمر عثمانُ ﵁ بالاكتفاء بقراءة القرآن بلغته الأصلية التي نزل بها.. لهجةِ الحجاز دون اللهجات الأخرى (البخاري، كتاب المناقب). وكان قراره هذا يعني أن الناس قد بدءوا يفهمون اللهجة الحجازية عموما فلا مبرر للسماح لهم بقراءته بلهجات بديلة.

والشيعة الذين يخالفون أهل السنة يقولون بسبب هذا القرار العثماني أن المصحف الحالي هو مصحف عثمان، والحق أنه اعتراض باطل كلية. الواقع أنه في عهد عثمان ﵁ كان قد مضى زمن طويل على اختلاط العرب، فكانوا قد اطلعوا على الفروق الموجودة في لهجاتهم اطلاعا كاملا، فلم يبق هناك أي حاجة للسماح بقراءة القرآن بقراءات أخرى. هذا السماح كان مؤقتًا حيث كان الإسلام في بدايته وكانت هناك قبائل وشعوب مختلفة، وكانت الفروق البسيطة بين اللهجات تؤدي إلى قلب بعض المعاني، ودفعًا لهذا اللبس سُمح للناس بقراءة بعض الكلمات الرائجة في لغة قبائلهم مكان كلمات الوحي الأصلي للقرآن لكي لا يكون هناك

عائق في فهم أحكامه والعمل بتعاليمه، ولكي يفهم أحكامَه كلُّ ذي لهجة بلهجته ويقرأها أيضا بلهجته. فلما انقضت عشرون سنة على هذا السماح، وانقلب الزمان وتغيرت الشعوب وأصبح العرب الذين كانوا قبائل متفرقة أمةً قوية حاكمة تدير النظام وتنفذ القانون وتنشر التعليم وتقيم الحدود والقصاص، لم يجد الناس صعوبة في فهم لغة القرآن الأصلية، فألغى عثمان ﵁ هذا السماح الذي كان مؤقتا. وهذه كانت مشيئة الله أيضا، ولكن الشيعة يرون أن أكبر جرائم عثمان ﵁ أنه ألغى القراءات المختلفة، وأبقى على قراءة واحدة. مع أنهم لو فكّروا لأدركوا بسهولة أن الله تعالى لم يأذن بقراءة القرآن بقراءات مختلفة إلا في الفترة الثانية لا في الفترة الأولى المكية.. وهذا يوضح بجلاء أن القرآن نزل بلغة الحجاز، وأما فرق القراءات فحصل بإسلام القبائل الأخرى؛ إذ كان بين قبيلة وأخرى اختلاف في نطق بعض الحروف أو في معاني بعض الكلمات، فسمح النبي ﷺ بإذن رباني لهؤلاء القبائل باستبدال هذه الكلمات أو نطقها، ولكن هذا ما كان يغيّر معاني الآيات ومفاهيمها، بل لولا هذا الإذن لتغيرت معانيها. والدليل على ذلك أن النبي ﷺ علّم عبد الله بن مسعود* سورة بطريقة وأقرأها عُمَرَ بطريقة أُخرى، لأن عمر كان من الحضر، وعبد الله بن مسعود راعٍ وكثير الاختلاط بالبدو، وبين لهجتَي الفريقين فرق كبير. وذات يوم كان عبد الله بن مسعود يقرأ تلك السورة، فمر به عمر فوجده يقرؤها بشيء من الاختلاف عن قراءته، فتعجّب عمر وقال إنه يغيّر بعض الكلمات، فلَبَّبه بردائه وقال تعال

---

* يبدو أنه قد حصل هنا سهو، لأن هذه القصة تتعلق بهشام بن حكيم بن حزام وليس بعبد الله بن مسعود، وهي في البخاري، كتاب فضائل القرآن كالآتي: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﵁ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا. وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا فَقَالَ لِي أَرْسِلْهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَرَأَ قَالَ هَكَذَا أُنْزِلَتْ ثُمَّ قَالَ لِي اقْرَأْ فَقَرَأْتُ فَقَالَ هَكَذَا أُنْزِلَتْ إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ. (المترجم)

أعرضك على رسول الله، لأنك تقرؤها على خلاف ما هي. فانطلق به يقوده إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأها عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا. فَقَالَ ﷺ لعبد الله بن مسعود: كيف تقرؤها؟ فأخذ يرتجف خوفا، ظنا منه أنه قد أخطأ، فهدّأ النبي ﷺ من روعه وقال: اقرأ. فَقَرَأَ. فقَالَ ﷺ. هَكَذَا أُنْزلَتْ. ثُمَّ قَالَ لِي اقْرَأْ، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: هَكَذَا أُنْزِلَتْ. إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فلا تختصموا على هذه الأمور البسيطة.

وليس سبب هذا الفرق إلا أن النبي ﷺ فكر أن عبد الله بن مسعود راعٍ، ولهجته مختلفة عن لهجة أهل الحضر، فعلّمه قراءةً تتفق مع لهجته، وأما عمر فهو من الحضر فعلّمه السورة باللهجة المكية الأصلية التي نزل بها القرآن.

هذه هي الفروق البسيطة التي ظهرت بسبب القراءات، ولكن هذا لم يغير من فحوى القرآن شيئًا، وكل عاقل يدرك أن هذا نتيجة حتمية للتمدن والتعليم وفروق اللهجات.

وذات مرة كنت في كراتشي، فجاءني وكيل شركة بأحد التجار من أصحاب الملايين، وكان الوكيل من أهل الحضر والتاجر من البدو، فبدأ التاجر حديثه معي بقوله: لعلك تعرف هذا الأمر، واستخدم لذلك كلمة (تُـمْ نُون)، وأهل الحضر لا يخاطبون الشخص الكبير بكلمة (تُم)، بل يقولون (آپْ)، ثم إن كلمة (نُون) معيبة جدًّا في الأردية، فلا يقال (تُم نون)، بل (تُم كو). وعندما أخذ التاجر يخاطبني بهذه الكلمة مرارا وجدتُ وكيله يتململ في كرسيه قلقًا وينظر إليّ ليرى تأثير هذه الكلمة عليّ، أما أنا فكنتُ أستمتع بكلماتِ التاجر وقلقِ الوكيل.

والحق أنه ليس هنالك أدنى فرق بين (تُم نون) و (آپْ كو) في الأردية من حيث المعنى، ولكن يصعب جدًّا على شخص من أهل الحضر أن يستعمل كلمة (تُم نون)، كما يصعب جدًّا على أهل القرى من منطقة "أنباله" أو"بتياله" مثلاً أن يقول (آپْ كو). وفي ولايتنا "البنجاب" يستخدم أهل منطقة "غجرات" كلمة "ڀهِدْنا"، وفي

منطقتنا يقال "پهڑنا"، ولو حاولنا أن نقول "پهدنا" لتصبَّبْنا عرقًا، ولو قلتَ لشخص من "غجرات" أن يقول "پهڑنا" لخنقتَه.

ومثال آخر لذلك أن أهل منطقة "غورْداسْبور" يسمون الشرير "شُهْدا"، أما أهل منطقة "سرْجودا" فيطلقون هذه الكلمة على إنسان شريف نبيل. وذات مرة جاءت إحدى قريبات الخليفة الأول ﷺ إلى قاديان وقالت عنه أثناء حديثها بين النساء: إنه "شُهْدا".. أي أنه إنسان شريف ولا علاقة له بالأشياء الشريرة. فأردن أن يمنعنها من استعمال هذه الكلمة في حقه ﷺ ولكن الحياء منعهن، وبعد قليل أعادت نفس الكلمة في حقه ﷺ، فكادت النساء يأخذن بتلابيبها وقلن لها: ألا تستحين من سب هذا الإنسان الشريف؟ فقالت في حيرة: متى شتمتُه؟ إنما أُثني عليه، أليس هو "شُهْدا"؟ فتقدّمت سيدة كانت تعرف الفرق بين لهجتي المنطقتين وهدّأتْ زميلاتها.

فلو ألّف المرء اليوم كتابًا لأهل البنجاب كلها واستعمل فيه كلمة "شُهْدا" بحق بعض الصلحاء، ألا ترى أن عليه أن يوضّح هذه الكلمة أو يستبدلها بكلمة أخرى لأهل المناطق البنجابية الأخرى؟ هذه الحاجة نفسها قد اقتضت في ذلك الزمن قراءاتٍ قرآنية مختلفة، ولكن لما تغيرت حالة القبائل نتيجة التمدن والحُكم، وصار العرب كلهم أمة واحدة، وتوحدت لغتهم حيث فهموا القراءة الحجازية تمامًا ارتأى سيدنا عثمان ﷺ -وكان مصيبا في رأيه كل الصواب- أن السماح بالقراءات المختلفة سيؤدي إلى الاختلاف، فألغى استعمال هذه القراءات استعمالا عاما ولم ير بأسًا في بقائها محفوظةً في الكتب. فبنيَّةٍ حسنة منع عثمان ﷺ من استخدام القراءات المختلفة، وجمعًا للعرب والعجم على قراءة واحدة، أجاز تداوُلَ المصاحف المطابقة للقراءة الأصلية الأولى للقرآن أعني القراءة الحجازية.

وقصة ابن أم عبد وأبي الدرداء التي ذكرها قبل قليل بشأن قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ هي أيضا من قبيل هذا الاختلاف في القراءات، ذلك أن (ما) في العربية تكون نافية أو مصدرية أو بمعنى (مَن). وإذا أُريد بيان معنى المصدرية ومعنى

(مَن) فلا ينفع استعمال (مَن) أو المصدر، لأن المصدر سيعطي معنًى واحدا فقط، وكذلك (مَن) ستعطي معنى واحدا فقط، لا المعنيين في وقت واحد. وهناك أماكن كثيرة في القرآن الكريم حيث أريد المعنيان: المصدر و (مَن)، ويستعمل القرآن في هذه الأماكن (ما) لأداء المفهومين. ولكن بعض القبائل العربية تستعمل (ما) بمعنى المصدر ولا تستعملها بمعنى (مَن)، فكانوا يعانون مِن فهم (ما) التي تكون بالمعنيين. ودفعًا لهذه المشكلة سُمح لهم بقراءة (والذكر والأنثى). وهذه الجملة تؤدي مفهوم (ما) إلى حد ما، ولكن ليس بصورة كاملة، فلذلك سمح لهم بها كقراءة مؤقتة، بدون أن تسجل هكذا في المصحف.

ومن الممكن أيضا أن يكون أبو الدرداء قد وقع في خطأ. وما دام يقول إن الصحابة يضغطون عليه أن يقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ فهذا يعني أنه نسي حتمًا.. وإلا لما ضغطت عليه أكثرية الصحابة قائلين إن القراءة الأصلية هي ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ وليس (والذَّكرِ وَالأُنْثَى). وعليه فأولاً ليس ضروريا أن نعتبر هذه الجملة قراءة أخرى بل نعتبرها خطأ من أبي الدرداء، خاصة وأن الصحابة لا يروها قراءة، ولكن لو سلّمنا أها قراءة أخرى، فهذا لا يغير معنى الآية أيضا كما قلتُ، واختلاف القراءات ليس دليلا على عيب في القرآن الكريم، بل دليل على سعة معانيه.

في الزمن القريب، زعم أحد الإنجليز -وكان بروفيسورا في دير في حلب- أنه اكتشف ثلاث نسخ قديمة للقرآن الكريم، وقد نشر ما فيها من اختلاف باسم (LEAVES FROM THREE ANCIENT QURANS).. أي أوراق من ثلاثة مصاحف قديمة. فأثار كتابه ضجة بين الناس، وظنّ المسيحيون أن دعوى القرآن بحفظه قد بطلت. فطلبتُ ذلك الكتاب لأرى الأدلة التي حاول أن يثبت بها أن القرآن غير محفوظ، فلما قرأته علمتُ أن النُّسخ التي قدّمها يوجد فيها اختلاف من قبيل ورود (ما) مكان (مَن)، وسقوط ألف من كلمة (قالوا) في بعض الأماكن، أو ورود ضمير الغائب المفرد مكان ضمير الجمع، مما يبين جليًّا أن هذا الاختلاف في النسخ إما أنه راجع إلى اختلاف القراءات أو أخطاء مطبعية.. فاستنتجتُ بقراءة

هذا الكتاب أن هذه النسخ القديمة إذا كانت صحيحة فإنها تؤكد حفظ القرآن الكريم حتمًا، لأن عباراتها لا تؤدي إلى أي فرق في معاني الآيات القرآنية مطلقًا. كل ما في الأمر أنه قد ورد في بعض الأماكن (ما) مكان (مَن) و(هو) مكان (هم)، مما يؤكد أنه مجرد اختلاف في القراءات فحسب.

باختصار، لا نجد حتى في مكتبات المسيحيين كتابًا يثبت أي فرق عن المصحف الحالي إلا بقدر ما أشرت إليه آنفًا.

لقد أشار المسيح الموعود عليه السلام إلى هذا الفرق في القراءات في بعض الأماكن، فمثلا قال في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾(النساء:١٦٠) أن هناك قراءة ﴿قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ وهي تؤيد موقفه حول وفاة المسيح عليه السلام (الحق -المباحثة في دهلي- الخزائن الروحانية المجلد ٤ ص ١٦٢). فالاختلاف في القراءات كان إما تفاديًا لضرر الاختلاف الموجود بين لهجات القبائل المختلفة، أو توسيعًا لمعاني القرآن الكريم.

بعد بيان الحكمة في اختلاف القراءات أتوجه الآن إلى تفسير هذه الآية.

لقد بين الله تعالى فيها أن أعمال الناس بالليل تختلف عما هي عليه بالنهار؛ فبالليل يستعدون للنوم، وبالنهار يستعدون للعمل، وباختلاف الأوقات تختلف أعمال الشخص الواحد نفسه، فإذا كان المرء يجري ويجتهد في عمله نهارًا فإنه يغطّ في سريره ليلاً؛ وإذا بهرك نشاطه وذكاؤه بالنهار فسيذهلك نومه وغفلته بالليل. ثم نظرًا إلى اختلاف الطبائع نجد بين شخص وآخر اختلافا كاختلاف السماء والأرض؛ فبعضهم نيام في حالة اليقظة، وبعضهم أيقاظ وهم رقود. وقد وردت في ديوان "الحماسة" واقعة لِفتى اشتهر بلقب: تأبَّطَ شرًّا -أي أنه يمشي بين الناس حاملا الشرّ تحت إبطه- فهذا الفتى قد توفي أبوه تاركًا وراءه أموالا وعقارا، فتزوجتْ أمه شخصا آخر، فأراد زوج أمه قتله طمعًا في ماله، فقرر قتله وهو نائم، فخرج به متظاهرًا أنه يريد التنـــزّه معه، فلما حلّ الليل ونام الفتى هبّ الرجل من فراشه بنية قتله، ولكنه لم يمشِ خطوة من سريره حتى قام الشابّ والسيف في يده وقال: ما بك؟ فقال الرجل: ليس هناك شيء، وإنما قمتُ لحاجة. وبعد انقضاء

ساعة أو ساعتين هبّ الرجل ثانية لقتل الفتى، فاستيقظ وقال للرجل: ماذا بك؟ فقدم له عذرًا آخر. وهكذا ظلّ كل الليل يحاول أن يجد الفتى نائما ليقتله ولكنه لم يستطع ذلك، لأن الفتى كان يهبّ بسيفه فورًا ويسأله ما به. كان زوج أمه كبير السنّ وأضعف منه، فخاف أن يقتله، فرجع به في اليوم التالي موقنا أنه لن يقدر على قتله.

إذًا فبعض الناس أيقاظ في نومهم أيضًا فيهبّون على همس بسيط، بينما نجد آخرين يعيشون بالنهار نائمين وكأنهم في الليل؛ فإذا جلسوا في مجلس نعسوا وناموا، حتى إن بعضهم يخرج من المجلس ويستلقي على الأرض وينام. وهذا ما يشير الله تعالى إليه هنا حيث يبيّن أن هناك حالتين؛ حالة الليل وحالة النهار، فبالليل يُغلَب الإنسان النشيط الذكي أيضًا بالنوم، أما الآخرون فينامون نومًا عميقا فلا يفتحون عيونهم ولو أيقظتهم بهزات قوية؛ فإن كان شتاءً ما خرجوا من تحت اللحاف، وإن كان صيفًا ورشَشْت الماء على وجوههم أداروها. أما النهار فهو وقت العمل، فيقوم فيه الشخص النشيط بأنواع الأعمال لرقيه، أما الكسول فهو أيضا يضطر لفعل شيء وقت النهار وإن قضى الليل كله في النوم. والأمم أيضا نوعان: فبعضها في ليل وبعضها في نهار. والأمم التي تشبه الليل.. أو بتعبير آخر تكون في ليل: تنام ليلَ نهارَ؛ بمعنى أنهم يقضون ليلهم نيامًا، ولا يقومون في نهارهم بعمل ينفعهم وينفع أمتهم. أما الأمم التي تكون في نهار فيقضون نهارهم في أعمال، كما لا تنقضي لياليهم بدون فائدة، بل ينجزون في أوقات الظلمات والمصائب من الأعمال ما لا تُنجزه الأممُ التي تظلّ في ليلها رغم طلوع نهارها.. أعني رغم تيسُّر الأسباب والمرافق لها. هذا يشير الله إليه بقوله ﴿واللَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾.. أي أننا نقدّم الليل شهادةً حين يغشى.. أي يغطي قُوى الناس، وحين ينام الجميع ويسود السكون مكان الحركة.. أي لا يحل الظلام بالليل فحسب، بل يغطي الليل كل شيء بالفعل. فمثلاً إذا سافرتَ ليلاً فسوف تقطع مسافة أقل، ذلك أنك تتقدم بحذر بسبب الظلام، فلو سافرتَ بالسيارة فستقودها بنصف السرعة تقريبا في الليل مخافة أن تدوس أحدًا أو تصاب بحادث بسبب الظلام. أما لو نام السائق نفسه

لازداد الخطر أكثر. فثبت أن الليل لا يأتي بالظلام فقط، بل يغطي كل شيء عمليا.. أي لا ينام جسم المرء فقط، بل يتحكم الليل بعقله وفكره في حالة نومه، فلا يستطيع التمييز بين ما هو خير له وما هو شر له.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى لم يقدم هنا الليل وحده كشهادةٍ، بل قال ﴿والَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾، ذلك أن الناس يظلّون مستيقظين في جزء من الليل، فالمسلمون مثلاً يصلّون المغرب بعد غروب الشمس، ثم بعدها بقليل يصلّون العشاء ويذكرون الله تعالى بعد السنن والوتر، ثم يستعدون للنوم. والمولعون بمطالعة الكتب يطالعونها بالليل ثم ينامون. أما المستهترون فيقضون أوقاتًا من الليل في المسارح والملاهي والسينما وحانات الخمر، ويلعب الأثرياء الورق والبلياردو في النوادي. فليس كل الليل للنوم، بل يظل الناس مستيقظين في جزء منه؛ ولذلك لم يستشهد الله تعالى هنا بالليل وحده، بل قال ﴿والَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾.. أي نقدم أمامكم الليل شهادةً حين يغطي كل شيء بالفعل، فلا يستولي على جسد الإنسان فحسب، بل على عقله ودماغه.

ثم قال الله تعالى ﴿والنَّهارِ إذا تَجَلَّى﴾.. فأضاف هنا لفظ ﴿إذا تَجَلّى﴾ ليبين أننا نقدم أمامكم النهار شهادةً حين يشتدّ ضوءه بحيث إذا أراد أحد النوم والغفلة فلا يستطيع أيضا. ولم يقدم هنا الجزء الأول من النهار، لأن بعض الناس ينامون في الصباح، ولكن لا ينام أحد عند ارتفاع النهار. وكان مِن عادة الصوفية النوم في الصباح بعد صلاة الفجر لبعض الوقت، وكان المسيح الموعود عليه السلام يستريح بالنوم قليلا بعد صلاة الفجر. لقد ضرب الله تعالى للكفار مثال هاتين الحالتين.. أي حالة الليل حين يغطي كل شيء، وحالة النهار حين يستيقظ النيام، وقال: هذا هو الفرق بين حالتكم وحالة محمد ﷺ وأصحابه، فآثار التعب والنوم جلية من حالتكم. والدليل على ذلك أن العرب لم يحرزوا أي تقدم ملحوظ، وما أحرزوه أدّى إلى تعبهم. كان جوار مكة وسدانة الكعبة أكبر شرف عندهم، ولكنهم أصبحوا كسدنة المعابد الهندوسية حيث فقدوا قوة العمل، وزادهم أعمالهم رهقًا، ولذلك يقول الله تعالى إن قواكم وكفاءاتكم في تعب ونوم. تريدون أن تناموا أكثر فأكثر

لطول جهالتكم وتَرَفِكم، أما محمد ﷺ ومَن معه فهم في حالة يقظة وصحوة ويتمتعون بقوة عمل. إنهم يريدون أن يَصْحوا ويعملوا، أما أنتم فتريدون أن تناموا وتغفلوا، فأين أنتم منهم؟ وشتان بين النائم واليقظان! إن حالتكم تدل أنكم في حالة نوم الليل، وحالتهم تدل أنهم في يقظة النهار، ولياليهم كالنهار، ونهاركم كالليل، فكيف تواجهونهم؟ فلن تنعموا بالراحة أبدا ما لم تخرجوا من ليلكم وتدخلوا في النهار مثلهم.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ فيعني أننا نقدّم شهادةً اللهَ الذي خلق الذكر والأنثى اللذيْن يستمر بهما النسل. بمعنى أنه كما يوجد في الدنيا أُناس هم في حالة النهار الدائم، وأناس هم في حالة الليل الدائم، كذلك يوجد أناس هم كالرجال، وأناس كالنساء.. أي هناك قوم ينفعون الآخرين بفيوضهم، وقوم ينتفعون بفيوض الآخرين. فالذين عندهم قوة الإفاضة هم بمثابة الذكر، والذين عندهم قوة الاستفاضة هم بمثابة الأنثى، أما الذين يفتقرون إلى قوة الإفاضة أو الاستفاضة فهم كالخنثى، فلا يقدرون على إحداث ثورة في العالم. فنقدِّم خلْق الذكر والأنثى أيضا شهادةً.. لأن الذَكر فيه قوة الإفاضة حيث يعطي الولد للأنثى، وأما الأنثى ففيها قوة الاستفاضة حيث تتلقى الولد من الذَكر وتربّيه؛ وهاتان هما القوتان اللتان يؤدي التقاؤهما إلى النتائج الهامة، إذ لو لم يلتقِ الذكر بالأنثى لانقطع النسل الإنساني كلية.

قد اعترض البعض هنا على قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ وقال لقد ذكر القرآن هنا خلق الذكر والأنثى ولكنه لم يذكر خلْق الخنثى! لقد أخذتني الحيرة بقراءة هذا الاعتراض في الكتب، ثم ازدادت حيرتي حين وجدتُ المفسرين قد حاولوا الرد عليه وقالوا إن ما هو خنثى عندنا هو ذكر أو أنثى عند الله حتمًا. (فتح البيان)

لا شك أن هذا الجواب اضطراري، وإلا فإن الواقع أن ولادة الخنثى ليس خَلْقًا، وإنما هو تشوُّهٌ للخَلْق، ومثاله أن تصنع مشروبا فيبول ولدك الواقف بجنبه فتسقط قطرة من بوله في المشروب.. فلن نسمي ذلك مشروبا إذ صار نجاسة.

فهل هناك عاقل في الدنيا يقول إن هناك مشروبا ممزوجا بالعطر ومشروبا ممزوجا بالبول؟ كذلك قد خلق الله تعالى كل إنسان ذكرًا أو أنثى، وولادةُ خنثى بخطأ من الوالدين أو لفساد صحتهما لا يُسمّى خَلْقًا، بل هو تشوُّهٌ خَلْقيٌّ ظهر بهذا الشكل. إن مَثَل اعتبار الخنثى خَلْقًا كمثل أن يقول المرء إن الله تعالى يخلق العيون، فيقول له شخص: لكن يوجد هناك عميان أيضًا. فلا شك أن الجميع يعتبر قوله كلامًا فارغا، لأن ولادة البعض أعمى إنما هو نتيجة جهالة الوالدين أو غفلتهما أو مرضهما. إن الله تعالى يخلق الجميع بعينين، أما ولادة أعمى فهو تشوّهٌ وفساد خَلْقي وليس خَلْقا من نوع آخر. وكما قلت فإني في حيرة من خوض المفسرين في هذا البحث وتبريرهم لماذا ذكر الله خلق الذكر والأنثى ولم يذكر خلق الخنثى!

إن ولادة الخنثى تماثل ولادة البعض من دون أنف أو عين أو رجل أو يدٍ أو لسان أو زيادة الأصابع أو نقصها، وواضح أن كل هذه الولادات هي من قبيل التشوّه الخَلقيّ وليست أنواعا جديدة من الخَلْق، وإلا ستبلغ أنواع الخلْق آلافًا. لقد جعل الله لكل إنسان رِجْلين، ولكن يولد بعض المواليد بثلاثة أرجل نتيجة عدم حيطة الوالدين أو فساد في رحم الأم. كذلك قد جعل الله تعالى لكل إنسان جسما منفصلا، ولكن قد يولد التوءمان ملتصقين، فيُفصلان بعملية جراحية، وأحيانًا يستحيل فصلهما بالجراحة إذ يكون الجسمان منفصلين في الظاهر ولكن يشتركان بقلب واحد أو كبد واحد أو طحال واحد أو معدة واحدة، فيعيشان ملتصقين طول العمر. فإذا كان قولهم صحيحًا فيجب ألا يقدموا الخنثى وحده كخلْق جديد، بل يقدموا كل هذه الأمثلة من قبيل التشوّه الخَلقي أيضًا، فيقولوا إن من أنواع الخلق ولادة توءمين ملتصقين لهما كبد واحد وقلب واحد ورئة واحدة ومعدة واحدة، ومن أنواع الخلق المولودُ من دون عينين أو المولودُ بثلاثة أرجل وما إلى ذلك. الواقع أن هذه كلها أمثلة للتشوه الخَلْقي، ومن يعترض على القرآن بتقديم هذه الأمثلة ويقول لماذا ذكر الله تعالى خلْق الذكر والأنثى ولم يذكر الخنثى، فإنما يدلّ على حمقه وغبائه. وكان على المفسرين أن يرفضوا هذا الاعتراض باعتباره

دليلاً على حماقة صاحبه بدلاً من أن يأخذوا في الرد عليه، لأن هناك نوعين من الخلْق فقط؛ الذكر والأنثى، والتقاؤهما يؤدي إلى الإنجاب، وبدونه لا يولد شيء.

وإلى سلسلة الخَلْق هذه يشير الله تعالى في هذه الآية ويقول إذا تدبرتم في العالم تبين لكم أن النسل يستمر بالتقاء الذكر بالأنثى، حيث يوجد في أحدهما قوة الإفاضة وفي الآخر قوة الاستفاضة؛ والتقاؤهما يُنتج، أما إذا لم يلتقيا فلا نتاج. فلو قال الذي ليس فيه قوة الإفاضة إنه ليس بي حاجة إلى الاستفاضة من غيري فهو جاهل، كذلك لا يمكن لمن ليس فيه قوة الاستفاضة أن يُظهر قوة إفاضته من دون الالتقاء بغيره. إن قوتَي الإفاضة والاستفاضة متلازمتان، فإذا قال أفراد أمّةٍ ليست عندهم قوة الإفاضة إنهم قادرون على القيام بأعمالهم دونما إرشاد أو مساعدة من أحد، وأنهم ليسوا بحاجة إلى قوة من غيرهم، بل في سواعدهم من القوة ما يستطيعون به خوض سباق الرقيّ، فلا شك أن دعاويهم كلها فارغة. ما داموا يفتقرون إلى قوة الإفاضة فكيف يتقدمون بدون مساعدة هادٍ؟ إنهم لن يتقدموا إلا إذا كان عندهم قوة الاستفاضة.. أي القدرة على الانتفاع من فيوض غيرهم، لأن مَثَلَهم مَثَلُ العاكس، والعاكس ليس الضوء، وإنما هو مرآة عاكسة للضوء، فإذا لم يعكسوا الضوء الأصلي عبر مرآة طاعتهم لصاحب الضوء، فلا نصيب لهم إلا الظلام والضلال.

باختصار، فكما أن النسل لا يستمر بدون اتصال الذكر بالأنثى، كذلك لا تزدهر أمة إلا إذا وُجد بينهم هادٍ يتمتع بقوة الإفاضة، وكان أفرادها يتمتعون بقوة الاستفاضة. وقد ضرب الله هذا المثال للكفار ليبين لهم أنْ لا قِبَلَ لهم بالمسلمين لأن اتصال محمد وأصحابه سوف يسفر عن ثورة عظيمة في الدنيا، فإنه يتمتع بقوة الإفاضة إلى حدّ الكمال، وأصحابه يتمتعون بقوة الاستفاضة بشكل تام، والتقاؤه بهم سوف ينتج نسلا جديدا. فكما أن التقاء الزوجين يسفر عن ولادة مولود، كذلك سيؤدي الاتصال الروحاني بين الرسول وصحابته إلى عمران جديد. أما أنتم يا أهل مكة فلا تتمتعون بقوة الذَكر ولا بقوة الأنثى. ستموتون في هذا السبات، وتُهلِككم غفلتكم، لأنكم لستم بمثابة ذكر، كما لا تحاولون أن تتمتعوا

بقوة الأنثى، بل تريدون أن تصبحوا كالخنثى، فكيف تتوقعون لكم خيرًا أو مصيرًا حسنًا؟

يقول المعترض أن القرآن لم يذكر الخنثى هنا! أفلا يرى كيف تتحدث هذه الآيات عن الخنثى، إذ تعلن أن محمدا ﷺ يتمتع بقوة الإفاضة الكاملة وصحابته الكرام يتمتعون بقوة الاستفاضة الكاملة، أما أنتم يا أهل مكة فتعوزكم قوة الإفاضة وكذلك الاستفاضة، فأنتم خُناثى من الناحية الروحانية، ولستم من الذكور ولا من الإناث؛ إذ لا تتمتعون بقوة الذكور حتى تنيروا الآخرين، ولا بقوة الإناث حتى تقتبسوا النور من محمد ﷺ، فأنى لكم أن تزدهروا في الدنيا؟ إنكم الخناثى، ولا نسل للخنثى. فثبت أن محمدا ﷺ هو الآدم الكامل في العالم الروحاني، وصحابته الكرام هم الحواءات الكاملات، وكفار مكة هم الخناثى.

إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

شتى: يقال أشياء شتى: أي مختلفة. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى للكافرين هناك بون شاسع بين سعيكم وسعي المسلمين. فسعيكم مرتكز على الخلود إلى النوم، وسعيهم مرتكز على الصحوة والتقدم. إن سعيكم هو في سبيل الشيطان رئيسِ الظلام، أما سعيهم فهو في سبيل الله الذي هو نورٌ بنفسه وخالق النور أيضا، فكيف تستوي نتائج مساعي الطرفين؟ تنصبّ مساعيكم على إعداد الفراش وتسوية الوسادة واللحاف من أجل الإخلاد إلى النوم، أما الصحابة فسعيهم لحرث الأرض وبذر البذور وسقي الزروع ورعايتها، لكي تدرّ بأكبر محصول، وليس صعبًا أن تعرفوا بأنفسكم ما إذا كان النيام يكسبون شيئا أم اليقِظون! أنتم في ليل وهم في نهار، وما دامت مساعي الفريقين مختلفة تماما، فكيف تكون نتائجها متشابهة؟ وكيف تظنون أن مصير النائمين في ليلهم ومصير المجتهدين بالحراثة والسقي في نهارهم مصير واحد؟

ويمكن تفسير الآية بمفهوم آخر، وهو أنكم خناثى تفرّون من الذكر، ولكن صحابته ﷺ كالإناث ولا يفرّون منه، بل يحاولون الاتصال به، فأنى يكون لكم أولاد روحانيون؟ إنما يكون الأولاد للعروس التي تذهب إلى العريس، أما التي تفرّ منه فلا تلد شيئًا. هذا هو مثال محمد ﷺ وقومه. إن أصحابه ﷺ يدركون أنهم لا يتمتعون بقوة الإفاضة أي قوة الرجولية، بل يتمتعون بقوة الاستفاضة، ولذلك يتوجهون إلى عريسهم الروحاني، أما أنتم أيها الكافرون، فليس عندكم قوة الإفاضة والإنتاج، وإنما عندكم الاستفاضة، ولكنكم لسوء أعمالكم مصابون بمرض، حيث لا تعرفون عريسكم وتفرون منه. فمَثَلكُم كمَثَل الليل، ومَثَلُ صحابته ﷺ كمثل النهار. إنهم كأنثى تذهب إلى عريسها، وأنتم كخنثى يفر منه، فكيف تزدهرون مع هذا البون الشاسع بينكم وبينهم؟ وكيف تتوقعون أن يتولد عندكم نور السماء وتنالوا العزة في الدنيا؟ كلا، إنما هم الذين سيحملون الثمار الروحانية دونكم. إنما تعمر الدنيا الآن بواسطة هؤلاء العرائس اللواتي يتوجهن إلى العريس، وليس من اللواتي يكرهن الاقتراب منه. فلا تظنوا أنه سيكون لكم نصيب في رقي العالم، كلا، بل إن عمرانها سيكون بواسطة المسلمين، ولن تزدهر إلا أُمّةٌ قد طلع النهار عليها وقدّمت التضحيات ولا تزال تُقدِّمُها، أما الذين يؤثرون الراحة والكسل فلا نصيب لهم من هذه النعم.

وفي الآيات التالية ضرب الله تعالى مثالا بين به الفرق بين الظلام والنور، وبَيْن الأمة التي تتمتع بقوة الأنوثة الكاملة والأمة العاقر.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٦﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٧﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

فَسَنُيَسِّرُهُ: يسَّر الشيءَ لفلان: سهَّله له. (الأقرب)

التفسير: أي أن مثل الأُمّة التي هي في نهار وتتمتع بالأنوثة الكاملة كَمَثَلِ شخص أعطى واتقى وصدّق بالحسنى. لقد بين الله بذلك موضوعا غاية في الدقة واللطافة، لأن قوله تعالى ﴿أَعْطَى﴾ يشير إلى صحة العمل، وقوله ﴿واتَّقى﴾ يشير إلى صحة العواطف والمشاعر، وقوله ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى﴾ يشير إلى صحة التصديق، الذي هو وثيق الصلة بالفكر. وبتعبير آخر لا بد للأمة التي تريد التقدم والازدهار من صحة العمل وصحة المشاعر وصحة التفكير، ذلك أن ﴿أعطى﴾ يعني آتى.. وهذا يشير إلى قيامه بعمل صحيح، وأما ﴿واتقى﴾ فيعني أنه خاف وتجنب كل سوء، وهذا يشير إلى سلامة المشاعر، وأما ﴿وَصَدَّقَ بِالحُسْنى﴾ فيعني أنه صدّق الأمور الحسنة، وهذا يشير إلى صحة الأفكار. وهكذا نبّه الله تعالى إلى ثلاثة إصلاحات لا بد منها لتكميل الإنسان.

الواقع أن هذه الكلمات الوجيزة تتناول أمرًا هامًّا من علم النفس، وتبيّن أن الإنسان إنما ينصلح تماما بالعمل الصحيح والإحساس الصحيح والفكر الصحيح، وما لم تتحلَّ أُمة بهذه المحاسن الثلاثة فتقدُّمُها مستحيل. إن العلم الكامل يُصلِح الأفكار، والإحساس الكامل يصلح المشاعر، والعمل الكامل يصلح السلوك، وهذه هي الأمور الثلاثة التي تضمن النجاح. أما إذا لم يتيسر للمرء العلم الصحيح، فلا بد أن تفسد مشاعره، فيفسد عمله أيضًا. فالملح المطحون والسكر مثلاً متماثلان شكلاً، ولو قدّمتَ لأحد السكرَ فوضعه في الطبيخ ظنًّا منه أنه ملح، فهذا العلم غير الصحيح سيؤدي إلى فساد الطبيخ، إذ لا يمكن أن يتحول السكر ملحا لمجرد أنه وضعه في الطبيخ باعتباره ملحًا. كلا، بل إن العلم الخاطئ يؤدي إلى العمل الخاطئ والمشاعر الخاطئة حتمًا. أو مثلاً إذا كان في البيت دواء للعين أو زيت للتدليك، فسقت الأُمّ ولدها منه جهلاً، فسيموت الولد حتمًا، ومن المحال ألا يأتي علمها الخاطئ بنتيجة خاطئة. فثبت أن العلم الخاطئ يؤدي إلى المشاعر الخاطئة والعمل الخاطئ.

أو مثلاً يفقد أبٌ ابنه، ولا يجده رغم البحث الكثير، فيكبر الابن في مدينة أخرى، ويبدأ عمله، وبعد انقضاء سنوات طويلة ينسى صورة والده، ولنفترضْ أن أباه الفقير يذهب إلى المدينة التي فيها ابنه ويعمل هناك للناس بالأجرة، ويكون ابنه في سفر أو يريد نقل الأثاث من بيت إلى آخر، أو نقل بضائع كثيرة اشتراها من السوق، فيبحث عن أجير فيقع نظره على والده و لم يعرفه، فهل تظن أن قلب الابن سيرقّ لوالده حبًّا له وحنينًا إليه؟ كلا، بل إنه سينظر إلى والده نظرته إلى أي أجير بسبب علمه الخاطئ، وسيقول له بدون تردد: تعال أيها العجوز واحملْ أمتعتي إلى بيتي مقابل كذا من المال. فمع أن الفتى ابنُ العجوز إلا أنه لا يعلم ذلك بل يظنه أحد الأجراء، فلذلك لا يتولد في قلبه أي مشاعر حب وشفقة على والده، فيعامله معاملة الأجير؛ فثبت أن العلم الخاطئ يخلق مشاعر خاطئة دائمًا، والمشاعر الخاطئة تؤدي دائما إلى عمل خاطئ. إن العلم محرك للمشاعر، والمشاعر محركة للعمل، ولا يتأتى العمل الصحيح إلا بالمشاعر الصحيحة السامية، ولا تتولد المشاعر السامية إلا بالعلم الصحيح. انظروا إلى حب الأم كيف تتفانى في العناية بولدها، وعندي أن الخادم لو زيدتْ أجرتُه عشرين ضعفًا لما اعتنى بالولد ليلَ نهار كالوالدين اللذين يعانيان في تربية أولادهما، ذلك أن الخادم لا يعمل بالعاطفة، بل مدار عمله الفكر فقط بدون المشاعر. فثبت أن العمل الصحيح بحاجة إلى المشاعر الصحيحة، والمشاعر الصحيحة بحاجة إلى العلم الصحيح، وإذا اجتمعت هذه الثلاث في قوم أو فرد أصبح كاملا.

لقد أشار الله تعالى هنا بقوله ﴿أَعْطَى﴾ إلى صحة الأعمال، وبيّن أن الإنسان المشار إليه لا يجمع الأموال، وأشار بقوله تعالى ﴿اتقى﴾ إلى صحة المشاعر، وبيّن أنه يتجنب السيئات. وكان الله تعالى قد ذكر في السور السابقة أن من عادة الكفار أنهم لا ينفقون أموالهم في مصالح الأمة، بل يهدرونها في اللهو واللغو، حيث قيل بلسان الكافر ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾(البلد:٧).. أي قد أنفقتُ قناطير مقنطرة من المال، ففنَّد الله زعم الكافر وبيّن له أنك قد أنفقت مالاً كثيرا بالفعل، ولكن ليس لمصلحة الأمة ولا لمساعدة اليتامى والمساكين ولا للنهوض بالفقراء والمحتاجين، وإنما

رياءً وتفاخرًا بين الناس؛ فإنفاقُك مضيعةٌ للمال؛ إذْ كان إنفاقًا خاطئا. وكذلك قال الله تعالى للكافرين ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾(الفجر:٢٠).. أي تدمّرون ما ترك لكم آباؤكم من مال وعقار. باختصار، قد بين الله في السور السابقة أن الكافرين ينفقون أموالهم، ولكن بطرق خاطئة، إذ يضيعون أموالهم بالبذخ والإسراف، ويمسكونها عندما يكون الإنفاق لزامًا. أما في هذه السورة فوصف الله المؤمن فقال ﴿أَعْطَى﴾.. أي أنه يهتم بحاجات الأمة ويستعد دومًا للتضحية بماله كلما تطلب الأمر.

وجدير بالتنبه أن الله تعالى لم يقل هنا: أعطى المال، بل قال ﴿أعطى﴾ فقط. ذلك لأن من مزايا اللغة العربية دون غيرها من اللغات كلها توسيع المعاني بحذف المفعول أو المضاف، فلو قيل هنا (أعطى المال) لانحصر المعنى في إنفاق المال، ولكنه تعالى قال ﴿أعطى﴾، بمعنى أنه أعطى المال أو العلم وما إلى ذلك مما يمكن أن يُعطى. ويماثله قوله تعالى ﴿ومما رَزَقْناهُم يُنْفِقُون﴾(البقرة:٤).. أي أنهم ينفقون نصيبا مما أعطيناهم لخير بني جنسهم ومصلحتهم. فأطلق الرزق هنا لتوسيع المعاني.. أي إذا كان عندهم مال أنفقوا المال، وإذا كان عندهم علم أنفقوا العلم، وإذا كان عندهم وقت أنفقوا الوقت. فهم ينفقون لخير الناس من كل ما أعطاهم الله. وهنا أيضا قال الله تعالى ﴿أَعْطَى﴾ فلم يحدد ما ينفقه هذا المؤمن ليبين ﷻ أنه ينفق لنفع بني جنسه من كل ما أعطاه الله تعالى من نِعَم وخيرات، فإذا منحه الله القوة أنفق من قوته، وإذا منحه الوقت أنفق من وقته، وإذا منحه المال أنفق منه، وإذا وهبه كفاءات عالية أنفق منها.

ثم قال الله تعالى ﴿واتقى﴾، أي أن هذا المؤمن يقوم بكل عمل بالتقوى، فيخاف دائما أن يقع بالخطأ فيما يضر به الناس بدلاً من أن ينفعهم؛ فمثلا لو أعطى غيره مالاً كثيرًا فأتلفه منغمسًا في الملاهي والملذات، فعطاؤه هذا غير سليم مطلقا، كذلك لو ساعد الظالم فازداد ظلمًا فليس عطاؤه في محله، ولذلك أردف الله قوله ﴿أعطى﴾ بقوله ﴿واتقى﴾، ليبين أن هذا المؤمن يعطي ما يعطي وهو خائف أن يقع

في خطأ يضر الإنسانيةَ في مجال العِلم أو العَمل أو السياسة أو الاجتماع وما إلى ذلك، فيجلب غضب الله تعالى بدلاً من الثواب.

أما قوله تعالى ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ فأوضح فيه أن المؤمن لا يكتفي بهذا فحسب، بل يظل في إصلاح أفكاره ساعيًا إلى اعتناق أصح العقائد. علمًا أن "الحسنى" لا يعني الشيء الجيد فحسب، بل يعني الأجود والأفضل، فكأنما يخبر الله تعالى بقوله ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أن المؤمن يصدّق بأفضل الأمور وأحسنها.. أي يبلغ في العلم الذروة.

هنا ينشأ سؤال: لقد بينتُ من قبل أن العلم محرك للمشاعر، والمشاعر دافعة للعمل، ولكن الله تعالى قد ذكر هنا العمل أولاً ثم المشاعر ثم الفكر، فكأنه قلب الترتيب تمامًا، فما السبب؟

الجواب أن الله تعالى قد عكس الترتيب تبيانًا لأهمية هذه الأمور، لأن التركيز هنا على المقارنة بين المؤمنين والكفار، والعمل هو الأكثر أهمية عند المقارنة بين طائفتين، ولذلك ذكر الله تعالى العمل أولاً ثم الدافع إليه ثم دافع الدافع إليه. والواقع أنه من حيث الظهور يكون العلم في المقام الأول ثم المشاعر ثم العمل، أما عند المقارنة بين فريقين فلا يرى الناس إلا العمل، بينما تظل المشاعر والعلم في الخفاء؛ وحيث إن الله تعالى يقارن هنا بين الكفار والمسلمين ويقول للكفار إن ادعاءكم بالانتصار على المسلمين لغو، لأنكم تفتقرون إلى المزايا والمحاسن التي يتحلى بها المسلمون، فانتصارهم حتمي، وليس لكم غير الفشل؛ ولذلك ذكر الله تعالى العمل أولاً. ولو ذُكرت مشاعر المسلمين وأفكارهم لما اعترف الكافرون بأهميتهما؛ فلو قيل لهم مثلا: إن صحابة محمد أكثر منكم علمًا، لقالوا هذا خطأ، بل نحن أكثر منهم علما. ولكن حين قيل لهم إن المسلمين يخدمون الفقراء ولا تنفقون على الفقراء شيئا، لم يكن عند الكفار أي جواب لذلك. باختصار، لقد ذكر الله تعالى العمل أولاً في معرض المقارنة بين الكفر والإيمان، أما في الدوافع الطبيعية فإن العلم يأتي في المقام الأول ثم المشاعر ثم العمل. إن الناس ينظرون إلى العمل قبل كل شيء عند المقارنة بين الصالح والطالح، فلذلك عكس الله الترتيب الطبيعي، فذكر العمل أولاً ثم المشاعر ثم

الأفكار، لأن ذِكر العمل سيساعد الكفار على المقارنة بينهم وبين المسلمين، ويبكّتهم، أما المشاعر والعلم فيمكن أن يقدموا بصددها ألف شبهة.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾.. أي أن الذي يتصف بهذه الصفات سنهيئ له اليسرى حتمًا. ولهذه العبارة مفهومان: أولهما أننا سنهيئ له من الظروف والأسباب ما يسهّل عليه الانتصار والغلبة؛ ذلك أن تيسير اليسرى إنما يعني أن تأتي نتائج أفعال المرء على حسب رغبته، وإذا تيسرت الأسباب لأحدٍ كما أراد فقد تيسرت له اليسرى. فالمفهوم الأول لقوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾ أننا سنجعل له سهولة في كل أمر.

والمفهوم الثاني هو أننا سوف نسهّل عليه العمل الحسن بالتدريج. الواقع أن العمل الصالح يشقّ في بدايته على المرء جدا، فمثلا إذا قيل له أن يصلح أعماله أو مشاعره وأفكاره فسيصاب بالقلق ويعتبره عملاً مستحيلاً، ولذلك يوضّح الله هنا أن الإنسان إذا ما سار على هذا الطريق وبدأ هذه الأعمال بعزيمة، فمن سُنّتنا أن نسهّل عليه إنجازها، فلن تشقّ عليه بل سيقوم بها ببشاشة وبهجة. فمثلاً حين يُؤمَر المرء بأداء الصلاة أول مرة يجدها عملا صعبا جدا، ولكنه يعتادها بالتدريج حتى يرى ترك صلاة واحدة أسوأَ من الموت. فالمرء كلما أُمِرَ بعمل صالح هام قلق باعتباره عملاً صعبا جدا، ولكن الله تعالى يقول ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾. والحق أن العمل الصالح هو السهل، وأن العمل السيئَ هو الصعب، ولذلك يقول الله تعالى في سورة أخرى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٨).. أي لقد جعلنا القرآن سهلا للهداية، فهل فيكم من يجرّب ذلك ويُرضي ربه؟ إنما اليسرى الحقيقية هي التعاليم الربانية التي تطوِّر روحَ الإنسان، ولكنها تبدو عُسْرَى في البداية فيتردد الإنسان في العمل بها خوفًا، فلذلك يعلن الله تعالى هنا أننا سنجعل الأعمال الصالحة الصعبة في الظاهر سهلةً للصحابة الكرام الذين ينتفعون بالقوة القدسية لمحمد، ونرغّبهم فيها ترغيبا. ذلك لأن الذي يلجأ إلى العلم الصحيح والمشاعر الصحيحة والعمل الصحيح تصبح رؤيته سديدة، فيجد في فعل الخيرات لذة وسرورا، بينما يجد الآخرون ذلك صعبًا جدا.

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٩﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿١٠﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١١﴾

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا ثلاثة أمور مقابل ثلاثة أمور ذكرها في الآيات السابقة، فقال: ﴿بَخِلَ﴾ مقابل ﴿أعطى﴾، و﴿اسْتَغْنَى﴾ مقابل ﴿اتَّقَى﴾ و ﴿كَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ مقابل ﴿صَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾. علمًا أن المراد من ﴿اتَّقَى﴾ أنه يخاف أن يَغضب اللهُ عليه بسبب خطيئة، أما ﴿اسْتَغْنَى﴾ فيعني أنه لا يبالي بأحد، أي يقول: لا أبالي ما إذا كان الله يغضب عليّ أم لا، فحيث إن هذا الاستغناء يتنافى مع التقوى، فذكر الله ﴿اسْتَغْنَى﴾ مقابل ﴿اتَّقَى﴾.

لقد بين الله أن الشخص المذكور هنا يبخل، فقد أعطاه المال والعزة والقوة والوقت، ولكنه لا ينفق أيًّا منها في سبيله تعالى، بل يقول إني لا أكترث لأحد، فمن ذا الذي يمكن أن يضرّني؟ ولا شك أن أصحاب الطبائع الفاسدة هم من يستعلمون مثل هذه الكلمات عادة، فإذا نُهوا عن منكر قالوا: لا نبالي بأحد! فمن ذا الذي يقدر على الإضرار بنا؟ ولذلك يبين الله تعالى هنا أن من المحال أن يُكتب الرقي لمن يجمع مع بخله مثل هذا الطبع الفاسد ثم يكذّب بالحسنى، أي أنه ذو فكر مريض؟ إن هذا الاستغناء في طبيعته دليل افتقاره إلى المشاعر السليمة؛ إذ إن المشاعر الصحيحة تولّد في الإنسان الحبَّ لا الاستغناء؛ فمثلاً عندما ترى الأُم ابنها يموت فلا تقول فليمتْ فإني لا أبالي، ولكن الخادم الفاسد قد يقول مثل هذا الكلام، لأن مشاعره غير مشاعرها. فثبت أن فقدان المشاعر السويّة السليمة يؤدي إلى الاستغناء، وفقدان العمل الصحيح يؤدي إلى البخل، وفقدان الفكر السليم يؤدي إلى التكذيب. لقد أخبر الله تعالى في الآيات السابقة أن مِن الناس مَن عندهم العمل الصحيح والمشاعر الصحيحة والفكر الصحيح، وقد بيّن الآن أن هناك أُمّةً أعمالهم خاطئة ومشاعرهم خاطئة وأفكارهم خاطئة. وحيث إن الحديث في هذين المثالين هو عن المسلمين والكفار فكأنما ينبه الله تعالى الكافرين هنا بأنكم متورطون في هذه النقائص، بينما يتحلى المسلمون بمحاسن

عظمى، فكيف تستطيعون مواجهتهم؟ لا شك أننا سنهيئ لهم اليسرى نتيجة أعمالهم، أما أنتم فسنهيئ لكم العسرى بسبب أعمالكم.. أي أن أعمالكم كلها ستفسد وتخرب دائما، وكلما حاولتم إنجاز شيء ستكون نتيجته الفشل. والمعنى الثاني أن أعمالكم ستصعِّب عليكم فعل الخيرات باستمرار؛ ذلك أن العمل الصالح هو العمل الحقيقي، وكلما ابتعد عنه الإنسان صعب عليه القيام به. باختصار، يقول الله تعالى للكافرين: إن أعمالكم سوف تصعّب عليكم فعل الخيرات، وأنكم كلما هممتم بشيء انتهى إلى الفشل؛ لأن أعمالكم قد تطرق إليها الفساد وأُصبتم بالكِبْر والاستغناء مما يدل على فساد مشاعركم، ثم إنكم بعد ذلك مصابون بمرض التكذيب، وهذا دليل على فساد عقلكم وتفكيركم وفساد علمكم، وهذه الأمور كلها ستؤدي إلى هلاككم ودماركم.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

تَرَدَّى: تردّى في الهوّة: سقط فيها (الأقرب)

والتردّي: التعرضُ للهلاك. (المفردات)

التفسير: أي عندما يحين دمار الفئة المذكورة صفاهّا أعلاه، أو عندما تسقط هي من مقامها، فلن ينفعها مالها شيئا. يمكنها أن تتفاخر طالما هي تتمتع بالعزّ والشوكة، ولكن إذا بدت آثار زوالها واقتربت ساعة هلاكها، فلن ينفعها شيء، ولو أنها قامت بأعمال حسنة فهي أيضا لن تأتي لها بنتيجة طيبة، لأن ساعة العذاب قد أَزِفتْ.

الواقع أن كل ما يملكه الإنسان من مال وثراء وعزة إنما ينفعه قبل صدور القرار الإلهي بهلاكه، أما إذا صدر القرار فلا ينفعه شيء مطلقا، فإذا أنفق ماله عندها فلن يجد النتيجة المرجوة، وإذا رحم الآخرين أتت النتائج خلاف آماله أيضًا. عندها لا تنفعه أبدًا ثروته ولا عزته ولا حلمه ولا عطفه. كان الناس يحترمونه من قبل إذا

تصدّقَ، أما الآن فإذا همَّ بإخراج صدقة قالوا: راشٍ يقدّم الرشوة، وكان الناس يثنون على أخلاقه من قبل إذا عاملهم برفق وحلم، أما الآن فإذا عاملهم برفق قالوا: مداهن يتوسل إلينا. إذن فكل أمر ينقلب عليه، ولا ينفعه شيء مطلقا. فقوله تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ يعني أنه عندما يحين هلاكه سوف يعمل بما كنا نأمره به من قبل وكان يأباه، ولكن ستكون نتائج أعماله كلها غير مرضية على الإطلاق.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٣﴾

التفسير: لا شك أن نفع الآخرين وتقوى الله وتصديق الأمور الحسنة هي مما يؤدي إلى ازدهار الأمم، وأن البخل والاستغناء وتكذيب الأمور الحقة هي مما يدفع بالأمم إلى هوة الهلاك، بيد أن الحقيقة أن الله هو الذي يهدي التائهين في ظلمات الليالي الحالكة. فقوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى﴾ يعني أن هداية الناس من واجبنا أو من اختصاصنا نحن. بمعنى أن الشفقة والرأفة الحقيقية التي نكنّها للناس تستلزم أن تكون هدايتهم من اختصاصنا نحن، وليس من حق الناس أن يختاروا لأنفسهم ما شاءوا من الهدى، ذلك لأن الإنسان قد يتخذ لنفسه قرارا خاطئا، فالبخيل أو الظالم أو الجاهل مثلاً قد يتخذ قرارا لنفسه ولكنه يكون غير صائب، فثبت أنهم لا يمكن أن يكونوا أكثر منا نُصْحًا لأنفسهم. ولذلك فمع أن الكافرين ينكرون الحق ويعارضون المسلمين ويسبّونهم ويؤذونهم إلا أننا لا نزال نهديهم، ذلك لأننا نحن خلقنا الإنسان، ونحن الذين نشفق عليه ونرأف به ونحن الرحمن والرحيم، وندرك مدى مسؤوليتنا، ونهديه رغم كفره وإنكاره.

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٤﴾

التفسير: لقد بين الله هنا للكفار أننا نعلَم العراقيل التي تحول دون قبولكم الحق. إن أكبر هذه العقبات أنكم لا تريدون ترك الدنيا. ترون المسلمين لا يبالون بأموالهم، وينفقونها بلا هوادة عند كل ضرورة دينية أو اجتماعية، بينما تحافظون على أموالكم، ولذلك تقولون إن المسلمين مجانين وسيهلكون إذ يهدرون أموالهم، وأننا لن نهلك لأننا نحافظ على أموالنا. فاعلموا أن ظنكم هذا باطل، إذ لا تدرون أن عندنا الآخرة والدنيا. تحاولون الفوز بالدنيا، ولكنكم لن تفوزوا بالدنيا ولا الآخرة، لأن عندنا الدنيا والآخرة. أما المسلمون الذين يزهدون في الدنيا من أجلنا فنعطيهم الآخرة والدنيا أيضا. وظنكم أنهم يضرون بأنفسهم ظن خاطئ، فإنهم حين يصلون إلينا سيجدون عندنا الدنيا التي تركوها من أجلنا. وحيث إنهم سائرون إلينا كما تعرفون، فرغم أنهم قادمون إلينا طمعًا في الآخرة إلا أنهم سيفوزون بالدنيا أيضا، لأن عندنا الدنيا أيضًا؛ وحيث إنكم تريدون الدنيا معرضين عن الآخرة، فسيكون مآل جهودكم خسران الدنيا وكذلك حرمانكم من نعم الآخرة، لأنكم معرضون عنا مع أن عندنا الدنيا أيضًا. فالحق أن مَثَل الكافر كمثل شخص خرج وحده في سفر ومعه مال كثير، فرآه لصّ فأراد سلبه، وبعد تفكير طويل اهتدى اللص إلى حيلة، فألقى في طريق المسافر أحد زوجَي نَعْلٍ جديد وغالٍ ثم اختفى يتتبع المسافر، فلما وصل المسافر إلى النعل أُعجب به وأراد أن يأخذه، ثم فكر أنه لا جدوى من نعل واحد، فتركه ومضى لسبيله. وكان اللص قد ألقى زوج النعل الآخر في طريقه على مسافة، فلما وصل إليه المسافر تأسف على حمقه قائلا لقد أخطأت خطأ كبيرا حين تركتُ النعل الأول، ولو أخذته لصار عندي النعلان. فترك متاعه هنالك ورجع

ليأخذ النعل الأول، فأخذ السارق متاعه والنعل أيضا وذهب. أما المسافر فلما وصل هنالك لم يجد النعل، لأن السارق كان قد أخذه، فرجع إلى متاعه، فلا متاعًا وجد ولا نعلا.

فحيث إن الكافر يتوجه إلى الدنيا تاركًا الآخرة، فلا يجد الدنيا ولا الآخرة، لأن الدنيا عند الله تعالى. إن الكافر يسلك طريقا يؤدي به إلى الشيطان، والمؤمن يتوجه إلى الآخرة زاهدًا في الدنيا ويقول ليس لي في الدنيا رغبة، وإنما أريد الآخرة، وعندما يصل إلى الله تعالى يرى أن الدنيا قد جاءت وراءه ساعيةً وهي واقفة بجنب الآخرة. والكافر عندما يتوجه إلى الدنيا، فلا يجد هنالك الدنيا ولا الآخرة. فالله تعالى يقول هنا إن المؤمنين قد أتوْنا طالبين الآخرة، فوجدوا عندنا الدنيا أيضا.

فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٥﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٦﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

تَلَظّى: أصلُها تتلظّى. تلظّت النارُ: تلهّبتْ. (الأقرب)

التفسير: إن قوله تعالى ﴿كذَّبَ﴾ إشارةٌ إلى ما في عقائدهم من سوء، وقوله تعالى ﴿تَوَلَّى﴾ إشارةٌ إلى ما في مشاعرهم وأعمالهم من فساد. فكأن الله تعالى يبيّن هنا أن اعتقاداتهم غير صحيحة ومشاعرهم غير سليمة وأعمالهم غير صالحة، وحيث إنهم مصابون بالفساد في فكرهم ومشاعرهم وأعمالهم فلن تحمد عقباهم.

وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٨﴾

التفسير: ليس المراد من قوله تعالى ﴿وَسَيُجنَّبُها الأتْقَى﴾ أن أتقى الناس هو الذي سوف يُجنَّب دخول النار، أما المؤمن العادي فلن يُجنَّبها، وإنما الواقع أن كلمة ﴿أتْقى﴾ جاءت للمقارنة بين مؤمن وكافر وليس بين تقيّ وتقي آخر، حيث بين الله تعالى أن هناك فريقين يدّعيان التقوى الآن، ولن يُجنّب نار الجحيم إلا أتقى الفريقين الذي يبغي رضا الله تعالى بإنفاقه ماله، حيث يقول الله تعالى للكافرين إنكم أيضًا تدَّعون أنكم أهل التقوى كما يدّعي المؤمنون، وها نحن نخبركم أن المؤمنين هم أهل التقوى، وأنكم كاذبون في ادعاء التقوى. إذًا فالمقارنة هنا بين تقوى المؤمنين الحقيقية وتقوى الكفار الزائفة، ولا تعني هذه الآية أنّ أتقى المتقين هو الذي سيدخل الجنة أما المؤمنون الذين يكونون أدنى منه تقوى فلن يدخلوها. ذلك أن هذا المفهوم يتعارض تماما مع الآيات القرآنية العديدة حيث صرّح الله في واحدة منها ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨).. أي أن الله تعالى لن يضيع خيرًا فعَله أي إنسان ولو كان بقدر ذرة. فالحق أن كل مؤمن وكل تقي سيدخل الجنة، سواء مَن بلغ أعلى درجة من التقوى أو من بلغ أدناها. فما دام القرآن الكريم يصرح بهذا الأمر فلا يجوز تفسير هذه الآية بأنه لا يُجنَّب نار جهنم إلا الأتقياء من الطراز الأول.

وقد زاد الله تعالى هذا الموضوع شرحًا في الآيات التالية التي بيَّن فيها مَن هو الأتقى.

ﭐلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ ﴿٢٠﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا مَن هو الأتقى، فأخبر أن مَن يعطي ماله من أجل التزكِّي هو الأتقى. فقوله تعالى ﴿يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ يعني أنه يؤتي ماله حال كونه يتزكَّى.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾.. أي لا يكون عليه منّةُ أحد يحاول أن يجزي صاحبَها بهذا الطريق، وإنما يريد بعمله أن يحسن إلى الآخرين بأي طريق بدون أن يكون أحد قد أسدى إليه معروفًا.

إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

وجه: الوجه: المرضاة (الأقرب).

التفسير: من علامات المؤمن أنه لا ينفق ماله جزاءً لمن أحسن إليه، وإنما يُخرِج الصدقات لمساعدة بني نوع جنسه ابتغاءَ مرضاة ربه الأعلى.

لقد ذكر الله هنا صفته ﴿الأَعْلَى﴾ إشارةً إلى أن الناس يحسنون إلى الآخرين بدون شك، ولكن المحسن الحقيقي وأكبر المربِّين هو الله في الواقع، ومن أجل ذلك يقدّم المؤمن رضاه على رضا المحسنين الآخرين كلهم، ويدرك أنه إذا قام بأعماله ابتغاء ربه الأعلى فكأنما قد أحسن إلى كل مَن أحسن إليه، لأن الله تعالى هو مصدر كل إحسان.

وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

التفسير: يبين الله تعالى هنا أنه سيرضى حتمًا عمّن ينفق ماله على الآخرين ابتغاء مرضاة الله فقط، وليس ليجزي محسنًا قد سبق أن أحسن إليه. فما دام يبتغي مرضاة الله تعالى جاهدا، فلا بد أن يرضى الله عنه. إذا ضحى العبد الضعيف عديم الحيلة بماله لوجه الله خالصةً غيرَ مكترث برضا الناس، فمن المستبعد جدا أن لا يخلع الله عليه رضاه، ولا يدخله في أحبائه. لا بد أن يفوز هذا الإنسان بمراده ويرث رضوان الله في نهاية المطاف إذ لا يريد من الناس جزاءً على تضحياته خلافًا لدأب أهل الدنيا، فإن الناس يضحون في الدنيا طمعًا في مجد أو صيت أو منْصب أو رضا مسؤول أو زيادة راتب، أما الذي يطهّر قلبه من شوائب الأغراض المادية بكل أنواعها، ولا يريد من الناس ثناءً ولا هتافًا ولا عزًّا، وإنما أن يرضى الله عنه وأن يكون في عونه كما هو في عون عباده، وأن يعفو عن ذنوبه، فإن الله تعالى يقول: إن عبدي هذا قد خرّ على عتبة بابي معرضا عن عتبات أبواب أهل الدنيا كلهم، وتَرَك رضا الجميع مؤثرا مرضاتي، فلمَ لا أخصّه بعنايتي؟ سوف أرضى عنه وأمنحه قربي كما هو قد ضحّى بأمواله ابتغاء مرضاتي.

وقول الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ يماثل معنًى قولَه تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(الفجر:٢٨-٢٩)، والفرق الوحيد أنه تعالى قال هناك ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، بينما قال هنا ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. فحيث إن رضا العبد كان ينحصر في رضا الله عنه، فأخبر الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾.. أي أن هذا العبد أيضًا سيصبح مرضيا عنده تعالى. وحيث إن العبد قد فاز ببغيته، فسيرضى عن الله الذي رضي عنه. وما دام قد فاز بهذا المقام فمن المؤكد أن يتحقق فيه قوله تعالى ﴿فادْخُلي في عِبادي * وادْخُلي جَنَّتي﴾(الفجر:٣٠-٣١)، فمن دخل الجنة نجا من كل مكروه.

باختصار، قد بين الله تعالى في هذه السورة أن المسلمين سيفلحون في الدنيا، ولكن الكفار لن يفلحوا رغم معارضتهم الشديدة. إن جهود المسلمين وتضحياتهم وتكاسُل الكفار وتردُّدهم في التضحيات، واتصافَ المسلمين بصفتي الإفاضة والاستفاضة وحرمانَ الكفار منهما، لن تكون نتيجته واحدة للفريقين، إذ شتان بين أعمال الطرفين. فسوف يقبل الله من المسلمين أعمالهم، ولن يرضى عن أعمال الكافرين. لا شك أن الله تعالى لم يذكر أنه لن يرضى عن أعمال الكفار، لكن هذه النتيجة بديهيّة تلقائيّة، فنتيجة لأعمالهم لن يحظى الكفار برضا الله تعالى، بل يصبحون عرضة لغضبه ويُدمَّرون ويبادون.

سورة الضحى

مكية وهي اثنتا عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

يقول ابن عباس: هذه السورة نزلت بمكة. ويقول البعض إنها نزلت بعدما انقطع الوحي عن النبي ﷺ مدة من الزمن، ولذلك كان النبي كلما قرأها أو سمع تلاوتها أمر بالتكبير (فتح البيان). وفي رواية أنه ﷺ كان يقول: الله أكبر. وفي رواية أخرى أنه كان يقول: الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر.

وورد في البخاري: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ؛ لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَالضُّحَى﴾. (البخاري، كتاب التفسير)

يبدو أن الرسول ﷺ كان يرفع صوته بقراءة القرآن في صلاة التهجد، وكانت هذه المرأة تظن أن ما يقرأه ﷺ إنما يُعَلِّمُه غيره، وحين لم يستطع القيام بالليل لمرضه ليلتين أو ثلاثا، ظنت أن الشخص أو الروح الذي كان يعلّمه -والعياذ بالله- تركه، وعندها نزلت سورة الضحى.

وفي رواية عن جُنْدُب أن جبريل أبطأ عن النبي ﷺ بالوحي فترة من الزمن، فقال الكافرون: قد وُدِّعَ محمد، فنزلت ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الترمذي، أبواب التفسير)

وفي رواية أخرى عَنْ جُنْدُب قَالَ: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ بَعْضُ بناتِ عَمِّهِ: مَا أَرَى صَاحِبَكَ إِلا قَدْ قَلاكَ، قَالَ: فَنَزَلَتْ هذه السورة. (المعجم الكبير للطبراني، حديث رقم ١٧١٠)

لقد قالت: "صاحبك"، ليفسّر الجميع حسب رأيه، فمن رأى أن الله تعالى هو الذي يكلمه ﷺ وينـــزل عليه هذا الوحي فيفسر "صاحبك" بأنه الله، ومن ظن أن الشيطان هو منـــزِّل هذا الكلام، فيفسّر "صاحبك" بالشيطان.

هذا ما يروى عن سبب نزول هذه السورة، فإحدى هذه الروايات تقول إن امرأة قالت للنبي ﷺ هذا الكلام، والأخرى تقول إن الكافرين قالوا ذلك، والثالثة تقول إن إحدى بنات عمه قالته. والآن أمامنا طريقان: فإما أن نعتبر هذه الروايات كلها باطلة فنقول لا علاقة لها بنـــزول هذه السورة، أو نقول -وهو الصحيح عندي- إن الواقع أن الناس يعلّقون على حادث بأقوال مختلفة، فيأتي الآخرون ويربطون منها ما هو مقارب للحادث. فمثلا تلقى المسيح الموعود عليه السلام ذات مرة إلهامًا باللغة الإنجليزية: A word and two girls (التذكرة، ص ٥٠٥).. أي كلمةٌ وبنتانِ. وكان "الحافظ أحمدُ الله" قادمًا إلى قاديان، فسأل في الطريق أحدَ الإخوة: هل مِن وحي جديد نـــزل عليه عليه السلام؟ فقال: نعم، لقد تلقى وحيًا يقول: A word and two girls. فأخذ "الحافظ أحمد الله" ورقة وكتب فيها له عليه السلام: مباركٌ، فقد تحقّقَ وحيُك، إذ لم آتِ وحدي، بل معي بنتان. وهذا الوحي ينطبق علينا.

ثم رأيت غيره يطبّقون هذا الإلهام على أنفسهم إذ كان عندهم أيضًا ولدٌ وبنتانِ، وقد بلغ عدد الذين طبقوا هذا الوحي على أنفسهم بتأويلات مختلفة حوالي أربعة وعشرين شخصًا. فثبت أنه تقع أحيانا أحداث مماثلة يطبق عليها الناس كلمات الوحي بحسب آرائهم، ويظنون أنهم قد عرفوا سبب نزوله. مع أن معنى الوحي إنما يُعرف بسياقه، أما إذا فُصل عن سياقه، فكل فقرة منه يمكن أن تفسَّر بمعان مختلفة. فمثلا: إذا سمعنا شخصًا يقول: تعال هنا، فيُعرف مراده بالسياق، فإذا كان أمامه زيدٌ، فيدرك الجميع أنه يوجه هذا الكلام لزيد لا غيرِه، ولكننا لو فصلنا هذه العبارة عن سياقها، فيمكن تطبيقها على أي شخص في العالم. وبالمثل فعندما يقال أن آية كيت نـــزلتْ في مناسبة كيت، فإنما سببه أن الناس وجدوا حادثًا مماثلا في زمن مقارب لنـــزولها، فظنوا أنه هو سبب نزولها، وطبقوها في رأيهم على ذلك الحادث، وإذا كان هناك أكثر من حادث، فتختلف الروايات لكثرة الآراء التي

أساسها الاستنباط. وهذا ما نجده في شأن نزول هذه السورة، حيث تُقدَّم ثلاثة أحداث مختلفة، فهناك رواية تقول أن هذه السورة قد نزلت بسبب ما قالته امرأةٌ للنبي ﷺ، بينما تقول رواية أخرى إنها نزلت بسبب أفكار الكافرين العامة، وتقول رواية ثالثة إنها نزلت بسبب ما قالت إحدى بنات عمّه ﷺ. لا شك أن هذه السورة من أوائل السور، ولا شك أيضا أن الوحي فتر بعض الوقت في بداية البعثة، لأن المشيئة الإلهية أرادت أن تستقرّ حالة النبي ﷺ بزوال ما طرأ عليه من هيبة بسبب أول تجربة للوحي، وأن يسري الوحي في نفسه، ذلك أن الإنسان لا يدرك أهمية أمرٍ في البداية، وإنما تنكشف الحقيقة على قلبه تدريجيا، ومثاله ما حصل بين النبي ﷺ وأهل المدينة إذ قالوا له مرة: يا رسول الله، صحيح أننا قلنا لك عند عقد المعاهدة إننا سندافع عنك إذا هاجمك العدو في المدينة، ولسنا مسؤولين عن نصرتك خارجها. لقد عقدنا معك هذه المعاهدة وقلنا لك ذلك حين لم تكن حقيقة أمرك قد انكشفت علينا، أما الآن فقد اتضح لنا الأمر وأدركنا عظمتك وسموّ مقامك، والآن لا حاجة بنا إلى أي معاهدة، ولسوف نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن أمامك ومن ورائك، ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة (البخاري، كتاب المغازي). فثبت أن إدراك الأحداث الهامة فورًا أمرٌ صعبٌ جدّا، وإنما تنكشف على المرء حقيقتُها بالتدريج، ويعرف المشيئة الإلهية بعد مرور أيام، ومن أجل ذلك أوقف الله تعالى وحيه عن النبي ﷺ فترة من الزمن بعد إنزال أول وحي عليه، فظل خلالها يتدبَّر فيما نزل عليه من الوحي وأدرك أبعاد المهمة التي كُلّف بها، كما ازداد إيمانًا وعزيمةً وثباتًا. ولما رأى الله تعالى أن الفزع قد زال عنه ﷺ وأنه مستعدّ الآن للعمل، وأن أهمية الوحي قد رسخت في قلبه، أخذ يُنـــزل عليه الوحي تلو الوحي. باختصار، كان لا بد من فترة بين الوحي وبين إعداده ﷺ للوحي، ومن أجل ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ أولاً سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم بعد فترة أنزل سورة المدثر وغيرها التي حملت إليه رسالة وبشارات تتعلق بالمستقبل، وتنبئه أن مهمة عظيمة سوف تُفوَّض إليه، فليستعدّ لها. كان على عقل النبي ﷺ أن يستعدّ لهذه المهمة بمعرفة نوعيتها ونوعية الجهود التي كان عليه أن يبذلها

في سبيلها. من المحال أن يتلقى الوحي ثم يقال له اذهبْ أو قُمْ ونفِّذْ هذه المهمة، بل كان لا بد من فترة إعداد في كل حال.

وهذا ما فعل الله تعالى بالأنبياء السابقين أيضا، حيث أوحى إليهم أولاً، ثم فتر الوحي عنهم لكي تستوعب عقولهم خلال ذلك المهمةَ المناطة بهم وتستعدّ للقيام بها. فنرى مثلاً أن موسى عليه السلام كان في طريقه من فلسطين إلى مصر حين تلقى أول وحي حيث قال الله تعالى له ﴿...يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(طه:١٢-١٣). ثم فتر الوحي عنه عليه السلام بعض الوقت، واستأنف نزوله عليه بعد وصوله مصر. والوصول من فلسطين إلى مصر لم يكن سهلا في ذلك العصر، إذ كان يستغرق شهرين على الأقل، بل ستة أشهر أحيانا، لأن الناس ما كانوا يسافرون إلا في قوافل لكون الطرق محفوفة بالمخاطر، وكان المرء يجد قافلة بسرعة أحيانا، وفي بعض الأحيان كان ينتظرها ستة أشهر. لقد فتر الوحي عن موسى عليه السلام خلال تلك المدة إعدادًا له لحمل المسؤولية حيث يتدبر في الوحي الذي نزل عليه ويأخذ عدّته نظرًا لأهمية المهمة. ولما رأى الله تعالى أن موسى عليه السلام قد استعد لحملها أنـــزل عليه التوراة. وهذا ما حصل مع رسولنا ﷺ، حيث قال الله تعالى له في أول وحيه عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم فتر عنه الوحي مدة، فظل خلالها يجيل فكره فيه ويتدبره ليستوعب المشيئة الإلهية. فلما نظر إلى حالة الدنيا ودرس أوضاع القوم جيدا وأدرك المفاسد التي كُلّف بإزالتها من ناحية، ومن ناحية أخرى نبّهه "ورقةُ بن نوفل" إلى الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، واستعدّ ﷺ لإصلاح الدنيا، عندها أنزل الله تعالى بشاراتٍ كثيرة لرفع معنوياته، كما أنزل أنباءً إنذارية بحقّ أعدائه. وفي هذه الفترة كان الأعداء قد تكلّموا ضده بأقاويل مختلفة، فطبّقها الناس على هذه السورة ظانين أنها تشير إلى تلك الأقاويل، مع أن هذه السورة لا علاقة لها بتلك الأقاويل. إذا كانت امرأة قد قالت للنبي ﷺ كلامًا فما علاقة كلامها بقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾؟ ألم يكن الله تعالى ليُطَمْئِنَ رسوله لو لم تكن تكلمت المرأة بهذا الكلام؟ نحن نسلّم جدلاً أن مشركي مكة قالوا هذا الكلام، ونسلّم أيضا

أن إحدى بنات عم النبي ﷺ قالت في تلك الفترة قولاً مماثلاً لما ورد في هذه السورة، ومع ذلك لا يمكن التسليم بأن هذه السورة إنما نزلت بسبب هذه الأحداث، ولولاها لما نزلت هذه السورة.

الحقيقة أن معظم ما يذكره الناس من أسباب نزول آيات القرآن الكريم ليس صحيحًا، ولذلك نجد في أقوالهم اختلافا كما حصل بصدد هذه السورة، حيث يقال أنها نـــزلت بسبب ما قالته إحدى جارات النبي ﷺ من قول سخيف، ويقال أيضا أنها نزلت لأن الكفار كانوا يتحدثون بكثرة عن انقطاع الوحي، ويقال أيضًا أنها نـــزلت بسبب ما قالته إحدى بنات عم الرسول ﷺ. وهناك آيات قرآنية كثيرة يقول عنها صحابي إنها نزلت في حقّي، بينما يقول غيره إنها نزلت في حقي، مثلما أخطـــأ كثير من الأحمديـــين في فهم وحي المسيح الموعود عليه السلام الذي ورد فيـــه: A word and two girls، فظنوا أنه يتعلق بهم.

يرى المستشرق السير وليام موير أن هذه السورة نزلت بعد سورة البلد، بينما يرى المستشرق نولدكه أنها نزلت بعد سورة الشرح (تفسير القرآن لـــ"ويري").

وعندي أن محتوى هذه السورة يؤكد أنها من السور العديدة التي نزلت في البداية المبكرة للبعثة، إذ يأمر الله تعالى فيها رسوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾، بينما تخبر السور السابقة أن المسلمين كانوا يعملون بهذا التعليم سلفًا، فلا بأس لو قلنا دعمًا لبعض الروايات أنه ما دامت هذه السورة تأمر ببعض الأحكام، والعملُ يتم بعد الحكم دائما، فثبت بهذه الشهادة الداخلية أن هذه السورة أسبق نزولاً من السور التي تذكر أن المسلمين يعملون بهذه التعاليم.

بيد أن من المحتمل أيضًا أن يكون المراد أن عليك بكذا وكذا من الأعمال شكرًا لله تعالى عند تحقُّق الوعود المذكورة في بداية هذه السورة ونزولِ النعم التي أنبأ الله بها فيها، وفي هذه الحالة لا يكون المراد أن الأحكام التي أُمر بالعمل بها قد نـــزلت أوّل مرة في هذه السورة، وإنما تكون قد نزلت من قبل ولكن الله تعالى أمر رسوله بها ثانيةً شكرًا على نعمه. فمثلاً ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى أمر زكريا عليه السلام بالصيام (مريم:١١)، ولكن هذا لا يعني أن الصيام فُرض على تلك الأُمّة في تلك

المناسبة لا قبلها، بل المراد أن الصيام كان فرضًا عليهم من قبل، غير أن الله تعالى حثّ زكريا على الصيام بتلك المناسبة أيضًا. إذن، فليس ضروريا أن نستنتج من هذه الأحكام بشكل قاطع بأنه ما دامت هذه السورة تشتمل على بعض الأحكام، فهي أسبق نزولا من السور التي ذُكر فيها أن المسلمين يعملون بهذه الأحكام لأن الحكم يكون أولاً والعمل به يتم بعده، بل قد يكون المراد أن الله تعالى قد أمر في هذه السورة بأن هذه الأحكام التي كنتم تعملون بها من قبل ينبغي أن تعملوا بها أكثر عند تحقُّق هذه الوعود شكرًا عليها.

الترتيب والترابط:

هذه السورة والسور السابقة متحدة في الموضوع حيث تتحدث السور السابقة عن مساوئ أهل مكة بحق اليتامى والمساكين، وهذه أيضًا تتحدث عن اليتامى والمساكين حيث تحثّ على حفظ أموالهم وإنفاقها بطريق سليم، والفرق الوحيد هو أن سورة الضحى تأمر الرسول ﷺ والمؤمنين فقط بفعل الحسنات، وأما السور السابقة فهي تقارن بين المسلمين والكافرين فيما يتعلق بهذه الحسنات وتبين أن المسلمين يعملون بها، ولكن الكافرين لا يعملون بها.

والعلاقة الثانية بين هذه السورة وما قبلها من السور أن السور السابقة تتحدث عن سلوك العبد الصالح التقي تجاه الله تعالى، أما هذه السورة فتتحدث عن سلوك الله تعالى مع هذا العبد، فالسورة السابقة (الليل) مثلاً تركّز على أن هذا العبد ينفق ماله في سبيل الله، حيث قال الله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾(الليل:١٨-٢٢)، أما هذه السورة فتحدث الله فيها حول معاملته مع عبده الصالح التقي، أي النفس الكاملة. إذن، فهذه السورة تتمّةٌ لمضمون السور السابقة، وبالأخص سورة الليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالضُّحَىٰ ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٣﴾

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الضُّحى: بَعْدَ الضَحْوة، أي حين تشرق الشمس حتى ما قبل زوالها، لكن البعض يرى أن هذا يسمى ضحاء لأن الضحى لا يكون ما قبل زوال الشمس.

سَجَى: أي حين يكتمل ظلام الليل، حيث ورد في المفردات: "﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي سكن".

ودَّعك: ودّع فلانٌ فلانًا: هجَره. (الأقرب)

قَلى: قَلى فلانا قِلًى وقَلاءً: أبغضَه وكَرِهَه غايةَ الكراهة فتركه. وقلا الإبلَ: طرَدها وساقها (الأقرب). الأول يائيٌّ والثاني واويّ.

التفسير: هناك ضحًى خاص وليل خاص في حياة الرسول ﷺ، والضحى الخاص هو ذلك الوقت الذي دخل فيه النبي ﷺ مكة فاتحا، والليل الخاص هو تلك الليلة التي خرج فيها من مكة مهاجرا. فقوله تعالى ﴿والضحى﴾ إشارةٌ إلى ذلك النهار الخاص، وقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ إشارةٌ إلى ذلك الليل الخاص. والحق أننا لو سئلنا عن خلاصة حياة النبي ﷺ لذكرنا هاتين الواقعتين. لقد اضطره الأعداء لترك مكة، ولكن الله تعالى أهلكهم بآياته القاهرة، وأدخله مكة منتصرا. وإلى هاتين الواقعتين قد أشار الله تعالى هنا وقال: يا محمد، نقدّم ضحًى خاصًا وليلاً خاصًا يغطّي كل ما حوله شهادةً على صدقك أو على صدق الموضوع الذي سنتناوله.

قد يعترض البعض على هذا المعنى ويقول: إن الضحى مقدَّمٌ هنا على الليل، والهجرة كانتْ قبل فتح مكة؟

فليكن معلوما أن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصيرا * وقل جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء:٨١-٨٢)، وهي نبوءة واضحة عن فتح مكة، فعند الفتح كان النبي ﷺ يكسر الأصنام وهو يردد: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وهكذا فإن الرسول ﷺ قد أوضح بعمله أنه قد تحقق اليوم النبأ المذكور في قوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصيرًا﴾. فترى هنا أن قوله تعالى ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الذي هو نبأٌ عن دخول النبي ﷺ مكة منتصرا مذكورٌ قبل قوله تعالى ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الذي هو نبأ عن هجرته ﷺ، مع أن الهجرة سبقت الفتح.

وهناك حكمة بالغة في اتّباع هذا الأسلوب وقد ذكرتُها من قبل مرارًا، وهي أنّ من سنة الله تعالى أنه عند الحديث مع أحبّائه يبلّغهم الخبر السارّ قبل الخبر المحزن، ليخفف الخبر السار من وطأة الحزن، وهكذا يحقق الهدفين، ويوصل الخبريْن، ويخفّف الإحساس بالمعاناة. وهذا ما يفعله كل رسول ذكي، حيث يخبر بالعاقبة الحسنى أولا، ثم يذكر خبر المعاناة والحزن، فإذا لقي بعضَ أقارب مريض مثلاً وسُئل عن حاله قال: الحمد لله، إنه بخير الآن، وكان قد مرض بشدة قبل أيام، وهكذا يبلّغه الخبر السار عن قريبه، كما يخبره بشدة مرضه بحيث يئس الأطباء منه. فبدلاً من أن يقول إن المرض كاد يهلكه يقول أولاً: الحمد لله أنه بخير الآن، ثم يبلغ الخبر المحزن. ولكنا رأينا آخرين يفعلون العكس تماما، فإنهم بسبب حمقهم يذكرون الأمر المحزن أولاً، ويُخْفون الخبر السار. فمثلاً إذا قيل لبعضهم: هل جئت بخير؟ فيحكي لك الحكاية المحزنة أولاً لساعة أو أكثر ثم يخبر الخبر السار وبدونها لن يخبرك الخبر السار. وإذا عهدت إلى بعضهم مهمة مثلاً، فرجع بعد إنجازها، فيأخذ في سرد حكايات طويلة لك أولاً، ثم في الأخير يقول الحمد لله قد أنجزتُ المهمة. فبدلاً من أن يقول في البداية: الحمد لله قد أنجزتُها، يذكر ما عانى من عراقيل ومشاكل، ثم بعد ساعة أو أكثر يقول: الحمد لله قد نجحت. فأصحاب هذه الطبائع الغريبة لا

يجدون متعة في الحديث ما لم يخوّفوا الآخرين تخويفا، ولكن من سنة الله أن يَسُرّ عبده بالخبر السار أولاً، ويبشره بالعاقبة الحسنة، ثم يخبره أنه سيواجه بعض المحن أيضًا، لأن الله تعالى لا يريد إيذاء قلب عبده بالحديث عن أمر محزن عاقبتُه خير. وهذا ما فعل الله تعالى في قوله ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، حيث ذكَر نبأ فتح مكة أولاً ثم ذكر نبأ الهجرة. فلما علم المسلمون أنهم سوف يعودون إلى مكة فاتحين في نهاية المطاف اطمأنوا وقالوا: لا بأس لو كانت قبلها هجرة. ولهذا السبب نفسه قد ذكر الله تعالى هنا الضحى أولا ثم قال ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.

يقول الله تعالى إن هذين الحادثين سوف يدلان على أن ربك ما هجرك وما أبغضك. وحيث إن الغاية من تقديم الضحى على الليل كانت قد تحققت -وهي أن لا يصاب النبي ﷺ بالصدمة بنبأ هجرته- فلذلك غيَّر الله تعالى هذا الترتيب بعد ذلك متّبعًا الترتيب الطبيعي فقال: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾، فقوله تعالى ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب لقوله ﴿واللَّيْلِ إِذا سَجَى﴾، وقوله تعالى ﴿وَمَا قَلَى﴾ جواب لقوله ﴿وَالضُّحَى﴾، إذ المعنى: يا محمد، عندما يقع الحادث الأول المشار إليه في قولنا ﴿وَاللَّيْلِ إِذا سَجَى﴾ وتضطر للهجرة من مكة، فلن يخذلك ربك عندها، ولذلك نجد أن أبا بكر رضي الله عنه لما خاف في غار ثور وقال: يا رسول الله، قد اقترب العدو منا بحيث لو نظر في الغار قليلا لرآنا، لم يلبث النبي ﷺ أن قال له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (مجمع الزوائد: كتاب المغازي، باب الهجرة). السؤال الذي يفرض نفسه هنا: متى كان الله تعالى قد وعد رسوله أنه لن يخذله في ساعة الهجرة حتى قال ﷺ لأبي بكر هذا الكلام بهذه القطعية والجزم؟ الجواب: هذا الوعد مذكور هنا في سورة الضحى في قوله تعالى ﴿واللَّيْلِ إِذا سَجَى﴾.. أي لن يتركك ربك ولن يخذلك عند وقوع هذا الحادث. هذا الوعد الرباني هو الذي جعل النبي ﷺ يقول لأبي بكر بكل شجاعة: لا تحزن، إن الله معنا.. أي يا أبا بكر، إن الله معنا وهو الذي قد وعدنا بالنصرة في سورة الضحى، فما مبرر الحزن؟ الحق أن مَعيّةَ الله هي التي جعلت النبيَّ ﷺ يخرج بكل سكينة من بين الأعداء المحاصرين لبيته حصارًا

شديدًا، إذ ظنوا أن هذا الذي يمرّ من أمامهم ليس بمحمد، بل غيره. وأتذكرُ أنني قرأتُ في التاريخ -ولكن لا أتذكر المصدر الآن- أن أحد المحاصِرين قال فيما بعد لقد كنتُ رأيتُ محمدا يخرج من بيته ويمرّ من أمامنا، ولكني لم أعرف أنه محمد نفسه بل ظننتُه شخصًا آخر. إذن، ببركة معية الله تعالى خرج النبي ﷺ من بين الأعداء وهم ينظرون ومع ذلك لم يستطيعوا القبض عليه.

ثم إن من بركة معية الله تعالى للنبي ﷺ أنه حين اختفى في غار ثور جاء الدليل بالكافرين إلى فم الغار، وقال إما أن محمدًا مختفٍ فيه أو صعد في السماء، ولكنهم لم يتقدموا لينظروا في الغار، بل ضحكوا على الدليل وقالوا إنك تهذي، إذ كيف يمكن أن يختفي أحد في هذا الغار أو يصعد في السماء؟

فهذه الأحداث كلها دليلٌ ساطعٌ على معية الله لرسوله ﷺ بحيث لا يسع أعدى الأعداء إنكاره.

والحادث الآخر المشار إليه في قوله تعالى ﴿والضحى﴾ هو فتح مكة، وقد قال الله مقابله ﴿وَما قَلَى﴾، ذلك أن أهل مكة كانوا يؤمنون أن من هاجمها نزل عليه غضب الله ودُمِّرَ، إذ كانوا قد رأوا بأم أعينهم ما حلّ بأبرهة عند هجومه عليها بجنوده، إذ صار غرضًا لغضب الله وهلك، ولكن الله تعالى أخبر رسولَه أن قضيتك مختلفة فلن يحدث هذا معك، بل سيشهد وقت الضحى أن الله لم يغضب عليك، وإلا لحلّ بك عذابه. إن عدم نزول عذابه عليك، بل نصرته وتأييده لك وإزالة كل عائق من طريقك، ثم دخولك بجنودك مرفرفًا رايات النصر.. كل ذلك يدل على أن المشيئة الإلهية كانت تريد أن تحلّ بالبلد الحرام وتفتحه.

إذن، لقد أثبت الحادث المشار إليه في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أن الله تعالى لم يخذل محمدا ﷺ، كما أكد الحادث المشار إليه في قوله تعالى ﴿والضحى﴾ أن الله تعالى لم يغضب على محمد ﷺ بفعل من أفعاله ولو كان في الظاهر خلافا لقراره ﷻ الذي كان ساري المفعول منذ قرون، فمِن سنة الله المستمرة منذ أن بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة أن يُهلِك كل من يحاول الهجوم على مكة لأن الهجوم عليها حرام، ولكن ما نرى هو أن محمدا رسول الله ﷺ يذهب لفتح مكة ويدخلها في

وضح النهار لا بالليل على مرأى من العالم بل على مرأى من الله وملائكته، ومع ذلك لا ينـــزل عليه أي عذاب من الله تعالى ولا يهلك جنوده، بل كل ما حصل هو أن الله تعالى جعل أعناق كفار مكة تعنو لمحمد، وجعلهم في قبضة محمد ﷺ ليفعل بهم ما يشاء. وكل هذا دليل ساطع على أن دخول النبي ﷺ مكة فاتحًا كان مشيئة الله تعالى بعينها، وإلا فلِمَ لم يعامله الله تعالى عند هجومه على مكة كما عامل كلَّ مَن حاول الهجوم عليها منذ خمسة وعشرين قرنًا؟ ومن أجل ذلك نجد الله تعالى يقول هنا لرسوله ﷺ: ستكون هجرتك من مكة بالليل دليلاً على أن الله تعالى لم يخذلك، وإن دخولك مكة في وضح النهار منتصرًا سيكون برهانًا على أن الله تعالى لم يبغضك قط.

والمعنى الثاني لهذه الآيات هو أن الضحى يدل على الضوء، والسجى يدل على الظلام، ويمرّ الإنسان بهاتين الحالتين؛ عسر ويسر، وترح وفرح، فحينًا يحقق النجاح والتقدم، وآخرَ يرى الفشل والمعاناة، وتارة يأتي عليه وقت الترقّي، وأخرى وقت الزوال، ومرة يرى الفرحة وأخرى الحزن، وحينًا يُرزَق الأولاد وآخرَ يموت بعض أولاده، وطورًا يمرض وآخر يشفى، ومرة ينتصر على العدو، وأخرى يُهزم هزيمة عابرة. فمثلاً مِن إلهامات المسيح الموعود عليه السلام:

دشمن کا بھی ایک وار نکلا (التذكرة ص ٥٢٤)

أي أن العدو أيضا نجح في هجومه. لقد ذكر القرآن في مواضع عديدة أن مِن الناس مَن إذا أصابته مصيبة أو أذى أصيب باليأس والقنوط وأخذ في البكاء والعويل، وإذا أحرز رقيًّا ونال نصيبًا من بركات الله تعالى أخذه الكبر وقال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٩).. أي أن ما حقّقتُه إنما حقّقتُه بقوتي وبكفاءاتي، وقد تحقق لي هذا بعد أن فعلتُ كذا وكذا. وكأن الله تعالى يقول في الآية قيد التفسير أن العدو إذا أصابته ضراء قالَ ﴿رَبِّي أَهانَنِ﴾(الفجر:١٧)، وإذا أصابته سراء قال ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾(الفجر:١٦)، ولكنك يا محمد لست هكذا، بل نقول: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

وَمَا قَلَى﴾.. أي نقدّم حالتيك أمام العدو دليلاً على صدقك، فقد بلغتْ نفسُك الكاملة من السمو بحيث لن تنسى ربك أبدًا إذا أصابتك المحن، بل ستذكره دائمًا ولن يقترب منك اليأس مطلقًا؛ وعندما تصيبك السراء فلن يقترب منك الكبرياء. لن تقول عند نزول النعم إنما أوتيته بقوتي فتُغضبَ ربك، بل ستعلن: هذا من فضل ربي، وعند حلول المصائب لن تتّهم ربك، بل ستنيب إلى كنفه دائما، فسيأتي الله تعالى لعونك ويقف بجنبك دائما، ولن يخذلك أبدًا.

ونستطيع أن نرى الأمرين في حياة النبي ﷺ في أجلى صورة. لقد كان ليلاً حين اضطر النبي ﷺ لأن يهاجر من مكة ويختفي في غار ثور. وكان ليلاً أيضا حين دعاه عمُّه أبو طالب يومًا وقال: يا ابن أخي، لقد عيل صبرُ قومك؛ فقد جاءني كبار رؤسائهم مجتمعين وقالوا لي: يا أبا طالب، إننا لا نتعرض لابن أخيك بسببك أنت فأنت زعيم البلد، ولكن إلام نسكت على هذا الظلم؟ إننا لا نطالب ابن أخيك أن يعبد أصنامنا، إنما نريد أن لا يذكرها بسوء، فإذا لم يرضَ هو بهذا الطلب البسيط ولم ينته عن ذكر آلهتنا بسوء بعد ذلك، فسوف نخرج عن سيادتك، ولن نحترمك. والواقع أن التخلي عن السيادة أصعب شيء وأكبر محنة لصاحبها. إنه لا يطيق أن يكون اليوم جالسًا بعزة أو جلال ويأتيه الناس يسلّمون عليه قائلين: أيها السيد، أمرُك على الرأس والعين، وفي اليوم التالي يحملون عليه العصي ويطالبونه بالخروج من بلدهم. لم يكن أبو طالب مسلمًا، فشقّتْ عليه هذه المحنة، فدعا النبي ﷺ وقال له وقد اغرورقت عيناه: يا ابن أخي، لقد ساعدتُك قدر المستطاع، ولكن قد جاءني اليوم كبار قومك وأنذروني قائلين: إما أن تكون مع ابن أخيك أو معنا. يا ابن أخي، إنهم لا يريدون منك أن تعبد أصنامهم، بل كل ما يريدونه أن لا تذكر آلهتهم بسوء. أفلا يمكنك أن تلين في موقفك قليلا، لأنهم قد هددوني اليوم قائلين: إذا وقفتَ بجنب ابن أخيك بعد ذلك فسوف نعزلك من السيادة. فلما سمع النبي ﷺ قوله لم يلبث أن قال: يا عمِّ، لا شك أنك قد نصرتني كثيرا، ولكن الأمر يخصّ الدين، فوالله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أغير موقفي فلن أغيّره. يا عم، لم يبق أمامك إلا خيار واحد الآن، فإنّ قومك إذا كانوا

سيتخلون عنك من أجلي، فأرجوك أن تتخلّى عني من أجلهم. (السيرة لابن هشام، مباداةُ النبي ﷺ قومَه)

لا شك أن هذا الحادث كان بمنـــزلة ﴿اللَّيْل إذا سَجَى﴾ بالنسبة للنبي ﷺ. لم يكن ﷺ يملك قوة، بل كانت قوته كلها تكمن في أبي طالب، ولكن صاحب القوة هذا يصاب بالخوف، وأما الذي لا يملك قوةً فيقول: ما دام الآخرون قد تخلوا عني، فتخلَّ أنت أيضا عني، فإني لن أغيّر من عقائدي شيئا. كان ليلاً، وليلاً مخيفا جدا، ولا يصمد في مثل هذا الموقف إلا المؤيَّدون من الله تعالى، ولكن النبي ﷺ أكّد صدق قوله تعالى ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى﴾ في هذه الليلة الحالكة المخوفة، إذ لم يرتكب ﷺ فعلاً يخذله الله تعالى بسببه، ولم يتصرف تصرفًا يجلب عليه سخط الله تعالى، إنما فعل ما جعل اللهَ تعالى يقترب منه أكثر ويفرح منه أكثر. ألا يمكنكم أن تدركوا أن الله تعالى لما سمعه ﷺ على عرشه وهو يقول لعمه: يمكنك أن تتخلى عني، ولكني لن أتخلى عن الله تعالى، فلا بد أن الله تعالى يكون قد مال عليه كالعاشق الملهوف قائلا: يمكن أن تخذلك الدنيا، ولكني لن أخذلك. لا شك أن الله تعالى ليس ماديا، وعلاقته بالعباد ليست مادية، ولكن لو افترضنا -من أجل تصور ذلك المشهد- أن حب الله تعالى شيء مادي وكراهيته شيء مادي، فلا شك أن الله تعالى الذي كان واقفا على بُعد خطوتين من النبي ﷺ يكون قد جاء ووقف بجنبه ﷺ لدى سماع جوابه لعمه، وازداد رضاه عنه ﷺ أضعافا كثيرة. من أجل ذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي يا محمد، إن كل ليلة تأتي في حياتك ستؤكد أن ربك لم يخذلك ولم يبغضك، بل إنه لا يزال يتقرب إليك كل لحظة.

إن شجاعًا مثل أبي بكر رضي الله عنه يصاب في غار ثور بالقلق.. ليس على نفسه، بل على محمد ﷺ. ولكن أليس غريبًا أن الذي لم تنـــزل عليه البليّة مباشرةً يصاب بالحزن والقلق، مع أنه كان معززًا بين أهل مكة ولو قبضوا عليه عندها لاكتفوا بتوبيخه وتركوه قائلين: لماذا جئت معه؟ أما الذي نزلت عليه البلية مباشرة فيقول

لهذا بكل سكينة ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾. لا شك أن النبي ﷺ لما قال لأبي بكر ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ فلا بد أن يكون قد ازداد بالله رضا وقربا وزلفى.

ثم كان ليلاً حالكًا حين أُصيب النبي ﷺ بالجراح في غزوة أحد، وتضافرت الأحداث التي بدَّلت انتصار المسلمين هزيمةً. كان النبي ﷺ اختار بعضَ رُماته وعيّنهم لحراسة ممر هنالك قائلا: لا تبرحوا مكانكم هذا مهما كانت نتيجة المعركة (الفصول في سيرة الرسول لابن كثير: كتاب المغازي). وعندما بدأت المعركة وتشتّتَ جنود الكافرين ظن هؤلاء المسلمون نتيجة اجتهاد خاطئ منهم أن لا فائدة الآن في بقائهم في مكانهم، وإنما عليهم أن ينـــزلوا ويشتركوا في القتال ولو قليلا. فقال لهم أميرهم: لقد أمرنا الرسول ﷺ بالبقاء في مكاننا على كل حال، ولكنهم قالوا له: لم يقصد الرسول ﷺ أن لا نتركه حتى في حالة الفتح، وإنما قصد ألا نتركه ما دامت المعركة مستمرة، وما دام قد حالفَنا الفتح وفرّ العدوّ فعلينا أن نشترك في هذا الجهاد من أجل الثواب. وهكذا تركوا حراسة الممر. ولم يكن خالد بن الوليد قد أسلم بعد. لقد كان فتًى حادّ البصر، وفيما هو يفرّ مع جنده، لاحظَ أن الممر مكشوف، فرجع بأصحابه وشنّ الهجوم على المسلمين من ورائهم عبر الممر. لم يكن المسلمون مستعدين لمواجهة هذا الهجوم المباغت، فَعَمَّتْهم الفوضى وتبعثروا، فلم يستطيعوا الوقوف في وجه العدو، واستولى الكافرون على أرض المعركة. وفرّ معظم الصحابة في هذه الفوضى والاضطراب إلى المدينة حتى لم يبقَ حول الرسول ﷺ إلا اثنا عشر صحابيا، بل لم يبق حوله منهم إلا ثلاثة في وقت من الأوقات. فأخذ العدو يصوّب سهامه إلى النبي ﷺ خاصة، ولكنه ﷺ ظلّ صامدًا في وجه العدو ثابتًا في مكانه في هذا الظرف العصيب، ولم يتزحزح من مكانه. فحمل عليه العدو في الأخير حملةَ رجل واحد، ودفعوه وأصحابه، فسقط النبي ﷺ في حفرة جريحًا مغشيًا عليه، وسقط عليه بعض أصحابه الذين كانوا يحرسونه شهداءَ، واختفى ﷺ تحت جثثهم وأشيع بين القوم أنه ﷺ قد استُشهد. فقد زاد هذا الخبر الصحابة حزنًا وقصم ظهورهم كليةً. أما الصحابة الذين كانوا حوله فأخرجوه من الحفرة من تحت الجثث والتفوا حوله يحرسونه. وفيما كان

العدو في ذروة نشوة انتصاره والجيشُ المسلم في ضعفه وتشتته، والرسولُ ﷺ بين حفنة من صحابته إذ فر باقي المسلمين وخلا ميدان المعركة، فنادى أبو سفيان وقال: هل فيكم محمد؟ فأراد الصحابة الردَّ عليه، ولكن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك. فقال أبو سفيان: هل فيكم ابن أبي قحافة، أي أبو بكر؟ فقال له النبي ﷺ: لا تُجِبْ. ثم قال أبو سفيان: هل فيكم عمر؟ فنهاه النبي ﷺ عن الإجابة. فقال أبو سفيان فرحًا: اعْلُ هُبل، اعْلُ هُبل.. أي العظمة لصنمنا هُبل، العظمة لصنمنا هبل، إذ قد أهلك هؤلاء القومَ أخيرا. فلم يطق رسول الله ﷺ سماع كلامه. ومع أن العدو كان قد ألحق بأصحابه ﷺ خسائر فادحة، ومع أن بعضهم قد فروا من أرض المعركة حتى وصل بعضهم إلى المدينة، وكان الآخرون مشتتين ولم يكن حول الرسول ﷺ إلا قلة يُعَدّون على الأصابع، إلا أنه ﷺ لم يتمالك نفسه وقال لصحابته: لماذا أنتم صامتون؟ ولِمَ لا تردّون عليه؟ فقالوا: يا رسول الله، بماذا نردّ عليه؟ قال: اهتِفوا: اللهُ أعلى وأجلّ، اللهُ أعلى وأجلّ. أي ما قيمة إلهكم هُبل؟ إنما الله هو الأعلى والأجلّ. (البخاري: كتاب المغازي، والفصول في سيرة الرسول: كتاب المغازي).

لا جرم أن قوله ﷺ هذا جعَله كمن يطلب الموت. فقد كان أمامه ﷺ جيش العدو المكوَّن مِن ألفي جندي، وكانوا منتشين بنشوة الانتصار، وكان أغلبية المسلمين قد فروا من أرض المعركة، وكان العدو يدعي أنه قد قتل محمدا وأكابر صحابته. كم كانت حالكةً تلك الليلة التي أتت على النبي ﷺ يومها! فرغم أنه لم يكن حول النبي ﷺ في تلك الليلة الحالكة إلا حفنة من صحابته، وكان هناك خطر كبير أن يهاجمه العدو ثانية، ورغم أنه كان يمنع صحابته من الجواب من قبل في كل مرة، إلا أنه لما سمع مَدْحَ هُبل قال ﷺ مِن فورة حماسه: لماذا لا تجيبون وتقولون: اللهُ أعلى وأجلّ، الله أعلى وأجلّ؟ فردَّ الصحابة بهذا الجواب على الكفار. وهكذا قال النبي ﷺ للعدو وتحداه قائلا: ها أنا موجود هنا لقتالك. لقد كان هذا العدو هزم ألف جندي، ولكن عندما سمع منه النبي ﷺ هذه الكلمة الوثنية لم يُطِقْها، فمع أنه ﷺ كان منهكا بالجروح ولم يكن حوله إلا حفنة من أصحابه وكان العدو يستطيع إصابته

بكل سهولة، ولكنه ﷺ لم يبال بهذا الموقف الحرج، بل رفع اسم الله تعالى عندها أيضا.

لا شك أنه كان ليلاً حالكًا أتى عليه، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هي: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى﴾. لقد ازداد ﷺ تعلقًا وقربًا من الله تعالى، و لم يتصرف تصرفًا يُثير سخط الله عليه.

وكان ليلاً حالكاً آخر حين جاء العدو بعُدته وعتاده للقضاء على المسلمين عند غزوة الخندق، والغريب أنه مني بالهزيمة النكراء في وقت كان ليلا حالكا بالفعل. كان المسلمون يائسين في الظاهر، إذ كان العدو محاصِرًا لهم منذ خمسة عشر يوما، وكانت مؤَن المسلمين قد نفدت و لم يكن هناك أملٌ للمدد من الخارج، فكانوا في قلق شديد على مصيرهم. لقد كانوا قليلي الأسباب لدرجة أنهم قالوا: لم يكن عندنا ثياب نتقي بها قرّ البرد حتى فقدت أيدينا وأرجلنا الإحساس من شدة البرد. وفيما هم في ذلك إذ نادى النبي ﷺ في منتصف الليل: هل هناك أحد؟ فقال صحابي: لبيك يا رسول الله! فقال ﷺ: لا، أريد أحدًا سواك؟ فلم يسمع ﷺ صوتًا من أحد فأعاد قوله: هل هناك أحد؟ قال ذلك الصحابي: لبيك يا رسول الله. فقال ﷺ: لا، أريد غيرك. ثم نادى: هل هناك أحد؟ فلم يجبه غير هذا الصحابي! فضحك النبي ﷺ وقال له: اخرجْ وانظرْ، فإن الله تعالى قد أخبرني أن العدو قد هرب. (السيرة لابن هشام، غزوة الخندق)

فترى أن المسلمين ينامون تلك الليلة يائسين من أي مدد، ولكن الله تعالى يخبر رسوله قبل أن يطلع الصبح، بل في منتصف تلك الليلة المظلمة أن العدو قد فرّ. مما يعني أنه بينما كان الناس يبيتون قلقين خائفين كان النبي ﷺ يخرّ أمام ربّه ويدعوه ويبتهل له. ويقول ذلك الصحابي أني لما خرجتُ وجدتُ الأرض خاليةً لا توجد بها خيام الأعداء.

ويقول صحابي آخر: لما نادى النبي ﷺ: هل هناك أحد؟ كنتُ مستيقظا وأسمع نداءه ولكني لم أستطع أن أُجيبه من شدة البرد الذي جمّد لساني، دَعْك من يديّ وأرجلي، إذ كان الثلج قد سقط و لم تكن عندنا ثياب كافية (المرجع السابق).

لقد أتت على النبي ﷺ هذه الساعات العصيبة من المحن والصعاب والآلام، ولكن الله تعالى قد أثبت في كل ليلة من هذه الليالي أنه معه ﷺ.

ثم جاءت على النبي ﷺ أوقات الضحى، حيث انتصر بعد فتح مكة على العرب كلهم، وحقّق فتحًا بعد فتح، لكن ماذا أكدت نجاحاته وانتصاراته؟ لقد أكّدتْ صدق قول الله تعالى: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلى﴾. إن الناس يصابون بالكبر عند النجاح، ويصابون بنشوة الغرور عند الغلبة، ولكن يمكنك أن تقدّر حالة قلب النبي ﷺ عند فتح مكة. عندما كان الجيش المسلم يتقدم نحو مكة كان الصحابةُ، لا سيّما الأنصار، متحمسين جدًّا ضد أهلها. لا شك أن قلوب المهاجرين ما كانت خالية من هذا الإحساس، ولكن الأنصار كانوا أشدَّ منهم حماسًا بما سمعوا من حكايات الاضطهاد الذي كان أهل مكة يصبّونه على النبي ﷺ وأصحابه. وبينما هم في فورة الحماس هذه رأى أحد القادة الأنصاريين أبا سفيان، فقال له: اليوم سوف ننتقم منكم على ما فعلتم برسول الله وأصحابه. ولو كان هناك غيرُ النبي ﷺ لمنح هذا الأنصاريَّ الوسام فرحًا بقوله قائلاً: نعم، هكذا يكون الوفاء، ولكن الرسول ﷺ دعا هذا الأنصاري وقال له: إن مكة مقام مقدَّس عند الله تعالى، ويجب أن لا ننسى قداستها وقت هذا الفرح والانتصار الذي كتب الله لنا. لقد أخطأتَ خطأً كبيرا بقولك هذا، لذلك فإني أعزلك من منصبك. (السيرة لابن هشام)

فترى أن هذه كانت الفرصةَ الوحيدة والأُولى التي سنحت للنبي ﷺ، حيث وقعتْ في قبضته رقابُ الأعداء الذين ظلّوا يصبّون عليه أبشعَ المظالم زمنًا طويلا. وكان من الوارد أن يقول النبي ﷺ في نفسه: اليوم سأنتقم من هؤلاء انتقاما شديدا، أو تجري كلمةٌ مماثلة على لسانه، أو يعبّر عن إعجابه بمن يقولها أو يرضى بها في قلبه على الأقل فيقول في نفسه: ما أشدَّ أصحابي وفاءً لي، وما أشدَّهم إحساسًا بالاضطهاد الذي كنت أتعرض له! وما أشدَّهم حماسًا للانتقام من أجلي حتى أصبح هذا الحماس باديًا من تصرفاتهم. ولكن لم يحدث من هذا القبيل شيء أبدا، وإنما عزل الرسول ﷺ هذا القائد الأنصاري قائلا: هذه المناسبة لا تبيح لنا الكبرياء.

ثم لما دخل النبي ﷺ مكة منتصرًا كان ذلك وقت الضحى، حيث قال: يا أولادَ عتبة وشيبة ووليد، ويا إخوهم وأعمامَهم وأقاربهم، لقد أخرجتموني من مكة وحيدًا طريدا، لقد أصبحتُ غالبًا عليكم، فماذا تتوقعون مني؟ فقالوا: نتوقع منك ما أنت أهلٌ به، ونرجو أنك ستعاملنا كمعاملة يوسف لإخوته. فقال النبي ﷺ: نعم، لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء. (السيرة الحلبية: فتح مكة)

كان هذا ضحى ثانيًا أتى على النبي ﷺ، لكن لم يُصِبْه فيه كبر ولا غرور. كانت القبائل والوفود يأتون ويدخلون في طاعته وولائه، ولكنه لم يتصرف معهم بما يدل على استعلاء أو كبرياء.

والمعنى الثالث لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ هو: أن مِن الناس مَن إذا طلع عليهم النهار أنفدوه في اللعب واللهو والقمار والخمر وغيرها من اللغو والمنكرات، وإذا حلّ بهم الليل أنفدوه في الرقص والغناء والنوم، ولكن الله تعالى يقول لرسوله: سوف تتميز أيامك ولياليك عن أيام هؤلاء القوم ولياليهم حتى إن أصحابك سوف يحتجون بنهارك على صدقك قائلين: هل نهاركم كنهار محمد؟ فكيف يمكن أن يخذل الله مَن يقضي نهاره على هذا النحو أو كيف يمكن أن يغضب عليه؟ كما تقدِّم لياليك أمام كل إنسان وتقول له: انظر إلى لياليّ وأخبِر هل يمكن أن يخذل الله تعالى مَن يقضي لياليه بهذا الشكل؟ إذن، فقول الله تعالى لرسوله ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ يعني أننا سنجعل نهارك يشهد على أن الله تعالى لم يبغضك ويشهد ليلك على أن الله تعالى لم يخذلك. والحق أن هذا المفهوم يماثل الدعوى التي ذكرها الله تعالى في قوله على لسان النبي ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي لقد قضيتُ بينكم عمرًا طويلا، فهل بوسعكم أن تصموني بمعصية واحدة في هذه السنوات؟ كلا، لن تستطيعوا جميعا أن تثبتوا وصمةً واحدة في أربعين سنة قضيتُها بينكم. ولكن الواقع أن هذه الدعوى تتعلق بالحياة السابقة للبعثة، أما قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ففيه الدعوى عن نزاهة

حياته ﷺ بعد البعثة، فكأنما يقول: إن كلَّ نهارٍ وكلَّ ليلةٍ من حياتي سوف ينقضي أمامكم، وسيكون دليلا على أنه ما ودّعني ربي وما قلاني.

إذن فهذا دليل آخر على صدق النبي ﷺ علّمه الله إياه، فكأنه تعالى يقول: إنني أتنبأ أمام العالم أن كل نهار لك سينقضي في ابتغاء مرضاتي، وكل ليلة لك ستكون مصبغة بصبغة رضواني. لقد تحديتُ القوم من قبل عن حياتك السابقة، وها أنا أتحداهم ثانية عن حياتك القادمة. قد يقولون عن حياتك السابقة أننا لم نتدبرها و لم نفحصها جيدا، وقد تكون فيها وصمة عار، ودحضًا لهذا العذر نقدّم أمامهم حياتك الباقية؛ فليتفحصوا حياتك بعد الدعوى ليروا ما إذا كنتَ تنفق كل ساعة من كل ليلة ونهار من حياتك لمصلحتك وراحتك، أم لمصلحة الإنسانية وراحتها.

المعنى الرابع لهذه الآيات هو أن حالة قبضِ النبي ﷺ وبسطِه كلتيهما خير. علمًا أن القابض والباسط هما من صفات الله تعالى التي يعامل بها عباده، فكما أن الإنسان يمرّ بساعة بسط أو عناء في معاملاته المادية، كذلك تأتي عليه في العالم الروحاني ساعةُ بسط يُصبح فيها أكثرَ إنابةً إلى الله تعالى، كما تأتي عليه ساعةُ قبض. ورد في الحديث أن صحابيًا جاء النبيَّ ﷺ وبكى قائلا: يا رسول الله، لقد صرتُ منافقًا؟ فقال ﷺ: لكني أراك مؤمنا. قال: بل منافق يا رسول الله، حيث أشعر في مجلسك أن الجنة على طرف مني والنار على طرف آخر مني، فما تخطر بي خطرة ولا أقوم بعمل إلا وكأني أنظر إلى الجنة والنار، ولكني حين أعود إلى البيت يزول عني هذا الإحساس. فقال النبي ﷺ: هذا هو الإيمان بعينه، ولو بقيتم على حالة واحدة لَمُتُّمْ. (ابن ماجه، كتاب الزهد)

فالواقع أن كل إنسان، صغير وكبير، يمرّ بحالتي القبض والبسط، وإن اختلفتْ شدتهما من شخص إلى شخص. فيكون المرء في صلاة حينًا وفي صيام حينًا، وفي لعب مع أهله وأولاده أو في شغل من أشغاله حينًا آخر، وفي الحمّام حينًا ثالثًا، وكلها أحوال مختلفة يمرّ بها كل إنسان. وصلاتُه أو صومه هي حالةُ بسطه، ولعبُه مع الأهل والأولاد واشتغاله بشغله أو قضاء حاجته كل هذه هي حالات قبضه. وكثير من الناس يُصلّون ويصومون ويحجّون ويذكرون الله ويزكّون أموالهم،

ولكنهم إذا صلّوا فيصلّون فقط، وإذا حجّوا فيحجّون فقط، وإذا زكّوا فيزكّون فقط، وإذ أكلوا فيأكلون فقط، وإذا لبسوا فيلبسون فقط، وإذا ضحكوا مع الأهل فيضحكون فقط، وإذا لعبوا مع الأولاد فيلعبون فقط، فتكون دنياهم دنيا فقط، ودينهم دينًا فقط، ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي يا محمد، حالُك عجيبة غريبة، فقبضُك لله، وبسطك أيضًا لله! فعندما تداعب زوجتك فإنما تأتمر بأوامرنا، إذ تقول في نفسك إنما أداعب زوجتي لأن ربي أمرني أن أعاملها بلطف. وعندما تأكل فلا تأكل كأهل الدنيا، بل تبدأه باسم الله وتنهيه بحمد الله، وتسبح الله أثناء تناوُله، وعندما تشرب الماء فلا تشربه كأهل الدنيا، بل تقول إنما أشرب لأنه نعمة ربي. عندما يهطل المطر يستمتع به الناس، ولكن كيف كان محمد ﷺ يستقبل المطر؟ ذات مرة جاءت السحب، ولما نزلت قطرات المزن من السماء خرج النبي ﷺ من غرفته وأخرج لسانه وتلقى به قطر المطر وقال: هذه نعمة جديدة من ربي (مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء). وقد قال النبي ﷺ للناس إني لا أنهاكم عن الاستمتاع بنسائكم، ولا أنهاكم عن الطعام أو اللباس، وإنما أقول لكم أن تعملوا كل ذلك احتسابًا لله تعالى وابتغاء مرضاته. لو قمتَ بهذه الأعمال بهذه النية، وجعلت رضوان الله غايتك من ورائها، فإني أقول: لو أطعمتَ زوجتك لقمةً احتسابا لله تعالى فهو صدقة (البخاري، كتاب الإيمان). الغريب أن المرء يضع لقمة في فم زوجته، ويعتبرها الرسول ﷺ صدقة منه، مع أن المرء إذا أحب أحدًا أطعمه في كل حال؛ فقد يجوع بنفسه، ولكنه لا يطيق أن يقاسي حبيبه الجوع. فترى أنه يطعم زوجته إلا أنه لا يُكتب عند الله أنه أطعم زوجته لقمة، بل يُكتب أنه أخرج صدقة ابتغاءَ مرضاة الله. ونفس الحال بالنسبة إلى معاملة المرء مع الموظفين والجيران والأصدقاء، فإذا جعل الإنسان رضوان الله غايته وراء كل معاملاته، وقام بأعماله ابتغاءَ مرضاته فقط، أصبحت الأعمال الدنيوية دينًا وعبادةً عند الله تعالى. ولذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن حالتَي بسطك وقبضك كلتيهما لنا. أنت تضاحك زوجتك في الظاهر، وفي الواقع تحاببنا.

أنت تلاطف أولادك في الظاهر وفي الحقيقة يعبّر قلبك عن حبك لنا. أنت تتحدث مع الجيران مواساةً لهم في الظاهر وفي الواقع تناجينا. يظن الناس أنك جالس بين ظهرانيهم، وفي الواقع تكون جالسا عندنا. وما دمتَ تنشد قربنا بكل فعل وبكل حركة وسكون وبطرق الدين والدنيا كليهما، فكيف يمكن أن نخذلك ونهجرك في الليل والنهار؟ ما دمنا لم نسخط عليك بسبب أيّ عمل من أعمالك من أكلك وشربك وعِشرتك مع الأهل وعلاقتك مع الجيران، فكيف يمكن أن نهجرك؟ إن أعمالك إنما هي عبادات تقوم بها من أجلنا، فكيف يمكن أن نسخط عليك بسبب العبادات؟ كلا، وإنما نرضى عنك إذ قد حَوَّلت دنياك دينًا ابتغاءَ مرضاتنا.

باختصار، قد بين الله تعالى هنا أن حالتي القبض والبسط لمحمد ﷺ كلتيهما خير.. أي أن عبادتك عبادة بلا شك، إلا أن مشاغلك الدنيوية -التي هي بمنـــزلة الليل- أيضا خاضعة لمرضاتنا، لذا ستعرف الدنيا أن الله لا ينفصل عنك، لا بالليل ولا بالنهار، ولا يسخط عليك بأي فعل من أفعالك.

وهناك معنى خامس لهذه الآيات بيانه كالآتي: إن النهار للعمل، والليل للراحة، والله تعالى يقول لنبيّه ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.. أي أننا نقدّم للعالم نهارَك الذي تقضيه في الدعوة والتبليغ ولياليَك التي تناجي فيها ربك وتكلِّمه، فنهارك دليل على صدق قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، وبتعبير آخر، على صدق قولنا ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(المائدة:٦٨). كان النبي ﷺ يقوم وقت النهار بدعوة الكافرين الذين كانوا يريدون قتله، ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ أن نهارك سوف يشهد أننا معك، وإلا فلماذا لا يقدر العدو على قتلك وأنت تعيش بينه؟ إن أكبر أمنية لأعدائك أن يقتلوك، ولكنهم لا يستطيعون ذلك مع أنك تقضي نهارك بين ظهرانيهم، فثبت أن نهارك دليل على أن الله معك. كما أن لياليك أيضًا دليل على صدق قولنا ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي أن ربك ما قلاك.. أي أنه ليس غاضبًا عليك. يصبّ عليك الناس جام غيظهم وغضبهم وقت النهار، وتسمع من أعدائك أنواع السباب والشتائم والافتراءات، فمنهم من يرميك بالغشّ والخداع، ومنهم من يتّهمك بأنك تريد العزة والسؤدد، ولكن نهارك دليل على أننا معك، ذلك أن بوسع الأعداء أن

يقتلوك وقت النهار، ولكنهم يفشلون في تحقيق نيّاهم الخبيثة لأننا نكون معك. إلهم يسبّونك ويتّهمونك ويتآمرون لقتلك بشتى الحيل والمكائد، ولكنهم يبوءون بالفشل في كل مرة، وهكذا تشهد كل ساعة من نهارك على صدقك وسدادك أمام العالم. ثم عندما تأوي إلى بيتك بعدما سمعتَ السباب والشتائم طوال النهار، تقول في نفسك ماذا أفعل، إن الدنيا كلها ساخطة عليّ، عندها نطمئنك ونقول لك: إذا كانت الدنيا ساخطة عليك فلا ضير، لأننا لسنا بساخطين عليك.

كان من عادة المسيح الموعود عليه السلام أن يسجِّل في مذكرة له كل فكرة نبيلة أو عاطفة طيبة خطرت بباله. وذات مرة رأيت مذكّرته هذه فوجدتُ أنه قد كتب فيها مخاطبًا ربّه ما يلي:

"يا مولاي، ويا مالكي الحبيب، ويا محبوبي وربي المعشوق، تقول لي الدنيا أنت كافر، ولكن أَنَّى لي أن أجد حبيبًا مثلك حتى أتركك مِن أجله؟ أما أنا فأرى أن الناس حين يكونون غافلين عن الدنيا وما فيها، وحين لا يعرف بحالي حتى أصدقائي وأعدائي أيضا، توقظني عندها وتقول لي بحب ولطف: لا تحزنْ، إني معك. فكيف يمكن يا مولاي أن أتركك مع إحسانك هذا؟ كلا ثم كلا." (جريدة "بدر"، ١١-١-١٩١٢ ص ٦).

هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن نهارك دليل أني معك، إذ لا يستطيع العدو أن يبسط لك يده بسوء، وأن ليلك دليل أني لم أسخط عليك، إذ تسمع في النهار أنواع الإساءة من العدو، فيصاب قلبك بحزن شديد، ولكن عندما يحلّ الليل نقول لك: لا تحزن من سبّ العدوّ، فإنا راضون عنك. فالحماية الإلهية لك في النهار، والمكالمة الربانية معك في الليل، كلتاهما دليل على صدق قولنا ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

أما المعنى السادس لهذه الآيات فهو أن كل إنسان يمر بالقبض والبسط الروحانيّيْن. علمًا أن ما ذكرتُه آنفًا من معاني القبض والبسط كان خاصًا بالمشاغل الدينية البحتة والمشاغل المادية البحتة، غير أن القبض والبسط يأتيان على حالة المرء الروحانية البحتة، والجميع سواسية في ذلك، صغارا كانوا أم كبارا، وهذه الحالة

من القبض والبسط الروحاني ضرورية لرقي الإنسان، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ومثال حالات القبض الروحاني في حياة النبي ﷺ هو توقُّف نزول الوحي عليه بعض الأيام، إذ كانت فترة القبض الروحاني قد أرادها الله له. يقول الله تعالى: نعرض على الناس فترات بسطك الروحاني التي هي بمثابة الضحى، وأيضا فترات قبضك الروحاني التي هي بمثابة الليل، بمعنى أن حالتك الروحانية لن تبقى بمثابة الضحى دائما، بل تأتي عليه حالة مشابهة لظلمة الليل، فيتوقف نزول الوحي حينًا، أو لا يحلّق قلبُك في الرفعة العالية في بعض الأحيان كما يحلّق في الأوقات الأخرى، غير أن حالة قلبك هذه تختلف عن حالة قلوب الآخرين كليةً، لأن الآخرين إذا كانت قلوبهم في حالة قبض روحاني ابتعدوا عن الله تعالى، أما أنت فاعلمْ أنه ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن ضُحاك الروحاني محبوب إلينا، كما أن ليلك الروحاني أيضا محبوب إلينا.

الواقع أن كل شيء في الدنيا عبارة عن أمواج، فالجبال موجات، والأنهار موجات، والرياح موجات، والكهرباء موجات، فكل شيء عبارة عن موجات. فكما أن قانون الموجات جارٍ في العالم المادي فهو جارٍ في العالم الروحاني تمامًا. وهذه الموجات الروحانية تختلف في حالتها من شخص إلى شخص، فمن الموجات الروحانية ما يكون أدناها كفرًا وأعلاها كفرًا أيضًا، ولو طرأت على المرء خشيةُ الله خلال هذه الموجات ما كانت علامةَ الإيمان الحقيقي. بينما هناك موجات روحانية أدنى درجاتها كفرٌ وأعلاها إيمان. ثم هناك موجات روحانية لا تكون أدنى درجاتها كفرًا، ولكنها لا تدل على معية الله للمرء، بمعنى أن أدنى درجة في تلك الموجات الروحانية لا تكون دليلا على غضب الله تعالى، إلا أننا لا نستطيع أن نقول عن صاحبها أنه في معية الله في تلك الحالة، إذ هناك حالةٌ روحانية تُعتبر معيةَ الله، وحالةٌ أخرى لا تُعتبر معيةَ الله، وهما مقامان مختلفان يمر بهما المرء في سلوكه الروحاني، وبرؤية أدنى حالته الروحانية لا نستطيع القول إنه مقبول عند الله تعالى، كما لا نستطيع القول أنه مطرود من عنده سبحانه وتعالى. نعم، إن أعلى حالته الروحانية تكون دليلا على فوزه بمعية الله بلا شك. غير أن هناك مقامًا روحانيا لا يزال

صاحبه متمتعًا بمعية الله تعالى على الدوام، سواءً هبطت موجته الروحانية أم ارتفعت، ولذا يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي تأتي عليك فترةُ موجات روحانية عالية هي بمنـــزلة الضحى حيث تكون أمام الله تعالى كلية، كما تأتي عليك فترةُ موجات روحانية أقل ارتفاعًا أي حالةُ القبض الروحاني أيضا، ولكن اعلمْ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن معية الله تعالى ميسرة لك في قبضك الروحاني وكذلك في بسطك الروحاني ولا تخلو من معية الله ورضوانه بحال من الأحوال. إن حالة قبضك وبسطك كلتيهما دليل على معية الله ورضوانه، إنما الفرق فرقُ درجةٍ وكمية فقط. وهذا هو المقام الذي أشار إليه الصوفية بمقولتهم الشهيرة: "حسنات الأبرار سيئات المقربين" (تشييد المباني في تخريج أحاديث مكتوبات الإمام الرباني ص ٣٤). الواقع أن إيضاح هذا المقام جدّ صعب، ولأجل ذلك لجأ الصوفية إلى هذه الإشارة بدلاً من بيانه.. أي أن ما يعتبره الأبرار مقام البسط الروحاني أي أعلى درجة من العرفان الإلهي بالنسبة لهم إنما هو مقام القبض الروحاني عند المقربين. وحيث إن هؤلاء الصوفية قد بينوا هذا الأمر إيماءً وإشارةً فأنا أيضا مضطر لبيانه بالإشارة. الواقع أنها موجات روحانية ترتفع حينا وتنخفض حينا آخر. لقد كان شرح هذا الأمر صعبًا على الأولين، ولكنه أصبح سهلاً لي -نسبيًا- بسبب اختراع علم الموجات في هذا العصر. باختصار، قد بين الله تعالى هنا أن موجات المقام المحمدي المنخفضة والعالية كلتيهما دليلٌ على صدق قول الله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، إذ تيسرت له ﷺ معية الله تعالى في الحالتين كلتيهما، ولن يأتي عليه وقت يتعرض فيه لسخط الله وعدم رضاه. ستظهر صفة الله القابض في حقه ﷺ بحيث تكون كل حالة قبض سببًا للبسط وللمزيد من الرفعة، شأن الطائر يصاب بهزة أثناء الطيران بحيث يبدو للرائي أنه قد هبط في طيرانه، مع أن هذه الهزة جزء من الطيران.

والمعنى السابع لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. هو أن لكل نبي حياتين؛ حياته الشخصية وحياة أُمّته، ولو فسّرنا هذه الآيات نظرًا إلى الحياة الشخصية للنبي ﷺ فتخص فترتا الضحى والليل كلتاهما حياتَه

الشخصية، أما إذا فسرناها نظرًا إلى حياة أمته ﷺ فتتعلقان بالأدوار المختلفة لأمته بعد وفاته، وقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ هو في الحقيقة إشارةٌ إلى حياة الرسول ﷺ الجماعية أي حياة أمته.. فكأنه تعالى يقول: إننا نقدم شهادةً تلك الفترةَ التي تكون فيها حياتك الجماعية بمثابة الضحى، كما نقدم شهادةً تلك الفترةَ من حياتك الجماعية التي تكون بمنـــزلة الليل. الواقع أن كل أُمّة تمرّ بأدوار مختلفة من الرقي والانحطاط، فأحيانا يطلع عليها ضحى الانتصار والازدهار، وأحيانا تحيط بها ظلمات الفشل والإدبار، والقاعدة العامة أن الأمم إذا أصابها الانحطاط بعد الازدهار شملها الهلاك والدمار، ولكن الله تعالى يعلن هنا أنه سيعامل أمة الرسول ﷺ على عكس ذلك، فيخبر أننا لا نقول أن زمن نبوة محمد -الممتد من دعواه إلى يوم القيامة- سيظل محفوظا من الانحطاط أو سيظل مضيئا كالضحى دائمًا، ولن تبتعد أمته عن الله تعالى ولن يروا الإدبار والضلال؛ بل نعلن أنه سيأتي عليهم أدوار من الضحى وأدوار من الليل إذا سجى، ومع ذلك نَعِدُهم وعْدًا لم نقطعه بحق أي أمة من قبل، وهو أن فترتَي الضحى والليل من حياة أمة محمد ﷺ كلتيهما ستكون دليلاً على صدق قولنا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ففيما يتعلق بالأتباع فستأتي عليهم ساعات من الضحى حينًا وتحيط بهم ظلمة كظلمة الليل حينًا، ولكن فيما يتعلق بالشريعة المحمدية واستمرار علاقة العباد بربهم فلن يأتي على أمة محمد ﷺ فترة لا يصدق عليها قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. لا شك أن الأمة المحمدية ستصاب بالانحطاط ومعظم أفرادها سيسقطون ويتردَّون، وضحى النجاح والإقبال سيختفي، مع ذلك سيظل هنالك طائفة منهم قد قُدّر لهم الحياة حائزين على رضوان الله ومعيته تعالى.

والحق أن الله تعالى قد أخبر هنا نبيّه ﷺ أنه يمكن للأمم الأخرى أن تزدهر ماديًا رغم إعراضها عن الله تعالى، ولكن أمتك لن تستطيع ذلك، بل كلما أتت عليهم فترة الضحى فإنما تأتي بحسب قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، فلن يحرز المسلمون رقيا عظيما معرضين عن الله تعالى، كما الحال بالنسبة إلى الأمم الأخرى. وبالفعل نرى أنه عندما أصيبت الأمم الأخرى التي بعث الله فيهم أنبياءه في الماضي بالانحطاط الروحاني، فإنها ازدهرت ماديًا رغم إعراضها عن الله تعالى، ولكن الله تعالى يخبر نبيه

ﷺ هنا أننا لن نعامل أمتك هكذا، بل كلما أتى عليهم وقت الضحى فإنما يأتي بحسب قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، ولن نكتب لهم الرقي المادي إلا مع صلاح دينهم، فمن المحال أن تأتي عليهم فترة الضحى وهم تاركون اللهَ تعالى أو مصابون بانحطاط ديني وأخلاقي.

انظروا إلى النصارى، قد أتت عليهم فترة الرقي المادي، ولكن متى؟ لقد ازدهروا عندما ماتت المسيحية عمليًا. فبعد انقضاء ثلاثة قرون عندما ضعف المسيحيون ضعفًا روحانيًا شديدا وتسربت إليهم أنواع المفاسد خلافًا لتعاليم المسيح عليه السلام، عندها جاءت عليهم فترة الضحى المادي. بينما يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: يا محمد، لن نفعل هكذا مع أمتك، فلن تأتي على المسلمين فترة الضحى إلا إذا كانوا على صلة مع الله تعالى حقًا، أما إذا قطعوا صلتهم معه تعالى بسوء أعمالهم فلن تأتي عليهم فترة الضحى. وبالفعل نرى أن المسلمين كانوا حائزين على الميزتين في زمن الخلافة الراشدة التي كانت فترة رقي الإسلام، إذ كانوا غالبين روحانيا، كما كانوا في ضحى مادي أيضا. أما في هذا العصر الذي هو فترة انحطاطهم الروحاني فلم يستطيعوا أن يرجعوا بفترة الضحى تلك رغم أنهم اتخذوا كل التدابير التي تتخذها الأمم الأخرى لرقيها المادي واحدًا بعد الآخر. قالوا قد ازدهرت الأمم الأخرى بالتعامل الربوي فتعالوا نتعامل بالربا ونتنافس مع الأمم الأخرى في هذا الرقي، فتعاملوا بالربا، فظلوا يتردّون أكثر فأكثر، مع أن الأمم الأخرى ازدهرت بالربا. ثم قال المسلمون قد ازدهرت الدنيا بالتعليم المادي، فتعالوا نهتم بالتعليم المادي، فاندفعوا بكل قوة وحماس لإصلاح حالتهم العِلمية، ومع ذلك لا يزالون يسقطون إلى الحضيض نتيجة هذا التعليم، بينما ازدهرت الأمم نتيجة هذا التعليم المادي. ثم قال المسلمون إن الأمم قد ازدهرت بالتجارة، فتعالوا نتّوجه إلى التجارة ونتغلب بها على العالم كالأمم الأخرى، فتوجهوا إلى التجارة، ولكن لم تزدهم تجارتهم إلا خسارةً وخزيًا، بينما غلبت الأمم الأخرى بتجاراتها. باختصار، قد بذل المسلمون كل ما في وسعهم من أجل الرقيّ المادي، ولكن لم تحقق لهم تدابيرهم حُلم الازدهار، مع أن هذه التدابير هي التي ساهمت في رقي الأمم الأخرى.

فثبت أن جميع الأمم في الدنيا تزدهر ماديًا رغم إعراضها عن الدين، ولكن الله تعالى قد جعل للمسلمين قانونًا جديًدا بأنه لن تأتي عليهم فترة الضحى إلا بحسب قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي من المحال أنهم أن يتركهم الله يزدهرون كالأمم الأخرى وهُمْ عنه معرضون.

ولهذه الظاهرة سببان: مادي وروحاني. أما السبب المادي فهو أن الديانات السابقة -ما عدا اليهودية- لم تأت بتعاليم مفصلة كالتي أتى بها الإسلام، فيزدهر أتباعُها رغم إعراضهم عن تعاليمها، إذ لا يصابون باضطراب ذهني، فكل ما يختارونه يسمّونه دينًا لهم، كما تفعل المسيحية والهندوسية، ولكن تعاليم الإسلام مفصلة ومحفوظة، وستظل محفوظة إلى الأبد، وكلما حاول المسلمون التقدم معرضين عنها وقعوا في اضطراب ذهني يسلب اطمئنان قلوبهم، فيُبعدهم عن الدين كليةً أو يحول دون رقيهم.

أما السبب الروحاني فهو أنه إذا سمح الله تعالى لأمةٍ بالرقي رغم إعراضها عن دينها كان هذا دليلا على أن الله تعالى قد ودّعهم وهجرهم، إذ لم يبق طريق لإنذارهم. لقد كتب الله الرقي للأمم الأخرى رغم إعراضها عنه تعالى لأنه قد تركهم وهجرهم، بينما يقول لنبيه ﷺ يا محمد، لن نودّعك أبدًا ولن نودّع أمتك أيضا، ولذلك لن يحرزوا رقيًا بدون اتّباع دينهم، إذ لو كتبنا لهم الرقي من دون أن تصلح حالتهم الدينية فسيظنون خطأً أن الله راضٍ عنهم، فيزدادون بعدًا عن الدين، ولأجل ذلك لن نأتي عليهم بفترة الضحى وهم غافلون عن الدين، بل كلما كانوا غافلين عن الدين وفي ليل روحاني عاقبناهم، لأن عدم عقابهم يعني موتهم. باختصار، يعلن الله تعالى هنا أننا سنظل مع المسلمين ونعطيهم نصيبهم من الترقيات المادية ما داموا عاملين بدينهم، ولكنهم إذا هجرونا فلن نتركهم بل سنعاقبهم على سوء أعمالهم، ليس لنهلكهم، بل لنعود بهم إليك يا محمد لكي يتمسكوا بدينك بقوة. ففي الحالتين نعاملهم معاملة تدفعهم إلى التمسك بأهدابك وعدمِ التفكير في تركها طرفة عين، فيزدهرون ما داموا معك، أما إذا تركوك فسوف نعاقبهم لتعود إليهم فترةُ الضحى والضوء ثانية. ستكون معاملتنا معهم حتى في فترة الظلمة والانحطاط أيضًا دليلا على صدق قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ حيث نحذرهم ونعاقبهم ليصلحوا حالهم، وحين يعودون إليك

ستنتشر أنوارك وبركاتك في الدنيا ثانية، وهكذا تصدِّقُ فترتا الضحى والليل كلتاهما قولَنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ففترة الضحى تصدِّقُ قولنا هذا من حيث إنهم كلما ازدهروا رأى العالَمُ نورَ الإسلام، وفترة الليل تصدِّقُ قولنا هذا من حيث إنهم كلما أُصيبوا بالانحطاط عاقبهم الله تعالى ليعودوا إليك مرة أخرى، أو أقام شخصية روحانية تكشف جلالك وجمالك للعالم.

باختصار، إن الإسلام آخر الأديان، فلذلك لا تسمح أقدار الله الخاصة للمسلمين أن يزدهروا من دون الإسلام حتى لا يطمئنوا ويصبحوا غافلين عن الإسلام غير مبالين بالدين. وهذا ما أشيرَ إليه في قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن رقي المسلمين والقرب الإلهي سوف يسيران جنبًا إلى جنب دومًا، فلن تزدهر الأمة الإسلامية من دون قرب الله تعالى ومعيته ورضاه، وكلما ترك المسلمون دينهم حُرموا من الترقيات المادية أيضا.

والمعنى الثامن لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أنه سيأتي على الإسلام زمن الانحطاط ولكنه لن يدوم، بل يكون دليلا على صدق قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. بمعنى تليه فترة الخير دائمًا وتأتي بعد كل ظلمة فترةُ الضحى والضوء، لأن زوال الظلمة هو الدليل على معية الله ورضاه في فترة الظلام، فالمراد من كون الله تعالى راضيًا عنك حتى في زمن الليل هو أنه تعالى سوف يهيئ الأسباب لنضارة الإسلام ثانية ويقيم مأمورًا لإصلاح الناس، فيعود المسلمون إليه يائسين من جهودهم وتدابيرهم، وحيث إنه يكون نائبا لك يا محمد، فعودتهم إليه تكون بمنزلة عودتهم إليك في الواقع.

والمعنى التاسع لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ هو أن شريعة الإسلام ستظل محفوظة في فترتَي الرقي والانحطاط كلتيهما. اعلمْ أن الأمم تحرّف شرائعها في الفترتين، فبعضها بسبب غفلتها تدَع شرائعها تُحرَّف زمن انحطاطها، وبعضها تُحرِّفها بنفسها زمن رقيها. لقد انغمست الأمم السابقة في الملذّات في فترة ضحاها ورقيّها، وحرّفت من شرائعها ما لا يتماشى مع أهوائها، فمثلا: عندما نالت المسيحيةُ الحُكمَ والمُلك طالبَهم الشعب الغالب على أمرهم

(الرومان) بجعل يوم الأحد يوما للعبادة بدلاً من السبت، لأن فيه سهولة لهم، فلم يلبث المسيحيون أن غيّروا يوم العبادة من السبت إلى الأحد إرضاءً لهم. ثم قال لهم الشعب الغالب: كنّا في زمن الكفر نحتفل بالعيد في يوم كذا، فليكنْ عيدنا في ذلك اليوم في المسيحية أيضًا، فرضي المسيحيون بمطلبهم وغيّروا هذا الحكم أيضًا (الموسوعة الدينية المجلد ١٢ ص ١٠٤ كلمة: SUNDAY IN THE PRIMITE CHURCH)

وتُحرَّف أحكام الشرع في أيام انحطاط الأمم حين تكون مقصرة غافلة عن دينها ولا تُعظِّم أحكامه. فالشرائع تُحرَّف في الفترتين: فترة الضحى وفترة الليل. ففي فترة الضحى تُحرّف الأمم شرائعها من أجل الانغماس في الملذات، أما في فترة الليل فإما أن العدو يحرّق كتبهم ويتلفها، أو أنها لا تستطيع الحفاظ على شرائعها نتيجة ضعفها، ومثاله ما فعل "نبوخذنصر" باليهود، فإنه حين أجلاهم من وطنهم كانت تلك الفترة فترة ليل للأمة اليهودية، فلما رجعوا إلى وطنهم بعد مدة من الزمن لم يجدوا كتابهم التوراة، فقام النبي عزرا بجمع التوراة بمساعدة بعض الأحبار، ولكنها لم تكنْ كما نزلت على موسى عليه السلام. (أخبار الأيام الثاني ٣٦: ١٩، و APPOCRYPHA; 11 ESDARAS XIV P.44)

ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن هذا لن يحصل لأمتك في أي من الفترتين، بل نكون معك في فترتي الرقي والانحطاط، ولن ندع عملك يضيع ويُدمَّر. ما كان للرسول ﷺ أن يعيش للأبد بل كان لا بد أن يُتوفى يومًا ما، بينما القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي سيبقى إلى يوم القيامة، لذلك طَمْأَنَه الله تعالى أنه سواءً أتت على أمتك فترة رقي أو فترة انحطاط فإننا لن ندَع الكلام النازل عليك يُحرَّف، بل سوف نحفظه دائمًا أبدًا. الواقع أن انحطاط الأمة وحده ليس بشيء، لأنه يدل على فساد الأفراد، ولو أحرزوا الرقي بعد الانحطاط لأزالوا وصمة عار الفشل السابق، ولكن إذا حُرّفت شريعتهم ثم ازدهروا فلا قيمة لرقيهم مطلقا. إن انحطاط الأمة وحدها أو تغيُّر حالة الناس ليس بأمر خطير، إنما الخطير هو تغيُّرُ الرسول أعني تحريف تعاليمه وإفساد

كلامه؛ ولذلك وعد الله رسوله أنه سوف يحفظ ما أنزله عليه من الوحي في الفترتين؛ فترة ازدهار أمته وفترة انحطاطها أيضًا.

وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥﴾

التفسير: كثير من الناس يحرزون الرقي العظيم فجأة، ولكنهم يتعثرون ويسقطون في النهاية. خذوا مثلا هتلر ونابليون وتيمورلنك والاسكندر.. فكلهم تقدّموا وازدهروا ولكن كانت نهايتهم الفشل. كان في الماضي كثير من العظام الذين أحرزوا رقيًّا مدهشا ولكنهم سقطوا في النهاية وفقدوا كل ما نالوه من عزٍّ وصيت. كثير من الناس يكونون عباقرة ذوي ذكاء خارق، ولكنهم يصابون بالجنون أو يفقدون ذكاءهم في النهاية. كان "المولوي محمد حسين آزاد" من مدينة لاهور نابغةً من النوابغ، ولكنه أصيب بخلل في عقله في آخر عمره، حتى كان الناس يجتمعون حوله إذا مر بالسوق، وإذا كلّمه أحد سبّه سبًّا غليظًا. وكثير من الناس يكونون علماء أفذاذًا، ولكنهم يصبحون جاهلين في النهاية؛ حيث تضعف ذاكرتهم فينسون علومهم كلها. وكثير من الناس يكونون محبوبين لدى القوم، ولكنهم يصبحون مطرودين في النهاية، بل هذا هو مآل جميع المحبوبين الماديين، حيث ترنو إليهم الأبصار في شبابهم، ولكن حين تسقط أسنانهم وتتحدب ظهورهم وتتجعّد وجوههم، فإن أَبشعَ الناس صورةً يضحك برؤيتهم قائلاً: ما أسوأَ صورة هذا الإنسان!

هناك قصة شهيرة في فرنسا وهي أن شخصا رأى عجوزًا، فكَرِهَها بمجرد رؤية صورتها ومشيتها كراهةً شديدة، فأخذَتْه إلى بيتها وقدّمتْ له صورة وقالت: هل تعرف من صاحبة هذه الصورة؟ قال: نعم، أنا أعرفها إنها صورة تلك المرأة الشهيرة وهي صديقة لأمي، وكانت بارعة الجمال بحيث إن كل باريس كانت تعشقها. فقالت العجوز: إنها صورتي.

فثبت من هنا أن كثيرا من المحبوبين يصبحون مبغوضين في النهاية.

ولكن الله تعالى يقول لرسوله الكريم لن يكون مآلك هكذا، بل ستحرز الترقيات التي ستزداد دوما. وبالفعل، قد خضعت له ﷺ المدينة وما حولها، ثم فتَح مكةَ ثم الجزيرة العربية كلها ثم الشام والعراق ومصر، فلم يزلْ يقطع أشواط التقدم باطراد.

قد يقول قائل هنا: صحيح أن مكة فُتحت على يد محمد ﷺ، ولكن العراق ومصر وغيرهما قد فُتحتا بعد وفاته، فلعل هذه البلاد ذُكرتْ هنا خطأً، ولكني لم أذكرها خطأً بل عمدًا.

كذلك قد يقول قائل: إذا كان فتح العراق ومصر وغيرهما دليلاً على تحقُّق قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ فلماذا أصيب الإسلام بالانحطاط بعد هذه الفتوحات؟ وكيف يصح القول: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾؟

والجواب أن الله تعالى إنما قال هنا ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾.. أي أن قانوننا الدائم لمحمد ﷺ هو أن آخرته ستكون أفضلَ من أُولاه. وبالفعل ظلّ الإسلام في ازدهار وانتشار ما دام محمد ﷺ موجودا بين المسلمين روحانيا، ولكنهم لما تركوه ﷺ بدأ الانحطاط يدبّ في كيانهم. لقد فتح المسلمون العراق والشام ومصر، لأن محمدا ﷺ كان موجودا بينهم روحانيًا. لا شك أنه كان قد تُوفي ماديا، ولكنه كان موجودا في أمته روحانيا. إنه ﷺ لم يكن حيًا في الدنيا بجسده العنصري، ولكنه كان حيًّا في قلب أبي بكر وفي قلب عمر وفي قلب عثمان وفي قلب علي رضي الله عنهم، ولذلك أحرز المسلمون في تلك الفترة فتحًا بعد فتح، ولكن لما جاء من بعدهم قوم لم يكن الرسول ﷺ حيًّا في قلوبهم، بدأ انحطاط المسلمين. علينا أن نلاحظ أن الله تعالى لم يقل هنا: "وللآخرة خير ليزيد أو لغيرِه"، بل قال: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ﴾، أي يا محمد، إن الآخرة خير لك من الأولى. وبالفعل لم يزل هذا الوعد يتحقق للمسلمين ما دام محمد ﷺ موجودا فيهم عمليًا، ولكن حين جاء بعدهم قوم لم يستحقوا اسمَ محمدٍ ﷺ ولم يتّبعوا خطواته، تركهم الله وخذلهم.

ومن أروع الأمثلة على صدق قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ أن النبي ﷺ لما خرج لمعركة بدر كان في رفقته ٣١٣ من الصحابة، ولما خرج لغزوة

أحد كان يرافقه ألف صحابي، وحين خاض معركة الخندق كان معه ثلاثة آلاف صحابي، وعندما فتح مكة رافقه عشرة آلاف صحابي. فلم يزل عدد صحابته يزداد باستمرار بحسب وعد الله تعالى له ﷺ ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾.

ثم لم يزل تقوى النبي ﷺ وصلاحه يزداد باستمرار. لم تجعله الثروة ولا الإمارة جبّارًا متشدّدًا، بل ظلّ عندها أيضًا متحلّيًا بصفاته الحميدة من رعاية الفقراء والتواضع والعبادة والاستغناء عن غير الله تعالى. بعد فتح مكة جذبه شخص من ردائه بعد أن لواه في عنقه ﷺ وجرّه بشدة، ولكنه لم يعاقبه (مسند أحمد).

اتهمه أحد الظالمين عند قسمة المال بقوله: "تلك قسمة ما أريد بها وجه الله"، فأراد صحابي قتل هذا الطاعن ولكن النبي ﷺ نهاه عن ذلك. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف)

فإذا نظرت إلى الأمر من الناحية المادية فترى شخصًا يخرج من مكة وحيدًا، ولكنه يدخلها منتصرا في رفقة عشرة آلاف قدوسي، أما من الناحية الروحانية فترى أنه ﷺ كان يربّي في مكة أربعة أو خمسة أفراد، أما في المدينة فبدأ يربي مئات الآلاف، ثم إنه قد تولى تربية هؤلاء الآلاف على نفس المنوال الذي كان يربي به في مكة أفرادًا يُعَدّون على الأصابع.

عندما بدأت الفتوحات في زمن الرسول ﷺ اشترى عمر رضي الله عنه حُلّةً من السوق وأهداها له قائلا: يا رسول الله، لقد أعجبتني هذه الحلّة فاشتريتُها لك؛ يأتي لزيارتك كبار الملوك والوفود بعد الفتوحات، فأرجو أن تلبَسها عند زيارتهم. فاحمرّ وجه النبي ﷺ بسماع قوله وقال: لم أُبعَثْ لهذه الأمور ولن ألبسها، وعليك أن ترجعها. (البخاري، كتاب الأدب)

فترى أنه ﷺ لم يغيّر من سلوكه شيئًا، ولم تدفعه الفتوحات إلى لبس الثياب الفاخرة المزركشة، وإنما زادته بِرًّا وتقوى وصلاحا.

أما حبه في القلوب فأيضًا ازداد يوما فيوما. لا شك أن أهل مكة كانوا فدائيين، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير العملي لفدائيتهم إلا بعد أن خرجوا منها، إذ لا نجد من أمثلة فدائيتهم له ﷺ في مكة إلا حادث فدائية علي رضي الله عنه أو حادث فدائية أبي بكر

رضي الله عنه في غار ثور. كان المسلمون في الفترة المكية يهاجرون إلى الحبشة فرارًا من مظالم الكافرين، وهكذا كانوا يتركون الرسول ﷺ وحيدا. أما في المدينة فقد وجد ﷺ جماعة من الأنصار والمهاجرين الذين أحبّوه حبًّا لا نجد له نظيرا في التاريخ. فقد أعدّ الأنصار يوم غزوة بدر عريشًا للرسول ﷺ وتركوا عنده أبا بكر، وأعطوهما ناقتين سريعتين، وقالوا: يا رسول الله، لم يعرف إخواننا في المدينة أن هناك حربًا تخوضها وإلا فما كانوا ليتخلفوا عن شرف القتال معك. يا رسول الله، لو قُتلنا كلنا في المعركة، فاركبْ أنت وأبو بكر الناقتين والحقا بالمدينة، فهنالك إخواننا البواسل الذين سيسعدون بطاعتك في كل ما تأمرهم به، ويضحون بأرواحهم في سبيل الإسلام. (السيرة الحلبية، الجزء الثاني، باب ذكر مغازيه ﷺ)

ثم نشاهد فدائية الصحابة الرائعة في غزوة أحد؛ كان طلحة أحد المهاجرين المقاتلين بجنب الرسول ﷺ. ولما كان الرسول ﷺ هو الهدف الأساس لسهام العدو، فكلما أتى سهم إلى النبي ﷺ تلقاه طلحة بيده، حتى شُلَّت يده من السهام المنهمرة. فسئل فيما بعد: ألم تكن تتألم وتتأوه عندما كانت السهام تصيب يدك؟ فقال: كنت أتألم ولكني لم أتحرك مخافة أن يصاب النبي ﷺ.

وهناك حادث آخر وهو لمالك الأنصاري، فبعد الفتح الأول في غزوة أحد، ذهب مالك جانبًا ليأكل التمر إذ كان جائعا جدا. ثم مرّ بعُمر وهو جالس على تلّ يبكي، فسأله في حيرة: أهذا وقت البكاء أم الفرحة؟ أتبكي وقد كتب الله للإسلام الفتح؟ فقال عمر: إنك لا تعرف ماذا حصل بعد الفتح؟ قال: ماذا حصل؟ قال: انقلب الفتح هزيمة. فقد فاجأنا العدو بهجوم شديد ونحن نجمع الغنائم مفرَّقين متشتّتين، حتى استُشهد النبي ﷺ. فقال مالك لعمر: فما تصنع بالجلوس والبكاء هنا؟ إذا كان نبينا الحبيب ﷺ قد استُشهد فحري بنا أن نلحق بالحبيب؟ ثم أشار إلى التمرة التي كانت بيده قائلا: ليس بيني وبين الجنة إلا أنت، ثم رماها وانقضّ على العدو بسيفه. كان يمكن أن يفكر مالك أن الذي يفدونه بأرواحهم قد مات، فما الفائدة في التضحية بحياته الآن؟ ولكنه لم يفكر هكذا بل قال: علينا أن نضحي في سبيل الهدف النبيل الذي قام النبي ﷺ من أجله بنفس الحماس والقوة التي كنا

نضحي بها في سبيله في حياته ﷺ. ما الحرج إذا لم يكن النبي ﷺ حيًّا؟ سأخرج وحدي لمحاربة العدو كلهم. فأخذ سيفه واستقبل العدو. ولكن ماذا يمكن أن يفعل شخص وحيد إزاء جيش قوامه ثلاثة آلاف جندي؟ فقُطِّع جسمه إربًا حتى صار سبعين قطعة، و لم تُعرف جثته إلا بعد جمع هذه القطع المفرَّقة. مما يدل على الحماس الخارق الذي حارب به مالك الأنصاري رضي الله عنه. لقد قاتل العدوَّ بشجاعة نادرة ما دام حيًّا. قُطعت إحدى يديه، فأخذ السيف بالأخرى، فقُطعت الأخرى، فأخذ السيف في فمه وظل يحارب الأعداء. فاغتاظوا غيظا شديدا وقطعوه إربا. ومن كثرة ضربات السيف على جسده وتقطعه إربًا لم يستطيع المسلمون معرفة جثته، حتى عثروا على بنان له عليها علامة عرفتْه بها أخته وقالت: هذه جثة أخي. (تاريخ الطبري، عزوة أحد، وشرح الزرقاني، باب غزوة أحد)

إذن، فلم يزل الرسول ﷺ يزداد حبًا في القلوب يوما فيوما بحسب قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾، حيث ضرب الصحابة الكرام أروع أمثلة الفداء والولاء لا نجد نظيرها عند أتباع أي نبي في التاريخ.

ثم إنّ ما حصل بعد وفاة النبي ﷺ لهو أكبر دليل على حب الصحابة له. كان الصحابة يسمعون ليل نهار أن الموتى لا يرجعون إلى الدنيا، وأن محمدا ﷺ سيموت أيضًا، ولكنهم عندما سمعوا خبر وفاته أُصيبوا بحالة شبيهة بالجنون حتى ظنوا أنه لم يُتَوَفَّ، حتى استلّ عمر رضي الله عنه سيفه وقال: سأضرب عنق مَن قال إن محمدا قد مات. ويقول حسان رضي الله عنه: كان اليأس قد استولى على قلوبنا، ولكن لما قام عمر بسيفه تولد فيها أمل كاذب وفرحنا وظننّا أن النبي حي لم يمت. حتى صعد أبو بكر المنبر وقال للقوم: أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(آل عمران:١٤٥)، فعاد الصحابة إلى صوابهم بقول أبي بكر رضي الله عنه، حتى قال عمر إنه لما قرأ أبو بكر هذه الآية انتبهت إلى الواقع. كنتُ أريد ضرب رقبة أبي بكر عندما بدأ خطابه، ولكن لم أستطع رهبة منه، فكنت أنتظر حتى ينهي هذا العجوز كلامه

فأقتله، ولكنه لما بلغ نهاية خطابه عُقرت رجلاي وسقَطت على الأرض. (السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان، الجزء الثالث)

يمكن تقدير الحزن الذي أصاب الصحابة بموت حبيبهم بالشعر التالي لحسان بن ثابت، فإنه لما أيقن بوفاته ﷺ قال:

كنتَ السّوَاد لناظري ... ... فعَمِي عليك الناظرُ

من شاء بعدك فليمت ... ... فعليك كنتُ أحاذرُ

(ديوان حسان بن ثابت، ص ٤٧٨)

أي قبل أن يقف فينا أبو بكر خطيبا كنت أظن لعل الرسول ﷺ لا يزال حيًّا، ولكنه كشف الغطاء عن أعيننا فلا أملك إلا أن أقول الآن: يا محمد ﷺ، كنت حدقةَ عيني، وبموتك عميت عيني. عندما كنتَ حيًا كنتُ أستمتع بكل ما يمكن أن يستمتع به الإنسان من نِعم الدِين والدنيا، وكانت كل النعم ماثلة أمام عيني، ولكني صرت أعمى بموتك، فمن شاء بعدك فليمتْ، فإني لا أبالي الآن وإن مات أبي أو ابني أو زوجتي أو أخي، إذ لم أكن أخاف إلا عليك أنت.

ما أعظمَ الحبَّ الذي أعربَ عنه الصحابة عند وفاة النبي ﷺ، ولا شك أنه دليل على صدق قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾. عندما يموت أحد في الدنيا يتنفس بعض أهلها الصعداء عادةً قائلين: نِعْمَ ما حصل، فقد تخلصنا منه، ولكن لما توفي رسول الله ﷺ حزن الجميع، أزواجه وأولاده وأصحابه أجمعون.

ومن أمثلة صدق قول الله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ أن مكة كانت بيته ﷺ الأول، ولكن لم يكن له هنالك إلا بضعة أقارب، ولم يكن له هنالك ناصر إلا عمه أبو طالب، ولكن الله تعالى أعطاه في المدينة بيتًا أفضل، إذ لم يكن له في مكة إلا عشرة أو عشرين ممن يفدونه بأرواحهم، أما المدينة فكانت كلها تفديه بأرواحها؛ النساء والأطفال والكبار.

أما ذكاؤه ﷺ فلم يزل يتمتع به إلى آخر لحظة في حياته. إن عقل المرء يضعف في آخر عمره عادةً، فيُسلب علمه شيئا فشيئا، ولكن عمره ﷺ لم ينقص مِن علمه وذكائه شيئا، بل كان كل يوم في حياته أفضلَ من سابقه. كذلك لم يزل الوحي

ينـــزل عليه إلى آخر لحظة، وقد زوّده الله بالجديد من المعارف والعلوم كل يوم. باختصار، لم يأت في حياته ﷺ يوم قال فيه الناس إن الرجل قد خرف وعقله ضعف و لم يعُد يعلم من بعد علمه شيئا، بل كل يوم جديد من حياته جاء بمزيد من العلم، فصار النبي ﷺ أكثر تعليمًا وتوعيةً للناس في كل يوم جديد، وهكذا تحقق قول الله تعالى بكل روعة ووضوح ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾..أي أن حالتك الأخيرة أفضل من حالتك السابقة.

ولقوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ مفهوم آخر نظرًا لظاهرة القبض والبسط الروحانية التي سبق ذكرها. لقد قال الله تعالى عن رسوله ﷺ من قبل ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن حالة بسطه الروحاني ستكون دليلا على معية الله له، كما أن حالة قبضه الروحاني ستكون دليلا على معية الله له، والآن طمأنه الله تعالى أكثر وأخبره أنك لن تتقدم في هذه الموجات الروحانية بوتيرة واحدة، بل ستظل تزداد رفعة باستمرار. الواقع أن الموجات نوعان: إحداهما تظل ترتفع وتنخفض في مقام واحد، والثانية تنخفض لتزداد رفعةً في كل مرة، وهذا هو المعنى الذي بينه الله في قوله ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾.. أي لا شك أنه ستأتي عليك حالات القبض والبسط، وفي كلتيهما سوف تتمتع بمعية الله ورضاه، ولكن هناك أمر زائد؛ وهو أن انخفاضك في كل مرة سيكون بمثل انخفاض الطائر في طيرانه، إذ ينخفض عندما يضرب جناحيه، ولكن انخفاضه هذا يرفعه في النهاية. وهكذا تمامًا سوف يزيدك انخفاضُك رفعة في كل مرة. فطيرانك كتحليق الطيور، فكل حالة قبض سوف تزيدك رفعة باستمرار.

ولهذه الآية مفهوم آخر، وهو أن الذي يدّعي أنه مبعوث من عند الله تعالى عندما يلتقي الناس يقولون إنه يريد عزًا وجاهًا، ولكن الله تعالى يفنّد ظنّهم هذا ويقول لرسوله: إنك إذا خلوتَ بنفسك فلِذِكْرنا، وإذا لقيتَ الناس فبأمرنا، فزعمهم هذا باطل لا أساس له. إنما تنفرد بنفسك لذكرنا، وإنما تقابل الناس لمصلحتهم لا لمصلحة شخصية. إن هؤلاء الجهال لا يعرفون عن حياتك شيئا. إنهم لا يعرفون أنك تحبّ حياة الانفراد والخمول، وإذا كنتَ تقابل الناس فلوجه الله

فقط. إذن فقوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ يعني أنك ترى أن الآخرة أكثر راحة لك من الأولى. ذلك أن الخير يعني ما يجلب النفع والراحة. والآن تعالوا نرَ ما هو المراد من الآخرة والأولى في هذا السياق. لقد ذكر في الآيات السابقة الضحى أولاً والليل ثانيًا، وهكذا فالليل هو الآخرة، والضحى هو الأُولى، وحيث إن المرء يقابل الناس وقت الضحى أي وقت النهار، فتُعتبر الضحى بمثابة اللقاء، ويُعتبر الليل بمثابة الانفراد؛ وعليه فستعني هذه الآية: يا محمد، إنك ترى أن حالة انفرادك أكثر راحة لك من حالة لقائك بالناس. يظن الجهال أنك تحب العز والجاه والشعبية بين الناس، مع أنك إنما تقابلهم امتثالاً لأمرنا، إذ إن مناجاتك إيانا آناءَ الليل أحبُّ إليك من لقائهم، إذ متى يقدر الناس أن يعطوك ما نعطيك بالليل من البركات؟ وما دامت ترقياتك كلها منوطة بساعات انفرادك، وما دمتَ تؤثر ساعاتِ انفرادك بكل قلبك، فكيف يمكن أن تتألم من قول الناس أنك تحبّ العز والجاه؟ إذ ليس لاعتراضهم أساس من الحقيقة.

وهذا يماثل ما قاله المسيح الموعود عليه السلام إذ كتب:

"كنتُ في زاوية الخمول، ولم يكن يعرفني أحد، كما لم أكنْ أحبّ أن يعرفني أحد، فهو الذي (الله تعالى) أخرجني من زاوية الخمول قسرًا. لقد وددتُ أن أعيش خاملاً وأموت خاملاً، ولكن الله تعالى قال: سأنشر اسمك بالعزة في الدنيا كلها. فاسألوا الله تعالى لماذا فعل هكذا؟ وما ذنبي في ذلك؟" (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية مجلد ٢٢ ص ١٥٣)

فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾، بأن الله تعالى قد أخرج محمدا صلى الله عليه وسلم من زاوية الخمول والانفراد جبرًا، أما هو فكان يفضّل أن يظل يذكر الله تعالى منفردا. وبالفعل نرى أن الملاك لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء ﴿اقرأْ﴾، فما كان جوابه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال: "ما أنا بقارئ" (البخاري: كتاب بدء الوحي).. أي: لماذا تفوّض إليّ هذه المهمة، فإني أحبّ أن أعبد ربي منفردا.

فالحق أن هذه الآية تفنيد لقول الكافرين بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يحب الجاه والعزّ بين الناس ولذلك يلتقي بهم. فقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إن هؤلاء الجاهلين لا يعلمون

أن ﴿الآخرة﴾ أي وقت الليل خيرٌ لك عندك إذ تجد فيها راحةً ومتعةً أكثر، ولا ترغب في لقاء الناس، وإذا كنتَ تقابلهم فإنما تقابلهم طاعة لأمر الله، وليس من عند نفسك.

لقد قلتُ لدى تفسير قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أن من مفاهيمه أننا سنكون معك في فترتي الرقي والانحطاط للمسلمين ولن ندَع عملك يُدمَّر، ونظرًا إلى هذا المفهوم يمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ بمعنى آخر وهو: أنه سيأتي ضحى بعد كل ليل دائمًا، وليس المراد أن الزمن الأخير يكون أفضل من الزمن الأول. ذلك أن فترة الظلمة والنور تتواليان بطريقين؛ أحدهما أن تأتي فترة النور ثم فترة الظلمة، وثانيهما أن تأتي فترة الظلمة أولاً ثم فترة النور. والله تعالى يخبر رسوله ﷺ أنه فيما يتعلق بك فتكون فترة الضوء هي الآخرة على الدوام. ذلك أن بعض الناس يرتقون أولاً ثم يسقطون، فلا يغبطهم الناس بسبب رقيهم، وإنما يتخدون العبرة من الدمار الذي حل بهم في نهاية المطاف. ثم هناك أمم تصعد فجأة ثم تسقط، ولكن بعضها تسقط ثم تصعد، ثم تسقط ثم تصعد. والله تعالى يخبر رسوله ﷺ هنا أنه سيعامله وأمته بالطريق الأخير، فإنه سيواجه المحن في البداية ثم يرتقي، وكذلك فإن أمته كلما أصابها الانحطاط بعث الله المأمورين أو المجددين الذين سينهضون بهم ثانية، وهكذا كل فترة تالية للانحطاط تكون أفضل منه.

وليكن معلومًا هنا أن الله تعالى لا يذكر هنا أن كل فترة روحانية تكون أفضلَ من فترة روحانية سابقة، لأن هذا المفهوم سيعني أن الفترات الروحانية في المستقبل ستكون أفضل من الفترة الروحانية للرسول ﷺ، وهذا باطل بداهةً. وإنما يخبر الله تعالى هنا أنه بعد كل انحطاط ستأتي على الأمة الإسلامية فترةٌ أفضل، فترتقي روحانيًا مرة أخرى. فالواقع أن الآية لا تقارن بين فترات روحانية مختلفة للأمة، وإنما تقارن كل فترة رقيّ روحانيّ مع فترة انحطاط روحانيّ.

وما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال عن أمته: "لا يدري أوّلُها خيرٌ أو آخرها خير" (مسند أحمد، حديث رقم ١٢٠٥٢)، فليس معناه أن الزمن الأخير

من هذه الأمة أفضل من الزمن الأول من حيث الروحانية.كلا، إنما أشاد الرسول ﷺ بالزمن الأخير نظرًا إلى كونه يأتي بعد زمن طويل من انحطاط المسلمين. إنما يقصد النبي ﷺ أنني لا أدري أن الشدائد التي مر بها الإسلام في بدايته هي أشدّ أم المحن التي سيواجهها في الزمن الأخير. والفرحة تقدَّر دائمًا بالنظر إلى الصعاب والمشاكل، فلذلك قال النبي ﷺ لا أدري آلموجودون اليوم خير أم الذين يكونون في الزمن الأخير من الإسلام. أي لا نستطيع القول -نظرًا إلى المصائب والمحن- ما إذا كان أهل هذا العصر أكثر حظًّا من النجاح، أم القوم الذين يكونون في زمن الإسلام الأخير.

باختصار، هذه الآية لا تعني أن كل فترة تالية أفضلُ من السابقة من حيث الروحانية، بل المراد أنه فيما يتعلق بك يا محمد، اعلمْ أنه ستأتي فترة النور والضوء بعد كل فترة ظلام دائمًا، وذلك إلى ما قرب القيامة.

غير أن هناك استثناء، وهو أن القيامة لن تأتي إلا على شِرار الناس. إذ يتضح من القرآن الكريم والحديث النبوي أن فترة الفساد الأخيرة التي تكون قرب القيامة إنما تأتي على الأشرار فقط (سورة الفاتحة، والبخاري: كتاب الفتن)، إذ لن يوجد عندها في الدنيا أبرار، وتلك الفترة مستثناة من قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾. غير أنها ليست استثناء من وجهٍ، ذلك أن ذلك الزمن سيكون زمن انتهاء النبوة المحمدية، فلا يمكن أن تسمى تلك الفترة زمن الرسول ﷺ. لأن الدنيا ستنتهي، وستنتهي معها مهمة الرسول ﷺ في الدنيا أيضا.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٦﴾

التفسير: أحدُ معاني هذه الآية أنه مما لا شك فيه أنك تواجه المعارضة من كل طرف وصوب، ويبذل الكافرون كل ما في وسعهم لسحق الإسلام والمسلمين، ولكننا قد سبق أن أخبرناك أنه ستأتي على الإسلام فترة الضحى، وها نحن نبشرك الآن أنه حان أن تنجح في مقصدك وترى الكفر يُباد أمام عينيك، وسوف تكتمل

بنصرة الله وتأييده مهمتك التي تراها الدنيا ضربًا من المحال، وسوف يعطيك ربك عن قريب ما ترضى به.

الحقيقة أن مكانة المرء وعظمته إنما تعرف من إنجازاته. والمهمة التي فوّضها الله لرسوله ﷺ كانت تقتضي وقتًا طويلا وجهودا كبيرة وتضحيات جسيمة، إذ كان الإنسان يظن برؤية تلك المهمة العظيمة أن إنجازها يقتضي عمر نوح، ولا يمكن إنجازها في وقت قصير؟ ولكن الله تعالى طمأنَ نبيه ﷺ بأنها مهمة عظيمة تقتضي وقتا طويلا في الظاهر بلا شك، ولكنا سنمكّنك من إنجازها بسرعة. وبالفعل قد حقق النبي ﷺ في وقت قصير إنجازاتٍ مذهلة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم. خذوا أيها الجالسون أمامي ولاياتكم.. البنجاب والسند والسرحد مثلاً، فتعلمون أن هذه الولايات تسعى منذ قرن من الزمان لتثقيف سكانها وتعليمهم ومع ذلك لم يتعلم أهلها كلهم. ثم إنهم يسعون منذ قرن من الزمان لتطوير تمدُّنهم، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، ويحاولون إصلاح أخلاق الناس منذ قرن من الزمان، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك أيضًا كل النجاح.

إذن، فهذه الجماعات المختلفة تسعى لإنجاز أعمال شتى منذ قرن من الزمان، إلا أننا نجد وكأنها لا تزال في يومها الأول، إذ لم يزدهروا ثقافةً ولا مدنيةً ولا أخلاقًا. وفي المقابل نجد أن دين الإسلام بلغ غاية ما بعدها غاية. ثم إنه جاء بالإصلاحات بكل أنواعها، فقد أراد إصلاح الناس مدنيًا واقتصاديا وعائليا وسياسيا وفكريا. ثم إنه رسم لهم مستوى عاليًا في كل هذه الإصلاحات. وعندما عهد الله هذه المهمة إلى الرسول ﷺ أخبره أيضا أنك سترى الضحى بأم عينيك. وحيث إن المحب لا يطيق فراق حبيبه طويلا، ويحب العودة إليه والوصال به في أقرب فرصة، فكان طبيعيًا أن يصاب النبي ﷺ بالقلق ويفكّر: لا أدري متى تنتهي هذه المهمة، فلعلها تنتهي في خمسين سنة أو ستين سنة أو مائة سنة، فكيف أظل بعيدًا عن حبيبي كل هذه المدة. وهذا ما تشير إليه هذه الآية حيث أخبر الله تعالى رسوله لعلك تقول في نفسك أننا نتحدث عن مهامك المتعلقة بالدنيا ولكنا لا نذكر الأمر الأساس الذي قد أَهَمَّك. لا شك أن مهمتك عظيمة جسيمة، ولكننا

سنمكّنك من إنجازها بسرعة، سوف نعطيك قريبًا ما ترضاه. بمعنى أن إنجاز هذه المهمة يتطلب مئات السنوات بلا شك، ولكنا سنتمّ لك كل أهدافك بسرعة، وسوف تصل إلينا بسرعة قائلا: إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، ويتحقق لك ما ترضاه، أي ستحظى بوصالنا وستنتهي لحظات الفراق الصعبة.

ورد في الحديث أنه لما نزلتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(سورة النصر) قام الرسول ﷺ بين الناس خطيبًا وقال: إن لكل نبي مهمةً إذا أنجزها بدأ الله تعالى بعصر جديد. ثم قال النبي ﷺ: كان هناك عبد من عباد الله تعالى خيّره أن يبقى في الدنيا أو يرجع إليه، فقال: رب لا أريد البقاء في الدنيا الآن، بل أفضّل أن تدعوني إليك. فلما سمع أبو بكر قول النبي ﷺ أخذ في البكاء. فاحتار باقي الصحابة لبكائه، ويقول عمر قلت في نفسي متضايقًا: الوقت وقتُ فتح الإسلام، فلماذا يبكي هذا العجوز؟ هذا شؤم! لقد خيّر الله تعالى عبدًا من عباده في أن يبقى في الدنيا أو يرجع إليه، فآثر العودة إلى الله، فما الذي يبكيه، لا سيما أن الله تعالى قد بشّرنا بفتح الإسلام وغلبته. أما أبو بكر فلم يزل في بكائه حتى قال الرسول ﷺ: لو كنتُ متّخذًا خليلا مِن أمتي لاتخذتُ أبا بكر. ثم قال: لا يَبقَيَنَّ في المسجد نافذةٌ إلا سُدّتْ إلا نافذة أبي بكر" (البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد). وهكذا أخبر النبي ﷺ الحضورَ أن أبا بكر قد فهم قصدي من ذكر هذا الأمر، فإنني لا أرضى بالبقاء في الدنيا، بل إن سعادتي وراحتي كلها في العودة إلى ربي وحبيبي ﷻ. فمهمتي قد اكتملت، وبقائي في الدنيا عبث الآن، وأتمنى أن يدعوني ربي إليه. لم يفهم سائر الصحابة قصد الرسول ﷺ ولكن أبا بكر فهمه، فغلبت عليه الرقة، فطمأنَه الرسول ﷺ أنك إذا كنتَ تحبّني فأنا أيضا أحبّك، حيث قال ﷺ: "لو كنت متخذا خليلا في الدنيا لاتخذت أبا بكر". كما أشار في هذا الحديث إلى أن هذه المسؤولية ستقع بعده على أبي بكر، ولذلك أمر ﷺ بسدّ كل النوافذ إلا نافذة أبي بكر. وكانت الحكمة في ذلك أن أبا بكر سوف يأتي إلى المسجد للصلاة بالناس، فيجب أن تظل نافذته مفتوحة.

باختصار، كانت أكبر أمنية للرسول ﷺ أن يحظى بوصال ربه وينجز مهامه في الدنيا بأسرع ما يمكن ليحضر إلى الرفيق الأعلى قائلا: لبيك اللهمّ لبيك. وبالفعل فإن آخر كلمة جرت على لسان النبي ﷺ في مرض الموت هي قوله: "اللهم الرفيق الأعلى" (البخاري: كتاب المغازي).. أي ليس لي أمنية الآن إلا أن أحضر إليك يا ربي.. رفيقي الأعلى. باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ إشارة إلى أن إنجاز المهمة التي فوّضت إليك يا محمد يتطلب زمنا طويلا بلا شك، ولكنا سوف نوفقك لإنجازها بسرعة. وبالفعل نرى أن النبي ﷺ قد أنجز أعماله كلها في مدة قصيرة.. ٢٣ سنة.. مما لا يوجد له نظير واحد في تاريخ العالم، بل ليس ثمة مثال لرجل واحد أنجز جزءًا من مئات آلاف من أجزاء مهام الرسول ﷺ. لقد خلا في الدنيا كثير من الرجال العظام، ولكن عاقبتهم كانت وخيمة وصاروا عبرة لمن اعتبر. خذوا هتلر مثلا، ماذا كان مصيره؟ وانظروا إلى نابليون، كم كانت عاقبته سيئة! لقد هبّ هؤلاء بدعاوى واسعة، وقد حققوا بعض النجاح فعلاً في الظاهر، ولكن لم يكن مآلهم إلا الفشل والخسران. ولا يغيبنّ عن البال أن هؤلاء ورفقاءهم كانوا من أُممٍ تتحلى بروح التضحية سلفًا، وكانت متحمسة للسيطرة على العالم. لا شك أن نابليون قد حقق نجاحًا، ولكنه خرج برفاق كانوا ينتمون إلى أمة متقدمة، ولا شك أن هتلر قد حقق انتصارات، ولكن كان من الشعب الألماني الذي كان حتى قبل ولادة هتلر من أكثر الشعوب نضالاً وتضحية في العالم. ولكن كيف كانت حالة العرب؟ لقد أُعطي النبي ﷺ روثًا فحوَّله ذهبًا في غضون عشرين سنة فقط، ولم يحوّله ذهبًا فحسب، بل ذهبًا خالصًا صافيًا. لقد أصلح أخلاقهم ومدنيتهم، وزادهم علمًا وسطوةً وهيبةً وعزًا وشأنا، ولم يبق جانب من جوانب حياتهم إلا وأكمله، ولا شعبة من شعب حياتهم إلا أخذهم فيها إلى الذروة. لقد قام ﷺ بكل نوع من الإصلاح، سواء كان أخلاقيا أو دينيا أو عقائديا أو عائليا أو اقتصاديا أو سياسيا، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.. أي يا محمد، لا تقلق، سوف ننجز لك مهمتك العظيمة بسرعة. لا شك أننا ألقينا عليك مسؤولية جسيمة، ولكنا نعرف أيضا أن سعادتك تكمن في

الوصال إلينا، ولذلك نعِدك أننا سنحقّق لك النجاح السريع في مقاصدك ومهامك. وكما قلت فقد أنجز النبي ﷺ في وقت قصير مهمة عظيمة لم ينجزها أحد مثله قط. كان عمر النبي ﷺ عند وفاته ٦٢ سنة شمسية فقط، في هذا العمر القليل قد أنجز إنجازًا عظيمًا جدًا بشكل مذهل.

والمفهوم الثاني لهذه الآية أن الشريعة ستكتمل على يدك. ذلك أن الإنسان يرضى بالكمال دائما، فقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يعني أننا سنعطيك حتى تقول بنفسك أن لا مزيد عليه. فما دام ﷺ قد أُعطيَ آخر الشرائع، فماذا عسى أن يسأل بعدها؟ لا شك أن قرب الله ومدارجه شيء غير محدود، ومن المحال أن يقول الإنسان لست الآن بحاجة إلى المزيد من قرب الله تعالى، لكن فيما يتعلق بالشريعة فلا مجال للمزيد بعد نزول آخر وأكمل الشرائع، ولذلك قال الله تعالى لرسوله لسوف نعطيك حتى تقر بنفسك أن لا مزيد عليه. إذن، فالمعنى الثاني أننا سنعطيك الشريعة الكاملة.

والمعنى الثالث لهذه الآية أننا سنقيم نظامًا دائمًا لحماية الإسلام في المستقبل. الواقع أن أوّل أُمنيات المرء أن ينجز مهمته بسرعة، وثاني أمنياته أن يكون عمله متكاملا في حد ذاته، وثالث أمنياته أن لا يضيع عمله أبدا. فقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يضمن تحقُّقَ الأمنيات الثلاث للنبي ﷺ، حيث قال له: سوف نمكّنك من إنجاز مهمتك بسرعة، كما نعطيك شريعة كاملة، ونزيد على ذلك بوعد إضافي بأنه كلما وقع نقص وخلل في مهمتك بعدك فسوف نقيم أحدًا من ذريتك الروحانية لإصلاح الخلق، ولن ندع الإسلام يهلك ويباد.

كم يفرح الناس عندما يرزقون أولادا! لماذا؟ إنما ذلك لأن أولادهم يحيون اسمهم. وفرحتهم هذه تكون زائفة أحيانًا، لأن الأولاد الذين يفرحون بولادهم يُذلّوهم ويهينوهم، ولكن الله تعالى يقول لرسوله الكريم: لك فرحة حقيقية، فكلما كنتَ بحاجة إلى ابن روحاني أعطيناك إياه، فيأتي ويحيي مهمتك في الدنيا من جديد.

أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٧﴾

التفسير: أي إذا كان الناس تساورهم الشكوك عن مستقبلك، وإذا كانوا يقولون كيف نصدّقها فهي مجرد دعاوى! وكل إنسان يمكن أن يدعي لغيره أنه سيحصل على كذا وكذا، ولكن ما قيمة هذه الأقاويل والدعاوي؟ فانظر أنت وكذلك هؤلاء الذين تغزوهم الشكوك إلى ماضيك، أَلَمْ نَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيناك وحميناك من كل خسارة؟

لقد توفي والد النبي ﷺ وهو لا يزال في بطن أمه، وعندما وُلد ﷺ ألقى الله تعالى حُبَّه في قلب جده عبد المطلب بشكل خارق. في مثل هذه الأحوال يهتمّ المرء عادةً بأولاده بدلاً من حفدته، ولكن عبد المطلب كان أحيانًا يزجر أبناءه مع أنهم كانوا قد بلغوا سن الشباب وكانوا يخدمونه أيضا، ولكنه كان يحب النبي ﷺ حبًا غير عادي بحيث لم يكن يطيق اختفاءه عن أنظاره ولو فترة قصيرة. كان يحتضنه دائمًا وينشد الأبيات في حبه، وكان يلوم أبناءه أنهم لا يولونه العناية الكافية.

وكان من عادة العرب أن يبعثوا أولادهم للمراضع، فأرادت أم النبي ﷺ أن تجد له مرضعة، ولكنها لم تجد أي مرضع بسبب فقرها، وفي الأخير اختار الله تعالى حليمة السعدية لتنال شرف هذه الخدمة العظيمة، ذلك بعد أن رفضَ حليمةَ أهل كل بيت لفقرها قائلين: إذا أعطيناك ولدنا فمن أين تطعمينه؟ وهذا يعني أن المرأة التي أراد الله تعالى تربية النبي ﷺ في بيتها قد حرّم عليها مواليدَ أهل مكة كلها، فحيثما ذهبت قيل لها كيف نعطيك وليدنا، فمن أين تطعمينه؟ إذن، ففي ذلك اليوم، كان في مكة كلها وليدٌ لم تأخذه أي مرضع معها، وكانت هناك مرضعة واحدة لم تجد أي وليد لتأخذه معها. وفي المساء عندما يئست حليمة من أن تجد أي وليد تأخذه معها، كما يئست أم النبي ﷺ من أن تجد أي مرضع له، ألقى الله في قلب حليمة أن تأخذ هذا الوليد وإن كان يتيما ومن بيت فقير، لأنها لو رجعتْ خاويةَ الوفاض فسيضحك منها الناس. فأتت إلى بيت النبي ﷺ وأخذته من أهله. فألقى الله تعالى حبه ﷺ في قلبها بشكل خارق فلم تُطِقْ فراقه ولو لوقت قصير،

وإذا اختفى عن نظرها بعض الوقت لم يقرّ لها قرار. ورد في التاريخ أنه ﷺ إذا اختفى عن أنظارها قليلا كانت تزجر أولادها وتقول لهم أين تركتموه؟ ثم كانت تجري لإحضاره. (السيرة الحلبية، الجزء الأول)

باختصار، لقد وجد النبي ﷺ مرضعةً ودودًا كحليمة لتربيته في غياب أبيه، وجَدًّا محبًّا مثل عبد المطلب، ثم بعد وفاة جدّه ألقى الله محبّتَه في قلب عمه أبي طالب، فكان يكنّ له ﷺ حبا شديدا. وعندي أنه قلما قام عمّ بتربية ابن أخيه بمثل ذلك الحب. وعندما شبّ ﷺ وترعرع ألقى الله حبَّه في قلب امرأة ثريّة، وجعلها ترغب في الزواج منه بنفسها لسموّ أخلاقه، وهكذا هيّأ الله تعالى له البيت والأثاث.

ثم إن اليتيم يكون بحاجة إلى الأصدقاء. عندما يكون الوالدان حيّيْن يصادق الكثيرون ولدهما طمعًا في رضاهما، وإذا مات الأبوان قطعوا معه كل الصلات و لم يفكّروا في مصادقته. وكان النبي بحاجة طبيعية إلى الزملاء والأصدقاء لكونه يتيم الأبوين، فأعطاه الله أصدقاء كأبي بكر وحكيم بن حزام. لقد أسلم أبو بكر ؓ في بداية البعثة، أما حكيم فظل كافرا لمدة مديدة، ولكنه رغم كفره كان يتصدى لمن يعارض النبي ﷺ. وذات مرة خرج للتجارة، فوجد هناك ثوبًا راقيا أعجبه، فقال هذا الثوب لا يليق إلا بصديقي محمد (ﷺ)، فاشتراه وذهب به إلى المدينة وقال للنبي ﷺ: لقد أعجبني هذا الثوب فاشتريته لك، إذ رأيت أنه لا يليق إلا بك، فقال النبي ﷺ: إني لا أقبل هديةً من كافر، فخُذْ مني ثمنه إذا أردتَ أن تعطيني. فقال حكيم: إذا كنت لا تقبل هدية فابعث لي ثمنه، لأني أحبّ أن تلبسه. (السيرة الحلبية، الجزء الأول، وجمهرة نسب قريش وأخبارها، تحت: وُلد حكيم بن خويلد)

انظرْ إلى هذا الحب والعشق الذي يبديه كافر تجاه النبي ﷺ! إنه لا يزال على دينه، ومع ذلك يحب النبي ﷺ هذا الحب الشديد، فيشتري أفضل شيء عنده وأكثر ما يعجبه ويرى أن محمدا ﷺ هو أولى به وأهله، ثم يقطع مسافة مئات الأميال من مكة إلى المدينة لكي يقدم هديته للنبي ﷺ. لم يوفقه الله للإيمان مدة طويلة ربما لأنه تعالى أراد بذلك أن يثبت للعالم أن الناس يحبون محمدًا ﷺ لسمو أخلاقه لا لسبب آخر.

ثم منحه ﷺ الله تعالى رفاقًا لا يتيسرون ليتيم آخر من أمثال زيدٍ الذي كان مِن العبيد، وعليٍّ الذي كان من أقاربه ﷺ.

وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

ضالا: ضلَّ الرجلُ: ضدُّ اهتدى: أي جارَ عن دين أو حق أو طريق. وضلَّ فلان الطريقَ أو عن الطريق: لم يهتدِ إليه. وكذا ضلَّ الدارُ والمنــزلُ وكلُّ شيء مقيم لا يُهتدى له. (الأقرب)

أحيانًا يضل المرءُ الطريقَ وينحرف عنه، وأحيانًا لا يكون عنده عِلم بالطريق، و لفظ "ضَلَّ" يحتوي على المفهومين.

"وضلَّ فلان الفرسَ والبعيرَ: ذهبا عنه. وضلَّ عني كذا: ضاعَ. وضلَّ الرجلُ: مات وصار ترابا وعظاما. وضلَّ الماء في اللبن: خَفِيَ وغاب. (الأقرب)

ومن معاني الضلال الانهماك في عمل حيث قال الله تعالى ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(الكهف:١٠٥).. أي أنهم صرفوا جهودهم كلها في أعمال الحياة الدنيا. كما أن الضلال يعني الحب الشديد، وهذا المعنى يماثل مفهوم قوله تعالى ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ لأن المرء بسبب حبه لشيءٍ يتوجه إليه كلية.

ويقول صاحب المفردات إن قول أبناء يعقوب له ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(يوسف:٩) إشارةٌ إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه. وكذلك ورد الضلال بمعنى الحب الشديد في قوله تعالى ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(يوسف:٣١). فثبت أن من معاني الضلال العديدة: الحب الشديد.

التفسير: ونظرًا لشتى معاني كلمة الضلال يفسَّر قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ﴾ بمفاهيم عديدة، أوّلُها: لم تكنْ، يا محمد، تعرف طريقنا، ولا شريعتنا، ولا سبل وصالنا، فأنزلنا عليك شريعتنا وأريناك طريقنا.

لا يسع أحدا إنكار أن رسول الله ﷺ وُلد في بلد لم تكن فيه أي شريعة، ومع ذلك كان ﷺ متوجهًا إلى الله تعالى ليل نهار متمنيًا قربه ووصاله. كان في ذلك البلد نصارى ويهود، وكان عندهم وحي الله تعالى، ومع ذلك لم يكونوا متوجهين إلى الله تعالى، بل كانوا يعيشون غافلين عنه تماما. أما محمد ﷺ فرغم أنه لم يكن عنده أي من كلام الله تعالى ولا وحيه إلا أنه كان متوجها إليه سبحانه وتعالى. أليس من البراهين الساطعة على عظمته ﷺ وسموّ مكانته بأن الذين كان عندهم وحي الله تعالى كانوا بعيدين عنه سبحانه، أما الذي لم يكن عنده أي وحي رباني فظلّ يتقرب إلى الله تعالى باستمرار. لما رأى الله تعالى أن هذا الإنسان يريد وصالنا، ولكن لا علم له بسبل قربنا ووصالنا، أنزل عليه شريعته وكشف عليه طرق وصاله وقربه كلها.

واعلم أن عدم اطلاع النبي ﷺ على سبل قرب الله تعالى ووصاله في البداية ليس مما يقدح فيه، فكل نبي ذي شرع جديد لا يكون مطلعا على هذا السبيل، وإنما يطّلع على طرق الشريعة بعد أن ينـــزل الله تعالى عليه وحيه. وهذا ما بيّنه الله تعالى هنا فقال: يا محمد لم تكن تعرف الطريق إلينا، فأعثرناك فضلاً منّا على الطريق الذي كنت تبحث عنه.

ومن معاني ضلّ: خَفِيَ وغابَ، وعليه فهذه الآية تشير إلى عظيم قدرة الله تعالى وشفقته وإحسانه على النبي ﷺ إذ أخرجه من زاوية الخمول والخفاء. يقول الله تعالى: يا محمد، سيأتي لك الضحى حتمًا في يوم من الأيام، وسوف يحرز الإسلام والمسلمون رقيا عظيما، وسوف يثني عليك الناس ويقولون: يا لروعة هذا الرجل ولفضائله ومحاسنه! كيف أحدث ثورة عظيمة في العالم، وأتى بالإنسانية الضالة التائهة إلى أعتاب الله تعالى! ولكننا سنقول لهم: عليهم أن يفكّروا ويروا من الذي اختارك، ومن الذي انتخبك لهداية العالم، ومن الذي أخرجك من زاوية الخمول وعرضك أمام الدنيا. نحن الذين اخترناك. نحن الذين وجدناك درةً يتيمة خفية عن أعين الناس.. لا يعرفون قدرها وثمنها ويجهلون بريقها ولمعانها، فأخرجناها من معدنها وقدّمناها أمام العالم. لقد وجدناك جوهرةً فريدة ملقاة في أرض الكفر،

فأخذناها فثبّتناها في تاج الإنسانية. يثني العالم على حسنك وجمالك وجلالك وكمالك وينبهر بلمعانك، ولكنهم لا يرون أن كل ذلك إنما كان فضلاً منا عليك. لقد كنتَ مختفيًا تمامًا عن أعين الناس حتى لم تكن تعرف أنت ما فيك من كفاءات وقدرات، فضلاً عن أن يعرفها غيرك، فأخرجناك من زاوية الخمول، وكشفنا عظمتك وشوكتك للعالم. ولولا ذلك لما اطّلع أحد على فطرتك السليمة. نحن الذين عرفناك وأخرجناك من زاوية الكتمان والخمول وأذعْنا صيتك في الدينا كلها.

ومن معاني الضلال: الحبُّ الشديد، وعليه فستعني هذه الآية: يا محمد، لقد وجدناك شديد الحب لنا ملتاعًا للوصول إلى خالقك. كنتَ تفكِّر في خلق السماوات والأرض، فكانت فطرتك تفتي أن للكون إلهًا خالقا، ولكن القوم الذين خُلقتَ بينهم لم يكن عندهم شرع و لم يعرفوا طريق وصال الله تعالى. لقد وجدناك أشدَّ حنينًا وشوقًا وحبًا لخالقك من يعقوب ليوسف، إذ كانت فطرتك توجّهك إلينا، ولكنك كنت لا تهتدي طريقًا يؤديك إلينا. لقد كانت أصابع الطبيعة تشير لك أن هناك خالقًا لك مالكًا لك رازقًا لك، فكنت تنظر في كل طرف وصوب قائلا: أين خالقي وأين مالكي وأين رازقي، فإني أريد وصاله. لم يكن عندك شريعة تهتدي بها إلينا، فلما رأينا حبّك والتياعك لنا ناديناك: يا محمد، تعال نحن هنا.

ومن معاني الضلال: الموت والهلاك، حيث يقال: ضل الرجلُ: أي مات وصار ترابا، وعليه فقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ يعني: يا محمد، لقد رأيناك تهلك نفسك حزنًا على ضلال قومك ودمارهم. كنتَ ترى كفرهم ورذائل أخلاقهم من سرقة وسطو وإسراف وغيرها من العيوب الأخلاقية والعائلية، كما كنت ترى تخلُّفَهم عن باقي الأمم علمًا وسياسة، فكنت تموت من أجل إصلاحهم كما كنت تموت من أجل وصالنا، وكنت تهلك نفسك حزنا على كفرهم كما كنت تهلك نفسك شوقًا للقائنا، فوجدناك كما وصفناك في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٤). فلما وجدناك هالكًا في التفكير ليل نهار للنهوض بقومك هديناك إلى سبيل إنقاذهم من هذا الموت.. أي

أعطيناك القرآن الكريم الذي هو الضمان الوحيد للنجاة من الدمار ليس لأهل مكة فحسب، بل للعالم كله.

إذن، فقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالا﴾ إشارةٌ إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من عاطفة فياضة لإصلاح قومه بل العالم كله. وكما قلت آنفًا إن هذه الجملة هي في الحقيقة ترجمةٌ لقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، إذ الباخع مَن يذبح الذبيحة بشدة حتى يكاد يقطع رقبتها كلها (المنجد، ولسان العرب). فكأن الله تعالى يقول لرسوله، يا محمد، لقد كدتَ تقتل نفسك حزنًا وألمًا على كفر قومك وابتعادهم عن ربهم، كجزار يكاد يقطع عنق الذبيحة كلها.

باختصار، فنظرًا إلى حب النبي ﷺ لله تعالى، يعني قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أننا وجدناك صريعَ حُبِّنا إلى أقصى حدّ، فهديناك إلى سبيل وصالنا، أما بالنظر إلى شفقته ﷺ على قومه، فيعني أننا وجدناك كالهالك حزنًا على قومك، فأعطيناك الشريعة لتنهض بهم وتجعلهم يشاركون في سباق الرقيّ.

إذن، فهذه الآيات تتحدث عمّا أنعم الله على النبي ﷺ من منن وأفضال، فأخبر سبحانه وتعالى بقوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوى﴾.. أي أنه فيما يتعلق باليُتْم المادي، وجدناك يتيمًا، فأعطيناك أقارب ماديين. كنتَ بحاجة إلى من يتولى تربيتك بحب ولطف ويسدّ حاجاتك، فأقمنا أشخاصًا -واحدًا بعد الآخر- تولّوا العناية بك على أحسن وجه، وأعانوك إعانة مادية عند الحاجة على الدوام. أما اليتم الروحاني، فعالجناه بحبنا وفيوضنا وأفضالنا، حيث أعطيناك شريعة قادرة على أن تأخذ أهل مكة من الحضيض وترفعهم إلى ذروة الرقيّ.

لا شك أنها تبدو مجرد دعوى ادعى بها محمد ﷺ، ولكن لم يكن اختبارها بأمر صعب، إذ كان القرآن الكريم بين أيدي القوم، فكان بإمكان الناس أن يروا ما إذا كان فيه تعاليم قادرة على النهوض بالأمم أم لا. أما فيما يتعلق بما كان النبي ﷺ يتمتع به من قرب الله وزلفاه، فكان بإمكانهم أن يروه من خلال استجابة أدعيته والآيات الإلهية التي كانت تظهر على يديه. باختصار، ما كان بإمكانهم إنكار صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. فبضرب

هذين المثالين يُطَمْئِنُ الله تعالى نبيّه ويقول: لقد تولينا رعايتك ماديا وروحانيا على الدوام، وأيدناك بنصرنا عند كل خطوة. عندما كنت بحاجة إلى العناية المادية هيأنا لك إياها، حينما كنتَ بحاجة إلى الرعاية الروحانية نظرنا إلى روحك بشفقةٍ وتحنّنٍ، عندما اتَّقَدتْ شعلة حبنا في قلبك أريناك وجهنا، ولما فار حبُّ الإنسانية في قلبك وضقتَ ذرعًا برؤية مساوئ الناس، أنزلْنا عليك شريعتنا القادرة على إصلاحهم وسداد أمرهم. فما دمنا قد غمرناك بحبنا وعطفنا فيجب أن يكون هذا دليلا كافيا أن أنباءنا عن الضحى وترقياتك القادمة سوف تتحقق حتما. ما دام الله لم يخذلك في الماضي فكيف يخذلك في المستقبل؟

قد يعترض علينا معترض قائلا: لقد أخذتَ كل معاني الضلال إلا واحدًا وهو الانحراف عن الطريق والوقوع في الفساد، فلماذا لا تفسّر الآية هكذا: وجدناك منحرفا عن الهدى فهديناك؟

والجواب: يفسر العدو هذه الآية بأن محمدا ﷺ كان منحرفًا عن طريق الشريعة – والعياذ بالله- فهداه الله، ولكنا أهملنا هذا المعنى لأنه لا ينطبق على الرسول ﷺ، وإن كان صحيحًا لغةً. ذلك أن الهداية في الدنيا نوعان فقط: هداية شرعية وهداية فطرية. وسؤالنا للذين يصرّون على المعنى الذي تركناه: كيف تفسّرون هذه الآية؟ هل معناها أن محمدا (ﷺ) ضلّ عن الشريعة التي كان القوم عليها؟ لا شك أن هذا المعنى باطل وخلاف الواقع، إذ لم تكن هناك شريعة عند العرب، وإن ألدَّ أعداءِ الإسلام أيضًا لا يقولون أن قوم محمد ﷺ كانوا على شريعة وانحرف عنها. فالأمر الذي هو باطل بداهةً بحيث لا حاجة بنا لتفنيده، لا يمكن عَزْوُه إلى الرسول ﷺ، ولا يجوز تفسير هذه الآية بما يريدون. فما دامت الشريعة غير موجودة في وقت النبي ﷺ ولم يكن مخاطَبا مِن قِبل أي شريعة، فما معنى ضلاله وانحرافه؟ لم تكن عند الأمة التي وُلد فيها محمد ﷺ شريعةٌ ولا قانون سماوي يعملون به، ولم يكن عندهم وحي يتبعونه، فكيف يصح القول أن محمدا كان قد انحرف عن الشريعة؟

والمعنى المحتمل الثاني هو: لم تكن عندئذ شريعة، ولكن محمدا كان منحرفًا عن الشريعة الفطرية، بمعنى أنه -والعياذ بالله- كان سيئ الأخلاق، موصومًا بالرذائل،

منحرفا عن جادة الاعتدال الفطري، مخالفًا لقوانين الهداية الفطرية من أخلاق فاضلة وطبع سليم، فقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ﴾ إشارةٌ إلى هذا الأمر.

تعالوا نرَ فيما إذا كان هذا المعنى ينطبق على محمد رسول الله ﷺ أم لا. الواقع أن الله تعالى قد فنّد هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم حيث أمر رسوله ﷺ أن يتحدى الناس أن يُثبتوا أي عيب من حياته السابقة البالغة أربعين سنة. وقد تحداهم النبي ﷺ بالفعل وقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي لقد عشت بينكم أربعين سنة، وأنتم شاهدون على حياتي، فأَجْمِعوا أمركم وابحثوا عن أي عيب فيها، اعلموا أنكم لن تستطيعوا ذلك، لأن حياتي نزيهة تماما، وأن الله تعالى قد حماني في كل وقت من أي معصية.

إذن، فلا ينطبق هذا المعنى أيضًا على النبي ﷺ. لقد بطلت تهمتهم بأنه ﷺ انحرف عن الشريعة إذ لم يكن عند قومه ﷺ شريعة على الإطلاق حتى يُتَّهَمَ بانحرافه عنها، كما بطل زعمهم بسوء أخلاقه ﷺ، إذ تحدى النبي ﷺ في القرآن قومه أنني عشت بينكم فترة طويلة، ولكنكم لن تجدوا أي عيب في حياتي. لم يكن المراد من هذا التحدي أنني عشت بينكم طويلا فهل رأيتموني أنحرف عن أحكام القرآن الكريم في حياتي؛ إذ بدأ نزول القرآن عند هذه الدعوى و لم يكن له وجود قبلها. فثبت أن هذا التحدي يتعلق بالهداية الفطرية لا الهداية الشرعية، فأمر الله رسوله ﷺ أن يتحدى القوم أنهم لن يستطيعوا أن يثبتوا انحرافه عن الهداية الفطرية، أي اتخاذه أي موقف يتنافى مع الأخلاق الفاضلة، ولو مرة في الأربعين سنة الماضية من حياته. فما داموا لا يستطيعون أن ينسبوا إليه عيبًا في كل تلك المدة، فكيف يقولون أنه قد أصبح شريرًا الآن؟

باختصار، لا يمكن أن ينطبق أي من هذين المعنيين على النبي ﷺ، ففيما يتعلق بهداية الشرع فحتى النصارى يسلّمون أنه لم يكن عند أهل مكة أي قانون شرعي قبل القرآن، وما دام هؤلاء غير ملتزمين بأي شريعة فكيف يصح تفسير قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ﴾ بأن محمدا انحرف عن الشريعة؟ أما معنى انحرافه عن الهداية الفطرية فلا يمكن أن ينطبق عليه ﷺ أيضًا، لأن القرآن قد تحدّى القوم حول أخلاقه ﷺ

الفاضلة. ما دام المعنيان لا ينطبقان عليه ﷺ فكيف يقول أعداء الاسلام أن معنى هذه الآية أن محمدا كان ضالا بالمعنى المعروف؟

وقد يقول قائل هنا أن قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالًّا﴾ شهادةٌ إلهية بحق محمد، أما قوله ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فهي شهادة محمد بحق نفسه، ولا بد أن نعتبر شهادة الله أصح من شهادة محمد بحق نفسه.

والجواب أن الشهادة التي يقدّمها محمد ﷺ بحقه ليست شهادته هو، بل هي شهادة الله بحقه في الحقيقة، إذ نسَبها الله إلى نفسه حين أمره: قُلْ.. فالآية الكاملة كالآتي: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي نحن نقدّم هذه الشهادة بحقك ونأمرك أن تتحدى قومك أن يثبتوا أي عيب في حياتك إن استطاعوا. فبقوله تعالى ﴿قل﴾، قد ضم الله شهادته إلى شهادته ﷺ بحق نفسه، حتى لا يقال أن محمدا قد قالها من عنده. إذن، فليس بين الشهادتين أيُّ تعارض.

عندما يحاصَر الخصم هنا ولا يجد بيده برهانا، يقول لقد نسب محمد هذا القول إلى الله تعالى، إنها مجرد دعوى وثرثرة لسان لا قيمة لها ولا دليل عليها، إنما علينا أن نرى ما إذا كان بريئا من العيوب عند الناس أم لا، لأنهم يعرفون الحقيقة، فإذا كان الجواب لا، فقوله باطل لا أساس له، ومجرد دعوى لا قيمة لها.

فنقول ردًّا على الخصم إننا حين نفحص الأمر نجد حُسن شهادة الناس بحق محمد ﷺ، فالثابت تاريخيا أن القوم كانوا يسمونه ﷺ قبل دعواه الصادق الأمين، وكانوا معترفين بصلاحه وسداده إلى أقصى حدّ. فلما أُمر النبي ﷺ بإنذار قومه صعد على الصفا وأخذ ينادي القبائل بأسمائها، فلما اجتمعوا قال: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلا صِدْقًا (البخاري، كتاب التفسير، سورة الشعراء). مع أنه قولٌ ما كان لأحد أن يصدّقه في بادئ الأمر، إذ لم يكن هناك جبل كجبال دلهوزي مثلا، وإنما كان هناك تلٌّ فحسب، وكانت مواشي أهل مكة ترعى وراءه في الوادي، وكان من المستحيل أن يختفي فيه جيش، إذ لم تكنْ به غابة ولا

أشجار، بل هو عراء، ولو كان هناك جيش لعلم به القوم، ولما قال لهم الرسول ﷺ: أَكُنْتُمْ مُصدِّقِيَّ؟ قال الجميع: سوف نصدّقك.. أي أنه أمر مستحيل، ولكننا نقبل قولك إذ لم تكذب قط. فلما أعربوا عن ثقتهم به ﷺ قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فعليكم بإصلاح أنفسكم. فلم يلبث القوم يتهمونه بالجنون وانفضّوا ساخرين.

إن شهادة العدو هذه لبرهانٌ ساطع على ما كان يتحلى به النبي ﷺ من صدق وسداد.

كذلك لما اختلفت قريش على وضع الحجر الأسود في مكانه عند إعادة بناء الكعبة حتى كادوا يقتتلون بالسيوف، تقدّمَ النبي ﷺ ورفع خلافهم. ورد في التاريخ أن القوم حين رأوا النبي ﷺ قادمًا قالوا: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد." (السيرة لابن هشام، حديث بنيان الكعبة)

هذه شهادة ثانية من الكفار على نزاهة حياة النبي ﷺ قبل الدعوى.

ثم إن الزوجة هي أقربُ شاهد على زوجها؛ إذ تعرف من أحواله ما لا يعرفه الآخرون، ولذلك تُعتبر شهادتها بشأنه أقوى الشهادات. ونجد أن شهادة زوجته أيضًا كانت في صالح النبي ﷺ. لما نزل عليه الوحي أول مرة ذكر ذلك لخديجة في فزع، فطمأَنَتْه بقولها: "كَلا، وَاللَّهِ مَا يُخزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ." (البخاري، بدء الوحي). فقولها: تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ يعني أنك تتحلى بأخلاق قد صارت معدومة بين الناس.

فشهادة زوجة النبي ﷺ في حقه أيضًا تؤكد أنه لم يكن ضالاً بالمعنى الذي يريده العدو.

هذه الشهادة قد أدلت بها خديجة -رضي الله عنها- حين كان النبي ﷺ في الأربعين من عمره، لكن هناك شهادة أخرى على صلاحه وسداده وأمانته ﷺ حين كان في الرابعة والعشرين من عمره. مرةً بعثتْ خديجةُ الرسولَ ﷺ بمال تجارتها إلى الشام، فلما رجع سألتْ كلَّ واحد من عبيدها الذين رافقوه ﷺ عن سلوكه، فأثنى

الجميع عليه ﷺ، وقالوا لم نر أحدًا مثله في الأمانة ودماثة الأخلاق. كانت خديجة تدرك أن الذين يُبعَثون مع القوافل التجارية يأكلون الكثير من المال، ولكن هؤلاء العبيد أخبروها أن محمدا ﷺ لم يأكل من أموالها شيئا، كما لم يسمح لهم أن يتصرفوا بأموالها تصرفًا غير مشروع، فلم يكن ينفق على حاجاته من طعام وغيره إلا ما سمحتْ به له، فأعجبت خديجة بأمانته وأخلاقه، فبعثتْ إليه أنها تريد الزواج منه. (السيرة الحلبية: باب سفره ﷺ إلى الشام ثانيًا، وباب تزوُّجه ﷺ)

فكل الشهادات التي نجدها عن النبي ﷺ منذ صغره إلى بلوغه الأربعين لتشهد على أنه لم يضلّ أبدًا من الناحية الأخلاقية، بل كانت حياته كلها بريئة من أي عيب. فليُخبِر الخصوم الآن: كيف يمكن أن ينطبق لفظ الضال على الرسول ﷺ بالمعنى الذي يريدونه! لم يكن ﷺ ضالاً عن الشريعة إذ لم يكن عند قومه شريعة، كما لم يكن ضالاً من الناحية الأخلاقية؛ إذ تؤكد الشهادات كلها أنه كان متحليا بأخلاق فاضلة جدا، فما هو الضلال الذي كان فيه؟ أما إذا قالوا أنه كان ضالاً عن الكفر، فنحن متفقون معهم ونقول: نعم، إنه ﷺ لم يتّبع سبيل الكفر أبدا. فثبت أن المعنى الذي يذكره الخصوم باطلٌ قطعًا، لأن أحداث حياة النبي ﷺ كلها تُبْطِله تماما.

وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

عائلا: عالَ عِيالَه: كفاهم معاشهم ومانَهم. وعالَ اليتيمَ: كفَله وقامَ به. عالَ فلان عولاً: كثُر عِيالُه. (الأقرب)

التفسير: لهذه الآية مفهومان، أوّلُهما: وجدناك كثير العيال فسددْنا حاجاتك، والثاني: وجدناك الشخصَ الوحيد الذي يعتني بالأيتام وعديمي الحيلة، فأعطيناك المال لسدّ حاجاتهم. وتفصيل المفهوم الأول هو أنك لم تكن قادرًا على سد حاجات أهلك، فأعطيناك الثروة وأزلنا فقرك. أما تفصيل المفهوم الثاني فهو أنه

كانت عندك رغبة عارمة لأن تؤوي كل فقير وتعين كل مسكين وتساعد كل عديم الحيلة بائس الحال، وتسد حاجاتهم حبًّا ومواساةً لهم، فوضعنا ثروتنا في أيديك لتكون كفيلاً لعبادنا الفقراء البائسين.

والغنى هنا مادي وروحاني أيضًا، واليتامى والمساكين أيضًا ماديون وروحانيون. فكان النبي ﷺ يكنّ للفقراء واليتامى الماديين في زمنه من الشفقة والمواساة والحب ما لا نجد نظيره في العالم. كان يتألم برؤية بؤس الفقراء، فكان يقضي أيامه ولياليه حزنًا على أنه ليس هناك من يساند الفقراء ويتفقد اليتامى ويعتني بالمساكين، أما هو ﷺ فهو فقير لا يجد أسبابًا لإزالة فقرهم. والله الذي كان يعلم أسرار قلبه عندما رأى شفقته وعطفه عليهم هيأ الأسباب لتحقيق رغباته النبيلة حيث ألقى سبحانه وتعالى في قلب زوجته ﷺ خديجة أن تضع كل أموالها في يده ﷺ، فسلّمت له كل أموالها بعد الزواج ليتصرف فيها كيفما شاء. ويتضح من تحرِّي أحوال خديجة -رضي الله عنها- أنها لم تكن تملك الآلاف بل مئات الآلاف، إذ كان العديد من قوافلها التجارية يتردد دائمًا إلى الشام، وهذه التجارة الواسعة لا يديرها إلا من يملك مئات الآلاف. ونتيجة لهذه التضحية الرائعة من خديجة وجد النبي ﷺ أموالاً طائلةً، فقام بتوزيعها على الفقراء واليتامى والمساكين، وهكذا حقّق أمنيته القديمة.

أما المعنى الثاني للآية فهو أن محمدا ﷺ لم يكن الوحيد الذي كان يرغب بشدة في وصال الله وقربه وكلامه، بل كان في الجزيرة العربية عبادٌ آخرون يلتاعون حبًا لله وتقربًا إليه لكي يجلسوا في كنفه ويسمعوا كلامه اللذيذ الحلو، ولكنهم لم يكونوا يجدون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً. كانت عندهم لوعة للفوز بقربه ورضاه تعالى ولكن ما كانوا يعرفون السبيل إلى علاجها مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد وطلحة والزبير وغيرهم. فكل هؤلاء القوم كانوا يذوبون حبًّا لله تعالى، كانت عيونهم تدمع راغبين في وصال الله وكانت قلوبهم تلتاع حنينًا للقاء حبيبهم؛ ولذلك قال الله تعالى لمحمد ﷺ: لما رأينا أن هناك عبادًا في مكة بل في العالم كله يحبوننا ويبحثون عنا ويحنون شوقًا لوصالنا مثلك، زودناك بما يشفي غليلهم ويزيل قلقهم،

فأخذوا يسارعون إلينا بكل قوة. فكأن هذه الآية تبيّن أن الله تعالى آتى رسولنا ﷺ تعليمًا يشفي غليل كل فطرة، وهكذا هيأ له الأسباب لرعاية عياله الروحانيين، فليس هناك فطرة لا يستطيع النبي ﷺ شفاء غليلها، وليست هناك طبيعة لا يوجد تعليم موافق لها في كتابه. وكأن الله تعالى يقول: لا شك أن الكافرين لا يمكن أن يسلّموا بصدق تعاليم الإسلام الشاملة، ولكن عليهم أن يروا -على الأقل- ما هي حالة قلوب المؤمنين به الآن. ألم يجدوا السكينة والاطمئنان؟ ما السبب أن المؤمنين به كانوا قلقين مضطربين قبل الإيمان و لم يكونوا يعرفون غايتهم المنشودة، ولكنهم لما آمنوا بمحمد نالوا ثلج الصدر وأدركوا أنهم قد حققوا الهدف الذي خُلقوا من أجله؟

هذا هو الأمر الذي نقدّمه اليوم مرارًا كدليل على صدق المسيح الموعود عليه السلام قائلين: يمكنكم أن تستمرّوا في المعارضة، ولكن هل بوسعكم أن تبينوا السبب وراء الطمأنينة التي فاز بها المؤمنون بالمسيح الموعود عليه السلام والسكينة التي نزلت على قلوبهم حيث يرون أنهم قد وصلوا إلى ربهم؟ هل هذه السكينة تنــزل على أتباع كذاب؟ كلا إنما يحظى بهذه البركة مَن يتمسك بأهداب مأمورٍ رباني صادق.

باختصار، يخبر الله تعالى نبيه بأنك، يا محمد ﷺ، لست الوحيد الذي ربيناه فحسب، بل هيّأنا بواسطتك أسباب تربية مئات الآلاف من اليتامى والمساكين. فهناك اليتامى والمساكين الفقراء والبؤساء الماديين الذين يأكلون على مائدتك شاهدين على صدقك، كما أن هناك اليتامى الروحانيين -كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير- الذين ينعمون بالسكينة القلبية بتأثير تعاليمك وهم يشهدون أننا كنا جياعًا فما شَبِعْنا إلا على مائدة الهدى التي قدّمها هذا الإنسان المقدس. هذا دليل على أن الله تعالى سيكون معك ويؤيدك بنصره دائمًا، إذ كيف يمكن أن يخذلك في المستقبل وهو الذي لم يزَلْ يصلح أمورك ويحقق مرادك حتى اليوم و لم يخذلك طرفة عينٍ؟

ومن معاني هذه الآية أنه كلما ازداد عياله ﷺ الروحانيين أمدَّه الله لرعايتهم بالأسباب. وبالفعل لم يتيسر لأي نبيٍ أو صالحٍ رجالٌ يعلّمون الناس دينَه بقدر ما

تيسّروا للرسول ﷺ، ولذلك قال ﷺ أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.
(تشييد المباني في تخريج مكتوبات الإمام الرباني ص ٢٠، وتحفة الأحوذي للمباركفوري)

فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

لا تَقْهَرْ: قهَره: غلَبه. يقال: أخذتُهم قهرًا: أي مِن غير رضاهم. (الأقرب)
وفي المفردات: "القهرُ: الغلبةُ والتذليل معًا، ويُستعمل في كل واحد منهما."

التفسير: أي يا محمد، حيث إننا قد عاملناك بلطف دائمًا، فنأمرك أن تعامل اليتيم دائما بلطف وبدون قهر وقسوة. عليك أن تنمّي دائمًا أخلاقك النبيلة التي زوّدناك بها، متذكّرًا أنك كنتَ يتيما، فتولّينا رعايتك. اعلمْ أن لنا عبادا أيتاما كثيرين، فلا تعاملهم بإهانة، بل اعملْ على النهوض بهم وإكرامِهم وتطويرهم وسدِّ حاجاتهم دائما.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى لبعض عباده يوم القيامة: يا عبادي، كنتُ جائعا فلم تطعموني، وكنت ظامئًا فلم تسقوني، وكنت مريضًا فلم تعودوني. فيقول العباد في قلق: ماذا تقول لنا ربنا؟ متى كنتَ جائعا ولم نطعمك، وظامئا ولم نسقك، ومريضا ولم نَعُدْك؟ فأنت الذي تطعم الناس جميعًا، وتسقيهم وتسدّ حاجاتهم، وليس بوسعنا نحن عبادك الضعفاء أن نطعمك ونسقيك ونعودك؟! فيقول الله لهم: صحيح ما تقولون، ولكن كان بعض عبادي جياعًا فلم تطعموهم، وعطاشى فلم تسقوهم، وعُراةً فلم تكسوهم، وحيث إنكم لم تسدّوا حاجاتهم وأهملتموهم فكأنكم أهملتموني. كان عبادي هؤلاء في كروب وآلام، ولو أطعمتموهم وسقيتموهم وكسوتموهم فكأنكم أطعمتموني وسقيتموني وعُدْتموني، لكن لم تؤدوا هذا الواجب. (مسلم، كتاب البر والصلة)

وورد في الإنجيل أيضا أن الله تعالى سوف يدعو بعض عباده يوم القيامة ويقول لهم: يا عبادي: جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي، عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي، كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي،

عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي، مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي، مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ. (مَتَّى ٢٥: ٣٥-٤٠).. أي أجازيكم عليه وأدخلكم الجنة.

فقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ إشارةٌ إلى هذا الأمر نفسه، أي يا محمد لقد كنتَ يتيمًا فتولّينا تربيتك، واليوم يوجد في الدنيا الكثير من عبادنا الأيتام، فمن واجبك الآن أن تتولى تربيتهم وتعمل على تنفيس كرباهم.

لقد تبين من الحديث المذكور أعلاه أن قضية رعاية اليتامى والمساكين بالغةُ الأهمية، لأن الله تعالى ينسب رعايتهم وعدمها إلى نفسه، فمَن أحسن إلى اليتيم فاز برضى الله، ومن أهمله أو عامله بقسوة أثار غضب الله.

كما أن قوله تعالى ﴿لا تَقْهَرْ﴾ إشارةٌ إلى أن رعاية اليتيم يجب أن تتم بحيث لا تؤدي إلى إفساده، أي علينا ألا نقسو عليه كيلا ندمّر كفاءاته وقدراته، فنحول دون رقيّه وتقدُّمه، كما ينبغي أن لا نرفق به أكثر من اللازم حتى لا يضيّع أوقاته ويدمّر كفاءاته. ذلك أن القهر يعني الغلبة؛ فقوله تعالى ﴿لا تَقْهَرْ﴾ يعني: لا تعاملوه بحيث تتغلبون عليه وتستولون على قواه العقلية والجسدية، فتحولوا دون رقيه. الواقع أن الإنسان يتوقف عن الرقي بسببين: إما بسبب شدة متزايدة أو بسبب رفق متزايد، فبقوله ﴿لا تَقْهَرْ﴾ قد نهانا الله تعالى عن الشدة المتزايدة وعن الرفق المتزايد أيضا، وأوصانا بمعاملة اليتيم بما يساعد على تربيته تربية جيدة.

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

لا تنهَرْ: نَهَرَ السائلَ: زجَره. (الأقرب)

التفسير: أي لا تزجر السائل؛ إذ كنتَ أنت أيضا سائلا حيث كنتَ تسألنا حبًّنا، فلم نردّك خائبًا، بل آتيناك كل ما طلبتَ، والآن سيأتيك الناس سائلين، فعليك أن تهتمّ بهم وتحقق مرادهم.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فاعلمْ أن التحديث بالنعمة يتم بطريقين: أحدهما أن يشكر الإنسان ربه على مننه في انفراد ويخر أمامه ساجدا بسبب أفضاله المتتالية ويثني عليه بلسانه كثيرا. وثانيهما أن يذكر للناس بلسانه ما أنعم الله عليه من مننه ويقول: كم هي عظيمة مننُ الله علي. فالله تعالى يأمر هنا رسوله: عليك أن تشكرنا بلسانك على ما أنعمنا به عليك من نِعَم، كما عليك أن تتحدث عنها بين الناس بكثرة، أو المراد: عليك أن تستمتع بما آتيناك من نِعَم، ويجب أن تتجلى آثارها عليك، كما ينبغي أن تتصدق منها وتوزعها على الناس.

اعلم أن الله تعالى قد ذكر ثلاثة أمور من قبل فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾، وقد ذكر إزاءها ثلاثة أمور في هذه الآيات فقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.. أي كنتَ يتيمًا فآويناك في كنفنا، وكنت تسألنا حُبًّنا ونجاةَ قومك فوهبنا لك حبنا وهيأنا لك الأسباب لنجاتهم، وكان حولك كثير من اليتامى الروحانيين والماديين فزوَّدناك بما تسدّ به حاجاتِهم، فمِن واجبك الآن أن لا تعامل اليتامى بما يقصم ظهورهم ولا ترُدَّ من بابك عبادي الذين يأتونك سائلين حُبًّنا، بل عليك أن تحقِّق لهم ما يريدون كما حقَّقنا لك ما كنت تريد. ثم لا تنس أننا وجدناك عائلا، فآتيناك المال والغنى، فينبغي الآن أن تشكرنا على هذه المنن، فتمتّعْ بها بنفسك ووزِّعْها على الآخرين أيضًا.

اعلم أن الإسلام لا يعلّم أن يردّ المرءُ نِعَمَ الله تعالى ولا ينتفع بها. ولكن مِن سوء حظ المسلمين أن قومًا منهم يرون بسبب جهلهم بالروحانية أن استعمال نعم الله تعالى يخالف الروحانية، ويقولون أنه لا يليق بالروحانيين أن يأكلوا ويلبسوا جيدًا ويتمتعوا بنعم الله تعالى. والحق أنها روحانية مصطنعة ابتدعها هؤلاء القوم ولا

علاقة لها بالإسلام ولا بالعرفان. إنما أمَرنا الله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.. أي أن على الإنسان أن ينتفع بكل نعمة تتيسر له وينفع بها الآخرين، ولا يردها كما يفعل بعض الكهنة ورجال الدين.

إذن، فمن الناحية الروحانية ستعني هذه الآية: عليك أن تعمل بما آتيناك من تعاليم وتجعل الآخرين يعملون بها. أما من الناحية المادية فستعني هذه الآية: عليك أن تنتفع بما آتيناك من نِعَم وتنفع بها الآخرين.

باختصار، هذه الآية تذكير رباني لرسوله بما خوّله من نعم وأفضال، حيث قال الله تعالى له ﷺ: لقد كنتَ يتيما فتولينا رعايتك، فالآن ينبغي أن تهتمّ باليتامى كما اهتممنا بك. وقد أتيتَنا سائلا حُبًّا فحقَّقْنا لك مرادك، فالآن سيأتيك الناس سائلين، فمن واجبك أن تحقق لهم ما يريدون. ووجدناك عائلا فأغنياك بالمال. يوجد في الدنيا كثيرون لا عِلْمَ لهم بما أنزلناه عليك من نور من السماء لهدايتهم، إنهم يعيشون في ظلمات الجهل ولا تصلهم أشعة هذا النور السماوي، وقلوبهم تحنّ شوقًا ليفوزوا بحبّنا، وليكون حبُّنا غذاءً لهم، وليسري عشقنا في كل ذرة من كيانهم، ولكنهم لا يدرون أين تلك الشعلة التي يفدونها بأرواحهم طائفين حولها. لقد أغنيناك بغنى من السماء لكي تتمكن من تبليغ صوت الرب القدوس هذا إلى أهل الدنيا كلهم؛ فنادِ بين الناس حق النداء، وبلِّغْ اسم الله تعالى إلى جميع أنحاء العالم حق التبليغ، وأيقِظْ النيام من سباتهم حق الإيقاظ، ووزِّعْ على الناس ما آتيناك من نعم وخزائن حق التوزيع، فهذه هي الغاية التي بعثناك من أجلها.

اعلمْ أن مقارنة هذه الآيات الثلاث بالآيات الثلاث السابقة أيضا تؤكد أن الضلال في قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ لا يعني معناه العادي المعروف، ذلك أن الله تعالى قد ذكر مقابلَ قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ أهميةَ رعاية اليتيم، ثم ذكر مقابلَ قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ التحديثَ بنعم الله، فلا بد أن يفسَّر قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ على ضوء قوله تعالى ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، فيكون المعنى: أنك أتيتَنا سائلاً حُبًّا، فحقّقْنا لك مرادك وآتيناك الهدى.

سورة الشرح

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية بلا خلاف (فتح البيان). ويرى القس "ويري" أن زمن نزولها هو نفس زمن السورة السابقة بدليل اشتراكهما في الموضوع.. فزمنها عنده السنة الأولى أو الثانية من البعثة. (تفسير "ويري" للقرآن)

الحق أن اعتراف الكتاب الغربيين بهذا الأمر لانتصار عظيم للإسلام، لأن هذه السورة تحتوي على أنباء عظيمة لا يبقى بعد الاعتراف بها شبهة في صدق الإسلام؛ مع أنه كان بإمكانهم أن يُخفوا هذه الأنباء باعتبارهم هذه السورة مدنية.

وعندي أن هذه السورة نزلت في السنة الثالثة أو قريبا منها.

الترتيب والترابط:

إن أول صلة لهذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد أخبر في السورة السابقة عن حسن عاقبة محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولى﴾.. فهو ملخص السورة السابقة؛ إذ ذُكر نتيجةً للأدلة والبراهين المذكورة هنالك، أما هنا في سورة الشرح فقد ألقى الله المزيد من الضوء على ما أعلنه من قبل من حسن عاقبة محمد رسول الله ﷺ، فاستمرارًا لموضوع السورة السابقة قد أوضح الله تعالى هنا أن هناك علامات معينة لحسن العاقبة؛ فمن وُجدتْ فيه تبيّن أنه مؤيد من الله تعالى.. أي سترون في النهاية أن عاقبة محمد ﷺ ستكون محمودة، غير أنكم تستطيعون الآن أيضا إدراك ذلك ببعض علاماته الواضحة. ثم ذكر الله تعالى أربع علامات بارزة لمن تكون عاقبته حسنى؛ أولاها: كونه منشرح الصدر حول دعاويه، الثانية: تيسُّر الأسباب له لتحقيق الغاية التي قام من أجلها، الثالثة: توجُّه الناس إليه، الرابعة: أن تتيسّر له هذه الأسباب بتقدير إلهي. فمن توفرت فيه هذه

الأمور الأربعة أدرك الناس منذ البداية أنه غالب حتمًا. ويقول الله تعالى لرسوله الكريم إنك يا محمد تتمتع بهذه المزايا الأربع فيجب أن يدرك معارضوك أن عاقبتك تكون حسنى حتمًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

أَلَمْ نَشْرَحْ: شَرَح يشرَح اللحمَ شرْحًا: قطَعه طِوالاً. وشرَح الغامضَ: كشَفه وفسّره وبيّنه. وشرَح الشيءَ: فتَحه ووسّعه. وشرَح الكلامَ: فهَّمه. وشرَح صدرَه بالشيءِ وللشيء: سَرَّه به وطيَّب به نفسَه. (الأقرب)

وقال صاحب المفردات: "أَصْلُ الشرحِ بَسْطُ اللحم ونحوه، ومنه: شرْحُ الصدر أي بسْطُه بنور إلهي وسكينةٍ مِن جهة الله ورَوح منه."

الظاهر أن هذا المعنى الأخير تفسيريٌّ لا لغويٌّ، لأن شرح الصدر لا يكون من الله تعالى فقط، بل يقول الإنسان أيضًا لصاحبه بعد سماع كلامه: قد شرحتَ صدري، أي قد فهمتُ الأمر الآن جيدا.

وقد ورد في "تاج العروس" وهو أكبر قاموس عربي: "شَرَحَ كمَنَعَ: كَشَفَ، يقال شرَح فلان أمرَه: أي أوضحَه. وشرَح مسألةً مشكِلةً: بَيَّنَها، وهو مجاز. شَرَحَ: قَطَعَ اللحمَ عن العضو قطعًا، وقيل: قَطَعَ اللحمَ على العظم قطعًا كشرَّح تشريحًا في الأخير. شرَح الشيءَ يشرحه شرحًا: فتَح وبيَّن وكشَف. وعن ابن الأعرابي: الشرحُ البيانُ والفهمُ والفتحُ والحفظُ. وشرَح البِكْرَ: افتَضَّها. شرَح الله

صدره لقبول الخير يشرحه شرحًا فانشرح: أي وسعه لقبول الحق فاتسع. وشـَرَح إلى الدنيا: مال إليها". ✦

صدرك: "الصدرُ أعلى مقدَّمِ كلِّ شيء، ومن الإنسان ما دون العنق إلى فضاء الجوف، وكذلك من الفرس والبعير ونحوهما. والصدر أولُّ كلِّ شيء كصدر النهار وصدر الصيف وصدر الشتاء." (الأقرب)

وكأن الصدر من الأضداد، فيطلق على ذروة كل شيء، وأيضًا على أول كل شيء، وأول كل شيء يكون أدنى عادةً، فمثلا أول النهار الصبح أقلُّ ضوءًا من الظهر.

ثم ورد: "وصدرُ القوم: رئيسهم ومقدَّمهم" (الأقرب).

وفي لغتنا يستخدم هذا اللفظ للإعزاز والتكريم، فيقال أجلسوا فلانا في صدر المجلس، واختيرَ فلان صدر المحفل.

ثم ورد: "والصدر: الطائفة من الشيء، تقول أخذتُ صدرا منه أي طائفةً وجزءًا منه. وربما سُمّي القلب صدرا لكونه فيه" (الأقرب).

أما انشراح الصدر فهذا التعبير يوجد في كل قوم وبلد، فإذا اطمأن المرء بشيء عبّر عن اطمئنانه وسكينته بانشراح الصدر. وفي اللغة الأردية أيضا يقولون لقد انشرح صدري لكذا. ولا نأبه لقول الأطباء ما العلاقة بين الصدر وفهمِ المرء أمرًا ما واطمئنانه به، إنما الصدر عبارة عن قفص عظمي يضم القلب والرئة والكبد والمريء، فأي علاقة لهذه الأشياء بفهم كلام والاطمئنان إليه. فإننا نقول: لا شك أن هذه الأشياء تسمى صدرًا في الطب، ولكن انشراح الصدر يعني لغويًا اطمئنان المرء بشيء، وانقباضه يعني عدم اطمئنانه وحزنه. أما لماذا يُستخدم هذا التعبير هكذا؟ فالجواب عليه من مسؤولية أهل اللغة وليس أهل الدين. لقد رأيت أن بعض

✦ لم نعثر في "التاجِ" على العبارة التي تحتها الخط، غير أنه ورد في "المنجد" ما يلي: "وشرَح إلى الشيء: أظهرَ الرغبةَ إليه، يقال: فلان يشرح إلى الدنيا.. أي يُظهِر الرغبة إليها." (المترجم)

الناس يقحمون المسائل اللغوية في أمور الدين بسبب غبائهم فيتعثرون كما يسببون العثرة للآخرين. فمثلا عندما يقال في لغتنا لقد وقع هذا في قلبي فلا يقول عاقل هل يقع الأمر في القلب أم في الدماغ، ذلك أننا مضطرّون لاستخدامه إذ إن هذا التعبير موضوع في اللغة لأداء هذا المفهوم، فإن شخصا إذا قال قد وقع هذا الأمر في قلبي فمعناه أنه خطرت بباله فكرة جديدة، وكل إنسان يخطر بباله فكرة جديدة يستخدم هذا التعبير الموضوع في اللغة سواء كان عالما أو جاهلا أو فيلسوفا أو عالِمَ تشريحِ أبدان. أما السؤال هل تنشأ الفكرة في القلب أو الرأس أو الرِّجل فلا داعي أن نخوض في ذلك من حيث اللغة، ومع ذلك يبدأ البعض هذا النقاش خطأً ويقولون كيف يمكن أن يقع الشيء في القلب أو ينشرح الصدر؟ فليعلم هؤلاء المعترضون أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية، فنحن مسؤولون عما إذا كان المعنى الذي نذكره لكلمة قرآنية مطابقا للغة العربية أم لا؟ ولكن لا يجوز سؤالنا عما إذا كان هذا التعبير صحيحا أو خطأً بحسب علم الطب، لأن هذه المسؤولية لا تقع على القرآن الكريم بل على أهل اللغة. فإذا وضع أهل اللغة تعبيرًا ما لأداء مفهوم ما فنحن ملزمون باستخدام هذا التعبير نفسه سواء كان حقيقيا أو غير حقيقي. فإن أحدًا من الإنجليز -سواء كان شخصا عاديًا أو من علماء التشريح أو علماء النفس- إذا أراد التعبير عما يؤلمه قال it aches my heart أي أن هذا الأمر يوجع قلبي، مع أن الإحساس بالألم يكون في المخ الذي يميّز الأشياء لا في القلب. كذلك إذا أرادوا التعبير عن أذى أصابهم قالوا my heart sank أي غرق قلبي. يا تُرى، ألا يعلم هؤلاء الأساتذة والعلماء أن القلب لا يكون في بحر أو بئر أو ساقية أو نهر حتى يغرق فيه، ولكنهم مضطرون لهذه التعابير لأن أجدادهم وضعوها لأداء هذه المعاني. بل إنهم يقولون في بعض الأحيان my heart sank in my boots .. أي لقد غرق قلبي في نعالي.

وكذلك يعبرون عن إحساسهم بشيء بقولهم I felt in my heart مع أن المسلَّم به عندهم أن الشعور مكانه الدماغ لا القلب. وكذلك يقول هؤلاء العلماء في رسائلهم إلى خطيباتهم وزوجاتهم you always live in my heart ..أي أنك

تعيشين في قلبي دائما، ولا يقولون أبدا you always live in my head.. أي أنك تعيشين في رأسي دائما، وربما لو قال أحدهم ذلك لخطيبته لفسختْ خِطْبته واعتبرتْه مجنونا.

فما دام الكلّ يستخدم هذه التعبيرات في لغته اليومية ولا يعترض عليه أحد، فلماذا يطعن هؤلاء الحمقى على ورود تعابير مماثلة في الكتب السماوية؟ عليهم أن يعترضوا على القوم الذين وضعوا هذه التعابير، أما الكتاب السماوي فهو مضطر لاستعمالها، وإلا لم يفهم الناس قصْدَه وفَشل الكتاب في تحقيق غايته. علينا أن نرى ما إذا كان العرب يستعملون كلمة القلب بمعنى الدماغ المعروف عند أطباء التشريح أم لا، فإذا كانوا يستعملونها للدلالة نفسها فلا يصح الطعن في القرآن الكريم لاستعماله كلمة القلب بدل الدماغ. أو علينا أن نرى ما إذا كان العرب يستعملون تعبير انشراح الصدر أم لا، فإذا كانوا يستعملونه فليس جائزا للقرآن الكريم استعماله فحسب، بل لا بد له من استعماله وإلا ماذا سيفهم الناس مما يقول؟

إن هذا العصر عصر التقدم العلمي وقد بلغ العلم الذروةَ وقام علماء التشريح بأدق البحوث، ومع ذلك يقول هؤلاء العلماء حتى اليوم: حُبّك في قلبي، ولو قال بعض شعرائهم: حُبّك في دماغي لضحِك عليه الجميع واعتبروه مجنونا. فمع أن ما قاله هو الحق طبيًّا، إلا أن أهل اللغة يستخدمون القلب للتعبير عن الحب ولذلك لو استعمل مكانه لفظ الدماغ لضحكوا عليه واعتبروه غبيًّا.

إذن لا يهمّنا ما يقول علماء التشريح، إنما يهمنا التعبير الذي وضعه علماء اللغة. واستعمال التعابير الرائجة في اللغة هو الفصاحة، ولو خالفها الإنسان سقط كلامه عن مستوى الفصاحة.

التفسير: رغم أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهام، ولكن المراد أنك تعرف جيدًا أننا قد شرحنا صدرك. ومثل هذا التعبير يسمى الاستفهام التقريري، ومثاله قول الشاعر: "ألستم خيرَ مَن رَكِبَ المطايا".. أي أنتم خيرُ مَن

ركب المطايا. والحق أن هذا التعبير يماثل القاعدة الرياضية: نفيُ النفي إثبات. فإذا قلت لأحد على سبيل الاستهزاء: أنت عالِم؟ فإنك تعني أنه ليس عالما. لكن لو قلت له: ألستَ عالما؟ فالمراد أنه عالم ومع ذلك يأتي ما لا يليق بالعالم، أو أنه عالم لكن الجهال يطعنون فيه. فليس المراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أن الله تعالى يسأل رسوله أشرحْنا صدرك أم لا، بل المراد أنك تَعلَم أننا قد شرحْنا صدرك وكذلك يعلم عدوُّك هذا الأمر.

قد يقال هنا: لماذا لم يستعمل الله تعالى هنا كلمات بسيطة وبأسلوب مباشر: قد شرحْنا لك صدرك؟

الجواب أنه لو قيل قد شرحنا صدرك لكان من الله خبرًا عاديًا بدون أن يؤدّي المفهومَ الكامن في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أعني لم يُعرَف ما إذا كان هناك نتيجة واضحة لشرح الصدر أم لا، وما إذا كان الرسول ﷺ أيضا قد أحسَّ بشرح صدره أم لا، وما إذا كان الكفار قد رأوا آيةً تدلّ على شرح صدره ﷺ أم لا. أما قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فهو تأكيد أننا قد شرحنا صدرك بحيث تدرك ذلك كما يدركه عدوك أيضًا.. أي أن هذا الأمر ظاهرٌ جليٌّ بحيث أصبح آيةً بيّنة لا يمكن إنكارها. وهذا المعنى الواضح لا يمكن بيانه بكلمات وجيزة إلا بهذا الأسلوب.

وأضربُ مثالاً آخر لبيان هذا الأمر. لنفترضْ أن شخصًا أتاني وأخبرني أنه قد أوصلَ إلى بيتي اللحم مثلا. هذا الخبر يفيد فقط أنه أوصل اللحم إلى بيتي، ولكننا لسنا على يقين ما إذا كان قد أوصله فعلاً أم لا؟ ولا يمكن لهذا الشخص أن يقول لي في هذه الحالة: ألم أوصل اللحم إلى بيتكم؟ ولكني لو ذهبت إلى بيتي ورأيت أن اللحم قد وصل، عندها يمكن له أن يقول لي: ألم أوصل اللحم إلى بيتك؟ إذ يعني بذلك: لقد أوصلتُ اللحم إلى بيتك وقد رأيتَ أنه قد وصل. فالاستفهام التقريري هو الذي قد أفاد هذا المعنى الإضافي بأن الأمر مؤكد بحيث إذا سمعه المرء صدّقه قائلا: نَعَمْ، إن ما تقوله صحيح، وأنا شاهد على ذلك. فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يتضمن تصديق المخاطَب أيضا.. أي أنّ مَن نخاطبه يعلم ما نقول ولا

يسعه إنكاره. فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ يا محمد ﷺ بحيث أصبحت شاهدا على ذلك وتعلم جيدا أننا قد شرحناه فعلا.

إن قوله تعالى بأننا قد شرحنا صدرك بحيث أصبح أمرًا واضحًا بيّنًا لا يمكن إنكاره لجملةٌ وجيزة، لكنها مع إيجازها تشتمل على معان واسعة. وقد ذكرنا لدى شرح المفردات أن لفظ الشرح يعني الفتح والتوسيع والتفهيم والحفظ والبيان الجيد. وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أنك تعلم كما تعلم الدنيا أيضًا أننا قد شرحنا صدرك. ولما كان هذا التعبير يفيد التصديق والقبول لأمر جيد، فإذا مال قلب المرء لقبول الأمور الحسنة أو تيسرت له السكينة في أمر معين وأيقن به يقينا كاملا قيل انشرح صدره. وإذا بلغ يقينه إلى حد الكمال بحيث اعتبر إعجازا قيل إن الله تعالى شرح صدره. وإذا تيسرَ له اليقين الكامل بالأمور الغيبية التي لا يتيسر بها اليقين إلا بتصرف رباني فيقال أيضًا إن الله تعالى شرح صدره. والاستفهام التقريري -الذي هو إثبات في الحقيقة- يفيد هنا أن هذا الأمر ليس بخفي بل أصبح ظاهرًا جليًّا. ونظرًا إلى هذه المفاهيم كلها فستعني هذه الآية أن الله تعالى قد منح محمدا ﷺ بشاشة القلب للإيمان بالحقائق والبر والعملِ بها، ومنحه اليقين القوي بالأمور السماوية المشتملة على الغيب، وقد توالى ظهور هذين الأمرين بحيث ليس بوسع معارضيه ﷺ إنكارهما. وإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة في شخص كانت دليلا على صدقه كما كانت علامةً على أنه سيحدث ثورة طيبة في العالم حتما.

إن معظم الناس يشيدون بالأعمال الحسنة، ولكن كم منهم يتمسكون بالبر والخير في العسر واليسر؟ قلّما تجد من يقول إن صدق القول ليس ضروريًّا، ولكن قليل هم الذين يصدُقون القول دائمًا. ومعظم الناس يشيدون بالأمانة، ولكن كم منهم يعتبره قومُه كلُّهم أمينا حقًا؟ لماذا يعتبر الناس بعض الأمور حسنة ثم يقصِّرون في العمل بها؟ إنما سببه افتقارهم إلى اليقين الكامل بتلك الحقائق. أما محمد رسول الله ﷺ فكان أول من آمن بالحقائق الثابتة في عصره وعمل بها حقًا؛ حيث لم

يكتف ﷺ بقوله للناس إن الصدق حسن، بل كان صادق القول دائما. وإنه ﷺ لم يكتفِ بقوله للناس إن الأمانة أمر حسن، بل أثبت لهم بفعله أنه أمين فعلاً، حتى إن أهل مكة الذين كان اهتمامهم منصبًا على الأمور المادية بدلاً من الأخلاق صاحوا وقالوا إنه صدوق أمين حقًا (السيرة النبوية لابن هشام: حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله، والبخاري: كتاب التفسير، قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾). هذه الشهادة ليست شهادة عادية؛ ذلك أن قول الحقّ شيء، أمّا أن يسمّيك القوم كلُّهم صادقا فشيء آخر تماما. وإن التمسك بالأمانة أمر، أمّا أن تنال لقب الأمين من القوم كلهم فهذا أمر آخر تماما. إذ يكون هناك أعداء لك وأصدقاء، ولا يمكن أن تنال هذه الألقاب الطيبة من القوم كلهم إلا إذا بلغت في تلك الأخلاق حد الكمال بحيث لا يسع العدو إنكار ذلك. وإنّ بلوغ النبي هذه المكانة لدليل على انشراح صدره للبر فعلاً. ومَن انشرح صدره للبر فاتهامه بالكذب والخداع ظلم عظيم، ومِن الصعب أن يفلح أعداؤه في فصل الناس عنه فترة طويلة.

والمعنى الثاني لانشراح الصدر هو تيسُّر اليقين الكامل. واليقين الذي كان عند النبي ﷺ بصدقه ليس بأمر خفي. فعندما قال رؤساء مكة لعمّه أبي طالب أنه إذا كفّ محمد عن عيب آلهتهم فإنهم مستعدّون أن يعطوه ما شاء من سيادة أو مال أو أجمل فتاة عندهم، أما إذا لم يكفّ عن عيب آلهتهم فسوف يقضون عليه وعلى أتباعه. فردّ الرسول ﷺ على عمّه بكل جلال: يا عم يمكنك أن تتركني وتنضم إلى قومك، فوالله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري فلن أتوقف عن الإقرار بوحدانية الله ولن أتوقف عن الإعلان عن هذا الحق. (السيرة النبوية لابن هشام: مبادرة رسول الله ﷺ قومَه)

هل يجرؤ المرء على هذا الموقف بدون أن يكون عنده يقين أرسخ من الجبال الراسيات؟

وكذلك عندما اختفى الرسول ﷺ في غار ثور وحاصره العدو وأراد بعضهم أن يدخل الغار وأبدى أبو بكر خوفه على النبي ﷺ قال له: "لا تحزن إن الله معنا،

وكيف يمكن أن يضرونا بسوء والله معنا؟" (مجمع الزوائد، المجلد السادس: باب الهجرة إلى المدينة)

عندما يكون الإنسان الأعزل مع صديقه الأعزل محاصرًا من قبل أعداء متسلحين فلا يمكنه أن يعلن عن نجاته بسلام –فضلاً عن أن يعلن انتصاره على العدو– إلا إذا كان قد شاهد تأييدات الله بأم عينه. وهي أمور لا يذكرها المسلمون فقط، بل قد اعترف بها كفار مكة أيضا، فهم الذين لقّبوه بالصدوق الأمين، وهم الذين شهدوا ما وقع في غار ثور بأم أعينهم، وهم الذين شهدوا الحوار الذي جرى بينه ﷺ وبين أبي طالب. وهناك أحداث أخرى كثيرة دالة على صلاح النبي ﷺ ويقينه وإيمانه، وشهدها هؤلاء الكفار منذ أول أمره. فإن القرآن الكريم لم يجانب الصواب إذ أقام الحجة على أهل مكة بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، بل هذا هو الحق والحقيقة. إن المكانة التي تَبوَّأها النبي ﷺ في البر والصلاح والتقوى واليقين بالله تعالى والإيمان بآياته تؤكد حتمًا أنه لم يكن مجنونا ولا شخصًا غير مسؤول ولا ضعيف العزيمة ولا تابعا للأفكار العابرة، بل لقد رأى آيةً ربانية عظيمة جعلتْ إيمانه أرسخ من الجبال. هل هناك شبهة في انتصار مثل هذا الإنسان؟ هذا هو السؤال الذي كان على معارضيه أن يجيبوا عليه، ولا شك أنهم كانوا يتهربون من الإجابة عليه خائفين.

اعلمْ أن نجاح المرء يتوقف على ثقته بنفسه. من المحال أن ينجح أحد من دون أن يكون موقنًا بما يدّعيه. دَع الأمور الروحانية جانبًا، فإن المرء لا يجتهد في الأمور المادية بجدية ما لم يكن واثقًا بنفسه. أما إذا كان واثقا بنفسه بذل أقصى جهده فيما ينويه وإنْ كان كاذبا. بل الحق أن الإنسان إذا أيقن بشيء ولو يقينا عابرا سعى جاهدا لتحقيقه، بل الواقع أنه لو انتاب المرء شكٌّ عابر فأيضا لا يبرح يجتهد لتحقيق مرامه. يقال أنه كان هناك ولدٌ بليدٌ أبلَهُ وكان الأولاد الآخرون يضايقونه، فإذا تضايق من مطاردهم له قال على سبيل الكذب –وكان يعرف فطرهم جيدا– لقد أعَدّ فلان من الأغنياءِ وليمة اليوم، فلمَ لا تحضروها بدلاً من مضايقتي؟ وكان من عادة العرب كرم الضيافة الزائدة إذ كان كبارهم ينحرون الإبل ويدعون الناس

ليأكلوا ويتمتعوا، و لم تكن مآدبهم كمآدبنا حيث يدعى إليها أناس بعدد محدود؛ بل كان يحضر مآدبهم أي إنسان. فعندما كان هؤلاء الأولاد يسمعون قول الولد الأبله يتركونه ويركضون إلى بيت الزعيم المذكور. فإذا بقي الولد الأبله بعد ذهابهم وحده انتابته الشكوك وقال في نفسه لعل الزعيم قد أقام المأدبة فعلاً، فليس حسنًا أن أتعرض للضرب على أيدي هؤلاء الأولاد ثم أظل محرومًا من الطعام أيضا. فكان يجري إلى بيت الزعيم، فيجد الأولاد راجعين من هنالك، فكانوا يوسعونه ضربًا ولكمًا إذ خدعهم. وكان الولد يحتال عليهم مرة أخرى ويقول لهم لقد أخطأت في ذكر اسم الزعيم، إذ الواقع أن المأدبة في بيت فلان. فكان الأولاد يتركونه واثقين من حديثه ويجرون إلى البيت الآخر، وبعد ذهابهم كان الولد يفكّر لعل هناك مأدبة بالفعل، فكان يجري وراءهم إلى ذلك البيت، وفي الطريق كان يجد الأولاد راجعين وهم في غيظ شديد، فيأخذون بضربه.

هذه الحكاية يضربها العرب مثلاً على شدة الجشع والشَرَه. فترى أن الولد كان كذابا، ومع ذلك كان يفكر لعل ما يقوله صحيح، فكان يجري وراء الأولاد لكي لا يُحرَم من الطعام. فثبت من ذلك أن اليقين هو الحافز وراء كل جهد، وكلما كان اليقين قويا كان الجهد كبيرا، وكلما كان اليقين ضعيفا كان الجهد ضعيفا.

اليقين درجات عديدة في القرآن الكريم أبرزها ثلاث: عِلمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقُّ اليقين. وموضوع مراتب اليقين هذا، هو من المواضيع الأساسية الهامة التي بيّنها المسيح الموعود عليه السلام على وجه الخصوص (إسلامي أصول كي فلاسفي، الخزائن الروحانية المجلد ١٠ ص ٤٠٢). أنا لا أقول أن الصوفية الأوائل لم يذكروا هذا الموضوع في كتبهم. كلا، لقد ذكروه في كتبهم، ولكن المسيح الموعود عليه السلام قد بيّن جوانب دقيقة عميقة جديدة لهذا الموضوع، وهذا ما لا يوجد في كتب السابقين. لقد اعترض البعض لعدم فهم هذه الحقيقة وقالوا: إن هذه الأمور مذكورة في كتب الإمام الغزالي، حيث اتهم الدكتور الشاعر إقبال أن مؤسس الأحمدية قد سرق هذه المواضيع من كتب الصوفية الأوائل، ولكن التدبر والمقارنة ستكشف للمرء أن هؤلاء لم يذكروا هذا الموضوع بالدقة والروعة التي هي

من نصيب المهرة في فن ما، أما المسيح الموعود عليه السلام فإنه لم يتناول أي موضوع من هذه المواضيع إلا وذكره بأدق تفاصيله الرائعة بحيث لم يعد هناك حاجة إلى مزيد من التفصيل، وهذا ما يفعله الماهر في أي فن، مما يميزه عن الآخرين. خذوا مثلاً الرسم، فكل إنسان يمكن أن يرسم رسما، وأنا أيضا أستطيع أن أرسم صورة جيدة أو سيئة، ولكن ما هو الفرق بين ما أرسمه وبين ما يرسمه رسّام فنّان؟ الفارق أنه سيرسمه بأدقّ تفاصيله الرائعة، أما أنا فلن يكون رسمي إلا خطوطا بسيطة. فتناوُل موضوعٍ ما شيءٌ، أما بيانه بأدق تفاصيله الرائعة فشيء آخر تماما. لا شك أن المسيح الموعود عليه السلام قد ذكر بعض المواضيع التي قد تناولها بعض الصوفية من قبل، ولكن الفرق هو كالفرق بين ما يرسمه شخص عادي وما يرسمه فنان ماهر. إن هؤلاء الأسلاف قد رسموا هذا الموضوع كما يرسم طالبٌ صورة، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد رسمه كرسّام ماهر بكل روعته، مما يؤكد تميّزه ونبوغه. كما أنه عليه السلام قد ساق الأدلة القرآنية على كل موضوع تنبيهًا إلى أن القرآن الكريم هو الذي قد أعلَمَنا بهذا الموضوع.

وكما قلت فإن أول مراتب اليقين هو علم اليقين، ويليها عينُ اليقين.. أي أن يرى المرءُ الشيءَ بعينه بحيث لا تبقى بعده شبهة، ومثاله أن يرى مِن بعيد دخانًا فيدرك أن هناك نارًا. والمرتبة الثالثة هي حق اليقين، ومثاله أن يضع المرء إصبعه في النار ويتأكد أنها تُحرق، وبعد مرتبة حقّ اليقين لا تبقى أدنى شائبة من الشك والشبهة. والرسل يتبوأون هذا الدرجة من اليقين، وقد بلغ النبي ﷺ منهم قمة حق اليقين لكونه سيد الأنبياء. ومن أجل ذلك كلما بعث الله تعالى رسولاً أمره أن يكون أول المؤمنين بدعواه هو أولاً، ثم يعرضها على الناس، مما يعني أن السنة الإلهية بصدد الأنبياء هي أنه تعالى ينشئ اليقين في قلب النبي أولاً ثم يبعثه لهداية الناس. وأما قول الله لرسوله ﷺ بأن يعلن للناس ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٤) فإنما معناه أن علينا أن نولّد اليقين في قلبك أولا، إذ لو كنت أنت عرضةً للشك والتردد فكيف ستبذل جهودا تقتضيها هذه المهمة. لقد رأيت أن بعض الناس لا يفهمون أمْرَ الله تعالى لرسله بأن يقولوا ﴿أَنَا أَوَّلُ

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:١٤٤) أو ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، فيقولون معترضين: ما معنى أن يؤمن النبي بدعواه؟ إن هؤلاء المعترضين لا يدرون أن الإنسان لا يمكن أن يرفع شكوك الآخرين وشبهاتهم إلا إذا كان هو يتمتع باليقين. إنما يولِّد اليقينَ في الآخرين مَن كان قلبه عامرًا باليقين أولاً، ولا ينوِّر الآخرين إلا مَن كان قلبه منوَّرا بالنور الإلهي أولاً. وليس انشراح الصدر إلا هذه المرتبة الأخيرة من اليقين التي تسمى حق اليقين، ومن أجل إنشاء هذا اليقين في قلوب الأنبياء يأمرهم الله تعالى أن يقولوا: أنا أول المؤمنين. الواقع أن الأعمال العظيمة لا يمكن أن ينجزها الإنسان إلا إذا كان أول المؤمنين، إذ كيف يمكن أن يهدي الآخرين مَن لا يوقن بنجاحه في مهمته يقينًا يسمو على أي شك أو شبهة؟ فالحق أن قوله تعالى ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس إعلانًا عاديًّا، بل هو دليل عظيم يقدّمه أنبياء الله والمقربون، وهذا هو الإيمان الذي يقضي على شكوك الآخرين ويرفعهم إلى قمة اليقين.

وجدير بالذكر هنا أن موسى عليه السلام دعا ربه وقال ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه:٢٦)، مما يعني أنه كان يسأل الله تعالى أن يهبه من اليقين ما يدرك به أنه إذا لم يُتِمّ مهمته فهو المقصر، أما نبينا ﷺ فيقول الله تعالى له ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي لم نمنحك هذا اليقين فحسب، بل تدرك أنت أيضًا بأنك قد أُوتيتَه، بمعنى أننا قد منحناك اليقين بحيث انكشفت عليك الحقيقة تماما؛ ذلك أن الاستفهام التقريري إنما يستعمل حين يكون المخاطَب على معرفة تامة بالأمر، إذ قد يكون المرء مزودا بكفاءات معينة ولكنه لا يعلم ذلك. ومعروف أنه لا يتيسر اليقين الكامل بالأمور التي تفوقُ الإدراكَ الإنساني إلا بالتجلّي الإلهي. ليس الإنسان بحاجة إلى التجلي الرباني ليوقن بالأشياء المادية التي يملكها مثل الخبز والمال وغير ذلك، لأنه موجود عنده، لكن الشيء الذي وهبه الله لرسوله روحاني لا مادي، ولا يوقن الإنسان بالشيء الروحاني ما لم يتجلَّ الله عليه بتجلياته المتتالية التي تثبِّته على مرتبة حق اليقين. والواقع أن اليقين مدارج مختلفة، فأحيانا يوقن الإنسان بالشيء المادي وأحيانا بالشيء الروحاني، وأحيانا يوقن بالشيء ومع ذلك يقع في الشكوك

والشبهات عند أدنى ابتلاء، وأحيانا يظن أن عنده اليقين، ولكنه لا يدرك أن يقينه ليس قويًا غيرَ متزعزع. فهناك قصة شهيرة عن فتاة اسمها ميسيتي: مرضت الفتاة ذات مرة مرضا شديدا، وتدهورت صحتها جدا، فأخذتْ أُمُّها تدعو الله تعالى قائلة: رب إذا كان مَلَكُ الموت سيقبض روحًا لا محالة، فليقبضْ روحي عوضًا عن روح بنتي. وتصادف أن انفلتتْ بقرتُها من رباطها وذهبت تشمّ الأواني الموجودة في فناء البيت، فوجدت في جرّةٍ طحينًا فأدخلت فمها فيها وبدأت تأكل الدقيق، ثم لما حاولت أن تخرج فمها من الجرة علقتْ برأسها، فأخذت تجري في الفناء فزعًا، فاستيقظتْ والدة الفتاة، فلم تدرك أنها البقرة، بل ظنّتها مَلَكَ الموت الذي جاء لقبض الروح، إذ كانت تدعو الله تعالى أن يقبض ملك الموت روحها بدل روح ابنتها. فلما رأت الموتَ محدقًا بها قالت بصورة عفوية: أنا لستُ ميسيتي يا مَلَك الموت، إنما أنا عجوز فقيرة مسكينة، أما ميسيتي فإنها مستلقية بالداخل، فاذهبْ واقبضْ روحها هي.

فترى أن هذه المرأة كانت موقنة في زعمها أنها مستعدّة للتضحية بنفسها من أجل ابنتها، ولكن يقينها هذا لم يثبت حين رأت الموتَ ماثلاً أمامها، بل نسيتْ دعوى مَحَبّتها لابنتها فورًا. كذلك يظنّ الإنسان أحيانًا أن عنده اليقين، ولكن يقينه لا يكون مما يثبت أمام الاختبار، بل إن ما يعُدّه يقينا إنما هو خداع نفسه. لا شك أن النبي ﷺ قد تيسر له اليقين الكامل، ولكن كيف علم أن عنده اليقين الكامل الذي لن يتزعزع أمام أي اختبار مهما عَظُم. ما كان النبي ﷺ ليدرك ذلك إلا إذا تحوّلَ هذا الأمر الغيبي إلى أمرٍ واضح بيّن، وثبّته الله تعالى بتجلّياته المتتالية على مقام لا يمكن أن تتزعزع منه قدمُه. وحيث إن اليقين الكامل بالأمور التي تفوقُ الإدراك الإنساني لا يتيسر إلا بالتجلي الرباني فثبت من هذه الآية قطعًا أن الله تعالى كان قد تجلّى على النبي ﷺ حتى ذلك الوقت بتجلّياته المتواترة، وقد رأى ﷺ من الشواهد اليقينية التي أيقن بها أنه قد شاهدَ التجلّياتِ الإلهية المتواترة كما شاهدَ الأرض والشمس والسماء، مما لا يمكن بعده أن يُنزَع هذا اليقين من قلبه. وما دام الأمر هكذا فكيف يمكن أن لا يقول الله له ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟ أي

يا محمد تعلم جيدًا أننا قد شرحنا لك صدرك. إذن، فهذه الآية لا تخبر عن انشراح صدر الرسول ﷺ فحسب، بل تبيّن أمرًا إضافيا بأن أمر النبوة كان قد اتضح له ﷺ نتيجة التجليات الإلهية بحيث كان مستعدًّا لأن يعلن للناس: لا شك أنني سأواجه المحن والصعاب، ولكن مِن المحال أن يقضي عليَّ أحد أو أن تزعزع النوائب قدمي. وقد أكّدت الأحداث الآتية أيضًا أنه كان متحليًا بهذا النوع من اليقين، وأن التجلّيات الإلهية قد ثبَّتّه على مقام لا يمكن زعزعته عنه بحال من الأحوال. وأقدِّم على ذلك سبعة أمثلة:

أولاً: حواره مع أبي طالب: لقد أتاه كبار مكة وقالوا له جئناك لتبلّغ ابن أخيك أنه إذا كان يرغب في المال جمعنا له المال ليصبح أغنى العرب، وإذا كان يريد زوجة جميلة زوّجْناه بأجمل فتاة بين العرب، وإذا كان يريد حكمًا ورئاسة رضينا به مِلِكًا علينا. نحن مستعدّون لتلبية كل رغبة له شريطة ألا يذكر آلهتَنا بسوء. فلو كان عند النبي ﷺ ذرة من التذبذب في دعواه أو لو كان عنده شيء من الطمع لفرح بعرضهم وقال: ها قد تحقَّقَ مطلبي؛ لقد كنت أريد الثروة فوجدتها، وكنت أريد زوجة فقد عرضوا عليّ أجمل فتاة، وكنت أرغب بالسيادة فسوف أنالها الآن، فما الحرج لو امتنعتُ عن ذكر آلهتهم بسوء؟ ولكنه ﷺ لم يرُدّ عليهم بهذا، و لم يقل لهم حسنًا، إني أقبل عرضكم، فأعطوني المال والرئاسة والفتاة الجميلة أمتنعْ عن ذكر آلهتكم بسوء. كلا، بل قال لعمّه: واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركتُه. (السيرة النبوية لابن هشام: مبادرة رسول الله ﷺ قومه)

ما أدلَّ هذا الحادثَ على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾! فقد حاولوا إغراءه بأكبر المغريات، ولكنه ﷺ لم يبالِ بها مطلقًا، بل قال لا أبرح المهمة التي بعثني الله بها إلى آخر نَفَسٍ فيَّ، ولن أحيد عنها وإنْ وضع أهل مكة الشمس في يميني والقمر في يساري.

ثانيا: حادث الهجرة: إن خروج النبي ﷺ من بيته عند الهجرة يشكّل دليلاً قويا آخر على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. لقد علم النبي ﷺ أن الكافرين يحاصِرون بيتَه لقتله، ولكن الله تعالى كان أخبره بأن هؤلاء لن يتمكنوا من قتله مهما دبروا من مكائد، لذا خرج ﷺ من بيته مطمئنًا دونما خوف ومرَّ بكل شجاعة من أمام صفوف المحاصرين. فلو كان مكانه شخص آخر لأُصيب بالهلع وخذلتْه رجلاه و لم يدرِ ما يفعل؟ (السيرة النبوية لابن هشام: خروج النبي ﷺ واستخلافه عليًا على فراشه ص ٤٨٢-٤٨٣)

لقد سمعتُ الخليفةَ الأول ﷺ يقول إنه قرأ في رواية -ولكني لم أعثر على هذه الرواية في أي مرجع حتى الآن- أن أحد هؤلاء المحاصرين اعترف فيما بعد قائلاً: لقد رأيتُ شخصا يخرج من بيت النبي ﷺ، ولكني ظننت أنه شخص آخر، فاختفيت حتى لا يراني ويخبر محمدًا أن هناك قومًا خارج بيته يريدون اغتياله. والحق أن الكفار لم ينتبهوا إلى النبي ﷺ وهو يمرّ من أمامهم إلا لأنه خرج من بينهم بكل شجاعة واطمئنان وبخطوات ثابتة دونما فزع، فلم يخطر ببال العدو أن الذي خرج من بيته هو محمد ﷺ نفسه. لو كان غير النبي ﷺ لسقط مغشيا عليه برؤية الأعداء المحاصرين، ولكنه لم يكترث لهم مطلقًا. لقد كان على يقين كامل أن الكفار لن يستطيعوا قتله، لأن الله تعالى سيحميه ويفي بوعد العصمة له. إذن، فحادث خروج النبي ﷺ من بيته عند الهجرة دليل هام على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

ثالثا: حادث غار ثور: كان العدو قد وصل فتحة المغارة، فقلق أبو بكر، فقال له النبي ﷺ ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة: ٤٠).. أي لا داعي للقلق ما دام الله معنا. إذ كيف يمكن أن يضرّونا ونحن في معيته تعالى؟ وبالفعل رجعوا خائبين. لا شك أن اليقين الكامل هو الذي جعله ﷺ يقول لصاحبه ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ وذلك في وقت كان العدو قد وصل إلى فتحة المغارة، وكان النبي ﷺ يسمع أصواتهم.

رابعا: حادث غزوة أُحد إذ فرَّ أكثر الصحابة من ساحة القتال نتيجة خطأ بعض منهم. كان العدو البالغ عدده ثلاثة آلاف يتقدم مهاجمًا النبي ﷺ هجومًا شرسًا في وقت لم يبق معه إلا بضعة من أصحابه، ومع ذلك لم يتزحزح النبي ﷺ حتى انفرد ولم يبقَ معه أَحَد. فأصيبت أسنانه المباركة وسقط في حفرة جريحًا. الواقع أن الإنسان يفكر في مثل هذا الموقف في الاختفاء وراء صخرة اتقاءً من صولة العدو الشديدة، ولكنه ﷺ ظل ثابتًا في مكانه ولم يتزحزح عنه، ليقينه أن الكافرين لن يقدروا على قتله أبدًا؛ لأن الله قد وعده بالعصمة من القتل بيدهم قائلا: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس﴾(المائدة:٦٨)، ولا بد أن يتحقق هذا الوعد، ولا بدّ أن يخيِّب العدو في أهدافه. (البداية والنهاية: غزوة أحد)

إذن، فحادث غزوة أُحُد لبرهانٌ ساطع على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

خامسا: حادث وقع في غزوة غطفان: بينما كان النبي ﷺ عائدًا من هذه الغزوة، قرّر أحد الأعداء أن لا يعود إلى بيته إلا بعد اغتياله ﷺ، فبدأ يتتبع جيش المسلمين ويتربص به متحينًا فرصة قتل النبي ﷺ، لكنه لم يجدها إلى أن وصل الجيش قريبًا من المدينة. وحيث إنها كانت منطقة إسلامية فلم يأخذ الصحابة الحذر الكافي وانتشروا وقت الظهر يستريحون تحت الأشجار. فانتهز العدو الفرصة وتسلّلَ إلى الشجرة التي كان النبي ﷺ يستريح تحت ظلها، فأخذ سيفه المعلّق بالشجرة، وأيقظه قائلا: مَن يمنعك مني؟ فقال ﷺ وهو مستلقٍ بكل اطمئنان ويقين دونما تردُّدٍ: الله. لو قلتَ هذه الكلمة البسيطة في الظاهر أمام عدوك فلن يتأثر بها كثيرًا، ولكن النبي ﷺ قد قالها بإيمان كامل ويقين قوي، فلم يسمع العدو من النبي ﷺ اسم الجلالة فحسب، بل كأنه وجد الله واقفًا بجنبه ﷺ، فارتجفت يده وسقط السيف فحمله النبي ﷺ فورًا وقال له: أخبرْني الآن من يمنعك مني؟ فقال ارحمني أنت. فقال ﷺ من المؤسف أنك لم تتعلم مما سمعتَ مني، إذ كان بوسعك أن تقول كما قلت: الله يمنعني، ومع ذلك لم تفعل. (البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع). وهكذا قد أقام النبي ﷺ الحجة على العدو، وأخبره بعَمله أنه لم يقل الله تعالى

تكلّفًا، إذ لو قاله تكلّفًا لكان بإمكان العدو أيضا أن يقولها تكلّفًا، ولا سيما أنه قد رأى النبيَّ ﷺ قد أعربَ عن ثقته بالله تعالى فحماه الله ونجّاه، ومع ذلك لم يستطع هذا العدو أن ينطق بلفظ الجلالة بلسانه كما فعل النبي ﷺ، مما يشكل دليلا على أن الإنسان لا يستطيع عند الفزع أن ينطق باسم الله ولو تكلّفًا، وإنما ينطق بها في مثل هذا الموقف إذا كان الله تعالى قد سرى في كل ذرة من كيانه، وأيقن الإنسان أن ربه لن يخذله أبدًا، وذلك بناءً على أدلة يقينية هي أقوى من وجود الشمس. إذن، فهذا الحادث لدليل ساطع آخر على انشراح صدر النبي ﷺ.

المثال السادس: حادث غزوة الخندق: لقد جاء العدو وحاصر المدينة وقد رسمتْ سورةُ الأحزاب هذا الموقف أروعَ رسم، حيث كان العدو يرى أنه قد قضى على المسلمين بينما كان المؤمنون يقولون لقد تحققَ ما نبّأنا الله به ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٣). فما خاف المسلمون وما فزعوا، بل قالوا فرحين بأن وعد الله قد تحقق. هذا دليلٌ ساطع على انشراح صدر رسول الله ﷺ، إذ لولا هذا الانشراح عنده ﷺ لما كان عند أتباعه هذا اليقين غير العادي بتحقق وعود الله تعالى. كان العدو يحاصرهم من كل طرف ولكنهم كانوا يستبشرون بأن أنباء الله قد تحققت.

المثال السابع: قبل وفاة النبي ﷺ بفترة جاءه مسيلمة الكذّاب مع قبيلته التي كانت أكثر قبائل العرب عددًا وقوة. وقال كبار قومه للنبي ﷺ لقد آمنّا بك وبايعناك، ولكن شخصا من قومنا يقول إنه يتلقى الوحي، وأن علينا أن نؤمن به أيضا، وقد جئناك به لتتم بيننا اتفاقية كي لا تتفاقم هذه الفتنة. وكان الله تعالى قد أخبر النبي ﷺ أن أجله قريب، فدعا مسيلمة وقال له ماذا تريد؟ قال مسيلمة أَخبِرْني أنت أولاً ماذا تريد؟ قال ﷺ إنما أريد أن تؤمنوا أني رسول الله وتطيعوني. قال نحن نؤمن أنك رسول الله ولكننا نريد أن تجعلني خليفة بعد وفاتك أو حين لا تكون عندك رغبة في هذا الأمر، وقد قال ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن له أولاد ذكور يرثونه. ومع أن مسيلمة اشترط على النبي ﷺ شرطًا ليّنًا جدًا في زعمه من أجل الاتفاقية، وكان برفقته مائة ألف جندي، إلا أن النبي ﷺ أخذ قشة وقال له: لن

أعطيك هذه ناهيك عن خلافتي، وسوف يفعل الله في أمري ما يشاء.. أي أنه تعالى سوف يقيم مَن يشاء خليفةً مِن بعدي، ومَن أنت حتى تتدخل في هذه الأمور؟ فرجع مسيلمة غاضبًا، وارتد عن الإسلام مع قبيلته. وعندما توفي النبي ﷺ خرج مع مائة ألف جندي من قبيلته وشنَّ على المسلمين هجوما شرسًا لم يسبق له نظير. لقد استُشهد الصحابة في هذه المعركة بأعداد كبيرة جدا ورجعوا منهزمين. فأمر أبو بكر ؓ قادة الجيش المنهزم ألا يقابلوه. هذه العقوبة التي فرضها عليهم أبو بكر تكشف مدى صدمته بهذه الهزيمة. (السيرة لابن هشام: قدوم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب، والبخاري: كتاب المغازي)

فلِمَ لَمْ يبال النبي ﷺ بهذا الخطر الحقيقي الذي كان يتهدّده من قِبل مسيلمة وقومه في حالة ارتدادهم، وإنما أخذ قشة وقال له أنت تريد الخلافة بعدي، وأنا لن أعطيك هذه القشة أيضًا. إنها أمانة ربانية وسوف تصل إلى من هو أهلها؟

باختصار، إن حياة النبي ﷺ من بدايتها إلى نهايتها كلها برهان ساطع على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. لقد تحلى في كل موقف بيقين راسخ بذات البارئ تعالى، كما رأيناه متجليًا في حادثة مسيلمة الكذاب. لقد فكّر النبي ﷺ أن الله تعالى ما دام قد أخبر أن أبا بكر سيكون خليفة بعدي فما قيمة مسيلمة إزاءه؟ فرفض مطلبه بشدة غيرَ مكترث بالصعاب والمحن المترتبة على هذا الرفض.

لا جرم أن الأمثلة التي ضربتها تتعلق بعضُها بفترة ما قبل نزول هذه الآية، ولكن قصدي مِن سردها أن حياة النبي ﷺ كلها كانت برهانا ساطعا على أن الله تعالى كان قد شرح صدره للإسلام ولأحكامه منذ البداية إلى النهاية.

والمعنى الثاني للشرح هو الحفظ، وعليه فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني ألم نجعل صدرك محفوظا؟ الصدر – أي الدماغ- مخزن تجارب الإنسان حيث يحفظ فيه كل عمل يعمله. يقول النبي ﷺ إنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يُغلَفَ قَلْبُهُ (الطبري، سورة البقرة: القول في تأويل قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم...)

أي أن الإنسان إذا عمل عملا حسنا كان في قلبه نكتة بيضاء، أي يترتب على عمله النتيجة الطبيعية علاوةً على النتيجة الشرعية، حيث توضع على قلبه علامة نورانية فيصبح قادرا على فعل المزيد من الخيرات، ومَن عمِل سيئةً ترتبت عليه النتيجة الطبيعية علاوةً على النتيجة الشرعية، حيث توضع على قلبه علامة سوداء فيسهل عليه فعل السيئات، وتستمر هذه الحالة إلى أن يصبح قلبه كله أسود أو كله أبيض. وهذا ما يشير الله إليه في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، واللام في قوله ﴿لك﴾ للفائدة، والمراد أننا قد جعلنا صدرك محفوظا لتلقّي الأمور الروحانية النافعة لك، بمعنى أنه لا يمكن أن يؤثر في قلبك أي حافز من حوافز السيئات؛ لأن الله تعالى أراد أن يصبح صدرك محفوظا للحسنات. وقد فسّر النبي ﷺ هذه الآية بنفسه إذ قال عن الشيطان: "إن الله أعانني عليه فأسلمَ، فلا يأمُرني إلا بخير" (مسلم، كتاب صفة المنافقين، باب تحريش الشيطان). بمعنى أن الله تعالى قد حفظ صدر الرسول ﷺ من أجل الأمور النافعة له، فمن المحال أن يدخل في صدره ما يضره، ولو دخل فيه صار خيرا، كما يقال عندنا: كل شيء يذهب في منجم الملح يصبح ملحًا. فما أعظمَ المقامَ الذي تبوّأه الرسول ﷺ! فكانت كل فكرة تخطر بباله حسنةً، ولو واجهته السيئة انقلبت حسنةً. فعندما رماه أهل الطائف بالحجارة وسلطوا عليه السفهاء لم تتولد في قلبه مشاعر الحزن والغضب، بل أخذ يدعو الله تعالى "رَبِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".. أي ربّ لا تغضبْ على شرّهم فأنهم لا يعلمون أنني مرسل إليهم. (مسلم، كتاب الجهاد والسير)

ما أروعَه من نموذج للخير! إن الحديث عن العفو باللسان سهل، ولكن أن يعفو الإنسان عمن يرمونه بالحجارة ويحرّضون عليه الغوغاء وأن يدعو لهم، فهذا لا يفعله إلا المقربون عند الله تعالى. وكان محمد رسول الله ﷺ أفضل المقربين، وإلى هذا الأمر أشار الله بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي أليس صحيحا أننا قد جعلنا صدرك محفوظا لك مِن كل شر، فلا يدخل فيه إلا ما هو خير؟ أوَليس هذا دليلا على أن إصلاح الدنيا لن يتم إلا بواسطتك؟ وكما أن الشيطان قد مُنع مِن أن يدخل في صدرك كذلك ستتسبب في صدّه عن الدخول في صدور الآخرين. ما

أروعَه وأوضحَه من دليل! فالبصير هو الذي يهدي العميان، وأنّى للأعمى أن يهديهم؟ والحق أنه لا يمكن أن يهدي العالَمَ هدايةً كاملة إلا مَن جعل الله صدره محفوظا من تأثير الشيطان، إذ من الصعب أن يرفض قوله مَن يميل إلى الخير؛ لأن قطعة الحديد لا يمكن أن تظل بعيدة عن المغناطيس، ولأن الطيور على أشكالها تقع.

والمعنى الثالث للشرح هو التفهيم، وعليه فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. يعني أننا ألقينا في قلبك حقائق الأشياء وفهّمناك إياها كالمعلّم. بمعنى أن الله نفسه قد علّم النبي ﷺ وفهّمه حقائق الدين. وهذا الموضوع واضحٌ بيّن، فمَن كان الله معلِّمَه فهو الذي يكون معلِّمَ العالم الروحاني. لقد ظهر النبي ﷺ حين كانت الدنيا تجهل الحقيقة الروحانية، وكانت بحاجة إلى أن يُعلِّم الله بنفسه أحدًا كالأستاذ، ليكون هذا أستاذا للعالم، وهذا ما تشير إليه هذه الآية. يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ألم نعلّمك بنفسنا الحقائق الروحانية؟ وما دام الله تعالى قد أنزل على قلبك حقائق الأشياء فمن ذا الذي يهدي الضالّين سواك؟ أو كيف يمكن أن تفشل في مهمتك؟ لأنّ فشل التلميذ فشلٌ لأستاذه. إذا فشلتَ فهذا يعني أن الله الذي علّمك وبعَثك لإصلاح الدنيا هو الذي قد فشل! وهذا محال؛ فلا بد أن يكون النجاح حليفك.

ولقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ مفهوم آخر، وهو دليل ساطع على عظمة النبي ﷺ وسموّ درجته، وبيانُه أن العلوم في الدنيا نوعان؛ علم خارجي وعلم داخلي، ولا يكتمل العلم إلا بهما. وهذا أمر هام في علم النفس يجهله كثير من الناس. يظن الناس أن العلم الخارجي هو الأصل، مع أن العلم الخارجي محدود جدا ولا يكتمل بدون العلم الداخلي. ومثاله أنني ألقي الآن درس القرآن، ويوجد بين الحضور مَن آتاه الله الفهم والإدراك، وفجَّر في صدره نَبْعَ علم القرآن، فعندما يستمع إلى درسي فلا ينقل للآخرين ما أقوله فحسب، بل يستطيع أن يبين كثيرا من المعارف الإضافية التي لم أستطع بيانها لضيق الوقت. كما يوجد بين المستمعين مَن يستطيع أن ينقل للآخرين ما سمعه مني، ولكن ليس عنده من الكفاءة الفكرية ما يستنتج به نقاطًا جديدة. ثم يوجد بين الحضور مَن لا يستطيع نقل كل ما سمعه

في الدرس، بل ينقل ثلثيه أو ثلاثة أرباعه، ومنهم من ينقل نصفه، ومنهم إذا سألتَه ماذا سمعتَ في الدرس قال سمعتُ تفسيرا رائعًا للقرآن غير أني لا أحفظ منه شيئا.

كان المسيح الموعود عليه السلام قد بدأ ذات مرة سلسلةً من الخُطب بين النساء، وبعد فترة فكَّر أن يمتحنهن ليعرف إذا كن يفهمن ما يسمعنه أم لا. وكانت بينهن سيدة مخلصة من منطقة اسمها "نابه"، فقال عليه السلام أتحضرين خُطبي التي ألقيها بين النساء؟ قالت نعم أنا كل يوم أستمع لخطابك، ولم أحضر هنا إلا لهذا الغرض. قال حسنًا أَخبِريني ماذا قلتُ فيها؟ فقالت: كنت تتحدث عن الله ورسوله. لقد أجابت بهذا الجواب إذ لم يكن عندها علمٌ داخلي، وإنما اعتمدتْ على ما عندها من علم خارجي، وظنتْ أنها تفهم كثيرا، مع أنها لم تكن تفهم شيئًا. فثبت أن من المستحيل بدون العلم الداخلي أن ينقل المرء الأمرَ للآخرين بشكل صحيح. فعندما يتناول المرء في درسه أو خطابه موضوعا يضطر لعدم ذكر بعض جوانبه دائمًا، إذ لو بيّن جوانبه كلها لانقضى عمره كله في بيان ذلك الموضوع بدون أن يكمله، ولأجل ذلك لم يكنْ بيان أي إنسان كاملا حتى اليوم. إذ كل ما يذكره يكون كبذرة ينتفع كل إنسان منه حسب استعداده وكفاءته. وبالمثل عندما ينزل كلام الله من السماء فلا يعني للبعض إلا بقدر كلماته أو نصفها، ولكنه يكون للبعض بمنزلة البذرة أو النواة التي تصبح فيما بعد دوحة كبيرة تتفرع منها فروع كثيرة من العلوم، فتنكشف عليهم معارف جديدة كثيرة. وهذا ما يشير إليه الله تعالى بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي أن صدرك بمنزلة الأرض الخصبة لهذا الكلام. إن القرآن بمثابة النواة، فإذا دخل صدرَك أصبح شجرة. لو كان صدرك بقدر النواة لم تفهم من القرآن إلا كلماتٍ، ولكن الله تعالى بعثك لإنجاز مهمة كبيرة جدًا وأرسلك لتقوم بتفسير القرآن وشرح أحكامه وتبيين معارفه وحقائقه للدنيا، وكان هذا يتطلب أن يكون صدرك واسعًا ليزداد فيه العلم الذي أنزلناه عليك باستمرار، وتنبع منه معارف جديدة وتنكشف منه حقائق متجددة. ألستَ شاهدا على أننا قد زودناك بهذه الكفاءة، فإذا نزلت عليك آية انكشف عليك كل ما يتعلق بها؟ وإذا نزل عليك حكم انكشفت عليك دقائقه وغوامضه وعرفتَ فورًا أين يمكن انطباقه

وأين لا يمكن. وهذا يعني أن الله تعالى قد زود النبي ﷺ بعلم داخلي علاوةً على العلم الخارجي، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي: ألم نعطك علمًا داخليا علاوة على القرآن الكريم. لقد ذكرتُ آنفًا أن التلاميذ كلهم سواسية فيما يتعلق بالعلم الخارجي، ولكن كفاءاتهم متفاوتة فيما يتعلق بالعلم الداخلي، وكلٌّ منهم ينتفع من العلم الخارجي بحسب كفاءاته الداخلية. كانت أحكام الإسلام الواسعة بحاجة إلى صدر واسع يستوعب كل أنواع العلوم ويشرحها وينشرها في العالم، وحيث إن العلم الموهوب للنبي ﷺ كان واسعًا جدًا، فكان بحاجة إلى صدر يستوعب كل جزئية منه ويشرحه ويوسّعه إلى أبعد الحدود، ذلك أن البعض لا يكون علمهم إلا بقدر الكلمات، بينما يوجد هناك من ينالون علمًا واسعا بكلمات وجيزة ويوسّعونه أيّما توسيع. وهذا ما يُسمَّى التفقُّه، وهو شيء غالٍ جدا. إن بعض الناس يعترضون على الإسلام قائلين إن كذا وكذا من أحكامه ليس في القرآن الكريم، فمن أين أتى به رسول الله ﷺ؟ إن هؤلاء جهال لا يدرون أن النبي ﷺ كان متفقهًا، وأنهم ليس عندهم أي تفقه، فكيف يمكن أن يتيسر لهم من القرآن الكريم ما تيسر للرسول ﷺ من علوم ومعارف؟ إنني أتفق مع الجكرالويين✦ فيما يتعلق بالحقيقة الأساسية كل الاتفاق، ولكن أعتبرهم مجانين فيما يتعلق بالشرح. لا شك أن كل شيء في القرآن الكريم وليس خارجه شيء، ولكن من الهراء والسخف اعتبار عبد الله الجكرالوي ومحمد رسول الله ﷺ سيّين في فهم القرآن. ويمكن فهمُ هذا الأمر بالقياس على أنفسنا نحن، فهناك آلاف الآلاف من معارف القرآن ودقائقه التي لم تنكشف على الأولين، ولكن الله كشفها علينا نحن المسلمين الأحمديين. فإذا كانت هذه الأسرار والغوامض القرآنية يمكن أن تخفى على الملايين الذين خلوا من قبل، فكيف لا ينكشف على النبي ﷺ معارف القرآن الكريم أكثر منا بملايين الأضعاف. إذن، فكيف يمكن القول أن كذا وكذا من

✦ الجكراليون فرقة إسلامية في القارة الهندية لا تأخذ بالحديث الشريف والسنة النبوية قائلة: كفانا ما ورد في القرآن الكريم فقط. (المترجم)

الأحكام التي أصدرها الرسول ﷺ ليست في القرآن الكريم؟ إن هذه الآيــة دليــلٌ ساطع على أن صدر النبي ﷺ كان بمنــزلة أرض خصبة لنواة القرآن الكريم، فلما زُرعتْ فيها النواة القرآنية أخذتْ في النماء والازدهار، فما كان بمثابة نواة فقــط للآخرين، أصبح دوحة كبيرة في صدر الرسول ﷺ.

باختصار، إن العقل الذي وهبه الله تعالى للنبي ﷺ هو أفضل من عقولنا على كل حال، ولذلك كان من المحال أن يفهم أحد القرآن الكريم كما فهمه الرســول ﷺ. فإننا نرى في العالم المادي أيضا أن نماء البذرة يتوقف على صــلاحية الأرض الــتي تزرع فيها، فالنخل مثلاً لا تنبت عندنا، كما تنبت في أرض العــرب، ذلــك أن أرضهم أصلح لزراعة النخل. وكذلك الشمام لا يكــون جيــدا في كــل أرض، فالشمام المزروع في منطقة الجمياري البنجابية أفضل نوعية مما يــزرع في منــاطق أخرى. فكما أن جودة الثمار المادية تتوقف على صلاحية الأراضي المختلفة، وكما أن البذرة المزروعة في أرض خصبة يكون ثمرها أعلى جودة من البذرة المزروعة في أرض رديئة، وكما أن بعض الأراضي تتّسم بميزات خاصة لإنبات ثمــار معينــة، كذلك فإن أفضل أرض أعدّها الله لزرع شجرة القرآن هي صدر محمد ﷺ. وكيف يمكن أن تكون الشجرة القرآنية المزروعة في تلك الأرض مثل الأشــجار القرآنيــة المزروعة في أراض أخرى؟ لا شك أن هناك أشجارا قرآنية جيدة أخرى، ولكنــها كلها أظلال للرسول ﷺ. إن التابع الكامل أو الأدنى سوف يقدم ثمر القرآن الكريم أمام العالم حسب كفاءته وصلاحيته. إن الثمرة القرآنية التي يقدمها التابع الكامــل للنبي ﷺ تكون أفضل نوعية من الثمرة القرآنية التي يقدّمها التــابع الأدنى. فــإذا زرعت شجرة المانجو مثلاً في أرض فسوف تنبت بكل حال، ولكن نوعية ثمارهــا ستكون بحسب نوعية الأرض التي زُرعت فيها؛ فإذا كانت الأرض خصبة كانــت الثمرة أعلى جودةً، وإذا كانت الأرض أدنى خصوبة كانت الثمرة أدنى جودة. إن الثمرة ذات الجودة العالية تتطلب أرضًا عالية الجودة في كــل حــال. إن القطــن الأمريكي ينبت جيدا في منطقة "لويلبور"، ولكن لا يكون عالي الجودة في منطقتنا. والقطن المصري أعلى جودة من القطن الهندي، ولكنه لو زرع في الهنــد لم يكــن

بنفس الجودة من حيث بياضه ومتانته، ومَن زَرَعه عندنا لم يجنِ الفائدة المرجـوة؛ لأن القطن إذا كان أقلَّ متانةً وبياضًا لم يشترهِ الناس، لأن القماش المصنوع منه لا يكون عالي الجودة ولا متينا بل يتمزق بسرعة. باختصار، إن المحاصـيل المختلفـة تقتضي أراضيَ مختلفة، فكما أن منطقة "مليح آباد" شهيرة بالمانجو الجيد، ومنطقـة "ناكبور" بالبرتقال الجيد في الهند، أو كما أن الزعفران لا يُـزرَع إلا في منـاطق محدودة جدا في العالم، كذلك لا تنبت شجرة القرآن لتؤتي أجـود ثمارهـا إلا في صدر محمد ﷺ. وهذه هي الحقيقة التي بينها الله تعالى في قوله ﴿أَلَمْ نَـشْرَحْ لَـكَ صَدْرَكَ﴾.

ومن معاني شَرَح: شَقَّ وحَرَث، وعليه فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني يا محمد، ألم نحرث أرض صدرك لنُعِدّها لزرع القرآن الكريم فيها؟ فكمـا أن الزروع المادية بحاجة إلى أرض ملائمة تُعَدّ لها جيدًا، كذلك ما كان لنا أن نحـرث لزرع القرآن إلا أرضًا ملائمة له، فوجدنا أن صدرك هو الأرض الملائمة للقـرآن الكريم، فحرثناها وأعددناها له، وسترى الدنيا الآن كيف تؤتي هذه الأرض ثمـارا رائعة. وما دام الحارث والزارع هو الله ﷻ والأرضُ هي صدر محمد ﷺ، فكيـف يمكن إنكار جودة هذا الزرع؟ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

باختصار، إن قوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني أن الله تعالى قد وهب لمحمد ﷺ علمًا لَدُنِّيًا -علاوةً على إنزال القران عليه- يمكِّنه من استيعاب كـل مـا في القرآن من علوم وتوسيعها إلى أقصى نطاق من خلال التفقه والاستنباط، فيعلِّم بها المسلمين دينهم.

وسَعَة العلوم القرآنية لأمرٌ عجيب. فالكتاب الذي نزل على الـنبي ﷺ لعظـيمٌ حقًا، إذ ليس هناك علم من مبادئ الاقتصاد والمدنية والسياسة والأمور الاجتماعية والميراث ودقائق الأخلاق والعبادات والمعاملات إلا ويوجد فيه مع أدقّ تفاصـيله. ليس هناك فرع من فروع العلم الذي يمكن أن يخطر ببال إنسان والذي هو ذو صلة مباشرة بالدين إلا ويوجد في القرآن أحكام مفصلة بصدده. أما العلوم التي ليـست

ذات صلة مباشرة بالدين فقد تناولَها القرآن أيضًا بشكل إجمالي. وإن شرح صدر النبي ﷺ بصدد كتاب عظيم كالقرآن لأمرٌ خارق بحد ذاته حقًا. فأولاً إن الكتاب الذي نزل عليه كتاب غيرُ عادي وجامع للعلوم كلها. من الممكن أن يكون هناك شخص ذكي شغوف بالقضايا الاقتصادية قد قرأ كتابا في علم الاقتصاد، فتفجرت ينابيع علم الاقتصاد من صدره. وقد يكون هناك شخص مولع بالأمور السياسية فقرأ كتابا في السياسة، فانشرح صدره لهذا المجال، فأتى بأمور مبتكرة في المجال السياسي. وقد يكون هناك شخص مولع بالقضاء وسنحت له الفرصة في المعاملات القضائية، فنبغ في القضاء لانسجام فطرته معها. ومن الممكن أن يكون شخص ذا طبع عسكري، فقرأ كتابا حول قواعد العسكرية والتعامل مع الأعداء، فابتكر قواعد رائعة في مجال العسكرية. ويمكن أن يكون هناك خبير بالأمور الاجتماعية فقرأ كتابًا حول مبادئ الاجتماع يبين أحكامًا حول الآباء أو الأبناء والأنساب والأصهار والأزواج والأصدقاء، فتدبّر في هذه العلاقات فخطرت بباله أمور جديدة في هذا المجال، لِما يوجد بين فطرته وهذا العلم من انسجام فطري. إن كل هذه الاحتمالات واردة، ولكن هناك أمران غير قياسيين وغير عاديين فيما يتعلق بالنبي ﷺ، أوّلُهما أن الكتاب الذي نزل عليه ﷺ كتاب جامع يبحث في كل علم بحثًا متكاملا من كل النواحي بحيث لا يمكن الزيادة عليه، فهو لا يبحث في السياسة ولا في القانون الدولي ولا في الأخلاق ولا في علم النفس فحسب، بل فيه تعاليم في كل مجال وعلم، فهو يبحث في العبادات والاقتصاد وحقوق الأستاذ والتلميذ والأب والابن والسيد والخادم كما يبحث في العلاقات الدولية والحرب والصلح وغيرها. باختصار، إن الكتاب الذي نزل على الرسول ﷺ كتاب غير عادي. وثانيًا هناك مسؤولية ألقيتْ عليه ﷺ بصدد هذا الكتاب غير العادي، وهي أن تتحول كل جزئيات هذا الكتاب إلى شجرة عظيمة في صدر النبي ﷺ، مما يعني أن القرآن الكريم كان بمنزلة نواة يجب أن تتحول إلى شجرة عظيمة في صدره ﷺ، وهو أمرٌ أكثرُ غرابةً، وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. والأمر الذي شرح الله صدر نبيه من أجله محذوفٌ، وليس هذا المحذوف إلا القرآن؛ وكأن

العبارة كالآتي: "ألم نشرح لك صدرك للقرآن." لو بيَّن المرء مضامين القرآن التي هي من قبيل دلالة النص فهذا في حد ذاته أمر غير عادي، ولكن الرسول ﷺ لا يكتفي ببيان علوم القرآن التي هي من قبيل دلالة النص، بل يبين أيضًا الأحكام التي هي من قبيل إشارة النص، ثم إنه يذكرها بأدقّ تفاصيلها التي ليست بمتناول العقل الإنساني، وهذا أمر خارق لا يقدر عليه إنسان إلا بفضل الله وبركته. فإننا نجد بعض كبار العلماء قد بحثوا في علم قراءة القرآن فقط، وبعضهم في لغة القرآن فقط، وبعضهم في قضاء القرآن فقط، وبعضهم في الاقتصاد في القرآن، فسُمّوا علماء أفذاذًا، أما الرسول ﷺ فلم يتناول هذه العلوم مع كل جزئياتها فحسب، بل وسّعها وفصّلها وشرحها شرحًا غير مسبوق من أي إنسان. وهذا ما قد أشار الله إليه بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهذا ما قد أشير إليه في الأحاديث التي تتحدث عن شقّ صدر النبي ﷺ. لقد روى أقارب الرسول ﷺ من الرضاعة أنه كان يلعب خارج البيت ذات يوم حين كان عند مُرضِعه حليمة التي تقول: جاء أحد إخوته من الرضاعة يعدو فزعًا ونادى: يا أَبتِ ويا أُمَّه: "الحَقَا أخي محمدًا، فما تلحَقانه إلا ميتًا. قلتُ ما قضيتُه؟ قال بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاختطفه مِن وسطنا، وعلا به ذروةَ الجبل ونحن ننظر إليه، حتى شقّ صدره إلى عانته، ولا أدري ما فعل به. فانطلقت حليمة تسعى، فوجدت النبي ﷺ قاعدًا فقالت له: ما الذي دهاك؟ قال: بينا أنا قائم إذ أتاني رهط ثلاثة فشقوا صدري وغسلوا قلبي وأعادوه في مكانه وذهبوا (السيرة الحلبية: الجزء الأول ص ٩٤، ذكر رضاعه وما اتصل به). وفي رواية أنه كان على صدر النبي ﷺ أثر الشق. وفي رواية أخرى في حادث المعراج أن ملاكًا جاءه وشقّ صدره وأخرج قلبه وأعاده في مكانه بعد أن أخرج منه الشوائب. (الروض الأنف: الجزء الأول ص ٢٩١).

إن عامة المسلمين يقدمون هذا الحادث باعتباره معجزة جسدية، ولكنهم لو تدبروا لوجدوا أن ما يقولونه لا يزيد في عظمة هذه المعجزة، بل ينقصها. فالسؤال الأول هنا: ما هي تلك الشوائب المادية التي كان لا بد من إزالتها؟ فإن الذين يؤمنون بالجن والأرواح يُراعون المعقولية إلى حد كبير في بيان حكاياتها، فيقولون

مثلاً إن الجني أكل كبد فلان في لمح البصر، ذلك أنهم يتصورون -نظرًا إلى ماهية الجن عندهم- أن الجن ليسوا بحاجة إلى الشقّ والبتْر، بل يخرجون كبده ويأكلونه بمجرد النظر إليه. فما دام ضعفاء النفوس هؤلاء يعتقدون أن الجن ليسوا بحاجة إلى شق البطن ظاهرًا فكيف يعتقد هؤلاء عن الملائكة أنها بحاجة إلى الشقّ والبتر. فما دام الملائكة لا يحتاجون إلى شق بطن الجنين لخلقِ أعضائه المختلفة في رحم الأم من رئة وكبد ومعدة وطحال، فكيف يا ترى مسّتْ بهم الحاجة إلى شق صدر النبي ﷺ ظاهرا لتنظيفه؟ فكما أن الملائكة يدخلون في الإنسان بغير شق بطنه ليخلقوا فيه القلب والمعدة والدماغ والكبد وغيرها، كذلك كانوا قادرين على تطهير قلبه ﷺ بدون شق صدره.

والسؤال الذي ينشأ هنا هو: هل الملائكة بحاجة إلى السكاكين لشقّ صدره؟ يتضح من القرآن الكريم أن ملائكة الله تعمل كعلّةٍ وسببٍ في خلق الناس والجبال والأنهار وغيرها من الأشياء، ولكننا نرى أنها لا تحتاج في إنجاز هذه المهام إلى أدوات مادية من مطارق ومناشير ومعاول وغيرها، بل يخلقون كل هذه الأشياء بدون أدوات مادية. فلماذا، يا ترى، كانوا بحاجة إلى سكاكين عند شق قلب النبي ﷺ من أجل تنظيفه؟ لا شك أن هذه الرواية خلاف للعقل؛ إن الملائكة تقوم بما لا يحصى من الأعمال في الدنيا، ولكنها لا تنجزها بهذا الشكل. وحتى ولو فرضنا جدلاً أن هذا الحادث قد وقع في الظاهر، فمع ذلك لم تكن الملائكة بحاجة لشق البطن في الظاهر ولا للسكاكين. إنما أساس هذا الخطأ أنهم اعتقدوا خلافًا لتعاليم الإسلام أن الملائكة بحاجة إلى هذه الأشياء المادية، مع أنه أمرٌ لا يسلّم به هؤلاء في أحداث أخرى. فقد ورد في الأحاديث صراحة أن الملك يدخل في رحم الأم لنفخ الروح في الجنين (البخاري: كتاب القدر)، ولكن متى رأى أحد منهم الملائكة تشق بطن المرأة الحامل؟ فما داموا يعترفون أن الملائكة تقوم بهذه الأعمال بدون شق الصدور وبدون السكاكين، فلماذا يصرّون على أن شقّ صدر الرسول ﷺ كان حادثًا ماديًّا؟ نحن نؤمن أن الملائكة شقّت صدره ﷺ، ونؤمن أنها نظّفت قلبه،

ولكننا نؤمن أيضا أنها قامت بهذه العملية تمامًا كما تخلُق في الإنسان كبده وطحاله وقلبه ورئته وما إلى ذلك.

فالواقع أن هذا الحادث كان كشفًا رآه النبي ﷺ، والمعروف أن الآخرين قد يشتركون أحيانًا في كشف يراه الإنسان. لقد وقع هؤلاء القوم في خطأ اعتبار هذا الحادث ماديًا لأن ابنًا لحليمة قد رأى بعينه حادث شق صدر الرسول ﷺ، فيقولون إذا لم يكن الحادث ماديا فكيف رآه ابن حليمة؟ وأقول في الجواب: إذا كان الصحابة يمكن أن يروا جبريل مع الرسول ﷺ فكيف يستحيل أن يشترك ابن حليمة في رؤية هذا الكشف مع النبي ﷺ؟ فقد ورد في الحديث أن شخصا جاء إلى النبي ﷺ وسأله أسئلة مختلفة، فأجاب عليه النبي ﷺ، ولما ذهب الرجل قال ﷺ لصحابته: أتعرفون مَن هو؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال هذا جبريل قد جاء يعلّمكم دينكم (البخاري: كتاب الإيمان). فترى أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ وقد رآه الصحابة أيضا، فثبت أن هناك مشاهد كشفية يشترك فيها صاحبها وغيره من الناس، ولكن هذا لا يعني أنه حادث مادي .

ثم إننا لا ندري لماذا يعتبرون السكاكين مادية في هذا الحادث، ولا يعتبرون المَلَكَين ماديين؟ لماذا يعتبرون نصف الحادث ماديا ونصفه روحانيا؟

يقولون إن من الأدلة على كون هذا الحادث ماديا أثر الشق على صدر النبي ﷺ (مسلم: كتاب الإيمان). وأنا أقول: هذه العلامة الظاهرة أيضا ليست دليلا على كون الحادث ماديا؛ فقد أرى الله المسيح الموعود عليه السلام آيةً سقطت فيها على ثيابه بقعات الحبر الأحمر ظاهرًا، ولكن هذا لا يعني أن هذا الحادث كان ماديًّا، بل كان كشفًا خلق الله فيه حبرًا ظاهرا أيضًا دليلا على صدق هذا الكشف بأن الله القادر المطلق القدرة هو الذي أراه هذا المشهد (جشمه معرفت -ينبوع المعرفة- الخزائن الروحانية المجلد ٢٣ ص ٤٣٢-٤٣٣). فرغم أن هذا الحادث لم يكن ماديًّا إلا أن الله تعالى جعل عليه علامة ظاهرة، وبالمثل إذا كان على صدر النبي ﷺ علامة ظاهرة للشق، فهذا لا يعني أن الحادث كان ماديًّا أو أنه كانت في قلبه شوائب مادية دعت إلى غسله وتنظيفه.

باختصار، من الخطأ القول أن ما جرى مع النبي ﷺ كان حادثا ماديًّا، كلا بل كان كشفًا أرى الله نبيَّه إياه، وإرساءً لعظمته وحبه ﷺ في أسرة مرضعه حليمة أشرك الله تعالى أحد أبنائها أيضًا في هذا الكشف، إذ علِم الجميعُ من خلال شهادته أنه سيكون لهذا الولد "محمدٍ" ﷺ شأن عظيم، ثم لكي يؤكد الله تعالى لهم أنه هو الذي أراه هذا الكشف جعَل علامة ظاهرة على صدر محمد ﷺ ليكون الجميع شاهدين على هذا الحادث؛ وذلك كما ألقى الله قطراتِ الحبر الأحمر على ثياب المسيح الموعود عليه السلام في الظاهر، ليكون الناس شاهدين على هذه الآية. لا شك أن الروايات الصحيحة لا تذكر وجود علامة ظاهرة على صدر الرسول ﷺ، ولكننا لسنا بحاجة إلى إنكارها، فما دام الله قادرا على خلق قطرات الحبر الأحمر على ثياب المسيح الموعود عليه السلام، فلا غرابة في أن يجعل علامة ظاهرة على صدر النبي ﷺ تأكيدًا لهذا الكشف. ففيما يتعلق بوقوع هذا الحادث على شكل كشف من الكشوف الروحانية، فلا ننكر صحته، ولكن فيما يتعلق باعتباره حادثا ماديا فهذا خلاف للعقل عندنا، وإلا فلزم القول إن الإنسان إذا عمل سيئة كانت نكتة سوداء مادية في قلبه، وإذا عمل حسنة كانت نكتة بيضاء مادية في قلبه، مع أن أخذ هذا الحديث بالظاهر، خلاف الواقع؛ فقد تقدمَ علم تشريح الجثث كثيرًا وقد قام العلماء بتشريح ملايين الجثث وفحص التغيرات الحاصلة في جسد الإنسان نتيجة الأمراض المختلفة، فلو سلّمنا أن السيئة تترك نقطة سوداء مادية في القلب وأن الحسنة تترك نقطة مادية بيضاء فيه لاعتبرنا كثيرًا من المسلمين كفارًا وكثيرًا من الكفار مسلمين، إذ يموت كثير من المسلمين خنقًا ولا بد أن تكون قلوبهم سوداء في الظاهر، أما الهندوس والسيخ وغيرهم الذين لا يموتون خنقًا فلا بد أن تكون قلوبهم بدون هذا السواد.

الواقع أن ما رآه الرسول ﷺ في صغره كان كشفًا؛ لقد جاءه الملاك في حالة الكشف وشقّ صدره وأخرج قلبه وطهّره، ثم أعاده إلى مكانه. لا شك أن هذا الحادث غير مقبول في الظاهر، ولكن قبوله في حالة الحلم أو الكشف ليس بمستبعد مطلقا، إذ يمكن في الرؤيا إخراج عشرة قلوب من الصدر وتنظيفها، دعك من قلب

واحد، ولا غرابة في ذلك لأن الرؤيا بحاجة إلى التأويل دائما. فيمكن أن يرى المرء في المنام شخصًا بعشرة رؤوس، مع أنه لا يكون لأحد عشرة رؤوس في الواقع، وحيث إن المنام بحاجة إلى التأويل، فنؤوّل هذا الحلم وفقًا لظروف الرائي؛ فإذا كان ذا خُلُق فتأويله رجاحة عقله وحدّة ذكائه، لأن الإنسان العادي يفكّر برأس واحد أما هو فيفكّر بعشرة رؤوس؛ وأما إذا لم يكن الرائي على خُلُق حسن فتأويله أنه يفتقر إلى الاستقامة والثواب، لأن رؤوسه العديدة تشير إلى أنه لا يتمسك برأيه، بل يقول قولاً مرة ويغيّره مرة أخرى.

إذن، فيمكن أن يكون لحلم واحد تأويل حسن أو سيئ نظرًا إلى حالة الرائي. كذلك يمكن أن يرى المرء في الرؤيا أو الكشف أن له عشرة قلوب، كما يمكن أن يرى أن قلبه أُخرج من صدره وأن الملاك نظّفه ثم أعاده إلى مكانه.

فالواقع أن عامة المسلمين قد وقعوا في هذا الخطأ لعدم فهمهم حقيقة الكشوف، وإلا فيمكن أن يرى المرء في حالة الكشف على قلبه سوادًا، كما يمكن أن يرى قلبه قد امتلأ نورًا، إنما الفرق أن الرؤيا إذا كانت باطلة فلن يحصل صاحبها على شيء مهما رأى من مناظر عظيمة، أما إذا كانت رؤياه من عند الله تعالى فسوف ينال جزاء وإنعاما. فمثلا إذا رأى المرء أن رأسه أخذ يكبر حتى صار ضخما جدا، فتأويله العلم الغزير والذكاء الخارق (تعطير الأنام: كلمة الرأس)، فإذا كانت رؤياه من الله تعالى فسوف يرى بعد فترة أنه قد ازداد علمًا وذكاءً بالفعل، ولكن إذا كان حلمه من قبيل أضغاث أحلام فلن يجد شيئا. فقد تدخل في أذن البعض نملةٌ وهو نائم، فيرى في المنام أن هناك حربًا والمدافع تنطلق والطبول تدقّ والضجة تملأ العالم كله. وقد يكون في أذنه كتلة من الوسخ، فإذا دخل الهواء في أذنه وحرّك الكتلة وهو نائم رأى أن البرق يلمع والسحاب يرعد والبرد ينزل وأن هناك دمارا شمل العالم كله، مع أن كل ما في الأمر هو هذه الكتلة من الوسخ. كذلك قد يلسع الزنبور المرءَ وهو في نوم عميق، فيرى في المنام أن رأسه قد تضخم، وفي هذه الحالة ليس تأويلُ ضخامةِ الرأس رجاحةَ العقل، بل كل ما في الأمر أن زنبورا قد لسعه وهو نائم، فشعوره غير الواعي قد صوَّرَ له الأمر على هذا النحو.

مرة جاء إلى قاديان شخص وقال: إذا كان مؤسس الأحمدية يتلقى وحيًا أن له مكانة عظيمة عند الله، فإن الله تعالى يقول لي أيضا كل يوم: أنت موسى وعيسى ومحمد. وحاوَلَ الناس وعظه ولكنه لم يتعظ حتى ذُكر عند المسيح الموعود عليه السلام فقال: ائْتوني به، أو قال قولوا له: إذا كان الله تعالى يخاطبك قائلاً: أنت عيسى، فهل يعطيك آية خلق الطير كما أُعطيَها عيسى، أو هل تحيا الأمواتُ على يدك كما كانت تحيا على يده؟ وإذا كان الله تعالى يقول لك: أنت موسى، فهل يمنحك اليد البيضاء كما منحها إياه؟ أو حين يناديك الله قائلا: يا محمد، فهل يشرّفك بمقام ﴿دَنَا فتَدَلَّى * فكان قابَ قوسينِ أو أدنى﴾(النجم:٩-١٠) كما شرّف به محمدا ﷺ، أو هل يهب الله لك آية الفصاحة والبلاغة كما وهبها للنبي ﷺ؟ فقال الرجل: لا أجد مثل هذه الآيات. فقال المسيح الموعود عليه السلام: فاعلم أن الله لا يكلّمك، بل الشيطان هو الذي يقول لك أنت عيسى وموسى ومحمد، إذ لو وهبك الله تعالى هذه المكانة لأنعم عليك بالنعم اللائقة بها أيضًا.

كذلك يمكن أن يرى أيُّ إنسان أن صدره قد شُقَّ وأن قلبه قد نُظِّف وأعيدَ إلى مكانه، إلا أن صدره سيظل ضيقا، أما الذي يطهِّر الله قلبه حقًا ويعيده إلى صدره بالفعل فيصبح صدره أوسع آلاف المرات. فلو كانت شهادة أخٍ للنبي ﷺ من الرضاعة عن شق صدره باطلة فكيف شُرِح صدره فعلا؟ كان ينبغي أن لا ينشرح صدره في هذه الحالة، ولكننا نرى أنه بعد أن شُقّ صدره وطُهِّر قلبه شهدت الدنيا أنه ﷺ قد أعطى تعاليم ومعارف لا نظير لها في كل علم ومجال. فما من مجال من مجالات العلم إلا وقدّم النبي ﷺ فيه تعاليم سامية بريئةً من أي نقص وعيب مستنبطًا إياها من القرآن الكريم، كالعاكس الذي يعكس الضوء بصورة أقوى وأجلى. فإننا إذا نظرنا إلى هذه الوقائع لم نجد بُدًّا من الاعتراف بأن الذي شَقَّ صدره ﷺ كان ملاكًا بالفعل، وإلا فما الفضل في مجرد تطهير القلب وإعادته إلى الصدر؟ فلن يجري في قلبه إلا الدم الذي جرى قبل الحادث وبعده أيضا. إن عظمة هذا الحادث لا تكمن في جانبه المادي بل في جانبه الروحاني، وإليه أشار قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي ألم نُرِكَ في الصغر هذا المشهد؟ ألم نخبرك منذ طفولتك أننا

سنـــزوّدك بكفاءات عالية في يوم من الأيام؟ هذا هو تأويل هذا الحادث الكشفي، مما جلّى صدقه ﷺ جلاءَ الشمس في كبد النهار. وإلا فلسنا لنصدّق أنه كـــان في قلب الرسول ﷺ سوادًا أزالته الملائكة -والعياذ بالله- كلا، بل كان قلبه نقيًّا قبـــل هذا الحادث أيضا، وليس المراد مِن تنظيفه إلا أن الله تعالى زوّده بكفاءات خارقـــة وبآفاق جديدة للعلوم، وليس أن نجاسة كانت بقلبه -والعياذ بـــالله- فأزالهـــا الله بواسطة الملائكة.

ومن معاني قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أننا خلقنا فيك قـــوة الـــصبر والحلم بشكل منقطع النظير. فشرح الصدر إشارة إلى أنه لا يضيق صدره ﷺ بأي محنة، بل إنه يتحمل كل أذى ببشاشة قائلا إن كل ما يأتي من الحبيب خير. كـــان ﷺ يعلم أن الله تعالى يعامله معاملة خاصة، وأنه يعيش تحت تصرّف رباني تام، وأن كل ما يفعل الله به يكون خيرًا في النهاية وإنْ بدا شرًّا، ولذلك ما كان ﷺ يفـــزع عند حلول النوائب. وبالفعل نجد أنه قد حل بالنبي ﷺ شتى المحن، فلم تصبه بالفزع والقلق، إنما تحمَّلها بسكينة واطمئنان؛ وكأنه ﷺ على يقين أن كل ما يأتيه من الله خير له، لأن الله تعالى وليُّه لا عدوّه، وأنه تعالى سيكتب له النجاح وسيلقي عدوه في الحضيض. كان الناس يسبّونه ويعيبونه ويحيكون ضده المؤامرات الخطيرة، فلـــم يكنْ ﷺ يبالي بها مطلقا، ولم يردّ عليهم بلسانه بسوء. نرى أن أحدًا إذا اصـــطدم بغيره خطأً أثناء المشي ثار غضبًا ونعَته بالعمى؟ ولكننا نرى أنه لما فتح الرسول ﷺ مكة ونال الغلبة الحاسمة بحيث خضعت له العرب أجمعين، جاءه أعرابي وقـــال لـــه بكل قسوة: أَعْطِني حصّتي من الغنيمة كما أعطيت الآخرين نصيبهم. فثار الصحابة غيظًا وأبعدوه عن الرسول ﷺ ولاموه على هذه الوقاحة. ولكن النبي ﷺ لم يقل له شيئًا، بل قال لو كان عندي مال لأعطيتك، لكني وزّعته على الناس ولم يبقَ عندي شيء.

هذا هو الصبر والحلم المنقطع النظير. لا شك أنه كان ينصح الناس وينهاهم عن سيئاهم ويسخط عليهم في محل السخط، ولكنه لم يفقد السيطرة على نفسه في أي موقف.

إذن، قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني أن الناس يسبّونك فلا تأبهُ بهم ويؤذونك فلا تكترث لأذاهم، فعندك من الصبر والأناة ما يجعل معارضة الأعداء واضطهادهم المتتالي لا يزعزع أقدامك الثابتة.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٤﴾

شرح الكلمات:

وِزْرَك: الوِزْرُ: الثقل. (الأقرب)

التفسير: لا شك أنه لا بد للنجاح من الشجاعة والصبر، وهما في الدرجة الأولى، والأمر الثاني الذي لا بد منه للنجاح هو تيسُّرُ الأسباب اللازمة للعمل. وفي هذا أيضا نجد النبيَّ ﷺ أفضلَ من موسى عليه السلام. لقد سبق أن بيّنتُ لدى شرح الآية السابقة أن موسى دعا ربه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(طه:٢٦)، بينما نجد الله تعالى يقول هنا لنبيه ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. وكان موسى عليه السلام دعا ربه وقال ﴿واجْعَلْ لي وزيرًا مِن أَهْلي﴾(طه:٣٠)، بينما قال الله لرسوله الكريم بصيغة الماضي ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، وهكذا أشار إلى فضيلة أخرى للنبي ﷺ على موسى عليه السلام. لقد شعر موسى أنه بحاجة إلى مَن يحمل عنه حمله، فسأل الله تعالى أن يعطيه مساعدا من أهله، أما الرسول ﷺ فيقول الله تعالى له لقد آتيناك بدون سؤال منك أصحابًا لا يشاطرونك أثقالك فحسب، بل سيحملون عنك كل الأثقال التي قد أنقضت ظهرك.

والواقع أنه قد أُلقيَ على النبي ﷺ عبءٌ لا يقدر على حمله أي إنسان؛ فكان عليه أن يُصلح العالم كله، ويُدخل في الإسلام الدنيا كلها، وأن يقضي على المساوئ والعيوب المنتشرة في العالم أجمع. كان ﷺ يرى أنه وحيد فريدٌ لا يستطيع الوصول إلى كل شخص ولا يقدر على إقناع كل واحد. كان إدخال كل إنسان في الإسلام يتطلب عشرات السنوات في الظاهر، إذ كان بين عقائد الناس وأحكام الإسلام ما بين الأرض والسماء. كانوا يعبدون أصناما كثيرة، في حين أعلن القرآن

أن الأصنام لا حقيقة لها. كانوا يستسيغون الكذب والخداع والغش والخيانة والسطو والقتل وغيرها من المنكرات، بينما كان الإسلام يحرّمها كلية. لم يكونوا يعرفون ما العبادة، أما الإسلام فيدعو الإنسان ألا يبرح العتبة الإلهية في أي حين. كان هناك اختلاف كبير في التعليم والعبادة والعادات والتقاليد والطموحات. ثم لم يكنْ أهلُ مكة يؤمنون بنزول الوحي، ولكن القرآن أعلن وأكد نزول الوحي. كما أنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرة الله الخاصة، ولكن القرآن يعلِّم ويدلِّل على وجوده ﷻ بآيات قدرته الخارقة. ثم إنهم كانوا يتفاخرون كل حين بأنهم أحرار لا يخضعون لأحد، ولكن القرآن يدعو الناس أن يجتمعوا على يد واحدة ويصلحوا أنفسهم والأمم الأخرى خاضعين لنظام موحد، وكان الإسلام يريد أن تخضع كل أعمال الإنسان من قيام وقعود ونوم ومشي لنظام واحد. باختصار، لم يكن هناك مجال من مجالات الحياة يمكن أن ينسجم فيه المشركون العرب مع تعاليم القرآن الكريم. كان القرآن يتدخل في أفكارهم وأخلاقهم وعقائدهم وسياستهم واقتصادهم. فيمكن للمرء تقدير ضخامة الصعاب التي كان على النبي ﷺ أن يكابدها في سبيل إقناع الناس بأحكام الإسلام الكثيرة المفصلة، ولكن كان فضل الله عليه عظيمًا، فلما بلّغ زوجتَه بنزول أول وحي عليه لم تقلْ له: ما هذه البدعة التي جئتَ بها، وإنما قالت: "وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (البخاري، كتاب بدء الوحي).. أي لا تقلق، فإن ما جئتَ به حق وصدق، وأن الله تعالى لن يضيعك أبدًا، لأنك تصل الرحم وتحمل أثقال الضعفاء، وتعمل الحسنات التي قد غابت عن الدنيا، وتطعم الضيوف وتعين أهل الحق عند المصائب. ثم أخذته زوجته إلى ابن عمها -ورقة بن نوفل- الذي كان عالمًا في العلوم الإسرائيلية. فما إنْ سمع من النبي ﷺ حكايته حتى قال: هذا الناموس (الوحي) الذي نزل على موسى عليه السلام (مسند الإمام أحمد، المجلد السادس، حديث عائشة رضي الله عنها) وهو يشتمل على الأحكام والتعاليم التي تشبه ما نزل على موسى من وحي.

وكان في بيت النبي ﷺ ابن عمه (عليّ ﷺ) الذي كان فتى يافعًا يمكن أن يكون وسيلة ناجعة للتبليغ. فلما رأى هذا الفتى ابن عمه (محمدًا ﷺ) وزوجته يتحدثان بجدية عن هذا الحدث الهام تقدّمَ إليه بوقار وقال: إني أؤمن أنك صادق وأن الله هو الذي كلّمك وبعثك لإصلاح الدنيا.

وكان للنبي ﷺ عبد قد أعتقه، وقد سحرته أخلاقه ﷺ فآثر البقاء عنده ﷺ بدلاً من والديه، فلما سمع أهل البيت يتحدثون حديثًا خافتًا وأماراتُ الهم والقلق تعلو وجهَ سيده ﷺ تقدّمَ إليه وأمسك بأهدابه وقال سيدي لن يحدث إلا كما رأيت، فلن يخذل الله إنسانًا مثلك، بل لقد آن الأوان لإصلاح الدنيا على يديك، فاسمحْ لي أن ألازمكم وأنصركم.

وكان للنبي ﷺ صديق حميم وحيد وكانا كلؤلؤتين قد تربّيتا في صَدَفَة واحدة، فسمع أن صديقه محمدًا قد افترى على الله ويبدو أنه قد مسه الجنون، فما كان منه إلا أن سارع إلى بيته ﷺ وطرق عليه الباب، وقال له: أصحيح ما سمعتُ عنك؟ فأراد النبي ﷺ توضيح الأمر له، فقال: أستحلفك بالله أن لا تقدِّم لي أي دليل على ما تقول، بل أخبرْني فقط أصحيح ما يقال عنك؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال أبو بكر: يا صديقي الصدوق، أشهدُ أنك رسول الله. لقد كدتَ تجعل إيماني ضعيفًا يحتاج إلى الأدلة على دعواك. يا صديقي، كيف يمكن أن يشكّ في دعواك من رأى وجهك؟ (تاريخ الخلفاء للسيوطي: أبو بكر الصديق ﷺ)

كانت المعارضة أمرًا محتمًا، كما كان ورقةُ بن نوفل قد أخبرَ النبيَّ ﷺ قائلا: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِيَ" (البخاري، كتاب بدء الوحي). فانظروا كيف آتاه الله تعالى أصحابا قبل هبوب عاصفة المعارضة. كان في مكة عالِمٌ إسرائيلي واحد هو ورقة بن نوفل، فصدق النبي ﷺ بمجرد أن سمع قصة نزول الوحي عليه. أما زوجته خديجة فبدأت تُطَمْئنه وتدعو له بعد سماع خبر نزول الوحي عليه. أما عليّ "ابن عمه" الذي كان لا يزال صغيرًا وكان شاهدًا على سموّ أخلاقه في البيت- فقدّم نفسه لنصرته وخدمته ﷺ. أما "زيد" عبده العتيق الذي سحرته أخلاقه ﷺ بعد أن شاهدَ أمانته في التجارة ورعايته للفقراء لفترة طويلة،

فجعل يحلف على صدقه ﷺ. أما أبو بكر.. صديقُ طفولته الذي كان من أشراف مكة.. فبمجرد أن سمع عن دعواه ﷺ صار من غلمانه وخدامه. لا شك أن هذا الإخلاص الذي رآه النبي ﷺ من هؤلاء الخدام، قد غمر قلبه غبطة وسرورا. لا جرم أنه عندما كان يسمع ضجة أهل مكة ومطاعنهم كان يبتسم ويقول في نفسه: هذا حُكْمُكم أنتم الذين لا تعرفونني، ولكن انظروا إلى حُكْم الذين يعرفونني، وكيف أنهم مستعدون لحمايتي من اليمين والشمال، ويفدونني بالأرواح. لقد سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يعطيه وزيرًا لحمل أعبائه، أما محمد ﷺ فقد أعطاه الله تعالى بدون سؤال خمسة وزراء حملوا عنه وزره إلى أقصى الحدود. لا شك أن ورقة بن نوفل تُوفي بعد فترة وجيزة من حادث بدء الوحي، ولكنه قدَّم على صدق النبي ﷺ شهادة لن تنمحي أبد الدهر. أما خديجة -رضي الله عنها- فكانت سندًا له لاثنتي عشرة سنة بما يُخجِل أشجعَ الشجعان. أما زيد فقد ضرب مثالاً رائعا للتضحية لعشرين سنة، وأخيرًا أراقَ دمه تحت ظلال السيوف مؤكدًا للناس نوعيةَ وزراء النبي ﷺ. أما أبو بكر وعليّ فعاشا بعد وفاته ﷺ وصارا وزراء له كخلفاء أيضًا.

لو تدبّرَ الشيعةُ هذه الآيةَ لوجدوها حاسمةً لقضية الخلافة. فقد وردت في القرآن آيةٌ مشابهة بحق موسى عليه السلام إذ دعا ربه ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾(طه: ٣٠). ولا خلاف حول معنى هذه الآية؛ وهو أن موسى لما كُلِّف بالرسالة فكّر في معارضة الناس له، فلم يلبث أن سأل الله تعالى أن يؤتيه من يساعده في حمل عبئه، بينما يقول الله تعالى هنا للنبي ﷺ ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾. فمَن هم هؤلاء الذين آمنوا به ﷺ فورا ليكونوا وزراءه، حسب هذه البشارة الإلهية؟ لا شك أنهم هؤلاء الخمسة المذكورون آنفًا. ولا يحق للشيعة أن يحتجوا أن ثلاثة منهم قد توفوا في حياة النبي ﷺ، ذلك أن هارون أيضا توفي في حياة موسى. وحتى لو أخرجنا من هذه القائمة الثلاثة المتوفين في حياة النبي ﷺ يبقى هناك أبو بكر وعليّ، وكلاهما قد ساعد النبي ﷺ في حمل أعبائه حسب هذه الآية، وإن الإساءة إلى أي منهما هي بمثابة تكذيب للقرآن واستهزاء به.

إننا نرى أن كثيرًا من المدعين بمجرد أن يعلنوا دعواهم يشرع الناس في اتهامهم بالجنون، فتقول زوجته إن عقله قد اختلّ، ويقول ابنه أنه مصاب بالخبل، ويقول أصدقاؤه أن فيه مسًّا من الجنون. يبحث هؤلاء المدَّعون عن أتباع لهم فلا يجدون. لا شك أن بعضهم قد آمن به أقاربه، ولكن نرى أنهم لا يجدون أي أتباع في بداية دعوتهم في معظم الأحيان، وإذا وجدوا كانوا جاهلين. أما الرسول ﷺ فقد أصبح هؤلاء الخمسة صيدًا لروحانيته في أول يوم من بعثته. عندما دعا موسى ربه ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ لم يقبل الله دعاءه فورًا، بل أمره أن يواصل سفره حتى يصل مصر، وهنالك يجد هارون وزيرًا له، أما النبي ﷺ فوجد خمسة وزراء منذ اليوم الأول بدون أي دعاء أو سفر أو مشقة وعناء. والحق أن هؤلاء هم الخمسة المباركة الحقيقيون الذين بدأ بهم الإسلام. لا شك أن هناك خمسة مباركة آخرون من أولاد النبي ﷺ الماديين، أما من حيث الروحانية فوهبه الله هؤلاء الخمسة المباركة منذ أول يوم، وكان كلّ منهم فدائيا مخلصا له. فقوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يعني أننا أزلنا عنك عبئك وأقمنا لنصرتك أناسًا حملوا عنك هذا العبء قائلين: يا رسول الله، نحن مستعدون لحمل هذا العبء عنك.

ثم بعد فترة وجيزة وجد النبي ﷺ أتباعا آخرين من أمثال طلحة والزبير وعمر وحمزة وعثمان بن مظعون. كان كلٌّ منهم فدائيا مخلصًا مستعدًا لإراقة دمه بدلاً من عَرق الرسول ﷺ. لا شك أن النبي ﷺ قد تعرضَ لأنواع المحن والأذى ثلاثة عشر عاما، بيد أنه كان مطمئنا أنه قد آمن به من أهل مكة أهلُ عقل ورأي ومكانة وتقوى وطهارة، وأن المسلمين أصبحوا الآن قوة يحسب لها حسابها. وعندما كان أحد من أهل مكة يتهم النبي ﷺ بالجنون كان زملاؤه يقولون له: كيف تتهمه بالجنون وقد آمن به وصدّقه فلان وفلان من أهل الرأي والذكاء! وهذا جواب ما كان لأحد أن ينقضه. إن الكتّاب الغربيين لا يألون جهدًا في معارضة النبي ﷺ ولا يتورّعون عن الإساءة له ﷺ، ولكن عندما يأتي ذكر أبي بكر يقولون إنه كان إنسانا نزيهًا لم يكن به طمع شخصي، فيرد عليهم كتاب غربيون آخرون: فكيف يكون

كذابًا مَن صدّقه شخص كأبي بكر؟ إذا كان أبو بكر شخصا نزيهًا حقًا، فكيف اتّبع طمّاعًا؟ إذا لم يكن طمّاعًا فلا بد لكم من الاعتراف أن سيده أيضًا لم يكن طمّاعًا. وهذا دليل قوي لا يمكن نقضه بسهولة. ونحن نرى أن الناس قد اتهموا المسيح الموعود عليه السلام بالجهل، فردّ الله على طعنهم بأن جعَل شخصًا بمكانة المولوي نور الدين رضي الله عنه يصدّقه منذ بداية بعثته. ثم إن المولوي محمد حسين البطالوي أيضًا كان يثني خيرًا عليه عليه السلام قبل دعواه. ثم أقام الله تعالى جماعة من المثقفين بجنبه عليه السلام فور دعواه، كان بعضهم علماء وبعضهم أثرياء، وبعضهم من ذوي الثقافة الإنجليزية الحديثة. والواقع أن الرعب يُبَثّ بثلاثة أشياء: الإيمان أو العلم أو المال، وقد أعطى الله المسيح الموعود عليه السلام هذه الثلاثة؛ فقد وهبه أناسًا ذوي صلاح ونور وإيمان وكانوا من المشايخ الكبار، كما وهبه كبار القوم والأثرياء، كما أعطاه أتباعًا من ذوي الثقافة الحديثة الذين يستطيعون أن يتركوا أثرًا طيّبًا على الشباب والمثقفين؛ فإذا اتهم أحدُهم حضرتَه عليه السلام بالجهل قام ضده آخرون من قومه وقالوا: كيف تتهمه بالجهل وقد اتبعه طلاب الكليات والجامعات؟ وإذا اعترض شخص أنه عليه السلام جاهل بالدين ردّ عليه زملاؤه: كيف تتهمه بذلك وقد اتبعه كبار المشايخ؟ وإذا اتهمه أحد أنه عليه السلام يريد الدنيا والمال رد عليه الناس: إذا كان يحب الدنيا فلماذا يسارع إليه أمراء وأثرياء حتى صاروا يضحّون بثرائهم في سبيل الدين بعد أن كانوا منغمسين في الملذات؟

باختصار، قد وهب الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام أتباعًا من كل شريحة من شرائح المجتمع: علماء وأثرياء ومثقفين ثقافة حديثة، وذلك ردًّا على طعن الناس أنه جاهلٌ غير مثقف أو محبٌّ للدنيا أو جاهلٌ بالدين. وهذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم حيث منحه الله تعالى أتباعًا من كل شرائح المجتمع وطبقاته. كان عثمان وطلحة والزبير من كبار عائلات مكة، فإذا قيل أنه قد آمن بمحمد صغار الناس دون الكبار، فكان عثمان وطلحة والزبير موجودين للرد عليهم، وإذا قيل أن محمدًا قد جمع حوله كبار القوم والأثرياء ولم يدخل في دينه الفقراء الذين هم الأكثرية في العالم، فكان زيد وبلال وغيرهما موجودين للرد على هذا الطعن، وإذا قيل أن ما يدعو إليه محمد هو

مما يلهو به الشباب الأغرار، فكان الناس يردّون: هل أبو بكر من الأغرار، فكيف آمن بمحمد؟ فما كانوا يأتون بدليل إلا وكان أصحاب النبي ﷺ مستعدّين لدحضه. وكان هذا فضلاً من الله كبيرًا على النبي ﷺ، وهذا ما أشار الله إليه بقوله ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.. أي يا محمد، ألا يرى هؤلاء القوم أننا قد يسّرنا لك كل الأسباب التي ينجح بها المرء. فإذا كان النجاح منوطًا بوجود الشباب المتحمسين للتضحية، فهم موجودون عندك، وإذا كان المرء ينجح بمساعدة الشيوخ المحنَّكين، فهم أيضا في صفوفك، وإذا كان المرء يهزم الآخرين بمساعدة كبار القوم ذوي النفوذ، فهم أيضا معك، وإذا كان النجاح يُكتب لأحد بتضحيةِ وولاءِ عامة الناس، فكل هؤلاء العبيد يجرُون وراءك تابعين مخلصين. فكيف يمكن، والحالُ هذه، أن تلقى الهزيمة وينتصر عليك أهل مكة؟

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.. يعني أننا قد حملنا عنك بأنفسنا العبءَ الذي كان قد قصم ظهرك. لما رأيت المهمة الملقاة عليك قلت في حيرة: كيف أنجز هذه المهمة الصعبة؟ فأعطيناك خمسة وزراء منذ أول يوم، فجعلنا أبا بكر وخديجة وعليًا وزيدًا وورقة بن نوفل خمسةَ أعمدةٍ لسقف بناء الإسلام، وهكذا حملوا جميعًا ذلك العبء الذي كان عليك أن تحمله وحدك.

ومن معاني هذه الآية أننا آتيناك تعليمًا يغزو القلوب من تلقائه. إن من التعاليم ما يكون جيدًا في الظاهر، ولكنه يحتوي على أمور فلسفية يصعب على الناس فهمها، ولذلك لا ينال القبول بين القوم إلا التعليم الذي يكون سهلَ الفهم وموافقًا لجميع الطبائع والأمزجة. فمن معاني قوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أنك كنت ترى أن نشر تعاليمك أمر صعب، ولكننا قد أضفينا عليها من الجمال والجاذبية ما يجذب إليها الناس من كل الشرائح. كان العرب يهضمون حقوق النساء، ولكن القرآن حافظَ عليها، وكانوا يعاملون العبيد بوحشية، ولكن الإسلام قد رفع مكانتهم بحيث لم يستمر الرقّ بعده في العالم. كان العرب لا يعدلون في توزيع الإرث، وكانوا يهضمون حقوق الوَرثة مستغلّين مكانتهم ونفوذهم، ولكن الإسلام أزال هذا العيب، وجعل لكل الوَرثة حقوقهم

الشرعية. فكل من يطّلع على هذا التعليم الحسن لا بد أن يفتي قلبه بصحته، ولذلك يخبر الله تعالى رسوله ﷺ هنا: أنه لو كان تعليمك ذا طابع فلسفي ملتويًا لتعذرَ على الناس الإيمان بك، ولكننا أعطيناك تعليمًا موافقا للفطرة الإنسانية، فكل مَن كان طيب الفطرة آمن به فور سماعه.

هناك طريفة كثيرًا ما تخطر ببالي وهي أن شخصًا باسم "ميان نظام الدين" مِن مدينة "لُدْهيانه" كان على صلة مع المسيح الموعود عليه السلام، وكان صديقًا للمولوي محمد حسين البطالوي أيضا، فلما سمع من البطالوي أن حضرته عليه السلام يدّعي أن المسيح الناصري عليه السلام قد تُوفي، قال في نفسه إن حضرته عليه السلام إنسان صالح جدا، ويبدو أن هذه تهمة تلصق به، أو أن حضرته وقع في سوء فهم، إذ كيف يمكن أن يعرض على الناس دعوى مخالفة للقرآن الكريم؟ فقرر الذهاب إلى قاديان لينصح حضرته ويقنعه بالتخلي عن هذه الدعوى، وكان عنده أمل كبير أن حضرته عليه السلام سيقبل نصحه لأنه عليه السلام لا يتكلم بخلاف القرآن. فجاء إلى قاديان وقال للمسيح الموعود عليه السلام سمعتُ أنك تقول بوفاة المسيح عليه السلام؟ فقال: نعم، هذا صحيح. قال: ظننت أن الناس يشيعون عنك أمرًا خاطئًا، ولكنك تقرّ بذلك! كيف تدعي ذلك والقرآن يقول بحياة المسيح؟ فقال عليه السلام: يا نظام الدين، إني أؤمن بكل ما في القرآن الكريم، ولو ثبتتْ حياة المسيح عليه السلام من القرآن فسوف أتخلى عن موقفي حالاً. قال: هذا بالضبط ما كنتُ أقوله للناس بأن حضرة الميرزا لا يمكن أن يخالف القرآن، ولا بد أنه قد حصل له سوء فهم، ولو كشفنا عليه الحقيقة وأثبتنا له حياة المسيح فلا بد أن يتراجع عن دعواه، فأرجوك الآن أن تظل ثابتا على موقفك هذا؛ فهل تترك دعواك إذا أتيتك بمائة آية قرآنية تؤكد حياة المسيح عليه السلام؟ فقال المسيح الموعود عليه السلام: دَعْك من مائة آية. إني أؤمن بكل كلمة في القرآن، فلو أتيتني بآية واحدة فسوف أتخلى عن دعواي. قال: حسنًا، إذا لم تكن مائة آية، فسوف آتيك بأربعين أو خمسين آية على الأقل. فهل تترك دعواك عندها؟ قال عليه السلام: هاتِ آية واحدة، ولا حاجة لخمسين آية. قال: حسنًا، سآتيك بعشر آيات حتمًا. ثم غادرَ قاديان حالاً إلى لاهور حيث كان مولانا نور الدين رضي الله عنه قد جاء من جامون في

إجازة ليحدّد شروط المناظرة التي كان يريد خوضها مع المولوي محمد حسين البطالوي. وكان البطالوي كثيرَ التفاخر، فكان قد نشر إعلانًا بأن الميرزا (مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية) لم يخرج لمناظرتي، وقد خرج نور الدين لمبارزتي وسنرى كيف ينجو من قبضتي! واستمر الطرفان في تحديد شروط المناظرة لأيام، ذلك لأن مولانا نور الدين ﷺ كان يصرّ على أن القرآن حَكَمٌ بيننا لتصفية كل ما شجر بيننا من قضايا، وعلينا أن نحتكم إليه، بينما البطالوي كان مصرًّا على أنه لا بد من الاحتكام إلى الأحاديث أيضا في المناظرة. وبعد جدال استمر عدة أيام رضي مولانا نور الدين ﷺ بأن يضيف صحيح البخاري إلى جانب القرآن الكريم من أجل المناظرة، ففرح البطالوي بذلك، وأخذ يتفاخر بين زملائه جالسًا في مسجد "تشينيانوالي" في لاهور قائلاً: لقد قال نور الدين كذا، فنقضت قوله هكذا، وفعل نور الدين كذا فصرعته هكذا، حتى لم يجد بدًا من إضافة صحيح البخاري إلى القرآن الكريم للمناظرة بيننا. وفيما هو يتفاخر بين زملائه حتى دخل عليه "ميان نظام الدين" وقال: أيها الشيخ، دَعْك من هذا الحديث؛ واكتبْ لي عشر آيات من القرآن على حياة المسيح ﷺ، فقد جئت حالاً مِن عند حضرة الميرزا من قاديان بعد أن أقنعتُه بأني لو أتيته بعشر آيات من القرآن على حياة المسيح، فسوف يتخلى عن دعواه، فاكتبْ لي عشر آيات بسرعة. وكان "ميان نظام الدين" قد اشترط على المسيح الموعود ﷺ أنه إذا أثبتَ حياة المسيح ﷺ من القرآن فلا بد أن يتوب عن عقيدته في المسجد الملكي الشهير بلاهور، وكان ﷺ قد رضي بشرطه، ففرح "ميان نظام الدين" فرحًا كبيرا وأصرّ على البطالوي قائلا: ما هذه المناظرات التي تريد الخوض فيها؟ اكتبْ لي عشر آيات، فسوف أجعل حضرة الميرزا يتوب في المسجد الملكي بلاهور. فلما سمعه البطالوي الذي كان يتباهى بانتصاره على مولانا نور الدين قال في ثورة غضبه: أيها الأحمق، مَن سمح لك بالتدخل في القضية؟ لقد تمكنتُ بعد محاولة شهرين متتاليين مِن إقناع المولوي نور الدين بمناقشة الموضوع على ضوء الحديث، وأنت حوّلتَ القضية إلى القرآن ثانية؟ وكان ميان نظام الدين إنسانا ورعًا، فأصيب بالذهول بقول البطالوي، فسكت برهة كالذي أصيب

بصدمة مفاجئة، ثم تأوّهَ وقال: أيها الشيخ، إذا كان الأمر كذلك فإني مع القرآن الكريم. فخرج مِن عند البطالوي فورًا وجاء إلى المسيح الموعود ؑ وبايعه. (حيات أحمد (أردو) للعرفاني ص ١٥٥)

فترى أنه لما كان موقف المسيح الموعود ؑ موافقًا للفطرة الإنسانية لم يستطع "ميان نظام الدين" مقاومته. هذا هو حال تعاليم القرآن الكريم، فكل حُكْم من أحكامه يراعي كل أنواع الطبائع والأمزجة، ومن المحال أن يقول شخص أن كذا وكذا من أحكامه غير صالح للعمل أو مخالف للفطرة الإنسانية. فكل حكم من أحكام القرآن كامل في حد ذاته، والعمل به سهلٌ. أما الأديان الأخرى فهي تفتقر إلى هذه الميزة، وهذا هو السبب الذي جعَل أتباعَها يطالبون الحكومات بإحداث التغييرات في قوانينهم الخاصة من حين إلى آخر لتلافي الخلل الموجود في تعاليم أديانهم. فالهندوس أيضا منجرفون في هذا التيار، ويريدون إعداد قوانين تتماشى مع أوضاع هذا العصر، والحق أن كل تعديل يحدثونه في قوانينهم إنما هو لتقليد أحكام القرآن، أما إذا انحرفوا عن تعاليم القرآن فلا بد لهم من العثار، ولا بد أن يروا نتائجه الوخيمة. إذن، فقوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يعني يا محمد، ألم نهيّئ لك كل الأسباب اللازمة لمهمتك؟ لقد وهبنا لك أتباعًا حملوا عنك أعباءك، وأعطيناك تعليما ينفذ إلى الفطرة الإنسانية تلقائيا، دون أن يحول عائق في انتشاره بين الناس. عندما اشتد اضطهاد أهل مكة على المسلمين أراد أبو بكر الهجرة منها، فخرج ذات يوم مهاجرًا، فلقيه في الطريق أحد وُجهاء مكة وسأله عن قصده، فقال: إني أريد الهجرة من هذه البلدة. فقال الرجل: الهجرة! ألا تخرب المدينة التي يغادرها إنسان مثلك؟ ها إني أجيرك، فلن يتعرض أحد لك بسوء بعد اليوم. فرجع أبو بكر، وأعلن الرجل بين الناس أنه قد أجار أبا بكر. وكان أهل مكة يحترمون حق الجوار احتراما كبيرا، فلم يؤذوا أبا بكر بعد ذلك، فبدأ يعيش في مكة بحرية. وكان أبو بكر يماثل إبراهيمَ ؑ في طبعه الرقيق وإحساسه المرهف، فإذا قرأ القرآن في الصباح الباكر غلبته الرقة والحرقة والبكاء وبدأت الدموع تسيل من عينيه، فكانت النساء والولدان يجتمعون حول بيته لرؤية هذا المشهد المثير

مُصْغين إلى تلاوته، فإذا رأوا بكاءه ورِقّته وسمعوا تعاليم القرآن الكريم السامية، لم يتمالكوا أنفسهم وقالوا: ما أروعَه من كلام! وازداد تأثير تلاوته القرآن عليهم حتى خاف أهل مكة من إسلام أطفالهم ونسائهم لو استمر الوضع هكذا. فذهبوا إلى ذلك الكبير الذي أجار أبا بكر وطالبوه بسحب إجارته لأبي بكر وإلا سوف يفسد دينهم (البخاري: كتاب المناقب). إن هذا الحادث خيرُ دليل على مدى التأثير العظيم للقرآن الكريم.

ثم هناك حادث عمر ﵁ الذي خرج من بيته بنيّة قتل النبي ﷺ، ولكنه لما سمع أخته تقرأ القرآن الكريم سالت الدموع من عينيه، فخرج مِن توّه والسيف في يده، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك يا عمر؟ قال: يا رسول الله، جئتُ لأنضمّ إلى زمرة غلمانك. (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر إسلام عمر)

إلى هذا التعليم القرآني المعجز يشير الله تعالى في هذه الآية ويقول لرسوله الكريم: لقد كنتَ تشعر بعبء ثقيل على قلبك وكنت تقول كيف أقنع الناس بهذا التعليم، فانظرْ كيف خفَّفْنا عنك هذا العبء تخفيفا.

وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٥

التفسير: والأمر الثالث الذي لا بد منه للنجاح أن يتوجه الناس إلى التعليم الجديد. الواقع أن لفت أنظار العدو هو الأهم، ولكن لا يثير المعارضة والعداء إلا التعليم الذي فيه آثار الغلبة والانتصار. الأغبياء يظنون أن المعارضة أمر سيئ، ولكنها خيرٌ في الحقيقة. إن طبائع الناس لا تثور إلا ضد ما يرون أنهم إذا لم يقاوموه لَحِقَهم ضرر وبطلتْ عقائدهم وأفكارهم. فما لم يتولد هذا الإحساس عند القوم لا يقومون لمعارضة شيء بشدة. عندما يعلن الأنبياء دعواهم يهبّ القوم كلهم ضدهم إذ يرون أن التعليم الذي يعرضونه سيصبح غالبا في نهاية المطاف. والحال نفسه بالنسبة إلى العلوم المادية الصادقة؛ فكلما عُرض على الناس بحث جديد عارضوه حتمًا لخوفهم أنهم إذا لم يعارضوه ثبت بطلان النظرية التي يتمسكون بها.

فعندما أعلن جاليلو أن الأرض تدور حول الشمس مخالفًا بذلك الاعتقادَ السائد القديم عارضه القسس حتى أفتى البابا بقتله لأنه ينشر بين الناس نظرية تتعارض مع الكتاب المقدس صراحة. فآذوه إيذاء شديدًا حتى اضطر ليعلن بين الناس: لقد ركب الشيطان عقلي وأضلّني السبيل على ما يبدو. إذ يقول الكتاب المقدس إن الشمس تدور حول الأرض، ولكن بدا لي أنا الأحمق أن الأرض تدور حول الشمس، وها إني أعلن أنه تبين لي أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، ولكن ما دام الكتاب المقدس يقول أن الشمس تدور حول الأرض فيبدو أن عقلي قد اختلّ ولعب به الشيطان. ففرح القُسس بإعلانه ظانين أنه قد تاب عن موقفه، والحق أن إعلانه دليل على أنه لم يتبْ فعلاً، بل قام بهذا الإعلان لإرضاء القسس بكلماتٍ خدعتهم، فظنوا أنه قد تاب عن نظريته.

فسواء في العالم المادي أو الروحاني، كلما عُرض على الناس أمر يتعارض مع معتقداتهم انبروا لمعارضته، إذ يرون أن انتشاره في العالم سيقضي على التعليم الذي ينشرونه بين الناس. لا شك أنهم يعترفون بالحقيقة في النهاية، ولكنهم يعارضونها في البداية باذلين كل ما في وسعهم لسحقها وللقضاء عليها. ومشيرًا إلى هذه المعارضة قال الله تعالى هنا ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. ورَفْعُ الذكر لا يعني أنه يصبح مقبولا بين القوم، بل المراد أنه سيُذكَر في كل مكان خيرًا أو شرًّا، مدحًا أو ذمًّا. وكأن الله تعالى يقول إنك تُذكر في كل مجلس ونادٍ وبيت وأسرة، فهناك ضجة بين القوم بسببك. فمنهم من يقول: كيف يقول محمد أن الأصنام لا حقيقة لها! لقد وجدنا آباءنا يعبدونها، فكيف نتخلى عنها لقوله؟ ومنهم من يقول: إن ما يقوله محمد حق، فإن هذه الأصنام لن تحرك ساكنا وإن ضربتموها بالنعال. بينما يقول الثالث: هذه الفتنة تتفاقم باستمرار، فعلينا أن نقول للناس أن محمدا أصبح مجنونا. ويقول الرابع: ما هذا الهراء الذي تقولونه؟ لو كان مجنونا لما اتبعه أهل العقل والرأي منا! فيقول الخامس: إنه ليس بمجنون، بل شاعر. فيقول بعضهم: كيف تسمونه شاعرا؟ انظروا إلى كتابه، فهل هو شعر؟ ويقول السابع: إنه ليس بمجنون ولا شاعر، بل كاهن يتنبأ كالكهّان. فيهبّ أحدهم قائلاً: كيف تسمّونه كاهنًا وهو يُكذِّبُ

الكهّان؟ باختصار، كانت هناك زوبعة من المعارضة بسبب دعوى الرسول ﷺ، فكان يُذكر في كل ناد ومجلس وبيت، ويقال في كل مكان أن محمدا قد أثار فتنة عظيمة ولا بد لنا من التصدي لها. وكان هذا الحماس للمعارضة وهذه الجهود للإساءة للنبي ﷺ دليلا على ما أودع الله تعالى تعاليمَه من جاذبية وروعة بحيث كان العالم يرى أنه لا بد من التصدي لها وإلا لقضت علينا.

هذا هو الحافز الثالث الذي لا بد منه للنجاح. فعندما يثير الناس ضجة وينبرون للمعارضة بشدة متخذين كل وسيلة لكبت هذا الصوت، تتوجه أصحاب النفوس الطيبة إلى بحث الأمر، فيؤمنون في النهاية بسبب هذه المعارضة.

جاء إلى قاديان في زمن المسيح الموعود عليه السلام شاعر وأديب كبير وكان قد ألّف قاموسًا نُشر منه مجلدان أو ثلاثة، وكان حاكم ولاية "رامبور" قد كافأه بمنحة شهرية على ذلك. فسأله المسيح الموعود عليه السلام: ما الذي وجَّهك إلى جماعتنا؟ فقال بكل بساطة: الشيخ محمد حسين البطالوي. قال عليه السلام: كيف؟ قال: كانت جريدة الشيخ البطالوي -إشاعة السنة- تصلنا باستمرار، وكنت أعرف أنه شيخ شهير في الهند كلها، وبمطالعة مجلته كنت أقول دائما إذا كان هذا الإنسان محبًّا صادقًا للإسلام فكان عليه أن يفتح مدرسة يعلّم فيها القرآن والحديث، ويدعو الناس للعمل بأحكام الإسلام، ولكنه بدلاً من ذلك صرَف جُلَّ اهتمامه إلى معارضة الأحمدية، فلا شك أن وراء الأكَمَة ما وراءها. فمعارضتُه هي التي دفعتْني إلى التحقيق. فاتصلت بأحد الأحمديين، فأعطاني "دُرّ ثمين"،✦ فلما قرأتُ فيه قصائدك في مدح النبي ﷺ قلتُ: ها هي أول كذبة المشايخ! إذ يقولون أن حضرة الميرزا يسيء إلى النبي ﷺ، مع أن الحبّ الذي يكنّه حضرته لرسول الله ﷺ لا يوجد له نظير في العالم قط. ثم قمتُ بمزيد من التحقيق وعرفت أن الأحمدية هي الحق.

وكل سنة أتلقى ما بين عشرة إلى عشرين رسالة بهذا المعنى، حيث يقول أصحابها إنهم قرأوا كتبًا ضد الأحمدية مما رغّبهم في قراءة منشوراتها، فلما قرأوها

✦ هي مجموعة قصائد أردية للمسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

وجدوا أن ما تعرضه الأحمدية هي العقائد الحقة الصادقة، وأن ما يقال ضدها كذب وزور كله، فبايعوا.

وإلى هذا يشير الله تعالى هنا بقوله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.. أي لقد مَنَنّا عليك منة كبيرة حيث تُذكَر في كل نادٍ. فيقول الساسة والتجار وعلماء الدين والكهان: ماذا سيحدث الآن وقد أعلن محمد دعواه؟ وكل من يسمع دعواك يقول لا بد أن يقع الآن أمر ما، ولا بد أن تقع في الدنيا ثورة. فهناك هيجان في طبائع الناس دفعهم للاهتمام بأمرك. ولا بد أن تكون نتيجته خيرا لك، لأنهم حين يتدبرون في أمرك سينكشف عليهم صدقك.

وخير مثال على ذلك أن "ورقة بن نوفل" كان يدعو إلى المسيحية بين أهل مكة قبل بعثة الرسول ﷺ، ولكنهم لم يولوه بالاً ولم يثيروا ضده ضجة، بل كانوا يمرون عليه ضاحكين (البخاري: كتاب بدء الوحي)، أما الرسول ﷺ فعندما رفع صوته في حق وحدانية الله قام العرب ضده من أقصى البلاد إلى أقصاها، وهبّ الجميع لسحقه. وكذلك كان زيد بن عمرو -هو ابن عم لعمر رضي الله عنه- يدعو الناس إلى وحدانية الله قبل دعوى النبي ﷺ، ولكنهم لم يعارضوه. وكان النبي ﷺ قد دعاه للطعام مرة، فقال أنا لا آكل طعام المشركين، فقال ﷺ: إني لم أشرك قط (أسد الغابة: زيد بن عمرو). فرغم أن الرجل كان موحدًا متشددًا إلا أن هؤلاء المشركين لم يقوموا ضده، ولكن الرسول ﷺ حين رفع صوته ضد الأصنام انبرى العرب كلهم يعارضونه لإدراكهم أن صوت زيد بن عمرو لم يستطع كسر أصنامهم، ولكن صوت محمد سيكسرها حتمًا.

باختصار، إن من معاني قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أننا قد وجَّهْنا عناية الناس إليك؛ حيث يقول الجميع أن أمرًا ما سيحدث الآن، لذا فلا بد لنا من مقاومة هذا الرجل.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أننا قد وضعنا لك القبولَ في الدنيا. الحق أن من أسباب النجاح أن يوضع للمرء آثار القبول في الدنيا، فقد ورد في الحديث أن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا أمر ملائكته أن يحبّوه ويُلقوا حُبَّه في قلوب

الناس، فيُوضَع له القبول في الدنيا شيئًا فشيئًا. فالله تعالى يقول لرسوله ﷺ إنهم يعترفون بعظمتك في قلوبهم رغم معارضتهم لك.

عندما تُوفيَ المسيح الموعود عليه السلام كتب كثير من المسلمين من غير جماعتنا والهندوس مقالات مشيدين به ومعترفين بعظمته (تاريخ أحمديت المجلد ٢ ص ٥٦٠ نقلاً عن جريدة "وكيل" الصادرة من أمرتسر، ومجلة "تهذيب النسوان"، وجريدة "زميندار"، مما يدل أن قلوبهم كانت تعترف بعظمته رغم معارضتهم له في الظاهر. وهذه الآية لا تتيسر للمفتري أبدا. إن أهل الدنيا يعارضون أمثالهم، ولكن معارضتهم تكون معارضة بحتة، بمعنى أنهم يعارضونهم بدون الاعتراف بعظمتهم، أما أنت يا محمد، فإن هؤلاء يعادونك من جهة، ومن جهة أخرى يعترفون بقوتك وعظمتك. إنهم يسمّونك كذابًا وفي الوقت نفسه يسمونك أمينًا، فكل من يسمعهم يصاب بالحيرة ويقول ما هذه الأقوال المتعارضة! يقولون إنه شاعر، ومع ذلك يقولون إن كلامه ليس بشعر، ويقولون إنه كاهن، ويعترفون أنه عدو للكهنة. إذًا فإنهم يتهمونك من ناحية، ويعترفون بعظمتك وصلاحك من ناحية أخرى.

كما أن في هذه الآية إشارةً إلى انتشار ذكر محمد ﷺ. ويتضح من التاريخ أن صيته ﷺ ذاع في الجزيرة العربية كلها بسرعة فائقة، فأخذ الناس يصدّقونه، فآمنَ به -وهو لا يزال بمكة- أبو ذر الغفاري من قبيلة غفار، وجماعةٌ من أهل اليمن، وثلةٌ من أهل المدينة، وهكذا انتشر دينه في مختلف الأمصار والبلاد.

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٧﴾

التفسير: النكرة تفيد التعظيم والتفخيم أيضًا في العربية، فالمراد من الآية أن هناك يسرًا عظيمًا بعد العسر حتمًا، نعم، هناك يسر عظيم بعد العسر يقينًا. وكأن المقصود هنا تعظيم اليسر والتأكيد عليه وليس ذكر العسر.

وقال بعض النحاة: إن تكرار اليسر هنا إشارةٌ إلى أن هناك يُسريْن لا يسرًا واحدا. العسر واحد، ولكن اليسر اثنان. ومعنى الآية لا شك أن بعد هذا العسر يسرًا عظيما، ولا جرم أنه يأتي بعد العسر يسر عظيم آخر. (فتح البيان)

وهذا المعنى يؤكده الحديث حيث ورد أن النبي ﷺ خرج من بيته مرة ضاحكا مسرورًا وقال: "لقد رأيت عُسرًا يجري وراء يسر✦، ولن يغلب عسرٌ يُسْرينِ". وهذا يعني أن مفهوم هذه الآية قد انكشف على الرسول ﷺ كشفًا، وقد أدرك أن العسر واحد واليسر يُسْرانِ.

السؤال الآن: ما هذان اليُسرانِ المذكوران هنا؟

اعلم أن الإنسان لا ينال السكينة الكاملة إلا إذا تيسرت له أسباب الاطمئنان ذهنيًّا وخارجيًّا. إذا تعرضَ المرء للرفض والمعارضة ظلَّ في قلق واضطراب نفسي ولم تتيسر له السكينة المنشودة وإن لم يتعرض للضرب والأذى الخارجي، ويبدو كأنه في اليسر من حيث الظاهر، وفي العسر من حيث الباطن. وقد لا يلقى المرء المعارضة في الظاهر، ولكنه يتعرض للضرب، فيقال إنه في العسر في الظاهر وليس من حيث الباطن. يقال أن مكّارا أقام وَكْرَه قريبًا من مزرعة فلاح، وجمع حوله أتباعه الذين كانوا يتسوّلون في القرى المجاورة، وكلّ مَن جاء هناك قالوا له: هذا هو الإله فاسجدْ له. كان الفلاح يرى هذا المشهد يوميًا، ولكنه لم يكن يستطيع منعهم لأنه وحيد لا يقدر على مواجهة حاشيته الجالسين حوله كل حين. وذات يوم وجد الفلاح أن الناس قد تفرقوا عن المكار، فاغتنم الفرصة ودخل عليه وجلس أمامه باحترام وقال له: أأنت الإله؟ قال: نعم، أنا الإله. فأخذ الفلاح بتلابيبه ولَكَمَه لكمةً قوية وقال: إذن، أنت الذي أخرجتَ روح أبي، ثم لكمه ثانية وقال: إذن، أنت الذي أخرج روح أمي، ثم لكمةً ثالثة، وقال: أنت الذي أخرج روح

✦ أقرب ما وجدناه بهذا المعنى هو قوله ﷺ: "أَبْشِروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسرُ يسرين." (تفسير الطبري). (المترجم)

أختي. فلم يزل يسمي أقاربه الأموات ويوجّه إليه لكمة تلو أخرى. فخر المكارُ على قدميه يتوسل إليه قائلا: اتركْني سيدي، فأنا لست بإله.

فأحيانًا لا يعارض الناس المدعي ولا يسألونه أي دليل في الظاهر، ولكنهم إذا وجدوا الفرصة رفعوا عليه العصيّ. ومثل هذا الإنسان يكون في العسر في الظاهر، ولا يكون في العسر في الباطن. وأحيانًا يتمتع المرء بالاطمئنان في خارجه، ولكنه لا يجد السكينة في داخله. إنه يؤمن بتعليم دون أن يطمئن به قلبه، فيقول لا أدري إن كان حقا أم باطلا. إذن، فثبت أنه لا يحظى بالاطمئنان الكامل إلا من تيسر له الاطمئنان ظاهرا وباطنا، ولذلك يقول الله تعالى هنا يا محمد، لا شك أن الناس يؤذون أصحابك اليوم أذى شديدا، لكنا سنهيئ لهم السكينة بنوعيها قريبًا؛ السكينة النفسية والسكينة الخارجية؛ بمعنى أن كل فرد من جماعتك سيكون مطمئنا بأنه يتبع الحقّ والصدق ويسلك طريق النجاة، ولن تنتابه شبهة فيما إذا كان الطريق الذي يسلكه يوصله إلى الله أم لا. كما سنمتّعهم بالسكينة الخارجية أيضا، فنضع الحدّ لأذى العدو ونرفع عنهم نهائيا العسر الذي يعانونه اليوم، ونكتب لهم النجاح. فالمراد من يسرين هنا سكينة النفس وسكينة الظاهر، أي سيرفع الله كل شك وشبهة من قلوبهم ويثبتهم على صخرة اليقين لكي يكونوا مؤمنين حقًّا، كما يجلب لهم السكينة الظاهرة فيرفع عنهم ما يصبّ عليهم العدو من ظلم وأذى، ويجعلهم ملوكا غالبين فلا يقدر على إيذائهم أحد.

والمفهوم الثاني لليسرين هو نِعَمُ الدنيا والآخرة، أي سوف يهَبُكم الله نعم الدنيا ونعم الآخرة. ولو قيل ما الدليلَ على أنهم ينالون نِعَم الآخرة؟ فالجواب أن نعمة الرؤيا والكشوف والإلهامات التي يمنّ الله تعالى بها على المؤمنين بحسب كفاءاتهم لدليل على أن ما يعدهم الله من نعم الآخرة وعدٌ حق أيضا.

ومن معاني هذه الآية أنه كلما أتت على الإسلام فترة عسر وضيق أردفها الله بفترة رقي جديد.. أي بعد قيام الإسلام ونجاته من الانقراض سوف يهيئ الله تعالى أسبابا متجددة لرقيه بعد كل فترة انحطاط، ومن المحال أن يتغلب عليه الكفر للأبد.

وكأن الله تعالى يَعِد هنا بحفظ الإسلام وعنايته ويبشر المؤمنين أن تأييد الله سيكون حليفًا لهذا الدين دائما، وأنه سيظل ينهض بعد كل فترة انحطاط.

كما يمكن أن يكون اليُسْران إشارةً إلى البعثة المحمدية والبعثة الأحمدية، حيث بيّن الله تعالى أن الكفر سيموج في تلك الفترة موجًا، ولكننا سنبعث محمدًا مرةً أخرى بعثةً روحانية للقضاء على موجة الكفر.

فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

فرغتَ: فَرَغَ من العمل: خلا ذَرْعُه. وفرَغ له وإليه: قصَد. وفرَغ فلان فروغًا: مات. وفرَغ الإناءُ: خلا. وفرَغ فلان من الشيء: أَتَمَّه. (الأقرب)

فانْصَبْ: نَصِبَ الرجلُ نَصَبًا: أعيا. ونصَب في الأمر: جَدَّ واجتهدَ. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا أمرًا عجيبا، ذلك أن الفراغ يعني عادةً حلَّ المشكلة وانتهاءُ العمل، لكن الله تعالى يقول لرسوله هنا فإِذَا فَرَغْتَ فَاجتهِدْ ثانية. والسؤال هنا: ما دام سيجتهد بعد الفراغ ثانية، فأين الفراغ؟

الواقع أن هذه الآية نبوءةٌ عن ازدهار الإسلام، حيث بيّن الله هنا سموّ الهدف الذي جعله لرسوله. أحيانًا يقع في الدنيا انقلاب سريع ولكنه لا يكون ثابتا، بل سرعان ما ينتهي، وعلى النقيض تقع في الدنيا ثورات بالتدريج، ولكنها تغيِّر وجهَ العالم لفترة طويلة. والله تعالى يخبر هنا رسوله ﷺ أن تقدُّمَك سيكون تدريجيا، ولكن نتائج جهودك تكون ثابتة دائمة. ستواجه في البداية مشكلة، وبعد التغلب عليها والصعود إلى مقام أرفع ستواجهك مشكلة أخرى، فمِن واجبك أن تذلِّلها وتصل إلى مقام أرفع، لتجد بعدها مشكلة ثالثة لتتغلب عليها وتزداد رفعة بدون توقف. وكأنها عملية مستمرة في الرقيّ لا نهاية لها. فلن تأتي في حياتك مرحلة بحيث تظن أنك قد أتممتَ مهمتك وبلغت الرفعة المنشودة. فمن كان غايته الصعود إلى قمة ارتفاعها ٥٠٠٠ قدم، فإنه إذا وصل إليها جلس هنالك قائلا: ها قد بلغتُ

غايتي، أما الذي غايته أن يصل إلى كل قمة باستمرار، فلن يتوقف عند أي قمة، بل سيظل يصعد من قمة إلى أخرى بدون توقف. والحق أنه لا نهاية للمهمة العِلمية والعَملية التي أناطها الله برسوله الكريم، فلذلك يخبر الله هنا رسوله بأننا لم نجعل لك غاية محدودة، بل فتحنا عليك باب ترقيات غير عادية، فكلما أنجزت مهمة فتذكَّرْ أن أمامك مهمة أخرى، وإذا أنجزت الأخرى فاعلمْ أن بعدها مهمة غيرها تنتظرك، فمن واجبك أن تنجزها وتظل في الصعود بعد الصعود، والرفعة بعد الرفعة بكل ما أوتيت من قوة، فلا تتوقفْ خطواتك عند مقام واحد. وكأن في قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ إشارةً إلى أن رحلة النبي ﷺ رحلة لا نهائية، حيث أخبر الله تعالى أن أعماله ﷺ ستظل تزداد، ولن يأتي عليه وقت يمكن القول فيه إنه قد بلغ غايته وفرغ من عمله. كلا، بل إذا فرغ من مهمة بدأتْ أخرى، وإذا فرغ منها بدأت ثالثة.

كنا نلعب في طفولتنا لعبةً تبيّن هذا المفهوم جيدًا؛ فكان أحدنا يجلس على الأرض فيضع الآخرون على رأسه قبضات أيديهم بصورة عمودية كأنها منارة، فكان أحدنا يقول: كم بقي من الثقل؟ فيجيب الآخر: إذا أزلتَ قبضة فالقبضة الأخرى جاهزة. كذلك يخبر الله رسوله الكريم أننا قد قدّرنا لك ترقيات غير عادية، فكلما حللت معضلة سترى أمامك معضلة أخرى لتحُلّها وتتقدم إلى مزيد من مقامات القرب والمحبة. فليس هناك مقام يمكن اعتباره آخر مقام في رحلة رقيك. كلا، بل عندما تصل إلى مقام سينفتح أمامك باب جديد للرقي، وهكذا لن تنتهي ترقياتك أبدا. نحن نَعِدُك بالنجاح وإزالة كل الصعاب، ولكن ينبغي أن لا تظن بعد أي نجاح وانتصار أن مهمتك قد انتهت. كلا، بل ستواجه محنًا جديدة بعد كل فتح، لأن من أسرار الرقي الروحاني أن يواجه المرء صعوبات جديدة ليحلّها، فلا تظنَنّ أن هجمات الشيطان ستكون من نوع واحد، وأنه يكفيك أن تهزمه في هجوم معين، بل إن صولات الشيطان شتى، فهي صولات عِلمية وعَملية وفكرية وسياسية واقتصادية، وإنه لا يزال يصول صولة تلو أخرى باستمرار؛ فإذا

قتلتَ عدوًا وتقدمتَ، فعليك أن تقتل عدوا آخر وتتقدم، ثم ثالثا ورابعًا، وهكـذا تزيح من طريقك عدوًا بعد عدوّ، لتحلّق في سماوات قرب الله تعالى بسرعة شديدة.

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَبۡ ﴿٩﴾

التفسير: أي يا محمد، حين تعبُر هذه القمم واحدة بعد أخرى، ستجدنا هناك. إننا نقيم في القمم، ولا يمكن أن يصل إلينا إلا من يبذل جهدًا لا حدود له، فـلا تتوقّفَنَّ عند مقام في سفر وصالنا ولقائنا، بل عليك أن تتقدم باستمرار، فإذا بلغتَ المقام العيسويّ فلا تتوقف عنده بل اصعدْ، وإذا بلغتَ المقام الموسوي فلا تتوقـف عنده بل اصعدْ، إذا صعدتَ إلى السماء الأُولى فلا تتوقف عندها، بل شمِّـرْ عـن ساعديك لتصل السماءَ الثانية، فإذا بلغتَها فاجتهدْ للصعود إلى الثالثة، فإذا صعدتَ إليها، فجاهِدْ للوصول إلى السماء الرابعة فالخامسة فالسادسة فالـسابعة، ثم اسـعَ لاجتيازها أيضا لتعرج أكثر وأكثر، وستجدنا ننتظرك هناك، وسوف تلقانا وتنـال جزاءك.

سورة التين

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية في قول الجمهور. وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنيـــة، كما أورد قول قتادة بأنها مدنية، ولكن يخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحّاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: أُنزلت سورة التين بمكة؛ فهذه الرواية تبطل ما رواه القرطبي عن ابن عباس، وتؤكد أنها مكية عنده.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله، أي أنها مكية. أما باقي العلماء فاعتبروها مكية، رغم رواية القرطبي أنها مدنية. (فتح البيـــان، القـــرطبي، وروح المعاني)

ورد في البخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجة وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان النبي ﷺ في سفرٍ فصلّى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعتُ أحدًا أحسنَ صوتًا ولا قراءةً منه. وعنه قال: صليت مـــع رســـول الله ﷺ المغرب، فقرأ بالتين. أخرجه الخطيب.

وقد قال "نولدكه" المستشرق الألماني إن هذه السورة قد نزلت بعـــد ســـورة البروج، أي في مكة في أوائل البعثة. وأما القسيس "ويري" فيؤيـــده ويـــضيف أن أسلوبها أيضا مكيّ. (تفسير "ويري" للقرآن)

لقد قلت مرارا إن قول القسيس إن "أسلوبها" مجردُ مماحكةٍ وتعنُّتٍ، إذ لم يكنْ يعرف العربية جيدا، فكيف يعرف أسلوب السورة؟

وكذلك قال "ويري" إن كلمات ﴿هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ تشير بوضوح إلى كون هذه السورة مكية، لأن كلمة ﴿هذا﴾ إشارةٌ إلى مكة.

لا شك أن حجّته هذه قيّمة، ولكنها ليست قطعية. نحن نتفق معه في أن هذه السورة مكية، ولكنه كتب أن بعض المسلمين يعتبرونها مدَنية متمسكين بدون وعيٍ بالأحاديث التي وُضعت لشرح القرآن، وطريقهم هذا منكَر.

لا شك أن قول "ويري" هذا يدل على بغضه الشديد، لأن جمهور المسلمين يعتبرونها مكية. ثم إذا كان المسلمون يضعون الأحاديث لمصلحتهم فكانت مصلحتهم تكمن في اعتبار هذه السورة مكية، فما دام الجمهور يعتبرها مكية فاتهامه المسلمين بهذه التهمة -وخاصة اعتبار الأحاديث موضوعة- أمرٌ مخجل جدًّا. لقد بينتُ من قبل أن الروايات تعتبر هذه السورة مكية، والقرطبي وحده ينقل رواية تقول إنها مدَنية، وقد يكون هذا خطأ الناسخ، وحتى ولو لم يكن الأمر كذلك، فإن القرطبي ليس راويا، إنما هو ناقل رواية، وقد قلت إن الرواة كلهم يعتبرونها مكية لا مَدَنية. أما اعتبار "ويري" هذه السورة مكيةً بناءً على أسلوبها، فهذا مجردُ مماحكةٍ وتعنُّت. فلو وضعنا القرآن الكريم أمام "ويري" وقلنا له: إذا كنت قادرا على معرفة الكلام بأسلوبه، فأخبِرْنا أي آيات من سورة ما مكية وأيها مدنية، فلا شك أنه سيرتكب عشرات الأخطاء. كل ما في الأمر أنه وجد الروايات كلها متفقة على كون هذه السورة مكية، فقال فلأطرحْ هذه القضية بأسلوب جديد، وأقول إن أسلوبها يدل أنها مكية. مع أن معرفة الكلام من خلال أسلوبه ليس سهلا كما قلت آنفًا. الحق أن مَن يتدبر في الكلام ليل نهار بعمق ويبذل جهدًا عقليا كبيرا لا يستطيع أيضا معرفة الكلام من خلال أسلوبه إلا بصعوبة. أما الآخرون فالأمر صعب عليهم جدًّا وقد لا يقدر عليه إلا واحد من مائة ألف شخص. فمثلاً إن جميع المسلمين يعرفون القرآن ويقرءونه، ومع ذلك نجد أن كثيرا منهم يذكرون في خطبهم أحيانًا أحاديث ضعيفة على أنها آيات من القرآن الكريم، مع أنهم أكثرُ إلماما بالقرآن الكريم من هذا القسيس.

كان من عادة المولوي محمد أحسن الأمروهي أنه كلما بدأ المسيح الموعود عليه السلام كلامه قاطعَه فورًا. فمثلا لو قال عليه السلام إن القرآن الكريم قد ذكر أمرًا كذا بأسلوب لطيف جدا، قاطعه المولوي الأمروهي قائلا: سبحان الله! ما ألطفَه من بيان! ومن

ذا الذي يقدر عليه! ومرةً خرج المسيح الموعود عليه السلام للنـزهة وكنت بين مرافقيه، فقال عليه السلام: لقد تلقيتُ اليوم وحيًا يتضح منه الفرق بين كلام الله وكلام العبد. فلم يلبث المولوي الأمروهي أن حرّك يديه وقال: سيدي، لا شك أن الفرق بين كلام الله وكلام العبد كالفرق بين السماء والأرض! سيدي، فمتى يجاري كلامُ العبد كلامَ الله تعالى؟ ولما سكت قليلا استأنف المسيح الموعود عليه السلام حديثه وقال: كان الحريري قد بلغ الذروة في الأدب العربي، ولكن كلامه يفتقر إلى الدقائق الموجودة في كلام الله تعالى. فبدأ حضرة الأمروهي يقول: سيدي، الحريري؟ ما قيمة الحريري؟ وأنَّى له أن يجاري كلامَ الله في علوّ شأنه وعظمته وقوته؟ فقال عليه السلام: خُذوا مثلا هذه العبارة. وما إنْ سمع حضرة الأمروهي تلك العبارة حتى قال: سيدي، هل هذه جملة؟ هل هذه جملة عربية؟ أنّى للحريري أن يعرف العربية؟ مع أن تلك الجملة كانت وحيًا للمسيح الموعود عليه السلام، ولم تكن قولاً للحريري. فقال عليه السلام: على رِسْلِك حضرة الأمروهي، إنه ليس قولاً للحريري، إنما هو وحي أنزله الله عليّ اليوم.

فترى أن المولوي محمد أحسن الأمروهي رضي الله عنه كان شيخًا كبيرًا يقضي ليله ونهاره في قراءة الكتب العربية، فلو كانت معرفة الكلام بأسلوبه سهلاً لهذه الدرجة لعرف على الفور أن تلك الجملة ليست من كلام البشر، بل هو كلام الله، ولكنه أخطأ وظن الوحي الرباني كلام البشر.

لا جرم أنه يمكن للمرء أن يعرف بالتخمين أن السورة مكية أو مدنية نتيجة كثرة استئناسه بالقرآن ووجودِ المشابهة في العبارات، ولكن هذا التقدير ليس حجة. فالكلمات هي هي تقريبًا في القرآن وفي الكتب العربية الأخرى. فمثلاً قد وردت كلمة الرزق والجهاد والغد وغيرها في القرآن كما وردت في الكتب الأخرى، ومع ذلك فهي لا تبلغ شأو كلمات القرآن عظمةً وروعة؛ ذلك أن الاشتراك اللفظي وحده ليس بشيء، بل إن ما يميّز الوحي القرآني هو نظم كلمات القرآن كحبات العقد مما لا يوجد نظير له في الدنيا. ومع ذلك ليس بوسع أحد أن يدعي بناءً على

اجتهاده أنه قادر على التمييز بين كلمات القرآن وغيره بصورة قطعية، إلا إذا كان حافظا للقرآن الكريم أو كالحافظ.

فالحق أن اعتبار القسيس "ويري" هذه السورة مكيةً نظرًا إلى أسلوبها إنما هو إعجابه بنفسه؛ فإننا لو وضعنا أمامه آيات قرآنية مختلفة وسألناه أن يميز لنا بين المكية والمدنية منها لارتكب مئات الأخطاء. إنه لا يعرف الأسلوب المكي من المدني من الآيات إلا بقصرها أو طولها فقط، فالطويلة منها مدنية عنده والقصيرة مكية، مع أن هذا التمييز يمكن أن يقوم به طفل عادي.

فثبت أن هجوم "ويري" على المفسرين والأحاديث ليس في محله، وهو دليل على بغضه وحقده تجاه الإسلام؛ ذلك أن الرواة المسلمين أنفسهم يعتبرون هذه السورة مكية، بل الحق أن "ويري" نفسه لم يعرف أنها مكية إلا بناء على ما رواه المسلمون أنفسهم، ولولا ما رووه ما عرف ما إذا كانت هذه السورة مكية أم مدنية.

الترتيب والترابط:

تكمن علاقة هذه السورة بصورة الشرح في أن الله ﷻ أخبر في السورة السابقة أن عاقبة محمد (ﷺ) ستكون خيرا، لأن كل ما هو ضروري للعاقبة الحسنى ميسّر له، بينما أخبرَ في هذه السورة أن شهادة تاريخ الأمم السابقة أيضا تؤكد نجاحه. ذلك أنه عندما يُقدَّم للمرء دليل عقلي على أمر لا يطمئن به تماما، بل يريد عليه دليلا تاريخيا أيضًا ليعلم أن هذا ممكن بالفعل، وسورة الشرح تقدّم دليلا عقليًّا، وأما سورة التين فتقدّم أمام الكافرين دليلاً تاريخيًّا؛ حيث تُبيِّن لهم أنه قد سبق أن كتب الله لأمم سابقة النجاح في ظروف مماثلة، فإذا كان الانتصار حليفًا لآدم ونوح وموسى رغم الظروف غير المواتية، وبأسباب روحانية فقط، فيمكن أن تستنتجوا من ذلك أن هذا ممكن الآن أيضًا. وقد أعاد الله نفس الموضوع بعد ذلك في السورة التي تلت هذه السورة أيضا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿٢﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٣﴾

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٤﴾

التفسير: أي نقدّم شهادةً التِّينَ وَالزَّيْتُون وَطُورَ سِينِاء وَهَذَا البَلَدَ الأَمِين. وقال صاحب "فتح البيان": قال أكثر المفسرين هو التين الذي يأكله الناس، والزيتون هو الذي يعصرون منه الزيت الذي هو إدامُ غالب البلدان ودهنُهم، ويدخل في كثير من الأدوية.

فهؤلاء القوم يرون أن هذه الأشياء لم تُذكَر هنا استعارةً وتمثيلا، وإنما هي التين المادي الذي يأكله الناس والزيتون المادي الذي يستعملون زيته إدامًا أو يضعونه في أنواع المخلّلات. علمًا أننا نضع في المخللات زيتًا عاديًا أو خلاًّ، أما في البلاد الغربيّة فيضعون فيها زيت الزيتون عادةً.

وقال الضحاك إن التين والزيتون هو المسجد الأقصى. وقال ابن زيد: هو مسجد بيت المقدس. وقال قتادة: المراد منها الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال عكرمة وكعب الأحبار: المراد بيت المقدس. وعن ابن عباس قال: بلاد فلسطين، وقال أيضا بيت المقدس. ويقول صاحب فتح البيان بعد إيراد هذه الأقوال كلها: "وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ونقل. وأعجبُ مِن هذا اختيارُ ابنِ جرير للآخِرِ منها، مع طول باعه في علم الرواية والدراية!" (فتح البيان)

علمًا أن ابن جرير مفسِّر ومحدِّث كبير ذو رأي رائع.

ثم يقول صاحب "فتح البيان" قال الفراء: سمعتُ رجلا يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلتُ: هَبْ أنك سمعتَ هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبُت اللغةُ! ولا هو نقل عن الشارع. (فتح البيان)

إن هذه الجملة التي خرجتْ مِن قلم صاحب "فتح البيان" تجعلني أثني عليه، إذ من المحير أن ينقل رجل مثل الفراء هذا الكلام! مع أن القول الذي سمعه يمكن أن يكون قائله ولدًا صغيرًا أو شخصًا بسيطا لا علم له باللغة، فكيف يمكن تأسيس تفسير القرآن على قول واهٍ من شخص مجهول. كان عليه إما أن يقول إنني عالم اللغة وأرى أن هذا المعنى صحيح، أو يقول إني سمعت هذا التفسير من فلان من الأدباء أو القبائل، ولكنه يقول سمعتُ شخصًا يقول أن المراد من التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. إنما يماثل ذلك أن يقول "غالب" أو "ذوق": سمعتُ ولدًا غبيًا من قريةٍ يشرح بيت الشعر الفلاني هكذا.

باختصار، إن تعليق صاحب "فتح البيان" لطيف جدا، إذ يقول إنني لا أصدّق أنه سمع هكذا من شخص، وإذا كان قد سمعه فعلاً، فكيف يصح تفسير القرآن بناءً على قول كهذا.

ولو أن صاحب "فتح البيان" تمسكَ بقوله هذا لكان جيدا، لكنه هو الآخر قد وقع في أخطاء مماثلة في مواضع أخرى.

وقال محمد بن كعب: الزيتون هو مسجد إيليا*. وقيل أنه على حذف مضاف، أي منابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، ولا مِن قول مَن لا يجوز خلافه. وقال الرازي: أما الزيتون فهو فاكهة مِن وجه ودواءٌ مِن وجه، ويُستصبَح به (أي يستضاء به). ومَن رأى ورقَ الزيتون في المنام استمسكَ بالعروة الوثقى.

وقال ابن كثير: قال القرطبي هو مسجد أصحاب الكهف. وروى العوفي عن ابن عباس أنه مسجد نوح الذي على الجوديّ. وقال بعض الأئمة: هذه مَحالٌّ ثلاثٌ بعث الله في كل واحد منها نبيًّا مرسلاً من أولي العزم أصحابِ الشرائع

* أي القُدس، وهو من أسمائها القديمة. (المترجم)

الكبار؛ فالأول محلّه التينُ والزيتون، وهو بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام، والثاني هو طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران، والثالث مكة، وهذا البلد الأمين الذي مَن دخله كان آمنا، وهو الذي أَرسل فيه محمدًا ﷺ. قالوا: وفي آخر التوراة ذِكْرُ هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله مِن طور سيناء -يعني الذي كلّم الله عليه موسى بنَ عمران- وأشرقَ من ساعير -يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى- واستعلنَ مِن جبال فاران- يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدا ﷺ. (التثنية ٣٣: ٢)

هذه فقرة شهيرة في التوراة تتحدث عن بعثة النبي ﷺ، وعندي أنها أول قول ذكره المفسرون في محلّه، حيث وردت هنا نبوءة عن بعثة النبي ﷺ، وإلا فإن العبارات التوراتية التي يشير إليها المفسرون عادة تكون خاطئة على العموم، فإنها لا توجد في التوراة أصلا، أو لا تكون فيها كما ذكرها المفسرون.

ثم يقول: "فذكَرَهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان.. ولهذا أقسمَ بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما." (ابن كثير)

يبدو أن فقرةً سقطتْ هنا خطأً، أو لأن الترتيب الزماني قد ذُكر من قبل، ولهذا فكَّر المفسر أن القارئ سيفهم تلقائيا أن القرآن لم يراعِ ترتيب التوراة التي ذكرتْهم مراعيةً درجاتِهم لا أزمنتَهم، فذكرت أولاً عيسى عليه السلام ثم موسى ثم رسولنا ﷺ، بل ذكَرهم بحسب أزمنتهم فذكر التينَ والزيتون أولاً اللذين يشيران إلى عيسى الذي هو أدنى درجةً من النبييْن الآخرَين، ثم ذكر طور سيناء الذي يشير إلى موسى عليه السلام الأعلى درجة من عيسى عليه السلام، وفي الأخير قال: وهذا البلد الأمين إشارةً إلى النبي ﷺ الذي هو أفضل من موسى وعيسى كليهما.

هذا التأويل الذي قام به ابن كثير معقول وصحيح جدا. ولقد وجدت رأيه صائبًا في كثير من الأحيان كما هو الأمر هنا، حيث يقول إن التوراة ذكرتْ هؤلاء الرسل بترتيب زمانهم، أما القرآن فذكرهم بترتيب مكانتهم. وهذا أمرٌ لم أقرأه في أي تفسير آخر. إن المفسرين الآخرين عندما يذكرون المسيح عليه السلام يصابون بالرعب بسبب ما ذكره أبو هريرة من أحاديث، ويخافون أنهم إذا اعتبروا أي نبي

أفضل من عيسى فربما يرتكبون إساءة، ولكن ابن كثير- وهو من كبار المفسرين- يعتبر بشكل قاطع المسيحَ الناصري أدنى درجةً من موسى عليه السلام.

يقول المولوي محمد علي في تفسيره: لم يُذكر التين في أي مكان في القرآن الكريم، أما الزيتون فهو مذكور في سورة النور أيضا التي شبَّهت النور المحمدي بالزيتون. من ناحية أخرى شُبِّهَ التين في التوراة بالأمة الموسوية، حيث ورد: "وَإِذَا سَلَّتَا تِينٍ مَوْضُوعَتَانِ أَمَامَ هَيْكَلِ الرَّبِّ......فِي السَّلَّةِ الْوَاحِدَةِ تِينٌ جَيِّدٌ جدًّا مِثْلُ التِّينِ الْبَاكُورِيِّ، وَفِي السَّلَّةِ الأُخْرَى تِينٌ رَدِيءٌ جِدًّا لا يُؤْكَلُ مِنْ رَدَاءَتِهِ." (إرْمِيَا ٢٤: ١-٢)، ثم ورد فيما بعد أن التين الجيد هم خيار بني إسرائيل، والتين السيئ هم أشرارهم. والحقّ أن حادث التينة الشهيرة التي لعنها المسيح إشارةٌ إلى هذا الأمر، حيث ورد: "وَفِي الصُّبْحِ إِذْ كَانَ رَاجعًا إلى الْمَدِينَةِ جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجدْ فِيهَا شَيْئًا إِلا وَرَقًا فَقَطْ، فَقَالَ لَهَا: لا يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إلى الأَبَدِ. فَيَبِسَتِ التِّينَةُ في الحالِ" (مَتَّى ٢١: ١٨-١٩). إذ كيف يمكن أن يسخط المسيح عليه السلام على التينة إذا لم تثمر في غير الموسم؟ الواقع أن هذا الحادث تمثيل بأن التينة تنوب عن أمة بني إسرائيل، ولكن كَتَبَة الإنجيل المتمسّكين بالحرفيّة حوّلوه إلى حادث حقيقي. (بيان القرآن، المجلد الثالث)

هذا ما كتبه المولوي محمد علي، ولكن قوله هذا يماثل قول القسيس "ويري" المذكور قبل قليل. ذلك أن أتباع الإنجيل أنفسهم لا يأخذون هذا الحادث على ظاهره، بل يعتبرونه تمثيلا. أتذكّرُ جيدًا أن المسيح الموعود عليه السلام قدم هذا الحادث أمام المسيحيين في مناظرة مثالاً على أخلاق المسيح الناصري عليه السلام وقال: هذه هي أخلاق المسيح بأنه لَعَنَ التينةَ لأنها لم تأتِ بثمر، مع أنها لم يكنْ لها أي ذنب في ذلك (جشمه مسيحي -أي العين المسيحية- الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٣٤٦). فردّ عليه النصارى: نحن لا نأخذ هذا الحادث على ظاهره، إذ الثابت من الإنجيل أن الموسم لم يكن موسم ثمر التين، فكيف يمكن أن يذهب المسيح إلى التينة ليأكل منها؟ إنما المراد من التينة هنا اليهود، فقد أراد المسيح أن تحيا الأمة اليهودية

بالإيمان به وتحمل أثمارا روحانية، ولكنهم رفضوا الإيمان به، فلعنهم المسيح.. بمعنى أن هذه الأمة قد حُرمتْ من نِعَم الله تعالى إلى الأبد.

لقد ظنّ المولوي محمد علي أنه يقدم تفسيرًا عظيمًا للناس، مع أن النصارى يفسرون هذه الحادثة باعتبارها تمثيلا، وبأنها إشارةٌ إلى دمار اليهود؛ أي أن هذه التينة لم يعُدْ فيها إلا الأوراق، ولن تثمر؛ بمعنى أنه لم يبق لدى اليهود إلا التمسك بظاهر الكلمات و لم تعُدْ فيهم ثمار الروحانية، لذلك فإن شجرة اليهود سوف تجفّ الآن.. أي لن يأتي فيهم نبي.

فثبت أن التين ينوب عن أمة بني إسرائيل، والزيتون ينوب عن الأمة المحمدية، وأن التين والزيتون ليسا مثالين مختلفين، وإنما يتعلقان بطور سيناء والبلد الأمين؛ إذ أُشيرَ بهما أولاً إلى الأمتين الموسوية والمحمدية إشارةً خفية، ثم أشيرَ إلى الأمتين صراحةً بقوله تعالى ﴿وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

لقد كتب الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام أن الله تعالى قد أقسم بالتين والزيتون لأنهما يُستعملان غذاءً ودواء أيضًا، فتارةً يصف الطبيب للمريض تينًا وتارةً أخرى زيتونًا، ومفهوم الآية أن الله تعالى قد وصف للناس وصفةَ "طور سيناء" في زمن، وقد وصف وصفة البلد الأمين في هذا الزمن. (تلخيص مِن "حقائق الفرقان"، المجلد الخامس)

إذن، فهذه الآية مثال على الأسلوب البلاغي الذي يسمى اللَّفّ والنشر، فالتين إشارةٌ إلى أمة بني إسرائيل، والزيتون إشارةٌ إلى الذين ينتمون إلى البلد الأمين. مما يعني أن الخليفة الأول رضي الله عنه قد سبق المولوي محمد علي في بيان المفهوم الذي ذكره الأخير في تفسيره. ومثال السلّتين أيضًا الذي ذكره المولوي محمد علي من الإنجيل قد سمعته بنفسي من فم الخليفة الأول رضي الله عنه، ولكن المؤسف أنه غير موجود في دروسه القرآنية المطبوعة؛ وسببه أن السيد مفتي محمد صادق والسيد قاضي أكمل كانا يكتبان هذه الدروس، ولكنهما كانا يتركان معظم كلماته مكتفين بملحوظات مختصرة لدروسه. ومع ذلك قد ورد في دروس حضرته رضي الله عنه المطبوعة أن الله تعالى قد قدّم التين والزيتون شهادةً لأنهما يُستعملان دواءً علاوة على الغذاء، فإن الطبيب

يصف التين للمريض حينا، وأحيانًا يغير هذه الوصفة فيأمره بتناول الزيتون إذا رآه مفيدًا له.

مما يعني أن الخليفة الأول ﷺ قد ذكر معنًى إضافيًّا، وهو كما أن الطبيب يصف للمريض الزيتون بدل التين، كذلك فلا اعتراض على الله تعالى إذا كان قد استبدل الآن وصفة الزيتون بالتين؟ إن الله حكيم ينزل من السماء علاج المرض بحسب حالة المرضى دائما، فعندما كان الناس بحاجة إلى وصفة التين أنزل التينَ، وحين احتاجوا إلى وصفة الزيتون أنزل الزيتون، وهذا التغيير ليس موضع اعتراض، بل هو دليل على حكمته ﷻ وبأنه لا يفعل إلا ما هو نافع وصالح للعباد.

هذا الموضوع اللطيف جدا لم يذكره المولوي محمد علي لأن فيه دليلاً على أن قائله طبيب، فاقتبس من كلام الخليفة الأول ما لا يشير إليه ﷺ، وتركَ الجزء الذي إذا ذكره تمت الإشارة التلقائية إلى الخليفة الأول ﷺ. لا شك أن المولوي محمد علي قد نال ثناء الناس عليه بذكر هذا الموضوع، فآلاف المسلمين غير الأحمديين حين يقرءون هذا التفسير يقولون إن المولوي محمد علي قد أتى بحكمة رائعة، ولكن الواقع المؤسف أنه لم يُشرْ هنا إلى الخليفة الأول ﷺ الذي ذكَر هذه النقطة الرائعة أول مرة، بل نسبها إلى نفسه. ثم إنه لم يذكر ما ذكره الخليفة الأول ﷺ بشكل كامل؛ حيث ترك من تفسيره ﷺ ذلك الجزء الذي قال فيه: كما أن الطبيب الحاذق يغيّر الوصفة بتغير حالة المريض، كذلك قد غيّر الله تعالى الوصفةَ حسب ظروف الناس، فوصف لهم الآن الوصفة الزيتونية مكان الوصفة التينية. وهذه نقطة رائعة جدًا، لأن الرسول ﷺ قد جاء بشريعة جديدة، فنشأ السؤال الطبيعي: ما الداعي لنسخ الشريعة الموسوية وإنزال الشريعة المحمدية مكانها؟ فأجاب الله تعالى بأنكم تعلمون أن الطبيب لا يصف للمريض وصفة واحدة دومًا، بل إن الطبيب الحاذق يغيّر الوصفة بتغيُّر حالة المريض، فتارةً يصف له التين، وتارةً أخرى يصف له الزيتون، وحينًا يصف له دواءً وحينًا آخر يصف له دواء آخر. ترون هذا كل يوم في الدنيا، فلماذا تعترضون على فعل الله هذا؟ ولماذا تنتابكم الشكوك والشبهات على إنزال الشريعة المحمدية مكان الشريعة الموسوية؟

باختصار، إن هذين المفهومين اللذين ذكرهما المولوي محمد علي إنما هما من المعارف التي ذكرها الخليفة الأول ﵁، وقد ذكرهما محمد علي بصورة ناقصة، كما أنه لم يشر إلى حضرته بأنه صاحب هذه المعارف، مع أن الأمانة تفرض عليه ذِكر اسمه.

لقد سمعتُ من الخليفة الأول ﵁ أن التين والزيتون إشارةٌ إلى المسيح ﵇، والطور إلى موسى ﵇، والبلد الأمين إلى الرسول ﷺ، فهذا يعني أنه قد أيد المعنى الذي ذكره ابن كثير.

قد تبيّنَ من المعاني التي ذكرها المفسرون السابقون أن طبائع العلماء قد مالت من البداية بشدةٍ إلى اعتبار التين والزيتون استعارةً. لا شك أن بعضهم قالوا أن التين والزيتون هنا ماديان، ولكن معظمهم اعتبروهما مجازًا واستعارةً وذكروا لهما معاني مبتكرة، فاعتبرهما بعضهم إشارةً إلى بيت المقدس، وبعضهم إلى فلسطين، وبعضهم إلى المسجد الأقصى ومسجد نوح.

لا شك أن هذا الأسلوب تحكُّمٌ وتعنُّتٌ يفتح بابًا واسعًا للتأويلات البعيدة، ولكن فيما يتعلق بقول البعض إن هناك حذف مضافٍ، فلا يمكن أن يُتَّهموا باتخاذ موقف غير معقول؛ إذ لم يجانبوا الصواب، لأن من قواعد العربية حذف المضاف والاكتفاء بذكر المضاف إليه. فما الحرج إذا قلنا إن المضاف هنا محذوف؟ فقد ورد في القرآن أن إخوة يوسف ﵇ قالوا لأبيهم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(يوسف:٨٣). مع أن الجميع يعرف أن القرية أو العير لا تتكلم. إن كلامهما مستحيل وغير مقبول عقليا، ولكن القرآن يقول إنهم قالوا لأبيهم اسألِ القرية والعير! فتبينَ من ذلك أنهم يعنون: اسألْ أهل القرية وأهل العير. وهناك أمثلة كثيرة أخرى على حذف المضاف في القرآن، غير أنه لا بد من قرائن قوية في مثل هذه الاستعمالات، أما إذا فسرناها بدون قرائن قوية اختلط الحابل بالنابل والمعقول بغير المعقول. والقرينة الواضحة في قوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ هي أن القرية أو العير لا تتكلم، فما دام هذا محالا فثبت أنه ليس المراد من سؤال القرية أو العير إلا سؤال أهل القرية وأهل

العير، فإذا سألهم اتضحت عليه الحقيقة. كذلك إذا كان البعض قد قال في تفسير قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أن المراد بهما المناطق التي يكثر فيها التين والزيتون (فتح البيان)، فلا غرابة في ذلك ولا حرج، إذ لا بد للقرآن من استخدام التعابير العربية والأسلوب العربي، وما دام حذف المضاف هو من قواعد العربية، فلا مانع من أن يستخدم القرآن هذا الأسلوب. أما ما هي القرينة القوية هنا، فالجواب أنها كلماتُ ﴿طُورِ سينينَ﴾ و﴿وهذا البلدِ الأمينِ﴾، إذ الثابت من القرآن أن الطور ومكة مكانان نالا التكريم بسبب نبيين؛ فما دام الأمر كذلك فإن العقل يهدينا أيضًا إلى أن التين والزيتون -وقد عطف عليهما الطور والبلد الأمين- إشارةٌ إلى مكانٍ أو شيءٍ ذي علاقة بنبي، ولذلك ذكرهما الله تعالى آيةً ودليلاً على قدرته وعظمته، كما هو الطور ومكة.

أما الجواب الذي ذكره ابن كثير في الرد على السؤال القائل: لماذا أشير إلى عيسى الطَّيْكِلاَ هنا أولاً؟ فلا شك أنه جواب لطيف يدل على دقة نظره.

أما المعنى الذي ذكره المولوي محمد علي فقد سبق أن ذكرتُ أن الخليفة الأول ﷺ هو صاحب هذا المعنى، ولكن المولوي محمد علي سرقه منه ونسبه إلى نفسه. ولا يسع أحدًا أن ينكر أن المعنى الذي ذكره الخليفة الأول ﷺ لطيف جدا.. أي أن أُمّةً شُبِّهت هنا بالتين وأخرى بالزيتون، حيث بين الله تعالى أنه وَصَفَ الوَصْفة التينية في وقت والوَصْفة الزيتونية في وقت آخر، لأنه طبيب حاذق، والطبيب الحاذق يغيّر العلاج بحسب حالة المريض.

وأقول إن هناك مفهومًا إضافيًّا، وهو أن التين حلوُ المذاق ولكنه يفسد بسرعة، أما الزيتون فلا ينفع كإدام فحسب، بل إن زيته يُستعمل بكثرة في الطعام ويوضع في المخللات لكي تبقى صالحة فترة طويلة. هذا يعني أن التين لا يبقى على حاله طويلا، أما الزيتون فهو يحافظ على الأطعمة الأخرى أيضًا، وبهذين المثالين قد أشار الله تعالى إلى أن التعليم الموسوي عرضةٌ للفساد مثل التين، أما أنت يا محمد فنعطيك تعليما سيظل محفوظا من الفساد والخراب، ولسوف يولِّد في العقل الإنساني نورًا يستنبط به من هذا الكتاب علومًا ومعارف جديدة، حيث قال الله تعالى في سورة

النور وهو يشيد بزيت الزيتون ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾(النور:٣٦).. أي أن هذا الزيت عالي الجودة بحيث يكاد يضيء تلقائيا وهو بعيدٌ عن النار. ولا شك أن تشبيه كلام الله تعالى بمثل هذا الشيء الرائع يعني أن الكلام الذي سينزل الآن للدنيا سيكون سببًا لنشر العلوم والمعارف الجديدة ولتبديد ظلمات الجهل والمعصية.

ويوجد في المفهومين المذكورين آنفًا ترتيب طبيعي حيث يشير أحدهما إلى درجة هؤلاء الأنبياء والآخر يشير إلى زمانهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. أي أن هذه الأمثلة تدل على أن الله تعالى قد خلق الإنسان بقوى معتدلة جدا، فكلما بعث الله نبيًا آمن به الناس في نهاية المطاف.

أما المعنى الأول الذي ذكره المفسرون نظرًا إلى النبوءة التوراتية القائلة: جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران (التثنية٣٣: ٢)، فلو اعتبرنا هذه الآيات إشارة إلى هذه النبوءة فسيعني قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنكم لو درستم أحوال أي نبي من هؤلاء فلا بد لكم من الاعتراف أنه قد انتصر في نهاية المطاف. لا شك أن الدنيا عارضتهم في البداية وبذلت كل ما في وسعها للقضاء عليهم، ولكنها اضطرت في الأخير للإيمان بتعاليمهم، مما يدل على أننا قد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. لقد جاء موسى وكتبنا له النصر، لقد جاء عيسى وكتبنا له الغلبة، والآن قد جاء محمد ولا تؤمنون به، ولكن سيأتي يوم تضطرون فيه للإذعان لتعاليمه، فيعلم الناس أننا ﴿خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

باختصار، إن المعنى الذي ذكره الخليفة الأول ﷺ رائع جدا، وكذلك ما ذكره المفسرون القدامى من معان هي رائعةٌ حقًا، ولكني لما تدبرتُ هذه السورة أكثرَ لأرى ما إذا كانت تحتوي على معان أخرى بالإضافة إلى هذه المعاني الرائعة الواضحة، وهبني الله تعالى علمًا جديدا، فعرفتُ أنها لا تتحدث عن عصرين أو ثلاثة، بل عن أربعة عصور، وهكذا قد بيّن الله فيها موضوعا لطيفا للغاية ذا علاقة

وثيقة بقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. لا شك أن معاني هذه الآية تنطبق تمامًا على عصور موسى وعيسى ومحمد ﷺ ولكنها لا تنطبق على العصور الأخرى كلها، ولو انطبقت على العصور كلها أصبحتْ دليلا أقوى وأوضح وأدعى لكشف حُسْن القرآن الكريم وعظمته.

والتدبر يكشف لنا أن الله تعالى يتحدث عن الهجرة منذ عدة سور، حيث أخبر رسولَه أولاً أنه لا بد له من الهجرة، ثم أخبره كيف تتم هجرته، ثم بيّن كيف تتم له الغلبة بعد الهجرة وأخبره كيف يصبح الكفار مغلوبين وكيف ينال الإسلام الشوكة والعظمة. هذا الموضوع بدأ من سورة الفجر ثم تناولته كل سورة بعدها تلميحًا أو تصريحا. عندما يهاجر المرء يقول العدو ضاحكًا: ها هو ذا قد انهزم وهرب وصار مغلوبا. ولو قال للعدو: إني مهاجرٌ اليوم ولكني سأعود بعد فترة منتصرًا، احتقره العدو أيضا وضحك عليه قائلا له: كيف أصدّق أنك سترجع منتصرا؟ إن ما أعرفه هو أنك تفرّ من أمامي الآن معترفًا بهروبك. باختصار، يفرح الشيطان بهجرة النبي إذ انتصر هو وانهزم النبي في الظاهر. وكأن الهجرة تصبح علامة ظاهرة لانتصار الشيطان، فيخاف ضعاف الإيمان ويتساءلون: لعلّ هذه الجماعة التي تدعي أنها من عند الله ستهلك وتباد. لقد كان مؤسسها يقول لنا إنا سننتصر على العدو، ولكنه الآن بنفسه يفرّ خوفًا منه. فحيث إن الهجرة انتصار ظاهر للشيطان، وتُزعزع ضعاف الإيمان فضرب الله هنا أربعة أمثلة لهجرة الأنبياء وبيّن أن الشيطان هزم أنبياء الله ظاهرا ثلاث مرات في الماضي، وقام بمضايقتهم حتى أخرجهم من أوطانهم، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد سترهم الله تعالى، وبدّل هزيمتهم فتحًا؛ وهذا ما سيحدث الآن أيضا. فاعلموا، أيها الكافرون، أنكم ستؤذون رسولنا حتى يضطر للهجرة، فتفرحون بهجرته، ولكنكم ستلقون الخزي والهوان في الأخير. وها نحن نضرب لكم ثلاثة أمثلة من التاريخ، حيث أخرج الشيطان أنبياء الله تعالى من أوطانهم، وفي كل مرة لقي الذل والهوان في نهاية المطاف، وكانت هجرة الأنبياء من أوطانهم سببًا لهلاك أعدائهم.

والمثال الأول هو مثال آدم ﷺ. لقد انهزم آدم من الشيطان في بادئ الرأي، ذلك أن الله تعالى كان قد نهاه عن الاقتراب من شجرة، ولكنه اقترب منها بإغواء الشيطان، فتعرضَ لأنواع الأذى والمحن. يقول الله تعالى مشيرًا إلى هذا الحادث: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه:١١٨-١٢٣). وقوله تعالى ﴿لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ يعني أنك لن تعاني من العطش والحرّ. وأما قوله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ... ﴾ فيعني أن الشيطان استشاط غضبًا عندما قال الله لآدم ما قال، ففكّر الشيطان أن الله تعالى يبشر الآن عن انتصار آدم عليه، فجاء إلى آدم متنكرًا وقال: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ إذا أكلتَ منها نلتَ حياة الخلود؟ وهل أدلّك على مُلْكٍ لا يفنى ولا يباد؟ فانخدع آدم ﷺ من كلامه المعسول، فأكل هو وزوجُه.. أي جماعتُه أو زوجتُه.. من تلك الشجرة. ولما كان عمله هذا خلافًا لمشيئة الله تعالى، ظهرت نتائجه السيئة فورا؛ فأدرك آدم أنه قد ارتكب خطأ كبيرا بمخالفته المشيئةَ الإلهية. لقد كان يظن أن هذا هو طريق الفلاح، ولكن ما حصل هو أنه لما انصاع للعدو تضاعفت مشاكله وتوقفتْ فجأةً الانتصارات التي كان يحققها من قبل.

و لم تكن الحيلة التي احتالها الشيطان لإغواء آدم إلا أنه قال له: سوف تنفعك أواصرنا الثنائية كثيرًا، حيث نزداد قرابةً وصداقةً ومحبةً ووئامًا مما يساعدك على الرقي بسرعة. ثم قال له: أليس الله تعالى يريد لك الرقي سريعا؟ متى كره الله تعالى هذا الرقيّ لك بتوطيد العلاقات بيننا وإزالة الغربة من بيننا؟ فأُعجب آدم ﷺ بكلامه ووقع في فخه وتصالح مع عدوه هذا. وما أن تصالحَ حتى توقفت انتصاراته ونجاحاته فجأةً وظهرت النتائج السيئة لاختلاطه بعدوه. وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.. أي انكشفت عليهما عوراتهما بأكل ثمر تلك

الشجرة، وظهرت لهما عواقب تصرفهما، فأحسّ آدم أنه قد ارتكب خطأً فادحًا بمَدِّ يدِ المحبة والصلح إلى الشيطان، فحاول تفاديَ خطئه، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.. أي أخذ هو وزوجه يغطّيان نفسيهما بورق الجنة. ﴿وعصى آدمُ رَبَّه فَغَوَى ﴾.. أي وقع في البلاء والمعاناة. ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.. أي هداه وجماعته طريق النجاح.

فترى هنا أن الشيطان قد هزم آدم في الظاهر بخداعه، ولكن آدم لم يلبث أن بدأ يغطي نفسه بورق الجنة، فتبدلتْ هزيمته فتحًا، وانتصر آدم في نهاية المطاف.

ومن معاني الورق: الزينةُ، حيث ورد في القاموس: الورق: جمالُ الدنيا وبهجتها. وكذلك يعني الورق النسل، يقال أنت طيّبُ الورق، أي طيب النسل (الأقرب). ونظرًا إلى هذين المعنيين سيكون لقوله تعالى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ مفهومان: أولهما: أن آدم عليه السلام بدأ يستر نفسه بزينة الجنة وجمالها، وثانيهما: أنه حاول التصدي لخداع الشيطان من خلال نسله الطيب، فانتصر عليه في النهاية.

وهنا ينشأ سؤال: ما العلاقة بين ورق الجنة والتين، فإن ورق أي شجرة يمكن أن يُسمّى ورق الجنة؟

الجواب: أولاً: عندما نتوجه إلى علم تأويل الرؤيا نجد أن "التين في المنام يفسَّر بالصلحاء وخيار الناس" (تعطير الأنام في تعبير المنام للنابلسي: التين). وهذا هو معنى ورق الجنة، لأن الورق هو النسل الطيب، وورق الجنة يعني النسل الطيب في الجنة، وهم الصلحاء والمؤمنون. فورق الجنة بحسب تعبير الرؤيا يعني ورق التين.

والآن هلمّ ننظرْ ما إذا كانت لقصة آدم عليه السلام علاقة خاصة بالتين؟ ونقرأ في التوراة ما يلي: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لا تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لا تَأْكُلا مِنْهُ وَلا تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ

أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا، فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ." (التكوين ٣: ١-٧)

أي أن الشيطان لما احتال لإخراج آدم عليه السلام من الجنة لفّ آدم ورق الجنة حوله، وهكذا ستر عورته المنكشفة. ولقد سبق أن بيّنّا أن ورق الجنة وورق التين شيء واحد حسب تأويل الرؤيا، لأن التين يعني الصلحاء والمؤمنين، وكذلك ورق الجنة يعني النسل الطيب في الجنة، وهم الصلحاء والأطهار. فالتوراة والقرآن متفقان على أن الشيطان لما نجح في خداع آدم، لفَّ آدم ورق التين حوله، أي لما حاول الشيطان إفشال الخطة الإلهية بعقد صلح مع آدم، انتبهَ آدم إلى خطئه فجأةً، فضمّ إليه جماعة المؤمنين وخيّب بمساعدتهم كيد الشيطان. لقد أراد الشيطان أن يهزم آدم بهذه المكيدة، ولكن بدلاً من أن يؤدي تصرف آدم هذا إلى فساد، تولدت فيه صحوة جديدة فقطع أشواطا حثيثة في مجال الرقي، وذلك كما قال الله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.. أي أنه تعالى عاد عليه برحمته وكتب له مزيدا من الرقي. ومثاله ما فعله بنا حزبُ "الأحراريين"* عام ١٩٣٤م، حيث أثاروا فتنة كبيرة ضد الأحمدية ليسحقوها ويقضوا عليها، لكن فتنتهم تسببت في صحوة جماعتنا وتقدُّمها، فازدهرت أضعافا مضاعفة. كذلك لما كاد الشيطان لآدم عليه السلام وجماعته للقضاء عليه، كشف الله تعالى لآدم شرّ مكيدته، فانفتحت عيونه وبصيرته، فلفَّ حوله ورق الجنة فورًا وأعلن للعدو أن اتحادنا معك محال، فلا يمكن أن تضمونا

* حزب الأحرار أو الأحراريين طائفة من المشايخ وأتباعهم المتعصبين المتطرفين الذين اشتهروا بولائهم للهنادك في الهند ومعارضتهم الشديدة لفكرة تأسيس باكستان، ومخالفتِهم للقائد الأعظم محمد علي جناح مؤسس باكستان حيث كانوا يسمونه "الكافرَ الأعظم". لقد انضم هؤلاء إلى حزب المؤتمر الهندوسي المعارض لتأسيس باكستان كدولة مستقلة للمسلمين. ولكن عندما تأسست باكستان فروا إليها وحاولوا بكل وقاحةٍ الوصولَ إلى الحكم بطرق شرعية وغير شرعية. كما إنهم أعداء ألداء للجماعة الإسلامية الأحمدية، وهاجموا في ١٩٣٤م مركزها في قاديان بغية تدميرها بمساندة الحكام الإنجليز. (المترجم)

إليكم باسم الصلح والسلام. لقد جعل الله تعالى لنا سبيلاً غير سبيلكم، فلن تتخذ جماعتنا سبيل المداهنة ولن تصادق على ما تقولون. ومنذ ذلك الحادث سنّ الله تعالى قانونًا أبديًا أن جماعة المؤمنين ستبقى منفصلة عن الكفار. كان الله تعالى قد أمر المؤمنين ألاّ يقعوا في خداع الشيطان قبل مكيدته هذه أيضًا، ولكن لما حدث مع آدم ما حدث، سنّ الله قانونًا أبديًّا أن من واجب جماعات الأنبياء أن يعيشوا بعيدين عن الشيطان وأظلاله.

هناك أحكام تبدو جديدة، ولكنها ليست كذلك في الحقيقة، فمثلاً قد أُمر أفراد جماعتنا ألا يُصلّوا وراء غيرهم، ولا يتزاوجوا منهم، ولا يُصَلّوا على موتاهم، فيقول الطاعنون: لماذا أُوتيتْ جماعتنا هذه التعليمات الصارمة؟ إن هؤلاء لا يدرون أنها ليست أحكامًا جديدة، بل هي نفس الأحكام التي نزلت في زمن آدم. لم تكن هذه الأحكام الإلهية قد نزلت حتى قبل إغواء الشيطان لآدم، ولكنه حين نجح في خداعه مرةً، سنَّ الله قانونًا أبديًّا أنّ على الجماعات الربانية أن يعيشوا منفصلين عن أعدائهم؛ ولذلك نجد أن كل نبي بُعث إلى الدنيا قام بفصل جماعته عن الآخرين، و لم يحدث قط أن سمح نبيّ لأتباعه بالاختلاط مع الأغيار.

باختصار، إن الشيطان كاد لآدم عليه السلام لإخراجه من الجنة، فاضطر للهجرة منها، ولكن الله منحه بعد ذلك التينَ (أي النسل الطيب من الصلحاء) فعملوا على نجاحه، حتى إنك لا تجد اليوم من أتباع إبليس أحدا، بينما تجد المؤمنين بآدم في كل مكان.

لقد تبين من هذه الفقرة التوراتية أن عورة آدم سُترت بورق التين، وهو الوحي بلغة المجاز، ولكن اليهود لم يفهموا الأمر فظنوا أن آدم تعرّى بالفعل ثم تغطّى بورق التين.

والواقع أن الله تعالى نهى آدم عليه السلام عن الاقتراب من شجرة، أي عن الاختلاط بتلك الحية وزملائها الذين كانوا من الجن -الحية تعيش تحت الأرض، كذلك كان هذا العدو لآدم هو رجل كهوف (cave man) أي الرجل الذي يسكن المغارات- فجاء وخدع آدم وقال له: إن مصلحتك تكمن في أكل ثمرتنا، أي بإنشاء العلاقات

معنا، والله تعالى أيضًا يريد منفعتك في الحقيقة، ولو تصالحتَ معنا لتحققت المشيئة الإلهية على أحسن وجه. فانخدع آدم الطَّيْلاِ بقوله وأنشأ صلات مع هؤلاء القوم فتضرَّر. ثم تستّر بورق التين بناءً على وحي الله وأمره، أي جمع حوله المؤمنين وقطع صلاته مع الكافرين، وهكذا تدارك المعاناةَ والضرر الذي أصابه نتيجة الهجرة. لقد انتصر عليه الشيطان في بادئ الأمر، أما في الحقيقة فإن آدم هو المنتصر إذ انتبه إلى أهمية تنظيم القوم، كما تهيأت له أسباب النهوض بدلاً من السقوط والتردي، وذلك كما قال الله تعالى ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه:١٢٣).

فكأنما يقول الله تعالى لأهل مكة بقوله ﴿والتين﴾ تدبروا قصة آدم، فقد أغواه الشيطان حتى اضطر للهجرة وترك الجنة الأرضية التي كان فيها، ولكن اجتمعتْ حوله جماعة من المؤمنين نتيجة هذه الهجرة، فخيّب مكائد الشيطان كلية بمساعدة هؤلاء الأعوان. فيا أهل مكة، ستعاملون محمدًا هكذا تمامًا، ولكن لن تكون النتيجة هذه المرة إلا التي ظهرت في وقت آدم، فإن التين سيستر محمدا، وستجتمع حوله جماعة من الصلحاء نتيجة هذه الهجرة.

وقال موسى الطَّيْلاِ لربه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(طه: ٢٦)، أما محمد ﷺ فقد قال له ربه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(الشرح:٢). وكذلك أخبر الله هنا أن آدم بدأ يلفّ ورق التين حول نفسه لستر عورته، وأما محمد رسول الله ﷺ فالتفّ حوله ورق التين بنفسه، وقالوا له عند غزوة بدر: يا رسول الله، لسنا كأصحاب موسى حتى نقول لك اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنا هاهنا قاعدون، بل سنقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن أمامك ومن خلفك، ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة. (البخاري، كتاب المغازي)

فما أعظمَ الفرقَ بين أتباع آدم وأتباع النبي ﷺ! لقد اضطر آدم الطَّيْلاِ ليلفَّ حوله ورق التين بجهده، أما رسول الله ﷺ الذي كان أعظم درجة من آدم فقد التفّ ورق التين حوله بنفسه.

باختصار، يقول الله تعالى هنا: أيها الكافرون، تظنون الهجرة هزيمة لمحمد وانتصار لكم! ألا ترون كيف أراد الشيطان في الماضي مرارًا أن يهزم أنبياء الله تعالى ولكنه مُنيَ بالهزيمة في النهاية دوما. ومثال آدم بين أيديكم. لقد أخرجه الشيطان من الجنة فخرج منها، ولكن ماذا كان المآل؟ لقد تسببت هجرته في انتصاره، حيث جمع حوله ورق التين وأحبط مكائد العدو، فكذلك الآن ستحسبون أنكم قد انتصرتم بطرد محمد من مكة، ولكن هجرته نفسها ستؤدي إلى هلاككم وانتصاره، مما يكون دليلا على أن الله تعالى لم يخلق الإنسان ليخذله، بل ليكتب له الرقي والنجاح.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾، أي نضرب لكم مثال الزيتون في المقام الثاني. ومثال الزيتون إشارة إلى حادث نوح عليه السلام. لقد آذاه قومه أذًى شديدًا، فحل بهم العذاب في النهاية فهلكوا واضطر نوح للهجرة من عندهم. لقد ذكر الله هذا الحادث في القرآن بقوله ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(هود: ٣٧-٤٥)

فترى أن نوحا عليه السلام أيضا هاجر من قومه ووطنه، وأمر ابنه أن يأتي معه تاركًا وطنه، ولكنه رفض وقال لا حاجة بي لترك الوطن، فإذا كنتَ تترك الوطن فاتركه،

أما أنا فسأصعد الجبل. مما يعني أن قوم نوح ظنوا أنهم لن يهلكوا، بل سيعيشون في الجبال في أمن ودعة بعد خروج نوح من بينهم شاكرين بأن البلاء (نوح) قد زال عنهم. فكانت النتيجة أن نوحًا نجا وهلك قومه الذين ظنوا هجرته انتصارا لهم.

لقد أشار الله تعالى إلى هذا الحادث بقوله ﴿والزيتون﴾.. أي لقد سمعتم قصة آدم من قبل، والآن فكِّروا في قصة نوح. لقد اضطر نوح للهجرة من وطنه بسبب معارضة قومه، ولكن أعداءه هم الذين هلكوا نتيجة هجرته، أما هو وأتباعه فوجدوا غصنًا من الزيتون، أي وجدوا رسالةَ السلام من الله تعالى وجماعةً متمسكة بالعروة الوثقى، أي قوية الإيمان كاملة الإخلاص والتضحية.

ونجد ذكر الزيتون في قصة نوح عليه السلام في التوراة حيث ورد: "ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوُحُوشِ وَكُلَّ الْبَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ، فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ، وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعًا مُتَوَالِيًا. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا نَقَصَتِ الْمِيَاهُ، وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ. وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَنْقُصُ نَقْصًا مُتَوَالِيًا إلى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ. وَفِي الْعَاشِرِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، ظَهَرَتْ رُؤُوسُ الْجِبَالِ.

وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَنَّ نُوحًا فَتَحَ طَاقَةَ الْفُلْكِ الَّتِي كَانَ قَدْ عَمِلَهَا وَأَرْسَلَ الْغُرَابَ، فَخَرَجَ مُتَرَدِّدًا حَتَّى نَشِفَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ. ثُمَّ أَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنْ عِنْدِهِ لِيَرَى هَلْ قَلَّتِ الْمِيَاهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، فَلَمْ تَجِدِ الْحَمَامَةُ مَقَرًّا لِرِجْلِهَا، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ إلى الْفُلْكِ لأَنَّ مِيَاهًا كَانَتْ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهَا وَأَدْخَلَهَا عِنْدَهُ إلى الْفُلْكِ. فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَادَ فَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنَ الْفُلْكِ، فَأَتَتْ إِلَيْهِ الْحَمَامَةُ عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَإِذَا وَرَقَةُ زَيْتُونٍ خَضْرَاءُ فِي فَمِهَا. فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ قَلَّتْ عَنِ الأَرْضِ. فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ فَلَمْ تَعُدْ تَرْجِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا". (التَّكْوِين ٨ : ١-١٢).

فغصن الزيتون هو الذي كان بمثابة البشارة لنوح عليه السلام أن هجرته نجحت وأنه قد انتصر على أعدائه للأبد. وورق التين هو الذي أخبر آدم عليه السلام أنه قد نجح

وانتصر على عدوه. وإلى هذين الحدثين قد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.. أي أننا نخبركم أن آدم كان نبينا الأول الذي اضطره الشيطان للخروج من الجنة والهجرة منها، ولكن هجرته لم تجلب له ضررا، ولم تسبب للمؤمنين فشلا. لا شك أن آدم هاجر، ولكنه انتصر في نهاية المطاف وكُتب للشيطان الفشل. كذلك يا أهل مكة، تريدون إخراج محمد من بلدتكم، ولكن اعلموا أنكم قد أصبحتم بأفعالكم هذه مثيل الشيطان الذي أخرج آدمَ من الجنة، وأن رسولنا هذا الذي بعثناه إلى الدنيا لخلق مخلوقات روحانية جديدة هو مثيل آدم، وإذا اضطررتموه للهجرة فسوف يهيئ الله له ورق التين كما هيّأ لآدم، أي يعطيه جماعة من الصالحين الطيبين يعرفون مكانته ويضحّون في سبيله بكل غال ورخيص. وإذا كنتم مثيل أعداء نوح، فاعلموا أنه هاجر ولا شك، ولكن الله تعالى أغرق أعداءه وبشّره بالنجاة بغصن الزيتون، كذلك إذا أخرجتم محمدا من بلدتكم فسوف تغرقون كقوم نوح، وسوف تستقر سفينة محمد على جبل الجوديّ، وسوف يعطيه الله تعالى غصن الزيتون. ماذا كانت المدينة المنورة؟ كانت جُوديًّا استقرّتْ عليه سفينة محمد رسول الله ﷺ. ومن كان أنصار المدينة؟ إنهم غصن الزيتون الذي أُعْطِيَه رسول الله ﷺ، فقد ورد: "مَن رأى ورق الزيتون في المنام فقد استمسك بالعروة الوثقى" (تعطير الأنام في تعبير المنام للنابلسي: الزيتون). فإعطاء ورق الزيتون للنبي ﷺ يعني أن الله تعالى سيهب له جماعة متمسكة بالعروة الوثقى، أي قوية في إيمانها وكاملة في تضحيتها وطاعتها بحيث لا تزعزعها المِحَن والمصائب. والحق أن التمسك بالعروة الوثقى نتيجة طبيعية للإيمان بالله تعالى، فإن الذي يكون قلبه عامرًا بالإيمان حقًا يتمسك بأحكام الله بقوة بحيث لا يزعزعه عن مكانه أعنف طوفان وزلزال، بل يكون فارسَ الميدان وتجسيدا للشجاعة والثبات، ويرى الموت في سبيل الله تعالى أروعَ نعمة وألذَّها.

فالله تعالى يعلن هنا أننا نذكّركم بحادث التين وحادث الزيتون، ففي الحادثين هاجر نبيّانِ وفشِل الشيطانُ. فقد هاجر آدم، لكنه انتصر على عدوه في النهاية، وقد هاجر نوح لكنه انتصر على عدوه، ولم يُسكَنْ بَعْدَه بلدُه الذي هاجر منه.

كذلك ستدمَّرون بعد هجرة محمد من هذه البلدة ولن يكون لكم إلا اللعنة والبُعد كما كان للشيطان، وأما محمد فيُمنح ورق التين. سوف تغرقون كأعداء نوح، وأما محمد فيتقدم إليه أهلُ المدينة بأغصان الزيتون في أيديهم ويقولون: يا رسول الله، هلمّ إلينا وشرِّفْنا، فسوف نفديك بأرواحنا ونريق دماءنا بدل عرقك.

باختصار، يقول الله تعالى للكافرين، أنسيتم غصن الزيتون الذي أُعطيه نوح بعد هجرته؟ إنكم لا تعرفون أن غصن زيتون يُعَدُّ لمحمد (ﷺ)، مما يكون دليلا على صدق قولنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. فما دمنا قد خلقنا الإنسان بفطرة نقية، فلا يمكن أن يظل محروما من الخير فترة طويلة.

وبعد الزيتون أقسم الله بطور سينين، بمعنى أنه تعالى قدّمه أيضا شهادةً.

ما هو السينين؟ إنها منطقة في برية سيناء. إنها محلّ اهتمام المسلمين لورود ذكرها في القرآن الكريم، كما هي محلّ عناية الكتّاب الأوروبيين لورود ذكرها في الكتاب المقدّس. وهناك اختلاف كبير حول موقع الطور وموقع سيناء، فيرى بعض المؤرخين أن برية سيناء واقعةٌ في شمال شرق مصر. ويرى هؤلاء أن حادث عبور موسى عليه السلام للبحر قصة زائفة، لأن البحر واقع بين مصر وفلسطين في الجنوب، وأن موسى لم يذهب إلى هناك، إنما خرج من مصر ناحية الشمال. بينما يرى الآخرون أنّ برية سيناء تقع في شمال خليج العقبة في الأرض الواقعة ما بين مصر وفلسطين. ويرى فريق منهم أن برية سيناء قريبة من فلسطين. وقد أنكر البعض وجود سيناء والطور كلية واعتبروا هذه القصة زائفة لا حقيقة لها. (الموسوعة اليهودية: المجلد ١٠: تحت كلمة Sinai mount)

لقد استعمل القرآن الكريم لفظ الطور ومعناه الجبل، وقوله تعالى ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ يعني جبلُ سيناء. ويتضح من القرآن أنه لا يعتبر الطور اسمًا لذلك الجبل، بل يستخدم الطورَ بمعنى أي جبل. قال الله تعالى في أول سورة الطور ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، فعرّف الطورَ، أما هنا -في سورة التين- فلم يعرّفه. وقد عرّف الطورَ في سورة الطور ليقول لنا إننا نشير إلى طور موسى أو طور سيناء الذي تعرفونه، ولم يُعرّف الطور هنا لأنه مضاف إلى سينين. ومهما يكنْ، فلا يسع أحدًا

إنكار أن الطور ليس بعَلَمٍ ولا يعطي معنى خاصا إلا بالإضافة، شأنه شأن كلمة (الجبل) إذ يعني أي جبل، وإذا أردنا تحديد جبل معين قلنا مثلاً: جبال الهملايا أو جبال كشمير أو جبال هزاره أو جبال أفغانستان أو جبل ممر خيبر. فالمراد من طور سينين ذلك الجبل الموجود في برية سيناء الذي وقع به حادث خاص لموسى ﷺ، وقد عُرّف الطور في قوله تعالى ﴿والطورِ * وكتابٍ مسطورٍ﴾ إشارةً إلى هذا الجبل، وقد أخطأ المفسرون الذين ظنوا أن الطور اسمٌ عَلَمٌ لجبل معين. إنما معنى الطور: الجبلُ فقط، وبهذا المعنى قد استعمله القرآن الكريم، ولكن في الاصطلاح استُخدم الطور بمعنى خاص لواقعة مع موسى ﷺ. الواقع أن الشيء يكون عاما، ولكنه يُستخدم أحيانًا بمعنى خاص لمناسبة ما؛ خذوا مثلاً لفظ الكتاب، فهو لفظ عام يطلق على أي كتاب، لكن في العُرف والاصطلاح أصبح لفظًا خاصا يطلق على التوراة والإنجيل. وهذا لا يعني أن المعنى الحرفي للكتاب هو التوراة والإنجيل، بل لأن هذا اللفظ يُطلق على هذا الكتاب منذ فترة طويلة، فصار الناس يستعملونه بكثرة بهذا المعنى حتى صار يفهُم منه الآن الكتاب المقدس. أو خُذوا مثلاً لفظ الإنجيل، فمعناه البشارة، وبهذا المعنى استعمل في البداية، أي البشارة التي بشّر بها عيسى ﷺ قومه، ولكنك لو استخدمتَه اليوم بمعنى البشارة فلن يفهمك الناس، بل يتبادر إلى أذهان الجميع كتابُ عيسى ﷺ، مع أن المعنى الحرفي لهذا اللفظ هو البشارة فقط. كذلك فإن "طور سيناء" يعني جبل في سيناء، ولكن لما كثر على ألسنة الناس استعمال جبل سيناء الذي نزل عليه كلام الله على موسى، صار يُفهم من الطور ذلك الجبل الذي وقع فيه هذا الحادث خاصة، مع أن كلمة الطور يمكن أن تُطلق على أي جبل.

لقد ذكرت آنفًا أن المؤرخين قد اختلفوا كثيرا في تحديد موقع سيناء، بل لقد أنكر بعضهم وجود منطقة بهذا الاسم، بينما يسلّم غيرهم بوجود منطقة بهذا الاسم، ولكنهم يختلفون في تحديدها اختلافًا شديدا. وأكبر سبب لهذا الاختلاف هو أن بعض الناس يحبّون أن يأتوا بالجديد دائمًا، وإشباعًا لرغبتهم هذه يعرضون على الناس نظرية جديدة غاضّين الطرف عن كل الحقائق والوقائع ليُعَدّوا من

الباحثين الذين يأتون باكتشافات جديدة. فكل يوم نسمع أن بعض الناس عندما سمع أن فلانا اخترع الاختراع الفلاني داعبه الشوق لاختراع شيء ما، فخطرت بباله أفكار وخيالات شتى، فلم يلبث أن أعلن في الجرائد أنه قد اخترع كذا وكذا، وتبينَ بعد فحص الأمر أنه لم يخترع شيئا، إنما قدّم نظرية جديدة. كذلك تمامًا فكّر بعض المؤرخين أنهم إذا قالوا إن موسى عليه السلام ذهب إلى الشمال، وأن سيناء أيضا تقع في الشمال، فيُذكَرون في التاريخ من الباحثين الذين أتوا باكتشافات مثيرة، فرفضوا أقوال الآخرين بناءً على شبهات بسيطة فرحين بنظريتهم الجديدة ظنًا منهم أنه كلما بحث في هذه القضية قال الناس إن فلانا قدّم نظرية كذا فلنضعْها أيضًا في الاعتبار عند التحقيق. فمثل هؤلاء القوم لا يريدون سرد التاريخ سردًا صحيحًا، إنما يريدون الشهرة والصيت فحسب، فبدلاً من التدبر في الحقائق ودراستها، يريدون أن يُعرَفوا بين الناس، وهؤلاء هم القوم الذين يقولون أحيانًا أنه لم يكن هناك شخص باسم موسى ولا باسم عيسى، أو ليس هناك منطقة باسم سيناء، أو لم يكن هناك شخص باسم زرادشت أو كرشنا أو رام تشندر. وعندي أن هذه أيضا معجزة الإسلام؛ إذ يوجد هناك شخصية واحدة لم ينكروا وجودها وهي شخصية نبينا محمد ﷺ. فيوجد بين النصارى من أنكروا وجود عيسى عليه السلام نهائيا قائلين إنها شخصية مجازية فقط لا حقيقة لها. وكذلك قد أنكر البروفيسور فرويد اليهودي وجود موسى عليه السلام (The life and work of Sigmund Freud; p.31). ويوجد بين الهندوس من أنكر وجود كرشنا ورام تشندر بتأثير هؤلاء الأوروبيين المشككين. كما يوجد بين الزرادشتيين من ينكرون وجود زرادشت ويعتبرون قصته مجازا فحسب. وإذا كان هناك نبي لم ينكروا وجوده فإنما هو نبينا العظيم محمد ﷺ. وفيه حكمة ربانية بالغة في رأيي؛ فكأن الله تعالى قد أخبر بذلك أنه إذا كان هناك شخصية جديرة بالاهتمام والعناية فإنما هو محمد ﷺ فقط، أما باقي الأنبياء فلو أنكرتم وجودهم جميعًا فلا ضير ولا حرج.

باختصار، لقد أنكر البعض وجود الطور وبعضهم وجود سيناء، وأما الذين يقولون بوجود الطور فيقولون إنه اسم جبل يقع في جنوب برية سيناء وشمال خليج

العقبة، وطوله ثلاثون أو أربعون ميلا (الموسوعة اليهودية: المجلد ١٠ تحت كلمة: Sinai mount). لكن الواقع -كما قلت من قبل- إن "طور" ليس اسم جبل معين، بل معناه الجبل، أيُّ جبل، ويشار به خاصةً إلى الجبل الذي عليه نزل الوحي على موسى عليه السلام، وحيث إن آلاف الناس قد ذكروا هذه الحادثة فصار لفظ الطور عَلَمًا لذلك الجبل. باختصار، هناك جبل في شمال خليج العقبة حيث كلّم الله موسى عليه السلام، والثابت من التاريخ أن اليهود كانوا يزورون هذا الجبل دائما. (الموسوعة اليهودية: المجلد ١٠ تحت كلمة: Sinai mount)

وعندي أن ما يثبت من القرآن الكريم والتوراة هو أن البرية الواقعة شمال خليج العقبة هي سيناء، وفيها يقع ذلك الجبل الذي يُسمى الطور في العرف العام. وإني لأتعجب دائما من المؤرخين الذين ينكرون وجوده؛ فإن هذه المنطقة ثابتة حسب القرآن والتوراة، كما يخبرنا التاريخ أن اليهود كانوا يزورون هذا الجبل دائما؛ فكيف يحق لمؤرخ أن يقول إنه ليس هناك جبل باسم طور، ولا وجود لمنطقة باسم سيناء؟

وهنا سؤال يطرح نفسه: لقد استعمل الله هنا لفظ ﴿سِينِينَ﴾، بينما قال في سورة أخرى ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢١)، فلماذا قال في موضعٍ ﴿سِيناءَ﴾ وفي موضعٍ ﴿سِينِينَ﴾؟ وقد أجاب البعض بأن سيناء وسينين عَلَمانِ لهذا الموضع. بينما أجاب بعض المفسرين إن الله تعالى قال "سينين" بدل "سيناء" مِن أجل السجع، ومثاله كلمةُ "إلياس" في قول الله تعالى ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾(الصافات: ١٣١)، فمع أن المراد هنا هو إلياس، إلا أن الله تعالى أضاف معه ياءً وسينًا من أجل السجع. (روح البيان)

وهذا التخريج ليس صحيحا عندنا، حيث تؤمن جماعتنا أن الله تعالى قد قال هنا ﴿إل ياسين﴾ بدل "إلياس" إذ أرادَ هنا ذكرَ أكثر مِن إلياس واحد، فهناك نبي اسمه إلياس الذي كان زمنه في وسط الأنبياء الإسرائيليين، ثم هناك إلياس آخر وهو يوحنا المعمدان الذي جاء قبيل بعثة عيسى عليه السلام، وهناك إلياس ثالث هو حضرة السيد أحمد البريلوي الذي جاء قبيل ظهور المسيح الموعود عليه السلام. وحيث إن

إلياسَيْنِ جاءا قبل نزول القرآن وكان هناك إلياس ثالث سيأتي بعد ذلك، فأشار الله إليهم جميعًا بقوله ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ بدلاً من أن يقول (وسلامٌ على إلياس). وبالمثل فقد يكون لفظ ﴿سِينِينَ﴾ جمعًا ويكون إشارةً إلى الاختلاف الموجود بين المؤرخين حول منطقة "سيناء"، كما يمكن أن يكون عند مختلف الشعوب مناطق يطلقون عليها اسم سيناء. فمثلا يُطلق العرب كلمة "الهند" على البنجاب وما حولها فقط، حيث نجد في بعض المصادر العربية مكتوبًا أنه يوجد في الهند كذا وكذا من الأشياء ويوجد في البنغال كذا وكذا من الأشياء، مع أن البنغال جزء من الهند حاليا، ولكنهم فرّقوا بينهما لأنهم كانوا يطلقون اسم الهند على البنجاب وما جاورها من مناطق. كذلك يطلق بعض الناس "أفغانستان" على هذه المنطقة حتى حدود قندهار، وبعضهم يطلقونها على المنطقة التي هي حتى حدود بيشاور، وبعضهم حتى إلى حدود نهر السند. فلذلك أرى أن "طور سينين" قد تكون إشارةً إلى عدة من البراري الشهيرة باسم سيناء في هذه المنطقة، ولكن الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام جبل معين، ونحن نشير هنا إلى الطور (أي الجبلِ) الموجود في تلك السينين.

لقد سبق أن ذكرتُ أن قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ إشارةٌ إلى هجرة آدم وهجرة نوح، حيث بيَّن الله تعالى أن أعداءهما فرحوا بهجرتهما فرحة زائفة فظنوا أنهم قد انتصروا عليهما، ومع ذلك كتب الله لهما النجاح وأخزى أعداءهما؛ والآن يظن أهل مكة -لجهلهم الشديد- أنهم سينتصرون على محمد بطرده من بينهم كما ظنّ أعداء الأنبياء السابقين، ولكن الله تعالى سيخيّب ظن أهل مكة كما خيَّب ظنّ الأولين، وسيبدّل فرحتهم الباطلة ذلاً وخزيًا في نهاية المطاف. وتبيانًا لهذا الموضوع قد ضرب الله الآن مثالاً آخر في قوله ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ مشيرًا إلى هجرة موسى عليه السلام.

ويتضح من القرآن أن حادث "الطور" وقع بعد هجرة موسى عليه السلام من مصر، لقد قال الله تعالى في بداية القرآن عند ذكر بني إسرائيل ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾(البقرة:٥١-٥٢). فيتضح من هذه الآيات أن هجرة موسى عليه السلام سبقت حادث الطور، حيث خرج مع بني إسرائيل من مصر أولاً، ثم أخذه الله إلى الطور حيث أنزل عليه وحيه الذي تضمن للأمة اليهودية عشرة وصايا هي لُبُّ التوراة. ويتضح من التوراة أيضا أن حادث الطور وقع بعد هجرة موسى عليه السلام من مصر، حيث ذكرت التوراةُ -في سِفْر الخروج- هجرةَ موسى أولاً، ثم وصول بني إسرائيل إلى برية سيناء، ثم حادث الطور أخيرًا، وهذا الترتيب التوراتي يكشف أن الهجرة سبقت حادث الطور. فهجرة موسى عليه السلام مذكورة في سِفر الخروج إصحاح ١٤، ووصوله إلى برية سيناء مذكور في سِفر الخروج إصحاح ١٦، وحادث الطور مذكور في سِفر الخروج إصحاح ١٩.

وقد جاءت خلاصة الإصحاح الرابع عشر لسفر الخروج في التوراة القديمة كالآتي: في بيان أن الله تعالى يهدي بني إسرائيل إلى سبيلهم، فيتبعهم فرعون، فيخاف بنو إسرائيل فيُطَمْئِنُهم موسى، فيُعلّم اللهُ موسى، وعمود الغيوم يكون على ظهر الجنود، ويمر بنو إسرائيل من بحر القلزم ويغرق أهل مصر فيه. وهذه حادثة الهجرة.

أما الإصحاح ١٦ من الخروج فملخصه كالآتي: في بيان أن بني إسرائيل يصِلون إلى برية سين، فيصيبهم القلق لقلة الطعام، فيعِدهم الله بإنزال الخبزَ من السماء، فيبعث لهم المنّ والسلوى طيورًا من السماء، فيؤمر الجميع بجمع المنّ لأنهم لن يجدوه يوم السبت، وكانوا يحفظون مِلْءَ الغُمرِ◆ مِن المَنِّ لتراه الأجيال القادمة.

أما الإصحاح ١٩ من الخروج فملخصه كالآتي: في بيان أن بني إسرائيل يصِلون برية سيناء، فتنزل لهم رسالةُ الله على الجبل بواسطة موسى، فيجيبون عليها، فيستعدّون لليوم الثالث، وممنوع عليهم لمس الجبل، ويظهر الربّ يهوه على الجبل ظهورا مُخيفا.

باختصار، إن التوراة والقرآن متفقتان على أن الهجرة سبقت حادث الطور.

◆ الغُمرُ إناءٌ أو مكيال، ورد في لسان العرب: الغمر: القدح الصغير. (المترجم)

فبعد ذِكر مثال آدم ونوح ضرب الله في قوله ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ المثال الثالث مثالَ موسى، حيث أخبر أنه اضُطرّ للهجرة نتيجة اضطهاد الأعداء وخرج بقومه من مصر، فظن أعداؤه أنهم قد تخلصوا من فتنته، ولكن الله تعالى جعل هجرته سببًا لهلاك أعدائه ولغلبة بني إسرائيل، إذ لو بقي هؤلاء في مصر لظلوا محكومين و لم ينجوا من ظلم فرعون وفظائعه. ولكن بعد حادث ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ أغدق الله عليهم بركات كثيرة، فلم يتحرروا من عبودية فرعون للأبد فحسب، بل وعدهم الله بالمُلك ووضع الأساس له، فاستمر مُلكهم ألف سنة بكل عظمة وشوكة.

وهناك أمر جدير بالذكر هنا، ألا وهو أن الله تعالى يبين هنا للكفار أن مكائدهم لن تضرّ محمدا شيئا، فأحداثُ (التين والزيتون وطور سينين) أمامهم، حيث خدع الشيطان آدم فستر التينُ عورتَه، ثم لما جاء الطوفان في زمن نوح نال البشارة من خلال غصن الزيتون، وحين هرب موسى الطَّيْلا من مصر وجد الملاذ في طور سينين. وحيث إن هذه الآيات تركز على موضوع غلبة الأنبياء ورقيهم فلم تتطرق إلى اضطهاد العدو لهم، وإلا فالواقع أن قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ﴾ يشير إلى خداع الشيطان لآدم الطَّيْلا ونجاح آدم بالتين، وقوله تعالى ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ يشير إلى تضييق قوم نوح الطَّيْلا الخناق عليه وهلاكهم بالطوفان وتلقّي نوح البشارة بنجاته ونجاحه من خلال غصن الزيتون، وقوله تعالى ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يشير إلى هروب موسى الطَّيْلا من مصر وتلقّيه البشارة بالنجاح عند طور سينين، وقوله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ إشارةٌ إلى هجرة محمد ﷺ من مكة ثم عودته إليها منتصرا. فحيث إن موضوع الاضطهاد والهجرة وغيرهما متضمَّن في هذا الحديث، فاكتفى الله بالإشارة إليها فقط مركِّزًا على ذكر غلبة هؤلاء الأنبياء ونجاحهم، كيلا يفرح العدو بنجاحه المؤقت ظنًا منه أنه قد هزم أنبياء الله تعالى.

خلاصة القول إن الله تعالى قد بيّن في قوله ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أنه عند هجرة موسى من مصر غرق فرعون في قاع البحر، بينما تجلَّينا على موسى على جبل الطور.. فكأن أحدهما سقط إلى الحضيض، والآخر صعد إلى القمة. فكلاهما رأى التجلّي الإلهي: أحدُهما في قاع البحر وثانيهما على قمة طور سيناء. وهذا ما

سيُفعل بكم يا أهل مكة. لقد هرب موسى من مصر في الظاهر بسبب ظلم فرعون وقومه، فأُخرجوا من ديارهم ومساكنهم وعقاراتهم، ولكن الله تعالى تجلى لموسى على طور سينين ووعدهم بالغلبة والانتصار. واعلموا، يا أهل مكة، أنه يُجَهَّز لمحمد رسول الله أيضًا طور سينين -وهو المدينة التي أُعطيَها النبيُّ ﷺ- فيمكن أن تدركوا ما هو مصيركم وما هو مقدر لكم. يمكنكم أن تُخرجوا محمدا من بينكم، ولكنكم سترون بعد ذلك أني سأغرقكم كما أغرقتُ فرعون، وأرفع محمدًا إلى طور سيناء كما رفعت موسى من قبل، تأكيدًا على أن الفطرة الإنسانية طاهرة وسترون أن الناس سيستجيبون الآن أيضًا لفطرهم النقية شاهدين على صدق قولنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ كما شهدوا عليه في زمن موسى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾.. أي نقدّم هذا البلد الأمين شهادةً.

والأمين بمعنى الآمِن أو المأمون (الصحاح للجوهري)، وكلا المعنيين ينطبق على مكة في رأيي.

يتضح من هذه الآية أن الحديث هنا ليس عن حالة مكة التي كانت عليها وقت نزول هذه السورة، إذ قد أشار الله تعالى إلى حالتها تلك في موضع آخر بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا الْبَلَدِ﴾، أي أنت تُعتبر حلالاً في هذا البلد، فما من أذًى إلا وتتعرض له، وما من ظلم إلا ويصبّ عليك، وما من سهم إلا ويُصوَّب إليك، ومع ذلك يظن أهلها أنهم يحسنون صنعًا. فكيف يمكن أن يسمى ﴿البلد الأمين﴾ ذلك البلد الذي يصبح فيه إنسان مسالم محبّ للأمن مثل محمد عرضةً للظلم؟ الواقع أن مكة صارت البلد الأمين بعد فتحها حين نال المسلمون الغلبة على الكافرين ورُفعت المظالم. أما قبل الفتح فمتى كان هذا البلد أمينًا؟ كلا، لم يكن فيه أمن ديني وروحاني أو مادي. ففيما يتعلق بالأمن الديني والروحاني كانت مكة بلدًا يتم فيه السطو على إيمان الناس، فكانوا يُرغَمون على عبادة الأصنام بدلاً من عبادة الله الأحد، ويُكرَهون على تقديم القرابين لِلاّت حينًا، ولِلعُزَّى حينًا، ولِهُبَل حينًا، ولِمَناة حينًا آخر. كانت عبادة الأصنام منتشرة في مكة بحيث وضعوا في بيت الله الذي بُني لعبادة الرب الأحد ٣٦٠ صنمًا بحسب عدد أيام السنة، ففي كل يوم من

أيام السنة كانوا يُحنُون رؤوسهم أمام أحد من هذه الأصنام. أما الأمن المادي فكان أهل مكة يصبّون أبشع الظلم على قوم محبين للعدل، ناصحين لخلق الله، داعين إلى السلام وإلى أداء حقوق العباد وحقوق الله بكل أمانة. هل في هذه الأهداف ما يمكن أن يثير غضب أهل مكة فيُخرجوا كل سهم من جعبتهم ويوجهوه إلى صدور المسلمين؟ ولكن هذا ما حدث فعلاً؛ فتعرّضَ المسلمون لأشد أنواع التعذيب من ضرب وقتل وهتك عرض لفترة طويلة، وليس هذا فحسب، بل قد صُبّ الظلم المتواصل على سيدهم الذي كانوا يتفاخرون بالإذعان له ويفدونه بكل غال ورخيص بمجرد إشارته. ثم هو ذلك الشخص الذي كان الكافرون أفتوْا بكونه صادقا أمينًا، مما يعني أن الكافر وعابد الأصنام والكذّاب والغشّاش والظالم والغاصب كان يتمتع بالأمن في مكة، وإذا كان أحد لا يتمتع فيها بالأمن فهو ذلك الشخص الذي اشتهر بين أهلها بالصدوق الأمين (البخاري: التفسير، سورة الشعراء). إذن، لم تكن مكة عندها بلدًا أمينًا لا روحانيا ولا ماديا. فثبت أن قوله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ لا يشير إلى حالة مكة عند نزول هذه السورة بل يشير إلى ما ستكون عليه بعد هجرة النبي ﷺ. فالحق أنّ حادث ﴿التِّينِ﴾ كان بعد الهجرة حين انتصر آدم عليه السلام على الشيطان، وحادث ﴿الزيتونِ﴾ أيضا كان بعد الهجرة حين نجا نوح عليه السلام من الطوفان، وحادث ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ أيضا كان بعد الهجرة حين تلقى موسى عليه السلام بشارة الترقيات القادمة، وحادث ﴿البلدِ الأمينِ﴾ أيضا وقع بعد الهجرة، وقد أنبأ الله تعالى عنه في أوائل الفترة المكية حيث بيّن أنه رغم أن المسلمين هدف للفظائع اليوم، ولكن سيأتي يوم تصبح مكة فيه بلدًا أمينًا للعالم، وتنتهي سلسلة المظالم هذه وينعم محمد (ﷺ) وأصحابه بالأمن والسلام. وكأن الله تعالى يعلن هنا أن الهجرة ستكون سبب ازدهار الإسلام والمسلمين بدل أن تضرّهم. ستظنون، أيها الكافرون، أنكم قد قضيتم على الإسلام بهجرة محمد (ﷺ) منها، لكن الله تعالى سيأتي به إليها منتصرًا، فيكسر كل صنم من أصنام مكة، قاضيًا على الشرك ومدوّيًا اسم الله الأحد في شوارعها وأزقّتها، وهكذا سيرسي فيها الأمن الروحاني، كما لن تقدروا عندها على أن تنظروا إلى محمد (ﷺ)

وأصحابه بسوء، أو تظلموا الفقراء، وهكذا يرسي فيها الأمن المادي، ويجعلها البلدَ الأمين.

ولو كان الأمين بمعنى المأمون فستعني الآية أن مكة التي لم تزل محفوظة منذ القدم، سوف تُفتَح قسرًا في يوم من الأيام، وذلك كما قال رسول الله ﷺ في حديثه " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلا لأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً" (البخاري، كتاب البيوع).

إن من الأمور الطبيعية أن يغض الإنسان الطرف عن الأمر العارض الذي يقع بعد فترة طويلة؛ فمثلاً إذا أصيبَ بالحمى يومًا مَن يتمتع بصحة جيدة منذ عشر أو خمس عشرة سنة فلن نقول إنه رجل مريض، ذلك أنه مرض مرضًا عابرًا بعد فترة طويلة من الصحة، كذلك فقد يكون قول الله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ إشارةً إلى أن مكة ستتعرض حتمًا لهجوم يُحِلُّ حرمتَها حيث يفتحها محمد ﷺ قسرًا، ولكن هذا لا يعني أن مكة لم تعُد البلدَ الأمين، كلا، بل لقد جعلها الله بلدًا آمنًا، وأرسى حرمتها بأمره، أما دخول محمد ﷺ فيها قسرًا فأمرٌ عابر، وقد سُمح له بذلك تحقيقًا لبعض أنباء الله فقط. لقد كانت بلدًا أمينا، وهي كذلك الآن وستظل كذلك، ولن يقدر أحد على هتك حرمتها، ولذلك نجد النبي ﷺ قد أعلن عن حرمتها بعد فتحها.

إذن، فلا شك أن مكة كانت بلدًا آمنًا من قبل، وظلت بلدًا آمنًا فيما بعد، ولكن لما كان من المقدر أن تُفتح قسرًا على يد محمد ﷺ بإذن الله تعالى لبعض الوقت، فالحق أنها ما كانت لتُسمَّى البلد الأمين حقًا وبشكل كامل إلا بعد الفتح لا قبله. وبالفعل لما فتحها النبي ﷺ بجنوده أرسى حرمتها الأبدية.

فالحق أن هذه الأمور الثلاثة تتعلق بفتح مكة؛ فالأمن الروحاني والديني لم يتيسر لها إلا بعد فتحها بعد أن قُضي على الشرك فيها، وأما الأمن المادي فلم يتيسر لها أيضًا إلا بعد فتحها حين توقف اضطهاد الكافرين للمسلمين، وأما كونها مأمونةً بشكل كامل فلم يكن إلا بعد فتحها أيضًا. فثبت أنها لم تكن البلدَ الأمين بصورة كاملة ومن أي ناحية قبل أن فتحها النبي ﷺ.

فالله تعالى يقول هنا للكافرين نعرض أمامكم هذه الأحداث الأربعة. لقد وقعت ثلاثة منها، وأما الرابع فلم يقع بعد. وما دامت الأحداث الثلاثة قد وقعت فيمكن أن تدركوا أن رابعها أيضًا واقع حتمًا. فهذا البلد الذي هو بمثابة النار لمحمد ولأصحابه اليوم، سيصبح البلد الأمين بعد هجرته، وهكذا يقدِّم شهادة رابعة للعالم على صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٥

شرح الكلمات:

التقويم: التعديل (الأقرب).

فأحسنُ تقويم يعني: جعلُ الشيء في أفضل صورة بريئًا من كل نقص وعيب. وقوله تعالى ﴿في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ حالٌ للإنسان، والمراد أننا خلقنا الإنسان حال كونه في أحسن تقويم.. أي خلقناه بحيث ليس له مثيل في صفة التعديل والإصلاح.

وهنا واجه المفسرون مشكلة وقالوا إن التعديل والتقويم من صفات الله تعالى، فكيف يكون الإنسان مقوِّمًا ومعدِّلا؟ فأجاب البعض أن المراد من التقويم هنا القوامة، ومفهوم الآية أن الله قد خلق الإنسان بأحسنِ قُوًى وكفاءاتٍ. وقال الآخرون: هناك حذْف مُضاف، والتقدير: في أحسنِ قوام التقويم.. أي أن الله تعالى قد جعل الإنسان أفضل مخلوق وجعله أكثر قوامًا من المخلوقات الأخرى. ونظرًا لهذا المعنى سيعني قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أن الله تعالى قد جعل الإنسان أفضل نموذج لصفته الخالق.

وقال البعض إن ﴿في﴾ زائدة هنا، وأن ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ حالٌ لله تعالى، أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان بأحسن تقويمه.. أي أن صفة الله التعديل قد تجلّت في خلق الإنسان أكملَ تَجَلٍّ. (روح المعاني)

وهذا هو نفس المعنى المذكور من قبل تقريبًا بأن الله قد خلق الإنسان بقوى معتدلة جدا، مع معنى إضافي بأن الإنسان أفضل من باقي المخلوقات. فما دام الله

تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وما دامت صفة التقويم الإلهي قد تجلّت عند خلق الإنسان بصورة كاملة، فلا بد أن يكون الإنسان أفضل المخلوقات. وهي قضية ما زالت مثار جدل عند الصوفية، حيث قالوا: هل الإنسان أفضل أم الملائكة؟ وقد أجاب البعض أن الملائكة أفضل لأنها لا ترتكب أي سيئة، بينما قال آخرون إن الإنسان كجماعة أفضلُ من الملائكة، لأن الله تعالى قد خلقه بقدرات وكفاءات لو أحسنَ استعمالها سبَق الملائكةَ. وأما أنا فأرى أن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يؤكد أن الإنسان أفضل من الملائكة. ذلك أننا لو فسّرنا هذه الآية بأنّ صفة التقويم الإلهية قد تجلَّت في الإنسان بأروع صورة، فهذا يعني أن الله قد خلق الإنسان أفضل من المخلوقات الأخرى. أما لو فسرناها بالمفهوم الآخر، أي أن الله تعالى خلق الإنسان بأفضل قوى وباعتدال يبلغ حد الكمال، فأيضا ثبت أن الإنسان أفضل من الملائكة، لأن الإنسان هو المخلوق الذي يوجد فيه الاعتدال إلى حد الكمال، والذي قد أُرسلَ إلى الدنيا مزوَّدًا بأفضل القوى.

على أية حال، إن هذه الآية تدل على أن الله تعالى قد خلق الإنسان -جنسًا لا فردًا- أفضلَ من جميع المخلوقات بما فيها الملائكة، لِما زوّده به من قوى وقدرات.

ولو فكّرنا في هذا الموضوع عقلاً لتوصلنا إلى النتيجة نفسها؛ أعني أن الملائكة ليست أفضل من الإنسان؛ ذلك أن الخير والطاعة في الملائكة جبرية، ومثالها كمثال الجبال التي خلقها الله شامخةً بقدرته. لا شك أنها مرتفعة، ولكن ليس لها في ذلك ميزة ذاتية؛ فلا يمكن لجبال الهملايا مثلاً أن تفتخر بعلوها، ذلك أن علوها جبرية؛ إنها عالية لأن الله تعالى خلقها كذلك. أما الإنسان إذا قوى جسمه بالرياضة وكثرة التمرين فلا بد أن يُعتبر هذا ميزة له. فحيث إن الإنسان مزوَّد بقوة الخير وقوة الشر، ومخيَّرٌ في أن يختار أي الطريقين- أعني أن يحظى برضا الله باتّباع الخير أو يُسخِط ربه بارتكاب المعصية- لذا فإن الذي يعمل الصالحات -وإن كان مؤمنًا عاديًا في الظاهر- أفضلُ من الملائكة العادية، لأن ميزة الملائكة ليست ذاتية، بل الله تعالى قد خلقهم هكذا.

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: هل الفرد الكامل من الناس أفضلُ من الفرد الكامل من الملائكة أم لا؟

والجواب على هذا السؤال يوجد في هذه الآية، فما دام الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وزوَّده بكفاءاتٍ أفضلَ من الملائكة فلا بد أن يكون الفرد الكامل من الناس أفضلَ من الفرد الكامل من الملائكة. وبالفعل فإن الرسول ﷺ ليس أفضل البشر فحسب، بل هو أفضل من الملائكة أيضا. لا شك أن الملَك أفضلُ من المؤمن العادي الذي يقع في الذنوب، لأنه وإن كان فُضِّل على الملَك بما زُوِّدَ به من قوى وكفاءات إلا أنه تخلّفَ عن الملَك لعدمِ تحلِّيه بالقوى الكامنة فيه، أما الإنسان الذي يتحلى بالقوى التي زوِّد بها على أحسن وجه فلا يمكن إنكار فضله على الملائكة بحال، لأن القوى الإضافية التي زوِّد بها مقابل الملائكة قد تجلّتْ منه عمليًا. وعليه فإن الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء أفضل من الفرد الكامل من الملائكة يقينًا، وإنْ كان طائفة من المسلمين يقول بعكس ذلك.

وعندي أنّ قوله تعالى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ينطبق على الإنسان كما هو بدون أن نعتبر ﴿في﴾ زائدة هنا، حيث يمكن نسبةُ ﴿أحسن تقويم﴾ للإنسان أيضًا. لقد وقع المفسرون في شبهة لأنهم فكّروا أن الله هو المعدِّل، فلا يمكن أن يُسمَّى الإنسان معدِّلا. وهذا التفكير ليس سليما، لأننا نرى أن الإنسان قد وُصف في القرآن الكريم بالرؤوف والرحيم والرزّاق والخالق والبصير والسميع، وكلها صفات إلهية في الأصل، فإذا جاز وصف الإنسان بكل هذه الصفات فلماذا لا يمكن وصفه بأحسن تقويم؟ بيد أن الإنسان لا ينال نصيبًا من هذه الصفات إلا بقدر ما هو مقدَّر له، ولا يصحّ القول أبدا إنه يمكن أن يتصف بهذه الصفات بحيث يصبح ندًّا لله تعالى؛ ذلك أن كل شيء يعمل بحسب طاقاته، وليست المقارنة هنا بين الله والإنسان، بل بين مخلوق وآخر، حيث بيَّن الله تعالى أن الإنسان هو الوحيد من بين جميع المخلوقات الذي يمكن أن يقدِّم نموذجًا لأحسن تقويم. فرغم أن الملائكة من خلق الله تعالى، إلا أنها لا تستطيع أن تباري الإنسان في هذه الصفة. والحال نفسه بالنسبة للمخلوقات الأخرى مقابل الإنسان. فمثلا إن المهمة التي عُهدت للنبي ﷺ

لا يمكن لجبريل أن يقوم بها، والمهامّ التي أُنيطتْ بالأنبياء الآخرين لا تقدر الملائكة على إنجازها، ومن أجل ذلك بعث الله موسى وعيسى وداود وسليمان وإبراهيم ورسولنا الكريم لإصلاح العالم، و لم يبعث الملائكة لهذه المهمة. وليس ذلك إلا لأن الله تعالى قد أودع الإنسانَ صفة أحسن تقويم و لم يودعها الملائكةَ؛ بمعنى أن مهمة التربية والتعليم والإصلاح التي يمكن أن يضطلع بها الإنسان لا يقدر عليها الملائكة ولا غيرها من المخلوقات. وهذا دليل على أن الإنسان -كجنسٍ- أفضلُ من جميع مخلوقات الله تعالى، وأن الفرد الكامل من الناس أفضلُ من الفرد الكامل من الملائكة.

باختصار، إن من معاني هذه الآية أننا خلقنا الإنسان بحيث إنه يقوم بأحسن تقويم، أي أنه يقوم بتعليم وتربية بني جنسه وغيره من المخلوقات بأفضل شكل ويخلق الأشياء ويقدّرها ويصوّرها بأروع شكل. بتعبير آخر لقد جعل الله الإنسان معلِّمًا رائعًا ومربِّيًا رائعًا وخالقًا رائعًا وصانعا رائعا في المجالين الروحاني والمادي، وكل ذلك دليل على فضله الكبير على المخلوقات الأخرى. وهذا المفهوم لا يستلزم أيَّ شِركٍ مطلقا، فما دام الجميع يعترف بأن الإنسان بصير وسميع ورؤوف ورحيم، فلا مانع من أن يتصف بصفة أحسن تقويم أيضا. وهذا ما بينه الله في هذه الآية، حيث أخبر أننا قد أودعْنا الإنسانَ صفة أحسن تقويم أيضا وجعلناه خالقًا في المجالين المادي والروحاني، فإنه يُخرِج بتربيته أناسًا كاملين، كما يأتي بروائع الصنائع؛ والأدوار الأربعة المذكورة هنا تؤكد ذلك. فإذا أجلتم النظر في هذه الأدوار لاعترفتم أن الله تعالى قد زوّد الإنسان بقوة التربية والتعليم والتعديل بشكل خارق. لقد جاء آدم فقام بعملية الإصلاح التي استمرت مئات السنين. ثم جاء نوح فأنشأ جماعة من كبار الصلحاء الأطهار، وهكذا ترك في الدنيا آثار إصلاحه التي لن تنمحي أبدا. ثم جاء موسى فقام بتعديل القوى الإنسانية وأقام جماعةً من الصلحاء العظام الذين أظهروا جلال الله وجماله في العالم. والآن قد جاء محمد رسول الله الذي ستنكشف على يده هذه الصفة الإنسانية حتمًا، فتدرك الدنيا أننا قد خلقنا الإنسان مزوَّدًا بصفة أحسن تقويم. لقد كان آدم ونوح وموسى ومحمد كلهم دليلاً

على أحسن تقويم، وسوف ترون الآن كيف يكشف الإنسان ما فيه من أفضل القوى وأروعها نتيجةَ تعليم محمد ﷺ وتربيته.

هذه الأدوار الأربعة المذكورة آنفًا إنما هي أربعة أدوار لتكميل الإنسانية في الواقع. لقد كان آدم عليه السلام مؤسس مرحلة المَدنية، وكان نوح عليه السلام مؤسس مرحلة الشريعة، وكان موسى عليه السلام مؤسس مرحلة تفصيل الشريعة، وأما محمد ﷺ فكان مؤسس مرحلة التكميل. لقد قام آدم بتشكيل الإنسانية، وقام نوح بتأسيس الشريعة، وقام موسى بتفصيل الشريعة، وبُعث محمد ﷺ فقام بتكميل الإنسانية والمدنية والشريعة وتفصيل الشريعة، وكأنه ﷺ بلغ بالمراحل الثلاث التي ظلت ناقصة إلى حد الكمال. لقد أزال من مرحلة المَدَنيّة ما كان بها مِن نقائص فقدَّم للعالم مَدَنيّة كاملة خالية من العيوب، وقد طهّر الشريعة من كل عيب وقدّم شريعة كاملة خالية من النقائص، وطهّر مرحلة تفصيل الشريعة من كل نقص، وقدّم أمام العالم مجموعة من القوانين الكاملة المترهة عن أي عيب، وتسدّ كل حاجة، وليس فيها ما يُعَدُّ زائدًا لا حاجة إليه، فكمّل الشريعةَ عمقًا وسعةً. لا شك أن نوحًا عليه السلام عرض على العالم أول شريعة كانت تتصف بالعمق ولكن تفتقر إلى السعة حيث احتوت على بعض القضايا العامة البسيطة. أما الشريعة التي قدّمها موسى عليه السلام فكانت تتسم بالسعة ولكنها لم تتناول كل القضايا بعمق. أما محمد رسول الله ﷺ فأكملَ الشريعة عمقًا وسعةً، فليس هناك عمق أخلاقي إلا وألقى كتابه الضوء عليه، وليس هناك سعة أخلاقية إلا وتناولها كتابه. لم يذكر موسى عليه السلام كثيرا من دقائق الشريعة، ولم يذكر نوح عليه السلام كثيرا من تفاصيل الشريعة، وأما آدم فلم يذكر كثيرا من أمور المدَنية، فجاء محمد رسول الله ﷺ وسدّ كل هذه الثغرات وأكمل الشريعة. وهكذا ثبت صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. أي لقد خلقنا الإنسان بأعلى درجة من التقويم، وأن كل مرحلة من هذه المراحل الأربع كانت تكميلا للإنسانية، فلم يزل هذا البناء يرتفع ويرتفع حتى اكتمل.

التفسير: لقد قلت من قبل إن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يمكن تفسيره بعدة معانٍ، منها أننا جعلنا الإنسان أفضل مخلوق، ومنها أننا خلقناه مزوَّدًا بأفضل القوى والكفاءات، ومنها أننا جعلناه صانعا ماهرا وزوّدناه بصفة التقويم، فهو قادر على أن يقوم بأروع خلق في المجالين الروحاني والمادي.

وهذه الدعوى التي قدَّمها الإسلام أمام الدنيا توجد حولها ستة اختلافات كبيرة بين مختلف الأديان، وأحد هذه الاختلافات هي العقيدة التي قدّمها الإسلام، والخمسة الأخرى هي العقائد التي تقدّمها بقية الأديان، ونورد فيما يلي هذه العقائد بشيء من التفصيل.

العقيدة الأولى هي أن الإنسان قد خُلِقَ بنزعة نحو الشرّ، غير أنه يمكن أن ينصلح بالإصلاح؛ فكأنهم يقولون إن الإنسان مائل بفطرته إلى السيئات، وأنه جُبل على هذا النقص منذ أول يوم وإنْ كان قد مُنحَ القدرة على إصلاحه أيضا. وبتعبير آخر أن للإنسان طبعًا مَرِنًا غير أن أساسه على السوء، مثل الشجرة التي تنبت في مكان وسخ نجس. لا شك أننا نستطيع أن ننقلها إلى الأرض الجيدة، غير أنه لا يمكن إنكار أن منبتها أرض نجسة.

والعقيدة الثانية تقول إن الإنسان مفطور على الخير، إلا أن الإنسان الأول "آدم وحواء" ارتكبا السيئة، وحيث إن المرء يتأثر بوالديه بالوراثة حتمًا، فأولادهما مُكرَهون على ارتكاب السيئات رغم فطرتهم الصالحة. ويقول أصحاب هذه النظرية إن قوى الإنسان نوعان: ذاتية ومكتسبة، والقوة الذاتية في الإنسان هي قوة الخير، ولكنه قد ورث الخطيئة من أبويه، فصارت فطرته الصالحة ملوثةً بالخطيئة الموروثة، فلا يمكن أن يتحرر منها إلا بمساعدة مساعد. ثم يقول هؤلاء إن الله تعالى لما وجد أن من المحال أن ينجو الإنسان من الإثم الموروث قال لابنه: يمكن أن ينال الناس النجاة لو ضحَّيت بنفسك فداءً لآثامهم رغم كونك غيرَ آثم، فرضي الابن، فقال الله له: اذهبْ الآن إلى الدنيا في صورة إنسان، وسوف يضربونك ويؤذونك

وفي الأخير يصلبونك. ستتحمل كل هذا العذاب بأيديهم، ولكنك ستتحمله غيرَ آثم، ولذلك سيغفر الله تعالى للعالم كل ذنوبه نظير تضحيتك.

باختصار، إنهم يقولون إن فطرة الإنسان نقية، ولكن الإنسان الأول وقع في السيئة، فانتقل هذا الإثم في البشر بالوراثة رغم فطرتهم النقية، ولا يمكن أن ينجوا منه إلا إذا آمنوا بفداء المسيح وكفارته.

والعقيدة الثالثة تقول إن الإنسان لم يُخلَق بقوّة معيّنة، ومن الخطأ القول أنه مفطور على الخير أو الشر، إنما الواقع أنه قد خُلق ببعض القوى والقدرات التي ليست بخير ولا بشرٍّ، كالشجاعة والتهور والمحبة والسخاء والرفق والغضب وما إلى ذلك، ثم إنه يتأثر بالتعليم والتربية ويصبح ما يصبح. بتعبير آخر إن الإنسان مجبر بظروفه، أي أنه حرٌّ بفطرته، ولكن بيئته لا تتركه حرًّا، فتصوغه كيفما تشاء، فإذا كان أبواه هندوسيَّيْن أصبح هندوسيا، أو إذا لعب مع أولاد الحارة تخلّقَ بأخلاقهم. إن الظروف هي التي تدفعه إلى الخير أو الشر، فإذا كانت ظروفه حسنة أصبح حسنًا، وإذا كانت سيئة أصبح سيئا. فحياته مصاغة بحكم المحيط، فيصبح صالحا أو طالحا بحكم الظروف، وليس صحيحًا أنه مزود بقوة الخير أو الشر.

والعقيدة الرابعة تقول إن الإنسان خُلِقَ مجبورا، فهو مجبر بحسب القانون الإلهي. وهذا رأي بعض المتصوفين الفاسدين في هذا العصر، فإنهم يظنون أن الإنسان لا يفعل إلا ما هو مكتوب في قدره، فلو نبّههم أحد إلى إصلاح أنفسهم قالوا: هذا الإثم مكتوب في قدرنا، فلا نستطيع أن نفعل خلافه.

والعقيدة الخامسة تقول: إن الإنسان قد جاء إلى هذه الدنيا ليتحمل نتائج خلقه السابق، وأن حياته نتيجة لأعماله السابقة.

والعقيدة السادسة التي يؤيدها الإسلام تقول إن الإنسان خُلِقَ بفطرة مائلة إلى الخير، غير أنه يفسُد إذا أُفسدَ.

والنظرية الأولى القائلة أن الإنسان مفطور على الشر غير أنه ينصلح بالإصلاح هي عقيدة البوذيين وبعض من أهل الصين والدامّارغيين وغيرهم.

والعقيدة الثانية القائلة أن الإنسان مفطور على الخير، ولكن آدم أخطأ فانتقلت خطيئته إلى ذريته بالوراثة، ولا يمكن التخلص منها بلا مساعَدة مساعِد، فهي العقيدة المسيحية.

أما العقيدة الثالثة القائلة أن الإنسان لم يُخلَق بقوة معينة، وإنما يتأثر بالتعليم والتربية فيصاغ بحسبها وهو مجبر بظروفه، فهي نظرية الفيلسوف المعاصر فرويد، ويقدمها فلاسفة هذا العصر.

والعقيدة الرابعة القائلة أن الإنسان خُلِقَ مجبرًا وأنه مجبر بسبب القانون الإلهي، فهي نظرية بعض المتصوفين الفاسدين في هذا العصر وبعض النصارى.

أما العقيدة الخامسة القائلة أن الإنسان يأتي إلى الدنيا ليتحمل عواقب خلقه وأن حياته نتيجة لأعماله السابقة فهي عقيدة هندوسية. (موسوعة الأديان المجلد ١ ص ٨٦-٨٧ تحت كلمة: Adam والمجلد ١١ ص ٥٣٣-٥٣٥ تحت كلمة: Buddist and Chinese، وص ٥٦١ تحت كلمة: Hindu)

والعقيدة السادسة القائلة أن الإنسان قد خُلق بفطرة مائلة نحو الخير وأن أبواب الرقي غير المتناهي مفتوحة أمامه على مصارعها، غير أنه يمكن أن يفسد إذا أفسده أحد، فهي نظرية الإسلام.

هذه هي النظريات الستّ، وأربع منها تسمى نظريات فلسفية وتؤيد الجبر. وأُولى هذه النظريات الجبرية هي عقيدة الفداء المسيحية التي يبرر أصحابها الجبر بقولهم إن أبانا آدم ارتكب الإثم، فصارت فطرتنا جميعا آثمة سيئة.

والثانية هي عقيدة التناسخ الهندوسية حيث يعتبرون أعمالهم السيئة في ولادتهم السابقة سببًا لهذا الجبر، وبحسب هذه العقيدة يُعتبر بعض الناس خيرا وبعضهم شرا، غير أن الذي هو صالح ليس صالحا تماما ولذلك يُلقى حتى الآن في دورة الولادات المختلفة . وكأنهم يقولون إن الشر في كل إنسان، غير أن بعض الناس أقلُّ شرًّا من غيره، والذي يبدو صالحا هو أيضا سيئ في الواقع، ولذلك يُلقى في دورة الولادات المختلفة.

والنظرية الجبرية الثالثة هي لبعض المسلمين المبتدعين حيث يعتبرون الله تعالى علة الجبر، بمعنى أنه تعالى قد خلق بعض الناس صالحين وبعضهم سيئين، فمن خُلق صالحًا أُعطيَ فطرة حسنة، ومن خُلق سيئًا أُعطي فطرة سيئة.

والنظرية الجبرية الرابعة هي عقيدة الفلاسفة المعاصرين الذين يقولون أن الإنسان ليس بِحُرٍّ، وإنْ كانوا يقولون إنه ليس مجبرًا نتيجة فعلٍ من الله ولا فعله هو ولا فعل آبائه، بل هو مجبر بسبب طبعه أو بيئته، فالذين يتمتعون بقدرات جيدة بطبعهم أو يعيشون في محيط صالح فإنهم يعملون أعمالا حسنة، أما الذين خلقوا بطبائع ناقصة ضعيفة أو يعيشون في بيئة سيئة فيعملون السيئات، ولا خيار لهم في ذلك، بل إن المحيط هو الذي يؤثر فيهم ويصوغ فطرتهم.

والعقيدة القائلة بأن الإنسان جاء إلى الدنيا بفطرة سيئة فهي عقيدة كل الأديان إلا الإسلام، فكل العقائد المذكورة أعلاه تؤكد هذا الأمر تقريبا، حيث يرى أصحابها عموما أن أصلنا هو الإثم وعلينا أن نقضي عليه، حيث يرى البوذيون خاصة أن فطرة كل إنسان سيئة. أما أصحاب العقائد الأخرى فهم أيضًا يحملون أفكارًا مماثلة، لأنهم إذا كانوا يسلّمون بوجود خير في الإنسان فأيضًا بمعنى سيئ، فيقولون مثلاً إن الإنسان مجبر بظروفه ومحيطه، فإذا كانت بيئته حسنة صار حسنًا وإذا كانت سيئة صار سيئا. فلا شك أنهم يعترفون بوجود الخير في الإنسان، ولكن الجميع يدرك أن عقيدتهم هذه لا تنسب أي خير إلى الإنسان، لأنه إذا كان يعمل الحسنة جبرًا فليس في ذلك أي ميزة حقيقية، إنما الحسنة الحقيقية ما لا شائبة فيه من جبر وإكراه.

باختصار، إن جميع الأديان إلا الإسلام تقول إن الإنسان قد وُلد بفطرة سيئة. والحق أن كل هذه العقائد باطلة مرفوضة. فإن العقيدة الأولى منها.. التي تقول إن كل إنسان خُلق بفطرة سيئة.. توجد في عامة الناس حيث يقولون إن الإنسان بَشَرٌ وهو مجبر على ارتكاب الخطأ والإثم. ولكن دراسة فطرة الطفل تؤكد بطلان هذه العقيدة. إن الفطرة السيئة تُعرَف بالأعمال السيئة، ولكنا حين ندرس أحوال الأطفال نجدهم لا يكذبون بأنفسهم، بل إنهم يصابون بهذا العيب بعدما يرون

الكبار يكذبون. كذلك لا يكون أي طفل بفطرته مائلا إلى السرقة والخيانة وغيرهما من المنكرات، فإن بعض ما يفعله الطفل مما يُظن أنه منكر لا يكون منكرًا في الواقع، لأن بعض الأعمال تُعتبر سيئة أو حسنة بعد العلم. فمثلا ينبغي ألا يأخذ أحد مال غيره، وهذه صفة ينبغي أن يتحلى بها كل إنسان، والذي لا يتحلى بها نعتبره سيئا، بيد أنه لا يمكن أن نغض الطرف عن أمر هام، وهو أننا لن نسمي أحدًا سيئا إلا إذا كان يدرك مفهوم المِلْكية ويعلم أن المال نوعان: مالٌ هو مِلكٌ للمرء، ومال هو مِلكٌ لغيره، ولا يحق لك أن تأخذ ما هو لغيرك. فما لم يدرك الإنسان هذا المفهوم جيدا لا يمكن أن نعتبره مجرما ونعتبر فعله سيئا. وإذا درسنا حالة الطفل من هذا المنظور تبيّن لنا أنه يأخذ أشياءَ غيرِه أحيانًا لظنّه أنها مِلْكُه، ولكننا لا نستطيع أن نعتبره سيئَ الفطرة، ولا يمكن القول إنه ليس مفطورا على الخير بحجة أنه أخذ مال غيره! ذلك أنه لا يدرك مفهوم المِلْكية، ولا يدرك ما هو مال الغير. فهذا فوق مستوى إدراكه، وما دام فوق إدراكه فلا يجوز أن يُلام على مثل هذه التصرفات.

والعقيدة الفلسفية القائلة أن الإنسان وُلد بفطرة مائلة إلى الشرّ هي عقيدة البوذيين، حيث يرون أن فطرة الإنسان سيئة، وبالتالي فكل رغبة تتولد في قلبه سيئة، فلا بد له من كبت رغباته من أجل النجاة الكاملة، وما لم نقضِ على رغباتنا، فلن تتيسر لنا النجاة الكاملة!

ولكن هذه العقيدة باطلة عقلاً، ذلك أن الرغبات ليس اسمًا إلا للأكل والشرب والزواج والاختلاط مع الآخرين وإقامة الصلات معهم وكسب الرزق والعلم والعبادة وما إلى ذلك. هذه هي الرغبات الإنسانية، ولكننا حين ندرس الديانة البوذية نجد أنها لا تنهى عن الزواج إلا الرهبانَ، مع أن هذه الديانة تريد النجاة للعالم كله. فلو كانت النجاة تعني القضاء على الرغبات فكيف ينال النجاةَ البوذيُّ الذي يريد أن يتزوج؟ إذ من المحال أن يجد الإنسان زوجةً مِن دون إرادة ورغبة منه كوجود الأنف والأذن واللسان وغيرها من الأعضاء والجوارح تلقائيًا، لا يمكن له أن يجد زوجة دون أن يعلم أن فلانة ستكون زوجته ودون أن يعلم أبواه أن فلانة

ستكون كِنَّة لهم. كلا، لا بد أن يرغب في امرأة حتى يتزوجها، وإذا رغب حُـــرِمَ النجاة فورًا بحسب الديانة البوذية التي تعلِّمُ أن سبيل النجاة إنما هو القــضاء علـــى الرغبات. فلو أن البوذية نهت كل رجل وامرأة عن الزواج لكان الأمر معقولا إلى حد ما، ولكنها لا تحظر الزواج إلا على الرهبان فقط، مع أنها تريد النجاة للجميع. لو أن البوذية رأت أن النجاة محالٌ لعامة الناس لما سمحت لغير الرهبان بالـــدخول فيها، ولكن سماحها للجميع باعتناقها لدليل ساطع على أنها تقـــول بنجـــاة كـــل إنسان، ولكنها ما دامت قد سمحت للجميع بالزواج إلا الرهبان، فهـــذا يعـــني أن رغبة الإنسان بالزواج لا تحرمه من النجاة بحسب هذه الديانة. والآن علينا أن نرى -بحسب العقيدة القائلة أن الرغبة تحرم الإنسان من النجاة- هل تنهى البوذية عـــن الزواج؟ الجواب كلا، إذ إنها لا تحظر الزواج إلا على الرهبان. إذن، فكيف يقضي الإنسان على رغبته هذه؟ إنه يرغب في الزواج، والبوذية لا تنهاه عن ذلك، فهـــل نقول -في هذه الحالة- أن البوذية لا تنهاه عن مجرد الرغبة في الـــزواج، ولكنـــها تسمح له بتحقيق الرغبات الأخرى؟ ولو كان الأمر كذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو أن الرغبة في الزواج مرتبطة برغبات أخرى، فما هو الحل الذي تقدِّمه البوذية بصددها؟ فمثلا يريد المرء أن تكون زوجته صالحة، فهل تسمح له البوذيـــة بتحقيق هذه الرغبة؟ أتريد البوذية منه أن يقضي على هذه الرغبة وتأمره أن يتزوج بشريرة سيئة؟ ثم إن الإنسان يرغب بالزواج من امرأة جميلة، فهل تقول له البوذيـــة أن لا يرغب في ذلك، بل يتزوج بامرأة دميمة؟ ثم يريد الإنسان أن تكون زوجتـــه مثقفة، والبوذية تأمر بالقضاء على الرغبات، فهل تقول له البوذية أن يتزوج امـــرأة جاهلة؟ ثم يريد الإنسان أن تكون زوجته ولودا، فهل تقول له البوذية أن لا يتزوج امرأةً ولودًا بل عاقرا؟ ثم يريد الإنسان أن يتعلم أولاده، فهل تقول له البوذيـــة أن الرغبة أمر سيئ فلا ترغب في تعليم أولادك، بل دعْهم يعيشون جاهلين؟ ثم يريـــد الإنسان أن تكون ذريته صالحة، فهل تقول له البوذية أن يطلب ذرية سيئة؟ ويريد الإنسان أن يجد عملاً جيدًا أو وظيفة جيدة أو تجارة جيدة، فماذا تقول له البوذية؟ هل تنهاه عن الرغبة في التجارة الجيدة وتأمره أن يرغب في التجارة الكاســـدة؟ أو

تقول له أن لا يبحث عن الوظيفة الجيدة، بل عن وظيفة سيئة؟ ويريد المرء أن يكون محصول زرعه وفيرا، فهل تأمره البوذية أن يرغب في دمار زرعه؟ ثم إن الإنسان يريد صحة جيدة وتقول البوذية أن الرغبة أمر سيئ، فهل تقول له أن لا يرغب بالصحة الجيدة لأنه إذا رغب بها أصبح آثما، فعليه أن يرغب في المرض؟ ثم إن الإنسان يريد الصلح مع جاره والأمان في بلاده، فهل تقول له البوذية أن يبقى في حرب مع جيرانه راغبًا في الفساد في بلده؟ ويريد الإنسان أن تكون الحكومة في بلده جيدة، فهل يقال له أن يرضى بحكومة فاسدة؟ ويريد الإنسان أن يحظى برضا الله تعالى، والبوذية تقول أن الرغبة أمر سيئ، فهل يعني ذلك أن على الإنسان أن لا يريد رضا الله تعالى بل يرغب في سخطه دائما؟ ويريد البوذي أن ينتشر دينه، فبمجرد أن تتولد هذه الرغبة في قلبه يُحرَم النجاة. وحينما يريد أحد من البوذيين أن يصبح من رهبانها، فلا شك أنه يريد ذلك رغبةً في النجاة، ولكنه بمجرد أن يصبح راهبًا يُحرَم من النجاة، إذ تولدت في قلبه رغبة في أن يُدخِل الآخرين في دينه. بل يمكن القول أكثر من ذلك، وهو أن بوذا قد حرم من النجاة - بحسب هذه النظرية- حين أراد أن يجعل الناس رهبانًا، إذ قد تولدت في قلبه رغبة لجعل الناس رهبانا. ثم إذا كان البوذيون يريدون استقلال بلادهم فماذا يقال لهم بحسب هذا التعليم البوذي؟ هل يقال لهم ألا يرغبوا بالاستقلال؟ بل إذا استولى أحد على بلادهم فلْيَدَعوه يفعل ذلك وإلا سيُحرَمون النجاة؟

ولو قال البوذيون في الجواب إنها رغبات مباحة جيدة، فنقول لهم: لقد اعترفتم أن الرغبات نوعان: سيئة وحسنة، وعلى المرء أن يحقق الحسنة من الرغبات ويرتدع عن تحقيق السيئة منها، فثبت أن قولكم أن الإنسان يولَد سيئًا لوجود الرغبات فيه قولٌ باطل تماما، إذ قد اعترفتم بأنفسكم أن مِن الرغبات ما هو سيئ ومنها ما هو حسن، ومن واجبنا القضاء على السيئة منها وتحقيق الحسنة منها. وهذه هي وجهة نظر الاسلام. إذن، لم يعُدْ بيننا خلاف، بل هناك اتفاق.

قد يقول بوذي بسماع نقدنا هذا إنكم تقدّمون ديننا بطريق خاطئ حين تقولون إن البوذية تريد منا ألا نرغب في الاستقلال بل نرغب في العبودية والرق،

وألا نرغب في الصحة بل في المرض، وألا نرغب في زوجة جميلة بل في دميمة، وألا نرغب في العلم بل في الجهالة، وتنسبون لنا رغبات أخرى، مع أن نظريتنا تقول إن الرغبات سيئة في كل حال سواء كانت في أشياء جيدة أم سيئة. إننا نريد القضاء على الرغبات ولا نقول أنّا علينا أن نرغب في شيء حسن ولا نرغب في شيء سيئ، بل نقول يجب ألا يرغب الإنسان البتة لا رغبة حسنة ولا سيئة، لأن في هذا نجاته.

ونقول في الجواب: نحن نقبل جدلاً أن هذا هو قصدكم، حيث تقولون إن على المرء أن لا يرغب أية رغبةٍ حسنةً كانت أم سيئة، ولكن السؤال هنا: ماذا يفعل الإنسان في هذه الحالة؟ فمثلا إذا سأله أبوه: هل تريد الزواج؟ فهل يقول له: لا أرغب في الزواج ولا في العزوبة! وإذا وصل الزوج إلى بيته وقالت له زوجته: الطعام جاهز، فهيّا بنا نأكل، فهل يقول لها: لا أرغب في الطعام ولا في أن أبقى جائعًا. باختصار، لو سلّمنا بصحة هذه العقيدة البوذية لوجد البوذيون عند كل خطوة مشاكلَ عويصة. لنفترضْ أن بوذيا يأتي مجلسا، وبحسب هذه العقيدة ستأخذه الحيرة في أن يجلس أو لا يجلس، فلو جلس فقد حقّق رغبةً، وإذا رجع فقد حقق رغبة أيضًا، وهكذا سيظل في حيرة من أمره بحيث لن يبقى له إلا أن يجلس ثم يقف، ثم يجلس ثم يقف، وهكذا. ثم إذا سئل هذا: أي حكومة تريد؟ فيقول لا أريد حكومة جيدة ولا سيئة، لا منظمةً ولا فوضوية. وإذا قيل له: مَن ذا الذي تصوّت له، قال: لا أريد أن أصوت لهذا ولا لذاك، فيقول له المسؤول: لماذا جئت هنا إذن، اذهبْ من هنا، فيقول له: لا أريد الذهاب ولا البقاء.

باختصار، إنها عقيدة باطلة لا أساس لها، ومهما شرحناها فلن تكون النتيجة إلا الضحك عليها.

ولو قالوا: إننا نقصد من ذلك أن يرغب الإنسان رغبة صالحة، لقلنا: هذا يعني أن في الإنسان خيرًا وصلاحًا أيضا، وهذا ما نؤمن به بأن في الإنسان رغبات حسنة وسيئة، وإذا أخضع رغباته الفطرية للعقل والمصلحة سُمِّيَ صالحًا، أما إذا لم يخضعها للعقل والمصلحة سُمِّيَ سيئا، فالطريق السليم هو استثارةُ الفطرة السليمة في الإنسان

وحمايتُه من أن يحقق مقتضياته الطبعية الفطرية بطريق خاطئ، وليس أن نعتبر فطرته سيئة نجسة.

باختصار، إذا قال البوذيون إننا نقصد أن على الإنسان أن تكون رغبته صالحة، فثبت أن في الإنسان خيرًا، وأن عليه أن يرغب في الخير دائمًا، وإذا ثبت أن فيه رغبات فطرية، فنسأل: ما الذي هو سيئٌ في فطرته؟ كلا، بل كل مقتضياته الفطرية حسنة، وإنما استعمالها السيئ هو الذي يجعلها سيئة. فمثلا إن فطرة الإنسان تأمره بأكل الطعام، ولكنها لا تأمره أن يأكل طعام غيره، ولو فعل ذلك فهذا ذنبه هو. إن فطرته لم تأمره أن يسلب غيرَه طعامه ويأكله، وإنما أمرته أن يأكل فقط. ولكنه عندما يجوع ولا يكون عنده طعام يفكر أن يسرق طعام غيره ويأكله، وهكذا يستعمل هذه الرغبة الفطرية في غير محلها. أو مثلاً حينما يرغب الإنسان في الزواج تقول له فطرته أن يتزوج فقط، ولا تقول له أن يأخذ زوجة غيره. أو تقول له فطرته مثلاً أن ينفق المال، ولكن لا تقول له أن ينفقه في غير محله. إنما ينشأ فيه هذا الفساد بسبب المحيط والظرف الذي فيه، أما فطرته فلا تأمره بهذا الفساد والخطأ أبدًا. ثم هناك غريزة الشجاعة في فطرة الإنسان التي يحمي بها الآخرين من خسائر فادحة مضحيا بنفسه أو ماله، ولكنه أحيانا يشرع في ظلم الناس، وليس الظلم إلا استعمالا خاطئا لغريزة الشجاعة الفطرية. لقد خلق الله تعالى فيه الشجاعة ليضحي من أجل الآخرين، ولكنه يسيء استعمالها في بعض الأحيان ويغصب حقوق الآخرين. أو مثلاً قد خلق الله في فطرة الإنسان غريزة الرقيّ، ولكنه حين يسيء استعمالها يحوّلها إلى الحسد، فيريد أن يترقى هو دون الآخرين.

باختصار، لم يجعل الله تعالى في فطرة الإنسان أي رغبة سيئة، وإنما استعمال هذه الغرائز والمقتضيات الفطرية هو السيئ. والآن بقي السؤال التالي: هل خلق الله تعالى في الإنسان الشجاعة والسخاء والمحبة وغيرها من الغرائز الفطرية من أجل أعمال حسنة أم سيئة؟ فلو قيل: إنه زُوِّدَ بها ليقوم بها بأعمال سيئة، فلا بد أن يكون العمل السيئ هو البِرّ، لأن هذا ما يريد الله تعالى منه، وإلا قيل إن الله تعالى خلق فينا هذه

الغرائز لنعمل بها السيئات، ولكنا حين نعملها يغضب ويسخط علينا. أما لو قيل في الجواب إن الله تعالى قد خلق فينا هذه الغرائز لنحسن استعمالها ونعمل بها الحسنات، ثبت أن فطرة الإنسان حسنة وليست بسيئة. نحن لا ننكر أن الظروف التي يمر بها الإنسان تكون حسنة وسيئة، فيميل بسببها إلى الخير تارة وإلى الشر تارة أخرى، ولكن ما تقتضيه منه الفطرة ليس سيئا.

وبسبب عدم فهم هذه الحقيقة وُجدت ديانة الدامّارغيين الذين تطرّفوا ومالوا إلى طرف آخر من هذه النظرية، فديانتهم ديانةُ تحقيقِ الرغبات، أما البوذية فهي ديانةُ كبحِ الرغبات، حيث تركّز هذه على أن الرغبات كلها سيئة ومِن أول واجبات المرء القضاء عليها كليةً وإلا فلن يحظى بالنجاة، وأما الدامارغية فترى أن غاية خلق الإنسان لا تتحقق إلا إذا راعى رغباته كلها وعمل على تحقيقها كلها، لأن الله تعالى ما دام هو خالق فطرة الإنسان، فكل رغبة تتولد في قلبه تكون موافقة لمشيئته تعالى.

ولكنا نقول لا شك أن الله تعالى هو خالق الفطرة الإنسانية إلا أن ظهورها يتأثر بحكم البيئة والمحيط. فمثلاً يخلق الله تعالى صورة الطفل كاملة، ولكن يمكن أن تتشوه صورته نتيجة مرض أو إصابة وهو في رحم أمه؟ كذلك تمامًا قد يُفسد المحيطُ فطرة الإنسان، فلا يصح إذن القول أن كل رغبة تتولد في قلب الإنسان تكون حسنة حتمًا. كلا، فما دامت ظروفه قد جعلته سيئا، فلا بد أن تتولد في قلبه رغبات سيئة، ولو عمل بها لأضرّ جسمه وروحه.

باختصار، يقول الدامّارغيون: إذا كانت فطرة الإنسان صالحة فكل رغباته صالحة، وإذا كانت فطرته سيئة فإن ما يسمى سيئًا هو الصلاح بعينه، ولذلك يبيح هؤلاء شرب البول وأكل البراز ولحم الميتة وغيرها، ويؤثرون النجاسة على النظافة. الحق أنهم قد سمّوا ما هو نتيجة المحيط فطرةً، مع أنه ليس بفطرة. إن ما نقوله هو إن الغرائز البشرية غير المعيّنة هي التي تُستعمل للخير، ولا نقول أن الرغبات التي تتولد في قلب الإنسان بحكم ظروف معينة هي أيضا خير. كلا، إن المقتضيات المعينة التي تتولد في قلبه نتيجة ظروف معينة لا نسمّيها فطرة، ولا يقول القرآن الكريم أنها

تكون حسنة دائمًا. ولكن هؤلاء القوم قد تعثروا هنا للأسف، فقالوا إذا كانت الفطرة نقية فإن ما تعتبرونه سيئا ليس بسيئ بل هو حسن، وإذا كانت الفطرة سيئة فإن ما تسمّونه سيِّئًا هو خير بعينه وليس بسيئ. ولكن الحق أن الفطرة الإنسانية نفسها ترفض ما يقوله الدامارغيون، ولذلك نراهم يُخفون أنفسهم عن الناس ويخافون أن يظهروا لهم، مما يؤيد رأينا.

وتقول العقيدة الثانية أن الإنسان خُلق صالحًا، ولكن آدم الأول أذنب، فصار الجميع آثمين. لو كان أصحاب هذه العقيدة دهريين لناقشناهم بأسلوب آخر، لكنهم ينتمون إلى ديانة. وإننا نجد أن ديانتهم نفسها ترفض عقيدتهم. فأول سؤال نوجهه إليهم هو: إذا كان صحيحًا أن آدم الأول أذنب، فانتقلت خطيئته إلى أولاده بالوراثة بحيث أصبح من المستحيل أن يتخلصوا منها بدون مساعدةِ مساعِد، فيجب أن يكون جميع الناس قبل بعثة المسيح محرومين من النجاة، لأن الفداء لم يقدّمه إلا المسيح عليه السلام، ومن آمن بفدائه نال النجاة، أما الذين خلوا من قبله فمن المستحيل أن ينالوا النجاة حسب هذه العقيدة. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل جميع الناس قبل إصلاح الفطرة من خلال فداء المسيح عليه السلام كانوا آثمين غير ناجين؟

والحق أن الكتاب المقدس نفسه يردّ على هذا السؤال، فهو لا يعتبر آدم ملعونا، بل يخبرنا أن الله تعالى كان راضيا عنه حتى بعد أن خدعه الشيطان، حيث ورد أن آدم عليه السلام لما أخطأ فتعرّى "وَصَنَعَ الرَّبُّ الإلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا" (التكوين ٣: ٢١). فإذا كان الله تعالى قد سخط على آدم وأخرجه مع أولاده الروحانيين فكان يجب أن يُظهِر سخطه عليه بعد ذلك وليس أن يصنع له ولزوجته ثيابًا من الجلد ويستر عورتهما. إن هذا يؤكد أن الله تعالى كان راضيا عن آدم عليه السلام بعد هذا الحادث أيضا.

ثم ورد أن الله تعالى قال للملائكة: "هُوَذَا الإنسان قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ." (التكوين ٣: ٢٢). فكيف يمكن أن يكون ملعونا مَن أصبح مثل الله وملائكته في معرفة الخير والشر؟ كلا، بل هذا مقام عالٍ تبوّءه آدم عليه السلام.

ثم جاء أخنوخ بعد آدم، وكان أبًا لجدّ نوح، وقد ورد عنه: "فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ أَخْنُوخَ ثَلاثَ مِئَةٍ وَخَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً. وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ". (التكوين ٥: ٢٣-٢٤).

وقد وردت خلاصة هذه الفقرة في التوراة كالآتي: "خبرُ صلاح أخنوخ وذهابه إلى الله تعالى وهو حيّ".

هذه العبارة تكشف أن أخنوخ كان مرضيًا عند الله تعالى بحيث إن الله تعالى لم يتوفَّه كما يتوفى الآخرين، بل رفعه إلى السماء وهو حيّ، مع أن العقيدة المسيحية تقول إنه كان في بنود العقوبة المفروضة على آدم بسبب ذنبه أنه لن يعيش في الدنيا للأبد، بل يصبح فريسة للموت يوما ما، فقد ورد في ذكر هذه العقوبة "لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (التكوين ٣: ١٩). مما يعني أن العقيدة المسيحية تقول أنه بسبب خطيئة آدم نال الإنسان عقوبة الموت وأُجبرَ على العيش على الأرض، ولولا ذنب آدم لعاش الإنسان أبدًا و لم يضطر للعيش على الأرض. بينما تخبرنا الفقرة السابقة من التوراة أن الله تعالى لم يُمِت أخنوخ، بل رفعه إلى السماء حيًّا. فلو اكتفت التوراة هنا بذكر صلاح أخنوخ لكان في ذلك دليل على كون الناس صلحاء من دون مجيء المسيح أو من دون الإيمان بفدائه، ولكن التوراة تذكر هنا أمرًا إضافيا بأن أخنوخ نجا من الموت ورفع إلى السماء حيًّا، مع أن الموت والعيش على الأرض كان جزءا من العقوبة المترتبة على خطيئة آدم؛ فثبت أن الذي نجا من الموت وصعد إلى السماء حيا كان بريئًا من الخطيئة المتوارثة تمامًا، إذ لو ورث شيئا من الخطيئة الموروثة لمات حتمًا بحسب العقيدة المسيحية، ولكنه لم يمت وصعد إلى السماء حيا، مما يدل أنه لم يأخذ أي نصيب من الخطيئة الموروثة.

ثم ورد فيها أيضا: "وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ". (التكوين ٥: ٢٤). وسيرُه مع الله تعالى يعني أنه كان يقضي حياته في طاعة الله، و لم يتوجه إلى شيء دونه ﷻ. ومن قضى حياته في طاعة الله فقط وكان شغله الشاغل أداء ما فرض الله عليه من واجبات، لم يستطع التدبير لمعاشه كالآخرين؛ إذن فسيره مع الله تعالى يعني أنه كان يجد رزقه بلا جهد، مما يعني أنه لم يعاقَب بالعقوبة الثانية المترتبة على خطيئة آدم

والمذكورة في التوراة كالآتي: "بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إلى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا، لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (التكوين ٣: ١٩). لقد تبين من هذه الفقرة أن آدم ﷺ عوقب بعقوبتين، إحداهما أنه يأكل دومًا بعرق جبينه، وثانيهما أنه لن يخلد في هذه الدنيا أبدا، بل لا بد له من شرب كأس الموت المريرة. ولكن أخنوخ لم يشرب كأس الموت المريرة، كما لم يأكل بعرق جبينه، إذ غاب في السماء حيًا من دون موت، ثم ظل يسير مع الله تعالى دومًا. مما يوضح أن أخنوخ -بحسب العقيدة المسيحية- ظل محفوظا من الخطيئة الموروثة وعثراتها بصورة قطعية. فلو انتقلت الخطيئة الموروثة إليه لأكل بعرق جبينه ومات ودُفن في الأرض، ولكنه لم يأكل بعرق جبينه و لم يمت، مما يدل أنه كان صالحا طاهرا بحسب العقيدة المسيحية نفسها.

ثم جاء نوح ﷺ، وقد ورد في التوراة عنه أن لامك سمّى ابنه نوحًا وقال: "هذَا يُعَزِّينَا عَنْ عَمَلِنَا وَتَعَبِ أَيْدِينَا مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ" (التكوين ٥: ٢٩).. أي بواسطة نوح ستزول اللعنة التي ألقيت على الأرض نتيجة خطيئة آدم والتي بسببها سيكسب الإنسان رزقه بجهد ومشقة دائما.

لقد بيّنّا آنفًا أن ذنب آدم تسبب في عقوبتين، أولاهما: أن الإنسان يكسب رزقه بمشقة وعناء، وثانيتهما: أنه يموت يومًا ويدفن في الأرض. أما لامك فسمّى ابنه نوحًا قائلا: "هذا يُعَزِّينَا عَنْ عَمَلِنَا وَتَعَبِ أَيْدِينَا مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ" فهذا يعني أنه أَمِلَ أن ينجوا بسبب نوح من هذه المشقة ويرتاحوا، مما يعني أن نوحا ﷺ جاء وحرَّرهم من هذه اللعنة.

ولو قيل هنا أن لامك قد أخطأ في عقد آماله على نوح بدون مبرر، قلنا: لماذا سجّلته التوراة إذن؟ إن ورود قوله هذا في التوراة يدل على أنه قد عقد هذه الآمال على نوح بأمر الله تعالى، وكان على نوح ﷺ أن يحقّق أمله في حياته، فيرفع عن الأرض اللعنةَ التي صُبّت عليها بسبب خطيئة آدم ﷺ.

ثم ورد عن نوح ﷺ: "كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارًّا كَامِلاً فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ"(التكوين ٦: ٩). ومن كان صادقًا وكاملا فكيف يمكن أن يكون آثما؟ وإذا

كان نوح عليه السلام يسير مع الله تعالى كما هو مذكور هنا، فهذا يعني أنه كان يعمل بحسب مشيئة الله دائما، فكيف يُعدّ آثمًا مَن هو صادق وكامل ولا يأتي ما يخالف مشيئة الله تعالى؟

ثم قال الله تعالى لنوح عليه السلام: "أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ" (التكوين ٦: ١٨). وكيف لا يُعَدُّ ناجيًا مَن يختاره الله تعالى لإقامة العهد معه؟

ثم ورد عن نوح عليه السلام أنه أقام مذبحا وعبد الله فيه، "فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ: لا أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الإنسان" (التكوين ٨: ٢١)، وكأن الله تعالى أُعجبَ بعبادة نوح عليه السلام بحيث قال: "لاَ أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ بعد ذلك". والسؤال هنا: ما دام نوح عليه السلام قد أزال اللعنة السابقة عن الأرض، فمن أين جاءت اللعنة الجديدة التي مسخت الفطرة الإنسانية، فجاء المسيح عليه السلام لإزالتها؟

ثم جاء إبراهيم عليه السلام وقد قالت التوراة إن الله قال له: "فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً، وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ" (التكوين ١٢: ٢-٣). لقد ذُكرتْ هنا عدة أمور أوّلُها: سَأُبَارِكَكَ، ومَن جعله الله مباركًا لا يمكن أن يكون ملعونا. وثانيها: أنك بركة، أي أنك بركة متجسدة. وثالثها: أنك لن تكون مباركا ولن تتبارك الدنيا بك فحسب، بل كل مَن باركك سوف أباركه. وجوابًا على هذه الفقرة نفسها قد علّم النبي صلى الله عليه وسلم أُمتَه الدعاءَ التالي: "اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد" (البخاري: كتاب الدعوات).. أي إلهي، لقد وعدتَ إبراهيم أن تباركه، وتبارك مباركيه، وبحسب وعدك هذا نبارك إبراهيم، فاملأْ بيوتنا ببركاتك وأفضالك. مما يعني أن مُبارِكي إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكونوا ملعونين، وأما الذين يلعنون إبراهيم فيستحيل أن ينالوا نصيبا من بركات الله؛ والنصارى يقولون إن الله تعالى لعن الدنيا بسبب خطيئة آدم، بينما يتضح من هذه الفقرة أن إبراهيم والذين معه لا يمكن أن يكونوا

ملعونين، وأن الذين يلعنونه ملعونون حتمًا، فثبت أن عقيدة المسيحيين هذه باطلة بحسب هذه الفقرة التوراتية.

ثم كان في زمن إبراهيم عليه السلام شخص اسمه مَلْكِي صَادَقَ مَلِك سَالِيم، وقد ورد في وصفه في الإنجيل: "وكانَ مَلْكي صَادَقُ هذا مَلِكَ ساليمَ وكاهِنَ اللهِ العليِّ..وتفسيرُ اسمِهِ أوّلاً مَلِكُ العَدلِ، ثمَّ مَلِكُ ساليمَ، أي مَلِكُ السَّلام" (الرِّسَالَةُ إلى الْعِبْرَانِيِّينَ ٧: ١-٢).. أي أنه اسمٌ على مسمّى. ثم ورد عنه: "بلا أَب، بلا أُمٍّ، بِلا نَسَب. لا بَدَاءَةَ أَيَّام لَهُ وَلا نِهَايَةَ حَيَاةٍ، بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ. هذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلَى الأَبَدِ." (الرِّسَالَةُ إِلَى الْعِبْرَانِيِّينَ ٧: ٣). ومثل هذا الإنسان لا بد أن يكون قد نجا من كل هذه العقوبات.

قد يقول هنا النصارى أن مَلْكِي صَادَقَ نال النجاة لأنه كان بدون أب وبدون أم، ولم يرث الخطيئة الموروثة. فنقول في الجواب: إذا كان مُصلِحون بدون أب وبدون أم قد جاءوا لإصلاح الدنيا قبل المسيح عليه السلام فما الخصوصية للمسيح؟ إنكم تركّزون على عصمة المسيح وعلى فدائه بحجة أن الدنيا كانت بحاجة إلى مصلح بريء من الإثم، وحيث إنه لم يوجد أي مصلح بريء من الإثم منذ آدم إلى المسيح، بل كل إنسان جاء ملوثا بالخطيئة الموروثة فكان لزامًا أن يأتي ابن الله البريء من الإثم ليكون فداءً لذنوب الناس، ولكن هذه الفقرة تؤكد أن مَلْكِي صَادَقَ جاء قبل المسيح وكان هذا الملك بريئا من الإثم تماما، إذ لم يكن له أم ولا أب، وبالتالي لم يكن فيه نصيب من الخطيئة الموروثة.

كذلك تؤكد التوراة صلاح وطهارة إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى كلهم عليهم السلام، والسؤال: إذا كان كل هؤلاء قد نالوا النجاة قبل المسيح بدون الإيمان بفدائه، فلم لا يستطيع الناس النجاة في المستقبل من دون فدائه؟ فالسبيل الذي به نال الأولون النجاة سينالها به الآخرون، فأي حاجة إلى تضحية المسيح وفدائه؟ إن نجاة الأولين دليلٌ على أن الفطرة الإنسانية لم تتلوث بأي خطيئة موروثة، وإلا لما كان هؤلاء من أحبّاء الله ومقرّبيه.

والسؤال الثاني هو: هل أحدثَ مجيء المسيح عليه السلام تغيُّرًا يمكن أن نقول بعده إن الإنسان نجا من الخطيئة التي تلوثت بها فطرته بالوراثة؟ الواضح أن الإثم قد ازداد بعد المسيح عليه السلام، وكذلك الشرك والظلم والكذب والخداع والغش، حتى إن المسيحيين أنفسهم يشتكون من ظلم بعضهم بعضًا. فإذا كانت الخطيئة الموروثة قد صارت مغفورة للناس بعد حادث فداء المسيح فلماذا ازداد الإثم بعده؟

يجيب المسيحيون على هذين السؤالين بجواب فلسفي يجب أن ينتبه له أفراد جماعتنا جيدًا. يقولون إننا لا ندّعي أن مجرد الإيمان بالمسيح ينجّي المرء من الإثم، بل نقول أنه بعد الإيمان بكفارة المسيح ينجح المرء في تحقيق رغبته لأن يكون صالحا، أما بدون الإيمان به فلا. فلو أريتمونا ملايين المسيحيين الآثمين فلا حرج ولا ضير، إذ لا يمكنكم أيضًا الادعاء أن كل إنسان يصير صالحًا بعد الإيمان بمحمّد، إنما تقولون إن الإيمان بمحمد يزوّد الإنسان بقدرة إذا استغلّها صار صالحا؛ كذلك تمامًا نقول من المحال أن ينال أحد النجاة قبل الإيمان بفداء المسيح، لأنه ملوث بالخطيئة الموروثة التي تحول دون رقيه الروحاني، أما إذا آمن بفدائه كانت هناك إمكانية لنجاته، فنحن ندّعي بإمكانية النجاة وليس أن كل من يؤمن بفداء المسيح نال النجاة وإن لم يستغلّ كفاءاته الصالحة. كلا، بل كما أن آدم أذنب كذلك يمكن أن يذنب الناس الآن أيضا، فإذا أرادوا النجاة من الإثم فيمكنهم ذلك الآن لأن الإثم السابق قد أُزيل عنهم بفداء المسيح، والإيمان به قد زوّدهم بالقدرة على فعل الخيرات مستقبلا.

وليكنْ معلومًا بصدد هذا الجواب المسيحي أن التوراة تشهد على أن كثيرين تجنبوا الإثم قبل مجيء المسيح أيضا، فما دام الأولون تجنبوا الإثم فكيف لا يتجنبه الناس الآن بدون الإيمان بفداء المسيح؟ وما دام الأولون قد نالوا النجاة بدون الإيمان بفدائه وساروا مع الله تعالى ونجوا من الموت حيث ورد "صَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ" (اَلْمُلُوكِ الثَّانِي ٢: ١١)، فأين الخطيئة الموروثة إذن؟ وما دام الذين أتوا بعد المسيح لا يزالون ملوثين بالإثم، فما فائدة الفداء؟

يقول النصارى في الجواب: إن الذين نجوا من الإثم قبل المسيح عليه السلام إنما نجوا لإيمانهم بفدائه، إذ أخبر الله تعالى أن ابن الله سيأتي مستقبلا فيصلبه الناس ويضحّون به ليكون فداءً لذنوبهم، وأنهم بمجرد سماع هذا الخبر قالوا: آمنّا وصدّقنا؛ فلما قال إبراهيم إني أؤمن بالمسيح الآتي نجا من الإثم. ويقدّم النصارى نبوءات لإبراهيم عليه السلام تنطبق في زعمهم على المسيح عليه السلام.

والجواب أن نبوءات إبراهيم عليه السلام هذه موضع جدل في حد ذاتها أولاً، وثانيًا إذا كان إبراهيم قد آمن بالمسيح فكيف عُرِفَ أن نوحًا وأخنوخَ أيضا كانا يعلمان أن ابنًا لله تعالى سيظهر مستقبلا؟ لو قالت التوراة مثلاً إن كل نبي آمنَ بابن الله هذا - وإنْ لم تذكر أن أخنوخ أو نوحًا آمن بالمسيح- لكان هذا كافيًا وقلنا: ما دام الكتاب المقدس يخبر أن كل نبي قد آمن بابن الله فلا حاجة الآن لأن يثبت النصارى بذكر اسم كل نبي أنه كان يؤمن بابن الله؛ ولكن المشكلة أنه لم ترِدْ في الكتاب المقدس عبارة بهذا المعنى مطلقًا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إنه يخبر أن أخنوخَ كان يسير مع الله تعالى، ولا يذكر الكتاب المقدس أنه كان يؤمن بابن الله. كذلك قد ذكر الكتاب المقدس أن آدم عليه السلام كان مرضيًا عند الله تعالى ولكنه لم يذكر في أي مكان أن الله تعالى أخبر آدم أن ابنه سيأتي إلى الدنيا، فيُصلَب فداءً لذنوب الناس، وأن عليه أن يؤمن به. كذلك يتحدث الكتاب المقدس عن صلاح إشعياء وحزقيال وغيرهما من الأنبياء، ولكنه لم يذكر في أي موضع أنهم آمنوا بفداء المسيح، بل إنه لم يقل أن إبراهيم عليه السلام كان مؤمنًا بكفّارة المسيح عليه السلام. ولو سلّمنا جدلاً أن هناك نبوءة لإبراهيم عن المسيح فإنما معناه أنه كان أخبر بمجيء المسيح بعده، إذ لا تذكر التوراة أبدًا أن إبراهيم أعلن أن المسيح سيفدي نفسه لينجي الناس من عقوبة ذنوبهم، وأنه يؤمن بفدائه وكفّارته. لذا فلو سلّمنا جدلاً بوجود نبوءة لإبراهيم في التوراة بحق المسيح، فإنما معناها أنه بشّر بمجيئه بعده. فكيف ثبتت بذلك نجاة إبراهيم، وكيف نجا من الذنوب؟ ذلك أن عقيدة الفداء المسيحية ليس أساسها الإيمان بابن الله، إنما أساسها الإيمان بصلب ابن الله وفدائه، ولكننا لا نجد في أي مكان في التوراة ما يؤكد أن إبراهيم كان يؤمن بفداء المسيح.

ثم إن نبوءات إبراهيم ‌عليه السلام لا تنطبق على المسيح ‌عليه السلام؛ فذات مرة كنت في نقاش مع قسيس فقلت له: كيف كان الأولون ينالون النجاة؟ قال: بالإيمان بالمسيح. قلت: هل آمن إبراهيم بالمسيح؟ قال: نعم؛ فقد قال الله تعالى لإبراهيم: "وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ" (التكوين ٢٢: ١٧-١٨)، فهذه النبوءة الإبراهيمية تتعلق بالمسيح، وقد تحقّقت بالمسيح، لذلك نؤمن أن إبراهيم قد آمن به. فقلت له: إن هذه النبوءة تخبر أن الموعود سيكون من نسل إبراهيم، وأنت تعلم أن الأولاد يُنسَبون إلى الرجل دائما، فمن المحال أن يعتبر مصداقًا لهذه النبوءة إلا مَن كان من نطفة الرجل، وليس في الدنيا إلا مدّعيانِ اثنان يدّعي كل منهما أنه مصداق نبوءة إبراهيم، أحدهما هو محمد رسول الله ﷺ الذي كان له أب، والآخر هو المسيح الذي لم يكن له أب، فليس صعبًا أن تعرف ما إذا كانت هذه النبوءة تنطبق على مَن ليس له أب، أم على من له أب وهو من نسل إبراهيم فعلا؟ تخبر التوراة أن الموعود سيكون من نسل إبراهيم، أي أنه سيكون من نطفة الرجل، فكيف يُعتبر مِن أولاد إبراهيم مَن ليس مِن نطفة رجل؟

علمًا أن المسيحيين يواجهون هنا مشكلة كبيرة، فمن ناحية يريدون تطبيق هذه النبوءة على المسيح ‌عليه السلام، ومن ناحية أخرى يجدون أن المسيح لم يكن له أب حتى يعتبروه من نسل إبراهيم ‌عليه السلام، فأتوا بحلّ لهذه المعضلة وكتبوا في الأناجيل أن المسيح ‌عليه السلام كان ابن يوسف النجار، ثم ربطوا نسبه بداود ‌عليه السلام، مع اعترافهم أن المسيح وُلد من بطن عذراء! (متى ١: ٦-١٦)

باختصار، فأولاً لا تتحدث هذه النبوءة الإبراهيمية عن فداء المسيح، ولا تقول إن إبراهيم آمن بفدائه، كل ما فيها هو أن الله تعالى وعد إبراهيم بالبركة في أولاده، ولكن السؤال هنا: هل نطبق هذه النبوءة على مَن ليس له أب، أم على مَن له أب؟ وليس خفيًّا أن الولد لا يُنسَب إلى الأم بحسب العقيدة اليهودية، بل إلى الأب، فثبت أنها تنطبق على مَن له أب، وليس على من هو بدون أب ولا يمكن أن يُعَدّ من نسل إبراهيم.

والسؤال الثالث الذي نوجّهه إليهم هو: كيف صار المسيح بريئًا من الإثم؟ فيقولون: لأنه وُلِدَ مِن دون أب. فنقول لهم: إذا كان الإنسان ينجو من الإثم نتيجةَ ولادته من دون أب، فإن مَلْكِي صَادَقَ مَلِك سَالِيم لم يكن له أبٌ ولا أم، فلِمَ لا تعتبرونه بريئًا من الإثم؟ ثم إذا كان الإنسان ينجو من الإثم بولادته من دون أب، فكيف يُعَدُّ آدم آثمًا مع أنه لم يكن له أب ولا أم؟ إذا كانت الولادة من دون أب تجعل المرء بريئا من الآثام، فيجب أن تعتبروا آدم بريئا من الإثم، وإذا كان الأمر كذلك فأين مكان الخطيئة الموروثة؟

ثم إذا كان الإنسان يصبح آثمًا لمجرّد تولُّده مِن جسم، فإن الإثم كما ينتقل إليه من أبيه فيمكن أن ينتقل إليه من أمه أيضًا، ويتضح من التوراة أن حواء هي التي ظهر منها الإثم في الواقع، إذ لخّص ناشرو التوراة الإصحاح الثالث من التكوين كالآتي: "في بيان أن الحيّة تخدع حواء، ويصبح الإنسان تعيسا بسبب الذنب، ويدعو الله الرجلَ والمرأة عنده، وتُلعَن الحيّةُ، ويُقطَع مع المرأة وعدُ نسلٍ خاص، وذكرُ أحوال عقوبة الإنسان، ولباسه الأول وخروج الاثنين من جنة عدن. وقد ورد في هذا الإصحاح ما يلي: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لا تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لا تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّها بَهجةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ." (التكوين ٣: ١-٦)

لقد تبين من هنا أن الشيطان أغوى حواء أولاً، ثم اشترك آدم في هذا الخطأ بتحريض منها، فقال الله تعالى لآدم: "هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لا تَأْكُلَ مِنْهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الإلهُ لِلْمَرْأَةِ: مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ"

(التكوين ٣: ١١-١٣). لقد تبيّنَ من هنا أن الشيطان ذهب أولاً إلى حواء وأغواها، فقامت هي بإغواء آدم. وهذا يعني أن حواء كانت أشدَّ خطأً وإثمًا من آدم، إذ تورطَ آدم بهذه الخطيئة بتحريض منها.

فقلتُ للقسيس المذكور آنفًا: أَخبِرْني، مَن ذا الذي أغواه الشيطان أولاً آدم أم حواء؟ قال: حواء. قلت: لماذا أغواها أولاً، ولماذا لم يحاول إغواء آدم بدلاً منها؟ قال: لأنه كان يعلم أن حواء ستقع في خداعه بسهولة. قلت: لقد تبيّنَ من ذلك أن حواء كانت أشدَّ ميلاً إلى الإثم، ولذلك لم يذهب الشيطان إلى آدم مباشرةً لعلمه أنه لن يقع في فخّه بسهولة، فذهب إلى حواء ونجح.

ثم قلت له: أَخبِرْني الآن، هل كان المسيح ابنَ حواء أم ابن آدم؟ قال: ماذا تقصد من هذا السؤال؟ قلت: أيًّا كان قصدي، أرجوك أن تجيب على سؤالي؟ قال: كان ابن مريم. قلت: لو مزجنا الماء الساخن بالبارد، فهل تزداد سخونته أم تخفّ؟ قال: ستخفّ سخونة الساخن قليلا وتقلّ برودة البارد قليلا. قلت: القضية واضحة الآن، فلو كان للمسيح أب لوجد نصيبًا مِن قوة آدم الروحانية، ونال نصيبًا من ضعف حواء من طَرف أمه، وهكذا فإن امتزاج القوة الروحانية لآدم وضعف حواء كان سيقلل من تأثير الخطيئة الموروثة، ولكن المسيح لم يكن له أب، مما يعني أنه لم يجد نصيبا من روحانية آدم، وإنما أخذ نصيبًا من ضعف حواء فقط. فأَخبِرْني الآن كيف كان المسيح بريئًا من الإثم مع أنه كان من نسل حواء خالصًا، وورث منها الضعف كاملا، وهي الأكثر ذنبًا من آدم باعترافكم؟ فقال القسيس: هذه ليست بقاعدة، ألا يخرج الذهب من التراب؟ قلتُ: إذن قد انحلّت المشكلة، فكما أن الذهب يمكن أن يخرج من التراب، كذلك يمكن أن يخرج في نسل آدم صالحون. قال: لا لا، الذهب لا يخرج إلا من الذهب. قلت: إذن كيف صار المسيح بريئًا من الذنب رغم ولادته من بطن امرأة ما دام الذهب يخرج من الذهب لا من التراب؟ وإذا كان الذهب لا يخرج من التراب ولا من الذهب فمن أين يخرج؟

باختصار، إذا صحّ أولاً أن الذهب يمكن أن يخرج من التراب، فيمكن في هذه الحالة أن يخرج صالحون من آدم الآثم. وثانيًا: إذا كان الذهب لا يخرج من التراب،

بل يخرج من الذهب، فكيف صار المسيح بريئًا من الإثم رغم ولادته من بطن امرأة؟ لا يمكن أن تقوم الديانة المسيحية في أي من الحالتين.

وثالثًا: علينا أن نرى ما إذا كان يسوع يعتبر نفسه صالحًا أم لا. عند دراسة الإنجيل من هذا المنظور نجد فيه ما يلي: "وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟◆ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلا وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا" (مَتَّى ١٩: ١٦-١٧). فكأن يسوع يعترف هنا أنه ليس بصالح، فإذا كان الذي جاء ليجعل الناس صالحين ينكر صلاحه هو فكيف نصدّق أنه كان بريئًا من الذنوب وأنه جاء لتطهير الناس من المعاصي؟ الحق أنه ينطبق على حال المسيح والمسيحيين المثل السائر عندنا: المدعي خجول والشاهد جسور.

ورابعًا: إذا كان المسيح صالحًا بالفعل، وإذا كانت الدنيا قد نجت من الذنوب بفدائه وصارت عندها قابلية لفعل الخير، فلا بد من أن نُسلِّم أن المسيح كان النقطة الأخيرة مِن خلق العالم، لأن غاية خلق الإنسان قد تحققت بمجيئه. ولكن دراسة الإنجيل تكشف لنا أنه عليه السلام لم يكن النقطة النهائية لخلق العالم، بل ما دام المسيح ابنَ الله فكان لا بد أن يأتي الله بنفسه إلى الدنيا وذلك بحسب نبوءة المسيح نفسه التي قال فيها بلغة المجاز: "إِنْسَانٌ غَرَسَ كَرْمًا وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ حَوْضَ مَعْصَرَةٍ، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إلى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الْكَرَّامِينَ فِي الْوَقْتِ عَبْدًا لِيَأْخُذَ مِنَ الْكَرَّامِينَ مِنْ ثَمَرِ الْكَرْمِ، فَأَخَذُوهُ وَجَلَدُوهُ وَأَرْسَلُوهُ فَارِغًا. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا عَبْدًا آخَرَ، فَرَجَمُوهُ وَشَجُّوهُ وَأَرْسَلُوهُ مُهَانًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا آخَرَ، فَقَتَلُوهُ. ثُمَّ آخَرِينَ كَثِيرِينَ، فَجَلَدُوا مِنْهُمْ بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا. فَإِذْ كَانَ لَهُ أَيْضًا ابْنٌ وَاحِدٌ حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَرْسَلَهُ أَيْضًا إِلَيْهِمْ أَخِيرًا، قَائِلاً: إِنَّهُمْ يَهَابُونَ ابْنِي! وَلكِنَّ أُولئِكَ الْكَرَّامِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا الْمِيرَاثُ!

◆ في بعض الطبعات الحديثة للأناجيل قد حرفّوا قول المسيح عليه السلام هذا ليصبح: "لِمَاذَا تسْأَلُني أنا عَن الصلاح". (المترجم)

فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ. فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ الْكَرْمِ؟ يَأْتِي وَيُهْلِكُ الْكَرَّامِينَ، وَيُعْطِي الْكَرْمَ إلى آخَرِينَ." (مَرْقُسَ ١٢: ١-٩). والمراد من الكرم هنا هو نظام الهداية التي أقامها الله تعالى لإصلاح الناس، وصاحبُ الكرم هو موسى عليه السلام الذي جاء لإظهار جلال الله، والكرامون هم بنو إسرائيل الذين عُهدت إليهم رعاية هذا الكرْم، والعبيد الذين بعثهم صاحب الكرم لجلب الثمر هم أنبياء بني إسرائيل الذين أتوا بعد موسى تترا، ولكن الناس قتلوا بعضهم وآذوا بعضهم وحقّروا بعضهم. وفي الأخير أرسل الله ابنه- أي المسيح نفسه الذي كان أكثر قربًا وحظوة عند الله تعالى من جميع الأنبياء الذين أتوا بعد موسى- ولكن الناس لم يبالوا به وعلّقوه على الصليب. أما قول المسيح: هل تعرفون ماذا يحصل بعد ذلك؟ سيأتي صاحب الكرم نفسه، فيقتل أولئك الكرامين ويعطي الكرم لقوم آخرين، فيعني أنه سيظهر الآن في العالم ذلك النبي الذي يكون مجيئه بمنزلة ظهور الله، وأنه لن يكون من بني إسرائيل بل يكون من إخواهم بني إسماعيل.

هذا التمثيل يوضح أن المسيح عليه السلام لم يكن النقطة الأخيرة من خلق العالم، وإلا لما أخبر ببعثة نبي بعده يكون مجيئه بمنزلة مجيء الله تعالى. وغني عن البيان أن الابن لا يمكن أن يُعتبر هو الأب في وقت واحد، فثبت أن الذي سُمّي أبًا في هذا التمثيل هو شخص آخر غيرُ الابنِ حتمًا. فما دام المسيح نفسه قد تنبأ عن بعثة شخص بعده لهداية العالم، فقد ثبت أن اعتبار المسيح النقطةَ الأخيرة من خلق العالم أمرٌ باطل. ذلك أنه ما دام الصلاح قد توطّد في العالم من خلال المسيح فليس هناك حاجة لبعثة أحد بعده، ولكن مثال الكرم نفسه يبين أن المسيح إذا كان ابن الله فكان لا بد أن يأتي بعده الأبُ.. اللهُ نفسه.

وكذلك يقول المسيح في موضع آخر: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إلى جَمِيعِ الحَقِّ، لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ." (يُوحَنَّا ١٦: ١٢-١٤)

فالمسيح عليه السلام يقرّ هنا أنه سيأتي بعده شخص يُسمَّى روح الحق، وسيأتي بأحكام لم يستطع المسيح عرضها على الناس.. أي أنه سيكشف على الناس طرق الحق أكثرَ من المسيح، وأنه يعرض عليهم تعليمات أفضل من تعليمات المسيح، وليس هذا فحسب، بل سيؤتى كتابًا كلماته ليست كلمات فمه، بل هي كلها كلمات الله "لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ". وليس مفهوم هذه الكلمات إلا أن الكتاب الذي ينزل على هذا الموعود القادم يتميز بميزة فريدة بأنه من أوله إلى آخره يحتوي على كلام الله تعالى، ولن يكون فيه شيء يقال عنه أنه كلام البشر لا كلام الله. فالمسيح عليه السلام هنا يخبر أولاً بمجيء موعود بعده، وثانيًا أن هذا الآتي سيأتي بكتاب معه، وثالثًا أن مِن ميزة كتابه أنه لن يكون فيه كلام بشر، بل تكون كل كلمة وكل حرف فيه مِن أوله إلى آخره كلام الله فقط. ووفقًا لهذه النبوءة بُعث نبينا ﷺ إلى الناس وقدَّم لهم شريعة فريدة بهذا الشأن بين الكتب السماوية كلها، فمثلاً إذا أجلت النظر في الكتاب المقدس وجدت فيه كثيرا من كلام البشر مخلوطا مع كلام الله، وإذا وجدتَ فيه أنباء لموسى عليه السلام وجدتَ فيه مكتوبا أيضًا: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ، وَدَفَنَهُ فِي الْجِواءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ، وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ." (التثنية ٣٤: ٥-٦).

فكيف يمكن أن يكون من كلام الله الذي نزل على موسى بأن موسى مات ودفن في مكان كذا ولا يعرف قبره أحد حتى اليوم؟ الواضح أن هذه الكلمات أُضيفت إلى التوراة فيما بعد من قبل البشر بعد أن مات موسى عليه السلام ومضى على موته فترة طويلة و لم يعرف الناس مكان قبره.

كذلك هو حال أناجيل متى ومرقس ولوقا وغيرها، حيث نجد فيها كلام الله كما نجد فيها كلام البشر أيضًا، حيث يقول لوقا نفسه: "إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ

بتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ." (لُوقَا ١: ١-٤).

فثبت أن الأناجيل الحالية ليست إلا كتبًا ألفها البشر بعد وفاة المسيح الطّيِّلا، حيث جمعوا فيها شتى الروايات بترتيب معين، ولذلك إذا كنا نجد فيها كلامًا يمكن نسبتُه إلى الله تعالى، نجد فيها أيضا كلاما كثيرا دسّه البشر فيها من عند أنفسهم.

باختصار، ليس هناك كتاب سماوي هو كلام الله تعالى مِن أوله إلى آخره، فالتوراة والإنجيل وزاندافستا والفيدا وغيرها تجدها كلها قد تعرضت للعبث والتحريف بأيدي البشر. ستجد في كلٍّ منها شروحًا من قبل البشر إلى جانب كلام الله تعالى. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المنزه تمامًا عن كلام البشر من بدايته إلى نهايته، فإن كل لفظ وحرف وحركة من أوله إلى آخره هو ما أنزل الله على محمد ﷺ، فهو الكتاب الوحيد الذي ينطبق عليه قول المسيح: "لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ".

ثم يخبر المسيح الطّيِّلا في هذه النبوءة أن هذا الكتاب الموعود "يُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ"، بمعنى أن دين هذا النبي الموعود لن يُنسَخ أبدا، بل يستمر إلى يوم القيامة، ولن يأتي عليه زمان يستغني فيه الناس عن كتابه.

ثم يخبر المسيح الطّيِّلا: "ذَاكَ يُمَجِّدُنِي"، بمعنى أن الناس يكذّبونني ويعتبرونني ملعونا، حيث يقول اليهود إن المسيح صار ملعونا بموته على الصليب، ويقول النصارى إنه دخل الجحيم بموته على الصليب من أجل ذنوب الناس، ولكن ذلك النبي الموعود "يُمَجِّدُنِي" ويكشف للناس عظمتي قائلا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾(النساء:١٥٨).. أي أن من الخطأ القول أن الناس قتلوه أو صلبوه ليثبتوا أنه كان ملعونا. كلا، بل إنه قد حُفظ من القتل ومن الموت على الصليب. لا شك أن أحبابه وأعداءه قد أرادوا أن يثبتوا أنه ملعون، ولكن الله تعالى أكرمه وأعزه وخيّب العدو في مكائده.

وفي الأخير يخبر المسيح الطّيِّلا: "لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ". وقوله "لأنه يأخذ مما لي" لا يعني أن النبي الموعود سيكون تابعًا له، بل المراد أن شريعته ستكون جامعة

لتعاليم الأنبياء السابقين كلهم، فتحوي شرائع وتعاليم نوح وإبراهيم وموسى وتعاليمي أنا أيضًا.

أما قوله الطَّيْلا: "وَيُخبِرُكُمْ"، فيعني أن كتاب هذا النبي الموعود لن يحتوي على كلمات فقط، بل سيكشف للعالم كل الحقائق بصورة عملية.

تكشف هذه الأنباء بجلاء أنه كان سيُبعَث بعد المسيح الطَّيْلا موعودٌ هو أفضل منه، وكان من المقدر أن ينــزل عليه كتاب جامع فريد حاوٍ للحقائق كلها، يكون من أوله إلى آخره كلام الله تعالى، ويكشف الحقائق كلها بصورة عملية. والسؤال هنا: إذا كان المسيح الطَّيْلا قد حمل خطايا العالم كله فعلاً، وإذا كان الإيمان به كافيًا لنجاة البشرية، وإذا كان هو النقطة الأخيرة لنجاتهم، فكان لزامًا عليه أن يبين الحقائق كلها، ولكنه يعلن قائلا: إني لا أقدر على ذكر الحقائق كلها لكم، بل سيخبركم بها مَن سيأتي بعدي. مما يبين بجلاء أن المسيح الناصري الطَّيْلا لم يكن يَعتبر نفسه النقطة الأخيرة من خلق العالم، بل هناك موعود آتٍ بعده وهو الذي ينال هذا الشرف والعظمة.

وخامسًا: إذا كان المسيح الطَّيْلا قد صار فداء للبشرية فلا يمكن أن يصدَّق ذلك إلا إذا كان قد قدّم نفسه فداءً برضاه ورغبته، أما الذي يُعلَّق على الصليب قسرًا وجبرًا فلا يمكن أن يقال عنه إنه صار فداء عن طواعيته. إذا كان المسيح الطَّيْلا قد جاء إلى الدنيا ليقدِّم الفداء حقًّا، فكان لزامًا عليه أن يسارع إلى الصليب فَرِحًا مبتهجًا، لأن الغرض الذي جاء من أجله قد تحقق، ولكن الإنجيل يخبرنا أنه لما علم أنه سيعلّق في الصباح قضى ليلته كلها في الدعاء والابتهال أمام الله تعالى وقال للحواريين مرارا وتكرارا: "اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ" (متى ٢٦: ٤١). كان الطَّيْلا يدعو على جبل وكان الحواريون تحت الجبل، فكان ينــزل من الجبل في قلق مرة بعد أخرى ليرى ما إذا كانوا يدْعون أم لا، ولكنه وجدهم في كل مرة نائمين، فكان يوقظهم ويرجع، ثم ينــزل ليراهم، فيجدهم نائمين، وفي الأخير قال لهم ساخطا: "أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟" (متى ٢٦: ٤٠)، ومع ذلك لم يكن لقوله أي تأثير على تلاميذه.

أما الأدعية التي دعا بها المسيح عليه السلام بكرب واضطراب في تلك المناسبة، فقد ذكرها الإنجيل كالآتي: "حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ. ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ، فَقَالَ لَهُمْ: نَفْسِي حَزِينَةٌ جدًّا حتى الموتِ. اُمْكُثُوا ههُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي. ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ فَوَجَدَهُمْ نيامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا معي سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ. فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلا أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ. ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نيامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً. فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلاً ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الإِنْسان يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ". (مَتَّى ٢٦: ٣٦-٤٥)

فإذا كان المسيح عليه السلام قد جاء لحمل خطايا الناس ولفدائهم حقًا، فكيف يمكن أن يدعو الله تعالى قبل الصليب باكيا مبتهلا: "يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ". إنما كان عليه أن يدعو الله تعالى كل يوم أن يسقيه هذه الكأس سريعا ليكون فداء لذنوب الناس، ولكنه بدلاً من ذلك يبكي في الدعاء طوال الليل لينقذه من الصلب، وليس هذا فحسب، بل يوصي الحواريين مرارًا بالدعاء له، وكان يذهب إليهم مرة بعد أخرى ليرى ما إذا كانوا ساهرين يدعون له أم نائمين، ولما وجدهم متقاعسين عن الدعاء زجرهم قائلا: أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا معي سَاعَةً وَاحِدَةً لتدعوا الله تعالى! كلُّ هذا دليل على أن مسألة الفداء التي اخترعها النصارى لم تخطر ببال المسيح عليه السلام قط، وأنه لم يأت إلى الدنيا من أجل الكفارة، وإلا فما كان له أن يدعو الله تعالى ليلة الصلب أو يأمر الحواريين أن يدعو له لتعبر عنه هذه الكأس.

ثم نقول إن أساس الفداء إنما هو أن المسيح عليه السلام مات على الصليب، ولكن التدبر في الإنجيل يكشف أنه لم يمت على الصليب، حيث ورد أن المسيح عليه السلام لما قدّم للكتبة والفريسيين شتى الأدلة على صدقه قالوا: هذه مجرد أقوال ونحن نريد أن تُرينا آية لنقتنع بصدقك: "حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً. فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: جيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلا آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ، لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإنسان فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ" (مَتَّى ١٢: ٣٨-٤٠).

وقد تنبأ المسيح عليه السلام هنا عن واقعة الصليب، وهو أمرٌ نتفق فيه مع النصارى حيث يقولون إن نبوءة المسيح هذه تنطبق على حادثة الصليب. وبعد هذا الاتحاد بين الفريقين حين نتدبر في النبوءة نفسها نجد فيها أخبارًا هامة، أوّلُها: أن المسيح عليه السلام يعلن أن اليهود لن يُعطَوْا آية إلا آية يونان النبي، وثانيها: كما أن يونان النبي ظل في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، كذلك سيبقى ابن الإنسان في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال.

هذه الكلمات تؤكد بوجه خاص على مماثلة المسيح بيونس النبي في هذه الآية، وهذه المماثلة ليست في ثلاثة أيام، بل التركيز فيها على بقاء ابن الإنسان في الأرض كبقاء يونس في بطن الحوت.. أي أن ابن آدم سيبقى في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، مثلما بقي يونس في بطن الحوت ثلاث ليال وثلاثة أيام. فهذه الكلمات تخبر بوضوح أن المسيح عليه السلام قدّم على صدقه آيةً صريحة حتمية بأنه كما دخل يونس في بطن الحوت وبقي فيه ثلاثة أيام وثلاث ليال، كذلك سيتعرض المسيح لحادث يضطرّه للبقاء في بطن الأرض ثلاث ليال وثلاثة أيام.

هلم نر الآن ما هي واقعة يونس عليه السلام؟

يتضح من التوراة أن الله تعالى أمر يونان النبي أن يذهب إلى أهل نينوى لينذرهم بعذاب الله، ولكنه هرب من هناك خوفًا من معارضة الناس، وركب السفينة قاصدًا منطقة أخرى. فجاء الطوفان، فظن الركاب أن الله تعالى قد غضب عليهم وأنزل

عليهم العذاب، فألقوا القرعة، فجاءت باسم يونان. فقالوا له: لقد خرج اسمك بالقرعة فما هي قصتك؟ فحكى لهم حكايته بأن الله تعالى قد أنزل إليه وحيه، ولكنه خاف أن لو أنذرهم بالعذاب فسوف يعارضونه ففر منهم وركب السفينة. فقال له الركاب: فأخبِرْنا الآن ما السبيل للخروج من هذه المصيبة؟ قال: ألقُوني في البحر وسيزول عنكم هذا العذاب. ولكنهم لم يرضوا بذلك في البداية، وسعوا جاهدين ليخرجوا السفينة من الطوفان بسلام، ولكن دون جدوى إذ لم يهدأ الطوفان. فدعوا الله تعالى ألا يجعل إلقاء هذا الإنسان في البحر عذابًا لهم، ثم ألقوه في البحر.

ثم تقول التوراة: "وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلِعَ يُونَانَ. فَكَانَ يُونَانُ فِي جَوْفِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال" (يُونَان ١: ١٧).

أما كيفية بقاء يونان في بطن الحوت، فقد ورد أنه لما ابتلعه الحوت: "فَصَلَّى يُونَانُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِ مِنْ جَوْفِ الْحُوتِ، وَقَالَ: دَعَوْتُ مِنْ ضِيقِي الرَّبَّ، فَاسْتَجَابَنِي". (يُونَان ٢: ١-٢).

هذا الدعاء الذي دعا به يونان من جوف الحوت دليل على أنه دخل في بطنه حيًا، ومكث فيه حيًا، وظل يدعو الله تعالى كثيرا، حيث ورد في سفر يونان - الإصحاح ٢- دعاءٌ طويل له في بطن الحوت، وقال رب قد نجّيتَني من بلايا كثيرة، فنَجِّني من هذه المصيبة، فاستجاب الله دعاءه: "وَأَمَرَ الرَّبُّ الْحُوتَ، فَقَذَفَ يُونَانَ إِلَى الْبَرِّ." (يُونَان ٢: ١٠).

لقد تبين من هنا أن معجزة يونان النبي هي أنه ظل في بطن الحوت ثلاث ليال وثلاثة أيام حيًا، وليس أنه عاد إلى الحياة بعد أن مات فيه. أعني أن التوراة لا تقول أن يونان كان نبيا صادقا لأنه عاد إلى الحياة بعد أن مات، إنما تقول إن معجزته أنه دخل في بطن الحوت حيا ومكث فيه حيًا. كان هناك خطر أن يحاول الحوت مضغه، ولو مضغه لما بقي حيًّا، ولكن الله تعالى جعله يبلعه من دون أن يمضغه. ثم كان هناك خطر أن يموت في جوفه بعد أن دخل فيه حيًا، ولكن الله تعالى قد هيّأ له في بطن الحوت ذخيرة من الهواء فظلّ فيه حيًّا ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم كان هناك

خطر أن يضغط عليه الحوت حين إلقائه إياه خارج بطنه، ولكن الله تعالى حفظه في هذه المرحلة أيضًا، فلم يمضغه الحوت عند ابتلاعه، ولا عند إلقائه، ولم تقلّ ذخيرة الهواء له في بطن الحوت.

إذن، فما هي معجزة النبي يونان؟ لم تكن معجزته أنه عاد إلى الحياة بعد الموت، إنما معجزته أنه نجا من الموت المحقق وظل حيًّا في هذه المراحل الثلاث، وهذه هي الآية العظيمة على صدقه. فإذا كان المسيح الطَّيْلا يريد أن يُري قومه آيةً كآية يونان فكان عليه أن يدخل في القبر حيًا مثل يونان، ويبقى فيه حيًا، ويخرج منه حيًا. كان صدقه منوطًا بأن يُحفَظ من الموت في المراحل الثلاث، وهذه هي الآية التي أعلن المسيح أنه سيُري اليهودَ إياها متحديًا لهم أن الأمر الذي يدخل بسببه القبرَ يؤدي إلى الموت دائمًا، ولكنه لن يؤدي إلى موته هو، ثم إن البقاء في القبر يسبب الموت للناس، ولكنه لن يموت في القبر، بل كما أن يونان نجا من الموت رغم بقائه في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، كذلك سينجو هو من الموت رغم بقائه في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال. والأمر الثالث أنه سيخرج من القبر حيًا، مع أن المجرم الذي تأمر الحكومة بإعدامه إذا فرّ عرّض نفسه لخطر كبير، إذ يمكن أن تلقي الحكومة القبض عليه مرة أخرى، ولكنه الطَّيْلا يعلن إن الحوت كما ألقى يونان خارج البحر حيا كذلك سأخرج من القبر حيا. كان هناك خطر أن يقتله الحوت وهو يلقيه خارج بطنه، ولكن الله تعالى حفظه فخرج من بطنه بسلام، كذلك هناك خطر إلقاء الحكومة القبض عليه، ولكن الله سينجيه من هذا الخطر حيًا ولن يستطيع أحد القبض عليه وقتله، تمامًا كما هيأ الله تعالى الأسباب لنجاة يونان النبي. ليس خافيًا أنّ طريق دخول المسيح الطَّيْلا في القبر هو تعليقه على الصليب، فإذا كانت نبوءته هذه صحيحة فليس معناها إلا أن نقول إنه قد تنبأ أنه سينجو من الموت رغم تعليقه على الصليب الذي يسبب الموت للناس، فكأنه قال: كما أن الحوت لم يقتل يونان بل ابتلعه حيًا، كذلك لن يقتلني الصليب، بل يُدخِلني في القبر حيًا.

وكان القبر الذريعة الثانية للموت في هذا الحادث، فتنبأ المسيح الطّيّلا أنه كما بقي يونان النبي في بطن الحوت حيًا كذلك سأظل حيا في بطن الأرض. ثم تنبأ النبوءة الثالثة بأنه كما خرج يونان النبي من بطن الحوت حيا، وحفظه الله من الموت في هذه المرحلة الأخيرة، كذلك سأخرج من بطن الأرض حيا، ولن يقدر أحد أن يقبض عليّ ويقتلني.

إننا لسنا هنا بصدد موضوع وفاة المسيح الطّيّلا حتى ندخل في التفاصيل، غير أني أقول إن المسيح الطّيّلا لم يعلَّق على الصليب أكثر من ساعتين أو ثلاث، وذلك بحسب الروايات المسيحية، فالثابت من الإنجيل أنه الطّيّلا ظل معلقًا على الصليب من الساعة السادسة حتى التاسعة (متى ٢٧: ٤٥-٥٤). وهذا التقدير ليس سليما في رأيي، إذ ورد أن عاصفة شديدة هبّت بعد تعليقه على الصليب، فخيّم الظلام على كل مكان، وبسبب هذه الظلمة والعاصفة لم يكن بوسع الناس أن يعرفوا مدة بقاء المسيح على الصليب بالتحديد، فذكروا هذا التوقيت على سبيل التخمين فقط. وحتى لو سلّمنا جدلاً بتقديرهم هذا فليست هذه المدة أكثر من ثلاث ساعات، ولم يكن المعلق على الصليب يموت في سبعة أيام، دَعْك في ثلاث ساعات.

علمًا أن الناس في بلادنا يظنون أن عملية الصلب عبارة عن دق المسامير في عظام الصدر والأرجل والأيدي، مما يؤدي إلى الموت الفوري، مع أن الواقع ليس كذلك. إن شكل الصليب الذي كان المرء يُعلَّق عليه هو كالآتي:

✝

فإذا أرادوا صلب إنسان أقاموه وربطوا يديه بخشبة ودقّوا المسامير في نُسُج يديه الرخوة وكذلك في نسج قدميه الرخوة وليس في عظام رجليه. يظن الناس عادةً أن المسامير كانت تُدَقّ في عظام الأيدي والأرجل والصدر مما يؤدي إلى موت المصلوب بسرعة. لا شك أن دقّ المسامير في العظام هكذا خطير وبقاء الإنسان بعده حيًا فترة طويلة مستحيل، ولكنهم لم يكونوا يدقّون المسامير في العظام، بل في

النسج الرخوة لليدين والقدمين. لا شك أنها عملية مؤلمة، ولكنها لم تكن تؤدي إلى موت المصلوب فورا، بل الواقع أن الأقوياء ما كانوا يموتون على الصليب لسبعة أيام أحيانا، ومَن مات منهم مات لشدة الجوع والعطش أو لتقرُّح الجروح والتهابها وتسمُّم الجسم بها. أما قطاع الطرق والمتمردون وغيرهم فكانوا يظلون أحياء حتى اليوم السابع، فكانوا يكسرون عظامهم أو يدقونها بالمطارق ليموتوا. والحق أن لفظ الصليب يعني أصلاً إخراج وَدَقِ العظم وكسْرها. وقد أُطلقت هذه التسمية على هذه العملية لأن معظم الناس لم يكونوا يموتون على الصليب، بل كانت عظامهم تُكسَر حتى يخرج وَدَقُها ليموتوا. وهذه الكلمة في حد ذاتها تبطل الظنّ أنّ المصلوب كان يموت فورا.

ثم هناك أمور غير عادية حصلت عند حادثة الصليب وهي:

أوّلاً: عندما رُفعت القضية ضد المسيح عليه السلام رأت زوجة بيلاطس -الذي رُفعت إليه القضية- رؤيا منذرة، فبعثت إليه: "إِيَّاكَ وَذلِكَ الْبَارَّ، لأَنِّي تَأَلَّمْتُ الْيَوْمَ كَثِيرًا فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ" (مَتَّى ٢٧: ١٩). فحاول بيلاطس كثيرًا إطلاق سراح المسيح، ولكن اليهود أصروا على معاقبته. ولما كان المسيح عليه السلام متهمًا بالخروج على الحكومة فهدّد اليهود بيلاطسَ أنه إذا أطلق سراحه فسيتهمونه بالتمرد على الحكومة، فعندما لم يجد أمام ضغطهم الشديد مناصًا "أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذَا الْبَارِّ! أَبْصِرُوا أَنْتُمْ!. فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَقَالُوا: دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلاَدِنَا" (مَتَّى ٢٧: ٢٤-٢٥).

ثانيًا: أمر بيلاطس بصلب المسيح عليه السلام في وقت متأخر من يوم الجمعة حيث يبدأ بعده يوم السبت (مرقس ١٥: ٤٢). لقد بينتُ مِن قبل أن المعلق على الصليب لم يكن يموت في يوم أو يومين. لا شك أنه كان يعاني كثيرا من جروحه، ولكن هذا لم يكن يتسبب في موته، وكان بعضهم يظل حيًا حتى ثلاثة أيام أو سبعة، فكانوا يقتلونهم بكسر عظامهم بعد إنزالهم عن الصليب. نرى أن بعض الصعاليك وقطاع الطرق تُكسر جماجمهم، مع ذلك لا يموتون رغم عدم خضوعهم للعلاج لخمسة أو سبعة أيام. فما كان المسيح عليه السلام ليموت على الصليب الا إذا ظل معلقا

عليه لسبعة أيام، ثم تكسر عظامه بعد ذلك، ولكن بيلاطس كان ناصحًا له في الخفاء، فاختار لصلبه وقتًا يبدأ بعده بقليل يومُ السبت، إذ كان اليهود يعتقدون أن المصلوب لو ظل معلقا على الصليب يوم السبت نزلت اللعنة بالقوم كلهم (التثنية ٢١: ٢٢-٢٣). فلما رأى بيلاطس إصرار اليهود على صلب المسيح ﷺ أمر بصلبه، وعلّقه يوم الجمعة قريبا من الظهر، بل بعد الظهر، ثم هبّت عاصفة شديدة وقت العصر، فأظلمت الجوّ كله، فقال اليهود فيما بينهم إنه لو حل المساء في هذه الظلمة وبدأ السبت بحلوله والمسيحُ معلق على الصليب و لم نعلم بذلك لنزلت اللعنة علينا جميعًا، فالأفضل أن ننزله عن الصليب بسرعة حتى لا يحل المساء.

وقد يقال هنا: لماذا لم يعارض اليهود صلب المسيح يوم الجمعة؟ ولماذا لم يقترحوا يوما آخر؟ والجواب أولاً: كان موقف اليهود ضعيفا، فلو عارضوا صلب المسيح ﷺ يوم الجمعة لقال لهم بيلاطس: إنكم تتهمونه بالخروج على الحكومة، فلو هرب في هذه الفترة أو أنقذه أتباعه عنوةً فمن ذا الذي يتحمل المسؤولية؟ الأمر الذي ما كان عند اليهود جوابه.

وثانيًا: كانت العادة أنه إذا لم يمت المصلوب على الصليب قُتِلَ بكسر عظامه، فلذلك اطمأن اليهود بصلب المسيح ﷺ يوم الجمعة ظنًا منهم أنه إذا لم يمت على الصليب كسروا عظامه، فيجب أن لا يعترضوا على صلبه يوم الجمعة، لأنهم قد اتهموه بالتمرّد على الحكومة، ولو طالبوا بيلاطس بتأجيل عقابه سيقول لهم: يجب قتل المتمرد على الحكومة فورًا، فلماذا تريدون تأجيل صلبه ليوم أو يومين؟

باختصار، لم يعترض اليهود على موعد الصلب، فعُلّق المسيح ﷺ بعد ظهر يوم الجمعة، فعيّن بيلاطسُ -الناصحُ للمسيح سرًّا والخائفُ بسبب رؤيا زوجته- على عملية صلب المسيح فرقةً من الجنود على رأسها أحدُ أتباع المسيح. كما كان بين الحرس ورجال الشرطة الحاضرين أتباعٌ للمسيح ﷺ، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما صرخ من شدة الآلام تقدم أحد الحرس بسرعة وأخذ إسفنجة وملأها خمرًا ومُرًّا وقدّمه للمسيح ليمتصّه.

وجدير بالذكر هنا أن الشيعة كما يبالغون في تصوير آلام حادث كربلاء للناس في خطبهم، كذلك عندما يتحدث القُسس عن واقعة الصليب يقولون في بعض الأحيان -قصدًا منهم أو جهلا- كم كان هؤلاء شديدي العداء لابن الله! فعندما كان يصرخ من شدة الآلام تقدّم أحد الأشقياء الظالمين منهم ووضع في فم المسيح إسفنجةً مملوءة خمرًا وخلاًّ، مما زاد من معاناته في آخر وقته. مع أن التاريخ يبين لنا أن القوم إذا أرادوا العطف على المصلوب وتخفيف معاناته سقَوْه مزيجًا من الخمر والمُرّ (الموسوعة اليهودية المجلد ٤: تحت كلمة: Crucifixion). لا شك أن الأناجيل الحالية لا تذكر الخمر ولا المرّ، بل تقول إنه لما صرخ من شدة آلامه "رَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلاًّ وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ" (مَرْقُسَ ١٥: ٣٦)، ولكنا نقول: لم يكن تقديم الإسفنجة المليئة بالخل للمصلوب من عادات ذلك الزمن، فلماذا كان الخل والإسفنجة هنالك؟ هل كان الناس يأخذون الخل والإسفنجة معهم بلا سبب؟ وهل كان الخل والإسفنجة تتيسر حالاً إذا طلبهما أحد في مجلس؟ الحق أن هذه الرواية قد نُسجت قصدًا أو جهلا بالحقيقة، إذ الواقع أن الناس في ذلك الزمن كانوا يقدّمون للجريح مزيج الخمر والمرّ لتخفيف آلامه، وكان أتباع المسيح عليه السلام قد أحضروهما معهم، فلما صرخ من شدة آلامه سارع أحدهم وسقاه إسفنجة مليئة بمزيج الخمر والمر. وفيما يلي العبارة الأصلية من الموسوعة اليهودية المجلد ٤ تحت كلمة "الصليب":

The details given in the New Testament accounts (Matt. xxvii. and parallels) of the crucifixion of Jesus agree on the whole with the procedure in vogue under Roman law. Two modifications are worthy of note: (1) In order to make him insensible to pain, a drink (Matt. xxvii. 34, 48; John xix. 29) was given him. This was in accordance with the humane Jewish provision (see Maimonides, "Yad," Sanh. xiii. 2; Sanh. 43a). The beverage was a mixture of myrrh and wine, given "so that the delinquent might lose clear consciousness through the ensuing intoxication."

(الموسوعة اليهودية المجلد ٤ ص ٣٧٣ تحت كلمة: Crucifixion).

أي أن تفصيل حادث صلب المسيح الذي ذكره الإنجيل يبدو مطابقًا على العموم للقانون الروماني الرائج حينها. وهناك فَرْقان جديران بالانتباه، أوّلُهما: أن يسوع المسيح سُقِيَ دواءً للتخفيف من آلامه، وكان ذلك بحسب قانون يهودي إذا أُريدَ العطف على المصلوب. وثانيهما: هذا الدواء كان مزيجًا من المُرّ والخمر، وكان يُسقاه المجرم كيلا يحسّ بآلامه نتيجة السكر.

إذن، فرغم أن الإنجيل يذكر أن إسفنجة مليئة خَلاًّ قُدّمت للمسيح عليه السلام ليمتصّها، إلا أن الواقع أنه لم يكن بها خَلٌّ، بل دواء مركب من الخمر والمرّ، وكان يُقدَّم للمصلوب تخفيفًا من آلامه. وقد قدّم أحد الحرس هذا المزيجَ للمسيح، مما يدل على أن الحرس الذين عيّنهم بيلاطس في تلك المناسبة كانوا من أتباع المسيح، فأرادوا تخفيف آلامه قدر المستطاع. كما أن تعليق بيلاطس المسيحَ في آخر جزء من نهار الجمعة دليلٌ ساطع على أنه أراد نجاة المسيح من الموت على الصليب، فأمر بتعليقه في آخر يوم الجمعة قريبًا من بداية يوم السبت لكي يبقى على الصليب أقلَّ ما يمكن، فينجو من الهلاك. وقد ذكرت الموسوعة اليهودية هذا الأمر قائلة: إن ما فعله بيلاطس أمرٌ غير عادي ومخالف للقواعد، حيث ورد:

The greatest difficulty from the point of view of the Jewish penal procedure is presented by the day and time of the execution. According to the Gospels, Jesus died on Friday, the eve of Sabbath. Yet on that day, in view of the approach of the Sabbath (or holiday), executions lasting until late in the afternoon were almost impossible (Sifre, ii. 221; Sanh. 35b; Mekilta to Wayakhel).

(الموسوعة اليهودية المجلد ٤ ص ٣٧٤ تحت كلمة: Crucifixion).

أي أن أكبر مشكلة تواجهنا بالنسبة لقانون التعزير اليهودي هي تحديد ذلك اليوم والوقت لتعليق يسوع المسيح على الصليب. لقد مات المسيح يوم الجمعة قبل مساء السبت بحسب الإنجيل، مع أنه لا يمكن أن يُعَلَّق أحد على الصليب في ذلك اليوم بحسب القانون اليهودي، لأن من المحال -تقريبًا- أن يتم تعليق المجرم لوقتٍ كافٍ بعد الظهر بسبب قرب يوم السبت.

وهذا يعني أن صاحب الموسوعة اليهودية يرى أن تعليق المسيح عليه السلام يوم الجمعة أمر غريب حقًا، وليس هذا فحسب، بل يقول إن المسيح لم يبقَ معلقًا على الصليب لوقت كافٍ أصلاً. فإذا كان الإنجيل يقول إن المسيح ظل معلقًا على الصليب ثلاث ساعات، فإن من حقنا القول إنه لم يُعلَّق إلا ما بين ساعة ونصف وساعتين، إذ إن تعليق أحد على الصليب إلى وقت طويل كان محالاً بسبب قرب السبت.

حتى ولو كان المسيح عليه السلام قد ظل على الصليب ساعتين أو ثلاث فلا يمكن أن يموت في هذه المدة؛ إذ كان الناس يظلّون أحياءً على الصليب حتى سبعة أيام، ثم تكسر عظامهم بالمطارق ليخرج وَدَقُها ويموتوا.

ومن الأدلة على أن بيلاطس كان قد عيّن بعض الجنود المؤمنين بالمسيح وقت عملية الصليب إنقاذاً له من الموت ما ورد في الإنجيل أن المسيح لما عُلِّق على الصليب "كَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: "آهِ يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاثَةِ أَيَّامٍ! خَلِّصْ نَفْسَكَ وَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ! وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ الْكَتَبَةِ، قَالُوا: خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! لِيَنْزِلِ الآنَ الْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ الصَّلِيبِ، لِنَرَى وَنُؤْمِنَ! وَاللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ كَانَا يُعَيِّرَانِهِ". (مَرْقُسَ ١٥: ٢٩-٣٢). وفي هذه الأثناء صرخ المسيح من شدة آلامه ومات بحسب الإنجيل الذي يصور هذا المشهد قائلا: "وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ الْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ، قَالَ: لا، حَقًّا كَانَ هذَا الإنسان ابْنَ اللهِ!" (مَرْقُسَ ١٥: ٣٩).

فهل يمكن أن تخرج هذه الكلمات الأخيرة مِن فم شخص عدو للمسيح؟ لو كان قائد المئة يعتبر المسيح كاذبًا مثل الكتبة والفريسيين فكان ينبغي أن يقول: انظروا، ها قد ثبت أن هذا الشخص لم يكن ابن الله، فقد صلبناه وقتلناه. ولكنه لم يقل ذلك و لم يسخر منه و لم يكذّب دعواه، بل قال: "حَقًّا كَانَ هذَا الإنسان ابْنَ اللهِ". إذن، فهذا دليل ساطع على أن بيلاطس كان قد عيّن على عملية الصليب

بعض الجنود والمسؤولين المؤمنين بالمسيح قصدًا ليخفّفوا من معاناته قدر المستطاع، ويشاركوا في حمايته وعلاجه بعد الصليب.

على أية حال، لقد أغميَ على المسيح -كونه مرهَفَ الحس ضعيف البدن- وهو معلق على الصليب، وفي هذه الأثناء هبّت العاصفة، فأنزلوه مخافة أن يحلّ السبت، فلما أُنزلَ هو واللصان المعلقان معه كُسرتْ عظامهما حسب القانون (يوحنا ١٩: ٣٢)، ولكن قائد المائة الذي كان من أتباع المسيح -كما هو ظاهر من مرقس ١٥: ٣٩، ومتى ٢٧: ٥٤- احتال وقال إن المسيح قد مات، فلا داعيَ لكسر عظامه، مع أن الإنجيل يذكر صراحةً أن "وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ" (يُوحَنَّا ١٩: ٣٤)، وخروج الدم والماء دليل على أن المسيح عليه السلام كان حيًّا حينها، ولو كان ميتًا لتجلّط دمه، فخروج الدم والماء يؤكد أنه خرج من جسمه دم سائل في الواقع، ولكنه كان مغشيا عليه، فاحتال ذلك الجندي على الناس وقال لهم إنه قد مات.

وبعد ذلك فورًا ذهب يوسف الرامي -وهو أحد أتباع المسيح عليه السلام- إلى بيلاطس وطلب منه أن يسلّم له جثة المسيح، فأمر بيلاطس بتسليمها له (متى ٢٧: ٥٨). فوضع يوسف جثة المسيح عليه السلام في قبر كان عبارةً عن غرفة صغيرة منحوتة في الصخر لا في الأرض، ثم دحرجَ على باب القبر حجرًا لكي لا يدخل فيه إلا الهواء، حيث ورد: "فَأَخَذَ يُوسُفُ الْجَسَدَ وَلَفَّهُ بِكَتَّانٍ نَقِيٍّ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي كَانَ قَدْ نَحَتَهُ فِي الصَّخْرَةِ، ثُمَّ دَحْرَجَ حَجَرًا كَبِيرًا عَلَى بَاب الْقَبْرِ وَمَضَى". (مَتَّى ٢٧: ٥٩-٦٠)

لقد نبّه صاحب الموسوعة اليهودية إلى هذا الأمر خاصة فقال:

Bodies of delinquents were not buried in private graves (Sanh. vi. 5), while that of Jesus was buried in a sepulcher belonging to Joseph of Arimathea.

(الموسوعة اليهودية المجلد ٤ ص ٣٧٣ تحت كلمة: Crucifixion).

أي أن جثث المجرمين ما كانت تُدفَن في قبور خاصة، لكن المسيح قد عومل هذه المعاملة المميزة حيث وضعت جثته في غرفة واسعة يملكها يوسف الرامي.

فارتاب اليهود في الأمر واشتكوا إلى بيلاطس وطالبوه بحراسة القبر ثلاثة أيام، حيث ورد: "وفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ الاسْتِعْدَادِ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ إلى بِيلاَطُسَ قَائِلِينَ: يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ، فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إلى الْيَوْمِ الثَّالِثِ" (مَتَّى ٢٧: ٦٢-٦٤). مما يبين بجلاء أن نبوءة المسيح عليه السلام التي قال فيها إن اليهود لن يُعطَوْا آية إلا آية يونان النبي كانت شهيرة بين الناس على نطاق واسع، وكان الحواريون يتحدثون عنها مع الجميع قائلين: كما أن يونس (يونان) خرج من بطن الحوت حيًا بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال كذلك سيحيا المسيح بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولذلك فكّر اليهود أنه بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال سيقول الحواريون إن المسيح قد عاد إلى الحياة، فالأفضل أن يطالبوا بيلاطس بحراسة الغرفة التي وُضع فيها جسد المسيح لكي لا يتحقق قوله إنه خرج من القبر حيًا بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال كما خرج يونس من بطن الحوت حيًا، ولكن بيلاطس المتعاطف مع المسيح رفض طلبهم، وقال لا أقدر على تعيين حرس من قبل الحكومة، "عِنْدَكُمْ حُرَّاسٌ، اِذْهَبُوا وَاضْبُطُوهُ كَمَا تَعْلَمُونَ" (مَتَّى ٢٧: ٦٥). وقد رفض بيلاطس طلبهم لأنه لو عيّن على القبر حرسًا حكوميين فلن يستطيع المسيح الهروب منه، ولو حاول أتباعه قتال الحرس فيُعتبر عملهم تمردًا على الحكومة، مما يعرّض المسيح للمزيد من المشاكل، أما إذا كان الحراس من العوام فلا بأس أن يقاتلهم أتباعُه ويهرّبوا المسيح من هنالك. هذه هي الحكمة وراء رفضه تعيين حرس حكوميين.

وعند طلوع الصبح يوم الأحد ذهبتْ نسوة إلى قبره فلم يجدن المسيح فيه، ووجدن ملاكًا على صخرة، حيث ورد: "وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ، وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ." (مَتَّى ٢٨: ١-٣).

وعندي أن هذا الملاك لم يكن سوى المسيح الذي خرج من القبر وجلس على الصخرة لابسًا كفنه.

ثم يقول الإنجيل إن الملاك قال للنسوة إن المسيح الذي تبحثن عنه ليس هنا، بل قد ذهب إلى الجليل عند أتباعه، فاذهَبْن وأَخبرْن الحواريين بذلك، حيث ورد: "فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ: لا تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. لَيْسَ هُوَ ههُنَا لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجعًا فِيهِ. وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولا لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، هَا هُوَ يَسْبِقُكُمْ إلى الْجَلِيلِ، هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هَا أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمَا." (مَتَّى ٢٨: ٥-٨).

وقد ورد أيضا أنه كان المشهور بين اليهود أن الحرس أخذوا الرشوة من أتباع المسيح وأشاعوا بين القوم أنه عاد إلى الحياة وذهب. (متى ٢٨: ١١-١٥). مما يبين أن الحرس أخبروا الناس أن أتباع المسيح قاوموهم وأخذوه من القبر قسرًا، ولكن اليهود كانوا يريدون أن يثبتوا للناس أنه صار ملعونا بموته على الصليب، فأشاعوا بين القوم أن الحرس يكذبون في قولهم أن المسيح عاد إلى الحياة وذهب، فإنهم يقولون ذلك لأنهم أخذوا الرشوة من أتباعه.

ثم ورد أن المسيح عليه السلام ظهر للحواريين وقال لهم: "انْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي. وَحِينَ قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. وَبَيْنَمَا هُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ الْفَرَحِ، وَمُتَعَجِّبُونَ، قَالَ لَهُمْ: أَعِنْدَكُمْ ههُنَا طَعَامٌ؟ فَنَاوَلُوهُ جُزْءًا مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ، وَشَيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَل، فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ". (لُوقَا ٢٤: ٣٩-٤٣). وورد في يوحنا أن توما الحواري لما سمع أن المسيح قد نجا من الصلب لم يصدّق وقال: "إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لا أُؤْمِنْ".(يُوحَنَّا ٢٠: ٢٥). فقال المسيح عليه السلام لتوما: "هَاتِ إِصْبَعَكَ إلى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلا تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا". (يُوحَنَّا ٢٠: ٢٧).

إن هذه الأدلة كلها تبيّن أن الظن بأن المسيح عليه السلام مات على الصليب ظن باطل لا أساس له. لا شك أنه قد عُلّق على الصليب، لكن الله تعالى نجّاه من الموت عليه، وهكذا ظهرت تلك الآية التي كان قد أعلن عنها المسيح عليه السلام سلفًا بأنه كما

دخل يونان النبي في بطن الحوت حيًّا، وظل فيه حيًّا، وخرج منه حيًّا، كذلك سأنزل مِن على الصليب حيًّا، وأدخل في القبر حيًّا، وأخرج منه حيًّا.

ومما يبطل عقيدة الفداء أن المسيح الطَّيْلا لما نجا من الموت على الصليب لم يزل يتخفى مخافة أن يقبض عليه العدو ثانية، مع أنه لو كان ابن الله حقًا، أو لو كانت روح المسيح ظهرت للحواريين بعد حادث الصليب، فما كانت هذه الروح بحاجة إلى التخفي، بل كان عليها أن تظهر للجميع وتتحداهم أن تعالوا واقتلوني إن كنتم قادرين. ولكن الإنجيل يخبر أن المسيح الطَّيْلا كان يتوارى عن الأنظار دائمًا بعد حادث الصلب. (لوقا ٢٤: ٣١)

إذن، فعقيدة المسيحيين أن المسيح صار فداء لذنوب الناس باطلة من أولها إلى آخرها.

والنظرية الجبرية الثالثة عن خلق الإنسان تقول إنه لم يُخلَق بمَلَكَةٍ معينة، بل الواقع أنه يتأثر بالتعليم والتربية، فيُصاغ بحسبها، وكأنه مجبر بظروفه. هذه نظرية فرويد وغيره من فلاسفة الغرب. إنهم يرون أن الإنسان يماثل الحيوانات الأخرى فيما يتعلق بولادته، فلا يولَد بقوة الخير ولا بقوة الشر. إنما يتأثر بمحيطه بعد ولادته، فإن كان المحيط خيرًا صار صالحا، وإن كان المحيط سيئا صار سيئا، وفي كل حال لا يتحلى بالخير أو الشر إلا مجبرا بظروفه.

ونحن نقول إنهم إذا كانوا يعنون بذلك أن كل مولود يولد بفطرة سليمة بدون أي آثار للإثم، لكن محيطه وظروفه تؤثّر عليه بعد الولادة فيصبح سيئا وفاسدا، فهذه هي العقيدة الإسلامية أيضا، وهذا ما يؤكده القرآن والحديث، حيث يقول الرسول ﷺ: "ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يُعرب، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه". (معجم الطبراني الكبير، باب الألف، الأسود بن سريع المجاشعي)

ولكن السؤال هنا: هل يمكن إصلاح هذا الإنسان أم لا؟ إذا كان إصلاحه محالاً فقد بطل قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وإذا كان إصلاحه

ممكنًا فمهما فسد الإنسان بتأثير محيطه فلا يمكن القول إنه يولد بدون أي مَلَكةٍ للخير.

عندما ندرس هذه النظرية من هذا المنظور يتضح لنا أن فرويد وغيره من الفلاسفة أنفسهم يعترفون بإمكانية إصلاح الإنسان، فهناك علم خاص يدعى التحليل النفسي (psychoanalysis)، حيث يدّعي علماؤه أنهم يعالجون به المرضى ذوي الأفكار الفاسدة.

الواقع أن نظرية فرويد تقول إن فساد فطرة الإنسان لا يبدأ عند ارتكابه أي سيئة، بل إن فسادها يبدأ منذ ولادته، وأن مختلف حركاته وتصرفاته تُولِّد في قلبه مشاعر صحيحة أو خاطئة. فيقول فرويد عن الشهوة -مثلاً- أنها تبدأ في النشوء في الإنسان حين يمتص الوليد ثدي أمه ويحتكّ جسمه بجسمها حيث يشعر بمتعة، فتنشأ فيه بدايات الشهوة. ثم إن أمه عندما تلمس أعضاءه الجنسية لتغسلها بعد تبوّله وتبرّزه فإن هذا اللمس يزيد في قلبه الإحساس بأفكار شهوانية. ففرويد يرى أن الشهوة لا تتولد عند الطفل حين بلوغه السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، بل تنشأ منذ ولادته نتيجة مختلف حركاته وتصرفاته، ويظهر هذا الإحساس بصورة مكتملة عند بلوغه.

وإننا نتفق مع فرويد في هذا الأمر أيضا، فإن الإسلام يعلِّم أن الإحساس بالخير أو الشر يبدأ منذ الصغر، ولذلك أمر الرسول ﷺ بالأذان في أُذن الوليد منذ لحظة ولادته، لأن فترة تعليمه وتربيته تبدأ منذ ولادته. فإذا كان فرويد يعني هذا بالضبط فنقول له: لستَ مخترعَ هذه النظرية، بل إن محمدا رسول الله ﷺ هو مخترعها.

ورغم تسليمنا بهذه النتائج، نقول لأصحاب هذه النظرية: حتى ولو كانت جميع المفاسد تنشأ في القلب منذ الصغر، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل يمكن إصلاح المرء بعد فساده أم لا؟ أو هل يمكن -بطريق أو آخر- إزالةُ فساد فطرته الذي يحصل بتأثير المحيط أم لا؟ فإذا كان ذلك ممكنًا فقد بطل الزعم أن فطرة الإنسان ليس فيها مَلَكَة الخير. إن العلاج الذي يصفه أصحاب هذه النظرية على ضوء علم التحليل النفسي لكافٍ في حد ذاته لإبطالها.

إن هذه النظرية التي يُعتبر فرويد مخترعَها تُقدِّم على أن الطفل يعشق أُمَّــه أولاً، ولكن عاطفته هذه تُكبَت بحُكم محيطه أو بسماع أقوال رجال الــدين، فيحــبّ زوجتَه بدلاً من أمه. ولكن عاطفة حُبِّ الأُمّ تكون قوية في البعض بحيث لا تغلبها أي محبة أخرى، ولكنه حين يسمع من رجال الدين بأن الأم لا يمكن أن تكون مثل الزوجة فيصاب باضطراب نفسي، فمن ناحية يقول له الدين إن الأُمّ لا يمكــن أن تكون زوجة، ومن ناحية أخرى يجذبه حُب أمه الذي تولَّد في قلبه في صغره عنــد امتصاصه ثديها، فلا يقدر على مقاومة هذه الأفكار المتضادّة، فيــصاب بــأنواع الأمراض النفسية. ويقولون لا شك أن سبب هذا المرض لا يكون معروفًــا عنــد المريض نفسه أحيانًا، ولكنه إذا خضع لعلاج التحليل النفسي انكشف سبب مرضه الخفي وأمكنَ شفاؤه بسهولة. لقد جمع هؤلاء -لــدى دراســة هــذه القــضية بالتفصيل- حوالي مائة عامل تؤثّر على الوليد فتصيبه بأمراض مختلفة. عندما يحضر المريض يأمره طبيب التحليل النفسي بالاستلقاء أمامه باسترخاء، فيضع يده علــى نبضه، ويتجاذب معه أطراف الحديث في شتّى الأمور، فيتحدث معه عن حب الأم وعن حب الأب وعن حب المال مرةً وما إلى ذلك، ويراقبه باستمرار من خــلال جسّ نبضه ليرى أيٌّ من هذه الأمور يسرِّع نبضَه بشكل ملموس. ومعلوم أنــه إذا ذُكر أمام المرء أمرٌ يرغب فيه خاصةً تسارعت دقاتُ قلبه، وبالتالي تسارع نبــضُه، وهكذا يعلم الطبيب سببَ مرضه الحقيقي، وإذا كانت العاطفة التي ســببت لــه المرض سليمةً أشار عليه الطبيب أن ينفّذها، وإذا كانت عاطفةً غير مباحة كــشف عليه قبحها بالمحاضرات المتتالية إلى أن تخرج تلك الرغبة من قلبه ودماغه. وحيث إن السبب الحقيقي للمرض قد زال، فيزول مرضه ويشفى.

وقد قام هؤلاء بتجارب عديدة في العلاج بالتحليل النفسي وقــدَّموا حــالات قطعية لمرضى لم يُشفَوا بأي علاج، لكنهم لما خضعوا للتحليل النفسي انكــشفت رغباتُهم الخفية، فتماثلوا للشفاء إما بتحقيق رغباتهم أو بالإقلاع عنها.

بعد الحرب العالمية الماضية (الثانية) كان هناك آلاف الناس الذين أصيبوا بالجنون نتيجة صدمات القصف، فشُفي الكثير منهم بشتى العلاجات، بينما لم يُجْدِ بعضهم

أي علاج، ففكّرت الحكومة أخيرًا أن تتم معالجتهم بالتحليل النفسي. فكشف الفحص أن كثيرا منهم مصابون بالجنون بصدمات القصف في الظاهر، ولكن مرضهم الأساس عدم تحقيق بعض رغباهم، فعُولجوا على ضوء ذلك فتماثلوا للشفاء تماما، مع أنه لم ينفعهم من قبل علاج ولا دواء. ويقال إن آلافًا من أمثال هؤلاء المرضى في أوروبا شفوا هذا الطريق من العلاج.

ونقول لهؤلاء في الجواب: لا شك أن في أوروبا آلاف المرضى كهؤلاء، ولكننا لا نرى في بلادنا أي مريض كهذا، مما يدل أنه ليس مرضًا بشريًّا عالميًّا، بل هو مرض محليّ تفشّى في أوروبا. لو كان مرضًا بشريًّا لوُجد في الهند ومصر والشام وفلسطين والصين واليابان، ولكن لا نجد أثرًا له في العالم إلا في أوروبا، مما يدل أنه مرض أوروبي خاص لا علاقة له بالناس جميعا. الواقع أن الناس في أوروبا متورطون في الشر والفساد عمومًا، وصارت أفكارهم نجسة، فيصابون بمثل هذه الأمراض، فإذا تحققت رغباهم وأهواؤهم تماثلوا للشفاء. أما عندنا فإن الأفكار تكون طاهرة بشكل عام، ولا يوجد عندنا ما نرى في أوروبا من فسق وفساد، فلا يحتاج أحد عندنا إلى مثل هذا العلاج. فلو صحّت نظرية الفلاسفة الأوروبيين، فنقول لهم إنه مرضُكم المحلي، وليس مرضَ الجنس البشري. ولو سلّمنا جدلاً أنه مرضُ الناس جميعا قلنا لهم أيضا لقد اعترفتم بإمكانية إصلاح الفساد، وهكذا أكّدتم صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. أي أن مِن سنّتنا أن نهيّئ أسباب الشفاء حين تمرض الروح الإنسانية، وهذا هو معنى نقاء الفطرة الإنسانية، أي أن الله تعالى يهيئ الأسباب لهدايتها وإصلاحها، فإذا انتفع بها الإنسان صار طاهرا نقيا، وإذا لم ينتفع صار أسوأ من الحيوانات.

باختصار، إن الإسلام يعلن أن الظن بأن الفطرة الإنسانية فاسدة دومًا وأن طريق وصولها إلى الله تعالى مسدود دوما، لهو ظنٌّ باطل لا أساس له. لقد خلق الله تعالى الإنسان بحيث إن إزالة فساده وجلاء قلبه وإيصاله إلى العتبة الإلهية ممكن مهما بلغ من الضعف والفساد. إن الإسلام لا يعني من صلاح فطرة الإنسان أنه يظل صالحًا على الدوام، بل يسلّم الإسلام أن المحيط الفاسد والظروف السيئة تمسخ

فطرته، لكنه يقول أيضا أن باب إصلاح الإنسان لا يُغلق أبدا، فكلما أراد أحد إصلاح نفسه والإقلاع عن السيئات وفعْل الخيرات فهو ممكن له، لأن الله تعالى قد خلَق في فطرته كفاءات الخير، وإذا لم ينتفع منها فهذا ذنبه هو، أما إذا اغتنمها فلا بد أن يظهر ما في فطرته من خير، ومن المحال أن لا يهتدي ويظل محرومًا من قرب الله تعالى رغم مجاهدته.

باختصار، إن الإسلام يسلّم بتأثير المحيط ويسلّم أيضا أن الولد يتأثر من الخير والشر منذ الصغر، ولكنه يعلن أيضا أن إصلاح كل إنسان ممكن. إن أنصار نظرية فرويد أيضًا يسلّمون أن إصلاح الإنسان ممكن، واعترافهم هذا دليل على أن الله تعالى قد أودعَ فطرةَ الإنسان مَلَكَة الخير؛ إذ لولاها لاستحال إصلاحه؟ كما نشاهد أن معظم الناس يتأثرون بالوعظ ويتركون الكبائر، فإذا لم يكن في الإنسان مَلَكة الخير فكيف يتأثر بالوعظ، وكيف يترك السيئات ويعمل الخيرات؟ والحال نفسه للدعاء، فإنه يُحدث في المرء انقلابات عظيمة. فالذين لا يتوجهون إلى الله تعالى أبدًا ويستمتعون بأنواع المعاصي جاعلين هدف حياتهم الانغماس في متع الدنيا، حين يؤمنون بأنبياء الله تعالى يتبدلون كلية ببركة إيماهم وبركة دعاء الأنبياء وقوتهم القدسية. إن هذين الطريقين للجهد المادي والروحاني مفتوحان في الدنيا دائما وسيظلان كذلك، وهما دليلان على أن الله تعالى قد خلق فطرة الإنسان صالحة.

أما السؤال: ماذا عن الذين لا يجدون فرصة للترقي في الصلاح والخير؟ فالجواب أن الشريعة تقرّ بأن الذي لم تُتح لفطرته فرصة الترقي بحُكم التأثيرات الخارجية فإنه سيُمنَح فرصة أخرى، وفساده لا يسمى فسادَ فطرته بحال، بل هو فساد محيطه. وهذه الآية تؤكد أن خلق الإنسان هو في أحسن تقويم، ولا تقول أن أحدًا لا يصير فاسدا بفساد المحيط والظروف.

باختصار، قد بين الله تعالى في هذه الآيات أن مجيء آدم ونوح وموسى ونجاحهم في جهودهم الإصلاحية وثورتهم الروحانية لدليلٌ على أن الله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي أنه تعالى قد جعل في خلق الإنسان مبادئ

وقواعد بحيث إنه يمكن أن يبلغ أعلى درجات الاعتدال والكمال، كما هو ثابت من الأحداث المذكورة من قبل. فإن آدم ونوح وموسى وأتباعهم لبرهانٌ ساطع على هذا الأمر، وأن محمدا سيكون في المستقبل دليلا آخر على صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

والعقيدة الجبرية الرابعة تقول إن الإنسان خُلق مجبورا، وكأنه يرتكب السيئات مجبرًا بقانون الله تعالى، وأنه لا ذنب له في ذلك. والإسلام يرفض هذه العقيدة رفضًا باتا. وحيث إن أصحاب هذه النظرية هم أصحاب الدين ولا سيما المسلمون المبتدعون، لذلك أردّ عليها بأدلة من القرآن الكريم.

يقول الله تعالى ﴿وهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(الفرقان:٦٣).. أي الله الذي جعل الليل والنهار يتناوبان، غير أنه لا ينتفع من ظاهرة تناوب الليل والنهار إلا من يريد أن يتّعظ أو مَن يتحلى بخُلُق الشكر.

لقد بيّن الله هنا أن الناس نوعان: الأول هم الذين يضعف فيهم جانب الخير بحيث إنهم يتبعون سبل الشيطان ويستحقّون الوعظ والإنذار ليتجنبوا السيئات. والنوع الثاني هم قوم محرومون من ذلك النور الذي يناله الإنسان باتّباع دين، غير أنهم يتحلون بعاطفة الشكر، فلا يسيئون استخدام ما أعطاهم الله من نِعَم وكفاءات، بل ينتفعون بها وينفعون بها الآخرين؛ فهم قوم لهم نصيب من الخير والخُلُق. فالله تعالى يعلن هنا أننا قد خلقنا في الدنيا ظاهرة تناوب الليل والنهار، أي أن الله يبعث الأنبياء والرسل لإصلاح الدنيا تارةً، بينما تسود العالَمَ الظلمةُ والضلال تارة أخرى؛ وهل تعرفون ما الحكمة في تناوب الليل والنهار الروحانيين، ولماذا نأتي بالليل بعد النهار؟ ولماذا نُطلع شمس الهداية بعد ظلمة الضلال؟ ذلك لنجعل العصاة والآثمين المحتاجين إلى الهدي والوعظ والتذكير صالحين من خلال الرسل، وأما الذين هم واقفون عند مقام الصلاح الفطري فنوصلهم من خلال كلام الله ووحيه إلى مقام أرفع.. أي مقام الشكر. باختصار، يعلن القرآن الكريم أن إصلاح كل إنسان ممكن، ولو أن الله تعالى خلق الإنسان للشر لما وجدتم ظاهرة

تناوب الليل والنهار في الدنيا، إذ إن غرضها الأهم أن يؤتى بالطالحين إلى الصلاح، ويؤخذ بالصالحين إلى مقام روحاني أرفع.

كذلك قال الله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾(فاطر:٣٨).. أي أن أهل النار عندما يُلْقَون فيها يوم القيامة يصرخون ويقولون ربنا أخرِجْنا من الجحيم ونحن نعِدك أننا سنعمل الصالحات وسنزداد برًّا وصلاحًا خلاف ما كنا نعمل من قبل. لقد كنا نسرق ونأكل أموال الناس ونكذِب ونحارب الأنبياء، ولكنا لن نعود إلى هذه المساوئ الآن. فلو كان الإنسان قد خُلق سيئًا ونجسًا، فكان ينبغي أن يقول الله لأهل النار: أيها الأشقياء، لِمَ تقولون إنكم ستعملون الصالحات مستقبلا؟ فإني لم أخلُقكم إلا للسرقة والسطو والكذب والخداع ومحاربة الأنبياء، أو قال لهم: كيف يمكن أن تعملوا الخير، وقد جعلتُ في فطرتكم الشر والفساد، وأنتم مجبرون على ارتكاب المعاصي والسيئات؟ ولكن الله تعالى لا يرد عليهم بهذا بل يقول ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾.. أي قد منحتُكم من العمر والمهلة ما يستطيع فيه الإنسان أن يتّعظ بسهولة إذا أراد، ولكنكم لم تنتفعوا منها، و لم تصلحوا أحوالكم، فلا قيمة لقولكم الآن: لو أرجعتنا إلى الدنيا فسنعمل الصالحات دائما. كلا، لقد آتيناكم فرصة عظيمة ولكنكم ضيعتموها.

فترى أن الله تعالى قد اعتبرهم مجرمين قائلا لقد أعطيتكم من العمر ما تتعظون فيه إذا أردتم، ولكنكم لم تتعظوا. وهذا الجواب لا يستقيم إذا كان الله تعالى قد جعل فطرة الإنسان فاسدة، وبالتالي هو مُجبَر على فعل السيئات نتيجة هذا القانون الإلهي، إنما كان ينبغي أن يقول الله لهم -في هذه الحالة- كيف يمكن أن تصبحوا صالحين، هذا محال لأني قد خلقتكم كي أُلقيكم في الجحيم.

والحجة الثانية التي كان يمكن أن يقدمها أصحاب الجحيم هي: كنا جاهزين لأن نتعظ بالوعظ، ولكنك لم تهيئ لنا أسبابا للهدى، فبقينا محرومين من الصلاح والخير، فيفنِّد الله حجتهم هذه ويقول ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.. أي لا يمكن أن تزعموا

أننا لم نهيئ لكم أسباب الهدى، بل قد جاءكم النُذر على التوالي ينذرونكم سخطنا ومغبّة مخالفة أحكامنا، ولكنكم لم تتعظوا بوعظهم.

إن هذين الجوابين يقضيان على عقيدة الجبر كلية، وقد ثبت منهما أن الله تعالى لم يخلق أي إنسان مجبرًا، وإلا فكان ينبغي أن يقول الله للكفار لما وعدوه بعمل الصالحات إذا أُرجعوا إلى الدنيا: كيف يمكن أن تعملوا الصالحات وقد خلقْتُكم مجبرين وجعلتُ فطرتكم فاسدة بحيث لا تقدرون على فعل الخيرات؟ ولكن الله لا يجيبهم بهذا الجواب بل يقول: لقد أعطيتكم من العمر ما تستطيعون أن تتّعظوا به وتُصلحوا أعمالكم بسهولة. وهذا يعني أنكم لم تكونوا مجبرين بل كنتم مخيّرين في أن تفعلوا ما تشاءون، وقد منحتُ لكم الفرصة لذلك أيضًا. وكانت الحجة الثانية التي يمكن أن يحتج بها أهل النار هي: لو كانت أسباب الوعظ ميسرة لاتعظنا، وإذا لم نستطع الهدى لقصور عقولنا وجهل آبائنا فما ذنبنا في ذلك؟ ففنّد الله حجتهم هذه قائلا: لا يمكن تقديم هذه الحجة أيضا، لأننا قد أرسلنا إليكم النذر وبيّنّا لكم طريق الهدى وطريق الضلال أيما تبيان.

ثم يقول الله تعالى لأهل النار ﴿فَذُوقوا فَمَا للظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾. وهذا ردٌّ ثالث على عقيدة الجبر. فلو كان الله تعالى قد أجبر الناس على فعل السيئات لعُدَّ ظالما – والعياذ بالله. إن الذي يُجبَر على عمل فلا يكون ظالما، بينما نجد أن الله تعالى يَعُدّ هؤلاء الناس ظالمين ويقول لهم: لسنا ظالمين، بل أنتم الظالمون إذ لم تتوجهوا إلى الله تعالى رغم ما هيأه لكم من أسباب الهدى وفُرَصِها، وإنما اتبعتم أهواءكم.

إن هذه الآيات برهانٌ قاطع على بطلان اعتقاد بعض المسلمين أن الإنسان مجبر. كلا، بل قد خيّر الله تعالى الإنسان في أن يصبح صالحا أو تابعًا للشيطان.

والعقيدة الجبرية الخامسة تقول إن الإنسان يُخلَق في الدنيا ليعاقَب على أعماله السابقة، فلأن هناك أعمالا سيئة، فمَن ارتكبها خلقه الله تعالى فقيرا ضعيفا فاسد الأخلاق، وأما الذين هم ميسورو الحال أصحاء فهم أيضا ليسوا متحررين من السيئة في الحقيقة، فولادتهم تدل على أنهم لم يتحرروا من تأثير الإثم كلية، وإلا لم يُلقَوْا في دورة الولادات المتكررة هذه. (ستيارتهـ بركاش باب ٩ ص ٢٤٧)

هذه العقيدة تسمى التناسخ. وأول ما يقال في تفنيدها هو أن أساسها الظنّ والتخمين. ذلك أن أصحابها يتساءلون: لماذا يولد الإنسان في الدنيا أعمى وأعرج وفقيرا وبائس الحال؟ ولماذا يموت بعض الولدان في الصغر؟ ولماذا يكون البعض فقيرا والبعض ثريا، والبعض صحيحا والبعض كسيحا، والبعض عاقلا والبعض غبيا، والبعض قويا والبعض ضعيفا؟ وبعد إثارة هذا الاعتراض يقول أصحاب هذه النظرية: من المحال أن يعزى الظلم إلى الله تعالى، فيبدو أن الإنسان يأتي إلى الدنيا لينال الجزاء على أعماله التي عملها في الولادة السابقة، وحيث إن البعض قد عمل أعمالاً حسنة في ولادته السابقة، والبعض الآخر قد عمل السيئات، لذلك نرى البعض في بؤس وآلام والبعض في راحة ويسر.

هذا هو الأساس الذي بنوا عليه عقيدة التناسخ. والحق أن هذه الأسئلة التي أثاروها يمكن أن يُجاب عليها بطرق أخرى أيضًا. فمثلاً إن الذي لا يؤمن بكون الله عادلاً سيرد على هذه الأسئلة بقوله: إن هذا الاختلاف راجع إلى كون الله ظالما. ويمكن أن يجيب الآخر: إنّ العَمى والعَرَج والكُساح ليس خاضعًا لقانون الشريعة بل هو خاضع لقانون الطبيعة، فمثلاً إذا تعثر المرء في مشيته وسقط فلن نقول إنه تعثر عقابًا على عملٍ له في الولادة السابقة، بل يقال إن عثاره نتيجة لمخالفته لقانون طبيعي. كذلك إذا وُلد المرء أعمى أو أعرج أو مريضا، فلن يقال أن مرضه عقاب على عمل سبق منه، بل الواقع أنه نتيجة طبيعية لقانونٍ طبيعي ظهرت على جسمه لمروره في ظروف خاصة. فما دام هذا السؤال يمكن أن يجاب عليه بأجوبة عديدة فلا يصح ترجيح جواب منها بلا سببٍ مُرجِّح، فهذا مرفوض عند العقل. ولكن أصحاب التناسخ لم يستطيعوا أن يقدّمواً هذا السبب المرجِّح حتى اليوم.

وثانيًا: نقول لأصحاب التناسخ إن السؤال الذي تقدّمونه دعمًا لعقيدتكم نقدّمه نفسه تفنيدًا للتناسخ. السؤال الأساس هو: لماذا هذا الاختلاف في الدنيا؟ فأجبتم أنه نتيجة أعمال الإنسان السابقة. ولكنا نقول: إذا كانت حياة إنسان في هذه الدنيا نتيجة أعماله في ولادة سابقة فجاء إلى الدنيا ليُجزى على أعماله السابقة،

فلماذا نجد بعض المواليد يموتون فور ولادهم؟ ولماذا جاء هذا المولود إلى الدنيا وأي جزاء ناله؟ لو أنه تعرّضَ للمشاكل والمصاعب وتحمّلَ أنواع الآلام بعد ولادته أمكن القول أنه قد نال جزاء أعماله السابقة، ولكنا نرى أحيانًا أنه ما إن يولد الوليد حتى يموت، وفي أحيان كثيرة لا يولد مطلقا، بل يموت إجهاضًا. فإذا كان الإنسان يولد في الدنيا ليُجزى على أعماله السابقة فما هو الجزاء الذي يناله الوليد الذي يموت فور ولادته أو يسقط من بطن أمه قبل الولادة؟ إنه لا يعاني أية آلام في الدنيا. إنما مثله كمثل مجرم يأمر الحاكم بسجنه، فما إن يصل إلى باب السجن حتى يأمر بإرجاعه دون أن يدخل السجن. لا شك أن هذا الفعل العبثي خلاف للعقل. فثبت أنه إذا كان أصحاب التناسخ يقدّمون مثل هذه الحالات تأييدًا لعقيدهم فإنها يمكن أن تُقدَّم إبطالاً لها أيضًا.

والسؤال الثالث هو: إذا كان التناسخ صحيحًا فلماذا تؤثّر على الإنسان أعماله الحالية؟ إذا كان قد جاء إلى الدنيا لينال جزاء أعماله في الولادة السابقة، فيجب ألا يتخلص من آلام الدنيا بحال من الأحوال. لنفترضْ أن الله تعالى يقرر عقاب شخص على سيئاته في ولادته السابقة بأن يظل في الدنيا عرضة للشدائد والمصاعب خمس وثلاثين سنة، فينبغي أن يظل عرضة للشدائد والمحن في هذه المدة، ولكنا نرى أن بعض الناس لا يقدرون على تحمُّل الأذى فيتناولون السمّ وينتحرون، مع أنه لو كان التناسخ صحيحا، ولو أن هذا الإنسان قد جاء إلى الدنيا لينال جزاء أعماله السابقة لفترة معينة فيجب أن لا يؤثّر عليه السم، وإنْ تناوَله آلاف المرات، لأن الله تعالى قد أرسله إلى الدنيا ليعاقَب عقوبةً معينة. كذلك نجد أن البعض ينتحر بإغراق نفسه في النهر حيث يربط بعنقه حجرًا ويدخل في الماء ويغرق، مع أن المفروض بحسب هذه العقيدة أن لا يغرق ولا يموت، لأن الله تعالى قد أرسله إلى الدنيا لينال عقوبة أعماله السابقة أربعين أو خمسين سنة مثلاً. فعقيدة التناسخ لا تحول دون مَن أراد الانتحار بإغراق نفسه في النهر أو بتناول السمّ فرارًا من هذا العذاب المقدر له في الدنيا، وإن كانت مدة عذابه أربعين سنة. كذلك من يولد في بيت فقير جزاءً على أعماله السابقة يجب ألا يصبح ثريا، لكننا نرى أن كثيرا من الفقراء يجتهدون

ويصبحون أصحاب الملايين. هناك أمثلة كثيرة في الهند وغيرها من البلاد لأشخاص كانوا فقراء، فاجتهدوا وأصبحوا من كبار الأثرياء. لقد نهضوا من الحضيض ووصلوا إلى القمة. فإذا كان الإنسان يأتي إلى الدنيا ليعاقَب على ولادته السابقة فلماذا يتناول السم ويهلك مع أنه قد جاء إلى الدنيا ليظل مسجونًا في آلامها مدة معينة! ولماذا يصبح الآخر ثريًّا بالكدّ والتعب مع أنه قد وُلد في بيت فقير عقابًا على أعماله السابقة، فكان ينبغي أن لا تتحسن حالته أبدا، إذ كيف يمكن أن يرسل الله إلى هذه الدنيا سجينًا، فيأتي إليها ويصبح ملكًا؟ إن أوامر الحكومات الدنيوية لا يمكن أن يخالفها أحد، فكيف يقدر أحد على مخالفة أوامر حكومة السماء؟ وهل يمكن أن يخلق الله أحدًا مريضا عقابا له ولكنه ينال الشفاء بالعلاج؟ لو سلّمنا أن الله تعالى قد خلقه مريضا عقابا له، فيجب أن لا يُشفى بالعلاج، ولكن ما نشاهده كل يوم في الدنيا هو خلاف ذلك، حيث يكون الناس مرضى فيُشفَون بالعلاج، ويكونون فقراء فيصبحون أثرياء نتيجة الكفاح، ويتناولون السمّ فيموتون بتأثيره. لو كانت نظرية العقاب على أعمال الولادة السابقة صحيحة فكان ينبغي ألا يُشفى المرضى وألا يغنى الفقراء وألا يهلك أحد بتناول السمّ وألا يؤثر على الإنسان أي عمل من أعمال هذه الدنيا. فللإنسان حياة حرة واحدة بحسب نظرية التناسخ، وهي حياة ولادته الأولى، أما حياته في باقي الولادات فيجب أن تكون جبرية بسبب عقوبة أعماله السابقة.

والاعتراض الرابع أنه إذا كان التناسخ صحيحًا فلماذا يموت الناس والحيوانات عند الأوبئة؟ لماذا يتفشى الوباء فجأةً ويفتك بمئات الآلاف من الناس والحيوانات؟ ما هي الجريمة التي يعاقَبون عليها عقابًا جماعيًّا؟ إن فترات عقوبة كل واحد منهم تكون مختلفة، ومع ذلك يأتي الوباء ويكتسح الجميع مرة واحدة.

ثم إذا كان التناسخ صحيحا فلماذا يهلك آلاف الناس في الحروب والزلازل؟ ما هي المناسبة السارّة التي بسببها يُمنَح الناس والحيوانات هذه الحرية من سجن الحياة؟ إننا نرى في الدنيا أن الملك إذا رُزق ولدًا أعلن بإطلاق سراح المساجين، وإذا كان في الأسرة الملكية عرسُ زواج أعلَن إطلاق سراح عدد من السجناء، فهل يا ترى

هناك مناسبات سارة عند الله تعالى أيضا حتى يرسل الوباء الذي يُهلك مئات الآلاف من البشر ويحررهم من معاناة هذه الحياة الدنيا، أو يرسل زلزالاً يهلك مئات الآلاف من البشر؟ وأحيانًا يرسل الطاعون أو الهيضة أو الإنفلونزا أو الملاريا؛ وكأن هذه الأوبئة مُدراءُ السجون الذين يأتون للسجناء ببشارة الإفراج عنهم! بأي مناسبة سارّة يطلق سراح هؤلاء الضحايا؟ ولماذا يموت الناس في الدنيا نتيجة الأوبئة والكوارث بكثرة حينًا وبقلّةٍ حينًا آخر؟ هل عند الله مناسبات سارة عادية، ومناسبات سارة ضخمة، فيطلق عند الفرحة العادية سجناء قليلين، وفي الفرحة الكبيرة سجناء كثيرين، فتارة يحدث زلزالا وأخرى يُنزِل طاعونا أو ثالثة يفشّي الهيضة والملاريا التي تتسبب في الإفراج عن مئات الآلاف. يجب أن يكون لهذه الظاهرة سبب ما. فكما أن أصحاب التناسخ عندما رأوا هذا الاختلاف في الدنيا أتوا له بتبرير، كذلك من حقنا أن نسألهم: ما هو السبب وراء هلاك مئات الآلاف في هذه الكوارث؟ وما هي مناسبة الفرحة عندها التي من أجلها يأمر الله تعالى بتحرير هذه الأرواح؟

والسؤال الخامس هو أن التناسخ لو كان صحيحا فلماذا يتخذ الهندوس شتى التدابير الوقائية عند الزلازل، ولماذا يأخذون الحقنة عند تفشي الأوبئة كالطاعون والهيضة، فهذا عقابهم على أعمالهم السابقة، والطاعون والهيضة رسالة عفو لهم في الواقع فلماذا يحاولون اتقاءها. هل يرفض السجين مَن أتاه برسالة الإفراج عنه؟ ماذا عسى أن يكون جواب أصحاب التناسخ لشخص يسألهم هل آخذ الحقنة للوقاية من الطاعون والهيضة أم لا؟ أيقولون لا تأخذ الحقنة، لأن هذه الحياة سجن وهذه الأوبئة رسالة تحرير من قبل الله، فعليك أن تفرح لتفشي هذه الأوبئة، أم يقولون له عليك أن تأخذ الحقنة فإنها علاج مجرَّب ينقذ حياتك؟

فثبت أن اتخاذ الهندوس شتى التدابير الوقائية من الأوبئة والزلازل دليل بيّن على أن هذه الحياة ليست عندهم سجنًا يريدون التحرر منه، بل إنها ذريعة لكسب الخير، وإطالتُها عمل صالح.

والسؤال السادس هو: لماذا تتولد أحيانا بلايينُ الحشرات والديـدان في سـاعة واحدة؟ إذ تتولد في قرية واحدة أو مدينة واحدة بلايين الـبلايين مـن الديـدان والحشرات في أيام المطر. والسؤال: ما هي الجريمة التي يرتكبها الناس عندها بكثرة فتتولد بلايين الديدان والحشرات في ساعة واحدة؟ ثم أين العقوبـة، إذ لا تمـضي ساعات على خلق هذه الحشرات والديدان إلا وتموت! مما يعني أن بلايين البلايين من الأرواح تُلقى في السجن، ثم تتحرر كلها بعد ساعة أو قريـب مـن ذلـك؟ فالسؤال هنا: ما هو الإثم الذي يرتكبه الناس في أيام المطر بكثرة، والـذي بـسببه تُخلق هذه بلايين البلايين من الديدان في لمح البصر؟ ثم لماذا يُطلَق سراحها بهـذه السرعة؟ هل هناك عرس عند الله تعالى حيث يُطلق سراح هـذه الأرواح البـالغ عددها بلايين البلايين من سجن الحياة بهذه السرعة؟

والسؤال السابع هو: إن التسليم بالتناسخ يستلزم التسليم بأن الكون كله قـائم على الإثم -والعياذ بالله- ذلك أن القائلين بالتناسخ يقولون أن الحيوانات تُخلق في العالم نتيجة آثام الناس، فبعضهم يتحول بسبب ذنوبه بقـرةً في خلقـه الجديـد، وبعضهم يُخلَق جاموسًا، وبعضهم حصانًا، وبعضهم حمارًا (ستيارتهـ بركاش باب ٨ ص ٢٢١-٢٢٢). وحيث إن الخضار والنباتات تتمتع بنوع من الحياة، فلا بـد أن تكون قد خُلقت نتيجة ذنوب الناس. وحيث إن الحيوانات كلها قد خُلقـت نتيجة آثام الناس فثبت أن الكون قائم على الإثم وحده، ولو محي الإثم لم تكن هناك بقر وجواميس يشرب الإنسان لبنها، ولا خيل يركبها، ولا خضار يأكلها، وهكذا اختلّ نظام الكون كله.

ثم يجب أن نأخذ بالاعتبار أن هذه الأشياء لا يستعملها الأشرار فقط، بـل لا مناص منها للصلحاء، فهم أيضًا مضطرون لشرب لبن البقر وركوب الخيل وحصاد الزرع، وأن يظلوا محتاجين إلى الجاموس والثور وما إلى ذلك. إذن، فحسب هـذه العقيدة لا يستطيع الصلحاء أيضا العيش في هذه الدنيا إلا بالإثم، لأن الأرواح التي تأتي إلى هذه الدنيا في ولادات مختلفة بحسب هذه العقيدة هي التي يقوم بها الكون.

وهنا ينشأ سؤال آخر ضمنيا: ماذا كان الناس الذين وُلدوا أول مرة يأكلون ويشربون؟ تكشف البحوث الجديدة في علم النباتات أن القمح والخضار وغيرها من النباتات أيضا تملك الحسّ، مما يعني أن فيها أيضا نوعًا من الحياة عند أصحاب التناسخ، وما دام كل ما فيه حياةٌ يولد نتيجة الآثام بحسب التناسخ، فالسؤال الذي ينشأ هنا طبعًا: ماذا كان الناس الأوائل يأكلون؟ بل هناك سؤال آخر: لماذا جعل الله الماء ماءً والهواء هواء؟ كيف جاز له هذا التفريق؟ لا بد أن يكون الماء قد خُلق ماءً عقوبةً، وكذلك لا بد أن يكون الهواء خُلق هواءً عقوبةً بحسب هذه العقيدة؛ فالسؤال الآن: ماذا كان الإنسان يأكل ويشرب وبأي شيء كان يتنفس عندما خُلق أول مرة وقبل أن تظهر نتائج أعماله؟ سؤال ليس عند أهل التناسخ جوابه؟

والسؤال الثامن هو: إذا كانت البقر والجواميس تُولَد نتيجة الإثم، فلماذا تنفع وصْفاتُ علماء علم الحيوانات من أجل تكثير هذه الحيوانات؟ فهل يُكثِرُ الناس من ارتكاب تلك الذنوبَ التي تتسبب في ولادة هذه الحيوانات بكثرة حين تكون هذه المواشي تحت رعاية هؤلاء العلماء؟

قبل فترة أعلنت الحكومة الهندية أن عدد البقر والجواميس قد نقص إلى النصف في الستّ والعشرين سنة الماضية، ولِسَدّ هذا النقص ينبغي على الناس تربية هذه المواشي أكثر فأكثر. فكان على الهندوس عند هذا الإعلان أن يبعثوا إخطارا للحكومة أن هذا الطريق لتكثير المواشي خطأٌ تماما، فإن البقر والجواميس تولد نتيجة كذا وكذا من الآثام، وإذا كانت الحكومة تريد زيادها، فعليها أن تنشر هذه الذنوب في البلاد، فتكثر هذه الحيوانات تلقائيا. ولكن الهندوس لم يبعثوا إلى الحكومة أي إخطار كهذا، ولن يبعثوه في المستقبل، مما يعني أهم يُقرّون أن زيادة عدد المواشي ممكن بالعمل بما ينصح به علماء علم الحيوان. وإذا كان العمل ببعض التدابير المادية يمكن أن يزيد في عدد الحيوانات فثبت أها لا تتولد نتيجة أي إثم يرتكبه الناس.

والسؤال التاسع: إذا كان التناسخ صحيحا فلماذا تتخذ الحكومات إجراءات لحماية الطيور من الصيْد؟ عليها أن تأمر الناس بارتكاب ذنوب معينة لتكثير هذه

الطيور بدلاً من اتخاذ هذه التدابير. فيقال للناس مثلاً عليهم أن يرتكبوا كذا وكذا من الذنوب لأن طيور السماني قد قلَّتْ، وعليهم أن يرتكبوا كذا من الذنوب لأن طيور الحجل قد نقصت؛ ذلك أن أصحاب التناسخ يقولون أن ذنوبًا معينة هي التي تتسبب في ولادة هذه الطيور وليس هناك سبيل لزيادهّا.

والسؤال العاشر: إذا كان التناسخ صحيحا فيجب أن يكون قتل إنسان مستحيلاً، إذ كيف يمكن أن يقدر أحد على قتل إنسان في سن الثلاثين مثلاً مع أن الله تعالى قد أراد له أن يعيش في الدنيا أربعين سنة؟ يمكنه أن يضرِب عنقه بالسيف، ولكنه لن يتمكن من قتله، لأن الله تعالى قد أرسله إلى الدنيا لأربعين سنة، وتحرُّره مِن سجنها قبل ذلك محال. أما إذا نجح القاتل في قتله فلا بد من القول إن هذه هي المشيئة الإلهية، وأن القاتل قد حرّره من سجن الحياة بأمر الله تعالى، ولكن ليس من المعقول في هذه الحالة أن يعاقَب القاتل، بل ينبغي أن يكلَّل بالورود إذ نفذ مشيئة الله، ومثله كمثل الجلاّد يَشنق الناس ومع ذلك لا يعاقَب، ذلك لأنه يُعدِمهم تنفيذًا لأمر الحاكم لا مِن عند نفسه. كذلك فمن ألقاه الله في سجن الدنيا، فينبغي ألا يقدر على تحريره منه أحد أولاً، وإذا تمكّنَ أحد من تحريره منه، فلا شك أنه قد حرّره وفقًا لمشيئة الله تعالى، وعليه فيجب أن لا يعاقَب، بل يجب أن يُكَلّل بالورود إذ أطلق سراحه من سجن الدنيا تنفيذًا لمشيئة الله.

باختصار، إن عقيدة التناسخ مخالفة للعقل كالعقيدة البوذية، والحقيقة الناصعة هي ما بيّنه القرآن الكريم بأن الإنسان قد خُلق معتدلَ القوى إذ ليس فيه قوة يقال إنها سيئة تمامًا، وليس فيه قوة يقال إنها حسنة كليّةً، وليس المراد من كونه معتدلَ القوى إلا أنه يميل إلى الشرّ أحيانًا، ويميل إلى الخير أحيانا أخرى.

قد يقال هنا: إذا كان الإنسان يمكن أن يميل إلى الشرّ فما فائدة خلقه في أحسن تقويم؟ فالجواب: من أجل ذلك يبعث الله أنبياءه وينزل شريعته لهداية الناس. لقد جاء آدم ونوح وموسى ومحمد ﷺ كلهم لينهضوا بالساقطين ويوصلوهم إلى عتبة الله تعالى. لا شك أن الناس يتعدون عن الله تعالى أحيانًا نتيجة سوء استعمال كفاءاتهم، ويصبحون عبيدًا للشيطان باتّباع أهوائهم، لكن الأنبياء

يقومون بتربيتهم، فيأخذون بهم إلى الله تعالى مرة أخـرى، ويـصقلون قلـوبهم مستثيرين كفاءاتِهم، ويجعلونهم مظاهرَ صفات الله تعالى ثانية.

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٦﴾

التفسير: ضمير المتكلم في ﴿رَدَدْناه﴾ راجعٌ إلى الله تعالى، والمعنى أنـه تعـالى يُسقِط الآثم من مقامه عقابًا له، وليس أنه تعالى يدفعه إلى الإثم. هذه الآية تماثِل ما أخبر الله تعالى عن آدم أنه تعالى أخرجه من الجنة (البقرة:٣٩) بينما أخبر في آيـة أخرى أن الشيطان هو الذي أخرجه منها حيث قال ﷻ ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَـنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّة..﴾(الأعراف:٢٨)، ولا شك أن إخـراج الشيطان لآدمَ من الجنة وإخراج اللهِ لآدمَ منها ليس بمعنى واحد، بل هناك فرق بيانه أن الشيطان تسبّب في الخطأ الذي ارتكبه آدم فطُرِد بسببه من الجنـة، فقيـل إن الشيطان أخرج آدمَ من الجنة، وحيث إن الله تعالى قد أتى بهذه النتيجة فقيل إن الله تعالى أخرج آدمَ. أي أن الإخراج نُسب إلى الشيطان نظرًا إلى سوء ذلك الفعـل، ونُسب إلى الله تعالى نظرًا إلى العقوبة التي أنزلها الله بسبب ذلك الفعـل الخـاطئ. ونفس الحال هنا قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، فهو لا يعني أن الله تعالى يُفسِد الإنسان، بل المراد أن الإنسان يفسُد فيجعله الله تعالى أسفل سافلين عقابًـا علىَ فساده، لذلك لم يقل الله هنا مثلا: "ثُمَّ رَدَدْنَاهُ سارقا أو قاتلا أو مذنبا".. بل قال ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.. أي ثم ندفعه إلى الحضيض. إنه يرتكب جرمًـا فنعاقبه عليه، وجرمًا آخر فنعاقبه مرة أخرى، وهكذا ندفعه إلى الحالة الدنيا ونُذلّـه ونُخزيه باستمرار.

وقد يكون ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ حالاً لضمير الغائب.. أي ليس الفاعلُ ذا الحـال، بل المفعول به هو ذو الحال، وعليه فالمراد أننا رددناه من بابنا حال كونـه أسـفلَ سافلين. وفي هذه الحالة لا يبقى الاعتراض الذي يرد على المعنى الأول حيث يكون

المراد أننا ندفع الإنسان من مقامه حال كونه ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، أي أنه بسبب ذنبه يسقط من نظرنا فنخرجه من بلاطنا.

لهذه الآية مفهوم فردي ومفهوم جماعي. ونظرًا إلى المفهوم الجماعي تُعتبر هذه الآية تأكيدًا على أن الهداية سبقت الضلال حيث يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.. أي لقد هيّأنا أسباب الهدى للإنسان أولاً، ولكنه فسد فيما بعد واتبع طريق الضلال. هذا هو الفارق بين الإسلام وأصحاب نظرية التطور، فإنهم يرون أن الإنسان كان ضالاً في البداية وتطورت عنده فكرة الدين فيما بعد، لكن القرآن الكريم يعلن أن الإنسان عندما زُوِّد بالعقل الكامل بعث الله تعالى آدم، ثم فسد الناس فبعث نوحًا، ثم فسدوا فبعث موسى، والآن بعث محمدا ﷺ لدى فسادهم؛ مما يعني أن الإنسان كان نموذجًا لأحسن تقويم في البداية، وأن الفساد جاء فيما بعد دائما. فمفهوم تطوُّر الدين كما يقدّمه الفلاسفة مفهوم خاطئ. صحيح أن الدين تطور في البداية على صورة التين، ثم على صورة الزيتون، ثم على شكل الطور، ثم على شكل البلد الأمين، وهكذا ظلّ الخير يتطور، وتطوُّر الدين بهذا المعنى صحيح، أما القول أن الضلالة كانت في البداية، فتطورت هذه الضلالة إلى الهداية باطل كل البطلان.

يقدم الفلاسفة الأوروبيون قضية ارتقاء الدين على أن فكرة الإله تطورت في الشعوب شيئا فشيئا. ففي البداية أخذت الشعوب تعبد تلك العناصر التي كان يخاف منها الإنسان شأن الطفل الذي إذا خاف من شيء أخذ في البكاء والتوسل. فلما رأى البرق يصعق الناس خافه فعبده، ولما رأى الأفعى تلدغ الناس فيموتون، خافها فعبدها، ولما رأى الناسَ يغرقون في النهر ويموتون خافه وعبده، ولما رأى البعضَ سقط من الجبل وهلك، خاف الجبلَ فعبده؛ فكل شيء وجده الإنسان مخيفًا أخذ يتوسل إليه ويعبده، ثم بمرور الوقت صرف بصره عن هذه الأشياء وأخذ يعبد العناصر التي فوقه في السماء، ثم بعد فترة اعتبر الأشياء غير المادية هي الأقوى، ثم في الأخير اقترح واحدًا منها أنه الأقوى. فتطوُّر الدين عندهم يعني أن الإنسان أخذ يحوّل بصره من عبادة الماديات شيئًا فشيئًا إلى أن بدأ عبادة إله غير مرئي، ولكن

القرآن الكريم يعلن أن هذه الفكرة باطلة، فليس صحيحا أن الضلالة سبقت الهداية، بل الواقع أن الخير كان أولاً والشر لاحقا. لقد جاء آدم عليه السلام أولاً فوضع الأساس للتمدن، ثم إذا حصل الفساد جاء نوح عليه السلام، ثم وقع الفساد فجاء موسى عليه السلام، ثم حصل الفساد فجاء محمد ﷺ، فحقبة الخير سبقت حقبة الشرّ، وهذا هو الفارق بين نظرية الفلاسفة ونظرية القرآن فيما يتعلق بتطور الدين. فمرحلة الحسنات سبقت مرحلة السيئات عند القرآن، ولكن الفلاسفة يرون أن مرحلة السيئات سبقت مرحلة الحسنات.

أما المفهوم الفردي لهذه الآية فهو أننا هدينا الإنسان وزودناه بقوى عالية للترقي في الخير، ولكنه حين يسيء استعمالها يتردى أسفل سافلين. بمعنى أنه في الحالتين يسبق المخلوقات الأخرى، فإذا مال إلى الخير سبق فيه المخلوقات كلها، وإذا تردى إلى السيئة سبق فيها المخلوقات كلها. فكأن الله تعالى قد جعل الإنسان مجموعة من الأضداد، فإذا عمل الخير سبق جميع الخلائق، وإذا عمل الشر صار أسوأ من الكلاب والخنازير. وبتعبير آخر إذا ترقى سبق الملائكة، وإذا تردّى أصبح دون الشياطين. فقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى الكفاءات الكامنة فيه، وأما قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فإشارةٌ إلى ظهور تلك الكفاءات عمليًا. فالمعنى أن كلّ ما زوّد الله الإنسانَ به من قدرات هو خير، ولكن ظهورها العملي يكون بطريقين، إما أن يصبح مؤمنًا أو كافرا، وإذا صار مؤمنًا بلغ الذروة، وإذا صار كافرا سقط إلى الدرك الأسفل.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٧﴾

التفسير: لقد استثنى الله تعالى هنا بعض الناس، فقال إن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات دائمًا لا نردّهم أسفل سافلين؛ لأنهم يسيِّرون فطرتهم في الطريق السليم، ويستعملون قواهم في محلها.

وهنا سؤال: لماذا قدّم الله تعالى قوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ على قوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عند بيان قوله ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؟

الجواب أن الإيمان والعمل الصالح اسم آخر للاستعمال السليم للقوى الفطرية، فمَن آمن بأحكام الله وعمل الصالحات بحسبها فإنه يسلك في الواقع طريق الفطرة، فيحظى بنعمة الدين ويتمتع ببركة الإيمان والعمل الصالح، فكان ضروريًا أن يذكره الله تعالى ذكرًا منفصلاً بقوله ﴿إلا﴾، ليميّز بين الذين يُرَدّون أسفلَ سافلين وبين الذين يحسنون استعمال كفاءاتهم الفطرية.

أما السؤال: لماذا ذُكر الذين رُدّوا إلى أسفل سافلين قبل الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فجوابه أنه لما كان هؤلاء قد نسوا غاية خلقهم فكان لزامًا -عند بيان أن الله خلق الإنسان معتدل القوى وأودعَ فطرته قوة الخير والفلاح- أن يزيل الله تعالى هنا شبهة وهي: إذا كان الإنسان خُلق في أحسن تقويم فلماذا يكون بعض الناس سيئين؟ فأجاب الله على ذلك أننا خلقنا الإنسان لهذا الغرض بلا شك، ومع ذلك يشوّه البعض فطرته ويسيء استعمال الكفاءات التي منحه الله إياها، وهكذا يتردى من مقام الرفعة ويسقط في الحضيض، ويصبح وصمة عار على جبين الإنسانية، وهذا ذنبه هو لا ذنب الذات الإلهية. وبعد ذلك قال الله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.. وهكذاه استثنى من الأولين مَن آمن وعمل الصالحات، مبينًا أن الذين يحافظون على أحسن تقويم سالكين طريق الفطرة السليمة يشرّفهم الله تعالى بنعمة الإيمان ويوفقهم للصالحات. وكأن الله تعالى يقول إن الإيمان والعمل الصالح يواكبان الفطرة السليمة، فالذين يفسدون فطرتهم ويسيئون استعمال قدراتهم يسقطون أسفلَ سافلين، لكن الذين يسلكون طريق الفطرة والطبيعة ويحسنون استعمال قدراتهم ولا يشوِّهون فطرتهم فيُعطَون نعمة الإيمان أيضا ويوفَّقون لصالح الأعمال، ومثل هؤلاء لا يردون أسفل سافلين، بل ينالون من الله تعالى أجرًا غير مقطوع. وهكذا فإنهم يستحقون نعم الله تعالى على الدوام نتيجة عِلمهم الصحيح واستعماله الصحيح. فقوله تعالى ﴿آمَنوا﴾

إشارةٌ إلى العلم المناسب للحال، و﴿عَمِلُوا الصالحات﴾ إشـارة إلى الاسـتعمال الصحيح للعلم، أي العمل الصحيح. وهذان هما الأمران اللذان يساعدان على الرقي الروحاني.

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

يُكذِّبك: كذَّبَه: نسبَه إلى الكذب؛ قال له أنت كاذب؛ جعَله كاذبا. (الأقرب)

الدِّين: الجزاءُ؛ المكافأةُ؛ الطاعةُ؛ الحسابُ؛ القهر والغلبة والاستعلاء؛ والسلطانُ والمُلك والحُكم؛ والتدبيرُ؛ الاسمُ لجميع ما يُعبد به الله؛ الورعُ؛ المعصيةُ؛ الإكـراهُ؛ الملةُ؛ العادةُ؛ والقضاء؛ والحال؛ والشأن. (الأقرب)

التفسير: يرى الزمخشري صاحبُ الكشاف أن قوله تعالى ﴿فمَا يُكَذِّبُكَ بَعْـدُ بِالدِّينِ﴾ يعني: رغم هذه الأدلة والبراهين ما الذي يدفعك لتكون كاذبـا بإنكـار الجزاء والعقاب؟ فكأن الزمخشري يرى أن الخطاب هنا موجه للكافر، والتكـذيب ليس بمعناه العام، بل هو بمعنى جعْل المرءِ نفسَه كاذبا. هذا المعنى قد قُبـل علـى العموم، ولكنه لا يبدو صحيحا؛ إذ الخطاب هنا للرسول ﷺ، وهذا ما قاله القاضي والفراء أيضا، والمراد: مَن ذا الذي يستطيع أن يكذبك الآن في أمر الجزاء والعقاب (فتح البيان). علمًا أن "ما" تكون مصدرية حينًا، ولغير ذوي العقول حينًا، وبمعنى "مَن" حينًا. وهي ليست مصدرية هنا، بل هي لغير ذوي العقول، أو بمعنى "مَـن" (المنجد). فلو اعتبرناها لغير ذوي العقول فالمراد من قوله تعالى ﴿فمَا يُكَذِّبُكَ﴾: ما هو الشيء الذي يكذّبك، وإذا اعتبرناها بمعنى (مَن) فالمراد: مَن هو الشخص الذي يكذبك بعد هذا الدليل؟ أما قوله تعالى ﴿بالدين﴾ فيعني: في أمر الدين، أو في أمـر الجزاء والعقاب، حيث إن الباء في ﴿بالدين﴾ بمعنى (في)، أو بمعناها العـادي، أي: فمَن يكذّبك مستندًا إلى الدين؟ أي بأي دليل يمكن أن يكذبك عدوك، وأي شيء يمكن أن يقدمه عدوك خلافك بعد هذه الأمثلة الثلاث التي ضربناها آنفا، فقد جاء

آدم، فحاربه الشيطان ظنًّا منه أنه سيهزمه، ولكنه انتصر وانهزم الشيطان، ثم جاء نوح وحاربه العدو وبذل كل ما في وسعه لإفشاله ظنًا منه أنه سيهزمه، ولكن نوحا انتصر وعدوه خاب وخسر، ثم جاء موسى فحاربه عدوه بجنوده ولم يدّخر وسعًا لإفشاله، لكن موسى نجح وفشل عدوه. سيقول لك العدو أنت ضعيف ولن تنجح ضدنا؟ أفلا يعلم عدوك أن آدم ونوحا وموسى كلهم كانوا ضعفاء، وكان أعداؤهم الأقوياء يظنون أنهم هم المنتصرون، ولكن هؤلاء الأنبياء انتصروا عليهم رغم ضعفهم، فكيف يمكن ألا تنتصر على عدوك رغم ضعفك؟ سيقول لك العدو أنت عديم الحيلة، فنحن الغالبون عليك حتما، ولكن ألا يرى عدوك أن آدم ونوحا وموسى أيضًا كانوا عديمي الحيلة ومع ذلك صاروا غالبين على أعدائهم؟ فمَن يمكنه أن يشكّ -بناءً على الدين الحق- في جزائك وهلاكِهم بعد هذه الأمثلة؟ أو أي دليل يمكن أن يشككهم بعد هذه الأمثلة في أمرك؟ إن أحداث الأنبياء السابقين تدل على صدقك دلالة الشمس في كبد السماء، وكل مَن يتدبر فيها خاليًا من التعصب سيضطر للإقرار بأن الفطرة الإنسانية تصحو في الأخير لتأييد الإنسان فلا يستطيع إنكار الحقّ طويلا. لقد نجح الأنبياء السابقون في هدفهم بمساعدة سلاح الفطرة، وهذا السلاح نفسه سيكتب لك النجاح في مهمتك، فمهما عارضك العالم ومهما نَسج المؤامرات، فإن الفطرة السليمة سوف تقف لنصرتك في النهاية فتكون أنت الغالب وسيهلك عدوك ذليلا مهانًا.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ هو: كيف يمكن - رغم وجود هذه الأمثلة الثلاثة- إنكار دين الله.. أي الدينِ المبني على وحي الله؟ وفي هذه الحالة يكون الدين بمعنى الشريعة لا بمعنى الجزاء والمكافأة، ومفهوم الآية: من ذا الذي ينكرك في أمر الدين بعد هذه الأدلة؟ فما داموا يؤمنون أن آدم ونوحا وموسى -عليهم السلام- قد تلقّوا الوحي وأتوا الناس بدين الله، فكيف يمكنهم أن يقولوا أن الله لا يوحي إلى أحد الآن، أو أنه لا يمكن أن ينزل أي دين لهداية الناس.

والمعنى الثالث لهذه الآية هو: هل هناك بعد هذه الدلائل برهان ديني يمكن أن يقدِّم خلافك؟ فلو تدبروا الأمر لوجدوا أنهم لن يجدوا لتكذيبك أي برهان ديني، لأن سنة آدم ونوح وموسى موجودة قبلك، والبراهين التي دلت على صدق هؤلاء الأنبياء سوف تؤكد صدقك أيضا باليقين. لا يمكنهم تكذيبك إلا بدليل لا يسيء إلى أنبيائهم الذين يؤمنون بهم، ومثل هذا الدليل ليس بأيديهم، أما حججهم التي اختلقوها بعقولهم الفاسدة فلا تخالفك وحدك فحسب، بل تعارض الأنبياء السابقين أيضا.

والمعنى الرابع لهذه الآية هو: هل يظن بعد ذلك أحد أنه يمكن أن يكذبك بتدبيره وكيده؟ والدين في هذه الحالة يكون بمعنى التدبير. فالله تعالى يقول لرسوله الكريم: هل يمكن أن يتصور أحد بعدما أظهرنا لك من آيات عظيمة أنك ستنهزم وأن عدوك سينتصر؟ فكم مِن كيد كاده العدو ضد آدم! وكم من حيلة احتالها أعداء نوح! وكم من جهد بذله فرعون وأعوانه لهزيمة موسى! ومع ذلك كان مآلهم الفشل و لم تنفعهم مكائدهم شيئا. فكيف يفكر أعداؤك يا محمد أنهم سيصبحون غالبين عليك بمكائدهم وتدابيرهم!

والمعنى الخامس لهذه الآية هو: من ذا الذي يستطيع أن يخالفك متمسكًا بالتقوى؟ والدين في هذه الحالة يكون بمعنى الورع الذي يعني التقوى والروحانية، ومفهوم الآية: مِن المحال أن يعارضك أحد وهو خاشعٌ لله وخائفٌ عقوبته وسالكٌ سبل التقوى والروحانية. إنما ينبري لعدائك أصحاب الطبائع السيئة الزائغة الذين ليس في قلوبهم ذرة من الورع والتقوى، إنما بعُدوا عن الصلاح والروحانية بُعدًا كبيرًا.

والمعنى السادس لهذه الآية هو: من ذا الذي يستطيع أن يكذبك الآن بالإكراه! أي بعد رؤية مصير الأنبياء السابقين. مَن مِن أصحاب النوايا السيئة يقدر على مقاومتك بسلاح الجبر والإكراه ظنًا منه أنه سيصلحك بالضرب والأذى! إن أعداء الأنبياء السابقين أيضًا هددوهم بالضرب والقتل، فمتى نفعهم الإكراه؟ كلا، لم ينفعهم إكراههم شيئا، و لم يمنع جبرهم انتشار دين الله، فكيف يفكر أعداء الحق

الآن بعد هذه الأمثلة أنهم سينجحون في تحقيق مقصدهم بالجبر والإكراه! كلا، بل لا بد أن ينتشر دين الله تعالى ويصبح الإسلام غالبًا في الدنيا ولن يحول في سبيل ازدهاره ورقيه عائق.

أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٩﴾

التفسير: أي: ألا يدرك هؤلاء بعد كل ما قدّمنا لهم من أدلة ونصائح أن الله هو أفضلُ مَن يحكم لا غيره، فإذا حكم بأمر فلا تقدر أكبر قوة في العالم على منعه. لقد حكم الله تعالى أن ينجح آدم فنجح، وقد قرر ﷻ أن يصبح نوح غالبًا على عدوه فصار غالبا، وقد أراد ﷻ أن ينجح موسى فنجح، وقد قرر الآن أن يرتقي محمد ولسوف يرتقي ويتقدم، ولن تقدر الدعاوى الفارغة لأهل مكة أن تغيّر هذا القدر، بل سترى الدنيا أن الحكم الأخير بيد الله تعالى.

سورة العلق

مكية وهي عشرون آية مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية بلا خلاف (فتح البيان). وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن الوَحي الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النوم، وَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ؛ فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. قَالَ: فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ يَا خَدِيجَةُ، مَالِي، فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ؛ قَالَ: وَقَدْ خَشِيتُ عَلَيَّ. فَقَالَتْ لَهُ: كَلاَّ، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حتى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، فَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ الإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ- فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَيْ ابْنَ عَمٍّ، اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى. فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عيسى عليه السلام. يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا

أَكُونَ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ. وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ. وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا. فَيُسْكِنُ ذَلِكَ جَأْشَهُ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلامُ، فَيَرْجِعُ. فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَترةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ. فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري.

هذه الرواية عن بدء الوحي وردت في مسند أحمد بن حنبل، كما أن الإمام البخاري قد نقلها في صحيحه في أول كتابه في باب كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ، كذلك ذكره البخاري في كتاب التعبير، ولكن بين رواية البخاري ورواية أحمد فروقًا، هي:

الفرق الأوّلُ: أنه قد ورد في مسند أحمد أن خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، بينما ورد مكانه في البخاري في باب بدء الوحي: وتكسب المعدوم، أي تكسب المحاسن المعدومة من الدنيا، بمعنى أنك تتحلى بأخلاق فاضلة لا يتحلى بها أهل الدنيا.

والفرق الثاني: أن البخاري لم يذكر في باب بدء الوحي أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي، أي أن ورقة بن نوفل كان يترجم الكتاب المقدس من العبرية إلى العربية، ويملي على أحدهم. علمًا أن اللفظ الأصلي هو: "كان يكتب"، ولكنه كان قد عَمِيَ، فلذا المراد من "كان يكتب".. أي يستكتب، أو أنه كان يكتب قبل أن يصاب بالعمى.

والفرق الثالث: أنه قد ورد في رواية مسند أحمد أن رسول الله ﷺ حاول إلقاء نفسه من قمة الجبل مرارا، ولكن البخاري لم يذكر هذا في باب كيف كان بدء الوحي.

غير أنه قد ذكر كل هذه الأمور في كتاب التعبير، حيث ورد هنالك: "وتصدُق الحديث"، وأيضًا "وكان يكتب الكتاب العربي" وأنه حاول ﷺ إلقاء نفسه من قمة الجبل.

والفرق الرابع: أنه ورد في رواية مسند أحمد: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عيسى عليه السلام"، بينما ورد في رواية البخاري "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى موسى عليه السلام".

ورغم هذه الفروق البسيطة فإن الحديث هو هو في المصدرين، وبناءً على هذا الحديث قال الشرّاح والمفسرون أن هذا هو أوّلُ وحي نزل على رسول الله ﷺ. فقال ابن كثير: "أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أوّلُ رحمة رحم الله بها العباد، وأولُ نعمة أنعم الله بها عليهم". (تفسير ابن كثير)

وأود أن أبين هنا -ضمنيًا- أن البعض يخطئ في فهم ما ذكر الله تعالى في القرآن من محاسن الأنبياء، فيظنون أنها خصوصياتهم التي كانوا يمتازون بها عن الجميع. وهذا ليس صحيحا، لأن من أساليب الكلام أنك إذا ذكرتَ ميزةً لشخص فلا يعني أنه قد سبق فيها العالَمَ كله، بل المراد أنه سبق في تلك الميزة أهل زمنه وأهل قومه وقبيلته. فمثلاً لا يقول ابن كثير هنا في وصف أولِ آيات نزلت على النبي ﷺ: "هن أول رحمة رحم الله بها على الأمة المحمدية"، بل قال: "هن أولُ رحمة رحم الله بها العباد، وأولُ نعمة أنعم الله بها عليهم"، مع أن الواقع أنه قد سبق أن أنزل الله تعالى قبل وحي القرآن كلامه على عيسى وأنزل الكتاب على موسى وأنزل صحفه على إبراهيم عليهم السلام. فالحق أن هذا التعبير هو مجرد أسلوب عام من أساليب الكلام، ويعرف المتكلم أن السامع ليس جاهلاً بل يدرك أنه يتحدث عن أهل هذا الزمن فقط، ولن يفهم من ذلك أنه يفضّل صاحب هذه الميزة على كل الناس من آدم إلى يوم القيامة. وبالمثل حين يذكر القرآن الكريم مزايا بعض الأنبياء فيجب أن ندرك أنه يتحدث عن تميُّزهم عن أهل عصرهم وليس عن أهل الدنيا كلهم، ومثال قول ابن كثير المذكور آنفا، حيث اعتبر نزول القرآن أول نعمة وأول رحمة على العباد، مع أنه قد سبق نزولَ القرآن ما جاء به موسى

وعيسى وإبراهيم من وحي الله تعالى للعباد، فابن كثير حين يقول إنها أول رحمة وأول نعمة نزلت للعباد، فإنما يقصد أنها أول نعمة وأول رحمة للأمة المحمدية.

ويقول ابن عباس: هي أوّلُ ما نزل من القرآن. كما يقول أبو موسى الأشعري: هذه أول سورة أُنزلتْ على محمد رسول الله ﷺ. وقد روي مثله عن عائشة رضي الله عنها. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن، ثم بعده ن والقلم، ثم المزمل ثم المدثر. (فتح البيان، والخازن)

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِه عن رسول الله ﷺ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِن السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ.. إِلَى قَوْلِهِ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ. (البخاري، بدء الوحي)

وبين هاتين الروايتين اختلاف في بادي الرأي، حيث قيل في الرواية السابقة المذكورة في تفسير "الخازن" أن أول ما نزل بعد سورة "اقرأْ" هو سورة "ن والقلم" ثم "المزمل" ثم "المدثر"، بينما يبدو من رواية البخاري أن أول ما نزل بعد "اقرأْ" هو سورة المدثر.

والحق أنه ليس ثمة اختلاف، وإنما نشأ هذا الظن لعدم فهم أمر هام. ذلك أن الناس يظنون عادة أنه بعد نزول قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فتر الوحي، مع أن رواية البخاري لا تقول أن فتور الوحي بدأ بعد سورة "اقرأْ" فورًا، إذ ورد فيها أن الوحي نزل على النبي ﷺ، ثم بعد فترة تُوفّيَ ورقة بن نوفل، ثم تذكر هذه الرواية فتور الوحي، ولكنها لا تذكر ما حدث بين الأمرين. ولما كانت قضية فترة الوحي قضية هامة فذكرتها هذه الرواية، ولكن هذا لا يعني أن الوحي فتر بعد "اقرأْ" فورًا، بل يبدو أن الوحي قد نزل بعد (اقرأ) أيضًا، ثم فتر، وهذا هو الأقرب إلى العقل. ذلك أن قول الله تعالى لرسوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الّذِي عَلّمَ بِالْقَلَمِ * عَلّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، لم يتضمن أي حكم، والسؤال: ما هو الحكم الذي أمر الله رسوله أن

يقرأه على الناس؟ فلفظ ﴿اقْرَأْ﴾ يدل بوضوح أن هناك أحكامًا كان على النبي ﷺ أن يقرأها على الناس، وكان من المفروض أن تنـــزل هذه الأحكام بعد سورة ﴿اقرأْ﴾ التي لم تتضمن أي أحكام، وبالفعل قد نزلت هذه الأحكام في السور التي نزلت بعد سورة ﴿اقرأْ﴾ وهي سورتا: ن والقلم، والمزمل، ثم فتر الوحي بعض الوقت، ثم بعد ذلك نزلت سورة المدثر.

وليكن معلوما أن النبي ﷺ لم يعن بقوله "ما أنا بقارئ" أنه ﷺ لا يستطيع قراءة كتاب، إذ لم يكن هناك كتاب عند وقوع الحادث. لا شك أنه قد ورد في رواية أنه كان بيد جبريل قطعة قماش مكتوب عليها بعض الكلام، ولكن لا تذكر تلك الرواية أنه قدّم ذلك القماش للرسول ﷺ وقال له: اقرأْ ما فيه، مع أنه قد ورد في تلك الرواية نفسها أن الرسول ﷺ سأل جبريلَ: وما أقرأُ؟ (الدر المنثور). فلو أن جبريل كان قد قدّم له ﷺ القماش قائلا له: اقرأْ، لما قال ﷺ: ماذا أقرأُ؟ فالحق أن النبي ﷺ لم يقل "ما أنا بقارئ" إلا تواضعًا. لقد خاف ﷺ وفكر ما إذا كان سيقدر على حمل مسؤولية النبوة على ما يرام أم لا. وهذا هو حال الأنبياء جميعًا إذ قد ورد في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام لَمّا أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾(القصص:٣٥).. أي إني أخاف ألا أستطيع التعبير جيدًا، فأقصّر في أداء واجبي. هذا ما يذكره القرآن عن هذا الحادث، أما التوراة فلا تذكر أخاه هارون، بل تقول إن الله تعالى لما عهد إلى موسى النبوة قالَ موسى: يا ربُّ! أَرْسِلْ أحداً غَيري (الخروج٤: ١٣) .. أي لستُ أهلاً لهذه المهمة، فاخترْ لها مَن تشاء غيري. فأرسل الله تعالى هارون مع موسى بالتماس منه، ولكنا نرى أنه لما ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل أربعين يومًا لم يستطع هارون رعاية القوم على ما يرام، فوقعوا في الشرك وعبدوا العجل رغم نهيه إياهم (الأعراف:١٤٣-١٥١)، وهكذا أخبر الله موسى عليه السلام أن انتخابنا هو الصحيح. لقد انتخبتَ هارون، ولكن انظرْ كيف فشل في رعاية القوم.

باختصار، عندما يُعهَد أمر النبوة إلى إنسان عظيم فإنه يخاف ويتردد بطبيعة الحال مخافة أن يقصّر في القيام بواجبه. لقد كان عند رسول الله ﷺ حياء وانكسار

وخوفٌ نظرًا إلى عظمة المهمة، كما كان عنده إدراك بعظمة الله واستغنائه، فشدةُ الأدب والتعظيم مَنَعَه من أن يقول لله تعالى أنه لا يصلح لهذه المهمة فالأفضل أن يأمر بها غيره، فلذلك قال لجبريل على سبيل الاستغراب: "ما أنا بقارئ"، مع أنه لم يكن قد أُمِرَ بقراءة شيء في ذلك الوقت. الواقع أنه مجرد أسلوب أدبٍ جمٍّ اتبعه الرسول ﷺ للتعبير عن مشاعره. لقد أدرك أن الإنكار المباشر سيكون عصيانا لأمر الله تعالى، بل لو قال إنه ليس أهلاً لهذه المهمة لكان خلاف الأدب والتعظيم؟ فالطريق الذي اتبعه هو أنه قال: "ما أنا بقارئ"، أي لست من أهل العلم فماذا أستطيع فعله؟

والملاك نفسه قد أكد في النهاية أنه لم يُرِد من الرسول ﷺ القراءة، إنما أراد منه أن يردد وراءه ما يقول. علمًا أن مِن معاني القراءة ترديد الكلام أو قراءة شيء مكتوب، فلم يَعْنِ الملاك بقوله ﴿اقرأْ﴾ أن يقرأ النبي ﷺ كلاما مكتوبا، إنما أراد أن يردد النبي ﷺ وراءه ما يقوله، فلما ردد النبي ﷺ وراءه تلك الكلمات تحقّقَ هدف جبريل، فتركه وذهب.

إن بدء الوحي مسألة هامة، وكما قال ابن كثير عن أول ما نزل من آيات القرآن: "هن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم". فلا شك أن أُولى آيات هذه السورة ذات أهمية قصوى من حيث إنها بمنـــزلة البذرة والنواة للقرآن الكريم، فبعد نزولها نزل سائر القرآن. لا شك أن كل القرآن ذو أهمية كبرى، ولكن لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أهميةٌ بالغة من حيث المشاعر والعواطف، حيث يصاب جسم الإنسان برعدة حين يفكر أن هذه هي الآيات التي عرّفني الله تعالى بها قرآنه. ومثال هذه الذكرى القرآنية كمثال صديقين يلتقيان بعد فترة فيتحدثان بشوق عن بداية صداقتهما، أو كمثال زوجين يتحدثان عن بداية زواجهما بشوق. فإذا كانت الأحداث المادية البسيطة تكتسب هذه الأهمية بحيث يستمتع المرء بذكراها، فما بالك بأهمية تلك الآيات وعظمتها التي بدأ الله بها آخرَ وحيه التشريعي الذي ستظل البشرية تهتدي به إلى يوم القيامة، والذي قد تحققت به الغاية من خلق الإنسان، والذي حظي به بقرب الله تعالى،

والذي كان همزة الوصل بين الخالق والمخلوق؟ فكما يتحدث الزوجان بشوق عن بداية زواجهما والصديقان عن بداية صداقتهما، كذلك فإن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ كلمات إذا قرأها الإنسان رقص قلبه حبًا، ولمعت عيناه بريقا وهاجت مشاعره الراقدة، فيقول هذه هي الآيات التي تيسّر لي بها الوصال بربي، ووصل بها الإنسان بربه، وبدأ بها آخر مرحلة من العلاقة التي لا بد منها بين الخالق وعبده.

فثبت أن بدء الوحي حادث بالغ الأهمية يهيّج المشاعر ويحرّك العواطف، ولذلك كان هذا الحادث موضع عناية أعداء الإسلام بوجه خاص، حيث استدلّوا بهذه الآيات والأحداث التي وقعت عند نزولها استدلالاتٍ شتى نيلاً من الرسول ﷺ وتنقيصًا لوحيه. فمنهم من قال إن الوحي افتراء واختلاق، ومنهم من زعم أن حادث الوحي حالة مرض بدليل قول محمد "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي"، ومنهم من قال إنه يدل على مرض محمد وافترائه معًا. ثم اعترضوا على حادث الوحي نفسه محتجّين بقلق النبي ﷺ حينها، فقالوا: أكان محمد يشكّ في وحيه أم في كفاءته، أم كان يتهرب من طاعة الله تعالى؟ ثم طعنوا في نوعية حادث الوحي قائلين: هل كان حادثًا ماديا أم كان حلمًا رآه محمد؟

(The Life of Mahomet, by W. Muir P. 38, 44, 54, 56
A Comprehensive Commentary on The Quran, by Wherry p. 191, 259)

فكل واحد من أعداء الإسلام استنتج مِن حادث نزول الوحي الأول على الرسول ﷺ ما يحلو له. الواقع أن هدف الكُتّاب غير المسلمين من ذكر هذه الأمور ليس إلا إثارة أمر يمثّل هجومًا على القرآن الكريم، ولذلك قال بعضهم كان حادث الوحي الأول مشهدًا ما فوق الطبيعة رآه محمد، ولأن العقل الإنساني ليس قادرا على رؤية مشهد كهذا، فثبت أن عقله كان مختلا نتيجة الجنون، والعياذ بالله. ولكن بعضهم فكّروا أن بعض الناس قد لا يقبلون نظرية الجنون، بل يصدِّقون وقوع حادث كهذا فعلاً، مما سيؤكد مماثلة محمد بأنبياء بني إسرائيل في رؤية الملاك وسماع كلام الله تعالى – وهذا ما لا يطيقه هؤلاء المعارضون– فقالوا: لم يكن هذا

مشهدا ماديًا بل كان رؤيا رآها. لا شك أن هناك روايات في المصادر الإسلامية اعتبرت هذا الحادث رؤيا حيث ورد في سيرة ابن هشام: "حَتّى إذَا كَانَت اللّيْلَةُ التي أَكْرَمَهُ اللّهُ فِيهَا برِسَالَتِهِ وَرَحِمَ الْعِبَادَ بهَا، جَاءَهُ جبْرِيلُ ﷺ بأَمْرِ الله تَعَالَى. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَجَاءَنِي جبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ قُلْت: مَا أَقْرَأُ؟ قَالَ فغَطّنِي به حتى ظَنَنْتُ أَنّهُ المَوْتُ، ثُمّ أَرْسَلَني فقَالَ: اقرَأْ. قَالَ: قُلت: مَا أَقْرَأُ؟ قَالَ فَغَطّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْت أَنّهُ الْمَوْتُ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فقَالَ اقرَأْ. قَالَ قُلْت: مَاذَا أَقْرَأُ؟ قَالَ فغَطّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْتُ أَنّهُ الْمَوْتُ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ اقْرَأْ. قَالَ فَقُلْت: مَاذَا أَقْرَأُ؟ مَا أَقُولُ ذَلِكَ إلّا افْتِدَاءً مِنْهُ أَنْ يَعُودَ لِي بمِثْلِ مَا صَنَعَ بِي، فَقَالَ ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اقْرَأْ وَرَبّكَ الْأَكْرَمُ * الّذِي عَلّمَ بالْقَلَمِ * عَلّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قَالَ فَقَرَأْتُهَا، ثُمّ انْتَهَى، فَانْصَرَفَ عَنّي وَهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، فَكَأَنّمَا كُتِبَتْ في قلبي كِتَابًا." (سيرة ابن هشام: مبعث النبي ﷺ)

هذه الرواية تذكر النوم صراحة، وهؤلاء الخصوم يبنون على هذه الرواية معتبرين الحادث حلمًا رآه محمد ﷺ. ذلك أن التوراة تدّعي أن الإنسان يرى ملاك الله وجهًا لوجه فيبلّغه كلام الله، ولو أثبت هؤلاء أن محمدا لم ير أي ملاك، إنما كان هذا الحادث مجرد حلم رآه فلم تثبُت مشابهته ﷺ بأنبياء التوراة. لا شك أنه قد ورد في رواية البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- صراحةً أن رسول الله ﷺ رأى جبريل رأي العين، لكن لما كانت هذه الرواية خلاف أهدافهم فلم يــأخذوا بها، بل بنوا على رواية ابن هشام، وقالوا إن محمدا لم ير في حراء أي ملاك وإنما رأى حلمًا، ولو سلّمنا جدلاً أنه رأى هذا الحلم فعلا، فليس بينه وبين أنبياء إسرائيل شبهٌ، إذ كانوا يرون ملائكة الله وجهًا لوجه، أما محمد فرأى مجرد حلم وليس الملائكة.

أما الذين ركزوا على تهمة اختلال عقل النبي ﷺ، فإنهم أهملوا رواية ابن هشام مستدلين برواية البخاري ومسند أحمد، التي تقول أن الرسول ﷺ رأى ملاكا. فيقول هؤلاء أن العقل الإنساني لا يمكن أن يرى مثل هذا المشهد، مما يدل على أن عقله (ﷺ)كان قد اختل والعياذ بالله.

وأيًا كانت نيّات الكُتّاب الغربيين، فأرى أن السبب الحقيقي لاختلافهم هنا أنهم لا يستوعبون حقيقة المشاهد الكشفية. لقد ابتعدوا عن الدين بعدًا كبيرًا، فلا يرون المشاهد الكشفية إلا نادرًا، بل لا يرون الأحلام إلا قليلا. لا شك أن من سنة الله أن يُري المنامات لكل شرائح الناس، ومع ذلك يوجد بين الغربيين مَن لم ير حلمًا واحدا في حياته كلها، ذلك أن هؤلاء يعملون وقت النهار، وبالليل يرقصون ثم ينامون بعد شرب الخمر وتناوُل المنوّمات، فلا يرون حتى تلك الأحلام التي قال عنها المسيح الموعود عليه السلام إن المومسات أيضًا يمكن أن يرينْها (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ٥)، ذلك أن سكر الخمر يعطِّل عقول هؤلاء الغربيين تماما. فأرى سبب اختلافهم في هذه القضية راجع إلى عدم استيعابهم للمشاهد الكشفية، إذ لا خبرة لهم بهذا العلم فينخدعون. إنما الواقع -كما يعرف أهل التجربة- أن المرء يشعر في حالة الكشف بحالة من الغفوة بحيث يشعر أنه قد جُذب من هذا العالم إلى عالم آخر. إنه يرى حوله كل شيء، فهو يرى جدران البيت وأثاثه، ومع ذلك يشعر أنه قد أُخِذَ بعيدًا عن هذا العالم المادي، عند زوال هذه الحالة غير العادية يشعر أنه قد عاد إلى حواسه. ومثال هذه التجربة أنك حين تحرّك مؤشر المذياع من محطة إلى محطة تشعر في البداية وكأنك قد جُذبت من عالم إلى آخر، وعند زوال هذه الحالة تشعر فجأةً أنك قد رجعت من العالم الآخر إلى هذا العالم. والحق أنه لولا هذه الحالة في الكشف لم يدرك الإنسان ما إذا كان المشهد الذي رآه من الله تعالى أم من نسج خياله. فلأنها لا تكون حالة نوم كامل فيمكن القول إنه قد رأى هذا المشهد يقظةً، ولأنه يكون في هذه الحالة من اليقظة تحت تصرُّف معين فيمكن القول إنه قد رأى ما رأى وهو في حالة نوم. وإنني صاحبُ خبرة في هذا المجال، فلا أرى في هذا الحادث أية غرابة. فإن ما رآه الرسول ﷺ لم يكن مشهدًا ماديًّا، ولكن بما أن حواسه المادية كانت تعمل عندها أيضا، فيمكن أن نسمي حالته حالة يقظة. والحق أن الكشف يكون ما بين النوم واليقظة، ولذلك قال النبي ﷺ مرة: إني رأيت هذا المشهد وأنا يقظان، وقال مرة أخرى: إني رأيت هذا المشهد وأنا نائم. وأصحاب الكشوف الروحانية يستخدمون مثل هذه

التعبيرات دائما، فيقول أحدهم تارةً: فاستيقظتُ بعد رؤية هذا المشهد، وهو يعني أنه خرج من حالة الإغفاء إلى حالة عادية؛ وتارةً أخرى يقول: رأيت كذا وكذا وأنا يقظان، وهو يعني أن حواسه المادية أيضًا كانت تعمل حينها. فثبت أن لا اختلاف بين الأمرين، وإنما أخطأ الكُتّاب الأوروبيون لعدم فهم حقيقة الكشوف.

وأما ما ورد في رواية أحمد والبخاري بأن ما رآه النبي ﷺ هو رؤيا، فيمكن حلّ هذا الإشكال بطريق آخر، ذلك أنه لا يُذكَر لفظ المنام والرؤيا أحيانًا مع أن المقصود هو الرؤيا، كقول يوسف عليه السلام لأبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف:٥)، فإنه لم يذكر هنا لفظ حلم أو منام أو رؤيا، وإنما قال ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، غير أن الآية التي تلتها تصرح أن يعقوب عليه السلام لما سمع قول يوسف قال له: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾. فترى أن المشهد يبدو ماديًا في الآية الأولى، ولكن الآية الأخرى أكدت أنها رؤيا. فثبت أن هذا من الأساليب البيانية في العربية، وليس في ذلك أي دليل على أي اختلاف في الحادث. الواقع أن اللغات تختلف من حيث التعابير، وتستخدم اللغة العربية لمثل هذه المشاهد كلمة (الرؤيا) التي تعني لغةً: الرؤية والمشاهدة، وتعني اصطلاحًا: المشهد الذي يراه المرء في المنام، ولكن اللغة الفارسية تستعمل للرؤيا كلمة (خواب) التي معناها النوم، وهذا الفرق يدل على فضل العربية أيضا، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الرؤيا بمعنى الحلم في كل مكان، تنبيهًا للناس إلى أن حالة اليقظة الحقيقية إنما هي تلك التي يكلّم فيها الإنسان ربه، وإنْ كان عندها -في الظاهر- في حالة نوم أو إغفاء. ولكن الفرس لم يكن عندهم هذه المهارة البيانية، فاستعملوا للرؤيا كلمة (خواب) التي معناها النوم.

إذن، فإذا كان النبي ﷺ قد قال في موضع إني استيقظت بعدها من النوم، وقال في موضع آخر: لقد رأيت هذا المشهد، فلا اختلاف في ذلك في الواقع، وإنما مثله كما قول يوسف لأبيه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، فإنه لم يذكر هنا لفظ الرؤيا، ولكن يعقوب عليه السلام استعمل لنفس هذا المشهد كلمة الرؤيا التي تُطلق على مشهد يراه الإنسان في النوم. وبهذا المعنى

استعملت عائشة -رضي الله عنها- كلمة الرؤيا في قولها: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوحي الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ" (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي)، حيث وردت هنا كلمة الرؤيا للمشاهد التي يراها الإنسان في النوم فقط. فثبت أن الاختلاف الذي يشير إليه الكُتّاب الغربيّون ليس باختلاف في الحقيقة، بل هو نتيجة لعدم فهم التعبيرات العربية. فإذا كان ما رآه الرسول ﷺ رؤيا فإننا على يقين أنه لم يكن من قبيل الرؤيا التي يراها الإنسان في حالة نوم كامل، ولذلك نجد عائشة -رضي الله عنها- فرّقت بين الحادثين، فمرة قالت: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ"، وعندما تحدثت عن أول وحي قرآني ظهر فيه جبريل قالت: "فَجاءه المَلَكُ". وهذا يعني أن المشهد الذي رآه النبي ﷺ في غار حراء لم يكن من قبيل ما يراه الإنسان في نوم عميق، بل كان كشفًا يراه الإنسان في حالة من الإغفاء.

وأما رواية ابن هشام فالنوم فيها لا يعني نومًا عميقا، بل نومَ كشفٍ، وأما قوله ﷺ: فاستيقظتُ بعد ذلك، فيعني زوال حالة الكشف عنه. إذن، فلا اختلاف بين ما رواه ابن هشام وبين ما ورد في البخاري ومسند أحمد، بل مفهومها واحد.

أما سؤالهم الثاني فهو: أَمَا كان الرسول ﷺ يشكّ في رؤياه هذه؟

واعلم أن الخصوم يبنون سؤالهم على الأمور التالية:

أ- رجوع الرسول ﷺ قلقًا إلى خديجة رضي الله عنها.

ب- قوله ﷺ لخديجة: لقد خشيتُ على نفسي.

ت- محاولته ﷺ لأن يهلك نفسه عندما فتر الوحي كما ورد في البخاري وأحمد.

نقول في الجواب: أن قلق النبي ﷺ وقوله: "لقد خشيت على نفسي" راجعٌ إلى أن كل إنسان عاقل إذا فُوِّضت إليه مهمة، قَلِقَ وخاف ألا يستطيع أداءها على ما يرام. أما الأحمق فإذا عُهدت إليه مهمة قال من فوره بدون أن يفكر في ضخامتها وعواقبها: ليس هناك أي مشكلة. هذا هو الفرق بين الكفء وغير الكفء. إن

الكفء يصاب بالقلق بشأن عمله، أما غير الكفء فلا يكون عنده أي إحساس بمسؤوليته. وفي رأيي أن المهمة التي أنيطت بالجنرال إسكندريا والجنرال مونتغمري واللورد مونت بونتن في هذه الحرب العالمية الأخيرة (الثانية) لو فُوّضت إلى ضابط هندي بسيط وقيل له: هل ستقود الجنود في هذه الحرب لَقال بدون تفكير: نعم، سأنجزها على أحسن وجه. أما هؤلاء القوم فعندما فُوضت إليهم هذه المهمة خافوا من عظم المسؤولية وقالوا لا ندري ما إذا كنا سنؤدي واجبنا على ما يرام أم لا. فخوفُ المرء عند تسلُّم مسؤولية دليلٌ على علمه الكامل، وليس على عدم كفاءته. إن قلق النبي ﷺ عند نزول الوحي وقلقه واضطرابه أمام خديجة إنما يدل على أنه كان يدرك عِظم المهمة. فعندما عهد الله تعالى إلى النبي ﷺ مهمة إصلاح العالم فكّر فورًا: لا أدري هل سأتمكن من إنجاز هذه المهمة الهائلة كما يريدها الله تعالى أم لا. إنّ المهمة التي أنيطت بالنبي ﷺ والتي فُصّلتْ في أول وحي هي كالآتي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. أي أن الله تعالى قال لرسوله الكريم: إن الذين يحملون الأقلام دائمًا، الذين قد اشتهروا بين الناس كعلماء كبار ويفخرون بتجاربهم وسعة رؤيتهم العلمية، عليك أن تعلّمهم تلك العلوم التي لم تخطر ببالهم، وانفعهم بالمعارف التي لم تُذكَر في أي كتاب في العالم. والبديهي أنه إذا قيل لشخصٍ أُميٍّ: لقد ألف الناس كتبًا كثيرة، ولكن ثبت أن لا نفع فيها، ولم تقدر على هداية العالم، فقُمْ أيها الرجل، وعَلِّم الناس بأمرنا ما لم تستطع الكتب الضخمة أن تعلّمهم، أقول إذا قيل له ذلك فلا بد أن يرتجف خوفًا من هول هذه المهمة وصعوبتها. لا شك أن المجنون سيفرح بذلك ويقول: لا مشكلة في إنجازها، ولكن العاقل يخاف ويقول: كيف أقوم بهذه المهمة الصعبة؟ فالواقع أن قول النبي ﷺ: "قد خشيت على نفسي" دليلٌ ساطع على علمه الكامل. لذا نقول لمن يعزو ذلك إلى اختلال في عقل النبي ﷺ -والعياذ بالله- متى يصاب المجنون بالقلق والخوف؟ فإنك لو سألت المجنون: هل تقدر على فتح العالم كله، لأجابك من فوره: أي مشكلة في ذلك؟ ولكن الذي

يكون عنده إحساس بعظم مسؤوليته وأهميتها، والمستعد للتضحية في سبيلها، فإنه سيرتعد ويرتجف مخافة أن يفشل في مهمته لغفلة أو تقصير منه.

وفي تاريخ الإسلام مثال واضح على ذلك. فها هو سيدنا عمر ﷺ قلب العالم رأسًا على عقب في عهد خلافته الممتد ثماني سنوات●، وهزم الفرس والروم، وحما حدود الدولة الإسلامية من كل خطر برباط الجنود عليها، وخدم الإسلام والمسلمين خدمة تبقى خالدة إلى يوم القيامة، ولكن هل تعرف كيف كانت حالة عمر ﷺ بعد أن فرغ من إلقاء الهزيمة النكراء بالروم والفرس وتمزيق هاتين الإمبراطوريتين القويتين بهجمات متتالية بقيادة الجيوش الإسلامية، وبعد أن دوّى اسمُه في العالم كله حيث لم يملك حتى ألد أعداء الإسلام إلا الاعتراف بإنجازاته العظيمة الكثيرة؟ ورد في التاريخ أنه لما حان أجله كان يقول مرة بعد أخرى: "لا عليّ ولا لي" (الطبقات الكبرى لابن سعد).. أي ربِّ إني ضعيف خطّاء ولا أدري كم أخطأت وقصّرت في عملي، وإني نادم على أخطائي وخجول على تقصيراتي، ولا أرى أني أستحق أي جزاء على ما فعلت، فأتوسل إليك أن تحفظني من عذابك.

ما أدلَّ هذه المقولةَ على عظمة عمر ﷺ! لقد فوّض الله إليه مهمة، فأنجزها أروعَ إنجاز حتى لا يسع أعداء الإسلام الغربيين إلا الإقرار بذلك، ومع ذلك كان يخاف الله تعالى ويقول في نفسه صحيح أني قد قمت بهذه المهمة، ولكن ربما كان الله تعالى يريد مني أن أنجزها بأحسن مما فعلت، فلعل ما أراه إنجازا لها لا يكون كذلك عند الله تعالى! ولذلك نجده يقول عند وفاته مرة بعد أخرى رغم إنجازاته العظيمة: رب لا عليّ ولا لي، أي رب لا أريد منك أي مكافأة، بل أريد ألا تعاقبني لأني لم أنجز شيئا و لم أؤد هذه الخدمة كما ينبغي. كذلك لم يقلق الرسول ﷺ بعد نزول الوحي إلا لأنه فكّر أنه ربما لن يستطيع إنجاز هذه المهمة العظيمة الهائلة التي فوّضها الله إليه. فإن ما فعله الرسول ﷺ عند نزول الوحي لم يكن

● هكذا ورد في الأصل سهوًا، والصحيح عشر سنوات إذ كانت خلافته ﷺ من ١٣ – ٢٣ الهجرية. (المترجم)

بسبب الشك في وحي الله تعالى، بل سببُه يقينه الكامل بأن الله تعالى أعظمُ من أن تدرك العقول عظمته، وأنه ﷺ مهما ضحى في سبيل هذه المهمة فلا يدري هل أنجزها كما يريد الله تعالى أم لا. وخوف العبد من عظمة الله ليس جرمًا، بل هو من أعظم الحسنات ودليلٌ ساطع على خشيته المنقطعة النظير لله تعالى.

أما فيما يتعلق بمحاولة النبي ﷺ الانتحارَ، فأولاً: اعلمْ أن الأحاديث الأخرى لا تصدِّق ذلك. وثانيًا: لو سلّمْنا جدلاً بصحة ذلك، فإن من الواضح تمامًا أنه ﷺ فعل ذلك بعدما فَتَرَ الوحي. لو كان في قلبه أدنى شبهة أن الشيطان هو الذي قد نزل عليه -والعياذ بالله- أو أنه ليس كلام الله تعالى، فكان ينبغي أن يفكّر في الانتحار عند نزول الوحي عليه، ولكن الحديث يذكر أنه ﷺ أراد الانتحار بعدما فَتَر الوحي عنه، مما يبين أنه ﷺ خاف أن يكون الله تعالى قد سخط عليه لسبب ما، فترك الكلام معه ولم يُنْزِل عليه وحيه منذ فترة. لو كان ﷺ يشك في نوعية الوحي نفسه فكان ينبغي أن يفرح عند فتوره وانقطاعه عنه، ويقول: الحمد لله بأن قد دُفع البلاء عني. ولكن الروايات متفقة على أن النبي ﷺ أصيبَ بهذا القلق بعدما فتر الوحي عنه، مما يدل أنه لم يكن يشكّ في صدق الوحي النازل عليه، وإنما خاف أن يكون الله تعالى قد سخط عليه لسبب ما.

وأرى لزامًا عليّ أن أذكر هنا أنني قد قدّمتُ تأويلاً لحادث الانتحار لأَرُدّ على طعن الكتاب الغربيين في نبينا ﷺ، بيد أن هذا الحادث مذكور في الأحاديث الصحيحة، لذا لا يمكن إنكاره كليةً. بيد أني أرى أن الناس قد أخطأوا في فهمه فتعثّروا وسبّبوا العثار للآخرين. لقد ظنوا أنه حادث مادي وأن الرسول ﷺ حاول الانتحار فعلاً بإلقاء نفسه من شواهق الجبال، فكان جبريل يناديه ويمنعه من ذلك قائلا إنك رسول الله حقًا، فكان يمتنع ويرجع إلى بيته. الحق أنه ليس حادثًا ماديا، بل هو من الكشوف الروحانية. فكان ﷺ يرى في الكشف أنه يمشي فوق الجبال وأنه يريد إلقاء نفسه من فوقها، فكان الملاك يناديه وينهاه عن ذلك مؤكدًا له أنه رسول الله حقًا.

الواقع أن رسول الله ﷺ كان في تفكير مستمر فيما أنيطَ به من المهام فكان يقول في نفسه مرة بعد أخرى: كيف أؤدي هذه المهمة العظيمة الصعبة! لعلي أقصّر في أدائها فأثير غضب الله علي، فكان الله تعالى يكشف أفكاره عليه في حالة الكشف فكان يرى وكأنه على قمم الجبال ويريد إلقاء نفسه من فوقها، ولكن الملاك كان يناديه قائلا: يا محمد إنك رسول الله حقًا، وستنجح في مهمتك حتمًا، لأن الله هو الذي أقامك لهذا الهدف.

باختصار ليس هذا الحادث ماديًا عندي، بل هو كشْفٌ يصوّر أفكار النبي ﷺ وقلقه بصدد المهمة المناطة به. الواقع أن من رأى في الرؤيا أنه ألقى نفسه مِن فوق جبل وأنه قد سقط فعلاً، فتأويله أنه سيظهر له أمرٌ سيئ يدمّره، ولكنه لو رأى أنه سقط من الجبل و لم يمت، فتعبيره أنه قد ارتكب خطأً كبيرا، أو أنه سيقوم بعمل كبير، فتصيبه صدمة كبيرة، ولكنه لن يهلك. ومن رأى أنه على وشك أن يسقط من الجبل ولكن الملاك يُطَمْئنه، فتأويله أنه سيقوم بعمل عظيم فيه الهلاك في الظاهر، ولكنه لن يهلك بل سيكون النجاح حليفه.

وكما قلت لو اعتبرنا هذا الحادث ماديا فهو دليل على خشية الرسول لربه ﷻ، إذ لم يفعل ذلك عند نـــزول الوحي، بل عند انقطاعه، مما يدل دلالة واضحة أنه خاف أن يكون الله تعالى قد سخط عليه لبعض ما فعل فترك الكلام معه، لكن الحادث ليس ماديا بدليلِ ظهورِ الملاك للنبي ﷺ في كل مرة وتبشيره إياه بالنجاح. والدليل الثاني أن القرآن لم يذكر هذا الحدث مطلقا.

أما ما قال العدو بأن في قول النبي ﷺ لأهله: "زَمِّلوني زَمِّلوني" أي غطُّوني بسرعة دليلاً على إصابته ﷺ بنوبة الهستيريا، فلا شك أنه يدل على جهله بظاهرة وحي الله تعالى. الأمر الواقع الذي يعرفه أصحاب الخبرة في الوحي أنه يستولي على المرء وقت نزول الوحي من خشية الله ما يفكّ كل مفاصله ويهزّ كيانه، ذلك أنه مقام قرب ولا يعرف حال البلاط إلا أهل البلاط. فالحق أن ما حدث هو استيلاء خشية اللهً عليه ﷺ نتيجة قربه منه، وكيف يمكن أن يفهم هذه الحقيقة مَن لا خبرةَ له بالروحانية قطعًا، ومَن هو بعيد عن الله تعالى بُعْد المشرقين. ثم إننا نسأل هؤلاء

الطاعنين: هل المصاب بالجنون يُعرف بتغطية نفسه بالثياب؟ هل الثابت طبيًا أن مَن يغطّي نفسه بالثياب يكون مجنونًا؟ أو هل يسأل الطبيب أهلَ المريض: هل تغطونه بالثياب حين يرى مشهدا كذا؟ فثبت أن استدلال أعداء الإسلام من قوله ﷺ: "زَمِّلوني زَمِّلوني" على اختلال في عقله دليل على حمقهم وغبائهم. لا شك أن النبي ﷺ أصابه القلق عند نزول الوحي، ولكن هذا لم يكن دليلاً على إصابته بخلل روحاني أو عقلي أو مادي، بل كان دليلا على خشيته لله تعالى. لقد رأينا أن أحداثًا بسيطة تصيب الناس بالهلع حتى يتصببون عرقًا، فلو زجر أحدَهم المديرُ على خطأ أو سأله عن قضية، أصيبَ بالرعب وارتجفت فرائصه وتصبّبَ عرقًا. فإذا كان الإنسان يصاب بالرعب من مسؤولين دنيويين عاديين، فما بالك بتأثير عظمة الله وجلاله وجبروته في قلب الإنسان؟ فقوله ﷺ: "زملوني زملوني" دليل أن رعب وحي الله تعالى استولى على قلبه، فأراد أن يستلقي لبعض الوقت لتسترخي أعصابه وترتاح. ونسأل الذين يعتبرون هذا الحادث جنونا: من أين علموا أن تَغطِّي المرءِ بالثياب علامة الجنون؟ لم نسمع قط أن طبيبا قال لأهل مريض وجد فيه آثار جنون: هل يتغطى هذا بالثياب؟ إذا كان يتغطى بها فهو مجنون حتما، وإلا فلا. فاستنتاج الخصوم مِن تغطّي النبي ﷺ بالثياب إصابته بالجنون -والعياذ بالله- لدليل على جنونهم هم.

ثم عليهم أن يروا ما إذا كانت تصرفات النبي ﷺ الأخرى تدل على الجنون؟ الواضح أن صاحب الكفاءات الخارقة يختلف حالاً عن الآخرين، فالذي عنده كفاءة رياضية خارقة يتميز عن ذوي الكفاءة الرياضية البسيطة، وصاحب المعرفة غير العادية بالتاريخ يمتاز عن ذوي المعرفة البسيطة بهذا العلم. والحال نفسه بالنسبة إلى الطب وغيره من العلوم. فأحيانًا يكون المرض بسيطًا في الظاهر فيعالجه الأطباء العاديون علاجا عاديا، ولكن الطبيب الحاذق يدرك بعلمه فورًا أن المرض خطير فيعالجه، أو أحيانًا يكون المرض بسيطا ويعتبره الأطباء العاديون شديدا، لكن الطبيب الحاذق يدرك فورا أن المرض بسيط فيتصرف بحسب ذلك. والحال نفسه بالنسبة إلى العلوم الأخرى، فالعالم العادي تظل معرفته بسيطة، ولكن العالم الفذّ في

مجاله يتوصل إلى أدق تفاصيل الأشياء ويخترع مخترعات جديدة. فالناس يتفاوتون كفاءاتٍ، فبعضهم ذو كفاءة عادية، وبعضهم ذو كفاءة خارقة، وكلاهما يمتاز عن الآخر تماما. ووجود كفاءات خارقة في أحد ليس دليلا على جنونه. فإذا امتاز المرء بكفاءات خارقة عن الآخرين فلا يمكن أن نرميه بالجنون، ومن فعل ذلك فكأنما ادعى أن كل التقدم في الدنيا منوط بالمجانين. أفلا يدل هذا على جنونه هو؟

والسؤال هنا: لماذا خلق الله تعالى العقل في الإنسان؟ إذا كان العقل لإنجاز عمل عظيم، فالذي يأتي بإنجاز عظيم يدل على ذكائه لا على جنونه. إذا كان المرء يختلف حالاً وكفاءةً عن الآخرين فعلينا أن نرى ما إذا كانت حالته الخارقة تتسبب في رقي الإنسانية أم في انحطاطها؟ فإذا كانت تؤدي إلى رقي الإنسانية فلا بد أن نقول أن أحواله الخارقة تدل على رجاحة عقله وخرق ذكائه. أما إذا كانت أحواله تؤدي إلى دمار الإنسانية وخرابها، فلا بد من القول إن اختلاف أحواله دليل على جنونه.

باختصار، إن اختلاف أحوال أحد أو كفاءته الخارقة وحدها ليست علامة على جنون أحد.

واللافت أن العدو يقول اليوم أن أحداث نزول الوحي تدل على خلل في عقل محمد -والعياذ بالله- لكن القرآن قد رد على ذلك في أوائل آياته نزولاً ردًا مفصلاً، وأخبر العالم أن هذا الاعتراض دليل على شدة غباء المعترض. وهذا الرد موجود في سورة (القلم). لقد سبق أن ذكرنا أن المفسرين يقرّون أن هذه السورة قد نـــزلت بُعيد الآيات الأولى من سورة العلق. فهذه السورة تتناول تهمة الجنون نفسها وتعلن أن من الخطأ الظنّ أن محمدا قد أُصيب في عقله. ولا شك أن هذا الذكر لمن إعجاز القرآن الكريم، ولو تدبره غير المسلمين بأمانة لاعترفوا أن هذا الكلام ليس من نسج خيال بشر، بل هو تنـــزيل من رب العالمين. فحتى قبل أن يتّهم العدو محمدًا ﷺ بالجنون بناءً على أحداث نزول أول وحي عليه، عَلِمَ الله تعالى مِن على عرشه أنه سيأتي يوم يتهم فيه العدو محمدًا بالجنون لعدم معرفته بكيفية نـــزول الوحي! فأنزل الله تعالى في الوحي الثاني ردًّا على هذه الشبهة وقال

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(القلم:٢-٣). فهذه ثاني سورة نزلت على رسول الله ﷺ، وقد ردّ الله في بدايتها على الاعتراض الناشئ في قلوب الناس بسبب الوحي، وقال نُقسِم بالدواة والقلم وكلِّ ما كُتب هما في العالم من علوم ومعارف أنه لو جُمع جميع هذا الكلام المسطور لعلمت الدنيا أنه ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. بمعنى أن العلماء إذا كانوا قد جاءوا بهذه العلوم والمعارف التي كتبوها، فقد جئتَ بأكثر من معارفهم، وإذا سُمي هؤلاء علماء رغم علومهم الناقصة، فكيف يمكن أن تُسمّى مجنونا بسبب معارفك التي فاقت معارفهم؟ لا بد أن تسمى أعلم منهم، واختلافك عنهم يرجع إلى زيادة علمك لا إلى نقصانه. والدليل على أنك لست بمجنون أنك ستعلِّم الناس ما لم يعلّمهم أحد من أجل الرقي في الروحانية والدين، وسيكون هذا دليلا على أنك لست بمجنون. وإذا جاز أن تُعَدّ مجنونا، فلا بد من اعتبار جميع من نشروا العلوم والمعارف في العالم وأحسنوا إلى الإنسانية علميا وروحانيا مجانين. وإذا كان الناس لا يعتبرون هؤلاء العلماء مجانين، فبأي دليل يرمونك بالجنون؟ أفلا يرون أنه إذا ألّف أحد كتابا في علم، فلا يعتبرونه مجنونا، بل يسمونه عالمًا فذًّا ذكيًّا حيث بيَّن دقائق ذلك العلم بيانا رائعا، أما أنت فتبيّن في كل علم من العلوم دقائق المعارف التي لم يعرفها كبار علماء تلك العلوم حتى اليوم. وإذا كان الآخرون يُعتبرون علماء بإلقاء ضوء بسيط على علم من العلوم، فكيف تُعتبر مجنونا وقد ألقيتَ ضوءا أكثر منهم في كل علم من العلوم: روحانية أو أخلاقية أو اقتصادية أو قضائية أو سياسية أو عائلية؟ يجب أن يكون هناك سبب لاعتبارك مجنونا. فإذا كنت تفعل ما فعله كبار العلماء فكيف تُتَّهم بالجنون؟ فما أشدَّ هؤلاء الناس غباءً إذ لا يفهمون هذا الأمر الواضح البسيط، إذ شتّانَ بين العقل والجنون وبين العلم والجهل. فما دمتَ توزّع على الناس كنوز العلوم التي لم تخطر ببال كبار العلماء، فلا بد لهم من الاعتراف أنك أعلم العلماء، ولا يجوز لهم أن يتهموك بالجنون أو اختلال العقل. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.. أي أيها الناس، نقدّم كل ما كُتب حتى الآن بالدواة والقلم من علوم دليلاً على صدق محمد

وبراءته من الجنون. تعلمون أن أحدا إذا ألف كتابًا في علم الأخلاق سميتموه عالما كبيرا، وإذا أعد المرء كتابًا حول علم العقائد اعتبرتموه علاّمة، وإذا أتى أحد برأي جديد في السياسة عددتموه من العلماء الأفذاذ، وإذا قدم البعض رؤية جديدة في علم الاقتصاد سميتموه عالــمًا مبدعًا، وإذا ألقى أحد الضوء على علم الاجتماع اعتبرتموه عالما كبيرا، أما محمد فقد أتى بمعارف وعلوم لا مقارنة بينها وبين أي كتاب في أي علم وفنّ. لقد تحطمت الأقلام مقابله، وعَيَّ القومُ في منافسته، لقد أجرى من العلوم أنهارًا، ومنح العالم من المعارف ذخيرة لا تنضب، فلا شك أنكم لو تخلَّيتم عن التعصب لأدركتم أن كفاءته الخارقة ليست دليلا على جهله، بل هي دليل على علمه الخارق وعلى التأييد والهدي الذي يتلقاه من السماء. لا شك أن هناك تشابهًا بين المجنون وبين العبقري، وبين الجاهل المطبق والفهّامة الكبير، حيث يتمتع كلاهما بطاقة غير عادية، لكن الفارق أن أحدهما يتردّى إلى الدرك الأسفل، والآخر يصعد إلى القمة. إن العالم العبقري يعلّم الناس ما لم يخطر ببال كبار العلماء، والجاهل المطبق يأتي ما لا يأتيه كبار الحمقى والجهال. فثبت أن البعض إذا امتاز عن الآخرين بكفاءاته العبقرية، فهذا لا يدل على جنونه، وإنما علينا أن نرى ما إذا كان تميُّزه عن الآخرين ينفع البشرية أم يضرها، وإذا كان ينفع البشرية، فلا يمكن أن يُعتبر تميُّزُه أو تغيُّرُه نتيجة الجنون.

ما أصدقَه وما أروعَه من دليل قدّمه الله تعالى على صدق النبي ﷺ، وقدَّمه في أوائل أيام نزول الوحي! وعندي أنها معجزة قرآنية عظيمة، حيث رد الله تعالى على اعتراض كان سيثيره أعداء الإسلام على وحي النبي ﷺ منذ بدء الوحي في وقت لم يكن ﷺ قد عرض دعوته على أهل مكة بعد، حيث يقرّ الجميع أنه عرض دعواه على أهل مكة بعد نزول أوائل سورة المدثر، أما قوله تعالى في سورة القلم ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فقد نزل قبل سورة المدثر، وبُعيد سورة ﴿اقْرَأْ﴾، وهذا يعني أن الله تعالى قد أخبر رسوله حتى قبل إعلان نبوته أن الناس سيتهمونه بالجنون. ولو افترضنا أن بعض الأعداء اتهم النبي ﷺ بالجنون

بعد نزول أول وحي عليه، فنقول: إن أول ما فعله القرآن الكريم أنه رد على طعنهم هذا ردًا قويًا لا يمكن دحضه.

يقول علماء النفس اليوم إنّ الكفاءة الخارقة علامة الجنون، وقد أجبتُ على هذا فيما سبق، وإذا كان أحد لا يقتنع بجوابي فأقول له: إذا كانت الكفاءة الخارقة هي نتيجة الجنون فنتمنى أن يجعلنا الله تعالى مجانين، لأنه ما دام تقدُّم العالم منوطا بالكفاءة الخارقة التي هي علامة الجنون فثبت أن رقي العالم ليس منوطا بالعقلاء بل بالمجانين، وهم الأحقّ بأن يتأسى الناس بأسوهم.

لقد أثار السير "وليام موير" هنا اعتراضًا فقال: ما دام الله تعالى قد قال لمحمد هنا ﴿اقْرَأْ﴾ فهذا يعني أن السور التي هي في الواقع من قبيل مناجاة محمد مع نفسه كانت قد نزلت قبل سورة ﴿اقرأ﴾. (تفسير القرآن لـــ"ويري")

وبيان استدلاله هو أنه لما قيل لمحمد ﴿اقرأْ﴾ فلا بد أن يكون هناك سورٌ أُمِرَ بقراءتها على الناس، وتلك السور هي تلك التي يحادث فيها محمد نفسه، وهي: سورتا "الليل" و"الضحى" عند وليام موير، إذ يرى أن محمدا (ﷺ) كان يتدبر حالة قومه فصوّرها في هاتين السورتين، ثم ظنّ أنهما وحي من الله تعالى وعليه أن يقرأه على الناس، فاختلق سورة ﴿اقرأ﴾.

والرد على هذا الطعن كالآتي:

أولا: القضية تاريخية ولا علاقة لها بالاجتهاد. فإذا كان التاريخ يؤكد أن هاتين السورتين قد نزلتا بعد ﴿اقرَأْ﴾ فما قيمة القياس والاجتهاد إزاء ذلك؟ لا شك أن بعض الرواة قالوا أن سورة القلم ثم المزمل ثم المدثر هي أول ما نزل بعد سورة ﴿اقرأْ﴾، وقال بعضهم إن أوائل آيات سورة المدثر هي التي نزلت بعد سورة ﴿اقرأْ﴾، لكن لم يقل أحد من الرواة أن سورتي الليل والضحى نزلتا قبل ﴿اقرأْ﴾.

وثانيا: ليس في هاتين السورتين ما يجعلنا نعتبرهما أسبقَ نزولا من سورة ﴿اقرأْ﴾. هل تسجيل الأفكار الواردة فيهما في سورة تليهما كان محالاً؟ الحق أن القياس والاجتهاد إنما ينفع إزاء الشهادة التاريخية إذا كان وقوع حادث ما يستحيل تاريخيا،

أما إذا كان الحادث التاريخي ممكن الوقوع فاللجوء إلى القياس مقابله ليس إلا تنطّعًا، والعلم لا يسمح بذلك.

وجدير بالذكر أنه رغم أن وليام موير يرى أن سورة ﴿اقرأْ﴾ نزلت بعد السورتين اللتين هما في رأيه من قبيل حديث محمد لنفسه، ورغم أن الآخرين اكتفوا بقولهم أنه يبدو أن سورًا نزلت قبل سورة العلق إذ قيل فيها ﴿اقرأْ﴾ - وذلك بدون أن يشيروا إلى السورتين اللتين هما من قبيل حديث النفس بحسب تعبير وليام موير- غير أن المستشرق "نولدكه" وغيره يسلِّمون أن سورة ﴿اقرأْ﴾ هي أول السور نزولاً على الرسول ﷺ، ويقولون: ما دام ثابتًا من التاريخ أن آيات هذه السورة هي أول ما نزل على محمد، فما قيمة الاجتهاد إزاء هذه الشهادة التاريخية؟ (تفسير القرآن لـــ"ويري")

وليكن معلومًا أن ما انخدع به معظم المستشرقين الغربيين هو أن القرآن قد أخبر في بعض سوره عن معارضة الكفار للمسلمين، فظن المستشرقون أن هذا الوحي يجب أن يكون قد نزل بعد المعارضة المشار إليها، فلا يسلِّمون بنـــزوله قبل زمن المعارضة، وبناءً على هذا المبدأ يعتبرون بعض السور المكية مَدَنية أو يقولون عن الآيات التي نزلت في بداية الإسلام أنها نزلت في زمن متأخر حين بدأت معارضة شديدة للإسلام والمسلمين. ولكن وجود المسيح الموعود عليه السلام في هذا الزمن قد كشف بطلان فكرهم تمامًا. عندما كان القرآن ينـــزل ما كان ليخطر ببال الصحابة ولا أي مسلم آخر ما هي المطاعن التي سيثيرها العدو في المستقبل، لأن معظمها قد أُثيرت في هذا الزمن، ونحن الذين نرد عليها، ولم يكن لكثير من هذه المطاعن أي قيمة زمن الصحابة؛ فمثلا لم يكن الصحابة يجدون أي صعوبة في تحديد ترتيب نزول السور، ذلك أن الصحابة كانوا موجودين، فإذا سأل أحد عن زمن نزول سورة قيل له: اسألْ زيدًا أو عمرا أو بكرا أو خالدا، فكان يجد الجواب الشافي فورًا. ولكن حين توفي هؤلاء القوم الذين كانوا قادرين على الإجابة الصحيحة كان طبيعيا أن يتساءل البعض متى نزلت سورة كذا وسورة كذا. فاستغلّ خصوم الإسلام هذا الوضع فحيثما وجدوا في القرآن نبوءةً قالوا لا بد أن

تكون هذه السورة أو الآيات قد نزلت بعد كذا وكذا من الأحداث، مع أنها تكون قد نزلت قبلها بكثير حيث أخبر الله تعالى فيها سلفًا كنبوءة أن بعضًا من كفار مكة يكون مثيلاً لفرعون، وبعضهم مثيلاً لهامان، ويكون محمد مثيلا ليوسف حيث يطرده إخوته من بلدته كما طُرد يوسف من بيته بيد إخوته. وهناك أنباء كثيرة من هذا القبيل في كلام الله الذي نزل على محمد ﷺ وتحققت فيما بعد حرفيًّا، ولكن الصحابة الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم كانوا قد تُوُفّوا، فاستغلّ العدو هذا الوضع، وحيثما وجد نبوءة في القرآن قال فورًا: هذه الآيات أو السور قد نزلت بعد هذه الأحداث. وهذا هو الطريق الذي اتبعه المستشرقون الغربيون لإبطال النبوءات القرآنية إذ يعتبرون الآيات والسور المتضمنة أي نبوءة أنها نزلت فيما بعد، إذ يقولون: لا شك أن الناس يقولون إنها سورة أو آيات مكية، ولكن حيث إنها تتحدث عن الحادث الفلاني الذي وقع في المدينة فثبت أنها ليست مكية، بل مَدنية. وليس غرضهم من ذلك إلا إبطال دعوى المسلمين بأن محمدا ﷺ قد تنبأ بأنباء عديدة وقد تحققت في وقتها، ليثبتوا أن محمدًا (ﷺ) لم يتنبأ بأية نبوءات، وإنما صاغ هذه الآيات وأضافها إلى قرآنه بعد وقوع هذه الأحداث. وما كان الصحابة أحياءً حتى يردّوا على هذا الاعتراض، وما كانت هذه الأسئلة قد أثيرت أمامهم حتى يلقوا الضوء حولها، لكن لم يكن من الرد عليها بُدّ، فحلَّ الله تعالى قضية ترتيب الآيات والسور أيضا ببعثة المسيح الموعود عليه السلام كما حلّ كثيرا من المسائل الإسلامية الأخرى.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم لم يكن يدوَّن أولاً بأول تدوينًا يُعرَف به تاريخ نزول سوره وآياته، ولكن الله تعالى قد بعث المسيح الموعود عليه السلام في زمن انتشرت فيه الكتابة والمطابع على نطاق واسع، فكان كل شيء يُطبَع فورًا ويصل أيدي الناس وأنظارهم بحيث أصبح من المستحيل أن يزعم أحد أنه ما دام كذا وكذا من الوحي يشير إلى كذا وكذا من الأحداث التي وقعت في عام كذا وكذا، فثبت أن ذلك الوحي اختُلقَ بعد الحادث في سنة كذا لا قبلها. باختصار، إن شخص المسيح الموعود عليه السلام شاهدٌ قوي على بطلان طعن المستشرقين.

وتدليلاً على ما أقول أقدّم فيما يلي بعض ما سجل حضرته ﷺ من وحي الله تعالى في كتابه "البراهين الأحمدية":

لقد طُبع "البراهين الأحمدية" في مطبعة يملكها أحد الإنجليز، وقد خرج أول مجلداته إلى النور عام ١٨٨٠ ومجلده الرابع في ١٨٨٤، وبحسب قانون الدولة بُعثتْ نسختان من كل مجلداته إلى الحكومة، بل لا تزال نسختان من هذا الكتاب محفوظتين في مكتبة متحف لندن، فليس بوسع الخصم الآن أن يقول أن زمن إلهاماته ﷺ الواردة في "البراهين الأحمدية" هو بعد عام ١٨٨٤.

عندما نُشر هذا الكتاب كان المسيح الموعود ﷺ معروفا بين الناس ولكن كباحث فقط، وكان يعرفه حوالي ألفا شخص، ولم يكن سبب معرفتهم إياه إلا ما كتبه من كتب أو مقالات ردًّا على ما يثيره النصارى والهندوس وغيرهم من مطاعن ضد الإسلام، أو كان معروفًا بينهم بسبب تقواه وحبه وإخلاصه. خذوا مثلاً "لاله بهيم سين" وكان أحد المحامين الهندوس في سيالكوت، وكان يكنّ للمسيح الموعود ﷺ تقديرًا عظيما. لما رُفعت ضد حضرته ﷺ القضية الشهيرة من قبل الشيخ كرم الدين، قال هذا المحامي الهندوسي لابنه المحامي "لاله كنورسين" -الذي صار فيما بعد عميد كلية الحقوق في لاهور وقاضي المحكمة العليا بجامون وكان قد رجع من إنجلترا بعد دراسة القانون-: إذا كنت تريد أن تنفعك دراستك هذه، فعليك أن تدافع عن حضرة الميرزا مجانا في هذه القضية، فإنه رجل رباني عظيم، وببركته ستكون حياتك ناجحة. (مكتوبات أحمد -بالأردو- المجلد الأول ص ٨٦ طبعة ٢٠٠٨)

فرغم أن هذا المحامي الهندوسيّ كان يعرف أن حضرة المسيح الموعود ﷺ يخوض المناظرات الدينية ضد الهندوس دائما، إلا أنه كان يكن لحضرته ﷺ حبًا وإخلاصا وتعظيما عجيبًا حتى إنه أمر ابنه بالدفاع عن حضرته ﷺ في تلك القضية مجانًا لتكون حياته مباركة موفقة.

وكان المسيح الموعود ﷺ يخوض النقاشات ضد المسيحيين أيضا، ومع ذلك نرى أنّهم كانوا يكنّون له حبًّا وإخلاصا، فحينما كان حضرته يعمل موظفًا في

محكمة بمدينة سيالكوت كان قسيس كبير يدعى "بوتلر" يخوض في المناظرات الدينية مع حضرته، وذات مرة جاء هذا القسيس إلى تلك المحكمة، وحيث إن القسيسين كانوا يحظون باحترام وتقدير كبيرين في ذلك الزمن، ظن قاضي المحكمة أنه جاء للقائه، فقام له وصافحه بأدبٍ جمٍّ وقال: هل من خدمة أُسدي لحضرتك؟ فقال القسيس: لم آت للقائك، إنما جئت للقاء ميرزا غلام أحمد، حيث إني أريد العودة إلى بلادي "إنجلترا"، وإني أكنّ له حبًّا وتبجيلا عظيمين رغم خوضي معه في المناظرات الدينية، فأردتُ أن ألقاه قبل عودتي إلى الوطن. ثم توجه القسيس إلى مكتب المسيح الموعود عليه السلام في المحكمة، وجلس أمامه على الأرض، وظل يحدثه طويلا. (سيرت المهدي -بالأردو- المجلد الأول ص ١٤١ رقم الرواية: ١٥٠ طبعة ٢٠٠٨)

فترى أن هذا القس الإنجليزي الذي يجد قاضي المحكمة شرفًا في لقائه يذهب إلى زيارة المسيح الموعود عليه السلام في المحكمة قبل أن يعود إلى وطنه، مع أن حضرته كان يعمل هناك كاتبًا عاديا، و لم يكن عمره عندئذ كعمرِ أحفادِ ذلك القسيس.

وكان المولوي محمد حسين البطالوي من كبار علماء المسلمين، وعندما ألف المسيح الموعود عليه السلام كتابه "البراهين الأحمدية" علّق عليه البطالوي قائلا:

"في رأيي لم يسبق في الإسلام نظير لهذا الكتاب من حيث مقتضيات هذا العصر وحاجات هذه الأيام، ولا نعلم عن المستقبل شيئًا، لعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا. وقد نصر مؤلفه الإسلام بنفسه وماله وقلمه ولسانه وأسوته نصرة قلما نجد نظيرها في المسلمين السابقين." (إشاعة السنة، يونيو إلى أغسطس ١٨٨٤ المجلد ٦ رقم ١١)

إذا أشاد الناس بكتاب بأنه أعظم كتاب في هذا العام اعتُبر من الكتب القيمة جدا، ولو قالوا إنه لم يؤلَّف في العقد الأخير مثله ازداد قيمةً وصيتًا، ولو قالوا إنه لم يُر كتاب مثله في القرن الماضي كان مدحًا عظيمًا جدًّا، أما المولوي البطالوي فلم يقل عن "البراهين الأحمدية" إنه لم يؤلَّف نظير هذا الكتاب في القرن الماضي أو

القرنين الماضيين، بل قال: لم يؤلف كتاب مثله في فضائل الإسلام من قبل المسلمين منذ ثلاثة عشر قرنا.

باختصار، كان الجميع.. مسلمين وهندوسا.. يثنون على المسيح الموعود ﷺ حتى زمن طبع "البراهين الأحمدية". لا شك أن الهندوس بدأوا يعارضونه ﷺ بعد انتشار هذا الكتاب، أما قبل ذلك فلم يناهضه الهندوس أبدًا، بل كان كثير منهم يكنّون له الحب والإخلاص كما هو واضح مما فعله "لاله بهيم سين"، فكان كثير من الهندوس يراسلونه معترفين بصلاحه وورعه، ولم يكن أحد يتصور حينها أن أحدا سينبري لمعارضته ﷺ؛ لأن الجميع حتى أصحاب الديانات المختلفة كانوا يثنون عليه لعِلمهم أنه صادق لا يكذب أبدا، تمامًا كما كان النبي ﷺ شهيرًا بين القوم بالصدوق الأمين قبل دعواه. باختصار، كل الذين كانوا يعرفونه.. مسلمين أو هندوسا أو نصارى.. كانوا يحترمونه ويبجلونه، أما الذين لم يكونوا يعرفونه فما كانوا يكنّون له صداقة ولا عداوة. وقد طُبع كتابه البراهين الأحمدية في هذه الظروف.

والآن هلمّ نرَ ما هي الإلهامات الربانية والأخبار الغيبية التي وردت في "البراهين الأحمدية" الذي طبع في زمن لم يكن واردًا فيه معارضةُ حضرته ولا موافقته؛ إذ لم يكن هناك مؤمنون به ولا معارضون.

عندما نلقي نظرة عابرة على "البراهين الأحمدية" نقرأ فيه الوحي التالي:

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ." (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٢)

الواقع أنه لو لم يكن هذا الكتاب مطبوعًا، ولم يسجّل فيه تاريخ طبعه، لقال البعض من أمثال القسيس "ويري": يبدو أن هذا الوحي نزل في عام ١٩٠١ حين كانت جماعة من الناس قد آمنوا بمؤسس الجماعة. مع أن الواقع أن هذا الكتاب قد طبع عام ١٨٨٤، ولا تزال نسخته موجودة عند الحكومة.

في ذلك الزمن الذي لم يكن ثمة معارضة ولا مناهضة ضد المسيح الموعود ﷺ نجد أن الله تعالى قد أوحى إليه أيضًا الآية التالية بشيء من التغيير: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ. وكان كيدهم عظيما. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٣).. أي: أيها الإنسان، سوف يهُبّ الناس لمعارضتك وسوف يشترك فيها أهل الكتاب والمشركون، أي اليهود والنصارى والمسلمون والهندوس كلهم، ولن يرتدعوا عن مناهضتك حتى نريهم آية تلو آية، وعندها سيدركون أنك مبعوث من عندنا. ستكون المكائد والحيل التي يلجأون إليها ليهزموك خطيرة وعظيمة، ولكنا سنخيّبهم في خططهم كلها، ونكتب لك النجاح والغلبة.

ما أعظمَ وما أوضحَ النبأَ الذي تلقاه حضرته عليه السلام في هذا الوحي الرباني عن المعارضة! في ذلك الوقت كان الجميع يحترمونه سواء كانوا هندوسا أو نصارى أو مسلمين، ومع ذلك يخبره الله تعالى سلفًا أن اليهود والنصارى والمسلمين والهندوس والسيخ كلهم سيعارضونك ويمكرون بك مكرًا كُبّارًا للقضاء عليك وعلى اسمك، ولكننا سنُري آياتنا الكبرى تأييدًا لك، فتكون لك الغلبة عليهم في النهاية. وقد أخبره الله تعالى بذلك حين لم يكن اليهود ولا أهل الأديان من البلاد الأخرى يعرفون حضرته عليه السلام.

ومما أوحى الله تعالى إلى حضرته عليه السلام الآياتِ القرآنية التالية:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُون".

"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَب". (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٤)

علمًا أن هذه الآيات القرآنية مَدَنية وقد نـــزلت في شأن المنافقين. ولا شك أن المنافقين يوجدون في الجماعات الربانية حين تلوح آثار غلبتها في الأفق من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يزال عدوّها قويًا. علمًا أن لكل زرع موسمًا خاصًا، كذلك لنماء زرع النفاق الديني موسم معين وهو حين يكون الدين غالبًا على جزء من الأرض من جهة، ومن جهة أخرى لا يكون الكفر مغلوبا تماما. ذلك أن المنافقين يخافون أهل الكفر وأهلَ الإيمان في وقت واحد، وحيث إن هناك سفينتين تُعدّان في

ذلك الوقت، فالمنافق يريد أن يظل راكبًا في كلتيهما، فلا يأتي إلى الدين كليةً ولا يذهب الى الكفر كلية. إنه لا يتجاسر على محاربة المسلمين مخافة أن ينتصروا، ولا يجرؤ على حرب الكفار خوفًا من انتصارهم، ولذلك قد أخبر الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام في هذه الإلهامات أن الزمن قريب حين تزدهر جماعتك وتصبح مقابل الكفار ككفّتي ميزان، كما هو الحال اليوم في قاديان. سوف يكون هناك فئة من المنافقين في جماعتك يكونون على صلة بالمؤمنين من ناحية وبالكفار من ناحية أخرى. لم يكن في زمن المسيح الموعود عليه السلام في جماعته أي شكل من النفاق، إذ لم يكن أحد يتوجه إلى قاديان إلا بعد أن يكون مستعدًّا للتعرض للضرب والأذى، أما الآن فإن جماعتنا قد ازدهرت وقامت مقابل العدو ككفَتي ميزان، ولذلك قد وُجدت فيها فئة المنافقين أيضًا. ففي عام ١٩٣٤ عندما أثار الأحرار فتنة في قاديان بمساندة بعض المسؤولين الحكوميين، كان بعض المنافقين في جماعتنا يَلقَون الأحرار، فكنا نضطر لمراقبتهم. لقد تحققت هذه النبوءة في قاديان فقط حتى الآن، وعندما تزدهر فروع جماعتنا المختلفة في الهند كلها وتتقوى إزاء المنكرين، فسوف يوجد منافقون في تلك الفروع أيضا، وإذا ازدهرت جماعتنا أكثر فستتحقق هذه النبوءة في فروع جماعتنا خارج الهند أيضا، تارة في أوروبا وطورًا في أمريكا، وحينًا في الصين وآخر في اليابان، ومرة في مصر وأخرى في الشام وفلسطين وغيرهما.

إذن ففي عام ١٨٨٤ حين لم يكن أحد يتصور أن المسيح الموعود عليه السلام سيلقى المعارضة وأنه ستقوم على يده جماعة عظيمة، أخبره الله تعالى أن جماعة ستقوم على يدك وتزدهر وتتقوى حتى تصبح إزاء الكفار ككفتي ميزان، وعندها سيوجد فيها بعض المنافقين. لا شك أنها أمور لم تكن لتخطر بخلد إنسان في ذلك الوقت.

ثم ورد في إلهامات المسيح الموعود عليه السلام:

"تَلطَّفْ بالناس وارحمْ عليهم، أنت فيهم بمنـــزلة موسى. واصبرْ على ما يقولون". (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٥)

فقد أخبره الله تعالى هنا أنه سيأتي عليه ما أتى على موسى من ظروف، وسيثير ضده الناس مطاعن كثيرة، فمن واجبه أن يصبر عليها.

والسؤال هنا: إذا كانت الإلهامات تُختلق بعد وقوع الأحداث، فكيف نُشرت هذه الإلهامات في "البراهين الأحمدية" قبل وقوعها؟

ثم هناك وحي آخر تلقاه حضرته عليه السلام وهو: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون" (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٧).. أي إنَّ ظن المؤمنين هذا باطل، إذ لا بد لهم من أن يتعرضوا لفظائع شديدة ويتحملوا مصاعب كبرى، وبعد الفوز في هذه الاختبارات سيعدّهم الله تعالى من المؤمنين حقًّا.

إذن، فليس في الإلهامات المسجلة أعلاه إلهام واحد ينطبق على ما كان عليه حضرته عليه السلام عام ١٨٨٤، بل كلها أخبار عن أحداث مستقبلية.

وهناك إلهامات أخرى تحوي أنباءً عن الأحداث القادمة، فمثلاً قد رأى المسيح الموعود عليه السلام عام ١٩٠٣ رؤيا، فقال عنها: لقد رأيتُ أن عصا "زار" (قيصر) روسيا في يدي. (التذكرة، ص ٣٧٧)

فإذا صحَّ زعم المستشرقين الغرب أن الإلهامات تُختلق بعد وقوع الأحداث دائمًا، فما هي الأحداث التي اختُلقَ بسببها هذا الإلهام؟ لم يكن هناك في عام ١٩٠٣ ما يدفع حضرته عليه السلام ليقول إن حُكم روسيا سيصبح في قبضتنا. كلا، بل كان من الصعب جدًا -نظرًا للظروف المادية- القول إن جماعته ستصبح غالبة حتى في محافظة غورداسْبور الهندية، ناهيك عن أن يدّعي حضرته أن حكم روسيا سيكون في يد جماعته. إنها نبوءة لم يظهر لها حتى اليوم أي أثر، ولكنها حين تتحقق سيختلق العدو ألف حجة سعيًا منه ليثبت أنها اختُرعت بعد وقوع هذا الحدث.

إذن، فإن كتاب المسيح الموعود عليه السلام "البراهين الأحمدية" يشكّل ردًّا على جميع المطاعن التي يثيرها المستشرقون على القرآن الكريم قائلين أن آياته التي تحتوي على نبوءات عن أحداث آتية إنما اختُرعتْ بعد وقوع هذه الأحداث. ونحن نقول لهم: إذا كانت دعواكم صحيحة فأَثبِتوا لنا أن النبوءات التي أدلى بها المسيح الموعود عليه السلام قد دوّنها بعد وقوع هذه الأحداث، وإن لم تستطيعوا ذلك ولن تستطيعوا، فلم لا تفكّرون في أنه ما دام الشخص الذي يعتبر نفسه خادمًا للمصطفى صلى الله عليه وسلم قد

قدر على إخبار الناس عن أمور غيبية بناءً على وحي الله تعالى قبل حدوثها، فكيف لا يقدر على ذلك سيده؟ ألا يستطيع السيد أن يدلي بمثل هذه الأنباء قبل أوانها؟ إذا كانت إلهامات المسيح الموعود عليه السلام قد أنبأت عمّا سيواجه جماعته من معارضة ومكائد ومؤامرات في وقت كان الناس كلهم يحترمونه ويؤيدونه، فكيف لا يمكن أن يذكر القرآن الكريم مثل هذه الأنباء قبل موعدها؟ فلا جرم أن الله تعالى قد ردّ على كل هذه المطاعن والهجمات ضد القرآن الكريم بشخص المسيح الموعود عليه السلام بحيث لن يجرؤ العدو على الطعن فيه مرة أخرى.

والآن أود أن أبيّن الفارق بين بدء الوحي للرسول ﷺ وبين بدء الوحي للأنبياء السابقين عليهم السلام.

يطعن المستشرقون في حادث بدء نزول الوحي على الرسول ﷺ، ولكنهم لا يفكرون في كيفية بدء الوحي لأنبيائهم الذين يعترفون بصدقهم. كان موسى عليه السلام أكبر أنبيائهم، وقد ورد في التوراة أنه كان يرعى غنم حميه "يثرون" إذ رأى نارًا في شجرة بالقرب من جبل حوريب، فأخذته حيرة وقال هناك نار حول الشجرة ومع ذلك لا تحترق. فتقدم نحو هذا المشهد فـــ "نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيقَةِ وَقَالَ: مُوسَى، مُوسَى! فَقَالَ: هأَنَذَا. فَقَالَ: لا تَقْتَرِبْ إلى ههنا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ. ثُمَّ قَالَ: أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ. فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ". (الخروج ٣: ٤-٦)

فشتّان بين بدء الوحي للنبي ﷺ وبدء الوحي لموسى عليه السلام! إذ يقول الله تعالى عن رسولنا ﷺ إنه لما رأى ربّه ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾(النجم:٩).. أي أنه جرى إلى الله، والله احتفى به، وهذه هي علامة الحب الكامل. ولله در القائل ما معناه: كلانا نشعر بالخجل لأننا نلتقي بعد مدة طويلة، فالأنسب الآن أن تتقدم قليلا وأتقدم قليلا. فثبت أن علامة الحب الصادق أن يتقدم كلا الطرفين، وهذا ما يخبرنا الله تعالى هنا بأن محمدًا لما رأى الله تعالى جرى إليه فأتاه الله سعيًا. أما موسى عليه السلام فتقول التوراة إنه لما رأى الله تعالى قال الله له: "لا تَقْتَرِبْ إِلَى هَهُنَا". هذه الكلمات

تبين لنا البون الشاسع بين تجلّي الله على محمد ﷺ وتجلّيه على موسى عليه السلام، حيث يخبرنا الله تعالى أن محمدا لما تقدّم إليّ تقدمتُ إليه كي نلتقي ونتّحد، أما موسى عليه السلام فنهاه الله عن الاقتراب قائلا: "اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ"، بينما لم يؤمر نبينا ﷺ بخلع حذائه شأنه شأن الملوك والراجات عندنا في الهند، فعندما يدخل عليهم أحد الكبراء يدخل بحذائه، أما إذا دخل عليهم أحد الفلاحين البسطاء أُمِرَ بخلع حذائه عند الباب. فلأن النبي ﷺ هو أعلى مكانةً من موسى عليه السلام فلم يؤمر ﷺ بخلع النعلين، أما موسى فأُمر بخلعهما كما يؤمر الفلاحون العاديون بخلع أحذيتهم عند دخولهم على الملوك.

ثم قيل لموسى عليه السلام: "أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ".. فأيُّ علمٍ في هذا الكلام! وأيّ ميزة فيه! إنه أمرٌ بسيط يعرفه كل إنسان. أما ما قيل لرسولنا ﷺ عند بدء الوحي فسوف نبين لاحقًا ما في هذا الكلام من محاسن وميزات.

يطعن القسيس "ويري" وزملاؤه أن محمدا خاف وارتجفت أكتافه حين نزل عليه الوحي، ولكنهم لا يرون ما ورد هنا صراحة: "غَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ". فإذا جاز الطعن في رسول الله ﷺ لخوفه عند نزول أول وحي عليه، فلا بد من الطعن في موسى عليه السلام، بل بشكل أشدّ، إذ غطّى وجهه خوفًا، أما النبي ﷺ فقد ارتجفت بوادره (أكتافه) فقط (البخاري: كتاب التفسير، سورة اقرأْ). وواضح أن الشخص الكبير إذا خاف ارتجفت أكتافه، أما الصغير فإذا خاف غطى وجهه. لن تجد أي إنسان كبير يضع يديه على عينيه حين يصيبه الخوف، ولكنك ترى هذا من الصغار يوميا. فكان موسى عليه السلام في هذه المناسبة كالصغار إذ غطى وجهه خوفًا من أن يرى الله تعالى، ويماثل فعلُه فِعْلَ النّعامة التي تدفن رأسها في الرمال عند الخطر. أما محمد رسول الله ﷺ فلأنه كان بمنـزلة شاب قوي من حيث الروحانية فلم يغطِّ عينيه، غير أن أكتافه ارتجفت هيبةً. فالطعن الذي يوجهه المستشرقون للنبي ﷺ يمكن أن يُوجَّه إلى موسى عليه السلام بشكل أشدّ.

ثم ورد: "فَقَالَ مُوسَى لِلهِ: مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى أُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟" (الخروج ٣: ١١)

يقول المسيحيون أن محمدا (ﷺ) شكّ في وحيه، ولكنهم لا ينظرون إلى ما فعل موسى عليه السلام. لقد أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون، لكنه بدلاً من طاعة أمره متوكلا على نصرته وتأييده وواثقًا بأنه تعالى لن يخذله ما دام قد عهد إليه هذه المهمة، شكّ في الأمر بحيث قال لله تعالى: من أنا حتى أذهب إلى فرعون؛ إني إنسان فقير وفرعون ملكٌ جبّار، فلا أستطيع مواجهته. إن القسيسين يعتبرون موسى عليه السلام مقربًا عند الله تعالى رغم أنه رفض أمر الله تعالى، ولكن إذا قال نبينا ﷺ "قد خشيتُ على نفسي" فإنهم يقولون: هذه الكلمات دليل على أن محمدًا شك في وحي الله تعالى!

ثم ورد في التوراة أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يذهب ويخرج قومه من مصر إلى هذا الجبل للعبادة، لكنه رفض هذا الأمر الرباني حيث ورد: "فَأَجَابَ مُوسَى وَقَالَ: وَلكِنْ هَا هُمْ لا يُصَدِّقُونَنِي وَلا يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي، بَلْ يَقُولُونَ: لَمْ يَظْهَرْ لَكَ الرَّبُّ". (الخروج ٤: ١).

الحق أن حادث نزول الوحي على نبينا ﷺ مطابق للعقل تماما، ومع ذلك يزعم النصارى أنه (ﷺ) شكّ في وحيه، ولكنهم لا يرون كيف أن موسى عليه السلام رفض أوامر الله الصريحة، فقد أمره الله تعالى أن يأتي بقومه هنالك للعبادة، ولكنه بدلاً من تنفيذ أمره فورا، قال رب إنهم لن يؤمنوا بي ولن يستمعوا لي، بل يقولون لي إنك لم تر الله تعالى، فلن أذهب إليهم.

ثم ورد في التوراة: "فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: مَا هذِهِ فِي يَدِكَ؟ فَقَالَ: عَصًا. فَقَالَ: اطْرَحْهَا إِلَى الأَرْضِ. فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً، فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا." (الخروجُ ٤: ٢-٣).

أليس غريبًا أن يهرب موسى عليه السلام برؤية الأفعى، مع أن كل إنسان يمكن أن يقتل الأفعى. إننا نرى أن الإنسان العادي حين يرى أفعى لا يأخذ في الهروب، بل يرفع العصا ويقتلها فورا، لكن موسى عليه السلام حين رأى الأفعى هرب خوفًا منها.

إن النصارى يقرأون هذا الحادث ومع ذلك لا يرونه قادحًا في نبوة موسى عليه السلام، أما محمد ﷺ فإنه لم يفر ولم يهرب عند نزول الوحي، إنما قال: لَعلّي لن أقدر على حمل هذه المسؤولية، ومع ذلك يتّهمه هؤلاء النصارى أنه كان في شكٍّ وترددٍ مما أُوحيَ إليه.

ثم ورد: "فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ! لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلا أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلا مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ." (الخروجُ ٤: ١٠)

كم كانت عظيمة تلك المعجزة التي رآها موسى من قبل! لقد رأى العصا صارت أفعى، فلما أمسكها بأمر الله تعالى عادت عصا مرة أخرى، ورغم رؤية هذه المعجزة العظيمة ظل متمسكًا بموقفه وقال لربه: لم تكنْ في لساني فصاحة لا من قبل ولا الآن بعد رؤيتي إياك. لا شك أنني كنت شخصًا عاديا من قبل، ولكن رغم رؤية جلالك لم يتحسن لساني، بل لا يزال به لُكْنةٌ، ولا أزال غير فصيح كما كنت من قبل. "فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" (الخروجُ ٤: ١١-١٢). ورغم سماع هذا الحكم والوصية لم يتغير موقف موسى، بل قال: "اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَرْسِلْ بِيَدِ مَنْ تُرْسِلُ". (الخروجُ ٤: ١٣)

فترى هنا أن موسى عليه السلام يعصي أوامر الله مرة بعد مرة، ومع ذلك لا يشك علماء المسيحيين في كونه نبيا عظيما، أما رسولنا ﷺ فإنه عندما يقول لا أدري هل أستطيع النهوض بهذه المسؤولية أم لا، فيشكّكون في إيمانه وسلامة عقله! مع أن حادثة موسى عليه السلام مسجلة في كتابهم السماوي، أما ما نُسبَ إلى النبي ﷺ من قول فليس مسجلا في القرآن الكريم، بل ورد في الحديث الذي لا يساوي كلام الله شهادةً.

ثم ورد في التوراة أنه لما رفض موسى عليه السلام أوامر الله مرة بعد أخرى وبّخه الله تعالى حيث ورد: "فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى مُوسَى وَقَالَ: أَلَيْسَ هَارُونُ اللاَّوِيُّ أَخَاكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ يَتَكَلَّمُ، وَأَيْضًا هَا هُوَ خَارِجٌ لاسْتِقْبَالِكَ، فَحِينَمَا يَرَاكَ يَفْرَحُ

بِقَلْبِهِ، فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعْلِمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ." (الخروجُ ٤: ١٤-١٥).

إذن، فالمطاعن التي يثيرها المسيحيون ضد النبي ﷺ فيما يتعلق ببدء نزول الوحي عليه، فإنها كلها يمكن أن تثار ضد حادث نزول الوحي على موسى عليه السلام. إننا لا نسلم بمطاعن المسيحيين، وقد سجلنا الرد عليها، ومع ذلك نسأل هؤلاء النصارى على سبيل التبكيت: إذا كنتم تزعمون أن محمدا (ﷺ)كان مترددا ومتشككا فيما أوحي إليه، فهذا الاعتراض نفسه يَرِدُ على موسى عليه السلام بحيث لا مجال لأي تأويل له.

والآن نفحص أحداث بدء نزول الوحي على المسيح عليه السلام. لقد ورد أنه عليه السلام لما ذهب إلى يوحنا وطلب منه أن يعمّده، رفض في البداية، ثم وافق فعمّده. وما حدث بعد ذلك هو كالآتي: "فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ." (مَتّى ٣: ١٦-١٧).

انظروا إلى هذا الحادث وإلى حادث بدء الوحي على الرسول ﷺ، ثم فكِّروا هل هناك أي مقارنة بين الحادثين؟ فأما محمد ﷺ فيبعث الله إليه رسالته عن طريق ملاك، وأما المسيح عليه السلام فينــــزل عليه روح القدس في صورة حمامة، وكيف يمكن أن يخاف الحمامةَ التي هي طير ضعيف يمكن أن يمضغه الإنسان مع عظامه. هذا هو الفارق بين التجلي العيسوي والتجلي المحمدي، ولذلك نجد أن الله تعالى حفظ تعاليم القرآن الكريم من الشِرك، ولكن الشيطان تغلب على المسيحية، ذلك لأن الملاك نزل بالوحي على محمد ﷺ، بينما نزل روح القدس بالوحي على مؤسس المسيحية في صورة ضعيفة جدا. ومشيرًا إلى هذه الحقيقة قد قال المسيح الموعود عليه السلام: "إن التجلي الذي نزل به روح القدس على نبينا محمد ﷺ هو أعظمُ من كلِّ تجلٍّ. لقد ظهر روح القدس على بعض الأنبياء في هيئة حمام، وظهر على بعضهم الآخر في صورة بقرة، وظهر على غيرهم في شكل حوت أو تمساح، أما تمثُّلَه في صورة بشرٍ فلم يأت أوانه إلا حين بُعث الإنسانُ الكاملُ أعني نبيَّنا ﷺ؛ فلمَّا بُعِثَ تجلَّى عليه روحُ القدس على هيئة إنسان لكونه ﷺ إنسانًا كاملاً. وبما أن تجلّي روح

القدس عليه كان تجليًا قويًا جدًا بحيث ملأ الآفاق ما بين السماء والأرض، فلذا بقي تعليم القرآن الكريم محفوظًا من الشرك. وبما أن روح القدس تمثّلَ لمؤسس المسيحية على شكل كائن ضعيف جدًّا.. أعني على شكل حمامة، فلذلك قد انتصر الروح الخبيث أي الشيطان على هذه الديانة." (سفينة نوح، الخزائن الروحانية المجلد ١٩ ص ٨٣-٨٤)

وجدير بالذكر هنا أن الذي يبعثه الله تعالى لهداية الناس يسمَّى رسولا، والرسل نوعان: الأول مَن كانت مهمته إيصال رسالة فقط، ولا يكون له أي عمل آخر، والآخر من كانت مهمته إيصال رسالة وتنفيذ الأحكام أيضا. وكان نزول التجلي الإلهي على المسيح عليه السلام بصورة حمامة إشارةً إلى أن منصبه كان منصب رسول فقط، وأن مهمته انتهت بعد ذلك، أما نزول التجلي الإلهي على رسولنا ﷺ في شكل إنسان كامل، فكان إشارةً إلى أنه ليس رسولا فقط، بل هو أسوة كاملة لأتباعه أيضا.

ثم ورد في الإنجيل: ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. فَبَعْدَمَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا. فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا؟ فَأَجَابَ وَقَالَ: مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ. ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، وَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. قَالَ لَهُ يَسُوعُ: مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لاَ تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ. ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، وَقَالَ لَهُ: أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي. حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ." (مَتَّى ٤: ١-١٠)

لقد طعن هؤلاء النصارى في رسول الله ﷺ بأنه كان يشك فيما أوحي إليه، ولكنا نرى في الإنجيل أن الشيطان ظل يأخذ يسوع عليه السلام هنا وهناك. نحن لا نأخذ

بهذا الحادث على ظاهره، إنما نسأل: إذا كان لدى يسوع عليه السلام يقين كامل بالله تعالى فلماذا تبع الشيطان هنا وهناك؟ ولماذا كان يمشي وراء الشيطان بكل اطمئنان حيثما أخذه؟ فإذا أخذه إلى بيت المقدس مشى وراءه، وإذا أوقفه عند جناح الهيكل وقف هنالك، كأنه ليس به حول ولا قوة تجاه الشيطان في كل ما يأمره. ليس أمام المسيحيين إلا أحد خيارين: فإما أن يؤمنوا أنه حادث مادي، أو يؤمنوا أنه ليس ماديا بل رؤيا. فإذا قالوا إنه حادث مادي، فنقول: لماذا جاء الشيطان إلى المسيح؟ هل يستطيع أن يخدع ابنَ الله فعلاً؟ وإذا قيل لا، فمجيئه إلى المسيح بشكل مادي ظاهرٍ لا معنى له ولا تأويل له. ولو قالوا إنه رؤيا، فهذا ممكن، ولكن لا بد لهم في هذه الحالة من الاعتراف أنه كان قد بدأ يفكر أنه ربما الشيطان هو الذي يوحي إليه! فاتّباعه للشيطان في الرؤيا وعدم طرده له يكشف حالة قلبه.. أعني أنه لم يكن يوقن في تلك الحالة أنه ليس بالشيطان، ولم يستطع أن يفرّق بين الرؤيا الشيطانية والرؤيا الرحمانية.

باختصار، لقد تلقى المسيح عليه السلام أولَ تجلٍّ في شكل حمامة بحسب الإنجيل، وتلقى الرسول ﷺ أول تجلٍّ في شكل إنسان كامل القوى، وتلقى موسى عليه السلام أول تجلٍّ على صورة نار. والشك والخوف ثابتان لموسى، وكذلك ثابتان لعيسى لأن لقاءه بالشيطان واتّباعه له يدلان على تردُّدِه وشَكِّه، وعلى أن قلبه لم يكن عامرًا باليقين والثقة بالله تعالى حينذاك كما صار عامرا به فيما بعد.

ثم هناك سؤال آخر: إذا كان روح القدس نزل على المسيح عليه السلام في شكل حمامة، فماذا كانت النتيجة؟ إن ما يقوله الإنجيل هو: "وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مَتَّى ٣: ١٧). ما هو العلم الذي أُعطِيَه المسيح في هذه الكلمات؟ وما الحكمة الجديدة فيها؟ إن سماع صوت ليس بأمر عظيم، فإن المجنون أيضًا يسمع صوتا أحيانا.

ثم لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ" فما هي المتعة التي وجدها بهذا النداء الإلهي؟ وأي عرفان تلقاه بهذا

الصوت؟ هل يمكن لموسى ؑ أن يقول بعد ذلك إن الله أخبره ما لم يعلمه من قبل، أو فتح عليه بابا جديدا من المعرفة؟ كلا، لا يمكن قول ذلك.

كذلك إذا كان الروح القدس قد نزل على المسيح ؑ في شكل حمامة، أو كان سمع صوتًا من السماء بأنه ابن الله الحبيب، فماذا حصل بذلك؟ إنه مجرد بيان، لا قيمة له أكثر من ذلك، فليس في هذه الكلمات عرفان ولا علم ولا حكمة ولا سر من أسرار الوصال بالله تعالى، ولا ما يزيد الإنسان معرفةً.

ثم يجب أن نأخذ بالحسبان أن ما رآه المسيح ؑ من نزول روح القدس عليه في شكل حمامة، فيمكن القول عنه أيضًا أنه لم يكن مشهدًا حقيقيا، بل كان نتيجة لاختلال في عقله، لأن الذين يصابون بالأوهام يستنتجون من مثل هذه الأمور البسيطة نتائجَ لا تخطر ببال أحد. فمثلا: كان هناك صحابي للمسيح الموعود ؑ اسمه المولوي "يار محمد"، وكان بعقله ضعف، وكان من عادة المسيح الموعود ؑ تحريك يده أثناء الكلام في بعض الأحيان، فكلما حرك ؑ يده قفز المولوي واقترب منه ظنًّا منه أنه ؑ يدعوه بإشارة يده. كذلك يتفاءل المصابون بالوهم بطيران الطير أحيانا، فإن طار جهة اليمين ظنوا أن النجاح حليفهم، وإن طار جهة الشمال اعتبروه علامة يأس وفشل. فمن الممكن أن يكون المسيح ؑ قد رأى حمامة جلست قريبًا منه بعد أن خرج من الماء بعد أن عمَّده يوحنا، فظنّ أنها جاءت من السماء.

لا شك أن حادث بدء نزول الوحي على موسى ؑ حادث حقيقي حيث كلمه الله تعالى، ولكن لم يكشف له ذلك الكلام أي أسرار من العلم والعرفان، وليس فيه ما يُعَدّ رسالة فريدة للعالم. كل ما في الأمر أنه قيل لموسى أن يذهب إلى فرعون ويخلّص بني إسرائيل من عبوديته. وهذا أمرٌ مادي أو سياسي على الأكثر، ولكن ليس في هذا الكلام ما يكون بمثابة رسالة جديدة للعالم من الناحية الدينية أو الروحانية، و لم تنكشف فيه حقيقة جديدة من الحقائق الروحانية.

باختصار، إذا قارنا النبي ﷺ مع الأنبياء الآخرين من حيث حادث بدء نزول الوحي، فلا يسع أحدًا إنكار أن ما أوحي إليه ﷺ يمتاز عن الوحي لباقي الأنبياء جميعا، وأن الله تعالى لم يعبِّر لغيره من الأنبياء عن حبه ولطفه كما عبّر عنه له ﷺ.

الترتيب والترابط:

إن مضمون هذه السورة هو نفس مضمون السورة السابقة، بمعنى أن الله تعالى قد بيّن فيها ما بينه في ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، ولكن بأسلوب جديد. فقد أشار الله تعالى في ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ إلى تسلسل الوحي، مبينًا أن الوحي مستمر منذ بدء العالم. لقد ظهر الوحي أولاً بواسطة آدم ثم نوح ثم موسى، والآن قد ظهر عن طريق القرآن الكريم. وهذا الموضوع نفسه قد بينه الله تعالى الآن في هذه السورة حيث قال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.. أي لو تدبرتم في خلق الإنسان لوجدتم أنه كما يتطور -كفردٍ- مِن علقةٍ إلى مضغة حتى يخرج من بطن أمه بصورة إنسان كامل، كذلك قد تطور الإنسان -كجنس- فكان أولاً علقةً من الناحية الروحانية، ثم مضغة، ثم يتطور ويتطور إلى أن يصبح إنسانًا كاملاً في شكل محمد ﷺ. فقوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارةٌ إلى نفس قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون﴾، حيث بيّن الله تعالى أننا كنا نريد منذ بدء الخليقة أن نطوّر الإنسان من الناحية الروحانية درجة درجة حتى نخلق الإنسان الكامل. وما دامت هذه خطتنا منذ بدء الخليقة، فكان لزاما أن تتحقق هذه الغاية المنشودة للإنسانية، وإلا أصبح خلق الإنسان عبثًا، وقيل أن الخطة التي بدأ الله خلْقَ الإنسان من أجلها لم تنجح -والعياذ بالله- فثبت أن هذه الآية تسلسلٌ لموضوع السورة السابقة، وتبيّن مضمونها بأسلوب جديد.

لعل أحدا يقول هنا: إن سورة العلق هي أولُ سورة نزولاً، فما معنى إثباتُ ربطها بسورة "التين" التي نزلت فيما بعد؟

والجواب أن للقرآن ترتيبين: ترتيبٌ نـــزولي، وبحسب هذا الترتيب كانت سورة العلق قبل سورة التين، وترتيب تدويني وهو لكل العصور، وبحسبه قد دُوّنت السور في المصحف، فلم تُدوَّن السور نظرًا إلى زمن نزولها بل بحسب مضامينها.

والآن أشرح هذه الآيات لأبيّن لكم ما أودع الله ﷻ هذه الرسالةَ التي تلقاها نبينا ﷺ في بدء الوحي من علوم ومعارف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿٢﴾

التفسير: ﴿اقرأْ﴾ هي أولُ كلمة نزلت على الرسول ﷺ، وقد تم بها الإعلان عن نبوءات عظيمة منذ ظهور الإسلام. إنها تعني أصلاً اقرأ الشيءَ المكتوب، ولكن من معانيها: أعلِنْ، وكلا المعنين ينطبقان هنا بشكل رائع. ونظرًا للمعنى الثاني لكلمة ﴿اقرأْ﴾ سيكون المراد من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾: أعلِنْ عن هذا الكتاب باسم ربك الذي خلقك. مما يعني أن القرآن الكريم قد أعلن منذ أول يوم أن هذا الوحي ليس موجهًا لمحمد فحسب، بل هو لجميع الأمم والشعوب إلى يوم القيامة. بينما نجد أن أول وحي نزل على موسى عليه السلام هو: "فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ" (الخروجُ ٣: ١٠)، مع أن المهمة الأساسية للأنبياء أن يُطهِّروا قلوب الناس ويخلِّصوهم من عبودية الشيطان، وينوِّروا لهم سبل التقوى والطهارة، ولكن أول وحي لموسى عليه السلام لم يحْتوِ على أي رسالة كهذه. كما لم يُذكَر هذا الأمر المهم في أول رسالة تلقاها عيسى عليه السلام، وإنما ورد فيه أن حمامة نزلت وجاء صوت من السماء "أنت ابني الحبيب". أما النبي ﷺ فقال الله تعالى له في أول وحي أنزله عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.. يا محمد، أعلِنْ بين الناس وأَخبِرْهم أن خالقهم وربهم يدعوهم إليه، وهكذا بين الله تعالى في أول كلمة من وحيه إلى محمد ﷺ أن رسالته رسالة عالمية تخاطب الأسود والأبيض، وأن مِن واجبه ﷺ أن يبلّغها إلى الناس أجمعين، ويعود بالذين قد انحرفوا عن العتبة الإلهية إلى خالقهم مرة أخرى.

ونظرًا إلى المعنى الثاني لكلمة ﴿اقرأْ﴾.. أي اقرأ الشيءَ المكتوب.. سيصبح قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ نبوءةً بأن وحي القرآن سيُكتَب، ثم يُقرَأ هذا الوحي المكتوب بكثرة. ويؤكد الواقع أنه ليس بين كلّ الأسفار السماوية سفرٌ واحد كُتب منذ بداية نزوله إلا القرآن الكريم. فهو الكتاب الوحيد الذي كان الله تعالى قد نبَّأ أنه سيُكتَب أولاً بأول، وهكذا ستتيسر الأسباب لحفظه منذ أول يوم، ثم قد تحققت هذه النبوءة حرفيًّا، فالمستشرقون مثل "نولدكه" و"ويري" و"وليام موير" كلهم يعترفون بهذا الواقع قائلين: ليس هناك سفرٌ بين الأسفار السماوية كُتب منذ أول يومه مثل القرآن الكريم.

(الموسوعة البريطانية، تحت: Koran

- The Life of Mahomet: by Sir William Muir p. 562-563
- The Quran, its composition and teachings p:40
- A Comprehensive Commentary on The Quran, by Wherry v.1 p. 109)

لا شك أن الأناجيل موجودة في الدنيا اليوم، ولكن ليس بوسع أي مسيحي الادعاء أنها دُوِّنت في حياة المسيح عليه السلام، بل يعرف الجميع أن متّى ومرقس ولوقا ويوحنا قد كتبوها بعد وفاة المسيح عليه السلام بفترة طويلة. لقد اعترف لوقا بهذا الأمر صراحة قائلا: "إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ" (لُوقَا ١: ١-٤). فثبت أن الأناجيل لم يكتبها الحواريون، وإنما كتبها مَن التقوا بهم، بل لعله كتبها الذين التقوا مَن التقوا بالحواريين.

باختصار، ليس في العالم كتاب دوّن منذ أول يوم وفُرضت قراءته مرارًا إلا القرآن الكريم، ففي قوله تعالى ﴿اقرأْ﴾ نبوءة أن هذا الكتاب سيُكتَب وسيقال للناس أن يقرؤوه مرة بعد أخرى.

ثم قال الله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. وقد أشار الله تعالى بإضافة كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ إلى موضوع جديد. الواقع أن الرب سبحانه وتعالى يؤمن به المشركون واليهود والمسيحيون

كلهم، ولكنهم جميعًا ينسبون إليه تعالى ما لا يليق به ﷻ. فمثلاً كان المشركون يعلنون إيمانهم بالله تعالى، ولكنهم كانوا يعبدون معه اللات والعزى وغيرهما من الأصنام. وكان النصارى يقولون نحن نؤمن بالله، ولكنهم اتخذوا عيسى ابنًا لله، وكان اليهود يؤمنون بالله، ولكنهم يعتقدون أن الله تعالى لن يوحي إلى أي أمة سوى اليهود. وكانت فطرة الرسول ﷺ تكره هذه الأمور كلها كراهية شديدة، فلم تكن تُسلِّم بالنظرية اليهودية، ولا بالفلسفة المسيحية، كما كانت ترفض أفكار الوثنيين بمكة. فعندما كان ﷺ يعبد الله تعالى ويدعوه في حرقة ولوعة في ظلمات غار حراء كانت كل هذه العقائد والأفكار تخطر بباله واحدة واحدة. كان يفكر أن اليهود يؤمنون بالله تعالى ومع ذلك يعتقدون عقيدة سخيفة بأن الله تعالى قد خصّ اليهود بمحبته دون الآخرين، ولن يتشرف أي إنسان سواهم بوحي الله تعالى. وكان ﷺ عندما يتدبر تعاليم المسيحية يقول في نفسه: لا شك أن المسيحية تؤمن بوجود الله تعالى، ولكنها تسيء إليه تعالى إساءة كبيرة باعتبار المسيح ابنًا لله. ثم كان يجول فكره في عقائد مشركي مكة، فكانت فطرته السليمة تفتي ببطلان تلك العقائد وتقول: لا يجوز عبادة اللات والعُزّى ومناة من دون الله أبدًا. وعندما كان يفكر باليهودية كانت فطرته تقول: كيف يؤمن الإنسان بإلهٍ ليس بمستعدٍّ أن يحب أحدًا سوى اليهود؟ وعندما كان يفكر في المسيحية كانت فطرته ترفضها وتقول كيف يكون صادقًا الدينُ الذي يقول أن الله تعالى بحاجة إلى ابن؟

باختصار، لم يكن النبي ﷺ يحتمل الشرك بأي شكل. كان ﷺ يعيش بين قوم ذوي أفكار وثنية، إلا أنه بسبب فطرته النقية كان يؤمن بالله الأحد القادر القيوم الأزلي الأبدي غير المتغير في صفاته، والذي ليس ابنًا لأحد، وليس له ابن، والذي هو خالق الجميع، والذي هو أسمى من أن يتعرض للأذى أو يُصلَب، والذي لا يخص قومًا دون قوم بكلامه ووحيه، بل يمنّ على كل فرد من العالم بقربه إذا بحث عن حبه ﷻ. إذن فقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني: اذهبْ وأعلِنْ اسم ربك في العالم؛ أي قُلْ: ليس أرباب الكافرين، بل الرب الذي اتخذته ربًّا هو الرب الحق وباسمه تنال كل البركات. فارفعْ اسمه في الدنيا مرة بعد أخرى، وادع

الناس إلى هذا الرب الذي أنت مؤمن به. مما يعني أن الله تعالى قد فنَّد الشرك في أول وحي أنزله على النبي ﷺ، وأخبره أن الناس وإن كانوا يؤمنون بوجود الله، ولكن ليس منهم مَن كانت عقيدته عن الله تعالى منــــزهة تمامًا عن الأفكار الوثنية؛ وإنما الله الذي أدركتَ أنت حقيقتَه، إنما الربّ الحقيقي للعالم هو من أيقنتَ به خلال عبادتك ليل نهار في غار حراء؛ وهنا نحن نأمرك أن أعلِنْ بين الناس عن ربك وأخبرْهم أن ربي قد أخبرني أن حقيقة الله كما فهمتُها هي الصحيحة، أما الاعتقادات الأخرى فكلها باطلة ومسيئة إلى الله تعالى.

إذن، فقوله تعالى ﴿رَبِّكَ﴾ تصديقٌ ربانيّ لسلامة اعتقاد رسول الله ﷺ، حيث أخبره الله تعالى بأن اعتقاد المسيحيين بأن "عيسى ابنُ الله" باطل، وأن ما فهمتَه أنت عن الله تعالى هو الصحيح؛ وأن اعتقاد المشركين بأن مناة واللات والعزى وغيرها من الأصنام تتصف بصفات الألوهية اعتقاد باطل، إنما العقيدة الصحيحة عن الله تعالى هو ما توصلتَ إليه؛ وأن قول اليهود بأن الله تعالى لا يكلّم غيرَهم اعتقاد خاطئ، وإنما الاعتقاد الصحيح ما تقول به بأن الله تعالى يكلّم جميع الناس؛ فاذهبْ وأعلِنْ بين الناس عن ربك أنت. وكأن الله يقول لرسوله إننا نؤيد النتيجة التي توصلت إليها بناءً على تأملاتك في غار حراء، فنأمرك أن تقوم بين الناس وتدعوهم إلى ربهم.

إذن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ تفنيد للوثنية والشرك، وإعلان عن سلامة عقائد الرسول ﷺ حول وحدانية الله ونزول الوحي، وكأن الله تعالى يقول: إننا نعلن أن ما تؤمن به يا محمد هو العقيدة السليمة وأما أفكار الآخرين وعقائدهم فهي باطلة.

يزعم خصوم الإسلام أن قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾(الضحى:٨) يعني أن محمدا كان ضالاً في البداية -والعياذ بالله- فهداه الله. ولقد فنّدتُ هذا الزعم عند تفسير هذه الآية في مكانها، غير أن قول الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك﴾ أيضًا يبطل هذا الزعم. ذلك أنه لو كان الرسول ﷺ ضالاً في الواقع فكان ينبغي أن يقول الله تعالى له في أول وحيه إليه إن عقيدتك باطلة، وها إني أخبرك عن العقيدة

الصحيحة. ولكن الله تعالى لم يفنِّد أي فكرة ولا عقيدة للرسول ﷺ، بل أخبره أن معتقدك عن الله تعالى هو الحق، وأن ما يفهم الناس عنه تعالى هو الباطل. فثبت أن هذه الآية تؤكد أن التفسير الذي يذكره خصوم الإسلام لقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ تفسير باطل.

ويعترض البعض هنا قائلا: كان ينبغي أن يقول الله تعالى هنا: "اقرأْ اسمَ ربك"، ولكنه قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؟

وقد أجاب عليه النحاة بأن الباء هنا زائدة وتفيد التأكيد.

لا شك أن الباء في العربية تأتي زائدة للتوكيد أيضًا، ولا حرج بهذا القول، وعندها سيكون المراد من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: اذكُرْ اسمَ ربك وارفَعْ اسمه في الدنيا عاليا. غير أني أرى أن الباءَ هنا ليست زائدة بل هي للاستعانة، والمراد من هذه الآية: عليك أن تقوم بهذا الإعلان مستعينًا بِاسْمِ رَبِّكَ. وذلك كما تفعله الشرطةُ، فإنها إذا أرادت تفتيش بيت قالت لأهلها: افتحوا الباب باسم الحاكم، أي أن الحاكم قد منحَ لنا السلطةَ لتفتيش بيتكم فدَعُونا نقُمْ بمهمتنا، أما إذا منعتمونا من التفتيش فستُعَدّون مجرمين عند الحاكم. فمثلا لو ذهبت الشرطة لتفتيش بيت في قضية سرقة وحالَ صاحبُ البيت دون ذلك، رُفعت ضده قضية بأنه عرقلَ عمل شرطة الدولة ولم يفتح لها باب بيته رغم ما منَحَها الحاكم من سلطة. كذلك يقول الله تعالى هنا لرسوله: قُمْ في الدنيا باسم ربك وأَعلِنْ بين الناس أن الله تعالى قد أمرني بتبليغ هذه الأمور لكم، فلو رفضتم قولي فإنكم ترفضون أمر الله الذي بعثني والذي باسمه أُعلن رسالتي أمامكم. وكأن الله تعالى كما أعلن في قوله ﴿رَبِّكَ﴾ عن سلامة عقائد الرسول ﷺ أعلنَ بقوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ عن رسالته ﷺ، لأن الرسول إنما يقول إن الله تعالى قد أقامني لهداية الدنيا وباسمه أعرض عليكم دعواي.

وبناءً على هذا الشرح فإن المعنى المفصَّل لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هو: أَعلِنْ بين الناس عن اسم ربك الذي ليس عند أحد سواك إدراكُه الصحيح، وأخبِرْهم أن كل العقائد الأخرى عن الرب باطلة. كما بلِّغْهم التعليم الذي أنزلناه عليك، لأنه ليس خاصًّا بك، بل هو للبشرية كلها. سيُكتب هذا التعليم ويُقرأ

بكثرة، فلا تقرأْه منفردًا بل اقرأْه على الناس لأن الله تعالى قد أرسلك لعرض هذا التعليم على الناس أجمعين. واعلم أنّا معك ونعلن أنك رسولنا الحق.

وهذا يعني أن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يحتوي على جميع المفاهيم التي تنطوي عليه الشهادتان. فكأن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يعني: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله".. أي أنني أَعرِضُ أمامكم ذلك الإلهَ الأحد الذي تيسرتْ لي معرفته الصحيحة الحقة، وباسمه أدعوكم للإيمان به، فإذا لم تُلبّوا دعوتي ستكونون عند الله من المجرمين والآثمين، لأني رسوله وقمتُ باسمه. لقد أُمرتُ أن لا أُخفي هذا التعليم، بل أنشره في العالم وأوصله إلى الناس كافة.

باختصار، قد ضَمَّن الله تعالى هذه الآيةَ الشهادتين مِن أول يوم حين أمر رسوله أن يعلن بين الناس ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَق﴾.. أي أنك رسوله وأن عقيدتك عن ربوبية الله تعالى هي الحق، وأنّ تبليغ هذه الرسالة إلى الناس واجبك.

هنا ينشأ سؤال: ما الحكمة في إضافة جملة ﴿الذي خَلَق﴾ إلى قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؟ فقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يتضمن مفهوم الخلق، لأن الرب هو مَن ينشئ الإنسان حالاً بعد حال إلى حد التمام. (المفردات)

والجواب أن من قواعد كل لغة أن بعض الكلمات تُستعمل أحيانًا بمعناها الخاص بدلاً من معناها العام. خذوا مثلا كلمة "الرب"، فإن العرب يطلقونها على ما سوى الله أيضا، فيسمّون سيدَ القوم ربًّا، لأنه يقوم بتربية القوم في نطاقه. والأب والأم والأستاذ كلهم أرباب من نوع معين، إذ يقومون بتربية الإنسان تربية جسمانية وعلمية. وفي اللغة العبرانية يُطلَق الرِّبِّيُّ على عالم الدين (الأقرب). فلو اكتفى الله تعالى بقوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ دون قوله تعالى ﴿الذي خَلَقَ﴾ فربما ظن البعض أن الرب لم يُستعمل هنا بمعناه العام أي: الله تعالى، وحتى لو لم يفكّر أحد هذا التفكير، فمع ذلك لم يتضح من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ما إذا كانت كلمة الرب قد استُعملت هنا بمعناها الخاص أم بمعناها العام، إذ إن الأب والأم والأستاذ والمِلِك والمعلِّم الديني كلهم يُسمَّون أربابًا؛ فدَرْءًا لهذا الإشكال أضاف الله

تعالى هنا قوله ﴿الَّذي خَلَقَ﴾، فبيّن أنه قد استعمل الرب هنا بمعناه العام الواسع.. أي الله الذي يقوم بربوبية عامة واسعة. فكأنه تعالى يقول: عليك أن تقوم بهذا الإعلان باسم ربك الذي خلق الخلائق وطوَّرها درجة فدرجة. فمعنى الرب: مَن يخلُق ثم يطوّر درجة فدرجة، ولكن حين تُستعمل كلمة الرب بمعناها الخاص يبقى في القلب شبهة ولا يعرف الإنسان إلى أي درجة من الربوبية تشير كلمة الرب هنا، هل إلى الدرجة البدائية أم الوسطية أم الأخيرة. فمثلا: عندما يطلق اليهودي على أحد اسم "الرِّبِّيّ" فيعني بذلك أنه منذ أن عَقِلَ الدينَ كان هذا الإنسان يعلّمه الدين ويربيه روحانيا. وإذا سمّى أحد المرضعة رَبّةً فيعني أنها قامت بتربيته منذ ولادته إلى أن قدر على المشي والجري. فلأن الربوبية أنواع ودرجات، لذلك أضاف الله هنا قوله ﴿الذي خَلَق﴾، فربوبية الأب تبدأ من مرحلة الغذاء من لحم وخضار وغيرهما مما يساعد جسمه على إعداد شيء يسمى النطفة. ثم تبدأ ربوبية الأم منذ مرحلة النطفة، فتربّيها وتطوّرها في رحمها، ثم بعدما تلد المولودَ ترضعه. أما إذا لم تستطع الأم إرضاع المولود لمرض أو لفقدان الحليب عندها، فتبدأ ربوبية المرضعة له. ثم عندما يعقل تبدأ مرحلة ربوبية الأستاذ له، وعندما يكبر أكثر تبدأ ربوبية عالم أكبر منه له. وعندما يصبح شابًا يتلقى الربوبية على يد إنسان رباني. ثم إن الملك يتولى تربيته.

باختصار، إن الربوبية أنواع ودرجات، بعضها فوق بعض، إلا أن كلمة الرب تُطلق على أي نوع وعلى أي مرحلة من الربوبية، ولذلك أضاف الله تعالى هنا قوله ﴿الَّذي خَلَق﴾ إلى قوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فبيّن بذلك أننا لا نعني من الرب ذلك الذي تبدأ ربوبيته من مرحلة النطفة أو مرحلة الولادة أو مرحلة نطق الإنسان وكلامه، أو مرحلة البلوغ والشباب، بل نعني ذلك الرب الذي تبدأ ربوبيته منذ زمن الخلق؛ أي منذ أن ظهرت المخلوقات. فنأمرك يا محمد، أن تبدأ دعوتك باسم ذلك الرب الذي تبدأ ربوبيته منذ زمن الخلق، فإنه لا يزال يؤيدك وينصرك منذ لم يقدر أحد من أقاربك ولا زملائك على نصرتك، ذلك الرب الذي تتضاءل أمام ربوبيته كل ربوبية أخرى بحيث لا يقدر أحد على أن يدعي الشركة في ربوبيته. غير أن المشايخ ينسبون إلى عيسى عليه السلام خلق الطيور فعلاً (معارف القرآن للمفتي

محمد شفيع، قوله تعالى: أني أخلق من الطين كهيئة الطير...)، وهكذا قد جعلوه شريكا في صفات الله تعالى مِن جراء عوجٍ في فهمهم.

وهناك أمر غريب آخر لافت للنظر هنا، وهو أن الله تعالى لم يقل هنا "الرب" بل قال ﴿رَبِّك﴾، ولكنه بعد ذلك لم يقل: "الذي خلقك" بل قال ﴿الذي خَلَقَ﴾.

الحكمة في ذلك أن ضمير الكاف في قوله تعالى ﴿ربك﴾ أُضيف تفنيدًا للشرك وتأييدًا لعقيدة الرسول ﷺ عن وحدانية الله تعالى، أما لو قيل: "الذي خلقك" بدلاً مِن ﴿الذي خَلَقَ﴾، لصار الموضوع الواسع محدودا جدا، لأن جملة "الذي خلقك" يعني الذي خلقك أنت فقط، أما قوله تعالى ﴿الذي خلق﴾ فيعني الذي خلقك وغيرك من المخلوقات كلها، وبتعبير آخر: الذي خلَقك وآباءك وأجدادك وغيرهم، وهكذا يصل الأمر إلى خلق آدم بل إلى خلق عناصر الكون وأجزائها. فذكرَ الله تعالى "الخَلْقَ" هنا مطلقًا ليشير إلى سعة صفة خلقه التي لا حدود لها، حيث بيّن تعالى أنّ عليك أنْ تعرض على الناس ذلك الإلهَ الذي أنشأ صلةً بين الخالق والمخلوق، والذي لم تظهَر صفةُ خلقه مِن خلالك فقط، بل لم تزل الدنيا ترى مشاهد خلقه منذ الأزل.

انظرْ إلى بلاغة القرآن المعجزة، حيث ذكر صفةً من صفات الله تعالى مقيدةً مرةً، وذكَر صفته الأخرى بدون تقييد توسيعًا للمعاني إلى أبعد حدّ. ومتى يقدر الإنسان على هذه البلاغة في كلامه؟!

ثم إن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يشير فيما يشير إلى كمال الرسالة المحمدية أيضا. ذلك أن الله تعالى لما قال للنبي ﷺ اعرضْ على الناس هذا التعليم باسم ربك الذي خلق الخلائق، فكأنه تعالى قال: لقد وضعنا الأساس لمهمّتك منذ أن خلقنا الكون، لذا فأَعلِنْ عن رسالتك بين الناس بنصرة وتأييد ذلك الإله الذي خلق الكون من أجل هذا الهدف العظيم، إذ لم تكن غاية خلق الكون إلا إظهار وجودك للعالم. إذن، فإذا كان قوله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إعلان عن الرسالة المحمدية، فقوله تعالى ﴿الذي خلق﴾ إعلان عن كمال الرسالة المحمدية، حيث قال الله لرسوله: كنت غايتنا المنشودة الوحيدة منذ أن خلقنا الخلائق،

والوحي الذي أنزلناه عليك هو هدفنا المنشود منذ أن خلقنا أول إنسان في الدنيا، فنأمرك الآن أن تذهب إلى الناس وتقول لهم إن الوحي الذي نزل عليّ يبلغ من العظمة والسمو بحيث كان هو الهدف المنشود منذ أن خلق الله تعالى أول ذرة من هذا الكون، فلو كانت هذه رسالةَ اليوم ورفضتموها فلن تنجوا من عذاب الله أيضا، فكيف تنجون من عذاب الله تعالى بإنكار هذه الرسالة الإلهية العظيمة التي من أجلها وضع الله أساس العالم؟

باختصار، يقول الله تعالى لرسوله: اعرضْ هذا الوحي على الناس باسمي.. أي بصفة رسولي. لا تذهب إليهم بصفة شخص عادي، بل بصفة مسؤول رسمي من عندنا، وقل لهم لقد بعثني الله الذي خلق المخلوقات منذ البداية حتى اليوم.. أي أن الغاية التي من أجلها خلق الله الكون تتحقق اليوم من خلالي، فإن لم تؤمنوا بي فكأنكم اعتبرتم خلق الكون لغوًا. وإلى هذا المعنى نفسه يشير الحديث القدسي: "لولاك ما خلقت الأفلاك" (الموضوعات الكبرى للملا على قاري حديث رقم ٧٥٤). فكأن هذا الحديث القدسي شرحٌ لهذا المعنى الذي بيّنه القرآن في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بيانا لطيفا.. أي أعلنْ نبوتك في العالم باسم ذلك الإله الذي وضع الأساس لمهمتك هذه منذ أن بدأ خلق الكون.

أما المفهوم الآخر لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فهو: ادْعُ ربك لنصرتك مستعينًا بصفته التي تسببت في خلق الكون، وقلْ يا ربي الذي خلقتَ الخلائق، إذا كنتَ قد خلقتَها لتحرز الكمال الذي أنا مَظْهَرُه، فحَقِّقْ الهدف الذي بعثَتني من أجله. وكأن الله تعالى يأمر رسوله - بالإضافة إلى أن يعلن رسالته الكاملة للناس- أنه إذا أراد أن يدعو الله تعالى لتقدُّمه فعليه أن يدعو على الدوام قائلا: يا ربي الذي خلق الخلائق من أجل هذا اليوم، أتوسل إليك بصفتك "الخالق" أنك ما دمتَ قد خلقتَ الكون لهذا اليوم، وما دام قد حان أن يتحقق هدفك الذي أردتَه منذ الأزل، فانصرْني الآن نصرًا خاصا وباركْ في إعلان نبوتي.

فكأن الله تعالى يأمر رسوله: أعلنْ بين القوم أن الهدف الذي بُعثتَ من أجله ليس عاديا، بل هو هدف الله المنشود منذ أن بدأ خلق الكون؛ كما أن من واجبك

أن تدعو الله تعالى قائلا: رب اكتبْ لي النجاح في تحقيق الهدف الذي بعثتني من أجله، لأنني لو فشلتُ لبَطُلَت الغاية من خلق الكون، فأتوسل إليك بهذه الصفة التي تسببت في خلق الخلائق أن اكتبْ لي النجاح وجَنِّبْني الفشلَ، لأن فشلي يعني فشل المخلوقات كلها. وهكذا فقد كشف الله تعالى عظمة رسالة الرسول ﷺ، كما علَّمه طريق الدعاء بأسلوب لطيف.

لقد بينتُ من قبل أن قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني: أننا قد خلقنا الإنسان لهدف عظيم، ولكن ذلك الهدف لم يكن قد تحقق بعد، ونحقّقه الآن بواسطتك يا محمد. ولو درسنا الواقع وجدنا أن كل إنسان -أيًا كانت ديانته- يؤمن أن الإنسان خُلق لهدفٍ وليس عبثًا. إن أتباع جميع الديانات متفقون على أن لخلق الإنسان غاية، ولكنهم يختلفون في كيفية تحقُّقها. فمنهم من يقول: لقد تحقق هذا الهدف في بداية الخلق؛ فالوحي الذي أنزله الله تعالى في البداية لهداية البشرية كان كافيًا لسد جميع حاجات الناس. هذه عقيدة الهندوس الآريين الذين يعتبرون "الفيدا" كتابَهم السماوي، حيث يؤمنون أن التعليم الكامل يجب أن ينــزل فيه منذ بدء الخليقة. (أنوار حقيقت لجموبتي ايم اي، -وهي ترجمة أردية لِــ ستيارتهـــ بركاش لــ ديانند- الباب السابع ص ٢٠١-٢٠٤)

بينما نجد غيرهم يقولون إنه مما لا شك فيه أن هدف خلق الإنسان قد تحقّقَ، ولكنه تحقق تدريجيا على يد الأنبياء. فيقول اليهود: لقد بُعث آدم أولاً ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم موسى ثم أنبياء آخرون حتى انتهى نزول الوحي عند النبي ملاخي.

عندما نتفحص هذه العقيدة اليهودية نجد أن هذه الغاية النهائية لم تتحقق لا في موسى ولا في ملاخي، لأن موسى لم يعتبر نفسه المقام النهائي، كما سنبين لاحقًا. أما ملاخي فلا يعتبره اليهود أنفسهم أفضل من موسى. والسؤال الآن: أين الذي يمكن أن يُعتبر النقطة النهائية من غاية خلق الإنسان؟ هل نسي الله هذه الغاية التي من أجلها خلق النوع البشري والعياذ بالله؟

ويقول النصارى إن عيسى عليه السلام هو النقطة الأخيرة من غاية خلق الإنسان. وهذا باطلٌ بداهةً لسببين: أولهما: أن النصارى يعتقدون أن المسيح ليس ابن الإنسان، بل هو ابن الله (يوحنا ١: ٤٩)، وحيث إنه ليس ابن آدم، فكيف صار النقطة الأخيرة من غاية خلق الإنسان؟ فإن الحديث هنا عن أبناء آدم، وليس عن ابن الله، ونبحث فيمن حقق الغاية من خلق الإنسان! وما دام الحديث هنا عن غاية خلق نسل آدم، فلا بد أن نبحث عن شخص من أبناء آدم صارَ الغايةَ المنشودة من خلق الإنسان.

وثانيهما: إن النقطة النهائية لشيء تكون آخرَ جزءٍ منه، فمثلاً إذا وضعتَ خطًّا فإن آخره يسمى نقطته الأخيرة، لكن عندما ندرس أمر المسيح عليه السلام نجد أن من المحال اعتباره النقطةَ النهائية لخلق البشر؛ لأنه ليس النقطة النهائية للخط الذي بدأ بآدم. إن آدم عليه السلام أرسى أساس الشريعة، فأضاف إليها نوح، ثم جاء إبراهيم وزاد فيها، ثم جاء موسى وقدّمها على الناس بشكل أكمل من ذي قبل. فسلسلة الشريعة بدأت من آدم، ثم ظلَّت تتطور وتكتمل بالتدريج على مر العصور، فلا يمكن أن يُعتبر النقطةَ النهائية لغاية خلق البشر إلا الذي يضيف إلى الشريعة السابقة ويكملها، أما الذي يعتبر الشريعة لعنةً ويفرّ منها فكيف يكون النقطة النهائية لغاية خلق البشر؟ لا بد أن تكون النقطة الأخيرة من الشيء من جنس النقطة البدائية منه. فإن النقطة النهائية لقطعةِ خشب -مثلاً- لا بد أن تكون خشبًا، وإذا زعم أحد أن النقطة الأخيرة للخشب هي الماء أو الهواء فقوله غير معقول. وإن آخر نقطة من سبيكة الذهب ذهبٌ، وآخر نقطة من قطعة الفضة فضة، وآخر نقطة من قطعة الحديد حديد، ولو قال أحد أن آخر نقطة من قطعة الذهب أو الفضة أو الحديد خشب فسيضحك عليه الجميع معتبرين كلامه هراء وغباء. هناك تسلسل للشريعة منذ زمن آدم، وعندما جاء نوح قدّم شريعة أفضل من ذي قبل، وعندما جاء موسى قدَّم شريعة أفضل من نوح. إذن، فلا يمكن أن يكون النقطة النهائية بعد موسى إلا الذي يقدم شريعة أفضل من شريعته، وليس الذي يعتبر الشريعة لعنةً أصلاً. فباطلٌ ادعاءُ المسيحيين أن المسيح هو النقطة الأخيرة لغاية خلق البشر.

أما ادعاء الهندوس أن الشريعة الكاملة نزلت في بدء الخليقة فقد فنّده القرآن الكريم بأدلة عقلية في هذه السورة نفسها، حيث قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.. أي أيها الناس انظروا إلى خلقكم كيف تمّ تدريجيا. فإنكم لا تصبحون عقلاء بالغين دفعة واحدة، بل تصلون إلى هذه المرحلة بالترقي شيئا فشيئا. إذا كان خلق البشر يتم بالتدريج ولا يُخلقون بشكل كامل في يوم واحد، فلماذا تنكرون التدريج في الأمور الروحانية؟ كلا، بل يتم الترقي في الروحانيات درجة بعد درجة كما في الماديات، ولا يمكن أن يبلغ الشيء الروحاني درجة الكمال فجأة من دون مروره بمراحله الارتقائية. والحق أن قانون التطور ليس ساريًا في خلق الإنسان فحسب، بل هو سارٍ في كل ما خلقه الله تعالى حتى الأشياء المادية؛ فالشمس أو القمر لم يُخلق أيٌّ منهما في يوم واحد، بل قد أثبت علماء الهيئة أن الشمس -مثلاً- كانت في البداية على شكل ذرات دخانية، ثم بدأت فيها حركة دورانية، ثم اقتربت هذه الذرات بعضها من بعض، ثم تشكلت في صورة مادة، ثم بعد فترة طويلة طالت مليارات السنين أخذت الشمس هذه الصورة. والحال نفسه بالنسبة إلى خلق الحديد أو الذهب أو الفحم أو الماس، فكلها خلقت بعد فترة تطوُّرٍ طويل. إن الفحم شيء بسيط جدًا، ولكنه أيضًا لم يُخلَق في يوم واحد، بل في مئات الآلاف من السنين. ولم يخلق الماس في يوم واحد، بل في ملايين الملايين من السنوات. ويقال أن الماس تخلق من الفحم (الموسوعة اليهودية المجلد ٧ تحت كلمة: Diamond). وهذا يعني أن الشجرة التي ظلت مطمورة في الأرض دهورًا تحولت أولاً إلى الفحم ثم إلى الماس. فلم يُخلق شيء إلا بعد مروره بمراحل ارتقائية كثيرة. وما دام هذا القانون الإلهي باديًا في الماديات، فكيف يقال إن الوحي الكامل نزل بمجرد أن خُلقت الخليقة؟ كلا، بل أن قانون التطور سار في الوحي والإلهام كما فيما خلق الله تعالى من أشياء مادية. من المحال أن يعمل قانون الارتقاء عمله في الأشياء المادية، ويكون نظام الوحي والإلهام من دون ارتقاء.

إذن، قد فنّد الله تعالى بقوله ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ عقيدة الهندوس بأن الشريعة قد نزلت كاملة في يومها الأول (نسخة خبط أحمدية، لباندت ليخرام، ص

٣٤٥). كلا، بل إن الإنسان لم يزل في تطور مستمر إلى أن بلغ مقام الشريعة الكاملة، وليس أنه أُعطِيها كاملة في أول يومه.

والسؤال الذي يوجهه إلينا الخصم هنا هو: ما دامت النظرية المسيحية باطلة، والفكرة اليهودية باطلة، والعقيدة الهندوسية باطلة، فكيف تحققت غاية خلق الإنسان إذن؟ تقولون إن العقيدة اليهودية باطلة لأنها تقول أن الوحي قد انقطع بعد النبي ملاخي، الذي هو نبي عادي، مع أن النقطة الأخيرة لخلق الإنسان يجب أن يكون أفضل من موسى عليه السلام، والنظرية المسيحية باطلة لإنكارها الشريعة أصلاً، والفكرة الهندوسية باطلة لأنها تقول بنـــزول الشريعة الكاملة منذ بدء العالم، مع أنها يجب أن تنـــزل في النهاية لا في البداية. فأَخْبِرونا الآن: بأي نبي تحقّقَ هدفُ خلق الإنسان إذن؟

قبل الرد على هذا السؤال أود القول: لقد بُعث إلى العالم آلاف الأنبياء حتى اليوم، ولكن معظمهم لا نعرف أسماءهم، دعك أن نعرف وحي الله الذي نزل عليهم! فيدعي الهندوس مثلاً أن كتابهم "الفيدا" نزل منذ بداية العالم، ولكن لا يمكنهم أن يثبتوا على مَن نزل الفيدا من الريشيين،★ وما داموا لا يعرفون هذا الأمر البسيط عنهم فكيف يمكن أن يعتبروهم غاية خلق الإنسان؟

أما أتباع الزرادشتية فيعتبرون زرادشت نبي الله، ولكن يوجد في كتابه أنباء واضحة عن بعثة نبي بعده (سرفنك دساتير ص ١٩٠)؛ مما يعني أنه لم يكن النقطة الأخيرة من خلق الإنسان، وإلا لم ينبئ عن بعثة نبي ذي شريعة بعده.

والآن نتفحص ما إذا كان أي من أنبياء بني إسرائيل هو الغاية من خلق الإنسان أم لا؟

★ كلمة "الريشي" يطلقونها على عالم دين هندوسي أو ناسك على شاكلة الرهبان في المسيحية، وقد أُخذت هذه الكلمة في الأصل من أربعة أشخاص نـــزل عليهم "الفيدا" كتاب الهندوس في بداية الكون حسب اعتقادهم، وكل واحد منهم يسمى "ريشي". (المترجم)

إن النبي الذي تعاليمه هي أكثر وضوحًا من تعاليم جميع أنبياء بني إسرائيل الآخرين هو موسى عليه السلام. كما أن الكتاب المقدس قد قدّم جزءًا من تعاليم إبراهيم أيضا. والسؤال الآن: هل كان إبراهيم عليه السلام النقطة الأخيرة للإنسان؟

إننا نجد أن الله تعالى قد قال لإبراهيم: "وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ" (التكوين ٢٢: ١٧-١٨).. أي ليس بواسطتك، بل بواسطة نسلك سوف تتبارك البلاد كلها. لقد جُعلتَ نبيًا لزمن محدود، ولأمة محدودة، ولكنا نريد أن تتبارك جميع أمم الأرض، ولن يتحقق هدفنا هذا من خلالك، بل من خلال نسلك.

وبغض النظر عن القوم الذين تحققَ بهم هذا الوعد الإلهي مِن نسل إبراهيم، أركّز هنا على أن هذه الكلمات تؤكد بوضوح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن النقطة النهائية لغاية خلق الإنسان، لأن الله تعالى يقول له صراحة إنه ليس من خلالك بل من خلال نسلك نهيئ الأسباب بحيث تتبارك أمم الأرض كلها.

لقد تبين من ذلك أن النقطة الأخيرة لغاية خلق الإنسان سيكون مؤسسَ دين عالمي، إذ من المقدر أن تتبارك به جميعُ أمم الأرض، ولا يمكن أن تتبارك جميع أمم الأرض إلا بمَن يكون مؤسسَ دين عالمي، وبالتالي لا يمكن أن يُعتبر إبراهيم عليه السلام النقطة الارتقائية الأخيرة التي تتحقق بها غاية خلق الإنسان، إذ قد تنبأَ أنه سيخرج من نسله شخص تتم على يده دعوة أمم الأرض كلها، ومن خلاله تتبارك أمم الأرض كلها، ومن خلاله تعرف الأمم كلها طرق الهدى وقرب الله تعالى. بتعبير آخر إن هذه النبوءة هي عن مؤسس دين عالمي، والشخص الذي كانت ستتبارك به جميع أمم الأرض هو الذي يكون الغاية النهائية للأنبياء، ولكن هذا الهدف لم يتحقق في زمن إبراهيم عليه السلام.

ولو قيل إن هذه النبوءة قد تحققت من خلال موسى عليه السلام، فهو قول باطل، لأن الديانة اليهودية أولاً خاصةٌ باليهود، ولم يُبعث موسى عليه السلام إلا لإصلاح اليهود فقط، في حين أن الله تعالى قد وعد إبراهيم عليه السلام أن أمم الأرض كلها سيتباركون من نسله وسيزيد نسله باستمرار حتى يرتقوا في مراحل التطور ليأتي يوم يتم فيه

دعوة العالم كله من خلالهم ويصل صوت الله تعالى إلى الدنيا كلها. وحيث إنه لم يتبارك بموسى عليه السلام إلا بنو إسرائيل، وحيث إن الديانة الموسوية كانت خاصة بهم، فلا يمكن أن تُعتبر مصداقا لهذه النبوءة.

وثانيا: يخبر موسى عليه السلام بنفسه عن مجيء نبي بعده، حيث قال: إن الله أخبرني بوحيه: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لا يَسْمَعُ لِكَلامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ". (التثنية ١٨: ١٨-٢٠)

فموسى عليه السلام ينبه هنا أن نبيًا سيأتي بعده، وتكون معه شريعة جديدة، فقوله "مثلك" يعني أنه سيكون صاحبَ شريعة مثلك. فلو اكتفى بقوله: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ" لكان المراد أنه أخبرَ عن بعثة نبي غير تشريعي ككثير من الأنبياء غير التشريعيين الآخرين المبعوثين في بني إسرائيل. لكن كلمة "مثلك" تبين أن هذه النبوءة لا تشير إلى بعثة الأنبياء الآخرين الذين أتوا في بني إسرائيل؛ إذ لم يكونوا مثل موسى، فهو صاحب شريعة وهم لم يأتوا بشريعة جديدة. فالأمر المهم في نبوءة موسى هذه هو أن ذلك النبي يكون صاحب شريعة مثل موسى، وأن الله تعالى سيلقي كلامه في فمه، مما يعني أن نبيًّا ذا شرع جديد كان سيُبعَث بعد موسى بحسب نبوءته. وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن يُعتبر موسى عليه السلام آخر نقطة من التطور الروحاني.

ثم يقول موسى عليه السلام في نبوءة أخرى: "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مع عشرة آلاف قدوسي★، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ". (التثنية ٣٣ : ٢).

★ الكلمات التي تحتها الخط قد حرّفها المسيحيون في التراجم الحديثة، فسجّلنا هنا ترجمة الكلمات الواردة في الطبعة الأردية عام ١٨٧٠ مرزا بور الهند، والطبعة الأردية عام ١٩٢٢ برتش ايند فارن بائيبل سوسائتي اناركلي لاهور باكستان. (المترجم)

لقد تحدث موسى عليه السلام هنا عن ثلاث تجليات إلهية: فقوله: "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ" يشير إلى ظهور موسى، وقوله: "وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ" يشير إلى ظهور عيسى. ثم تتحدث هذه النبوءة عن ظهور تجلٍّ ثالث بعدهما الذي يتمّ من فاران، ويكون بيد هذا الموعود شريعة نارية.

لقد تبين من هذه النبوءة أن موسى وعيسى -عليهما السلام- لم يكونا النقطة النهائية من سلسلة النبوءة، بل كان من المقدر أن يأتي مظهرٌ لله تعالى من جبال فاران حاملاً شريعة بعد هذين المظهرين الإلهيين اللذين ظهرا من سيناء وسعير. ولا شك أن الذي ظهر من جبال فاران هو محمد رسول الله ﷺ، لأن فاران هو اسم الجبال ما بين مكة والمدينة. وفي التوراة ما يؤكد ذلك، حيث ورد فيها في معرض الحديث عن إسماعيل عليه السلام: "وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ" (التكوين ٢١: ٢١). وأهل مكة أيضا يعتبرون أنفسهم من نسل إبراهيم عليه السلام. فثبت أن المظهر الرباني الذي ظهر من جبال فاران هو محمد رسول الله ﷺ، ومن خلاله تحققت هذه النبوءة لموسى عليه السلام.

ثم ورد في هذه النبوءة: "وَأَتَى مع عشرة آلاف قدوسي". وهذه الجزئية من النبوءة لا تنطبق إلا على النبي ﷺ. فالمسيح عليه السلام لم يكن له إلا اثنا عشر حواريًا، أحدهم باعه للعدو مقابل "ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ" (متّى ٢٦: ١٥)، والآخرون تفرّقوا عنه عند حادث الصليب. هناك إنسان واحد في العالم يؤكد التاريخ أنه قد أتى بعشرة آلاف قدوسي وهو نبينا ﷺ، إذ أتى لفتح مكة بجيش مكون من عشرة آلاف قدوسي (البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح). ثم إنه أتاها عبر الجبال التي تسمى جبال فاران، والتي قد جاءت نبوءة في التوراة بشأنها.

لقد تبين مما سبق بيانه أن موسى عليه السلام لا يعتبر نفسه النقطة الأخيرة لخلق الإنسان.

ثم تقول هذه النبوءة صراحة: "وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُم". وهذا يعني أن شريعة كانت ستنـــزل بعد موسى عليه السلام، وما دامت هناك شريعة باقية فلا بد من التسليم أنها ستكون أفضل من الشريعة السابقة؛ وبالتالي ثبت أن موسى عليه السلام لم يعتبر نفسه النقطةَ الأخيرة من التطور الروحاني.

وكان داود الطّيّلا من أعظم الأنبياء الذين أتوا بعد موسى الطّيّلا، تعالوا نر هل حقق هو هذا الهدف الأخير من خلق الإنسان؟

الجواب بالنفي، لأنه بنفسه يقول: "حَلْقُهُ حَلاوَةٌ، وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ." (نَشِيدُ الأَنْشَادِ ٥: ١٦)

لقد ورد في الطبعة الأردية للتوراة: "مثيرًا للعشق"، بدلاً من "وَكُلُّه مشتهيات"، بينما ورد في الطبعة العبرية "محمديم"، أي محمد. وكلمة "محمد" قد ترجمها عديد من المترجمين "مثيرًا للعشق" خداعًا ليخفوا اسم النبي ﷺ. ومثال ما فعلوه أن يقول أحد لغيره: إن محمدا قال كذا، فيترجمه غيره كالآتي: إن شخصًا صاحبَ حمدٍ قال كذا. فقد لجأ المسيحيون إلى خداع مكشوف عند ترجمة التوراة، مع أن كلمة "محمديم" لا تزال كما هي في الطبعات العبرية، ومعناها: محمد. لا شك أن "يم" في آخر "محمديم" للجمع، لكن عبارة هذه النبوءة كلها تبين بجلاء أنها عن شخص واحد، وقد استُخدمت صيغة الجمع تعظيما، وليس أن النبوءة تتحدث عن جماعة من الناس اسم كل واحد منهم محمد.

والعلامة الأخرى التي ذكرها داود الطّيّلا لهذا الموعود: "حبيبي سليمٌ وأسمَرُ لا عَيبَ فيه، عَلَمٌ بَينَ عشَرَة آلافٍ" (نَشِيدُ الأَنْشَادِ ٥: ١٠). وهي نفس العلامة التي ذكرها موسى الطّيّلا في نبوءته عن هذا الموعود والتي تحققت عند فتح مكة.

إن أكبر نبي بعد داود هو إِشَعْيَاء -عليهما السلام- وله أهمية بالغة بحسب التوراة. تعالوا نر هل كان إِشَعْيَاء الطّيّلا النقطة الأخيرة من خلق الإنسان؟ وهل يمكن أن يحقق الهدف الذي أراده الله تعالى؟

الجواب، لا، لأن إِشَعْيَاءَ نفسه يقول: "إِنِّي أُعْطِيهِمْ فِي بَيْتِي وَفِي أَسْوَارِي نُصُبًا✦ وَاسْمًا أَفْضَلَ مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ. أُعْطِيهِم اسْمًا أَبَدِيًّا لا يَنْقَطِعُ. وَأَبْنَاءُ الْغَرِيبِ الَّذِينَ

✦ قد وردت في الطبعة الأردية كلمة "نشان" (ومعناها: العلامة) مكان كلمة "نُصُبًا"، وفي طبعة عربية حديثة وردت كلمة "جاهًا" مكان كلمة " نُصُبًا". (المترجم)

يَقْتَرِنُونَ بِالرَّبِّ لِيَخْدِمُوهُ وَلِيُحِبُّوا اسْمَ الرَّبِّ لِيَكُونُوا لَهُ عَبِيدًا، كُلُّ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ السَّبْتَ لِئَلاَّ يُنَجِّسُوهُ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِعَهْدِي، آتِي بِهِمْ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي، وَأُفَرِّحُهُمْ فِي بَيْتِ صَلاتِي." (إِشَعْيَاء ٥٦: ٥-٧).

فإِشَعْيَاء عليه السلام ينبئ هنا أن الله تعالى سيعطي الأمة الربانية في المستقبل اسمًا جديدا، ويكون هذا الاسم جميلاً أبديًّا حتى يكون أحبَّ إلى الناس من أبنائهم وبناتهم. سيرضون بموت آبائهم وبناتهم، ولكن لن يرضوا بالتخلي عن هذا الاسم.

هذا الاسم هو اسم الإسلام الذي مُنح للمسلمين، والذي يخبر عنه إِشَعْيَاء عليه السلام أن الناس يحبّون هذا الاسم بحيث يمكنهم أن يتركوا بنيهم وبناتهم ويرضوا بقتلهم أمام أعينهم، ولكنهم لن يرضوا أن يتخلوا عن الإسلام ويُحرموا من هذا الاسم الجميل.

ثم يخبر إِشَعْيَاء: "وَأَبْنَاءُ الْغَرِيبِ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِالرَّبِّ لِيَخْدِمُوهُ وَلِيُحِبُّوا اسْمَ الرَّبِّ لِيَكُونُوا لَهُ عَبِيدًا".. أي أن هذا الدين الجديد سيدخل فيه أمم أخرى. وهذا هو نفس ما قيل لإبراهيم عليه السلام بأن جميع أمم الأرض سيتبركون من نسله. فإِشَعْيَاء عليه السلام يؤكد نفس الأمر ويقول إن أمما أخرى ستدخل في هذا الدين وتحب الله تعالى وتحظى بقربه.

والخبر الثاني في هذه النبوءة أنهم لن يخالفوا السبت، ثم قال: "كُلُّ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ السَّبْتَ لِئَلاَّ يُنَجِّسُوهُ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِعَهْدِي، آتِي بِهِمْ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي، وَأُفَرِّحُهُمْ فِي بَيْتِ صَلاَتِي".. أي أن هؤلاء القوم سيأتون ويسيطرون على هذه البلاد.

إن التدبر في نبوءة إِشَعْيَاء عليه السلام يكشف لنا خمس علامات: أولا: أن هذه الأمة ستُعطى اسما جديدا، ثانيا: أن هذا الاسم يكون أبديا ولن يمحى، ثالثا: ستنضمّ الأمم الأخرى لهذا الدين، رابعا: أنهم سيحافظون على السبت، خامسا: أنهم يؤتى بهم إلى مُلك بني إسرائيل فيستولون عليه.

ولا شك أن الدين الذي توافرت فيه هذه العلامات الخمس هو المصداق لهذه النبوءة.

لقد كان عيسى عليه السلام أكبر نبي خلا في بني اسرائيل بعد إِشَعْيَاء عليه السلام، ولكن لم يتحقق من خلاله إلا الاستيلاء على فلسطين من هذه العلامات الخمس.

ويقول إِشَعْيَاء عليه السلام: إن هذه الأمة توهب اسما جديدا هو أحبّ من الأبناء والبنات. وهذا الاسم لم يُعطَ إلا للمسلمين. يقول الله تعالى ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾(الحج:٧٩).. أي أن الله تعالى قد سماكم المسلمين منذ زمن قديم. أما النصارى فلا اسم لهم، فأحيانا يسمون نصارى وأحيانا مسيحيين وأحيانا عيسويين نسبةً إلى عيسى. وأما النصارى الإنجليز فيسمون أنفسهم: كريستيانز، وهذا ليس اسما في الحقيقة، إنما هو نسبة إلى المسيح عليه السلام. باختصار، لم يُعطَ المسيحيون أي اسم. قد أُطلق عليهم في الزمن الأول اسم، ثم اسم آخر، ثم اسم ثالث، وهكذا تغيرت أسماؤهم على مر العصور. أما الأمة التي أُعطيتْ اسمًا واحدًا من قبل الله تعالى لا من قبل إنسان، فهي الأمة المسلمة وحدها. وعن هذا الاسم نفسه تنبأ إشعياء إذ قال: "إِنِّي أُعْطِيهِمْ فِي بَيْتِي وَفِي أَسْوَارِي نُصُبًا وَاسْمًا أَفْضَلَ مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ".

فلو ادعى المسيحيون أنهم مصداق هذه النبوءة، فهل يمكنهم أن يدّعوا أن الله تعالى قد سماهم مسيحيين؟ لا شك أنه يكون ادعاء باطلا تماما، إذ لا يثبت من التوراة إطلاقًا أن الله تعالى قد سماهم مسيحيين.

ثم تخبر هذه النبوءة "أُعْطِيهِم اسْمًا أَبَدِيًّا لا يَنْقَطِعُ".. أي أن الاسم الذي يوهب لهذه الأمة سيبقى للأبد ولن يتغير أبدًا رغم انقلاب الزمان واختلاف البلاد والمناطق.

وهذه الجزئية من النبوءة أيضًا لا تنطبق على المسيحيين أيضا، فلا اسم لهم أولاً، وثانيًا تتغير تسميته على مر الأيام باستمرار.

والخبر الثالث في هذه النبوءة أن أولاد الغرباء يدخلون في هذا الدين. ولكن المسيح عليه السلام يقول للحواريين: ليس مسموحًا لكم تبليغ الأمم الأخرى وضَمُّهم إلى دينكم.

والخبر الرابع في النبوءة أن هذه الأمة تحافظ على السبت. لكن الأمة المسيحية قد غيرت السبتَ إلى الأحد إرضاءً لملوك الروم، وهكذا هتكت حرمة السبت، بدلاً من الحفاظ عليها. (موسوعة الأديان، المجلد ١٢ ص ١٠٤ تحت كلمة: Sunday in the Primitive Church)

إذن، فالاستيلاء على فلسطين لن يُعتبر علامةً على تحقُّقِ نبوءة إِشَعْياء إلا في حق أمة توافرت فيها العلامات الأربع الأخرى، لأن الاستيلاء على فلسطين وحده ليس بشيء، فالرومان أيضا قد استولوا عليها.

و لم تتوافر هذه الشروط الأربعة في أمة غير المسلمين.

فأولاً: إن الله تعالى نفسه قد أطلق هذه التسمية على المسلمين حيث قال ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾(الحج:٧٩)

ثانيا: هذه التسمية أبدية، ولا يقدر على تغييرها أحد. يُسمَّى المسلم في أي بقعة من بقاع الأرض مسلمًا على الدوام.

ثالثا: دخول أولاد الغرباء.. أي الأمم الأجنبية.. جائز في الإسلام فقط، وهذا هو الدين الذي لم يخص دعوته بقوم، بل يبلغ رسالة الله الأحد لكل العالم.

رابعا: المسلمون هم المحافظون على السبت، إذ احترموا الجمعة دائما، و لم تخطر بباهم فكرة تغييره قط.

خامسا: قد استولى المسلمون على فلسطين، وقد استمر حكمهم عليها ثلاثة عشر قرنا، ولا يزالون حاكمين عليها✦.

إذن، فنبوءة إِشَعْياء عليه السلام أيضًا تؤكد أنه لم يكن النقطةَ الأخيرة في الارتقاء الروحاني للبشرية، ولا يمكن القول أن غاية خلق الكون قد تحققت من خلاله، لأنه بنفسه يخبر عن بعثة نبي عظيم بعده.

ثم جاء المسيح عليه السلام. فهل كان الغاية من خلق الإنسان؟ الجواب: كلا، وذلك للأسباب التالية:

✦ علمًا أن هذا التفسير قد طبع في عام ١٩٤٦. (المترجم)

أولاً: ليست الديانة المسيحية من نسل إبراهيم ﷺ، بل ليس المسيح ﷺ نفسه من نسل إبراهيم، إذ كان المسيح ابن الله بحسب اعتقاد المسيحيين، وما دام ابنَ الله فكيف يمكن أن يُعَدّ من نسل إبراهيم؟ لقد قال الله تعالى لإبراهيم ﷺ: "وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ". فلا يمكن أن تتحق هذه النبوءة إلا في شخص هو من نسل إبراهيم، وليس في شخص يسمّي نفسه ابن الله.

ولو قال النصارى إن جميع أمم الأرض تباركت من المسيح، قلنا: إن هذه النبوءة الإبراهيمية كانت ستتحقق في شخص غير المسيح، ذلك أن الله تعالى قد أخبر فيها أن الذي يكون النقطةَ الأخيرة لغاية خلق الإنسان سيكون مِن نسل إبراهيم، وعلامته أنه سيكون مؤسس دين عالمي، وسيدعو جميع أمم الأرض إلى دعوة الحق. فإذا كان المسيح قد دعا جميع أمم الأرض فعلاً فهو لم يكن مصداق النبوءة الإبراهيمية لأنها تتعلق بشخص يكون من نسل إبراهيم. ولو سلّمنا جدلاً أن المسيح كان من نسل إبراهيم رغم كونه بغير أب، فأيضا سنقول إن هذه النبوءة لم تتحقق في المسيح، لأن الديانة المسيحية ليست عالمية، فإن المسيح ﷺ نفسه يصف نفسه: "جاء ابن الإنسان ليبحث عن الضالين المفقودين وينقذهم✦" (متى ١٨: ١١).. أي لم يكن غرض بعثة المسيح إلا أن يجمع بني إسرئيل المشردين - في عهد نبوخذنصر- إلى أفغانستان وكشمير وغيرها من المناطق. فلم تكن رسالة المسيح ﷺ موجهة إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

ثم لم تكن التوراة للأمم الأخرى، بل كانت خاصة باليهود بحسب إجماع المسيحيين، ويتضح من الأناجيل أن التوراة لم تكن منسوخة، حيث صرح المسيح ﷺ أنه لم يأت لينسخ التوراة فقال: "لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ"

✦ العبارة التي تحتها الخط هي ترجمة ما ورد في الطبعة الأردية، أما ما جاء في الطبعة العربية فهو: "لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ." (المترجم)

(مَتَّى ٥ : ١٧-١٨). فثبت أن التوراة كانت قائمة إلى زمنه بحسب اعتراف المسيحيين، فثبت أيضًا أنها كانت لليهود فقط لا للعالم كله، وثبت أيضًا أن المسيح عليه السلام لم يكن النقطة الأخيرة لغاية خلق الإنسان.

ثم إن المسيح عليه السلام لما بعث حوارييه الاثني عشر للدعوة أوصاهم قائلا: "إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لا تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لا تَدْخُلُوا، بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَات." (متّى ١٠: ٥-٧)

فالمسيح عليه السلام هنا لا ينهى الحواريين عن دعوة الأمم الأخرى فحسب، بل ينهاهم عن دخول مدينة السامريين. والسامريون قوم اختلطوا ببني إسرائيل، وكانوا يُسمَّون نصف إسرائيليين، ومع ذلك يعتبر المسيح دعوهم حرامًا، ناهيك أن يسمح بإدخال الأمم الأخرى في دينه. فثبت أن النبوءة الإبراهيمية هذه لم تتحقق من خلال الديانة المسيحية، لأن تلك النبوءة تخبر أن جميع أمم الأرض ستتبارك من نسل إبراهيم، بينما نجد مؤسس الديانة المسيحية يوصي حوارييه الإثني عشر ألا يقوموا بدعوة الأمم الغريبة، بل بالحري يقوموا بدعوة اليهود فقط. فثبت أنه لا يمكن القول أن الديانة المسيحية قد جاءت لتمنح البركة للأمم كلها.

ولا ينخدعن أحد بكلمة "بالحريّ". فبعض المسيحيين يقولون -بناءً على كلمة "بالحري"- أننا أُمرنا بدعوة بني إسرائيل أولاً، وليس ألا ندعوَ أية أمة سواهم. ولكن قولهم هذا ليس صحيحا للأسباب التالية:

أولا: الواضح أنه ما لم يؤمن جميع بني إسرائيل بالمسيح، فإن تبليغ الأمم الأخرى ممنوع، وحيث إن اليهود موجودون حتى اليوم فلا يحق للمسيحيين تبليغ الأمم الأخرى.

وثانيا: لقد شرح المسيح عليه السلام نفسه وصيته هذه بقوله: "فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لن تُنهُوا عَمَلَكم في مُدُنِ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَان" (مَتَّى ١٠: ٢٣).

فقد بيّن عليه السلام للحواريين أهم لن ينتهوا من تبليغ بني إسرائيل قبل مجيئه الثاني، وهذا يعني أن من المحتّم أن تقوم أمته بتبليغ بني إسرائيل حتى مجيئه الثاني، ولا يجوز

لهم تبليغ أي أمة أخرى حتى ذلك الوقت. نعم سيتم تبليغ الأمم كلهم بعد بعثته الثانية.

فلا بد من تفسير قوله عليه السلام "بالحري" على ضوء معنى كلامه الآخر، وهو: أنه لا يجوز للمسيحيين تبليغ أي أمة سوى اليهود حتى زمن بعثة المسيح الثانية، فإنه يقول صراحة أنكم لن تنتهوا من تبليغ اليهود حتى آتي مرة ثانية، مما يعني أن من واجبكم أن تَقْصُروا دعوتكم على اليهود حتى بعثتي الثانية، فعندما آتي ثانية فيجوز لكم دعوة جميع الأمم.

ثم يقول المسيح عليه السلام: "لَمْ أُرْسَلْ إِلاّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّة" (مَتّى١٥: ٢٤). فهنا قد زاد الأمر إيضاحا، وحدّد دائرة دعوته وقال لا علاقة لي بأي أمة إلا أمة بني إسرائيل. فما دامت بعثة المسيح عليه السلام خاصة بالقبائل الإسرائيلية، فكيف يمكن أن تكون مصداقًا لهذه النبوءة الإبراهيمية؟ لقد قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أن جميع أمم الأرض ستتبارك من نسله، بينما يقول المسيح عليه السلام لم آت لأبارك جميع أمم الأرض بل بني إسرائيل فقط.

ثانيًا: لم يأت المسيح عليه السلام بشريعة جديدة، مع أن جميع النبوءات تكشف أن الآتي سيأتي بشريعة جديدة. إذن، فلا يمكن أن يعتبر المسيح النقطة الأخيرة من غاية خلق الكون.

ثالثًا: يقر المسيح عليه السلام نفسه أن ذلك "النبي" سيأتي بعد بعثته الأولى وقبل بعثته الثانية، حيث ورد: "الَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ، الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ، وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لا تَسْمَعُ لِذلِكَ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْب. وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ أَيْضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهذِهِ الأَيَّامِ". (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ٣: ٢١-٢٤)

يوضّح الحواريون هنا ما أخبرهم المسيح عليه السلام بأنه لا بد أن يأتي ذلك النبي الذي لم يزل الأنبياء يخبرون عن مجيئه قبل مجيء المسيح ثانيةً، ولا بد أن يتحقق قبل بعثة

المسيح الثانية خبرُ بعثة النبي المشرع الذي ورد في النبوءات. وهذا يعني أن المسيح لا يمكن أن يكون مصداقًا لهذه النبوءة الإبراهيمية، بل إن مصداقها هو ذلك النبي الموعود الذي يكون صاحب شريعة والذي يُبعث ما بين بعثة المسيح الأولى والثانية.

قد يقول المسيحيون هنا إن اعتباركم محمدًا (ﷺ) الغاية من خلق الكون خطأٌ، بل إن المسيح سيظل هو الغايةَ من خلق الكون حيث سيأتي ثانيةً بعد هذا النبي الموعود صاحب الشريعة.

ولكنا نقول: هذه القضية أيضا قد حُسمت، لأن المسيح الثاني الموعود بعثته قد بُعث بفضل الله تعالى، وقد أعلن للعالم أنه خادم محمد رسول الله ﷺ، وأن ما ناله إنما ناله من فيوضه ﷺ، لذا فلا يصحّ القول الآن أن النبي الذي هو غاية خلق الإنسان بقي أن يأتي؛ ذلك أن مَن كان مِن الممكن أن يُعتبر الغاية من خلق الكون هو نفسه جاء وأعلن أنني لست الغاية، بل هو مَن جاء قبلي وهو محمد رسول الله ﷺ.

باختصار، إن تصريحات الحواريين المذكورة آنفًا والمبنيّة على نبوءات المسيح عليه السلام تبيّن بوضوح أن النبي الذي كان "الغاية النهائية" لخلق الكون كان سيأتي ما بين بعثة المسيح الأولى والثانية، وهو سيدنا محمد ﷺ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى لرسوله الكريم هنا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.. أي قُمْ متذكرًا الغاية التي خلق الله الخلائق لأجلها، وبلِّغْ الناس دعوتك، فقد جئتَ تحقيقًا لتلك الغاية، فأعلن باسمي بينهم وقُلْ: إني أقول لكم هذا بأمر الرب، ولكن ليس بأمر ربّ المسيحيين الذي هو بحاجة إلى ابن و لا بأمر رب اليهود الذي هو خاص بالشعب اليهودي، ولا بأمر رب المشركين الذي لا يقدر على خلق شيء، بل أعلن هذا بأمر الربّ ﴿الذي خَلَقَ﴾.. أي الذي خلق المخلوقات كلها لغاية معينة، ولكنها لم تكن قد تحققت بعد، وقد جئتُ محققًا لها.

خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٣

شرح الكلمات:

عَلَقٍ: العَلَقُ: الدمُ عامة؛ وقيل الشديدُ الحمرةِ، وقيل الغليظُ، وقيل الجامد. والعَلَقُ: كلُّ ما عُلِّقَ؛ الطينُ الذي يعلق باليد؛ الخصومةُ والمحبةُ اللازمتان -ذلك لأنهما تعلقان بالقلب- والعَلَقُ جمعُ العَلَقَة، وهي القطعة من العَلَق للدم. (الأقرب)

لو اعتبرنا العَلَق هنا جمعًا فالحكمة في استعمالها جمعًا أن يُراد هنا الجنس الإنساني كله وليس فردًا واحدا من الناس، فيكون المراد من قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: أننا خلقنا كل إنسان مِن علقة.

التفسير: اعلمْ أن من التعابير العربية: خُلِقَ فلان مِن كذا، ومعناه: أنّ هذا مِن طبعه (معالم التنـــزيل للبغوي، قوله تعالى: خُلق الإنسان مِن عَجَل). وقد استعمل القرآن الكريم هذا التعبير في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضعفٍ﴾(الروم:٥٥)، وليس معناه أن الضعف مادةٌ خُلِقَ منها الإنسان، بل المراد أن الضعف من فطرته. ومثاله الآخر قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(الأنبياء:٣٨)، وليس معنى ذلك أن العَجَل مادة يُخلَق منها الإنسان، بل المراد أن العَجلة والتسرع من فطرة الإنسان. كذلك فقول الله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني أن الله تعالى قد جعل العَلَقَ من فطرة الإنسان. ومن معاني العلق المحبةُ والعداوةُ كما ذكرتُ آنفًا، وعليه فقوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني: أن الله تعالى قد خلق في الإنسان ثورة من المشاعر، فخلق فيه المحبة والكراهية أيضا، وإلى هاتين العاطفتين الفطريتين قد أشير هنا. فقال الله تعالى: لو تدبرتم الفطرة الإنسانية لانكشف عليكم أننا قد خلقنا في الإنسان مشاعر الحب والكراهية كلتيهما، وما دام الأمر كذلك فكان لزامًا تكميل مشاعره يوما ما. والواضح أن الإنسان لا يرضى بالتعبير عن مشاعره بشكل ناقص، بل يريد التعبير عن كل ما فيه من مشاعر وأحاسيس. إنه يشعر بحاجة إلى شفاء غليله الفطري ويظلّ توّاقًا لإظهار كل ما فيه من مشاعر وعواطف وأحاسيس فطرية بشكل كامل، ويحقق الغرض

الذي من أجله أودع صانع الفطرة فطرتَه شتى المشاعر والأحاسيس. يقول الله تعالى فكِّروا في الأمر آخذين في الحسبان هذه العاطفة الفطرية الطبعية في الإنسان، فما دام الله تعالى قد أنشأ في فطرته عند خلقه عاطفة المحبة وعاطفة الكراهية فكيف يقال أن الإنسان قد بلغ ذروة تطوره وارتقائه ما لم يتمّ تكميل هاتين العاطفتين الفطريتين، فيُخلَق ذلك الإنسان الذي يحب الله حبًّا لا حُبَّ بعده، ويكره الشيطان كرهًا لا كُرْهَ بعده؟ فباطلٌ القول أن الإنسان كان قد بلغ ذروة تطوُّره قبل بعثة محمد، وكيف يمكن ذلك ولم يكن الله تعالى قد أنزل بعد الشريعة التي تعلِّم الحب الكامل لله تعالى والكره الكامل للشيطان، ولم يكن قد بعث ذلك الإنسان الذي يعبّر عن هاتين العاطفتين تعبيرًا كاملاً، فيحب الله حبًّا لا مثيل له، ويكره الشيطان كرهًا لا نظير له، فلا يجوز لكم القول أن غاية خلق الكون قد تحققت في الماضي. ومن أجل ذلك يأمر الله تعالى رسوله قائلا: يا محمد، اقرأْ اسمَ ذلك الإله الذي خلق الإنسان مزوَّدًا بهاتين العاطفتين، والذي أودع فطرتَه الحبَّ الكامل والكراهية الكاملة، وأعلِنْ بين الناس: الآن سيتم من خلالي التعبيرُ عن الحب الكامل لله تعالى والكراهيةِ الكاملة تجاه الشيطان.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أن الله تعالى قد خلقه من دم متجمد متماسك، أي أنه تعالى قد طوّره من حالة أدنى إلى كمال خلقه. فيبين الله تعالى بذلك أننا كما خلقنا الإنسان -كفرد- بهذا الشكل أي طورناه من حالة أدنى إلى أن اكتمل خَلْقُه، كذلك طوّرنا الخلائق -ككل- تدريجيًا، وهذا التدريج يتطلب أن تبلغ الخلائق -ككل- كمالَها والغايةَ من خلقها. وتعلمون أن المرأة الحامل لو أجهضت جنينها في الشهر الخامس أو السادس فلا يمكن أن تسمَّى ذاتَ ولد، وإنما تسمى ذات ولد إذا ولدت ابنها بعد اكتمال أيام الحمل، كذلك لو أن الخلائق لم تتطور ولم تبلغ في تطورها الذروة لكان مَثَلها مَثَل ابن أجهضتْه أُمُّه في الشهر الخامس أو السادس. لو انتهت الدنيا بموسى لقيل إن الإنسان الذي أراد الله أن يخلقه قد أُجهِضَ، ولو انتهت الدنيا بعيسى لقيل إن الإنسان الذي أراد الله خلقه قد أُجهض. لو لم يُخلق الإنسان الكامل الذي هو غاية خلق العالم، وفنيت الدنيا

قبله، لقيل إن الإنسان الذي أراد الله خلقه قد أُجهِض. فكما أن المرأة التي تجهض جنينها في الشهر الخامس أو السادس لا تُسمّى ذات ولد، كذلك لو لم يولد الإنسان الكامل في الدنيا لضاعت خطة خلق الإنسان تماما. وفي هذه الحالة يمكن أن تسمى الدنيا عاقرا، ولا نستطيع القول أن الغاية من خلقها قد تحققت. لا شك أن عيسى وموسى وإبراهيم ونوح قد بعثوا قبل ذلك، ولكن مثالهم كجنين الشهر الخامس أو السادس، أما محمد ﷺ فمثاله كوليد الشهر التاسع الذي يولد سويًا سليما. أما جنين الشهر الخامس فلا يمكن أن يسمى وليدا، لأنه لم يكتمل نموه، كما لا يمكن أن يسمى جنين الشهر السادس طفلا، لأنه غير مكتمل النمو، إنما يمكن تسمية الوليد طفلا إذا وُلد في الشهر التاسع، لأنه كامل النماء. كذلك لا يمكن أن يكتمل نماؤكم الروحاني بموسى وعيسى، وإنما يرتبط نماؤكم الروحاني بمحمد رسول الله، وبدونه لا يمكن أن تحقق الدنيا غايتها.

وأعود مرة أخرى إلى المعنى الأول وهو أن الله تعالى قد خلق الإنسان مزودا بعواطف المحبة والكراهية، وما لم يتمّ ظهور هذه المشاعر والعواطف بأكمل شكل فلا يتحقق الهدف من خلق الإنسان، لذلك كان ضروريا أن تنـــزل شريعة تعلِّم حب الله الكامل وكراهية الشيطان الكاملة، بتعبير آخر كان لا بد أن يظهر الإنسان الذي يكون كاملاً في وصاله بالله تعالى من ناحية وكاملاً في بُعده عن الشيطان. ودراسة القرآن الكريم تكشف أنه يعلن كلا الأمرين في حق النبي ﷺ، حيث قال الله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النجم:٩-١٠).. أي قد أحبَّ محمد ﷺ ربه بحيث ذهب إلى الله تعالى مسرعًا، فأتى الله إليه هرولةً، وهذا دليل ساطع على ما تيسر للرسول ﷺ من وصال كامل بربه.

ثم إن الرسول ﷺ كان بعيدا عن الشيطان كل البعد وكارهًا له كل الكراهية حتى قال ﷺ: "إن الله أعانني عليه فأسلمَ" (مسلم، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان).. أي أن الله تعالى قد جعل شيطاني مسلمًا، بمعنى أنه لو جاءني لاصطبغ بصبغتي بدلاً من أن يغويني على الشرّ ولعَمِلَ الصالحات مثلي عوضًا عن أن يورطني في السيئة، ولو اصطدم بي صار مغلوبا وأصبح مسلما بتأثيري فيه. ولا شك أن هذا

دليل ساطع على ذلك الحب الشديد الذي كان يكنّه النبي ﷺ لله تعالى، فكل ما كان يقترب منه ينفكّ عن طبعه ويصطبغ بصبغته ﷺ التي صبّغه الله بها، وذلك كما يقال بالفارسية: إن كل ما ذهب في منجم الملح صار ملحا. لو درستم تاريخ العالم فلن تجدوا فيه أحدًا غيرَ النبي ﷺ ادعى أنه قد تيسر له من الوصال الكامل بالله تعالى حتى تفانى فيه تعالى، وقد بلغ من كراهيته للشيطان بحيث أصبح من المستحيل أن يتغلب عليه الشيطان بأي شكل، بل لو جاءه لصار مغلوبا، ولم يستطع أن يورطه في السيئات. الواقع أن محمدا رسول الله ﷺ هو النبي الوحيد الذي قد أثبت للعالم بعَمله أنه قد بلغ ذروة الوصال الإلهي، وأنّ القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي أكمل تعاليم الوصال الإلهي بحيث إن كل لفظ وحرف منه يفيض حبًا وعشقا لله تعالى. الحق أننا حين نقرأ مؤلفاتِ أَلَدِّ أعداءِ الإسلام من المسيحيين نجدهم لا يملكون إلا الاعتراف بأنه لا مثيلَ للقرآن الكريم بين الصحف كلها في التركيز والحث على حب الله تعالى. اقرأْ أية صفحة من القرآن الكريم تجده يذكر الله تعالى فيها مرة بعد أخرى ويوجِّهُك إلى ذات البارئ سبحانه وتعالى عند كل خطوة. وهذا الأمر ليس خاصا بسورة معينة أو بجزء معيّن من القرآن، بل لن تجد في المصحف من باء البسملة إلى سين الناس أيةَ صفحة إلا وهي تذكر اسم الله تعالى مرارًا، وتحثّك على حبه تعالى مرة بعد أخرى. أما الأسفار الأخرى فتقرأ فيها مرةً أن فلانا صعد الجبل فقدّم له الناس سمكًا مشويًا وقطعة من الشهد (لوقا ٢٤: ٤١-٤٢)، وتارةً أخرى أن بعض الناس ركبهم الجن وجاءوا إلى يسوع، فأخرج الجن وأدخلهم في قطيع من الخنازير، فغرقتْ في الماء (متى ٨: ٢٨-٣٣). فتجد فيها أمورا تُضحِكك، ولكنك لن تجد في المصحف صفحة واحدة هي خالية من اسم الله تعالى. ستجد صفحات وصفحات من التوراة والإنجيل وغيرهما من أسفار الكتاب المقدس خاليةً من ذكر الله تعالى كلية، لكن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ليس فيه أي صفحة خالية من ذكر الله سبحانه وتعالى.

هذا، ويُمكن أن يكون قول الله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ موضوعًا مستقلا، كما يمكن أن يكون بدلاً من قوله تعالى ﴿الذي خَلَقَ﴾. إذًا اعتبرناه بدلاً

من قوله تعالى ﴿الذي خَلَقَ﴾ فمعناه ما ذكرته آنفا، أي أن الخلق هنا لا يشير إلى الخلق العام بل إلى خلق الإنسان. أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ موضوعًا مستقلا فيكون المعنى: اقرأ باسم ربك الذي هو خالق الأشياء ولا سيما باسم ذلك الرب الذي خلق الإنسان، وسيكون مفهوم هذه الآية أن كل أنواع الخلق تابعٌ لخلق الإنسان.. أي أن الخلق الإنساني هو المقصود الحقيقي من خلق الأشياء، ثم إن خلق محمد ﷺ هو الهدف من الخلق الإنساني. فيا محمد، ابدأْ مهمتك مذكِّرًا اللهَ تعالى هذا الهدف.

وهنا ينشأ سؤال: ما دام الله تعالى هو الذي قد رسم هذه الخطة، وهو الذي جعل الغاية من خلق العالم أن يخلق محمدا ﷺ، فلماذا قال له ابدأْ هذا العمل باسم ربك الذي خلق، مذكّرًا إياه هذه الخطةَ؟! هل نسي الله تعالى خطته هذه حتى يذكّره محمد بها؟

لقد ذكرتُ أحد الأجوبة على ذلك من قبل وقلت إن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني ابدأْ هذه المهمة، يا محمد، بصفتك رسولاً منا، فإن تأييدنا ونصرتنا حليفك. فرغم أن الرسول ﷺ هو الغاية من خلق العالمين وهو القمة للارتقاء الروحاني، إلا أن إضافة هذه الكلمات لم تكن بدون سبب، بل فيها حكمة بالغة وهي أن قوله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كان بمثابة الإعلان عن رسالة النبي ﷺ، حيث أمره الله تعالى: بلِّغْ الناس هذه الرسالة باسمنا، فمن آمن بك نعم برضانا، ومن كفر بك حلّ به عذابنا.

بيد أن هناك جوابًا آخر، وهو أن للدعاء أساليب وآداب عديدة، منها أن على المرء أن يستثير رحمة الله تعالى بذكر الصفة الإلهية التي هي ذات صلة بما يطلبه، فهذا أدعى للبركة والاستجابة. وإنني ذو خبرة بأن الطريق السليم للدعاء أن يدعو الداعي بذكر تلك الصفة الإلهية التي لها صلة بحاجته. فمثلا من ليس عنده أولاد إذا دعا الله تعالى: يا خالق، ارزقني ابنًا، فلا شك أنه طريق سليم للدعاء، ولكنه لو دعاه: يا جبّار، ارزقْني ولدا، يا قهّار أَعْطِني ولدا، يا مميتُ أعطِني ولدا، فمن الممكن أن ينظر الله إلى تضرعه وابتهاله برحمة ويهبه ولدًا، ولكن كل من يسمع هذا

الداعي يقول إنه يدعو بطريقة خاطئة جدا، إذ يسأله الأولاد مستنجدًا بصفته التي لا تتعلق بالخلق، بل تتعلق بالموت والقهر والغضب. أو مثلاً إذا دعا المرء قائلا: يا ربي المميت، أَهلِكْ عدوي الذي قد ضيّق عليّ الحياة واحفظْني من شره، فلا شك أن دعاءه صحيح جدًّا، ولكنه لو دعا قائلا: يا ربيَ المحيي ويا خالقي أَهلِكْ عدوي، فلا شك أن دعاءه يدل على جهله. باختصار إن دعاء المرء متوسلا بصفة الله التي توافق حاجته يجاب بسرعة، ومن أجل ذلك أضاف الله تعالى هنا قوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وكأنه تعالى يقول: يا محمد، لو دعوت قائلاً: يا رب الذي جعلتَ بعثتي غايةَ خلق الكون منذ خلْقه، أتوسل إليك بمشيئتك هذه أن تكتب لي النجاح، لأُجيبَ دعاؤك بسرعة وحقّقتَ أهدافك في وقت قليل.

والحكمة الثانية في إضافة قوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هي أن دعاء المرء مستنجدًا بصفة الله التي توافق حاجته يزيده أملاً ويملؤه يقينًا بنجاحه. فمثلا لو دعا قائلا: رب، قد قلتَ إني سأجمع العالم كله على يد واحدة لأنك خلقتَ كل الكون لهذا الهدف، فأتوسل إليك الآن بصفتك هذه التي تسببت في خلق الكون كله أن اجْمَع العالم على يدي، وحَقِّق الهدف من خلقه، لنــزل عليه فضل الله تعالى بقوة، كما ازداد أملاً ويقينًا بأن النجاح حليفه وأن مهمته ستتحقق حتمًا حتى ولو حصل تقصير منه في جهوده، لأن هذه هي مشيئة الله تعالى.

والحكمة الثالثة في إضافة قوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هي أن النبي ﷺ إذا دعا الله تعالى واضعًا في الاعتبار تلك السلسلة الطويلة من الأنبياء الذين ظلوا يأتون منذ زمن طويل، فلا بد أن يزداد إيمانًا كما ازداد حماسًا للعمل، فعندما يقول: رب قد أرسلتَ آدم للنهوض بالناس، ثم بعثتَ نوحًا ليزدادوا تقدمًا، ثم بعثتَ موسى وعيسى ثم بعثتَني أنا للمزيد من ترقياتهم، فاكتبْ الغلبة للإسلام، فلا بد أن يزداد ﷺ إيمانًا بغلبة الإسلام ونجاحه. وهكذا قد جعل الله هذا الأمر نصب عين النبي ﷺ بحيث لا يمكن أن يتصور أن الله تعالى سيهمل هذه الخطة ولا يحقق الغاية التي وضع أساسها منذ زمن آدم.

باختصار، بهذا الأسلوب قد زاد الله تعالى قلب النبي ﷺ يقينا، كما زاده إيمانًا وحماسا للعمل، واستثارةً لفضل الله بالإشارة إلى خطته المنشودة. فثبت أن قوله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ليس بدون فائدة، بل فيه حِكم وفوائد عظيمة.

ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الأكرم: اسمُ تفضيل مِن كرُم يكرُم. والكريم: قد يُطلق على الجواد الكثيرِ النفعِ، وقد يُطلَق مِن كل شيء على أحسنِه. (الأقرب)

وهذا يعني أن الكريم يُطلَق على ما بلغ الذروة من الأشياء. فما دام الكريم هو الأحسن، فالأكرم يعني مَن هو أحسن الأحسن. فقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ يعني أنه أحسن الأحسنين.

التفسير: بقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ قد نبه الله تعالى رسوله إلى أن الناس قد هضموا حق الله، فبدلاً من أن يعتبروا الله هو الأكرم، اعتبروا أصنامهم الحقيرة الأكرم، فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يعبد عيسى، ومنهم من يحني رأسه أمام شيء آخر؛ فقُمْ، يا محمد، واستردِّ منهم حق الله له. ما قدر الناس اللهَ حقَّ قدره، فوزَّعوا حق الألوهية على الأصنام وعلى البشر، فمن واجبك الآن أن تُثبت للناس أن الله هو الأكرم، وتأتيَ بالإنسانية الضالة التائهة إلى العتبة الإلهية ثانية، وتجعل العالم يقرّ أن الله هو الأكرم.

كما أن قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ تذكير للرسول ﷺ بألا يعتبر نفسه ضعيفا، لأن الله الذي أقامه هو الأكرم وهو أحسن الأحسنين، فيجب أن يوقن بسموّ تعاليمه مطمئنًا بأن الله تعالى يريد التجلّي عليه بصفته الأكرم. لا شك أنه تعالى قد تجلى على موسى وداود وسليمان وعيسى وغيرهم من الأنبياء، لكنه لم يتجلَّ عليهم كالرب الأكرم، غير أنه تعالى يريد الآن أن يتجلى كالرب الأكرم من

خلالك يا محمد، وستتجلى صفاته بواسطتك تجليًا لم يسبق له مثيل، فلا داعي للقلق أو القنوط.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٥﴾

التفسير: لا تعني هذه الآية أن الله تعالى علّم الإنسان بالقلم حقيقةً، فهذا خلاف الواقع، فمتى أخذ الله القلم وعلّم أحدًا من العباد ألف باء؟

كما ليس المراد من هذه الآية أن ما يعلِّمه الناس غيرهم بالقلم هو كله مما علّمهم الله تعالى، ذلك لأنهم يعلِّمون الآخرين أيضًا الكذب والغش والخداع وما ينافي الأخلاق والروحانية، فهناك مَن يعلّمونهم شعرًا فاسدًا وقصصَ ألف ليلة وليلة، ومَن يكتبون اللغو من الكلام ويشيعونه بين الناس. كما يوجد بين أهل القلم مَن ينكر وجود البارئ تعالى وينكر ضرورة الدين، أو لا قيمة عنده للأخلاق والقيم. باختصار، يوجد في الدنيا منكِرون لكل تعليم حقّ، ويوجد فيما يعلّمونه بالقلم أَلْفُ خداع وافتراء، لذا فلا يصحّ تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أن ما يعلِّم العبادُ بالقلم هو كله مما علّمهم الله سُبحانه وتعالى.

علمًا أن قوله تعالى ﴿عَلَّمَ﴾ فعلٌ ماضٍ، ولكنه بمعنى المضارع، فمن قواعد العربية استعمال الماضي بمعنى الاستقبال. وقد كثرت الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم وفي إلهامات الناس. والحكمة في استعمال الماضي بمعنى الاستقبال هي أن الماضي أكثرُ يقينًا وقطعيةً، فعندما يبدأ المرء بعمل فلا نستطيع الجزم أنه سيتمّه؛ فمثلا إذا كان زيد يقرأ فلا نستطيع القول أنه سيستمر في قراءته أم يموت، ولكنه إذا فرغ من القراءة فلا يمكن تبديل ما فعل لأن الحدث صار ماضيًا، كذلك فإذا أراد الله تعالى ذِكْرَ أمرٍ في وحيه وإلهامه على سبيل القطعية واليقين استعمل صيغة الماضي، وكأنه يقول: اعتبروا هذا الشيء كأنه قد وقع؛ فوقوعه قطعي ويقيني كقطعية الماضي. وهنا أيضًا استعمل الله صيغة الماضي فقال ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، لكن المعنى أن الله تعالى سيعلِّم الناس معارف القرآن الكريم قطعًا ويقينا، فهو أمر لا

تبديل فيه ولا تغيير. بمعنى أن القرآن الكريم سيُكتب وبالكتابة ينتشر في العالم وسيستعمل الناس أقلامهم تأييدًا له.

انظرْ كيف تحققت هذه النبوءة القرآنية بجلاء ووضوح؟ فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي حُفِظَ بالقلم، إذ ليس هناك كتاب ولا سِفر صار محفوظا بالقلم فور نزوله. فلم يدوَّن كتاب موسى ولا صحف إبراهيم فور نزولها، ولم يُكتب الفيدا الهندوسي حين نزوله على الريشيين، ولم يدوَّن الزندفستا فور نزوله على زرادشت، ولم يُكتَب الإنجيل حين نزل على المسيح وحيًا غضًّا. أما القرآن الكريم فهو السفر الوحيد الذي كُتب منذ بداية نزوله أولاً بأول، ولا يزال محفوظا حتى اليوم بكلماته التي نزل بها على رسول الله ﷺ.

وهذه الحقيقة تبلغ من اليقين والقطعية بحيث لم يملك أعداء الإسلام إلا الاعتراف بها، فقالوا ليس ثمة مِن كتاب سوى القرآن يمكن القول عنه إنه محفوظ حتى اليوم من أوله إلى آخره بكل كلماته وحروفه وحركاته من ضم وفتح وكسر، كما عُرِض على العالم أول مرة. فإن وليام موير ونولدكه وسبرنجر هم من مشاهير المستشرقين الغربيين، وقد قضوا كل حياتهم في عداء الإسلام، ولكنهم أيضًا لم يجدوا مناصًا من الاعتراف أن القرآن الكريم لم يتعرض لأي تغيير وتحريف، بل إنه لا يزال محفوظًا من أوله إلى آخره من أي تبديل أو تحريف بيد البشر.

(-The Life of Mahomet: by Sir William Muir p. 561-563
-The Quran, its composition and teachings p:40
- A Comprehensive Commentary on The Quran, by Wherry v.1 p. 109
-Koran :الموسوعة البريطانية، تحت)

ومن معاني قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أن جميع العلوم والمعارف سوف تنتشر في العالم من خلال القرآن مستقبلا. وبالفعل فإن جميع العلوم التي نراها اليوم في الدنيا إنما وُجدت بفضل القرآن الكريم.

لقد نزل القرآن بين العرب الذين كانوا جهالاً لا يعرفون ما هو علم التاريخ وما الصرف والنحو وما الفقه وأصوله، لكنهم لما نالوا شرف الإيمان بالقرآن لم يجدوا بدًا من التوجه إلى كل هذه العلوم من أجل خدمة القرآن الكريم. فمثلا لما قرأوا في

القرآن أسماء الأنبياء السابقين وأحداثهم توجهوا إلى فحص أحداث الماضي إثباتًا لصدق ما يقوله القرآن، وهكذا وُجد علم التاريخ. لا شك أن القرآن نزل بلسان عربي، ولم يكن صعبًا على العرب أن يفهموه ويتلوه تلاوة سليمة، لكن عندما انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بدأ العرب يخطئون في تشكيل كلمات القرآن نتيجة اختلاطهم بالشعوب الأخرى، فمسَّت الحاجة إلى وضع قواعد اللغة العربية، وهكذا وُجد علم الصرف والنحو. يقول المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي أتى إلى بيته ذات يوم، فوجد ابنته تقرأ قول الله تعالى ﴿وأَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه﴾(التوبة:٣)، فقرأتْ خطــأً (وَرَسُولِهِ). فالآية تعني: أن الله ورسوله كلاهما بريئان من المشركين، ولكن قراءتها الخاطئة (ورسولِه) تعني أن الله بريء من المشركين ومِن رسوله أيضا، فالمعنى انقلب كليًّا. فأصيب أبو الأسود بالقلق وذهب إلى سيدنا عليّ ﷺ وقال له: لقد جاء العجم إلى بلادنا بكثرة، وقد تزوجت بناتنا منهم أيضا، ففسدت لغتنا نتيجة هذا الاختلاط، فقد رجعتُ حالا من البيت لأني وجدت ابنتي قد أخطأت في قراءة قول الله تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه﴾، ولو كثرت الأخطاء في القرآن هكذا قامت القيامة، فدرءًا لهذه الفتنة علينا وضع قواعد اللغة العربية لكي لا يرتكب الناس أخطاء كهذه. وكان عليٌّ ﷺ قد خرج حينها على حصانه، فقال له: نعم، هذا لا بد منه، ثم أملى على أبي الأسود بعض القواعد العربية وهو على متن الحصان، وقال: انحُ نحوَه. ومِن هنا وُضع أساس علم النحو والصرف لكي يقرأ الناس القرآن الكريم قراءة صحيحة.

ثم لما دخل العجم في الإسلام بكثرة فكّر العرب أن هؤلاء لن يفهموا القرآن الكريم بدون مساعدة منهم، فوضعوا لهم القواميس خدمة للقرآن. ثم بعد ذلك اخترعوا علم الفقه وأصوله لشرح القرآن الكريم. ولم يوجد علم المعاني وعلم البيان إلا ببركة القرآن الكريم.

ثم وُجد علم البلاغة لفهم تعابير القرآن واستعاراته؛ إذ بدون ذلك لا يفهم المرء هذه التعابير القرآنية. وهناك طريفة في كتب الأدب العربي حول هذا العلم: يقال أن شخصًا اعترض في مجلس بأن في القرآن تعابير هي خلاف العقل، حيث ورد فيه

مثلاً: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ (الكهف:٧٨)، ومتى يريد الجدار أن ينقضّ! هذا القول يدل على جهل صاحبه. وكان في المجلس أحد علماء المسلمين، فاحتار في أمره ولم يستطع الرد على المعترض. وفيما هم في ذلك إذ دخل على المعترض غلامه الذي كان من قبيلة عريقة فقال له: اذهبْ إلى فلان من أصدقائي فهو مريض وأخبرْني عن حاله. فذهب ورجع بعد قليل وقال: إنه يريد أن يموت. فسُقِطَ في يد المعترض إذ وجد مِن غلامه الردَّ على اعتراضه الذي أثاره ضد القرآن الكريم، إذ قال: متى يريد الجدار أن ينقضّ، فجاءه الغلام وقال له: صديقك يريد أن يموت، مع أن الإنسان لا يريد أن يموت، إنما هي استعارة تعني أنه على وشك الموت. كذلك فإن الآية تعني أن ذلك الجدار كان على وشك السقوط، وليس أن الجدار عاقل يريد أن ينقضّ. (فقهُ اللغة للثعالبي، باب في إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل على الحقيقة)

وهذا هو حال علم الاقتصاد حيث أوجده الله تعالى لتوضيح نظام الاقتصاد القرآني.

باختصار، إن جميع هذه العلوم التي ظهرت في العالم واحدا بعد الآخر مِن صرف ونحو وتاريخ وأدب وكلام وفقه وما إلى ذلك، إنما وُجدت ببركة القرآن الكريم ولتأييده وخدمته، ولولاها لم تنكشف على الناس حقيقة القرآن وعظمته كما ينبغي. كان العرب أمة جاهلة فلولا القرآن لم يتوجهوا إلى هذه العلوم، إنما عُنوا بها لأنهم آمنوا بالقرآن الكريم، ثم لكي ينشروا تعاليمه بين الناس اخترعوا هذه العلوم أو توجهوا إليها. أما باقي العلوم فإنها أيضًا قد أُخِذت من القرآن الكريم، لأن العرب اخترعوها أو أحيوها، فأخذ منهم الباقون. لقد حاولت أوروبا طويلاً إخفاء منةِ المسلمين هذه، لكن قد وُجد اليوم في أوروبا نفسها قوم أعلنوا في كتبهم بكل قوة أن مِن العار أن نتعلم هذه العلوم من المسلمين ثم لا نذكرهم في كتبنا مطلقًا، ونُوهِمُ العالَمَ أننا مخترعوها؛ إنه لأسوأُ مثال لنكران الجميل. إن المسلمين هم من علّمونا هذه العلوم، ولكننا لا نذكر أسماءهم، وننسبها إلينا كلها.

وعندي كتب عديدة من هذا القبيل حيث يثير مؤلفوها هذا النقاش بشدة، مما يدل على أن قلوبهم تثور غيظًا ضد قومهم بسبب تصرفهم هذا. فإنهم حين يرون منن المسلمين عليهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يرون مماحكة قومهم الذين أخذوا كل هذه العلوم منهم ثم لا يذكرون اسمهم، فتستعرّ قلوبهم غيظًا، فيقولون: هذا نكران للجميل. لقد أخذنا كل هذه الأشياء من المسلمين ومع ذلك لا نعترف بعلمهم وفضلهم وإحسانهم ولو تلميحا.

لقد طالعت قبل فترة كتابًا حول الموسيقى - علمًا أن المسلمين هم الذين اخترعوا هذا العلم، لأن الله تعالى أمرهم أن يرتّلوا القرآن ترتيلا، فتوجهوا إلى الموسيقى التي تطورت وصارت علمًا عظيما بحدّ ذاتها- وتدعي أوروبا أنها مخترعة الموسيقى، لكن مؤلف الكتاب المشار إليه يقول بكل قوة وشدة إن هذا الادعاء الأوروبي محض خداع وافتراء، والحق أن أوروبا تعلّمت الموسيقى من المسلمين. ثم يقدم المؤلف دليله قائلا: يوجد في مكتبة المتحف البريطاني في خزانة كذا وبرقم كذا كتابٌ كذا يحتوي على رسالةٍ كتبها مسيحي لفلان من القسيسين قال فيها: لقد كنت ذهبتُ إلى إسبانيا، وأذهلني تطوُّرُ المسلمين في الموسيقى. إن موسيقاهم رائعة للغاية بحيث لا مقارنة بينها وبين الموسيقى عندنا. ولو سمحتَ لي و لم تر في ذلك مخالفة للدين النصراني فإني أريد أن أقوم بترجمة موسيقى المسلمين لأهل أوروبا لكي تروج هذه الموسيقى الرائعة في كنائسنا، ولكي يزداد الناس حبًّا للمسيحية. ثم يذكر المؤلف أن القسيس أجاب على رسالة ذلك المسيحي برسالة لا تزال محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني حيث قال فيها: لا حرج أن تترجم الموسيقى الإسبانية، ولكن لا تذكر في الترجمة اسم المسلمين، لأنك إذا ذكرتَ المصدر وقلت إن هذه الموسيقى مأخوذة من المسلمين، فهذا يرسي عظمتهم عندنا. فانقُلْ تلك الموسيقى لنا، لكن دون ذكر اسم المسلمين، لكي يظن الناس أنك صاحب هذا العلم.

إذن، فقد حاولتْ أوروبا إخفاء هذا الأمر طويلاً، أعني أخذهم جميع هذه العلوم من المسلمين. ولكن لم يعد الأمر خفيا، إذ وجد اليوم بين المسيحيين أناس يتحدثون في كتبهم علنًا وبكل قوة عن نكران قومهم لجميل المسلمين.

وكذلك فإن فنّ العمارة والفسيفساء ونسج السجّاد.. كلها علوم قد أخذها أوروبا من المسلمين، وقد رأيتُ بنفسي الدليل على ذلك في بريطانيا، وهو حصنٌ مَلكي قديم في مدينة برايتون. لم يجد المسيحيون في أوروبا كلها أحدًا لزخرفة جدرانها، فدعوا الفنانين المسلمين، فذهبوا وزخرفوا الجدران بكتابة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وهذا دليل أن شرف اختراع هذا الفن أيضًا من نصيب المسلمين.

باختصار، لم يكن عند أوروبا أي شيء، بل كل ما عندهم إنما تعلّموه من مسلمي إسبانيا، وقد تعلمت إسبانيا من أهل الشام، وما تعلمه أهل الشام إنما تعلموه من القرآن.

فالحق أن علوم الدنيا كلها قد ظهرت من القرآن الكريم، فكل الأقلام التي ستعمل بعده إلى يوم القيامة إنما ستعمل لخدمته وترويج علومه. إن جميع المؤلفات التي تصدر اليوم من أوروبا كلها، تصديق لقوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وتحقيق للنبوءة الإلهية أنه سينشر القرآن الكريم بالقلم.

كان العرب جاهلين بكل أنواع العلوم، لكنهم بعد إيمانهم بالقرآن الكريم صاروا أساتذة العالم كله. إن الفلسفة التي تعتز بها أوروبا اليوم إنما اخترعها المسلمون. المشهور بين الناس أن الفلسفة من اختراع أوروبا، لكن أحد الفلاسفة الأوروبيين قد دحض هذا الزعم تماما حيث كتب أننا نحن الأوروبيين قد أخذنا الفلسفة من أوّلها إلى آخرها عن الأشعري، فإذا وجدتم شيئا جيدا في فلسفتنا، فيعود فضله إلى الأشعري لا إلينا.

لا شك أن العلوم تتطور دائما، وكل جيل يسعى لرفع مستواه العلمي، إلا أنه لا يسع أحدًا إنكار أهمية البذرة. فالشجرة مهما كبرت وازدهرت وتضخمت، إلا أنه لا يمكننا إنكار أهمية البذرة التي نبتت منها؛ كذلك فمهما تطورت هذه العلوم فإن فخر اختراعها سيبقى عائدا للمسلمين، وستظل رؤوسهم خاضعة أمام القرآن الكريم، لأنه الكتاب الذي أعلن: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.. أي قد آن الأوان لتعليم الدنيا العلوم بالقلم. الحقيقة أن القرآن الكريم هو الذي علّم الدنيا العلوم كلها،

ولولاه لكانت الدنيا مشهدا للظلام والجهل والوحشية. إنه لمن فضل القرآن الكريم أنه أخرج العالم من الظلمات إلى ميدان العلم والمعرفة.

عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦﴾

التفسير: لقد جاءت هذه الآية توضيحًا ودعمًا لموضوع خلق الإنسان المذكور في الآية السابقة، حيث أخبر الله تعالى أننا سنعلّم الإنسان بواسطة محمد ما لم يعلّمه من قبل. والحق أن القرآن الكريم زاخرٌ بالعلوم والقضايا التي لم تقدِّم الفلسفة ولا المسيحية ولا اليهودية حلولاً لها قبل الإسلام. فمثلاً قد قدّم الإسلام عن التوحيد تعليمًا رائعا جامعا كاملا لم تقدم أية ديانة مثله قط. وقد ألقى القرآن الكريم على موضوع النبوة ضوءاً مفصَّلا لا نظير له في أي دين آخر. لقد نزل القرآن الكريم في أمة لم يأتها نبي منذ فترة طويلة، ولم تكن تعاليم إبراهيم عليه السلام محفوظة عندهم، بل كانوا جاهلين تماما بموضوع النبوة وتفاصيلها، ومع ذلك فقد استفاض الإسلام في موضوع النبوة بما لا نجد نظيرا له عند اليهودية ولا المسيحية. لقد بُعث عيسى عليه السلام في أمة جاء فيها مئات الأنبياء، وقد ألقى كل واحد منهم الضوء على موضوع النبوة بأسلوبه، ومع ذلك ليس بوسع النصارى اليوم أن يقدّموا لنا تعريف النبي من الإنجيل.

عندما كان خلافنا مع غير المبايعين◆ حول النبوة على أشدّه بعثتُ رسائل لكبار القسس وعلماء السيخ وباندات الهندوس وفقهاء اليهود، وقلت لهم أن يذكروا لي تعريف النبي في دينهم، فلم يردّ بعضهم على رسالتي، وبعضهم اعترف صراحة أن

◆ غير المبايعين: هم فئة أرادت إلغاء الخلافة في الجماعة الإسلامية الأحمدية، وانشقوا عنها تاركين مركزها قاديان ومتخذين مدينة لاهور مركزًا لهم، واشتهروا في أدبياتنا باسم الجماعة اللاهورية أو اللاهوريين نسبة إلى مركزهم، والبيغاميين أيضًا نسبة إلى جريدتهم "بيغام صلح"، وغير المبايعين لرفضهم بيعة الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام. وكان أول رئيس لهم المولوي محمد علي. (المترجم)

دينه صامت في هذا الموضوع كل الصمت. وقد كتب لي أحد كبار القسس أننا لا نجد في كتبنا أي تفصيل حول النبوة. أما ديننا فقد تناول هذه القضايا بتفصيل كبير، وبيّن مَن هو النبي، ومتى يُبعث، وكيف يُعامَل، وما هي أدلّة صدقه. فقد تناول الإسلام هذه القضية وكثيرًا غيرها بكل وضوح، لذلك قال الله تعالى هنا ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي أن الله تعالى سيقوم بتكميل العلوم كلها بالقرآن الكريم. لا شك أن عقيدة التوحيد كانت موجودة في العالم، لكن تكميلها لم يكن قد تمّ بعد، ولا جرم أن الناس كانوا يؤمنون بالملائكة والكتب والرسل، لكن لم تكن عندهم معرفة تامة بحقيقة الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله، فلو سُئلوا ما معنى كون الله أحدا لم يستطيعوا الجواب، أما القرآن الكريم فسوف يعلّمهم معنى التوحيد ويحذرهم من الأمور التي تدفعهم إلى الشرك والوثنية. أو لو سألنا الكتابَ المقدس: ما هي الملائكة، ولماذا خُلقتْ، وما هي أعمالها، وماذا يحدث بدونها، لم نجد عنده الجواب على هذه الأسئلة مطلقًا، وإنما يكتفي بقوله: قد خلق الله الملائكة، وهم يأتون بوحي الله إلى الأنبياء، ولكنه لن يخبر ما هي حقيقة الملائكة وما هي منافع الإيمان بها. أما القرآن فلا يخبرنا أن الملائكة مخلوقات فحسب، بل يخبر أيضا لماذا خُلقت، وما هي أعمالها، وكيف يمكن للمرء أن يزداد صلة بها، وما هي الأمور التي تُضعِف علاقته بها. أو لو سألنا مثلا عن كيفية حالة الإنسان بعد الموت، فلن تُلقي أي ديانة أي ضوء على ذلك سوى الإسلام، فلا اليهودية تبين هذه الأمور ولا المسيحية ولا غيرهما من الأديان. إنما الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتناول هذه القضية ببحث مستفيض يطمئن به قلب الإنسان وتشعر روحه بالسكينة.

كذلك لو سألنا ما هو تعريف الأخلاق، وما هي الأخلاق الفاضلة، وما الذي يميز الأخلاق الحسنة من السيئة، وعلى أي أساس تسمى بعضها حسنة وبعضها سيئة، وما الفارق بين الأخلاق والروحانية، فلن نجد الجواب على هذه الأسئلة كلها إلا في القرآن الكريم، وأن مطالعة أسفار الأديان الأخرى بحثًا عن الإجابة عليها لن تجلب لقلب الإنسان الطمأنينة. وإلى هذه الحقيقة قد أشار الله تعالى بهذه

الكلمات الجامعة الوجيزة ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي أن الله تعالى سيعلِّم العالَمَ من خلال القرآن والإسلام علومًا ومعارف لم تخطر ببال أحد من قبل.

وقد قدم الله تعالى دليلاً عَمليًا على هذه الدعوى في هذا العصر أيضًا، وذلك في مؤتمر الأديان العظمى بلاهور في زمن المسيح الموعود عليه السلام.

لقد وجّه المشرفون على هذا المؤتمر خمسة أسئلة هامة إلى ممثلي الأديان المختلفة ليجيبوا عليها على ضوء تعاليم أديانهم. فقام المسيح الموعود عليه السلام بإعداد مقال ليُقرأ في هذا المؤتمر، وقد نُشر فيما بعد بعنوان: فلسفة تعاليم الإسلام. لقد أجاب فيه على هذه الأسئلة الخمسة على ضوء القرآن الكريم إجابات مستفيضة، حتى إذا قُرئ مقاله عليه السلام على مسامع الناس في المؤتمر أجمع الكل على أنّ مقاله كان أفضل المقالات والمحاضرات، واعترفت الجرائد أيضًا أن مقال ميرزا غلام أحمد القادياني كان غالبا على جميع المقالات التي قرئت في هذا المؤتمر. وبتعبير آخر كان مقال القرآن الكريم هو الغالب، لأن كل ما كتبه المسيح الموعود عليه السلام إنما كتبه مستشهدًا بآيات القرآن الكريم وعلى ضوئها، ولم يُضِفْ من عنده شيئا. مما كان دليلاً عَمليًّا على عجز الدنيا عن الإتيان بمثل علوم القرآن الكريم. علمًا أن المسيح الموعود عليه السلام كان قد فرض على نفسه شرطًا إضافيًا من عنده أنه لن يذكر في مقاله شيئًا إلا على ضوء القرآن الكريم، في حين كان ممثلو الأديان الأخرى مخيَّرين في أن يدعموا كلمتهم بالأدلة العقلية والفلسفية إثباتًا لغلبة ديانتهم، ومع ذلك فشلوا في هذه المبارزة، بينما بيّن عليه السلام من علوم القرآن الكريم ومعارفه ما لم يستطع ممثل أي دين أن يقدم عُشْرَ ما قدّمه عليه السلام رغم فرض هذا الشرط الزائد عليه.

كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٧﴾

التفسير: لقد سبق أن بينتُ أن كلمة ﴿كلا﴾ تأتي إبطالاً لقول القائل الذي يرفض أمرًا، أو المفهومَ الناتج منه. فإننا حين نستخدم "كلا" فكأنما نقول للمخاطَب: ليس الأمر كما ترى. وفي لغتنا (الأردية) أيضا حين يريدون رفض

شيء يقولون للمخاطب: لا، لا. فالواقع أن ﴿كلا﴾ هي بمثابة لا، لا.. أي أن ما تفهمه ليس صحيحا، بل الحقيقة عكس ما ترى.

والسؤال الآن: ما هو الأمر المذكور هنا والذي اعترض عليه الخصم فقيل له: ﴿كلا﴾؟

والجواب أن الله تعالى قد أعلن في الآية السابقة ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي أنه تعالى سوف يعلِّمه ما لم يعلمه حتى الآن. بمعنى أن الله تعالى سوف يرشد الناس بهذا الوحي وينــزل من عنده منهجًا وتعليمًا يرقّيهم أسمى درجات الروحانية، وهنا يعترض الخصم قائلا: إن الإنسان ليس بحاجة إلى الوحي من أجل هدايته، بل يستطيع التقدم والرقيّ معتمدا على عقله. وهذا السؤال يثار في هذا العصر من المثقفين بوجه خاص، فإذا قيل لهم لقد هيأ الله تعالى أسباب هدايتكم قالوا: ما الداعي أن يتدخل الله في أمورنا؟ فنحن قادرون على أن ندير أمورنا بعقلنا، ونتخذ أفضل التدابير لرقينا؛ ففنَّد الله هذه الفكرة بقوله ﴿كَلاَّ﴾، وأخبر أنَّ مِن الخطأ قطعًا القول أن الإنسان قادر على أن يقترح لنفسه طريق الهدى والنجاة، ولا حاجة به لنصرة الله. الحق أنه لولا نزول الهداية من الله تعالى لم تقدر الدنيا على التقدم نحو الرقيّ خطوة واحدة. إن تقدُّم الدنيا منوطٌ بوحي الله تعالى وكلامه، ولم يقدر الإنسان بدون الهدي السماوي على التقدُّم الروحاني في الماضي ولن يقدر في المستقبل.

وبعد هذا التفنيد أخبرنا الله تعالى ما هو أساس هذا التفكير، ولماذا تتولد هذه الأفكار في قلب الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾.. أي أن قول الناس إنهم ليسوا بحاجة إلى نصرة الله بل إنهم سيهيئون أسباب هدايتهم بأنفسهم، إنما سببه الطغيان والتمرد. يقال طغى فلان: أي جاوز القدر والحدّ، وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ يعني أن الإنسان يتجاوز قدره ويتمرّد. لا شك أننا زوّدناه بشتى القوى والقدرات، لكن هذا لا يعني أنه قادر على أن يهيئ لنفسه أسباب الهدى من دون نصرتنا وتوفيقنا.

لقد صرح الله تعالى في أماكن عديدة في القرآن أنه قد زود الإنسان بقدرات عظيمة، وقد ورد هذا الموضوع في السور السابقة خاصة، حيث قال تعالى في السورة السابقة ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ﴾، فكأنما قال الله تعالى كيف يمكن أن نزوّده بالقوى العظيمة ثم نخذله ليسقط في هوة الغيّ والضلال. ما دمنا قد خلقناه معتدل القوى مزوَّدا بطاقات روحانية عظيمة فلا بد أن نجعل له غاية عظيمة، ثم لا نخذله. هذا هو الموضوع الذي ذكره الله تعالى في السور السابقة، بينما قال هنا إن الإنسان لا يقدر على إنجاز شيء بدون مساعدتنا، فهناك تعارض في الظاهر، حيث قال الله تعالى أولاً إنه قد زود الإنسان بكفاءات عظيمة، وقال الآن أنه لا يستطيع أن ينال الهدى من دون نصرتنا. فلماذا هذا التناقض؟ فأجاب الله على هذا السؤال قائلا: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾.. أي لا شك أننا زودناه بطاقات عظيمة، ولكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يعدو قدره ويخرج عن نطاق عمله.

بالفعل نرى أن الإنسان مع كونه مزوّدًا بقدرات عظيمة، لو أساء تناول الطعام مرض، ومع أنه مزود بقوة الصبر والجلد على الصعاب، إلا أن قوته هذه محدودة أيضًا، فمثلاً لو صعد إلى ارتفاع ١٧ أو ١٨ ألف قدم أصيب بنوع من الجنون لقلة ضغط الهواء، وأصبح عدوًا لصديقه. فالثابت عن فِرقٍ كثيرة من متسلقي الجبال- الذين كانوا أصدقاء منذ ثلاثين أو أربعين سنة ولم تهُزّ صداقتَهم أحلكُ الظروف وأخطرُها- أنهم لما رجعوا من قمم جبال هملايا كانوا أعداءً ألدّاءَ. وليس ذلك إلا لأن عقل الإنسان يصاب بصدمة عنيفة حين يصل إلى ارتفاع ١٧ ألف قدم، حتى إنه لا يستطيع العيش بلطف وهدوء وحب مع أصدقائه بعد العودة من هنالك، بل يقتتل معهم على كل صغيرة وكبيرة. لقد وقع حادث مماثل مع طيار في إنجلترا، وذلك أن طائرته لما بلغت ارتفاع ١٧ ألف قدم وجد أن زميله الجالس بجانبه بطش بعنقه بشدة وأراد قتله. ولأن الطيار كان قد سمع الأحداث التي حصلت مع متسلقي جبال هملايا، فكان يعرف أن عقل المرء يفقد توازنه عندما يبلغ ارتفاعا معينًا نتيجة قلة

ضغط الهواء، فما كان منه إلا أن وجّه طائرته إلى الأسفل، وعندما وصل إلى ارتفاع ٦ أو ٨ آلاف قدم، عاد زميله إلى الصواب وأخذ يعتذر إليه.

إذن، فكل شيء له نطاق عمل لا يمكن أن يتجاوزه. هذا هو حال الإنسان. لا شك أن الله تعالى قد زوده بكفاءات عالية بوجه خاص، ولكن هذا لا يعني أنه يستطيع أن يعمل فوق نطاقه مستعينا بهذه الكفاءات. لا شك أن الحصان يمكن أن يجري ستين بل مائة ميل أحيانًا بدون توقف، لكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يباري الإنسان في الأمور العقلية. لا شك أن الحصان سيسبق أسرعَ إنسان عند الجري، ولكن فيما يتعلق بالعقل فإنه لا يمكن أن ينجز ما ينجزه أغبى الأغبياء. فلذلك يبين الله تعالى هنا أننا قد زودنا الإنسان بقوى عظيمة بلا شك، لكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يخرج عن حدّه وينجز ما يخص الله تعالى فقط، كلا، لن يقدر الإنسان على ذلك بل الله هو القادر. فالله تعالى قد بين بقوله ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ أنه باطلةٌ تلك الوسوسة التي تغزو بعض القلوب بأن لا حاجة أن ينـزل الله لهم منهجًا للحياة بواسطة محمد ﷺ، فإنهم يستطيعون أن يختاروا بأنفسهم دينًا لهم. وهذه الأفكار لا تساور إلا قلب مَن قد تجاوز حدّه، إذ لا يحق للعبد أن يتدخل فيما يخص الله تعالى، فلن ينجزه إلا هو سبحانه وتعالى. لا شك أن الله تعالى قد زوّد الناس بقدرات عظيمة، لكنها محدودة في كل حال، ولا شك أنه قد أعطاهم العقل، لكنه أيضا محدود في نطاق قواه الذاتية، فلن يقدروا على أن يختاروا بأنفسهم دينًا لهم، أو أن يقترحوا بعقولهم وسائل قرب الله تعالى.

أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى: هذه الجملة مفعول لأجله، أي أن الإنسان قد طغى لأنه يظن أنه مستغنٍ عنا. فمِن معاني "رأى": ظَنَّ؛ وَجَدَ؛ فَهِمَ. والرؤية هنا قلبية، إذ ذُكر لها هنا مفعولان، والرؤية القلبية لها مفعولان دائما. (تاج العروس)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا سبب تجاوُز الإنسان حدّه وتمرُّده على الله تعالى، فأخبر أنما سببه أنه يرى أنه في غنى عنّا. إنه يرى أنه مستغنٍ عن نصرة الله الذي علّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلَم. إنه يظنّ أنه سيتمكن بنفسه من إصلاح أخلاقه وعقائده وروحانيته ومدنيته وسياسته واقتصاده وحياته العائلية، فلماذا يتدخل الله في شؤونه؟

لقد رأيتُ طلبة الكليات أنهم إذا جرى معهم الحديث عن القضايا الدينية فلا يلبثون أن تخرج من أفواههم كلمات مماثلة، فيقولون مثلاً: أولاً نحن لا نؤمن أن هناك إلهًا للعالم، وإذا كان ثمة إلهٌ فلا داعي أن يتدخل في شؤوننا، فنحن مخيرون في أن نختار لأنفسنا الطريق الذي نحبّ. وهذا ما يخبر الله تعالى هنا بقوله ﴿أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾.. أي أن أكبر سبب لهذا الطغيان والتمرد أن الإنسان يظن أنه مستغنٍ عنا. فلأنه يرى أنه في غنى عن نصرة الله تعالى، فمن المحال أن يدخل في الدار الروحانية التي لا يقدر الإنسان على فتح بابها بجهوده من دون أن يهديه الله وينصره.

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٩

التفسير: لقد قال عامة المفسرين إن ضمير الخطاب في قوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ عائد إلى الإنسان (روح المعاني، والرازي)، لكني أرى أنه يعود إلى مَن وُجِّهَ إليه الخطاب مِن قبل في قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فالمراد مِن ﴿رَبِّكَ﴾ رب محمد ﷺ.

يقول الله تعالى كيف يعتبر الإنسان نفسه في غنى عنّا، مع أنه راجع إلينا في نهاية المطاف؟ ما دام هؤلاء يُحشَرون إلى الله تعالى في النهاية، فكيف عرفوا الأعمال التي هم بحاجة إليها هنالك؟ وأنى لهم أن يعرفوا أحوال ذلك العالم بعقولهم؟ فمن المعروف أنه لو أراد الإنسان الذهاب إلى إنجلترا مثلاً، فإنه سيذهب إلى مَن زارها ليعرف منه أحوالها، ويقول له: إني لا أعرف عن هذه البلاد شيئا، وأنت تعرف

أحوالها معرفة شخصية إذ قد زرتَها، فأَخْبِرني كم أحتاج من المال للسفر إليها، وما هي الأمور التي يجب أن آخذها في الحسبان؟ كيف طقسها؟ وما هي نوعية الثياب التي أحتاجها؟ أثياب دافئة أم غير دافئة؟ وكم آخذ منها؟ ذلك أن المرء لا يعرف شدة البرد أو الحر في بلد بمجرد سماع أن ذلك البلد بارد أو حار. لقد رجعت من زيارة بريطانيا عام ١٩٢٤ في نوفمبر/تشرين الثاني، وفي ذلك الشهر يكون البرد عندنا في الهند قليلا جدا، أما في إنجلترا فيكون شديدا في نوفمبر، فذات يوم كنت في سفر في شهر أكتوبر/تشرين الأول، وكان ذلك في منتصف الليل، وكنت ألبس ملابس داخلية دافئة وفوقها قميصًا دافئا وفوقهما صدريةً دافئة وفوقها معطفًا دافئا، وفوقها معطفًا كبيرا آخر مصنوعًا في إنجلترا، وكان أسمكَ من المعطف الهندي ثلاثة أضعاف، وكنت أسافر في سيارة مغلقة، ومع ذلك كنت أشعر بالبرد وكأنه ليس علي أية ثياب. هذا هو حال البرد في إنجلترا. أما لو سافرتَ إلى مناطق القطب الشمالي وجدتها أشدَّ بردًا من إنجلترا. أما في أمريكا فهناك مناطق ذات طقس يتقلب بسرعة، فيجد المرء حرًّا شديدا، وفجأةً يحسّ ببرد شديد، فما أن يلبس معطفًا إلا وينـــزعه، ويحدث هذا مرارا.

باختصار، عندما يذهب أحد إلى إنجلترا مثلا، يسأل مَن يعرف أحوالها عن نوعية الثياب التي يأخذ معه، وإذا أراد أن يذهب إلى أمريكا فيسأل مَن جاء منها عما يحتاجه هناك. فعامة الهنود مثلاً مغرمون بأكل الفلفل الحار، فلو أراد أحدهم الذهاب إلى أمريكا وكان شغوفا بأكلها، فلا بد أن يسأل: هل أجد الفلفل هناك أم لا؟ فإذا قيل له: لا، فلا بد أن يأخذ معه كمية منه لكي يشفي غليله منه ولا يعاني. أو لو أراد أحد الهنود المولعين بمضغ "البان"* زيارة البلاد العربية فلا بد أن يسأل المطلعين على أحوالها ما إذا كان سيجد هناك البان أم لا. وهكذا تكون لديه معلومات صحيحة عن أحوال تلك البلاد فيُعِدّ عدّته بحسبها. باختصار، إن من

* "البان" اسم شجرة في الهند، يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. (المترجم)

الأمور الطبعية أن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى بلد استشار المطلعين على أحواله، لا أن يُعِدّ عدته بناءً على افتراضاته العقلية. هذا هو الأمر الذي بيّنه الله تعالى بقوله ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.. أي لقد فقد هؤلاء صوابهم حيث يريدون الذهاب إلى الله تعالى، ولكن يقولون لسنا بحاجة إلى أن يخبرنا الله تعالى بطرق قربه. فمَن لي بهؤلاء الجهال الذين إذا أرادوا سفرًا بسيطا إلى بلد سعوا لمعرفة أحواله ممن يعرفها جيدا، وسألوه أهو بلد بارد أم حار؟ وما هي الثياب التي ينبغي أن يأخذوها، وما هي الحاجات التي يضعونها في الاعتبار، وأي الأحذية يجب أن تُلبَس هنالك، ذلك أن الأمطار تهطل بغزارة في بعض البلاد بحيث لا ينفع فيها لبس حذاء عادي، بل لو لبسته لفسد حتى المساء كليةً، ثم هنالك بلاد يكثر فيه البعوض بحيث لا يستطيع الإنسان أن يبيت ليلة واحدة من دون ناموسية. فالأحوال تختلف من بلد إلى آخر، ولا يطمئن الإنسان ما لم يكن على معرفة بأحوال البلد الذي يقصده. ويعاني المرء حتى اليوم كثيرًا في سفره من بلد إلى آخر رغم تيسُّر كثير من المرافق من قطار وبرقية وبريد في هذه الأرض التي لا يتجاوز عرضها ٢٥ ألف ميل، ولذلك نجده يسأل أهل المعرفة بالبلد الذي يقصده، وإذا لم يجد أحدا يسأل الشركات بأنه يريد زيارة بلد كذا، ويريد المعلومات الضرورية عنه، فمن أين يحصل على التذكرة، وكم يحتاج من المال، وما هي الأشياء الضرورية ليأخذها معه. إننا عندما نخرج في سفر في بلدنا الهند نأخذ معنا فراشنا، وإلا قاسينا عناء شديدا، لأننا لا نجد في الفنادق هنا فراشا، وإذا وجدناه كان متّسخًا وعَفِنًا بحيث تخاف المرض إذا نمت فيه. ولكنك إذا سافرت إلى إنجلترا حاملاً معك فراشك فسوف يضحك عليك الجميع قائلين: غبيٌّ يأخذ فراشه معه في السفر. ذلك أن المرء إذا حلّ في فندق في إنجلترا للمبيت فيُمَدّ بالسرير أيضا، حتى إن أصحاب الفنادق يغيّرون الفراش يوميا، حتى إنك لن تجد بقعة واحدة صغيرة من الوسخ على أي ملاءة، ولا يمكن أن يقدَّم لك فراش مستعمل، إذ القاعدة في كل فندق جيد أنهم يغيرون الملاءة الفوقانية والتحتانية كل يوم، ومن المستحيل أن يبيت شخص مريض في بطّانية، فتُعطى لمسافر آخر، بل يأتون بالملاءات والبطانيات النظيفة ويمدونها على الأسرة. ونفس

العادة توجد في منطقة "هزاره" عندنا في الهند، فحتى الإنسان الفقير من أهلها يحتفظ بعشر أو خمسة عشر فراشًا في بيته حتى لا يواجه أي عناء إذا جاءه ضيوف، وإذا جاء ضيف مع فراشه فإن المضيف يستاء جدا لأنه لم يثق بضيافته. وإخواننا من "هزاره" عندما يأتون إلى قاديان لحضور الجلسة السنوية لا يُحضرون فراشهم معهم، لأنهم يظنون أن أخذ المسافرِ فراشه معه خسةٌ ودناءة، فيعانون كثيرًا في أيام جلستنا هذه لأن العادة عندنا أن يأتي كل إنسان بفراشه في الجلسة. كذلك من عادة أهل "هزاره" أن المرء لا يأخذ معه أي مال في سفره، بل من واجب مضيفه أن يعطيه المال لأجرة المواصلات، وعندما يريد الرحيل يقول للمضيف بكل اطمئنان: أَعْطِنِي الآن المال لأني أريد العودة. ومنطقة "هزاره" ليست بعيدة عنا إذ يمكن الوصول إليها في ساعات، ومع ذلك انظروا الفرق الشاسع المحيّر بين عاداتنا وعادات أهلها، ولو ذهب أحد الطرفين إلى منطقة أخرى بدون معرفة أحوالها فلا بد أن يعاني معاناة كبيرة.

مِن أجل ذلك كله يقول الله تعالى هنا إن الدين ذو علاقة بالحياة بعد الموت، التي يجهل هؤلاء أحوالَها كل الجهل، وليس بوسع أحد منهم الادعاء أنه قد رأى أحوال تلك الحياة ورجع منها، ولذلك فهو ليس بحاجة إلى أي توجيه أو مساعدة بصدد الحياة بعد الموت! وما داموا يجهلون أحوالها تمامًا، وما داموا سيرجعون إلى الله تعالى في النهاية حتمًا، فمن ذا الذي سيخبرهم -سوى الله تعالى- عن الأعمال التي ستصلح حياتهم في الآخرة وعن الأخلاق التي تنفعهم هنالك، وعن العقائد التي تجعلهم من أحباء الله تعالى؟

إنها أمور لا يخبرهم أحد بها إلا الله، إذ ليس بوسع عقولهم أن تعرف أحوال تلك الحياة، ولذلك فإن تمرُّدهم واستغناءهم عن نصرة الله تعالى حماقة كبرى، إذ لم ينجح أحد في الماضي في هذا الصدد بدون نصرة الله تعالى، ولن ينجح الآن أيضًا.

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿١٠﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١١﴾

التفسير: هنا يبكّت الله تعالى الكافرين بضرب مثال، فيقول: أَخبِروني هل هناك أية معقولية في تصرّف هذا الإنسان؟ ذلك أن قوله ﴿أرأيتَ﴾ يعني أَخبِرْني (المفردات). والخطاب هنا موجه للرسول ﷺ، ولكنه زجرٌ للكافرين في الواقع، وهذا أسلوب من أساليب البلاغة حيث نخاطب شخصًا ونعني غيرَه، لأنه إذا سمع ندم على تصرفه. فيقول الله تعالى: يا محمد، أخبِرْني عن هذا الشخص الذي ينهى.. وينهى مَن؟! إنه لا ينهى شخصًا مجادلاً أو قتّالاً أو خدّاعًا أو لصًّا، بل ينهى عبدًا مسكينا متواضعا لله تعالى. وعَمَّ ينهاه؟ إنه لا ينهاه عن مخالفة قانون أو معارضة قضية سياسية، بل ينهاه إذا صلّى. فهذا المسكين حين يقوم لعبادة الله تعالى يسارع هذا الكافر ويأخذ بتلابيبه. فهل في الدنيا عاقل يعتبر هذا التصرف صحيحا؟ ليس بينهما خلاف سياسي أو مالي أو مدني، وليس بينهما خصام على الزعامة، كل ما في الأمر أن هذا يقف في بيته ليعبد الله، فيحاول ذلك منعه. هل فعله من المعقولية في شيء؟ هل تصرفه من الإنسانية في شيء؟ إن عبدًا يقف أمام الله للعبادة، فيتميز "أبو جهل" غيظًا. إنه لم يسلبه شيئا ولم يسرق منه مالا ولم يتعرض له بسوء حتى يرفع عقيرته غضبًا عليه. إنه يصلي في بيته قائمًا، فيثير أبو جهل وأمثاله ضجة على ذلك. فكيف يمكن لصاحب هذه التصرفات غير المعقولة أن يدعي أنه ليس بحاجة إلى نصرة الله من أجل هدايته؟

لقد ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أن بعض الناس يزعمون أنهم ليسوا بحاجة إلى أي هادٍ في أمور الدين لأنهم قادرون على أن يختاروا الطريق بناءً على ما تملي عليهم عقولهم، فيرد الله تعالى عليهم بضرب هذا المثال ويقول لهم: تقولون دائمًا بإصرار أنكم لستم بحاجة إلى عون الله تعالى في أمور دينكم، فهلا فكرتم في واقعكم لتروا ما إذا كان ادعاؤكم هذا صحيحا أم لا. انظروا إلى أبي جهل وغيره من سادتكم، فإنهم قادتكم، يشيرون عليكم برأيهم في أمور دنياكم ويقودونكم في حروبكم، ويعترف الناس بذكائهم في الأمور المادية، ولكن انظروا كيف فقدوا

صواهم حيث يستشيطون غضبًا إذا قام عبد من عباد الله لعبادته في بيته. فكيف يستطيع أن يتخذ خطوة واحدة في الأمور الروحانية بدون عون الله تعالى مَن فقد بصيرته إلى هذا الحدّ وبلغ به الحمق والجهل في أمور الدين هذه الدرجةَ؟

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١٣﴾

التفسير: قد يجيب هنا أمثالُ أبي جهل: تعترضون علينا بأن تدخُّلنا في عبادة هذا العبد تصرف غير سليم! ولكننا نقول: لا شك أن عبادته لا تضرنا ولا قومنا ولا نظامنا، ولكنها تضره هو، فنهيناه عنها شفقةً عليه من عواقبها الوخيمة. فأجاب الله على اعتراضهم هذا بقوله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾. والمعنى أن عبدنا هذا هو على الهدى فعلاً، فمن أساليب البلاغة استعمال أدوات الشك والاستفهام من أجل التأكيد. وهو أسلوب رائج في كل لغة، إذ يقولون في لغتنا الأردية مثلا: لعلي أفعلُ هكذا، والمراد أني سأفعل هكذا حتمًا. فقوله تعالى ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ يعني: إن كان محمد أو هذا العابد المصلّي على الهدى، فكيف يكون مصير مَن ينهاه عن العبادة؟ والمراد: تحتجون بأنكم تمنعونه من العبادة لكي لا يتضرر بها ولا يدخل الجحيم مثيرًا غضب الله وسخطه، ولكن قولكم هذا باطل، لأن القضية تتعلق بالآخرة، والآخرة لم تروْها أنتم ولا آباؤكم، فكيف عرفتم أن عبادته تضره حتما؟ فحتى لو ظننتم أن محمدًا ليس على الحق، فلا يحق لكم أيضًا منعه من العبادة، لأن قولكم ليس مبنيًا على اليقين، بل غاية ما تستطيعون قوله: لعله ليس على الحق، لذا ننهاه عن العبادة، مع أن الواقع أنه قد يكون على الحق فتصبحون بمنعه من الظالمين. فما دامت القضية تتعلق بالآخرة التي ليس عندكم علمٌ قطعي عنها، بل غاية ما عندكم هو رجم بالغيب، فلا يحق لكم منعه بناءً على الظن فقط، إذ من الممكن أن يكون على الهدى وتكونوا على الضلال والغواية. والمعروف أنه لا يحق للمرء أن ينهى أحدا عن شيء إلا بناءً على العلم اليقيني، فمثلا إذا رأى طفلاً على وشك السقوط في بئر، ولم يكن أبواه هنالك، فيحق له كل الحق أن يمنعه من السقوط،

لأن نتيجة سقوطه الموت حتمًا، أما إذا بدأ زيد التجارة فلا يحق لعمرو أن ينهاه عنها ظنًا منه أنه قد يخسر فيها، ولو فعل ذلك لَلامه الجميع حتمًا، ولو رُفعت القضية ضده لأمر القاضي بعقابه قائلا: كيف تنهاه عن التجارة بناءً على أمر ظني غير بديهي؟ كما يجوز لنا أن ننهى شخصًا يريد أن يتناول السمّ، لأن من البديهي أن السمّ قاتل، ولكن لا يجوز لنا أن ننهى شخصًا عن تناول الطعام زاعمين أنه قد يصاب بالكوليرا أو الإسهال. باختصار، إذا كانت نتيجة عمل ما ضررا قطعيا فيحق لكل صديق وجار أن يمنع غيره منه إنقاذًا له من الضرر، ولكن إذا لم يكن الضرر يقينيًا قطعيًا فمن الحماقة أن يتدخل المرء في شؤون غيره. وحيث إن القضية هنا تتعلق بالعبادة التي لم يكن موقف الكفار بصدد نتائجها قطعيًا يقينيا، فرد الله عليهم إن قولكم إنكم تنهون محمدا عن العبادة حماية له من ضررها باطل قطعًا، لأنه ليس أمرًا قطعيًا، فغاية ما يمكن أن تقولوه: لعله في الضلال أو على الصواب، ويمكن أن يقال مقابله: لعلكم في الضلال وهو على الصواب، فما دام الأمر مشتبهًا عليكم فكيف يحق لكم منع إنسان بالغ مِن عملٍ يقوم به بإرادته ورغبته؟ إنما القاعدة السائدة في الدنيا أنه لا يحق لأحد منعُ البالغ العاقل من القيام بعمل لا يُعرف أيكون ضارا به أم نافعا له. فمثلا إذا خرج المرء في سفر أو باشرَ تجارة فقد ينتفع بها أو قد يتضرر منها، ومع ذلك لا يحق لأحد أن يمنعه من التجارة بحجة أنه يخاف أن يخسر فيها، أو يمنعه من الذهاب إلى مدينة ما بحجة أنه يخاف أن يضرّه خروجه من البيت. ومَن فعل ذلك رماه الجميع بالجنون قائلين: ما أدراك أن سفره أو تجارته ضارة به؟ غاية ما تقوله اجتهاد وقياس، ولكن من الممكن أن يربح أيضا، فمنعُك إياه من السفر أو التجارة غباء وجنون.

هذا ما يقول الله تعالى في قوله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾.. أي أن محمدا بالغ عاقل، وهو يرى أنّ خير الإنسان في عبادة الله، فإذا كان يعبده فلا يحق لكم منعه. صحيح أن العبادة لا قيمة لها عندكم، لكن ما تقولونه أساسه مجرد الشك، فمع أنكم لا تستحسنون العبادة إلا أنه لا يحق لكم عقلاً أن تمنعوه منها. ما دامت نتيجة عمله مشكوكا فيها، فمن يضمن لكم أن نتيجة فعلكم خير حتمًا؟

أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٣﴾

التفسير: لقد قال الله تعالى للكفار مِن قبل على سبيل الاستفهام: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾.. أي لا يجوز لكم أبدًا منع محمد من العبادة، لأنكم إذا كنتم في شك من صدقه فموقفكم أيضا ليس قطعيًا، وما دامت دعواكم مشكوكا فيها، وما دمتم تشكّون في دعوى محمد، فلا يحق لكم أن تمنعوا محمدا من العبادة بناءً على الشك فقط، أما الآن فبيّن الله تعالى أمرًا آخر دعمًا للدليل الأول، فقال: إن الهدى أمر يتعلق بقلب المرء، لذا يحق لكم أن تقولوا إنا لا نعرف إن كان محمد على الهدى أم لا، ولكن كيف تتعامَون عن ورعه وتقواه؟ فإن التقوى تتعلق بأعمال الإنسان، ولا يمكن لأحد أن يقول إني لا أعرف ما إذا كان فلان يتحلى بالتقوى أم لا. فإذا كانت معرفة ما في قلبه صعبة عليكم، وإذا كنتم لا تستطيعون أن تعرفوا ما إذا كان محمد على الهدى أم لا، فهلا نظرتم إلى أعماله لتعرفوا ما إذا كان هو على الخطأ أم أنتم. بوسعكم أن تقولوا أن محمدا يعبد الله بدلاً من آلهتنا، وهذا خطأ في رأينا، ولذلك نمنعه من عبادة الله، ولكن هلا فكّرتم في تعاليمه التي يبينها بلسانه، وإلى أعماله التي يقوم بها بجوارحه؟ ألا تستطيعون أن تعرفوا برؤية تعاليمه وتعاليمكم وأعماله وأعمالكم أي الفريقين على الهدى؟ ألستم الذين تغشّون وتخدعون وتكذبون وتنغمسون في الرذائل، أوليس محمد يطيع أحكام الله، فيصل الرحم، ويصدق القول، ويعين الفقراء، ويمنع الظالمين، ويأمر بالحسنى، ويكرم الضيف، ويتحلى بقمة الأمانة، ويدعو الآخرين إلى هذه التعاليم بلسانه، فكيف يمكن أن تكونوا على الحق ويكون هذا الإنسان الذي هو تقوى مجسدة ويدعو الآخرين إليها على الباطل؟

فثبت أن هذا الدليل يدعم الدليل الأول، حيث يقول الله تعالى لا يحق لكم أن تنهوا محمدًا عن العبادة بحجة الشك في صدقه، لأنكم ما دمتم تشكّون في صدقه فمن الممكن أن يكون صادقًا فيما يفعله وتكونوا في تكذيبه على الباطل. ثم إنه يتحلى بصفة زائدة وهي أنه يعمل الحسنات ويقوم بالعبادة ويتحلى بالتقوى كما

أنه يدعو الآخرين إليها، بينما أنتم منغمسون في السيئات، أفليس هذا دليلا قويًا على أنكم تضلون عن الصدق ضلالا بعيدا.

واعلم أن سورة العلق من السور الأوائل نزولاً، ولذلك لا يذكر الله تعالى فيها النتائج، بل يُعرض عن ذكرها في كل مرة، ذلك أن أهل مكة لم يكونوا قد جهروا بالمعارضة. كانت الأيام أيام بداية البعثة و لم يُرِد الله تعالى إثارتهم، فاكتفى ببيان الأمر الواقع بالتلميحات والإشارات قائلا: أرأيت.. أرأيت؟ أي أَخبِرْني عن مصير فلان، و لم يذكر اسم الشخص المشار إليه.

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٤﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٥﴾

التفسير: كما أن الخطاب في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ موجَّه إلى الرسول ﷺ في الظاهر وإلى الكفار في الحقيقة إقامةً للحجة عليهم، كذلك الحال في هاتين الآيتين. فيقول الله تعالى لرسوله الكريم: إذا كان الكافر يقول عن عبدنا الذي يصلي: لعله مخطئ في عبادته حيث يسجد أمام الله تاركًا عبادة الأصنام التي كان قومه وأقاربه يعبدونها، فمن المحتمل أيضًا أن يكون هذا الذي ينهى هذا العبد عن العبادة مكذبًا للحق ومعرضا عن الهدى وموليا عن التقوى والصلاح والطهارة، بينما يكون هذا العابد على الهدى وآمرًا بالتقوى وداعيًا الآخرين إلى الصلاح والطهارة؛ فما دام هذا الاحتمال واردا ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾.. أي ألا يفكر صاحب هذه الأفعال الشنيعة أن الله يراه وأنه قادر على أن يذيقه وبال عمله؟

لقد قدّم الله تعالى هنا دليلاً لطيفًا جدًا وبيّن أن هذا الكافر ينهى عبدنا عن العبادة ومع ذلك يقول: لِمَ لا أنهاه، فإنه صديقي ومن أهل بلدي، ومن حقي منعه من سلوك الطريق الخاطئ، مع أن من الوارد أن يكون هذا الناهي عن العبادة هو على الخطأ. فإذا حُقَّ له -رغم موقفه المشتبه- أن ينهى عبدنا عن العبادة، أفلا يرى هو أن هناك إلهًا في السماء يرى كل ما يجري على الأرض؟ إذا كان ينهى صاحبه

عن العبادة مغرورا بقوته وسطوته فهلا فكّر أن مَلِكَ السماء والأرض القادر القويّ الذي يرى هذا الظلم لَقادرٌ على أن يعاقبه على هذا الظلم. فإذا كان يحق لأبي جهل وأصحابه أن ينهوا محمدا عن العبادة بحجة أنهم يرونه على الخطأ، فمن حق الله تعالى أيضا أن يعاقبهم إذا كانوا هم على الخطأ. إذا كانوا يمنعون عبدنا من العبادة باعتباره على الخطأ بناءً على قياسهم الذي لا أساس له، فليعلموا أنه لا حق لهم في الشكوى إذا ما أخذهم الله على تكذيبهم وتوليهم. إذا حُقَّ لهم التدخل في شؤون الآخرين بناءً على جهلهم وقياسهم، فالله أحقُّ بالتدخل في شؤونهم بناءً على علمه بحقيقة الأمر، وعندها لا يحق لهم أن يقولوا لماذا يعذّبنا الله. فقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ إشارةٌ إلى مصير الكافرين، حيث حذرهم الله تعالى من بطشه.

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٦﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

لَنسْفَعًا: (أصلُه لَنسْفَعَنْ)، وسَفَعَ الشيءَ: أَخَذَه وجَرَّه بشدّة. (الأقرب)

الناصية: قُصاصُ الشَّعرِ، أي حيث تنتهي نَبْتَتُه مِن مَقْدَمِه. وقيل الناصية: مُقدَّمُ الرأسِ. (الأقرب)

التفسير: أي لن يكون كما ترون. تظنون أنكم ستقدرون على منع عبدنا من العبادة باعتباره ضعيفًا عديم الحيلة والأعوان. كلا، هذا لن يحدث أبدًا. سوف نخيّب آمالكم، ونكسر كبرياءكم وقوتكم، ونعلن اليوم أنه إذا لم يرتدع من تعتبرونه مَلِكًا وسيدًا لكم عن شروره فسوف ننتقم منه ونجرّه بشدّة. كان من دأب الكفار أن يبطشوا بالعبيد المسلمين إذا خرجوا للصلاة أو غيرها ويجرّوهم من أرجلهم أو شعر رؤوسهم بقسوة، ويقولوا لهم: لماذا تعبدون الله معرضين عن الأصنام؟ وفي زمن الفتوحات الإسلامية، كشف عن ظهره صحابيٌّ تعرّضَ

لاضطهاد الكفار زمنًا طويلا، فأذهل الناس منظر ظهره، إذ كان جلده قد أصبح كجلد الجاموس، فظنوا أنه مصاب بمرض، فلما سألوه عن السبب قال ضاحكا: إنه ليس مرضا، بل هي آثار الظلم الذي قد صبّه عليّ كفار مكة. كنا عبيدا عندما أسلمنا وكان قانون البلد يخوّل أسيادنا أن يعاملونا كما يشاءون، فلما أصررنا على أن لا نشرك بالله أحدا، ربطوا أرجلنا بالحبال وجرّونا من أرجلنا وأحيانًا من شعرنا بقسوة، في الشوارع المليئة بالحجارة والحصوات غير مكترثين لمعاناتنا حتى تمزقت جلودنا، وتكرار هذه المظالم أفسد جلودنا وصارت كما ترون اليوم. (الطبقات الكبرى: في ذِكر خبّاب بن الأرت)

وكأن الله تعالى قد أشار هنا سلفًا إلى الأحداث التي كان سيتعرض لها المسلمون في شوارع مكة، حيث أخبر أن الكافرين يمنعون أتباع محمد ﷺ من العبادة فقط اليوم، وسيأتي يوم يجرّونهم فيه في شوارع مكة حتى تتمزق جلودهم، فيا محمد قُلْ لصاحب النفوذ والقوة منهم والذي يتباهى بقوته أنه إذا كان يعرف كيف يجرّ المسلمين فنحن أيضا نعرف كيف نجرّه. ولسوف نجرّه بشدة من ناصيته. إذا كان هؤلاء يجرّون الناصية التي تسجد أمام الله تعالى، فلماذا لا نجرّ الناصية الكاذبة الخاطئة. إذا كانت الناصية التي تعبد الله وحده يمكن أن تُجَرّ، أفلا تستحق الناصية التي تخرُّ أمام الأصنام أن تُجَرَّ؟

وبالفعل نرى أن الله تعالى قد عامل أبا جهل هكذا تماما، فلما انتهت معركة بدر أخذ المسلمون جثة أبي جهل من شعره وألقوه في الحفرة التي أُعدّت قبرًا له، عملاً بقول الله تعالى ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. (الرازي)

سيقول البعض أن جرَّ الميت من شعره عمل وحشيّ، ولكنه ليس كذلك، بل كان انتقامًا لتلك المظالم التي صُبَّت على المسلمين. والحق أنه كان انتقامًا بسيطًا جدًّا، إذ كان الكافرون يجرّون المسلمين وهم أحياء ويعذّبونهم تعذيبًا شديدًا، أما أبو جهل فجُرَّ ميتًا دون أن يشعر بالعذاب.

رأيت ذات مرة في الرؤيا أنّ قائدًا إنجليزيًا جاءني وقال ما هي فتواك؟ هل جزاء القاتل القتل أم يمكن أن يعاقَب بعقوبة أخرى؟ ثم قال حين يُقتَل بعض رجالنا في منطقة

"سَرْحَد"* تُحرق جثثهم بوضعهم في الجص، أو يقتلون بأنواع العذاب الأخرى؛ فهل يعاقب قاتلهم بالقتل أم يمكن أن يقتل بطريقة فيها تعذيب زائد. فقلت لهم إن القرآن الكريم قد بين القاعدة القائلة: جزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها، فإنما فتواي هي أن القتل بالقتل والتعذيب بالتعذيب. لا شك أن عقوبة القاتل هي القتل في الحالة العادية، ولكن لو تقرَّرَ قتلُ القاتلِ بتعذيبٍ لمصلحةٍ ردعًا للأعداء من التعذيب والشرّ، فهو جائز تماما.

لا شك أن الذين لم يتدبروا ظروف ذلك العصر بجدية يقولون أحيانا أن جرَّ الميت من شعره وإلقاءه في الحفرة عملية قاسية جدًا، ولكنهم يتناسوْن أنّه لم يُجَرَّ هنا من شعره إلا الميت ومرة واحدة فقط، أما الكافرون فظلّوا يجرّون المسلمين الأحياء على الحجارة سنوات وسنوات. وليس هذا فحسب بل جرّوها مرة بعد أخرى وجروحهم لا تزال غير مندملة. ثم إنهم ما كانوا يجرّونهم على الحجارة فقط، بل كثيرا ما كانوا يضعون على صدورهم حجارة ثقيلة، ثم يقفون عليها ويرقصون ويقولون لهم: آمِنوا باللات والعزى. هذا هو الأمر الذي جعل الرسول ﷺ ذات مرة يثني على بلال خيرًا حيث قال: إن الله ليفرح بقول بلال في أذانه: "أسهد ألا إله إلا الله" بدلاً من "أشهد ألا إله إلا الله". ذلك أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة أذَّن بلال رضي الله عنه، فضحك الذين لم يعرفوه حين قال "أسهد ألا إله إلا الله" بدلاً من "أشهد ألا إله إلا الله"، إذ كان حبشيًا ولم يستطع نطق الشين صحيحًا. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: يضحك الناس على لكنة بلال، ولكن الله تعالى يفرح على عرشه حين يسمعه ينطق السين مكان الشين! ولم يكن سبب ثناء النبي ﷺ على بلال إلا لأن كفار مكة كانوا يضعون على صدره حجارة كبيرة ويأمرونه أن يشهد بأن اللات ومناة والعزى آلهة حقًّا، فكان بلال لا يسكت على ذلك، بل كان يعلن من تحت الحجارة وهو في أذى شديد: "أسهد ألا إله إلا الله". فنطقُه الشهادة بالسين بدل الشين من تحت الحجارة جعل النبيَّ ﷺ يقول إن الله تعالى يفرح على عرشه حين يقول بلال: "أسهد ألا إله إلا الله"، لأنه تعالى قد سمع منه هذا الكلام حين كان يئنّ تحت الحجارة أو يُجَرّ في شوارع مكة. فكان الله تعالى

* وهي تقع حاليا في باكستان على الحدود الأفغانية. (المترجم)

لا يفرح لمجرد أذان بلال، بل بسبب نطقه من تحت الأحجار: "أسهد ألا إله إلا الله". ولهذا السبب قال الرسول ﷺ: إنكم تنظرون إلى السين التي ينطقها بلال اليوم، لكن الله تعالى ينظر إلى السين التي كان ينطق بها وهو تحت الحجارة، ولذلك يفرح الله على عرشه بسماع صوته حين يقول في أذانه: "أسهد ألا إله إلا الله".

كيف يمكن لمن يأخذ هذه الظروف في الحسبان أن يتجاسر على القول أن إلقاء المسلمين جثة أبي جهل في الحفرة آخذين إياه من شعر رأسه ظلمٌ ووحشية؟! أرى أن المؤرخين الذين يتهمون الرسول ﷺ بالوحشية لا يفكرون في الأمر الواقع، ولو أنهم تصوروا تلك المظالم واضعين آباءهم وأزواجهم وأولادهم مكان المسلمين فلن يعتبروا أيّ فعل للرسول ﷺ ظلمًا، بل سيضطرون للقول إنه ﷺ قد عاملهم بغاية اللطف. انظروا كيف ارتكب الأوروبيون أبشع الجرائم بعضهم ضد بعض في الحرب العالمية الثانية، وكيف انتقموا من أعدائهم بظلم ووحشية، وذلك رغم أنّ أهل هذا العصر يظنون أنهم قد بلغوا ذروة التمدّن والتحضّر. أما المسلمون فلم يظلموا أحدا، وإنما ألقوا بعض الجثث في الحفرة آخذين إياها من نواصيها يوم بدر، وهم القوم الذين آذوهم في شوارع مكة على رمال محرقة وحجارة صلبة لسنوات طويلة.

فالله تعالى يعلن هنا أن هؤلاء القوم يجرّون عبادنا من نواصيهم اليوم، ونحن أيضا سنجرّهم من نواصيهم في يوم من الأيام، ولكن ليس ظلمًا، بل ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. سنجرّ الناصية التي هي كاذبة خاطئة. وعقاب المجرم ليس ظلمًا حتى تقولوا لماذا جُرَّ هؤلاء من نواصيهم. إنهم يُجَرّون من نواصيهم لأنهم مجرمون خاطئون، ليس في الدنيا قانون يعتبر عقوبة المجرم ظلمًا.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

نادِيَه: النادي: مجلسُ القوم ومتحدَّثُهم نهارا. وقيل: المجلس ما داموا مجتمعين فيه، فإذا تَفرّقوا زال عنه هذا الاسم. (الأقرب)

إذن، فكلمة النادي لا تطلق على غرفة مثلاً ليس فيها أحد، إنما تُطلق على المجلس ما دام الناس فيه؛ شأنها شأن كلمة "المائدة" التي تعني الخوان الذي عليه الطعام، وإلا فلا يسمَّى الخوان الخالي من الطعام مائدة.

التفسير: كان الكافرون يتباهون في مجالسهم قائلين: اليوم قد اتخذنا قرارا كبيرا، واليوم قمنا بمشورة كبيرة، واليوم قررنا مقاطعة محمد وأصحابه اجتماعيًا، واليوم اتفقنا على ضربهم وإيذائهم، واليوم أجمعنا على قتلهم، فيقول الله تعالى هنا مشيرًا إلى جلساتهم تلك: سيأتي يوم نقول فيه للكفار لماذا لا تدْعون أهل ذلك المجلس؟ اذهبوا ونادوا مَن كنتم تتآمرون معهم ضد المسلمين ليل نهار، ثم انظروا هل يغنون عنكم شيئا. لقد نسجتم المكائد ضدهم فصرتم اليوم في قبضتنا، فادعوا أصحاب شوراكم وقولوا لهم أن ينصروكم إن استطاعوا.

سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

الزبانية: زَبَنَ يزْبِن زَبَنًا: دَفَعَه؛ صَدَمَه. والزبانيةُ عند العرب الشُّرَطُ. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء يدْعون أصحابهم إلى محافلهم للتآمر ضد المسلمين، ونحن أيضا سندعو شرطتنا.

قال المفسرون الزبانية هم ملائكة النار (فتح البيان)، ولكني أرى أنهم ليسوا ملائكة النار، بل ملائكة الجنة، أعني الصحابة الذين جرّوا الكفار من نواصيهم يوم بدر ليَلقَوا مصيرهم، فمشيرًا إلى هؤلاء الصحابة يخبر الله تعالى الكافرين أن هؤلاء المسلمين المظلومين المقهورين الذين تصبّون عليهم أنواع الاضطهاد سيكونون رجال شرطتنا. أحيانًا يجد اللصوص وقطاع الطرق شرطيًا وحيدًا فيأخذونه ويضربونه، ولكن إذا جاء المدد لا يقدرون على مقاومة الشرطة. كذلك يقول الله للكافرين إنكم تبطشون بمسلم ومسلميْن وتعذّبونهما مغرورين بقوتكم وتقولون: أنّى لهؤلاء أن يضرّونا، فنحن أولو قوة ومنَعَة ونفرٍ وهم ضعفاء يُعدّون على

الأصابع، ولكنكم أيها الكفار لا تدرون أن هؤلاء الذين تروهم ضعفاء لا أنصار لهم.. إنهم رجال شرطتنا، وعندما يأتي جنودنا للانتقام منكم فسترى الدنيا كيف يجعلونكم عبرة لمن يعتبر. عندها لن يقدر أحد منكم أن يرفع إصبعًا ضد جنودنا. وبالفعل نرى كيف أذلّ الله كبراء مكة وأخزاهم في زمن غلبة المسلمين!

جاء سيدنا عمر ﷺ ذات مرة إلى مكة في زمن خلافته، فأخذ العبيد - الذين كان يجرّهم الكفار من نواصيهم في مكة - يأتون لزيارته واحدا بعد الآخر، وكان اليوم يوم عيد، وقد سبقهم أولاد كبار أعيان مكة للسلام على عمر ﷺ، و لم يمض وقت طويل حتى جاء بلال.. ذلك العبد الذي كان الكافرون يضربونه ويجرّونه على حجارة صلبة مدبَّبة تنهش جِلْدَ ظهرِه العاري، والذي كان الكفار يضعون على صدره حجرا كبيرا ويُكرِهونه على عبادة اللات والعزى، فكان يردّ عليهم: أشهد ألا إله إلا الله. فلما رآه عمر قال لأولاد الأسياد هؤلاء: أَفسِحوا المجالَ لبلال ليجلس بالقرب مني. وما إنْ أخذ مكانه في المجلس حتى جاء عبد آخر من الصحابة، فأمر عمر هؤلاء الرؤساء بإفساح المكان له قريبا منه، ثم جاء الثالث والرابع. ولأن الله تعالى كان يريد أن يذلهم، فحضر في المجلس ثمانية أو عشرة من الصحابة الأوائل من العبيد والفقراء، وفي كل مرة كان عمر يأمر الرؤساء أن يتأخروا من أجلهم. لم تكن في تلك الأيام صالات كبيرة، وإنما كان المجلس غرفة صغيرة لا تتسع للكثيرين، فلما امتلأت الغرفة بالصحابة العبيد اضطر هؤلاء الزعماء للجلوس عند الأحذية، فلم يطيقوا هذا الخزي، فخرجوا من مجلس عمر، وقالوا فيما بينهم: هل رأيتم يوما أشدَّ خزيًا! فهؤلاء العبيد الذين كانوا يخدموننا قد أُجلسوا في صدر المجلس وأمرنا عمر بترك المكان لهم حتى وصلنا مكان الأحذية، فأهاننا أمام الناس جميعا؟ فقال أحدهم وكان أذكاهم: صحيح أننا قد لقينا الخزي والهوان، ولكن السؤال: من هو المسؤول عن ذلك؟ عندما كان آباؤنا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه كان هؤلاء العبيد يفدونه بمُهَجهم وأرواحهم، وقد صار الحُكم الآن لمحمد رسول الله، فمَن الأحقّ بالتكريم اليوم؟ أالذين آذوا رسول الله ﷺ أم هؤلاء العبيد الذين كانوا يفدونه بأرواحهم؟ فلماذا تشتكون من هذه المعاملة؟

فبسبب ما فعله آباؤنا لم نتلق المعاملة التي عوملها هؤلاء العبيد. ففهموا الأمر الواقع وقالوا فيما بينهم: لا شك أن الذنب هو ذنب آبائنا، ولكن هل من سبيل للخروج من هذه الورطة وغسل وصمة العار هذه؟ فلم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى نتيجة، فقرروا جميعا أن يسألوا عمر. فلما رجعوا إليه كان المجلس قد انفضَّ وذهب الصحابة كلهم. فقالوا لعمر: لقد جئنا لنستشيرك في الخزي الذي لقيناه في مجلسك. فقال ﵁: لا عليكم، إنهم صحابة رسول الله ﷺ وكان يُعزّهم في مجلسه. لا شك أنكم قد تأذيتم كثيرا فيما فعلتُ، لكني كنت مضطرا. فقالوا: نحن ندرك الموقف، لكنا جئناك سائلين: هل من سبيل إلى غسل هذا العار؟ وكان عمر ﵁ يعرف ما كان عليه آباء هؤلاء الشباب من شأن وشوكة وهيبة ورعب، فلما سمع قولهم فكَّر كيف أصبح هؤلاء أذلة بسبب آثامهم، فغلبت عليه الرقة واغرورقت عيناه فلم يستطع أن يجيبهم باللسان، بل أشار بيده إلى الشام حيث كان المسلمون في حرب ضدّ جيوش قيصر الروم، وكان يعني عمر ﵁ أن وصمة العار هذه لن تمحى إلا إذا اشتركتم في تلك الحرب وضحيتم بأرواحكم. فخرجوا فورًا على جمالهم ناحية الشام، ويخبرنا التاريخ أنه لم يرجع أيٌّ منهم حيًّا. وهكذا محا هؤلاء بدمائهم الزكية وصمة عارٍ التصقت بجبينهم بأفعال آبائهم. (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، لابن الجوزي ص ٩٨)

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: يمكن للكافرين أن يدعو أصحاب ناديهم وسوف ندعو رجال شرطتنا وسوف نعاملهم كما يعامَل اللصوص والصعاليك.

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿٢٠﴾

التفسير: أي أيها الكافر لن يكون الأمر كما تفكر، ويا أيها المؤمن بمحمد لا تقبل قول العدو ولا تمتنع عن عبادة الله، بل اسجدْ، وكلما نَهَوْك عن السجود عليك أن تزداد سجودًا لنا. ستُضرب وأنت ساجد، ولكن هذه السجدة سوف تزيدك قربًا وزلفى من الله تعالى.

هناك سجدة يقوم بها الإنسان في حالة الأمن، وهناك سجدة يقوم بها الإنسان في حالة الخوف وغياب الأمن. وإن السجدة التي يقوم بها حين يُمنَع من العبادة والتي يتعرض بسببها لأنواع المصاعب ترفعه في لمح البصر رفعة عظيمة. هناك سجدة يقوم بها الإنسان مطمئنا في بيته حيث يهبّ ويتوضأ ويقف على السجادة ويخر أمام الله تعالى، ولكن هناك سجدة يتعرض صاحبها بسببها للضرب والإهانة، ومثل هذه السجدة أعظم درجة وقيمة عند الله تعالى من السجدة التي تتم في أمن ودعة.

قبل قرن من الزمان عندما كان المسلمون ينشرون دينهم، وينفقون أموالهم في سبيل الإسلام، ويتألمون شفقةً عليه، كانوا يُمدحون على ذلك، أما جماعتنا فهي تتعرض للّوم والإهانة رغم نشر الإسلام ونصرته. يقال عن هؤلاء الأوائل أنهم كانوا كبار المواسين للإسلام، بينما يقال أننا كبار أعداء الإسلام. ما هي جريمتنا؟ إن أبناء جماعتنا يُقتِّرون على عيالهم وأولادهم من أجل نشر الإسلام، حتى إن منهم من يعيشون في بلاد أجنبية ثمانيَ سنوات أو عشرًا لرفع اسم الله الأحد بعيدا عن أولادهم وأزواجهم، ويتصدى أبناء جماعتنا للكفر كالشجعان حيثما دارت الحرب بين الإسلام والكفر، وإنهم يصلّون ويصومون ويحجّون ويزكّون أموالهم، ويقرأون القرآن، ويؤمنون بالشهادتين، ويعتبرون العمل بكل حكم من أحكام الإسلام بالقلب والروح جزءا لا يتجزأ من إيمانهم، ومع ذلك يسبُّهم الناس ويثنون على المسلمين الأولين المذكورين آنفًا، مع أن إنجازاتهم لا تساوي شيئا أمام إنجازاتنا في سبيل الإسلام. فالتضحية التي كانت تُكسِب المسلمين قبل قرن المديحَ والثناءَ أصبحنا نلقى الضرب والإهانة إذا ما قمنا بها.

كذلك هناك بونٌ شاسع بين سجود الرسول ﷺ وأصحابِه وسجودِ المسلمين الذين أتوا فيما بعد. ذلك أن الذين أتوا فيما بعد إذا سجدوا أثنى عليهم القوم قائلين: ما أكثرَ هذا الرجل ورعًا وصلاحًا! وما أشدَّه حرقةً وبكاءً في عبادته! أما سجود الرسول ﷺ فيمكنك معرفة قدره من الحدث التالي: ورد في التاريخ أنه ﷺ كان في سجود في يوم، فجاء الكفار بكرش جمل، وألقوه عليه وهو ساجد، وأخذوا يضحكون. فلم يستطع الرسول ﷺ أن يرفع رأسه من شدة ثقل الكرش

القذر، فبلغ ذلك فاطمةَ -رضي الله عنها- وكانت طفلة، فجاءت تجري وألقته عن الرسول ﷺ. (السيرة الحلبية، باب استخفائه ﷺ وأصحابه في دار أرقم بن أبي الأرقم)

فأنى للسجود الآخر أن يبلغ ما بلغه هذا السجود النبوي من القدر والدرجة عند الله تعالى! إن هذا السجود ليرفع الإنسان إلى أسمى منازل قرب الله تعالى في لمح البصر، أما آلاف السجدات في زمن الأمن فلعلها لا تصل إلى أعتاب الله تعالى، ولذلك يقول الله تعالى ﴿لا تُطِعْهُ﴾.. أي يا محمد، ويا صاحبَ محمد، لا تطع الكافرين، بل عليك أن تخرَّ أمام الله تعالى ساجدًا بنفس القوة التي ينهَوْنك بها عن عبادته، لأن السجود الذي تقوم به رغم هذه الموانع والعوائق سيوصلك إلى الله رأسًا.

سورة القدر

مكية وهي ست آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

سورة القدر مكية، إلا أن بعض المفسرين قالوا إنها مدنية. قال الواحدي هي أول سورة نزلت بالمدينة. (فتح البيان، وروح المعاني)

عند البحث في هذه السورة نرى أن المفسرين قد عرَّفوا كلمة الجمهور تعريفًا عجيبًا. قال بعضهم إنها مكية عند الجمهور، وقال بعضهم إنها مدنية عند الجمهور. فيا ترى، من هؤلاء الجمهور الذين يعتبرونها مكية مرة ومدنية مرة أخرى. والغريب أن المفسرين يقولون إنها مدنية عند الجمهور دون أن يذكروا اسم أي صحابي ممن اعتبرها مدنية. إن صحابة النبي ﷺ هم الذين بوسعهم اعتبار سورةٍ مكيةً أو مدنيةً، فكان على المفسرين أن يذكروا اسم بعض الصحابة الذين اعتبروها مدنية ما داموا يقولون أنها مدنية عند الجمهور.

ثم هناك روايات في التفاسير تقول أن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة يقولون أنها نزلت بمكة. فكيف يقال إذن أنها مدنية عند الجمهور؟ (فتح البيان)

لقد تبين من هنا أن تعبير "الجمهور" الذي راج في كتبنا يُستخدم خلاف معناه اللغوي، فكلّ من وجد ثلاثة أو أربعة آراء موافقة لرأيه قال إن الجمهور يرى ذلك، مع أن الواضح أنه لم يُبدِ كل الصحابة رأيهم فيما إذا كانت سورة ما مكيةً أو مدنيةً، بل إن بعض كبار الصحابة فقط هم الذين يُبدون رأيهم بهذا الصدد، وما دام هؤلاء الصحابة قد قالوا صراحة إن سورة القدر مكية، والمفسرون أنفسهم يسلّمون بذلك، فلا أدري كيف اعتبروها مدَنيةً خلافًا لهذا القول القطعي للصحابة.

أما المستشرقون -وهم قوم يحاول معظمهم تحوير الأحداث تعصبًا كالقسيسين وأمثالهم، وبعضُهم يبحث عن الحقيقة بأمانة- فهم أيضا اعتبروا هذه السورة مكية، فمثلا قال المستشرق الشهير "نولدكه" إنها نزلت بعد سورة الضحى فورًا. (تفسير القرآن للقسيس "ويري")

وقد ذكرتْ بعض الروايات الحديثية سببًا عجيبا لنـــزول هذه السورة، وهو أن الصحابة سمعوا من اليهود أن أربعة من الأنبياء عبدوا الله تعالى ثمـــانين ســـنة و لم يعصوه طرفة عيْن، وهم أيوب وزكريا وحزقيال ويوشع، فعجب الصحابة منـــهم وغبطوهم، فنـــزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَـــةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (الدر المنثور، والبحر المحيط).. أي أنكـــم تغبطـــوهم بعباداتهم دونما ارتكاب إثم ثمانين سنة، أما الإسلام فلو عبد فيه المرء ربه ﷻ في ليلة القدر كانت عبادته فيها أفضل من عبادة ألف شهر والتي تساوي ٨٣ سنة.

وهذه الرواية ليست صحيحة في رأيي، والتسليم بها محال عقلاً؛ إذ كيف يمكن أن تُفضَّل عبادةُ عبدٍ ليلةً واحدة على عبادة شخص يعبد الله بصدقٍ ثمانين عامـــا؟ فلو قيل: لأن عبادته في ليلة واحدة تكون مفعمة بالحرقة والخشوع والحب والعشق لله تعالى فتفضل على عبادة ثمانين سنة، فهذا ليس بأمر ذي بال يـــستحق ذكـــرًا خاصًا، إذ يعرف الجميع أنه لو امتلأت عبادة المرء ساعةً واحدة -دَعْك من ليلـــة واحدة- بإخلاص ومحبة وخشوع لا توجد في عبادة شخص آخر لثمانين ســـنة، لكانت عبادته أفضل من عبادة الآخر. بل أقول: دَعْك من عبادة ساعة، بـــل لـــو تيسرت للمرء مثل هذه العبادة دقيقةً واحدة لفضلت على عبادة من يعبد الله عبادة عادية لثمانين سنة أو مائة سنة. خذوا مثلاً إبراهيم عليه السلام، فإنه رُزق ابنه البِكر بعد أن تجاوز الثمانين، والثابت من القرآن والتوراة أنه لما كبر ابنه أمره الله تعـــالى أن يذبحه في سبيله (سورة الصافات:١٠٣، والتكوين ٢٢: ١-١٤). وكان تأويل هذا الذبح في رأيي أن يترك ابنه في وادٍ غيرِ ذي زرع حيث لا طعام فيه ولا شـــراب، فكأنه يقتله في الظاهر، ولما كانت القرابين الإنسانية رائجة يومها، فأراه الله تعـــالى هذا الأمرَ في المنام حسمًا لقضية القرابين الإنسانية أيضا. ونظرًا إلى عـــادة تقـــديم

القرابين الإنسانية ظنّ إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى يريد اختباره حيث يريد منه فعلاً أن يذبح ابنه الذي رُزقه بعد الثمانين من عمره. فذكر ذلك لابنه اسماعيل -علمًا أن الذبيح عندنا هو إسماعيل عليه السلام الذي استعدّ للذبح فورًا نتيجة التربية الجيدة التي تلقاها من أبويه- فقال الابن: ما دام الله تعالى يأمرك فاذْبَحْني وإني راض برضا الله. فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى البرية ليذبحه، فلما ألقاه على جبينه وهمَّ بذبحه بالسكين، أوحى الله إليه ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾(الصافات:١٠٥-١٠٦).. أي لم نكن نريد هذا، وإنما عليك أن تذبح كبشًا تخليدًا لذكرى هذا الحادث، لأن هذه الرؤيا ستتحقق بطريق آخر.

لا شك أن اللحظة التي استعدّ فيها إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه في سبيل الله أفضلُ من عبادة كثير من الناس ثمانين سنة أو مائة، إذ يوجد في الدنيا بالفعل أناس يبلغون ثمانين وحتى مائة سنة، بل قد يبلغ البعض ١٥٠ سنة. ولقد رأيت بنفسي شخصا عمره ١٤٠ سنة. لقد جاءني من لاهور مشيًا ليبايع على يدي، وقد قال خلال الحديث عن عمره: إن الحاكم السيخي "المهاراجا رنجيت سنغ" جاء إلى شيخي مرة طالبًا منه الدعاء، وأهدى له جاموسةً، وكنت إذّاك شابًا، فأمرني شيخي أن أذهب بالجاموسة إلى الماء وأغسلها. ولقد روى لي ذلك قبل عشرين سنة، أي بعد انقضاء قرابة قرن من الزمان على هذا الحادث، وهكذا يكون سنه وقت البيعة حوالي ١٢٥ سنة. وقد أخبرني الإخوة أنه قد عاش بعد البيعة حوالي ١٥ سنة، مما يعني أن عمره كان ١٤٠ سنة. وكان الرجل قويًا حتى في سن الـ ١٢٠ إذ جاءني للبيعة في قاديان من لاهور مشيًا. وهذا الإنسان لو ظل كل عمره راغبًا في الدين، وعبَد الله تعالى ١٢٠ سنةً فلا شك أن ساعة واحدة من عبادة إبراهيم عليه السلام كانت أفضل من عبادته. وهذا ما أكده فعل الله تعالى بالفعل أيضا، إذ لم يعطه ما أعطاه إبراهيمَ من بركات، مع أن الله تعالى لا يضيع عمل عامل إذ يقول ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨)، فما دام الله تعالى لا يضيع أي حسنة لأحد، فكيف يمكن أن يضيع الله تعالى عبادة هذا الإنسان لـ ١٢٠ سنة.

أما القول أن عبادة ليلة تفضل أحيانًا على عبادة ٨٣ سنة لما فيها من لوعة وخشوع وصدق وإخلاص، فهذا أيضا لا ينطبق هنا، إذ ورد في تلك الرواية أن الأنبياء السابقين عبدوا الله تعالى ثمانين سنة، فحزن الصحابة لسماع ذلك إذ تأخروا عنهم. أما لو أخذنا بحجة الخشوع والخضوع في العبادة فكان معنى ذلك أن عبادة غير النبي ليلةً واحدةً صارت أفضل من عبادة الأنبياء ثمانين سنة، وهذا باطل بداهةً. لو سلّمنا جدلاً بصحة هذا المعنى فبيانه بهذه الكلمات خلاف للبلاغة، إذ يجب أن يقال في هذه الحالة أن أصحاب الرسول ﷺ مخلصون لدرجة أن عبادهم للحظة أو لليلة أفضل من عبادة هؤلاء الأنبياء لثمانين سنة، ولكن ما يقوله الله تعالى هنا هو أن عبادة هذه الليلة الخاصة أفضل من عبادة ثمانين سنة. وهذا لا يمكن أن يكون جوابًا لتلك الرواية اليهودية، لأن ترجيح ليلة واحدة على السنوات الأخرى دونما سبب أو خصوصية مماحكةٌ وخلافٌ للعقل ولعظمة الله.

ثم يجب أن نفكّر أنه إذا صارت عبادة مؤمنٍ تقي عاديّ ليلةً واحدة أفضلَ من عبادة الأنبياء السابقين ثمانين سنة، فهذا ظلم ما بعده ظلم، لأن هؤلاء الأنبياء لم ينالوا بعبادة ثمانين سنة من النعم ما ناله مسلم عادي بعبادة ليلة واحدة. فثبت أن مفهوم هذه الرواية يتنافى مع تعليم القرآن والعقل.

الترتيب والترابط:

إن علاقة هذه السورة بما قبلها واضحة، حيث قال الله تعالى في السورة السابقة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق﴾.. أي اقرأ القرآن، أما في هذه السورة فقد تحدّثَ تعالى عن عظمة القرآن وفضله فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. أي هذا هو الكتاب الذي يحوي كل القرارات المتعلقة برقي الأمم وانحطاطها، وبتعبير آخر: إن في القرآن الكريم تفصيلا لأسباب رقي الأمم وانحطاطها، حيث أخبر الله تعالى فيه عن المبادئ والقواعد التي إذا عمل بها الناس ازدهروا، وكذلك عن الأمور التي إذا اتّبعوها هلكوا. والأمر الذي يبلغ من الأهمية بحيث إن قبوله يؤدي إلى نجاة العالم ورفضه يؤدي إلى دماره فإن أهمية قراءته أمام العالم أمرٌ واضحٌ بيّنٌ، فإننا نرى أن

الناس يدقّون الطبول على أمور بسيطة، فإذا رأوا هلال العيد أعلنوا عنه بدق الطبول، أو إذا أتت إلى السوق بضاعة جديدة أعلن عنها التجار بدق الطبول. وإذا وُلد عند الملك ولدٌ نشروا خبر ولادته في الجرائد بإعلانات عريضة، مع أنه قد يموت بعد أيام أو يصير شخصًا فاسدًا حين يكبر حتى يقضي على مُلك أبيه. إذا كان هناك خطر هجوم الجراد على الزروع نشرت الحكومات إعلانات في الجرائد وأخبرهم بالتدابير الواقية التي لا بد من العمل بها فورا. وإذا علمت الحكومة أن أسعار الغلال أو القطن وغيرهما سوف ترتفع أو أن الأمطار ستهطل بغزارة، فإنها تنشر إعلانات مكررة ليصل الخبر إلى أسماع الناس. فما دام الناس يعلنون عن أمور بسيطة بدق الطبول بحماس شديد، فكم بالحري أن يتم الإعلان بكل قوة وحماس وعلى نطاق واسع عن الأمر الذي يتوقف عليه مصير البشرية، والذي فيه تفصيل لأسباب رقي الأمم وانحطاطها، والذي إذا عمل به الناس نجوا، وإذا انحرفوا عنه هلكوا.

فقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ في سورة العلق كان أمرًا ربانيًّا للرسول ﷺ بأن يعلن مرة بعد أخرى في العالم عن نزول القرآن وتعليمه، أما سورة القدر فبين الله تعالى فيها أن نشر القرآن في العالم ضروري لأننا أنزلناه في عصر القدر.. أي أنه كتاب يحتوي على كل الأقدار المتعلقة برقي العالم وانحطاطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِى لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

لَيْلَة: الليل: مِن مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، أو إلى طلوع الشمس، وهو خلاف النهار. وقيل: الليلُ مثلُ الليلة، كما يقال العشيّ والعشيّة. وقال المرزوقي: يُستعمل الليل إزاء النهار، والليلة إزاء اليوم. (الأقرب)

القَدْر: مبلغُ الشيء؛ وكونُ الشيء مساويًا لغيره بلا زيادة ولا نقصان، يقال هذا قدرُ هذا، أي مماثِلُه ومساوٍ له. والقدر: الطاقة؛ الحرمة؛ الوقار؛ الغنى؛ القوة. وقالوا: أقمتُ عنده قدر أن يفعل ذلك: أي الوقت اللازم لفعله (الأقرب). وحيث إن كلمة القدر مصدر، فمن معانيه: الضيق؛ الحُكم؛ السلطة؛ التعظيم؛ والتدبير.

وكذلك ورد: "ليلة القدر: قيل هي مِن أوتار العشر الأخيرة من رمضان، أي من الليالي التي عددها فردٌ لا زوج". (الأقرب)

وقد ذُكرت هذه الليلة في مواضع أخرى من القرآن الكريم بكلمات مختلفة كقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾(الدخان:٤)، فليلة القدر هي الليلة المباركة أيضا. وقال الله أيضا ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(البقرة:١٨٦)، وبالنظر في هاتين الآيتين نعلم أن القرآن الكريم بدأ نزوله في ليلة من ليالي رمضان المبارك، ولذلك سميت هذه الليلة مباركة بوجه خاص.

التفسير: ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يرجع إلى القرآن الكريم، وحيث إن السورة الماضية ذكرت نزوله فلم يقل الله هنا إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، بل اكتفى بذكر الضمير وقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، لأن كل مَن تدبر في هذه السورة فهمه بسهولة.

لقد ذكرنا آنفًا لدى شرح الكلمات أن الليلة والليل بمعنى واحد، بيد أن المرزوقي أحد اللغويين يرى أن الليل يُستعمل إزاء النهار، والليلة إزاء اليوم. وقد استعمل القرآن الكريم الليلة والليل كليهما، لكنه ذكر الليلَ أكثر من الليلة، إذ ورد الليل فيه ٧٩ مرة، والليلة ٨ مرات فقط حسب ما أحصيتُ. والغريب أن لفظ الليلة ورد في القرآن في معرض الحديث عن نزول الوحي وما يتعلق به، فمثلا قال الله تعالى في ذكر ليالي رمضان ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾(البقرة:١٨٨)، وقد قال الله تعالى عن رمضان شهرِ الصيام: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾(البقرة:١٨٦).. أي أن نزول القرآن بدأ في شهر

رمضان. فورود كلمة (ليلة) بشأن ليالي رمضان - شهرِ الصيام - دليل على وجود علاقة خاصة بين لفظ "الليلة" والشهر الذي نزل فيه كلام الله تعالى.

وكذلك وردت كلمة (الليلة) في ذكر الليالي الأربعين الخاصة التي نزلت فيها أحكام التوراة على موسى ﷺ، والتي تَلقَّى فيها النبوءة عن بعثة الرسول ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(البقرة:٥٢). كما وردت كلمة (ليلة) مرتين في موضع آخر في القرآن في معرض الحديث عن هذه الأربعين ليلة حيث قال الله تعالى ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(الأعراف:١٤٣).

فترى في هذه الأماكن الثلاثة أن كلمة (الليلة) قد وردت في معرض الحديث عن نزول كلام الله تعالى.

وهناك أربعة مواضع أخرى وردت فيها كلمة (الليلة) بصدد نزول القرآن، فأولاً قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾(الدخان:٤).. أي أنزلنا القرآن في ليلة مباركة. ثم ثلاث مرات في هذه السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

إذن، فقد وردت كلمة الليلة في القرآن ثماني مرات، وفي كل مرة نزلت في معرض الحديث عن نزول كلام الله وما يتعلق به، ولا يمكن اعتبار هذا صدفة، بل لا بد من حكمة فيه. وهذا الفرق بين استعمال القرآن الكريم لكلمتي الليل والليلة ليس من دون معنى.

وأرى أن استعمال (الليلة) في معرض الحديث عن ليالي نزول الوحي، واستعمال (الليل) بصدد الليالي الأخرى راجع إلى قاعدة عربية شهيرة، حيث يُزاد حرف في الكلمة أو يُستبدل بحرف متقدم عليه في الترتيب الألفبائي زيادةً في المعنى وتأكيدًا له. فمثلا: الربس والربض متشابهان، لكن الآخر أقوى من الأول، لأن رَبَسَه يعني ضربه بيديه، أما رَبَضَ الأسد فيعني أنه انقضَّ على فريسته وافترسها. فالفرق بين المعنيين واضح.

ثم القصم والقضم كلاهما يعني الكسر، لكن قَصَمَه يعني كسره فقط، أما قضمه فيعني كسره وأكله، لأن حرف الضاد يلي الصاد في الترتيب الألفبائي، فهو أقوى معنًى من الصاد.

ثم هناك المسّ والمصّ، والمسّ يعني اللمس، أما المصّ فهو وضع الفم على الشيء وامتصاصه.

ويقال نسَّ الناقةَ: أي ساقها وزجرها، أما نصَّ الناقةَ فيعني استحثّها واستقصى آخر ما عندها من السير.

ومعنى الفسل والفصل إبعاد الشيء عن الشيء، لكن الفصل أقوى من الفسل، لأن الصاد يأتي بعد السين في الترتيب الألفبائي.

وكذلك زيادة حرف في الكلمة تكون لزيادة المعنى، فمثلا: معنى اللَّبَب الصدرُ الواسع، أما اللَّبْلَب فمعناه البارُّ بأهله المحسنُ لجيرانه. إذن، فاللبلب لا يشير إلى سعة الصدر فقط، بل أيضًا إلى معاملة الناس بصدر رحب. والسبب أن اللبب ثلاثة حروف واللبلب أربعة.

ومن قواعد العربية أنهم يضيفون التاء في آخر اسم الفاعل من أجل توكيد المبالغة، وتضاف إلى الصفة المشبهة كقاعدة، فالراوي مثلاً هو من يروي الروايات، أما الراوية فهو من يروي شعر الشعراء بكثرة حيث يحفظ مئات الآلاف من أبياتهم. والنسّاب هو من يذكر النسب، والنسّابة هو من يذكر النسب جيدًا جدًا ويجيد ذكره. (الأقرب)

وحيث إن الليلة فيها حرف زائد على الليل، فهي أوسع معنى منه، ولذلك تُستعمل الليلةُ مقابل اليوم والليلُ مقابل النهار، كونَ اليوم أوسعَ معنى من النهار. ففي استعمال الليلة بصدد الليالي والأزمنة المتعلقة بنزول كلام الله تعالى إشارةٌ إلى عظمتها وسموّ شأنها.

وحيث إن الكلمات تُستعمل في الوحي الإلهي تارةً بمعناها اللغوي وتارة بمعناها المجازي تبعًا لقواعد الأدب العالي، فينشأ هنا سؤال: هل الليلة استُعملتْ هنا بمعناها العادي، أم بمعنى العصر المظلم الطويل؟

لقد ذهب جميع المفسرين القدامى إلى أن الليلة قد وردت هنا بمعناها المعروف، أي أن ليلة القدر تعني ليلة التقدير. ويرى المفسرون أن الليلة المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ هي أيضًا ليلة القدر التي هي إحدى ليالي رمضان، لقول الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (الكشاف، والقرطبي، وفتح البيان). فليلة القدر عندهم هي تلك الليلة الرمضانية التي نزل فيها القرآن، والتي كانت مباركة، والتي كانت ليلة التقدير.. أي الليلة التي قدّر الله فيها الخير والشر القادمين.

هناك اختلاف بين العلماء حول كيفية نزول القرآن الكريم في تلك الليلة، فمنهم من يقول: "أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصَّلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة." (ابن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس)

كذلك روي عن ابن عباس أن مِقْسَمًا سأله: هناك شبهة في قلبي، فقد ورد في القرآن أنه نزل في شهر رمضان، مع أنه قد نزل شيئًا فشيئًا في شهور مختلفة على مدى فترة طويلة، "فقال ابن عباس: إنه أُنزلَ في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملةً واحدة، ثم أُنزلَ على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام." (ابن كثير عن ابن عباس من رواية ابن مردويه)

فهؤلاء يرون أن نزول القرآن في ليلة القدر يعني أنه أُنزلَ فيها من اللوح المحفوظ وهو مكان كان القرآن فيه مكتوبًا منذ الأزل.

ويرى البعض الآخر أن نزول القرآن في شهر رمضان يعني بداية نزوله فيه، فقال العلامة أبو حيان: "وقيل الإنزال هنا هو على رسول الله ﷺ، فيكون القرآن مما عُبِّرَ بكله عن بعضه، والمعنى بُدِئَ بإنزاله به على رسول الله ﷺ" (البحر المحيط).. أي أن بعض العلماء يرون أن نزول القرآن في رمضان يعني نزوله على رسول الله ﷺ وليس على بيت العزة، وليس المراد من نزول القرآن هنا نزوله كله بل نزول بعضه، أي كانت بداية نزول القرآن على الرسول ﷺ في هذا الشهر.

وقد قال آخرون: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أُنزلَ في بيان عظمة رمضان القرآنُ، لا أن نزوله بدأ في رمضان، حيث ورد: "وقيل في معنى الآية: الذي نزل بفرضِ

صيامِهِ القرآنُ، كما تقول نزلت هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك". (فتح البيان)

والثابت أن "في" يفيد التعليل في اللغة العربية (الأقرب)، ومثاله في القرآن الكريم قول امرأة العزيز للنسوة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾(يوسف:٣٣).. أي هذا هو يوسف الذي بسببه تتّهمنني. كذلك ورد في الحديث: "عُذبتْ امرأة في هِرّةٍ حبَستْها". (البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء). فحرف "في" في قوله تعالى ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ للتعليل، والمعنى أن رمضان شهر عظيم حتى أنزل اللهُ تبيانًا لعظمته وشأنه الحُكمَ في القرآن.. أي لا شك أن الأحكام القرآنية هامة جدًّا، فكم هو عظيمٌ الشيءُ الذي نزل بشأنه الحكمُ في القرآن الكريم.

والذين فسروا الآية بأنّ القرآن كله نزل في ليلة معينة من رمضان من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، أو الذين فسروها بأن وحي القرآن بدأ نزوله في ليلة معينة من رمضان، قد اختلفوا في تحديد هذه الليلة، كما رويت بشأنها أحاديث مختلفة، فقد روى أحمد في مسنده عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ." (مسند أحمد، حديث رقم ١٦٥٣٦)

وقال البعض في شرح هذا الحديث أن المراد من هذه الليالي هي السادسة، والثالثة عشرة، والرابعة والعشرين، ولكنها في رأيي السابعة والرابعة عشرة والخامسة والعشرين، بدليل ورود كلمات (مضين) و(خلت).

وهناك رواية أخرجها ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ذُكر فيها أمر زائد بأن الزبور نزل في الثانية عشرة من رمضان، وأن الإنجيل نزل في الثامن عشر من رمضان. (فتح البيان)

لقد تبين من هذه الروايات ما يلي:

١- أن النزول في رمضان ليس مقصورا على القرآن الكريم، بل إن الأسفار السابقة أيضا نزلت في ليال معينة من رمضان.

٢- أن الصحف السماوية لم تنـزل كلها في يوم واحد من رمضان، بل هناك ترتيب في نـزولها، فبعضها في أول أسبوع، وبعضها في ثاني أسبوع، وبعضها بعد أيام، ونزل أخيرًا القرآن في الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين.

لو أخذنا هذه الأحاديث بمفهومها الظاهري لتعارضت مع القرآن الكريم والعقل والنقل، فإن الله تعالى يقول في القرآن الكريم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.. فإذا كان وحي الأنبياء السابقين أيضًا نزل في رمضان، فهذا يزيد من فضل هذا الشهر، فكان ينبغي أن يقال في هذه الحالة: شهر رمضان الذي أُنزلت فيه الكتب السماوية كلها، لكن القرآن الكريم لم يقل شيئًا عن وقت نزولها؛ لا شك أن عدم ذكر الشيء لا يعني عدمه، لكن الله تعالى يبين هنا فضل رمضان. ونـزول الكتب السابقة في رمضان يزيد من فضله، فكان ذكر ذلك ضروريا هنا، لكن القرآن لم يذكر ذلك هنا ولا في أية آية أخرى، مما يعني أن هذه الروايات لا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها إنْ صحَّت.

والاعتراض الثاني على هذه الروايات عقلي وهو: أن يصير رمضان مباركًا لنـزول القرآن فيه أمرٌ مفهوم، أما أن ينـزل وحي كل نبي في رمضان فليس له مبرر عقلي.

والاعتراض الثاني عقلاً هو أن رمضان شهر قمري يتغيّر مكانه خلال السنة، فلو كان لنـزول الوحي علاقة خاصة بفترة معينة فهذا مفهوم، ولكن لم يكن شهر رمضان رائجًا عند اليهود، فما كان بوسعهم أن يعرفوا متى نزل وحي إبراهيم وموسى وداود والمسيح عليهم السلام، وإذا كان في نـزول الوحي في أيام معينةٍ فائدةٌ فما كانوا لينتفعوا بها، إذ ما كان لهم به علم، كما لم يكن بمقدورهم أن يعلموا ذلك، فما الفائدة في إنزال كل وحي في أيام رمضان؟ ولا يخلو فعلٌ من أفعال الله تعالى من الحكمة؟

والاعتراض الثالث عقلاً هو أن هذه الروايات تتحدث عن وحي إبراهيم وموسى وداود وعيسى فقط دون الأنبياء الآخرين، إذ تقول إن الكتاب نزل على إبراهيم في أول رمضان، وعلى موسى في السابع منه وعلى داود في الثاني عشر منه،

وعلى المسيح في الثامن عشر منه.. أي نزل على النبي الأول في أول رمضان، وعلى الثاني بعد ذلك وهكذا على من يليه، وهذا يعني أنه لم تنـزل هذه الكتب في رمضان فقط، بل نـزلت بحسب ترتيب زمن هؤلاء الأنبياء، فالنبي الأسبق زمنًا نزل عليه كتابه في رمضان أولاً، أما الأنبياء الآخرون فنـزلت كتبهم في التواريخ الأخرى. وإذا كان الأمر هكذا فالسؤال هنا: في أي يوم من رمضان نزل الوحي على نوح وغيره من الأنبياء الذين خلوا قبل إبراهيم؟ ذلك أن الوحي نـزل على إبراهيم في أول رمضان بحسب هذه الرواية، وليس قبل أول رمضان يومٌ يمكن أن ينـزل فيه الوحي على نوح الأسبق زمنا من إبراهيم. فلو أن هذه الرواية قالت لم ينـزل الوحي على الأنبياء في رمضان بحسب ترتيب عصورهم لأمكنَ القول أن الوحي نزل على نوح في أي يوم آخر من رمضان، لكنها تخبر أن الوحي نـزل عليهم في رمضان بحسب ترتيب عصورهم، ولما كان نوح أسبق زمنًا من إبراهيم فيجب أن ينـزل عليه الوحي قبل إبراهيم في يوم من أيام رمضان، ولكن ليس هناك قبل أول رمضان أي يوم فيه، فلا يبقى هناك يوم من رمضان لنـزول الوحي فيه على نوح عليه السلام حسب الترتيب الزمني للأنبياء.

قد يقال هنا أن هذا الحديث يتحدث عن الأنبياء المشرعين و لم يكن نوح صاحبَ شريعة.

لكن هذا الجواب خلاف للعقل ولكلام الله تعالى. فالثابت تاريخيًا أن داود وعيسى لم يكونا من الأنبياء المشرّعين. افحصوا كتبهما -أيًا كانت حالتها- فلن تجدوا فيها أثرًا للشريعة. فليس في زبور داود عليه السلام إلا مناجاته في حب الله تعالى، ونبوءاته عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدعيته الخاصة بنفسه وأقاربه، فليس في كتابه أي شريعة. والحال نفسه بالنسبة إلى أناجيل عيسى عليه السلام، إذ ليس فيها إلا وقائع حياته وبعض معجزاته ووصاياه لأتباعه للعمل بشريعة موسى. فإذا كان داود أو عيسى قد أتى بشريعة جديدة فلا بد من اعتبار شريعة موسى منسوخة. إذا كان عيسى عليه السلام لم يأت بشريعة جديدة فكان عليه أن يأمر الناس بالعمل بشريعة داود، وإذا كان قد أتى بشريعة جديدة فكان عليه أن يقول لهم أن يعملوا بشريعته، لكن

الإنجيل كان ولا يزال خاليا من الشريعة بحيث لم يجد حواريو المسيح مناصًا من اعتبار الشريعة لعنةً، هربًا من اعتراض اليهود (غلاطية ٣: ١٣)، إذ لو اعتبروها رحمةً فما كان عندهم جواب لسؤال اليهود: أين شريعة المسيح إذنْ؟ إذا كان أفضلَ من الأنبياء السابقين فكان يجب أن يأتي ناسخًا لشريعة السابقين.

أما الاعتراض الذي يرد على ادعائهم -أعني على زعمهم أن هذه الرواية تتحدث عن الأنبياء المشرعين فقط- مِن منظور قرآني فهو أن القرآن يعلن أن جميع الأنبياء المبعوثين بعد موسى عليه السلام كانوا تابعين له، حيث قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(البقرة:٨٨).. أي آتينا موسى الكتاب، ثم لم نزَلْ نرسل بعده رسلا تابعين له، وفي الأخير بعثنا عيسى بن مريم، ولكنا لم نعطه شريعة جديدة، إنما أعطيناه بعض البينات وأيدناه بروح القدس. فكيف يمكن القول -بعد هذه الآيات وأمثالها، ثم بعد دراسة كتب هؤلاء الأنبياء- أن هذه الرواية تتحدث عن الأنبياء المشرعين فقط، وأنها لذلك لم تتحدث عن نوح عليه السلام؟

وهناك آية أخرى تفنّد هذا الادعاء، وهي قول الله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤).. أي أن إبراهيم كان من أتباع نوح، بمعنى أنه لم يكن نبيًا مشرعًا، بل كان تابعًا لشريعة نوح الذي كان نبيًا مشرعًا، مثلما كان أنبياء بني إسرائيل تابعين لشريعة موسى -عليهم السلام جميعًا.

إذن فكيف يصح القول أن هذه الرواية ذكرت إبراهيم لأنه نبي مشرِّع و لم تذكر نوحًا لأنه ليس بنبيٍّ مشرِّع؟

وهناك اعتراض آخر على هذا التأويل لهذه الرواية، وهو أن كل الأنبياء المذكورين فيها هم إسرائيليون، والسؤال هنا: هل للأنبياء الإسرائيليين علاقة خاصة برمضان؟ الواضح ليس هناك أي علاقة كهذه.

والسؤال الثاني هو: يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى قد بعث الأنبياء في الأمم الأخرى أيضا، فأين مكان نزول وحيهم في رمضان؟ لا يوجد في رمضان مكان لوحي الأنبياء المبعوثين قبل إبراهيم -كنوح مثلاً- لكون الوحي قد نزل على

إبراهيم في أول رمضان، وليس هناك يوم قبل الأول من رمضان، كما لا يمكن أن يوجد مكان لنـزول وحي كثير من الأنبياء الذين كانوا بعد إبراهيم، لأن أيام رمضان ليست إلا ٣٠ أو ٢٩، وقد نزل القرآنُ الكريم في الرابع أو الخامس والعشرين منه، فهؤلاء الأنبياء الباقون الكثيرون لا يمكن أن يجدوا أي يوم لنـزول وحيهم قبل هذا التاريخ.

باختصار، لو أخذنا هذه الرواية بحرفيتها، فمفهومها مرفوض عقلا.

والآن هلمّ إلى الأدلة النقلية:

ورد في هذه الرواية أن هذه الكتب كلها نزلت في أيام معينة من رمضان دفعةً واحدة. لكن هذا باطل فيما يتعلق بالقرآن الكريم إذ لم ينـزل في يوم واحد يقينًا، بل نزل تدريجيًا في ٢٣ سنة، حتى سجل الله تعالى قول الكفار ﴿لَوْلا نُـزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾(الفرقان:٣٣).. أي أنهم يعترضون على عدم نزول القرآن مرة واحدة. لا شك أن ما يقولونه صحيح فلم ننـزله مرة واحدة، لكن الحكمة في إنزاله التدريجي أننا نريد بذلك تثبيت فؤادك على الدوام، وذلك من خلال الإشارة في الوحي الجديد إلى الأنباء السابقة عند تحقُّقها، كما جعلنا ترتيب القرآن رائعا، أي أنزلناه بترتيب يسهّل حفظه على المؤمنين كما يكون دعوةً رائعة للكافرين الموجودين زمن نـزوله، أما ترتيبه التدويني فجعلناه بطريق آخر بحيث يسدّ حاجات القادمين. باختصار، هناك حِكَمٌ بالغة في أسلوب نـزول القرآن وترتيبه سدًّا لحاجات أهل العصرينِ.

فمن ذا الذي يستطيع بعد هذه الشهادة التاريخية القول أن القرآن قد نزل في ليلة واحدة؟!

ثم إن الادعاء بأن كتب الأنبياء الآخرين نزلت دفعة واحدة مرفوض نظرًا إلى أحوالهم. إن تاريخ إبراهيم عليه السلام ليس أمامنا فلا نستطيع قول شيء فيه، ولكن تاريخ موسى وداود وعيسى -عليهم السلام- بين أيدينا، ولا يمكن لمن اطلع على كتبهم أن يدّعي أنها نزلت دفعة واحدة؟ فالتوراة مثلاً تحتوي على أحوال موسى عليه السلام بكل تفاصيلها، فتذكر لنا الطرقَ والأسفار والأماكن والحروب بترتيبها

الزمني، وتخبرنا كيف قام موسى عليه السلام بتنظيم قومه، وكيف بلغ سن الكهولة بعد الشباب ثم صار عجوزًا حتى لم يقدر على الوقوف. هل يمكن أن تعتبر هذه الأمور كلها نزلت في ليلة واحدة؟

كذلك حال الأناجيل، فهي تتحدث عن رحلات المسيح عليه السلام ومواعظه وآياته وما أعطاه الله من هدي وإرشاد بحسب ترتيبها الزمني، ولا يمكن لأحد القول أن هذا الكتاب نزل في يوم واحد.

كذلك حال زبور داود عليه السلام، فهو يتحدث حينًا كيف حوصر داود بين الأعداء وكيف نجا منهم، وكيف مرض وشفي، وحينًا يذكر شرور أعدائه ثم نجاته من هذا الغم. فزبوره تاريخ لما وقع في حياته من أحداث وتقلبات، فهو يعكس وقائع حياته في الواقع، فكيف يصح القول أنه نزل في يوم واحد؟

الحقيقة أن حياة النبي لا يمكن فصلها عن وحيه، فبدون معرفة أحداث حياته لا يمكن معرفة تعاليمه جيدا. إن النبي بمنزلة مرآة لوحيه، ووحيه بمنزلة مرآة لحياته، وكلاهما يضيء الآخر ويوضحه، وبهذا الضوء المزدوج نفسه يهتدي العالم، ولذلك يستمر نزول الوحي على كل نبي لفترة طويلة مسلّطًا الضوء على مختلف أحوال حياته. إن نزول الوحي على النبي يلقي الضوء على التجلي الجديد لصفات الله من ناحية، ومن ناحية أخرى يذكر وقائعه المختلفة مع عدوه تدليلاً على نصرة الله وتأييده له، ومن ناحية ثالثة يلقي الضوء على إيمان النبي ويقينه في شتى الظروف الحرجة تدليلاً على صدقه وأمانته وإيثاره وغير ذلك من كمالاته الروحانية الأخرى. أما لو نزل عليه الوحي كله في البداية في ليلة واحدة، فكيف يمكن أن تجتمع كل هذه الأمور في وحيه؟ وإذا لم تجتمع في وحيه، فكيف يمكن أن يكون سببًا لهداية الناس ورشدهم؟ فثبت أنه لا بد أن ينزل الوحي على جميع الأنبياء تدريجيًا بحيث يلقي الضوء على جميع مراحل رفعته الروحانية التي مرّ بها خلال رحلة نبوته، لكي تكون بداية حياته ووسطها ونهايتها أمام العالم.

الواقع أن فكرة نزول الوحي على الأنبياء السابقين دفعة واحدة إنما نشأت من فهم خاطئ لقوله تعالى ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ

فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾(الفرقان:٣٣)، فظن المفسرون خطأً لعل جميع الأنبياء قد نزل عليهم الوحي جملة واحدة، لذلك اعترض الكافرون على عدم نزول الوحي على محمد ﷺ مرة واحدة. (معالم التنزيل)

إنهم لم يفكّروا أن القرآن ينقل هذا الاعتراض على لسان كفار مكة الذين لم يكونوا يؤمنون بكتاب سماوي ولا وحي، دعك أن يقولوا أن كل الكتب السابقة نزلت مرة واحدة. لو كان هذا الاعتراض موجَّهًا مِن قبل اليهود والنصارى لكانت هناك إمكانية لهذه الشبهة، لكنهم لم يثيروه، فباطلٌ تمامًا استنتاجُ المفسرين بأن الوحي قبل القرآن كان ينزل دفعة واحدة لذلك اعترض الكفار على عدم نزول القرآن دفعة واحدة. كلا، بل كان أساس اعتراضهم العقل فقط، إذ كانوا يظنون أنه لو كان الله هو مَن أنزل هذا الوحي لأنزله مرة واحدة، لأنه عالم الغيب، فنزول القرآن بالتدريج يعني أن محمدا هو الذي يختلق من عنده كلامًا جديدا بحسب الأحداث المتطورة والحاجات المستجدة ويعرضه على الناس. فلأن أساس اعتراضهم ظني، فلا يمكن أن يُستنتج من ذلك أن وحي الأنبياء السابقين كان ينزل دفعة واحدة.

ولو افترضنا أن أهل مكة كانوا يقولون أن وحي الأنبياء السابقين نزل دفعة واحدة، فأيضًا لا قيمة لقولهم، إذ لم يكونوا علماء العلوم السماوية ولا تاريخ الأديان حتى يكون لاعتراضهم وزن وقيمة.

وهناك سبب آخر لنشوء هذا الفهم الخاطئ، وهو أن القرآن الكريم يقول عن موسى عليه السلام أنه أوتيَ الألواح في موعد أربعين ليلة (الأعراف:١٤٣)، وحيث إن المفسرين لم يكونوا مطلعين على الكتب الإسرائيلية، فظنوا أن الألواح والتوراة شيء واحد، مع أن الألواح اسم لعشر وصايا فقط، أما التوراة فتحتوي على أحكام تزيد على أحكام الألواح مئات الأضعاف. إن القرآن الكريم لم يذكر قط أن موسى عليه السلام أُعطيَ التوراة على الطور بشكل كامل، وإنما يذكر الألواح فقط، وهذا ما تؤكده التوراة أيضًا، لذا فأولاً: لم ينزل ما نزل على موسى عليه السلام على الطور دفعة واحد، بل في أربعين ليلة، وثانيًا: الوحي الذي نزل عليه هناك في تلك

الفترة قد نزل على الرسول ﷺ مثلُه حجمًا في مرات كثيرة، إذ نـــزلت عليه آيات وآيات دفعةً واحدة، فقد ورد عن سورة يوسف أنها كلها نزلت دفعة واحدة (فتح البيان)، وهي بلا شكٍ أكبرُ حجمًا مما نزل على موسى على الطور في أربعين ليلة.

أما الأنبياء الآخرون فليس هناك رواية قوية أو ضعيفة تقول إن وحيهم نزل دفعة واحدة. ولو كانت رفضناها باعتبارها خلافا للعقل، لأن وحي الله تعـــالى يلقـــي الضوء على ما يوجد بين الله والنبي من صلة، فكيف يمكن أن نتصور أن الله تعالى ينـــزل كل كلامه على نبيه في ليلة واحدة ثم يلزم الصمت؟

إن الوحي يكون شهادةً على علاقة النبي مع الله تعالى، فكيف يمكن أن يـــنعم بالاطمئنان بمجرد وجود هذه الشهادة مرة؟ وهل ينعم النبي بالراحة وحبيبه محجوب عنه؟ ألا ترى كيف صارت حالة النبي ﷺ عندما فتر عنه الـــوحي بـــضعة أيـــام؟ وعندي أن الله تعالى لو كلّم أنبياءه يومًا ثم لزم الصمت بقية عمرهم، لقَتَلَهم بفعله هذا وإنْ لم يتمكن أعداؤهم من قتلهم.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وغيرها من الآيـــات الـــتي ذكرتُها آنفًا لا تعني أبدًا أن القرآن الكريم نزل كله في ليلة واحدة، أو أن الله تعالى ينـــزل وحيه على الأنبياء مرة واحدة. كلا، لم ينـــزل الوحي على أي نبي دفعـــة واحدة، بل ينـــزل عليه منذ بعثته إلى موته تدريجيًا، لكي يزداد قلبه نورًا، ويـــزداد أتباعه إيمانًا ونورًا، ولِتُقامَ على المنكرين حجة تلو الحجة.

وهنا ينشأ سؤال: إذا كان الوحي لا ينـــزل دفعة واحدة، فهل باطلٌ ما ورد في الروايات أن الوحي قد نزل على الرسول ﷺ إجمالا وعلى الأنبياء السابقين تفصيلا في مختلف ليالي رمضان؟

أما الجواب فأولاً: إن هذه الروايات لم تردْ في الصحاح الست، بل هي مرويـــة في مسند أحمد وسعيد بن جبير وابن مردويه، وليست رواياتها كروايات البخـــاري ومسلم. لا شك أن مسند أحمد موثوق به، لكن من الثابـــت أن رواياتـــه علـــى درجات مختلفة من الصحة، وقد دخلت في المسند - عن طريق رواته - روايـــاتٌ كثيرة لم يذكرها الإمام أحمد، وبعضها ليست موثوقا بها عند الإمام أحمد نفـــسه.

وحتى لو كانت هذه الرواية موثوقًا بها عند الإمام أحمد، فإنها لا تبلغ مرتبةَ القرآن الكريم. والحديث الذي يخالف القرآن الكريم والواقعَ أو العقلَ لا بد من اعتباره باطلاً أو مجازًا. وقد أثبتُّ من قبل أن الأخذ بظاهر هذه الروايات يتنافى مع القرآن الكريم والصحف السابقة والعقل، فلا بد من اعتبارها باطلة أو من قبيل المجاز والاستعارة.

والآن هلمّ نرَ هل يمكن شرح هذه الأحاديث باعتبارها مجازًا واستعارة؟

أرى أن في هذه الروايات ما يدعونا لاعتبارها مجازًا، وهو أن القرآن الكريم اعتبر نوحًا نبيًا عظيما وإبراهيم نبيًا تابعًا له، وأخبر بمجيء نبي في كل قوم، بينما لا تذكر هذه الرواية إلا إبراهيم وموسى وداود والمسيح والرسول عليهم السلام. ثم إن العقيدة الشائعة بين المسلمين عمومًا هي أن الله تعالى قد أنزل أربعة كتب – علمًا أن الاعتقاد بأن الله تعالى قد أنزل لهداية شتى الشعوب أربعة كتب فقط ليس صحيحًا، كلا بل قد أنزل أكثر منها بكثير وكثير، كما لا يصح اعتبار كتابَي داود والمسيح كتبَ شرائع، لأن الزبور والإنجيل ليسا وحيَ شريعة، إنما هما من قبيل الوحي الذي يساعد على الإصلاح والرقي الروحاني أو يحتوي على نبوءات– ولكن تلك الروايات تذكر خمسة كتب سماوية فقط، مما يعني أنها مروية بدون أيّ تأثُّرٍ من هذه العقيدة الشائعة الخاطئة، لذا فمن الأغلب أن تكون تلك الروايات صحيحة، بيد أنها لا تؤخذ على الظاهر بل تؤخذ على أنها استعارة ومجاز.

ليكن معلوما أن إبراهيم وموسى وداود والمسيح والنبي – عليهم السلام أجمعين– كلهم نجوم متلألئة من الأسرة الإبراهيمية. مما لا شك فيه أن إبراهيم جاء قبل وجود الأمة الموسوية وكان تابعًا لنوح، وأن موسى وداود والمسيح كانوا أنبياء السلسلة الموسوية، وأن النبي ﷺ كان مؤسس الأمة الإسلامية، وأن هؤلاء الأنبياء ينتمون إلى ثلاث أمم مختلفة من حيث النبوة، أما من حيث الأصل والأسرة فكلهم ينتمون إلى أسرة واحدة؛ الأسرةِ الإبراهيمية، لذا فقد تكون هذه الرواية لا تتحدث عن هؤلاء الأنبياء من حيث نزول الوحي عليهم، وإنما تشير إلى أمر هام من حيث كونهم من الأسرة الإبراهيمية. وإذا كان الأمر كذلك فما كان هناك داع لذكر نوح ولا أنبياء الشعوب الأخرى في هذه الرواية. وهذا ما نجد فيها.

والسؤال الآن: هل بدأ نــزول الوحي على هؤلاء الأنبياء الخمسة -سواء كل ما نزل عليه من الوحي أو بعضه- في رمضان؟ ولقد فنّدتُ هذه الفكرة من قبـل بالتفصيل. فثبت أنه ليس المراد من رمضان هنا هذا الشهر المعروف، بل أُطلق مجازًا على عصر معين من عصور نزول الوحي.

واعلم أن الرمضان من الرَّمَض، وهو الحرّ الشديد أو حرارة الشمس الشديدة. والرَّمضاء: الأرض الحامية من شدة حرّ الشمس.. قال الشاعر:

المستجيرُ بعَمْرٍو عند كُرْبتِهِ كالمستجير من الرمضاء بالنارِ (الأقرب).

ويبدو أن هذا الاسم أُطلق على هذا الشهر في أيام حر شديد. لقد فُرض الصيام في شهر رمضان في الإسلام، أما اسم رمضان فقديم جدًّا، وقد سمّي بهذا الاسم لشدة الحر فيه آنذاك. والوحي أيضًا ينــزل دائمًا من عند الله تعالى عندما يكون النـاس يحترقون في نار غضبه تعالى نتيجة إثمهم وفسقهم وفجورهم، وإشارةً إلى الأمر نفسه قد قال النبي ﷺ في هذه الرواية - قيد البحث - أنه عندما جاء أول زمـن للحـرّ الروحاني في أسرة إبراهيم أنزل الله عليه وحيه، ولما جاء عصر الحرّ الروحاني الثـاني بَعَثَ موسى، وحين جاءت فترة الحرّ الروحاني الثالثة أرسلَ داودَ، وعند الفترة الرابعة بعث المسيحَ، وعند الفترة الخامسة بَعَثَني أنا. وبهذا التأويل تصبح هذه الرواية موعظةً ودرسًا للناس من حيث أحوال هذه الأزمان، وليس معناها أن وحي الله نزل علـى هؤلاء الأنبياء الخمسة في رمضان، اللهم إلا على محمد ﷺ إذ توجد هناك شـهادة تاريخية قوية أن بداية نزول القرآن على النبي ﷺ كانت في رمضان.

وعلى ضوء هذا المعنى المجازي نفهم من هذه الرواية أمرًا آخر، وهـو أن هـذه الرواية لا تقول أن الوحي نزل على هؤلاء الأنبياء بتواريخ متتابعة متواترة، بل تقول إنه نزل على إبراهيم عليه السلام في أول رمضان، وعلى موسى عليه السلام في السادس منـه، وعلى داود عليه السلام في الثاني عشر منه، وعلى المسيح عليه السلام في الثامن عشر منه، وعلى رسولنا ﷺ في الرابع والعشرين منه. والتدبر في الأمر يكشف أن هذه التواريخ تتفق مع القرون التي ظهر فيها هؤلاء الأنبياء من الأسرة الإبراهيمية. لما كـان إبـراهيم عليه السلام أول الأنبياء من هذه الأسرة، فيصح القول إن الوحي نزل عليه في أول قـرن

من تاريخ السلسلة الإبراهيمية. أما موسى عليه السلام فهناك خلاف حول زمنه، فوفقًا للكتاب المقدس الحالي كان زمن موسى سنة ٤٢٠ بعد إبراهيم، لكن بعض الروايات الإسرائيلية تقول إن زمنه القرن السادس بعد إبراهيم، وإذا صحّ هذا فثبت أن الوحي قد نزل عليه في السادس من رمضان.

ثم تذكر هذه الروايات أن الوحي نزل على داود عليه السلام في الثاني عشر من رمضان. والحق أن داود ليس ذا أهمية في هذه السلسلة، لأن أهمّ شخصياها هم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، لأن إبراهيم هو الأب، وأما موسى وعيسى فهما من نسل أحد ابنيه، وأما محمد والمسيح الموعود فهُما من نسل ابنه الآخر. كما أن رواية مسند أحمد لا تذكر داود. ومهما يكن من أمر فإن ما ورد في الرواية الأخرى بأن الوحي نزل على داود في الثاني عشر من رمضان لا يبدو صحيحا بحسب التاريخ المتداول، إذ إن زمن داود هو القرن التاسع بعد إبراهيم طبقًا للتاريخ المتداول. غير أننا لا يمكن أن نثق بالتواريخ القديمة كل الثقة إذ قد يكون فيها خطأ، وقد يكون داود بعد إبراهيم بأحد عشر قرنا، أي يكون قد بُعث في القرن الثاني عشر.

ثم تذكر هذه الرواية أن الوحي نزل على المسيح عليه السلام في الثامن عشر من رمضان، ويذكر الكتاب المقدس أن حادثة الصليب وقعت بعد بعثة إبراهيم بـ ١٩٢٠ سنة وبعد وفاته بحوالي ١٨٠٠ سنة، وهذا يعني أن هناك فارقًا ما بين ١٠٠ إلى ١٥٠ سنة، ولكن هذا الفرق يزول حيث إن التاريخ الإسرائيلي يؤكد أن الفارق الزمني بين موسى وعيسى هو ١٣٠٠ سنة، ولو سلّمنا بهذه المدة -وهذا ما تؤكده القرائن إلا أن المجال لا يسمح بالخوض في هذا الموضوع- فيصبح الفاصل الزمني بين إبراهيم والمسيح حوالي ١٨٠٠ سنة، وهكذا تصبح بعثة المسيح مطابقة تمامًا القرن الثامن عشر، أي في اليوم الثامن عشر من رمضان مجازًا، كما ورد في الحديث.

ثم ورد في هذه الرواية أن الوحي نزل على رسولنا ﷺ في الرابع والعشرين من رمضان، والفاصل الزمني بين عيسى ورسولنا ﷺ هو ٦٠٨ سنة. ولو جمعنا ٦٠٨ مع ١٨٠٠ سنة -وهو الفاصل الزمني بين إبراهيم والمسيح- فالناتج ٢٤٠٠ وبضع

سنين.. أي أنه ﷺ بُعث بعد إبراهيم عند انتهاء القرن الرابع والعشرين وفي بداية القرن الخامس والعشرين، وهذا الزمن مطابق لما جاء في هذه الرواية أن الوحي نزل على رسولنا ﷺ في الرابع والعشرين من رمضان.

باختصار، إن المراد من رمضان في هذه الرواية هو ذلك الزمن المظلم الذي كان سيأتي على نسل إبراهيم، والمراد من الأيام هنا تلك القرون التي ظهر فيها هؤلاء الأنبياء. فهذه الأحاديث قد وردت بلغة الاستعارة، والأخذ بظاهر مفهومها يخالف العقل والنقل.

المراد من ليلة القدر

أما السؤال: ما هو المراد من ليلة القدر في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾؟ أهي ليلة حقيقية أم مجازية؟ فهناك خلاف بين المفسرين، فالأوائل ذهبوا إلى أنها ليلة حقيقية، وقد نزل فيها القرآن كله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة.. أو أن نزوله بدأ في هذه الليلة. (فتح البيان)

وفيما يتعلق ببداية نزول القرآن في رمضان فهو أمرٌ يقينٌ طبقًا لشهادات التاريخ. فلا غرو أن من معاني قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ نزوله في رمضان. أما في أي ليلة بدأ نزوله، فهناك اختلاف بصدده، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن القرآن بدأ نزوله في النصف من رمضان (ابن كثير).. أي في الخامس عشر أو السادس عشر، أما الروايات التي مر ذكرها قبل قليل فيتضح منها أن نزوله بدأ في الرابع والعشرين من رمضان. ويرى البعض أن نزوله بدأ في ١٧ رمضان، لأن غزوة بدر كانت في ١٧ رمضان (الدر المنثور)، فهم يرون أن قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾(الأنفال:٤٢) يشير إلى هذا.

باختصار، هناك اختلاف حول هذه الليلة التي تسمى ليلة القدر. والحق أن تحديدها ليس ذا أهمية حقيقية إلا من حيث البحث التاريخي؛ إذ ليس في معرفة يوم نزول القرآن أي فائدة روحانية. إن عامة المحدِّثين يقدِّمون الرواية التي تقول أن

نـــزوله بدأ في الرابع والعشرين من رمضان؛ ومنهم ابن حجر العسقلاني صاحب شرح البخاري والعلامة الزرقاني شارح سيرة النبي ﷺ "المواهـــب اللَدُنّيّـــة" في ٨ مجلدات، بينما يفضّل المؤرخون الرواية القائلة بنـــزوله في ١٧ رمـــضان. (شـــرح الزرقاني المجلد ١ ص ٢٢١: الباب الأول فيما كان يخص ﷺ بـــه رمـــضان مـــن العبادات، وفتح الباري: حديث رقم ٤٩٧٨، وابن كثير)

الحق أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ثم تحديدَ الرسول ﷺ ليلةَ القدر في العشر الأواخر من رمضان تذكارًا لقول الله هذا كلاهما يؤكـــد أن نـــــزول القرآن بدأ في رمضان حتمًا؛ وعليه فلو قلنا إن الليلة التي بدأ نـــزول القرآن فيهـــا هي ليلة القدر فلا بد من التسليم أيضًا بقول المحدِّثين إن ليلة القدر هـــي الرابعـــة والعشرون من رمضان، وسيكون المراد من هذه الآية أننا بدأنا إنـــزال القـــرآن في الليلة الرابعة والعشرين من رمضان والتي تُسمّى ليلة القدر بسبب نـــزوله فيها.

أما التحقيق التاريخي فيؤكد فقط أن نـــزول القرآن بدأ في ليلة من ليالي رمضان من دون تحديد.

أما السؤال: لماذا تُسمَّى هذه الليلة التي نزل فيها القرآن ليلة القـــدر؟ فجوابـــه موجود في لفظ القدر. لقد سبق أن ذكرنا معنى القدر لدى شرح الكلمات، غـــير أني أسجّل هنا معانيه مرة أخرى إنعاشًا للذاكرة مِن مصدرين أحدهما: تفسير لغوي للقرآن الكريم والثاني أحد أهمّ قواميس اللغة العربية.

فقد ورد في المفردات للراغب وهو قاموس قيم للقرآن الكريم:

"القدر والتقدير: تبيينُ كميةِ الشيء. وتقديرُ الله الأشياءَ على وجهين: أحـــدهما بإعطاء القدرة، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص، حـــسبما اقتضت الحكمةُ، وذلك أن فِعل الله تعالى ضربان: ضربٌ أوجدَه بالفعل، ومعـــنى إيجاده بالفعل أن أبدعَه كاملا دفعةً واحدة لا تعتريه الزيادة والنقصان، إلى أن يشاء أن يفنيه أو يبدّله كالسماوات وما فيها. ومنها ما جعَل أصوله موجـــودةً بالفعـــل وأجزاءَه بالقوة، وقدّره على وجهٍ لا يتأتى منه غيرُ ما قدّره فيه، كتقديره في النواة أن ينبت منه النخلُ دون التفاحِ والزيتون، فتقدير الله على وجهين: أحدهما بالحُكم

منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا، إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الإمكان، وعلى ذلك قوله ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، والثاني بإعطاء القدرة عليه..... فقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي ليلة قيّضناها لأمور مخصوصة."

فقوله تعالى ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يعني أنه لن يظهر من ذلك الشيء إلا خواصه الإيجابية التي أودعها الله إياه، وأما ما نفى الله عنه فلن يظهر منه. فمثلا إن اللسان لا بد أن يفرّق بين الحلو والمرّ، ولكنه لن يسمع أبدًا، والأذن ستسمع حتمًا مهما قلت لها ألا تسمع، ولكنها لن تتذوّق شيئًا مهما قلت لها أن تتذوّق.

والطريق الثاني لظهور قدرة الله تعالى أنه قد خلق في بعض الأشياء قدرةً، ولكنها لا تظهر فورًا بل تظهر في وقتها. فكأنما قدرة الله هي نوعان: أحدهما بمثابة أشجار وثانيهما بمثابة نوًى؛ فأشجار القدرة تؤتي أُكلها منذ البداية بكل روعتها وعظمتها دونما نقصان، أما نواة القدرة فتكمن فيها قوة خفية، فإذا زُرعتْ ظهر منها ما أودعها الله تعالى، ولكنك إذا لم تزرعها، ما ظهر قدر الله. بتعبير آخر إن هذا النوع من قدر الله لا يظهر بالضرورة، ولكن إذا ظهر ظهر كما قُدّر له أن يظهر. فمثلاً إن نطفة الإنسان فيها القدرة على أن تصبح إنسانا، لكن ليس ضروريا أن تصبح كل نطفة طفلا، فكم من نطفةٍ تضيع قبل دخولها في الرحم، وكم منها تقذفها الأرحام قبل الأوان، وكم مِن جنينٍ يولد ميتًا أو مشوّهًا، غير أن النطفة التي تصبح طفلاً لا بد أن تحمل ما أودَعَها الله من خواص إنسانية ولن تحمل أية خواص غير إنسانية. كأن هذا النوع من التقدير لا يكون محددا في نقطة محددة، بل يكون محددًا في نطاق محدد يمكن أن يتقدم فيه أو يتأخر.

لقد تبين من عبارة "المفردات" هذه أن القدر يعني إظهار القدرة، وهذا الإظهار يتم بطريقتين: أولاهما بالتقدير الذي يظهر في شكل مخصوص لا نقص فيه ولا زيادة، وقد ضرب صاحب المفردات لذلك مثال السماوات والأرض، وهو مثال ناقص غير أنه يعطينا بعض الفهم لهذا التقدير. والمثال الحقيقي على هذا النوع من القدر هو ذلك الذي يتعلق بصفات الله تعالى والذي يسمى قانون الطبيعة.. أي ذلك القانون الذي سنّه الله تعالى لإظهار صفاته، فمثلا إن الموتى لا يرجعون إلى

هذه الدنيا أحياءً بجسدهم المادي ، أو أن علم الغيب الكامل لا يتيسر لأحد إلا إذا أعطاه الله إياه. يمكن أن يصيب المرء في رجمه بالغيب، ولكن لا يمكن أن يعرف علم الغيب الكامل من دون أن يعلِّمه الله تعالى.

والطريقة الثانية هي إظهار تقديره بالإجمال، حيث لا يكشف قدرته دفعةً واحدة بل يكشفها بالتدريج وحسب قانون محدد.

ثم يقول صاحب المفردات إن قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني أنا أنزلناه في ليلة خصَّصْناها لأمور مخصوصة.

والآن أفسر هذه الآية بناءً على هذين المعنيين:

المعنى الأول هو أن لفظ القدر إشارة إلى أحد نوعَي القدرة الإلهية.

وليكن معلومًا أن لفظ القدر يشير بلا شك إلى قدرة الله بنوعيها، ولكن هذا لا يعني أنه إشارة إلى أحد نوعيها دون الآخر. لا شك أنه يشير إلى أحدهما حتمًا، ومن الممكن أيضا أن يشير إلى كلا النوعين معًا، فعندما نقول إن الله قدير، فهذا لا يعني أن النوع الأول من قدرته يظهر دون الآخر، كلا بل المراد أن القدرة الإلهية بنوعيها تظهر. كذلك إذا وردت كلمة القدر فلا شك أنه يراد به حينًا النوع الأول من القدرة أو النوع الثاني أو الثالث أو الرابع، لكن يراد به حينًا كل أنواع القدر في وقت واحد. وهذا هو المعنى الذي ينطبق هنا. و"ال" التعريف في ﴿القدر﴾ استغراقية، أي أن كل أنواع القدر قد اجتمعت في هذه الليلة. لقد ذكر الراغب هنا نوعين من القدر، والحق أن كلا من هذين النوعين ينقسم بعد ذلك إلى نوعين آخرين، أي القدر الأول الروحاني والقدر الأول الجسماني، ثم القدر الثاني الروحاني ثم القدر الثاني الجسماني، وهكذا تصبح هذه أنواعًا كثيرة، وقد أُشير بلفظ ﴿القدر﴾ المعرَّف بـ"ال" بأن هذه الليلة التي نزل فيها القرآن تجمع كل أنواع القدر، وصارت مجموعة الأقدار كلها.

كما قال صاحب المفردات إن القدر ينقسم إلى قسمين: قسم يظهر دفعة واحدة وبصورة كاملة، وقسم آخر يظهر إجمالاً وتدريجيا، ثم إن هذين النوعين ينقسمان مرة أخرى إلى مادي وروحاني، ونظرًا إلى هذا المعنى سيعني قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ

﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أننا قد جمعنا في الليلة التي نزل فيها القرآن هذه الأنواع الأربعة من القدر.. أي القدر المادي الذي يظهر كاملاً دفعةً واحدة، والقدر الروحاني الذي يظهر كاملاً دفعةً واحدة، والقدر المادي الذي يظهر إجمالاً وبالتدريج، والقدر الروحاني الذي يظهر إجمالاً وبالتدريج.

ولنأخذ الآن كلاً من هذه الأقدار لنرى هل كانت هذه الأقدار موجودة في ليلة نزول القرآن أم لا.

ومثال القدر المادي الذي يظهر كاملا وبدفعة واحدة كمثال خلق الشمس والقمر، حيث خُلقا منذ أول يوم لهدف معين، ويعملان بوتيرة واحدة إلى أن يشاء الله. ويشابه هذا القدر شخصية الرسول ﷺ حيث قال الله تعالى له ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٦-٤٧). لقد بيّن الله تعالى هنا أن من صفات النبي ﷺ أنه يماثل الشمس، أي أن بعض صفاته خُلقت منذ أول يوم كاملةً، وأن ظهورها قد اكتمل بولادته الروحانية منذ أول يوم. وما هي تلك الصفات؟ لقد أُشير إليها هنا بكلمة الشمس. ذلك أن للشمس صفتين مميزتين من حيث خلقها؟ أُولاهما: أن أجرامها كلها تدور حولها، وثانيتهما: أنها تضيء الأجرام الدائرة حولها إذا جاءت مقابلها. وينبغي اعتبار صفتها الأولى ماديةً، وصفتها الثانية روحانيةً، لأن الصفة الروحانية إنما تظهر نتيجة التعلق الشديد. فمثلاً إن نصرة الله المادية تظهر بحق كل مسلم وكافر، لكن لا يحظى بنصرة الله الروحانية إلا من يضع روحه وقلبه أمام نوره ﷻ. ولقد ظهرت كل من هاتين القدرتين المادية والروحانية منذ اليوم الذي بدأ فيه نزول القرآن، فبمجرد أن نزل أول وحي على الرسول ﷺ فقد جُعل شمسًا للإنسانية وفُرض على الناس أن يطوفوا حوله. لا شك أن النبي ﷺ لم يزل يتطور روحانيًا ولن يزال، ولكن فيما يتعلق بطواف كل الأجرام الروحانية حوله فلم يتغير أي شيء، بل كان الإيمان ضروريا بالنبي ﷺ في الليلة التي نزل عليه الوحي فيها بقدر ما كان ضروريًا في آخر لحظة من حياته ﷺ. فمن أراد أن يرث فضل الله تعالى لا بد له من الطواف حوله ﷺ، إذ أصبح منذ لحظة بعثته بمنزلة الشمس

للدنيا، وصار مدارًا لنظام العالم كله. والعلامة الظاهرة التي جعلها الله تعالى دليلا على ذلك هي أنه عصم النبي ﷺ من مكائد الناس منذ نزول أول وحي عليه، شأن الشمس التي لا يمكن أن يفنيها غير الله. فقد بذل الأعداء كل ما في وسعهم لقتله ﷺ منذ بداية بعثته إلى آخرها وكادوا به كيدًا، ولكنهم لم يستطيعوا أن يضروه شيئا، إذ كان كالشمس التي لا يقدر على إفنائها أحد.

والنوع الثاني من القدرة الأولى التي تظهر ظهورًا كاملاً ودفعةً واحدةً هو روحاني. وقد قلتُ إن إضاءة الشمس مشابهة للظهور الروحاني، إذ لا ينتفع من ضوئها إلا مَن يقابلها، والأمور الروحانية هي التي لا ينتفع منها كل شخص، إنما ينتفع منها من يرغب فيها فقط. هذا النوع من القدرة أيضا قد وُجد في النبي ﷺ بشكل كامل، فمنذ لحظة نزول الوحي عليه قد أُعطيَ القدرة على إيصال فيوضه الروحانية إلى الآخرين. إن الشمس قادرة على الإضاءة، وهي تضيء العالم باستمرار دون نقص أو زيادة منذ خلقها، فضوؤها هو هو كما كان منذ أول يوم، ولكن لا ينتفع من ضوء الشمس إلا من يفتح أبواب بيته ليدخل ضوءها فيه، كذلك فإن النبي ﷺ قد أعطاه الله تعالى القدرة على إيصال نور الروحانية منذ أول يوم من بعثته، وهذه القدرة لا تنقص ولا تزيد، ولم يحدث أنْ كان هذا الفيض قليلا في البداية ثم ازداد، إنما الفرق في المستنير من نوره، فكما أن البيوت التي أبوابها واسعة يدخل فيها ضوء الشمس أكثر، والبيوت التي أبوابها ضيقة يصل إليها ضوء أقل، كذلك فمن وسّع صدره لتلقّي فيوض النبي ﷺ نال من بركة فيوضه نصيبًا أكبر، ومن ضيّق صدره نال منها نصيبًا أقل. ولكن فيما يتعلق بقدرة إفاضته فهي كما كانت منذ أول يوم وستبقى كذلك إلى يوم القيامة.

باختصار، منذ الليلة التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ ظهرت فيه على الفور القدرةُ الكاملة التي تظهر فجأةً، وظهرت بنوعيها المادي والروحاني ظهورًا كاملا لا مثيل له.

والنوع الثاني من القدرة ما يكون كالبذر الذي ينبت شيئا فشيئا. وقد تجلت هذه القدرة بنوعيها المادي والروحاني في النبي ﷺ في ليلة نزول القرآن عليه. فمما نزل

عليه من الوحي في تلك الليلة قول الله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ومن معانيه أن الله تعالى لم يخلق الإنسان دفعة واحدة، بل كان في البداية قطعة صغيرة من الدم، ثم تطور وبلغ ذروة الكمال، وهكذا سيتم رقي الإسلام أيضا ماديا وروحانيا.

وبالفعل نرى أن نواة الإسلام التي بدأت منذ أول يوم في سورة العلق لم تزل تنمو وتزدهر حتى أخذت صورة شجرة القرآن الكريم، الذي هو في الحقيقة ذروة ارتقائها المادي. وأي شك في أن القرآن الكريم شرحٌ لهذه الآيات البضع التي نزلت عليه ﷺ في أول ليلة من الوحي؟

تُقدِّم هذه الآيات خلاصة تعاليم القرآن الكريم بشكل رائع! فقوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يعني اكشفْ للناس صفاتِ الله التي قد تجلّتْ عليك حتى الآن، لأن تجلّي صفاته الذي تم عليك هو الصحيح، أما ما سواه من شروح لصفاته فباطلة.

ثم قال ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾.. أي الذي خلق كل المخلوقات، فلذا هو المتصرف والغالب عليها. بمعنى أن إعلانك التوحيدَ سوف يؤدي إلى معارضة الدنيا، ولكن لا داعي للقلق، لأن كل الخلائق هي في قبضة الله تعالى، فما دمت تطيع خالقك فكيف يمكن أن تضرك مخلوقاته؟

ثم قال الله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.. أي لا شك أن الناس سوف يستغربون من أقوالك ويستاءون منها كثيرا، ولكن تذكّرْ أن الله تعالى قد خلق في الإنسان رغبة خفية للقاء الله وللبرّ ببني جنسه، فرغم أنهم يعادونك في البداية ويظلمون الضعفاء ويعرضون عن الله تعالى، إلا أنهم سيصلحون تدريجيا، ويتصالحون مع الله أيضا وتتحسن علاقتهم مع بني جنسهم.

ثم قال تعالى ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي: نعم، اقرأْ بعون ربك الذي هو أكرم الأكرمين. بمعنى أنَّ نَشْرَكَ لهذا التعليم سيعرّضك للمعارضة حتمًا لا سيما من قبل أصحاب الزعامة الدينية والدنيوية، فلا تكترثْ لهم، لأن الله الذي هو أعزّ مِن كل عزيز هو معك، وقد قرر الآن أن يبلّغ الإنسانَ ذروة ارتقائه، ويعلّمه العلوم بالقلم لا باللسان. بمعنى أن

استعمال القلم سيزداد الآن لحفظ العلوم والمعارف، وأنه تعالى سيعلِّم الناسَ من العلوم المادية والروحانية ما لم يطّلعوا عليه من قبل.

فكِّروا، أليس القرآن الكريم تفسيرا لهذه الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في تلك الليلة؟ ما هو القرآن؟ إنه منهج يعلّم الإنسان كيف ينشئ العلاقات السليمة مع الله تعالى ومع عباده. وقد تضمّنت هذه الآيات هذين الأمرين إجمالاً، كما أشارت إلى أنها بمثابة النطفة في حالتها البدائية في رحم الأم، وأنّ فحواها سوف يزداد كنطفة ويزدهر حتى يصبح طفلاً ثم رجلاً كاملاً عالمًا فاضلا يصبح مرجعًا للعلوم والمعارف مستعينًا بالقلم. باختصار، لقد أشار الله تعالى هنا إلى أمريْن؛ أحدهما: أن هذه الآيات من القرآن ستنمو حتى تصبح كتابا كاملا، والثاني أنه بمساعدة هذا الكتاب سينمو الإنسان ويرتقي من حالة العلقة إلى الإنسان الكامل، فاكتمال القرآن إشارةٌ إلى ظهور القدرة المادية، واكتمال روحانية الناس إشارةٌ إلى ظهور القدرة الروحانية، وليس هذان النوعان من القدرة مما يظهر فجأةً ويكتمل، بل لم يزل القرآن بعد بداية نزوله يزداد شيئًا فشيئًا حتى اكتمل، كما أن الذين يقرأونه الآن أيضًا إنما يقرأونه شيئا فشيئا، فإنه لم ينزل دفعة واحدة في أول مرة، كما لا يطّلع على معارفه أحد دفعة واحدة. كذلك فرغم أن الترقيات الروحانية التي ينالها الإنسان عن طريق الإسلام مبنية على نفس الرسالة التي نزلت على محمد في أول ليلة، إلا أنها تزداد بحسب الإيمان تدريجيا، وهكذا تصبح مثالاً للظهور الروحاني للنوع الثاني من القدرة.

وقال صاحب المفردات بعد ذلك في بيان القَدَر إن الله تعالى قد أنزل هذا القرآن في ليلة قيّضها سلفًا لظهور قدراته تعالى الخاصة. وهذا المعنى أيضا صحيح، لأن أخبار عصر الرسول ﷺ مذكورة بكثرة في الكتب السابقة، حيث ذكر الله تعالى علامات وآثار زمانه ﷺ على لسان الأنبياء السابقين، وقد نزل القرآن وفقًا لتلك الأنباء والعلامات. وكأن الله تعالى يقول هنا: قد أنزلنا القرآن في زمن قد أخبر الأنبياء السابقون بنزوله فيه، فلماذا تترددون في تصديقه والإيمان به؟ فما دام هذا الزمن هو نفس الزمن الذي كان سيأتي فيه النبي الموعود وتنزل فيه الشريعة

الموعودة، ومع ذلك تقولون أن هذا النبي متقول على الله، وأن كتابه افتراء عليه سبحانه، فأخبِرونا أين النبي الموعود الحق؟ وأين الشريعة الموعودة الحقة؟ وإذا قلتم لا وجود لهما في أي مكان، فاعلموا أنكم لا تكفرون بمحمد فحسب، بل تكفُرون بأنبيائكم أيضًا، لأنهم أخبروا عن بعثة نبي ونزول شريعة في هذا العصر. إذا كان هذا النبي كاذبا ولا يوجد أي موعود صادق، فكتبكم كاذبة وأنبياؤكم أيضا كاذبون.

أما قاموس "أقرب الموارد" فقد ورد فيه في بيان معاني القدَر: الشيءُ المماثل، يقال هذا قدرُ هذا، أي مماثل له؛ الحُرمةُ؛ الوقارُ؛ الغنى؛ القوةُ؛ السهولةُ. (الأقرب).

وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني:

١- إنا أنزلنا القرآن في ليلة مساوية في القيمة والقدر

٢- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات حرمة

٣- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات وقار

٤- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات غنًى

٥- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات قوة

٦- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات سهولة

والآن نرى هل هذه المعاني الستّة تنطبق على القرآن الكريم أم لا.

المعنى الأول هو أننا أنزلنا القرآن في ليلة مساوية في القيمة والقدر. وحيث إن الشيء الذي تساويه هذه الليلة قدرًا غير مذكور، فلا يمكن أن نحدّده، بل سنفسر الآية بأننا أنزلنا القرآن في ليلة تساوي سائرَ الليالي قدرًا وقيمة، بمعنى أن هذه الليلة تساوي عمر الدنيا كلها قدرًا وقيمة.

وهذا المعنى ينطبق على القرآن الكريم كل الانطباق؛ إذ يتضح منه أن رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين وأن كتابه هو خاتم الكتب لِتضمُّنه كل التعاليم الضرورية لرقي الإنسان، ولكونه (أي القرآن) ذروة التطور الروحاني. وحيث إن القرآن آخر الشرائع وأن محمدًا هو آخر الأنبياء المشرعين، فثبت أن الأنبياء الآخرين والكتب الأخرى ليست الغاية المنشودة، بل هي ذرائع ووسائل، والوسائل مهما كثرت لا تكون أهمّ من الغاية. فالقول إنا أنزلناه في ليلة تماثل قيمةً وقدرا، إنما يعني في الحقيقة

أن القرآن آخر الكتب وهو يساوي جميع الشرائع السابقة التي نزلت حتى الآن قدرًا، وأن زمن نزوله يساوي عصور الأنبياء كلهم بَركةً. إذن فقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هو في الواقع إعلان رباني عن كون القرآن الكريم آخر الكتب وأكملها حيث كشف الله تعالى أمام العالم بهذه الكلمة الوجيزة آلاف الآلاف من محاسن القرآن الكامنة في كلماته. والحق أن بيان هذا الموضوع مفصلاً يتطلب آلاف الصفحات وكتابًا مستقلا، فأكتفي بهذا البيان.

والمعنى الثاني لهذه الآية بناءً على المعنى اللغوي للقدر هو أننا أنزلنا القرآن في ليلة ذات حرمة، بمعنى أن القرآن قد نزل في عصر مظلم سوف يظل محطّ تعظيم الناس، والشيء الذي يصبح محطّ تعظيم الناس لا يمكن أن يُمحى. يقول الله تعالى ﴿وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ﴾(الرعد:١٨). فمثلاً تسمى الكعبة البيتَ الحرام إشارةً إلى حفظها وإرساء تعظيمها على الدوام. فالليلة ذات الحرمة تعني أنها ليلة تُحفَظ حرمتها وحقوقها دوما، وعليه فستعني هذه الآية أننا أنزلنا القرآن في عصر هو آخر العصور، والذي لن يغيّره أي عصر آخر بل سيُرسَى عزُّ هذا العصر وعظمته دائما. وهذا المعنى أيضا ينطبق على القرآن الكريم، لأن عصر نزوله قد اعتُبر عصر هداية العالم إلى الأبد. فالآن كلما أراد أحدٌ الرشد والهدى فلا بد له أن ينظر إلى هذه الليلة، فإن بركاتها هي التي تهدي الإنسان إلى الحق والسداد، وأن طرق الهداية والرشاد التي تنبع من هذه الليلة لن تُسَدّ أبدًا، بل هي سارية وسوف تبقى سارية وممتدة إلى يوم القيامة.

والمعنى الثالث أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات وقار. والوقار هو الثقل والفهم والعقل، وعليه فالمراد أن القرآن قد أُنزل في ليلة ذات ثقل وفهم وعقل، بمعنى أن تعاليمه ثابتة صامدة لا يزعزعها هجوم العدو ونقده. هذا المعنى ينطبق على القرآن الكريم أيضا كل الانطباق. إن أحكامه مبنية على حِكَم عظيمة، فلا يأمر أمرًا إلا ويذكر حِكْمته وعِلّته، فيكشف ضرورة العمل به وفوائده وأضرار عدم العمل به، فيؤكد أهميته بأدلة لها ثقلها ووزنها بحيث لا يستطيع أي نقد فلسفي دحضَها، فكل

ما يقول به يكون ذا وزن وثقل، ومهما حاول العدو دفعه فلا بد له من الاعتراف بهزيمته في الأخير.

والمعنى الرابع أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات غنى. ومعنى الغنى: الاكتفاء واليسار ضدُّ العسار (الأقرب).. أي سدُّ الحاجة والسهولة، وعليه فالمراد من هذه الآية أن القرآن نزل في زمن يسدّ الحاجات، وهذا المعنى أيضا ينطبق على القرآن تمامًا لأنه يعلن أنه يسدّ كل حاجة روحانية ودينية. قال الله تعالى في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾(العنكبوت:٥٢).. والكتاب هنا يعني كتابًا كاملا. كذلك أعلن القرآن أنه تفصيل الكتاب ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس: ٣٨).. أي أنه يبين تفاصيل الشرع كلها. وقال الله تعالى ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(يوسف:١١٢).. أي أنه يبين كل الأمور الدينية الضرورية، وفيه هدى ورحمة للمؤمنين بكل أنواعهم. وقد ورد هذا المعنى في السورة قيد التفسير فقال الله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. فثبت أن القرآن الكريم يغني عن جميع الأسفار الأخرى، حيث تضمَّن كل الأمور الضرورية، فثبت بالتالي أن نزوله كان في زمن غنى.

والمعنى الخامس أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات قوة، أي أن ظهور قدرة الله وقوته منوط بهذه الليلة. وقد سبق أن فسّرنا هذه الآية على ضوء هذا المعنى عند الحديث عن المعاني التي ذكرها صاحب المفردات، فلا داعي لإعادته هنا.

والمعنى السادس أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات سهولة. وهذا المعنى ينطبق على القرآن أيضا وعلى عصره، فلو تصفحت الصحف الأُولى وجدتها قد جعلت الدينَ ألغازًا ومتاهات، فلا تفهم منها العقائد ولا الأعمال. فمثلاً لو نظرت إلى تعاليم الهندوسية أو اليهودية حول العبادة وجدت فيها شروطًا لا داعي لها إذ لا يستطيع معها الجميعُ القيام بالعبادة أولاً، ولو حاولوا القيام بها مع هذه الشروط فاقت طاقتَهم. ثم إن هؤلاء القوم واقعون في أوهام يصعب على العقل تصديقها. إنما هي تعاليم القرآن الكريم التي يسهل على الإنسان الإيمان بها والعمل بها، وقد أعلن القرآن

نفسه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٨). لقد استعمل القرآن هنا كلمة الذِكر، والذِكر حفظُ الشيء والعمل به، فالمراد أن تعاليمه لا تشقّ على العقل، أي أن الإيمان بها سهل، كما أن العمل بها سهل، إذ تراعي الأقوياءَ والضعفاء كلهم. خذوا مثلا الصلاة، فقد أُمر المسلمون أن يصلوا في المسجد، لكنه أوضح أيضا أن الأرض كلها مسجد لله تعالى (أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الجمع في المسجد، والبخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ لي الأرض مسجدًا). فكأنه يقول: ليس ضروريًا أن تؤدوا الصلاة في مكان خاص أو على سجاد خاص أو وراء شيخ، بل يمكنكم أن تنظفوا الأرض حيثما شئتم وتقدّموا أحدًا منكم ليؤمّكم فيها، وإذا مرض أحدكم أو كان في سفر فيجوز له الصلاة من دون جماعة. ثم هناك شرط الوضوء للصلاة، لكن إذا كان المرء مريضا أو لم يجد ماء فيجوز له أن يصلي بغير وضوء مكتفيًا بالتيمم، وإذا كان مرضه شديدا بحيث لا يقدر على الوقوف فيمكن أن يصلي في البيت وجالسًا، فإن لم يقدر فيصلي مستلقيًا بإشارةٍ من الرأس، فإن لم يقدر فبإشارة من الأصبع أو العين، فإن لم يقدر فبقلبه، وإذا أُغمي عليه فيمكن أن يصلي في وقت آخر. ولا يختص هذا بالصلاة فقط، بل إن القرآن قد جعل هذه المرونة في كل حكم من أحكامه نظرًا إلى ضرورات الناس وطاقاتهم. فثبت أن تعاليم القرآن هي ذات سهولة.

ورُبَّ قائلٍ يقول: لماذا قيل هنا إن القرآن قد نزل في ليلة صفتها كذا وكذا، بدلاً من القول إن القرآن صفاته كذا وكذا؟ والجواب أن الله تعالى لم يتناول هنا موضوع القرآن وحده، بل أشار إلى مواضيع أخرى كما سنوضح لاحقا، فتحدّثَ عن الرسول ﷺ وأظلاله من أتباعه، فلو قيل هنا إن القرآن صفاته كذا لما أمكن تناول المواضيع الأخرى؛ فلكي ينطبق هذا الموضوع على القرآن وعلى الرسول ﷺ وعلى غيره من المأمورين على السواء نُسبت هذه الصفات إلى الزمن الذي نزل فيه القرآن.

لقد اتضح مما سبق أنني قد تناولت كِلا المفهومين لليلة القدر، أوّلُهما: أن المراد منها تلك الليلة المعينة التي تسمى ليلة القدر بسبب نزول القرآن الكريم فيها، ثانيهما: أن المراد من ليلة القدر ذلك العصر المظلم الذي نزل فيه القرآن، حيث بين

الله تعالى أن غيرة الله تثور في مثل تلك العصور المظلمة وتضع الأساس للصلاح والتقوى، فعندما تزداد الظلمة شدة وتجذب فضل الله تعالى فإن ذلك العصر يكون مظلمًا في الظاهر، لكن في الواقع يكون زمن ظهور قوة الله، فكأن ليلة القدر ليلة مِن وجه، ولكنها أعظمُ شأنًا من النهار من وجه. إنها وقت الظلام، لكنها وقت إظهار قدرة الله أيضًا، يبلغ فيها الظلام ذروته في أعين الناس، لكنها عند الله بمثابة نواة لنور عظيم يتجلى في المستقبل، فهي تُشبهُ رحم الأم الذي استقرّتْ فيه النطفة. قال الله تعالى ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾(الزمر:٧).. أي أن الله تعالى يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا تدريجيًا في ظلمات ثلاث حتى يصبح الجنين طفلاً كاملا. فكما يوضع أساس خلق الإنسان في رحم الأم الذي تستقرّ فيه النطفة والذي يكون مظلمًا، كذلك تكون ليلة القدر مظلمة كرحم الأم، لكن هي التي يوضع فيها أساس خلق الأمة والأجيال التالية.

وهناك معنى ثالث لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. أي أننا أنزلنا محمدًا في ليلة القدر، بمعنى أننا خلقناه في زمن يبتعد فيه الناس عن الله عادةً، ويُنزَع فيه نور السماء كلية، ويصبح الإنسان محروما من أفضال الله تعالى، فينزل عبد من عباد الله المختارين، فيعود بالناس إلى النور والهدى ثانية. وإن هذه الليلة تكون أكبر دليل على صدق هذا النبي، إذ لا يرسل الله تعالى نبيًّا إصلاحيًّا إلا عندما تحل بالعالم ليلة مظلمة روحانيًّا.

إن الأنبياء نوعان: تأسيسي وإصلاحي. أما النبي التأسيسي فينزل عند فساد العقائد والقضايا الأساسية، فيضع الأساس لدين جديد أو لشرع جديد. وأما النبي الإصلاحي فهو الذي يأتي ليواصل مهمة النبي السابق وليس للقضاء على الفساد الذي يتطرق إلى العقائد والقضايا الأساسية. ومثال الأنبياء المؤسسين موسى والمسيح ونبينا -عليهم السلام- فقد جاءوا في وقت انمحت فيه الشرائع، أو غابت فحواها عن أعين الناس. ومثال الأنبياء الإصلاحيين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف -عليهم السلام- إذ لم يكن في عصرهم فساد عقدي بُعثوا للقضاء عليه

ولإقامة شريعة جديدة، وإنما كان غرض بعثتهم ترسيخ الشرائع الموجودة سلفًا بعملهم وتحت رعايتهم، أو لنشرها في الذين لم يؤمنوا بها. الحق أن كلا النوعين من الأنبياء يظهرون في عصر يكون بمنزلة الليلة نظرًا إلى العصور الأخرى، غير أن هذه الليلة تكون أشدَّ ظلمةً عند بعثة الأنبياء المؤسسين بحيث لا يسع أحدًا إنكاره، وإلى ذلك قد أشار الله تعالى بقوله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤٢).. أي قد ظهر الفساد في الأمم التي تؤمن بالأنبياء وفي الأمم التي لا تؤمن بأي نبي، وقد حصل ذلك بسبب عدم عملهم بوحي الله تعالى، فالآن سيعاقَبون على بعض أعمالهم التي عقوبتها مقدرة في الدنيا لكي يتوجهوا إلى التوبة فيعودوا إلى الله تعالى.

وإشارةً إلى هذه الظلمة الشديدة قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. أي أنزلنا محمدًا في ليلة روحانية شديدة الظلام اقتضت أن ينزل فيها رسول من الله لإصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات. وإلى الأمر نفسه قال الله تعالى في وصف النبي ﷺ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٦-١٧).

فقوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني أنه قد جاءكم رسولنا ليكشف عليكم كثيرًا من أنوار الكتاب المقدس التي لم تنكشف لسوء أعمالكم. والمراد من ﴿نور﴾ هو الرسول ﷺ.

لقد ثبت من هنا أن زمن الرسول ﷺ هو زمن الظلمة، أي زمنُ ليلة روحانية مظلمة، وفي هذا الزمن المظلم أنزل الله رسولَه والقرآن وهَدَى الناسَ لطرق السلام وفتَح لهم طرق الرقيّ ثانيةً. فثبت أن ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يمكن إرجاعه للنبي ﷺ أيضًا. وهناك قرينة على ذلك، وهي أن الله تعالى كما تحدث في السورة السابقة عن القرآن بقوله ﴿اقْرَأْ﴾، كذلك تحدّثَ فيها عن الرسول ﷺ أيضًا إذ قال ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾(العلق:١٠-

١١). فكما أن ضمير الغائب في قوله ﴿أَنْزَلْنَاه﴾ عائد على القرآن الكريم كما هو واضح في المعاني التي بيناها آنفا، كذلك يرجع ضمير الغائب هذا إلى المذكور في قوله تعالى ﴿أرأيت﴾ و﴿عبدا﴾، وهو محمد رسول الله ﷺ. فثبت أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني أيضا أنزلنا محمدًا في هذه الليلة.

لقد بيّنتُ من قبل أن الأنبياء العظام ينزلون عند الظلمة الشديدة السائدة في العالم، إذ لو لم يبعث الله تعالى عندها نبيًا لغزت الشبهات قلوب الناس حول وجود الباري ﷻ. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الدليل مرارًا مبيّنًا أن وحي الله ينزل عند الضرورة؛ كقول الله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(يس:٣٤).. أي أن من سنة الله المستمرة أنه عندما تموت الأرض وتنفد الذخائر والغلال يُنزِل الله الماءَ من السماء، لكي لا تنفد الغلال عند الناس.. بمعنى أن على الكافرين أن يفكروا أنه ما دام الله تعالى يسدّ حاجاتهم المادية فلماذا لا يسدّ حاجاتهم الروحانية؟ ولماذا لا يبعث نبيه عند الضرورة؟ وكذلك قال الله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٤٩-٥١). فقوله تعالى ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني أن جهات هبوب الرياح تختلف من بلد إلى آخر، مما يؤدي إلى نشر السحب في السماء.

ولا يختلجنّ في قلب أحد بأن الحديث في هذه الآية، إنما هو عن إحياء الموتى ماديًّا، ذلك أن هداية الضالين أو منح العلوم الإلهية لمن يجهلون معارف الدين يُسمَّى إحياءَ الموتى، قال الله تعالى في وصف رسوله الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥).. أي: أيها المؤمنون، استجيبوا لله ولرسوله حين يدعوانكم، لأنكم أموات وهما يدعوانكم لإحيائكم، فخيركم في تلبية ندائهما. وفي وصف هؤلاء الموتى أنفسهم قال الله تعالى أنهم مُلقَون

في الظلمات أي أهم في ليل روحاني مظلم حيث قال ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام:٤٠).. وكذلك وصف الله تعالى رسوله الكريم فقال ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (المائدة:١٧).

لقد تبين من هذه الآيات أنه كلما ساد العالَم ظلمة روحانية ومات الناس موتًا روحانيا بعث الله لهم رسولاً من عنده، فكان لزامًا أن يُبعَث رسول في زمن محمد ﷺ إذ كان زمن الظلمات الحالكة، فثبت أن دعواه كانت في محلها ووقتها. كان الناس عطاشى ومست الحاجة لماء السماء. كانت الدنيا ميتة وكانت بحاجة إلى من يحييها. كان العالم في ليلة مظلمة، فمست الحاجة إلى شمس روحانية تبدّد ظلمة هذه الليلة، وتحوِّلها إلى نور الإيمان. وقد أشير إلى هذا المعنى نفسه في آية أخرى حيث سمى الله تعالى محمدا ﷺ ﴿سِراجاً مُنيرًا﴾(الأحزاب:٤٧).

إذن فبإعلان أننا قد أنزلنا محمدا في ليلة القدر قد قدم الله تعالى على صدقه ﷺ دليلاً قويًا لا يسع أي دين إنكاره. فأيُّ دينٍ لا يعترف أنه كلما سادت العالَم ظلمة شديدة بعث الله مِن عنده مأمورًا ليهيئ للناس النور؟ فالتوراة مثلاً توافق على ذلك. لماذا جاء المسيح عليه السلام؟ لأن ليلة مظلمة كانت سائدة عندها في بني إسرائيل. لماذا تتوقع الديانة الهندوسية بعثة كرشنا في الزمن الأخير ثانيةً؟ لأن ذلك الزمن يكون زمن الظلام. والبوذية والزرادشتية أيضا تعلنان أنه كلما سادت الظلمة العالَم بعث الله مأمورًا من عنده. فكيف يمكن إذن ألا يُبعث مأمور رباني في عصر محمد مع أن الظلمة قد بلغت فيه الذروة؟ فلو لم يبعث الله مأمورًا من عنده في ذلك الوقت لأصبحت كل الأديان باطلة، وأصبح وجود الباري تعالى ضربًا من الوهم. فثبت أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ دليل ساطع على صدق النبي ﷺ. فمَن ذا الذي بُعث لتبديد ظلمة هذه الليلة غير نبينا ﷺ؟ إذا كان محمد ﷺ كاذبًا في دعواه -والعياذ بالله- فباطلة كل الأديان التي تتفق على أن الله تعالى يأتي بالشمس الروحانية حتمًا كلما اشتدت الظلمة وطالت، تمامًا كما يأتي بالشمس المادية بعد الليلة المادية.

وجدير بالذكر هنا أن الكُتّاب المسيحيين يقولون عن النبي ﷺ إن سبب نجاح تعاليمه أنه بُعث في عصر فسدت فيه الأديان كلها (ميزان الحق -بالأردو- للقسيس فندر، الفصل ٥ ص ٣٤٢). لكنهم لا يفكّرون أنهم بقولهم هذا يبرهنون على صدق النبي ﷺ. إذا كانت الأديان كلها قد فسدت في زمنه ﷺ - مما سهّل له الغلبة على المسيحيين من ناحية وعلى الفرس من ناحية أخرى - فنقول: ألا يُرسَل الرسل في زمن كهذا تمامًا؟ إذا كانت أديان العالم قد فسدت عند بعثته ﷺ فعلاً، وكان الناس قد ابتعدوا عن تعاليم أديانهم، فهل هذا تصديق لدعواه ﷺ أم تكذيب لها؟ هل يأتي الأنبياء في زمن يكون فيه الناس متمسكين بالصدق والسداد والصلاح والأخلاق؟ ألم يكن سبب نجاح المسيح عليه السلام أن الناس كانوا قد فسدوا في زمنه ولم يبق فيهم الصلاح والبر والتقوى، فصار الحق غالبًا على الباطل؟ ألم يكن هذا هو سبب نجاح موسى عليه السلام؟ ألم يكن هذا هو سبب نجاح كرشنا ورام تشندر وزرادشت وبوذا؟ بلى، هذا هو سبب مجيئهم من عند الله تعالى. إذا كان هذا الأمر دليلاً على كذب نبي، فهو دليل على كذب الأنبياء جميعًا، إذ لا يبعث نبي في زمن صلاح الناس، وإنما يبعث عند سوء أخلاقهم وفساد إيمانهم وانغماسهم في النجاسات والأدران.

والمفهوم الرابع لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هو أننا نَظَلّ نُنزِل محمدًا والقرآنَ في ليلة القدر، بمعنى أننا لم ننزل القرآن ومحمدًا في المرة الأولى في زمن الظلام فحسب، بل كلما سادت الظلمة أنزلهما في الدنيا لهداية الناس وإرشادهم.. أي لن يأتي زمان يفسد فيه الناس إلا ويهيئ القرآنُ ومحمد ﷺ لهم الهدى، ولن تمسّ حاجة لشريعة جديدة، بل كلما تضاءل نور القرآن في العالم واحتجب نور محمد عن أعين الناس بعث الله تعالى في الدنيا شخصيات روحانية تكون أظلالاً لمحمد رسول الله ﷺ، فيكشفون للناس نوره ثانية، وينشرون تعاليم القرآن مرة أخرى، ويُثبِتون للعالم أنه لم يكن في القرآن ولا في محمد عيبٌ ولا نقص، بل كان الفساد في أفهام الناس إذ تقاصرت عن إدراك معانيه ومفاهيمه، وكان الفساد في قلوبهم ففشلوا في الاقتباس من نور محمد ﷺ.

وقد صرح الله تعالى بهذا في آية أخرى إذ قال ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الجمعة:٣-٤). لقد بيّن الله تعالى هنا أنه قد أنزل محمدا في زمن بعثته الشخصية، وسيُنزِله ثانيةً في المستقبل حين تسود العالمَ ظروف مماثلة.. أي سيبعث الله نائبًا للرسول ﷺ يكون ظلاً كاملاً له ﷺ، فيعود بالإسلام إلى الدنيا ويرسي عظمته تارةً أخرى نيابةً عنه. وقد أخبر الرسول ﷺ أن القرآن سيرتفع إلى السماء في ذلك الزمن فيعود به هذا الموعود ثانية حيث قال ﷺ: "لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه" (المشكاة، كتاب العلم).. أي يصبح القرآن عندها باقيًا بالاسم والكلمات فقط إذ يجهل الناس معارفه ومفاهيمه الحقيقية، فيُبعَث ذلك الموعود فيأتي بالقرآن من السماء مرة أخرى، فلن يكون القرآن في العالم باسمه ولفظه فقط، بل يعود إلى الدنيا بكامل علومه ومعارفه تارة أخرى.

وهناك إشارة إلى هذا الأمر في السورة قيد التفسير إذ قال الله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، حيث تدل هذه العبارة على الاستمرار، فالمعنى: أنه ستأتي ليال كثيرة كليلة القدر وستنزل فيها ملائكة الله وروحه. فثبت من هنا أن قوله تعالى ﴿أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ لا يتعلق بالماضي فقط بل بالمستقبل أيضا. وهناك في القرآن أمثلة كثيرة لاستعمال صيغة الماضي بمعنى المستقبل.

لقد ذكرت آنفًا أن هذه الآية تشير إلى أظلال كاملين للرسول ﷺ. غير أنها تشير إلى بعثة أظلال النبي ﷺ الناقصين أيضًا، إذ إن الظل الناقص ظِلٌّ له على أية حال، أعني أنها تشير إلى المصلحين الآخرين الذين يقيمهم الله تعالى لإصلاح الأمة في زمن لا تكون الظلمة فيه شديدة كاملة، غير أنّ الناس سيشعرون عندها بحاجة إلى الإحياء الروحاني من جديد. لقد ورد في الحديث أنه ستمسّ الحاجة إلى مصلح يحذّر الناس على رأس كل قرن، فيبعث الله عندها مجدِّدًا في الأمة لسدّ هذه الحاجة (سنن أبي داود: كتاب الملاحم). والحق أن الآية قيد التفسير تشير إلى بعثة هؤلاء

المجددين أيضًا، لكونهم نُوّابًا للرسول ﷺ ولو بشكل جزئيّ، إذ يظهـــرون في ليلـــة مظلمة ولو بشكل جزئي.

والمفهوم الخامس لقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هو أننا أنزلنـــاه في بيان عظمة ليلة القدر؛ وفي هذه الحالة لا يكون لفظ ﴿في﴾ بمعناه العـــادي، بـــل معناه: فيما يتعلق بليلة القدر. وقد ذهب عامة المفسرين إلى هذا المعنى فقالوا المراد أن القرآن نزل في بيان عظمة ليلة القدر التي تكون في أواخر رمضان. (فتح البيان)

وإذا فسرنا الآية بهذا المعنى فالسؤال: ما هي تلك الليلة التي نبه الله إليها هنا؟

يرى المفسرون أنها تلك الليلة التي تكون في ليالي رمضان والتي قد أشـــار إليهـــا الرسول ﷺ في الأحاديث بكثرة، فهناك رواية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَـــيْكُمْ صِـــيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَيُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا قَدْ حُرِمَ". (مسند أحمد: حديث رقم ٧١٤٨)

وقوله ﷺ: "تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَيُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ" يعني أن الصالحات تكثُر فيه، لأن المؤمنين يتجنبون الآثام كليةً بتأثير الصيام. أما قوله ﷺ: "وَتُغَلُّ فِيـــهِ الشَّيَاطِينُ" فمعناه: حتى إن الذين يقعون في السيئات عادةً يأخذون الحذر برؤيـــة تضحيات إخوانهم في هذا الشهر.

وقد نقل النسائي رواية بهذا المعنى عن أبي أيـــوب الأنـــصاري، كمـــا ورد في البخاري ومسلم عن أبي هريرة: "مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه." (البخاري، كتاب الصوم، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين)

لقد تبيّنَ من هذه الأحاديث أن الرسول ﷺ سمّى ليلة من ليالي رمـــضان ليلـــةَ القدر، وقد وصَفها بما يشبه صفاتِ ليلة القدر المذكورة في القرآن الكريم مِن أنهـــا خير من ألف شهر، وأنها تصبح سلامًا لهم نتيجة غفران ذنوبهم. وهذا التشابه يؤكد حتمًا أن ليلة القدر المذكورة هنا هي نفس الليلة التي ذُكرت في الأحاديث، أو أن هذه السورة تشير إلى ليلة القدر على الأقل.

وهنا ينشأ سؤال: هل من العقل أن تكون ليلةٌ لا تختلف عن غيرها من الليالي مليئةً بالبركات لهذه الدرجة؟ وهل من العدل أن من يعبد في هذه الليلة يُغفر له كل الذنوب السابقة؟ أليس هذا يجعل الإنسان يعتبر نفسه في غنى عن فعل الخيرات؟

والجواب: لا شك أنه لو قيل إن عبادة المرء في ليلة معينة تغفر ذنوبه كلها خلاف للعقل ويخلُق الأوهام في القلوب، ولكن الله تعالى قد وضع لليلة القدر شروطًا وأمورًا لا تصح معها هذه الشبهة. ومن الحقائق الثابتة أن من خصائص العقل الإنساني أن انتقال الأفكار (association of ideas) يؤثّر على الأعمال الإنسانية تأثيرًا عميقًا، فمثلاً عندما يقوم المرء على قبرٍ قريب له تغلبه الرقّة، مع أن ما يراه أمامه ليس إلا كومة من التراب. لماذا يحدث هكذا؟ ذلك أن القبر يُذكِّره بقريبه المتوفى، فيستحضر كل الأحداث التي وقعت بينهما في حياته، فتمر ذكرياته في قلبه كالشريط واحدة بعد أخرى، فيفكّر أن هذه الأمور لن تعود ثانية، فتستولي على قلبه حالة عجيبة. فمع أن وفاة قريبه هذا ليس حدثًا قريبا، كما لا تزوّده ذكرياته معه بعلم جديد، إلا أن رؤيةَ القبر القديم وتذكُّرَ الأحداث القديمة تهيّج في قلبه عواطفه الميتة وأحاسيسه النائمة. وبالمثل يحتفل الناس بيوم الميلاد أو يوم الزواج، مع أن هذه الأيام لا تزوّدهم بعلم جديد عن ولادتهم أو زواجهم، إذ عندهم العلم بهذه الأحداث، بيد أن يوم الولادة هو أفضل فرصة لانتقال الأفكار إلى الولادة ويوم الزواج هو أفضل وسيلة لانتقال الأفكار إلى الزواج. وبناءً على هذه الحكمة ما الحرج في تحديد ليلة في رمضان لإحياء ذكرى نزولِ كتابٍ عظيمٍ هادٍ في هذا الشهر؟ فكأن الله تعالى يقول: لقد قطعنا مع الإنسانية في هذا الشهر عهدًا جديدا أبديا لا يُنسى، فإحياءً لذكرى هذا العهد في قلوب المؤمنين وتدليلاً على أننا قائمون على هذا العهد حتى اليوم، قد جعلنا ليلة من ليالي هذا الشهر ذاتَ فضلٍ خاص من حيث استجابة الدعاء. وهذا أمرٌ لا حرج فيه بل هو عين الصواب.

لقد قطع الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام عهدًا وجعل الختان علامة لهذا العهد (التكوين ١٧: ١٠). وهي علامة جسمانية لا علاقة لها بالروحانية، وهي مبدأ من

مبادئ الحفاظ على الصحة والطهارة البدنية فقط. لقد حفظ اليهود هذا العهد بينما نسيه المسيحيون، ولكن السؤال: إذا كان نسل إبراهيم عليه السلام لا يزال يحافظ على هذا العهد من خلال الختان فلماذا لم يَفِ الله بعهده لهم؟ التوراة صامتة على هذا السؤال. ولنفترض أن الله تعالى قد عهد لنسل إبراهيم أن تكون أرض كنعان لهم على الدوام، ولكن هذا أيضًا لم يحدث، لأن بني إسحاق هم وحدهم الذين يستحقون الوعد الإبراهيمي في زعم المؤمنين بالتوراة (التكوين ١٧: ١٩-٢١)، ولكنا نرى أنهم محرومون من هذا المُلك منذ ثلاثة عشر قرنا! لا شك أن المسيحيين نسوا الختان، ولكن اليهود لم يتركوا الختان، فلماذا نسي الله عهده معهم؟ لم تكن علامة بقاء العهد الإبراهيمي واستمراره إلا أن يلتزم الطرفان بالوفاء به، ولكنا نرى أن اليهود لا يزالون محافظين على الختان، ولكن الله تعالى لا يريد أن يفي بعهده هذا بحقهم.

وإزاء هذا العهد مع اليهود قطع الله تعالى مع المسلمين أيضًا عهدًا جديدا بإنزال القرآن الكريم وأعلن عن هذا العهد في رمضان، وجعل عليه علامة، ولكن لم يجعل علامته ختانًا، إذ كان العرب يقومون بالختان تأسيًا بإبراهيم عليه السلام، بل جعل الله علامة هذا العهد بالنسبة للمؤمنين أن يصوموا هذا الشهر الذي تم فيه هذا العهد، كما جعل لهم عليه عهدًا مقابل ذلك، فقال إذا صمتم شهر رمضان تخليدًا لذكرى هذا العهد فسوف أنزل من السماء في ليلة من أواخر ليالي رمضان معلِنًا: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٧).. أي أن المسلمين إذا احتفلوا بذكرى هذا العهد صائمين شهر رمضان، فإني أيضا سأحتفل بذكرى هذا العهد بليلة القدر، فأنزلُ من السماء لعبادي قائلا لهم: اسألوا فتُعطَون، وآمِنوا فتهتدون، لأنكم حفظتم عهدي وجدّدتم ذكرى عهدي بصيام رمضان، فأجدد ذكر عهدي بليلة القدر.

كم هي مباركة هذه العلامة للعهد الذي قُطع مع المسلمين! لا شك أن الختان شيء جيد، لكن صيام شهر لوجه الله تعالى أعظمُ شأنًا وأدعى إلى الروحانية من علامة الختان الظاهرة. ثم ما أعظمَ العهدَ الذي قطعه الله تعالى في الجواب! فإنه

تعالى لا يَعِدُهم بالمال والفضة والملك والحُكم تخليدًا لعهده، بل يَعِدُهم بليلة القدر قائلا: تصومون شهر رمضان على الدوام احتفالاً بذكرى نزول كلامي الأخير (القرآن الكريم)، وتجديدًا لعهدكم معي، وأنا أجدّد عهدي معكم من خلال ليلة القدر.. أي سأُنزلُ عليكم فيها أفضالاً خاصة وأستجيب لأدعيتكم، وأهب لكم إيمانا جديدًا حيًّا، لتعلموا دائما أني إلهٌ حيّ، ولستُ أَقَلَّ منكم حفاظًا على هذا العهد، بل أنا أكثر منكم حفظًا له.

ما أعظمَ الأمرين اللذيْن جُعلا علامتين لإحياء العهد الذي تم بين الله والمسلمين! لقد جعل الله علامة العهد مع المسلمين علامةً روحانية (أي صيام رمضان)، بينما جعل علامة عهده مع بني إسحاق علامةً مادية (أي الختان)، ثم جعل الله تعالى علامةَ وفائه لهذا العهد للمسلمين علامةً روحانية (ليلة القدر)، بينما جعل علامة وفائه لعهده مع بني إسحاق علامةً مادية (بقاء ملك فلسطين في أيديهم). فكم هو ضئيل الختان مقابل صيام شهر كل سنة في كل العمر! ثم إن المسلمين أيضا يقومون بالختان تأسيًا بإبراهيم عليه السلام. ثم كم هي ضئيلةٌ أرضُ كنعان مقابل ليلة القدر! بل هي لا تساوي ثانيةً واحدة من ليلة القدر. ثم الغريب أن أرض كنعان أيضا قد وقعت في قبضة المسلمين بحسب الأنباء.

باختصار، إن صيام رمضان وليلة القدر علامتان على العهد المحمدي، كما كان الختان ومُلك فلسطين علامتين على العهد الإبراهيمي. إن صيام رمضان علامة على تجديد هذا العهد من قبل العبد، وليلة القدر علامة تجديد هذا العهد من قبل الله تعالى. ولا يخفى على العاقل المتدبر أن العلامتين اللتين جعلهما الله على عهده مع المسلمين هما أعظمُ شأنًا وروحانيةً وأدعى إلى كشف عظمة الله الحيّ وقدرته. هناك شعوب كثيرة يعيشون في بلادهم منذ آلاف السنين، ولكن ذلك ليس علامة قطعية على رضا الله عنهم، ولكن لو حظيتْ أمةٌ بليلة القدر التي يقترب فيها الله من العباد ويستجيب لأدعيتهم ويتجلى عليهم بمرضاته بحسب مراتبهم، لكان هذا دليلا ساطعًا على أن الله راضٍ عنهم وأنه لم ينسَ عهده معهم.

وجدير بالذكر أيضا أن الله تعالى كان قد وعد إبراهيم الطَيْئُلاَ بحق ولديه الاثنين وألزمهما بالختان (التكوين ١٧: ٢٥، و٢١: ٤). ورد في التوراة أن الله تعالى وعد إبراهيم أنه سيعطي أولادَ إسحاق أرضَ كنعان للأبد: "فَقَالَ اللهُ: بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إسحاق. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ" (التكوين ١٧: ١٩). والمراد من إقامة العهد هنا استيلاؤهم على أرض كنعان أبدًا، وهذا ما يؤكده الكتاب المقدس في عدة أماكن. (التكوين ١٧: ٧-٨)

ولكن يتضح من الكتاب المقدس أيضًا أن عهدًا قُطع مع إبراهيم بحق بني إسماعيل أيضًا، لأنهم أُمروا بالختان أيضا ووُعدوا بالبركة حيث ورد: "وَكَانَ إسماعيل ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ" (التكوين ١٧: ٢٥)، وكذلك ورد أن إبراهيم الطَيْئُلاَ دعا الله تعالى وقال: "لَيْتَ إسماعيل يَعِيشُ أَمَامَكَ!" (التكوين ١٧: ١٨)، وورد: "وَأَمَّا إسماعيل فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا" (التكوين ١٧: ٢٠)، ثم ورد: "لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ (أي إسماعيل) أُمَّةً عَظِيمَةً" (التكوين ٢١: ١٨).

لقد ثبت من هنا أن هذا الوعد كان لإسماعيل أيضا، وإن لم يكن وعدُ امتلاك أرض كنعان بحقه، لأن هذا الوعد كان سيتحقق في بني إسحاق. لقد ظن اليهود والنصارى خطأً أن هذا العهد كان بحق أولاد إسحاق فقط، لكن الفقرات السابقة تبين أن العهد كان بحق إسماعيل وإسحق كليهما. فكيف وقع بنو اسرائيل في هذا الخطأ يا ترى؟

الجواب: أن للعهد الإبراهيمي جانبين: مجمل ومفصل، والعهد المجمل هو أن الله تعالى وعد إبراهيم الطَيْئُلاَ أن يبارك في نسله، والمراد من النسل إسماعيل وإسحاق كلاهما كما هو ظاهر من الفقرات السابقة. أما العهد المفصل فينقسم إلى قسمين: فكان العهد بحق إسحاق أنه سينال مُلك كنعان نسلاً بعد نسل، وكان طبيعيًا أن يحفظ الكتابُ المقدس -الذي هو كتاب بني إسحاق- هذا العهدَ الخاص ببني إسحاق، ولكن عدم ذكره أيَّ عهد بحق بني إسماعيل لا يعني عدم وجود أي عهد

بحق بني إسماعيل. ذلك أن الكتاب المقدس يخبر أن الابنيْن كانا شريكين في العهد المجمل، فقد ورد بحق إسحاق قول الله تعالى "إني سأباركه"، والمراد من هذه البركة بقاءُ مُلكِ كَنْعان عند إسحاق نسلاً بعد نسل. وكذلك ورد بحق إسماعيل: "إني سأباركه". والسؤال هنا: كيف تحقق هذا الوعد بحق إسماعيل؟ إن البحث عن هذه الإجابة في الكتاب المقدس عبث، لأنه كتاب نسل إسحاق، إنما نعرف ذلك من روايات بني إسماعيل، أو مِن الوحي الذي نزل على النبي من بني إسماعيل، لأن معرفة العهد التفصيلي بحق إسماعيل لا يُعرف إلا منهم.

وعند تفحص تاريخ بني إسماعيل نجد رواية قديمة بأن الله تعالى منح إسماعيلَ "مكة المكرمة" مركزًا له، وأعطاه البريةَ العربية للعيش، ولا يزال بنو إسماعيل مستولين عليها منذ ذلك الحين. والقرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ - الذي هو من نسل إسماعيل- يذكر هذا العهد التفصيلي بحق نسل إسماعيل كالآتي: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسماعيل أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:١٢٦-١٢٧).

فقوله تعالى ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني مرجعًا لهم. وقوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يعني: أدُّوا صلواتِكم وعباداتِكم بإخلاص كإخلاص إبراهيم. وقوله تعالى ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ يعني: بلدًا يتمتع بأمن، كما يهيئ الأمنَ للآخرين.. أي لا يكون بلدًا ذا أمنٍ فحسب، بل يهيئ الأمن للبلاد والأمصار الأخرى أيضا. أما قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فيعني أنني سأستجيب دعاءك يا إبراهيم ولكن بتعديلٍ وهو أنَّ مَن كَفَر فلن أحرمه من النِّعَم المادية، غير أني سأعذّبه على كفره بعذاب الآخرة.

ما أروعَه مِن عهدٍ أخذه الله تعالى من إسماعيل، علاوةً على عهد الختان! فقال له: مِن واجبك وواجبِ أولادك أن تخدموا الكعبة وتُعِدّوها مكانًا طاهرًا للعبادة حتى يجتمع فيه الناس ويعبدوا الله الأحد ويسبحوه ويحمدوه.

كان إسماعيل عليه السلام ملتزمًا بعهد الختان، ولكن الله تعالى أضاف إلى الختان هذا العهد الروحاني اللطيف، وفي المقابل عهد مع إسماعيل ونسله أنه سيعطيهم الكعبة وما حولها من المناطق، وأنهم سيتمتعون فيها بالأمن دائما، فلن يستطيع عدو احتلالها، وأن الناس سيأتون إليها للحج من كل البلاد، ومِن العالم كله في الزمن الأخير.

كم هي رائعةٌ علامةُ العهد المقطوع لإسماعيل عليه السلام ونسله! لقد وعد الله تعالى إسحاق عليه السلام بأنه سيُعطيه وأولادَه أرض كنعان؛ وهذا وعد مادي سياسي فقط، ثم لم يعد الله تعالى بأن هذه البلاد ستتمتع بالأمن دومًا، وبالفعل دُمِّرت أورشليم (القُدس) مرارًا بأيدي منكري الدين الإسرائيلي. أما إسماعيل فوَعَدَه الله تعالى أن يعطيه وأولاده مكة وما حولها، لكن لا بالسيف والسنان، بل نتيجة حب الناس واحترامهم لهم، وأن الله تعالى سوف يحمي مركزهم من الأعداء دائما، فيحكمون كل هذه المنطقة روحانيا وماديا؛ أما الحكم الروحاني فمن حيث إن الناس سيعظّمون مكة ويحجّون البيت الحرام فيها، وأما المُلك المادّي فمن حيث إن مكة ستصبح مركزًا آمِنًا للبلاد، وأن أهلها سيتمتعون بالنفوذ السياسي على ما حولها. والتدبر البسيط يكشف أن عهد إسماعيل أعظمُ شأنًا مِن عهد إسحاق عليهما السلام. فإن علامة العهد الذي التزم به إسحاق وأولاده (أعني الختان) قد التزم به إسماعيل وأولاده أيضا، ولكنهم التزموا بعلامة أخرى إضافية بأمر الله تعالى، بأنهم سيسعون جاهدين للحفاظ على عبادة الله الأحد، وأنهم يحملون مسؤولية إشعال قنديل ذكر الله في واد غير ذي زرع، معرضين عن الدنيا وزخارفها. أما علامة العهد الذي فرض الله على نفسه مقابل هذا العهد فهي أيضا أكثر روعةً من علامة العهد الذي جعل لابن إسحاق، فقد وعد الله تعالى إسحاقَ وأولاده بمُلك كنعان، بينما وعد سبحانه وتعالى إسماعيلَ وأولاده بحماية مركزهم من هجمات الأعداء دائمًا وأنهم سيُعطَون الحكم على مركزهم مكة وما حولها، ولكنه لا يكون حكمًا سياسيا

فقط، بل روحانيا أيضا. مما يعني أن بني إسحاق وُعدوا بالحكم على كنعان فقط، أما بنو إسماعيل فقد قطع الله معهم ثلاثة عهود: حماية مكة، والحُكم على العرب، والسيادة الروحانية على العرب كلهم.

ولما كان هذا العهد خاصًا ببني إسماعيل فكان طبيعيًا أن يحفظوه هم، كما حفظ بنو إسحاق العهد الخاص بهم في الكتاب المقدس. هذا هو الأمر اللطيف الذي كشفه الله عليّ خاصة، والذي يحسم الخصام الدائر منذ زمن سحيق بين بني إسحاق وبني إسماعيل حول العهد الإبراهيمي. لا شك أن مُلك كنعان قد أُعطي لبني إسحاق بحسب هذا العهد، لكن لا جرم أيضا أن الله تعالى كان قد قطع عهدًا مماثلا بل أفضل منه مع بني إسماعيل أيضًا، وقد تحققَ بحقهم أروعَ مما تحققَ لبني إسحاق عهدهم، كما سترون ذلك مفصّلاً لدى تفسير سورة قريش وسورة الفيل.

وهنا ينشأ سؤال: إذا كان الله تعالى قد وعد بني إسحاق بمُلك كنعان في العهد الإبراهيمي، فلماذا أُعطيَ هذا المُلك لبني إسماعيل أيضا؟ ولماذا تنبأَ القرآن أن هذا المُلك سيوهب للمسلمين إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:١٠٦-١٠٧). فقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ يعني أننا نبلّغ رسالتنا هذه إلى عبادنا العابدين أي المسلمين.. بمعنى أنه إذا سنحت لهم الفرصة الشرعية فعليهم أن يتوجهوا إلى فلسطين وسوف يفتحها الله لهم، لأن داود قد سبق أن أدلى بهذا النبأ. وبالفعل قد فهم المسلمون هذه الإشارة الربانية، فاصطدم قادتهم مع حفنة من جنودهم بإمبراطورية الروم وهزموها واستولوا على ملك فلسطين، رغم أن تلك الإمبراطورية كانت أقوى دولة في العالم.

والجواب على هذا السؤال هو أن هناك وعدَيْن حول أرض كنعان، وعدٌ مع إبراهيم عليه السلام بأن هذا المُلك سيُعطى لبني إسحاق، ووعدٌ على لسان داود عليه السلام أن هذه البلاد سيرثها عباد الله الصالحون العابدون. لقد جاء داود بعد إبراهيم -عليهما السلام- بفترة تتراوح بين ١٠٠٠ و١٢٠٠ سنة، وكان أوان انتهاء هذا العهد الإبراهيمي مع بني إسحاق قد اقترب في زمن داود، لأن قيامة الأمة الموسوية اقتربت

وهلاكها أوشكَ، فأنبأ الله على لسان داود ﷺ بنبوءة أخرى وأخبر أن العهد الإبراهيمي بحق نسل إسحاق قد أوشك على الانتهاء، وسوف يتحقق هذا العهد الآن بطريق آخر، وسوف تُنزع أرض كنعان من نسل إسحاق وتذهب إلى قبضة أتباع الدين الصادق. فاستيلاء المسلمين على فلسطين لم يكن بحسب نبوءة إبراهيم ﷺ، بل بحسب نبوءة داود ﷺ (المزامير ٣٧: ٢٩). لقد استولوا بحسب عهد إبراهيم ﷺ على مكة والحجاز، واستولوا على أرض كنعان فلسطين بحسب نبوءة داود ﷺ، لذلك نجد القرآن الكريم لا يشير إلى عهد إبراهيم في معرض الحديث عن وقوع كنعان في قبضة المسلمين، بل يشير إلى نبوءة داود، مع أن نبوءته لو كانت تكرارا للنبوءة الإبراهيمية لكان ذكر نبوءة إبراهيم هو الأَولى في هذا السياق.

ولا يغيبن عن البال أن بعض الأنباء الأخرى الواردة في القرآن والحديث تكشف أن من المقدر أن يستولي اليهود على هذه الأرض ثانيةً بصورة مؤقتة. وقد بدأت آثارها تظهر في الأفق.

والآن أتناول السؤال: هل ليلة القدر ليلة معينة؟ وهل هي نفس الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن الكريم؟

إن من الحقائق الثابتة أن القرآن الكريم بدأ نزوله في رمضان، ولكن لا نعرف الليلة التي بدأ نزوله فيها في رمضان معرفةً قطعية، إذ يرى البعض أنها ليلة الـ١٧، ومنهم من يرى أنها ليلة الـ١٩، والـ ٢٤ (ابن كثير). فليس هنالك أمر قطعي بهذا الصدد اللهم إلا أنه نزل في ليلة من النصف الثاني من رمضان. غير أن الثابت من الحديث أن ليلة القدر التي تأتي في كل رمضان تكون واحدة من العشر الأواخر (البخاري: كتاب فضل ليلة القدر)، مما يبين أن ليلة القدر ليست تلك الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن، بل المراد منها ليلةً من الليالي جعلها الله تعالى علامةً وتذكارًا على نزول القرآن الكريم.

أما السؤال هل الليلة التي قدّرها الله تعالى تذكارًا لنزول القرآن هي ليلة معينة؟ فالجواب: لا، بل إنها تتراوح في العشر الأواخر من رمضان. والمعلومات التي وردت عنها في مختلف الأحاديث كالآتي:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرون. (مسند أحمد: مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْبَوَاقِي، مَنْ قَامَهُنَّ ابْتِغَاءَ حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهِيَ لَيْلَةُ وِتْرٍ: تِسْعٍ أَوْ سَبْعٍ أَوْ خَامِسَةٍ أَوْ ثَالِثَةٍ أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ. (مسند أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه)

وهناك رواية عن أبي ذر قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، أَفِي رَمَضَانَ هِيَ أَوْ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ: بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ. قَالَ قُلْتُ: تَكُونُ مَعَ الأَنْبِيَاءِ مَا كَانُوا فَإِذَا قُبِضُوا رُفِعَتْ، أَمْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ قُلْتُ: فِي أَيِّ رَمَضَانَ هِيَ؟ قَالَ: الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأُوَلِ أَوْ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ؟ ثُمَّ حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثَ، ثُمَّ اهْتَبَلْتُ وَغَفَلْتُهُ قُلْتُ: فِي أَيِّ الْعِشْرِينَ هِيَ؟ قَالَ: ابْتَغُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، لا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا. ثُمَّ حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثَ، ثُمَّ اهْتَبَلْتُ وَغَفَلْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي عَلَيْكَ لَمَا أَخْبَرْتَنِي فِي أَيِّ الْعَشْرِ هِيَ؟ قَالَ: فَغَضِبَ عَلَيَّ.... قَالَ الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، لا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا. (مسند أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه)

وروي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا أَسْمَعُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ. (أبو داود: كتاب الصلاة، باب من قال هي في كل رمضان)

وروي عن عبد الله بن مسعود ومَن تابعه من علماء: أنها توجد في جميع السَنة، ولا خصوصية لرمضان في ذلك. (ابن كثير)

ويحكى عن أبي رزين: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان. وقيل إنها تقع في ليلة سبع عشرة. وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعا عن ابن مسعود، وروي موقوفا عليه. وقد روى أبو داود فيه حديثًا موقوفا عن ابن مسعود. وقد روى هذه الرواية بعض الصحابة والتابعين والإمام الشافعي. ويحكى عن الحسن البصري أن القرآن الكريم نزل في ليلة القدر، وقد ورد في القرآن أن غزوة بدر ونزول القرآن كان في يوم واحد، وكانت معركة بدر في السابع عشر من رمضان يوم الجمعة، فليلة

القدر هي السابعة عشر. وقيل: ليلة القدر هي ليلة تسعة عشر، يحكى عن علي وابن مسعود. (ابن كثير، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من رأى أنها ليلة سبع عشرة)

وعن أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، قال: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ العَشْرَ الأُوَل مِنْ رَمَضَانَ، وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ. فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ: مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، وَإِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي وِتْرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ. وَكَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزْعَةٌ، فَأُمْطِرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ". (البخاري، كتاب الأذان، باب السجود على الأنف والسجود على الطين)

وفي لفظ: "في صبحِ إحدى وعشرين". وقال الشافعي: هذا الحديث أصحّ الروايات.

وفي رواية مسلم: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ يَقُولُ: ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ. (مسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر)

وروى الطيالسي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين. (الطيالسي: حديث رقم ٢١٦٧)

وروي عن بلال عن النبي ﷺ قال: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين. (مسند أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث بلال رضي الله عنه)

وروى البخاري عن بلال أن ليلة القدر هي أول ليلة من السبع الأواخر.. أي الثالثة والعشرون أو الرابعة والعشرون.

وفي مسند أحمد رواية مرّ ذكرها أن القرآن الكريم نزل في الرابع والعشرين من رمضان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: التمِسوها في العشر الأواخر من رمضان ليلةَ القدر.. في تاسعةٍ تبقى.. في سابعةٍ تبقى.. في خامسةٍ تبقى. (البخاري، كتاب فضل ليلة القدر)

وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: أنها ليلةُ سبع وعشرين. (مسلم، كتاب الصيام)

وعن عبد الله بن عباس ومعاوية وعبد الله بن عمر أن ليلة القدر هي السابعة والعشرون من رمضان. (ابن كثير)

وقال ابن عباس: دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر. (ابن كثير)

وعن عبادة بن الصامت أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ التمِسوها في العشر الأواخر فإنها وتر: في إحدى وعشرين أو ثلاثٍ وعشرين أو خمسٍ وعشرين أو سبعٍ وعشرين أو تسعٍ وعشرين أو في آخر ليلة. (مسند أحمد: مسند الأنصار ﷺ، حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه)

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ أو في آخر ليلة. (البخاري، كتاب التراويح، باب تحري ليلة القدر)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى رَجُلانِ مِن المسلِمينَ، فَقَالَ: خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى فُلانٌ وَفُلانٌ فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ. (البخاري، كتاب التراويح، باب رفع معرفة ليلة القدر)

فهناك اختلاف كثير في هذه الروايات التي معظمها من الصحاح، فكل من الليلة الأولى والـ١٧ والـ ١٩ والـ٢١ والـ ٢٣ والـ ٢٤ والـ ٢٥ والـ ٢٧ والـ٢٩ والـ٣٠ اعتُبرتْ ليلة القدر. ويرى عبد الله بن مسعود أن ليلة القدر يمكن أن تكون أي ليلة من السنة (ابن كثير). غير أن النظرة الشاملة على هذه الرويات تكشف أن أصحَّها أنها ليلة في العشر الأواخر من رمضان خاصةً من الوتر منها.

لقد تبين من هنا أنه أيًّا كانت ليلة بداية نزول القرآن الكريم، إلا أن ليلة القدر ليست مخصوصة بتلك الليلة، بل تتبدل وتتغير من ليلة إلى أخرى، وتكون في

العشر الأواخر من رمضان. ذلك أنه إذا كانت ليلة نــزول القرآن هي ليلة القــدر حتمًا، فما كان للرسول ﷺ أن يقول: قد أُخبرت بليلة القدر ولكنني نسيتها بسبب خصام فلان وفلان، لأن القرآن قد نزل على النبي ﷺ، ولا بد أن يحفظ ليلة نزولــه، ولو سلمنا جدلاً أنه كان نسيها فإنه قد علم من هذه الآية أن ليلة القدر ليــست إلا ليلة نــزول القرآن الكريم وهي ليلة واحدة، فلماذا قال تحرّوها في الليالي الفلانيــة؟ هذا أولاً. وثانيًا: لقد أُخبرَ النبي ﷺ مرة عن ليلة القدر، وقد ظهــرت في الحاديــة والعشرين ومع ذلك ظل يقول للناس: تحرَّوها في العشر الأواخر، مع أنها لو كانــت ليلة محددة لأخبرهم كل مرة أنها الحادية والعشرون من رمضان. فثبت من ذلك: ١- أنه ﷺ لم يعتبر ليلة نــزول القرآن ليلة القدر على الدوام بصورة حتمية، ٢- وليس هذا فحسب، بل لم يعتبر أيًا من الليالي الأخرى ليلة القدر دائمًا، بل كان ﷺ يــرى أن ليلة القدر قد جُعلت ذكرى لنــزول القرآن الكريم، وهذه الذكرى وإن كانت قد جُعلت مخصوصة بالعشر الأواخر لكنها لم تُجعَل مخصوصة بليلة نــزول القرآن.

والسؤال الآن: لماذا فُعل هكذا؟ الجواب: رغم أن هذه الآية جُعلــت ذكــرى لنــزول القرآن، إلا أنها لم تحدَّدْ للفائدة الواسعة كما هو دأب القرآن الكريم. ذلك أن تحديد يوم قريب من اليوم الحقيقي لحادثٍ احتفالاً بذكراه ينفع نفس النفع الذي يتحقق في الاحتفال به في يومه الحقيقي، ولكن الله تعالى لو خصص ليلةً واحــدة على الدوام للاحتفال بذكرى نزول القرآن لم يهتم المسلمون بالعبادة كما يهتمون في حالة عدم تخصيص هذه الليلة. فالله تعالى قد جعل نفعا زائدا بجعــل ذكــرى نــزول القرآن في ليلة من العشر الأواخر، وهو أن يعبد المسلمون الله تعالى بحماس زائد عشرَ ليال بدلاً من ليلة واحدة. لو حدَّد الله تعالى ليلة القدر لفرح الــضعيف بعبادة ليلة واحدة، أما الآن فيهتم بالعبادة عشر ليال على الأقل، آملاً أن تكــون هذه الليلة أو تلك هي ليلة القدر، وهكذا تتاح له فرصة التدبر في ذكرى نــزول القرآن الكريم وبركاته لعشر ليال بدلاً من ليلة واحدة. سيقول في كل ليلــة مــن العشر الأواخر لعل هذه هي ليلة القدر، وبالتالي ينتقل ذهنه إلى نــــزول القــرآن الكريم وبركاته. ولا شك أن هذه بركة عظيمة وفائدة روحانية كبيرة.

أما الحكمة في تحديد ليلة القدر في العشر الأواخر فهي أن الإنسان لا يكافأ على خدمته إلا في النهاية.

لقد بينتُ حتى الآن أن ليلة القدر المذكورة في الأحاديث أيضا ذاتُ صلة -من جهة- بليلة القدر التي نزل فيها القرآن، وعليه فإن ليلة القدر الحقيقية هي تلك الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن، وإحياءً لذكراها وتجديدًا للعهد الذي عهده الله تعالى مع هذه الأمة بنزول القرآن قد جَعَلَ ليلةَ القدر، وجَعَلَها مخفيةً في العشر الأواخر لكي ينتفع الضعاف من الأمة بالإكثار من العبادة في عشر ليال على الأقل، لكي لا يصبح القيام بهذه الليلة مجرد عادة وتقليد فحسب -الأمر الذي يكرهه الإسلام جدًّا- فالآن بوسع كل إنسان أن يبحث عن هذه الليلة في العشر الأواخر من رمضان. وأي شك في أن الذي يبحث عن فضل الله تعالى في عشر ليال سوف يزداد حبًا للدين ورغبةً فيه، ويكفّ عن أخطائه وينيب إلى الله كلية، وهكذا سوف تصبح كلُّ ليلة له ليلةَ القدر في الأخير.

وأما ما روي عن عبد الله بن مسعود وغيره من صلحاء الأمة أن ليلة القدر يمكن أن تظهر في أي ليلة من السنة، فإنما معناه أن ليلة القدر بالنسبة إلى كل فرد يمكن أن تكون في أي وقت من السنة، وليس المراد من قولهم أن ليلة القدر لا تكون في رمضان، إذ ورد في روايات أخرى قولهم إن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. وكيف يمكن أن نتصور أن عبد الله بن مسعود يرفض قول النبي ﷺ إن ليلة القدر في العشر الأواخر؟ فهذا لا يتوقع من الصحابة البتة. فقوله بأن ليلة القدر يمكن أن تكون أي ليلة من السنة إنما يعني ليلةَ القدر التي تكون بالنسبة إلى أي فرد والتي يمكن أن تكون أي ليلة من السنة، ولا يعني ليلةَ القدر التي هي للأمة، والتي قد أخبر عنها الرسول ﷺ أنها تكون في العشر الأواخر من رمضان.

الواقع أن كل مؤمن يأتي عليه زمن البلوغ الروحاني، إذ لا يكون الجميع كاملين في الروحانية منذ ولادتهم، بل معظم الناس لا يبلغون البلوغ الروحاني إلا في وقت من الأوقات بعد البلوغ المادي؛ فبعضهم يصلون البلوغ الروحاني في شبابهم، وبعضهم في كهولتهم، وبعضهم في شيخوختهم، وبعضهم في آخرها. فالليلة التي

يحكم الله تعالى فيها في حق مؤمن أنه صار الآن من أهل الجنة قطعًا هي ليلة القدر بالنسبة له ولا يُشترط لذلك رمضان، إذ يمكن أن تأتي عليه ليلة القدر في أي وقت من السنة. إن الله تعالى رحمان ورحيم، وهاتان الصفتان الإلهيتان تتجليان كل لحظة، فكان لزامًا أن تكون هناك طريقة أخرى -علاوةً على المناسبات الخاصة- لنزول أفضال الله في كل حين وآن، وليست هذه الطريقة إلا نزول الأفضال الإلهية بصورة فردية، وهكذا تأتي ليلة القدر بالنسبة لمؤمن في وقت وبالنسبة لآخر في وقت آخر، وبالتالي تتنزل أفضال الله على عباده الصالحين كل يوم طوال السنة، كما تتنزل على الأمة كلها في ليلة واحدة من العشر الأواخر من رمضان نزولاً جماعيا في ذكرى نزول القرآن. وتلك هي ليلة القدر الكبرى.

وهنا ينشأ سؤال: لا شك أن تحديد ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان طريق حسن لمكافأة المؤمنين ولإذكاء روح العبادة فيهم، ولكن لماذا إذن قال الرسول ﷺ مرةً: تحرَّوها في العشر الأواخر، ومرةً أخرى: إنها في الحادي والعشرين، وتارةً: إنها في الرابع والعشرين، وتارة أخرى: ابحثوا عنها في الوتر من الليالي؟ لماذا قام بتعيينها؟

الجواب: القاعدة الأساسية عن ليلة القدر أنها في العشر الأواخر وتتغير من ليلة إلى أخرى، غير أن الله تعالى يمنح المؤمن علمًا خاصا بها أحيانًا كما أخبر الله رسوله ﷺ مرة بأن علامتها أنه سينزل المطر فيها حتى يدلف السقف، فوقع هذا في الـ ٢١ من رمضان، فظن الصحابة الذين علموا بذلك أن ليلة القدر إنما تكون في الـ ٢١ دائمًا، مع أنها كانت في الـ٢١ من رمضان في ذلك العام فقط. وكذلك أُخبر النبي ﷺ عن ليلة القدر في مناسبة أخرى، لكنه أُنسِيَها، وقال إنها في الوتر من الليالي الأُخر، لا سيما في السابع والعشرين.

إذن ففيما يتعلق بكون ليلة القدر في العشر الأواخر فهذه قاعدة ثابتة، ولكن فيما يتعلق بإشارة الرسول ﷺ وبعض الصحابة وصلحاءِ الأمة إلى ليلة معينة من العشر الأواخر، فكان هذا خاصًا بتلك السنة فقط، وقد عرفوها بناءً على علمهم السماوي أو الوجداني، ولا يعني ذلك أنها تكون في تلك الليلة دوما.

وهنا ينشأ سؤال طبيعي: هل هناك علامة يعرف بها المرء أن هذه الليلة من رمضان هي ليلة القدر؟ والجواب: أنه قد ورد في بعض الأحاديث بعض العلامات مثل: لمعان البرق، وهبوب الريح، ونزول المطر ورؤية نور صاعد ونازل بين السماء والأرض (الزرقاني: المجلد ٧، باب النوع الخامس في ذكر اعتكافه ﷺ). لكن العلامات الثلاث الأولى ليست ضرورية، وإن كان هذا قد حدث مرارًا. أما العلامة الأخيرة وهي رؤية نور، فقد جرّبها بعض الصلحاء، ولكنها مشهد من الكشوف وليست علامة ظاهرة حتى يراها كل شخص. لقد جربت ذلك بنفسي، مع أن ما رأيتُه لم يره غيري. والطريق الأمثل إنما هو أن يظل المؤمن يدعو الله تعالى طوال رمضان ويصوم بإخلاص، ولسوف يتجلى الله عليه بليلة القدر بطريق أو آخر.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٣﴾

التفسير: أي أن ما نقصده من ليلة القدر يفوق تصوركم، بمعنى أن غاية ما يحصل بسماع لفظ الليلة أن عقل الإنسان ينتقل إلى الظلام، ولكننا نقصد من ليلة القدر ليلة تنطوي على بركات لا نهاية لها وعظمةٍ لا يسمو إليها العقل الإنساني عادة. وهكذا فقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ قد وسّع المعاني جدًّا إذ معناه أن تلك الليلة تفوق حدّ القياس والفهم.

لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

شَهْر: الشهر: شَهَرَه: أظْهَرَه. والشهر مصدر. والشهر: القمر، وقيل: هو إذا ظهر وقاربَ الكمالَ. والشهر: جزءٌ من ١٢ جزءًا من السنة. والشهر: العالِمُ لشهرته. (الأقرب)

التفسير: من معاني الشهر الإظهارُ، يقال: شَهَرَهُ أي أظْهَرَه، وعليه فقوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني أن ليلة القدر خير من ألف إظهار.

ومعروف أن الليلة تنشر الظلام وتخفي الأشياء عن الناس، بينما يقول الله تعالى هنا إن الليلة التي نتحدث عنها هي ليلةٌ من حيث انتشار آلاف الفتن فيها من إلحاد شديد وزندقة وغيرها، ولكن ستتوافر في تلك الليلة شتى الأسباب لإظهار جلال الله ومحاسن الفطرة الإنسانية بشكل محير، ولذا فإنها خير من ألف إظهارٍ وكشفٍ لما في هذه الليلة من قوًى خفية، لأن الإظهار والكشف الذي يوضع له أساسٌ في هذه الليلة لا يعادله أي إظهار وكشف. فرغم أنها ليلة، إلا أنها لا مقارنة لها.

والمعنى الثاني أنها زمنُ ليلةٍ للمؤمنين حيث يتعرضون لصنوف الأذى من ضرب وقتل وغيرهما، ولكن تكون آلامهم وشدائدهم فيها أفضلَ قدرًا من الراحة التي يجدون في المستقبل لأنها ليلة القدر. اليوم إذا آمن أحد بمحمد تعرّضَ للطعن والتشنيع وفَقَدَ عزّته وصار أسوأ الناس في أعين القوم، ولكن المتعةَ التي يجدها المؤمنون في هذا الذلِّ والهوان، والسرورَ الذي يجدونه في هذه التضحياتِ، والراحةَ التي يجدونها في هذه الآلام، لن يتمتع بها الناس زمن رقي الإسلام.

كان أبو بكر ؓ رجلاً شريفا في قومه، وكانوا كلهم يثنون عليه ويحترمونه ويجلّونه، لكنه لما آمن بمحمد رسول الله ﷺ أخذ الجميع يسبّونه ويعيبونه ويهينونه وقالوا إنه قد فسد. كان عليّ ؓ طفلاً طيّبًا وكان أبوه من رؤساء العرب، لكن حين آمن بالرسول ﷺ قال الناس يجب قتل هذا الولد، فقاطعوه وسبّوه وأذلّوه، فرحين بفعلهم هذا. وكان عمر ؓ شابا وكان القوم يعتبرونه أفضلَ مؤرخ لأنساب العرب، فإذا حضر مجلس كبار قومه أجلسوه في صدر المجلس بعزة وإكرام، ولكنه حين آمن بالرسول ﷺ عابه الجميع، وبدلاً من الثناء عليه، حاولوا النيل منه فرحين بإيذائه. ولما آمنَ مِن اليهود عبدُ الله بن سلام ؓ، أراد النبي ﷺ اختبارهم فجمعهم وقال: ما ترون في عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابنُ سيدِّنا، وأعلَمُنا وابنُ أعلَمِنا. فقال ﷺ: اسمعوا، لقد أسلم عبد الله بن سلام. فلم

يلبثوا أن قالوا: هو شرُّنا وابنُ شرِّنا. (البداية والنهاية: سنة ١ هجرية، ج ١، فصل في إسلام عبد الله بن سلام)

باختصار، يقول الله تعالى إننا أنزلناه في ليلة القدر، وهذه الليلة سوف تُخفي العزة الظاهرة للناس كليةً. يكون الناس صلحاء شرفاء ذوي صيت، لكنهم بعد الإيمان بمحمد ﷺ سوف يخيّم عليهم الليل، فيُخفي عزتَهم وصيتهم وصلاحهم، فيطعن فيهم القوم ويعيبونهم. ولكن لا تظنوا أن هذه الليلة المظلمة ستسبب لهم الخزي حقيقةً، بل إنَّ هذا الخزي والأذى من أجل النبي ﷺ وفي معيته هو أكثر بركةً وأفضل من أي عز وصيت. سيأتي بعد هذه الليلة زمن العزة والصيت، فسينال الناس رفعة وعزة وثروة كثيرا بسبب الإسلام، ولكنهم مع عزتهم ورفعتهم وأموالهم لا يساوون شيئًا أمام هؤلاء الذين يُضربون اليوم بالنعال. وبالفعل قد عزَّ الناس وشرفوا في دينهم ودنياهم ببركة الإسلام وبتأثيره، ولكن متى يمكنهم أن يبلغوا شأْوَ أولئك الذين خُلقوا في هذه الليلة. كم بلغ من الرفعة والصيت الإمامُ أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والسيد عبد القادر الجيلاني، ومعين الدين الجشتي، وشهاب الدين السهروردي، ومحيي الدين بن عربي والنقشبندي والإمام الغزالي، حتى إن الملوك كانوا يفتخرون بحمل نعالهم، ولا جرم أنهم ما نالوا هذا العز والشرف إلا بالإسلام، وبالمقابل تعرّضَ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بل وسيدهم وسيدنا محمد ﷺ كلهم للسباب والشتائم وللضرب وللإهانة في زمن ليلة القدر، ولكن هل يمكن لأحد أن يقول إن زمن هؤلاء الصلحاء كان أفضل من زمن أولئك المسلمين الأوائل؟ والله، لو قيل لهؤلاء الصلحاء أن يُحرَموا من كل ما نالوه من عز ورفعة وصيت في حياتهم كلها مقابل أن يُضرَبوا ساعة واحدة على باب محمد ﷺ لماتوا فرحًا وصرخوا: يا لها مِن صفقة رابحة!

هذا هو الموضوع الذي تبيّنه هذه الآية حيث يخبر الله تعالى: تظنون أن الزمان الذي أتى على محمد وأتباعه تعيس جدًا. فاسمعوا أيها المستمعون، لا شك أنه زمن سيئ إذ بلغ الظلم فيه منتهاه، لكن اعلموا أن هذه الليلة المظلمة هي ليلة القدر، والعزة التي ينالها الإنسان فيها لأفضَلُ من كل عزّة! والذين سيبلغون ذروة المجد في

المستقبل سيؤثِرون ساعة واحدة من هذه الليلة المليئة بصنوف الأذى والآلام مضحّين بمئات السنين من حياقم الكريمة. وهذا ما حصل بالضبط وتحققت هذه النبوءة القرآنية حرفيًا، فمن ذا الذي لا يتمنى منا أن يُضرَب بأيدي الكفار على باب محمد ﷺ من أجل الإسلام ويستمتع بسماع سباب الكفار وأقبح شتائمهم. فما أصدقَ ما قاله أصدقُ القائلين ﷻ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾!

والحال نفسه بالنسبة للناس الماديين، فإن المؤمنين في زمن النبي هم الذين يتعرضون لأنواع الشدائد والمحن، أما الذين يأتون بعدهم فيجنون ثمار ما زرعه الأوائل. يمكن أن تتصور كَمْ كان بنو العباس أو بنو أمية يتباهون متكئين على عروشهم قائلين: أتعرفون من نحن؟ نحن رؤساء العرب! نتمتع بكذا وكذا من الحقوق، فما قيمة الناس أمامنا؟ لكن السؤال: من أين نال هؤلاء المُلك؟ لقد كان هذا المُلك ثمرة الشجرة التي غرسها أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وغيرهم من الصحابة الكرام. لا شك أن هؤلاء الصحابة لم يأكلوا ثمار تضحياهم، لكن من هو الأكرم عند الله، أعَبْدُ المَلِكِ وهارون الرشيد أم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير -رضوان الله عليهم أجمعين؟ دَعْك مِن هؤلاء الصحابة العظام، فإن الواقع أن أبا هريرة رضي الله عنه الذي كان يتعرض للجوع والفاقة أحيانًا، لهو أفضلُ عند الله تعالى من هؤلاء الملوك الأمويين والعباسيين. بل دَعْك من أبي هريرة رضي الله عنه، فإن بلالاً لهو أفضل من هؤلاء الملوك. لقد كان عبدًا من العبيد لكن كان له عزّةٌ قبل الإسلام، ولكنه لما أسلمَ خَفِيَ على الناس صالحُ أعماله وخصاله، فعابوه وسبوه وآذوه، ولكن هذه المحن نفسها قد كتبت له من العظمة بحيث لو أن هارون الرشيد أو عبد الملك مُنِحَ فرصةَ تكنيس بابه لكان هذا أعزَّ وأشرفَ له من المُلك.

من البديهي أن كل مَن آمن بمحمد ﷺ أو بأي نبي آخر إنما نال هذا الشرف لخيرٍ فيه، وإلا فمتى يستعدُّ الإنسان للتضحية إذا لم يكن فيه خيرٌ فطري، لكنا نرى على صعيد الواقع أنه كلما آمن المرء بنبيٍّ نسي الناس ما فيه من خير وغضّوا الطرف عما فيه من أخلاق سامية وخصال حميدة، حتى صار من الأذلّة المهانين في أعين الدنيا.

لا شك أن الملوك سيدخلون في جماعتنا أيضًا في يوم من الأيام كما يتضح من نبوءات المسيح الموعود عليه السلام، وسوف تحقق جماعتنا من التقدم والازدهار بحيث تصبح جميع الأديان والمذاهب ضئيلة الشأن جدا إزاءها، ولكن مهما نال علماء الجماعة عندها من عظمة وعزّ ومجد فإنهم - لو كان فيهم ذرة من الإيمان- لن يقيموا لمجدهم وزنًا مقابل الذل والهوان الذي يتعرض له بعض الأحمديين اليوم نتيجة انضمامهم إلى الأحمدية. وعندي أن الإمام أبا حنيفة والإمام مالكًا والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم لو سئلوا في أوج مجدهم: أتحبّون أن يُنزع منكم مجدكم وعزكم لتقوموا مقام أبي هريرة، لقالوا بِلا توقف: نعم؛ ذلك برغم أن أبا هريرة رضي الله عنه هو ذلك الصحابي الذي كان في بعض الأحيان يسقط مغشيًا عليه من شدة الفاقة فكان القوم يضربونه بالنعال ظنًا منهم أنه قد أصيبَ بنوبة من الصرع؟

إذن، فقول الله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني أن الناس مهما نالوا من عزّ ومجد وشوكة في المستقبل، فلا قيمة له مقابل هذه الليلة. لا شك أننا نسمي هذا الزمن ليلةً من حيث خمول ذكرهم وهوانهم، لكنها أعظمُ من كلّ مجد وصيت وظهور.

ثانيًا: ومن معاني الشهر العالِمُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني أن المعارف والعلوم التي انكشفت في هذه الليلة أفضل من معارفِ ألفِ عالِمٍ. وأي شكٍّ في أن المعارف التي أظهرها الله بالقرآن في عصر نبينا صلى الله عليه وسلم الذي كان أكثرَ العصور ظلمةً وإلحادًا، والعلوم التي أجراها أنهارا لا يستطيع ألف عالم أن يأتي بها. من دأب المسيحيين أن يقولوا أن القرآن الكريم نُقِلَ عن الكتب السابقة، فأقول ردًّا عليهم: لماذا لا يجتمع علماؤكم كلهم ويأخذون من القرآن ومن الكتب التي نقل منها ما شاءوا من المعارف ويؤلفون بها كتابًا أفضل من القرآن الكريم؟ إن الكتب التي نقل منها القرآن موجودة والقرآن موجود، والعلوم التي انكشفت فيما بعد أيضا معلومة، فعندكم فرصة أفضل مما كان عند محمد، فلماذا لا تستغلّونها لتقضوا على الإسلام دون أن تحتاجوا إلى أي دليل آخر. لكن المشكلة أن الادعاء سهل، والإنجاز صعب. الحقيقة أن المعارف التي كشفها الله تعالى في ليلة القدر هذه

لا يقدر علماء العالم كله على الإتيان بمثلها، علمًا أن قول الله تعالى إن ليلة القدر خير من ألف عالم لا يعني أن ١٥٠٠ عالم أفضل من ليلة القدر. الواقع أنه لم يكن عند العرب عدد فوق الألف، فكانوا يذكرون الألف في غاية الأشياء (القرطبي)، وتبعًا لهذا استخدم القرآن الكريم أيضًا عدد الألف هنا، والمراد أنه لو اجتمع العلماء بأعداد لا حصر لها، فلن يستطيعوا أن يأتوا بمعارف كالتي تضمّنها الوحي الذي نزل في ليلة القدر، أو التي بيّنها النبي ﷺ الذي نزل في ليلة القدر، أو يبيّنها المأمورون الذين يبعثهم الله تعالى في المستقبل في أزمنة مظلمة مماثلة.

وعليه فكان هذا تنبيهًا ربانيًا للمسلمين بأنه كلما أتى على الإسلام زمن المصائب فعليهم ألا يثقوا بعلماء الظاهر لنصرته، بل ينبغي أن يتطلّعوا إلى الوحي الذي ينزل في أزمنة مظلمة كهذه، لأن ما يحققونه بنصرة السماء وهديه لن يحققوه بجهود علماء الظاهر كلهم. ولكن المؤسف أن المسلمين لم ينتفعوا بالهدي الذي نزل في هذا العصر من السماء نصرةً لهم. الحق أن هذا الزمن أشد ظلمة من كل زمن، إذ لم يأت على الإسلام بعد الزمن النبوي عصرٌ هو أشدّ محنة عليه منه، ولكن المسلمين يعتمدون على الناس أكثرَ من ثقتهم بالله تعالى لدفع هذا البلاء. لقد بعث الله فيهم مأمورا من عنده تحقيقًا لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وغيرها من البشارات القرآنية، لكنهم لا يتوجهون إلى ما يقول لهم، بل يعتمدون على ما اخترعوه من حلول من عندهم. فالله يرحمهم!

ثالثا: أن يكون الشهر هنا بمعناه المعروف، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أن الزمن الذي نزل فيه القرآن أو محمد رسول الله أو الزمن الذي ينزل فيه أظلاله ﷺ الكاملون خيرٌ من ألف شهر، أي خير من جميع العصور الأخرى.

لقد ذكرت آنفًا أن العرب كانوا يستخدمون عدد الألف لما لا نهاية له، وعليه فمعنى الآية: أن الزمن المشار إليه أفضلُ من شهور بلا عد ولا حساب، فلا يباريه أي زمن لا في الماضي ولا في المستقبل.

وهناك طريقة عند العرب عن عدد الألف تبين لنا معنى ألف شهر. يقال أن ملِكًا قال لبدوي: سَلْ ما تريد. فقال: أَعْطِنِي ألف دينار. فقال الملك: زِدْ. فقال البدوي: هل فوق الألف شيء؟

رابعًا: إذا أخذنا الألف بالمعنى المعروف، فينطبق هذا المعنى على أظلال النبي ﷺ غير الكاملين، لأنه ﷺ بشَّرَ بظهور أظلاله غير الكاملين أو المجددين على رأس كل مئة سنة، وألفُ شهر يساوي ٨٣ عاما وثلث العام، وعند انقضاء هذه المدة من القرن يأتي رأسها، وعليه فالمراد من هذه الآية أننا سنظلّ ننزل القرآنَ والرسولَ ﷺ وتعليماتِه في صورة مجددين على رأس كل قرن، وأن زمن بعثة كل مجدد يكون خيرًا من ٨٣ سنة من القرن.. أي أن البركات التي ستنعم بها الأمة تحت رعايتهم لا يمكن أن تنالها في غيابهم.

خامسًا: المعنى الخامس لقوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هو أن الزمن الذي هو زمن تطبيق تعاليم الإسلام ورواجها حقًّا لأفضلُ من الأزمنة الأخرى كلها.

نجد البعض يعترضون على الإسلام برؤية انحطاط المسلمين وتَرَدِّيهم قائلين: لا تملّون من الثناء على الحكومة الإسلامية وتقولون إنها ترسي المساواة العالمية، وتحافظ على حقوق الفقراء وتهيئ لهم فرص النهوض والرقي، وتُقدِّم حلولاً للأزمات، وتوطّد السلام العالمي، ولا تدع الثروة تجتمع في أيدٍ محدودة، فأين ذهبت هذه الحكومة؟ إذا كانت هذه الحكومة قد استمرت ٣٠ سنة ثم انتهت، فما الفائدة منها؟ والحق أن قول الله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يمثل ردًا عليهم حيث بين الله تعالى أنّ قيام هذه الحكومة ولو يومًا واحدا- دَعْك من ٣٠ سنة- خيرٌ من العصور كلها، إذ غرستْ بذرةَ الخير وقدّمتْ نموذجًا له. وإذا كانت هذه الحكومة قد زالت في الظاهر فلا يقدح ذلك فيها، لأن الدنيا عندما تصحو من سباتها ستضطر لإقامة الحكومة على نفس الأسس التي رفعها الإسلام قبل ١٣ قرنا. فلولا هذه الحكومة النموذجية، فماذا عسى أن تفعل الدنيا لرقيها؟ كان من المحتم أن تتيه في الظلمات ولن تجد حلاً لمشاكلها. لا شك أن الحكومة الإسلامية لا توجد اليوم في العالم، لكن نموذجها موجود بلا شك، وكلما فكّرت الدنيا في تغيير

حالتها وأحسَّت بضرورة ذلك وجدت أمامها نموذج الحكومة الإسلامية التي كانت قائمة قبل ١٣ قرنا نموذجًا للحكم الإسلامي وقالت هلمّ نؤسس الحكم على طرازها، وهكذا سيسطع النور في العالم ثانية من خلال ذلك الحكم النموذجي وتجد الدنيا حلاً لمشاكلها.

فالله تعالى يعلن هنا أن هذه الليلة - أي عصر الحكم الإسلامي النموذجي - لن تقلّ قدرًا بسبب فساد المسلمين بعد الزمن النبوي، بل هي خير من ألف شهر، وذلك لأنه قد وضع فيه نموذج الحكم الإسلامي الذي سيظل منارًا للهدى يرشد الناس ويقدّم لمشاكلهم حلولاً كاملةً إلى يوم القيامة. وبما أن هناك ٣٠ ألف ليلة في ألف شهر، فيكون المراد من قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: تسألون عن خيرات ذلك العصر! فاعلموا أنه خير من ٣٠ ألف عصر! أي حتى ولو جاء بعد عصر النبي ﷺ ٣٠ ألف عصر من الظلمات، فأيضًا لن يفقد الزمن النبوي قيمته، بل يُعتبر أفضل من كل العصور القادمة، لكونه قد وُضع فيه نموذج الحكم الإسلامي.

لا جرم أن المعنى الذي ذكرتُه آنفًا يشرح ليلة القدر على اعتبارها الزمنَ النبوي، ولكن إذا اعتبرنا ليلة القدر إشارةً إلى تلك الليلة المعروفة، فماذا سيعني قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، إذ توجد في ألف شهر ٨٣ ليلة من ليالي القدر.

لا شك أن ليلة القدر تأتي كل عام في رمضان، ولكنها لا تتيسر لكل شخص، بل الذين يعبدون الله تعالى بالتقوى والصلاح حقًا هم الذين يحظون بها وذلك في حالة خاصة من ذروة الخشوع والخضوع.. أعني لا شك أن بركات ليلة القدر العامة تعمّ المسلمين جميعا كل عام، لكن ظهورها الكامل الذي يُشعِر المرءَ أنها هي ليلة القدر لا يتيسر إلا للخواص من عباد الله تعالى، كما أنها لا تتيسر لهم دائمًا بل أحيانا. إن هذه التجربة لا تتيسر للمسلمين ذوي الدرجة المتوسطة إلا مرة أو مرتين في العمر كله. وإشارةً إلى هذا الأمر قال الله تعالى إن الذي تيسرت له ليلة القدر ببركة اتّباعه للنبي ﷺ فليعلمْ أن حياته كلها موفقة مباركة. فبتقدير عمر الإنسان بـ٨٣ سنة (ألف شهر) قد بين الله تعالى أنه يجب أن يدرك مثل هذا الإنسان أن هذه الليلة أفضل من عمره كله، وأنه مِن أجل هذه الليلة قد قضى حياته، وأنها خلاصة حياته ولبّها.

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٥

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا أمرًا إضافيًا بأنه لا ينـــزل في هذه الليلة الوحي فقط، بل تنـــزل معه الملائكة والروح أيضا. والروح يعني الوحيُ وكذلك الملَــكُ الذي ينـــزل به (الأقرب)، ولكن حيث إن الوحي ونزوله قــد ســبق ذكــره في الآيات السابقة، فليس المراد من الروح هنا الملَك الذي ينـــزل بالوحي، بل له معنى آخر سنبيّنه لاحقا.

يخبر الله تعالى هنا أن مِن سنّتنا أننا حين ننـــزل وحْينا على مبعوث من عنـــدنا ننـــزل معه الملائكة أيضا إلى الأرض، والمراد من الملائكة هنا أولئك الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم. وكأن الله تعالى يعلن أننا لم ننـــزل كلامنـــا علـــى محمـــد فحسب، بل أنزلنا معه فوجًا من الملائكة على الأرض لتأييده، أو المعنى أن المأمورين الذين سيُبعثون في المستقبل لخدمة القرآن وإحياء الإسلام لن يأتوا وحـــدهم، بـــل سوف تنـــزل معهم ملائكة السماء دائما لتؤيدهم وتنصرهم وتسيِّر أمورهم. فلا تظنوا، أيها الكافرون، أنكم ستهزمون هؤلاء المأمورين بحيلكم ومكائدكم، كـــلا، إذ تَصْحَبهم ملائكتنا الذين لا يقدر الإنسان على مقاومتهم. فعندما أرسل الله آدم عليه السلام أمر الملائكة بأن يسجدوا له، أي يسخّروا له كل ما هو تحـــت تـــصرُّفهم، كذلك كلما بعث الله مأمورًا من عنده أنزل معه فوجًا من الملائكة وأمرهم بـــأن يؤيدوه ويُحدثوا في الأرض انقلابًا يساعد على ازدهاره وانتصاره.

ثم يخبر الله تعالى أنه لا ينـــزل لتأييد المأمور من السماء الملائكة فحسب، بـــل ينـــزل الروح أيضا. والمراد من الروح هنا الروحانية والحياة الجديدة التي تُـــنفخ في قلوب الناس. فكأن الله تعالى يعلن هنا أن الناس كانوا بدون روح قبل بعثة محمد. كانوا أحياء في الظاهر، لكن أسوأ من الموتى في الواقع، إذ لم يكن فـــيهم حمـــاس للعمل، ولا إحساس بالرقيّ، ولا عاطفة من الشرف والإنسانية. فلما جاء محمـــد (صلى الله عليه وسلم) بدأ الله تعالى بإيقاظ الفطرة الإنسانية النائمة عن طريق الملائكة، كما نفخ في أولئك الأموات روح الحياة، فعادت إليهم الحياة ببركة محمد، وتحركت هذه الجثث

التي كانت بلا حراك، حتى صار هذا الشعب المحكوم المقهور منذ قرون فاتحًا للعالم وحاكمًا عليه. لم يكن للعرب عزّ في الدنيا، بل كان العالَم المتمدن المتحضر يزدريهم، ولكنهم لما أسلموا وآمنوا تَقدّموا تقدُّمًا مذهلا، لأن إيمانهم بمحمد رسول الله ﷺ أحدث فيهم صحوة وأجرى دم الحياة في هؤلاء الموتى، فأحدث هؤلاء القوم ثورات عظيمة في العالم، حتى قلبوه رأسًا على عقب. يقول الله تعالى هكذا سيحدث بعد محمد رسول الله أيضا، فكلما نزل كلام الله بعده ﷺ نزلت معه الملائكة التي تنفخ في القلوب روحانية وصحوة وإخلاصا وتضحية تُذهِل العالَم. سوف يُشحن الناس بروح جديدة للحياة، فيضربون أمثلة رائعة للإيمان والإخلاص. وهذا ما سيحدث في هذا الزمن أيضا كما يتضح من نبوءات المسيح الموعود عليه السلام، حيث تنفخ الحياة في المسلمين الذين أصبحوا قلة رغم كثرتهم، وجهالاً رغم علمهم، وأمواتًا رغم حياتهم. هذه هي الروح التي يقال أن المسيح عليه السلام كان ينفخها في الأموات، وهذه الروح التي قد أشير إليها في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥).

باختصار، يقول الله تعالى إن الملائكة ستنزل الآن لتُحدث في العالم انقلابات مؤيدة لمحمد ﷺ من ناحية، ومن ناحية أخرى ستنفخ في أتباع محمد ﷺ روحًا جديدة للانتفاع من هذه التغيرات، حتى إذا وقعت هذه الثورة في الدنيا استولوا على العالم. وهذا ما سيحدث في المستقبل أيضا، فستنزل ملائكة الله من جهة، ومن جهة أخرى سينزل قدر رباني خاص، فيُنفخ في قلوب المؤمنين صحوة جديدة وحياة جديدة وحماس جديد وعزم جديد.

لقد رأيت في الرؤيا مرة أن حولي جمعًا هائلا من الناس لا يمكن حصرهم، وأنا أخطب بينهم وأقول: إذا لم يكن المسيح الموعود عليه السلام نبيًّا، فأَرُوني شخصًا واحدا لم يكن من الأنبياء ومع ذلك خلف بعده جماعة من العلماء الذين يتلقون من الله تعالى علمًا لَدُنِّيًّا ويفهمون كلام الله تعالى (أي القرآن الكريم) حق الفهم. وكنت أركّز في الرؤيا على هذا الأمر تركيزًا خاصا وأقول: إن النبي هو الذي يقيم جماعة تتمتع بحياة جديدة وقوة جديدة للترقي والازدهار، جماعة تكون على صلة مع الله

تعالى وتتعلم منه المعارف التي ينطوي عليها كلامه ﷻ، ثم تنشرها وتشيعها في العالم (جريدة الفضل، ٩-٣-١٩٤٥).

هذا هو الأمر الذي بيّنه الله تعالى في هذه الآية بأنّه كلما بُعث نبي في الدنيا نفخ في جماعته روحًا لا نظير لها عند الآخرين.

أما قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فيمكن تفسيره بطريقين:

أوّلهما: باعتبار الباء متعلقًا بالتنزل، أي: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ومعهم إِذْنُ رَبِّهِمْ، بمعنى أنها تنزل ومعهم حُكمُ ربهم للناس بأن يهبّوا بحماس لتأييد كلام الله ونصرته.

وثانيهما: اعتبار قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ حالاً لقوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، أي لا يكون نزولهم إلا بإذن الله تعالى، بمعنى أن مثل هذه الثورة لا تقع بدون إذن الله وأمره وإنما تتم إذا أرادها هو ﷻ، فليس من شأن علماء الظاهر أن يُحيوا الأمة بأنفسهم ثانيةً بعدما أصبحت جثة بلا حراك قد فارقها الروح، لأن الملائكة والروح إنما تنزل بأمر الله ومِن عنده، لذا فكلما يتم إحياء الأمة فإنما يتم من عند الله تعالى لا بتدابير البشر.

أما قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ فله معنيان: الأول: مِنْ أجل كُلِّ أَمْرٍ، أي لكل أمر، والثاني: بكُلِّ أَمْرٍ.

فالمعنى الأول لقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ هو: تنزل الملائكة من السماء من أجل إنجاز كل أمر لا بد منه لرقي الإسلام ولإزالة كل ما يعيق ازدهاره، وهكذا يحقق الله تعالى بفضله المهمة التي تبدو مستحيلة.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ هو: قد ولّى زمن الشرائع الجزئية الناقصة، إذ قد أنزل الله تعالى لهداية الناس في هذا العصر شريعته الكاملة التي حوت كل الأمور الضرورية. وهكذا فإن الله تعالى قد أعلن منذ البداية أن القرآن كتاب كامل، وأنه قد فصّل فيه كل العلوم الضرورية لرقي الإنسان تفصيلاً، فلا يَسَعُ أحدًا بعد نزول هذه الشريعة الكاملة القولُ أنها لم تسدّ كيت وكيت من حاجات الإنسان، أو أن الله تعالى لم يقدم فيها حلاً للقضية الفلانية. كلا، بل قد

بلغت الشريعة الآن كمالها، حيث بيّن الله تعالى في هذا الكتاب كل أمر ضروري لإصلاح الإنسان وتقدُّمه الروحاني.

أما لو طبّقنا هذه النبوءة على المجددين، فيعتبر قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ مماثلاً لقوله تعالى عن ملكة سبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(النمل: ٢٤).. إذ المراد أنها أوتيتْ كلَّ شيء كانت بحاجة إليه. وحيث إن نطاق عمل المجددين محدود لكونهم يأتون لإزالة مفاسد معينة وفي شعبهم الخاص أو بلدهم الخاص، ويأتون حين لا يكون الفساد شديدًا متفاقمًا، لذلك فلا يكون نطاق عملهم واسعا بحيث يكونون مسؤولين عن إصلاح العالم كله أو عن إصلاح المفاسد كلها، فلذا لو طبّقنا هذه النبوءة عليهم فلا يراد من قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ الأمور كلها، بل المراد: كل الأمور الضرورية للحاجة العابرة، أي أن الملائكة تنزل من السماء لنصرة المجددين في كل أمر يتطلب إصلاحه نصرة ملائكية، أو تنزل الملائكة لنصرهم في الأمور التي هم بحاجة إلى نصرها من أجل رقي الإسلام. فقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ يعني في سياق المجددين: مِن كل أمر ضروري، وليس كل الأمور.

أما الموعود الذي يظهر في الزمن الأخير، فلأنه يكون نبيًا وبروزًا كاملاً للنبي ﷺ، فينطبق قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ بمفهومه الواسع، بمعنى: أننا كما فسرنا هذه الآية بخصوص النبي ﷺ بأن الشريعة الإلهية تكتمل في زمنه من كل النواحي بصورة القرآن الكريم، كذلك سوف يكون لهذه الآية معنى واسع بالنسبة إلى البروز الكامل للنبي ﷺ، وهو أنه في زمن هذا الموعود تكون جميع محاسن القرآن قد اختفت، فيُنزل الله ملائكته من السماء، فيكشف جميع محاسن القرآن على الدنيا ثانية. في هذه الحالة لا يعني قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾: مِن كل أمر ضروري، بل يعني من كل أمر من الأمور.. أي ما من أمرٍ إلا وتنزل الملائكة من أجله في زمن ذلك الموعود.

سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٦

شرح الكلمات:

سلام: يرى اللغويون أن سلام هنا بمعنى: مُسلِّمة، أي أن الملائكة تنـــزل وهي تسلِّم على المؤمنين، أو يُسلِّم بعض المؤمنين على بعض. ويرى آخرون أن ســـلام بمعنى تسليم وسلامة. ثم يختلف هؤلاء العلماء اختلافًا آخر، فمنهم مَن يرى أن الآية السابقة انتهت بقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، وأن ﴿سلام﴾ مبتدأ لجملـــة جديـــدة كالآتي: "سلامٌ هي". ويرى الآخرون أن "سلام" متعلق بـــ ﴿مِنْ كُـــلِّ أَمْـــرٍ﴾، والجملة: "مِن كل أمرٍ سلامٌ"، أما الجملة التالية فهي كالآتي: "هي حـــتى مطلـــع الفجر".. أي أن هذه الحالة ستبقى حتى مطلع الفجر.

أما الذين يعتبرون كلمة "سلام" منفصلة، فيقولون أن معناها "سلام سلام"، أي أن تلك الفترة سلام سلام، أو أن في ليلة القدر "سلام سلام" من عند الله تعـــالى. والذين يرون أن الجملة كالآتي: "من كل أمر سلام"، فالمعنى عندهم: أن كل أمـــر تنـــزل به الملائكة في تلك الليلة هو سلام. وأما الذين يقولون "سلام هي" فـــالمراد عندهم: أن نـــزول الملائكة سلام سلام. وهذا القول الأخير لابن عباس. (البحـــر المحيط، والبغوي، فتح البيان)

والحق أن كل هذه المعاني تنطبق على هذه الآية.

التفسير: انظرْ كيف أعلن الله تعالى منذ بداية الإسلام أن التعاليم التي نعرضـــها عليكم في القرآن الكريم إنما هي سلام لكم، ومن المحال أن يصاب العامل بها بـــأي ضرر اجتماعي أو عائلي أو أخلاقي أو روحاني. وإذا أخذنا هذا المعنى فالجملة تنتهي على لفظ سلام كالآتي: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِـــنْ كُـــلِّ أَمْـــرٍ سَلامٌ﴾، ومفهوم الآية كالآتي: التعاليم التي تنـــزل بها الملائكة من عندنا في ذلـــك الوقت لن تشتمل على الأمور كلها فحسب، بل ستتضمن السلام الكامـــل لكـــم، وتكون منـــزهة عن أي ضرر ونقص، ولن تقدر الدنيا على إثبات أي عيب فيها.

أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ﴾ جملةً منفصلة فمفهوم الآية هو: أن ملائكة الله تنـــزل بحُكمه من ناحية، ومن ناحية أخرى يتلقى المؤمنون رســالة سلامتهم من كل ما تُحاك ضدهم من مكائد ومؤامرات. وكأن الله تعالى يُحدث عندها تغييرين في العالم؛ الأول: أن الملائكة والروحانية تنـــزل من السماء، والثاني: أن القوانين الطبيعية أيضا تعمل على إنجاز هذه المهمة الـــسماوية، فيجتمـــع مـــاء السماء بالأرض ويصبح نجاح النبي أمرًا أكيدًا.

وأما إذا اعتبرنا الجملة السابقة تنتهي إلى قوله ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، واعتبرنا كل ما بعده جملة منفصلة، فالمراد من الآية: تنـــزل الملائكة والـــروح بـــإذن الله تعـــالى بالشريعة كلها، ويسود السلام في ذلك العصر حتى مطلع الفجر، أي تكون تلـــك الأيام أيام نصر الله وأفضاله الخاصة.

أما إذا اعتبرنا ﴿سلام﴾ جملةً ثانية، و ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ جملـــةً ثالثـــة، فالمعنى: تنـــزل في تلك الليلة ملائكة الله والروح بجميع أنواع الأحكـــام، وهـــذا العصر، أيها الناس، سلام في سلام، ويستمر نزول الملائكة والروح القدس وانتشار السلام حتى طلوع الفجر.

فثبت من هنا أن كل المعاني التي يقترحها النحويون تنطبق هنا.

وهنا ينشأ سؤال: ما المراد من مطلع الفجر؟ فاعلم أنه يعني وقت غلبة الإسلام. وهذه الغلبة تبدأ دومًا عند وفاة النبي، ولذلك قال المسيح الموعود الطّيْخ في كتابـــه "الوصية": إن من سنة الله المستمرة أنه تعالى يُري قدرتين، لكـــي يحطّـــم بـــذلك فرحتَين كاذبتين للأعداء. والقدرة الأولى تظهر من خلال النبي، حيث يبذر بـــذرة الصدق والسداد التي يريد أن ينشرها في العالم، والقدرة الثانية تظهر مـــن خـــلال اكتمال مهمة النبي على يد الخلفاء (الوصية، الخزائن الروحانيـــة المجلـــد ٢٠ ص ٣٠٥-٣٠٦). فثبت أن مطلع الفجر هنا يعني زمن وفاة النبي، حيث نبّه الله تعالى عباده المؤمنين إلى أن سلامهم كله يكمن في أن يعرفوا عظمة هذه الليلة ويـــضحوا بكل ما يطالَبون به في هذا الوقت، أما إذا طلع الفجر وانتهى زمن النبوة، فإن نعم

السماء ستبقى في السماء، ولن تستطيع الأرض أن تنال نصيبا من البركات التي تحظى بها الآن.

وجدير بالذكر هنا بوجه خاص أن زمن النبي قد سُمِّي نهارا مرة بعد أخرى، كما سُمِّي النبي شمسًا أيضا، فلماذا سُمِّي عصره ليلة القدر؟ فكيف أصبح الزمن الواحد ليلا ونهارًا في وقت واحد؟

اعلم أن الزمن الواحد سُمِّي نهارًا وليلاً من منظورين مختلفين. فزمن النبي ليلٌ من حيث الظلمة السائدة قبل ظهوره، ولأنه حين يبدّد تلك الظلمة وينهي مهمته يقول الله له: تعال، فقد حان رحيلك الآن. فمثلا لما بدّد رسول الله ﷺ ظلمات الضلال والغواية في زمنه قال الله تعالى له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(النصر:٢-٤)، وهكذا أخبره الله بقرب أجله، وقال له: سوف ندعوك إلينا الآن. فالنبي يُبعث في زمن تسوده الظلمات، ويتوفاه الله فور تبديده إياها وعند بداية زمن الأمن والنجاح والرقي، فلذلك يسمى زمنه ليلاً، إذ تنتهي مهمته كلها خلال الليل، حيث يأتي عند المحن ويرحل إلى الله تعالى فور انتهائها. فلأن الغلبة العظيمة المادية تلي وفاة النبي، وشمس الانتصارات المادية تطلع بعد مطلع الفجر دائما، لذلك يسمى زمن النبي ليلا، أما الزمن الذي تنال فيه الجماعة الإلهية غلبةً غير عادية فيبدأ بعد طلوع الفجر، أي بعد انتقال النبي إلى ربه. ولكن فيما يتعلق بالترقيات الروحانية فلا يسع أحدًا إنكار أن زمن النبي هو زمنُ الضوء والنهار، والزمن الذي يلي وفاته هو زمن الظلمة والليل. فعند بعثة نبي تبدأ سلسلة عجيبة غريبة من نزول الوحي من السماء، ويهطل مطر البركات والأنوار، وتظهر الآيات والمعجزات، وتكتمل عندها الرحلة الروحانية في أيام مع أنها تستغرق سنوات وشهورا في الزمن الآخر، إذ يزداد الناس إيمانًا وإخلاصًا وحبًّا لله تعالى بشكل خارق. ولذلك يمكن أن يسمى ذلك الزمن زمن النهار أو زمن الضوء والنور، أما الزمن الذي لا يكون فيه النبي فيُعَدّ زمن الليل والظلام.

باختصار، إن الزمن واحد، لكنه يسمى ليلاً من منظور ونهارًا من منظور آخر. إنه يسمى ليلاً من حيث الظلمة التي تسبقه وأيضًا لأن الترقيات المادية لا تتحقق تماما عندها، بل يكون الازدهار والرقي بعد وفاته. ولكنه زمن النهار من حيث أفضال الله الخاصة، أي نزول الوحي وهطول البركات وتكميل الروحانية، أما الزمن الذي يليه فيكون ليلا، إذ تُحرم فيه الدنيا من البركات التي كانت تتمتع بها من قبل. فمن حيث البركات الروحانية يكون زمن النبي نهارا وما بعده ليلا، أما من حيث العظمة المادية لتعاليمه فيسمى زمنه ليلا لأنها لا تظهر إلا بعد رحيله من الدنيا، فمن سنة الله أن يبقى النبي في قومه حتى مطلع الفجر، وحيث إنه لا يأتي من أجل النعم المادية، لذلك عندما تبدأ النتائج المادية لتضحياته في الظهور وتعطي الشجرة - التي بذر بذرها - ثمارها، يقول الله له: تعال إلينا، واتركْ هذه النعم المادية للذين يرونها أكثر قيمة مما تستحق، ونظرًا إلى هذا المعنى نفسه قد اعتبر النبي ﷺ صحابته نجومًا، لأن النجوم تظهر في الليل دائما، فقال: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" (تشييد المباني ص ٢٠).. أي أن البركات التي أنزلها الله تعالى في زمني قد نال صحابتي نصيبًا منها، فأصبحوا نجومًا. الآن وقت النهار حيث تسطع الشمس على العالم، لكن سيخيّم الليل بعدي، وعندها سوف يهدي أصحابي الناسَ بصفتهم نجومًا، فلن يفلح بعدي إلا من يستنير بأصحابي في ظلمات الليل الذي يأتي بعدي. فهكذا قد اعتبر النبي ﷺ زمنه نهارا، والزمن الذي بعده ليلا، ولكن فيما يتعلق بالفتوحات المادية فزمنه ﷺ يشبه الليل، والزمنُ بعده يشبه النهار. وبالفعل نرى أن الله تعالى قد كتب الغلبة المادية بعد وفاة النبي ﷺ حتى نال الإسلام من القوة بحيث لم يكن بوسع قيصر الروم رفض كلام أبي بكر رضي الله عنه، مع أنه هو الذي لم يستجب لدعوة النبي ﷺ خوفًا من قومه حين دعاه إلى الإسلام رغم تأثره الكبير من رسالته ﷺ. أما عمر رضي الله عنه فكتب الله له الرعب أكثر من أبي بكر، فلم يكن قيصر يستمع لقوله، بل كان يهابه ويخاف أنه إذا لم يستجب له فلن تحمد عقباه. أما كسرى فقُضي عليه نهائيًا في زمنه. أما عثمان رضي الله عنه فكُتب له من الرعب والهيبة حتى دوّى اسمه في العالم كله، وكان الكل يدرك أن عليه طاعة أمر أمير المؤمنين. فثبت أنه فيما يتعلق بالعزة

المادية فلم يكتب منها لرسول الله ﷺ ما كتب لأبي بكر وعمر وعثمان، ومع ذلك كان هؤلاء نجوم العالم الروحاني وكان محمد رسول الله ﷺ شمسها.

باختصار، إن وفاة النبي إيذانٌ ببداية ليل فيما يتعلق بالروحانية، ولكنها مطلعُ فجر فيما يتعلق بالأمور المادية، إذ تطلع الشمس فور وفاته، ويرى الناس الفتوحات والانتصارات المادية. هذا ما حصل في زمن نبينا والمسيح وموسى عليهم السلام، والآن في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضا. لقد حضر في آخر جلسة سنوية في حياة المسيح الموعود عليه السلام ٧٠٠ شخص، وأتذكر جيدا أنه عليه السلام خرج في أحد أيام الجلسة للنزهة، ولما بلغ إلى شجرة تين البنغال الموجودة في حارة "ريتي تشلّه" قال برؤية كثرة الناس وزحامهم: لقد انتهت مهمتنا، لأن آثار الغلبة والنجاح قد ظهرت، فظل يتحدث طويلاً عن رقي الأحمدية قائلا: انظروا كم كتب الله تعالى لنا من نجاح ورقي، إذ حضر في هذه الجلسة السنوية ٧٠٠ شخص. إنه نجاح عظيم وأرى أن المهمة التي بعثني الله من أجلها قد أُنجزت، ولن يستطيع الآن أحد القضاء على الأحمدية. فترى أن حضرته عليه السلام فرح بحضور ٧٠٠ شخص في الجلسة السنوية حتى رأى أن المهمة التي بُعث من أجلها قد تحققت. أما اليوم فيجتمع حوالي ٨٠٠ شخص في هذا الدرس القرآني فقط بفضل الله تعالى، وكلهم من قاديان. أما الجلسة السنوية فيحضر فيها بفضل الله تعالى ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ألفًا من الخارج.

باختصار، إن جماعتنا تحقِّق انتصارًا تلو انتصار بفضل الله تعالى، ولا يمر يوم إلا ويبايع بعض الناس، وتزداد جماعتنا رقيًا وقوة باستمرار. ولكن من ذا الذي يمكنه -رغم هذه الغلبة- القول إن هذا الزمن أفضل من زمن المسيح الموعود عليه السلام؟ لا شك أن هذا الزمن أكثر ازدهارا وانتصارًا، ولكن القلب يحزن بذكر زمن المسيح الموعود عليه السلام، وتبدو هذه الانتصارات حقيرة جدا. لا تزال على مصحفي ملحوظةٌ قصيرة سجّلتُها قديما، وهي تعبِّر عن الحالة القلبية والمشاعر التي يشعر بها الذين يرون زمن النبي. لقد كتبتُ تعليقًا على كلمة "سلام" ما يلي:

"أي: تلك الليلة سلام في سلام. آه، أين زمن المسيح الموعود عليه السلام؟ كنّا قلّةً عندها، لكن كان هناك سلام."

لا شك أن الله تعالى قد كتب لنا ترقيات عظيمة بعد المسيح الموعود ، ولكن أنَّى لهذه الترقيات أن تُقارَن ببركة زمن المسيح الموعود . لا شك أن ما كُتب لنا من المكانة الظاهرة لم يُكتب للمسيح الموعود ، وأن الذين يستمعون لقولنا أكثرُ عددًا من الذين كانوا في زمنه ، والأموال التي هي بحوزتنا أكثرُ مما كانت زمنه، إذ يبعث الناس الآن في يوم واحد ٣٠ ألف روبية تبرعاتٍ بفضل الله تعالى في بعض الأحيان، و لم يكن هذا المبلغ يجتمع عنده في سنة كاملة، ولكن من ذا الذي يمكن أن يقول -رغم هذا الرقي المادي- إن زمننا أفضل من زمنه ؟

أتذكر جيدًا أنه لما ازدادت نفقات دار الضيافة كثيرًا نتيجة كثرة الضيوف الوافدين على المسيح الموعود أخذه القلق مرة بشكل خاص فقال من أين نأتي بالمال لتغطية هذه النفقات؟ أما اليوم فيوجد بيننا كثيرون يستطيعون وحدهم تحمُّل نفقات دار الضيافة كلها بفضل الله تعالى. عندما نشر المسيح الموعود نبوءاته المتعلقة بالزلزال جاء إلى قاديان الأحمديون بكثرة، فخرج مع أصحابه إلى بستانه ليقيم هناك في الخيام مع الضيوف الذين كثروا. فقال لوالدتنا يومًا: أرى أن نقترض من أحد إذ لم يبقَ عندي مال لتغطية النفقات. ثم بعد قليل ذهب لأداء صلاة الظهر، ولما رجع كان يتبسم، فدخل في غرفته ثم خرج منها بعد قليل وقال لوالدتنا: إن الإنسان يرى آيات الله الكثيرة المتواترة ومع ذلك يسيء به الظن أحيانًا. ذات يوم لم يبقَ عندي مال لدار الضيافة، ففكرت بالاقتراض من أحد، ولكني حين ذهبتُ للصلاة تقدّمَ إليّ شخص في ثياب بالية متّسخة وأعطاني كيسًا، فقلتُ نظرًا إلى حالته الرثة: لعل في الكيس بضع قروش، ولكن لما جئت إلى البيت وفتحت الكيس وجدت فيه مئات عديدة من الروبيات.

لا شك أن ذلك المال لا يساوي شيئًا إزاء أموال التبرعات الكثيرة التي تأتينا اليوم، ولكن لو قيل لأحد منا اليوم ادفعْ كل نفقات دار الضيافة ليوم واحد وسوف نُريك يومًا من عهد المسيح الموعود ، لقال سأدفع نفقات سنة كاملة

لا يومٍ واحد، فأَرُوني بالله يومًا واحد من زمنه ﷺ. ولكن أَنَّى لأحد اليوم أن ينال ذلك الشرف الذي كان يناله الذين كانوا يضحّون وينفقون في زمنه ﷺ؟

المؤسف أن فرص التضحية عندما تكون ميسَّرة للناس فإنهم يعرضون عنها، وعندما ينقضي أوانها يقولون في أسف وحسرة: ليتنا اغتنمناها! وليتنا لم نضيع تلك الفرص! واليوم أيضا قد هيّأ الله تعالى لهم فرصة عظيمة، إذ ظهر فيهم الموعود الرباني، فبوسعهم أن يقوموا بخدمات كخدمات الصحابة فينالوا جوائز كجوائزهم. ولكن كم منهم يقدرون هذه النعمة؟ كثيرون هم الذين سيبكون حسرةً حين تفوتهم هذه الفرصة.

باختصار، إن الأنبياء يأتون إلى الدنيا لبذر البذرة في وقت يظن الناس أنها ستضيع حتمًا، ولكن الله تعالى ينميها بحسب سنته الأزلية الأبدية، ويكتب لجماعته ازدهارا بعد ازدهار، وفي هذه الأثناء تتيسر فرص أخرى للتضحية بحسب سنة الله المستمرة، فيتقدم الذين يحبون الله تعالى ويتنافسون في هذه التضحيات شفاءً لغليلهم وتحقيقًا لأمنيتهم في الإنفاق، بينما يظل البعض نائمًا غافلاً حتى ينقضي زمن التضحيات، فيقلّب كفّيه حسرةً بأنه لم يعمل شيئا. إن الناس يتحسرون اليوم بأنهم لم يجدوا زمن المسيح الموعود ﷺ، ومع هذه الحسرة لا يشتركون في التضحيات كما ينبغي. ماذا ستكون النتيجة؟ ستفوتهم هذه الفرصة فيقولون في حسرة: يا ليتنا قمنا بخدمة الإسلام في زمن المصلح الموعود◆! مع أن كثيرا من هؤلاء المتحسرين وجدوا زمنه، ولكنهم ظلوا غافلين و لم ينتهزوا الفرصة، فلم يبق لهم إلا الحسرة والأسف.

◆ "المصلح الموعود" هو أحد ألقاب المفسِّر. (المترجم)

سورة البيّنة

مدنية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مدَنية في قول الجمهور. وأخرج ابن مردويه عند ابن عباس أنها نزلت بالمدينة. وأخرج ابن مردويه نفسه عن عائشة رضي الله عنها: نزلتْ سورة ﴿لم يَكُنْ﴾ بمكة. (فتح البيان)

وعن أَبِي حَبَّةَ الْبَدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إِلَى آخِرِهَا قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَهَا أُبَيًّا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ هَذِهِ السُّورَةَ. قَالَ أُبَيٌّ: وَقَدْ ذُكِرْتُ ثَمَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَبَكَى أُبَيٌّ. (مسند أحمد، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه)

وقد أخرجه الطبراني وابن مرديه. كما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس. ولكن ليس في رواية البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال ذلك لأُبيّ عند نزولها. كما ليس في روايتهما أيُّ ذِكرٍ لجبريل، وإنما ورد فيها أنه ﷺ قال لأُبيّ: إن الله أمرني أن أقرأ عليك "لم يكن الذين كفروا". (البخاري: كتاب المناقب، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة)

ولأن هذه الرواية قد وردت في مصدر ثقة كمسند أحمد، فلا بد من التسليم أن هذه السورة مدَنية بناءً على الروايات الصحيحة، لأن أُبيّ بن كعب أنصاري من المدينة، والسورة التي نزلت في زمنه لا بد أن تكون مدَنية. والمستشرقون المسيحيون أيضًا يعتبرونها مدَنية، كما قال القسيس "ريفريند ويري". أما المستشرق الألماني "نولدكه" فيقول إنها نزلت بعد سورة البقرة معًا. (تفسير القرآن لِـــ"ويري")

وجدير بالذكر هنا أن "ويري" يقول أن البعض قد اعتبرها مكية، كما ورد في رواية مذكورة أعلاه. ويعني "ويري" من لفظ "البعض" السيدةَ عائشة رضي الله عنها، فهي التي اعتبرتْها مكية. ويقول "ويري" ليس عند عائشة سبب لاعتبار هذه السورة مكية إلا ورودها بين السور المكية. والغريب أن المؤرخين المسيحيين يقولون من ناحية -تماشيًا مع الشيعة- أن القرآن الكريم هو مِن وضعِ عثمان (ﷺ)، أو أن ترتيب سوره -على الأقل- من عثمان، ومن ناحية أخرى يقولون أن عائشة إنما اعتبرت هذه السورة مكية لأنها موضوعة بين السور المكية.

لو كان صاحب هذا القول شخصًا من القرن الثاني أو الثالث الهجري لجاز للقسيس "ويري" أن يقول إن هذا قد اعتبر هذه السورة مكية لأنه وجدها بين السور المكية، لكن صاحب هذا القول هي عائشة التي كانت قد أسلمت قبل زمن خلافة عثمان بزمن طويل، فإذا صحّ اعتراضهم هذا فلا بد لهم من الاعتراف أيضًا أن الترتيب القرآني هو من الرسول ﷺ وهذا ما انخدعتْ به عائشة، إذ كيف يمكن أن تنخدع بترتيب عثمان للمصحف مع أنها -رضي الله عنها- قد قضت حياتها كلها مع الرسول ﷺ؟ فلا شك أن عائشة كانت متمسكة بنظريتها هذه عن القرآن الكريم قبل أن يجمع عثمان القرآن الكريم. فاعتبار عائشةَ هذه السورةَ مكيةً لورودها بين السور المكية دليل على أنها كانت موضوعة بين هذه السور قبل أن تبلغ عائشة سن الرشد، وبالتالي ثبت أن ترتيب القرآن الكريم هو مِن وضع الرسول ﷺ لا مِن وضع عثمان كما يزعم المؤرخون النصارى.

والجدير بالذكر أن "ويري" يعتبر السور القرآنية الأخيرة كلها مكية، ويتّهم عائشة -رضي الله عنها- أنها اعتبرتْها مكية لمجرد ورودها بين السور المكية، مع أن الواقع أن اعتبار "ويري" جميعَ السور الأخيرة مكيةً دليلٌ على جهله. صحيح أن عائشة -رضي الله عنها- اعتبرت هذه السورة مكية، ولكن السورة التالية لها (الزلزلة) مدَنية عند الغالبية (فتح البيان)، ومكتوب فوقها في المصاحف المتداولة أنها مدَنية. ثم توجد بيْن هذه السور الأخيرة سورةُ النصر، وهي مدَنية بالاتفاق، بل هي مما نزل في آخر حياة النبي ﷺ، حيث إنها نزلت عند القُفول من غزوة خيبر عند

بعض الصحابة، بينما قال بعضهم إنها نزلت في مِنى أثناء حجة الوداع (روح المعاني، وفتح البيان). ومعلوم أن النبي ﷺ تُوفّي بعدها بثمانين يوما. فما دامت السور الأخيرة تشتمل على سور مدَنية يقينا، فإنما الجاهل هو الذي يتهم عائشةَ -رضي الله عنها- بأنها اعتبرت هذه السورة مكية لمجرد وجودها بين السور المكية. نحن لا ننكر أن هذه السورة مدَنية -كما هو ثابت من روايات غالبية الصحابة والتابعين وكما قال جمهور المفسرين- إنما نقول إن الكتّاب المسيحيين يهاجمون التاريخ الإسلامي تعصبًا دونما دليل.

الترتيب والترابط:

إن الرابط بين هذه السورة وما قبلها هو أن السورتين الماضيتين تتحدثان عن القرآن الكريم مركِّزتين على محاسنه الذاتية، أما هذه السورة فتتحدث عن تأثيره على الأمم الأخرى، حيث أخبر الله تعالى أنه لو لم ينــزل القرآن لم يرتدع أهل الكتاب وغيرهم عن سلوكهم الخاطئ.

لقد سُمِّيَ النبي ﷺ في هذه السورة بيِّنةً، لأنه أتى بالقرآن الكريم واعتبر نزوله ضروريًا لإصلاح العالم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

منفكّين: فَكَّ الشيءَ: فَصَلَه وأبانَ بعضَه عن بعض. وانفكّت قدمُه: زالت. وانفكّت إصبعُه: انفرجت. وانفكَّ وَرِكُه: زاغ عن موضعه. وانفكّ الشيءُ المشتبك: انفصلَ. وانفكّت العقدة: انحلّتْ. وانفكّت الرقبةُ من الرِّقّ: أُعتقتْ. وما

انفكَّ يفعل كذا: ما زال، وهو من أخواتِ "كان"، ملازِمٌ للنفي، لأنه يتضمن معناه، فإذا دخل عليه حرفُ النفي تحوّلَ إلى الإثبات. (الأقرب)

البِّينة: البيّنة مؤنّثُ البيِّنِ -أي الواضحُ الجليّ- الدليلُ والحجة. (الأقرب)

التفسير: يتضح لنا من مطالعة القرآن الكريم أنه قد قسَم الناس قسمين: أحدهما أهل الكتاب وآخرهما المشركون، ولا يخرج عن هذين القسمين أحد من الناس بحسب اصطلاح القرآن الكريم، فإما هو من أهل الكتاب أو من المشركين. لا شك أن هناك أناسًا لا يمكن اعتبارهم في الظاهر من أهل الكتاب ولا من المشركين، كالدهريين مثلا، لكن الواقع أنهم لا يخرجون عن أحد هذين القِسمين، وبحسب اصطلاح القرآن الكريم يمكن اعتبارهم من المشركين. الواقع أن هذا الاصطلاح القرآني ينطوي على إشارة لطيفة بيانها أن القرآن يعلن أن التوحيد لا يمكن أن يتأتّى من دون إلهام ووحي. من الممكن أن يكون أحد مِن أهل الكتاب ومشركًا، ولكن من المحال أن لا يكون أحد من أهل الكتاب ثم يكون موحِّدًا. فالذي ليس من أهل الكتاب لا بد أن يكون مشركا، أما الذي هو من أهل الكتاب فقد يكون موحّدًا وقد يكون مشركا. ذلك أن التوحيد يعني نسبة صفات الله إليه ﷻ بطريق سليم، وهذا لا يستطيعه إلا مَن هو من أهل الكتاب، لأن الصفات الإلهية إنما يمكن أن ينسبها إلى الله تعالى بطريق سليم مَن هداه الوحي الإلهي أو مَن كان عنده علمٌ بالوحي الإلهي. الدهري منكر لله تعالى في الظاهر، لكن الواقع أنه ينسب صفة الخلق إما إلى قانون الطبيعة أو إلى الصدفة، وهكذا فإنه رغم عدم إيمانه بوجود الله تعالى يشرك بالله تعالى عند المؤمنين، حيث ينسب صفة الخلق إلى غير الله. فهو دهري من منظوره، ومشرك من منظور أهل الدين إذ ينسب صفات الله تعالى إلى غيره.

باختصار، إن القرآن الكريم قد قسم الناس قسمين: أهل الكتاب والمشركين. وعندما يستخدم القرآن كلمات أهل الكتاب والمشركين معًا فيعني الناس كلهم. ولقد مهَّدتُ بهذا لأن الموضوع الذي سأبيّنه لاحقًا لا يُفهَم مِن دونه جيدًا.

اعلمْ أن هذه السور تقدّم حلاً لقضية هامة، وهي نصٌ في هذه القضية. إن الكُتّاب المسيحيين يعترضون دائما أن دعوى القرآن -فيما يتعلق بالإيمان- إنما يخص غيرَ أهل الكتاب، ودليلهم في زعمهم هو قول الله تعالى لليهود: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(المائدة:٤٥)، وقوله تعالى للنصارى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(المائدة:٤٨)، فمن هاتين الآيتين يستدلون بأن القرآن الكريم قد لام اليهود والنصارى أنهم لا يعملون بكتبهم، مما يعني أن التوراة والأنجيل صالحيْن للعمل كما ذكر القرآن الكريم، وبالتالي ثبت أنه لا حاجة لأهل الكتاب -على الأقل- للإيمان بمحمد (ﷺ) والتوجه إلى دعوى القرآن الكريم، لأن القرآن إذا كان باطلاً فلا قيمة له، وإذا كان حقًا فهم غير ملزمين بالإيمان به، وبالتالي لا داعي أن يضيعوا أوقاتهم بالتوجه إلى دعوى القرآن الكريم.

(THE CORAN, BY WILLIAM MUIR P. 204-205)

ونردّ عليهم بالآيات التالية:

١- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف: ١٥٩)

٢- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(سبأ: ٢٩)

٣- ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(الأنعام: ٢٠)

ويرد المسيحيون على هذه الآيات بأن القرآن الكريم قد استعمل لفظ (الناس) في كل مكان بمعنى مشركي مكة، فالمراد من جميع الناس كلُّ أهل مكة لا كلُّ أهل الكتاب.

ومع أن قول المسيحيين هذا باطل، إلا أن الواقع أن المفسرين أنفسهم هم مَن قال بذلك، وقد وَقَر قولهم هذا في قلوب الكُتّاب المسيحيين حتى إن المستشرق "سيل" قد ترجم قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(البقرة:٢٢) هكذا: "يا أهل مكة اعبدوا ربّكم" (THE KORAN; BY SALE V. 1 P.4). فلم يبق لنا إلا

طريق طويل وهو أن نبطل هذه الفكرة مبرهنين على أن لفظ "الناس" في القرآن الكريم يشمل أهل الكتاب أيضا.

أما قوله تعالى ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ في سورة الأنعام، فيقول النصارى بشأنه بأنه يجب تفسيره على ضوء معنى الآيتين السابقتين، إذ المراد منه أهل مكة، أو الذين يولدون فيها فيما بعد.

واعلمْ أن هناك آيات أخرى تدعو أهلَ الكتاب إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وهي:

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:١١١)

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾(هود: ١٨)

﴿وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:٢١)

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:٩١)

يقول المسيحيون عن هذه الآيات وما يماثِلها أن كلمة ﴿الأحزاب﴾ قد وردت في القرآن بمعنى القبائل العربية، فلا يمكن أن يراد بها الناس كلهم. أما لفظ ﴿العالمين﴾ فيقولون إذا ورد هذا اللفظ في القرآن بمعنى السيدة مريم وغيرها من بني إسرائيل، فتعنون به بني إسرائيل فقط، وإذا جاز لكم تفسيره بمعنى بني إسرائيل فقط، فلماذا لا يراد بالعالمين القبائل العربية فقط؟ أما الآيات الأخرى فهي تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان بمحمد والقرآن، ولكن لا تفرض عليهم هذا الإيمان، وغاية ما يراد بها هو أن أهل الكتاب لو آمنوا بمحمد لكان أكثر خيرًا لهم، لكنهم لن يُعتبروا مجرمين إذا لم يؤمنوا به.

لا شك أن استدلال المسيحيين هذا ضعيف وباطل، ولكننا نضطر لسلوك طريق طويل لإقناعهم.

لقد كان هناك عاملان وراء عثرة المسيحيين وشبهاتهم حول الآيات القرآنية التي تعلن أن محمدا ﷺ رسول الله إلى الدنيا كلها وأن القرآن الكريم نزل لهداية العالم كله، أوّلُهما: أقوال بعض المفسرين الخاطئة، وثانيهما سوء فهم غير المسلمين وعدم

تدبرهم في الأمر، فنجدهم يقولون أن دعوة القرآن أهلَ الكتاب للإيمان به إنما هو حسنة إضافية وليس فرضًا واجبًا عليهم. والحق أن القرآن الكريم لم يفرض عليهم الإيمان به في هذه الآيات المذكور آنفًا فقط، بل قد أعلن صراحة -كما سنثبت لاحقًا- أن أهل الكتاب غارقون في الكفر، ولم يبقَ سبيل لنجاتهم إلا أن يؤمنوا بمحمد رسول الله ﷺ، ويدخلوا في أتباعه.

وبعد دراسة القرآن الكريم عندما نطالع كتب الحديث نجد فيها روايات تؤكد قطعيًا أن محمدا ﷺ رسول الله إلى العالم أجمع.

أولاً: عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: بُعِثْتُ إِلَى الناس كافةً.. الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ (مسند أحمد، مسند عبد الله بن العباس). وكذلك روى أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: "أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ." (مسند أحمد، أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما)

لا شك أن هذا الحديث يذكر لفظ "الناس"، ورغم أن المسيحيين يعنون بلفظ "الناس" في الآيات المذكورة أعلاه أهلَ مكة فقط وليس اليهود والنصارى، لكن النبي ﷺ قد ذكر هنا دليلاً لخصوصيته هذه فقال: (وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ)، وحيث إنه ﷺ استعمل لفظ "الناس" مقابل "القوم"، فلا بد أن يُراد بالناس هنا العالم كله؛ إذ كان أهلُ مكة قومَه، ولو كان "الناس" بمعنى أهل مكة فقط لم يبق للرسول ﷺ أي خصوصية، لأن الأنبياء السابقين بُعثوا إلى أقوامهم فقط، وإذا كان الرسول ﷺ أيضًا قد بُعث إلى قومه فحسب، فأي خصوصية له في ذلك؟ الواقع أن الرسول ﷺ يقارن هنا نفسه مع الأنبياء السابقين مبيِّنًا أن كل نبي قبله كان يُبعث إلى قومه فقط، أما هو ﷺ فقد بُعث للناس جميعا، مما يعني أنه يخبر أنه لم يبعث إلى قومه فقط، بل إلى الناس جميعا، ولأجل ذلك قال ﷺ: أُرسلتُ إلى الناس كلهم عامة.

وثانيا: قد أُطلِقَ في أحاديث أخرى لفظ "الناس" على غير المشركين أيضًا صراحةً، وهكذا ثبت من استعمال النبي ﷺ أنه لا يعني من الناس مشركي مكة، بل

غيرهم، فقد ورد في حديث "بدر" أن النبي ﷺ لما استشار أصحابه قام المهاجرون واحدا تلو الآخر وقدّموا له المشورة، ومع ذلك ظل النبي ﷺ يقول: "أشيروا عليَّ أيها الناس". فلما كرّر ﷺ قوله هذا قام سعد بن معاذ الأنصاري وقال: يا رسول الله، هل تعنينا وتريد منا أن ندلي برأينا؟ فقال النبي ﷺ: نعم. (السيرة لابن هشام: غزوة بدر الكبرى)

لقد تبيّنَ من ذلك أن شهادة الأحاديث أيضًا تؤكد أن لفظ "الناس" يراد به غير مشركي مكة أيضا، حيث استعمل النبي ﷺ لفظ الناس للأنصار.

أما الحديث الذي ذكر فيه خصوصيته فقد استعمل النبي ﷺ فيه كلمة الناس مقابل القوم خاصةً، مما يدل على أن "الناس" لا يعني هناك قوم الرسول ﷺ، بل الناس جميعا أينما كانوا في العالم.

وهناك حديث آخر عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُل الْجَنَّةَ. (مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه)

هناك خطأ في هذا الحديث، إذ يوهم ظاهرُه أن الأمة شيء واليهود والنصارى شيء آخر، والواقع أن الراوي قد أخطأ و لم يفهم قول النبي ﷺ، فزاد كلمة (أو يهودي أو نصراني)، وسببه أن الناس يظنون عادة أن الأمة معناها المؤمنون، وبسبب هذا المعنى الراسخ في أذهان القوم عادة ظنَّ الراوي أنه ربما لم يحفظ كلمات الرسول ﷺ جيدا، إذ كيف يمكن أن يعتبر النبيُّ ﷺ اليهود والنصارى من أمته؟ فأضاف الراوي من عنده هنا كلمة "أو". ولكن ظنه هذا خطأ، فهناك روايات في مسند أحمد نفسه تؤكد خطأه. والحقيقة أن كلمات الحديث كالآتي: "مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُل الْجَنَّةَ".

لو كانت كلمة (أمتي) بمعنى الأتباع فقط فكيف يمكن أن يكون بين أتباعه ﷺ مَن لم يسمع باسمه ﷺ؟ هذا خلاف للعقل. فكلمة (أمتي) هنا تبين أنه ﷺ لا يعني أتباعه، بل كل الذين تخاطبهم رسالته ﷺ.

وهناك رواية عن أبي موسى الأشعري توضّح هذا الخطأ الذي وقع فيه الراوي وتبيّن قصد الرسول ﷺ حيث قال: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (مسلم، كتاب الإيمان)

هذه الرواية أصحّ متنًا، لأنها لا تفرّق بين الأمة واليهود والنصارى، بل تعتبر اليهود والنصارى من الأمة، حيث يصرح الرسول ﷺ أن إيمان اليهود والنصارى به ليس مستحَبًّا فحسب، بل إنهم سيدخلون النار إن لم يؤمنوا به.

وهذا الحديث يؤكد أن الراوي قد أخطأ في الرواية السابقة حين أضاف من عنده كلمة (أو) فقال: "مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ".

وهناك رواية أخرى تؤيد هذه الكلمات، فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (مسند أحمد مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

هذا الحديث يبين صراحة أن اليهود والنصارى كلهم ضمن أمة الرسول ﷺ. فلفظ "الأمة" في ذلك الحديث لا يعني أتباع النبي ﷺ، بل كل مَن بَلَغَتْهم دعوته.

الحقيقة أن لفظ الأمة له مفهومان: أحدهما المؤمنون والأتباع، والثاني: كل الذين تكون رسالة النبي موجّهة إليهم، والذين لا بد لهم من الإيمان به، وإن لم يؤمنوا به عمليا. وهذا المفهوم الثاني هو المراد من الأمة هنا، كما وضح الحديث الأخير صراحة.

لقد ثبت من هذه الأحاديث أن إيمان اليهود والنصارى بالنبي ﷺ لم يكن مستحَبًّا أو محبّذًا فقط، بل كان فرضًا واجبا عليهم، وأن عدم إيمانهم به يجعلهم من أهل النار. ولكن الجكرالويين والمعتزلة والأحناف قد أنكروا هذه الأحاديث واستخفّوا بها، مما فتح للمسيحيين باب التشكيك في الأمر.

إن الأحاديث والآيات المذكورة أعلاه واضحةٌ في دلالتها للمؤمنين، ولكن لما كان من المقدّر أن يكون عدوّنا واسعَ الاطلاع على اختلافاتنا وأن يواجه الإسلامُ أممًا تدّعي أنهم نقّاد كبار، فكان لزامًا أن يذكر الله تعالى نصًّا صريحا في القرآن بهذا الشأن حتى لا يجد العدو أي فرصة للتهرب.

والآن وقبل أن أتناول تفسير هذه الآية أودّ أن أذكر أمرين عن الأحاديث المذكورة أعلاه:

الأول: أن قول النبي ﷺ "مَن سمع بي" لا يعني مجرد السماع، بل سماع الحجة، فليس المراد أن أحدًا لو علم بدعوى مؤسس الإسلام ولم يؤمن به فهو في النار، ذلك أن العقاب لا ينـــزل بدون إقامة الحجة القاطعة، وقد ورد في الأحاديث نفسها أن بعض الناس لا يُعاقَبون رغم سماع الأمر، فمثلا ورد فيها أن المجنون هو ممن رُفع عنه القلم فلن يعاقِبه الله على أفعاله الجنونية (البخاري: كتاب الطلاق)، مع أنه يسمع حتمًا. فثبت أن مجرد السماع لا يكفي للعقاب، وإلا لعوقب المجنون والمعتوه. وليس هذا الفرق إلا لأن المجنون يسمع، لكنه لا يعقل شيئا، لذلك فإن الذي سمع ذكر الرسول ﷺ دون أن تقام عليه الحجة، فلا يستحق العقاب، لأن العقاب يكون بعد إتمام الحجة وكشف الحقيقة على الإنسان، وما دام هذا الإنسان لم يعِ دعوى الرسول ﷺ فكيف يستحق العقاب؟

والأمر الثاني هو أن الثابت من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ قد فرَّق بين الكفر والعقوبة، وهذه قضية هامة ما زالت محلّ نـــزاع بين جماعتنا وبين "البيغاميين" منذ مدة طويلة. حيث يتساءلون: أكافر مَن لم يسمع بمؤسس الجماعة؟ فعندما نقول: نعمْ، هو كافر، يرفع هؤلاء عقيرتهم مثيرين ضجة بأن هذا ظلم عظيم، فكيف يمكن أن يُعتبر مَن لم يسمع حتى باسم مؤسس الجماعة مِن أهل النار. والحق أن هناك فرقًا بين الكافر وبين أهل النار. وقد بيّن النبي ﷺ هنا صراحة أن الكفر والعقوبة أمران مختلفان كليةً. إن كل مسلم سيقول إن من لم يسمع باسم النبي ﷺ هو كافر، ولا أظن أن هناك فرقة واحدة في المسلمين تختلف في هذا الأمر، فتعتبر الذين لم يسمعوا باسم النبي ﷺ مؤمنين. فباستثناء الشريحة القليلة التي لا تستحق الاهتمام

والتي لا تعتبر أهل الكتاب كافرين، فإن جمهور المسلمين يقولون بشكل قاطع إن في الدنيا فريقين: مسلم وكافر. فما هو قول جمهور المسلمين هؤلاء عن المسيحيين أو اليهود أو الهندوس أو الزرادشتيين أو أتباع ديانةِ "الشانتو" اليابانية أو أتباع الديانة الكونفوشيوسية الصينية الذين لم يسمعوا باسم الرسول ﷺ؟ فهل يسمّوهم مسلمين؟ من البديهي أنه لا يُدعى مسلمًا إلا مَن قال لا اله إلا الله وآمن برسول الله ﷺ حقًا أو في الظاهر. فما دام هذا هو التعريف البسيط للمسلم فمن الواضح أن الذين لم يشهدوا ألا إله إلا الله ولم يُوَفَّقوا للإيمان بمحمد رسول الله ﷺ فإنهم يُدْعون كفارًا في كل حال. ومع ذلك يصرح الرسول ﷺ هنا أنهم لا يعاقَبون رغم كفرهم، وإنما يعاقَب مَن سمع به ﷺ.. أي مَن بلغته دعوته ﷺ وأقيمت الحجة عليه ومع ذلك ظلّ على كفره ولم يُرِدْ أن يدخل في الإسلام ويؤمن بمحمد ﷺ.

لقد تبين من ذلك أن الرسول ﷺ قد أعلن حتى عن نفسه -ناهيك عن الأنبياء الآخرين- أن عدم إيمان المرء به لا يجعله من أهل النار -شريطة أن لا تكون الحجة قد أقيمت عليه- غير أنه يجعله كافرًا حتمًا، وإن كان يعيش في أي بقعة من بقاع الأرض، وإن لم يسمع باسمه ﷺ قط، إنه كافر حتما، ولكنه لن يُعاقَب إلا بعد إتمام الحجة. وكأن هذه القاعدة التي بيّنها الرسول ﷺ إنما تخصّ العقوبة لا الكفر. لقد فرّق ﷺ بين الأمرين معتبرًا الكفر والعقاب شيئين مختلفين.

وهذه بالضبط هي عقيدتنا عن المسيح الموعود عليه السلام. فالذي لم يسمع باسمه هو كافر، ولكنا لا نعتبره من أهل النار؛ إذ يمكن أن يختبره الله تعالى في الآخرة فيغفر له بناءً على إيمانه الفطري. إننا لا نستطيع الجزم بصدد عقابه، لكننا مضطرون لاعتباره كافرًا لأن الإسلام يذكر اصطلاحين فقط: مؤمن وكافر، فالذي آمن بنبي فهو مؤمن، ومن لم يؤمن به فهو كافر، سواء كان عدم إيمانه بسبب عدم علمه بالأمر، أو بسبب شرّه. إذا كان عدم إيمانه بنبي بسبب عدم علمه فهو كافر، لكنه ليس من أهل النار، وإذا كان كفره بنبي بسبب شرّه، فهو كافر ومن أهل النار.

الأسف أن "البيغاميين" في هذه الأيام يَضلّون لعدم فهم هذه الحقيقة، فالحق أنهم حين يهاجمونني فإنما يهاجمون الرسول ﷺ، فهو الذي قد بيّن هذا الفرق بين الكفر

والعقاب، ففي أحاديث كثيرة قد فرّق ﷺ بين كفر المرء وبين أن يكون من أهل النار. والظاهر أنه ليس أمام "البيغاميين" إلا طريقان اثنان: فإما أن يقولوا أن الذي لم يسمع باسم النبي ﷺ فهو مسلم وليس كافرا، ولو قالوا ذلك انتهى النـــزاع بيننا وبينهم، فنحن أيضا سنقول -تبعًا لاصطلاحهم هذا- أن الذي لم يسمع باسم مؤسس الأحمدية فهو مسلم وليس بكافر، وفي هذه الحالة سوف يخترعون اصطلاحا جديدا ولا حرج في ذلك، لأننا أيضا عند الكلام معهم سوف نسلّم باصطلاحهم هذا دفعًا للشر. أما الطريق الثاني فهو أن يقولوا أن الكفر والعقاب ليسا متلازمين، فإن المرء يمكن أن يسمى كافرا ولكنه لا يستحق العقاب بالضرورة، وفي هذه الحالة أيضا ينتهي النـــزاع بيننا وبينهم.

بعد هذا التمهيد أودّ أن أبيّن أن الآية قيد التفسير ردٌّ على الذين لا يعتبرون أهل الكتاب كافرين، وكذلك على الذين يظنون أن لا حاجة بأهل الكتاب لأن يؤمنوا برسول الله ﷺ بحسب القرآن الكريم. فقد صرّح الله تعالى هنا أن إيمان أهل الكتاب والمشركين بمحمد ﷺ ضروري، حيث اعتبر الطائفتين كافرتين هنا، وبيّن أن الإسلام -أي قبول دين الحق- موقوف على الإيمان بمحمد ﷺ.

أما قولي بأن هذه الآية ردٌّ على الذين لا يرون ضرورة إيمان أهل الكتاب بالرسول ﷺ بحسب القرآن، فأقصد به الكُتّاب المسيحيين، إذ ليس هدفهم من قولهم هذا إلا أن يثبتوا أن لا ضرورة للقرآن الكريم، وأنه ليس بكتاب يجب على أهل الكتاب أن يؤمنوا به، بل يكفيهم إيمانهم بالتوراة والإنجيل. وأما قولي بأن هذه الآية ردٌّ على الذين يزعمون أن القرآن لا يعتبر أهل الكتاب كافرين، فأعني به بعض المعتزلة الذين يعتبرون أهل الكتاب فريقًا ثالثًا إلى جانب المسلمين والمشركين، وكذلك أقصد به بعض المسلمين ذوي الأفكارِ شِبْهِ الإلحاديةِ الذين يقولون أن القرآن لم يعتبر أهل الكتاب كافرين، والحق أنهم لا يقولون ذلك إلا خوفًا من مطاعن المستشرقين الغربيين المسيحيين لكي لا ينـــزعجوا فيثيروا مطاعن أخرى على القرآن الكريم.

باختصار، تدحض هذه الآية أفكار هاتين الفئتين وتبين بوضوح أنه لا بد لأهل الكتاب والمشركين من الإيمان بالرسول ﷺ، إذ يقول الله تعالى هنا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.. أي لم يكن بوسع الكافرين -سواء أكانوا من أهل الكتاب أو من المشركين- أن ينفكّوا عن كفرهم ما لم تأتِهم البينة. وقد ذكرنا لدى شرح الكلمات أن الانفكاك يعني الانفصال، فالمنفكين يعني المنفصلين المبتعدين. والسؤال هنا: ما هو الشيء الذي يخبر الله تعالى أن انفصالهم عنه كان محالا قبل أن تأتيهم البينة؟ الجواب إنه الكفر المذكور في الآية.. بمعنى أن الكفار من أهل الكتاب والكفار من المشركين ما كانوا ليتركوا الكفر ويتحرروا منه ما لم يُبعث محمد ﷺ.

وهذا يعني أن الله تعالى يعلن هنا صراحة أن الطائفتين.. أي أهل الكتاب والمشركين.. كلتيهما كفار، وأنه بعد بعثة محمد رسول الله لن يكون مقبولا عند الله أو قائما على الدين الحق إلا الذي يؤمن به ﷺ.

واعلمْ أن "مِن" الواردة في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تفيد معاني عدة منها: البيان وابتداء الغاية والتبعيض. وحيث إنها تفيد التبعيض فقد يقول أحد أن "مِن" هنا تبعيضية، بمعنى أن الحديث هنا عن بعض أهل الكتاب والمشركين الذين كانوا كفارًا.. أي ليس كل أهل الكتاب بكافرين، بل بعضهم كافر وبعضهم ليس بكافر.

والجواب: أنه إذا كان مفهوم اعتبار لفظِ "مِن" تبعيضيًا هو أن الحديث هنا عن الذين لم يُسلموا من أهل الكتاب والمشركين، فهذا مفهوم صحيح عندنا.. أي أن الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب هم كفار، وأن الذين لم يؤمنوا من المشركين هم كفار. أما لو قيل أن كون "من" تبعيضية هنا يعني أن الذين لم يسلموا من أهل الكتاب بعضهم كفار وبعضهم ليسوا بكفار، فهذا القول باطل بداهةً، لأن لفظ "المشركين" قد ورد هنا معطوفًا على "أهل الكتاب". فلو كانت العبارة هكذا: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكونَ"، لكان المراد أن "مِن" متعلق بــ "أهل الكتاب" وليس بــ "المشركون"، لكن الله تعالى قال هنا "والمشركين" ولم

يقل "والمشركون"، مما يعني أن أهل الكتاب والمشركين سواسيةٌ في هذا الحُكم. فثبت أنه لو قيل أن المراد أن الذين لم يسلموا من أهل الكتاب بعضهم مؤمن وبعضهم كافر، للزم القول أيضا أن الذين لم يسلموا من المشركين بعدُ بعضهم مؤمن وبعضهم كافر، وهذا باطل بداهةً، فإن المسيحيين -رغم عدائهم الشديد للإسلام- أيضًا يعترفون أن جميع غير أهل الكتاب -بدون استثناء- مشركون كافرون بحسب القرآن الكريم. فثبت أن اعتبار "مِن" هنا تبعيضية قول باطل، إنما هي بيانية، وتقدير الآية كالآتي: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا -الذين هم أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكون- مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ." فلأن لفظ "المشركين" مجرور في الآية فهو معطوف على "أهل الكتاب" لا على "الذين"، إذ لو كان معطوفا على "الذين" لكان مرفوعًا، لذا من المحال أن تُفسَّر الآية بأن بعض أهل الكتاب كافر وبعضهم ليس بكافر، بل المعنى الحتمي هو: أن الكفار، سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين، كلهم كافرون، ولا يمكن أن ينجو من هذا الكفر إلا إذا آمنوا بالرسول الذي جاءهم.

باختصار، لفظ "كفروا" يشمل الطائفتين أهلَ الكتاب والمشركين كلتيهما. وكما ذكرتُ سلفًا أن من اصطلاح القرآن الكريم أنه يعني من أهل الكتاب والمشركين كلَّ العالم غيرَ الإسلامي، فقد ذكرتُ آنفا أنه لا يوجد في العالم -علاوة على المسلمين- إلا فريقان؛ إما أهل الكتاب أو المشركون، فالمراد من أهل الكتاب والمشركين بحسب اصطلاح القرآن كل العالم غير الإسلامي، ومفهوم الآية هو: من المحال أن يخرج أحدٌ من الكفار - أي من غير المسلمين - مِن كفره حتى يؤمن بمحمد ﷺ.

ومن أمثلة "مِن" البيانية في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾(الحج:٣١)، إذ ليس المراد هنا أن بعض الأوثان رجس وبعضها ليس برجس، بل المعنى: اجتنبوا عبادة الأوثان. وحيث إن "مِن" في آيتنا قيد التفسير أيضا بيانية، وقد وردت حالاً، فتقدير الآية كالآتي: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بمن فيهم جميع أَهْلِ الْكِتَابِ وَجميع الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ." وهناك قراءة أخرى لهذه

الآية توضح معناها أكثر، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وهي: "لَمْ يَكُنِ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكون مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ" (فتح البيان). فقد أكدت هذه القراءة أيضا أن "مِن" هنا لا يمكن أن تُعتبر تبعيضية، بالإضافة إلى أن صياغة العبارة تؤكد ذلك، حيث ورد لفظ "المشركين" معطوفًا على "أهل الكتاب".

وهناك أمر هام آخر قد بينه الله تعالى هنا ويمكن أن ينفعنا كثيرا في النقاش الدائر في هذا العصر، وهو: أن الكفر يكون أولاً، ثم يُبعَث نبيّ. وهذا أمر ينكشف على المرء بأدنى تدبر في هذه الآية إذ يقول الله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.. أي ما كان الكافرون -سواء أكانوا من أهل الكتاب أو المشركين- أن يتخلّوْا عن كفرهم ما لم تأهم البيّنة. فالمذكور قبل "حتى" يسبقه زمنًا في الوقوع، فمثلا إذا قلتُ: لن يخرج فلان من بيته حتى تبلغه رسالتي، فالمعنى أنه يكون جالسًا في بيته قبل أن تبلغه رسالتي. لقد تبين من ذلك أن هؤلاء أصبحوا كافرين قبل أن تأتيهم البينة. لم تجعلهم البينةُ -أي الرسول ﷺ- كافرين، بل كانوا كافرين قبل ذلك. إذن، فثبت أن الكفر يكون أولاً، ثم يأتي النبي، وأن النبي لا يجعل الناس كافرين إنما يُظهر ما فيهم من الكفر.

عندما يُبعَث نبي في الدنيا لا يصبح الناس كفارًا ببعثته، بل الواقع أهم يكونون كافرين قبلها، كل ما يفعله النبي أنه يكشف الكفر الذي هم فيه. فمِن الخطأ القول أن الناس يصبحون كافرين بإنكار نبي. هذا التعبير غير دقيق وغير محتاط، وإن كنا نستعمله في حديثنا اليومي تبعًا للتعابير اللغوية، وقد استعمله المسيح الموعود عليه السلام بحسب المعتاد، ولكننا لا نعني نحن ولا المسيح الموعود عليه السلام أن النبي هو الذي يجعل أحدًا كافرا، وإنما نقصده -وكذلك حضرتُه عليه السلام- أن النبي يُظهر كفر الناس، وإن جاز القول بحسب العرف العام أن الناس يصبحون كافرين بإنكاره.

باختصار، إن النبي لا يجعل أحدا كافرا، ولا يصبح الناس كافرين بإنكاره، إنما الواقع أن كفرهم ينكشف بإنكاره. ومثاله أن هناك شخصًا لم ير الشمام إطلاقا، لكنه يدّعي أنه أكله، ولا شك أن قوله كذب صريح، لكن كذبه لن ينكشف ما لم نضع أمامه شمامًا ونسأله: ما هذا الثمر؟ فيقول حتمًا: لا أعلم، وهكذا يتضح لنا

كذبه في قوله أنه قد أكل الشمام. فرغم انكشاف كذبه عند وضع الشمام أمامه لن نقول إن الشمام جعله كاذبًا، كلا، بل نقول إن الشمام قد كشف كذبه، وإلا فإنه كان كاذبًا من قبل.

وبالمثل يقول الناس: نحن نؤمن بموسى أو بعيسى. فما هو المراد من قولهم هذا يا ترى؟ هل يعنون أن موسى وعيسى كانا إنسانين؟ كلا، فهذا معروف للجميع، إنما يعنون أننا نعرف صدق نبوتهما. وما دامت عندهم الكفاءة لمعرفة صدق الأنبياء السابقين، فمن اللازم أن يعرفوا فورا صدق نبي يظهر في الدنيا، لأن الشخص الذي يقدر على معرفة فرد من جنسٍ من الأجناس فإنه يقدر على معرفة فرد آخر من نفس الجنس، فمثلاً مَن يعرف المانجو سيقول من فوره إذا وضعت هذه الثمرة أمامه: إنها مانجو ولن يقول إنها بطيخ، وإذا كان يعرف البطيخ فسيقول بدون صعوبة إذا وضعت أمامه بطيخا: إنه بطيخ. كذلك من يعرف النبوة لن يجد صعوبة في معرفة أي نبي، بل إذا جاء نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو نبينا محمد ﷺ قال في كل مرة: إني أعرفه؛ إنه نبي الله الحق. ولكن إذا كان لا يعرف أيًّا من هؤلاء الأنبياء حقيقةً ولا يعرف نبوتهم وإنما يدّعي ذلك كذبًا بلسانه فقط، فإذا جاء أمامه محمد ﷺ مثلاً في زي النبوة سيقول إنه كاذب - والعياذ بالله - فعندها ينكشف لنا أن هذا كان كاذبًا في ادعائه أنه يعرف نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى، وإلا فكيف لم يعرف محمدا ﷺ وقد جاء إليه في نفس الزيّ الذي جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؟ إن حرمانه من معرفة محمد ﷺ دليلٌ على أنه لم يعرف حقيقة الأنبياء السابقين أيضا، بل كان قوله إني أعرف نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى خِداعًا منه، إذ لم يعرف نفس النبوة عندما ظهرت أمامه في شكل النبي ﷺ.

إذن، إن هذه الآية تبين لنا أن النبي لا يجعل الناس كافرين، وإنما يُظهر ما عندهم من الكفر، إذ كانوا كافرين سلفا. وبعد فهم هذه الحقيقة كم هو عبثٌ نقاشُ الناس بأن إنكار فلان من الأنبياء كفر، وإنكار فلان من الأنبياء ليس بكفر، مع أن الكفر لا يتولد بإنكار نبي، بل يكون قد تولد في قلوب الناس قبل بعثته. الكفر ليس

اسمًا لإنكار نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى -عليهم السلام- إنما هو اسم لإنكار النبوة. إن قولنا أن إنكار موسى أو عيسى أو أي نبي آخر كفرٌ إنما هو على سبيل الاصطلاح فقط، ذلك أن موسى نبي، وإنكاره مرادف لإنكار النبوة نفسها، ولذلك إنكاره يعتبر كفرًا، وإلا فإن إنكار موسى أو عيسى أو محمد العربي بصفتهم أناسًا ليس بكفر، بل إن إنكار موسى النبي أو عيسى النبي أو محمد النبي هو الكفر. وهذا الكفر لا يعني أنه أنكر شخصا، بل يعني أنه أنكر نبوة جميع الأنبياء، إذ لو أنه عرف نبوة نبي واحد حق المعرفة، لما أنكر وكذّب شخصًا آخر إذا جاءه بنفس زيّ النبوة. إن الذي يعرف النبوة يعرف فورا كلَّ مَن يأتي أمامه بزي النبوة، لكن الذي لا يعرف ما هي النبوة، فعندما يأتي أمامه أحد بزي النبوة فإنه يكفِّره بدلاً من أن يؤمن به، وهكذا يؤكد أنه كان كاذبًا وأن ادعاءه بأنه يؤمن بنبوة الأنبياء السابقين كان خِداعًا فحسب. إذا كان يدعي أنه يؤمن بموسى وعيسى، ثم يكفر بمحمد ﷺ إذا جاءه بنفس زي موسى وعيسى، فهذا دليل واضح أنه لم يعرف نبوة موسى ولا عيسى، كل ما في الأمر أنّ آباءه كانوا يقولون أن موسى نبيّ، فآمنَ بنبوته، وأن عيسى نبي، فآمن بنبوته، لكن الحقيقة أنه لم يؤمن بموسى ولا عيسى ولا بأي نبي آخر.

فثبت أن الكفر إنكار للنبوة نفسها، وليس إنكارًا لزيد أو بكر أو عمرو. فلأن الذي يأتي من عند الله تعالى يأتي بنفس زيّ الأنبياء السابقين، فإذا أنكره الناس فقد أنكروا النبوة نفسها ولا يقال إنهم أنكروا مجرد شخص واحد. والآن يمكن لهؤلاء أن يسمّوا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بأي اسم، إلا أن الواقع أنه قد عرض على الناس ما عرضه الرسول ﷺ عليهم، وقد لاقى منهم ما لاقاه محمد رسول الله أو غيره من الأنبياء من الناس. هذه حقيقة ساطعة لا يمكن للبيغاميين أيضًا إنكارها؛ فإن المولوي محمد علي نفسه قد كتب أن على الناس أن يتدبروا في صدق مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بالنظر إلى منهاج النبوة (مجلة "ريويو آف ريليجنز" الأردية، مجلد ٧، عدد يونيو يوليو ١٩٠٨ ص ٢٩٢ و٢٩٧)، مما يعني أنه عليه السلام عرض على الناس ما عرضه النبي ﷺ أو موسى أو عيسى، وأنه لقي من الناس ما

لقيه الأنبياء الذين خلوا من قبل، وإذا كان هذا حقًا، فالذي يكفِّر مؤسسَ الأحمدية الطَّيْلا بسبب أنه قد عرض على الناس نفس ما عرضه محمد أو موسى أو عيسى عليهم، فإنه يكفِّر محمدا وموسى وعيسى أيضا في الحقيقة. فثبت أن القول أن إنكار النبي الفلاني يجعل الإنسان كافرا وإنكار النبي الفلاني لا يجعله كافرا قولٌ باطل لا منطق فيه. إن النبي إنما يكشف كفر الكافر، ولا يجعل أحدا كافرا حتى يقال أن إنكار نبي من هذا النوع كفر وإنكار نبي من ذلك النوع ليس بكفر. فإما أن يقال أن نبيًا من نوع كذا يأتي عندما يكون الناس مؤمنين، ونبيًا من نوع كذا يأتي عندما يكونون كافرين، وهذا القول باطل بداهة. فالحق أنه بعد فهم قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لا يبقى هناك مجال للنقاش حول كفر الناس وإسلامهم، لأن هذه الآية تبين أن الناس يكونون كافرين أولاً، ثم يبعث الله مأموره من عنده. أما إذا كان الواقع عكس ذلك عند "البيغاميين" فنحن نطالبهم أن يثبتوا لنا أن الأنبياء من نوع كذا يُبعثون عندما يكون الناس مؤمنين ومن نوع كذا يُبعثون عندما يكونون كافرين. ولكني أرى أنهم لن يجرؤوا على ذلك. إذن، فالذين يثيرون ضجة بأن مؤسس الأحمدية قد جعل الملايين كفارًا إنما يدلّون على جهلهم بتعاليم القرآن الكريم الذي أعلن أن الكافرين سواء من أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ما كانوا ليتخلوا عن كفرهم حَتَّى يأْتِيَهُمُ البيّنة أي الرسول. مما يعني أن النبي لا يجعل أحدا كافرا، وإنما يُبعَث حين يكون الناس كافرين. وإذا كانوا يريدون نقاشنا فعليهم أولاً أن يثبتوا أن نبيًا من نوع كذا يُبعث حين يكون الناس مؤمنين، ونبي من نوع كذا يبعث حين يكونون كافرين، وهو أمر باطل بداهةً كما بينتُ آنفا.

وهنا لا بد من الرد على سؤال ينشأ حول قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وهو: هل ترك أهل الكتاب والمشركون الكفر بعد أن أتتْهم البيّنة؟ أو هل نجا أهل الكتاب والمشركون بسبب مجيء القرآن الكريم؟

الجواب أن نصّ هذه الآية لا يدل على أن كل أهل الكتاب وكل المشركين سيؤمنون بمحمد ﷺ، بل المراد أنه ما كان بإمكان أي واحد من أهل الكتاب والمشركين أن يكون مؤمنًا حتى يُبعَث محمد ﷺ. فليس مفهوم الآية أن أهل الكتاب والمشركين سيُسلِمون جميعًا إذا جاءهم محمد، بل المراد أنه من المحال أن يكون واحد بالمئة منهم على الحق ما لم يأتهم البيّنةُ، أي رسولُ الله. فالحق أن الاعتراض بأن اليهود أو النصارى أو المشركين لا يزالون موجودين حتى اليوم ولم يؤمنوا بمحمد رغم مجيئه يماثل الاعتراضَ الذي كان يثيره المولوي ثناء الله الأمرتسري ضدنا قائلا: ما الفائدة من مجيء مؤسس الأحمدية ونحن نرى أن النصارى واليهود والهندوس والسيخ وغير الأحمديين كلهم موجودون؟

والحق أن بعثة نبي لا تعني أن الناس كلهم سيؤمنون به ولن يبقى شخص على كفره وشركه. إن بعثةَ نبي إنما تعني أنه يفتح طريق الفوز بحب الله ورضاه وقربه، ويهيئ الفرص للنجاة من الشيطان، فلو آمن به شخص واحد أو عشرة فلا يصحّ القول ما الفائدة من بعثته ما دام مئات الآلاف لا يزالون على كفرهم وشركهم؟ إن فائدة مجيء النبي أنه يفتح للناس باب قرب الله الذي إذا لم يفتحْه استحال أن يصبح شخص واحد مسلما ويحظى بقرب الله وحبّه تعالى. فالحق أن من قال: لماذا لا يزال الكفر موجودا رغم بعثة محمد ﷺ، إنما يدل على جهله بالحقيقة وبحِكَم الله تعالى وسُنَنه. لقد أُثير هذا الاعتراض ضد كل نبيّ، وسيظل يثار ضد كل مصلح إلى يوم القيامة؛ إذْ لم يُبعث مصلح رباني آمن به الناس جميعا، أو لم يكن منكروه غالبين في أول الأمر. الحق أن أعداء كل نبيّ يظلون غالبين لفترة تطول أو تقصر بحسب الظروف، ثم يأتي بعد ذلك وقت يصبح النبي فيه من الغالبين. ولا يحدث أبدا أن ينقرض منكروه من العالم كليةً، بل الواقع أن أتباعه أنفسهم يصبحون من المنكِرين في كثير من الأحيان، أعني أنه عندما تنتهي فترة إفاضة بركات النبي أو تستحقّ التجديد فإن أتباعه رغم انتمائهم إليه في الظاهر، يتبعون خطوات أعدائه إيمانا وعقيدة، وبتعبير آخر إن الشيطان والملائكة يسيطرون على أتباعه في وقت واحد، أي أن الملائكة تتحكم بألسنة أتباعه، أما الشيطان فيتحكم بقلوبهم، فتثور

غيرةُ الله مرة أخرى فيبعث نبيًّا بشرع جديد أو بدون شرع، فيحيي الله على يده روح الشريعة، ويفتح لعباده الطريق للتقدم الروحاني ثانية، ولم لا، فهو الرحمن الرحيم.

والجواب الثاني: رغم أن الناس لا يدخلون ١٠٠% في الجماعات الربانية، إلا أنه من الحقائق التي لا يسع أحدًا إنكارها أن رسول الله ﷺ قد فتح طريق الايمان فتحًا رائعًا حتى آمن به ﷺ ملايين الملايين من أهل الكتاب والمشركين ونجوا من كفرهم. فإن أهل الكتاب من مصر وفلسطين والشام أسلموا كلهم تقريبًا. وكذلك دخل نصارى الجزيرة العربية كلهم تقريبا في الإسلام. أما أهل الكتاب الآخرون★ من مجوس وغيرهم فأيضا دخلوا كلهم تقريبا في الإسلام إذ أسلم منهم ما بين ٩٥-٩٦%. كما أسلمَ الملايين من أهل الكتاب من الهند والصين. إن عدد المسلمين في الهند يبلغ مئة مليون، فإذا قلنا أن عُشْرهم قد جاءوا من الخارج فهذا يعني أن تسعين مليونا منهم أسلموا من أهل الكتاب. كما يوجد في الصين حوالي ثمانين مليون مسلم، ولعله لا يوجد بينهم إلا مليون فقط ممن جاءوا من العرب، أما الباقون فكلهم كانوا من أتباع كونفوشيوس.

باختصار، إن الملايين من أهل الكتاب قد آمنوا بالرسول ﷺ ونجوا من الكفر. فالاعتراض: "ما الفائدة من بعثة محمد، فهل آمنَ به جميع أهل الكتاب" هو ضعيف تاريخيا؛ فرسولنا ﷺ لم يفتح طريق الإيمان لاثنين أو ثلاثة من أهل الكتاب، بل آمن به الملايين منهم. أما المشركون، فجميع مشركي الجزيرة العربية دخلوا في الإسلام. كما أثّر التوحيد الذي جاء به الإسلام في البلاد الأخرى حتى تخلَّى أهلها المشركون عن الشرك والوثنية بأنفسهم. فلا يوجد اليوم المشركون حقيقةً إلا في الهند أو في القبائل الإفريقية، أما باقي المشركين فكلهم خرجوا من زمرة المشركين ودخلوا في زمرة أهل الكتاب. إن أول مَن تخاطبهم هذه الآية هم الأُمة العربية، وقد قلت إنهم

★ قد استخدم المفسر رضي الله عنه تعبير "أهل الكتاب الآخرون" بالمعنى الأوسع.. أي أهل الديانات الأخرى من مجوس وهندوس وغيرهم.. ممن يؤمنون بنـــزول وحي الله إلى مؤسسيها. (المترجم)

أسلموا جميعا، وهي ثورة عظيمة لم يُحدِثْها أي كتاب سماوي في العالم من قبل. أما الذين لا يزالون محرومين من الإيمان بمحمد ﷺ فهناك نبوءة بشأنهم في القرآن الكريم، ولكن ليس في هذه السورة بل في السورة التي تلتها.

وأرى لزامًا أن أذكر هنا أن المستشرقيْن "سَيل" و"وَيري" قد ترجما لفظ ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ الوارد في الآية قيد التفسير ترجمةً خاطئة، فقالا إن معناه: "لم يَنْتَهوا"، أيْ أن اليهود والنصارى الذين كانوا يأملون بمجيء نبي لم يتخلّوا عن هذا الأمل إلى أن جاءهم الرسول، بمعنى أنه حين جاء الرسول الذي كانوا يتوقّعون مجيئه، قالوا: لم نكن نتوقع مجيء أي رسول". (تفسير القرآن لِـ"ويري" المجلد ٤ ص ٢٦٦، و (THE KORAN BY SALE; V.1 P. 949

مع أن هذا ليس هو مقصود الآية، لأن الموضوع الأول (لمن يكن... منفكين) هنا مرتبط بالموضوع الثاني (حتى تأتيهم البينة)، أي لا يمكن أن تزول الحالة الأولى ما لم تقع الحالة الثانية، ولكن المعنى الذي يذكرونه لا يجعل الحالتين شرطًا ومشروطًا بل هو أقرب إلى كونه بيانًا لحادث. فلا يمكن استنتاج المعنى القائل: "لم ينتهوا".. أي لم يتخلوا عن الأمل بمجيء الرسول إلى أن جاءهم، لأن المعنى الذي يستمدّونه بيان لحادث فقط ولا يفيد مفهوم الشرط والمشروط كما يقتضي هذا الأسلوب اللغوي.

ومما يحيّرني أن بعض المفسرين القدامى أيضًا قد ذكروا هذا المعنى رغم كونهم من كبار العلماء بالعربية. غير أنهم بأنفسهم شكّوا في صحة ما قالوا وفكّروا أنّه إذا كان المراد من هذه الآية أن أهل الكتاب لم ينتهوا عن إظهار عقيدتهم المتعلقة بظهور رسول إلى أن جاءهم فعلاً، فهل كان المشركون أيضا ينتظرون رسولا، حيث ذكر الله تعالى هنا المشركين أيضًا مع أهل الكتاب؟ ثم ردّ هؤلاء المفسرون على هذه الإشكالية قائلين: نعم، كان "بعض" المشركين يتوقعون بعثة رسول متأثرين بعقيدة أهل الكتاب.

والحق أن نص الآية لا يحتمل معنى "البعض"، إذ تذكر مع أهل الكتاب جميع المشركين، لا بعضهم، ومحتوى الآية هو أن جميع أهل الكتاب وجميع المشركين ما

كانوا لينتهوا، فلا يصح القول إنها تتحدث عن بعض المشركين دون بعضهم. وعليه فإن مفهومهم للآية أن الكفار والمشركين لم ينتهوا عن إعلانهم عن بعثة موعود حتى أتاهم، يعني أن جميع المشركين كانوا يتوقعون بعثة رسول، وهذا باطل بداهةً؛ إذ كان بين المشركين من ينكر نـــزول الوحي أصلاً، دعْك أن ينتظروا بعثة نبي من عند الله تعالى.

ثم إذا كان صحيحًا ما ذهبوا إليه من معنى الآية أنهم لم ينتهوا عن أملهم ببعثة رسول حتى أتاهم، فما هو المراد في هذه الحالة من قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾؟ إذ تعني هذه الجملة أنهم ما كانوا ليتخلّوا عن موقفهم من دون أن يأتيهم هذا الرسول، بينما القول بأنهم قالوا عند مجيء هذا الرسول أنهم لم يكونوا ينتظرون أي رسول ولم يكونوا يأملون ببعثة أي مأمور، فليس فيه أي معنى لعدم التخلي عن الموقف، لأن أي واحد يمكن أن ينكر بعثة نبي بإرادته.

ولا يغيبن عن البال أن كلمات الآية بهذا الأسلوب البلاغي توضح أن مشيئة الله تريد أن يتغير الأمر الأول، لأن التعبير: "لم يكن فاعلاً حتى..." يشير إلى رغبة القائل في حدوث ذلك، أما المعنى الذي ذهب إليه المفسرون لا يفيد رضا الله بل عدمه. إذ من المحال القولُ إن الله كان يريد منهم أن يتخلوا عن انتظار الرسول، فهذا يؤدي إلى ضلالهم، والله تعالى لا يحب أن يضل أحد.

لو تدبرنا في تعابير مماثلة في لغتنا لانكشفت الحقيقة، فمثلا لو قال المرء: إن هذا الولد ما كان ليتعلّم ما لم يُستأجر له أستاذٌ خصوصيٌ، فلا شك أنه يعني أنه تعلّم فعلاً بعد استئجار المعلم الخصوصي، كما يشير هذا القول إلى أمنية القائل أيضا، أي أنه أيضًا يريد أن يتعلم هذا الولد، وليس أنه لا يحب تعلّمه.

وعلى ضوء هذا المثال يمكن أن نتدبر المعنى الذي يذكره المفسرون، حيث ستعني هذه الآية حسب تفكيرهم: أنهم لم يتخلوا عن فكرة انتظار بعثة رسول إلا بعد مجيئه فقط. والظاهر أن قائل هذه العبارة يريدهم أن يتخلوا عن انتظار مجيء الرسول، ونسبةُ مثل هذه الفكرة إلى الله تعالى إساءة كبيرة.

قال الواحدي: "ومعنى الآية إخبارُ الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم" (فتح البيان). ثم انتابته شبهة بأن هذه الآية تتحدث عن جميع أهل الكتاب وجميع المشركين فقال إنها تتحدث عن الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين. أي أن الكافرين من أهل الكتاب والكافرين من المشركين لم ينتهوا، أي لم يصرّوا على كفرهم، بل آمنوا. مع أنه قد وردت هنا كلمة ﴿كفروا﴾ بوضوح، لو كان ما ذهب إليه الواحدي صحيحًا لكان ينبغي أن يقال أن بعضًا من أهل الكتاب والمشركين آمنوا بدون إضافة كلمة: ﴿الذين كفروا﴾.

ثم يقول الواحدي: "وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظمًا وتفسيرا، وقد تخبّطَ فيها الكبار من العلماء، وسلكوا في تفسيرها طرقا لا تفضي بهم إلى الصواب" (فتح البيان).

ولا شك أن الواحدي قد أصاب في قوله إن بعض العلماء قد وقعوا في أخطاء في تفسير هذه الآية، بمعنى أنهم فسّروها بما لا تفسَّر به كقولهم: إن اليهود لم يتخلوا عن انتظار نبي حتى جاءهم، ومع ذلك من الخطأ ادعاءُ الواحدي أنه قد أصاب في فهم الآية، لأن المعنى الذي ذكره ليس صحيحا، لأن جملة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾ لا تعني قط أنهم لم يرتدعوا، بل معناه: ما كانوا ليرتدعوا.

على أية حال، إن المفسرين قد واجهوا المشاكل في فهم هذه الآية، لكنها من صنع أيديهم في الواقع، إذ لم يفكّروا في المعنى الحقيقي لكلمة ﴿منفكّين﴾. لو أنهم فسّروا الآية بناء على سياقها لسهل الأمر عليهم، لأن كلمة ﴿كفروا﴾ مذكورة في بداية الآية، فكلمة ﴿منفكين﴾ تشير إلى كفرهم، أي أنهم ما كانوا منفكين عن كفرهم. فلو اعتبروا "عن كفرهم" محذوفا هنا لما عانوا في بيان تفسير الآية، بل لتجلى لهم المعنى وانكشف.

رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

مُطَهَّرَة: طَهَّرَهَ جعَله طاهرا، ومنه التطهير للخِتان. وطهَّر الشيءَ بالماء: غسَله (الأقرب).

وفي المفردات: "الطهارة ضربانِ: طهارةُ جسمٍ وطهارةُ نفسٍ، وحُمل عليها عامة الآيات."

ثم يقول: "وقوله في صفة القرآن ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾(عبس: ١٥) وقوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر:٥) قيل: معناه نفسَك فنَقِّها من المعايب".

إن صاحب المفردات يختصر كلامه كثيرا، لذلك جمع الآيتين وبيّن معناهما معًا، ومراده: أن قوله تعالى ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرةٍ﴾ أيضا يعني صحفًا سامية منـــزهة عن العيوب.

ثم يقول: "وقوله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾(الحج:٢٧) وقوله ﴿وَعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسْماعيل أنْ طَهِّرا بَيْتِيَ﴾(البقرة: ١٢٦) فحَثَّ على تطهير الكعبة من نجاسة الأوثان".

فبحسب هذين القاموسين يعني التطهير: إزالة النجاسة الظاهرة والنجاسة الباطنة. ونظرا إلى هذين المعنيين سيكون لقوله تعالى ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ خمسة مفاهيم:

١- نقيّة من النجاسة المادية
٢- منــزّهة عن الزوائد
٣- مغسولة
٤- ذات طهارة باطنة
٥- بريئة من الشرك

والكلمات التي تستعمل في العربية لبيان معنى الطهارة هي كالآتي:
النظافة، الطهارة، الطِّيبة، النقاء، الزكاء، الصفاء، النـــزاهة...

والطهارةُ تكون مادية وروحية أيضا، ويُستعمل لفظ الطهارة مقابل النجاسة. وقد سمى القرآن الماءَ طهورا في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(الفرقان:٤٩)، لكنه سمى التراب طيبًا في قوله تعالى ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾(المائدة:٧). وكذلك قال القرآن ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾(الحج:٢٧)، ولكن لا يمكن أن يقال: طَيِّبْ بيتي. مما يوضح أن الطهارة تشير إلى إزالة النجاسة الخارجية، سواء كانت مادية أو روحانية، أما الطِيب فيشير إلى ما في الشيء من جوهر ذاتي، ولا يشير إلى براءته من النجاسة الخارجية، فالعرب لا يستعملون الطِيب بمعنى إزالة النجاسة الخارجية، بل إلى ما يوجد في الشيء من خير، فمثلا قولهم: طَيَّبَ الشيءَ لا يعني أنه أزال منه النجاسة الظاهرية، بل المعنى أنه جعله جيدًا أو وجده لذيذًا، يقال: طيَّب اللحم.. أي طبَخه جيّدًا لذيذًا، أو وجده جيدًا لذيذا. فلو سقطتْ من يد صاحبك لقمةُ اللحم على الأرض فتقول طهِّرْها ولا تقول طَيِّبْها. وأيضا طَيَّبَه يعني: أمَّنه وسكَّنه.

فالفرق بين الطهارة والطِيب أن الطهارة تدل على حفظ الشيء من النجاسة الخارجية، أما الطيب فيدل على ما فيه من خير وطيب كاللذة والجمال والحلاوة أو النفع، فنسمي الشيء الحلو اللذيذ طيّبًا، ولكن لا نسمّيه طاهرا، ونسمي الشيء الجميل طيّبًا ولا نسمّيه طاهرا. وإذا أردتَ أن تأمر أحدا بإزالة النجاسة من الشيء فتقول: طَهِّرْه ولا تقول طَيِّبْه.

باختصار، إذا حفظتَ الشيء من النجاسة الظاهرة، سواء مادية أو روحانية، فهو طاهر، فمثلا إذا نجا قلب الإنسان من وساوس الشيطان فيسمّى طاهرَ القلب، وكذلك إذا قام الإنسان بالغسل فنسمّيه طاهرا أيضا.

والنظافة أيضا تدل على براءة الشيء من النجاسة الخارجية، أو على كونه حسينا وجميلا. يقال: نَظُفَ الشيءُ: نَقِيَ من الأوساخ والدَّنَس وحَسُنَ، وفلان نظيف الأخلاق، أي مهذَّب. فالنظافة تستعمل للأخلاق أو لإزالة الوسخ والدرن، لكنها لا تُستعمل لبيان كون الشيء لذيذا أو لطيفا، وتُستعمل -غالبًا- للطهارة الظاهرة لا الباطنة، وتُستعمل للأخلاق، لكن ليس للطهارة الروحانية.

وهكذا تختلف النظافة عن الطهارة معنًى، لأن الطهارة أكثر دلالةً على النقاء الروحاني والنفساني.

وتشترك النظافة مع الطيبة معنًى من حيث إنها تستعمل للحسن والبهاء أيضا. والنظافة لم ترد في القرآن الكريم، لكن وردت في الحديث بمعناها الأصلي والمجازي. ومثال استعمالها المجازي قول الرسول ﷺ: "نَظِّفُوا أفواهكم" (كنز العمال، المجلد الأول، باب الإكمال رقم حديث ٢٨٠٤).. أي احفظوا ألسنتكم من الكذب والغش والخداع، ولا تقولوا ما يخالف أحكام الله تعالى.

أما كلمة النقاء فلم ترد في القرآن الكريم، لكنها وردت في الحديث، ومعناها الأساسي استخراج لبّ الشيء (الأقرب)، ثم استُعيرت للطهارة والنظافة، فكما أنك تقشر الشيء لاستخراج لبه أو تكسر العظم لاستخراج مخاعه، كذلك تنظّف الشيء لتُظهِر حسنه وجماله.

أما الزكاة فتستعمل لإزالة النجاسة الروحانية، وقد تُستعمل مجازًا بمعنى الطهارة الظاهرة. وقد ورد لفظ الزكاة في القرآن.

أما الصفاء فيُستعمل لإزالة الشوائب. واصطفاء الشيء يعني اختياره. والصفاء يُستعمل للطهارة الظاهرة مجازا.

أما النزاهة فمعناها الأصلي البعد، لكنه استُعير لبُعد الشيء عن السوء والفساد.

لقد تبين من هنا أن لفظ الطهارة أفضل هذه الكلمات دلالةً، لأنه أوسع معنى ويفيد المفهومين الظاهري والباطني أيضا، وهو أقوى معنًى من الطيب الذي هو أقرب إليها، لكون القرآن قد استعمل الطهارة كالأصل والطيبَ لما ينوب عنه، فقال الله تعالى عن الماء ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، بينما قال تعالى عن التراب ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في الآية السابقة أن أهل الكتاب والمشركين ما كانوا ليتركوا كفرهم حتى تأتيهم البينة. ومن معاني البيّنة: الشيءُ الواضح الجلي، فقوله تعالى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني أهم ما كانوا ليخرجوا من كفرهم حتى يأتيهم الأمر الواضح الجليّ. ومن معاني البينة: الدليلُ والحجة، وعليه فقوله تعالى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني أهم ما كانوا ليتخلّوا عن كفرهم حتى يأتيهم الدليل والحجة. أما الآية قيد التفسير فقد أخبر الله تعالى فيها أننا لا نعني من البينة هنا أي دليل، أي لا تظنوا أهم يتركون كفرهم بالأدلة العادية، ولذلك لم يقل الله هنا: "حتى تأتيهم بينة"، بل قال: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حيث أدخلَ "ال" على البينة للإشارة إلى أنه في الزمن الذي يكثر فيه الكفر والشرك وظلمات المعصية على نطاق واسع لن ينفعكم دليل عادي، بل أنتم بحاجة إلى البيّنة. وهذا العصر مثال للزمن الذي يشير إليه القرآن هنا، فإننا حين نعرض على الناس دعوى المسيح الموعود عليه السلام يردّون علينا: لسنا بحاجة إلى الإيمان به، فيكفينا القرآن الكريم. فالله تعالى ينبّه هنا أن هذا ظن خاطئ، لأن مثل هذا الزمن المظلم يتطلب البينة، ونعني بالبينة رسولاً من الله، أي: في مثل هذه الظروف إن الرسول هو الذي يقوم بإصلاح الناس، ولا يكفي الكتاب وحده لهدايتهم. عندما ينتشر الكفر في كل طرف وصوب ويغفل الناس عن رهم ويقطعون صلة الحب والوداد معه، فلا ينفعهم كتابٌ سماوي وإنْ كانوا أهل كتاب، بل ينفعهم رسول من الله. إنما ينجيهم مَن يبعثه الله تعالى مقامَ النبوة والرسالة، فيقوم بتطهير نفوسهم بقوته القدسية. فلو قال الله هنا "حتى تأتيهم بيّنة" بالتنكير، لقال الناس أن المراد منها الكتاب، أي أن كتاهم يكفي لإصلاحهم، لكن الله ذَكَر هنا أهل الكتاب أولاً ثم ذكر ﴿البينة﴾، مما يعني أن الكتاب موجود بين ظهرانيهم، لكنه لم يستطع أن يحفظهم من الكفر. كانوا أهل كتاب إلا أهم تردَّوا حتى دخلوا في الكافرين. فالظن أن الكتاب يكفي لهداية الناس سوء فهم كبير، حيث يخبر الله تعالى هنا أنه لا ينفع في مثل هذه الظروف إلا البينةُ التي تظهر في شكل رسول من الله، أما

غيره من الأدلة والبراهين فلا يجدي نفعا. فرغم وجود الكتاب بينهم ورغم كونه مبرًّأً من التحريف والزيادة، لا تزال بهم حاجة لإيمان جديد بالله تعالى وتعلُّق جديد به سبحانه، ولتجليات جديدة لحب الله تعالى، وهذا لا يتأتى بدون نموذج وبدون آيات جديدة من الله تعالى. لا شك أن الكتاب يكون موجودا عندهم عندئذ، لكنه لا يتكلم معهم، فوجوده وعدمه سيّان للناس، ولكن عندما يُبعَث رسول من عند الله تعالى فيتكلم ذلك الكتاب من خلاله، فتذيب أنواره القلوب ثانية، وتملؤهم بنشوة حب الله تعالى، وتنفخ في إيمانهم حياة جديدة.

الواقع أن هذه الآية تفنّد موقف "الجكرالويين" الذين يقولون بأن القرآن يكفينا ولا حاجة بنا إلى أحاديث الرسول ﷺ. كما تفنّد موقف "البيغاميين" الذين يقولون ما دام القرآن موجودا فما الحاجة إلى أي رسول بعده؟ حيث يعلن الله تعالى أن أفكار مثل هؤلاء القوم خاطئة تماما، إذ لا ينفع عند الفساد المستطير إلا الدليل الذي يظهر من الله تعالى في صورة رسول. عندها لا يكفي الناس كتابهم لهدايتهم، إنما تنفعهم البينة التي تظهر في صورة رسول من الله، إذ تمسّ الحاجة في مثل هذا العصر إلى أن يُبعث من عند الله تعالى شخصٌ حيٌّ يتسبب في ظهور آيات الله ومعجزاته المتجددة، ويُلهِب مشاعر حب الله النائمة في نفوسهم، ويُذكي نار عشق الله في قلوبهم، ويُظهِر للعالم أن ربنا حيّ اليوم كما كان حيًا من قبل، ويكلّم الآن كما كان يكلّم من قبل، ويُري آياته الدالة على صدق أحبّته اليوم كما كان يُظهِرها في الماضي، عندها تنفتح أقفال القلوب، وتظهر آثار الحياة في الناس، إذ ليس هناك عندها سبيل لحياتهم الروحانية إلا هذا.

أما قوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ فقد ذكرتُ من قبل معاني ﴿مطهرة﴾ عند شرح الكلمات، وهي:

- نقيّة من النجاسة المادية
- منــــزّهة عن الزوائد
- مغسولة
- ذات طهارة باطنة

– بريئة من الشرك

ونظرًا إلى المعنى الأول، فيعني قوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أنه يتلو عليهم صحفًا منـــزهة عن العيوب.. بمعنى أن الصحف السابقة قد تسربت فيها أمور خاطئة تتعارض مع وحي الله تعالى، فلم تعد على حالتها الخالصة النقية كما أنزلها الله تعالى على أنبيائه، أما الآن فمن خلال القرآن الكريم قد أزال الله من تلك الصحف ما لم يكن من عنده إنما أضيف إليها بيد البشر، وأنزل في القرآن الكريم من وحيه السابق ما قد نزل منه تعالى فعلا. إذن، فتلاوة هذا الرسول صُحُفًا مُنـــزهةً عن العيوب يعني أن هذا الكتاب قد أزال العيوب والإضافات البشرية التي تسربت في الكتب السابقة، وقام بإصلاحها.

وهناك معنى آخر لتلاوة هذا الرسول صحفًا منـــزَّهة عن النقائص، وهو أن الصحف السابقة كان تحتوي أمورًا من وحي الله تعالى، لكنها لم تعُدْ صالحة للعمل في هذا العصر، فلم يُنـــزِلْها الله تعالى في القرآن الكريم. لا شك أن تلك الأحكام والتعاليم كانت من الله تعالى، لكنه تعالى نسخها نظرًا إلى الظروف الحالية، فلا مكان لها في هذا الكتاب الكامل الذي نزل الآن.

والمعنى الثاني لِـــ ﴿مطهرة﴾ أنها منـــزَّهة عن الزوائد، وعليه فستعني هذه الآية أن القرآن الكريم لم يأخذ بالأمور التي هي من الزوائد وإن لم تكن من الأمور الفاسدة. ومثال الأمور الفاسدة أن الخمر لم تكن محرمة من قبل، لكن الإسلام حرمها، ولم يكن الربا حراما كلية في الماضي، لكن القرآن حرّمه كلية. ومثال الزوائد أنه كانت للعبادة شروط معينة في الماضي، كأنْ يطهَّر مكان العبادة بوجه خاص، وأن يكون فيه ستائر معينة، وأن يكون وضعه كذا وكذا. هذه الأمور ليست سيئة بحد ذاتها، لكنها زوائد والإسلام رفع كل هذه القيود. لا شك أن الإسلام عيَّن للعبادة مكانًا بسيطا يسمى مسجدًا، لكنه لم يجعله شرطًا لازمًا للعبادة، فإذا لم يكن هناك مسجد، فيمكن للمسلم أن يعبد ربه في أي مكان، أما اليهود والنصارى فلا بد لهم من مقام خاص واستعداد خاص للعبادة. وهذا

الشرط ليس في الإسلام، لأن تعاليمه مختونة، أي خالية من الزوائد، ومشتملة فقط على الأمور التي لا بد منها.

والمعنى الثالث لِــ ﴿مطهرة﴾ أنها مغسولة نظيفة. والشيء المغسول النظيف يعني أنه لا يزال على أصالته، كل ما في الأمر أنه قد أزيلَ عنه ما وقع عليه من غبار من تأثير خارجي، وعليه فقوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يعني أن القرآن الكريم قد نجّى من التعقيدات الفقهية التي أحدثها اليهود والنصارى في التعاليم الحقة. وتطرُّقُ التعقيدات الفقهية في الدين بعد مرور زمن طويل أمرٌ طبيعي. الهدف من الفقه استخراج المسائل التي لا توجد في كتاب الله تعالى نصًّا، ولكن عندما يضعف الفقه بمرور الأيام تُغيَّر المسائلُ الأساسية نفسها، ومن نتائج هذا النقص أننا نجد اليوم بين المسلمين قومًا يدْعون إلى الإباحية، وعلى النقيض نجد بينهم مَن يتشددون بالتمسك بظاهر الكلمات. هكذا كان حال اليهود والنصارى في زمن الرسول ﷺ، فكانوا يركّزون جدًا على تعاليم العقوبات، بينما كان النصارى يشدّدون جدًا على التسامح؛ مع أن كلا الأمرين ضروري، لكن الفقه اليهودي والفقه المسيحي قد جعلا الأمرين أحكاما منفصلة. فجاء الإسلام وأزال هذا التعقيد والعوج كلية، وغسل من التعليم الرباني التأثيرَ الفقهي الخاطئ، فأعلن مثلاً أن السنّ بالسنّ والعين بالعين والأذن بالأذن (المائدة:٤٦)، لكنه أخبر أيضا أن في العفو خيرا كثيرا، فعليكم بالعفو أيضا. ثم إنه أعلن أن العفو والرفق جيد جدا، ولكن ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(الشورى:٤١).. أي اعفُوا إذا كان في العفو إصلاح المجرم، أما إذا كان العفو سيزيده فسادًا ويشجّعه على المزيد من الجرائم، فلا يجوز لكم العفو عنه. فالتركيز الزائد في التعاليم اليهودية على أن السن بالسن والعين بالعين والأذن بالأذن في كل حال (اللاويين ٢٤: ١٩-٢٠)، إنما هو نتيجة الفقه الخاطئ، إذ لم يعلّمهم موسى عليه السلام ذلك، والتركيز الزائد في المسيحية على العفو القائل: إذا ضربكم أحد على خدّ فأديروا له الآخر (متى ٥: ٣٩)، فهو أيضًا نتيجة الفقه الخاطئ، وإلا فإن المسيح عليه السلام قد

قال صراحة إنه لم يأت لنسخ التوراة (متى ٥: ١٧)، فكيف يمكن إذًا أن يلغي قانونَ العقوبة التوراتي كلية؟

فثبت أن التعقيدات الفقهية التي أحدثها اليهود والنصارى والنقائص التي حدثت في شريعتهم نتيجة الفقه الخاطئ قد أزالها القرآن الكريم كلها، وهذا هو أحد معاني كون القرآن الكريم ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾، حيث أتى بتعليمات منــزهة من كل التعقيدات.

والمعنى الرابع لقوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أنها بريئة من النقائص الظاهرة. ومن أكبر النقائص الظاهرة نقص اللغة، لأن ظاهر الكتاب هو لغته، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أن لغة القرآن بريئة من النقائص. وهي حقيقة لا يسع أعداء الإسلام إنكارها. يمكن أن يعترض الخصم الغبي أو عديم الإنصاف على لغة القرآن -على سبيل الشاذ والنادر- وإلا فإن عامة اليهود والنصارى العرب قد أشادوا بلغة القرآن أيما إشادة، كما لم يتردد الكُتّاب الغربيون غير المتعصبين من الثناء على لغته. فقوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أن لغة القرآن منــزهة عن النقائص فصيحة لطيفة للغاية تجذب قارئها بحسنها وجمالها.

ومن معاني البراءة من النقائص الظاهرة ألا تكون كلماته ثقيلة وتعابيره غير طبيعية، وأن تؤدَّى معانيه بلغة عذبة جذابة. وهذه الميزة توجد في القرآن على ذروتها، فعباراته رائعة لطيفة حتى لا يشعر قارئه ما إذا كان يقرأ نثرًا أم نظما. وقد ذكر أحد الكتّاب المسيحيين أمرًا رائعا في بيان هذه الميزة القرآنية فقال: عندما يُترجَم القرآن إلى لغتنا يقول الناس إنه كلام غير مفهوم لنا، وكيف يمكن أن يفهموا ترجمة القرآن مع أن أسلوبه لا يمكن أن يسمى نثرًا ولا نظمًا. وما دام المترجمون لا يراعون أسلوب القرآن هذا فأَنَّى لهم أن يستوعبوا معانيه حق الاستيعاب؟ (New Age Encyclopaedia by Blinda Whitworth: Koran p. 238)

ومن النقائص الظاهرة في الكلام الفحشُ، والقرآن بريء من هذا العيب كلية أيضا. فهناك معانٍ يصعب جدًّا أداؤها إلا بكلمات فاضحة غير محتشمة، لكن

القرآن يؤدي هذه المهمة الصعبة بكل نجاح في كل مرة حيث يبين مراده بكلمات لا تشقّ على ذوي الحسّ المرهف. وعلى النقيض نجد الفيدا الهندوسي والكتاب المقدس وغيرهما من الصحف تذكر أمورًا يصعب جدًّا أن يقرأها الإنسان. فمثلاً ورد في الفيدا أن فلانا من الصلحاء رفض عند ولادته أن يخرج من المخرج العادي النجس، فأخرجوه بشقّ بطن أمه. لا شك أن مثل هذه العبارات الفاحشة تشقّ جدًا على طبيعة الإنسان، لكنها موجودة في الفيدا. أما الكتاب المقدس فإن المسيحيين أنفسهم يعترفون أن بعض عباراته فاحشة للغاية حتى يصعب قراءتها، ولا نستطيع أن نقرأها على أولادنا ونسائنا مطلقا. أما القرآن الكريم فلا يوجد فيه ما يمثّل الصدمة لأصحاب الحس المرهف.

ومن النقائص الظاهرة للكتاب تجريحُ مشاعر الآخرين، فعندما يقرأ الإنسان مثل هذا الكتاب تُجرَح مشاعره ويستاء قلبه ويتأذى بشدة. ولكن ليس في القرآن الكريم ما يسبّب تجريح مشاعر الآخرين. وإذا لم يجد القرآن الكريم بدًّا من استعمال كلمات قاسية فلم يذكرها مع ذكر اسم قوم معين، وإنما ذكرها ذكرًا عاما بأن بعض الناس مصابون بهذه العيوب، ولم يقل إن أهل مكة أو اليهود والنصارى هم كذا وكذا. وعلى النقيض عندما نتفحص الصحف الأخرى نجد هذا العيب فيها بارزا. فقد ورد في الإنجيل أنه لما طالبَ الكتبةُ والفريسيون المسيحَ عليه السلام بآية قال: "جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلا آيَةَ يُونَانَ النَّبِي" (متّى ١٢: ٣٩). ويستاء اليهود بقراءة هذه الكلمات إذ يرون أنها قد قيلت بحق آبائهم وأجدادهم. وقد سمى المسيح عليه السلام أعداءه أولادَ الأفاعي (متى ١٢: ٣٤)، ولا تزال هذه الكلمات موجودة في الإنجيل حتى اليوم وعندما يقرؤها اليهود يستاؤون منها، إذ استُعملت في حق آبائهم. أما القرآن الكريم فإنه إذا اضطر لذكر مثل هذه الكلمات القاسية فإنه لا يذكر معها اسم أحد كما قلتُ، بل يلمّح بأن بعض الناس أو بعض الشعوب مصابون بهذه العيوب والرذائل، وعندما يقرأ المخالف هذه الكلمات فلا تجرح مشاعره بل يقول من فوره: أنا لست هكذا، وإنما الحديث عن قوم آخرين.

إذن، فمن محاسن القرآن العظيمة أنه ليس فيه ما يجرح مشاعر الآخرين.

ثم إن كلمة ﴿مطهَّرة﴾ إشارةٌ إلى ميزة القرآن الباطنة، لأن أعظم ميزة باطنة لكتاب إنما تكمن في أن يبين الأمور الضرورية بصورة كاملة بدون نقصان. وهذه الميزة توجد في القرآن الكريم بشكل بارز؛ إذ بَيَّن كل قضية تناولَها أيما بيان بدون أي نقصان. باختصار، إن القرآن ليس مقصرًا في بيان ما أراده من مفاهيم ومواضيع، بل قد أفاض في كل قضية وبيّنها تبيانًا بحيث يستوعبها القارئ تماما.

هذه المزايا تبدو بسيطة، لكنها على جانب بالغ من الأهمية في إصلاح الأمم ونهضتها بحيث لا يمكن النجاح من دون هذه المزايا. وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم أكثرُ الكتب إصلاحا في العالم.

ومن معاني الطهارة من النجاسة الباطنة أن يكون التعليم طاهرًا ولا يكون فيه ما يخالف الفطرة. والقرآن الكريم يتحلى بهذه الميزة أيضا على أروع شكل. فكل من تدبر في تعليم القرآن قليلا لم يجد مناصا من الاعتراف أنه خالٍ تماما من كل ما يخالف الفطرة. أما الكتب الأخرى فإذا طالعتها لوجدت فيها أشياء وأشياء تتنافى مع الفطرة.

ثم إن من مزايا القرآن الكريم أن تعليمه موافق لكل طبع ومزاج. فعندما يقرأه صاحب أي طبيعة لا يملك إلا أن يتأثر من تعاليمه حتما. لقد جعل الله تعالى في فطرة الإنسان غرائز شتّى؛ من غضب ورحمة، وكلاهما ضروري جدًّا في محله، والكتاب الكامل إنما هو ذلك الذي يعطي تعليماته آخذا في الحسبان كل الطبائع والأمزجة، ولكنه إذا لم يراعِ كل طبع ومزاج فلن يشفِي غليل الناس كلهم، بل سيتمرد عليه كل طبع يجد فيه تعليما خلافه. فمثلا: إن صاحب الطبع الغاضب عندما يقرأ في الإنجيل أنه إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدرْ له الأيسر، فلا بد أن يتضايق ويقول: هل هذا كتاب سماوي؟ إنه كتاب الخناثى؟ ومن ذا الذي يمكن أن يعمل به؟ أما ذو الطبع الرحيم عندما يقرأ في التوراة أن السن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف، فلا بد أن يتضايق ويقول: لا يمكن أن يكون هذا كتاب الله، فإنه يعلّم هذا التعليم القاسي. أما القرآن الكريم فيراعي كل طبع

ومزاج، فإذا تحدثَ عن السخاء يطمئن به قلب مَن طبعُه الجود والسخاء، وإذا قال إن المال مِن نِعَم الله العظمى وعلى الإنسان ألا يضيعه، فيطمئن به مَن يميل طبعه إلى الاقتصاد ويقول هذا هو الحق والصدق، إذ على المرء ألا ينفق ماله بحيث يؤدي إلى ضعف الأمة. ومن أجل ذلك قد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه كتاب مكنون، أي أن هناك نسخة ظاهرة لهذا التعليم بين دَفَّتَي القرآن، ونسخة باطنة له قد رسمها كَتَبةُ السماء في عقل الإنسان، فكل ما تقتضيه الفطرة الإنسانية موجود في القرآن، وكل ما يأمر به القرآن موجود في الفطرة الإنسانية. ولأجل ذلك عندما يقرأ المرء القرآن الكريم بتعقل وتدبر يُخيّل إليه أنه لا يتلقى أي أوامر من الخارج وإنما يسمع صوت فطرته وقلبه في هذه العبارات الجميلة. فكأن القرآن لا يبيّن له شريعة جديدة، بل يبدو كأن إبرة الأسطوانة (جرامافون) توضع على قرص دماغ الإنسان فتتحول كتابة فطرته إلى لغة الكلمات، فلا يشق عليه حكم، ولا يستاء من تعليم، ولا يجرح قلبه من كلمة، بل يخَيّل إليه أن كل لفظ وحرف ينـــزل من الله الحكيم.

ثم هناك معنى آخر ألطف للفظ ﴿مطهَّرة﴾، نظرا إلى معنى النـــزاهة عن النقائص الظاهرة، أو النـــزاهة عن الشرك.. وبيانه: أن هذه السورة تتحدث عن أمتين، أهل الكتاب والمشركين، فقوله تعالى ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ فسيعني بالنسبة لأهل الكتاب أن القرآن هو الكتاب الذي يزيل نقائص صحف أهل الكتاب، وسيعني بالنسبة إلى المشركين أنه الكتاب الذي يستأصل الشرك والوثنية. إذن فهناك معنى يخصّ أهل الكتاب نظرًا إلى نزاهة هذا الكتاب من النقائص الظاهرة، وهناك معنى يخص المشركين نظرًا إلى نزاهته من النقائص الباطنة، حيث يعلن الله تعالى أن هذا الكتاب جاء لإصلاح أهل الكتاب والمشركين، فإنه يقوم بإصلاح أهل الكتاب والمشركين، كما يطهِّر صحف أهل الكتاب من النقائص.

الحقيقة أن القرآن الكريم منـــزّه عن الشرك بحيث لا يباريه أي من صحف العالم. هذا هو الطريق الأمثل للإصلاح، إذ لا يتأتى الإصلاح الحقيقي من دون

إعلان جدّيّ واضح، فمِن المسائل الفلسفية الشهيرة أن القضاء على الفساد المستطير يتطلب انقلابًا جذريا. وقد اتبع القرآن ضد الشرك والوثنية استراتيجية لا هوادة فيها، وأعلن عن كل شيء صراحةً غير خائف لومة لائم، وهذا لا يوجد في أي كتاب، ولذلك فشلت الأمم الأخرى كلها في القضاء على الشرك، ونجد أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لم ينجُ أتباعه من الشرك فحسب، بل قد بدأت الأمم المجاورة أيضا تكره الشرك متأثرة بتعاليم القرآن. كم هي الديانة المسيحية موغلةٌ في الوثنية! لكن بسبب تأثير تعاليم الإسلام ضد الشرك تجد أشدَّ النصارى وثنيةً يقول لك: ليس في ديننا أيضًا أي وثنية ولا شرك. لا شك أنه لا يترك دينه، إلا أنه بدأ يخاف لفظَ الشرك على الأقل، ويقول: لسنا وثنيين. ولما دخل الإسلام الهند أخرج من الأمة الهندوسية - المؤمنة بعشرين وثلاثمائة مليون إله - فرقتين: البراهموسماج وآرياسماج لتُعلنا أن الله أحد.

فالحق أن الصحف المطهَّرة هي القادرة على إصلاح أهل الكتاب والمشركين، وعلى تطهير أمم الأنبياء السابقين بعرض تعاليمهم النقية عليها من ناحية، ومن ناحية أخرى هي القادرة على أن تقضي على شركهم بعرض تعليم التوحيد عرضًا لا هوادة فيه. فلا شك في صدق القرآن الكريم في ادعائه: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾.. أي كان من المحال أن يرتدع أهل الكتاب والمشركون عن كفرهم إلى أن يأتيهم دليل بيّن. وما هو هذا الدليل البيّن؟ هو رسول من الله الذي يولّد في الناس الإيمان بالله بأسوته من ناحية، ومن ناحية أخرى يقرأ على أهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم صحفَهم منــزَّهةً عما تسرّبَ إليها من تعاليم مشوّهة، ومن ناحية ثالثة يقضي على عقائد المشركين الوثنية بصولات قوية.

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

قَيِّمَةٌ: القيِّمُ على الأمر مُتولِّيه، وهي قيّمة: أي متولِّية. والقيِّمةُ: الديانةُ المستقيمة (الأقرب). وورد في المفردات: "وقوله ﴿دينًا قِيَمًا﴾ أي ثابتا مقوِّمًا لأمور معاشهم ومعادهم.....وقوله ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، فقد أشار بقوله ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ إلى القرآن، وبقوله ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ إلى ما فيه من معاني كتب الله تعالى. فإن القرآن مَجْمَعُ ثمرةِ كتبِ الله تعالى المتقدمةِ."

إذن، فقوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يعني أن القرآن الكريم جاء متضمِّنًا كلَّ تعليم من تعاليم كتب الأنبياء السابقين التي كانت تستحق البقاء، ومقوِّمًا لمعاش الناس ومعادهم.

التفسير: نظرًا إلى المفهومين للقيِّمة -وهما المتولّية والمستقيمة- سيكون لقوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أربعة مفاهيم:

أولا: أن في القرآن أحكامًا هي متولّية للإنسان. والمتولّي هو مَن يُصلِح الآخر ويراقبه ويحفظه ويوجّه كفاءاته نحو الأعمال السليمة. فالمراد أن في القرآن أحكامًا تحمي الإنسانية من كل ذلة وفساد وعيب، وتربّي الناس تربية سليمة وترشدهم إلى استعمال كفاءاتهم بأحسن وجه، وكأنها تعمل على حماية الفطرة الإنسانية من كل عيب، وعلى تطوير طاقاتها على أحسن وجه.

ثانيا: ومن معاني قوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أن القرآن يقدّم دينًا بريئًا من كل عوج وفساد ويوجّه الناس إلى الطريق المستقيم.

وثالثا: أن القرآن يسدّ كل حاجات الإنسان التي لا بد له منها، سواء في الدنيا أم في الآخرة، ولا يوجد في تعليمه ما يحتاج إلى التغيير، بل كل تعاليمه قائمة ثابتة. فكأن قوله تعالى ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يركّز على إزالة ما في التعاليم السابقة من عيوب وحمايتها من الشرك، أما قوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيركّز على أن

في القرآن تعاليم لا بد للإنسان منها في المستقبل وإلى الأبد، وهي تعاليم ثابتة لا تتبدل.

رابعا: ونظرا إلى المعنى الذي ذكره صاحب المفردات، فقوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يعني أن القرآن تضمّن مِن تعاليم الكتب السابقة كل ما كان ضروريا للناس في المستقبل وإلى الأبد، أي أن التعاليم الجيدة في الكتب السابقة كلّها مذكورة في القرآن الكريم.

وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٥

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أمرًا عجيبًا لأهل الكتاب الذين كانوا زمن نـــزول القرآن الكريم؛ لقد جاء القرآن لإنقاذهم من الطرق الخاطئة والتعاليم الباطلة ولجمعِهم على يد واحدة، ولكنهم بدلاً من أن ينتفعوا بتعاليم القرآن ويصلحوا أنفسهم ويتنبهوا إلى ما قد تسرّب إلى كتبهم من تعاليم خاطئة انبروا لمعارضته فابتعدوا عن الصدق أكثر. وكأنه يقول: كان هؤلاء قبل نـــزول القرآن معذورين في ما هم فيه من خطأ، ولكن لما جاءهم الحقّ ونـــزلت تعاليم القرآن كان عليهم أن يرجعوا إلى الصراط المستقيم، ولكنهم ازدادوا معارضة للحقّ. لقد كانوا يقولون قبل نـــزول القرآن إن نـــزول الوحي حق، وأن بوسع الإنسان أن يصبح مقربا عند الله تعالى، وأن مجيء النبي والرسول ممكن، ولكن لما جاء القرآن أخذوا يقولون بشدّة أن لا نبي بعد موسى. كان اليهود قبل ذلك يقولون بكل شدة: سيأتي مَن يحمل في يده شريعة نارية بحسب نبوءة موسى، كما كان النصارى يقولون قبل بعثة النبي ﷺ سيأتي "فارقليط" ما بين بعثة المسيح الأولى والثانية (يوحنا ١٦: ١-١٥، ولوقا ٢٤: ٤٩، و Blacks Bible Dictionary; under: Paraclete)، ولكن لما جاء هذا الموعود الذي أخبرَ بمجيئه موسى وعيسى في نبوءاتهما قال هؤلاء

لن يأتي فارقليط ولا غيره. فنبذوا الحقائق التي كانوا يؤمنون بها بدلاً من أن يقتربوا من الحق والهداية ويفرحوا بأن الله تعالى قد بعث محمدًا رسول الله تحقيقًا لنبوءات الأنبياء السابقين.

ونفس المشهد نراه في هذا العصر؛ فإن المولوي محمد قاسم النانوتوي مؤسس مدرسة "ديوبند" -الذي كان قريبًا من بعثة المسيح الموعود عليه السلام- قد قال بكل صراحة في كتابه إن بعثة نبي غير مشرع بعد الرسول ﷺ ممكن (تحذير الناس ص ٣٤)، ولكن حين قال المسيح الموعود عليه السلام نفس الكلام فإن تلامذة النانوتوي وعلماء مدرسة "ديوبند" أنفسهم أخذوا يقولون: كلا، لا يمكن أن يأتي الآن أي نبي، لأن باب النبوة مسدود تماما بعد الرسول ﷺ، فلن يأتي الآن نبي مشرع ولا غير مشرع. فترى أن تلاميذ النانوتوي وعلماء مدرسته أنفسهم يرفضون ما قال المسيح الموعود عليه السلام وما تؤيده كتبهم.

وكذلك كان كبار المشايخ قبْل دعوى المسيح الموعود عليه السلام ينشدون من فوق المنابر أبياتًا بأن عيسى وموسى -عليهما السلام- قد ماتا، لكن لما قال المسيح الموعود عليه السلام بوفاة عيسى عليه السلام نسي المشايخ ما كانوا يردّدونه على المنابر، وأخذوا يصرخون أن المسيح حيّ.

وكذلك كان السبب الأساس لغفلة المسلمين وكسلهم في الماضي أنهم كانوا يعتقدون بأن عيسى عليه السلام سيأتي ويسلب أموال الكافرين ويضعها في أيديهم، فيعيشون في رخاء. ولكن حين أعلن المسيح الموعود عليه السلام أنه هو ذلك المأمور الرباني الموعود على لسان النبي ﷺ أخذ هؤلاء المسلمون يثيرون ضجة بأنه لن يأتي الآن عيسى أو المسيح؛ إذ ليس في القرآن خبر مجيئه، والأحاديث التي تقول بذلك باطلة. فترى أنه كانت العقيدة الأساسية للجميع في الماضي أن عيسى سيأتي ويملأ بيوتهم مالاً، أما اليوم فقد أنكروا كل هذه النبوءات المتعلقة بالمسيح الموعود وقالوا لا حاجة بنا إلى أي مسيح.

هذا ما قال الله تعالى هنا ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.. أي كان ينبغي لأهل الكتاب أن يتدبروا في التعاليم التي يعرضها عليهم

محمد رسول الله، لكن ما حدث هو أنّهم تركوا الحق الذي كانوا يؤمنون به، وضلّوا عن الصدق ضلالاً بعيدا.

وهناك معنى آخر للآية وهو أن الله تعالى قد أعلن في الآية السابقة أن أهل الكتاب والمشركين ما كانوا ليتركوا الكفر ويعودوا إلى التوحيد ما لم يبعث إليهم محمد ﷺ، أما في هذه الآية فقدم دليلا على تلك الدعوى وبيَّن أنهم صاروا فريقين عند بعثته ﷺ: فريق ترك كفره وشركه وتمسكَ بالتوحيد، وفريق عارضه مصرًّا على موقفه السابق. فثبت أن الهدف الذي جاء من أجله القرآن الكريم -أي أن يُخرج جزءا من أهل الكتاب والمشركين من كفرهم- قد تحقّقَ فعلاً.

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

مخلِصين: خَلَصَ الشيءُ خُلوصا وخَلاصا: صار خالصا. وخلَص من التلف: نجا وسَلِمَ. وخلَص الماء من الكدر: صَفا. وخَلَص إليه وبه الشيءُ: وصل، ومنه: "خلصتُ بمستوى من الأرض" أي وصَلْتُ. وأخلصَ السمنَ: أخَذ خلاصتَه. وأخلص في الطاعة: ترَك الرياء. وأخلص له النصيحةَ والحبّ: خلَّصهما عن الغشّ. وأخلص الشيءَ: اختاره. (الأقرب)

وورد في المفردات: "الخالص كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبُه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوبَ فيه......... وقوله ﴿وَنَحْنُ له مُخْلِصُون﴾ فإخلاص المسلمين أنهم قد تبرءوا مما يدّعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث. قال تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هو كالأول – أي معناه

كمثل معنى ﴿وَنَحْنُ له مُخْلِصُون﴾ – وقال ﴿إِنَّهُ كانَ مُخْلصًا﴾ فحقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون الله تعالى."

الدِّين: دانَ يدين دِيْنًا وديانةً الرجلُ: عزَّ. دان الرجلُ: ذلَّ؛ أطاعَ؛ عصى – وكأن هذه الكلمة من الأضداد– ودانَ: اعتادَ خيرًا أو شرًّا. ودانَ: أصابه الداءُ. ودان فلانًا: خدَمه؛ أحسن إليه؛ مَلَكَه؛ حمَله على ما يكرَه؛ استعْبده؛ حكَم عليه؛ أذلَّه، وفي الحديث: "الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعد الموت". والدِّينُ: الجزاءُ والمكافأة؛ الطاعةُ؛ الحسابُ؛ القهرُ والغلبةُ والاستعلاء –هذه الكلمات تستعمل في العربية للغلبة وبينها فرق بسيط– السلطانُ والمُلك والحُكم؛ السيرةُ؛ التدبيرُ؛ اسمُ لجميع ما يُعبَد به اللهُ –أي الدين اسمٌ لكل الطرق التي يُعبَد اللهُ بها، فمثلا: طُرق العبادة عند المسلمين من صلاة وحج تُسمى دِينًا في العربية، كذلك طريقة عبادة الهندوس والمسيحيين واليهود والزرادشتيين وغيرهم أيا كان شكلها تسمى دينا– المِلّةُ؛ الورعُ؛ الحالُ؛ القضاءُ؛ العادةُ؛ الشأنُ –أي الحال الجيدة– قال الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. (الأقرب)

حُنفاء: جمعُ حنيف، وحنَف الشيءُ حنفًا: مالَ. فالحنيف: الصحيحُ الميلِ إلى الإسلام الثابتُ عليه –الحنيف لا يعني فقط أن يكون الإنسان مائلا إلى الخير بل أن يكون ثابتًا عليه مثابرا– والحنيفُ: كلُّ من كان على دين إبراهيم. وقال الحماسيُّ: الحنيفُ المائلُ عن دين إلى دين، وأصلُه من الحنف في الرجل. وفي "الكليات": في كل موضع من القرآن الحنيفُ مع المسلم فهو الحاجُّ نحو ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾، وفي كل موضعٍ ذُكِرَ وحده فهو المسلم نحو ﴿حنيفا لله﴾. والحنيف أيضا المستقيم." (الأقرب)

أقول: إن ما قال صاحب "الكليات" بأن الحنيف المسلم في كل موضع هو بمعنى الحاج إنما هو تحكُّمٌ وتعنُّتٌ. وقد توصلتُ بالتدبر في آيات القرآن إلى أن الحنيف قد ورد فيه لمن يؤمن بجميع الأنبياء ويتجنب الشرك بكل أشكاله. وكأن الحنفاء قوم يؤمنون بالأنبياء كلهم ولا ينكرون الحق ولا يقعون في الشرك. وأحد

هذين المعنيين إثبات والآخر نفي، فالإيمان بجميع الأنبياء إثبات، وعدمُ إشراك أحد في ذات الله وصفاته نفي. فأرى أن الحنيف لا يعني الحاج، بل يعني: المؤمن بجميع الأنبياء. أما المسلم فمعناه مَن يقوم بصالح الأعمال. والتدبر في القرآن الكريم يكشف لنا أن لفظ الإسلام قد ورد فيه بمفهومين: أولهما: الإيمان الظاهر، وثانيهما القيام بالأعمال الصالحة، فحيثما وردت في القرآن كلمتا (حنيفا مسلما) معًا فمعناهما عندي الراسخُ عقيدةً والكاملُ عملا، وكأنه يؤمن بجميع الحقائق ويعمل بجميع الصالحات.

التفسير: لقد بيّنّا فيما سبق أن مِن معاني الدين الطاعةَ، فالمراد من قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.. أن يعبدوه مخلصين له الطاعة، بمعنى أن كبار شيوخهم وباندائهم وقُسُسهم وكَهَنتهم ورهبائهم وعلمائهم الذين كانوا يدْعونهم إلى عبوديتهم هم، وبذلك كانوا يسيئون إلى الإنسانية، فلما جاءهم محمد ﷺ لم يقل لهم تعالوا وكونوا عبيدا لي بدلاً من أن تكونوا عبيدا لرجال الدين الآخرين، إنما قال: فُكّوا سلاسل عبودية الناس وكونوا عبيدا لله خالصين. لم يكن هذا الأمر مما يجب أن يثير حفيظتهم، إذ دعاهم إلى ما فيه خيرُهم بحبّ ولطف، ولكنهم بدلاً من أن يفكّروا في قوله بجدية، ويُحدِثوا تأثيرا طيبا في أنفسهم ثاروا على محمد غضبًا وبدءوا يبذلون كل ما في وسعهم ضده ﷺ. إن المرء إذا نصح أحدا بما فيه نفعُه، شكَره الآخر بأنه أوقفَه على خطئه وأنقذه من الهلاك، ولكن هؤلاء الجهلاء الأغبياء قاموا ضد محمد ﷺ بالعصيّ بحجة أنه يريد أن يفسد عليهم دينهم بدلاً من أن ينتفعوا بنصحه، إذ قال لهم: تعالوا لأنجيكم من العبودية التي ترزحون تحت وطأتها منذ قرون، وأحرر أجسادكم وأرواحكم من ربقة رجال الكهنوت الذين اتخذتموهم أربابًا من دون الله، وتسجدون لهم وتلمسون أقدامهم وتظنون أنهم يقضون حاجاتكم، وهكذا لا تهينون شرف الإنسانية وكرامتها فقط، بل تسيئون أيضا إلى ربكم الذي هو خالقكم ومالككم. فقد أرسلني الله تعالى لأنجيكم من هذه العبودية وأجعلكم عبادا لله خالصين.

وقد قال البعض أن قوله تعالى ﴿وما أمروا﴾ يعني أنهم أُمروا بذلك في كتبهم، لكني لا أرى هذا هو مراد الآية، بل المعنى أن محمدا ﷺ لم يدعهم إلا إلى أن يعبدوا الله مخلصين له الطاعة، وأن يتخلوا عن عبودية الذين اتخذوهم أربابًا من دون الله. هل كان فيما قال لهم ما يتضايقون منه؟ أو هل كان عليهم أن يستاءوا من قوله أم يفرحوا منه ويجتمعوا حوله مسارعين؟ هذا الأمر كان سيحرر النصارى من قسيسيهم واليهودَ من رهبانهم والمشركين من كهّانهم، ولكنهم بدلاً من أن يفرحوا بذلك سخطوا على محمد وحاولوا القضاء على تعاليمه.

الواقع أن الله تعالى قد دلل هنا على ضرورة النبوة، حيث قال لهم: ما دامت عقولكم وقدراتكم الفكرية قد انحطّتْ بحيث لا تميّزون النفع من الضرّ، فمتى يأتي نبي لإصلاحكم إذا لم يأت الآن؟ إنما يُبعث النبي حين يتردى القوم بحيث يفقدون التمييز بين خيرهم وشرّهم، وينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(الروم:٤٢)، وتموت كفاءاتهم الأخلاقية والروحانية، ومع ذلك يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى أي مصلح. ولذلك يقول الله تعالى لهم: ما دمتم تخاصمون محمدًا مع أنه يأمركم بما فيه خيركم، فهذا دليل على أن هناك حاجة شديدة لمجيء نبي بينكم، وإذا لم يبعث الآن فسوف تهلكون كلية.

إذن، من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أنهم لم يؤمروا إلا أن يعبدوا الله بإخلاص دينهم له.. بمعنى أنهم كانوا من قبل عبيدًا للرهبان والكهان والأساقفة والأثرياء، يرهقون أنفسهم من أجل كبارهم، فجاء الإسلام لينجّيهم من عبوديتهم، لكنهم بدلاً من أن يشكروا مَن أحسن إليهم أعرضوا عنه وخاصموه.

والآن أبين مفهوم هذه الآية بالتفصيل على ضوء المعاني المذكورة في شرح الكلمات.

أولاً: من معاني الدين الطاعة، وعليه فالمراد من هذه الآية أنهم ما أُمروا إلا أن يخلصوا طاعتهم لله بحيث لا تشوبها شائبة من طاعة الآخرين.

لكن هذا لا يعني أنه لا يجوز للمرء أن يطيع غير الله، بل المراد: أ- ألا يطيع الله تعالى من أجل الناس، بل يجب أن يخلص طاعته لله تعالى، أي يطيعه من أجله هو؛ ذلك أن كثيرا من الناس يطيعون الله تعالى خوفًا من العباد، فلا يعملون بأحكام الله لأن الله أمرهم بها، إنما لأن عادات قومهم وتقاليدهم تفرض ذلك عليهم. فمثلا عندما يذهب مثل هذا المسيحي إلى الكنيسة أو اليهودي إلى البِيعة أو الهندوسي إلى معبده أو المسلم إلى مسجده، فلا يذهب لأن الله تعالى أمره بالعبادة، بل لأن قومه سوف يستاءون منه إن لم يذهب إلى هناك. وهناك أحكام أخرى يعمل بها البعض عادةً وتقليدا فحسب، أو اتباعًا لأهواء نفسه. فمثلا قد أمر الله تعالى بالرحمة بالضعيف والإحسان إلى المحسن، وهذا الحكم في كل دين، وبناء على ذلك أُمرنا أن نحسن للصغار، وأن نحسن للزوجات ونبرّ بالأصدقاء، ولكن كم من الناس يحسنون إلى أصدقائهم ويربّون أولادهم بلطف لأن الله أمرهم بهذا؟ إن معظم الناس يفعلون ذلك بدافع طبعي أو طمعًا في مدح الناس. وكذلك قد أمر كل دين برعاية الفقراء وحسن معاملة اليتامى والأرامل، ولكن كم من النصارى واليهود والهندوس والمسلمين يفعلون ذلك اليوم ابتغاء مرضاة الله؟ إن معظمهم يفعلون ذلك ابتغاء مدح الناس. وطالما يظل الإنسان مصابا بهذا المرض وبالقَدْر الذي هو يصاب به، فدِينُه يظل ناقصًا إلى ذلك الوقت وإلى ذلك القدْر، إذ يظل قلبه في الأمور اليومية مائلا إلى الناس لا إلى الله، ويخلو من محبة الله الحقيقية التي تتولد بالإنابة إليه تعالى. والحق أنه يكون مشركًا أيضا فَهِم ذلك أم لم يفهم، قَبِله أم لم يقبل، إذ يؤتي الناسَ نصيبًا من الطاعة التي هي حق لله تعالى فقط.

وهذه هي الحكمة وراء قول النبي ﷺ: إذا وضع المرء لقمة في فم زوجته إيمانا واحتسابا فهو صدقة عند الله تعالى (البخاري: كتاب النفقات). فإذا فعل ذلك فرحت زوجته من ناحية، ومن ناحية أخرى يشفي غليل حبّه، ومن ناحية ثالثة سجَّله الله عنده من الذين يعملون الصالحات. وهذه القاعدة تنطبق على أعمال الإنسان كلها. يأمرنا الإسلام بإيثار الدين على الدنيا وأن نكون لله تعالى كليةً،

ولكن معظم الناس مضطرون للقيام بأعمالهم الدنيوية، فكيف يعملون بهذا الحكم يا ترى؟ إنما سبيله ما أشار إليه النبي ﷺ في حديثه هذا.. أي على المرء أن يجعل مشاغله الدنيوية خاضعة لمشيئة الله ومرضاته، فتصبح أعماله كلها عبادة. إنه سيقوم بأعمال الدنيا في الظاهر، وفي الواقع يُعتبر كل عمل له عبادة لله تعالى. وهذا الأمر هو روح التصوّف وعليه يقوم أساسه كليةً، وبالعمل بهذه النصيحة يستطيع الإنسان أن يرتقي إلى أعلى درجات الروحانية ويظل يزداد قربًا من الله تعالى كل حين.

والمفهوم الثاني للآية – نظرًا إلى "الدين" بمعنى الطاعة – هو أن يطيع المرء عبادَ الله لوجه الله تعالى. كان المفهوم الأول أن لا يطيعوا الله تعالى من أجل العباد، أي مخلصين لله طاعتَه، أما هذا المفهوم فهو أن يطيعوا عبادَ الله لوجه الله تعالى، أي مخلصين لله طاعةَ العباد. فالله تعالى لا ينهانا عن طاعة العباد في كل حال، بل الحق أنه تعالى نفسه يأمرنا بطاعتهم في بعض الأحيان حيث قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(النساء:٦٠). فهنا أوجب الله علينا طاعة الرسول وأولي الأمر إضافةً إلى طاعة الله، ولكن بشرط هو ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين﴾.. أي أطيعوا العباد ولكن لوجه الله تعالى، بمعنى أن على المؤمنين أن يطيعوا شخصًا أو جماعةً بالقدر الذي يأمرهم الله بطاعته. عندما سئل المسيح عليه السلام عن الضريبة قال: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لله لله" (مرقس١٢: ١٧)، فقوله عليه السلام هذا يعني: أن إخلاص الطاعة لله تعالى لا يعني أنَ طاعةَ غيرِ الله حرام، بل يعني: عليكم أن تطيعوا من يأمركم الله بطاعته وبقدر ما يأمركم بطاعته، ولو أطاع المرء أحدًا بأمر الله تعالى لعُدَّتْ طاعته له طاعة لله تعالى.

باختصار، إن إخلاص الطاعة لله تعالى يعني أن لا يطيع الإنسان الله تعالى من أجل الناس بل من أجله سبحانه، وإذا أطاع العباد فلا يطيعهم إلا لوجه الله فقط.

يعترض البعض على المسيح الموعود عليه السلام أنه كان مطيعًا للحكومة الإنجليزية. والحق أنه لم يطع تلك الحكومة –وبقدر ما أطاع– إلا عملاً بأمر الله وتعليم الإسلام، لذا فكانت طاعته للإنجليز طاعة لله في الحقيقة. لقد أمرنا الله تعالى

بطاعة الحاكم أو الخروج من البلد، وإلا لخرجنا من طاعة الله. أما المسلمون الآخرون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإنجليز ويطيعون قوانينهم مع إيمانهم أن طاعتهم حرام، فكانوا يقضون كل لحظة في الإثم، إذ كانوا يؤمنون أن طاعة الإنجليز حرام ومع ذلك كانوا يطيعونهم. لو كانت عقيدتهم هذه صحيحة فكان من واجبهم أن يخرجوا من حكم الإنجليز فورا.

ثانيا: والمعنى الثاني للدين هو القهر والغلبة والاستعلاء، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أن محمدًا لم يأمرهم إلا أن يجعلوا غلبتهم وحُكمهم وقفًا لله تعالى، لأنه تعالى هو من يكتب الغلبة، لقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٧).. أي ما دام الله تعالى هو من يكتب الغلبة والاستعلاء لأحد، فمن واجبكم أن تسخِّروها لله تعالى وليس لكبريائكم وغروركم ولظلم الناس واستعبادهم.

والحق أن النظم السياسية كلها لا تُدمَّر إلا لعدم فهم هذا الحكم الرباني ولعدم العمل به. إن الناس ينسون الله عند الغلبة، وينسون لماذا كتبها الله لهم، فيتقاعسون عن أداء حقوق عباد الله ويظلمونهم. كلما غلب قوم في العالم نسوا الله تعالى ونسوا حقوق عباده التي من أجل أدائها كتب لهم الغلبة. ولكن انظروا إلى النبي ﷺ، فرغم أن المُلك كان بيده إلا أنه لم يعتبر نفسه ملِكًا ولم يسمح لأحد أن يسميه ملِكًا، بل اعتبر نفسه عبدًا لله تعالى بعد الغلبة مثلما كان يفعل قبل الغلبة. لقد ظلّ مشتغلا بالصلاة والصوم وذِكر الله تعالى بعد الغلبة كما كان من قبلها. وإذا كان هناك فرق فإنما هو قول الله تعالى له: ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(الشرح:٨).. أي إذا قلّتْ حروب الدنيا فعليك أن تزداد عبادةً لله تعالى. وكان ﷺ يعتبر نفسه خادمًا لعباد الله بعد الغلبة كما كان قبلها. كان ﷺ يساعد الفقراء واليتامى والمساكين حين كان شابًا فقيرا في مكة، ثم عندما أعطاه الله ثراء زوجته -أعني عندما سلّمت له أموالها بعد الزواج- فإنه لم ينفقها لنفسه،

ولم يفكر أنها ثروة زوجته وأن عليه أن ينفقها في راحته، بل أخذ يوزّع تلك الأموال على الفقراء والمساكين. وعندما أعطاه الله المُلك وجعل العربَ والشعوب كلها تابعين له وبدأتْ أموال الضرائب والجزية تقع في يديه، فلم ينتفع منها أبدًا. ثم عندما حانت وفاته ﷺ - وهو الوقت الذي يوصي فيه الناس عادةً بالعناية بأهلهم وعيالهم - قال لأمّته: إن وصيتي الأخيرة لكم هي أن تحسنوا إلى النساء والضَّعَفَة (ابن ماجة: كتاب النكاح). وقال ﷺ في لحظات وفاته بكل كرب وألم مرارًا: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (البخاري: كتاب المغازي). والحق أن هذه الكلمات القاسية لم تكن موجهة إلى اليهود والنصارى بقدر ما كانت موجهةً إلى أمته، إذ حذّرهم أنهم إذا اتخذوا قبره مكان عبادة لهم فلن يلعنهم الله تعالى فحسب، بل سوف تقع عليهم لعنته ﷺ أيضا. باختصار إنه ﷺ لم يهضم حقوق الله ولا حقوق العباد حتى وقت الغلبة أيضا. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم، إنك حميد مجيد.

ثم بعد وفاته ﷺ قد ضرب صحابته أروع مثال للعمل بهذا التعليم. لقد كان خلفاؤه الأربعة عديمي النظير في أداء حقوق العباد. لقد تمسكوا بالله تعالى بما لا مثيل له، كما أدّوا حقوق العباد أداءً لا نظير له في العالم. قد يقول قائل هنا: إنهم لم يكونوا ملوكا، إنما كانوا كالرؤساء. لكنا نقول أولاً: من ذا الذي دفعهم ليكونوا رؤساء؟ لا شك أن الإسلام هو الذي منحهم هذا المنصب. فلما تولوه أخضعوه لأحكام الإسلام. وثانيًا: يجب ألا يغيبنّ عن البال أنهم -وإن اعتُبروا رؤساء- فكان انتخابهم للعمر كله وليس لثلاثة أو أربعة أعوام، كما هو الحال اليوم بالنسبة للرؤساء الذين يُنتخبون في النظام الديمقراطي. فلو اعتبرناهم رؤساء ديمقراطيين، فالثابت -بحسب علم النفس وقواعد السياسة- أن هناك فرقًا كبيرا بين الذي يُنتخب رئيسًا لأربعة أعوام أو ثلاثة، وبين الذي يُنتخب للعمر كله. إن الذي يُنتخب لثلاثة أعوام أو أربعة يفكّر دائمًا أنه سيُفصَل عن منصبه بعد مدة ويصبح إنسانا عاديا مرة أخرى، لكن الرئيس الذي يُنتخب للعمر كله يدرك أن من المحال أن عزله عن منصبه محال الآن، وكما أن أهل البلد أيضا يدركون أنه لن

يقابلهم من الآن إلا بهذا المنصب، فالعظمة التي يتمتع هو بها لا يتمتع بها مَن يُنتخب رئيسا لثلاث سنوات أو أربع. ومع ذلك انظروا كم من أموال الشعب تُصرَف على الرؤساء الذين يُنتخبون في النظام الديمقراطي! فالأموال التي تُنفَق على الرئيس الأمريكي لا تنفق على مِلِك إنجلترا. أما الخلفاء الأربعة فقد حافظوا على أموال العامة، الأمر الذي يعرفه القاصي والداني. كانوا يتلقون رواتب زهيدة جدًّا للعيش، وكانوا ينفقون أموالهم وعقارهم على الناس. لقد اعترض بعض المسلمين وغيرهم على عثمان ﷺ في آخر عمره، وكان من المطاعن العديدة التي وجهتها إليه الفئة الخارجة عليه أنه أعطى أموالا كثيرة لفلان وفلان، فردّ عليهم عثمان ﷺ: إن لجميع المسلمين الحقّ في أموال بيت المال، ولو أعطيتُهم منها فلا يحق لأحد الاعتراض عليّ، لكني لم أعطهم شيئًا من بيت المال، بل أعطيتهم من أموالي الخاصة ويمكنكم أن تروا سجلات بيت المال. مما يعني أن أمواله الخاصة كانت مصدرًا لبيت المال. فثبت أن هؤلاء القوم قد سخّروا غلبتهم واستعلاءهم لله فقط، وليس لإرساء مجدهم. وهذا ما تخلد به الأمم. ولو أن المسلمين عملوا بهذا التعليم لما أصيبوا بالانحطاط.

ثالثا: والمعنى الثالث للدين هو المُلك والحكم، وعليه فالمراد من الآية أننا لم نأمرهم إلا أن يجعلوا المُلك لله فقط، فيأتمروا بما يأمر به، وينتهوا عما ينهى عنه، ولا يَدَعوا أهواءهم ورغباتهم تؤثّر في أحكام الشريعة. عندما جاء الإسلام كانت هذه الحقيقة الناصعة مرفوضةً بشدة. إن كل مَن يؤمن بنــزول وحي الله تعالى لهدايته وهداية قومه لا بد له من الاعتراف أيضا أن هذا الوحي ينبغي أن يظلّ محفوظا من تلاعب البشر، ولكن ما نراه على صعيد الواقع هو أن كل أمة كانت قد مزّقت رداء شريعتها عند ظهور الإسلام، ولم يبق من دين الله عندهم إلا القليل جدًّا إذ حلّتْ مكانَه أفكارهم وأوهامهم. وإن ما يفعلونه بشرائعهم حتى اليوم عبرةٌ لمن يعتبر. إنّ أفضل تعاليم المسيح ﷺ كلها إنما هو: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا"(مَتَّى ٥ : ٣٩)، ولكن كم أساء المسيحيون إلى تعليمه هذا! إذا كان أعداء الدول المسيحية قد قصفوا أهلها بالقنابل الديناميتية

فإن المسيحيين لم يبرحوا حتى اخترعوا القنابل الذريّة لضرب أعدائهم. والأغرب من ذلك أنهم يعتبرون كل هذا مطابقا للشريعة. فقبل بضعة أيام لطم أكبر قساوسة الكنائس في إنجلترا أحد زملائه، إذ كان يعتبر القنبلة الذرية آية من آيات الله، ولكن زميله قال: إن فطرتي ترفض أن نحتفل في الكنيسة بهذا الانتصار الحاصل بإلقاء القنبلة الذرية. كان المسيح عليه السلام يقول: إني لم آت إلا لأكمل شريعة موسى عليه السلام، لكن المسيحية جعلت الشريعة الموسوية لعنةً كلها. وهذا هو حال صحف الديانات الأخرى، فقد حرّفوها وبدّلوها ودسّوا فيها من أفكار الناس وأوهامهم حتى صارت ممسوخة مشوّهة. وإني على يقين أنه لو جاء موسى وعيسى وكرشنا وزرادشت -عليهم السلام- إلى الدنيا اليوم لسارعوا إلى القرآن الكريم قائلين: هذا هو تعليمنا الذي يقدّمه القرآن بصورة أجلى، أما الشرائع التي تُنسَب إليهم فسوف يعرضون عنها قائلين: لا ندري مَن نشر هذه التعاليم الفاسدة في الدنيا!

لقد قدّم الإسلام مِن خلال هذه الآية احتجاجا قويا على تلاعب الناس بالشرائع الإلهية فقال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.. أي يجب أن لا يتدخل أحد في كلام الله تعالى. لا شك أن المسلمين أيضا قد فسدوا كثيرا في العصور المتأخرة، لكنهم لم يخالفوا أمر الله تعالى هذا، فظل القرآن محفوظا حتى اليوم بعون الله وبحسب مشيئته. لا شك أنهم قد نـزعوا النصوص من سياقها وبتروها كثيرًا في القضايا الفقهية، ولكن لم ولن يتضرر الإسلام بعملية قصّهم وبترهم ضررا دائما، لأن كلام الله محفوظ للأبد.

رابعًا: والمعنى الرابع للدين هو السيرةُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني أنهم إنما أُمروا أن يعبدوا الله مخلصين له السيرة.. أي ألا يشركوا مع الله أحدا في صياغة سيرتهم، بل عليهم أن يصطبغوا بصبغة صفاته تعالى. وكأن هذه الآية تؤكد صحة الحديث الذي يقول: "تَخلّقوا بأخلاق الله" (التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، باب الفاء ص ١١٣، الفقه على المذاهب الأربعة ج١ كتاب الصلاة)، والذي لا يعتبره المحدِّثون قويًا من

حيث سنده كالأحاديث الأخرى. إذن فقوله تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني مخلصين له ﷺ السيرة، بمعنى أن من المحال أن يسود السلام العالَمَ ما لم يجعل الإنسان أخلاقه تابعة لصفات الله تعالى. يجب أن تكون سيرتكم خاضعة لصفات الله تعالى بحيث لا ينعكس فيها إلا صفات الله تعالى. فليكُنْ كل واحد منكم مثل الله ربًّا ورحمانًا ورحيمًا، وليكُنْ مثل الله تعالى مالِكَ يوم الدين.. أي ينبغي أن لا يكون كالقضاة الذين يحكمون قضاء أعمى، بل يجب أن يكون الإصلاح هو غاية قضائه. ثم يجب أن يكون مثل الله رزّاقًا وغفّارًا وستّارًا ومُحيِيًا للصالحات والشعوب الميّتة ومُميتًا للسيئات والسيئين، وأن يتحلى بغيرها من صفات الله كالحفيظ والباسط والقيوم وما إلى ذلك.

خامسًا: والمعنى الخامس للدين الذي ينطبق هنا هو التدبير. والحقّ أن كل إنسان يبذل جهدًا وتدبيرا قدر المستطاع. وأعني من كل إنسانٍ العاقلَ، وإلا فيوجد في الدنيا كثير من الحمقى الذين يفنون أعمارهم في الأكل والشرب والنوم، وإنهم ليسوا أناسا بل هم دواب، فباستثناء هؤلاء الجهلة الذين هم ليسوا من الإنسانية في شيء، فإن كل إنسان شريف يبذل الجهد ويتخذ التدابير، وكل مَن لم يمتْ قلبه يرغب في مجال من مجالات الحياة، فبعضهم يرغب في العلوم، وبعضهم في الرياضيات، وبعضهم في السياسية، وبعضهم في التجارة، وبعضهم في الزراعة. ولكن التدبر يكشف لنا أنّ جهودهم وتدابيرهم تكون عادةً إما لمصلحتهم الشخصية أو تحقيقًا لغلبة الأمة ونفوذها؛ فإذا كان يرغب في العلوم فيفكّر أن نبوغه في العلوم سوف يمكّنه من اختراع الأشياء الجديدة وإنشاء المصانع، فينتفع نفعا كبيرا. وإذا كان يرغب في الحساب والرياضيات فيقول إنه إذا تقدم في هذا المجال أصبح مهندسا ونال عزا في الدنيا. وإذا كان يرغب في التجارة فهدفه أن يجمع مالاً له ولأهله. وإذا كان شغوفًا بالزراعة فلا يريد منها إلا منفعته الشخصية. وإذا كان راغبًا في السياسة، فإنما هدفه من جهوده منفعته الذاتية إذ يريد أن ينال العزة لا أن يخدم الأمة. لكن بعض الناس يكونون أسمى من مصالحهم الشخصية، فيعملون من أجل مصالح الأمة أكثر من مصالحهم الذاتية،

فإذا كان أحدهم عالمًا فإنما يريد أن تتقوى أمته بهذا الطريق، وإذا كان راغبًا في الرياضيات فإنما هدفه أن يخدم قومه بهذا العلم، وإذا كان يمارس التجارة فإنما غايته أن يدعم أمته، وإذا كان يهتم بالزراعة فليس لأن يحرث الأرض وينتفع بما تدرّ عليه، بل لكي يجعل أُمّتَه تسبق الأممَ الأخرى، وإذا كان يعمل في حقل السياسة، فليس طمعًا في النفوذ الشخصي، بل طمعًا في غلبة أمته.

باختصار، هناك نوعان من الناس، نوع لا يهدف من جهوده وتدابيره إلا المصلحة الذاتية، ونوع آخر يعمل من أجل مصالح الأمة مضحّيًا بمصالحه الشخصية. إنه لا يرغب في التفوق في مختلف العلوم والفنون ومجالات الحياة طمعًا في الصيت والعزّ والمال، بل يقضي حياته في مجاله لتتبوأ أمته مكانة الصدارة بين أمم العالم. والله تعالى ينبه في هذه الآية أن الناس حين يعملون بهذه الأهداف فلا بد من أن تتولد فيهم العداوة، وبالتالي لا بد أن يكون مصيرهم الهلاك والدمار. ولذلك على الإنسان أن يجعل جهوده وتدابيره كلها لوجه الله تعالى خالصة. فإذا كان يحب الرياضيات فليتقدم فيها ما استطاع، وإذا كان يريد النبوغ في العلوم واختراع أنواع المخترعات فلا بأس، وإذا كان يرغب في التجارة لكسب المال فليفعل، وإذا كان يحبّ الزراعة أو يتشوق للتوغل في دراستها من أجل الاكتشافات الجديدة فلا بأس بذلك، لأن الله تعالى هو الذي قد خلق هذه الميول والعواطف في الإنسان، ويريد ألا يجعله عاطلا، ولكن ينبغي على الإنسان أن تكون جهوده وتدابيره كلها لوجه الله تعالى. فإذا أصبحت جهوده كلها خاضعة لمرضاة الله تعالى فلن يحرم بعضَ عباد الله من ثمرات جهوده. فإذا بذل جهوده وقام بأعماله لوجه الله تعالى فلن يكون غرضه القضاء على البلد الآخر، ولن تريد إنجلترا القضاء على فرنسا أو تريد أمريكا تدمير روسيا، بل تنصرف جهود المرء إلى مصلحة بني جنسه، ولن تنشأ في العالم منافسة خاطئة وعداء بين الأمم. إنما سبب الدمار كله أن الإنسان يحاول غصب حقوق الآخرين لمنفعته الذاتية أو منفعة أمته غاضًّا الطرف كليّة أن عليه أن يشرك جميع بني جنسه في ثمار جهوده.

إن هذا العصر عصر العلم، ومع ذلك نرى أن البعض إذا نال نصيبا من إرث آبائه أصبح غافلا وجلس في بيته عاطلا لا يحرك ساكنا ولا ينجز عملا ويقول: لا حاجة بي للعمل الآن، فقد وجدتُ أموالا وعقارا كبيرا من آبائي، وليس عليّ إلا أن آكل وأشرب وأنام. إنه لا يفكر أنه لم يُخلَق للأكل والشرب والنوم، بل قد جعل اللهُ الإنسانَ في الدنيا خليفةً له لقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة: ٣١)، وما دام هو خليفةَ الله في الأرض فكيف يجوز له أن يجلس عاطلا. إذا كان الله عاطلا -والعياذ بالله- فلا حرج أن لا يعمل الإنسان لأن الله ﷻ عاطل لا يعمل، لكن الله تعالى ليس عاطلا، بل لا يزال يعمل متجليًا بجميع صفاته في العالم دائما، فيرزق بعضا، ويحيي بعضا، ويميت بعضا، ويغفر لبعض، ويرحم بعضًا، ويعذّب بعضًا، ويقدم بعضًا ويؤخر بعضًا في سباق الحياة. فكل يوم وليلة هو في شأن. وهذا ما يريده من الناس.. أي يظلّوا منهمكين في العمل، ولا يركنوا إلى الغفلة والكسل أبدا. ولكن المؤسف أن الناس إذا تيسرت لهم أسباب الرخاء قليلا أخلدوا إلى الكسل، قائلين لا حاجة بنا للعمل الآن. وفي بلادنا عادة شائعة بأنك إذا قلتَ لشخص ميسور الحال: كيف حالك؟ أجابك: الحمد لله، عندي الكثير من الأكل والشرب وليس بي حاجة للعمل الآن. مع أن الواقع أن عمل الإنسان يكون بحسب ما عنده من وسائل، فمن كانت وسائله أقلَّ أنجزَ أقلّ، ومن كانت وسائله أكثر عمل أكثر. وإذا كان الله تعالى قد أعطى هؤلاء وسائلَ أكثر فعليهم أن يكونوا أكثر عملا من غيرهم، لا أن يجلسوا عاطلين قائلين: لا حاجة بنا إلى العمل الآن بحجة أن عندهم الكثير من الوسائل وأسباب المعاش، وأنه يجوز لهم الآن قضاء أيام حياتهم في الأكل والشرب والنوم! هذه العقلية لعنة مسلَّطة على أهل الهند، وقد أخّرتهم كثيرًا عن باقي الأمم في سباق الرقيّ. إنهم يرون أن الجهد والعمل اسم للمنفعة الشخصية ومنفعة الأسرة، وأنهم ليسوا مستعدين لإشراك بني نوع جنسهم في ثمار جهودهم. أما الأوروبيون فقد تخلّصوا من هذه النقيصة رغم وجود عيوب أخرى كثيرة فيهم. فالجميع عندهم يعمل، ثريًا كان أو فقيرا، صغيرا أو كبيرا. يوجد بينهم أثرياء كبار، ومع

ذلك لن تجد بينهم أحدًا بدون عمل. لا شك أن في كل قوم أفرادًا كسالى، فباستثناء هؤلاء فإن الغالبية منهم يعملون رغم أنهم يملكون البلايين، كما تعمل زوجاتهم وأولادهم وغيرهم من أفراد أسرتهم، ولا يعتبرون العمل نقيصة وعيبًا. غير أنهم يعملون إما لمآربهم الشخصية ورغباتهم الذاتية أو من أجل ازدهار بلدهم ورخائه بنية أن تتفوّق أمتهم على غيرها، فيصابون بالمفاسد أكثر رغم حبهم للعمل. كان بعض الناس لا يعملون في الماضي أيضًا نتيجة امتلاكهم المال والعقار من آبائهم، ولكن المفاسد كانت أقلّ، إذ لم يكن عندهم الإحساس بتفوّق الأمة، وإنما كانوا يفكّرون في مصالحهم الشخصية، أما اليوم فأغلبية الناس يؤْثرون مصلحة الأمة على مصالحهم الشخصية، ويقومون بأعمالهم من أجل النهوض بأمتهم لتصبح أكثر غلبة وقوة من غيرهم، وهذا هو السبب وراء انتشار العيوب والمفاسد بكثرة رغم حبهم للعمل. ومن أجل ذلك ينصحنا الله تعالى هنا بأن لا بأس أن تتخذوا التدابير، بل يجب أن تتخذوها، لأننا قد خلقناكم للعمل، ولكن نوصيكم أن تعملوا مخلصين لنا الدين.. أي اجعلوا كل جهودكم وتدابيركم خالصة لوجه الله تعالى دون التفكير في راحتكم الذاتية أو مصلحة أمتكم، بل يجب أن تكون جهودكم لوجه الله ومرضاته.

ما أروعَه مِن مبدأ! فإن العمل به يرسي السلام في العالم، لأن الله تعالى من جهة قد وضع الأساس للقضاء على البطالة إذ صرح للناس أنه لا يجب أن يبقى أحد منكم عاطلا دون أن ينجز شيئا في الدنيا، ومن جهة أخرى أعلن ﷻ أنه لا يجب أن تكون - في هذا الأمر - بينهم منافسات زائفة. عليهم أن يعملوا ويعملوا جيدا، ولكن يجب أن لا يخلقوا منافسات زائفة ولا يحاولوا تدمير البلاد والأمم الأخرى، بل عليهم أن يعملوا كل عمل لوجه الله تعالى. والظاهر أن من يقوم بكل عمل لوجه الله تعالى لا لمصلحة ذاتية ولا لتفوُّق أمته على الأمم الأخرى، فلا يمكن أن يتخذ أي خطوة لسلب حقوق الآخرين، ومن أجل ذلك نجد أنه في زمن الحكومة الإسلامية -أعني حين كان حكم المسلمين قائمًا بحسب تعاليم الإسلام- لم يحاول المسلمون قمع الشعوب الأخرى. لقد حكم المسلمون

ثمانية قرون، ولكنهم لم يسعوا في تلك الفترة الطويلة من الحُكم إلى تدمير البلاد المجاورة، مع أنهم كانوا يمتلكون القوة، ولو أرادوا لدمَّروا اقتصاد البلاد الأخرى بسهولة، لكنهم رغم قوتهم وحكمهم وملكهم الذي استمر ثمانية قرون لم يحاولوا ولا مرة واحدة إضعاف الدول المجاورة وسحقها. وأكبر مثال على ذلك هو بلد الحبشة، لقد استمرت دولة الحبشة في جوار المسلمين ثلاثة عشر قرنا دون أن يُنال من حريتهم. وعلى النقيض نرى أن المسيحيين نالوا الغلبة على إفريقيا لقرن من الزمان فقط، فسحقوا دولة الحبشة، مع أنهم كانوا إخوانهم في الدين، وكانوا أحقَّ ألاّ يسطو هؤلاء على بلادهم وينهبوها. لكن المسيحيين لم يبالوا بذلك ولم يراعوا مبادئ العدل والأمانة والتسامح، بل هجموا على البلاد الضعيفة وأخضعوها مغرورين بغلبتهم. وهذا دليل على أن المسلمين كانوا يبذلون جهودهم كلها ابتغاء مرضاة الله تعالى كما أمرهم القرآن الكريم، وحيث إن الحبشة وأوغندا وغيرهما من البلاد الإفريقية لم تتعرض للمسلمين، فلم ينظر إليها المسلمون بسوء رغم امتلاكهم القوة ورغم كونها بجوارهم. وقد ظلّ المسلمون متحلّين بهذه الميزة حتى في زمن انحطاطهم الشديد، فلم يحاولوا سحق الأمم الأخرى، أما الأوروبيون فحيثما نالوا الغلبة سحقوا الآخرين. وأقول دائمًا إن مَثَل الشعوب الغربية كمثل الصبيان الذين إذا وجدوا شيئا أثناء اللعب يقولون: لقد وجدتُ شيئًا مرميا، والمرمي لله وليس لأحد، فأنا أحقُّ به. فإن الغربيين يستولون على بلاد الآخرين، ثم يقولون لقد وجدناها كشيء مرمي فنحن أحق به، ومع ذلك يدّعون التحلي بالمُثل والأخلاق قائلين: لقد استولينا على هذا البلد من أجل إرساء السلام فيه ولتعليم أهله التحضّر والتهذيب. ولكن الله تعالى يعلن أن هذا الادعاء باطل. إذا كنتم ذوي مُثل ومبادئ سامية فعلاً، ولم تريدوا منفعة ذاتية أو قومية، فكان من واجبكم ألا تستولوا على البلاد الأخرى ولا تنتفعوا من ثرواتها، بل عليكم أن تعودوا إلى بلادكم بعد تربية أهلها وتعليمهم. إن ما فعلتم كان يجب أن تفعلوه كلَّه ابتغاء مرضاة الله تعالى منـــزهين عن أية شائبة من شوائب الأنانية وأهواء النفس. لكن كل ما فعلتم إنما فعلتموه لأنفسكم، وهذا لن يرسي السلام في العالم

بل يفضي إلى الفوضى والظلم. ولو أن الإنجليز ذهبوا إلى بلاد إفريقيا وبدلاً من الاستيلاء عليها قالوا لأهلها لقد جئنا للنهوض بكم وتعليمكم، ثم علّموهم مبادئ الزراعة وأنشأوا لهم المدارس والمصانع وقاموا بتدريبهم على استثمار المال وتنميته وعلّموهم مبادئ التحضر والتهذيب، ثم رجعوا من عندهم قائلين: هذا بلدكم، لقد جئنا لخدمتكم، لعُدُّوا صادقين في دعواهم يقينا، ولقيلَ إنهم لم يبذلوا هذا الجهد إلا لوجه الله ولخير الإنسانية. ولكنّ ما فعلوه هو أنهم طردوا الأفارقة من أراضيهم وعقارهم واستولوا عليها، ثم أخذوا يقولون: إنما فعلنا ذلك للنهوض بالأفارقة ولمصلحتهم، وليس وراء ما نفعل بهم إلا دافع الشفقة عليهم.

سادسا: والمعنى السادس للدين هو العبادة، وهذا المعنى أيضًا ينطبق على هذه الآية، والمراد: لا تُشرِكوا بالله، بل أدّوا كل عبادة لوجه الله فقط.

سابعًا: والمعنى السابع للدين هو الورع، أي أعمال البر والتقوى، وعليه فالمراد من الآية: اتركوا الرياء والسمعة كلية وقوموا بأعمال الزهد والورع لمرضاة الله فقط. يجب أن لا تبغوا بعباءاتكم وعماماتكم ومشيختكم وكهانتكم وأسْقَفَتِكم تكريمَ الناس وطاعتهم لكم، بل يجب أن يكون زهدكم وعبادتكم ابتغاء قرب الله تعالى.

وهذا أمر لا يتوجه إليه المسلمون أنفسهم، دعْك عن الأمم الأخرى. فهم يصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون، لكن ليس ابتغاء وجه الله، بل لكي يكرمهم الناس ويقولوا إن فلانا يصلي كثيرا وفلانا من كبار الزُّهاد النُّسّاك. والحج أيضا يُعتبر علامة زهد، لكن في بلادنا أصبح الحج وسيلة للسمعة والشهرة. فمعظم الذين يحجّون يرون أن من واجبهم أن يكتبوا مع أسمائهم "الحاج". عندما ذهبتُ إلى الحج وجدت في السفينة التي سافرت بها شابًا كان يعتبر نفسه غيورا على الدين، فعندما علم أنني من الأحمديين استاء وأخذ يضرب يده بفخذه مرة بعد أخرى قائلا: لماذا لا تغرق السفينة التي يسافر بها هذا الأحمدي، مع أنها نفس السفينة التي كان هو يسافر بها، ولو غرقتْ لغرق معها حتما. باختصار، كان يبدي غيرة كبيرة على الدين، ولكني وجدتُه يتغنى بأبيات عشقية فاحشة جدًا

ونحن في طريقنا من مكة إلى منى أيام الحج. فاقتربت منه يوما رغم بغضه وحقده وقلت: أنت تحب الدين كثيرا، ولكني رأيتك تغنّي في "مِنى" أبياتًا فاحشة جدا. لماذا؟ فقال: الواقع أني مِن تجار مدينة "سُورَتْ" الهندية، ويعظِّم الناس الحجاجَ كثيرا عندنا. ولنا محلّ بيع بالجملة، وكان الناس يأتوننا من المناطق المجاورة بكثرة لشراء البضائع، ولكن في السنة الماضية ذهب صاحب المحلّ المجاور إلى الحج، وعلّق على محلّه لافتة مكتوب عليها: متجر الحاج فلان، فترك الناس متجرنا وتوجهوا إلى متجره ظنًّا منهم أنه عملٌ يُثابون عليه. فقال لي أبي: أيها الشقي، اذهبْ للحجّ وإلا سوف تصاب تجارتنا بالكساد. فجئت للحج، وعند عودتي سوف أكتب كلمةَ "الحاجّ" مع اسمي على لافتة محلّنا، فلن نُصابَ بالكساد بعد ذلك.

فلم أقُل للشاب شيئا عندها، لكنني تأسفت في قلبي على حاله إذ كان يغار على الدين لدرجة أنه كان لا يبرح يضرب فخذه بيده قائلا: لماذا لا تغرق السفينة التي يركبها الأحمدي، ولكنه جاء للحج بدون أن يدرك أن عليه أن يحجّ ابتغاء مرضاة الله، لا لأن يُسمى حاجًّا، فيعظّمه الناس ويأتوا إلى متجره بكثرة للشراء.

إذن، إن كثيرًا من الناس يقومون في الظاهر بأعمال الزهد والعبادة ابتغاء مرضاة الناس ومدحهم وقلوبهم خالية تماما من حب الله تعالى. ونجد عند النصارى أنهم يكرمون القسيسين تكريما عظيما، وكل كبار العائلات الأوروبية ينذرون أحد أولادهم لخدمة الكنيسة، ولكن ليس لأنهم يعظمّون المسيحية، أو لكي يفوز ابنهم برضا الله تعالى بعد أن يصبح قسيسا، إنما يفعلون ذلك خوفًا من أن تفقد أسرتهم نفوذها السياسي. ومن سوء حظ المسلمين أنهم لم يكرموا العلماء، فأهمل كبار القوم ضرورة تعلُّم الدين، ولكن الأوروبيين يكرمون القُسس جدا، لذلك يستغلّ كبار قومهم هذا الأمر سياسيا على الدوام مخافة أن يثور الناس ضدهم فيفقدوا نفوذهم السياسي. فلأن الناس لا يقومون بأعمال الزهد والعبادة أحيانًا إلا ليزدادوا عزًّا ونفوذًا بين القوم، لذلك يوصي الله المؤمنين ألا يدَعوا أفكار السمعة والرياء تتسرب إلى قلوبهم، بل يجب أن يكون رضا الله تعالى

هو الحافز وراء أعمالهم الصالحة كلها. على المرء أن يصرف عنايته عن المخلوق إلى الله تعالى، ويجعل أعماله الصالحة وَقْفًا لله تعالى، لأنه تعالى لا يتقبل من أعمال الإنسان إلا ما يقوم به ابتغاء وجهه تعالى، وكل عمل مشوب بشيء من الرياء يُردّ في وجه صاحبه، ويسبّب له العذاب بدلَ الثواب.

ثامنا: والمعنى الثامن للدِين هو العادة، وعليه فتعني هذه الآية: عليكم أن تطيعوا الله تعالى بحيث تصبح عاداتكم أيضا تابعة لمرضاة الله تعالى.

إن العبادة التي تتم بالعادة لا قيمة لها في الظاهر، فمثلا إذا كان المرء لا يصلي إلا لأن أبويه عوّداه على الصلاة فاعتادها، أو لا يصوم إلا لأن أبويه أكرهاه على الصيام فاعتاده، فعادته تُعتبر سيئة على العموم. ولكن يجب أن نتذكر أن العبادة التي تتم بالعادة نوعان: فأحدهما عبادةٌ تكون بدايتها بمجرد العادة، فمثلا يبدأ المرء عملاً من العبادة دونما تفكير وإرادة فيعتاده، أو يأمره غيره بذلك العمل فيقوم به من دون تفكير وتدبر إلى أن يعتاده، فهذه العبادة التي يقوم بها كعادة لا قيمة لها. ولكن الذي بدأ العبادة وغيرها من الأعمال الصالحة حبًا لله تعالى حتى أصبحت هذه الأعمال عادةً وجزءا لا يتجزأ من حياته وصدرت منه من دون إرادة وتفكير، فمثل هذه العبادة التي تتم كالعادة ليست كعبادة الشخص السابق، لأنه بدأ هذه العبادة واستمرّ فيها بخلوص النية حبًا لله وابتغاء مرضاته حتى صارت عادة راسخة فيه، وجزءا لا يتجزأ من حياته، والفعل الذي يصدر نتيجة هذه العادة لا بد أن يُسمّى ميزة، لأنه قام به بإرادة وبمجاهدة ابتغاءَ مرضاة الله، وقد تكرر منه هذا الفعل حتى اعتاده فأصبح جزءا من حياته. فهذه العادة لا تسمى جبرية ولا سيئة ولا بدون إرادة حتى تُعتبر لغوًا، بل هي عادة حسنة إذ كانت بدايتها بنية ابتغاء مرضاة الله تعالى. ومِن سنن الله تعالى أن الإنسان إذا عمل عملاً بلذّة وشوق على التوالي والتكرار صدر منه هذا العمل تلقائيا، ولذلك فإنّ العبادة التي يقوم بها هذا الإنسان كعادة لا تسمى عبادة تقليدية، بل تسمى منتهى الطاعة.

وهناك جانب آخر من هذا المعنى، وهو أن الإنسان يعتاد بعض الأعمال بحُكم محيطه. فبعض الناس مثلاً يعتادون شرب الشاي، وبعضهم يعتادون تناول الأطعمة الشهية، وبعضهم يعتادون لبس اللباس الجميل، فالله تعالى يقول لنا في هذه الآية أنكم إذا اعتدتم على شيء متأثرين بمحيطكم، فيجب أن تعتادوا ما يُرضي الله تعالى، ولا تعتادوا شيئا يثير سخط الله. وكأنها إشارة إلى أن على المؤمن أن يتجنب اللغو من العادات. لا بد للإنسان من أن يعتاد بعض الأشياء بتأثير محيطه، إذ ليس في الدنيا أحد لا يعتاد شيئا ما، لكن كثيرا من الناس لا يأخذون مما حولهم إلا عادة الأكل الشهيّ أو اللبس البهيّ أو العيش الهنيّ، بينما لا يأخذ بعضهم مما حولهم من الناس إلا الصلاح والتقوى والعبادة. فكلا الفريقين قد تأثر بما حوله، لكن الفرق أن الأول تأثر لراحة نفسه فقط، وأما الثاني فتأثر لوجه الله تعالى إذ أخذ مما حوله الصلاح والتقوى فقط. وكأن الذي قَبِلَ من الآخرين عادة الأكل اللذيذ أو اللبس الجميل قدّم مرآة نفسه للآخرين، أما الذي اعتاد برؤية الآخرين الصلاةَ والصومَ والصدقة والبرّ فقدّم مرآة نفسه أمام الله تعالى.

باختصار، يقول الله تعالى إنكم لا بد أن تعتادوا بعض الأمور بحكم عيشكم بين الناس، فاسعوا أن تعتادوا ما يرضي الله تعالى لا ما يرضي الناس. ومثاله كما قال الرسول ﷺ: عليك بغضّ البصر، فإذا وقع بصرك على امرأة من غير المحارم صدفةً فلا ذنب عليك، ولكن لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ وإلا لصرتَ آثما (ابن ماجه: كتاب النكاح ، باب ما يؤمر به من غض البصر). والحكمة في ذلك أن الإنسان إذا أعاد النظر إليها فيعيدها بإرادته، وأي عمل يقوم به الإنسان بإرادته فإنه يعتاد عليه شيئا فشيئا. فقوله تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني ألا تكرّروا ولا تعتادوا الأعمال السيئة، بل يجب أن تتكرر منكم تلك الأعمال التي توصلكم إلى الله تعالى، أي التي أمركم الله بها، أما ما نهاكم الله عنه فلا تعتادوه بتأثير محيطكم. وكأن الله تعالى يأمرنا أن نتحرر من التأثير السيئ لمحيطنا حتى لا نعتاد شيئًا سيئًا بتأثير الآخرين، ونقبل التأثيرات الحسنة منهم فقط.

الحق أن العادة ظلمة عظيمة، فهي تجعل المرء في بعض الأحيان متملقًا وجبانًا وكسولاً وتمنعه من إنجازات كبيرة. خُذوا مثلاً عادةَ التدخين والشيشة أو تعاطي الأفيون أو شرب الشاي أو استعمال "نَسْوار"◆، فالمعتادون على هذه الأشياء إذا خرجوا للجهاد لم يقدروا على الثبات فيه، بل تزعزعت أقدامهم حتمًا، لأن هذه الأشياء لا تتيسر لهم هناك. في أثناء الحرب يضطر الإنسان أحيانًا للجوع والفاقة أياما ويبيت في الغابات ويعيش على غذاء قليل رديء جدا. ولذلك فإن الذي يتعاطى الخمر أو الأفيون أو النرجيلة أو الشيشة أو "نسوار" لا يمكن أن يخرج للقتال بشجاعة؛ لأن عادته هذه تقف سدًا منيعًا دون هذه التضحية، إذ يفكر أنه سيعاني كثيرا بسبب هذه العادة لو اشترك في الحرب. إن أكبر شكوى أثارها الجنود في الحرب العالمية الأخيرة هي أنهم لا يجدون خمرًا ولا سيجارًا، وقد كبر حجم الكميات التي طالبوا بها لدرجة أن الضباط الإنجليز لم يستطيعوا سد حاجاتهم، ولم يكن وراء هزيمة السيد تشرشل في الانتخابات البرلمانية الأخيرة إلا أن الجنود كلهم صوّتوا ضده، إذ رأوا أن الحكومة التي لم تمدّ جنودها بالخمر والسيجار بكثرة وتسببت في معاناتهم لا تستحق البقاء والاستمرار. والحق أن الضباط الإنجليز كانوا معذورين في الواقع في عدم تحقيق مطالب الجنود هذه، فهل عليهم أن يجمعوا العتاد للحرب أم يصنعوا الخمر والسيجار ويبعثوها للجنود؟ ومن أجل ذلك يوصي الله المؤمنين ألا يعتادوا أي شيء إلا أعمال البر والذِّكر التي يرضى الله بها حتى لا يضطروا للخضوع أمام غيرهم، أو يقصروا في أداء الخدمات للأمة.

ثم يقول الله تعالى ﴿حنفاء﴾. واعلم أن ما ذكرناه عند تفسير قوله تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يشمل معاني لفظ "حنيف" المذكورة لدى شرح الكلمات

◆ "نسوار" يشبه "النشوق" الذي يستنشقه البعض، و"القات" الذي يمضغه أهل اليمن؛ غير أنه يكون تبغًا مطحونًا يضيفون إليه بعض المواد ويضعونه في الفم أو يستنشقونه في بعض مناطق الهند وباكستان وأفغانستان. (المترجم)

إلا معنى واحد، وهو أن الحنيف هو من يظل ثابتًا قائمًا على ميوله الحسنة. فكأن الله تعالى يقول هنا: نضيف إلى حُكمنا السابق أمرًا آخر وهو أن تظلوا ثابتين قائمين على الحسنات، وليس أن تعملوا الحسنات بحماس بضعة أيام، ثم تملّوها وتتركوها.

الواقع أن أكبر خطأ يقع فيه الإنسان أنه لا يداوم على الحسنات، إنما يعمل بها بضعة أيام ثم يتركها، مع أن العمل المقبول عند الله تعالى إنما هو ذلك الذي يداوم عليه صاحبه، وهو لا يستطيع الدوام على عمل إلا إذا كان ذا ثبات ومثابرة. إذن، فالله تعالى قد أمرنا هنا أولاً أن تكون طاعتنا وغلبتنا وحكمنا وسيرتنا وتدابيرنا وعباداتنا وخيراتنا وعاداتنا كلها لله تعالى، ثم يأمرنا بحكم آخَر: أنكم إذا عملتم بهذه الحسنات فكونوا ثابتين عليها متمسكين بها كي لا تَزِلَّ قدمكم من هذا المقام نتيجة الكسل، فتضيع حسناتكم كلها، إذ لا ينفع عند الله تعالى إلا العبادة التي يداوم عليها صاحبها. ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ دخل بيته مرة، فوجد في حجرة بعض زوجاته حبلاً معلقا بالسقف، فقال: ما هذا الحبل؟ فقالت: يا رسول الله، لقد علّقت هذا الحبل حتى إذا نعستُ في العبادة استندتُ له. فقال ﷺ: فُكُّوه، فإن الله تعالى يحبّ من العبادة ما داوم عليه صاحبه وإنْ قَلَّ، أما العبادة التي تؤدي إلى الملل أو يتركها صاحبها بعد بضعة أيام فهي غير مقبولة عند الله تعالى. (البخاري: كتاب التهجد)

يظن البعض أن هذا الحديثَ يعني أن على المرء أن تكون عبادته على منوال واحد لا تقلّ ولا تزيد، لكن هذا المعنى باطل بداهةً، لأن الإنسان أحيانًا لا يقدر على أن يعبد الله كثيرًا نتيجة مرض أو سبب آخر، بل قد يضطر لتركها أيضًا، والثابت عن النبي ﷺ أنه لم يستطع في بعض الليالي أن يصلي ثماني ركعات من النوافل التي كان يصليها عادة (مسلم: كتاب صلاة المسافرين). فثبت أن هذا الحديث لا يعني أن لا تزيدوا ولا تنقصوا من عبادتكم النافلة، بل المراد أنكم إذا بدأتم عبادة فواظبوا عليها، وليس أن تؤدوا النوافل بضعة أيام ثم تتركوها، أو أن تقوموا الليل كله في بضعة أيام، ثم لا تصلّوا حتى ركعتين نوافل في أي ليلة. وعلى

المؤمن أن يتجنب مرض عدم الدوام كلية، لأن الحسنة إنما هي ما داوم عليه صاحبه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾. اعلم أن الله تعالى قد سبق أن قال ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، مما يدل دلالة واضحة على أن إقامة الصلاة في قوله تعالى ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ لا يعني الصلاة المعروفة فقط، إذ لو كان هذا هو المراد لما كان هناك داع لذكرها على حدة بعد ذكر العبادة ذكرًا واضحًا، حيث قال الله من قبل إن على المؤمنين أن يخلصوا لله وحده عبادتَهم من صلاة وصوم وحجّ وزكاة وغيرها. فثبت أن لإقامة الصلاة بعد ذكر العبادة هنا مفهومًا غير مفهومها المعروف، وهو نفس المفهوم الذي ذكرتُه مرارا في خطبي وخطاباتي، وبيانه كالآتي:

لا شك أن من معاني إقامة الصلاة أداؤها بكل شروطها. ولا شك أن من معانيها ما قد ركّز عليه المسيح الموعود عليه السلام كثيرا قائلاً إن المراد من إقامتها أن صلاة المؤمن تنهار مرة فيقيمها، فتنهار ثانية، فيقيمها، فتنهار ثالثة فيقيمها وهكذا دواليك.. أي أنه عندما لا يجد في صلاته الخضوع والخشوع والتركيز الكامل إلى الله تعالى فإنه يسعى لإصلاحها وتحسينها مرة بعد أخرى (ملفوظات، المجلد الرابع ص ٦٠٤-٦٠٥). لكن الواقع أن هذا المفهوم قد شمله قول الله تعالى من قبل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. والحق أننا لو نظرنا إلى معاني لفظ الإقامة نظرة شاملة لكان لإقامة الصلاة مفهوم زائد هو: أولاً: أنهم يروّجون الصلاة في العالم. في لغتنا أيضا يقولون إن فلانا روّج تقليدًا كذا. إذن فيتوقع الله تعالى من المؤمنين إقامة صلواتهم، أي أنهم لا يصلّون بأنفسهم بل يبيّنون محاسنها للآخرين ويحثّونهم على أدائها. فالذين لا يعلمون كلماتها يعلّمونهم إياها، والذين لا يعلمون ترجمة معانيها يعلّمونهم ترجمتها، والذين لا يصلّونها يحثّونهم على أدائها، والذين يصلّونها يرغّبونهم فيها أكثر. فكل واحد منهم يسعى لترويجها حتى تروج الصلاة بينهم رواجا قويا. وكل هذه المعاني تندرج في إقامة الصلاة.

وثانيًا: إن الله تعالى لا يأمرنا هنا بإقامة العبادة فقط، بل بأدائها جماعةً أيضا. ذلك أن الإسلام دين اجتماعي، أما الأديان الأخرى فهي فردية، فإذا قام أحد فيها بالعبادة منفردا اعتبروه من كبار النساك الزهاد العارفين، وأشادوا بصلاحه وقداسته وقربه ووصاله بالله تعالى. إنهم يركّزون على العبادة الفردية لدرجة أنهم إذا سمعوا أن ناسكًا يعبد في مغارة منذ أربعين سنة مثلاً، ذهب لزيارته كبار الباندات والقسيسين والرهبان وعامة الناس فوجًا بعد فوج، وقدّموا له النذور، وسجدوا له، وتوسلوا إليه بتذلل وتواضع باعتباره ناسكًا كبيرًا قادرًا على قضاء حاجاتهم، حيث ترك الدنيا و لم يزل يردد اسم الله تعالى في هذه المغارة وحده منذ أربعين سنة. لكن الإسلام لا يعتبر مثل هذا الإنسان مقرَّبًا عند الله تعالى. وهذا هو الفارق الكبير بين الإسلام وغيره من الأديان. إن الذي لا يصلي مع الجماعة فلا يعتبره الإسلام صالحا ومقربا، ولا يعظّمه، مهما قام بالعبادات، بل إن الذي يهمل إقامة الصلاة جماعةً يعتبره الإسلام ممن ليس له من الدين نصيب. إن الذي ينقطع عن القوم ولا يهتمّ بالأُمة وفلاحها ويجلس قابعًا في مكان منفردا فإنه يستحق العقاب الشديد من الله تعالى، دَعْك أن يُعَدّ من عباد الله الصالحين المقرَّبين. فمَن تعتبره الأديان الأخرى قديسًا بسبب عبادته منفردًا يعتبره الإسلام مطرودا من عند الله. الدنيا تعتبره مقربًا عند الله، أما الإسلام فيعتبره محروما من قرب الله. ذلك أن دين الإسلام يأمر المؤمنين بإقامة الصلاة، أي ألا يؤدّوا الصلاة فقط، بل ينبغي أن يصلوا مع الجماعة، ولا يصلحوا أنفسهم فقط، بل يجب أن يساندوا الأمة كلها، ويرفعوا مستوى روحانية أفرادها كلهم، ولا يهربوا من القوم بل يجب أن يكونوا معهم، ويحافظوا على أخلاقهم وروحانيتهم بحذر ويقظة.

والحكم الثاني في هذه الآية هو قوله تعالى ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾. واعلم أن الأمر بإيتاء الزكاة قد ورد في القرآن بعد إقامة الصلاة دومًا، وفيه إشارة لطيفة للغاية، ألا وهي أن المرء إذا لم يطّلع على ما يوجد في أمته من فقراء وبؤساء فلا يمكن أن يقدم لهم أي مساعدة. فأَنَّى لِمَن يردد سبحان الله سبحان الله قابعًا في مغارة جبل ليل نهار أن يعرف أن هناك جياعًا يموتون فاقة، وفقراء لا يجدون ثيابًا، ومساكين

يتكففون الناس من أجل قرش، وأولادًا محرومين من العلم لعدم المال. وما دام هذا العابد غيرَ مطّلع على أحوال ذوي الحاجة فكيف يمكن أن يسعى للنهوض بهم؟ إنما يسعى لمساعدة الفقراء وللنهوض بالمساكين إذا كان على علم أن في قومه فقراء ومساكين، وأن من واجبه أن يطعم الجياع ويسقي العطشى ويكسو العراة ويداوي المرضى، ولكنه لن يعرف ذلك إلا إذا اعتاد أداء الصلاة جماعةً في المسجد. عندما يحضر المسجد يجد أنه يصلّي على يمينه شخص سليم الصحة جميل اللباس تفوح منه رائحة العطر، وعلى يساره شخص ذو أسمال بالية لا تُحتمل رائحة جسمه الكريهة، وقد علت التجاعيد وجهه. وعندما يرى هذا المشهد يصاب قلبه بالكرب الشديد ويقول: إن من واجبي أن أنفق على فقراء قومي وأعمل على تنفيس كرباتهم. أو إذا رأى في المسجد مثلاً شابًا في ثياب رثّة يبلغ العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره، ولكنه نحيف هزيل قد جحظت عيناه من شدة هزاله، فلا بد أن يتقدم إليه ويقول له: كيف حالك؟ لماذا أنت في هذه الحالة البائسة؟ فيقول له: إني مريض، وليس عندي طعام وشراب. فيقول له: لكنك شاب، فلماذا لا تكسب بيدك؟ فيقول مثلاً: إنني خبير بأعمال النجارة، ولكن لا أقدر على شراء أدواتها، أو إني أتقن البناء أو الحياكة أو الحدادة، لكنني لا أقدر على شراء الأدوات اللازمة. فيقول هذا في نفسه: من واجبي أن أساعد فقراء أمتي وأعمل على دفع معاناتهم لكي يعيشوا بكرامة.

فالحق أن الإنسان لن يجد حافزًا لإيتاء الزكاة إلا بإقامة الصلاة. لقد فتح الإسلام بأمره بأداء الصلاة جماعةً خمس مرات يوميًا طريقًا سهلاً للإنسان للاطلاع على أحوال أفراد الأمة. كيف يمكن للورد الإنجليزي أن يطلع على أحوال أمته؟! فهو يعيش في بيته في بحبوحة العيش بين خدم ينتظرون إشارته لخدمته لابسين أزيائهم الخاصة، ويأكلون على خوانه أكثر مما يحتاجون حتى يصابوا بالسمنة. وإذا ذهب إلى النادي وجد حوله أناسًا مثله من الشريحة الراقية من المجتمع، فكيف يمكنه أن يطّلع على حال فقراء أمته. أما المسلم الذي يصلي في

المسجد جماعةً خمس مرات يوميًا فيرى هنالك أفراد مجتمعه خمس مرات كل يوم، فيطلع على أحوالهم بسهولة، فيتذكر ما يجب عليه للنهوض بأمته.

وأما قول الله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ فهناك مضاف محذوف وتقدير الجملة هو: "ذلك دينُ الملةِ القيّمةِ". والدين هنا بمعنى الطريق أو الحال أو الشأن، والمعنى: هكذا يجب أن تكون حال وطريق الملة التي تظلّ قائمةً في الدنيا. وحيث إن القيم يعني المتولي أيضًا، فقوله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ يعني: أن الأمة المتولّية أي التي يولّيها الله أمرَ الناس يجب أن يكون هذا شأنها، وإلا لن تقدر على أداء واجبها.

إذن للآية معنيان: أوّلُهما: أن هذه علامات الأمة التي تظل قائمة في الدنيا. وثانيهما: أن من واجب الأمة التي يجعلها الله تعالى واليةً على الناس أن تتحلى بهذه المزايا.. أي أن الأمة التي تتحلّى بهذه الخصال تصير متوليةً أي حاكمة في الدنيا.

الواقع أن الله تعالى كان قد أشار في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلى أمرين. فإقامة الصلاة إشارةٌ إلى أن المؤمنين يظلّون في صلح مع الله تعالى ويؤدون حقوقه بكل أمانة، أما إيتاء الزكاة فإشارةٌ إلى أنهم يحسنون إلى بني جنسهم ويتحمسون لخدمتهم ويؤدون حقوقهم باهتمام بالغ. أما الآن فقال الله تعالى ﴿وَذلك دِينُ القَيِّمَة﴾.. أي أن الأمة التي تريد أن تبقى قائمة في الدنيا عليها أن تتبع هذا الطريق المذكور آنفًا.. أي أنهم إذا كانوا في صلح مع الله تعالى ومع العباد أيضا فلن يأتي عليهم الدمار. إنما يقع الدمار بالأمم حين يُسخطون ربهم، فيتعرضون للعذاب والكوارث، أو حين يثيرون الناسَ ضدهم، فتقع أحداث التمرد والسطو والقتل وإراقة الدماء في البلاد. لماذا يقع العذاب والطاعون والزلازل في العالم؟ إنما سببه أن الناس يفسدون علاقتهم مع الله تعالى. ولماذا تقع الحروب وأحداث القتل وسفك الدماء بين الناس؟ إنما سببه أن بعضهم يظلمون الآخرين، ويماطلون في

أداء حقوقهم ويسوّفون، وعندما يفوق الوضع احتمالهم تبدأ الاشتباكات. هذان من أهم أسباب الفساد في العالم: إفساد العلاقة مع الله أو مع العباد. ولذلك يقول الله تعالى إن الأمة إذا اعتنت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانت في صلح مع الله وصلح مع العباد، لم تتعرض للدمار، إنما يحل الدمار حين يُفسد الناس علاقاتهم مع الله فيتعرضون للعذاب، أو يفسدون علاقتهم مع العباد فتقع بينهم الحروب والقتال. ما هي الرسالة التي أتى بها محمد رسول الله ﷺ للعالم؟ إنما هي: كُونوا في صلح مع الله وصلح مع العباد تكونوا في مأمن من الانحطاط والزوال. وأيُّ شيء في هذه الرسالة دفَع الناسَ إلى معارضته ﷺ؟ إنه لم يدعُهم إلا إلى ما هو خيرهم، ولكنهم بدءوا الحرب ضدّ محسنهم هذا بدلاً من أن يشكروه.

ونظرًا إلى المعنى الثاني للقيّمة سيعني قوله تعالى ﴿وَذلك دِينُ القَيِّمَة﴾ أن الأمة التي يجعلها الله تعالى متولية على الناس يجب أن تسلك هذا الطريق، وإلا فتُعتبر مقصِّرة في أداء واجبها تقصيرًا فادحًا.

إذن، فبناءً على أحد معاني القيمة تكون هذه الآية إشارةً إلى المحاسن الذاتية للأمة، وبناءً على المعنى الثاني للقيمة تكون إشارةً إلى المحاسن النسبية للأمة. فالقول إن الأمة التي تسلك الطريق السليم وتبقى قائمة في الدنيا وتنجو من الدمار تتحلى بهذه الخصال، لقولٌ يشير إلى محاسنها الذاتية، أما القول إن الأمة التي يجعلها الله متولّية وحاكمة على الناس عليها أن تتحلى بهذه المحاسن وإلا تعتبر مقصرة في أداء واجباتها تجاه الحكم، فهو إشارة إلى محاسنها النسبية.

المؤسف أن المسلمين نبذوا هذه الأخلاق بعد وفاة الرسول ﷺ بزمن قصير، وبقدر ما تخلّوا عنها خذلهم الله تعالى. واليوم هناك فرصة للأحمدية لإرساء هذه الأخلاق مرة أخرى، ولكن إرساءها بشكل دائم مستحيلٌ ما لم نرسِّخ القرآن الكريم في عقول الناس بقوةٍ مرةً بعد أخرى، وما لم يصبح القرآن حيًّا في الأمة كلها.

لقد أثار القسيس "ويري" هنا اعتراضا عجيبا، فهو أوّلاً قد ترجمَ قول الله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.. بأنه ذلك الدين الحق، ثم بناءً على ترجمته هذه قال كان محمد يظن أن الإسلام واليهودية والمسيحية دين واحد، أي أن تعليم هذه الأديان الثلاثة واحد، ثم قال: ذلك دين الأمم الثلاث. وكأن "ويري" يفسر قوله تعالى ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ بأن دين الناس واحد منذ آدم إلى اليوم –وهذا ما يعتقد به بعض جهلة المسلمين– ثم يقول: وهذا الأمر باطل، وهكذا قد قدّم محمد بنفسه دليلا على كونه نبيا كاذبا! (تفسير القرآن لــ "ويري")

والردّ الأول على "ويري" هو أنه قد ترجم هذه الآية ترجمة خاطئة. لا شك أنه قد أخذ ترجمة المستشرق "سَيل"، ولكنها ستُنسَب إليه لأنه أخذ منه باعتبارها صحيحة (THE KORAN; BY SALE V. 2 P. 494). والواقع أنّ قوله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ لا يعني: ذلك الدين الحقّ، بل معناه: ذلك دينُ الأُمة التي من شأنها أن تبقى قائمة، أو ذلك حالة الأمة التي من شأنها أن تبقى قائمة. ذلك أن كلمة ﴿القيِّمة﴾ ليست صفةً للدين في الحقيقة، كما لا يمكن أن تُعتبر وصفًا للدين بحسب قواعد العربية، لأن الدين مذكّر والقيِّمة مؤنّث، ولا يمكن وصف المذكر بصفة مؤنثة. إذن، فلا بد من اعتبار حذف محذوف هنا بحسب قواعد العربية، وهذا المحذوف هو الملة وما يشابهها من كلمة نظرًا إلى السياق، ولذلك قلتُ إن تقدير الجملة هو كالآتي: ذلك دينُ الملة القيّمة.

والرد الثاني هو أنه لا يثبت من هذه الآية أن القرآن يعتبر هذه الديانات دينا واحدا، بل قد صرح الله تعالى في هذه الآية بكلمات هي أشد وضوحًا وصراحة مِن أيّ آية أخرى قرآنية بأن دين اليهود والنصارى مختلف عن الإسلام، حيث وصف القرآن الكريم بكونه ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وبأنه فيها ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾. الغريب أن القرآن الكريم يركز في هذه الآية على ما يوجد بين الإسلام وغيره من الأديان من اختلاف كبير، ومع ذلك يزعم "ويري" أن القرآن قد أعلن هنا أن الإسلام واليهودية والمسيحية كلها دين واحد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٨

التفسير: كانت (مِن) في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ بيانية في رأيي، أما هنا في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهي تبعيضية، والكفر المشار إليه هنا هو ليس ما يكون عن جهل، إنما هو ما يكون عن علم وعناد، لأن الله تعالى يخبر هنا أن عقوبة هؤلاء الكافرين دخول النار خالدين فيها، وهذه العقوبة دليل على أن الحديث هنا إنما هو عن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين كفروا عمدًا بعد أن قامت الحجة عليهم، والذين لن يقبل الله منهم أي عذر، ولذلك قال الله إنهم يدخلون نار جهنم خالدين فيها.

ثم يقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، بينما قال عن المؤمنين ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. والشر والخير هنا صيغة تفضيل، وأصلهما أَشَرُّ وأَخْيَرُ، وسقطت الهمزة لكثرة الاستعمال، فشَرُّ البريّة يعني أن هؤلاء الكافرين يكونون أسوأَ المخلوقات، وخيرُ البريّة يعني أن المؤمنين هم أفضل المخلوقات.

لقد بينتُ من قبل أنه كلما ذكر القرآنُ أهلَ الكتاب والمشركين قصَد بهما كلَّ العالَمِ غير المسلم، إذ ينقسم إلى قسمين: أهل الكتاب والمشركين. وما دام ليس في الدنيا إلا فريقان اثنان من الأشرار وهما أهلُ الكتاب والمشركون، فالسؤال: مَن هم هؤلاء القوم الذين يكون أهلُ الكتاب والمشركون أسوأ منهم؟ ولما كانت في العالم فئة واحدة من المؤمنين، فمَن هم هؤلاء القوم الذين قيل هنا إن فئة المؤمنين تكون أفضل منهم؟ لا شك أن الأنبياء في الماضي كانوا يُبعثون إلى أقوامهم الخاصة، وكلّ أمة كانت ملزمة بالإيمان بنبيها ولم تكن بحاجة للإيمان بنبي قوم آخرين، فلو قيل

عندها إن المؤمنين أفضل من جميع المخلوقات، لفُهم أن المؤمنين بالنبي زرادشت أفضل من المؤمنين بالنبي كرشنا ومن المؤمنين بالنبي موسى مثلاً. ولكن عند نزول القرآن لم تكن في العالم إلا جماعة واحدة من المؤمنين، فالسؤال ينشأ هنا: مَن هم هؤلاء الذين تكون جماعةُ المؤمنين الآن أفضلَ منهم؟ وهذا سؤال كبير ينشأ هنا ولا بد من الإجابة عليه.

أما الجواب فاعلم أن هاتين الآيتين تعقدان مقارنةً بين أمة الرسول ﷺ وأمم الأنبياء السابقين وبين أعداء محمد ﷺ وأعدائهم، فقال الله فيهما ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.. أي أن الذين كفروا بمحمد من أهل الكتاب والمشركين هم أسوأ من أعداء الأنبياء السابقين كلهم كموسى وعيسى وكرشنا وزرادشت وغيرهم، وأن الذين آمنوا بمحمد هم أفضل من أمم الأنبياء الآخرين كلهم. ذلك أن محمدا ﷺ قد جاء بالشريعة التي فيها كتب قيمة وتحتوي على صُحُف مطهرة وتشتمل على أفضل تعاليم الأنبياء السابقين كلهم. لقد عملتْ أمةُ نوح بتعليمه فقط وأمةُ موسى بتعليمه فقط وأمةُ عيسى بتعليمه فقط وأمةُ كرشنا بتعليمه فقط وأمةُ زرادشت بتعليمه فقط، أما أمة محمد ﷺ فعملتْ بتعاليم كل هؤلاء الأنبياء أيضا، كما يشير إلى ذلك قولُه تعالى ﴿فيها كُتُبٌ قَيِّمَة﴾ -أي أن القرآن تضمنَ كل التعاليم القيمة من الشرائع السابقة- والأمةُ التي عملتْ بتعاليم كل الأنبياء السابقين لا بد أن تكون أفضل الأمم السابقة كلها. لنفترضْ أن زيدًا يملك جنيهًا، وبكرًا جنيهين، وعمْرًا أربعة جنيهات، وخالدًا ثمانية جنيهات، وحكيمًا ستة عشر جنيهًا، أما عبد الله فيملك اثنين وثلاثين جنيهًا، فلا شك أن عبد الله يملك أكثر مما عند الباقين كلهم. وحيث إن الله يخبر أن محمدا ﷺ ﴿يَتْلو صُحُفًا مُطَهَّرَة﴾ ويخبر أن القرآنَ صحف مطهرة فيها كتبٌ قيمة، لذلك يقول تعالى هنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.. أي أن الأمة التي آمنت بمحمد هي أفضل من باقي الأمم كلها، لأنها عملت بتعاليم الأنبياء السابقين كلهم. ثم وصف الله تعالى أعداءَ الرسول ﷺ بأنهم شر البرية، ذلك لأن أعداء نوح أو موسى أو عيسى أو كرشنا أو زرادشت لم يكفروا إلا بتعليمه هو وحده، أما

أعداء محمد فقد كفروا بتعاليم نوح وموسى وعيسى وكرشنا وزرادشت وغيرهم من الأنبياء الذين أتوا في مختلف العصور والذين يبلغ عددهم مئة وأربعة وعشرين ألف نبي، لذلك صار أعداء محمد شرَّ البرية أي أسوأ من جميع المخلوقات. فقوله تعالى في وصف القرآن بأن فيه ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَة﴾ وأن ﴿فيها كُتُبٌ قَيِّمَة﴾ يحتّم أن الكافرين بمحمد ﷺ هم ﴿شَرُّ البَرِيَّة﴾ والمؤمنين به هم ﴿خَيْرُ الْبرِيَّةِ﴾.

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٩﴾

التفسير: لقد قال البعض إن عدن في قوله تعالى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ هو اسم مكان (روح المعاني). لكن هذا ليس بصحيح، بل ﴿عدن﴾ يعني الدوام والخلود (الأقرب)، والمراد من الآية أنهم يجدون عند ربهم جناتٍ أبدية تجري خلالها الأنهار. فكل جنة يكون لها نهر، ويكون لأهلها حقّ التصرف الكامل عليها.

ثم يقول الله تعالى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. لماذا رضي الله عنهم؟ لأنهم عملوا بقوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ على أحسن وجه. فما داموا قد تحلّوا بهذه الخصال فكيف لا يرضى الله عنهم ولا يرضون عنه؟ لقد عاملهم الله معاملة، وهم بالمقابل عاملوه بمعاملة.

إن كل ما ينشب في العالم من حروب دينية ومفاسد بسبب الاختلافات الدينية إنما سببه أن الناس لخطئهم يسمّون المعاملة من طرف واحد دينًا، مع أن الدين الحقيقي إنما هو أن يرضى العباد عن الله ويرضى الله عن العباد.. أي أن تُكسبهم أعمالُهم رضا ربهم، أما ربهم فيُمطر عليهم أنواره وبركاته. ما قيمة دين يكون أهله

يصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون، ومع ذلك لا يكلّمهم الله، بل يلتزم الصمت تجاههم. ولله دَرُّ القائل:

اُلفت کا تب مزا ہے کہ دونوں ہوں بے قرار
دونوں طرف ہو آگ برابر لگی ہوئی

أي أن علامة الحب الحقيقي أن لا يقرّ للمتحابَّين القرار، وأن تكون نار الحب ملتهبة عند الاثنين على سواء.

هذا ما يبينه الله تعالى هنا بقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، حيث أخبر أنه ليس من الدين أن يلتاع العبد بحب الله تعالى ويضطرب في هجره، ويفيض قلبه بأماني وصال حبيبه ويقضي الليالي والنهار في بكاء وابتهال على فراقه، بينما يكون الله تعالى صامتًا في السماء لا يشنّف آذان العبد بصوته العذب، أو أن يظل الله يدعو العبد إليه، بينما يظل العبد غير مكترث لحبه تعالى. هذا لا يحدث في العشق الحقيقي أبدًا. إن الحب الصادق يقتضي أن تكون النار ملتهبة عند الطرفين، فيذوب العبد حُبًّا لله تعالى من ناحية، ومن جهة أخرى يضطرب الله على عرشه حبًّا لعبده. هذا هو مقام ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. فالحق أن الله تعالى قد بين هنا علامة الدين الحقّ. فلا قيمة لدينٍ يكون فيه الحب من طرف دون الطرف الآخر، ومثاله دين النصارى، فمهما دعاهم الله تعالى فلن يستجيبوا له إذ اعتبروا الشريعة لعنةً (غلاطية ٣: ١٢- ١٣)، وما دامت لعنةً عندهم فكيف يعملون بها، وكيف يجنون ثمار العمل بها؟ أما اليهود وكذلك مسلمو هذا العصر فإذا تحرّيت أمرهم وجدتَهم يمرّرون حبّاتِ المسبحة ويحكّون أنوفهم في العبادات، ولكن الله تعالى لا يحرّك لهم ساكنًا، مع أن الدين يعني أن يعبد الإنسان ربه وينال منه الجواب، ويرضى الرب عن العبد والعبد عن الرب.

أما قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فالواقع أن الله تعالى قد أنزله كي لا يظن المسلمون في المستقبل أن مقام ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ خاص بالصحابة فقط. من المؤسف أنه رغم هذه الآية الصريحة ظن المسلمون أن هذا المقام خاص

بالصحابة ولن يبلغه أحد بعدهم، مع أن الله تعالى قد أعلن هنا بوضوح: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.. أي لا خصوصية للصحابة في ذلك. لقد تحلّوا بالصفات التي أمروا بها فوصلوا هذا المقام، والآن لو تحلى بها غيرهم فنحن مستعدون لأن نهب له إياه. هذا المقام ليس خاصا بفئة معينة، بل هو خاص بصفات الله الحسنة، فمن تحلى بها منحناه إياه فورا.

إذن، فهذه الآية تزيل سوءَ فهم كبير وقع فيه المسلمون اليوم، حيث قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.. أي أننا سنحقق وعْدنا هذا لكل من يعمر قلبه بخشية الله ويعمل بأحكامه بحماس. فليتقدم كلُّ مَن يريد هذا الإنعام ويأخذه منا، لأن باب رضانا مفتوح للجميع. نحن مسؤولون عن إيفاء ما علينا، وأنتم مسؤولون عن إيفاء ما عليكم. ينبغي أن تتحلوا بخشيتنا وترضوا عنا، ونحن نعدكم برضانا عنكم. وكأنه تعالى يقول إن الخطوة الأولى يجب أن تُتَّخذ من قِبلكم، وسنتّخذ الخطوة الثانية حتمًا. فلا تظنوا أن هذا الإنعام خاص بالصحابة فقط، بل الحق أن كل من عمر قلبه بخشيتنا، فتحنا له باب وصالنا، وسيظل هذا الباب مفتوحًا لكل طالب.

سورة الزلزلة

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاء، ومدَنيّة في قول قتادة ومقاتل. (روح المعاني)

بما أن القول الأول يؤيده أحد الصحابة، فنرجّحه ونعتبرها مكية، غير أن المصاحف المتداولة في بلادنا مكتوب عليها أنها مدنية.

أما القسيس "ويري" فيعتبرها مكية قائلا: رغم أنها تبدو مدَنية من أسلوب أوائل آياتها، لكنها مكية في الواقع. (تفسير القرآن لِـــ "ويري")

ومما يحيّرني دائما جرأةُ هؤلاء المستشرقين على تحديد السور مكيةً أو مدنيةً بناءً على أسلوبها، مع أنهم لا يعرفون العربية حتى بقدر ما يعرفها المشايخ العاديون. الحق أنهم لا يفهمون اللغة العربية جيدًا، دَعْك أن يقدروا على معرفة أساليب الكلام العربي؟ إنما مثل آرائهم عن القرآن التي يؤسسونها على أسلوب آياته في زعمهم كمثل رأيٍ يبديه الطفل عن الفلاسفة اليونان أو الفلاسفة الألمان. الواقع أنهم يجهلون علم الروايات وتاريخ الإسلام، فلا يستطيعون إلقاء أي ضوء على الأمر من حيث شواهد التاريخ وعلم الروايات، ومع ذلك يريدون أن يؤكدوا للناس طول باعهم في العلم، فيصدقون بعض الأمور الإسلامية محتجين أن أسلوبها يدل على ذلك، وهكذا يتماشون مع الروايات العلمية كما يدّعون طولَ باعهم العلمي تحت شعار الأسلوب. مع أن الواقع أنهم لا يقدرون على بيان أسلوب الكتب العربية العادية، دعك من أسلوب القرآن الكريم.

الترتيب والترابط:

لقد بين الله تعالى في السورة السابقة ما كان سيظهر من تأثير القرآن في الزمن الأول من الإسلام، أما هذه السورة فتتحدث عن تأثير القرآن الذي سيظهر في الزمن الأخير، حيث بين الله تعالى أن هذا القرآن أو هذا الرسول سيقوم بإصلاح الناس ثانية حين يقع في العالم زلزال عظيم في كل المجالات وتتغير ماهية العلوم.

لم يفهم القسيس "ويري" الربط بين هذه السورة والتي قبلها، فراح يقول: يبدو أن هذه السورة ليست مكتملة في مضمونها ويبدو أنها قطعة من سورة أخرى. (المرجع السابق)

والحق أن الجاهل قد يقول قولاً حقًّا، وهذا هو حال قول "ويري" هذا، إذ اعترف من حيث لا يدري بأن هذه السورة تتمة لموضوع السورة السابقة. ومع أنه جاهل بعلوم القرآن الكريم، ورغم أنه فطن أن هذه السورة ليست مكتملة في معناها، إلا أنه لم يستطع أن يعرف أي سورة تكمل هذا الموضوع مع هذه السورة. ويماثل حال "ويري" حالَ ابن صياد اليهودي الذي كان يدعي معرفة ما في الصدور، فقال له النبي ﷺ مرة وقد خبّأ في قلبه موضوع سورة الدخان: أخبرْني بما في قلبي؟ فقال ابن صياد: هو الدُّخ (أبو داود: كتاب الملاحم). فالقسيس ويري أيضًا لم يستطع إدراك الأمر الأساسي بأن هذه السورة تتمة لموضوع سورة البيّنة، غير أنه أدرك بفكره العميق - والقاصر عن إدراك أسرار القرآن الكريم - أن هذه السورة تبدو جزءا من سورة أخرى.

وهناك رواية عن هذه السورة في مسند أحمد وأبي داود والنسائي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ اقْرَأْ ثَلاثًا مِنْ ذَوَاتِ ﴿الر﴾. فَقَالَ: كَبُرَتْ سِنِّي وَاشْتَدَّ قَلْبِي وَغَلُظَ لِسَانِي. قَالَ: فَاقْرَأْ ثَلاثًا مِنْ ذَوَاتِ ﴿حم﴾. فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ. فَقَالَ: اقْرَأْ ثَلاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ. فَقَالَ: مِثْلَ مَقَالَتِهِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرِئْنِي سُورَةً جَامِعَةً. فَأَقْرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لا أَزِيدُ عَلَيْهَا

أَبَدًا. ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، مَرَّتَيْنِ. (أبو داود: كتاب قراءة القرآن).

يرى شُرّاح الحديث والمفسرون أن هذه الرواية دليل على فضل هذه السورة. لكن الحقيقة -كما هو واضح من كلمات الحديث- أن ذلك الشخص لم يقصد إلا أن يخبره الرسول ﷺ بسورة قصيرة يتخذها وِرْدًا، لأنه اعتبر السور ذوات "الر" والمسبِّحات سورًا طوالا بالنسبة إليه، مما يعني أنه كان قد سمع القرآن من الآخرين، وإلا كيف علم أن هذه السور طوال لا يطيق حفظها؟ وعندي أننا لو ذكرنا لفظ المسبِّحات أمام أناس عاديين يقرأون القرآن يوميًا لقال عديد منهم: ماذا تعنون من المسبّحات؟ ولكنا نجد هذا الرجل يقول: يا رسول الله، هذه السور تفوق قدرتي، مما يدل على أنه لم يكن يسمع القرآن الكريم من الآخرين فحسب، بل كان يعلم طوال السور من قصارها .

ثم إن قول النبي ﷺ له: اقرأْ ثلاثا من السور الفلانية يدل بوضوح على أنه ﷺ يدرك أن الرجل لا يريد أن يتعلمها منه ﷺ، إنما كان يريد أن يخبره النبي ﷺ بالسور التي يقرأها بنفسه، وهذا كما يفعل البعض عندنا حيث يأتون ويقولون: أخبِرْني بدعاء أو وردٍ أردده دائمًا. فأخبرَه الرسول ﷺ أولاً بالسور التي تبتدئ بِـــ (الر). فلو كانت هذه الرواية تدلّ على فضل سورة الزلزلة، لما قال الرسول ﷺ للرجل: اقرأْ ثلاثًا من ذوات (الر)، بل لأمره منذ البداية بقراءة سورة الزلزلة، بل إننا نرى أنه لما اعتذر للرسول ﷺ بأنه كبير السن وضعيف الذاكرة وثقيل اللسان فلم يأمره الرسول ﷺ مباشرة بقراءة سورة الزلزلة بل أمره بقراءة غيرها. إذا كان هذا الحديث يدل على فضل سورة الزلزلة، أفليس عجيبًا أن يأمره الرسول ﷺ أولاً بسورٍ هي أقلّ فضلاً، بدلاً من السور التي هي أكثر فضلاً. فاستدلالهم من هذا الحديث على فضل سورة الزلزلة خاطئ، غير أن هذا الحديث يؤكد بلا ريب كونَها من السور الجامعة.

وعن أنس بن مالك قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ عُدِلَتْ لَهُ بِنِصْفِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عُدِلَتْ لَهُ بِرُبُعِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلَتْ لَهُ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ. (الترمذي، أبواب فضائل القرآن)

وهناك رواية بنفس المعنى عن ابن عباس في الترمذي.

وفي رواية أخرى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فُلانُ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلا عِنْدِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ. قَالَ: أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: ثُلُثُ الْقُرْآنِ. قَالَ: أَلَيْس مَعَكَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ: أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟ قَالَ بَلَى. قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ تَزَوَّجْ تَزَوَّجْ (الترمذي، أبواب فضائل القرآن).. يعني عندك مال كثير فلماذا تقول ليس عندي ما أتزوج به؟

وفي رواية عن أبي هريرة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَن قرأ في ليلة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ كان له عدلُ نصفِ القرآن. أخرجه ابن مردويه. (فتح البيان)

وقد جاء في آخر الرواية التي نقلتُها من قبل من مسند أحمد أن الرجل لما أدبر قال النبي ﷺ: "عَلَيَّ بِهِ، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ: أُمِرْتُ بِيَوْمِ الأَضْحَى، جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلا مَنِيحَةً أُنْثَى أَفَأُضَحِّي بِهَا؟ قَالَ: لا وَلَكِنْ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ، وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَكَ، وَتَقُصُّ شَارِبَكَ، وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ، فَذَلِكَ تَمَامُ أُضْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللَّهِ. (مسند أحمد: أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما)

هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي أيضًا. (أبو داود: كتاب الضحايا، والنسائي، كتاب الضحايا)

وقوله ﷺ: إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلا مَنِيحَةً أُنْثَى أَفَأُضَحِّي بِهَا؟ يعني: إن لم أجد إلا ناقةً قد أهداني إياها أحد أفأنحرها؟ فقال ﷺ: لا، إلى آخر الحديث.

في هذه الروايات عدة أمور تحتاج التدبر، أوّلُها: هنا ينشأ سؤال لا بد من الرد عليه: كيف يمكن أن تعادل سورة قصيرة من القرآن نصفَه أو ثلثه أو ربعه؟

والجواب: أن دين الإسلام للناس جميعًا، للعالم والجاهل والشيخ والشاب، ولم يبرح الرسول ﷺ والقرآن الكريم يركّزان على أنه قد نزل لكي يقرأه الناس ويحفظوه ويعملوا به. وقد تكرر هذا التأكيد لدرجة أن المسلم الصادق لا يملك إلا أن يتأثر به بشدّة. والحق أن من يرغب في الإسلام بصدق ولو قليلا، فلا بد له من الاعتراف أنّ حياته الإيمانية تتوقف على القرآن الكريم وحده، وأنه لن يقترب من الله تعالى إلا بقدر اقترابه من القرآن. فيمكن أن تقدّر في هذه الحالة معاناةَ شيخٍ عجوز لا ينطق لسانه، أو امرأةٍ عجوز أميّة جاهلة قد ضعفت ذاكرتها جدًا، أو مسلم غير عربي لا إلمام له بالعربية، كما ليس عنده من الوقت ما يحفظ فيه من القرآن ما فيه الكفاية. فالحق أن الرسول ﷺ بهذه الكلمات قد جبر خاطر هؤلاء القوم، وبين أن الثواب يكون بحسب الاستعداد للعمل، وليس بكمية العمل. فمثلاً هناك شخص ذو قدرة كبيرة ويعمل بحسب قدرته، وهناك شخص آخر ذو قدرة قليلة ولكنه يعمل بحسب قدرته أيضا، فالحق أنهما سيّان في الثواب عند الله، لأن كل واحد منهما قد ضحّى تضحية مماثلة. فقول الرسول ﷺ إن هذه السور تعدل نصفَ القرآن أو ثلثَه أو رُبعَه لا يعني أن سورة منها تحتوي على نصف مضامين القرآن أو ثلثها أو ربعها، إذ لو صحّ هذا لصارت هذه السور الأربع فقط أكثرَ محتوى من القرآن الكريم كله، إذ ورد هنا أن "الزلزلة" تعدل نصف القرآن، و"الإخلاص" ثلثَه و"الكافرون" ربعَه و"النصر" ربعَه، فهذه السور الأربع تعدل القرآن كله وثلثه. وهذا باطل عقلا ونقلا.

وإذا قيل أن المراد من الرواية أن بعض هذه السور تعادل نفسَ الربع مِن مفاهيم القرآن الذي اشتملت عليه سورة أخرى أيضا، وبعضها تعادل نفس الثلث مِن مفاهيمه الذي حوتْه سورة أخرى أيضا، فلا بد أيضًا من الاعتراف أن نصف مفاهيم القرآن مذكورة في سورة الزلزلة حتمًا إذ اعتُبرت مساوية نصف القرآن، وفي هذه الحالة لا بد لنا من التسليم أن نصف القرآن كلام لغو لا حاجة له والعياذ بالله، ذلك لأنه ما دامت نصف مفاهيم القرآن قد نزلت فيه فما الداعي أن ينزلها الله تعالى ثانية في هذه السورة القصيرة؟

ولو قيل هنا: أنتم أيضًا تعتبرون سورة الفاتحة ملخّص القرآن كله (البخاري: كتاب التفسير)، ومع ذلك تسلّمون بضرورة القرآن الكريم! فإذا جاز اعتبار سورة الفاتحة خلاصة القرآن كله فما الحرج في اعتبار سورةٍ مِن سوره مساويةً لنصفه وثلثه وربعه؟

والجواب أننا عندما نقول إن سورة الفاتحة هي خلاصة القرآن الكريم كله، فنوقن أنها احتوت على جميع مضامينه من ﴿الم﴾ أولِ لفظ من سورة البقرة إلى ﴿الناس﴾ آخر لفظ من القرآن. ولا شك أن هذا الأمر يزيدنا علمًا، بمعنى أننا حين لا نجد قضية في القرآن المفصّل نعود بحثًا عنها إلى الفاتحة التي هي القرآن المجمل، وعندما لا نجد قضية في القرآن المجمل (الفاتحة) نبحث عنها في القرآن المفصل (القرآن كله)، مما يعوِّد أفراد الأمة على التدبر وإعمال الفكر في القرآن مما يزيدهم علمًا. ومع ذلك لا نقول نحن ولا أي مسلم آخر أن سورة الفاتحة تنوب عن القرآن الكريم كله. هذه الأحاديث تقول إن من قرأ سورة كذا نال ثواب نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه، لكننا لا نقول أن من قرأ الفاتحة نال ثواب قراءة القرآن الكريم كله. فأنْ تعادلَ سورةٌ ما ربعَ مضامين القرآن أو ثلثها أو نصفها شيءٌ، وأما أنْ ينالَ المرءُ بقراءتها نصفَ الثواب الذي يناله بقراءة القرآن كله أو ثلثه أو ربعه فشيء آخر تماما. إذا كان المراد هنا أن سورة ما تعادل مضمون نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه، فيجب تعيين هذا النصف أو الثلث أو الربع من القرآن الكريم، لأن نصف القرآن الكريم يمكن أن يعيَّن بعدة طرق، فقد يكون نصفه الأول أو نصفه الأخير أو أجزاء مختلفة منه. أما الفاتحة فهناك تعيين بأنها خلاصة القرآن كله، وفي هذا التعيين نفع كبير فإننا حين نقرأ سورة الفاتحة بتدبر نفكّر كيف احتوتْ جميعَ مضامين القرآن، أو حين نقرأ سورة البقرة أو آل عمران أو النساء والمائدة والأنعام وغيرها نقرأها بتدبر وإمعان لنعلم كيف هي تبيّن مضامين الفاتحة. أما في هذه الروايات فلم يحدد الرسول ﷺ أي نصف من القرآن الكريم تنوب عنه سورة الزلزلة، أو أي ثلث منه تنوب عنه سورة الإخلاص، وأي ربع منه تنوب عنه سورة الكافرون أو النصر. ولو تدبرنا في هذه السور فليس بيدنا سبيل لنعرف النصفَ أو

الثلث أو الربع من القرآن الذي وردت فيه مضامينها مفصَّلةً؟ فمجرد القول أن سورة كذا تعادل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه قول لا فائدة منه. كان ينبغي -في حالة قبول المعنى الذي يذكرونه للرواية- تحديد ذلك النصف أو الثلث أو الربع القرآني الذي ذكر مضامين هذه السور مفصلة، لكي يقارن المؤمن بين مضمون هذا النصف أو الثلث أو الربع مع مضمون هذه السور، تماما كما يمكن أن نتدبر في سورة الفاتحة وندرك منها مضامين القرآن الكريم كله. ولكن الرسول ﷺ لم يحدد هنا أي نصف أو أي ثلث أو أي ربع من القرآن تعادله هذه السور. فثبت بوضوح أن هذه الرواية لا تعني أن مضمون هذه السور تعادل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه، بل الحق أن في كلمات الحديث نفسها ما يدعم موقفي، حيث ورد فيما رواه أبو هريرة: "مَن قرأ في ليلةٍ ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾ كان له عدلُ نصفِ القرآن" (فتح البيان). فالرسول ﷺ لم يقل هنا أن مضمون سورة الزلزلة يعادل نصف القرآن كما قال عن سورة الفاتحة إنها خلاصة القرآن الكريم، بل إن معنى قول النبي ﷺ في الظاهر هو أن ثواب قراءة سورة الزلزلة كثواب قراءة نصف القرآن.

غير أن هذا المعنى أيضا غير مقبول عقلا، لأنه إذا كانت سورة قصيرة تعادل نصف القرآن ثوابًا، فما الداعي أن يقرأ الإنسان القرآنَ كله؟ وإذا كانت سورة قصيرة تعادل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه مضمونًا، فيجب تحديد هذا النصف أو الربع الذي جاء ملخصه في السورة المشار إليها، حتى إذا قرأه المرء بتدبر أدرك كيف احتوت هذه السورة مضامين ذلك النصف أو الربع من القرآن. فالواقع أن التسليم بهذه الروايات بهذا المعنى يماثل الدعاء المزعوم الذي يسميه البعض "دعاء كنـــز العرش" ويقولون أن من قرأه مرة نال ثواب عبادة جميع الأنبياء والأولياء والصالحين من زمن آدم حتى زمن محمد ﷺ. فإذا كان بوسع المرء نيل ثواب الأنبياء والأولياء والصلحاء كلهم بهذه السهولة فلماذا يلقي نفسه في المجاهدات والمشاقّ ابتغاءَ مرضاة الله؟ إنما عليه أن يقرأ هذا الدعاء وينال ما ناله الأنبياء والأولياء من الأجر والثواب. ولكن كل عاقل يدرك أنها لا تعني ذلك، إنما تعني أن إنسانا ضعيف الذاكرة لو حفظ ثلاث أو أربع سور قصيرة كهذه نال من الثواب ما يناله

عالمٌ قويُّ الذاكرة بحفظ القرآن كله. وهكذا قد بين الله تعالى هنا الفلسفة الإسلامية عن الجزاء، وبين أن الذي هو أكثر مالاً وبالتالي أكثر إنفاقًا لا يكون بالضرورة أكثرَ ثوابًا، بل إن من يضحي بحسب سعته وقدرته حق التضحية أكثرُ ثوابًا ممن ينفق أكثر في الظاهر ولكن نسبة إنفاقه أقلُّ مما عنده من المال. فمثلا هناك شخص يملك مليونًا من الروبيات وينفق منها عشرة آلاف في سبيل الله تعالى، وهناك شخص يملك مئة روبية فقط، وينفقها كلها في سبيل الله، فلا شك أن الأخير أكثرُ ثوابًا من الأول، إذ ضحى بكل ما في يده في سبيل الله، أما الأول فلم يُضَحِّ بكل ماله، بل بواحد بالمائة منه فقط، فهو رغم إنفاقه عشرة آلاف روبية أقلُّ ثوابًا ممن أنفقَ مائة روبية فقط.

وأوضَحُ مثال على ذلك هو أبو بكر ﵁، فكان أقلَّ مالاً من عثمان ﵁ الذي تبرّعَ في غزوة واحدة بمال ربما لم يتبرع به أبو بكر في عدة سنوات، ومع ذلك كان الرسول ﷺ يثني على أبي بكر أكثر من عثمان. ذلك أن أبا بكر كان يضحي أحيانًا بكل ما يملك، لكن هذا ليس ثابتًا عن عثمان. وورد عن عمر ﵁ أنه أراد مرة أن يسبق أبا بكر ﵁ في التبرع، ظنًا منه أن أكثر ما أنفقه أبو بكر هو نصف ماله، فقرر أن يتبرع بنصف ماله. فذهب إلى الرسول ﷺ فَرِحًا بنصف ماله بأنه سيسبق اليوم أبا بكر حتمًا. فوجد عند النبي ﷺ أبا بكر وهو يقول له: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيتُ لأهلي الله ورسوله. يقول عمر: لما سمعتُ ذلك قلت في نفسي: من المحال أن تسبق هذا الرجل. (أبو داود: كتاب الزكاة)

فرغم أن عثمان كان أكثر مالاً وتبرعا من أبي بكر، إلا أن النبي ﷺ كان يثني على أبي بكر أكثر من عثمان لأن التضحية التي قام بها أبو بكر ﵁ نسبةً إلى ماله تفوقُ تضحيةَ عثمان ﵁ نسبةً إلى ماله.

فثبت أولاً أن هذا الحديث يبيّن الفلسفة الإسلامية حول جزاء الأعمال، حيث أخبر أن الله تعالى لا ينظر إلى كمية المال، بل إلى نوعية تضحية الإنسان، فإذا كان ما تبرع به قليلا جدا، لكنه كل ما يملك، فلا بد أن تكون تضحيتُه أكثرَ جزاءً ممن أنفق أكثرَ ولكنْ أقلَّ مما يملك.

وثانيًا: بهذه الطريقة قد أنقذ الرسولُ ﷺ الضعيفَ وقليلَ الحيلة من الحسرة واليأس؛ فلن يشتكي الآن صاحب الذاكرة الضعيفة قائلا: ماذا أفعل الآن؟ فإني سأظل محرومًا من الثواب الكبير الذي يناله ذوو الذاكرة القوية بحفظ الكثير من القرآن؟ فإنه حين يعلم أن النبي ﷺ قد قال إن مَن قرأ سورة الزلزلة نال ثواب نصف القرآن، فسوف يرقص قلبه فرحًا، ويقول: نعمْ، أستطيع حفظ سورة الزلزلة، فلأحفظْها لأنال ثوابًا كثواب من حفظ نصف القرآن. كما لا يصعب عليَّ حفظ سورة "الإخلاص" و"الكافرون" و"النصر"، ولو حفظتُها كلها لكان ثوابي كثواب مَن حفظ القرآن الكريم كله، وهكذا يزول عنه اليأس والحسرة ويفيض قلبه بهجة وسرورًا، ولا يلبث أن يقول: لا داعي للقلق، فإن الله تعالى قد فتح لي أيضا أبواب القرب والثواب على مصارعها.

والدليل الآخر على أن هذا هو المراد من هذا الحديث هو أن الرسول ﷺ دعا هذا الذي سأل عن سورة جامعة ليتخذها وِرْدا له، وأخبره أن هناك عيد الأضحية في الإسلام أيضا. وقوله ﷺ هذا يبدو عديمَ الصلة بقوله السابق، فبدلاً من أن يخبره ما يوجد في الإسلام من أحكام ضرورية كثيرة -علاوة على قراءة القرآن- كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغيرها قال ﷺ له: هناك عيد الأضحية في الإسلام أيضا! فما أهمية عيد الأضحى إزاء هذه الأحكام حتى يقول الرسول ﷺ للسائل بوجه خاص: تعالَ أيها الرجل، فهناك حكمٌ آخر في الإسلام وهو عيد الأضحى؟ لو أراد النبي ﷺ أن يخبره بالمزيد من الأحكام لنبّهه إلى المسائل الهامة قائلا: لا تكتفِ بحفظ سورة الزلزلة من القرآن، بل اعلمْ أن هناك أحكاما أخرى في الإسلام، فعليك أن تصلّي وتزكّي وتصوم وتجاهد أيضًا. لكنه ﷺ اكتفى بقوله: هناك عيد الأضحية في الإسلام. وهو قول لو أخطأنا في معرفة ما فيه من المغزى آخذين بظاهر الكلمات، لكان مَثلنا كمَثل خادمة يقال أنها كانت تستيقظ وقت السحور في رمضان وتتناول السحور مع أهل البيت، ولكنها لم تكن تصوم. وكانت ربّة البيت سيدة صالحة رحيمة، فظنت أنها إنما تشقّ على نفسها وتستيقظ لتساعدها لإعداد السحور، إذ لو كانت تستيقظ من أجل الصوم لصامت، فقالت

للخادمة يوما: إنك لا تريدين أن تصومي، فلا تعرّضي نفسك للمعاناة بالاستيقاظ من أجل إعداد السحور فسوف نحضّره بأنفسنا. فقالت: أنا لا أصلي ولا أصوم، فهل تريدين أن أصبح كافرة بعدم تناول طعام السحور؟

فكما أن هذه الخادمة قدّمت طعام السحور على الصلاة والصوم، كذلك فإن الأخذ بظاهر هذا الحديث يعني أن الإنسان إذا قرأ سورة الزلزلة بالليل وضحّى بكبشٍ يوم العيد فقد عمل بجميع أحكام الإسلام. كلا، ليس هذا هو معنى هذا الحديث أبدًا. إننا نجد هنا أن النبي ﷺ يستدعي الرجلَ ثانيةً ويخبره بأن هناك عيد الأضحى في الإسلام دون أن يذكر له أحكام الإسلام الأخرى، ثم حين يقول له الرجلُ: ليس عندي إلا ناقة أهدانيها أحد، فهل أضحي بها، يقول له النبي ﷺ: لستَ بحاجة إلى ذبحِ شيء، بل يكفيك أن تقصّ شعرك وشواربك وتقلّم أظافرك وتحلق عانتك.. فهذه أضحيتك. والحق أن النبي ﷺ لم يقل له ذلك إلا ليبين له ولغيره من الحضور ما في قوله السابق مِن حكمة وفلسفة. لقد نهاه الرسول ﷺ عن ذبح ناقته الوحيدة ليقول له: إنك رجل فقير، فقصُّك شعرك وتقليمك أظافرك وحلقك عانتك مرادف لتقديم الأضحية. وهكذا بيّن النبي ﷺ أن الفقير الذي لا يملك الكثير وضعيف الذاكرة الذي لا يقدر على حفظ الكثير من القرآن سيان، فكما أن الفقير إذا قصّ شعره وقلّم أظافره فكأنه قدم أضحيته، كذلك من كان ضعيف الذاكرة عليل الصحة كبير السن وغير قادر على حفظ كثير من القرآن، فإنه إذا حفظ سورة الزلزلة فقط فكأنه حفظ القرآن كله. هذه هي الفلسفة وراء استدعاء النبي ﷺ لهذا الشيخ والتي أراد بيانها له ولصحابته.

فالحق أن الرسول ﷺ لا يشير في هذا الحديث إلى أن هذه السور تساوي نصف مضامين القرآن أو ثلثها أو ربعها، إذ لو كان الأمر كذلك، لظل هذا التساوي قائمًا بالنسبة للضعيف والقوي، ولكنه ﷺ لم يعتبرها متساوية للجميع، بل قد بيّن بذكر الأضحية أن الفقير إذا لم يستطع تقديم الأضحية، فبوسعه نيلُ ثوابها بحلق شعره وتقليم أظافره، وكذلك فمن كان ضعيف الذاكرة والصحة ولم يقدر على حفظ القرآن كله، فإنه لو حفظ سورة الزلزلة نال ثواب حفظ نصف القرآن.

إذن، فرغم أنّ الإنسان إذا حفظ سورة الزلزلة والإخلاص والكافرون والنصر نال ثواب حفظ نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه بحسب هذا الحديث، إلا أن هذه السهولة ليست لكل إنسان، إنما هي للضعيف وعليل الصحة الذي لا يقدر إلا على حفظ الزلزلة والإخلاص والكافرون والنصر، وهو إذا قرأ سورة الزلزلة فكأنه قرأ نصف القرآن عند الله تعالى.

فثبت أولاً أن هذا الحديث لا يتحدث عن معاني هذه السور، كما لا يتحدث عن كل شخص، وإنما قد فتح النبي ﷺ به باب السهولة للضعفاء ذوي العذر. فالرسول ﷺ عندما دعا هذا السائل ثانيةً ونصحه بحكمٍ هو أقل أهمية بكثير من حكم الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، فقد أراد بذلك إزالة سوء الفهم الذي قد يتولد عنده أو عند الآخرين بقوله السابق، فيظنوا أن سورة الزلزلة وغيرها تساوي نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه فعلاً، لذلك فلا حاجة بهم إلى حفظ القرآن الكريم كله.

ثانيا: الجدير بالذكر هنا أن الرسول ﷺ قد اعتبر حفظ هذه السور البِضْع ثروةً، وهذا يكشف قوة إيمانه ﷺ برسالته، ويبين مدى تقديره للوحي الذي نزل عليه، حيث كان يرى أن من حفظ نزرًا يسيرًا من الوحي النازل عليه ﷺ لم يعُدْ غيرَ قادر على سدّ حاجاته كلها، ولا يمكن أن يُعَدّ من المحتاجين الذين لا يملكون شيئا. وإيمانه هذا بوحيه ليس دليلاً على صدقه وسداده ﷺ فحسب، بل يدل أيضًا على أن وحي الله تعالى كان قد استولى على كل ذرة من كيانه، فكان يراه أهمَّ من كل شيء.

ثالثا: كما يدل ذلك على ثقة النبي ﷺ بإيمان صحابته أيضًا، فكان موقنًا أن صحابته أيضا يعتبرون القرآن ثروة عظيمة، وإلا لأصبح لا معنى لقوله لذلك الصحابي بأن يتزوج ما دام يحفظ بضع سور، إذ كيف يتزوج هو إذا لم يعطه أحد ابنته؟ أعني أن البنات وآباءهن إذا لم يكونوا يعتبرون القرآن ثروة عظيمةً و لم يكونوا موقنين أن من حفظ جزءا قصيرا منه فكأنه صار ثريًا، لما أمر الرسول ﷺ هذا الصحابي بذلك، وبالتالي لم يستطع هو العمل بوصيته ﷺ في تلك الحالة.

رابعا: كما تبين من هذه الرواية أنّ قراءة المسلمين القرآن في ذلك الوقت كانت مرادفةً لفهمه، وفهمهم للقرآن كان مرادفًا للعمل به، وإلا كيف يصبح المرءُ ثريًا بحفظ بضع سور قرآنية؟ أما اليوم فإن المسلمين لا يقرءون القرآن أولاً، أما الذين يعرفون قراءته فعددهم قليل، وأما الذين يفهمونه فَهُمْ أقل منهم بكثير، وأما الذين يعملون بظاهر القرآن -دعك عن باطنه- فَهُمْ أقلّ بحيث يُعَدّون على الأصابع، فكيف يمكن -والحال هذه- أن يحترم الناس هذه الحفنةَ؟ وأنَّى لأُمّةٍ تعامل كتابها السماوي بهذا الاحتقار أن تلقى أي تكريم أو تعظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

إِذَا: لقد ذكرتُ من قبل أيضًا أن "إذَا" للمستقبل، أما "إذْ" فللماضي.

زُلْزِلَتْ: زَلْزَل الله الأرضَ زَلزلةً وزِلزالاً وزَلزالاً وزُلزالاً: أرجفَها. وزَلْزَل فلانًا: خوَّفه وحذَّره. وزلزلَ الإبلَ: ساقَها بعنفٍ. والزلازل: الشدائدُ والأهوال. (الأقرب)

التفسير: كان المفروض بحسب القاعدة العادية أن تكون الآية كالآتي: "إذا زُلزلت الأرضُ زلزالاً"، فلماذا قيل هنا: ﴿زلزالها﴾؟

الجواب: أن القول: "إذا زلزلت الأرض زلزالا" يعني فقط أنها زُلزلتْ بشدة، أما إضافة الزلزال إلى الأرض فهي إشارة إلى أن الحديث هنا إنما هو عن زلزلة مقدَّرة موعودة، وليس عن زلزال - أيِّ زلزال - مهما كان عنيفا. ذلك أن الزلازل تقع دائمًا ولو بعد مئات السنين، لكنها لا تستحق أن تسمى "زلزالها" لأنها تقع دائمًا. فلا يمكن أن يقال ﴿زلزالها﴾ إلا لزلزلة لها علاقة خاصة بالأرض، وتهزّ الأرضَ كلها، حتى لا يقال: قد وقع زلزال في الأرض، بل يقال: قد وقع زلزال الأرض، أي زلزالها المقدَّر. وبسبب هذه الصياغة الغريبة لهذه الآية تبادر إلى أذهان المفسرين

أنها تشير إلى زلزلة القيامة التي تبدّل الأرض كلها وتجعل عاليَها سافلَها. (فتح القدير، وجامع البيان)

الثابت من القرآن والحديث أن الدمار سيشمل الأرض كلها يوما ما، ولكن ليس ثابتًا عندي مِن أي نص أن هذا الدمار سيحل بها نتيجة زلزال، بل يبدو من الأحاديث أن الشمس سوف تدنو من الأرض... فتدمّر العالم كله من شدّة حرّها (المعجم الكبير للطبراني باب الميم، المقدام بن معدي كرب الكندي). ومهما يكن، فإن صياغة هذه الآية تدل على أنها إما تعني زلزلة القيامة أو أمرًا مشابها بالقيامة ذا صلة بالعالم كله. والرأي الأخير هو رأيي الشخصي أيضا، وسوف أستدل من الآيات التالية لهذه السورة على أن الزلزلة هنا لا تعني القيامة الكبرى، بل تشير إلى انقلاب عظيم يقع في العالم قبل القيامة، وهو مقدّر في زمن المسيح الموعود ﷺ، وسُمّي القيامة، ويمكن أن يسمى قيامةً بسبب اتساع نطاقه وأهميته وخطورة نتائجه.

لقد بيّنتُ آنفًا أن من معاني الزلزال: الإرجاف والتخويف والتحذير، وعليه فقوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ يعني أن الأرض كلها ستُرجَف، وتُخوَّف وتُحذَّر، وهكذا فقد وردت الأرض هنا بمعنى واسع، أي الأرض وأهلها أيضًا، ومثاله قوله تعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف:٨٣). فالمراد من القرية هنا أهلها، ومن العير أهلها الذين كانوا يسوقون هذه الركائب. وفي لغتنا أيضًا يقولون: قد علمت القريةُ كلها هذا الأمرَ.. أي علمه أهلها كلهم. إذًا فقد أخبر الله تعالى في الآية قيد التفسير أنه سيأتي وقت سوف تُرجَف الأرض كلها ويتم تخويف أهلها وتحذيرهم.

وبالنظر إلى أحداث التاريخ حتى اليوم نتوصل إلى أن هذه الآية ترسم لنا صورة هذا العصر الذي نعيش فيه. ففيما يتعلق بإرجاف الأرض فهذا هو الزمن الذي نرى فيه الأرض ترجف من كثرة القطارات التي تجري عليها ليل نهار ومن كثرة المصانع التي تعمل عليها ليل نهار، فليس من الأرض بقعة لا ترتجف لهذه الأسباب. فلو ذهبت إلى منطقة المصانع أو اقتربت من السكة الحديدية وقت مرور القطار عليها لخيل إليك أن الأرض زُلزلتْ زلزالها.

أما ارتجاف أهل الأرض فنجد السباق بين أهلها على أشده حتى يخيل لك أن الناس في العالم المتحضر لا يمشون، بل يجرون، وترى الدنيا بالليل بحالة وفي الصباح بأخرى.

كما ارتجفت الأرض من اختراع وسائل الحرب بكثرة. لقد أصبحت الحروب مخيفة لكثرة الأسلحة الفتاكة. فتُقصف المدن حتى تحدث حفر في الأرض كالمغارات. كما كثُرت الزلازل بحسب وحي الله تعالى، فمحت آثارَ كثير من القرى والمدن من سطح الأرض.

فثبت أن الأرض قد أُرجفتْ في هذه الأيام رجفًا لا نظير له، ذلك أن الأرض كانت ترجف في الماضي بالزلازل فقط -التي قد تكون بعضها أكثر شدّة من الزلازل الحالية- أما الآن فأولاً إنها ترتجف من كثرة الزلازل العالمية والمتواترة، وثانيًا: أثّر قصف المدافع والطائرات والقنابل الديناميتية والذرية في كل بقعة من الأرض حتى ارتجفت ارتجافا هائلا، وثالثًا: ترتجف الأرض ليل نهار بسبب القطارات والمصانع التي تعمل فوقها وتحتها من القطب الشمالي إلى الجنوبي ومن الشرق إلى الغرب. وهذا لم يحدث في الماضي قط. ولو استمر هذا التقدم الصناعي فسوف ترتجف الأرض أكثر.

والمعنى الثاني للأرض هو أهلها، وكما بينت آنفًا قد نجد أنهم قد أُرجفوا أيضا رجفًا لا مثيل له في الماضي. فثبت أن المراد من ارتجاف الأرض:

أولاً: خلقُ صحوة في أهل الأرض، وثانيا: تخويفهم، وثالثا: تغيرٌ غير عادي بين الناس أسبابُه -إضافةً إلى أمور أخرى: التغيرات الجذرية في السياسة والمعيشة والدين والأخلاق والعلوم والاقتصاد. فكل هذه الأمور قد ظهرت في هذا العصر لإرجاف أهل الأرض كما يتضح من التالي:

أولاً: الصحوة. في الماضي، إذا تولدت الصحوة، ففي حفنة من الناس من عِلية القوم، إذ كان النظام الملكي أو نظام حكم عِلية القوم هو القائم في العالم، فالانقلاب الحاصل في العائلة الملكية أو في حكومة الأمراء لم يكن يؤثّر إلا على بضع عائلات أو أفراد أو بعض الموظفين وما كان لعامة الناس علاقة به أو رغبة

فيه. أما اليوم فحيثما نظرتَ وجدتَ الحُكم بيد العامة. لقد انمحت الملَكية، وإذا كانت في بلد فبالاسم فقط. تعمل قوة عامة الناس غير المحدودة عملها في الخفاء كما نرى في إنجلترا وبلجيكا وهولندا. ولا تزال هذه الصحوة والشعور عند العامة - أن المُلك للجماهير وليس لشخص أو أشخاص - تزداد اليوم باطراد. لم يعُدْ عرش المُلك منحصرًا في القلاع، بل ترى عرشًا في كل قرية بل في كل بيت -كبيرا أو صغيرا من ناحية المجد الدنيوي- وتجد كل فرد يشعر أنه شريك في الحُكم والمُلك على قدم المساواة. فكلما حصل انقلاب لم يُرجِفْ صدور الملوك وعِليةِ القوم فحسب، بل أرجف قلب كل فرد إلى الأعماق، فالرجفة التي كانت تتولد على سطح البحر - فقط في الماضي - تهزّ الآن قاعه أيضا بحيث يصعب على الأسماك العيش فيه. لقد شاع التعليم والصنائع والحِرف. والعلوم والفنون التي كانت تنتقل بالإرث بين أسر معينة قد عمّت الآن وانتشرت واطّلع عليها الجميع. والأمور التي كانت تُعتبر من العظائم - وخاصة بفئة محدودة جدا - أصبحت تُؤدّى على قارعة الطريق بكثرة، وتجد لدى كل صغير وكبير، طموحًا للتقدم والرقي باستمرار.

وثانيا: تخويف الناس. فقد بلغ تخويف الناس الذروة اليوم، حيث تثار الخلافات السياسية والدينية على نطاق واسع بحيث يرتجف قلب كل عاقل ويقول: ماذا سيحصل غدًا. قد شاع الذعر بين الجميع، فالفرد يخاف من الفرد، والحزب يخاف من الحزب، والقوم يخاف من القوم والدولة تخاف من الدولة. ولا يبرح الزعماء يُذْكون فتيل هذا الخوف لكون روح التنافس قد بلغت أوجها حتى لا تجد في العالم شيئًا اسمه العدل والإنصاف، وبالتالي لا تجد أي أمة أو دولة تنعم بالاطمئنان. فلأن الحُكم صار في يد الجماهير وأصبح الصلح والحرب في أيدي العامة فلا يبرح الزعماء والحكومات يُلهِبون مشاعر العامة -حفاظًا على حُكمهم أو بسطًا لنفوذهم- مخافة أن يهدأوا فينتقل الحكم إلى حزب آخر أو يستولي على دولتهم شعب آخر. فتجد بسبب ذلك رجفةً متواصلة غير منقطعة في شعوب العالم.

وثالثا: تغيرٌ غير عادي. بسبب هذه الزلزلة قد حصل تغير عظيم في العالم حتى انقلب كل شيء فلم يعُدْ كما كان في الماضي. خُذوا مثلاً:

أ- السياسة: فهي ليست كما كانت في الماضي، فقد تغيرتْ مبادئها كلية. في الماضي كان المراد من السياسة تفاوُض ملك مع ملك آخر، أما اليوم فالحُكم في يد العامة، فلم يعُدْ نطاق السياسة محصورًا في تعيين الحدود بين بلد وآخر، بل أصبحت اسما للتدخل في كل شعبة من شعب حياة الناس أينما وجدوا. لم يكن الملوك في الماضي يهتمّون بأوضاع البلاد الأخرى وسكانها: كيف يأكلون ويكسبون ويدرسون وماذا يتعلمون، وما هي حالة معيشتهم وما هي قوانينهم؟ أما اليوم فالسياسة تتدخل في كل هذه الأمور، وترى هذا التدخل ضروريا. من ناحية يدَّعون الحرية ومن ناحية أخرى يعلنون أنهم لن يسمحوا للدول الضعيفة بممارسة الحُكم الذي لا يتوافق مع مبادئهم السياسية. فأحيانًا تضغط الدول القويةُ على الضعيفة لكي تمنحها حرية التصرف في مناجمها، وأحيانا تُكرِهها على اتباع نفس النظام الذي تعمل به بنوكها أو أن تستعير منها وزير المالية، وأحيانا تفتح كلياتها في البلد الآخر قسرًا، وأحيانا تفرض الحظر على تجاراتها وصناعاتها وحِرفها، فتسمح لها بصنع بعض الأشياء وتمنعها من أن تصنع غيرها.

فالسياسة القديمة تبدو اليوم كولدٍ غبي مقابل السياسة الجديدة. لقد صار الحكم في أيدي العامة وقد قُضيَ على النظام القديم وضرب به عرض الحائط.

ب- المعيشة: أما الثورة الحاصلة في المعيشة فلا حدود لها، فما كان يُعتبر من قبيل البذخ ومن حق الأثرياء فقط، قد صار اليوم مِلْكًا للعامة. والأطعمة التي تيسرت الآن لفقراء الدول المتحضرة لم تكن ميسرة للأثرياء في الماضي، فالفقير في الدولة المتحضرة يأكل سمك المحيط الهادي جالسًا بعيدا عنه آلاف الأميال، ويستمتع بأكل السردينَ البرتغالي والخوخَ الكاليفورني والإجاصَ الإيطالي والعنب الأفغاني والبرتقال الأسترالي والكلمنتينا الياباني والموز الإفريقي والمانجو الهندي، ومع ذلك يشتكي من فقره، رغم أن هذه الأشياء لم تكن تتيسر للأثرياء في الماضي. لو أُعيد رجلٌ من عهد فرعون مثلاً إلى الحياة اليوم ورأى بعض العمال الأوروبيين يتناولون الطعام، فربما ظنهم فراعنة مصر وقال ها قد أصبح الفراعنة أكثر غنًى وتوفّرتْ لهم

أسباب الرخاء والبذخ أكثر. وأما اللباس فما لم يكن ميسرًا منه للطبقة المتوسطة أو للأثرياء العاديين في الماضي يلبسه الفقراء في الدول المتحضرة. وإن أنواع اللهو والعروض التي كان يتمتع بها كبار الملوك حتى كان الناس يتهمونهم بسببها بالانغماس في الملذات، يمكن أن يشاهدها أي فقير اليوم بدفع ربع روبية، مع الفارق أن الملك كان يشاهد هذا اللهو نادرًا، أما فقير اليوم فيشاهده يوميا. إذا كان هناك شيء اسمه اِنْدَرسَبَها – أي ملهى اِندر – فلا يجاري دُورَ السينما اليوم. واللباس الذي كانت الملكات والأميرات تظهر به أمام المهاراجا "اِندر" وغيره من المهاراجات الهنود في الماضي، لو ظهرتْ به إحدى الممثلات اليوم في الفيلم فلعل الجمهور يحطّمون شاشة العرض مستائين من لباسها.

كما لم تعُدْ العلاقات بين الزوج والزوجة، والوالدين والأولاد، والأستاذ والتلميذ، كما كانت في الماضي، ولو جاء اليوم رجل الماضي لأصابه الجنون من شدة الذهول. في الماضي كانت الزوجة تخدم زوجها، أما اليوم فالزوج يمشي وراء زوجته حاملا مظلتها ومعطفها. في الماضي كان الزوجان يتبادلان كلمات الحب والغرام في غرف مغلقة بعيدا عن أقرب الأقارب، أما اليوم فتراهما لا يسأمان من نداء بعضهما البعض: "دارلنج دارلنج"، وتجد الرجل يقبِّل المرأة على محطة القطار بين آلاف الناس، بل بأريحية كأنه يقوم بعمل عادي جدًّا. لم يبق للوالدين اليوم أي حق على أولادهم، بل لا يقرّ الأولاد بأي حقّ لهم، وأصبحت خدمة الوالدين فكرة بالية. كان المعلّم سيدًا في الماضي، أما اليوم فصار خادمًا. في الماضي لو قام المعلّم بتعليم أحد –ولو مقابل مال– كان التلميذ يعتبره إحسانا منه، أما اليوم فيُعتبر التعليم خدمة كالخدمات الأخرى. يحكى أن هارون الرشيد الخليفة العباسي –الذي كان مُلكه ممتدا من أوروبا إلى أقصى آسيا– طلب من الإمام مالك ذات مرة تخصيص بعض الوقت لتعليم ابنيه المأمون والأمين، فرضي الإمام بشرط أن يحضرا عنده في بيته. وذات يوم ذهب الخليفة إلى بيت الإمام ليرى كيف يتعلم ولداه، فلما همَّ الإمام بالخروج لاستقباله أسرع المأمون ليضع أمام الأستاذ حذاءه، وكان الأمين أحبَّ إلى الخليفة – إذ كانت أُمه أحبّ زوجاته – ولكنه لما رأى هذا المشهد قال: يبدو أن المأمون سيرث العرش بعدي.

هكذا كان الوضع في الماضي، أما اليوم فنرى الأوضاع على عكس ذلك تماما.

ج – **الأمور الدينية:** لقد سقط الدين مكبًّا على وجهه بما لا يُتصوَّر. في الماضي إذا قصّر البعض في أمر الدين ندم وحاول إخفاء تقصيره عن الآخرين، أما اليوم فمن احترم الدين عُدَّ من الجاهلين. في الماضي كان الكلام ضد الدين جريمة عظيمة، أما اليوم فالكلام بحق الدين يُعتبر حماقة. في الماضي كان الدين يحكم الناس، أما اليوم فالناس يحكمونه. لقد أصبحت كلُّ دولة تقدِّم دينًا يتفق مع مآربها، فالكنيسة السوفياتية (الروسية) تعتبر المبادئ السوفياتية عينَ تعاليم المسيحية، أما الكنيسة الأمريكية فتعتبر الاشتراكية خلافًا لمبادئ المسيحية، أما الكنيسة الإنجليكية فتعتبر المَلَكية المحدودة والمَلَكية الدستورية صورةً حقيقة للمسيحية. والقسيس الفرنسي يعتبر النظام الجمهوري صورةً حقيقية للإنجيل، أما القسيس الفاشيّ فيعتبر الفاشية روح الدين تماما. والمناطق الهندية التي يتمتع فيها حزب الكونجرس بالأغلبية، يرى أهلها أن القرآن يعلّم التمرد على الحاكم، أما المناطق ذات النفوذ الإنجليزي فيرى أهلها أن تعاليم القرآن تؤيد الحضارة الغربية. وترى ديانة "الشنتو" اليابانية وكأنها تدعو إلى نشر بركات المَلَكية اليابانية. عندما كان للدين صوت قوي وكان يُعتبر جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس، كانوا يقولون إن الله خلق الإنسان، أما الفلسفة المعاصرة فتعلن بكل جسارة: لسنا لنؤمن بإلهٍ خَلَقَنا بيديه، بل إن الدنيا بحاجة إلى إله خلقَتْه بيديها. إنهم يقولون نهارًا وجهارًا أن كل الفساد والدمار والهلاك الذي عمّ الدنيا إنما سببه الاعتقاد بإله يُعتبر خالقًا للدنيا، مع أن سلام العالم وفلاحه وتقدّمه في المستقبل منوطٌ بأمر واحدٍ، ألا وهو أن عامة الناس كما يختارون لأنفسهم المَلَكية ويحددون بأنفسهم سُلطتها، كذلك لن ينجح في إرساء السلام في العالم إلا دينٌ يقدم إلهًا يحدّد له عامةُ الناس كيف يفكّر وكيف يعمل.

أما التفسير العلمي للأديان فتمّ على منوال لن يملك المرء بعده إلا أن يستعيذ بالله. فليست المسيحية اليوم نفس المسيحية التي كانت قبل قرن من الزمان، وليست الهندوسية كما كانت قبل قرن من الزمان، وليس الإسلام اليوم كما كان قبل قرن

من الزمان. لقد اعتبروا العقائد القديمة أفكارا بالية متهرّئة. لقد أوّلوا النصوص الصريحة القطعية، واعتبروا العبادات لغوًا والعقائد أوهامًا. ولم يفعل ذلك الدهريون، إنما فعله أتباع هذه الأديان أنفسهم. ومَن رفع الصوت ضدهم اعتبروه ملحدًا مردودًا. فالوضع كما قال الشاعر (حَسْرت):

خرد کا نام جنوں رکھ دیا جنوں کا خرد

جو چاہے آپ کا حسنِ کرشمہ ساز کرے

أي سميتَ العقل جنونًا والجنونَ عقلا، فليفعل حُسنك الساحر ما يشاء.

د- الأخلاقيات. لقد وقع في هذه القضية الهامة زلزال عنيف. إن أكبر مسائل الأخلاق هي الصدق والأمانة والعفة والعدل، ولكن نظريات الناس قد تغيرت عنها كلية في الزمن الراهن. فلم يعُدْ للصدق اليوم نفس مفهومه الذي كان بالأمس، إذ يعتبرون الصدق عيبًا في الدبلوماسية، أي في أمور السياسة بين الدول. إن كبار شرفاء القوم ونبلاءهم يذكرون بكل فخر كذبهم الذي خدعوا به أعداءهم. لقد أشاع الإنجليز في الحرب العالمية الثانية أن الألمان يصنعون الصابون من شحم الموتى، فشاع هذا الخبر على نطاق واسع، فوجّهت الدول المحايدة اللوم إلى الألمان، ولكن بعد الحرب اعترف الشخص الذي أشاع هذه الإشاعة أنه اختلق هذا الخبر ونشره في مطعم لضباط الجيش من أجل الدعاية ضد الألمان. كما أشاع الإنجليز أن الألمان يطلقون الرصاص على الجنود أثناء غرقهم مع سفنهم، لكن الغريب أن رجال القوات البحرية البريطانية قدّموا للبحرية الألمانية بعد الحرب درعًا مكتوبًا عليه: يُقدَّم هذا الدرع شكرًا وتذكارًا لمعاملتكم النبيلة المتعاطفة مع غرقانا في أيام الحرب.

أما الألمان فأيضا قد لجأوا إلى الكذب والزور بلا حدود، ففي زمن الحرب العالمية الأولى لم يكن المذياع قد اختُرع بعد، أما في الحرب الثانية فقد سمعتُ أخبار الحرب مرارا من قِبل الألمان واليابان عبر المذياع، لقد افتروا في أخبارهم إلى حدٍّ مذهل. فكم من مرة سمعت من الإذاعة الألمانية خبر اندلاع الفتن والفوضى

في الهند على نطاق واسع، مع أنه لم يكن هنا أي شيء منها. ولدى سماع هذه الأخبار كنا نتخيل أننا نعيش في عالم آخر، أو أن الهند في لغة الألمان بلد غير بلدنا.

لقد قمت بمطالعة بعض الكتب عن الحرب العالمية الأولى، حيث تحدثَ كبار الساسة عن كذباتهم الفاضحة بفخر وبدون خجل بما يذهل المرء.

ولي خبرتانِ شخصيتان بهذا الصدد. فعندما زرتُ إنجلترا لحضور مؤتمر الأديان المنعقد هناك، قُرِئتْ فيه يومًا محاضرة للخواجة كمال الدين، فلم أحضرها وإنما حضرها الشيخ يعقوب عليّ العرفاني بصفة صحفيٍّ ليسجل ما يقال. وهناك جريدة باسم "ديلي نيوز" -وهي أكبر جريدة للحزب الليبرالي وتطبع بمئات آلاف النسخ، وقد ضُمّت الآن إلى جريدة كبيرة أخرى اسمها ديلي كرونيكال، وأصبح اسمها نيوز كرونيكال- فجاء محرّر هذه الجريدة للقائي خاصة، فتحدثَ أولاً مع شودري ظفر الله خان المحترم وقتًا طويلا، ثم قابلني أيضا. ولكن هذه الجريدة نفسها نشرتْ خبرا بأن محاضرة الخواجة كمال الدين كانت رائعة شيقة أعجبت الجميع حتى إن إمام الجماعة الأحمدية - ذا اللون الأسود - كان يسجل ملحوظاته جالسًا في الصف الأمامي. فاتصل عزيزي محمد ظفر الله خان بمحرر الجريدة هاتفيًا وقال: ما هذا الذي نشرتم في جريدتكم؟ وكان يعني أن إمام جماعتنا ما كان بحاجة للجلوس هناك وتسجيل ملحوظاته، إنما كان ذلك أحد الصحفيين. ولكن بمجرد أن سمع المحرر صوت محمد ظفر الله خان أخذ يعتذر إليه بأنه متأسف جدا شخصيا، فقد قابلتُ إمام جماعتكم، وإني لمنشغل فيما سيقول الإمام بما كتبنا عنه، الواقع أن هذا الخبر قد أعده أحد الصحفيين ولكن المحرر الآخر نشره بدون تأكد، وسوف ننشر غدًا تصحيحا للخبر، فأرجو أن تقدّم لحضرة الإمام معذرتي. فترك شودي ظفر الله خان الهاتفَ فرحًا وجاء وأخبرني بما تمّ. وفي اليوم التالي نشرت الجريدة التصحيح كالتالي: إننا نأسف أنه قد نُشر خبر في جريدتنا عن إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية بأن لونه أسود، والحق أن بياضه يشبه بياض العاج.

فكدنا نموت ضحكًا بما قرأنا، وقلنا ما هذا التصحيح الذي نشروه. فاتصل حضرة الشودري بمحرر الجريدة ثانية وقال له: حضرة المحرر، نحن لا نبالي أن تقولوا أن لون إمامنا أسود، فيمكنك أن تكتب أنه أشد سوادًا مما ذكر. لقد نشرتم أن هذه المحاضرة كانت شيقة حتى إن إمام الجماعة الأحمدية ظل يسجّل ملاحظاته جالسا هناك، وهذا الكلام مسيء إلى حضرته، كما أنه باطل. فرد عليه محرر الجريدة: إنني متأسف جدا، فقد كنتُ صُدمتُ بلفظ "الأسود" جدًا حتى لم أسمع كلامك جيدا على الهاتف، فظننت أنك تشتكي عن سواد اللون، غير أني متأسف الآن، لأن من سياسة جريدتنا ألا ننشر تصحيحًا لخبر نُشر فيها، ومع ذلك قد نشرنا تصحيحا للخبر الأول احترامًا لكم، ولن ننشر تصحيحًا للخبر الثاني إذ فيه إساءة لجريدتنا، فاقبلْ معذرتي.

وكانت هناك جريدة أخرى اسمها "مورننج بوست" وهي من الصحف الكبيرة، وتُنشر من قبل حزب المحافظين، وربما كان السير "أدواير" عضوا في لجنة المشرفين عليها، ولأنه كانت بيني وبينه علاقات فمن الأغلب أنه بتوجيهٍ منه كانت هذه الجريدة تنشر أخبارا كثيرة عنا، وقد توقفت هذه الجريدة الآن وضُمّتْ إلى جريدة الديليتلغراف. كان ممثّلها أيضًا موجودًا على محطة القطار في اليوم الذي كان من المقرر أن أصل فيه إلى لندن، ولكن القطار تأخر، فأُخبرَ الناس على المحطة أن القطار سيصل متأخرا عدة ساعات. فتفرقَ الناس الذين جاءوا لاستقبالي، ولكن ما حدث هو أن القطار وصل قبل الموعد الثاني بوقت، فحاول داعيتنا السيد نيّر المحترم أن يبلّغ ممثلي الجرائد بأن القطار سيصل مبكرًا قليلاً، فتمكنَ مِن إخبار البعض و لم يتمكن من إخبار الآخرين بمن فيهم ممثل جريدة "مورننج بوست"، إذ فشل في الاتصال بمكاتبهم. وفي اليوم التالي نشرت الجرائد كلها خبر وصولي إلا "مورننج بوست"، فاشتكى السيد نير المحترم من أصحابها، فقيل له إننا لا ننشر أي خبر نقلاً من جرائد أخرى. فقال: ها أنا أُخبركم الآن، فانشروا الخبر الآن. فقيل له: ألن يقول الناس إن "مورننج بوست" تنشر هذا الخبر متأخرة عن الجرائد الأخرى بيوم. فنسينا الأمر.

ثم عندما حان عقد مؤتمر الأديان ونُشرت الإعلانات عن محاضرتي في المؤتمر نشرتْ "مورننج بوست" إعلانا رائعا كبيرا مع صورتي كالآتي: وصول إمام الجماعة الأحمدية إلى لندن. فظنّ القراء لعل إمام الجماعة الأحمدية كان قد سافر من لندن ورجع إليها الآن ثانية.

هكذا فإن هذه الجريدة قد أتت بنا إلى لندن ثانية إيهامًا للناس أنها لا تنشر إلا أخبارا طازجة.

هذه الأحداث المؤلمة تحيّر المرء فيقول: هل انقلب مفهوم الصدق اليوم عند الناس؟ في هذا العصر قد حلت الدعاية المقامَ الأول، والصدقُ المقامَ الثاني. وهذا لا نجده في الماضي.

أما الأمانة: ففي الحرب العالمية الأولى لم تتردد العديد من الدول أن تستولي على الذهب الذي أودعته الدول الأخرى عندها أمانة. هناك مشهد عجيب في الدنيا، فلا تزال بعض الدول تُطلِق دعاوى عريضة بأنها حاملة لواء التحضّر والحرية من ناحية، ومن ناحية أخرى تذهب إلى البلاد الأخرى وتستأجر منطقة من مناطقها لعدد من السنين، ثم تستولي عليها تدريجيًا ولا تريد أن تردها لصاحبها. ومثاله في الهند جزيرة البرار، إذ استأجرها الإنجليز من حاكم "حيدر آباد دكن" لمائة سنة، ورغم انقضاء ١٢٥ سنة على ذلك فإنهم لا يريدون أن يردّوها لصاحبها، وعندما طالبهم الحاكم الحالي "نظام" قالوا له: إما أن تأخذ جزيرة البرار وتترك عرشك، أو تبقى على عرشك وتتخلى عن هذه الدعوى. والغريق يتعلق بقشة، فآثر الحاكم السكوتَ. وفي الحرب العالمية الأولى قدّم حاكم "حيدر آباد" خدماتٍ حربية جليلة للإنجليز، فقالوا له تقديرًا لخدماته: نردّ لك "البرار"، ولكن عليك أن تعطينا مقابل ذلك تعهُّدًا أنك تخوّل الحكومة الإنجليزية إدارتها إلى الأبد، ونمنحك ميزة زائدة وهي أن ولي عهدك سوف يسمى من الآن: أمير البرار.

يا لها من سخرية! فأمير حيدرآباد إذا سُمي أميرَها فلا ينال العزّ، وإذا سمي "أميرَ البرار" فينال العزّ. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ومن أمثلة استيلائهم على أراضي الآخرين شتى الموانئ الصينية، وكذلك بلاد مصر والعراق والشام وفلسطين. عندما تمرّدَ أهل العراق والشام وفلسطين على الحكم التركي من أجل الإنجليز، وَعَدُوهم في الاتفاقية أنهم سوف يمنحونهم الاستقلال بعد الحرب، ولكنهم عندما يذكرون لهم اسم الاستقلال الآن يقولون لهم: إنكم مستقلون أحرار. لسنا هنا إلا لخدمتكم، فلا تظنوا بسبب وجودنا هنا أنكم لستم أحرارا ومستقلّين.

وهناك عشرات البلاد الأخرى التي ذهب إليها هؤلاء مؤقتًا، ثم استولوا عليها. هناك نزاع مماثل في إيران في هذه الأيام، لقد أعلنوا من قبل أنهم سيخرجون من إيران بعد انتهاء الحرب بستة أشهر، لكن روسيا تفكّر الآن أن تستولي على آبار النفط الإيرانية وتحث الناسَ على التمرد على الحكومة الإيرانية، ولذلك نسمع كل يوم أخبار التمرد في تلك المناطق، وتشيع الجرائد الروسية أن إيران تصبّ على أهلها ظلمًا عظيما وتسحق حريتهم بقسوة. وهذا يعني أن روسيا ستعلن بعد فترة أنها تستولي على هذه المنطقة الإيرانية وتتحمل هذا العبء الذي يقصم ظهرها، ليس لمنافع ذاتية، بل بدافع إنساني.

وهذا هو المصير الذي ينتظر بلغاريا ورومانيا.

وهذا يعني أن العيب الذي كان سبب خزي للأفراد من قبل، أصبح الآن مدعاة فخر عند هذه الدول.

أما العفّة: فلم يعُدْ لها أي معنى اليوم. في الماضي كان غير العفيف يمارس نشاطه في الخفاء، أما اليوم فيمارسه علنًا. لقد أصبح اقتناء العشيقات ظاهرة شائعة إذ يمارسها كبار رجال الحكومة والفلاسفة علنًا. هناك زعيم لبلد كبير يدّعي أنه حامل لواء الدفاع عن حقوق عامة الناس، وهو يعيش مع امرأة منذ عشر سنوات أو أكثر، ويقول: إنني لا أستطيع الزواج بدافع خدمة الوطن. ولكن الاحتفاظ بتلك الصديقة لا يشكل له أي عائق في خدمة وطنه!!

عندما هلك هتلر عُلم أنه كان عنده أيضا صديقة، وقد ولدتْ له ولدين، وتزوّجَها قبل موته بأيامٍ لكي يرثه أولاده (The New Encyclopaedia Britanica V. 29 P. 1021: Wars) . ما المتعة في الاحتفاظ بصديقة يا ترى؟ لماذا لا يتزوجون؟

وكان عند موسوليني عشيقة، وعندما توفيَ أثنتْ عليه زوجتُه، فقيل لها: إنه كان يحتفظ بعشيقة، فأجابت: هذه الغُول ألقتْ غشاوةً على عقل هذا الإنسان الشريف، ونِعْمَ ما فعله الناس بها.

إنهم يعيبون المومسة التي تمارس الدعارة علنًا، لكنها إذا باعت عفّتَها في الملاهي والفنادق صارت امرأة شريفة عندهم ولا يرون في ذلك أي عيب.

هناك مِلِكٌ معروف شهير عَشِقَ امرأةً متزوجة، فكانت تزور المِلِك كثيرا، وكان الناس على علم بذلك، وكانت تشترك في مآدب يحضرها كبير القُسس، ومع ذلك لم يعترض على هذا الوضع. ولكن لما أراد الملك أن يتزوجها بعد أن طلّقها زوجها، أثار القسس ضجة قائلين إن هذه إساءة كبيرة للدين.

هذه هي عفة الناس اليوم، والتي لا يمكن أن يستوعبها الذين خلوا من قبل والذين كانوا يؤمنون بالحقائق القديمة.

أما العدل والإنصاف: فلم يعُدْ لهما معنى اليوم. لقد جعل الناس ثلاثة أرباع سكّان المعمورة عبيدا. إن أمريكا التي تدّعي اليوم أنها حاملة لواء الحرية، كان أهلها الأصليون الهنودَ الحمر، ولكن لم يبق منهم إلا بضعة آلاف الآن. أما أستراليا فقد قتلوا سكانها القدامى، حتى انقرضوا ولم يبق منهم إلا قليل جدا يعيشون في ذل وهوان بلا حامٍ ولا مدافع. والأفارقة الذين يموتون اليوم جوعًا وفاقة، قد أُعطيتْ أراضيهم للأثرياء الإنجليز بحيث يملك كلٌّ منهم مئاتِ آلاف الهكتارات. والبيضُ في جنوب إفريقيا بعد أن استولوا على أراضي الأفارقة وعقاراتهم يعيشون هناك سادةً متجبرين وينتفعون من مناجم تلك البلاد أيضا، ومع ذلك يقولون إننا لم نقدّم هذه التضحية الكبيرة بخروجنا من بلادنا إلا من أجل تحضير العالم وتهذيبه.

أما الهند فإن وضعها الآن أخذ يتحسن كثيرا، وبدأ الناس يتنفسون بحرية ويسعون من أجل استقلال بلادهم بتقديم تضحيات جسيمة، أما في الماضي فكان

الإنجليزي الأبيض يقتل الهنديّ دوسًا بالأقدام، وكانت المحكمة تقول: لقد مات هذا الهندي لأن طحاله تمزّقَ. ولكن ما كان هنالك مَن يسأل: مَن أجاز لهذا الأبيض أن يمزّق طحال هذا الهندي؟ ولماذا يموت الهندي بتمزّق الطحال دائمًا؟ ولماذا لا يضرب الأبيض إلا الهندي ذي الطحال الكبير. لكن الحمد لله أن الوضع قد تحسن كثيرا، وأخذت الهند تسرع الخطى نحو الحرية، وقد أصبحت هذه الأحداث قصة تُروى.

أما التجارة: فلا تزال الشعوب القوية تضغط على الشعوب الضعيفة من أجل ازدهار تجارتها. إنهم يخدعون الضعفاء بطرق شتى، فحينًا باسم صرف العُملة، وحينًا بقولهم لهم إنما مصلحتكم في عدم الاعتناء بالصناعة والحرفة بل عليكم بالزراعة، وحينًا بمنعهم من صناعة سفن لهم، وحينًا بتقديم دعم غير شرعي لأهل قبيلتهم، وحينا بتشكيل شركات تجارية كبرى تحتكر التجارة، وهكذا يقتلون العدل والإنصاف بشتى الأساليب وعلى كل المستويات.

أما حالة العلم فقد تغيرت تماما ولم يبق من العلم القديم شيء. فقد تغيرت الفلسفة كليًّا. أما العلوم فتغيرت تسعين بالمائة، أما التاريخ فكان أساسه في الماضي على الرواية، أما اليوم فأساسه الجرائد واليوميات والرسائل، بينما توجهوا من أجل التاريخ القديم إلى الآثار القديمة والاثنولوجيا والجيولوجيا.

أما علم الفَلك فتغير كليًّا، فالشمس الآن ثابتة والأرض تدور حولها. واكتشفوا أنه ليس هنالك نظام شمسي واحد، بل هناك ملايين النظم الشمسية. كانوا يقولون من قبل إن سعة الكون ملايين الملايين من الأميال، أما الآن فيقولون إن سعته ستة وثلاثون ألف سنة ضوئية، وهذا يعني أن سعة الكون ٣٦ ألف مضروبا في ٣٦٠* في ٢٤ في ٦٠ في ٦٠ في ١٨٦ ألف. ولو جلس الإنسان من الصباح إلى المساء لإحصاء هذه الأرقام لم يستطعه.

أما علم الطب فتطوّرَ تطورًا مذهلا، فالأمور التي لم تكن تخطر بالبال من قبل قد أصبحت اليوم عادية جدا. لا شك أن العمليات الجراحية كانت تتم في الماضي،

---

* هكذا ورد في الأصل، ولعله سهو والصحيح: ٣٦٥. (المترجم)

ولكنها كانت بحكم الشاذّ النادر، وكان الناس يسمعون عنها في ذكر أبقراط وغيره من الأطباء. أما اليوم فيوجد في كل بلد وكل مدينة جرّاحون يشقّون البطون ثم يخيطونها، ويعالجون بالعمليات الجراحية الكلى والآذان والعيون والحلق وغيرها من الأعضاء. بل قد تطورت الجراحة في الحرب العالمية الأخيرة إلى حد مدهش حيث قاموا بعمليات جراحية للقلب، فكانوا ينظفونه ويعيدونه في مكانه. لقد اخترعوا أجهزة تساعد المرضى الذين قلوبهم لا تنبض أو ضعيفة جدا، وهكذا مدَّدوا في حياتهم. لقد وضعوا في هذه الأجهزة مرضى القلب الذين ما كانوا ليعيشوا ساعة أو ساعتين، فبقوا فيها شهورًا وسنوات حتى صارت قلوبهم تنبض، وفي هذه الأثناء عمل القانون الطبيعي عمله، فشفوا من مرضهم كلية.

إذن، فقد قفزت الدنيا في تطورها قفزات سريعة، فصارت الكتب القديمة قصةً تروى، إلا الكتب الدينية.

أما الاقتصاد، فقد تغيّرَ تمامًا. في الماضي كانت التجارة في العالم تجري بحسب ما يسمى المقايضة (barter system)، حيث كان الناس يأخذون البضائع من مكان إلى آخر، ويبيعونها مقابل بضائع أخرى كانوا بحاجة إليها، ثم يأخذونها إلى بلد ثالث، ثم يأخذون من البلد الثالث ما يحتاجونه، وهكذا كانوا يستبدلون بضاعة مكان بضاعة، وكانت حاجات الجميع تُسَدّ، وما كانت البلاد تضعف ولا تفقر، لأن ما كان يؤخذ منها تعطى مثله في صورة بضاعة أخرى. أما الآن فقد قُضِيَ على هذا النظام، وأصبح التركيز على نظام البنوك، وكل تجارة تتم بالصكوك البنكية، والنتيجة أن الدول الفقيرة تزداد فقرًا وتنهار. كما قُضِيَ على تجارة الأفراد تقريبًا، إذ تكونت شركات تدير المعاملات التجارية، ولو تدبرتم لرأيتم أن كل التجارات الكبيرة قد احتكرتها شركات لم يكن يعرفها أحد من قبل.

ثم فوق الشركات هناك ما يسمى نظام اتحاد الشركات (trust system)، حيث تُعقد معاهدة بين تجار كبار والشركات الكبيرة في بلد واحد، فتجتمع عشر شركات أو أكثر، فيأخذ أصحابها تجارة البلاد كلها في قبضتهم، إذ يتعهدون أنهم لن يبيعوا بضائع معينة إلا بثمن محدد، ولن يتنافسوا فيما بينهم، والنتيجة أن الناس

يضطرون لشراء تلك البضائع بذلك السعر مهما كان غاليا، لأنهم حيثما ذهبوا وجدوا لها سعرا واحدا.

أما الآن فقد تطوروا أكثر من ذلك، فشكّلوا ما يسمى بالإنجليزية (cartel system)، حيث يتعاهد تجار كبار أو شركات من مختلف البلاد ببيع بضائع معينة بسعر محدد، وهكذا يتحكمون في تجارات كل البلدان، ويقبضون الثمن الذي يريدونه. وهذا هو النظام الذي يؤدي إلى الحروب في النهاية، لأن هؤلاء التجار يشترون كل الغلال من بعض البلدان، فتصاب تجارة بلاد كثيرة أخرى بالكساد، فيضطرون للقتال.

فهذا هو الزلزال الذي أصاب العالَم اليوم بما لا نجد في الماضي نظيرًا لجزء واحد من مئات أجزائه. أفلا يشابه هذا الزلزالُ القيامةَ حيث أرجف الأرضَ المادية من ناحية، وسكّانَها من ناحية أخرى؟ إلى هذا الزلزال يشير الله تعالى هنا ويقول: عندما يغرق العالَم في الكفر ويصبح الدين ضعيفًا لا نصير ولا معين، سوف ينقذ الله العالم من الكفر بواسطةِ بيّنة، أي رسولٍ من الله، أو نائب لرسول الله ﷺ. علمًا أن لفظ ﴿إذا﴾ هنا ظرفٌ لمحذوف، وتقدير الجملة هو: "ويكون كذا ثانيةً إذا زُلزلت الأرضُ زلزالها".. بمعنى أننا نجّينا أهلَ الكتاب والمشركين من الكفر مرةً حين بعثْنا رسولنا بصحف مطهرة حيث قلنا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ﴾، ولكن المقدر أن رسولنا هذا سوف ينجي الناس من الكفر ثانيةً في زمن يسوده الضلال والفساد والدمار وحين تُزلزَلُ الأرضُ وأهلُها زلزالاً هائلا.

قال المفسرون: ﴿يومئذ﴾ بدلٌ مِن ﴿إذا﴾ والعامل فيهما قوله ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَها﴾، والمراد أن الأرض تُحدِّث أخبارها حين تُزلزَلُ الأرض زلزالَها (فتح البيان). لكني أرى أن ﴿تُحدِّث﴾ عاملٌ لـــ﴿يومئذ﴾، وهي جملة مستأنفة أي جديدة، حيث بين الله تعالى أنه سيحدُث عندئذ أمرٌ آخر بأن الأرض سوف تحدّث أخبارها. أما قوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، فقد جاء استمرارا للموضوع السابق، أي أن حادثًا مماثلا سيقع مرة أخرى.

وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٣

شرح الكلمات:

أَثْقَالَهَا: الثَقَل: متاعُ المسافر وحَشْمُه؛ وكلُّ شيء نفيس مصون؛ ومنه: إني تاركٌ فيكم الثَقَلين: القرآنَ وعترتي، وجمعُه الأثقال. وأصلُ الثَّقَل ما يكون مع الإنسان مما يُثقِله. والأثقال: كنوزُ الأرض؛ موتاها؛ الأحمال الثقيلة. (الأقرب)

التفسير: نظرًا إلى مفاهيم كلمة ﴿أثقالها﴾ فستعني هذه الآية ما يلي:

أولاً: أن الأرض - أي أهلها - يطرُدون الملوك والأثرياء الحاكمين الذين كانوا عبئًا على الفقراء لا يُحتمل. إن أكبر ثقل في الدنيا هو الحكومة الظالمة غير الشرعية، ونرى أن الله تعالى قد خلق في هذا العصر من الأسباب ما وضع عن الناس هذا الثقل، فالعالم كله يقضي على المَلَكية أو يقلّص صلاحيات الملوك، وهو أمر لم يسبق له نظير. في الماضي لم يكن هناك بلد واحد ليس فيه ملك -إلا بعض القبائل الصغيرة التي كان زعماؤها رؤساء لا ملوك- أما اليوم فقد قضوا على الملكية من معظم بلدان العالم. هذه الحقيقة تنكشف عليك جلية إذا ألقيت نظرة عابرة على العالم من الشرق إلى الغرب. خُذوا مثلا القارة الأمريكية، فكان الملك الفرنسي يحكم شمالها: أعني كندا، بينما كان الملك البرتغالي يحكم جنوبها، والملك الإسباني يحكم باقي القارة الأمريكية، أما اليوم فقد اختفت المَلَكية من هذه البلدان كلها. أما أوروبا فتجد الملوكَ في إنجلترا والسويد والنرويج والدنمارك وبلجيكا، بينما غابت المَلَكية في فرنسا وإسبانيا والبرتغال وألمانيا وإيطاليا والمجر وروسيا واليونان ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا، أما تشيكوسلوفاكيا فكانت تحت قبضة الألمان، أما الآن فقد سقطتْ في قبضة القوى المتحالفة، لكن لا وجود للملكية فيها الآن. أما في قارة آسيا، فكان في تركيا ملكٌ ولا يوجد اليوم، وفي إيران ملك، وفي العراق ملك، أما الشام وفلسطين ولبنان، فكانت تحت حكم الملوك ولكنها قد خرجت من قبضتهم. أما أفغانستان ففيها ملكٌ بالاسم، ونفس الحال في الهند، فالملكية هنا بالاسم. أما الصين وكوريا فقد كان في كل منهما ملك، ولكن لا

وجود له الآن. أما اليابان فهناك ملكٌ لكن الحلفاء يريدون القضاء عليه. هذا يعني أن الملوك قد قُضي عليهم في ثلاثة أرباع المعمورة، ومَن بقي منهم فبالاسم بدون صلاحيات كما في إنجلترا.

إذن فالمراد من قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أن الأرض تطرد الملوك وعِلْيَةَ القوم، وهكذا سوف يُرفَع عن الفقراء ذلك الثقل الذي فاق احتمالهم.

وثانيا: والمفهوم الثاني لهذه الآية أن الناس سوف يتحررون من سلطة رجالات الدين من مشايخ وقسيسين وباندات. لا شك أن ثِقل المشايخ ليس كثقل الحكومات الظالمة، لكن الناس يعظّمون فتاواهم ويقدّمون تضحيات عظيمة من أجلهم أحيانًا، وهذا الثقل أيضًا قد زال عن الناس إلى حدّ كبير. والحال نفسه بالنسبة إلى الباندات الهندوس، فلم يعد بوسعهم أن يضغطوا على أتباعهم لأداء القرابين والكفّارات والاغتسال بنهر "جانجا". كما زال ضغط القسس على أتباعهم، مع أنهم كانوا أقوى سلطة من المشايخ والباندات، إذ كان لهم سلطة وحُكم في كل مكان، فكانوا يُعاقبون الناس بالسجن والقتل أيضًا. لقد مارسوا حكمهم على عامة الناس بما لا مثيل له، أما الآن فقد غابت هذه الأمور كلها.

ثالثا: والمعنى الثالث للأثقال هي الأثقال الظاهرة في الأرض، فالمراد من الآية أن الأرض تُخرج ما فيها من معادن وغيرها من الثروات والخيرات. وبالفعل نرى أن الإنسان يستخرج من بطن الأرض بلايين الأطنان من زيت الكيروسين مثلاً. في الماضي لم يكن الناس يتصورون وجوده في بطن الأرض، أما اليوم فينتفع به الناس في كل قرية ومدينة حيث تضاء به المصابيح في كل مكان لا توجد فيه كهرباء. في الماضي كان الناس يشعلون السراج بزيت الخردل، أما اليوم فقد أصبح استعماله متروكًا، وأخذ مكانه الكيروسين. كما يُستخدم أيضا في المصانع.

ثم يُستخرج من الأرض البترول الذي يُستعمل وقودا في السيارات. ويُستخرج منها الفحم الحجري الذي تعمل به القطارات والماكينات والمصانع الضخمة. ثم يُستخرج منها أنواع المعادن الثمينة مثل اليورانيوم والبلوتونيوم والراديوم وغيرها. كل هذه الأشياء كانت مخبأة في بطن الأرض، ولم يكن الناس يعلمون ذلك،

ولكنها استُخرجت منها فتنفع الناس في مجالات شتى. فالجميع يرى أن الأرض قد ألقت أثقالها.

رابعا: ومن أثقال الأرض الآثارُ القديمة التي كانت خفية في بطنها كأمانةً، وهي تُستخرج اليوم. لقد اكتشفوا مدنا كبيرة كانت بعضها مدفونة في الأرض على عمق ثمانين بل تسعين قدمًا، لقد ظلّت مختفية فيها منذ آلاف السنين، ولم يكن الناس يعرفون أنهم يمشون على مدن مدفونة، فاليوم يكتشفها علماء الآثار ويطلعون على الحضارات القديمة ويعرضونها للناس. وبرؤية آثار هذه المدن يعرفون نوعية أواني الناس قبل عشرة آلاف سنة وثيابهم وأشكال بيوتهم ونظام طرقهم وأنواع مراكبهم وعرباتهم وأسرَّتهم وأثاث بيوتهم. ثم إنهم يستخرجون عظام الموتى والجثث المحنطة من بطن الأرض ويحتفظون بها في المتاحف ليراها الناس. فالأرض قد شعرتْ بثقل الأشياء المدفونة في بطنها فأخرجتها كلها وقالت خذوا أماناتكم هذه.

خامسا: ولو اعتبرنا الأرض بمعنى أهلها فالمراد من قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أن الناس سيعلنون على الملأ أفكار الإباحية واللادينية والحرية المطلقة، مما كانوا يخفونه من قبل، مخافة أن تُنـــزع ألسنتهم من حلوقهم لو أعلنوه، فيكتبون الآن كتبًا ويديرون نقاشات معلنين أن هذه هي الأفكار السليمة وأن علينا أن نغيّر تفكيرنا السابق. فقبل فترة قرأتُ أمرًا غريبا عن روسيا السوفياتية. فكما أن المسيحية تدعي اليوم -رغم اعتقادها بالثالوث- أنها هي التي علّمتْ التوحيد الكامل، كذلك تفعل روسيا، حيث تروّج لأمرٍ باسم آخر. فقد كتبتْ جريدة هناك أن الناس يعترضون علينا بأن ظاهرة الزواج قليلة في روسيا، وليكن واضحًا لهم أولا: أن حكومتنا لا يمكن أن تلام على ذلك إذ لا تمنع أحدا من الزواج، وثانيًا: لو أمعنا النظر في الأمر الواقع لوجدنا أن الفاحشة لا تنتشر باقتناء العشيقات بقدر ما تنتشر نتيجة الزواج!

بقراءة هذه الفكرة يصاب الإنسان بالذهول. يا ترى، إذا لم يكن اقتناء العشيقات فاحشةً فما هو مفهوم الفاحشة عندهم؟

وهذا هو حال كثير من البلدان الأخرى، حيث ينشرون على الملأ أفكار الإباحية والحرية المطلقة واللادينية. وهكذا ظهر للناس ما كان خفيا في صدورهم.

سادسا: والمفهوم السادس لقوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ هو الإشارة إلى كثرة الاكتشافات العلمية ولا سيما أسرار الأرض الخفية. وقد ظهرت هذه العلامة بجلاء في هذا العصر، ففي كلّ سنة تُخترع مخترعات جديدة وتُكتشف اكتشافات جديدة باطراد.

الواقع أن العلوم (Science) اسمٌ للنتائج الكيماوية لتأثير الأرض، وهذه النتائج الكيماوية هي الأثقال التي كانت خفية في الأرض، وقد أُخرجت من بطنها من خلال المخترعات والاكتشافات العلمية الكثيرة. فلا تمرّ سنة إلا ويظهر صدق قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٤﴾

التفسير: أي أن الأرض تُخرج أثقالها حتى يقول الإنسان مذهولا: ما لهذه الأرض؟ وما هذه الأسرار والأشياء التي كانت خفية، وقد ألقتها الأرض الآن؟

والمعنى الثاني أن لا يكون المراد هنا كل إنسان بل الإنسان الكامل، الذي يقول برؤية عُرْيِ الناس وإلحادهم: ما لهذه الدنيا؟ لماذا ابتعدت عن الله تعالى هذا البعد؟

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٥﴾

التفسير: هذه الآية قد تكون موضوعا جديدا، وقد تكون شرحًا لقوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾. ولو اعتبرناها موضوعا جديدا فمعناه عندي: كان الناس لا يعلمون عن خَلْق الأرض وماهيتها إلا علمًا مجملاً وناقصًا، ولكن في العصر الأخير سيتطور علم الجيولوجيا، فمن خلال نوعية تربة الأرض ومن أشعّتها وموجاتها وغيرها ينكشف على الناس الكثيرُ عن خلق الأرض. وكأن ﴿أَخْبارَها﴾

يعني أن الأرض ستحدّث أمورا كثيرة عن حقيقتها وكيفية خلقها. لقد قال الله تعالى ذلك لأن علم الجيولوجيا يتوقف -إلى حد كبير- على معرفة ماهية تربة الأرض وطبقاتها وألوانها، وليس لأنهم يجمعون هذه المعلومات عن الأرض بوسائل أخرى، إذ يخبر الجيولوجيون بفحص الصخور والتربة أن الأرض قد مرّت بكذا وكذا من التغيرات، ويخبرون برؤية حفريات مختلفة على مختلف طبقات الأرض عن التغيرات المختلفة التي حصلت بالأرض. كذلك يخبرون بلون التراب ورائحته بوجود المعادن فيه. إنهم يصعدون على الجبال ويفحصون الأحجار ويشمّون رائحة التربة، فيخبرون أن في هذه المنطقة كذا وكذا من المعادن والعناصر. وكذلك يكتشفون من خلال الموجات الكهربائية نوعية المعادن وعمقها، فيعرفون ما هو المعدن الموجود هناك، أهو ذهب أم نحاس، وكم عمقه. وهكذا تُحَدِّثُ الأرض أَخْبَارَهَا، وتتكلم بعد أن كانت صمّاء. يمرّ الناس عليها فيظنونها صامتة، لكن عندما يمر عليها الجيولوجيون يسمعون قولها لهم: إن في بطني النفط وهو على عمق ثمانين مترًا مثلا، أو في بطني الذهب أو الفحم أو اليورانيوم أو البلوتونيوم وغيرها وهو على عمق كذا وكذا.

لقد قلت من قبل إن أحد معاني قوله تعالى ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ هو أن الناس سوف يتحدثون علنًا عن أفكارهم السيئة، ونظرًا إلى هذا المفهوم سيعني قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أنه في ذلك العصر لن تطفو على السطح أفكار أهل الأرض المكبوتة فحسب، بل يقومون بهذا العمل برغبة عارمة ويجدون المتعة في كشف تلك العيوب للناس ونشرها بينهم. وبالفعل قد بدأت تصدر في أوروبا وأمريكا وآسيا جرائد تسمى (society gossip) - أي صحف الفضائح والقيل والقال - وهي توزع في العالم بكثرة ويطالعها الناس بمتعة. ينفق أصحابها مئات الآلاف لكي يطّلعوا على أسرار الشخصيات الكبيرة من الرجال والنساء، ثم ينشرونها في جرائدهم على نطاق واسع. كما يكتب بعض الناس بأنفسهم عن مشاعرهم الشهوانية بالتفصيل، ثم هربًا من طائلة القانون يكتبون على كتبهم أنها

خاصة بالأطباء والفلاسفة وليس للعامة، حتى يظنوا أنها كُتبت لأغراض علمية محضة، لا إشباعًا لأهواء النفس.

لقد قرأت بنفسي بعض هذه الكتب، فمثلاً: حلف اثنا عشر طبيبا في أمريكا وتعاهدوا قائلين: إن علم الجنس علمٌ خفيّ، ويقع الناس في أنواع الخداع والخطأ إذ ليس عندهم معرفة سليمة تفصيلية به، فلنذكرْ تجاربنا الجنسية كلها بلا حياء. فألّفوا اثني عشر كتابًا ذكروا فيها مشاعرهم الجنسية بكلمات عارية كقول بعضهم: عندما نمارس أنا وزوجتي الجنس هكذا تكون مشاعرنا، وهذه هي الحركات التي نقوم بها، وهكذا نعبر عن حبّنا، وما إلى ذلك. وقد قرأت أحد هذه الكتب الاثني عشر.

وهناك حديث ينطبق في رأيي على هذا الوضع المعاصر، وقد أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وفيما يلي رواية الترمذي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا. فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا. (الترمذي، أبواب التفسير، ومسند أحمد: مسند أبي هريرة ﷺ)

فحيث إن المحدثين لم يكونوا على علم بما يحدث اليوم فطبّقوا هذا الحديث على يوم القيامة، لكني أراه ينطبق على هذا العصر الذي تصدر فيه جرائد تنشر عيوب الناس كلها، فيقرؤها الآخرون بشوق ونهم. هناك جريدة لندنية تُطبع منها ألف نسخة فيما سمعتُ، يشتريها الناس في الصباح المبكر خفيةً ويقرأونها بمتعة، سواء عليةُ القوم أو عامة الناس، وليس في هذه الجريدة إلا أن زوجة فلان وابنة فلان فعلتْ كذا وكذا، حتى تُلمّح الجريدة إلى أفراد العائلة الملكية أيضا بأن فلانا منها وُجد في سيارة مغلقة أمام باب فلان، ونتساءل: لماذا ذهب هنالك، ولماذا وجدتْ سيارته أمام ذلك البيت؟

فهذا الحديث النبوي يشير إلى هذه الأمور في رأيي، لكن المفسرين قد طبقوه خطأ على يوم القيامة، مع أن القرآن الكريم يقول إن الأرض ستُحدِّث أخبارها

وليس أخبارَ القيامة. لقد ورد عن يوم القيامة أن الأيدي والأرجل ستشهد عندها ضد الإنسان (يس:٦٦)، وليس أن الأرض ستحدّث عندها. غير أنه قد ورد في الأحاديث بوضوح أن الأرض سوف تتكلّم في زمن المسيح الموعود عليه السلام، إذ جاء أن الحجر سيقول في زمن المسيح الموعود عليه السلام: يا نبي الله، إن هناك كافرا مختفيا ورائي◆ (البخاري: كتاب الجهاد، باب قتال اليهود). مما يدل على أن هذه الآية تتحدث عن العصر الحاضر، حيث أخبر الله تعالى أن الناس سوف ينشرون مساوئهم في الجرائد والكتب واليوميات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. فالأمور التي كان الناس يخفونها سيستمتع أهل هذا العصر بذكرها ولن يبقى عندهم شيء اسمه الحياء والخجل. وكما قلت إن أصحاب الجرائد يبثّون عملاءهم للتجسس على كبار الرجال والنساء لمعرفة أسرارهم الشخصية، ثم ينشرونها ويكسبون الملايين ببيعها. وبعض أصحاب الجرائد المتدنية يلجأون إلى ابتزاز الناس لهذا الغرض. كذلك تكتب نساء بعض العائلات الشريفة العريقة ذات النفوذ يومياتهن فيذكرن فيها تصرفاتهم المشينة بلا خجل ولا حياء، ثم تطبع هذه اليوميات بآلاف النسخ ليطالعها الآخرون.

إذنْ، فقد قامت القيامة ووقعت الزلزلة في العصر الحاضر بما لا تجد له نظيرا في التاريخ، وهكذا تحققت نبوءة القرآن: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تحققا رائعا.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أوحى: أوحى إليه إيحاءً: بَعَثَه. وأوحى إليه بكذا: ألهمَه به. ووَحَى إليه يَحِي وَحْيًا: أشار؛ أرسلَ إليه رسولاً. ووَحَى الله في قلبه كذا: ألهمَه. ووَحَى إلى فلان

◆ نص الحديث: "أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ." (المترجم)

الكلامَ: كلّمه خفيًّا. وفي "الأساس": "وحيْتُ إليه وأوحيتُ: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. وفي "المصباح": وبعض العرب يقول: وحيتُ إليه ووحيتُ له وأوحيتُ إليه وله. (الأقرب)

وورد في "مجمع بحار الأنوار": ويقع الوحيُ على الكتاب والإشارة والرسالة والإلهام والكلام الخفيّ. وحيتُ إليه الكلامَ وأوحيتُ. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ وحيُ إعلامٍ لا إلهامٍ لقوله تعالى ﴿إِنّا رادُّوه إِلَيْك﴾".

يعني أن ما أوحيَ إلى أم موسى عليه السلام كان وحيَ كلماتٍ لا وحيَ إلقاءِ أمرٍ في القلب. وقد قال ذلك لأن الإلهام في اصطلاح العلماء القدامى يعني إلقاءَ أمرٍ في القلب، ولذا يفرّقون بين الوحي والإلهام، مع أن هذا الفرق وَهْمٌ منهم، لا سند له في الشرع.

ثم يقول صاحب بحار الأنوار: "و﴿أوحيتُ إلى الحواريين﴾: أمرتُهم. و﴿أوحى لها﴾: أي ألهمَها. ﴿فأوحى إليهم﴾: أومأَ -أي ما ورد في القرآن عن زكريا عليه السلام فأوحى إليهم فمعناه: أومأَ إليهم - وقيل: كتب بيده في الأرض." (مجمع بحار الأنوار: وحى)

لقد اتضح من هنا أن من معاني الوحي: بَعْث أحدٍ لأمرٍ، وإلقاء شيء في القلب، وإفهام أحدٍ بإشارة، وإرسال أحدٍ برسالة، وكلامُ المرء لصاحبه بما يخفيه عن غيره، والأمرُ بشيء.

التفسير: لقد ورد فعل الوحي في القرآن الكريم في ٦٥ مرة، إضافةً إلى هذه الآية، وفي كل مرة ذُكر معه حرف (إلى). وهناك خمسة أماكن أخرى ورد فيها فعلُ الوحي مجهولاً وبدون حرف (إلى).. أعني بدون ذكر الموحى إليه، لذا فلا يمكن التأسيس على مثل هذه المواضع. فحيث إن الوحي ورد في القرآن ٦٥ مرة مع حرف (إلى)، كما ورد في الحديث مع حرف (إلى)، لا مع اللام، فلا بد من التسليم أن قوله تعالى ﴿أوحى لها﴾ لا يعني أنه أوحى إلى الأرض، بل اللام هنا بمعنى (في)، والمعنى أنه أوحى في حق الأرض، أما الموحى إليه فلم يذكر هنا. لو

كان المراد هنا أنه تعالى أنزل الوحي إلى الأرض لقال بحسب أسلوب القرآن والحديث: (أوحى إليها) بدلاً مِن (أوحى لها). فمع أن الموحى إليه غير مذكور هنا، إلا أن الجميع يدرك بسهولة أن الموحى إليه هو الرسول ﷺ، بدليل أن وحي القرآن نزل عليه ﷺ، فقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ يعني: "بأن الله أوحى إلى محمد لها".. والمراد: لا تستغربوا خبر هذه التغيرات العظيمة، فإنها واقعة حتمًا لأن الله تعالى قد أنبأ عن وقوعها في القرآن. وفي هذه الحالة يُعتبر قول الله هذا موجهًا إلى مَن يأتي بعد نـــزول القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى هنا أنه سبق وأخبر قائلا: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ -أي أن أهلها سيكشفون مساوئهم علنًا- لذا فقد صار هذا الأمر من قدره المبرم، لأن الله تعالى إذا أخبر في وحيه عن وقوع شيء معتبرًا إياه علامةً على صدق مأمور له، فيتحقق حتمًا ولا يلغى أبدًا. هناك كثير من جرائم الإنسان التي إذا فكر فيها لام نفسه وكَفَّ عنها، ولكن الله يخبر هنا أن أهل ذلك الزمن لن يرتدعوا عن منكراقم، ونقول ذلك لأننا قد أحطنا بمصيرهم علمًا. لو أنهم كانوا سيمتنعون عن جرائمهم هذه لأخبرناكم أيضا، ولكننا نخبركم أن الأجيال القادمة هذه قد عقدت العزم على هذه الأعمال الشنيعة، فمهما عجبتم من هذه الأخبار وقلتم في استغراب كيف يمكن أن يأتوا هذه المنكرات فهي خلاف الفطرة ولا بد أن فطرهم سوف تمنعهم من ارتكابها ولن تَدَعهم ينجرفوا في سيل هذه المعاصي، إلا أننا نخبر أن هذا سيحدث حتمًا، لأن ﴿رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.. أي أن هذا الخبر قد جاء في وحي القرآن الكريم، والقرآن أنزله عالم الغيب، وإنه لم ينـــزل فيه من أخبار الزمن الأخير إلا ما هو واقع حتمًا. لو أن هؤلاء القوم كانوا سيرتدعون عن هذه المعاصي لَذَكَر ذلك أيضا و لم يسكت عنه في وحيه.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا قال الله تعالى هنا ﴿أوحى لها﴾ خلاف التعبير الشائع: أوحى إلى فلان؟

لقد حاول المفسرون الإجابة على ذلك فقال بعضهم: كان بعض العرب يستعمل اللام مكان (إلى) فيقولون: وحيت له وأوحيت له بدلاً من وحيت إليه وأوحيت إليه. (فتح القدير، وروح المعاني)

لكننا لا نقبل بهذا التأويل، إذ قد ورد لفظ الوحي في القرآن الكريم ٦٥ مرة وفي كل مرة قد ورد مقرونًا بحرف (إلى)، فلا داعي للقول أن اللام في قوله تعالى ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ جاء مكان (إلى).

وأدرك البعض بما في هذا لجواب من خطأ فقال: المراد: أن الله تعالى أوحى إلى الملائكة لها، أي أن الموحى إليه محذوف هنا.

هذ التأويل لا بأس به، غير أني أرى أن الموحى إليه هو الرسول ﷺ وليس الملائكة، والمعنى أن الله تعالى قد سبق أن أخبر رسوله بوحيه عن هذه الأحداث المستقبلية، لذا فلا بد من وقوعها، ولا يمكن أن يحول دونها حائل. لقد أخبر الله في وحيه بوقوع هذه العلامات عند بعثة المسيح الموعود عليه السلام- التي هي في الحقيقة بعثة ثانية لرسولنا الكريم ﷺ- فإذا كان زوال بعض الأمور الأخرى ممكنا، إلا أن إلغاء هذه العلامة محال، لأن ما يجعله الله علامة على معرفة مأموره فهو لا يلغى أبدًا. هذا المبدأ قد بيّنه المسيح الموعود عليه السلام في كتبه وقال: لا شك أن إلغاء الأخبار الإنذارية ممكن، أما الأخبار الإنذارية التي يجعلها الله علامة على بعثة مأمور من عنده فلا تلغى أبدا، بل تقع حتمًا مثل الأنباء الإلهية التبشيرية.

وهناك معنى آخر لقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ قد ذكره المسيح الموعود عليه السلام، وقد سمعته من لسانه، وهو: "إن ربك أوحى إلى إمام الزمان"، والمراد أن هذه الأنباء قد أوحاها الله إلى الرسول ﷺ المرةَ الأولى عند نزول القرآن، كما سيوحيها ثانيةً إلى إمام الزمان الأخير عند اقتراب وقوعها. وكان حضرته عليه السلام يعني من قوله هذا أن هذه الآية إشارةٌ أيضًا إلى ما تلقّاه من الله تعالى من أخبار الزلازل الكثيرة في هذا العصر. ذلك أنه كان من الممكن أن يقول الناس: لماذا لا تقع هذه الزلازل من قبل وإنما تقع في زمن المسيح الموعود عليه السلام، فأجاب الله أنها ستقع عند ظهوره لأنها تكون علامةً على صدقه، وعند زمن اقتراب هذه العلامات عند ظهور المسيح الموعود عليه السلام سيوحي الله إليه ثانيةً ويخبره: لقد حان الزمن الذي سبق أن أخبرنا عنه في القرآن الكريم، وهكذا فإن تكرار الوحي عن وقوع هذه الأخبار سيكون دليلاً على اقتراب زمن هذه الزلازل من ناحية، ومن ناحية أخرى

يدل على المأمور الذي تقع الزلازل من أجله. فبعد هذا الوحي المتكرر ستبدأ سلسلة من الزلازل لكي تكون دليلا على صدق إمام الزمان هذا، ولتفكّر الدنيا أن هذا المدعي إذا لم يكن من عند الله تعالى، فكيف أدلى بهذه الأنباء عن هذا الزمن المظلم في وقتٍ لم يكن ليخطر ببال أحد وقوع زلازل عظيمة تغيِّر وجه العالم، ثم تحققت أنباؤه حرفيا أيضا.

باختصار، إن الموحى إليه في هذه الآية اثنان: رسول الله ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام، أما رسول الله ﷺ من حيث إن الوحي عن هذه الأخبار قد نزل عليه أول مرة، وأما المسيح الموعود عليه السلام فمن حيث إن هذا الوحي عنها قد نزل عليه ثانية. إن النبي ﷺ هو المصداق الأول لهذه الآية القائلة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ لأن الوحي الأول عن هذه الأخبار نزل عليه ﷺ ولأن جميع الآيات التي ستظهر إلى يوم القيامة إنما تظهر تدليلاً على صدقه ﷺ، ولأن كل من يقيمه الله تعالى لهداية الناس لا بد أن يكون خادما له ﷺ، والمسيح الموعود عليه السلام هو المصداق الثاني لهذه الآية لأن الله تعالى قد أجّل وقوع هذه الزلزلة العظيمة إلى أن أنــزل وحيه ثانيةً على حضرته عليه السلام مؤكدًا ما قاله من قبل لرسوله ﷺ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ حيث أنبأ سبحانه وتعالى أن محمدا ﷺ سيظهر في زمن آخر من خلال مثيله، لينجي الناس من الكفر والشرك مرة أخرى. فقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ إشارة إلى الوحيين: إنه إشارة إلى الوحي الأول لأنه هو الهادي، وإشارةٌ إلى الوحي الثاني لأنه يجلّي ثانيةً - على وجه النيابة - نفسَ التجلي الذي ظهر من قبل عن طريق الرسول ﷺ.

أما السؤال: ما هو الوحي؟ فقد سبق أن سجلنا ما ورد في المعاجم من المعنى اللغوي للوحي، أما الآن فأودّ إلقاء الضوء على المعنى الشرعي للوحي.

نجد في المفردات للراغب - وهو قاموس للقرآن الكريم - قولاً إجماليًا عن أفكار العلماء السابقين عن الوحي. فقد ورد فيه:

"أصل الوحي: الإشارة السريعة."

ذلك أن الإشارة نوعان: سريعة وبطيئة. والحق أن الإشارة السريعة فيها عنصر الإخفاء، وبالفعل نجد المرء يشير أثناء كلامه بعينه أو إصبعه أو برأسه إلى من يريد لكي يعلم هو مراده دون الآخرين. فالفارق بين الإشارة السريعة والعادية هو أنك تريد بالإشارة العادية أن تفهِّم صاحبَك قصدَك، سواء فهمه الآخرون أم لم يفهموا، أما السريعة فتقصد بها إعلامَ صاحبك دون الآخرين.

لقد شرح المسيح الموعود عليه السلام أيضا الوحيَ في كتابه "حقيقة الوحي" وغيره من الكتب، وأخبر بناءً على تجربته الشخصية أن كلام الله ينـــزل بسرعة هائلة (ملفوظات: المجلد ٤ ص ٥١٣-٥١٤). وهذا هو الأمر الذي بيّنه القرآن الكريم في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(القيامة:١٧-١٨). كان الوحي ينـــزل على رسول الله ﷺ بسرعة، فكان يردده في عجلة لكي يضبط ألفاظه جيدًا، فطمأنه الله تعالى أن لا داعي لذلك، لأن وحينا هذا وحيُ شرع، ووحيُ الشرع لا يُنسى أبدا، لأنه إذا أُنسِيَ صار الوحي المتلوّ ناقصًا. لا شك أن لهذه الآية معاني أخرى أيضا، غير أن هذا أحد معانيها.

فالقرآن يؤكد أن الوحي ينـــزل بسرعة، والمسيح الموعود عليه السلام أخبر بناءً على خبرته أن الوحي ينـــزل بشوكة وعظمة وسرعة. والمعنى اللغوي للوحي -أعني الإشارة السريعة- أيضا يؤكد كيفية نـــزول الوحي.

ثم يقول صاحب المفردات: "وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرّد عن التركيب وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة."

علمًا أن صاحب المفردات لا يتحدث هنا عن وحي الله تعالى، إنما يبين المعنى اللغوي للوحي. ثم يقول:

"وقد حُمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. فقد قيل: رَمَزَ، وقيل: اعتبارٌ، وقيل كَتَبَ."

والاعتبار يعني لغةً: الاستنباط العقلي من قول أو فعل، والمراد هنا أهم استنتجوا مما كان فيه زكريا عليه السلام من خشوع وخضوع وتضرع وبكاء وتوجُّه إلى الله تعالى، أنه يأمرهم بتسبيح الله وتحميده.

ثم قال صاحب المفردات: "وعلى هذه الوجوه قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وقوله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾، فذلك الوسواس المشار إليه بقوله ﴿مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾، وبقوله ﷺ: إن للشيطان لَمّةَ الشرّ. ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقَى إلى أنبيائه وأوليائه وحي."

لقد حلّ صاحب المفردات هنا قضية هامة لم تزل سبب عثرة للمسلمين. فقد رأيتُ أننا عندما نقول للناس إن الله تعالى قد أنزل وحيه إلى المسيح الموعود عليه السلام فإنهم يثيرون ضجة ويقولون هذا قول باطل، إذ لا ينـــزل أي وحي بعد رسول الله ﷺ. في حين نجد صاحب المفردات يقول هنا: "ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى لأنبيائه وأوليائه وحي". أما نحن فنؤمن أن المسيح الموعود عليه السلام نبي ورسول، ولذلك لا مناص لنا من اعتبار إلهاماته وحيًا، أما صاحب المفردات فيعتبر الكلام الذي ينـــزل على الأولياء وحيًا أيضا. وهذا هو الحق والصدق، فإن كل كلام ينـــزل من الله تعالى على النبي أو الولي وحيٌ حتمًا. لقد قلَّت هذه النقاشات الآن، ولكن عندما كنتُ طفلا صغيرا كانت المعارضة على أشدها وكان المعارضون يُفتون فتاوى كبيرة ضد حضرته بسبب إطلاقه لفظَ الوحي على إلهاماته، وكانوا ينشرون إعلانات ضخمة قائلين إن الميرزا كافر وملحد -والعياذ بالله- لأنه يدعي نزول الوحي الإلهي عليه. بينما نجد الإمام "الراغب" يقول صراحةً إن الكلام الذي ينـــزل على أنبياء الله وأوليائه يسمى وحيًا بدون أي تفريق وتمييز.

ثم يقول الامام الراغب: "وذلك أضربٌ حسبَما دلّ عليه قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا – إلى قوله – بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾، وذلك إما برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي في صورة معينة".

ورد في الحديث أنه لما نزل أول وحي على النبي ﷺ في غار حراء رأى جبريلَ عليه السلام فكلّمه، ثم فتر عنه الوحي بعض الوقت، ثم نزل عليه جبريل ثانية وفي هذه المرة لم يره النبي ﷺ في غار حراء، بل رآه جالسًا على كرسي بين السماء والأرض. ويظهر من البخاري وغيره من كتب الحديث أن جبريل ظهر للنبي ﷺ في بعض المرات وكلَّمه مشافهةً وجهًا لوجه كما يكلّم صديق صديقه. فثبت أن جبريل عليه السلام كان يظهر للنبي ﷺ في كل مرة في صورة ما، لذا لم يقل صاحب المفردات هنا في "صورته المعينة"، بل قال "في صورة معينة"، إذ ليس لجبريل شكل معيّن؛ والحديث أيضًا يؤكد أنه كان يظهر للنبي ﷺ في صور مختلفة، إذ ظهر ﷺ في غار حراء في صورة شاب، وبعد فترة من الوحي الأول ظهر له ﷺ في شكل مَهيب حتى خافه النبي ﷺ إذ كانت صورته هذه تملأ ما بين السماء والأرض، أما في المدينة المنورة فظهر له ﷺ جبريل في صورة الصحابي دحية الكلبي (البخاري: كتاب بدء الوحي، وأُسد الغابة: دحية بن خليفة الكلبي). فظهور جبريل للنبي ﷺ في صور مختلفة دليل على أنه ليس له صورة معيَّنة. إنه ملاك ولا فرق بينه وبين غيره من الملائكة من هذه الناحية، لكنه عندما يظهر على عبد من عباد الله تعالى فيتمثل في شكل بحسب نوعية الوحي الذي ينـــزل به. فقد ظهر على النبي ﷺ في غار حراء على صورة شاب لأنها بداية الوحي، وأراد الله تعالى استمالة قلبه ﷺ وإظهار حبه له مؤكدًا له أن لا داعي للخوف والقلق، فقد اختاره لقربه وسوف يُنـــزِل عليه في المستقبل أفضالا عظيمة. ثم بعد انقطاع الوحي لفترة تمثلَ جبريل له ﷺ في صورة مهيبة، والحكمة في ذلك أنه كان قد انقضى على بداية الوحي ستة أشهر، وكان النبي ﷺ قد بدأ تبليغ كلام الله تعالى لأهل مكة ولو على مستوى فردي، وكانت بوادر معارضة أهل مكة وتكذيبهم قد أخذت في الظهور، فأراه الله تعالى جبريلَ في صورة مهيبة، ولكن ليس تخويفًا له ﷺ بل إيذانًا ببداية نـــزول الوحي الذي فيه أخبار هلاك المعارضين ودمارهم. أما الحكمة في ظهور جبريل على النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي في المدينة المنورة فهي أنه لو جاءه عليه السلام في صورة شكل أجنبي لظن الصحابة أن شخصًا من الخارج جاءه ﷺ وكلمه ورحل، ولكن هذه الشبهة

ما كانت لتساورهم في حالة ظهور جبريل في شخص دحية الكلبي، لأنه كان جارا لهم، ولو انتابتهم شبهة، كان بإمكانهم أن يسألوه: هل كنتَ في مجلس النبي ﷺ أمسِ أم لا؟ فإذا قال لا، أيقنوا أن ما قاله النبي ﷺ هو الحق، وأن جبريل هو من جاءه ﷺ في صورة "دحية الكلبي". فأنزل الله جبريل على صورة دحية حتى إذا أخبر النبي ﷺ صحابته أن جبريل هو الذي جاءني أمامكم لم تساورهم الشكوك، بل أيقنوا أن ما يقوله النبي ﷺ هو الحق، لأن دحية موجود في مكان آخر ولا يمكن أن يظهر شخص بجسده في مكانين مختلفين في وقت واحد. فمثلا البروفيسور "بشارة الرحمن" يعمل أستاذًا في كليتنا، ومعنى اسمه: خبر سار من الله الذي يرحم الإنسان رحمة عظيمة مرة بعد أخرى. فلو رأى أحدُكم البروفيسورَ في حالة اليقظة ولكنه أحس في قلبه أنه رآه في حالة الكشف، فلكي يطمئن قلبه سيذهب إلى البروفيسور إذا كان يعرفه معرفة شخصية ويقول له: هل قابلتَني أمس في وقت كذا ومكان كذا، فلو قال له: كلا، كنتُ عندها في بيتي أيقن صاحب الكشف أن ما شعر به قلبه هو كشفٌ أراه الله تعالى، إذ لو كان مشهدًا ماديا لعرف البروفيسور أنه قد قابله في مكان كذا ووقت كذا. كذلك لو ظهر جبريل في صورة شخص أجنبي وليس بصورة دحية الكلبي وصافحه وكلّمه ورجع، ثم قال النبي ﷺ لأصحابه إن جبريل جاءني وكلّمني، فقد يشك البعض ويقول ربما كان شخصا آخر وظنه النبي ﷺ جبريل. لا شك أنهم كانوا يؤمنون بكل ما يقول الرسول ﷺ منشرحي الصدر، لكن علينا أن نعلم أن اليقين نوعان: نوع مقرون بالأدلة المادية كلها، ونوع أساسه الإيمان فقط، فلو أن الرسول ﷺ قال للصحابة عن شخص أجنبي: هذا جبريل الذي أتاني، لصدَّقوه إذ كانوا يوقنون بكل ما يقول لهم، ولكن مجيء جبريل في صورة دحية الكلبي، وإمكانية اطمئنانهم بسؤال دحية الكلبي ما إذا كان قد حضر مجلسَه ﷺ أم لا، وإمكانية إنكاره ذلك، كان سيولّد فيهم يقينًا ما كان ليتيسر نتيجة إيمانهم السابق. فهذا الأمر كان دليلا إضافيا على أن حواسهم تصدّق ما قال لهم الرسول ﷺ. فكأنهم كانوا سيصدقون الرسول ﷺ لأنه يقول لهم هكذا،

وأيضا لأن حواسهم تشهد على ما يقول، وأيضا لأن دحية يؤكد ما يقول النبي ﷺ.

باختصار، لقد ظهر جبريل على النبي في هذه المناسبات الثلاث في صور ثلاث مختلفة لأغراض مختلفة.

عندنا يعترض البعض على الإسلام قائلا: تزعمون أن الله يكلّم عبادّه، فهل له لسان يكلّم به؟ نقول في الرد: ليس لله تعالى لسان، بل إنه بقدرته يخلق الكلام بدون لسان. وهذا هو حال جبريل فهو ملاك يتمثل بأشكال مختلفة بحسب الظرف والحاجة، فأحيانًا في صورة أُمٍ أو بنتٍ أو زوجة أو صورة رجل أو حمامة أو أي حيوان آخر. واختلاف الصور التي يتمثل بها يشير إلى نوعية الكلام الذي ينـــزله الله تعالى بواسطته لنا، فيما إذا كان من أجل أحبابنا أم أعدائنا. وكأن كلام الله ينـــزل بطريقين؛ بكلمات يسمعها الإنسان من لسان جبريل، وبصورة جبريل نفسه. فرؤية النبي ﷺ إياه في صورة مهيبة جالسًا على كرسي ما بين السماء والأرض، هي بمثابة إعلان رباني بأن الكلام الذي سينـــزل الآن على محمد سوف ينفَّذ به قضاء الله في الأرض كلها، لأن مصير العالم كله منوط بهذا الكلام، فلن يقبل الله الآن من الناس عملاً إلا إذا كان مطابقا لهذا الكلام، وأما إذا كان خلافه فسوف يرفضه. وحينما أراد الله تعالى استمالة قلب النبي ﷺ وإظهار حبه له، فظهر جبريل عليه ﷺ في صورة شاب جميل. وعندما أراد الله أن يؤكد للصحابة أن مَن يرونه هو جبريل نفسه ظهر جبريل في صورة صحابي، لكي يكون بإمكانهم أن يعرفوا بأنفسهم أنَّ مَن كان يكلّم النبيَّ هو جبريل لا دحية الكلبي.

إذًا، فجبريل ينـــزل في صورة معينة دائما، وليس في صورته الحقيقية.

ثم يقول الراغب: "وإما بسماعِ كلام مِن غير معايَنةٍ كسماع موسى كلامَ الله، وإما بإلقاءٍ في الرُّوع كما ذكر عليه الصلاة والسلام أن روح القدس نفَث في رُوعي".

أي لم تنـــزل على النبي ﷺ عندها كلمات معينة، وإلا لقال إن جبريل قال لي كذا وكذا. مما يعني أن مِن طرق الوحي أن أمرًا يُلقى في قلب الإنسان من عند الله تعالى.

لكن هذا لا يعني أن نسمي أفكار القلب إلهامًا ووحيًا، إنما المراد أنه ينكشف على الإنسان أن جبريل، أو ملاكًا آخر، أو الله نفسه، قد ألقى في قلبه شيئًا من الخارج، وأن هذا الأمر لم يتولد في قلبه من الداخل.

وتابعَ الراغب: "وإما بإلهامٍ نحو ﴿وأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيه﴾، وإما بتسخيرٍ نحو قوله تعالى ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾."

المرادُ من قوله أن الوحي إلى النحل يكون بتسخير أنها لا تتلقى أي كلام بالعربية أو الأردية أو الإنجليزية، ولا ترى أي مشهد، ولا يُرسَل لها جبريل، بل قد غرس الله تعالى في فطرتها وغيرِها من المخلوقات ما تقوم به مجبرةً كما يريده الله تعالى. فمثلا قد سخر الله الشمس لتجري إلى جهة معينة، وسخر الأرض لتدور حول الشمس، وسخر بعض النباتات لتحمل زهورا وبعضها لتحمل ثمارًا، وهكذا. وكأن الأمر الذي أُودِعَ فطرةَ كلِّ مخلوقٍ كغزيرة هو وحي تسخير.

ويتابع صاحب المفردات: "أو بمنامٍ، كما قال عليه الصلاة والسلام: انقطع الوحي وبقيت المبشرات؛ رؤيا المؤمن. فالإلهام والتسخير والمنام دلّ عليه قولُه ﴿إلاّ وَحْيًا﴾، وسماعُ الكلام معاينةً دلَّ عليه قولُه ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، وتبليغُ جبريل في صورة معينة دلّ عليه قولُه ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ﴾."

وأود أن أوضح هنا أن صاحب المفردات قد ارتكب هنا لدى شرح الوحي الإلهي بعض الأخطاء -بسبب البعد الزمني بينه وبين الرسول ﷺ - التي لا بد من الانتباه إليها في بحث الوحي.

فأول وأكبر خطأ وقع فيه أنه خلط هنا موضوعين، إذ أراد أن يخبرنا عن أقسام الوحي الذي ينـــزل على البشر، لكنه خلط معه الوحي الذي ينـــزل على النحل. إنه لم يكن يبحث هنا المعاني اللغوية المختلفة للوحي، وإنما كان يبحث أنواع الوحي النازل على البشر، لكنه قد أقحم هنا الوحي النازل على النحل. فقد بدأ

كلامَه بقوله: "ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحيٌ، وذلك أضربٌ حسبما دلّ عليه قولُه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾ إلى قوله ﴿بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾..."

والظاهر أن الحديث هنا عن الوحي الذي ينـــزل على البشر، لكن صاحب المفردات يقول في شرح هذه الآية: "وإما بتسخير نحو قوله تعالى ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾." فما دام يتحدث هنا عن الوحي النازل على البشر، فكيف يجوز له أن يذكر هنا الوحي الذي ينـــزل على غير البشر. فأولُ خطأ أنه خلط الأمرين. لا شك أنه صحيح —لغةً— أن من أنواع الوحي وحي التسخير كالوحي إلى النحل، ولكن قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ جاء في معرض الحديث عن وحي البشر وليس غير البشر، لكن الراغب ذكر وحي النحل عند شرح هذه الآية، فغلب المعنى اللغوي على ذهنه ونسي أنْ لا مجال لذكر الوحي التسخيري هنا لأن الآية تتحدث عن الوحي الذي ينـــزل على البشر وليس على غير البشر.

والخطأ الثاني هو أنه قال عند شرح الآية المذكورة آنفا: "ذلك إما برسولٍ مشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَع كلامه، وإما بسماعِ كلامٍ مِن غيرِ معايَنةٍ كسماعِ موسى كلامَ الله، وإما بإلقاءٍ في الرُّوع كما ذكَر عليه الصلاة والسلام أن روح القدس نفَث في رُوعي، وإما بإلهامٍ نحو ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيه﴾."

فما دام قد ذكَر النوعَ الذي ينـــزل فيه جبريل، والنوعَ الذي يُسمع فيه صوت، والنوعَ الذي يُلقى فيه أمرٌ في القلب، فما معنى ذكر الإلهام بعد ذلك منفصلا حتى يقول إن مثال الإلهام الوحيُ الذي نزل على أم موسى عليه السلام؟ الواضح أن الكلام الذي ينـــزل عن طريق جبريل أو عن طريق صوتٍ من الله هو إلهام، وهذا ما تلقّتْه أُم موسى، ولكن صاحب المفردات يبدأ كلامه هنا بقوله: "وإمّا"، ليشير إلى أنه يبين هنا نوعًا آخر من الوحي وهو الإلهام، ومثاله قول الله تعالى لأم موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، مع أن هذا النوع قد ذُكر سلفًا، وهو ليس نوعًا جديدا إضافيًّا حتى يبدأه بقوله: "وإما". كان عليه أن يقول إن الوحي والإلهام شيئان مختلفان، والفرق بين الوحي والإلهام كذا وكذا، ولذلك أذكر الإلهام منفصلا، لكنه لم يفرّق بينهما،

ومع ذلك استخدم كلمة (إما) وكأنه نوع إضافي غير مذكور من قبل، مع أن هذا ليس بصحيح.

ولو قيل أن الراغب قد ذكَر الإلهام منفصلا لأنه يعني مِن الإلهام ما يُلقَى في القلب، ومِن الوحي ما ينـــزل في صورة كلمات، فهذا قول باطل أيضا، لأنه سبق أن قال "إما بإلقاءٍ بالرُوع كما ذكَر ﷺ أن روح القدس نفَث في روعي". فما دام الإلقاء في الروع قد ذُكر من قبل فثبت أنه لم يقصد بقوله "وإما بإلهامٍ نحو ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾" الإلقاءَ في القلب، لأن هذا مذكور من قبل.

وعندي أن جملة: "وإما بإلهام نحو ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾" قد صدرتْ من صاحب المفردات ناسيًا.

وما قاله صاحبُ "مجمع البحار" أيضا يشير إلى أن صاحب المفردات قد وقع في خطأ هنا، حيث كتب: "وأوحينا إلى أم موسى وحيُ إعلامٍ لا إلهامٍ، لقوله تعالى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾. فصاحب "مجمع البحار" يقول هنا إن الإلهام إلقاءُ أمرٍ في القلب من دون كلمات، بينما قال الله تعالى لأم موسى بكلمات واضحة: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، فنـــزول كلمات معينة إليها دليل على أنه إعلامٌ وليس بإلهام.

ومن كمال اللغة العربية أن المعاني تتغير بتغير بسيط في الكلمات، فمثلا إذا أردتَ إخبارَ شخص بشيء فهذا إعلام، أما إذا أردت إخبارَ أناس كثيرين بشيء فهذا إعلان، فلأن حرف الميم يأتي قبل النون في الهجاء، فالإعلام يتعلق بإخبارِ شخصٍ، والإعلان يتعلق بإخبارِ أشخاص كثر.

على أية حال، لقد فنّد صاحب "مجمع البحار" هنا قول صاحب المفردات، فبيّن أن ما تلقَّته أمُّ موسى لم يكن وحيَ إلهام، بل وحيَ إعلام، إذ تلقّتْ كلمات محددة، بينما لا يكون هناك كلمات محددة في الإلهام الذي معناه إلقاء في الروع. ولذلك أقول إن صاحب المفردات قد ذكر لفظ الإلهام هنا ناسيًا. ومن الممكن أنه أراد قول شيء آخر، لكن حصل هنا تصحيف فصارت العبارة مبهمة، فلم نفهم قصده.

فالإمام الراغب قد أخطأ عندي لدى شرح الوحي إذ قال: "فالإلهام والتسخير والمنام دل عليه قولُه ﴿إلا وَحْيًا﴾، وأما قوله ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فمعناه أن يكلّم

الله أحدًا بدون أن يُرى، وأما ﴿يُرْسِلَ رَسولا﴾ فيعني ألا يكلّم الله بنفسه، بل يرسل كلامه مع جبريل.

فقوله هذا ليس صحيحا، إذ لم يكن جبريل يُرى عند كل وحي قرآني، كما لم يكن كلامُ موسى الطّيّلاّ كلُه من قبيل ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، ثم إن تعريفه هذا لقوله تعالى ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ينطبق على كل أنواع الوحي إذ لا يُرى الله في أي نوع من الوحي، لأنه تعالى وراء الوراء.

والغريب أن الراغب يقول من ناحية إن المنام (الرؤيا) يندرج تحت قوله تعالى ﴿أو وحيًا﴾، ومن ناحية أخرى ينقل حديث الرسول ﷺ القائل: انقطع الوحي وبقيت المبشرات، أي رؤيا المؤمن. لو كان قوله تعالى ﴿أو وحيًا﴾ يعني المنام، لقال النبي ﷺ: انقطع الكلام من وراء حجاب إلا الوحي. فثبت أن الشرح الذي قام به صاحب المفردات هنا لا يستحق القبول.

الواقع أن العلماء قد وقعوا في سوء فهم كبير عند فهم كلمة الإلهام، ولذلك يعرّفون الإلهام بأنه الإلقاء في القلب، مع أن الوحي والإلهام شيء واحد دونما فرق. الحق أن الصوفية اخترعوا اصطلاح الإلهام لما ينـــزل عليهم من وحي الله تعالى، كي لا يقع الناس في فتنة، وإلا فلا فرق بين الوحي والإلهام قط. لقد استعمل المسيح الموعود الطّيّلاّ لفظ الإلهام مرارًا، لكنه قد أوضح أيضا أنني أُسمّي هذا الكلام إلهامًا من منظور اصطلاح الصوفية، وإلا فإني لا أعتبر الإلهام والوحي شيئين مختلفين. إن ما يسميه الناس إلهامًا هو الوحي نفسه. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٢٤٣)

فالحق أن الإلهام اصطلاح اخترعه الصوفية لوحيهم المشتمل على الكلمات، وإلا فإن القرآن الكريم استعمل كلمة الوحي في كل مكان. هناك استعمال واحد للفظ الإلهام في القرآن، لكنه ليس بمعنى الوحي بل هو بمعنى الميلان الطبعي، وهو قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٩).. أي أن الله تعالى ألهمَ فطرة الإنسان معرفة الخير والشر. علمًا أن هناك فرقًا بين التسخير والميلان الطبعي، لأن الميلان اختياري، أما التسخير فليس باختياري، بل يبقى الشيء المسخر مائلا إلى

جهة واحدة أُريد ميلانه إليها، ويكون مجبرا على ذلك لا يحيد عنه شيئا. فمثلا من المحال أن تترك النحل صنْعَ العسل، لكن الإنسان مخيَّرٌ في أن يختار سبيل التقوى أو سبيل الفجور.

فثبت من هنا أن المعنى الذي فسّر به صاحب المفردات لفظَ الإلهام لم يستعمله القرآن بذلك المعنى، كما لم يَرِدْ الإلهام في هذه الآية بالمعنى الذي يريده الصوفية. الواقع أن الصوفية اخترعوا هذا الاصطلاح فيما بعد لما يتلقونه من وحي لفظي من الله تعالى، لكن المسيح الموعود ﵇ قد أوضح أن الكلام الإلهي الذي ينــزل عليَّ هو الوحي نفسه، ولكن لما كان الناس يطلقون عليه الإلهامَ فأنا أيضا اسميه إلهامًا تبعًا لاصطلاحهم، وإلا فالوحي والإلهام مترادفان لا فرق بينهما. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٢٤٤)

وليكنْ معلوما أيضًا أن الإسلام حين يقول إن الله تعالى يُنــزل وحيه مع ملائكته أحيانًا، فليس معنى ذلك أن الملائكة تَنــزل مع الوحي المشار إليه في قوله تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾، لكنها لا تنــزل مع الوحي المباشر الذي يتم بلا واسطة. كلا، بل الواقع أن الملائكة تنــزل مع كل كلام ينــزل إلى الأنبياء، وليس هناك من وحيٍ لا تنــزل معه الملائكة. لكن هناك سوء فهم عند الناس عن نزول جبريل، إذ يفهمون من ذلك أنه يأتي عند كل وحي ويقول للنبي: لقد أمرني الله تعالى بتبليغ هذا الأمر لك. هذا الفهم غير سليم. إن نــزول الملائكة إنما يعني أن كل وحي ينــزل في حراستها، وليس أنها تأتي عند كل وحي وتقول للنبي: لقد أَمَرنا الله بإبلاغك إياه. وإن وحي المسيح الموعود ﵇ يؤكد هذا الأمر. فمثلا قد ورد في وحي له صراحةً: "جاءَني آيل"، (التذكرة، ص ٥٥٩). علمًا أن آيل هو جبريل، ولكن لم يذكر في إلهاماته الأخرى صراحةً أن جبريل جاءه، مما يدل بوضوح أن مسألة نزول الملائكة ليست كما يفهمها الناس. فمثلا قد ورد فيما أُوحيَ للمسيح الموعود ﵇: "إني مع الأفواج آتيك بغتةً"، وهذا لا يعني أن الملائكة نزلت مع هذا الوحي وقالت له: إن الله أمرنا بإنزال هذا الوحي عليك! كلا، لا يحدث هكذا، بل الواقع أن العبد يشعر عندئذ أن كلامًا من الله تعالى

ينـــزل عليه مباشرة، غير أنه يتّضح من القرآن أن الملائكة تنـــزل حتمًا مع هذا الكلام لحمايته. ولكنها لا تنـــزل لحراسة وحي الأناس العاديين، إذ لا ضيْر لو حصل فساد في وحيهم، أما وحي الأنبياء ومَن دونهم ممن يقيمهم الله لإصلاح الدنيا، فلا بد من حراسته من خلال نـــزول الملائكة، لأن ذلك الوحي حجة على الناس.

باختصار، ليس المراد من نـــزول الملائكة مع الوحي أنه لما نزل -مثلا- قول الله تعالى على رسوله: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢-٣)، جاء معه جبريل وقال له ﷺ: لقد أمرني الله تعالى بتبليغ هذا الكلام إليك. هذا الأمر مذكور بصدد بعض السور فقط منها سورة البينة، كما كان جبريل يأتي النبي ﷺ في كل رمضان ليدارس معه ما نزل من القرآن (مسند أحمد: مسند عبد الله بن العباس، والبخاري: كتاب بدء الوحي)، ولكن ليس ثابتًا من القرآن أو الحديث أن جبريل كان ينـــزل عند كل وحي قرآني ويقول للنبي ﷺ إن الله قد أمرني بتبليغه إياك. غير أنه مما لا شك فيه أن كل وحي للنبي ﷺ يكون محروسًا من قبل جبريل حتمًا.

الواقع أن الله تعالى بقدرته يخلُق صوتًا عند إنزال الوحي، ويمكن للشيطان أن يتدخل في هذا الصوت، لذلك تنـــزل معه الملائكة حتمًا لحراسته، لكي تولّد في قلب العبد اليقينَ بصدق هذا الوحي. فمثلاً قد كتب المسيح الموعود عليه السلام بصدد يقينه بوحيه: حتى لو عُلِّقْتُ على الصليب فمن المحال أن أشكّ في أن الوحي الذي ينـــزل عليّ هو مِن نفس الإله الذي أوحى إلى آدم ونوح وموسى وعيسى، وفوق كل ذلك إلى محمد المصطفى ﷺ. (انجام آتهم، الخزائن الروحانية المجلد ١١ ص ٥٠-٥١)

والحق أن هذا اليقين لا يتولد في قلب الموحى إليه إلا بسبب حماية الملائكة للوحي، لكنها -كما قلتُ- لا تنـــزل مع وحي الناس العاديين، لذلك لا يتحلّون باليقين والثبات والاستقامة رغم نـــزول الوحي عليهم. يأتينا بعض الناس ويقولون نريد أن نبايعكم لأن الله أخبرنا بصدقكم، فيبكون ويبتهلون ويندمون على أعمالهم السابقة، ويعِدون وعودا كبيرة، ولكنهم يرتدّون بعد فترة. ففيما يتعلق بقولهم إن الوحي قد نزل عليهم حول صدق الأحمدية فهو حق وصدق، ولذلك جاءوا

ليبايعونا، ولكن لا ينـــزل مع وحيهم ملائكة، فلا توهب قلوبهم ذلك الثبات والاستقامة التي توهب لأنبياء الله وأوليائه، ولذلك لا يقدر هؤلاء على الصمود أمام الابتلاءات ويتعثرون. أما النبي فيوهب منذ أول وحيه ثباتًا غير عادي ويكون أول المؤمنين بوحيه، ولذلك يعلن كل نبي ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ و﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إذ كيف يولِّد اليقين بوحيه في قلوب الآخرين إذا لم يوقن هو بوحيه؟ فلأن النبي أولُ مَن يولَّد في قلبه اليقين بوحيه، ولذلك لا يشك -ولا للحظة واحدة- في صدق ما نزل عليه من الوحي، رغم معارضة كل الدنيا له، ورغم عدم تحقُّق بعض أنبائه الإنذارية لوجود شروط ظاهرة أو خفية فيها.

لن أنسى المشهد الذي رأيته عند حلول آخر يوم من المدة المضروبة لموت القسيس "آتهم" في نبوءة المسيح الموعود عليه السلام. أتذكر أن الأحمديين اجتمعوا في المكان الذي يوجد فيه اليوم دكّان الحكيم المولوي قطب الدين، وبدءوا يدْعون الله تعالى ببكاء وصراخ قائلين: ربِّ، حَقِّقْ هذه النبوءة. وكان بينهم أفغاني اسمه عبد العزيز، فكان يضرب رأسه بالجدار بشدة ويقول: رب لا تجعلْ شمسَ اليوم تغرب حتى تُهلِك "آتهم". وعندما علِم المسيح الموعود عليه السلام بذلك خرج من بيته وقال: ما بال الناس رفعوا عقيرتهم باكين صارخين؟ إذا ثبت كذبُ أحد بعدم تحقق النبوءة فهو أنا، فلماذا أصابهم الذعر والقلق؟

ولم يكن سبب ذلك إلا أنهم كانوا قد سمعوا هذا الوحي من لسان المسيح الموعود عليه السلام، ولم يتيسر لهم ذلك الثبات الذي يتيسر للموحى إليه بنـــزول الملائكة مع الوحي، أما المسيح الموعود عليه السلام فكان قلبه عامرًا بالثبات والاستقامة، وكان يدرك أن لا معنى لهذا البكاء والصراخ، لأن الله الذي أنزل عليه هذا الوحي هو المسؤول عن تحقيقه، وإذا لم يتحقق لشرط من الشروط فلا بأس أيضًا؛ إذ لن يحدث أي شيء إلا بحسب سنة الله المستمرة بصدد النبوءات الإنذارية، فلا داعي للقلق.

إذن، لا بد من نـــزول الملائكة مع الوحي الإلهي وإنْ نزل بلا واسطة، غير أنه من الخطأ الظن أن الملاك ينـــزل عند كل وحي ويقول: لقد أمرني الله تعالى بإنزاله

إليك. فهناك خمسة أو سبعة أمثلة فقط في الحديث قال فيها الرسول ﷺ في سياق نزول الوحي عليه: "أتاني جبريل"، أو نجد ذكر نزوله بمناسبة رمضان، إذ كان يأتي رسولَ الله ﷺ ليدارس معه القرآن، لكنه أمرٌ مختلف تمامًا؛ إذ لم يكن جبريل في هذه الحالة إلا مجرد سامع، وكان مجيئه ضروريا لأن من واجب الرسول ﷺ أن يحفظ كلّ كلمة من القرآن الكريم. لو أخطأ المرء في قراءته لصحّحه الآخرون، أما لو أخطأ الرسول ﷺ فكيف يصحح الناس، إذ يقولون لعل القرآن نزل هكذا، أو لعل الوحي السابق قد حصل فيه تغيير من الله تعالى. من أجل هذه الحكمة أمر الله تعالى جبريل أن يسمع قراءة الرسول ﷺ حتى إذا أخطأ صححه، فالأمر هنا مختلف تماما، فلا يمكن الاستدلال من نزول جبريل في رمضان على أن الملك ينزل مع كل وحي إلهي ويقول: لقد أمرني الله بتبليغه إليك. هذا يحصل في مناسبات قليلة، أما باقي الوحي فنزول الملائكة معه إنما يعني أن الله تعالى يُنزل وحيه في حراستها.

ثم بعد ذلك يقول الراغب في "المفردات": "وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، فذلك لمن يدّعي شيئا من أنواع ما ذكرناه من الوحي.. أيَّ نوع ادعاه مِن غير أن حصل له".

يذكر الراغب هنا أمرا لطيفا للغاية، حيث يبين أن للوحي مفاهيم عديدة – لُغويًا– وبعضُها لا علاقة له بوحي الله تعالى، مثل الإشارة أو الإيماءة، وبالتالي ينشأ السؤال: ما هو نوع الوحي الذي قال الله تعالى بشأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾؟ ثم يجيب عليه الراغب بنفسه بأن هذه الآية إشارةٌ إلى المدّعي الذي يدّعى بتلقّي أيّ من هذه الأنواع للوحي التي ذكرتُها آنفا، أما إذا ادعى أحد تلقّي وحي لا يندرج في هذه الأنواع فلا ينطبق عليه مفهوم هذه الآية.

وهذا أمر لطيف وبسبب عدم إدراكه قد وقع "البهائيون" في خدعة كبيرة. إنهم يخترعون من عندهم تعريفًا جديدا للوحي، ثم يقولون ما دام "البهاء" قد ادعى نزول الوحي عليه فلماذا لم ينزل عليه عذاب الله لو كان مفتريا عندكم؟

نقول في الرد عليهم إن العذاب إنما ينــزل على من يدّعي نــزول أحد أنواع الوحي المذكورة في القرآن الكريم، وليس أن يخترع أحد من عنده تعريفًا جديدا للوحي يتعارض مع القرآن والاسلام والدين، ثم يدّعي تلقّي الوحي ثم يصرخ: ما دمتُ ادعيت نزول الوحي عليّ فلماذا لا ينــزل عليَّ عذاب الله؟ لا شك أن الله تعالى قد وعد بإنزال العذاب على المفتري المتقوِّل على الله تعالى، لكنه لا ينــزل هذا العذاب إلا على من يدّعي تلقّي ذلك النوع من الوحي الذي نزل على الأنبياء السابقين، مما يشكّك في صدقهم. فإذا ادعى أحد تلقّي ذلك النوع من الوحي أي أن الله كلّمه كما كلَّم الأنبياء السابقين من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وأن وحيه يماثل كمًّا وكيفًا وحي الأنبياء السابقين، فلا شك أنه لو كان كذابًا ألقى الناس في ابتلاء، ولا بد عندها أن يهلكه الله بالعذاب. ولكنه إذا كان يخترع من عنده تعريفا جديدا للوحي ثم يدعي أنه يتلقى هذا النوع من الوحي فلا يقع تحت طائلة الوعيد القرآني هذا. ومثاله البهائيون؛ إذ إن الوحي عندهم اسم لأفكار القلب. إنهم لا يدَّعون أن "بهاء الله" تلقّى وحيًا لفظيا، بل يروْن أن كل ما يخطر بقلب الإنسان من فكرة وخاطرة فهو وحي. وهذا هو حال "ميان غلام محمد*" من مدينة لاهور، إذ يعتبر أفكار قلبه وحيًا. فما الداعي أن يعاقب الله تعالى شخصا يدّعي أن كل ما يخطر بقلبه من أفكار هو وحي من الله؟ كلا. ذلك أن كل إنسان يدرك بسهولة أن هذا المدّعي مجنون. فالله تعالى لا يرى داعيًا لعقوبة مدّعٍ كذاب إلا إذا كان ادعاؤه يؤدي إلى التشكيك في رسالة محمد ﷺ أو موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. ولا يشتبه أمر رسالتهم إلا إذا ادعى أحد أنه ينــزل عليه نفس الوحي الذي كان ينــزل عليهم. أما إذ لم يدَّعِ نــزول هذا النوع من الوحي فلن يمثّل ادعاؤه خطرًا حقيقيًّا، وبالتالي ليس ضروريًا أن يقع تحت بطش الله تعالى.

فصاحب المفردات يقول هنا إن العذاب الذي وعد الله تعالى بإنزاله على المتقولين والمفترين عليه إنما ينــزل على من يدعي على سبيل الافتراء نــزولَ أحد أنواع الوحي المذكورة آنفا. فإذا ادعاه فلا بد أن يعذّبه الله. فمثلا لو قال: إن

* لقد ادعى أنه المصلح الموعود المذكور في نبوءة المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

جبريل يكلّمني كما كان يكلّم محمدا رسول الله، أو قال هذه هي الكلمات المعينة التي نزلت عليّ من عند الله، أو قال إنني أتلقى أخبارا غيبية معينة من الله في مشهد تمثيلي كالمنام.. في حين أنه لم يتلقَّ أي شيء من هذه الأمور، فلا بد أن يقع مثل هذا المدعي تحت طائلة وعيد القرآن بشأن المفتري على الله تعالى. أما لو قال إن ما يخطر بقلبي من أفكار هو الوحي، فهذا ليس من أنواع الوحي المذكورة في القرآن في شيء. وحيث إن مثل هذا الادعاء لا تشتبه به نبوةُ أي نبي، ولا يمكن أن ينخدع به أي عاقل، فلا داعي أن يعذّب الله صاحب هذا الادعاء؛ لأن كل عاقل يدرك فورًا أنه مجنون أو شرير. أما إذا ادعى أحد أن جبريل ينـــزل عليه ويبلغه كلام الله، أو أن الله يُلقي في سمعه أو يُجري على لسانه كلماتٍ معينة من وحيه، أو أنه يتلقى أخبارا غيبية من الله تعالى في المنام، فلا بد أن يحل به عذاب الله. ولا شك أن هذا استدلال رائع من صاحب المفردات.

ثم يقول الراغب: "وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فهذا الوحي هو عامٌّ في جميع أنواعه. وذلك أن معرفةَ وحدانية الله تعالى ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورةً على الوحي المختصّ بأولي العزم من الرسل، بل يُعرَف ذلك بالعقل والإلهام، كما يُعرَف بالسمع. فإذًا، القصدُ من الآية تنبيهٌ أنه من المحال أن يكون رسولٌ لا يَعرِف وحدانيةَ الله ووجوبَ عبادته."

ويعني الراغب: أن لفظ الوحي في هذه الآية لا يعني وحيًا لفظيا، بل المراد منه ما أودع الله فطرةَ الأنبياء من معرفةِ وحدانيته، وبسبب هذه المعرفة الفطرية يعلَم كلُّ نبي أن عليه أن يعبد الله وحده. فالراغب يرى أن الوحي هنا ليس بمعناه المعروف المخصوص، بل المراد أن الله تعالى قد أودع في فطرة كل نبي أن عليه أن يعبد الله ولا يقترب من الشرك.

ولكني أرى أن هذا المعنى باطل. إذا كان الأنبياء في غنى عن أن يوحي الله إليهم وحيه الخاص حول وحدانيته، وكانت تكفيهم المعرفة الفطرية التي وهبهم الله إياها، فلماذا نزلتْ على النبي ﷺ عشرات الآيات التي تؤكد وحدانية الله تعالى؟ البديهي

أن النبي ﷺ لم يشرك قط، فقد ورد في الحديث أن بعض مشركي مكة قدّموا له طعامًا ذُكِرَ عليه اسم أصنامهم، فرفض أكله وأزاحه إلى زيد بن عمرو -وهو ابن عمّ عمر رضي الله عنه- وكان جالسًا بجنبه، ولكنه رفض أكله، وقال لقريش: نحن لا نأكل طعاما باسم الأصنام (أسد الغابة: زيد بن عمرو). مما يدلّ على أن النبي ﷺ كان يؤمن بوحدانية الله تعالى منذ البداية ويكره الشرك أشدّ الكراهية، ومع ذلك نجد القرآن قد تناول موضوع وحدانية الله تعالى، بل هو مليء بتأكيد وحدانية الله تعالى ويذكرها مرة بعد أخرى. فثبت أن قول صاحب المفردات ليس صحيحا. لا شك أن الله تعالى قد أودع فطرةَ الأنبياء ما ينفّرهم من الشرك والوثنية طبعًا، ومع ذلك لا يصحّ القول أن الله تعالى لا يرى حاجة لإنزال وحيه عليهم مؤكدًا لهم وحدانيته. إنهم يؤمنون بوحدانية الله بطبعهم ويكرهون الشرك ولا يجيزون السجود لغير الله تعالى، إلا أن الله ينـــزل عليهم وحيه مؤكدًا وحدانيته. وهناك عشرات الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم.

ثم يقول الراغب: "وقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾.. فذلك وحيٌ بوساطة عيسى عليه السلام".

أي أن الله تعالى لم يوحِ إلى كل حواريّ على حدة قائلا له مثلاً: قُمْ وانصرْ نبيًّنا، بل المراد أن الله تعالى أوحى ذلك إلى عيسى عليه السلام، فقام بتبليغ هذا الوحي إلى الحواريين. وهذا الرأي صحيح وهذا هو الواقع.

ثم يقول الراغب: "وقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾، فذلك وحيٌ إلى الأمم بوساطة الأنبياء".

يبدو أن صاحب المفردات قد قال هذا من دون النظر إلى سياق الآية، وإلا لم يقل ما قال. ويبدو أنه استنتج من كلمة ﴿إليهم﴾ أن المراد منها جميع الناس، وهذا خطأ، فهذه الآية من سورة الأنبياء وتتحدث عن إسحاق ويعقوب وغيرهما من الأنبياء، حيث يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:٧٤).. فليس الحديث هنا عن عامة المؤمنين، بل عن هؤلاء الأنبياء فقط.

ثم ليس صحيحًا أن الآية تتحدث عن وحي الأنبياء الذي لا يخصهم بل يخص أممهم. ذلك أن الأحكام التي يتضمنها ذلك الوحي تخص الأنبياء أيضا. فمثلاً، ألا يؤمر الأنبياء بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؟ فكيف يصح قول الراغب: أن الوحي هنا إلى الأمم بواسطة الأنبياء؟

ثم يقول الراغب: "ومن الوحي المختصّ بالنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾".

والحق أن هذا قول باطل، لأن الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ لم يكن خاصًّا به، بل كان للجميع.

ثم يقول الراغب: "وقوله: "﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾، فوحيُه إلى موسى بوساطة جبريل، ووحيُه تعالى إلى هارون بوساطة جبريل وموسى".

أي أن الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام قد اعتُبر وحيًا إلى هارون عليه السلام أيضا، بالإضافة إلى ما نزل على هارون وحده منفصلاً.

لقد ذكر صاحب "المفردات" هنا أمرًا يمكن أن ينفعنا كثيرًا للردّ على "البيغاميين". فإنهم يقولون دائمًا من المحال أن يكون نبيٌّ تابعا لنبي (النبوة في الإسلام، ص ٤٣). فجوابنا: إن ما تقولونه باطل. انظروا الى هارون عليه السلام، فإنه كان نبيا، لكنه كان تابعًا لموسى عليه السلام حتى إن موسى لما ذهب إلى الجبل ووقع قومه في الشرك في غيابه، رجع غضبانَ أسفًا ونهر هارونَ بكل شدة قائلا: ﴿أفعصيتَ أمري﴾(طه:٩٤). فلو لم يكن هارون تابعًا لموسى فكيف جاز له أن يسخط عليه؟ هذا السخط والاستجواب دليل على أن هارون كان تابعا لموسى عليهما السلام، وبالتالي ثبت بطلان قول "البيغاميين".

والسؤال الآخر هو: إذا لم يكن هارون تابعًا لموسى، فكيف كان الوحي ينـــزل على هارون؟ فيجيب "البيغاميون": كان الاثنان يتلقّيان وحيًا واحدًا، أي ما كان ينـــزل على موسى أولاً كان ينـــزل بعده على هارون عليهما السلام، وكانت التوراة تنـــزل على الاثنين، مرة على موسى ومرة على هارون.

هذا القول ذروة في الحمق. كيف يمكن أن ينــزل وحي واحد على شخصين بدون أي حكمة؟ وكأن الله تعالى - والعياذ به - كان يشكّ أنه إذا أنزل الوحي على أحدهما فسوف يتحايل عليه ﷺ في تبليغه للناس، فكان يُنــزله على موسى أولاً ثم على هارون، حتى إذا كذب موسى في تبليغه أخذ به هارون، وإذا كذب هارون في تبليغه أخذ به موسى.

لكن صاحب المفردات قد حلّ هذا الإشكال تمامًا، إذ قال إن المراد من قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ أن الوحي كان ينــزل على موسى عليه السلام عن طريق جبريل، أي في حراسة جبريل، ثم كان موسى يبلّغ هذا الوحي إلى هارون عليه السلام، وهذا كان يُعتبر وحيًا من الله تعالى إلى هارون. ولكن لما كان هارون عليه السلام نبيًا فكان الله تعالى يوحي إليه وحيًا آخر منفصلاً في بعض الأحيان، لكن لم يكن هذا الوحي ذا صلة بالشريعة والأحكام. كلا، بل إن الوحي المشتمل على الأحكام كان ينــزل على موسى عليه السلام مباشرة، فكان يبلغه هارون عليه السلام. وهذا يعني أنه ما كان يحق لهارون أن يقول لموسى إنني تلقيتُ كذا وكذا من الوحي وعلينا أن نعمل بحسبه، بينما كان يحق لموسى أن يقول لهارون إن الله قد أنزل عليّ كذا وكذا من الوحي، فعليك العمل بذلك. غير أن هارون كان يتلقى أحيانا وحيًا ليس فيه شريعة ولا أحكام، إذ لا ينــزل الله الوحي لإنزال الشريعة فقط، بل ينــزله أيضًا لإظهار حبه ولطفه بعبده وليزيده إيمانًا وعرفانًا ويقينا (البخاري: كتاب الأدب، باب المقة من الله). فكان وحي هارون عليه السلام من هذا القبيل الذي لم يكن فيه أي شريعة، بل كان موسى عليه السلام هو من يتلقى وحي شريعة وأحكام، فكان يبلّغه لهارون.

باختصار، لقد أوضح صاحب المفردات هنا الفرق بين التابع والمتبوع من الأنبياء، وبالتالي قد حسم ذلك النــزاع الدائر بيننا وبين "البيغاميين" حسمًا رائعًا.

ثم يقول صاحب المفردات: "وقوله ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، فذلك وحيٌ إليهم بوساطة اللوح والقلم فيما قيل".

ويعني من قوله: "فيما قيل" أنه لا يرى هذا الرأي وإنما هو رأي المفسرين القدامى، فهم يرون أن الله تعالى أمر القلم أولاً، فكتب القلم على اللوح كل ما كان كائنا، فتأخذ الملائكة هذا العلم من اللوح وتبلّغه بحسب مشيئة الله تعالى.

وأرى أن هذه العقيدة الخاطئة تفنّدها بعض الأحاديث أيضًا. فقد ورد فيها أنه "إِذَا أَحَبَّ الله العَبْد نَادَى جبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ. فَيُحِبُّهُ جبْرِيلُ، فَيُنَادِي جبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثم يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ. (البخاري: كتاب الأدب، باب المِقَة من الله)

فإذا كان كل شيء مكتوبًا على اللوح، فلا داعي أن يقول الله تعالى لجبريل شيئًا، فإنه بنفسه يمكن أن يطلّع على كل شيء من اللوح.

ثم يقول صاحب المفردات: "وقوله ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، فإنْ كان الوحيُ إلى أهل السماء فقط فالموحى إليهم محذوفٌ ذكرُه، كأنه قال: أوحى إلى الملائكة، لأن أهل السماء هم الملائكة، ويكون كقوله ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. وإنْ كان الموحى إليه هي السماوات فذلك تسخيرٌ عند مَن يجعل السماءَ غيرَ حيّ، ونُطقٌ عند مَن جعَله حيًّا. وقولُه ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ فقريب من الأول".

قد ذكرتُ حتى الآن معاني الوحي كما ذكرها الأولون، والآن أبين لكم معنى الوحي كما أرى.

يتضح من القرآن والحديث وشهادات الذين تلقّوا الوحي أن الوحي أنواع.

فأولاً وقبل كل شيء يجب أن نضع في الاعتبار أن هناك نصًا قرآنيا حول الوحي، وهو قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى:٥٢). وأرى أن المفسرين لم يفهموا هذه الآية فهمًا صحيحا. فقد فسَروا قوله تعالى ﴿وَحْيًا﴾ بمعنى المنام والتسخير، و﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بمعنى الوحي الذي لا يُرى اللهُ فيه، ويضربون على ذلك مثالَ وحيِ موسى عليه السلام، أما قوله تعالى ﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ فقالوا معناه أن يأتي جبريل إلى أحد ويكلّمه بدون أن يُرى. (الكشاف، وفتح البيان)

نحن نتفق معهم في تفسير ﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾، ولكن مع فارق أننا لا نسلِّم بأن جبريل يُرى دومًا عند نزوله بالوحي. لقد انخدعوا بتمثُّله في بعض المرات فظنوا أنه يُرى دائمًا عند نزوله بهذا النوع من الوحي.

أما قوله تعالى ﴿إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، فنختلف معهم كلية في شرح الأمرين. فاعتراضنا الأول هو أنهم يفسرون ﴿وحيًا﴾ بمعنى المنام، مع أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الوحي ٦٥ مرة مقرونًا بحرف (إلى)، ولكن ليس بمعنى المنام بل بمعنى الكلام في كل مرة. هناك خمس آيات أخرى ورد فيها لفظ الوحي بمعنى الكلام الذي ينـــزل من الله تعالى، وفي آية واحدة منها فقط استعمل القرآن لفظ الوحي بالمعنى المجازي أي التسخير، وهو قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، وباستثناء هذه الآية فإن الوحي قد ورد في القرآن وفي كل مكان بمعنى نـــزول الكلام دائمًا. أفليس عجيبا ونحن نفسر القرآن أو نبحث مسألة الوحي، أن نفسر لفظ الوحي بمعناه المجازي أي المنام، غيرَ آبهين بمعناه الذي ذكره القرآن في ٦٥ مرة؟ صحيح أننا يمكن أن نفسر لفظ الوحي بالمعنى المجازي إذا استحال علينا الأخذ بمعناه المعروف، ولكن لا يحق لنا -من دون أي اضطرار- أن نغضّ الطرف كلية عن المعنى الذي ذكره القرآن الكريم للوحي ونأخذ المعنى الذي لم يذكره في أي مكان.

أما الاعتراض الثاني فهو على تفسيرهم لقوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾. فقولهم أن المراد منه حين لا يُرى الله، ومثاله ما نزل على موسى ، قولٌ مرفوض أيضا؛ ذلك أن جملة ﴿مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ جاءت بعد جملة ﴿إلاَّ وحيًا﴾، فلو فسرنا ﴿مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ بمعنى ما نزل على موسى، فهذا يعني أنه لم ينـــزل عليه أي شيء من الوحـــي المشار إليه في جملة ﴿إلاّ وحيًا﴾، مع أن ما أوحي إلى موسى من الوحي اللفظي هو أعظمُ وحي بعد الوحي الـــذي نزل على الرسول ﷺ، فلا يمـــكن اعتبار ما نزل على مـــوسى خارج نطاق الوحي اللفظي.

واللافت أيضا أن هؤلاء ينقلون بأنفسهم قول الرسول ﷺ "انقطع الوحي، وبقيت المبشرات.. رؤيا المؤمن"، الذي اعتبر فيه الوحيَ بالمقام الأول والمنامَ في المقام الثاني، فلو كان قوله تعالى ﴿إلا وحيًا﴾ يعني المنام كما يقولون، فكان يجب أن يقول الرسول ﷺ انقطع الكلام من وراء حجاب وبقي الوحي.. أي انقطع الكلام الذي أنزله الله تعالى من وراء حجاب و لم يبق إلا الوحي أي المنامات. ولكن الرسول ﷺ يقول انقطع الوحي وبقيت المبشرات، مما يعني أن الوحي لا يعني مناما، وأن المعنى الذي يذكرونه للوحي باطل بداهة ومخالف للتعبير القرآني.

الحق أن الوحي كما يعني — لغةً – الإشارة والرمز والكتابة، فيعني الكلام الذي يراد إخفاؤه عن الآخرين. ونرى أن القرآن الكريم قد استخدم الوحي بالمعنى الأخير، أي كلام الله الذي يراد إخفاؤه من الآخرين، و لم يستخدمه بالمعاني الأخرى إلا قليلا جدا. فلم يستعمل فيها القرآن الوحي بمعنى المنام مطلقا، بينما استعمله بمعنى الرمز والإشارة والكتابة في مكان واحد، وذلك عند الحديث عن زكريا ، أو استعمله بمعنى التسخير في مثال الوحي إلى النحل. أما الأماكن الأخرى فلم يستعمل فيها الوحيَ بمعنى الرمز أو الإشارة أو الكتابة أو التسخير قط، رغم أنه استعمل لفظ الوحي سبعين مرة.

الواقع أن الله تعالى قد سمى كلامه وحيًا بسبب إخفائه عن الآخرين. ذلك أن الوحي ظاهرة لا يجرّبها الناس عامة. إن ما يعرفونه أن أحدهم إذا تكلّم سمعه الجميع، وليس أن يكلّم زيدٌ فيسمعه عمرو دون الآخرين، فلذلك عندما يقال لهم إن شخصًا ادعى أن الله يكلِّمه يقولون مذهولين: أي هراء هذا! إذا كان الله يكلّمه فلماذا لا نسمع كلامه معه؟ لأن زيدًا إذا تكلّمَ بيننا نسمعه جميعًا، وكذلك لو أن الله تعالى قد كلّم موسى وعيسى ومحمدا بالفعل لوصل صوته إلى أسماعنا حتمًا. وحيث إن هذا الاعتراض يتولد في قلوب الناس عادة، فسمى الله كلامه وحيًا؛ فكأنما قال: إنكم أيضًا تتكلمون فيما بينكم أحيانًا بكلام تريدون إخفاءه عن الآخرين، فتُسمِعونه مَن تريدون أن يسمعه وتخفونه عمن لا تريدون أن يسمعه، فمثلاً يهمس أحدكم في أذن غيره، فيسمع كلامه ولكن الآخرين لا يسمعونه.

فاعلموا أن كلامنا أيضا من هذا القبيل، حيث يسمعه من نريد أن يسمعه ولا يسمعه من لا نريد أن يسمعه. إن كلامنا ذو شرف ويكون خاصًا بعبدنا بحسب قربه ودرجته منا، فلا نريد أن يشترك معه في سماعه الآخرون إذ لا نراهم يستحقون هذا الشرف. هذه هي الحكمة وراء اختراعنا هذه الوسيلة بقدرتنا، فنكلِّم مَن نريد من دون أن يسمع غيره. إن الله يهدف من الوحي أن يسمعه المخاطَب فقط دون غيره، كما يهدف إلى التأكيد على أنه تعالى يكلم عباده بهذا الأسلوب فعلاً وليس هذا نتاج أفكار العبد نفسه، فلذلك سمى كلامَه هذا وحيًا حتى يوقن الناس أن هذا الكلام ليس وهمًا، بل هو كلام يقيني وقطعي ككلامهم فيما بينهم، فعندما يهمس بعضهم في أذن صاحبه مع إخفائه عن الآخرين، فهل يشك السامع في الكلام الذي سمعه في أذنه؟ كلا لا يشك في هذا الكلام لا السامع ولا القائل. كذلك ينــزل الله كلامه بطريق خفي على أذن العبد أو قلبه أو لسانه، إعلامًا للناس أنه تعالى لا يريد أن يُشرِك غيرَه في هذا السر، وأنه يريد أن يبلّغ هذا الكلام إلى الآخرين بواسطة عبده هذا، ليرسي قبوله وعظمته في الدنيا. هذا هو السر في إخفاء هذا الكلام بهذا الأسلوب، وإلا فهو كلام يقيني قطعي ككلام بعضنا بعضا.

باختصار، لقد سمى الله تعالى كلامه وحيًا ليؤكد أنه يكلّم عباده فعلاً، وأنه لا فرق من حيث الكلام بينه وبين ما يتكلم به الناس فيما بينهم. الفرق الوحيد أن الله تعالى يخلق هذا الصوت بحيث لا يسمَعه إلا مَن يريد الله أن يُسمعه. وهو كلام يقيني ككلام بعضنا بعضا.

أما المنام -الذي هو لغةٌ مجازية- فهو من قبيل الكلام الذي يتم ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.. أي يكون بحاجة إلى تأويل، حيث يرى المرء شيئًا حقيقتُه مستورة وراء حجاب، فإذا رُفع الحجاب رآها، أما بدون رفعه فلا يقدر على أن يراها. مما يعني أن الوحي كلام لفظي يُراد إخفاؤه عن الآخرين، وأما ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فهو كلام يُخفي الله حقيقته وراء حجاب عمن يُنــزله عليه، فلا يطّلع على حقيقته إلا بعد زوال هذا الحجاب. ومثاله رؤيا الملِك المصري حيث رأى ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾(يوسف:٤٤)، فمهما قلتَ للناس إن البقرات السمان يأكلن

البقرات النحيفات فلن يفهموك، بل يضحكون عليك ويسمونك مجنونا. ولكن إذا رفعت الحجاب عن حقيقة هذه الكلمات، وقلت إن سنوات القحط السبع ستأكل ما وُفِّر في سنوات الخصبة السبع مِن غلال، فَهِمَ الناسُ المراد من قولك.

فالوحي النازل على موسى عليه السلام ليس من قبيل ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما ظن الأولون، بل إن ما نزل عليه يندرج في قول الله تعالى ﴿إلا وحيًا﴾.

إذن، الحقيقة أن الله تعالى قد بين بقوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾ أننا نتكلم بكلام خفي، فيَسمعه مَن نريد أن يسمعه، من دون أن يَسمعه مَن لا نريد أن يسمعه. هذا الكلام لا يكون مشكوكا فيه، بل هو كلام يقيني قطعي ككلام زيد مع عمرو، فمتى يشك أحدهما فيما يدور بينهما من كلام؟ كل ما في الأمر أننا لا نريد أن نُسمع وحيَنا غيرَ من نريده. فكما يهمس بعضكم في أذن بعض، كذلك نُنــزل كلامنا، فيسمعه من نريد أن يسمعه، أما غيره فلا يستطيع سماعه. والفارق بأنّ مَن يهمس في أذن صاحبه مضطرٌّ لاتّباع هذا الناموس من النواميس الطبيعية مخافة أن يسمعه الآخرون إذا تكلم بصوت عال، لكنا نتكلم بصوت عال ومع ذلك يسمعه مَن نريد إنزال الوحي عليه، أما الآخرون فلا يستطيعون سماع قولنا.

ثم ذكر الله تعالى النوع الثاني للوحي فقال ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.. أي أننا نتكلم مع العبد رمزًا، أي ما لم يرفع العبد الحجاب عن حقيقة كلامنا لم يفهمها.

ثم ذكر الله تعالى النوع الثالث من وحيه فقال ﴿أوْ يُرْسِلَ رَسُولا فيوحي بإذنه﴾.. أي لا ننــزل هذا الوحي مباشرة، بل نكلّم عبدنا بطريق غير مباشر، فنبعث مَلَكًا رسولاً فيبلّغ كلامنا إلى بشر رسول. وهذا النوع من الكلام وحيٌ حتمًا، فلا يظنن أحد أن ما يبلّغه المَلَكُ الرسولُ ليس وحيًا، ولذلك أعاد الله تعالى هنا كلمة ﴿فيوحي﴾.. أي أن هذا النوع أيضا من وحي الله تعالى. كما أضاف كلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ للإشارة إلى أن هذا الملاك لا يبلِّغ الرسولَ البشرَ شيئًا من عنده، بل يبلّغه ما يبلّغ بإذننا ومشيئتنا. فهو وحيُنا ولكن يتم بواسطة الملاك.

وبهذه المعاني تصبح كلمات الآية كلها منسجمة منتظمة. فقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ نوع من الوحي، و﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ نوع ثانٍ منه، و﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ نوع ثالث منه. قد جعل الله كلمةَ ﴿أو﴾ بين هذه الجمل الثلاث، للإشارة إلى ما يوجد بين أنواع الوحي الثلاثة من تغايُرٍ وفرق، فقوله تعالى ﴿إلا وَحْيًا﴾ يعني وحيًا من دون واسطة، وقوله تعالى ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ يعني وحيًا في المنام أو بالإشارة والتلميح، وقوله تعالى ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني وحيًا بواسطة.. أي يوحي الله به أولاً إلى الملك الرسول الذي يبلّغه البشرَ الرسول. وحيث إن هذا النوع الأخير يتم بالواسطة، وقد يشك البعض أنه ليس وحيًا، فأضاف الله تعالى هنا قوله ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ دفعًا لهذه الشبهة وموضحًا أن هذا النوع أيضا أحد أنواع الوحي.

إذن، فقد صار للوحي ثلاثة أقسام رئيسة:

أولاً: الوحي الحقيقي بلا واسطة، أي يُنـــزِل الله تعالى كلامه على عبده من دون واسطة.

ثانيا: الوحي الحقيقي بالواسطة، حيث يُنـــزل الله كلامه على الملاك فيبلّغه العبدَ. وقد ذكر القرآن هذا النوع في المقام الثالث، ولكني أذكره في المقام الثاني من أجل السهولة.

وثالثا: الوحي التابع، حيث لا تَنـــزل من عند الله كلمات معينة، بل ينـــزل كلامه في تمثيل ومجاز يكون بحاجة إلى تأويل، أو في صورة مشهد لا يحتاج إلى تأويل، ويُترك للعبد أمرُ تحويله إلى كلمات. ذلك أن الحقيقة تكون خفيةً وراء حجاب في مثل هذه المشاهد والتمثيلات التي يراها الإنسان، فيبينها بكلماته وبقياسه ويقول لقد أخبر الله تعالى كذا وكذا. لنفترض أنه يقول للناس إن الله أخبرني أن ابني سيكون من عباد الله الكاملين، فليس ضروريا أن يخبره الله بذلك بكلمات معينة مثل: "ابنك سيصبح من الكاملين"، بل يمكن أن يُريه الله تعالى هذه الحقيقة في صورة منام بأنه يذبح ابنه. فلأن هذا المشهد يُشبِه مشهدَ ذبح إسماعيل عليه السلام، فيقيس رؤياه بذبح إسماعيل ويبين تأويل ما رآه من وراء حجاب قائلا: لقد

أخبرني الله تعالى أن ابني سينال درجة عظيمة، أو يصبح من الكاملين. والآن فيما يتعلق بالكلمات فهي كلمات العبد، حيث لم يخبر الله بهذا الأمر بكلمات معينة، وإنما أراه مشهدا أنه يذبح ابنه، فيؤوله العبد ويخبر الناس بكلماته حقيقةَ ما رأى. وحتى لو كان تأويله صحيحا ١٠٠% إلا أنه لا يستطيع أن يقول حلفًا بالله تعالى بأنه تعالى قال له: إن ابنه سيكون من الكاملين. يمكن أن يحلف بأن الله تعالى أراه هذا المشهد، لكنه لن يستطيع أن يحلف أن الله قد قال له ذلك حرفيا، إنما يقول مثل هذا الكلام مَن ينـــزل عليه الوحي الإلهي بكلمات محددة. أما الذي يرى مشهدا كهذا، فيمكن أن يحلف على أنه رأى مشهدا وهذا مفهومُه، ولكنه لا يمكن أن يحلف بالله تعالى بصدد الكلمات التي يبين بها مفهوم ما رآه.

وحيث إن المرء يبين قصده لصاحبه بالكلمات، سواء بالكلام أو الكتابة، لذلك فإن الوحي الذي يكون بالكلمات هو أعظم شأنا، سواء ظهرت للمرء الكلمات مكتوبةً أو سمِعها أو جرتْ على لسانه أو قلبه -علمًا أن هذه الكلمات لا تتولد في قلبه، بل تجري فيه، فشتان بين الأمرين- ويستطيع أن يحلف عن كل كلمة من هذا الكلام بأن الله تعالى قد أنزلها عليه. كذلك، فسواء أُنزلَ هذا الكلام اللفظي مباشرةً أو بواسطة مَلَك رسول، فهو أعلى وأعظم شأنا من أنواع الوحي الأخرى لكونه كلمات يمكن أن يقرأها الإنسان على الآخرين ويقول: هذه هي الكلمات التي نزلت عليّ من الله تعالى. أما الوحي الذي ينـــزل بلغة المجاز والتمثيل فهو أدنى قدرًا من النوعين المذكورين من الوحي، لأن الإنسان يبينه بكلماته التي فيها احتمال الخطأ.

الواقع أنه كما يقول اللغويون عن كلمة من الكلمات بأن معناها كذا من حيث اللغة، كذلك يمكن أن نقول عن الوحي إن الوحي من حيث حقيقته يعني كلمات تنـــزل من عند الله تعالى، ثم أُطلقَ هذا اللفظ على أنواع الوحي الأخرى على سبيل المجاز والاستعارة، ولكنها أدنى شأنا من النوعين السابقين من الوحي، ولذلك لا يسميها البعض وحيًا، كما فعل الصوفية، إذ سموا الوحي اللفظي وحيا، ولكن لم يسموا ما سواه من أنواع الوحي وحيًا بل سمّوها رؤيا وكشفًا. فكثيرًا ما تقرأ في

كتبهم كلمات: الوحي، الكشف، الرؤيا. وقد راجت هذه التعابير على نطاق واسع حتى نستخدمها نحن في معظم الأحيان رغم انكشاف حقيقة الوحي في هذا العصر عن طريق المسيح الموعود عليه السلام، بل إنني أنا الآخر أكثرتُ من استعمال تعابير الوحي والكشف والرؤيا في خطبي وخطاباتي. وحيث إن لفظ الوحي أكثر استخدامًا للوحي اللفظي فلذلك قد خصّه الصوفية بالوحي اللفظي فقط، أما الأنواع الأخرى - التي هي في الحقيقة وحي - فلا يسموها وحيا، بل يسموها كشفا ورؤيا. بل إن البعض قد توسعوا أكثر، فيطلقون لفظ الوحي على وحي النبي، بينما يطلقون على وحي غير النبي إلهامًا. وسبب هذا التفريق عندهم هو أن أحد نوعَي الوحي أسمى من الشك والريبة، أما الآخر ففيه احتمال الشبهة والشك. ورغم أن الصوفية يفسرون -عادةً- الإلهامَ بما يُلقى في القلب، إلا أنني قد قرأت في كتبهم الوحي اللفظي الذي نزل عليهم، فقد كتبوا مرارا: لقد قال لي الله كذا، ثم سجلوا كلمات معينة لهذا الوحي الإلهي. فرغم تسجيل كلمات الوحي النازل عليهم، لا يقولون إن الله أوحى إليهم، بل يسمون ما نزل عليهم إلهامًا، ويقولون "إن الوحي من خواص الأنبياء المرسلين، والإلهام من خواص الولاية، والثاني أن الوحي مشروط بالتبليغ". باختصار، إذا نزل عليهم كلام لفظي سموه إلهامًا، وإذا رأوا مشهدًا بأعينهم سموه كشفًا، وإذا رأوا مشهدا في المنام سمّوه رؤيا.

إذن، فقد اخترعوا اصطلاحا جديدا من عند أنفسهم، فالوحي عندهم هو ذلك الكلام الإلهي القطعي اليقيني الذي ينـــزل على الأنبياء، والإلهام عندهم هي الكلمات التي يكشف الله بها مشيئته على غير الأنبياء. وحيث إنهم لا يُدرِجون هذا النوع من الوحي اللفظي في رؤيا ولا في كشف، إذ ليس معه مشهد يرونه، كما لا يريدون أن يسموه وحيًا، فاخترعوا له اسما آخر، وهو الإلهام، تمييزًا بين الكلام النازل على النبي وبين الكلام النازل على غيره.

ثم هناك سبب آخر لاعتبار الرؤيا أو الكشف أدنى درجة من الوحي اللفظي، وهو أن أفضل الوحي الوحيُ المتلُوّ، أما الوحي الذي يتم في لغة المجاز والتصوير.. أي المنام والكشف.. فليس وحيًا مَتْلُوًّا. ذلك أن المتلوّ يعني ما يمكن تلاوته وقراءته،

ولكن إذا أُخبر المرء بأمر في رؤيا وكشف فلا يمكن أن يقرأه بنفسه أو يقرأه على الآخرين، لأنه ليس كلماتٍ، وإنما يبين كيفية ما رأى بكلماته هو. فجميع أهل الخبرة يقولون إن الوحي الإلهي الذي يتمّ بكلمات هو أعلى درجة لأنه يمكن أن يُتلى ويُقرأ. أما الكشف أو الرؤيا فهو أدنى من الوحي المتلو إذ لا يمكن أن يُقرأ. فمثلا رأى النبي ﷺ مرة أن بقراتٍ تُذبح (البخاري: كتاب التعبير)، ونحن نؤمن أن هذه الرؤيا وحي قطعي ويقيني كغيره من الوحي اللفظي الذي نزل عليه ﷺ، لكن السؤال كيف يمكن ذكر هذا المشهد في القرآن؟ وهل تُرسَم في المصحف بقرات تُذبح؟ وكيف تُتلى هذه الرسوم وتُقرأ؟ فحيث إن هذا الوحي لا يمكن تلاوته فهو أدنى من النوعين الآخرين من الوحي.

بيد أنّ الوحي الذي يتم بلغة التصوير والتعبير له فوائده، فلا يقال لماذا لا ينـــزل الوحي اللفظي على النبي دائما، ولماذا تُكشف عليه بعض الأمور من خلال الكشف والرؤيا. ومن محاسن الوحي التصويري -التي لا يمكن أن نستغني عنه- أنه يساعد على بيان الأمر بإيجاز شديد. ففي الرؤيا أو الكشف يمكن أن ترى في لمح البصر شخصًا مقطِّبًا وعابسًا تعلو على وجهه الكثير من مشاعر الضيق والغضب، ولكن إذا حاولتَ وصف هذا المشهد بالكلمات وذِكْرَ ما رأيت في الوجه من مشاعر وأحاسيس، فمهما أوجزتَ واختصرت فسوف تضطر لاستخدام عشرة أو عشرين جملة، ومع ذلك قد يبقى وصفك ناقصًا. ولذلك إذا أراد الله تعالى أن يكشف على عبده أمرًا في وقت قصير وبصورة موجزة جدا، وبتأثير أقوى من تأثير الكلمات، أنزل عليه وحيه بلغة التصوير والتمثيل، فتنكشف على المرء أمور في لمح البصر يحتاج بيانها إلى عشرات الجمل.

ومن منافع إنزال الوحي بلغة التصوير استمالةُ قلب المؤمنين. فمثلا إذا أراد الله تعالى أن يقول لنبيه: لا تحزنْ، إن دينك سيزدهر حتمًا، أراه في المنام أو الكشف أحدَ أتباعه اسمُه عبدُ القوي مثلاً. وهذا يحقق هدفين: تبشير للرسول بازدهار الدين، وفرحةٌ لهذا المؤمن الذي اسمه عبد القوي والذي رآه النبي في رؤياه. فمثلا حين رأى الرسول ﷺ في الرؤيا أبا بكر وعمر (البخاري: كتاب التفسير، باب نزْع الذَنوب)،

فلم يكن الله تعالى يريد بذلك الإشارةَ إلى أمر معين فقط، بل أيضا استمالة قلبَي أبي بكر وعمر أيضًا، إذ يفرحان بأن النبي ﷺ رآهما في منامه.

لقد ثبت من هنا أن في إنزال الوحي بهذا الطريق فوائد إضافية. لا شك أن هذه الفوائد ضمنية ولا تكون مقصودة بحد ذاتها، لكنها لا تتحقق بالوحي اللفظي بل بالوحي التصويري، لذلك يُري الله رسوله بعض الأمور الهامة بلغة تصويرية.

بيد أنه من سنة الله تعالى أن ما يُريه بلغة التصوير يعيده بوحي لفظي، لتتحقق فوائد الوحي اللفظي وفوائد الوحي التصويري، ومثاله: واقعة المعراج وواقعة الإسراء، حيث تمّ بالطريقتين. واقعة المعراج مذكورة في الحديث مفصلةً كما ذكرها القرآن الكريم في سورة النجم، أما واقعة الإسراء فقد رآها النبي ﷺ بلغة التصوير، كما ذُكرت في الوحي اللفظي في سورة الإسراء (البخاري: كتاب المناقب). لقد ذُكرت هاتان الواقعتان في القرآن الكريم لتصبحا وحيًا متلوًّا، كما رآهما الرسول ﷺ بلغة تصويرية لتتحقق المنافع الإضافية المنوطة بهذا الطريق. التدبر يكشف لنا أن فحوى واقعة الإسراء ليس إلا الإخبار بأن الله تعالى قد فضّل النبي ﷺ على الأنبياء جميعا، لكن ما رآه الرسول ﷺ في الرؤيا هو أن جبريل جاءه بمطيّة اسمها البراق، فركبه وبلغ بيت المقدس. ثم لما حكى النبي ﷺ للناس ما رأى، قالوا إذا كنت قد ذهبتَ إلى القدس على البراق فيجب أن تصف لنا معالم القدس. فأخذ النبي ﷺ يصف لهم معالمه، مما زاد المؤمنين إيمانا (البخاري: كتاب المناقب). والواضح أن هذه الأمور لا تتحقق بالوحي اللفظي فقط. أو مثلا ورد في حادثة المعراج أن النبي ﷺ رأى قافلة للمكيين فقدوا بعيرا لهم فأخذوا يبحثون عنه، فذكر ذلك للكفار. وبعد أيام وصلت القافلة إلى مكة فعرفوا أنهم بالفعل فقدوا بعيرا لهم في الطريق (الدر المنثور: سورة الإسراء). فهذه فائدة إضافية فيما رآه النبي ﷺ من حادث الإسراء، مما زاد المؤمنين إيمانا، وبكّت الكافرين الذين كانوا يقولون إن محمدا يفتري على الله.

إذن، فالله تعالى يختار أحيانًا لغة التصوير والتمثيل لبيان وحيه الهامّ.. فيُريه أولاً في صورة الكشف أو الرؤيا، ثم يُنــــزله في صورة وحي لفظي أيضا. ولكن الوحي اللفظي هو الباقي الدائم، على عكس الوحي التصويري.

وهناك مثال لذلك في وحي للمسيح الموعود عليه السلام أيضًا، حيث اجتمع الوحي التصويري والوحي اللفظي، وهو:

"جاءني آيل واختار، وأدار إصبعه وأشار: إن وعدَ الله أتى، فطوبى لمن وجد ورأى." (التذكرة ص ٥٥٩، وحقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ١٠٦)

علمًا أن المراد من "آيل" هو جبريل. فالمسيح الموعود عليه السلام يذكر هنا أنه رأى مشهدًا أن جبريل أتاه واختاره وأدار إصبعه مشيرًا إلى أنه قد حان أن ينجز الله وعده. ولكن الله تعالى قد سجّل هذا الحادث بوحيه اللفظي أيضًا ليتأثر المؤمنون مما حصل. الواضح أن المرء إذا رأى جبلا شامخا وأخبر الناس به فلا يمكن أن يتأثروا منه كتأثره من رؤيته، ومن أجل ذلك يُري الله تعالى العبد أمرًا على صورة مشهد ليزيد تأثيره فيه، ثم يسجّله في الوحي كي يتأثر منه الآخرون أيضًا. فمثلا إن الوقع الذي تركه مشهد جبريل في المسيح الموعود صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يوجد في الوحي اللفظي وحده، وفي المقابل لا يمكن أن يتأثر الناس بذكره هذا المشهد لهم فقط، بل لا بد أن ينــــزل وحي لفظي بصدد ما حصل لكي يتأثروا منه. من أجل ذلك يسجل الله تعالى وحيه الهامّ بالطريقتين، التصوير والكلمات.

والآن أبين لكم بناء على خبرتي أنواع الوحي المتفرعة من الأنواع الثلاثة الرئيسية المذكورة في القرآن الكريم.

الأول: الرؤيا الفردية والمشتركة التي هي بحاجة إلى تأويل.

ومثاله أن يرى المرء أن جدار بيت فلان قد تهدّم. فالآن ليس المراد أن جداره يتهدم بالضرورة، بل المراد أن سبب حمايته يزول، أو أن الذين يحمونه في المصائب سوف يخذلونه، أو يقع عليهم الوبال. ومثل هذه الرؤيا يمكن أن تكون فردية أو جماعية أحيانا.. أي يراها شخص واحد أو يراها غيره أيضا. والسبب أن الوحي

الذي ينـــزل على غير النبي لا يكون قطعيا ويقينيا، ومن سنة الله تعالى أنه يُري الرؤيا الواحدة أكثرَ من شخص تأكيدًا للأمر. وقد جربنا مرارا أن شخصا يرى رؤيا ويرى الآخر أيضًا نفس الرؤيا.

فذات مرة ذكرتُ في مجلسٍ رؤيا رأيتها، فنُشرت بتاريخ ١٩٤٤/٥/٢٤ في جريدة "الفضل"، فلما قرأ أحد الإخوة رؤياي في الجريدة كتب لي أن أحد أصدقائه غير الأحمديين كان قد حكى له رؤيا مماثلة تمامًا وأخبره أنه قيل له في الرؤيا نفسها أن هذه الرؤيا قد رآها خليفة المسيح أيضا. (جريدة الفضل، ١٩٤٤/٥/٢٧).

ويحدث أحيانًا أن شخصين يَريان رؤيَين مختلفتين لهما تأويل واحد. فقبل أيام رأيتُ رؤيا عن روسيا، وهي منشورة في جريدة "الفضل" في ١٩٤٥/٩/١. وفي اليوم الذي رأيتها فيه تلقيت رسالة من "ميان روشن دين الصائغ" ذكر فيها رؤيا رآها عن روسيا. والعجيب أن تأويل رؤياه هو نفس تأويل رؤياي. فترى أنني لم أكن على علم برؤياه، ولم يكن هو على علم برؤياي، ومع ذلك أرى رؤيا وأبعثها لجريدة "الفضل"، و"ميان روشن دين" يرى رؤيا ويكتبها لي، وتعبيرهما واحد.

باختصار، يُري الله تعالى عبدًا رؤيا ويُري غيره رؤيا مماثلة تأكيدًا لعبده بأن رؤياه صادقة وحقّ، كما يحدُث أيضا أن الاثنين يريان مشهدين مختلفين تعبيرهما واحد.

الثاني: الرؤيا الفردية والمشتركة التي مثل فلق الصبح.

أحيانا يرى المرء في الرؤيا أن جدار البيت سقط، وفي الصباح ينـــزل المطر غزيرا ويتهدم الجدار فعلاً. وهذه الرؤيا أيضا تكون فردية أحيانا، وأحيانا يرى أكثر من شخص رؤيا مماثلة، فيقع ما رأوه مثل فلق الصبح دونما تأويل. ولي خبرة واسعة بمثل هذه الرؤى بفضل الله تعالى، ومن كثرة ما يحدث من أحداث يخيّل إليّ أن الحادث قد تكرّر.

الثالث: المشهد الفردي والجماعي المشابه للنوم والذي هو بحاجة إلى تأويل.

أحيانا يكون الإنسان ما بين النوم واليقظة، فيرى مشهدا بحاجة إلى تأويل، وهذا المشهد قد يراه فرد واحد وقد يراه أكثر من فرد.

الرابع: الكشف الفردي والجماعي المشابه للنوم الذي يقع مثل فلق الصبح.

أحيانًا يرى الإنسان ما بين اليقظة والنوم مشهدًا لا يكون بحاجة إلى تأويل، بل يتحقق حرفيا. وهذا المشهد أيضا يكون فرديا وجماعيا.

الخامس: الكشف الفردي والجماعي الذي يكون في حالة اليقظة ويكون بحاجة إلى تأويل.

بعض الأحيان يرى المرء في حالة اليقظة مشهدًا يحتاج إلى تأويل. فذات مرة جاء شخص إلى المسيح الموعود عليه السلام وقال: لقد رأيتك في اليوم الفلاني في محطة قطار كذا، فهل ذهبتَ هنالك؟ فقال عليه السلام: لا، يبدو أنك رأيتَنا في الكشف.

السادس: الكشف الفردي والجماعي الذي يكون في اليقظة ويتحقق مثل فلق الصبح.

أحيانا يرى المرء في اليقظة مشهدًا ليس بحاجة إلى تأويل، بل يتحقق حرفيًا مثل فلق الصبح. هناك أمثلة عديدة على ذلك في كشوف المسيح الموعود عليه السلام. فمرة رأى في الكشف أن ابنه "مبارك أحمد" ملقًى على الأرض بجانب حصيرٍ وقد أُصيب إصابة بالغة. و لم تمض ثلاث دقائق حتى انزلق "مبارك أحمد" الواقف بجانب الحصير وأصيب إصابة بالغة حتى بلّل الدم ثيابه. (التذكرة ص ٣٣٦، ونزول المسيح، الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ٥٩٧).

وكذلك كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي: كنتُ مصابا بالإسهال مرة وكنت أضطر للذهاب إلى المرحاض مرة بعد أخرى، فأردت أن يكون المرحاض نظيفًا كل النظافة لكي لا أتضايق، فجاءت الكنّاسة، فقلتُ لها: هل نظّفت المرحاض جيدا، فقالت: نعم، نظفته. فلعلها كذبتْ أو بقيتْ بعض النجاسة في زاوية من المرحاض بدون عمد منها، إذ طرأت على المسيح الموعود عليه السلام حالة الكشف فورًا، فرأى نجاسة في زاوية من المرحاض، فقال لها: لماذا تكذبين، إذ لا تزال هناك نجاسة لم تنظفها. فأخذتها الحيرة من معرفة حضرته ذلك وهو جالس في غرفته. (التذكرة ص ٣٦٨، وجريدة "بدر" المجلد ١ عدد ١١، ٩ يناير ١٩٠٣ ص).

وهذا النوع من الكشف يكون فرديا أحيانا وجماعيا أحيانا.

السابع: الكلام المباشر الذي ينـــزل على الأذن فرديا وجماعيا.

أحيانًا ينـــزل وحي الله في صورة ألفاظ على أذن الإنسان، فيسمع من الغيب صوتًا أن هذا قد حصل أو سيحصل أو عليك أن تفعل كذا.. أي ينـــزل هذا الكلام بصيغة الماضي أو المستقبل أو بصيغة الأمر أيضا. وهذا النوع من الوحي يكون فرديا وجماعيا، أي يسمعه شخص واحد أو أكثر. ولي خبرة شخصية في هذا المجال، فذات ليلة أوحيَ إلى المسيح الموعود ﵇ "إني مع الأفواج آتيك بغتة"، وفي الليلة نفسها جاءني ملاك وأخبرني أن المسيح الموعود ﵇ قد تلقى الليلة وحيًا: "إني مع الأفواج آتيك بغتة". وفي الصباح قال لي المفتي محمد صادق: اذهبْ وقُلْ للمسيح الموعود ﵇ أن يكتب لي إلهاماته الجديدة -كان حضرة المفتي ينشر إلهامات المسيح الموعود ﵇ الجديدة في جريدته، وكان قد أمرني سلفًا أن أدخل كل صباح على حضرته ﵇ ليكتب لي وحيه الجديد لأسلّمه لحضرة المفتي- فكتب لي المسيح الموعود ﵇ إلهاماته التي تلقاها في الليلة الماضية، ولكنه نسي أن يسجل فيها ذلك الوحي: "إني مع الأفواج آتيك بغتة". فخرجتُ من عنده وقرأتُ الإلهامات، و لم أجد فيها ذلك الوحي الخاص، فلم أتجاسر من شدة الخجل أن أرجع إليه وأُخبره ما قال لي الملاك، كما لم أُرِدْ أن أكذِّب ما قال لي الملاك، فبدأت أذهب إلى بابه مرة وأرجع مرة أخرى، وقد حصل هذا مرارا، وأخيرا تشجعت وذهبت وقلت له ﵇: لقد أخبرني ملاكٌ البارحة أنك تلقيتَ إلهاما: "إني مع الأفواج آتيك بغتة"، ولكنه ليس مذكورا في هذه الإلهامات؟ فقال ﵇: نعم، لقد تلقيتُ هذا الإلهام فعلاً لكني نسيت أن أكتبه لك. ثم فتح حضرته دفتر إلهاماته وسجّل منه هذا الإلهام ليُنشر في الجريدة.

فهذا وحيُ الله المباشر الذي نزل على أذن المسيح الموعود ﵇، كما أُخبرتُ به أيضًا.

الثامن: الكلام المباشر الذي ينـــزل على القلب فرديا وجماعيا.

هذا النوع مختلف عن النوع السابق. في النوع السابق ينـــزل الوحي على الأذن، أما في هذا فعلى القلب. وحيث إن حسّ الأذن معروف للسمع، فيمكن أن

يفهم الجميع نزول الوحي على الأذن، ولكن حسّ القلب للسماع غير معروف فلا يفهمه كل واحد، ولكنه أحد طرق الوحي فعلاً، حيث يتخذ الله تعالى قلب العبد مهبطا لوحيه أحيانا، فلا يحسّ أن الكلمات تنـــزل على أذنه، بل يحس أنها تنـــزل على قلبه. علمًا أن هذا الوحي ليس من قبيل الخيال والفكرة التي تخطر بالقلب.

وهذا الكلام أيضا يكون فرديا أو جماعيا.

التاسع: الكلام المباشر الذي ينـــزل على اللسان فرديا وجماعيا.

ومن طرق الوحي أن الأذن لا تسمع أي شيء، ولكن يجري على لسان المرء كلام، حيث يخيل له أن لسانه تحت سيطرة غيره، فلا يزال لسانه يردد هذا الكلام بسرعة حتى بعد زوال تلك الحالة التي تستولي عليه عند الوحي، ذلك لكي يحفظ هذا الوحي جيدًا. وقد يُشرِك اللهُ غيره بهذا الوحي كشاهد.

العاشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على العيْن فرديا وجماعيا.

أحيانا ينـــزل كلام الله على العيون، أي تُعرَض على الإنسان عبارة مكتوبة فيقرؤها ويطّلع على مشيئة الله، وهذا الوحي أيضا يكون فرديا أو جماعيًّا، فأحيانا يرى وحدَه الشيءَ المكتوب وأحيانا يشترك معه في رؤية هذا المشهد آخرون. وقد سبق أن بينتُ أن من معاني الوحي الكتابة، فهذا القسم العاشر من الوحي يندرج تحت الكتابة، حيث يرى المرء كلمات مكتوبة. والحق أن قطعية الوحي تتوقف على الكلمات لا على الأذن ولا العين ولا القلب ولا اللسان. والوحي الذي ينـــزل في صورة كلمات أعلى وأفضل من أي نوع آخر. ولا شبهة في قطعيته، سواء تيسرت هذه القطعية بالأذن أو القلب أو اللسان أو العين. والوحي الذي يستطيع المرء أن يحلف بالله تعالى أن كلّ لفظ وحرف وحركة وسكون منه قد نزل عليه من الله تعالى هو الأعلى والأفضل من جميع أنواع الوحي.

الحادي عشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على الأذن واللسان معًا.

وهذا الوحي الإلهي لا ينـــزل على الأذن فقط، بل يردده اللسان أيضا، وعندما تزول حالة غيبوبة الوحي تشعر الأذن بأنها قد سمعت كلام الله تعالى، ويشهد اللسان أيضًا أنه قد نزل عليه كلام الله.

الثاني عشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على العين واللسان معًا.

وفي هذا النوع من الوحي يرى العبد لوحة مكتوب عليها الوحي، بينما يردد لسانه كلمات الوحي.

الثالث عشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على القلب واللسان معًا.

ففي هذه الحالة ينـــزل الوحي على القلب ويشترك فيه اللسان أيضا.

الرابع عشر: الكلام المباشر الذي تشترك فيه الحواس الظاهرة والباطنة معًا.

في بعض الأحيان ينـــزل كلام الله على القلب بجلال من ناحية، وعلى الأذن من ناحية أخرى، كما يردده اللسان من ناحية ثالثة.

الخامس عشر: الكلام غير المباشر الذي يسمعه العبد عن طريق ملاك يراه.

ينـــزل هذا الكلام بواسطة، فبدلاً أن يسمع الإنسان كلام الله مباشرةً يرى ملاكًا فيخبره بالأمر، ومثاله ما حصل مع النبي ﷺ عند بدء الوحي في غار حراء.

السادس عشر: الكلام غير المباشر الذي يراه العبد عن طريق ملاك يراه.

ومثاله ما ورد في الحديث أن جبريل أرى النبي ﷺ في غار حراء قطعة ديباج فيها عبارة مكتوبة أيضًا. (الدر المنثور: سورة العلق)

السابع عشر: الكلام غير المباشر الذي يُسمع عن طريق ملاك لا يُرى.

في هذا النوع من الوحي لا يرى الإنسان أي ملاك، لكنه يسمع صوتًا يقول: أنا أقول كذلك، أو يقول الملاك: لقد أمرني الله تعالى بتبليغك هذا الأمر.

الثامن عشر: الكلام غير المباشر الذي يُرى، بواسطة ملاك لا يُرى.

وفي هذه الحالة يرى العبد لوحة مكتوب عليها شيء ويبدو بوضوح أن يدًا أخرى تحملها، ولكن لا يُرى الملاك الذي يحملها.

التاسع عشر: الكلام غير المباشر الذي يُسمَع في اليقظة عن طريق ملاك يُرى، من دون أن يشترك فيه الآخرون.

فبينما يكون الإنسان في حواسه الظاهرة وكاملِ وعيه، يرى ملاكًا يُسمِعه كلام الله، ولكن لا يشترك في هذه العملية أي شخص آخر، فلا يرى الآخرون هذا الملاك ولا يسمعون صوته.

العشرون: الكلام غير المباشر الذي يُسمَع عن طريق ملاك يُرى ويشترك في سماعه الآخرون، لكن لا يرون الملاك.

ورد في البخاري أن عائشة رضي الله عنها سمعت النبيَّ ﷺ يحدّث أحدا، فقالت: يا رسول الله، من الذي تكلّمه؟ قال: لقد جاءني جبريل وحدّثني، وكان يسلّم عليك. (البخاري: كتاب المناقب)

فعائشة رضي الله عنها قد سمعت الحوار بينهما، لكنها لم تر الملاك. ففي هذا النوع من الوحي يُشرَك الآخرون سماعًا لا رؤيةً.

الحادي والعشرون: الكلام غير المباشر الذي يسمعه العبد عن طريق ملاك يراه ويشترك فيه الناس سماعًا ورؤية.

ومثاله حادث مجيء جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي. لقد حضر في مجلس النبي ﷺ وحدّثه وسمعه الصحابة، وعندما ذهب قال النبي ﷺ: ذلك جبريل جاء يعلّمكم دينكم. فالصحابة سمعوا كلام الملاك ورأوه أيضا. (مسلم، كتاب الإيمان)

الثاني والعشرون: اشتراك الرؤيا والكلام والواقع المادي الظاهر.

أحيانا تُجمع كل هذه الأمور معًا، فيكون هناك رؤيا وكلام والواقع الظاهر. ومثاله: حادث ظهور بُقعاتِ الحبر الأحمر على قميص المسيح الموعود عليه السلام، فإنه قد رأى في الرؤيا مشهدًا، كما تكلّم مع الله تعالى، ثم في الظاهر بقيت بقعات الحبر الأحمر ثابتة على قميصه. (سرمه جشم آريه، الخزائن الروحانية المجلد ٢ ص ١٨٠)

الثالث والعشرون: الوحي القلبي الخفيّ.

في هذا الوحي لا توجد كلمات، بل يُلقي الله مشيئته على قلب العبد، ومثاله: قول الرسول ﷺ مرة: لقد نفَث روحُ القدس في رُوعي كذا، فلم أعُدْ أتردد بعدها. هذه الكلمات تبين بوضوح أن الوحي لم ينـزل على النبي ﷺ بصورة كلمات، بل هو وحي قلبي نزل بصورة إلقاء فقط.

ولا يغيبن عن البال بصدد هذا النوع الأخير من الوحي أنه لا ينـزل وحده فقط على المرء، بل يسبقه نزول أنواع الوحي الأولى عليه، حتى لا يبقى هناك أي مجال للانخداع. وقد وقع "البهائيون" في الخدعة لعدم فهمهم حقيقة هذا النوع من

الوحي. نحن لا ننكر هذا النوع من الوحي، إذ تدل عليه تجربتنا، وهذا ما تؤكده أقوال الرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام بأن هناك نوعا من الوحي هو الوحي القلبي الخفي، فلا يمكن القول أن الوحي الذي يدّعيه "البهائيون" لا وجود له، لكنا نقول حتمًا إن البهائيين لم يفهموا هذا النوع من الوحي، إذ يُسمّون كل أفكار القلب وحيًا، فكل ما كان يخطر بقلب "بهاء الله" من أفكار، وكل ما كان يكتبه من كلمات كان يسميه وحيًا قلبيا خفيا.

وحيث إننا نعترف أن هناك نوعًا من الوحي لا تنــزل فيه كلمات بل يُلقَى أمرٌ في القلب من عند الله، فلا ينخدعن بعض الناس بما يدعيه البهائيون، لذا فينبغي على جماعتنا أن تتذكر أمرًا ينفعنا كثيرا في إزالة السمّ الذي ينفثه البهائيون، وهو أن من تجارب المبعوثين من عند الله تعالى أن هذا النوع من الوحي لا ينــزل وحده، بل يسبقه أنواع الوحي الأخرى، لأنه إذا نزل وحده فكل إنسان يمكن أن يدّعي أنه يتلقى الوحي من الله، ويتعذر التمييز بين الصادق والكاذب، ودفعًا لهذه الشبهة ينــزل الله على عبده الأنواع الأخرى من الوحي أولاً، وعندما يوقن الناس بصدقه نتيجة تحقُّق ما ورد في وحيه السابق من أنباء، يُنــزِل الله عليه الوحي القلبي الخفي أيضا. من المحال ألا يُعطى المرء أي آية على صدقه ومع ذلك يتلقى الوحي الخفي القلبي فقط. وعلى كل حال، فهذا الوحي يكون أقل كمية من الوحي اللفظي جدا.

وأضرب لبيان ذلك مثالاً: لقد جاءني مرة عبد الله التيمابوري* وقال: لماذا لا تؤمنون بي وتؤمنون بحضرة الميرزا (مؤسس الأحمدية عليه السلام)؟ فقلت: نحن نؤمن بحضرته لأننا رأينا الآيات الدالة على صدقه متتالية، فأيقنّا بصدقه. فقال: هذه الأمور تكون فيما بعد، فأي آية رأى مَن آمنَ به في البداية؟ فقد آمن به حضرة المولوي نور الدين -مثلاً- من دون أن يرى أي آية. قلت: هناك مَن يكون كأبي

* كان هذا الشخص من جماعتنا، ثم ادعى أنه صاحب دعوى يوحى إليه ويلهم، وتمّ فصله عن الجماعة. (المترجم)

بكر، ولا يحتاج لرؤية الآيات، بل يرى أنه لو آمن بعد رؤية الآيات فسوف تقلّ درجته. ورد في الحديث صراحة عن أبي بكر ﵁ أنه لما بلغه خبر دعوى النبي ﷺ جاءه وقال له: هل ادعيتَ تلقي الوحي؟ فأراد النبي ﷺ أن يوضح له بعض الأمور الدالة على صدقه، فمنعه أبو بكر وقال: أرجو أن تخبرني فقط هل أعلنت أنك نبي الله؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال أبو بكر، يا رسول الله، إني أؤمن بك. ثم بين له قائلا: لقد رفضت سماع الأدلة على صدقك لأني لو آمنتُ بك بعد سماعها لاعتبرتُ إيماني ضعيفا. لم أرد أن يكون أساس إيماني بك على أدلة وآيات جديدة، بل نويت أن أتشرف بالإيمان بك بناءً على ما شاهدتُ من أخلاقك السامية. وهذا هو حال الخليفة الأول للمسيح الموعود ؈ أيضا. فقال لي التيمابوري: فلماذا تشترط رؤية الآيات مني للإيمان بي؟ قلت: لا شك أن البعض يؤمنون بالنبي قبل ظهور الآيات الساطعة التي تظهر فيما بعد، ولكن الله تعالى قد جعل لإيمانهم أسبابًا يقينية، وهي عمل النبي وسيرته وأسوته قبل دعواه، ولكن لا ينتفع من ذلك إلا من يعرفه معرفة شخصية. لقد وجد أبو بكر الدليل على صدق النبي ﷺ فيما رأى منه من أمانة وخدمة للإنسانية، وقد آمن الخليفة الأول ﵁ بالمسيح الموعود ؈ لما رأى من علاقته بالله تعالى وحماسه لإحياء الإسلام وخدمته العظيمة له حتى كتب كتابه العظيم "البراهين الأحمدية". كان الصلحاء في زمنه الأول يرون أنه قد ألف كتابا باسم "البراهين الأحمدية" ساق فيه أدلة قوية على صدق الإسلام وتحدى أعداء الدين الحنيف للمبارزة، وهذا عمل لا يتم إلا بتأييد الله تعالى، فلم يملك هؤلاء الصلحاء ذوو القلوب الصافية إلا أن يشهدوا بأن هذا هو بطل الإسلام وحامي الدين الحنيف من هجمات أعدائه. فلمّا أعلن دعواه بعد ذلك آمن به هؤلاء الصلحاء المطّلعون على أحواله فورًا وعلموا أن هذا الإنسان الذي وهبه الله ذلك النور الذي مكّنه من تأليف كتاب عظيم كالبراهين الأحمدية لا يمكن أن يكون كذابا. لقد ذاد عن حياض الإسلام مِن قبل، وإذا كان يدعي الآن بأن الله تعالى قد أقامه لحمايته، فهو صادق فيما يقول. فلم يروا حاجة إلى رؤية آية جديدة من حضرته بعد آية البراهين الأحمدية، وانضموا إلى جماعته.

فقال لي التيمابوري: فما هي الآية التي تريد مني؟ قلتُ: لم يستطع المسيح الموعود عليه السلام إكمال "البراهين الأحمدية"، فلعل الله لم يوفّقه لذلك لكي يأتي بعده مَن يكمله، والآن تدّعي أن الله تعالى قد بعثك مأمورا من عنده، فلو أكملتَه فسوف أصدّقك في دعواك معتبرا هذه الآية كافيةً على صدقك. فقال: طيب. فذهَب و لم يكتب حتى اليوم سطرا واحدا لتكميل الكتاب.

فكما أن الله تعالى يخلق في حياة المأمور قبل بعثته شواهد ودلائل تحفّز الناس على الإيمان به عند دعواه، كذلك لا بد لمن يدعي نــزول الوحي الخفي عليه أن يَنــزل عليه قبل ذلك أنواع الوحي الأخرى، وأن يوجد على صدقه دلائل وشواهد حتى لا يفكر أحد أن هذا الإنسان متوهم أو مجنون. فمثلا لم يتردد الصحابة في تصديق النبي ﷺ عندما قال إن روح القدس قد نفث في روعي، لأنه سبق أن نزل عليه الوحي الذي كان يتحقق مثل فلق الصبح، كما تلقى الوحي الذي ينــزل به جبريل، كما نزل عليه الوحي الذي يكون من وراء حجاب، فأدرك الصحابة أن هذا الذي يقول لنا الصدق دائما لا يمكن أن يكون ما يقوله الآن كذبًا. ورد في الحديث أن يهوديًا جاء النبي ﷺ مرة وقال: لي عليك دَيْن. فقال ﷺ: لقد دفعتُه لك. قال: إذا كنتَ قد دفعتَه لي فأين شاهدك؟ فقام صحابي وقال: يا رسول الله، واللهِ إني لشاهد على أنك قد دفعتَ لهذا ماله. فلما سمع اليهودي ذلك قال: نعم، لقد تذكرتُ الآن أنك دفعته لي. فلما ذهب اليهودي: قال النبي ﷺ لذلك الصحابي: كيف عرفتَ أني قد دفعتُ له، مع أنك لم تشهد ذلك؟ فقال: يا رسول الله، دعْك من هذا. تُخبرنا بأخبار السماء فنصدقك، أفلا نصدقك حين تخبرنا بأخبار الأرض؟ فكما نؤمن بما تحدّثنا من أخبار السماء، كذلك نصدقك فيما تخبرنا من أخبار الأرض.

إن ما قاله هذا الصحابي حق وصدق، لأنه إذا قال المأمور والمرسل من عند الله تعالى قولاً فلا بد أن يكون حقا وصدقا. كيف يمكن أن يكون كذبًا؟ لذلك نجد أن الرسول ﷺ لم يلُمْ هذا الصحابي على قوله، بل سُرَّ به، وقال إن شهادته تساوي شهادة رجلين في المستقبل. لم يُعْطَ هذا الصحابي هذا الفضلَ على

الآخرين لأنه قال هذا الكلام بناء على الصداقة، بل إنه أسس قوله على شهادة كلام الله تعالى، وقال إن الذي يُنــزل الله عليه كلامه يوميا لا يمكن أن يكذب في أمور تخصّ الأرض. وبالمثل فان الذي يُنــزل الله عليه وحيًا قلبيًّا خفيًّا فإنه يمنحه شواهد أخرى أيضا لكي لا يقع الناس في خدعة في شأنه، بل يدركوا أن من كان صادقا فيما ادعى من الوحي من قبل لا بد أن يكون صادقا فيما يدعيه من تلقي هذا النوع من الوحي. أما الذي لا ينــزل عليه الوحي اللفظي بكثرة، كما لا ينــزل عليه وحي جبريل، ولا الوحي التصويري ولا التأويلي، فإنه إذا ادعى أنه يتلقى وحيًا قلبيا خفيا فلن يقبل العاقل دعواه، بل سيسميه الجميع مجنونا؛ إذ يسمي أفكار قلبه وحيًا.

باختصار، إن هذا النوع من الوحي فتنة عظيمة، ولذلك يجعله الله تعالى تابعًا للوحي اللفظي وللوحي النازل عن طريق الملائكة وغير الملائكة. فلو ادعى مَن نزل عليه الوحي بهذه الأنواع الثلاث بكثرة أنه يتلقى وحيًا قلبيا خفيا فلن يعتبره الناس مخدوعا، بل يصدقونه، أما إذا ادعى هذا النوع مِن الوحي مَن لا يتلقى أي نوع آخر من الوحي فلا بد أن يعتبره الجميع مجنونا. وهذا هو حال "بهاء الله" و"السيد غلام محمد" القاطن في لاهور؛ فإننا نعدّ هؤلاء دون المستوى العقلي المتوسط.

وثانيا: إن الوحي القلبي الخفي يتعلق بالأمور الغيبية لا بالأحكام، حتى لا ينخدع الناس، لأن الأمور الغيبية لا يكون فيها خطر الفتنة، إذ يمكن تأويلها فيما بعد، أما الأحكام فلا بد أن تكون واضحة، لا أن يُنتظر زمن لمعرفة تأويلها.

وليكنْ معلوما أن جميع أقسام الوحي تتضمن الحقيقة والمجاز أيضا، ولا تكون بالضرورة مشتملة على الحقيقة الواضحة فقط. فكما أن ما يراه المرء في المنام بحاجة إلى تأويل، كذلك ما يُنــزل الله على العبد من كلام لفظي يتضمن المجاز والاستعارة أيضا. الفرق الوحيد أن ما يراه الإنسان في المنام يتطلب التأويل في معظم الأحيان، ولكن الوحي الذي ينــزل في صورة كلام لفظي يتطلب التأويل

أحيانا. ولأن الناس لا يفهمون هذا الأمر فإننا عندما نذكر أمام غير الأحمديين تلك المفاهيم التي كانت مكنونة في آيات القرآن يقولون أنكم تؤولون كلام الله بدلاً من أن تذكروا ما تدل عليه ظاهر الكلمات. وليس سبب ذلك إلا أنه قد رسخ في أذهان هؤلاء أن تأويل كلام الله محال، ولا بد من الأخذ بظاهر كلماته، وإلا لارتفع الأمان.

والواقع أن قولهم خلاف للعقل تمامًا. ألا يوجد المجاز والاستعارة في كلامنا الذي نتحاور به في اليقظة؟ إننا نرى أن الكلام الذي يتحدث به الناس يكثر فيه المجاز والاستعارة، ومع ذلك لا يقول أحد أن المجاز في الكلام يرفع الأمان من الدنيا. اقرأْ شعر "غالب" و"ذوق"◆، لترى كثرة استعمال المجاز والاستعارة؟ فهل ارتفع الأمان بسبب ذلك؟ فما دام فحول الشعراء وكبار الأدباء يكثرون من المجاز والاستعارة في كلامهم، ولا أحد يعترض على ذلك قائلا قد ارتفع الأمان من الدنيا بسبب كلامهم، فهل يرتفع الأمان بورود المجاز والاستعارة في وحي الله تعالى فقط؟ إن قول هؤلاء المعترضين يعني أن كلام الله تعالى خالٍ حتى من المحاسن التي يجب أن يتسم بها كلام البشر. عندما يستعمل الله المجاز والاستعارة في كلامه يعترضون عليه، وحين يستعمله كبار الشعراء والأدباء في كلامهم يقولون في إعجاب: ما أفصحَ هذا الكلام! ولا يقولون إن كلامهم قد اشتبه علينا، أو أنه لم يبق له اعتبار لوجود المجاز والاستعارة فيه، أو أن لغتنا قد فسدت بسبب المجاز والاستعارة في كلامهم. كلا، بل يجدون المتعة بسماع كلام الشعراء ويشيدون ببلاغته ويفضّلونه على غيره من الكلام. لماذا يُعَدّ "غالب" أو "ذوق" أفضلَ من الآخرين؟ ليس سببه إلا أنهما يبيّنان الحقيقة في قالب المجاز والاستعارة. أفليس غريبًا أن ما يعتبرونه ميزة عظيمة في كلام البشر، يعتبرونه رفعًا للأمان إذا استعمله الله تعالى في كلامه. ما دام المجاز والاستعارة يكثُران في كلام البشر الذين يتحدثون به في اليقظة، فما الاعتراض على وجود المجاز والاستعارة في الوحي؟ المجاز والاستعارة

◆ هما من فحول الشعراء بالأردية. (المترجم)

روحُ البلاغة، فلماذا لا يستعملهما الله في وحيه إذا اقتضى الأمر؟ هناك وسائل تجنِّبُ من الخطأ في فهم كلام البشر المشتمل على المجاز والاستعارة، كذلك يوجد في كلام الله تعالى ما يجنِّب العاقلَ من الخطأ في فهمه. أما الأحمق فينخدع بأي شيء ولا يفهم الكلام الواضح الجلي. يقال أن شخصًا قال لأحمق: أخبرْني ما في هذه السلة، أُعْطِك إحدى البيضات الموجودة فيها؟ فقال الأحمق: كيف أُخبرك إذا لم تعطني بعض الإشارات المساعدة. عند استعمال المجاز لا بد من قرينة لفهم الكلام وإلا لارتفع الأمان. فمثلا لو قلتُ: إن فلانًا من الأموات جاءني وقال لي كذا وكذا، فلن يعتبره السامع حقيقةً بل مجازًا ويفهم أني رأيتُه في المنام. ولكني لو قلتُ عن شخص حي إنه جاءني وقال لي كذا وكذا، فمن الغباء أن يتخاصم السامعون لقولي فيقول بعضهم المراد أنه جاءه في المنام، ويقول الآخر: لا، إنما المراد أنه جاءه في اليقظة. ذلك أن هناك قرينة في قولي الأول وهي لفظُ "من الأموات"، فلا يمكن أن يأتيني إلا في المنام، أما في القول الثاني فليس هناك أي قرينة كهذه فيؤخذ قولي على الظاهر. فالمجاز والاستعارة لا بد له من قرائن تساعد على فهم ما إذا كان الكلام يؤخذ على ظاهره أم لا.

باختصار، رغم كثرة المجاز والاستعارة في كلام الناس، لا يشتبه الأمر على أحد، بل يجد الجميع متعة فيه لاعتبارهم الاستعارةَ والمجاز روحَ الفصاحة وذروتها. فكما أن المجاز والاستعارة يزيّن كلام البشر، فإنه يزيد على كلام الله تعالى جمالاً وعظمة، لذلك فمن الخطأ القول أن كلام الله تعالى مُنَـــزَّه عن المجاز والاستعارة، أو أن المجاز والاستعارة يحول دون تبيان الحقيقة. هناك قواعد لمعرفة المجاز والاستعارة في كلام البشر وكلام الله تعالى، ولو فُسر الكلام بمراعاة هذه القواعد فلا بد أن يكون هذا التفسير صحيحا، أما إذا فُسِّرَ خلاف هذه القواعد فلا بد أن يكون التفسير خاطئا، فلا مجال للشبهة بسبب المجاز والاستعارة.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

أشتاتا: متفرقين. (الأقرب)

التفسير: لقد اعتبر المفسرون أن هذه السورة تتحدث عن الآخرة، فقالوا المراد من الآية أنهم يخرجون بين مؤمن وكافر، وقيل: بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، وقيل: بيض الوجوه آمنين، سود الوجوه فزعين (روح المعاني، والكشاف، وفتح البيان). ليس المراد من البيض الإنجليز ومن السودِ الهنود مثلاً، بل هو إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(آل عمران:١٠٧).. أي يوم القيامة سوف تكون بعض الوجوه مسرورة، وبعضها مكتئبة.. أي تكون بعضها فائزة، وبعضها مجرمةً -وبالمناسبة هذا الكلام أيضًا مجاز- إذًا فالمراد من ﴿أشتاتًا﴾ عندهم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

ولكني أرى أن هذه السورة تتحدث عن الزمن الأخير الذي قُدِّرت فيه البعثة الثانية للنبي ﷺ، والمراد من هذه الآية أن الناس عندها سيصبحون أحزابًا، أي تتشكل عندها تجمعات ونقابات وجمعيات شتّى. وهذه العلامة لم توجد في أي عصر مضى، بل نجدها بارزة في العصر الراهن. في الماضي كانت الجهود فردية، ولم يكن فيها صفة الاتحاد والتحزب. في الماضي كان التاجر يعني شخصًا يأخذ بعض المال ويستثمره بالبيع والشراء في مدينته، والصانع نجارًا يصنع أشياء جيدة، والحداد شخصًا يعمل من الحديد أدوات نافعة، والعامل شخصا فقيرا يعمل عند غني على أجرة معينة. لا شك أن العامل في الماضي كان يتخاصم مع صاحب العمل أحيانا، ولكن كان جهده فرديا، وكذلك حال التاجر والصانع والحداد والأجير، فكل واحد منهم كان مهتما بشأنه ولم تكن همّه حقوق ومطالب الآخرين ممن يمارسون نفس المهنة التي يمارسها. ولكن القرآن يخبر هنا أن هذه الاختلافات بين العامل وصاحب العمل والأجير سوف تتفاقم حتى تؤدي إلى تشكيل أحزاب ونقابات وجمعيات.

﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. يعني لِيُرَوا نتائج أعمالهم، بمعنى ليعرفوا أن التحزب يؤدي إلى نتائج أفضل وبدونه لا تكون النتائج لصالحهم. في الماضي كان الأجير إذا تضايق من معاملة صاحب العمل قال له: أعطِني أجرتي لعملي حتى الآن ولن أعمل عندك بعدها، أما اليوم وجد العمال أن هذا الأسلوب لا يجديهم نفعًا ولا يؤثّر على أصحاب العمل، فقرّروا أن يتحدوا ويذهبوا إليه جميعًا لرفع مطالبهم وحقوقهم إليه، فشكّلوا نقابات لهم. فالآن إذا أرادوا رفع أجرهم فلا يذهب كل واحد إلى صاحب العمل منفردا، بل يذهب إليه الجميع، ويقولون له بصوت واحد: يجب أن ترفع أجرتنا وإلا سنُضرِب عن العمل، فيضطر للرضوخ لمطالبهم. وهذا ما يخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. أي أن الجميع سيتحزب بدلاً من بذل الجهد بشكل فردي، لِيُريهم الله أعمالهم.. أي نتائجها. حيث إنهم يرون أن الجهود الفردية تضيع ولا تأتي بنتائج إيجابية، لذا فسوف يتوجهون إلى التحزب والاتحاد وتشكيل النقابات والجمعيات والجبهات المتحدة ليكون صوتهم قويًا ويضطر أصحاب العمل للقبول بمطالبهم.

وبالفعل نرى الناس اليوم أشتاتًا في شكل مئات الأحزاب في العالم، من محافظين، أحرار، عُمّال، ديمقراطيين، جمهوريين، أصوليين، هلستيين، قوميين، اشتراكيين، نازيين، فاشيين، شيوعيين، فاسيين، فلانجيين، ومهاسبهايين، كونجروسيين، مُسْلِمْليغيين، يونينستيين، وَفْديين، سَعْديين، وما إلى ذلك. فكلهم يقولون لن تُقبَل مطالبنا إلا بالتحزّب. وهذا يخبر عنه الله تعالى بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. أي في ذلك العصر سيشكِّلون أحزابًا لهم لتحقيق مطالبهم.

لا شك أن هذه الأفكار كانت موجودة في الماضي، وأن ما نراه اليوم بين الطرفين كان موجودًا أيضًا، وكان كثير من العمال يشتكون من أصحاب العمل، فكانوا يهددونهم بالطرد من العمل، لكن شتان بين الماضي واليوم، إذ لم يكن في الماضي أية أحزاب، بينما تجد اليوم كل فئة قد شكّلتْ حزبًا ونقابة، فهناك نقابة للعمال ونقابة لأصحاب العمل، وجمعية لأصحاب القطارات وجمعية لعمالها،

ونقابة لعمال المناجم ونقابة لأصحابها، وحزب للسياسيين الحاكمين، وحزب للسياسيين المغلوبين. فنجد نقابات مقابل نقابات، وأحزابًا مقابل أحزاب. الجميع قد تحزّبوا، فلا تبذل الجهود اليوم بشكل فردي، بل تبذل من قبل الأحزاب نيابةً عن الأفراد. وهذا ما أخبر به الله بقوله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. أي لن يبذل الناس جهودهم فُرادى، بل يبذلونها جماعاتٍ وأحزابًا، ليروا أحسن النتائج لأعمالهم ولكي لا تضيع جهودهم. علمًا أن الضمير (هم) في قوله تعالى ﴿أعمالهم﴾ راجع إلى أحزاب الناس ونقاباتهم المختلفة، فكل حزب ونقابة سيبذل جهودًا موحَّدةً من أجل حقوقه. فيبذل أعضاء حزب العمال جهودهم متكاتفين، وسيبذل أعضاء حزب الاشتراكيين جهودهم متحدين، وهذا ما سيفعله القوميون والشيوعيون وغيرهم، لتكون النتائج لصالحهم. وبالفعل رأينا اليوم آلاف الأحزاب قد تشكلت، ولا يبرح الناس يصرّحون في كتبهم أن سبب الفشل في الماضي أننا لم نكن معًا، أما الآن فسنعمل متكاتفين ونجعل صوتنا أكثر قوة ونتيجة.

وقول الله تعالى ﴿لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ﴾ يعني: حسنًا، نحن أيضًا نريد أن لا تُبذَل الجهود في الزمن الأخير بشكل فردي، بل بشكل جماعي، لكي يتميز الخير عن الشر جيدًا. فقوله تعالى ﴿لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى بذل العباد جهودَهم لحقوقهم من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى تأييده تعالى لهم في ذلك، بمعنى: كما أنهم سيبذلون جهودهم بشكل جماعي في مجالاتهم وبأساليبهم، فإن لله تعالى أيضًا جهده. وكأن قول الله هذا مماثلٌ لقوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(آل عمران: ٥٥).. فأخبر الله تعالى أنهم سوف يفكّرون للعمل متحدين متكاتفين، ونحن بدورنا سنتيح لهم الفرصة لتحقيق مقاصدهم، لكي لا يبقى في قلوبهم أي حسرة بأنهم لن يستطيعوا بذل كل ما في وسعهم بشكل جماعي، وتكون النتيجة في نهاية المطاف أنهم سيضطرون للاعتراف أن القانون الأفضل ليس إلا ما يسنّه الله تعالى، وأن الحزب الأفضل ليس إلا ما يشكّله ﷻ.

في زمن النبي ﷺ قام أبو جهل ضده، ولكن فشلت جهوده ومكائده كلها، ومات خائبا خاسرا في النهاية، لقد كان هذا آيةً عظيمة دلت على صدق رسول الله ﷺ كالشمس في كبد السماء، ولكنها كانت مواجهة فردية لا جماعية، وإنما بدأت المواجهة الجماعية بعد الهجرة، حيث كُسرتْ قوة الكفار العرب كلهم. وبالمثل قد واجه المسيح الموعود عليه السلام معارضة شديدة، لكن الجهود كانت تُبذل ضده بشكل فردي، إذ كان كل من الشيخ البطالوي والمولوي ثناء الله الأمرتسري والمولوي نذير حسين وغيرهم يعارضه بشكل فردي. لا شك أن كل السهام كانت موجهة إلى حضرته عليه السلام طبقاً للمثل القائل: "الكفر ملة واحدة"، لكن لم تكن هذه المواجهة جبهةً موحدة، بل كان كل خصم يعاديه من مدينته منفردا، فكان المولوي البطالوي يعارضه من "بَطالة" بأسلوبه، والمولوي نذير حسين يعارضه من "دلهي" بأسلوبه، والمولوي ثناء الله من "أمرتسر" بأسلوبه. ولكن كان من المقدر أن تتحقق نبوءة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ في هذا العصر، فانبرت جماعة "الأحرار" ضد جماعتنا في عام ١٩٣٤م، وأعلنوا أنهم سيسحقون الأحمدية سحقا. ولقد قالوا إن الناس كانوا يعارضون الأحمدية من قبل بشكل فردي من مدن شتى مثل "لدهيانة" و"لاهور" و"دلهي" و"بطالة" و"أمرتسر"، أما الآن فسوف نقضي على الأحمدية متّحدين (تاريخ أحرار، ص ١٢٦). فاتحد حزب الكونجرس الهندوسي مع "الأحرار"، كما تواطأت معهم الحكومة لمصلحة ما. لقد كانت هذه المعارضة تحقيقا لقوله تعالى﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد تبينّ أن فضل الله وحمايته مع الأحمدية. وفي هذه الأيام يُطِلُّ الشيعة علينا بمعارضتهم ظانين مثل الأحرار أنهم سوف يقضون على الأحمدية، وتحولت المعارضة الفردية إلى معارضة جماعية، وتمرّ جماعتنا بمرحلة خطيرة في سبيل نضالها.

فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٩﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن عمل الناس متحدين سوف يحقق صدق سنّتنا بأنّ مَن عمل ذرةَ خير متّحدًا مع الآخرين رأى نتيجته، وأن مَن عمل ذرة شرّ متحدا مع الآخرين رأى نتيجته. أي أن كل شخص في الزمن الأخير سيعمل تحت مظلة حزبه، فتكون نتيجة كل عمل كبيرة وبارزة؛ لأن كل ذرة في العمل المشترك تجتمع مع الذرات الأخرى وتصبح جبلاً، فإذا كانت ذرات العمل الفردي لا تساوي شيئا بل يأخذها الهواء وتختفي بدون أن تأتي بنتيجة ملموسة، فإن ذرة العمل الذي يتم مع الجماعة لا يمكن أن تختفي، بل تصبح جبلا مع ذرات الآخرين. فلأن الناس سيعملون في صورة أحزاب وتجمعات في ذلك العصر، فلن تضيع ذرة من عملهم، فتكون نتيجة كل عمل كبيرة بارزة.

الحق أن هذا الموضوع تسلسل للموضوع المذكور في ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، حيث بين الله تعالى هنا سبب صدور الناس أشتاتًا، فأخبر أن تصرُّفهم هذا سوف يؤكد صدق قولنا إن الإنسان لا بد أن يرى نتيجة كل عمل من أعماله مهما صغُر، سواء كان عمله شرا أو خيرا. ذلك أننا لو طبقنا هذه الآية على أعمال الخير الفردية وأعمال الشر الفردية لم يكن لهذه الآية أي معنى. لا شك أنه فيما يتعلق بالقيامة فكل عمل خير لكل إنسان وكل عمل شر لكل إنسان سيصبح بارزًا يوم القيامة، نحن لا ننكر ذلك، لكن هذا لا يحدث في هذا الدنيا. فإننا نرى هنا أن بعض الناس يعملون عمل خير عظيم، لكنه يظل خفيا، وكذلك يعمل البعض عملا شريرا كبيرا، ولكنه يظل خفيا أيضا. لو كان كل عمل خير أو شرّ بارزًا في الدنيا لما تجاسر الناس على الآثام. كثير منهم يقومون بأعمال خير كبيرة، ولكنها – لكونها فردية – لا تأتي بنتيجة تحثّ الناس على فعل الخير، وكذلك ملايين الناس يعملون أعمال الشر ولكن شرهم –لكونه شرًا فرديا– لا يأتي بنتيجة ملحوظة

تُرعب الناسَ وتجعلهم يرتدعون عن أعمال الشر للأبد. لكن الله تعالى يخبر هنا أننا نتحدث عن زمن يجمع فيه أهلُ الخير كلّ ذرة من أعمالهم الخيرة في مكان واحد، ويجمع أهل الشر كل ذرة من أعمالهم الشريرة في مكان واحد، فتصبح أعمال الخير جبلاً، وأعمال الشر جبلا.

وكأن هذه الآية إشارة إلى المواجهة التي تتم عندها بين نظامَي الكفر والإسلام، فمن جهة يجمع الكفر كل جنوده ويقيم نظاما، ومن جهة أخرى يجمع الإسلام كل الذين يعملون الخير لإحياء الإسلام وتقويته ويقيم نظاما، ثم يصطدم النظامان للقضاء على الآخر. هذه هي النبوءة المذكورة هنا. والتدبر يكشف أنها لم تتحقق في الماضي قط، فلا الكفر أقام نظامًا موحدا لمواجهة الإسلام بشكل جماعي، ولا الإسلام أقام نظاما موحدا للقضاء على الكفر. في زمن النبي ﷺ كلما مست به الحاجة إلى المال جمع صحابتَه ودعاهم إلى التبرع، فكان كل واحد منهم يقدم ما يستطيع لهذه الخدمة (الترمذي: أبواب المناقب)، ولا نرى أن النبي ﷺ أقام بيتًا للمال أو نظامًا لجمع التبرعات من كل فرد من جماعة الإسلام. ولكننا نرى في هذا الزمن أن المسيح الموعود عليه السلام قد فتح منذ بداية دعواه خمسة صناديق للتبرعات فصّلها في كتابه "فتح الإسلام"، وأوصى القوم أن يبعثوا الأموال إلى هذه الصناديق من أجل إحياء الإسلام ورُقيّه (فتح الإسلام، الخزائن الروحانية المجلد ٣ ص ١٢-٢٥). وهذا يعني أنه عليه السلام قد أسس منذ بداية بعثته نظامًا ثم رفعه شيئا فشيئا على أسس متينة حتى قال: "مَن توقفَ عن إرسال المال لمدة ثلاثة أشهر لنصرة الجماعة فليس منا". (مجموعة "اشتهارات" المجلد الثالث ص ٤٦٩)

باختصار، قد أقام الله تعالى في هذا العصر نظاما لإحياء الإسلام، ومن جانب آخر جمع الكفرُ جنوده وقواته كلها ووضع خطته لسحق الإسلام. فاليوم لا تقوم المسيحية أو فِرقة الآرياسماج الهندوسية أو السيخ أو اليهودية بتبليغ فردي، بل هناك جمعيات ضخمة عندهم تجمع ملايين الملايين لتنفق على تبليغ ديانتهم. ولذلك يخبر الله تعالى هنا أنه إذا جاء الزمن الأخير الذي قدّرنا فيه البعثةَ الثانية

لرسولنا الكريم (ﷺ)، سنقول لأهل الخير أن يتّحدوا، كما نقول للملائكة أن يحثّوا أهل الشر على الاتحاد، وهكذا يقع صدام كبير بين الكفر والإسلام يُسفِر عن انتصار الإسلام في نهاية المطاف، وسوف نفعل ذلك لكي لا يقول الناس إنهم ظلوا غافلين لم تُتَحْ لهم الفرصة لتحقيق أمانيهم متحدين متكاتفين، وإلا لما تركوا الإسلام يظهر أبدا. فكأن الله تعالى يقول نحن لا نريد أن تبقى في قلب الكفر أية حسرة، بل نتيح لأهله الفرصة ليُخرجوا كل ما في جعبتهم حتى لا يقول الكفر إنه لو أتيحت لي الفرصة للإعداد والتجهيز الكامل لم أدَعْ الإسلام ينتشر في الدنيا. كلا، بل سنتيح الفرصة الكاملة للطرفين، فلا يبقى أهل الشر غافلين عن أعمالهم وخططهم، بل سيدركون تماما الغاية التي خرجوا من أجلها، كما سيكون أهل الخير مدركين لما عليهم من أعمال وواجبات، ولذلك ستكون نتيجة هذه المواجهة بين الكفر والإسلام قطعية وأخيرة، ولن يقول الشر بعدها أنه لن تتح له الفرصة الكافية لمحاربة الخير.

ذكرت هذا المعنى فيما يتعلق بالدين، أما لو توجّهنا إلى العالم المادي لرأينا المشهد نفسه، إذ لا نجد في الماضي نظيرا للثورة التي حصلت اليوم في الدنيا عبر مختلف الأحزاب والنقابات. إن الظالمين قد وُجدوا في كل عصر، وكان أهل كل عصر يشتكون منهم. لقد وجد في الماضي أيضًا أُجَراء قتلوا أسيادهم، فهناك آلاف الحالات لقتل الخادمِ سيدَه الذي سبّه وأهانه، فاستاء منه فقتله نائمًا، لكن لم يكن لمثل هذه الأحداث الفردية أثر بعيد المدى، وإنما كان الناس يقولون إن فلانا قتله خادمه، ثم يسكتون. لم تكن الدنيا ترى أي نتيجة لهذا الحادث، إذ كان يختفي بين دوامة الأحداث الأخرى. أما اليوم فلما رفع الشيوعيون رأسهم في روسيا اجتمعوا وقتلوا أصحاب الأعمال، فكانت النتيجة عظيمة حيث تغيّرَ النظام الحاكم. في الماضي كان الأجير إذا استاء من صاحب العمل ترك العمل من دون أن يعرف أحد بذلك أو يحصل أي تغيّرٌ في المجتمع، أما اليوم فإن إضرابات العمال قد أخضعتْ رقاب أصحاب العمل بشكل مخزٍ.

هذا هو حال الربا أيضا، إذ لم يزل الناس عبر القرون يتعاملون بالربا، ولكن نظام البنوك قد أحكمَ قبضته على رقاب الناس بما لا قبل لهم به. في الماضي كان المرابي الهندوسي يتعامل مع الناس بالربا في قرية نائية، و لم يكن أحد يعلم ذلك، أما اليوم فقد كثرت البنوك وفروعها، فنشرتْ شبكتها في العالم كله وسيطرت على الناس. في الماضي كان الناس يمارسون الصنعة والحرفة، أما اليوم فقد قضت الشركات على صناعة البلاد وحِرَفها، بحيث أصبح أصحاب الحِرَف المساكين في حيرة من أمرهم. في الماضي كان هناك تجار عاديون، أما اليوم فقد تشكلت شركات للتجارة. في الماضي إذا كان في الدنيا تاجر كبير فلم يكن الناس يعرفون عنه شيئًا وما كان يستطيع نــزع الثروة من جيوبهم بكثرة، أما اليوم فإن هذه الشركات تنـــزع الأموال من الناس نزعًا، حتى اضطر كبار الأثرياء أن يتوظفوا في هذه الشركات بدلاً من أن يعملوا عند الحكومة. كان اللورد "موند" وزير المالية في إنجلترا، لكنه استقال وتوظف عند شركة (امبريال كيميكال اندستري). وكان هناك شخص آخر شهير اسمه -على الأغلب- السير "كينار" وكان وزيرا للخارجية، لكنه ترك وزارته وتوظف في شركة القطارات. كان يتقاضى في وزارته خمسمائة جنيه، أما شركة القطارات فتدفع له ثلاثين ألف جنيه، وهذا يعني أن راتبه تضاعف أضعافا كثيرة. فالشركات قد استولت على الثروة من خلال التجارة والصناعة والحرفة لدرجة أنها تدفع لموظف لها ما لم يكن يملكه أي صانع أو تاجر كبير في الماضي.

ثم تطورت الشركات إلى ما يسمى بالإنجليزية (trust system) (أي اتحاد الشركات من بلد واحد)، ثم إلى ما يسمى بالإنجليزية (cartel system) (أي اتحاد كبار التجار أو الشركات من بلدان عديدة). وهكذا قد خرج الناس أشتاتًا — أي أحزابًا مقابل أحزاب ونقابات- بما لا يوجد له نظير في الماضي، ومن خلال العمل الجماعي قاموا بتطوير كلّ الأعمال بشكل مدهش، فإذا عملت هذه الأحزاب عمل خير كانت النتيجة مدهشة، وإذا عملتْ عمل الشر كانت النتيجة مرعبة تنخلع من هولها القلوب. فالآية تشير إلى أن المؤمنين أيضًا سيعملون في الزمن الأخير معًا،

فتكون نتائج أعمالهم أيضا عظيمة، ولأن جزاء الخير بعشرة أمثاله، فتكون نتائج الخير غالبة على نتائج الشرّ.

هذا المعنى قد بينتُه نظرًا إلى ترتيب الآيات. غير أن هذه الآية بالغة الأهمية في حد ذاتها، فذات مرة سئل النبي ﷺ عن الثواب في تربية الحمير، فَقَالَ: لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلا هَذِهِ الآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (البخاري، كتاب التفسير).. أي ليس هناك شيء يتعلق بجزاء الخير والشر إلا وقد احتوته هذه السورة.

يكشف لنا التدبر أن الإنسان يفعل كثيرًا من أعمال الخير والشر، ولكنها كلها تظل خافية على الآخرين. فمن الحقائق الثابتة أن كثيرا من الناس يفكرون ضد الآخرين بسوء، لكن لا تكون لذلك أي نتيجة، كما لا يدري الطرف الآخر أن فلانا يفكِّر به سوءا. ولذلك قال الرسول ﷺ مرة إن أحدا إذا سمع غيره يغتاب صاحبه، فذهب وأخبره بما قاله الأول بحقه، فمَثَلُه كمَثَل مَن أطلق سهمًا إلى غيره فسقَط في الطريق، فأخذه الآخر وغرزه في صدره. وكذلك هناك كثير من الناس الذين يفكرون في الآخرين خيرا، ويحبونهم وتفيض قلوبهم بمشاعر العطف والحب نحوهم، بينما لا يعرف الطرف الآخر عن ذلك شيئًا. فالمرء يكنّ لصاحبه حبًّا شديدًا، ولكن حيث إن هذا الحب يكون خفيًا في قلبه، فلا يعرف الآخر أن هناك صديقا له يحبّه ويريد أن يكون معه في ساعة العسرة. وقد يكون هناك صديقان مخلصان يساعد أحدهما الآخر عند المصائب دائما، ولكن مع ذلك لا يعرف أحدهما مدى مشاعر الآخر كل العرفان، فأحدهما يستيقظ بالليل ويدعو الله تعالى للآخر باكيا مبتهلا، بينما لا يعرف صديقه أنه ظل يدعو له الله تعالى ساجدًا طارقًا باب رحمة الله من أجله، في حين كان الناس ينامون في هذه الليلة المظلمة.

فثبت أن كثيرا من أعمال الخير والشر تظل خافية عن أعين الناس، لكن الله تعالى يقول ليس الأمر هكذا بالنسبة لنا، بل إننا نعلم كل ذرة من الخير وكل ذرة من الشر، فلا يضيع عندنا شيء ولا يخفى عنا شيء، مهما كان بسيطا وضئيلا. فلا تظنوا أن أعمال الخير أو الشر تخفى علينا كما تخفى على الناس، كلا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. كثيرًا ما تغيب عن الناس جبالٌ من خيركم وجبالٌ من شركم، ولكن لا يخفى على الله تعالى من أعمالكم شيء. تقع في الدنيا أحداث كثيرة دون أن يطّلع عليها أهلها، فبعض الناس يقتلون الآخرين بتسميم طعامهم، ولا يعرفهم الناس ولو بحثوا كثيرا. فهناك كثير من القتلة الذين لا يُعثر على أي أثر لهم، ولا يعرف الناس أين غابوا. فأحيانًا يقتل الرجل أحد المارة في البرية أو الغابة من دون أن يعرف الآخرون. وقد يقتل المرء شخصًا ثم يصبح صديقا لابن المقتول ويأكل ويشرب معه في إناء واحد حتى يفديه ابنُ المقتول لأنه لا يعلم أن هذا قاتل أبيه. فكل يوم نسمع أن شخصًا ألقى على الآخر جبلاً من شرّه ثم اختفى دون أن يعرف المظلوم من الظالم.

فحيث إن كثيرا من أعمال الخير وأعمال الشر لا تظهر للعيان في الدنيا، فكان لزاما أن يكون هناك مَن يعلم كل عمل للإنسان، مهما صَغُر، ويجزيه عليه، لكي لا يقول صاحب الخير إن كذا وكذا من خيره قد ضاع، ولكي لا يغترّ صاحب الشرّ بأنه قد ارتكب كذا وكذا من الشر ولكنه لم يذُقْ وباله. لا شك أن كثيرا من أعمال الخير وأعمال الشر تظهر في العالم، خاصة العظيمة منها، فإنها لا تخفى عادة بل يطلع عليها الناس حتمًا، ولكن هناك آلاف الحسنات وآلاف السيئات التي تظل في الخفاء. فمثلاً إذا تولدتْ في قلبك فكرة الخير فهي في حد ذاتها عملُ خير، وإذا تولدت في قلبك فكرة شريرة فهي عملُ شر، ولكن من ذا الذي يشق قلبك حتى يرى ما تولد فيه من خير أو شر. ولكن ما دام هناك الإله الحي العليم الخبير فلا يمكن أن يخاف أحد بأن خيره سيبقى خفيًا، أو أن شره سيبقى في الخفاء. ذلك أن الله تعالى يراقب الإنسان كل حين، ولا يدَعُ عمله يضيع مهما كان ضئيلا.

ثم لو نظرنا إلى أعمال الإنسان لوجدنا أن معظمها لا تكون كبيرة، بل تكون صغيرة. فقليل هم الذين يوفَّقون للعمل الكبير، أما الآخرون فيقضون أعمارهم كلها بدون أن ينجزوا أي عمل كبير، فلا يطلع الناس على أحوالهم. إنهم يعيشون بعيدا عن أعين الناس مستورين، ويموتون مستورين. مَثَلهم كمثل الأعشاب الصغيرة

التي تنبت على قمم الجبال الشاهقة، وتموت هناك من دون أن ينتفع منها أحد أو يتوجه إليها أحد. فلولا أن هناك إلهًا مطّلعًا على أسرار قلوب الناس، لا تخفى عليه خافية من أعمالهم مهما صغرت، ويجزيهم عليها حتمًا، لمات الذين يقضون أعمارهم من دون أن ينجزوا عملا عظيما وهم أحياء. هذه هي الحكمة في أن الإسلام بشَّر الإنسانية أن هناك إلهًا لهذا الكون، يرى كل أعمال الإنسان مهما صغرت، فإذا عمل خيرًا عِلمه، وإذا عمل شرًا عِلمه أيضا، فلا تظنوا أن أعمالكم تضيع ولن تظهر لها نتيجة. إذا كانت أعمالكم خفية عن أعين الناس فلا تحزنوا، لأن في السماء إلهًا حيًّا مطّلعًا على أصغر أعمالكم كأكبر أعمالكم، ويجزيكم على حسناتكم كلها.

إذن، فهذه الآية تقلب الحياة الإنسانية رأسًا على عقب، وتغمر القلوب بالطموح والحماس والصحوة مجدَّدا. فلولا هذه الآية لظن معظم الناس أن لا وارث لهم، إذ لا يكون خيرهم عظيمًا ولا شرهم كبيرا. لو بحثت عن القَتلة بين سكان المعمورة البالغ عددهم مليارًا لم تجد بينهم أكثر من مئة ألف أو مئتي ألف قاتل، ولرأيت أن الناس لا يعرفون مِن أهل الشر إلا القليل، مع أن الشر يصدر من مئات الآلاف من الناس بالإضافة إلى القَتلة وقطاع الطرق واللصوص المعروفين، وليس ذلك إلا لأن شرهم يظلّ خفيا عن الآخرين. إن القاتل المعروف يقتل شخصا أو شخصين في حياته، ولكن هناك شخص آخر يظهر منه الشر دائما، فإنه إذا رأى أحدا في لباس جميل احترق قلبه حسدا، وإذا رأى أحدًا يأكل طعاما لذيذا تمنى أن يغصّه، وإذا رأى أحدا في راحة ورخاء احترق كمدًا وقال لماذا لا يموت هذا الشقي، ولماذا لا يمرض ويعاني؟ فكل يوم يظهر منه شر، ولكن لا تطّلع الدنيا على شره، فيقضي عمره كله في هذه الحالة. وعلى النقيض كم من شخص لا يملك الملايين لينشئ جامعة كجامعة أكسفورد مثلا، أو أي معهد علمي، بل لا يملك بضعة قروش لينفقها في سبيل الله، ولكنه لا يزال يدعو في قلبه كل يوم: رب ارحمْ الدنيا ونَجِّها من البلايا، ربّ نجّ الناس من الكروب والآلام، وافتح عليهم باب فضلك. فلا يزال أمثال هؤلاء يرددون هذه الأدعية في حياتهم، ثم يغادرون الدنيا

مرددين إياها من دون أن يعرف أحد ما صدر منهم من خير كثير. فلولا أن حساب الناس بيد الله تعالى لماتوا كلهم دون جزاء كما تموت الأعشاب في قمم الجبال بعد أن ترى الربيع بضعة أيام، ولضاعت أعمال خيرهم وأعمال شرهم أيضا، فلم تنفعهم حسناتهم و لم يذوقوا وبال شرورهم، ولظن الصالحون ألا وارث لهم، ولازداد الأشرار تمردًا وطغيانا ظانين أن لا يقدر عليهم أحد، فلهم أن يفعلوا ما شاءوا. لكن الله تعالى يعلن هنا أنكم على خطأ إذا كنتم تفكرون هكذا، كلا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. فهناك إلهٌ خالق للعالم كله، ولا تخفى عليه ذرة من خير يعمله أحد. فأيها الإنسان الضعيف المريض، وأيها الأعرج الكسيح، وأيها الفقير المسكين، لا تحزن، لأن في السماء ربًّا يراك، فلا يخفى عليه عمل من أعمالك. يا أيها الإنسان الضعيف العديم الحيلة الذي لا يقدر على مساعدة أحد، ويا أيها الإنسان الأعرج الكسيح الذي لا يقدر على الصلاة واقفًا، ويا أيها المريض النحيف الذي لا يقدر على المشي حتى يقوم بخدمة الدين.. إن قلبك يحزن بأن الآخرين قد ذهبوا بالخيرات، وبقيت محروما منها، ولكن لا تحزنْ، لأن كل خير يصدر منك مهما صغر وكل فكرة خير تتولد في قلبك مهما ضؤلت، يساوي عند الله تعالى أكبر أعمال الخير التي يقوم بها الآخرون. لا شك أنك حين تُنفق قرشًا أو قرشين لخدمة الدين يضحك عليك الناس بحقارة، وعندما تُقدِّم كسرة من الخبز في سبيلنا يقول الناس مستهزئين: ما فائدة هذه الكسرة؟ ولكن لا تحزن، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، فمهما كان عملك ضئيلاً حقيرًا، ومهما كانت جهودك بسيطة، ومهما كنتَ عديمَ الحيلة، ومهما اعتبرت الدنيا أعمالَك حقيرة، ومهما قصّرت الدنيا في تقدير خيرك، إلا أن الله يرى ما عملْتَ من خير، وسيريك نتائج أعمالك يوما ما.

ومن ناحية أخرى إن هذه الآيات تحذِّر صاحب الشر وتقول له: أيها الإنسان الشرير، تعمل الشر في الخفاء، فلا تُعَدّ من السارقين ولا اللصوص، كما لا تراك الدنيا حين تعمل الشر، لكننا نراك وسوف نذيقك وبال أمرك في يوم من الأيام.

باختصار، إن هذه الآيات تقدّم مبدأ عظيما لجزاء الخير والشر لو استوعبه الإنسان حق الاستيعاب لتولد في قلبه الحماس الصحيح لفعل الخير وتجنُّبِ الشرّ.

يقول البعض في: هذا يعني أنه ليس هناك جنة ولا جهنم. فما دام الإنسان سيرى جزاء شروره كلها حتمًا، فما معنى التوبة والغفران؟ وإذا كان سيُجزى على كل خير من خيراته فكيف يُلقى الناس في النار؟ فكأن هاتين الآيتين هما بمثابة سيف ذي حدين، أحدهما يلغي الجنة والآخر يلغي النار، فقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ينفي وجود النار، وقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ينفي وجود الجنة.

والجواب لا شك أن أي عمل يعمله الإنسان لا يضيع أبدًا، ولكن مما لا شك فيه أيضا أنه كما يتحاسب الناس فيما بينهم بالأخذ والطرح، كذلك يتم الحساب عند الله تعالى. لنفترضْ أن بكرًا أخذ من زيد ألف روبية، ولكنه قد سبق أن أعطى زيدًا ألفي روبية، ومن الواضح أنه عندما يتم الحساب بينهما فإن زيدًا سيدفع لبكر ألف روبية أخرى وينتهي الحساب. فهل يمكن أن يقال في هذه الحالة أن ألف روبية لزيد قد ضاعت؟ كلا، بل إنها نفعته، إذ طُرحتْ من ألفي روبية كان عليه أن يدفعها لبكر. وهذا هو حال الحساب فيما يتعلق بالحسنات والسيئات. قال الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(هود:١١٥).. أي أقم الصلاة في الصباح والمساء وكذلك على طرفَي الليل، بمعنى عليكم أن تعبدوا الله تعالى عند كل تغير وانقلاب، فإذا أقبل النهار اعبدوه، وإذا أدبر فاعبدوه، وإذا أقبل الليل فاعبدوه، وإذا أدبر فاعبدوه. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.. أي أن كل تغيُّر يترك تأثيرا، خيرًا أو شرًّا، فإذا عبدتم الله عند كل تغيّر وأَنَبْتُم إليه انتفعتم، لأنه إذا كان تغيُّرَ شرٍّ نجوتم من الشر بعبادتكم، وإذا كان تغيّرَ خيرٍ ازددتم بعبادتكم خيرًا، وانتفعتم في الحالتين. عندما يقبل النهار فإما أنه يأتيكم بخير أو بشرّ، وكذلك إذا أدبر النهار فإما أنه يُخلِف لكم خيرا أو شرا، وكذلك حالُ إقبال الليل وإدباره، فلو عبدتم الله تعالى عند كل هذه التغيرات، سوف يزول ما فيها من شرّ ببركة صلواتكم وعباداتكم

وابتهالاتكم، لأنّ من سنة الله أن الحسنات يذهبن السيئات وأن الخير يزيل الشر. باختصار، يأمرنا الله تعالى أنه إذا ظهر منكم شر أو كان هناك خطر لظهور شر ضدكم، فافعلوا الخير فورًا، ليزول عنكم الشر ولا تروا عاقبته الوخيمة.

ثم يقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.. أي هذه وَصْفَةٌ قد وصفناها لكم، فإذا أردتم تقوية أنفسكم دائمًا، فاعبدوا الله عند إقبال الليل والنهار وإدبارهما، فيزول الشرّ الذي يأتي به هذا التغير، أو تزدادوا خيرًا بسبب ما يكون في هذا التغير من خير.

وقال الله تعالى أيضا: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(القارعة:٧-١٢). علمًا أن القرآن الكريم يرى أن الوزن يكون للخير لا للسيئة، وقد وقع الناس في أخطاء كبيرة لعدم فهم هذه القضية، فقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: أما من زادت حسناته على سيئاته، وأزالت حسناتُه سيئاته، فهو في عيشة راضية، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾.. أي أن الذي قلّت موازينه، أي لم يبق له حسنات، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.. أي أنه يُلقى في الجحيم.

وقال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُون﴾(الأعراف: ٩-١٠).

فالتدبر في هذه الآيات يكشف بطلان الاعتراض القائل بأنه ما دام كل إنسان سيرى جزاء كل سيئاته، فما معنى التوبة والغفران؟ وأنه ما دام كل إنسان سيرى جزاء كل حسناته، فما معنى دخوله في النار؟ الواقع أن الإنسان سيرى يوم القيامة كل خير عمِلَه، وكذلك كل شر فعله، وستتم المقارنة بين خيره وشره، فإذا زاد خيره قضى على شره، وإذا زاد شره قضى على خيره، وطُرِح ما قيمته أقلُّ مما قيمتُه أكبر. وأضربُ لتوضيح الأمر مثالاً. هناك شخص عَمِلَ عشرةَ آلاف خيرٍ وألفَ شر، وشخصٌ آخرُ عَمِلَ عشرةَ آلافِ خيرٍ وخمسمائةِ شرٍ، وثالثٌ عَمِلَ عشرةَ آلاف خيرٍ ومئتَي شرٍ، ورابعٌ عَمِلَ عشرةَ آلاف خير و لم يعمل أيَّ شر. فلا بد أن

يكون الشخص الرابع في المقام الأول، والثالثُ في المقام الثاني، ثم الثاني في المقام الثالث، والأول في المقام الرابع. لا شك أن هؤلاء جميعًا سيدخلون الجنة، لكن لا يمكن إنكار أن كلا منهم قد رأى شرّه، لأن الذي عمل ألفَ سيئة لم يبلغ درجةَ مَن عمل خمسمائة سيئة، وأن مَن عمل خمسمائة سيئة لم يبلغ درجة من عمل مئتي سيئة. ومن عمل مئتي سيئة لم يبلغ درجة من لم يعمل أي سيئة. لا شك أن هناك سببًا وراء بلوغ محمد ﷺ مقامه الأعظم ووصولِ أبي بكر مقامه الذي وصله، ونيلِ عمر مقامه الذي ناله، وبلوغِ عامة المؤمنين المقام المقدَّر لهم. إنما السبب أن محمدا ﷺ لم يعمل أي شرّ أو سوء، فبلغ منتهى الدرجات، أما أبو بكر فحصلت منه بعض التقصيرات، فلم يبلغ المقام الذي بلغه محمد ﷺ، فكأن أبا بكر رأى شرّه، ثم إن عمر لم يبلغ مقام أبي بكر، وهكذا فكأنما عمر رأى شرًّا عَمِلَه. وكذلك كل مؤمن يدخل الجنة لن يكون بمقام أبي بكر أو بمقام عمر، وهكذا سيرى شرًا فعله، إذ يُنقَص من أعمال خيره بقدر الشر الذي عَمِلَه. وهذا هو مفهوم رؤية كل إنسان شرًّا عَمِلَه.

يضحك المسيحيون علينا قائلين: يبدو أن إله الإسلام قد فتَح دفترًا للحساب؟

الواقع أن الأمن مستحيل بدون ذلك. فلو سألنا النصارى: هل يكون جميع المؤمنين على المقام الذي يكون فيه المسيح عليه السلام يوم القيامة؟ فلا بد أن يقولوا: كلا، سوف يبوئ الله تعالى المسيحَ درجةً تفوق درجة المؤمنين كثيرًا. فما دام النصارى يعتقدون بذلك فكيف يعترضون على الإسلام ويقولون يبدو أن إله الإسلام قد فتح دفترًا للحساب؟

وكذلك قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(الأنعام:١٦١). هذه الآية قد دفعت المخاوف التي يمكن أن يشعر بها المؤمن بقراءة قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.. بأنه ما دام سيرى جزاء كل سيئة ارتكبها فكيف يُغفر له؟ فقد بيّن الله تعالى هنا أن قانوننا بصدد الأعمال هو أن الحسنة تزداد دائمًا ويُجزى صاحبُها عشرةَ أضعافها، أما السيئة فلا يمكن أن تزداد إلى عشرة أضعاف أو عشرين ضعفًا،

بل لن يجزى عليها إلا مثلها، فإذا كنتم تخافون من رؤية شر ارتكبتموه، فالعلاج أن تبذروا بذرة الخير، ولسوف تنمو وتزدهر حتى يصبح كل خير عشرة أضعافه، أما بذرة الشر فلن تنمو أبدًا، وهكذا تزداد حسناتكم وتتسبّب في غفران ذنوبكم بفضل الله تعالى.

يتضح من القرآن الكريم أن مثل الخير والشر كمثل بذرة صالحة وبذرة رديئة (الأعراف:٥٩). ومعلوم أن البذرة الصالحة هي التي تنبت وتنمو وتصبح مئات البذر، أما الفاسدة فلن تنمو ولن تنبت منها بذور أخرى، بل ستظلّ محدودة في ذاتها. فمثلاً إذا غرست نواة رديئة من المانجو فلن تنبت أي مانجو، لكن إذا غرستَ نواة صالحة من المانجو فسوف تنبت وتؤتي ثمرًا جيدا كثيرًا. هذا هو حال الحسنة والسيئة، فالحسنة تنمو وتزدهر وتكثر، أما السيئة فتظل محدودة في ذاتها، فإذا أردتم ألا تحول سيئاتكم دون نجاتكم، فعليكم أن تُكثروا من الحسنات.

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الشورى:٢٦).

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣١). فمن سنة الله تعالى أنه يغض الطرف عن معظم السيئات.

بهذه الآيات قد بطل الاعتراض القائل أنه إذا كان الإنسان سيجزى على كل خير وعلى كل شرّ، فما معنى الجنة والجحيم؟ ما دمنا سنرى جزاء كل خير، فقد انتفت الجحيم، وإذا كنا سنرى جزاء كل سيئة فقد انتفت الجنة. فالله تعالى قد بين هنا أن الجنة والجحيم ستبقيان في مكانهما رغم أن الإنسان سيجزى على كل خير وكل شر، فمن كثرت سيئاته أُلقي في النار، ومن كثرت حسناته أُدخل الجنة. بتعبير آخر: مَن أكلتْ كثرةُ سيئاته حسناتِه دخل النار، ومن أكلتْ كثرةُ حسناته سيئاتِه دخل الجنة. إذًا فستبقى الجنة والجحيم في مكانهما.

كذلك ورد في الحديث عن أنس قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يأكل مع النبي ﷺ، فنـــزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ﴾، فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله، إني أُجزَى بما عملتُ من مثقال ذرة مِن شرّ؟ فقال: "يا أبا بَكر، ما رأيْتَ في الدنْيا ممَّا تكرَهُ فمثَاقيلُ ذَرِّ الشَّرِّ، وَيَدَّخِرُ لَكَ اللهُ مثَاقِيلَ الخيرِ حتى توَفَّاه يَوْمَ الْقِيامَةِ". (تفسير الطبري)

وليكن معلومًا أن هذا الأمر ليس للجميع بل هو خاص بأبي بكر وأمثاله، إذ كانت سيئاته ستنتهي في هذه الدنيا، ولذلك قال له النبي ﷺ: لا تحزن، إذ ليست سيئاتك إلا ما يُكفَّر بالحمّى وضياع مال أو أي أذًى آخر في الدنيا، ولن يكون من أعمالك يوم القيامة إلا خيرا.

وكذلك نقل ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: أُنزلتْ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصدّيق قاعد، فبكى حين أُنزلتْ، فقال له رسول الله ﷺ: "ما يُبْكِيكَ يا أبا بَكْرٍ؟" قال: يُبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: "لَوْلا أَنَّكُمْ تُخْطِئونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، لَخَلَقَ اللهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ". (تفسير الطبري).. أي لا تحزن يا أبا بكر، لا شك أن المؤمن سيرى شرّه، ولكن ليس المراد من رؤيته شرّه سوى توبته عن سيئاته، لأن الإنسان إنما يتوب عندما يشعر بندامة شديدة في قلبه على ما سلف منه من ذنوب، فيشعر أنه قد ارتكب أخطاء كبيرة في حياته، فلا بد له من تلافيها. فلأن التوبة تجرح قلبه، وتولد فيه ندمًا شديدا على سيئاته، فتكون بمنـــزلة رؤيته لشرّه، فلو لم يرتكب شًّرا لم يتأذَّ قلبه على هذا النحو.

الواقع أن الله تعالى قد خلق الإنسان مزوَّدا بالقدرة على فعل الخير والشرّ، فلولا ذلك لما ظهرتْ بعض صفاته ﷻ في الدنيا. فلأن الناس مخيَّرون فتقع منهم السيئات والحسنات، وبالتالي تتجلى كثير من صفات الله التي تتعلق بالخلق الإنساني كالغفّار والستّار والرزّاق والمميت والمحيي، لذلك قال رسول الله ﷺ: إذا لم تُذنبوا وتتوبوا فيغفر الله لكم لخَلَقَ الله أُمّةً يخطئون ويذنبون فيغفر لهم". هذا لا يعني أن الله يحبّ السيئة، بل المراد ما قلته آنفًا بأن هذا المخلوق المزود بالقدرة على فعل الخير والشر يتسبب في تجلّي الكثير من صفات الله التي ما كانت لتتجلى لولا هذا المخلوق ذو القدرة.. الإنسان. كون الإنسان ذا قدرة يحتم أن يرتكب بعض السيئات، إذ كيف

يمكن أن يكون ذا قدرة وخيار ثم لا يعمل إلا الخير؟ إن كون الإنسان ذا قدرة نفسَه دليل على أنه ستصدر منه سيئات أيضا، وبالتالي فمن أراد التوبة وجد بابها مفتوحا، فإذا ندم قلبه احترق في نار الندامة وَصَفا، وهكذا تُغفر له خطاياه وتتجلى صفات الله أيضا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: "لما أُنزلتْ هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قلت : يا رسول الله، إني لراءٍ عملي؟ قال: نعم. قلتُ: تلك الكبار الكبار؟ قال: نعم. قلت: الصغار الصغار. قال: نعم. قلت: واثكلَ أُمّي! قال: أَبْشِرْ يا أبا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها، يعني إلى سبعمائة ضعف، واللهُ يضاعف لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يعفو الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله. قلت: ولا أنتَ يا نبي الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بالرحمة. (الدر المنثور)

والمراد من قوله ﷺ: "أبشِرْ يا أبا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها، يعني إلى سبعمائة ضعف" أنه لا داعي للقلق بسبب هذه الآية، لأنها تبين السنّةَ الإلهية فيما يتعلق بجزاء الحسنات والسيئات. على الكافر أن يصاب بالقلق، أما المؤمن فلا داعي لقلقه، لأن الله تعالى يعلن أنه سيجزيه بكل حسنة عشرةَ أمثالها حتى سبعمائة ضعف بل أكثر.

والحق أننا لو تدبرنا لوجدنا الأمر كما قال الشاعر "غالب":

جان دی، دی ہوئی اُسی کی تھی

حق تو یہ ہے کہ حق ادا نہ ہوا

أي لقد ضحيتُ في سبيل الله بنفسي التي هي عطية منه ﷻ، فالحق أنني لم أؤدّ الحق.

الواقع أن النبي إذا كان يعمل الصالحات فإنما يعملها بما أعطاه الله من قوى وكفاءات. فلو نظرنا إلى الأمر من منظور منطقي مجرد لوجدنا أن النبي ليس في يده إلا فضل الله تعالى، لأنه إذا كان صلى أو صام أو حج أو تصدّق وغيرها من

الصالحات فإنما فعل ذلك بما آتاه الله من قوة وتوفيق، فثبت أنه لن ينجو النبي أيضا إلا بفضل الله تعالى. لا شك أن الإنسان يكون صالحا أو سيئا من حيث العمل، لكن من المنظور المنطقي لا يستحق أحد -مهما كان كبيرا- النجاةَ بناء على أعماله فقط، لأن ما فعله إنما فعله بما زوده الله من قدرة أو كفاءة. والواقع أن الرسول ﷺ قد تحدث في هذا الحديث من منظور منطقي خالص وليس من منظور عملي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ.... شرا يره﴾، وذلك لما نزلتْ هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّه مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشيء القليل الذي أَعطوه، فيجيء المسكينُ إلى أبوابهم فيستقِلُّون أن يعطوه التمرة والكسرة والجَوْزة ونحو ذلك، فيردّونه ويقولون: ما هذا بشيء، إنما نُؤجَر على ما نعطي ونحن نحبّه، وكان آخرون يَرَون أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعَد الله النارَ على الكبائر. فرَغَّبَهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثُرَ، وحذَّرهم اليسيرَ من الشر، فإنه يوشك أن يكثُرَ، فنـــزلتْ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، يعني: وَزْنَ أصغرِ النمل، ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ يعني: في كتابه، ويَسُرُّه ذلك. قال: يُكتَب لكلِّ برٍّ وفاجرٍ بكل سيئةٍ سيئةٌ واحدة وبكل حسنةٍ عشرُ حسناتٍ، فإذا كان يوم القيامة ضاعفَ الله حسناتِ المؤمنين أيضًا، بكل واحدة عشر، ويمحو عنه بكل حسنةٍ عشرَ سيئاتٍ، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقالَ ذرة، دَخَلَ الجنة. (ابن كثير)

إن ما ورد هنا بأن هذه الآية نزلت بمناسبة كذا، فقد بيّنت مرارا أن ما تذكره الروايات بشأن نـــزول آية من الآيات فإنما يعني فقط أنها يمكن أن تنطبق على ذلك الحدث أيضًا، ولا يعني أنه لولا ذلك الحدث لما نزلت تلك الآية.

أما قوله: "وذلك لما نزلتْ هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشيء القليل الذي أعطوه".. فأودّ أن أبيّن بالمناسبة معاني قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ

مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. فقوله تعالى ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ يمكن أن يعني: على حب الطعام، أو على حب إطعام الطعام، أو على حب الله تعالى.

فالمعنى الأول: إن المؤمنين يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا عَلَى حُبِّ الطعام.. أي أنهم يطعمونهم رغم حبهم للمال أو الطعام. أي أنهم يكونون بحاجة إلى الطعام ومع ذلك يؤثرون على أنفسهم الفقراء وذوي الحاجة.

والمعنى الثاني: أنهم يطعمونهم على حب إطعام الطعام.. أي أنهم يحبون إخراج الصدقات حبًا شديدًا حتى إنهم لا يشعرون بالراحة ما لم يطعموا الآخرين من ذوي الحاجة.

والمعنى الثالث: أنهم يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الله تعالى.. أي أنهم يُطْعِمُونَهم الطَّعَامَ ابتغاءَ حُبّ الله ومرضاته فقط. لا يطعمونهم طمعًا في ثناء الناس أو جلبًا لمنفعة ممن أطعموهم، أو رجاء ثواب من الله تعالى، إنما يريدون به وجه الله فقط.

الحق أن هذه الآية تبين ثلاث درجات من الصدقة:

الأولى: أن يتصدق الإنسان وهو بحاجة إلى ما يتصدق به. والدرجة التي فوقها: أن يصبح مولعًا بالصدقات بحيث لا يجد راحة وسكينة ما لم يتصدق. والدرجة التي فوقها هي ألا يعمل ذلك رغبة في أي جزاء، بل يعمله شكرًا على منن الله وأفضاله.

والصحابة قد فسروا قوله تعالى ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: على حب الطعام.. بمعنى أن يتصدق المرء بما يحبه ويحتاج إليه أيضا.

أما ما ورد في الرواية: "فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلّون أن يعطوه التمرة والكسرة والجَوْزة ونحو ذلك، فيردونه" فمعنى ذلك أنهم لم يكن عندهم مال كثير حتى يتصدقوا به، كما أنهم كانوا يرون أنهم إذا أعطوا شيئا قليلا فلن يُجزَوا عليه مثل تمرة وكسرة خبز وحبة جَوْز، لذا فكانوا يردون السائل من دون أن يعطوه شيئا.

والمراد من قوله "والنظرة".. أي كانوا لا يرون بأسًا إذا نظروا إلى امرأة لا يجوز لهم النظر إليها.

وأما عبارة "فرغَّبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثر"، فمعناه أن النبي ﷺ قال لهم عليكم أن تفعلوا الخير مهما صغُر، لأن من سنة الله

تعالى أن الخير يزداد، فإذا بذرتم بذرة الخير -مهما كان حقيرا وضئيلا- فإن الله سينمّيه ويجزيكم عليه يوم القيامة جزاءً يذهلكم، فلا تفوّتوا عليكم فرصة فعل الخير مهما صغُر.

وفيما يتعلق بمفهوم الآية المذكورة في هذه الرواية فأنا أتفق معه، ولكن فيما قيل عن الصحابة فلا أتفق معه، بل أرى فيه إساءة كبيرة للصحابة، لأن ذلك يعني أنهم كانوا يطعمون الفقير إذا قيل لهم إن لهم الجنة على إنفاقهم، أما إذا قيل لهم أن لا جنة لهم فكانوا لا يطعمون الفقير. فهذه الفكرة لا يمكن قبولها بحق الصحابة لحظة واحدة نظرًا إلى سيرهم وأحوالهم. لقد آمنوا بالرسول ﷺ، فتغيّرت حالتهم رأسًا على عقب، فالقول أنهم كانوا لا يعطون الكسرة للمسكين إذا جاء بابهم، وكانوا يردّونه ظنًا منهم أن هذا العمل ليس فيه ثواب، قولٌ لا أساس له البتة. يبدو أن الراوي ظن أن الصحابة كانوا يفكرون هكذا، مع أنهم بريئون من هذه التهمة. لا شك أنهم أرفع من هذا. فإننا نرى أن كثيرا من الدهريين- المنكرين لوجود الباري تعالى، والكافرين بجزاء الحسنات، والغارقين في مشاغل الدنيا ليل نهار، والضاحكين على ذكر الآخرة- إذا جاءهم فقير أنفقوا عليه آلافًا من دون أي تفكير في أي جزاء لعملهم هذا. فما دام هؤلاء المحرومون من الإيمان كلية لا يفكرون في جزاء عند إطعام مسكين، فكيف يتصور أن الصحابة كانوا يقبضون أيديهم عن الصدقات، ظانين أن الخير القليل لا أجر عليه، فلماذا يقومون به؟

فالحق أن هذا الرأي عن الصحابة باطل حتمًا. بيد أن مفهوم الآية المذكور هنا صحيح، حيث قيل: إن مَن يعمل مثقال ذرة.. أيْ وزنَ أصغرِ النمل خيرًا يَرَه في كتابه ويسُرّه ذلك، لأن الله تعالى يجزيه بحسب حسناته ويورثه أفضاله.

أما ما قيل بعد ذلك: "يُكتب لكل برٍّ وفاجر بكل سيئة سيئةٌ واحدة، وبكل حسنة عشرُ حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسناتِ المؤمنين أيضًا، بكل واحدة عشر" فيماثله المثل الفارسي:

دَهْ در دنيا ستر در آخرت

أي عشرة في الدنيا وسبعون في الآخرة.

ولكن نظرًا إلى مفهوم هذا الحديث يجب أن نعدّل هذا المثل قليلاً كالآتي:

دَهْ در دنيا سو در آخرت

أي عشرة في الدنيا ومائة في الآخرة.

ثم ورد في الرواية: "ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات". وهذا يعني أنه يُعطى الجزاء بطريقين: فمِن ناحية تضاعف حسنة له إلى عشر ثم إلى مائة حسنة، ومن ناحية أخرى تمحى عشر من سيئاته مقابل حسنة واحدة له.

الواقع أن حب الله هو الأصل، وهذا الجزاء الذي تذكره الشريعة هنا إنما هو للذي يكون قلبه عامرا بحب الله وعشقه، وليس للذي قسا قلبه وليس فيه ذرة من حب الله، والذي إذا عمل خيرا أو تجنب شرا فإنما فعل ذلك صدفةً، وليس حبًا لله أو تجنبًا لسخطه، فمثل هذا الإنسان لا يستحق أي إنعام من الله تعالى، إنما هذا الإنعام لمن يفيض قلبه حبًّا لله تعالى، والذي يجد في قلبه لوعة حب الله رغم كل ما فيه من تقصيرات. ولا جرم أن القلب العامر بحب الله تعالى لن يُلقى في الجحيم أبدا، بل سوف يدبر الله له النجاة بشتى الوسائل والطرق والحسابات، ولذلك ورد في آخر هذه الرواية: "فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة". وليس مفهوم ذلك إلا أن الله تعالى يعلم حالة المؤمن الصادق فيتخذ كل تدبير لإنقاذه من النار، شأن الأم التي تستنفد كل وسيلة لإنقاذ ابنها من الأذى. نجد في الحب الذي كان يكنّه الرسول ﷺ لصحابته، والعشق الذي كان في قلوب صحابته له ﷺ، أمثلةً تؤكد كيف أن المحب الصادق يحاول إنقاذ حبيبه بأي طريق ممكن. ورد في الحديث أن شخصًا جاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، قد اقترفتُ ذنبًا كذا، فماذا أفعل الآن؟ فقال ﷺ: أَعْتِقْ رقبةً. قال: لا أقدر على ذلك. قال ﷺ: فصُمْ شهرين متتاليين. قال: لا أقدر. قال: أَطْعِمْ ستين مسكينا؟ قال: مِن أين أطعمهم وليس عندي ما آكله أنا. فجاء شخص بسلة تمر، فقدّمه للنبي ﷺ، فقال ﷺ لهذا السائل: خُذْ هذا التمر وأَطْعِمْه المساكين يكُنْ كفّارةً عن ذنبك. فحمَل سلّة التمر

وقال يا رسول الله، هناك أمر آخر. فقال: ماذا؟ ليس في المدينة مَن هو أشدُّ فقرًا مني، فمِن أين أجد فقيرا مسكينا. فضحك النبي ﷺ وقال: حسنًا، خُذْها وكُلْها يكنْ كفارةً عن ذنبك. (البخاري: كتاب الصوم)

فمَن كان يحب الله تعالى حبًا صادقا وسعى حق السعي لتكون عاقبته الحسنى وليدخل في زمرة عباد الله المنعم عليهم، فإنه إذا لم ينجح في سعيه ١٠٠%، فإن الله تعالى لن يضيع ما في قلبه من لوعة حبّه، بل سيعامله بما في قلبه من إيمان وإخلاص.. وينجيه بطريق ما ويقول لملائكته: خُذوا عبدي وأدخلوه جنّتي.

سورة العاديات

مكية وهي اثنتا عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

إنها سورة مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومَدَنيةٌ في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة. (فتح البيان)

وعبد الله بن مسعود هو من الصحابة السابقين الأولين في الإيمان في مكة، فلا بد من ترجيح قوله على الأقوال الأخرى لكونه شاهد عيان؛ إذ سمع هذه السورة في مكة. أما ابن عباس الذي لم يبلغ سن الرشد إلا في المدينة -إذ كان سنّه في مكة سنتين أو ثلاثًا فقط- فليس المراد من قوله إنها مَدَنية إلا أنه قد سمعها في المدِينة، لا أنها نزلتْ في المدينة، إذ يمكن أن يسمَع الناس في المدينة ما نزل في مكة. وهذا هو المراد من قول أنس أيضًا إذ كان أنصاريًا من المدينة.

والمستشرقون -لا سيما القسيس "ريفرند ويري"- قد اعترفوا بنـــزول هذه السورة في مكة (تفسير القرآن لـــ"ويري"). وأرى أنه قال ذلك لعدم انتباهه إلى أنه لو ثبت نزولها في مكة لأصبحت نبوءة عظيمة، وإلا لما اعتبرها مكية، إذ يشقّ عليه جدًّا وجودُ نبوءة عظيمة في القرآن الكريم. فلو انتقل ذهنه إلى هذا الأمر لقال حتمًا إنها مكية بحسب الروايات، غير أن أسلوبها يدل على أنها مدَنية، والروايات باطلة.

الترتيب والترابط:

اعلْم أن جميع السور السابقة كانت تتحدث عن بعثَتي الرسول ﷺ الأُولى والثانية، ولكن تغيرَ الأسلوب منذ السورتين الأخيرتين، فبدأت سورةٌ تتناول بعثةَ الرسول ﷺ الأُولى وسورةٌ أخرى تتناول بعثتَه الثانية، فسورة "البيّنة" تتحدث عن البعثة النبوية الأولى، وسورة "الزلزلة" تتحدث عن البعثة النبوية الثانية. وهذا الفرق

الموجود بين هاتين السورتين واللاتي قبلهما عجيب حقًا. والسبب وراءه أن السور السابقة كانت طويلة، فكانت كل واحدة منها تتناول زمن البعثتين، أما الآن فالسُور صارت قصارًا -لكي يحفظها الطفل وضعيف الذاكرة بسهولة ويتشرف بحفظ شيء من القرآن الكريم- ولذلك تحدثت السورة الأُولى منها عن زمنَ بعثته ﷺ الأولى والسورة الثانية تحدثت عن زمن بعثته الثانية. وبحسب هذا الترتيب الجديد تتحدث السورة قيد التفسير عن رقي الإسلام زمن البعثة النبوية الأولى، بينما تتحدث السورة التالية (القارعة) عن رقيه زمن البعثة النبوية الثانية، وسوف يستمر هذا الترتيب إلى بضع سور أخرى ثم يتغير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (٢)

شرح الكلمات:

العاديات: جمعُ العادية: عدا الرجلُ وغيرُه يَعْدو عَدْوًا وعَدَوانًا وتَعْداءً وَعَدًا: جرَى وأحضرَ. وَعَدا فلانًا عن الأمر: صرَفه وشغَله. وعدا عليه: وثب. وعدا الأمرَ وعن الأمر: جاوزه وتركه. وعَدِيَ يَعْدَى عَدًا له: أبغضَه (الأقرب).

ضَبْحًا: الضَّبْح نوع من العدو، حيث قال صاحب المفردات: "قد يقال ذلك للعَدْوِ، وقيل: الضَّبْحُ كالضَّبْع وهو مَدُّ الضَبْعِ في العَدْو."

وورد في أقرب الموارد: "ضبحت الخيل في عدْوها ضبحًا: أسمعت من أفواهها صوتًا ليس بصهيل ولا حمحمة... وقيل: الضَّبْحُ صوتُ أنفاسها."

وعليه فقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ يعني ما يلي:

الأول: نقدّم شهادةً تلك المطايا التي تعدو الضبْحَ.. أي عَدْوًا شديدا.

والثاني: نقدّم شهادةً تلك المطايا التي تمدّ حوافرها الأمامية وتقفز في عدوها، فيمتدّ ما بين رجلها وبطنها.

والثالث: نقدّم شهادةً تلك المطايا التي تَخرج أصواتٌ من صدورها عند العدو.

فكل هذه المعاني تشير إلى خيل تعدو بشدّة وقوّة. والواضح أن الحصان لا يعدو بنفسه، بل إن الفارس يعدو به، فالحق أن هذه الآية تتحدث عن فرسان يركضون بجيادهم ركضًا شديدا، أو أنهم يعْدُون بها حتى تخرج أصوات من صدورها غير مبالين بجيادهم، أو أنهم يتحمسون في جريهم حتى يجعلون خيلهم تقفز قفزات طويلة.

التفسير: إنني مسرور جدًا بشأن تفسير هذه السورة لأن الصحابة قد فسّروها بمفهوم يشكّل نبوءة عظيمة. هناك آيات قليلة جدًّا -لا يتجاوز عددها خمسًا أو سبعًا- فسّرها المفسرون القدامى بما يمثّل نبوءةً.

إن المفسرين القدامى عادة يطبقون آيات القرآن على يوم القيامة أو على أحداث الماضي، أما هذه الآية فقال بعض الصحابة ومنهم عليّ -رضوان الله عليهم- إنها تتحدث عن الحج، لكن ابن عباس يقول بكل إصرار إنها تتحدث عن الغزوات الإسلامية، إذ أخبر الله فيها عن الهجمات التي سيشنّها المسلمون ضد الكافرين. (فتح البيان)

الحق أن اتفاق القسيس "ويري" معنا في اعتبار هذه السورة مكية ليس بأمرٍ هيّن، وكما قلت، يبدو أنه اعتبرها مكية لأنه ظن أنها تتحدث عن الحج، أما لو أنه فطن إلى أنها تشير إلى الحروب التي كانت ستقع بين المسلمين والكفار وإلى الصولات التي يشنّها المسلمون على أهل مكة ممتطين جيادهم، لما اعتبرها مكيةً قط. فقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إنما هو إشارة إلى حماس فرسان تلك الجياد التي تعدو ضبحًا، إذ لا يركض الحصان ولا يقفز إلا بأمر الراكب. فأيًّا من المعاني الثلاثة للضبح أخذْنا فالآية تصف حالة الفرسان، ومعناها: أن قلوب المسلمين ستفيض حماسًا وشوقًا للجهاد، فيخرجون إلى أرض العدو طائرين على متون خيولهم راكضين إياها ركضًا شديدا، غير مبالين بمصيرها من شدة عدوها. إنهم لن يركضوا بخيولهم بشدة شوقًا للقاء عشيقة تنتظرهم، أو لأطعمة شهية قد أُعدّتْ

لهم، أو لمال يخافون أن يسرقه أحد، أو لأحباب يريدون لقاءهم، إنما يركضونها ليصلوا إلى العدو الذي يتعطش لدمائهم، ويسارعون إلى القتال ليضحّوا بأرواحهم في سبيل الله تعالى. فليس الخوف، بل الفرحة والطموح والشوق هو الذي يجعلهم يطيرون على جيادهم إلى ساحة القتال مسرورين.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إنما هو تعبير عن مشاعر المسلمين الراكبين متون خيولهم، وإن كان يشير إليها في الظاهر.

وهناك روايات مختلفة في بيان معنى هذه الآية، فعن عبد الله بن مسعود وعليّ أن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هي الإبل. وعن عبد الله بن عباس أنها الخيل، فقد ورد أنه كان جالسًا في الحطيم يعبد الله حين جاءه شخص فسأله: ما معنى ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقال: الخيل. فعلِم عليٌّ ﵁ بقوله، فقال: لم يكنْ عندنا أي خيل يوم بدر، إنما كانت الخيل عندنا أولَ مرة في سرية بعث بها الرسول ﷺ. (فتح البيان)

وقد نقل ابن جرير رواية أخرى عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحِجر جالس، أتاني رجل يسأل عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقلت له: الخيل حين تُغِيرُ في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويُورُون نارهم. فانفتلَ عني، فذهَب إلى علي بن أبي طالب ﵁.... فسأله عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقال: سألتَ عنها أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألتُ عنها ابن عباس، فقال لي: الخيل حين تُغِير في سبيل الله. قال: اذهبْ فادعُه لي. فلما وقفتُ على رأسه قال: تُفتي الناسَ بما لا علمَ لك به؟ والله لكانت أولَ غزوة في الإسلام لبدرٌ، وما كان معنا إلا فَرسانِ: فرس للزبير، وفرس للمقداد. فكيف تكون العاديات ضبحًا! إنما العاديات ضبحًا مِن عرفة إلى مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فنـــزعتُ عن قولي. (الطبري)

ورغم أن ابن جرير الطبري سجَّل هذه الرواية إلا أنه يقول أيضًا إن العاديات ليست إلا الخيل، وهذا هو رأي جميع تلاميذ عبد الله بن عباس وغيرهم من العلماء، منهم مجاهد وعكرمة وقتادة وعطاء والضحاك. وعن ابن عباس قال: ما ضَبَحتْ دابة قطّ إلا كلب أو فرس (الطبري). وقد سبق أن ذكرنا عند شرح معاني الكلمات أن الضَّبْح صوتٌ يصدر من صدور الخيل عند العدو الشديد.

فرغم أن الرواية المذكورة آنفا تقول إن ابن عباس رجع عن قوله، لكننا مضطرون للقول إن آخر موقف تمسكَ به ابن عباس هو أن ﴿العاديات ضبحًا﴾ هي الخيل، إذ كيف يمكن أن يتمسك تلاميذه بهذا المعنى طوال عمرهم رغم رجوعه عنه؟ فبعد شهادة اللغة وإصرار أئمة الأدب نحن مضطرون للقول إن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هي الخيل، وإن كانت تطلق على الإبل استعارة.

وأما ما قيل بأن تطبيق هذه الآية على الغزوات الإسلامية ليس صحيحًا إذ لم تكن في غزوة بدر عند المسلمين إلا فرسانِ، فهذا القول ليس صحيحا عندي. لا شك أنه لم يكن عندهم يوم بدر خيول كثيرة، لكنهم استعملوا الخيل بكثرة في الحروب اللاحقة، لذا ففيما يتعلق بغزوة بدر نفسر ﴿العاديات﴾ بمعنى الإبل على سبيل الاستعارة تمامًا كما اعتبرنا ﴿العاديات﴾ استعارة وقلنا إن المراد منها فرسانها الذين يَعْدون بها، لأن الجواد لا يجري بنفسه، بل راكبه يركض به فيجري. ذلك أن من أساليب العربية أنهم أحيانًا يذكرون الشيء الكبير ويعتبرون الشيء الصغير مندرجًا فيه تلقائيا، فمثلاً يُعتبر ذكر النساء متضمنًا في ذكر الرجال. فلأن الخيل هي التي تُستعمل عادةً للإغارة فذكرها الله تعالى هنا دون ذكر الإبل، لكن حيث إن الإبل أيضًا تُستخدم في الأعمال الحربية، فذِكْر الخيل يتضمن ذكر الإبل تلقائيا، ولذلك أقول: إذا قلنا إن العاديات أُطلقت استعارةً على الإبل في غزوة بدر فلا حرج في ذلك، إذ من الحقائق الثابتة أن الصحابة أخذوا يُكثِرون من تربية الخيل بمرور الأيام، حتى إن الرسول ﷺ اقتنى خيلاً كثيرة، حيث ورد في الحديث أنه كان عند النبي ﷺ في مختلف الأوقات حوالي عشرة من الخيل والحمير. (البداية والنهاية: ذكرُ أفراسه ومراكيبه ﷺ)

باختصار، يرى معظم الصحابة أن هذه الآية تتنبأ عن الغزوات التي كان على المسلمين أن يخوضوها ضد الكافرين. وهناك حديث يؤيد هذا المعنى بوضوح، إذ يروى عن صحابي في شأن نـــزول سورة العاديات أن النبي ﷺ بعث إلى بني كنانة سرية تحت قيادة المنذر بن عمرو الأنصاري الذي كان من الاثني عشر الذين بايعوا النبي ﷺ في مكة، والذين جعل ﷺ كل واحد منهم نقيبًا على قبيلته في المدينة

المنورة. وكان هؤلاء قد خرجوا على الخيول-كما تشير إليه الرواية المذكورة آنفًا والتي ورد فيها أنه حين بلغ عليًّا ﷺ قولُ ابن عباس عن ﴿العاديات﴾ بأنها الخيل، قال إنما بُعثَت الخيلُ أول مرة في سرية- فلم يصل إلى المدينة خبرُ هذه السرية لشهرٍ، فبدأ المنافقون يقولون إنهم قُتلوا جميعًا. لقد أشاعوا دعايتهم الباطلة هذه لكي تنهار هممُ المسلمين فلا يُقدِموا على هذه التضحيات مستقبلا. فأنزل الله هذه السورة التي رسمتْ حال هذه السرية، حيث أخبر الله رسوله أنهم بخير وأنهم أغاروا على العدو ونجحوا في حملتهم. وبالفعل رجعت السرية بعد أيام وأكدوا صحة ما أنبأ الله عنهم في هذه الآيات. (فتح البيان)

وهنا ينشأ سؤال: هذه السورة مكية، فلو سلّمنا بالرواية المذكورة أعلاه، فلا بد من اعتبار السورة مدنية لا مكية، إذ كيف تُعتبر مكيةً من جهة، ومن جهة أخرى ورد في شأن نزولها ما يؤكد أنها مَدَنية.

والجواب: لقد سبق أن بينتُ مرارًا أن من الحقائق الثابتة أن العلماء ذكروا أكثر من سبب لنزول الآية الواحدة. وقد قال الباحثون إنما المراد من سبب نزول آيةٍ ما أنها تنطبق على الحادث المذكور أيضا، وليس أن ذلك الحادث هو سبب نزولها. والأمر نفسه هنا، فحيث إن الخيل قد استُعملت في هذه السرية أول مرة أو بكثرة، فعندما سمع النبي ﷺ إشاعات المنافقين استدل بهذه السورة النازلة سلفًا في مكة بأنها ما دامت تتنبأ عن انتصار الفرسان المسلمين فلا بد أن تتحقق في حق هؤلاء الفرسان على الأقل لكونهم أول كتيبة إسلامية من الفرسان، فلا بد أن يرجعوا منتصرين بإذن الله تعالى. فأعلن الرسول ﷺ بناءً على استنباطه هذا أن هؤلاء الفرسان الذين بَعَثْتُهم سوف يرجعون منتصرين محققين هذه النبوءة، وسوف يكشف الله جبن المنافقين ويفضحهم.

ومن الممكن أن المنافقين لما أشاعوا هذه الدعاية أنزل الله تعالى هذه السورة ثانيةً لاطمئنان المسلمين، وأعلن أن هذه السرية سترجع منتصرة حتمًا لأن الله تعالى قد سبق أن أنبأ عن هذا، وسوف ترون أن نبأ الله هذا سيتحقق حتما، ولن تتحقق أقاويل المنافقين. ومثال ذلك ما وقع مع المسيح الموعود ؑ حيث قال: "كان

والدي المرحوم قد رفَع قضيةً ضد رعيته في حقوق أرضه، فانكشف عليّ في الرؤيا أننا قد ربحنا القضية في المحكمة. فذكرتُ هذه الرؤيا لأحد الآريين الهندوس من قاديان. وصادف أن حضر المدَّعى عليه مع بعض شهوده في المحكمة يوم جلستها، ولم يحضر من طرفنا أي محامٍ أو غيره. وفي المساء رجع المدّعى عليه وشهوده وقالوا قد سقطت القضية المرفوعة ضدنا. وعندما سمع ذلك الهندوسي هذا الخبر استهزأ بي وكذَّبني، فأصابني من القلق والكرب ما لا يوصَف، إذ لم يكن مرجّحًا أن يكون مخالفًا للواقع قولُ هذه المجموعة الكبيرة التي يوجد فيها بعضُ مَن ليس طرفًا في القضية. وفي هذه الحالة من الحزن والكرب الشديدين تلقيتُ من الله تعالى وحيًا رسخ في قلبي كالمسمار الحديدي: "لقد ربحتَ القضية، مُسلِم؟".. أي لماذا لا توقن بما أخبرتُك وتشكُّ فيه رغم كونك مُسلِمًا. ثم تبينَ بعد تحرّي الأمر أن الحكم كان قد صدر في صالحنا فعلاً، ولكن الفريق الآخر أخطأَ في فهم الحُكم." (التذكرة ص ٦، والبراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٦٥٨ الهامش الثاني)

فترى أن المسيح الموعود عليه السلام يخبر هنا الناس ما أنبأه الله تعالى به، ثم يتحقق ما قال، ولكن الآريين الهندوس يشيعون إشاعات باطلة، فيُطَمْئنُه اللهُ تعالى ويوحي إليه ثانية: لقد ربحت القضية، مُسلِم؟ أي ما دمت مسلمًا فلماذا لا توقن بكلام الله تعالى؟ فقد ربحت القضية فعلاً. كذلك فمن الممكن تمامًا أن المنافقين عندما أشاعوا دعايتهم الزائفة أنزل الله على رسوله ﷺ قوله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ مرة أخرى، مؤكدًا له أن الانتصار حليفك، وقد أخبرناك بذلك سلفًا في أنبائنا، وإن المنافقين لكاذبون.

على أية حال، أرى أن كلا الاحتمالين وارد. فمن الممكن أنه عندما ذهبت هذه السرية الأولى على الخيل وأشاع المنافقون أن جميع من فيها قد قُتلوا، فقال الرسول ﷺ: إنها أول سرية فيها خيل، وهي الأَوْلى بأن يتحقق فيها النبأ الوارد في قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فكيف يمكن أن يُقتلوا؟ فظن السامع لقوله ﷺ أن هذه السورة قد نزلت الآن، مع أن النبي ﷺ كان يعني بأن الله تعالى قد سبق أن أخبرنا بفتحنا في هذه السورة، فكيف يمكن أن يُقتل أصحاب السرية؟ كما أن مِن الوارد

أيضا أن الله تعالى قد أعاد إنزال هذه السورة المكية على رسوله ﷺ لطمأنة المسلمين. فأيا كان الأمر، فإن الرسول ﷺ قد اعتبر هذه الآيات نبوءةً، مما يدل على أن تطبيق هذه الآيات على الغزوات الإسلامية صحيح تماما، وهذا المعنى مدعوم من قول النبي ﷺ.

وليكن معلوما أن "الضَّبْح" يطلق على أصوات الحيوانات الأخرى أيضًا كالبوم والثعلب والأفعى السوداء والأرنب، وكذلك يطلق على صوت القوس. وهنا ينشأ سؤال: ما دام الضَّبْح يطلق على أصوات الحيوانات الأخرى، فكيف نقصِر قوله تعالى ﴿والْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ على الخيل؟ لماذا لا يقال أنه ينطبق على الإبل أيضا، وأن ما قاله عليّ وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم صحيح؟

الجواب: فيما يتعلق بالمجاز فنحن أيضا نقول إن الإبل مذكورة في قوله تعالى ﴿والْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، لأنه ما دام يعني الخيل التي هي أكثر استعمالا في الإغارة، فقد اندرجت في ذكرها الإبل على سبيل المجاز تلقائيًا لكونها تُستخدم أيضًا في الإغارة وإن كان استعمالها أقلَّ من الخيل. أما القول أن "الضَّبْح" ما دام يطلق على أصوات حيوانات أخرى كالبوم وغيره، فلا بد أن يكون المراد من قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الإبل، فهذا قياس مع الفارق، إذ لا مقارنة بين الإبل والبوم. لا شك أن الضَّبْح يُطلق على أصوات حيوانات أخرى، ولكن معنى الضبح مع قوله تعالى ﴿العاديات﴾ لا ينطبق إلا على الخيل. إن الله تعالى لم يستعمل هنا كلمة الضبح وحدها، بل قال ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فلا بد أن يراد منه تلك العاديات التي يخرج من صدرها عند عدوها الشديد صوت يسمى ضبحًا. وقد بينتُ أن اللغة تبين صراحة أن الضبح يطلق على صوت يخرج من صدور الخيل عندما تعدو عدوا شديدا، فثبت أن قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ لا يعني إلا الخيل، كما يندرج فيها الإبل استعارةً لا حقيقةً.

ومن لطائف هذه الآية أن الخيل لا توجد في مكة إلا قليلا، وإنما تكثر فيها الإبل. عندما ذهبتُ للحج، لم نجد خيلاً للركوب وإنما وجدنا حميرًا. وحيث إن ركوب الحمار غيرُ محبَّذٍ في بلادنا، فقلتُ لأصحابي والمسؤولين أن يبحثوا لي عن

حصان. فلم يجدوا رغم بذل جهد كبير إنما وجدوا بغلة ثمنها ٣٠٠٠ روبية. فركبتها، وركب أصحابي الحمير ونحن في طريقنا إلى غار ثور، فسبقوني بنصف ميل، فنـــزلتُ من على البغلة وركبتُ الحمار ووصلت هناك. فالخيل قليلة في مكة، وكانت أقلّ في زمن نـــزول هذه السورة، إذ كان الناس يستخدمون الإبل عادة. لكن الله تعالى قال عندها ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فأنبأ أن ركاب الإبل هؤلاء سيصبحون فرسانًا في يوم من الأيام. كما قلتُ لم تزل الخيل تكثر عند المسلمين بعد ذلك لأنها أكثر نفعًا من الإبل في القتال.

ومن الأسباب الأخرى لتربية المسلمين الخيول بكثرة أن القرآن الكريم والرسول ﷺ قد اعتبرا تربيتها سببًا لمرضاة الله تعالى، فقد أمر الله تعالى المسلمين أمرًا صريحًا وقال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال:٦١)، كما حثّهم النبي ﷺ على تربية الخيل من أجل الجهاد لينالوا عند الله أجرا عظيما، فقال: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" (البخاري: كتاب الجهاد). وقال ﷺ: "مَن احتبسَ فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شِبْعَه وريَّه ورَوْثَه وبَوْلَه في ميزانه يوم القيامة" (البخاري: كتاب الجهاد). وهناك أحاديث أخرى كثيرة أخبر فيها الرسول ﷺ أن في اقتناء الخيل للجهاد أجرًا عند الله تعالى، ولكن لا يوجد مثل هذه الأحاديث في الإبل، مما يوضح أن المشيئة الإلهية إنما كانت أن يهتمّ المسلمون باقتناء الخيل بُغْيَةَ الجهاد أكثر من اهتمامهم بالإبل.

كل هذه الأمور تدل أن ﴿العاديات﴾ هنا هي الخيل. هذا ما أكده القرآن الكريم والحديث واللغة أيضا، ورد في اللغة أن الضبح ضربٌ من عَدْو الخيل، كما يعني الصوت الذي يخرج من صدور الخيل عند العدْو الشديد، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾.. أيها المسلمون، سوف تخوضون الحروب في المستقبل. لا شك أن مطيتكم المحلية هي الإبل، لكننا نوصيكم باقتناء الخيل وتربيتها أكثر، لأنها أنفعُ من الإبل في القتال، واعلموا أن النصر حليفكم إذا استخدمتم

الخيل في حروبكم. وقد عمل الصحابة بهذه الوصية الإلهية حيث كثرت عندهم الخيل بمرور الأيام.

فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الموريات: أَوْرَى الزَّنْدَ: أخرجَ نارَه. (الأقرب)

وقدَح بالزَّند: رامَ الإيراءَ به (الأقرب).. أي أراد إشعال النار به.

التفسير: قد فسر البعض قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾: أورتْ النارَ بحوافرها. وقال البعض: إنها إشارة إلى النار التي يوقدها الناس لإعداد الطعام بعد الحرب، أو أنها النار التي يوقدها الناس في مزدلفة. أما ابن عباس فقال: هي النار التي يورونها عند العودة من الحرب. (الطبري)

في الماضي لم تكن هناك عيدان الكبريت، فكان أهل البيوت يدفنون بعد إعداد الطعام قبسًا من النار تحت الرماد ليشعلوا به النار ثانية. هذه العادة لا تزال في القرى عندنا، حيث يدفنون قبسا من النار تحت الرماد بعد إعداد العَشاء، وفي الصباح يخرجونه ويضعون عليه أوراقًا أو قطعًا من الخشب وما شابه ذلك، فتشتعل النار ثانية، أما البيت الذي تخمد عند أهله النار فيأخذون قبسًا منها من الجيران. ولكن ذلك محال في أثناء الحرب، ولذلك كانوا يحتفظون معهم بالزند الذي كانوا يضربونه بالحديد فتخرج منه الشرر فيقرّبون منها قطعة قماش أو أوراق جافة وما إلى ذلك، فتشتعل. في الصغر كنا نوقد النار من الزند، فكان البسطاء يظنون أننا نأتي بمعجزة. لا تزال عادة إيراء النار بالزند موجودة عند الأوروبيين، لكنها قد اختفت من بلادنا الآن. وهذه العادة عند الألمان أكثر وجودًا، كما توجد عند الإنجليز أيضًا، حيث يمدّون به الجنودَ في الحرب لإشعال السجائر.

يُربط حجر القداحة بدوّار حديدي بجنبه زنبرك، وحين يُضغَط على الزنبرك يدور الدوار الحديدي، فيصطـــدم مع حجر القداحة ويولِّد الشرارة، فيشتعل فورًا

الفتيل الذي يكون بجنبه، فتُشعَل بها السيجارة، ويُطفَأُ الفتيل بعد ذلك فورا.

لقد كان لهذا الجهاز رواج كبير عند الألمان، حيث كانوا يبيعونه بكثرة. ولكن قد نُشر في الجرائد قبل أيام أنهم قد اخترعوا للجنود قدّاحات متطورة لإشعال السجائر. وكانت قد أُعدّت خاصة من أجل الجنود الذين يخدمون في بورما، إذ لا توقد النار هناك بسهولة لكثرة الأمطار التي تجعل الأشياء رطبةً.

وفي الماضي كان الجنود يستخدمون الزند عادة، فيرى ابن عباس أن قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ إشارةٌ إلى فرسان يوقدون النار لإعداد الطعام بعد عودهم من الحرب. ولكن ليس صحيحًا قوله أنهم يفعلون ذلك لدى عودهم من الحرب، ذلك أن الآية التي تلتها تتحدث عن الإغارة، حيث قال الله تعالى ﴿فَالْمُغيرات صُبْحًا﴾، والفاء تفيد الترتيب عادةً، مما يدل على أنهم يورون القدح قبل الهجوم وليس العكس. وعندي أننا لو فسرنا قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ بمعنى إيقاد النار لإعداد الطعام، فالأفضل أن نقول في المعنى أن الصحابة إذا خرجوا لشن الغارة على قوم لم يغيروا عليهم فور وصولهم إليهم عملاً بالسنة النبوية، بل إذا اقتربوا من القوم نزلوا من مطاياهم وأعدوا طعامهم وباتوا هنالك، ثم أغاروا عليهم في الصباح، ذلك لأن الله قال أولاً ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ ثم قال ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾. والثابت من التاريخ أن النبي ﷺ ما كان يغير على قوم فورًا، بل كان ينـــزل قريبًا منهم على مسافة ميل أو ميلين، ويبيت هنالك، ويهاجمهم في الصباح. (البخاري: كتاب المغازي، وتفسير ابن كثير)

إذن، فإذا كان لا بد أن نفسر الآية بأن معناها أنهم يورون النار لإعداد الطعام فيجب أن نقول إنهم كانوا يعدّون الطعام ويبيتون قريبًا من القوم قبل الهجوم.

إذًا فمعنى الآيتين: أن المسلمين متحمسون لخدمة الدين والتضحية ابتغاء مرضاة الله بحيث إنهم إذا خرجوا للقاء العدو الذي هو أكثر منهم عدةً وعتادا طاروا إليه راكضين خيولهم بشدة غير مبالين بحياتها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يتحلون بأخلاق إسلامية سامية حتى في الحرب حيث لا يفاجئون العدو بالهجوم إذا بلغوا

على رأسه، بل ينـــزلون عن متون خيولهم ويجهزون الطعام ويبيتون هنالك، ثم إذا أصبحوا، شنّوا الهجوم. وهكذا كانت سنة النبي ﷺ، فكان لا يغير على أحد بالليل، كما لم يسمح لأصحابه بالإغارة الليلية. الواقع أن العرب كانوا قبائل بدوية تتنقل من مكان إلى مكان دائما، فكان الرسول ﷺ شديدَ الحذر، إذ قد تكون قبيلة أخرى قد حلّت هناك بدلاً من العدو، فقد يغير المسلمون عليها خطأً، لذا كان ينهاهم عن الهجوم ليلاً ويقول لهم: لا تغيروا على العدو وهم نيام، بل عليكم الانتظار حتى الصباح، فإذا سمعتم منهم الأذان فلا تهاجموهم، وإذا أردتم الهجوم عليهم فلا بد أن يصل أذانكم إلى مسامعهم، ويعرفوا أن المسلمين قد جاءوا للهجوم.

إذن، فقوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ إشارة إلى سمو أخلاق الصحابة، حيث بين الله تعالى أن المسلمين اليوم مغلوبون في مكة، يحتقرهم كبراء قريش ويذلّونهم ويؤذونهم بلا هوادة ضاربين بالأخلاق عرض الحائط، ولكن عليهم أن يتذكروا أن هؤلاء الضعفاء القليلو الحيلة سيصبحون غالبين، ويأتون لحربهم على متون جيادهم بدلاً من متون الإبل، ليضحوا بأنفسهم في سبيل الله تعالى. كان الحصان شيئًا عجيبا لقريش، وكان النجديون فقط يربّون الخيول، فكان أهل مكة يهابونهم، ولذلك يخبرهم الله تعالى أنه سيأتي يوم ينال فيه المسلمون القوة ويربّون الخيل بكثرة. تظنون أنهم يضحون بأرواحهم بسبب ضعفهم، لكنه خطأ منكم. كلا، بل إنهم عندما ينالون القوة ويركبون متون الخيل فعندها أيضا سيعتبرون التضحية بأرواحهم في سبيل الله تعالى مفخرة، فيتحمسون للقتال حماسًا شديدًا، فيطيرون إلى عدوهم على متون خيولهم راكضين إياها بشدة. ولكن من ناحية أخرى تكون أخلاقهم عالية بحيث لن يفاجئوا العدو الغافل ولن يغيروا عليه ليلاً. أما أنتم فلا تبالون بأي أخلاق، بل إذا وقع مسلم في قبضتكم ضربتموه ضربًا وأهنتموه أشد الإهانة، أما المسلمون فلا يمكن أن يتخلوا عن الأخلاق، بل إنهم حين ينالون القوة ويمتطون متون جيادهم فلن يفاجئوا قومًا بالهجوم، بل إذا خرجوا لشن الغارة على قوم باتوا عندهم منتظرين حتى الصبح، فإذا بلغ أذانُ العدو مسامعَهم امتنعوا عن

الهجوم، وإذا لم يسمعوا الأذان منهم بلّغوا أذانهم إلى مسامع الأعداء حتى يتنبهوا ويستيقظوا ويعدّوا عدّتهم للمواجهة.

باختصار، إن هذه الآية لا تشير إلى سمو أخلاق المسلمين فحسب، بل إلى شجاعتهم أيضا. ذلك أن الذين يريدون حرب العدو يطفئون نيرانهم بالليل عادة كي لا ينتبه العدو إلى وجودهم، ولكن المسلمين إذا خرجوا لحرب قوم أشعلوا نيرانهم و لم يطفئوها خوفًا من العدو.

كما أن هذه الآية تشير إلى سخاء المسلمين وكرمهم، لأن إشعال النار كنايةٌ عن السخاء والشجاعة أيضا، فما زال شعراء العرب يعيّرون أعداءهم قائلين: إن نارنا لا تزال تتقد، أما ناركم قد انطفأت، بمعنى أننا شجعان بواسل لا نبالي إذا رأى العدو نارنا وعرف وجودنا ومكاننا، كما يعنون به أنكم أيها الأعداء تطفئون نيرانكم بعد تناول الطعام ليلاً حتى لا يأتي إليكم مسافر للطعام برؤية النار، أما قومنا فهم مضيافون، فلا تزال نارنا مشتعلة لكي يراها المسافر والتائه ويأتينا ويأكل عندنا.

إذن، فقوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يتضمن الأمرين، أي أننا قوم شجعان بواسل لا نطفئ نيراننا خوفا من العدو، بل لا نزال نوقدها شجاعةً. ثم أنتم قوم بخلاء كَنود لا تريدون إطعام أحد، ولكننا لا نزال نشعل نيراننا حتى يهتدي إليها المسافر والفقير والمسكين ويأكل طعامنا، وهذا المعنى أكثر انطباقا هنا نظرا إلى معنى الكنود.

هناك معنى لطيف للغاية ذكره المفسرون وهو أن الله تعالى قد استخدم في ذكر الليل ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، وفي ذكر النهار ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾، فذكر في الموضعين ما كان أنسب وأولى، فالنقع الثائر لا يرى بالليل، وضوء النار لا يرى بالنهار. فقال أولاً ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أي أن هؤلاء القوم يوقدون نيرانهم بالليل متحدّين العدو: ها قد جئنا لحربكم، ثم قال ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾.. أي أنهم يشنون الغارة على العدو في الصباح على جيادهم مثيرين الغبار كي يراهم من بعيد قادمين. فالآيتان تشيران إلى شجاعة المسلمين وبطولتهم.

فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

المغيرات: أغار الرجلُ: أتى الغَوْرَ. وأغار زيدٌ: ذهَب في الأرض. وأغار: إذا أسرعَ ودفَع في عَدْوه. وأغار على القوم غارةً وإغارةً ومَغارًا: دفَع عليهم الخيل وأخرجَهم مِن جناهم بهجومه عليهم وأوقعَ بهم. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا خصلة أخرى للمؤمنين بأنهم لا يهاجمون الأعداء وقت الليل، حتى لا يقتلوهم وهم غافلون، إنما يشنون عليهم في الصباح غارة تُخرِجهم من بيوتهم. ولا شك أنه عملٌ بطولي سنَّه الإسلام. يدّعي الأوروبيون العدل والشجاعة، ولكنهم يعتبرون الإغارة على الأعداء الغافلين ليلا ميزةً من مزاياهم، لكن الإسلام يخبر أن المسلمين لا يفعلون ذلك، بل يهاجمون صباحا، مما يدل على أنهم شجعان بواسل ورحماء أيضًا، فكلمة ﴿المغيرات﴾ أيضا تدل على شجاعتهم لأن الإغارة تعني شنّ الهجوم على العدو بإخراجه من بيته للمواجهة. وكأن الله تعالى يقول ليس من دأب المؤمنين اقتحام البيوت وقتل الأطفال والنساء والعجائز، بل إنهم يتَحَدَّون الأعداء ليخرجوهم من بيوتهم ثم يشنّون الغارة على صفوفهم، مما يدل على شجاعتهم. أما لفظ ﴿صُبْحًا﴾ فيشير إلى أنهم لا يغيرون ليلا، بل صباحا، حتى لا يبقى العدو غافلا، بل يُعِدّ عدّته للقتال.

فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

نَقْعًا: النقع: الغبارُ؛ الأرضُ الحَرّةُ الطينِ يستنقع فيها الماء؛ القاعُ؛ محبسُ الماء؛ موضع قرب مكة. (الأقرب)

ويرى بعض المفسرين أن النقع موضعٌ ما بين مزدلفة ومنى، ولذلك فسر علي ﷺ قول الله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أنهم الحجاج يسرعون ما بين عرفة إلى المزدلفة ثم إلى منى. (فتح البيان)

وقال أبو عبيد: النقعُ: رفْعُ الصوت. ثم قرأ بيتًا للبيد دعمًا للمعنى الذي ذكره.

وهناك قول نُقل عن عمر ﷺ أنه استعمل النقع بمعنى الصوت العالي، فعندما بلغه خبرُ وفاة خالد بن الوليد ﷺ قيل له إن النساء يبكين عليه، فقال عمر: تبكي النساءُ ولا أجد نَقْعًا ولا لَقْلَقَة.*

التفسير: وضمير الغائب في (به) يعود على الصبح، أي أثرنَ وقت الصبح نقعًا. لقد بين الله تعالى هنا أمرا لطيفا يدل على شجاعة المسلمين. فقد يظن البعض بسبب قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أن المسلمين إنما يخرجون متحمسين على متون خيولهم التي يركضونها بشدة، لمعرفتهم أنهم لن يواجهوا العدو فورًا، إنما يبيتون هناك ويستريحون، فحماسهم هذا ليس جديرا بالإشادة إذ يُبدونه حين يكون الاشتباك مع العدو بعيدا، أما إذا وصلوا قريبا من العدو خمد حماسهم، وركنوا إلى الأكل والشرب والنوم بدلاً من الهجوم عليه، فردّ الله على هذه الشبهة بقوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾.. أي أنه ظن باطل؛ فإن المسلمين لا يبدون الحماس والشجاعة عندما يكون العدو بعيدا، إنما يزدادون حماسًا عند مواجهته، فيغيرون عليه غارات تثير الغبار ويملأ الجوّ حتى في وقت الصباح. ومعلوم أن الغبار لا يثار عادةً وقت الصباح بسبب الندى، إنما يثار بعد الظهر وفي المساء بسبب جفافه بحرارة الشمس، ونشاهد هذا المشهد في القرى، فإن المواشي عندما ترجع من مراعيها في المساء يكون الجو كله مغبرا، بينما لا يكون الأمر كذلك في الصباح حين تروح للرعي. فإثارة المسلمين النقع في الصباح إشارةٌ إلى أمرين، أوّلُهما: أنهم لا يهاجمون العدو

* يبدو أنه حصل سهو هنا، لأن نص ما ورد في (أُسد الغابة: خالد بن الوليد) هو: ولما بلغ عمر أن نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين على خالد، قال عمر: ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقعٌ أو لقلقةٌ. (المترجم)

ليلاً، والثاني أن عندهم حماسًا شديدًا للجهاد، حيث إنهم لا يشنون على العدو الغارة إلا بعد إعلامه وإثارته، كما تكون غارتهم شديدة يغبرّ بها الجوّ في الصباح أيضًا.

ويمكن أن يكون ضمير الغائب في (به) راجعًا إلى فعل الغارة، أي تكون غارتهم شديدة تثير النقع. وفي هذه الحالة تُعتبر الباء في (به) سببية، أي أثرن نقعًا بسبب الغارة. ولأن التنوين في (نَقعًا) يدل على الكثرة والشدّة، فالمعنى: فَأَثَرْنَ بفعل الغارة نَقْعًا كثيرا. وهذا أيضا دليل على شوق المسلمين للجهاد وشجاعتهم، لأن المرء إذا أراد الهجوم المباغت نصح أصحابه بالتقدّم على مهل بدون إثارة الغبار حتى لا ينتبه العدو، لكن الله يقول هنا: إنهم لا يثيرون الغبار فقط، بل يثيرونه جدًّا.

وقد تكون الباء في (به) للملابسة، فيكون قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى أنهم محترفون في فنّ القتال، ذلك أن ركض المرء الفرس ركضًا شديدا فنّ في حدّ ذاته، ثم حمله الرمح للهجوم وتصويبه نحو العدو أثناء الهجوم مع الركض الشديد فن آخر، فالمراد أنهم يركضون بخيولهم ركضًا شديدا مع إجادتهم القتال، إذ المحارب العادي يمكن أن يركض حصانه بشدة ولكنه لا يستطيع القتال جيدًا خلال ركضه، بل يضطر إلى تخفيف سرعته من أجل القتال، لكن الماهر يركض حصانه بشدة، كما يجيد القتال في الوقت نفسه. ففي أثناء لعبة الطعن بالرماح على الخيل يأتي الفارس العادي راكضًا حصانه بشدة، لكن حين يقترب من الوتد الذي يريد إصابته برمحه يخفض من سرعة حصانه، لكن الفارس الماهر يأتي بفرسه راكضًا بشدة ويصيب هدفه من دون أن يخفف سرعته. عندما زار الملك البريطاني الهند أقيمت ألعاب بما فيها مسابقة الطعن بالرماح على الخيل، فرأينا أن بعض الفرسان كانوا يخففون من سرعتهم عند وصولهم قريبًا من الهدف، لكن بعضهم كانوا يأتون راكضين خيولهم وينـــزعون الأوتاد برماحهم بدون أن يخففوا من سرعتها شيئا. وبعض الناس يكونون ماهرين لدرجة أنهم لا يجلسون على متون الخيول بل يتمدّدون على ظهرها راكضين إياها بشدة ويصيبون الهدف، مع أن الراكب العادي لا يستطيع أن يجلس بسهولة على متن الحصان الذي يعدو بهذه السرعة.

فركضُ الحصان بشدة فنّ بحد ذاته، والقتال مع الركض الشديد فن آخر. أما ركْضُ الحصان وحده فلا يُعتبر فنًّا، بل لا بد للفارس أن يركض فرسه بشدة، كما يجيد الهجوم في الوقت نفسه. فقوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى الأمرين؛ أنهم يأتون راكضين خيولهم، وفي الوقت نفسه يكونون جاهزين للانقضاض على العدو، فلا تمنعهم سرعة خيولهم من الإغارة. وهذا يدل على كمال حماسهم ومهارتهم في القتال، وأنهم قد أعدّوا عُدّتهم للجهاد ليل نهار حتى اكتسبوا المهارة الكاملة في فنون الحرب. ورد في الحديث أن الرسول ﷺ سمح للأحباش مرة بأن يتبارزوا بالرماح في المسجد، فلم يستمتع بلعبتهم بنفسه فحسب، بل جعل أهل بيته أيضا يشاهدون هذه اللعبة (البخاري: كتاب الصلاة).

كذلك ورد أن الصحابة كانوا يتدربون على الرماية دومًا، وذات مرة انقسموا إلى فريقين يتبارون في رمي السهام، فجاء النبي ﷺ وانضمّ إلى أحد الفريقين، فأمسك الفريق الآخر بسهامهم وقالوا: يا رسول الله، كيف يمكن أن نرمي وأنت معهم؟ (البخاري: كتاب الجهاد)

فثبت أن الصحابة كانوا يعدّون عدّهم للقتال دائما ويسعون لاكتساب المهارة في الفنون الحربية، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾.. أي أيها الكفار، تعتبرون المسلمين ضعفاء عديمي الحيلة اليوم، ولكننا نخبركم أن هؤلاء الضعفاء في الظاهر سيكتسبون مهارة عالية في فن الرماية، ولن يكونوا كمثل فرسان أغرار إذا ركضوا خيولهم بشدة لم يستطيعوا الإغارة، وإذا أغاروا لم يستطيعوا الركض، بل سيجمعون بين الإغارة وبين ركض خيلهم بشدة، ويكونون مهرة في فنون الحرب، ويثيرون النقع من شدة حربهم وحماسهم.

فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٦﴾

التفسير: وضمير الغائب في (به) يمكن أن يعود إلى النقع أو إلى الصبح، فإذا كان راجعًا إلى النقع فالمعنى أنهم يصلون إلى العدو مثيرين الغبار، أي لا يتوقف

حماسهم عندما يقتربون من العدو، بل يصلون إليه راكضين الخيل ومثيرين الغبار، فينقضّون على صفوفه بدون تردد وتوقف. وهذه إشارة إلى بسالتهم. ويخبرنا التاريخ أن الصحابة كانوا شجعانًا وبواسل حقًا.

ولو اعتبرنا ضمير الغائب راجعًا إلى الصبح، فالمراد أن الصحابة يشقّون صفوف العدو وقت الصباح، وهذا إشارة أخرى إلى أنهم لا يشنون الغارة على العدو فجأة، بل يغيرون عليه بعد أن خرج للقائهم. نجد الإنجليز والروس والأمريكان كلهم يسعون اليوم لأن يهاجموا العدوَّ وهو نائم، ويعتبرون هذا ميزة عظيمة، لكن الله تعالى يخبر هنا أن عبادنا المؤمنين لن يكونوا هكذا، بل سوف يخرجون للقاء العدو مصبحين وصائحين، ولن يهاجموه حتى يخرج للقائهم، وإذا لم يخرج انتظروه حتى يخرج. هذا المعنى مستنبط من قوله تعالى ﴿جَمْعًا﴾ حيث لم يقل الله تعالى هنا أنهم يهاجمون نساء العدو وأطفالهم وعجائزهم، أو يهاجمون شخصًا ضعيفا وجدوه هنا وهناك، بل يشنّون الغارة على تجمُّع العدوّ. فقوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يتضمن المفهومين؛ الأول أنهم لا يغيرون في الليل بل في الصباح، ويغيرون على العدو حين خرج وتجمَّعَ لقتالهم وجهًا لوجه. بتعبير آخر أولاً: إنهم يُخرجون العدوَّ من بيته، ثم يهاجمونه، ولا يفاجئونه نائما، وثانيًا أنه لا يمكن أن يأتوا متحمسين راكضين خيولهم ثم عندما يرون العدوّ يفتر حماسهم. باختصار، إذا أرجعنا الضمير إلى الصبح، فالمراد أنهم يغيرون على العدو في الصباح حين يتجمع للمواجهة، وإذا أرجعناه إلى النقع، فالمراد أنهم حين يرون العدو لا يفتر حماسهم، بل يزدادون حماسًا حين يرونه مصطفًا لقتالهم، فينقضون على صفوفه، ويشقونها. فأحد المعنيين يشير إلى أخلاقهم، والثاني إلى حبهم وحماسهم وفدائهم وتضحيتهم للإسلام.

وهناك معنى لطيف آخر في حالة اعتبار ضمير الغائب (به) راجعا إلى الصبح، وهو أنهم لا يغيرون على العدو في الصباح فحسب، بل ينتهون من عملية شق صفوفه وبعثرتِهم في الصباح الباكر. وقد ذكر ابن جني هذا المعنى فقال: "أي: ميّزنا به جمعًا، أي جعلناه شطرين، أي قِسميْن وشقّين" (روح المعاني)، بمعنى أن

هجومهم يكون ناجحًا جدًّا، فلا يمضي وقت طويل حتى يخرقوا صفوف العدو وينتصروا عليه.

والحق أن كلمة ﴿فوسطن﴾ تشير إلى هذه الحقيقة، لأن قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ لا يعني مواجهة العدو فقط، بل يعني خرق صفوفه والوصول إلى قلبه وتشتيته. فمن أهم واجبات قائد الجيش ألا يدَع العدو يخترق صفوف جيشه، وإلا فإنهم يتشتّتون ولن يستطيعوا الهجوم بجبهة موحّدة. ولذلك يسعى القادة المحنكون دائما ألا تحدث الثغرة في صفوفهم رغم هجوم العدو الشديد. ولكن في بعض الأحيان يضغط العدوّ بشدة حتى يكون هناك خطر تمزّق الصفوف، فينسحب القائد المحنك بجنوده قليلا كي لا تتبعثر جنوده، ويعيد الكرَّة ثانية، وهذا ما أشار إليه الله تعالى بقوله ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾(الأنفال:١٧)، وهذا ما يسمى بالإنجليزية الانسحاب المنظم (Orderly retreat).. أي الانسحاب القليل من ساحة القتال مع المحافظة على الصفوف. فمن أهم مبادئ القتال الحفاظ على الصفوف، وكذلك خرق صفوف العدو بأي طريق، وهو ما يسمى بالإنجليزية (spearhead)، لأن خرق صفوف الأعداء يجعلهم مشتتين مفرَّقين، فيستحيل على قائدهم أن يعطيهم أوامره، لأنه إذا أصدر أوامره لأحد الطرفين، فإن العدو يكون بينهما، فيقضي على خططه بسرعة. باختصار، عندما يضغط العدو ضغطا شديدا، فإن القائد الذكي ينسحب بجنوده قليلا دونما تأخير. ويجب أن يكون عند الجنود من القوة الأخلاقية بأنه إذا أمرهم قائدهم في حالة التشتت والانتشار أن ينسحبوا قليلاً، فيجب أن ينسحبوا، وإلا فإن هزيمتهم مؤكدة.

إذن، فقوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يعني أنهم يخترقون صفوف العدو صباحا ويمزقونها ويشتتونها في وقت غير طويل. وهذا المعنى يردّ على شبهة تقول أن الله تعالى قال أولاً ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ أي أنهم يشنون الغارة في الصباح، ثم قال ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي أنهم يهاجمون العدو صباحا، فهذا تكرار! وما الحكمة فيه؟

فجوابه: أن الآيتين فيهما معنيان منفصلان. لقد قلنا سلفًا إن قوله تعالى ﴿فَالْمُغيراتِ صُبْحًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يعني أن هجوم المسلمين وانتصارهم لا

يستغرق وقتا طويلا، فإنهم يهاجمون صباحا وينتصرون صباحا، أي أنه لا تمضي ساعات بعد الهجوم إلا وينتصرون. فكأن الله تعالى يحذر هنا الكافرين: لا تغترّوا برؤية ضعف المسلمين اليوم، ولا تظنّوا أنهم سيبقون على هذه الحالة من الضعف وقلة الحيلة، بل الحق أنهم قوم شجعان، فإنهم حين يحملون السيوف بإذنٍ منا، يُنهون مهمتهم في وقت قليل جدا، ويصبحون غالبين على العدو في لمح البصر مرفرفين رايات النصر.

وبالفعل نرى أن كل غزوات النبي ﷺ انتهت خلال بضع ساعات، إلا التي حاربه فيها العدو متحصنا. لا شك أن غزوة الأحزاب قد طالت، لكن سببه أنه ﷺ منع الصحابة من الهجوم وأمرهم بالدفاع فقط. وكذلك قد طالت غزوة خيبر، لكنها كانت ضد العدو المتحصن في حصنه. كذلك طالت حرب بني قريظة لأنهم أيضًا كانوا متحصنين في حصونهم. أما الغزوات الأخرى فليس منها معركة واحدة إلا وحُسمت في بضع ساعات. كذلك كانت حال السرايا التي بعثها الرسول ﷺ، إذ كانت ترجع بعد إحراز فتح سريع محيّر. وهذا أمر مذهل فعلاً، فإن الرسول ﷺ لم يخض معركة أو معركتين، بل اشترك في أكثر من عشرين، لكن كلها انتهت في بضع ساعات، بل في دقائق. كانت معركة بدر كبيرة ومصيرية، لكنها انتهت بسرعة. يقول الصحابي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كان على يميني وشمالي صبيّان أنصاريان في بدر، فتأسفت وقلت في نفسي لن أستطيع اليوم شفاء غليلي أثناء القتال، لأن معي صبيين أنصاريين غريرين لا يتجاوز سنهما ١٥ سنة، لو كان معي جنود خبراء بفن القتال لحملتُ على العدو دونما خوف واثقا أن هناك من يحميني من ورائي. وبينما أنا في هذه الأفكار إذ غمزني الذي على يميني، فتوجهت إليه، فهمس في أذني: يا عمّ، مَن هو أبو جهل الذي آذى رسول الله ﷺ أذى شديدا، فإني أريد أن أنتقم منه اليوم؟ وقبل أن أجيب على سؤاله غمزني الصبي الذي على يساري وهمس في أذني: يا عم، من هو أبو جهل الذي كان يؤذي النبي ﷺ فإني أريد أن أنتقم منه؟ ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: تحيرت من سؤالهما إذ لم أتصور وأنا مقاتل محنّك أني أقدر على قتل أبي جهل، فلمت نفسي وقلت: كم

كان تفكيري خاطئًا عن الصبيين! فأشرتُ لهما بيدي إلى قلب جيش العدو وقلت: ذلك القائد الذي يحرسه اثنان بسيوفهما هو أبو جهل. ولم أكمل كلامي حتى انقضّ عليه الصبيان انقضاضَ العقاب على العصفور، وألقوه جريحًا على الأرض قبل أن يرفع الحارسان سيفيهما، مع أن أحدهما كان ابن أبي جهل. وحيث إن أبا جهل كان قائد الجيش فقتلُه يعني انتهاء الحرب في الحقيقة، لأن المعركة التي استمرت بعدها كانت دفاعية فقط، وهي أيضا انتهت في بضع ساعات. (البخاري: كتاب الجهاد والسير)

أما في غزوة أحد، فلا شك أن العدو استطاع إلحاق ضرر بالمسلمين نتيجة خطئهم، ولكن كان ذلك بعد أن انتصروا عليه في ساعتين، مع أننا نجد أن الحروب في زمن أبي بكر وعمر كانت تستمر أسبوعين وحتى عشرين يوما، مع أنها لم تكن ضد عدو متحصن في حصونه، بل كانت في ساحات مفتوحة. أما في زمن الرسول ﷺ فكان الألف أو الألفان أو العشرة الآلاف من الأعداء يأتون لمحاربة بضع مئات من المسلمين، ومع ذلك كانت المعركة تنتهي في بضع ساعات. ليس في تاريخ معارك الرسول ﷺ مثال واحد قال فيه للعدو: يجب أن نُنهي القتال الآن لأن المساء قد حل وسنستأنفه صباحا، كلا، بل كانت معاركه ﷺ تنتهي خلال ساعات أو دقائق، مع أنه ﷺ خاض ٢٧ غزوة وبعث ٣٨ سرية في مختلف المناسبات. أما بعده ﷺ فكان الصحابة يقاتلون العدو لأسبوعين أو عشرين يوما، وعندها كانوا ينتصرون عليه. فالواقع أن الله تعالى قد بين في قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أن المسلمين سوف يكتسبون خبرة قتالية غير عادية، فيقتحمون صفوف العدو في الصباح وينهون المعركة وهم لا يزالون في الصباح.

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

لَكَنُودٌ: "الكَنود: الكَفور، يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ الكافرُ؛ اللوّامُ لربه." (الأقرب)

ذلك أن من عادة البعض أنهم يسيئون إلى الله تعالى على كل صغيرة وكبيرة قائلين: ماذا أعطانا الله؟ وأي منة أنعمَها علينا؟ لقد أعطى الأثرياءَ كل شيء، فلماذا نشكره؟ فإذا كان فقيرًا قال: لماذا أصلي؟ فَلْيُصَلِّ الأثرياء، وإذا كان ثريًا قال: ليس عندي الصحة كالتي أعطاها اللهُ الفقيرَ، فلماذا أشكر ربي؟ فالفقير والغني كلاهما يسيئان إلى الله تعالى قائلَيْن: ماذا منَّ به عليّ حتى أعبده؟

ومن معاني الكنود: "البخيلُ؛ العاصي؛ الأرضُ لا تنبت شيئا، يقال: هذه أرضٌ كَنودٌ؛ مَن يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده." (الأقرب)

معنى ذلك أن هذا الأخير لئيمٌ، إذ يأكل وحده ولا يشرك معه أحدا، مع أنه مهما كان المرء فقيرًا إذا أكل دعا غيره للأكل، أما هذا فهو يأكل وحده ولا يحبّ إشراك غيره في الأكل. ثم هو بخيل إذ يملك المال، ولكن لا يحب أن يعطي غيره، بل هو جبان أيضًا، إذ يتظاهر بشجاعته أمام العبيد والنساء فقط حيث يضربهم قائلا: سوف أكسر أسنانكم، أما إذا واجه قويًا أحنى رأسه أمامه. وهذا المعنى الأخير قد ورد في الحديث أيضا: فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رِفْدَه. (ابن كثير)

بيد أن قوله ﷺ "الكنود: الذي يأكل وحده" له معانٍ أخرى أيضا، وهو أنه متكبّر، لأن المتكبر أيضا لا يريد أن يشرك غيره في طعامه احتقارا له. كذلك يمكن أن يفسر قول الرسول ﷺ هذا أنه لا يدعو إلى مآدبه إلا من هم من طبقته ودرجته، فتقتصر مآدبه على عِلْية القوم وكبارهم، أما عامة الناس الذين أكثرهم فقراء مساكين فلا يسألهم ولا يعبأ بهم.

وهذا المعنى ينطبق على الكافرين كل الانطباق، إذ كان من عادة العرب أن يَدْعوا إلى مآدبهم عِلية القوم وأثرياءهم، ولكنهم ما كانوا يدعون الفقراء إليها، وإنْ كانوا يوزّعون عليهم الطعام على حدة. والآية التي تلتها أيضا تدعم هذا المعنى، إذ يقول الله فيها: إذا كان يشقّ على الكافرين أن يأكل معهم الفقراء فكان بوسعهم أن يساعدوهم ببعض المال، لكنهم لا يفعلون ذلك.

ثم ورد عن معنى الكنود: "وفي "التعريفات": الكنود هو الذي يعدّ المصائب وينسى المواهب" (الأقرب).. أي أنه يتذكر أنه ذهب مرة إلى بعض أصدقائه وسأله شيئا فلم يعطه، لكنه ينسى أنه قد أعطاه مئات العطايا في مناسبات أخرى.

التفسير: الإنسان هنا لا يعني كل إنسان، بل المراد منه الجمعُ المشار إليه في قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.. أي أن المسلمين سيشنون الهجوم على هؤلاء القوم الذين يكفرون بربهم ولا يطيعون أوامره من ناحية، ومن ناحية أخرى يكفرون بنِعَمه ولا يُقدِّرون مننه حق القدر. لقد مَنَّ الله عليهم إذ جعل رزقهم يأتيهم من كل طرف وصوب من وراء هذه الصحراء، ولكنهم بدلاً من أن يشكروه على منّته ويسارعوا إلى تصديق رسالته والعمل بها، يكفرون بكلامه، ويمتنعون عن إطعام الفقراء ويصبّون على العبيد جبال الظلم والمصائب. لقد سبق أن تحدثت السور السابقة أيضًا أن أهل مكة لا يطعمون الفقراء ولا يتصدقون ولا يتفقدون اليتامى والمساكين، بل يهدرون أموالهم على الملذات، أما الآن فقد بين الله تعالى بقوله ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أنهم يدَّعون أنهم شجعان أبطال، لكنهم لا يبرحون يضربون العبيد، مما يعني أنهم يجمعون الجبن إلى دناءتهم، فبدلاً من أن يواجهوا قويًا يصبّون جام غضبهم على الضعيف، فإذا وقع في أيديهم بلال وأمثاله من العبيد الضعفاء الذين ليس وراءهم قبيلة تساندهم ضربوهم وآذوهم، ولكن يخافون القوي، فمثلاً لما أرادوا ضرب أبي ذر الغفاري وقيل لهم إنه من قبيلة غفار الذين تمر قوافلكم التجارية من أرضهم، وسوف يقطعون عليكم طريقكم لو علموا أنكم آذيتموه،

طارت حواسهم وخافوا أن ينقطع رزقهم فتركوا أبا ذر. (البخاري: كتاب المناقب)

فكأن الله تعالى يقول: هل هؤلاء أناس؟ كلا، إنهم قوم لئام متكبرون بخلاء جبناء، إذا وجدوا ضعيفًا ظلموه، وإذا وجدوا فقيرًا لم يطعموه، وإذا كان عندهم مال لم ينفقوه، فكيف يطيق الله تعالى أن يكون الحُكم بأيديهم. كلا، بل إنهم يستحقون العقاب، لذلك فها إننا نعلن أن هؤلاء العبيد الذين يضربونهم ويؤذونهم كبرًا، سوف نأتي بهم على متون الجياد، لنُرِيَهم أنهم ليسوا من الشجاعة والبطولة في شيء، إنما تنحصر شجاعتهم في أن يضربوا عبدا، أو يقتلوا امرأة بطعنها في فرجها، أو يقتلوا مسلما بربط رجليه في رجلي بعيرين يسيران باتجاهين معاكسين لينشق قطعتين، أو أن يلقوا حجرا ساخنا كبيرا على صدر مسلم، أو يجرّوه في شوارع مكة على الحجارة المدببة ليدموه، ولكنا نعلن أنه سيأتي يوم نُري فيه هذا الإنسان الكنود ما هي الشجاعة ومن هو الشجاع؟

هذه السورة مكية و لم يُرِد الله تعالى فيها إثارة حفيظة أعداء الإسلام من دون داعٍ، فلذلك عدَّد عليهم مساوئهم باستعمال كلمات ذات معنيين حتى يتبادر إلى أذهانهم المعنى غيرُ المقصود هنا، فلا تثور ثوائرهم، وإلا فالحق أن قوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ إشارةٌ إلى أهل مكة الكافرين، والمعنى أنهم ناكرون جدا للجميل، إذ ينكرون نِعَمَ الله تعالى ويظلمون الفقراء ولا يطعمون المساكين ويعتبرون الصدقة عبثًا، فلا يستحقّون عون الله تعالى، ولذلك سنأتي بالمسلمين لعقابهم ليعلموا أن عاقبة السيئات وخيمة جدا.

وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٨﴾

التفسير: يقول الله تعالى إنهم متورِّطون في المساوئ، ثم يفتخرون بها. فكم هو مخجل أن يضرب الإنسان عبدًا أو امرأة، ولكنهم يعتبرون ضربهما مفخرة. لو كان الإنسان يضرب ولدًا أو عبدًا بشدة، فنبَّهه غيره إلى خطئه، لاعتذر ألف معذرة

لتبرير فعله الدنيء هذا، وذلك إذا كان فيه ذرة من الحياء والخجل، أما هؤلاء فلا يبدون ندمًا ولا خجلاً على جرائمهم، بل يفتخرون بها حتى يقول بعضهم لبعض: ضربت اليوم العبد الفلاني ضربا مبرحًا، وسحبت فلانًا على الحجارة سحبًا، وأدميت فلانًا، مما يعني أن هذا الشخص النجس الدنيء يفتخر بفعله الدنيء. كما أنه لا يطعم الفقراء، وإذا قيل له: لماذا لا تطعمهم قال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾(البلد:٧).. أي أنفقتُ أموالاً طائلة. فيرد الله عليه: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾(البلد:٨).. أي هل يظن هذا أن لا أحد يراقبه أو أن الناس يجهلون أنه لم ينفق هذه الأموال الطائلة إلا رياء وسمعةً، وليس بدافع مصلحة الأمة أو مساعدة للفقراء. لا شك أنه نَحَرَ في يوم واحد إبِلاً كثيرة، ولكن ليس لِيُطعِم الجياع، بل على سبيل الرياء. أو إذا كان عنده مال لم يطعم منه أهل الفاقة. فمن ناحية إنه مصاب بعيوب شتى، ومن ناحية أخرى ﴿إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.. أي أنه يتفاخر بعيوبه ومساوئه، فإذا قيل له: ساعِد الفقراء بمالك، وتصدقْ به على المساكين، قال: مساعدتهم تخالف مشيئة الله، كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(يس:٤٨).. أي لماذا تطعمون أهل الفاقة والجوع، فإن الله يريد أن يَبقوا جياعًا. إذًا، بلغ بهم اللؤم وقلة الحياء أنهم لا يُطعمون الفقراء وذوي الحاجة، ثم يتفاخرون بذلك قائلين: ما دُمْنا نعمل بحسب مشيئة الله تعالى فلماذا تلوموننا وتتهموننا؟

وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الخير: وِجْدانُ الشيء على كمالاته اللائقة؛ المالُ مطلقًا؛ الخيلُ؛ الكثيرُ الخير. (الأقرب)

شديد: الشديد: الشجاعُ؛ البخيلُ؛ القويُ؛ الرفيعُ. ويقال هو شديد الخُنْـــزُوانة: كناية عن التكبر والعظمة. وجمعُ الشديد: الشِّداد والأشدّاء. (الأقرب)

التفسير: ونظرًا إلى المعاني المختلفة للخير وللشديد، يمكن تفسير هذه الآية وفق المفاهيم التالية:

أولاً: أن الإنسان المذكور شديدٌ في حب المال.. أي يحبه حُبًّا جمًّا.

ثانيًا: أنه شجاع في حب المال.. أي ليس عنده روح التضحية من أجل أمته وقومه ودينه، فلا ينفق ماله في سبيل الله تعالى ولا في سبيل أمته. إذا كانت هناك فرصةً لجلب المال، أصبح شجاعا، أو إذا تعرض ماله للنهب والسلب دافع عنه دفاعًا مستميتا ولربما ضحى بحياته، أما إذا تعرّضَ دينه للإساءة أو تعرضتْ حرية أمته للخطر فلا تثور غيرته، بل يختفي في بيته جبنًا.

ثالثا: أنه بسبب حُبِّ الخير لَشديدٌ. ذلك أن للبخل أسبابًا عديدة، فأحيانًا يبخل المرء لفقره، فمثلا هناك شخص يأتيه سائل ولكن ليس عنده إلا رغيف واحد احتفظ به لأطفاله النيام، فلا يعطيه الرغيف، لأنه يعرف أنه ليس عندهم إلا هذا الخبز، فلا شك أنه قد بخل، لكن ليس لأن عنده مالاً كافيًا، بل لأن فقره المدقع منعه من الإنفاق. وأحيانا يبخل الإنسان بماله لأن الهدف الذي من أجله يطالَب بإنفاق ماله لا يكون مناسبًا في رأيه، ومهما أنفق الآخرون في سبيل ذلك الهدف إلا أنه لا ينفق، ومهما عيَّره الآخرون بالبخل فإنه يرد عليهم: لن أعطيكم شيئا مهما عيَّرتموني، لأنني لا أرى الهدف الذي تنفقون من أجله مناسبا. أما هذا الشخص الكنود، فيملك أكثر من حاجته، كما ليس الهدف سيئا حتى يتردد في الإنفاق، إذ لا يُدعى للإنفاق على رقص البغايا أو إطلاق الألعاب النارية وما شابه ذلك، إنما يدعى للإنفاق من أجل النهوض بفقراء القوم ومساكينهم وأيتامهم، فثبت أن سبب حبه للمال البخل، مع أنه حبٌّ لا معنى له ولا هدف. الواضح أن حب المال ليس هدفًا في ذاته، بل هو وسيلة لإنجاز أهداف أخرى، ولكنه يمسك ماله بسبب هذا الحب للمال الذي لا قيمة له. لقد بلغ به الحمق أنه يجعل الوسيلة هدفًا وينسى الهدف الذي جُعلت له تلك الوسيلة. إن المال وسيلة لسدّ الحوائج، لكن هذا الأحمق يتخذ الشيء الذي ليس مقصودًا بِحَدّ ذاته هدفًا، ويغضّ الطرف

عن الهدف الذي يُنفَق المال من أجله. شأنه شأن مَن يكون عنده ثوب ولكنه يمشي عريانا، وإذا سألته: لماذا تمشي عريانًا قال إني أخاف أن تبلى ثيابي. هذا هو حال بعض سكان بلادنا للأسف، فلو خرجت إلى قرية في الصباح للتَنَزُّهِ لوجدت بعض الفلاحين يمشي حافيًا على الحجارة والأشواك، حاملاً حذاءه في يده، أو معلقًا إياه على عصا فوق كتفه، مع أن الحذاء يُلبس ليحمي الإنسان من الشوك والحصى والعشب، وليس لأن يحمله الإنسان ويمشي حافيًا على الأشواك والحجارة. لكن الفلاح يفعل ذلك فقرًا إذ ليس عنده غير هذا الحذاء، ومن واجبه أن يحافظ عليه لأنه لو تمزّق وتلف وهو في طريقه إلى بيت ابنته مثلاً، ووصل هنالك حافيا، لعيّرها الناس قائلين: ألا يستطيع أبوك شراء حذاء له؟ هذا ما يدفعه لنـــزع حذائه والاحتفاظ به بهذه الطريقة. ولا شك أن المرء يترحم على فقر هؤلاء وبؤسهم في بلادنا. وأيًّا كان السبب فإن المشهد الذي نراه هو أنهم جعلوا الوسيلة هدفًا، ونسوا الهدف الذي تُتّخذ له الوسيلة. إن الحذاء وسيلة لوقاية القدم، لكن الفلاح يجرح قدمه ويحفظ حذاءه. ليس المال إلا لينتفع الإنسان بإنفاقه على مصلحة ذاتية أو جماعية، ولكن هذا الإنسان الكنود لا ينتفع به مع أنه يجب أن ينفق ماله لأي غرض في كل حال، فإذا لم يكن يريد أن ينفقه في سبيل الدين ابتغاء مرضاة الله تعالى فلينفقه لمصلحة الأمة أو لمصلحته الشخصية، فلينشئْ به مصنع نسيج مثلاً، ليجد الناس عملا، أو يجدوا ثيابا رخيصة، أو لينشئْ به مطحنة أو أية صناعة أو حرفة أو تجارة من أجل النهوض باليتامى والمساكين، أو يفتح مدارس لتعليم الأطفال. هناك مئات المجالات للإنفاق للنهوض بالأمة، وللمنفعة الشخصية أيضا، لكنه يقفل على ماله في الخَزْنة، ولا ينفقه في سبيل الله ولا لمصلحة القوم، والنتيجة أن ماله لا يزيد، بل ينقص شيئا فشيئا. لقد قال أحد الصوفية: أَنفِقْ المال ليرجعْ إليك، ولا تمسكْه كيلا يكون عارًا عليك. إن جميع الشعوب التي تنفق الأموال فإنها تنميها، لكن الذي يمسك بماله يقلّ ماله شيئا فشيئا، ولذلك يقول الله تعالى إذا كان هؤلاء القوم قد نسوا الله تعالى ويرون الإنفاق ابتغاء مرضاته عبثًا، فكان ينبغي عليهم -على الأقل- أن ينفقوا أموالهم من أجل أمتهم، لكنهم يغضّون الطرف عن

الأهداف التي تُحفظ الأموال من أجلها وتُكتسب، ويريدون أن يحتفظوا بها مع أن المال ليس مقصودا بحد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق هدف آخر.

وقد فسر الصوفية هذه الآيات بتفسير آخر، وقالوا المراد من ﴿العاديات﴾ نفوس السالكين المجتهدة السائرة في سبيل الله التي تعدو مِن شدة سيرها ورياضتها وجدّها في سعيها للكمالات الروحانية كالخيل العادية، وتتنفس الصعداء من بُرحاء الشوق. (تفسير ابن عربي)

فكلمة (الْعَادِيَات) تشير إلى أنهم يظلون ساعين إلى الخيرات والحسنات، فلا يفرغون من عمل حتى يبدأوا الآخر ثم الثالث ثم الرابع وهكذا دواليك، فتجدهم يصلّون، ثم يبدأون في خدمة الفقراء، وإذا فرغوا منه باشروا تعليم الآخرين، ثم انهمكوا في حسنة أخرى، فيقضون حياتهم كأنهم في سباق مع الآخرين في فعل الخيرات. فقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إشارة إلى أن السالكين يتبعون كل طريقة للتقرب إلى الله تعالى، فلا يبرحون يقومون بأعمال الخير واحدا تلو الآخر. أما قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ فإشارة إلى أنهم لا يسارعون إلى الخيرات ولا يقومون بحسنة تلو الحسنة فحسب، بل تظل أذهانهم أيضا تعمل باستمرار، حيث يقدحون أفكارهم بعتبة الملأ الأعلى.. أي أنهم لا يبرحون يتدبرون ويتفكرون في كلام الله تعالى (أي الشريعة) من ناحية، وفي القوانين الطبيعية من ناحية أخرى ليتوصلوا إلى استنتاجات جديدة، فتتولد بضربِهم أفكارَهم بأحكام الشريعة وقوانين الطبيعة أنوارٌ جديدة ومعارف مبتكرة ومفاهيم بديعة وحِكم رائعة، كما تتولّد النار بالضرب على الزند، وبظهور هذه الأنوار يطلع الصبح المشار إليه في قوله تعالى ﴿فالمُغيرات صُبْحًا﴾. وعندما يطلع بجهودهم ومساعيهم الصبح.. أي الأنوار السماوية.. فيطّلعون على عيوبهم وعيوب قومهم التي كانت خافية عنهم قبل طلوع هذه الأنوار السماوية، مثلما تظهر للإنسان عند طلوع الصبح شتّى الأشياء التي كانت خفية في ظلمة الليل، فقد يكون على وجه الإنسان وسخ، وقد تكون الأشياء مبعثرة حوله هنا وهناك، ولكنه بسبب ظلمة الليل لا يدري ما بوجهه من عيب وما حوله من أشياء مبعثرة، ولكن عندما يطلع الصبح ينكشف له كل شيء،

وتتميز له الألوان، فيميز بين الأسود والأبيض والخير والشر. كذلك فإن السالك عندما يبلغ هذا المقام، يطّلع -في ضوء الصبح المنجلي بظهور الأنوار السماوية- على عيوبه وعيوب قومه التي كانت خفية عليه قبل ظهور هذه الأنوار. بتعبير آخر، إن عيوبه وعيوب قومه التي كانت خفية عليه من قبل لعدم تيسر العلم الكامل له، تنكشف عليه بانجلاء هذا الصبح. وعندها يصير هذا الإنسان مُغيرًا.. أي يشن على عيوبه وعيوب قومه الهجوم، ويقوم بتطهير نفسه ونفوس قومه.

أما قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فيعني أهم لا يبرحون يرفعون أصواهم عند تجلّي هذه الأنوار السماوية، بمعنى أهم عندما يُغيرون على تقاليدهم وأهوائهم وعيوبهم ساعين لإصلاح أنفسهم وقومهم، فإنهم يدركون جيدا أنهم لن ينجحوا في مقصدهم بجهودهم فقط، وأنهم مهما سعوا لإصلاح الأحوال فسوف تبقى جهودهم ناقصة، وسوف تبقى في أنفسهم وفي قومهم كثير من النقائص، وهناك طريق واحد لنجاحهم، وهو أن يدعوا الله تعالى بأن يعينهم في هذه المهمة ويبارك في جهودهم المتواضعة فضلاً منه ورحمة، فيرفعون أصواهم بالبكاء والابتهال أمام الله تعالى، لتجتذب أدعيتهم وابتهالاهم فضل الله. يقولون: اللهم انصرْنا ودَمِّرْ أعداءنا الذين يسعون ليُبعِدونا عن سبيل حبك وقربك، وعندما يجتمع الأمران.. أي جهودهم وابتهالهم لإزالة عيوبهم وعيوب قومهم، يحالفهم النجاح فيُدخَلون في جماعة "أَعْلَى عِلّيين". هذا هو معنى قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.. أي ينضمون إلى جمعٍ يستحق أن يسمى الجماعة. والتنوين في ﴿جمع﴾ للتعظيم، أي أنهم ينضمون إلى جماعة تستحق وحدها أن تسمى جماعةً، أي جماعة "أعلى عليين". وهكذا يحققون الهدف الذي خُلقوا من أجله في الدنيا.

هناك حادث لطيف لأحد الصوفية يبين ما ذكرتُه من أن السالكين يبذلون جهدهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يبتهلون إلى الله تعالى بالدعاء ليعينهم على محاربة الشيطان. يقال أن شخصًا حضر عند رجل صالح ليتعلم على يده وسائل التصوف ويتمتع بصحبته ويجاهد لصفاء روحه، فمكث عنده فترة طويلة أكمل فيها تعليمه، ثم أراد العودة إلى قومه لإصلاحهم، وقال لشيخه: سيدي، أرجو أن

تنصحني وأن توصيني وصية أخيرة. فقال له الرجل الصالح: هل الشيطان موجود في بلدكم؟ فاحتار التلميذ بسؤاله، وقال: الشيطان موجود في كل مكان. قال: إذا بطش بك الشيطان وأعاق طريقك إلى قرب الله تعالى فماذا تفعل عندها؟ لقد تعلّمتَ العلم، ولكن هل تعلَم أن الشيطان بالمرصاد للإنسان كل حين، ويبذل كل ما في وسعه لإغوائه؟ فإذا بدأتَ بالعبادات وسعيتَ جاهدا لتنال مقامًا من قرب الله تعالى، فسوف يأخذ الشيطان برجلك لإغوائك، فما ستفعل عندها؟ قال: سأحاربه بكل ما أوتيت من قوة. قال: حسنًا، لنفترضْ أنك حاربتَ الشيطان وانتصرت عليه، واستأنفت سيرك لتصل إلى الله تعالى وتصلح نفسك، ولكن الشيطان بطش بك مرة أخرى، فماذا تفعل؟ إن الشيطان لا يموت حتى تظن أنك ستقتله وتصير في مأمن منه. إن كل ما تستطيعه هو أن تهاجمه لتأمن منه مؤقتا، لكنك لن تتخلص من خطر هجومه ثانية، فإذا دفعتَه عنك ثانية سيهاجمك مرة ثالثة. صحيح أنك ستحاربه وتتخلص منه، ولكنه إذا لم يتركك رغم دفعه عنك ألف مرة، فماذا ستفعل إذن؟ قال: سأحاربه مرة أخرى. قال الرجل الصالح: صحيح أنك ستدافع وتهزم الشيطان ثم تعود إلى عملك، فيأتيك الشيطان مرة بعد مرة، فما الحل عندها؟ قال التلميذ في حيرة: سوف أحاربه. قال: إذا أنفذتَ عمرك كله في محاربة الشيطان فمتى تصل إلى الله؟

ثم قال لتلميذه: لو ذهبتَ إلى بيت صديق لك لزيارته ووجدتَ على بابه كلبًا، وكلما هممت بالدخول أتى الكلب وعضَّك من قدمك، فماذا تفعل؟ قال سأقاومه وسأضربه بعصا أو بحجر. قال: هَبْ أن الكلب فرّ حين ضربته بالعصا أو بالحجر، ولكنك حين أردت أن تدخل في الدار، أتاك من ورائك وأخذك من رجلك، لأن عليه حراسة البيت فلن يدَعك تدخل، فماذا تفعل إذن؟ قال سأضربه أيضا وأحاول إبعاده لأدخل الدار. قال: لنفترضْ أن الكلب هرب ثانيةً وعندما حاولت أن تدخل الدار للمرة الثالثة عاد وأخذك من رجلك، فماذا تفعل؟ قال: سوف أنادي صديقي وأخبره أن كلبه لا يدعني أدخل بيته، فليمنعْه. فقال الرجل الصالح: هذا هو علاج الشيطان. إن الشيطان كلب الله، فكلما أخذ برجلك ومنعك من التقرب إليه

تعالى، فعليك أن تنادي الله ﷻ قائلا: رب، أريد وصالك، ولكن كلبك هذا يحول دوني، فادفعْه عني. هذا هو الطريق الذي تستطيع به منع الشيطان من الهجوم عليك، وإلا فمهما منعتَه من طريقك فلن يتركك، بل سيهاجمك مرة بعد أخرى.

فقوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى أن السالكين يقاومون الشيطان ويغيرون عليه ويتخذون كل تدبير ويسعون بكل ما في وسعهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يشرعون في الدعاء ويقولون: ربّنا، لقد أوشكْنا على الموت، فأنقذْنا بفضلك وانصُرْنا. وإذا اجتمع هذان الأمران تيسّر لهم لقاء الله تعالى. فكما أن الرجل الصالح قال لتلميذه إنك إذا أردت لقاءَ صديقك فقُلْ له أن يمسك كلبه، كذلك إذا بذلتم جهدكم من جهة ومن جهة أخرى دعوتم الله تعالى بتضرع وخشوع وتواضع، أُدخِلتم في زمرة قوم يجلسون في المأدبة الملكية وورثتم أفضال الله ونِعَمَه.

باختصار، يرى الصوفية أن قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى البكاء والابتهال، وقد سبق أن ذكرنا أن النقع يعني الصوت أيضًا.

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

بُعْثِرَ: بَعْثَرَ: نظَر وفتَّش. وبَعْثرَ الشيءَ: فرَّقه وبدَّده؛ استخرجَه فكشفه وأثار ما فيه. وبعثرَ متاعَه: قلَب بعضَه على بعض. (الأقرب)

التفسير: الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ تقريري، واجتماع الاستفهام مع (لا) هنا يعني اجتماع نفيَين، وبالتالي صار المعنى إيجابيا، والمراد أنه يعلم بالتأكيد.

والاستفهام يفيد معاني عديدة منها التهديد والوعيد، وهو هنا بمعنى التهديد. والمعنى: ألا يعلم أنني خبير، أي عليه أن يعود إلى صوابه ويدرك أنه إذا لم يرتدع عن أعماله ستكون النتيجة وخيمة؟ في لغتنا - الأردية - أيضا نقول: ألا تعلم من أنا؟ والمراد أنك تعلم أنني قادر على عقابك، فعليك أن تخافني، وأحذرك أنك إذا لم

ترتدع عن تصرّفك فستكون النتيجة وخيمة، وأعاقبك عقابا شديدا. فمعنى الآية: ألا يعلمون أن الله خبير؟ وما داموا يعلمون فلماذا لا يرتدعون عن شرورهم؟ وها نحن نحذرهم أن يعودوا إلى صوابهم، لأن محاربة العليم الخبير لا تؤدي إلى خير. إذا لم يكن هناك داعٍ لأن يخاف فاعلُ الخير من الله العليم الخبير، فهناك ألفُ داع لأن يخاف الشريرُ منه تعالى.

أما قوله تعالى ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ فإن (ما) هنا إشارةٌ إلى الناس ومآلهم. وقد سبق أن بينتُ أنه إذا أُريد الإشارة إلى صفةٍ للإنسان أشاروا إليها بـــ (ما) في بعض الأحيان، سواء كانت هذه الصفة حسنة أو سيئة. فمثال الإشارة إلى الصفة الحسنة بـــ (ما) هو قوله تعالى عن السيدة مريم ﴿والله أعلم بما وَضَعَتْ﴾، أما مثال الإشارة إلى الصفة السيئة بـــ (ما) فهذه الآية قيد التفسير، حيث أشير بها إلى صفةٍ لذوي العقول بأنهم أصبحوا كشيء متعطل لا حراك به.

الحقيقة أنه لا يسمى إنسانًا إلا من كان به حركة وطموح للرقي ورغبة للتغير الحسن، ودلت أعماله على حياته. ولكن لن يسمى حيًّا مَن يفتقر إلى آثار الحياة هذه، والذي تموت طموحاته، وتنهار همته، وتبلى أفكاره، ويفقد قلبه أي أمل وحماس للتقدم، ويفتقر إلى القوة العملية، وتصبح أعماله بلا حيوية ولا قيمة. كلا، إنما الحي من توجد فيه آثار الحياة، أما الذي يفقد آثار الحياة سواء كان فردًا أو أمة فليس بحي أبدا.

والمراد من ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ هم أهل مكة، حيث بين الله تعالى أن هؤلاء القوم يفتقرون إلى كل ما يدل على حياة قوم. لا شك أنهم أحياءٌ يمشون على الأرض ظاهرا، لكنهم أموات في الحقيقة؛ إذ يفتقرون إلى أي طموح للتقدم والرقي، وحماس للعمل، ورغبة في العلم، وإحساس للتغير الحسن، بل قد ماتوا ودخلوا في القبور. ذلك أن الشيء الميت المرميّ على الأرض يمكن أن يحركه غيره، فمثلا إن الحجارة المرمية على الأرض شيء ميّت ولكن إذا حركها الصغير تحركت وتدحرجت بعيدا، ولكن الشيء الذي يكون مدفونا في القبر لا يستطيع تحريكه أحد. ثم هناك كثير من الأشياء التي تكون ميتة، لكن يمكن أن ينتفع بها الناس، فإن

الدلو مثلاً شيء ميت، لكنك إذا ألقيته في البئر تحرك وأخرج لك الماء. كذلك البَكَرة التي تكون على البئر شيء ميت، لكنك إذا حرّكتها تحرّكت ونفعتك، أما الشيء الذي يكون في القبر فلا يتحرك ولا يستطيع غيره تحريكه. فقوله تعالى ﴿ما في القبور﴾ إشارة إلى موتهم الشامل، فلا يتحركون بأنفسهم ولا يستطيع غيرهم تحريكهم، إذ هم مدفونون تحت التراب.

باختصار، يخبر الله تعالى هنا أن أهل مكة قوم لا يوجد فيهم صحوة من أي نوع، كما ليسوا على صلة بأمة ذات صحوة. ذلك أن الشعب الذي لا يكون عنده صحوة إذا كان على اتصال بأمة ذات صحوة، تغيّرَ وتحسّنَ. خذوا مثلا أهل الهند، فهم أمة ميتة، ولكنهم على صلة بأمة حية.. أعني الإنجليز، فلذلك يتمكن الإنجليز دائمًا أن يعبّئوا من أهلها مليونا أو مليونين من الجنود عند الحروب. ثم رغم أن الإنجليز قد جلبوا معظم خيرات الهند وثرواتها إلى بلادهم، فمع ذلك لا تبرح الدنيا تنظر إلى الهند بطمعٍ بسبب تجارتها المزدهرة، وليس ذلك إلا لأنها على صلة بأمة حيّة. فرغم أن الإنجليز قد ذهبوا بثروات الهند، إلا أنك تجد آثار الصحوة في أهلها بحكم اتصالهم بأمة حيّة. هناك سبيلان للحياة، إما أن يكون الشعب بنفسه حيًّا، أو يكون على صلة بشعب حيّ آخر، ولكن الأمة التي تكون مدفونة في القبر، فكيف السبيل لرقيها وتقدمها؟ فكون أهل مكة مقبورين يعني أن لا حياة فيهم، سواء الحياة الذاتية أو الحياة الإضافية التي تكون من خلال الاتصال بأمة أخرى.

فقوله تعالى ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ يعني أن هذا الشعب المتردي المفتقر إلى الحياة والمحروم من أي صلة بأمة قوية.. لا يعلم أنه سيأتي عليه زمان نقلِّبه ونحرِّكه وننفخ فيه الحياة ثانية.

ومن العجيب أنه قد حصلت في أهل مكة الذين كانوا أمواتا طبقًا لقوله تعالى ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ صحوةٌ محيرة بسبب الإسلام، شأن المغناطيس الذي يجذب قطعة الحديد إليه. فقد نُفخت الحياة في عظامهم البالية نتيجة معارضتهم للنبي ﷺ، وتولَّدت فيهم صحوة لم يسبق لها نظير في تاريخهم السابق. لم يكن الشعب العربي

ميتًا على الدوام، بل قد أتى عليه زمن رقيّ، ولكن لا يثبت من أي تاريخ أنه ظهرت فيهم قبل الإسلام آثار الحياة كالتي ظهرت بعد ظهوره. ليس في تاريخ العرب كلهم مثال واحد لخروج أهل مكة من بيوتهم بقصد الهجوم على قوم آخرين قبل ظهور الإسلام، لكن الإسلام هيّج عظام هذا الشعب الميت وملأ قلوبهم بالحماس. فكما أن السراج إذا أوشك على الانطفاء لنفاد زيته ارتفعت شعلته للمرة الأخيرة وانطفأت، كذلك عندما رأى هؤلاء القوم الموتَ في مواجهة الإسلام استجمعوا قواهم في المرة الأخيرة وخرجوا من ديارهم مسافة ٣٠٠ ميل ليصطدموا بالإسلام، فشنوا الغارات على أهله في معارك الأحزاب وأحد وبدر الأولى والثانية. هذه أربع معارك خاضوها بعيدا عن ديارهم مع أنه لا يثبت من أي تاريخ أنهم هاجموا قومًا خارج مكة بهذه المسافة. لذلك يقول الله تعالى هنا ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.. أي لا شك أنهم أموات في القبور، ولكننا سنُخرجهم من قبورهم في يوم من الأيام. وبالفعل تحرّكَ رفاتُ أهل مكة بالحياة كالشيء الذي يوصل بالتيار الكهربائي فيتحرك ويقفز. لا شك أن الحياة عادت إليهم بسبب معارضة الإسلام، ولكنها عادت على كل حال نتيجة احتكاكهم بالإسلام والمسلمين، وليس بدون ذلك.

وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١١﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى من قبل أن هؤلاء القوم الذين يَبْدون اليوم كالأموات سوف يجري دم الحياة في عروقهم ثانيةً لحماسهم في معارضة الإسلام ومحمد ﷺ، فيشنون غارة بعد غارة للقضاء على المسلمين، أما في هذه الآية فبين ﷻ أننا سوف نستخرج ما في قلوب هؤلاء القوم.. أي سوف نفضحهم أمام العالم بكشف ما في قلوبهم من خبث ونجاسة وشرّ بسبب بُعدهم عن النبوة ووقوعهم في الوثنية، لنخبرهم كم هؤلاء القوم سيئون في باطنهم.

كان أهل مكة سدنة الكعبة، يستقبلون الوافدين إليها بكلام معسول متكلّف. فكلما جاء أحد إلى مكة رحبوا به بحفاوة قائلين: أهلاً بمن جاء ليسجد للات ويضحي لعُزّى ويخر أمام مناة، نحن تحت خدمتك لأداء هذا الواجب. فكان الرجل يظنّ أهم قوم مهذبون صالحون خادمون لدينهم، إذ يرحبون بنا بحبّ وخُلق عال دون كلل أو ملل. الحق أن باطنهم كان نجسًا، لكنهم كانوا مؤدبين مهذبين في الظاهر فما كان لأحد أن يتوهم أن لا حظ لهم من الأخلاق الحميدة. والحق أن هذا هو حال كل منافق ومخادع؛ فإنه يكون مؤدبًا جدا في الظاهر، لكن باطنه نجس خبيث. عندما ينـــزل الحُجاج من السفينة في الأراضي العربية يجدون هناك قومًا يرحبون بهم بحفاوة كبيرة قائلين: تفضّلْ يا حاج، سوف نتولى حاجاتك كلها، حتى إنهم يتكلمون مع الحجاج بالأردية والبنجابية والكشميرية والبشتو (الأفغانية) أيضًا. ويبلغ بالبعض المكر بحيث إنهم يدخلون في السفينة الراسية ويُنـــزلون أمتعة الحجاج وينادون على الحمّالين: تعالَ، واحملْ متاع فلان وفلان. والعارف بحيلهم يعلم أنهم جاءوا لسلبه، ولكن الذي لا يعرف ذلك يفرح بهذه الحفاوة ويقول في نفسه يبدو أنهم يعرفونه منذ أجيال، فيذهب معهم حامدًا ربه ﷻ. فيُنـــزلونه بإكرام ويقولون للخدم: اغسلْ يده وقدِّم له الطعام والشراب. وعندما يفرغ من الطعام يقدمون له فاتورة طويلة، وعندها يعرف أنهم قد سلبوه. فالمنافق يكون متملِّقًا معسول الكلام، فيعتبره الرائي مؤدّبًا مهذبًا، مع أن قلبه مليء بالخبث والغش والشر. هكذا كان أهل مكة، إذ كان كلامهم معسولا وقلوبهم مليئة بالخبث، ولذلك يقول الله تعالى هنا: سوف نستخرج ما في بواطنهم من سوء وخبث وشر. وبالفعل عندما جاء الإسلام نسوا كلامهم المعسول وأظهروا من خبثهم ما أظهروا. فظلموا العبيد والولدان والنسوان، حتى قتلوا بعضهن بطعنهن بالرماح في فروجهن وشبّبوا بهنّ، وكالوا للمسلمين السباب والشتائم وتصرفوا تصرفات خادشة للحياء لا يأتيها مَن فيه ذرة من الشرف والحياء. أي ظلم أكبر من أنهم وجدوا الرسول ﷺ ساجدًا في الصلاة، فألقوا على رأسه كرش بعير؟ ثم ظلوا يضحكون عاليًا وكأنهم قد أحسنوا صنعا. كان أهل مكة سدنة الكعبة.. أي أئمة الدين ورجالاتها بالنسبة

إلى قومهم، ولكن هؤلاء الأئمة ورجال الدين قد بلغوا من الحضيض أن ألقوا على النبي ﷺ كرشًا ملطَّخًا بالنجاسة وهو ساجد في الصلاة، ثم ظلوا يضحكون فرحين. (الطبقات الكبرى لابن سعد: سمية، والبخاري: كتاب الصلاة)

ولذلك يخبرهم الله تعالى: يا أهل مكة، اليوم تتظاهرون بالصلاح أمام الناس، فيظنون أنكم عَبَدةُ اللات والعزى ومناة، المؤمنون بها والساجدون أمامها، سَدَنةُ البيت وحماتُه، الصالحون المقربون عند الله، مع أن الواقع أن بواطنكم مليئة بالخبث والشر والنجاسة، فاعلموا أننا سنقيم محمدا لنخرج ما في أنفسكم من خبث ونجاسة ومساوئ ورذائل لنفضحكم أمام العالم. وبالفعل قد هُتك من خلال النبي ﷺ سترُ أهل مكة وانكشفت للناس أخلاقهم الزائفة، فسبّوا المسلمين وظلموا العبيد والنسوان، وأخرجوهم من ديارهم، ومثّلوا بموتاهم ومضغوا أكبادهم. لقد بلغ بهم نكران الجميل أن جاء بعضهم النبيَّ ﷺ ضيوفا في المدينة، فمرضوا بسبب طقسها غير الملائم، فاهتم النبي ﷺ بعلاجهم بوجه خاص وأمر صحابته أن يسقوهم من لبن النوق، فلما شُفوا بعد أيام قتلوا راعي الإبل وساقوها وفرّوا (البخاري: كتاب الطب). ما أشدَّ تصرُّفَهم خبثًا ولؤمًا! إنهم يأكلون ويشربون ويشفون ثم يسرقون الإبل ويقتلون راعيها. وذلك كما فعل البعض في زمن المسيح الموعود عليه السلام في قاديان أيضًا، حيث كان المعارضون يأتونه ويتمتعون بضيافته، فيأكلون ويشربون ويقيمون عنده، ثم يهربون آخذين معهم الفراش ظانين أنهم قد أضروا الأحمديين ضررا كبيرا. فهؤلاء القوم أيضًا كانوا خبثاء جدًّا حيث شربوا ألبان نياق النبي ﷺ، وعندما شُفوا ساقوها بعد أن قتلوا راعيها.

ومن أمثلة خداعهم وغدرهم أنهم جاءوا مرة إلى الرسول ﷺ وسألوه أن يبعث معهم بعض الدعاة للدعوة والوعظ بين قومهم. فبعث ﷺ معهم سبعين من القراء. فلما وصلوا قريبًا من ديارهم قتلوهم جميعًا، ثم تفاخروا بسبب ذلك (البخاري: كتاب الجهاد)، مع أن هذا لم يضر محمدا ﷺ شيئا، فقد أعطاه الله تعالى حفاظًا آخرين، كل ما حصل هو أنهم افتُضحوا بين الناس نتيجة لؤمهم وغدرهم.

باختصار، كان أهل مكة مصابين بعيوب كثيرة من ظلم وفساد وبخل وكبر وشر ونكران جميل وغدر ولؤم وخسة وبهتان وإيذاء عبيد وولدان ونسوان، ولكن الآخرين ما كانوا يعرفون ذلك، بل كانوا يعتبروهم صالحين طيبين يخدمون الدين، لكن الله تعالى قال لهم إن الذين تظنوهم صالحين طيبين اليوم، سنفضحهم ونكشف لكم ما فيهم من خبث وسوء وشر. وبالفعل قد افتُضح أهل مكة عند ظهور الإسلام حتى تمزق رداء صلاحهم المزيّف لكونهم سدنة البيت، ولم ينصلح حالهم إلا بعد أن دخلوا في الإسلام.

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١٢﴾

التفسير: أقول دائمًا أن كلمة (البصير والعليم) إشارةٌ إلى العلم الإلهي فقط، أما (الخبير) فإشارة إلى عَمله بحسب علمه.. أي أنها تدل على إنزاله العقاب على المجرمين علاوة على معرفته بأحوالهم، وهذه الآية دليل على ما أقول، فكلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تدعم موقفي، ذلك أن العلم المطلق ميسّر لله تعالى دائما، ولا معنى لأن يكون عالمًا بالأشياء في يوم معين، فقوله تعالى ﴿لَخَبِيرٌ﴾ يشير إلى أمرين: الأول: أنه لا تخفى عليه جريمة من جرائمهم، وأنه سيعاقبهم بحسب معرفته المفصلة هذه. علمًا أن كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لم ترد في القرآن الكريم إلا مع صفة الله الخبير، فلم يقل الله تعالى أنه "يَوْمَئِذٍ لعليمٌ" أو "يَوْمَئِذٍ لبصير"، بل قال في كل مرة ﴿يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٍ﴾، فثبت أن الخبير لا يدل على العلم فقط، بل يدل على عقابهم أيضا. وفي لغتنا — الأردية – أيضا نقول على وجه التهديد: سوف أخبرك! أي سأجزيك على فعلك. فقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ يعني أنه لن يكون يومئذ على علم بأحوالهم فقط، بل سيجزيهم بحسب ذلك أيضا.

وليكن معلومًا أن الله تعالى قد ذكر هذه الكلمات في آخر السورة بعد قوله ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وذلك للإشارة إلى أنه سيعاقبهم حتما، ولكنه لن

يعاقبهم إلا بعد أن يفضحهم ويكشف للعالم عيوبهم الخفية. وهذا مبدأ أساسي في عقاب المجرمين، ولكن كثيرًا من الناس يجهلونه، فيعترضون على المبعوثين من الله تعالى قائلين: إذا كان هذا صادقًا فلماذا لا يُنـــزل الله العذاب على الناس فور معارضتهم له؟ لقد ردّ الله على اعتراضهم هذا عند الحديث عن أعداء النبي ﷺ، حيث بين أنه لو عاقبهم فورًا لانتابت قلوبَ الآخرين شتّى الشكوك والشبهات وقالوا إن أهل مكة كانوا صالحين طيّبين جدا، فلماذا أهلكهم الله؟ لو أمر الله تعالى محمدا ﷺ أن يقتل أهل مكة فورا لأن قلوبهم مليئة بالإثم والنوايا السيئة، لقال الناس: لقد ظلم محمد وأصحابه أهلَ مكة ظلمًا عظيمًا، إذ قتلوا هؤلاء القوم الذين كانوا صلحاء شرفاء نذروا حياتهم لخدمة ديننا! فكيف يجوز قتلهم هذا؟ أما وقد انكشف الآن للعالم تمامًا ما في بواطنهم من خبث وسوء وشر، وبلغ ظلمهم للمسلمين المنتهى، فيقول كل إنسان شريف إذا لم يحاربهم المسلمون فمن يحاربونه؟ لقد قتلوا الأطفال والنساء والرجال والعبيد وصبّوا عليهم من الفظائع ما يبكي الإنسان ذكرُه، وقد بلغت بهم وقاحتهم أن أجبروا زوجَ بنت النبي ﷺ الكافرَ على تطليقها، مع أنه قد تزوّجَها قبل بعثته ﷺ، ولم يفعلوا ذلك إلا بغضًا لرسالة وحدانية الله التي أتى بها. أما بنته ﷺ الأخرى فوقع زوجها في الأسر، فأخذ منه النبي ﷺ عهدًا أن يبعث بنته إلى المدينة عندما يرجع، فبعثها إلى المدينة، فخرجتْ على بعيرها، لكن بعض الأشقياء من كفار مكة قطع حبال هودجها فسقطتْ منه، وكانت حاملاً، فأصيبت إصابة ماتت بسببها بعد وصولها إلى المدينة (السيرة النبوية لابن هشام: خروج زينب إلى المدينة، والطبقات الكبرى لابن سعد: ذكرُ بناتِ رسول الله ﷺ). فكم يتنافى عملهم هذا مع الشرف والنبل؟ امرأةٌ حاملٌ تسافر وحدها إلى المدينة على جملها، ولا تؤذي أحدا، لكن الكافرين يهاجمون بعيرها ويلقونها من فوقه، فتصاب إصابة أودت بها بعد وصولها إلى المدينة. هل في العالم

مَن يبيح مثل هذا التصرف؟ هل مِن أحد يمكنه القول بعد هذا أن أهل مكة كان فيهم مسحة من الإنسانية والمروءة؟ كان تصرفًا وقحًا لئيمًا حتى لم تُطِقْه عدوةٌ لدود للإسلام مثل هند، فقالت وهي تعيِّر ذلك الشقيّ: الآن لم يبق لشجعان مكة إلا مهاجمة الحوامل؟ بينما يهربون من أمام المسلمين كما يهرب الفأر المذعور أمام القط.

ولما اشتدت فظائع أهل مكة بالمسلمين هاجر النبي ﷺ من مكة قائلا لأهلها: إذا كنتم لا تريدون بقائي فيها فأنا أتركها، فخَلُّوا سبيلي، لكنهم لم يرتدعوا عن تصرفاتهم، بل خرجوا للهجوم على المسلمين في المدينة على مسافة ٣٠٠ ميل.

هذا هو الشر والخبث الذي كان خافيًا في قلوبهم، وعندما انكشف للناس عاقبهم الله تعالى.

فتقديم قوله ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ على قوله ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ ليس بدون سبب، بل فيه حكمة بالغة، وهي الإشارة إلى أن الله تعالى سوف يُخرِج للناس أولاً ما في بواطن كفار مكة من خبث وفساد وسوء، ثم يأمر المسلمين بالهجوم عليهم لكي لا تقول الدنيا إن محمدا وأصحابه ظلموا أهل مكة. كلا، بل إنهم سيضربونهم بأمرنا بعد انكشاف مساوئهم للناس، وسيضربونهم ضربا قاسيا، وستقول الدنيا إن المسلمين قد أحسنوا صنعًا إذ ضربوهم، بل إنهم يستحقّون عقابًا أشد.

إذن، فقد قدّم الله تعالى قوله ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ على قوله ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ للإشارة إلى هذه الحجة التي كانت ستقام على أهل مكة الكافرين، حيث أخبر ﷻ: لن نعاقبهم قبل إتمام الحجة عليهم. لا شك أنهم كانوا ملطخين بهذه الأرجاس والأدران التي ظهرت الآن، ولكننا لو عاقبناهم قبل ظهورها لقالت الدنيا إن القوم كانوا من كبار الصالحين المقربين، فلماذا عاقبهم المسلمون؟

أما الآن فلا يستطيعون هذا الاعتراض، بل يعترفون أن ما فُعل بهم كان صدقًا وعدلاً.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ يعني أننا نعلم جيدا حال بواطنهم، ولكنا لن نعاقبهم إلا بعد إتمام الحجة عليهم. فأولاً نكشف للناس سوء بواطنهم، ثم بعد أن يطلع الناس على حقيقة أفعالهم وسوء سرائرهم نجعل المسلمين يهاجمونهم، حتى لا يظنّ أحد أنهم أهل صلاح وقداسة.

سورة القارعة

مكية وهي اثنتا عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية بلا خلاف (فتح البيان). والمستشرقون الغربيون أيضًا يتّفقون على ذلك، حيث اعتبرها المستشرق الألماني "نولدكه" والسير "وليام موير" من أوائل السور المكية. (تفسير القرآن لــ"ويري")

الترتيب والترابط:

إن السورة السابقة تتحدث عن رقي النبي ﷺ وغلبته المتعلقة في زمن بعثته، أما هذه السورة فتتحدث عن رقي دينه ﷺ في الزمن الأخير حين تأتي على الإسلام أيام المحن والمصائب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

القارِعَةُ: قرَع البابَ قَرْعًا: دَقَّه. وقرَع الشيءَ: ضربَه. وقرَع صفاتِه: تنقّصَه وعابه. وقرَع السهمُ القرطاسَ: أصابه. وقرَع زيدًا أمرٌ: أتاه فجأة. (الأقرب)

ومن معاني القرْع: الصوتُ الشديد -وهذا المعنى لم يرد في القواميس بل ورد في التفاسير- حيث قال المفسرون القارعة هي القيامةُ، وقد سُميت قارعةً لصوت

إسرافيل الذي سينفخ في الصور فيموت جميع الخلائق. (فتح البيان، وروح المعاني، وابن كثير)

وقد ورد في أقرب الموارد: القارعةُ: القيامة، لأنها تقرع بالأهوال؛ الداهيةُ؛ النكبةُ المهلكةُ؛ سريّةٌ (جيش صغير) لنبي المسلمين."

التفسير: لقد ورد لفظ "القارعة" في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم: في سورة الرعد والحاقة وهذه السورة.

قال الله تعالى في سورة الرعد ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(الرعد:٣٢). والمراد من القارعة هنا الجيوش الإسلامية التي سوف تشنّ الغارات على أعداء الإسلام باستمرار. ولما كان من الوارد أن تساور البعض شبهة أن هجمات الإسلام تكون عدوانيةً فردّ الله على هذه الشبهة هنا فقال ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾.. أي أن هذه الهجمات لن تكون عدوانًا من قبل المسلمين، بل ردًّا على اعتداءات الكافرين، وعندما يردّ عليهم المسلمون بهجمات مضادة سيخمد شرّهم ويضعفون شيئا فشيئا، ويتقوى الإسلام باستمرار إلى أن تصل جيوشه مكةَ وتفتحها.

والموضع الثاني الذي وردت فيه كلمة القارعة هو قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة:٥-٧). لقد ذكر الله تعالى هنا نوعين من العذاب ووصف كلا النوعين بالقارعة، مما يعني أن القارعة تعني هنا الداهية والنكبة المهلكة، حيث أخبر الله تعالى أن الأنبياء الذين بعثوا إلى أمة ثمود وأمة عاد نصحوهم أن ينتهوا عن كفرهم كيلا يقعوا في المصائب، لكنهم لم يبالوا بتحذيرهم ورفضوا قولهم. فأخبرهم أنبياؤهم أن العذاب سيحلّ بهم الآن ويُدمّرون، ولكنهم لم يرتدعوا و لم يصلحوا حالهم، بل ضحكوا عليهم أكثر، فعاقب الله تعالى ثمود بزلزال هائل دمرهم

كلية، وأما عاد فأهلكهم بريح شديدة. وبالفعل قد عثر علماء الآثار لدى حفر أراضي هذه الشعوب على مدن كبيرة مدفونة تحت الرمال.

أما لفظ القارعة التي نحن بصدد تفسيرها فيعني النكبة المهلكة.

إن التدبر في هذه الآيات يكشف أن القارعة عذاب يحل بقوم آيةً على صدق النبي، سواء حلّ بهم على يد النبي أو أتباعه أو أنزله الله تعالى مباشرة بدون واسطة إنسان. ومثال حلول العذاب على يد النبي أو أتباعه ما ذكره الله في سورة الرعد ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾، حيث تعني القارعة هنا السرايا التي كان النبي ﷺ يجهّزها ويبعثها. ومثال العذاب الذي يأتي به مباشرة بدون واسطة هلاكُ ثمود بزلزال، فكان أمرًا ربانيا مباشرا لا دخل فيه لأي إنسان، وهلاكُ عاد بريح صرصر عاتية... فهذا أيضا كان أمرا ربانيا مباشرا، إذ لا يقدر إنسان على إبادة أحد بالريح. وقد سميت هذه الأنواع من العذاب قارعةً لأن من معاني القرع دَقَّ البابِ ونَقْرَه. فحين يرفض الناس صوت المبعوث الرباني بسبب نومهم الروحاني العميق يرسل الله عذابه ليقرع عليهم أبوابهم ليستيقظوا، وهذه القرعات توقظهم من سباتهم الروحاني فيستجيبون لصوت الرسول في نهاية المطاف.

باختصار، إن القارعة عذاب يأتي تصديقًا للنبيّ. يقول الله تعالى هنا: ﴿القارعة﴾.. أي سوف تحلّ بالدنيا نكبةٌ تقرع على أهلها أبوابهم.

ثم قال ﴿ما القارعة﴾. و ﴿ما﴾ هنا تفيد التفخيم والتعظيم، أي أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم حقيقة هذه النكبة.

وقد كرر الله هنا لفظ القارعة قائلا: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ تهويلاً لهذه النكبة، وفي لغتنا –الأردية–أيضا يكررون الكلام تهويلاً. فكأن الله تعالى يخبر هنا أن المصيبة التي نتحدث عنها ليست عادية، بل هائلة جدًا. إن كلمة القارعة بحد ذاتها تدل على الصوت المخيف والدمار الهائل، ومع ذلك كررها الله تعالى بدلاً من استعمال ضميرها فقال ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، ليبين أن النكبة الآتية تحير الإنسان من شدة هولها، حتى إن لفظ القارعة وحده لا يبين أهوالها بشكل كامل. والحكمة في إعادة كلمة ﴿القارعة﴾ نفسها بدلاً من الضمير أنه لو أُتِيَ بضميرها لغابت ﴿القارعة﴾

نفسها عن الأنظار. فمثلا لو قلت: "جاءِ زيد فقلتُ له"، فالضمير (له) ليس بنفس قوة كلمة (زيد). لا شك أنه ليس هناك فرق من حيث المفهوم بين أن تقول: جاء زيد فقلت له، وبين أن تقول: جاء زيد فقلت لزيد، لكن تكرار كلمة (زيد) فيه وَقْعٌ لا يوجد في الضمير (له). فكرر الله تعالى كلمة ﴿القارعة﴾ بدل أن يأتي بالضمير لبيان أن هذه القارعة أمر عظيم لا يمكن أن يغيب عن أنظار الناس. إن الضمير يأتي للشيء الغائب، ولكن تلك المصيبة هائلة لدرجة أن الإنسان لا يقول ما هي، لأن قوله هذا يعني أنها غابت عن ذهنه، إنها ستظل ماثلة في الأذهان بحيث يقول الإنسان ما القارعة، فتكرار كلمة القارعة إشارة إلى أنكم لن تنسوا تلك المصيبة الهائلة.

باختصار، إن الله تعالى قد قام بتفخيم تلك النكبة بطريقين:

أولا: بالسؤال عنها بـــ (ما) الاستفهامية. ثانيًا: بتكرار كلمة ﴿القارعة﴾ بدلاً من ضميرها. وكأن الإنسان يقول في حيرة: لا أفهم ما هذا الشيء، ثم يقول إنه أمر مهيب لا يغيب عن الأنظار، لأنه حين تحل مصيبة عظمى في الدنيا يقول الناس إنها لا تزال ماثلة أمام أعيننا كل حين، و لم نستطع نسيانها.

ثم قال الله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. وهنا أشار إلى هول تلك المصيبة مرةً ثالثة، وأخبر أنه حادث هائل يستحيل على عقل الإنسان استيعابه؛ إذ لا تقدر المفردات على التعبير عنه.

هذا البيان يماثل قول الرسول ﷺ في وصف الجنة: "مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ" (البخاري، التفسير، سورة السجدة)، وقد أشار الله تعالى إلى المعنى نفسه في القرآن الكريم بقوله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(السجدة:١٨). ورغم أن الله تعالى قد وصف الجنة بالتفصيل في آيات القرآن بكثرة، فقال إن فيها أنهارا وبساتين وأنواع الأكل والشرب، ومع ذلك فالجنة لا يمكن تخيُّلُها، وإنما جاءت هذه الأوصاف لتقرِّب مفهوم الجنة إلى أفهامنا، لكي يتيسر لنا إدراكٌ بنعمائها ولو كان إدراكًا بسيطًا، وإلا فليس المراد أن في الجنة نفس اللبن والماء والعنب والرمان والموز التي نجدها في الدنيا. فلما خاف النبي ﷺ

أن يفهم الناس من أوصاف الجنة في القرآن الكريم أن فيها أنهارًا وبساتين وأثمارًا وأزهارا كالتي نراها في الدنيا قال: لا أستطيع وصف نعماء الجنة؟ فإن فيها "مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ".. أي لا تظنوا بما تقرأونه أو تسمعونه من وصف الجنة في القرآن أو الكتب القديمة أنكم أدركتم حقيقتها ونعمائِها. كلا، هذا محال. ثم قال ﷺ: "وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، ذلك أن الإنسان قد لا يستطيع إدراك كنه الشيء برؤيته ولا بسماع وصفه، ولكنه يدركه بسمو خياله، لأن طيران الأفكار أقوى وأرفع حتى يصل الإنسان في أفكاره إلى الشمس والقمر، فهكذا يجعل الخيالُ المحالَ ممكنا له، ولكن الرسول ﷺ أوضح أنّ سموّ فكر الإنسان أيضا لا يمكن أن يساعده في إدراك كنه الجنة، فمهما حاولت قوته المتخيلة رسمَ الجنةَ له فهي تفشل في رسمها، ومن المحال أن يدرك كنْهَها بسموّ فكره.

فكما أن الرسول ﷺ قد بيّن لنا ماهية الجنة بثلاث جمل، كذلك قد بين القرآن الكريم عظمة "القارعة" هنا بثلاث جمل، فقال أولاً: ﴿الْقَارِعَةُ﴾، فعرّفها بأداة التعريف ليشير إلى كمالها، بمعنى أنها صوت شديد أو مصيبة هائلة جدًّا جدًّا. ثم قال ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، وهذا أيضا تفخيم لشأنها. ثم أردفه بقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. أي لم تتضح لكم عظمتها كما ينبغي، إذ هي أعظم من أن تدركوا حقيقتها بالكلمات فقط، فلذلك لن تدركوها اليوم.

والبديهي أن الإنسان إذا لم يدرك كُنْهَ شيء أو فَشِلَ في تقدير عظمته وهوله وَصَفَه بلغة التمثيل والمجاز، أو ذَكَر بعض نتائجه للآخرين. فمثلاً إذا رأى المرء مشهدًا عظيما رائعا لا يُرى إلا بالقوة الروحانية، وصَفه للآخرين بلغة المجاز والاستعارة، أو بذكر بعض تأثيره ونتائجه. وخذوا مثلا الله ﷻ، فإنه لا يُرى بالعيون المادية، إذ ورد أن عائشة رضي الله عنها سألت النبيَّ ﷺ مرة: هل رأيتَ ربك؟ فقال: نورٌ أنّى أراه؟" (مسلم: كتاب الايمان). فرؤية الله تعالى بالعيون المادية أو القوى الجسدية محال باليقين، ولكن لا يمكن إنكار رؤية البارئ أيضًا، لأن أحباء الله تعالى يرونه، ولكن رؤيته هذه تكون من خلال مشهد تمثيلي، كما قال الرسول ﷺ رأيت ربي في صورة شاب (كنـــز العمال، كتاب الإيمان)، أو من خلال صفاته

تعالى.. أي مِن خلال التدبر في صفاته ﷻ، فعندما نتدبر في صفته "الرب" نرى وجوده ﷻ قريبًا منا، وعندما نتدبر في صفاته الرحمن والرحيم ومالك يوم الدين نراه ﷻ تعالى أقربَ إلينا أكثر فأكثر. والمراد من رؤية صفاته تعالى رؤية نتائجها، فحينما نرى في الدنيا مشاهد مختلفة لربوبية الله نرى إلهًا ربًّا أمام أعيننا، عندما نرى مشاهد رحمانية الله تعالى نرى إلهًا رحمانًا أمام أعيننا، وحين نشاهد مشاهد رحيمية الله تعالى نرى إلهًا رحيمًا أمام أعيننا، وحينما نرى مشاهد مالكية الله تعالى نرى أمامنا إلهًا مالكًا ليوم الدين. ومع ذلك كله يظل تصورنا عن الله تعالى ناقصًا. هذه هي رؤية الله التي تتيسر للمؤمنين. وعندما يرتقي المؤمن من هذا المقام تنــزل أنوار الله تعالى على قلبه، فيُشحن بقوى روحانية جديدة وبحماس جديد وبمحبة جديدة. وعندما يرتقي أكثر ينــزل عليه كلام الله تعالى، فهكذا لا يزال المؤمن يرتقي درجة فدرجة وينال مقامًا فوق مقام من رؤية الله تعالى. لكنه مهما ارتقى فلن يبلغ المقام الذي بلغه الرسول ﷺ. وما دام الرسول ﷺ نفسه يقول عن رؤية البارئ تعالى: "نورٌ أنّى أراه"، فمن ذا الذي يمكنه أن يقول -مهما بلغ من المقام الروحاني- إنه رأى الله تعالى فعلاً؟ كل ما يشاهده إنما هو تجلٍّ لصفاته تعالى، ويكون هذا التجلّي بحسب درجته الروحانية. لقد تجلّى الله على عيسى بن مريم بأنْ نزَلَ عليه روح القدس في صورة حمامة وبلّغه كلام الله (مرقس ١: ١٠)، بينما تجلى الله على الأنبياء الآخرين بصورة نار، أو بصورة إنسان كامل، أو من خلال بعض صفاته أو تجلى بانعكاسه على قلبه. بيد أن الإنسان لن يراه إلا بقدر ما نال قلبه من الأنوار السماوية، ولا بد -في كل حال- من بيان تمثيلي لوصف رؤية الله.

باختصار، كلّ ما يستحيل على الإنسان إدراكُ كنهه، فإنما يُدرَك بوصف نتائجه أو بوصفه مجازًا وتمثيلا، ولذلك قال الله تعالى هنا أولاً إنكم لن تدركوا كُنْه هذه القارعة قبل وقوعها، ثم ذكر بعض نتائجها تقريبًا لأهوالها إلى أفهام الناس، فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. أي ما الذي يمكن أن يبين لكم حقيقة القارعة، أي لن تستوعب قوتكم الخيالية حقيقة القارعة مِن خلال بياننا هذا، لذلك نذكر لكم بعض نتائجها لتدركوا من عظمتها وهيبتها شيئا.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٥﴾

شرح الكلمات:

الفَراش: جمعُ الفراشة، وهي حيوان ذو جناحين يطير ويتهافت على السراج فيحترق؛ غوغاءُ الجراد. (الأقرب)

فلأن الجراد يطير أسرابًا فيها ملايين الملايين منه، فتحدث صوتًا في الجوّ، فغوغاؤها أيضا يسمى فَراشا. وبعض المفسرين من اللغويين قد فسروا الفراش بمعنى الجراد.

وورد أيضًا: الفَراشُ ما يبِس بعد الماء من الطين على الأرض؛ والفَراشُ من النبيذ: الحَبَبُ الذي يبقى عليه. (الأقرب)

المبثوث: بَثَّ الخبرَ بثًّا، وبثّثَه وأبثّه: نشَره وأذاعه، ومنه: بُثُّوا الخيلَ في الغارة، وبثَّ كلابَه على الصيد، وخلق الله الخلق فبثَّهم في الأرض. وبثَّ الغبارَ: هيَّجه (الأقرب). ومنه في القرآن الكريم ﴿هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ بمعنى نشره وإذاعته.

التفسير: ونظرًا إلى المعاني المذكورة آنفًا، سيعني قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أن الناس يكونون يومَها كالفراش المشتّتة. الفراشة تكون في حالتين، إحداهما حين تكون أمام السراج، والأخرى حينما لا يكون هناك سراج. فإذا كان الضوء أمامها توجهت كلها إليه، ولكن إذا انطفأ السراج تشتّتت وتوجَّهَت يَمْنة ويسرة. وفي أيام المطر لا تخرج الفراشات الصغيرة، ولا الكبيرة أيضا. ويرجع علماء الحيوان ذلك إلى أن الفراشات تعيش في باطن الأرض، وفي أيام المطر تتمنى أن تخرج منها، وعندما تخرج وترى الضوءَ تعتبره ثقبًا وراءه عالَمٌ آخر، فتندفع نحوه وتتهافت عليه ظنًا منها أنه لا يزال أمامها مسرح للتمتع بالحرية. وأيا كان السبب فإنها تجتمع حول السراج المضيء، وإذا أطفأتَه تفرقت وتشتتت. وعليه فقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يعني أن الناس يومها يكونون متفرقين ومشتّتين تائهين هنا وهناك كأنهم الفراش الذي يكون بدون

ضوء، فلا يرون ضوءاً ولا يجدون مَخْلصا من مصائبهم، ويصبحون حيارى من أمرهم. فالآية ترسم ذروة عجزِهم وقلةِ حيلتهم.

ومن معاني الفراش: الجرادُ، فعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أنهم سيكونون كالجراد المشتَّت. لقد بيّنتُ عند الحديث عن القارعة أن أئمة اللغة الذين يفسرون القرآن أيضا يقولون إن من معاني القرع: الصوت الشديد (فتح البيان). وقد ركّزت على هذا المعنى لأنه ذو علاقة بالآيات التالية. لقد بين الله تعالى هنا أن الناس سيصبحون يومئذ كالجراد المشتت، ونرى أن أكبرَ وسيلة لتخويف الجراد وتشتيته هو الصوت. يقال إن الجراد ضعيف البصر، ولكنه قوي السمع، فإذا خُوِّف بصوت قوي أخَذ يطير بشدة. والعادة في المدن والقرى أنه عندما تأتي أسراب الجراد وتقع على الزروع لتأكلها، يدقّون الطبول وما شابهها فتأخذ في الطيران ثانية. كذلك من التدابير التي تتخذها الحكومات عند هجوم أسراب الجراد على الزروع أنهم يحفرون في طريقها خنادق يقف العمال بالمعاول والسلات بجانبها، ثم يطيِّرون الجراد بالطبول وغيرها في تلك الناحية، ولكنها لا تستطيع الطيران طويلاً، فتسقط في الخنادق، فيدفنها العمال فيها. كما أنهم يشردّونها بتفجير القنابل في هذه الأيام، لأن صوتها الهائل يخيفها فتطير وتسقط في الخنادق حيث تُدفن.

فقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يعني أنه عندما تقع القارعةُ -أي الصوتُ الشديد الهائل - فإن الناس يتشتتون تاركين كل شيء، ويفرون هنا وهناك لا يجدوا لهم مخلصًا ولا مهربًا، شأن أسراب الجراد التي حين تُشرَّد بصوت الطبول أو القنابل، يصيبها الهول فتنسى أكل الزرع والشجر، وتهرب من مكان اجتماعها.

ومن معاني الفراش ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض، كما يقال بثَّ الغبارَ: هيّجه، وعليه سيكون المراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أن القارعة ستطيِّر الناس كما يُطيَّر الغبار. ذلك أن قِطَعَ الطين اليابس التي تتكون بعد جفاف الماء لا تكون قويّة -وإنْ بدتْ قويةً- لأنها تكون صغيرة

الحجم، وإذا جرى عليها الحصان تمزقت وصارت غبارا. كذلك يخبر الله تعالى هنا أن القارعة ستجعلهم مثل الغبار المطيَّر.

ومن معاني هذه الآية أن هذه المصيبة ستمزقهم فتجعلهم كالفَراش الصغير الخفيف الطائر في الجوّ.. أي أن تلك القارعة تكون شديدة جدًا حتى تمزق الناس إربًا.. فتطيِّرهم في الهواء كالفراشات، ولن يُعرف مصيرهم، ولن تبقى صورهم كصور الناس، بل يصبحون كالفراشات الصغيرة الطائرة في الجو.

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

العِهْن: الصوف أو المصبوغ ألوانًا. (الأقرب)

المَنْفوش: نفَش الصوفَ وغيره ينفُشُه نفْشًا: إذا مَدَّه حتى يتجوّف (لسان العرب). ونفَش القطنَ والصوف نفشًا: شعَّثه بالأصابع حتى ينتشر. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يعني: ستكون الجبال كالصوف الممدود المجوَّف.

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا مواصفات أخرى لهذا العذاب. لقد بيَّن الله تعالى من قبل أن هذا العذاب يكون شديدا حتى إذا كان الناس مجتمعين في صورة جيش مثلاً تفرّقوا مدركين أن في اجتماعهم خطرًا، وإذا كانوا يقيمون في المدن فيخرجون من بيوتهم إلى البراري من التأثير المهيب لهذا العذاب، ويرون أن لا مناص لهم إلا أن ينتشروا ويتفرقوا، ومن ناحية ثانية تكون هذه المصيبة شديدة بحيث تصيب الناس بالعمى، فيتيهون هنا وهناك من دون أن يهتدوا سبيلا، مثل الفراشات التي تطير هنا وهناك من دون أن تعرف لها سبيلا، أو أن هذه المصيبة تكون شديدة بحيث تمزّق الناس إربًا فتطير لحومهم في الهواء كأنها فراشات طائرة. أما الآن فأخبر الله تعالى أن بعضهم إذا هربوا إلى الجبال ظنًّا منهم أنهم سيكونون في

مأمن هناك، فلن يجديهم هذا شيئًا لأن العذاب يكون شديدا لدرجة أنه يجعل الجبال كالقطن الممدود المشعَّث.

كنت أظن من قبل أن هذه الآيات تشير إلى شتى المخترعات الحربية المدمرة التي تُستعمل عادةً في هذا العصر مثل المدافع وغيرها، ولكني فهمتُ الآن أن القارعة هي القنبلة الذرية، لأن مواصفات هذا العذاب تنطبق كليةً على الدمار الذي تخلّفه القنبلة الذرية. إنها مدمرة لدرجة أن لا مناص منها للناس إلا أن يتشتتوا وينتشروا. إنها تحرق كل شيء من إنسان وحيوان ونبات وما إلى ذلك في مدى سبعة أميال، بل إن البحوث الجديدة تؤكد أنها تدمر كل شيء في مدى أربعين ميلا. عندما أُلقيت القنبلة الذرية على هيروشيما ذكرت الإذاعة اليابانية أنها خلّفت دمارا هائلا حتى وُجدت قِطع لحوم الجثث البشرية على بعد أميال وأميال. وهذا هو الوصف المذكور في هذه الآيات القرآنية حيث لن تسلم جثة الإنسان أيضا، بل إن عظامه ولحمه تتمزق إربًا وتطير في الجو كالفراشات. والحال نفسه يكون للجبال. إنهم لم يقوموا بتجربة نسف الجبال بالقنبلة الذرية بعد، ولكن يقال إنها ستتطور بحيث لن تسلم من دمارها الجبال. فيما يتعلق بمدى دمارها فإنها لا تبقي ولا تذر أيَّ شيء لأميال وأميال، وفيما يتعلق بحجم دمارها فلم يكمل العلماء بحوثهم بعد، ولكنهم يأملون أنهم سيطوّرونها حتى تنسف الجبال والقلاع في لمح البصر.

وقد فُسرت القارعة بمعنى القيامة، وهي نفس الكلمة التي لا يزالون يرددونها حتى اليوم بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي، فيقولون إذا لم يرتدع الناس عن الحرب فستقوم القيامة. وقد قال البعض إن هذه القنبلة ستمحو وجود الإنسان نفسه من على وجه الأرض، بينما يرى البعض أنها لن تمحو وجود الإنسان ولكن من المؤكد أنه لن تُبْقي أثرًا للحضارة الحالية، لأنها ستدمر المدن والقرى، والقلة من الناس الذين سيبقون بعد الدمار الذري سيعيشون في الغابات. ويرى البعض أنه إذا استُعملت القنبلة الذرية بلا هوادة فسوف يشمل الأرض دمار لن يعرف الباقون من الجنس البشري بسببه كيف يُشعلون عود الثقاب، إذ تُدمَّر المصانع ويهلك العلماء وينسى الناس تقاليدَهم السابقة لكي يزول عنهم تأثير

أحزاهم، فيعود الناس مرة أخرى إلى استعمال الزند، وسوف يعود الإنسان إلى نفس الفترة البدائية من حضارته ثانية، وسوف يضطر الناس للبدء في شتى المخترعات من جديد، وسوف يخترع عود ثقاب بعد زمن طويل.

إذن، لقد بدأ الناس يصوّرون أهوال دمار القنبلة الذرية بحيث يبدو أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يتحدث عن القنبلة الذرية فعلاً. فأيُّ دمار يكون أشدَّ فتكًا وهولاً من دمار القنبلة الذرية التي دفعت دولةً قوية لا يزال عندها تسعة ملايين جندي إلى الاستسلام أمام الحلفاء حين ألقوا عليها قنبلتين ذريتين فقط.

ومن معاني الجبل سيد القوم (الأقرب)، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أن كبار القوم وأسيادهم يصبحون كالقطن المشعَّث، بمعنى أهم سيفقدون قوهم وسلطتهم، ويصبحون بلا حول ولا قوة. والواضح أن عظمة كبار القوم تكمن في كفاءهم الإدارية، لكن لا قِبلَ للتدبير والإدارة أمام دمار هذه الأسلحة الفتاكة الخطيرة، فلا بد أن يفقدوا عظمتهم وأهميتهم.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٧﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٩﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

موازين: جمعُ ميزان: آلةٌ ذات كفّتين يُوزَن بها الشيء ويُعرَف مقداره من الثقل؛ العدلُ؛ المقدارُ. (الأقرب)

أُمُّهُ: الأُمّ الوالدة، وأُمُّ الشيء أصلُه، وأُمُّ الدماغ أو أُمُّ الرأس: الجِلدة التي تجمَع الدماغَ؛ وأُمُّ أربعٍ وأربعين: دُويبة سامة. (الأقرب)

هاوية: هَوَى الرجلُ: ماتَ. وهوى الشيءُ: سقَط مِن علوٍّ إلى أسفلَ. والهاوية: الثاكلةُ؛ مِن أسماء جهنم (الأقرب).

"فأمه هاوية" يعني أن أُمَّه أو أصلَه ساقطةٌ إلى الأسفل، وبتعبير آخر إن أُمّه الانحطاط والزوال.. أي أن فيه بذرة الانحطاط فلا يزال يسقط وينحطّ.

التفسير: لقد وردت في القرآن كلمة الميزان والموازين أيضا، حيث ذكر الميزان بالنسبة إلى الله تعالى والموازين بالنسبة إلى العباد. ذلك لأن في العالم موازين كثيرة، فالملايين يزنون للآخرين والملايين يوزن لهم، أما يومَ القيامة.. حين تظهر نتائج أعمال الناس.. فلا يكون هناك إلا واحد بيده الميزان، بينما يكثُر الذين يوزن لهم. وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم بكلمات أخرى أيضًا إذ قال ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾.. أي في ذلك اليوم لن يكون أحد من البشر مالكًا، بل يتجلى الله وحده بمالكيته الكاملة عندها. فحيث إن العباد الذين توزَن لهم أعمالهم كثرٌ، فاستعمل الله تعالى لهم كلمة الموازين في القرآن، وحيث إن الوازن واحد يوم القيامة فاستعمل الله لنفسه لفظ الميزان فقط.

وليكن معلومًا أنه حيثما وردت كلمة "القارعة" في القرآن دلت على النتيجة التي يأتي بها الله بشكل خاص في زمن أنبيائه، مما يعني أن القارعة ليست عذابًا عاديا، إنما يراد بها ذلك العذاب الخاص الذي يحلّ للدلالة على صدق الأنبياء، سواء مباشرة أو غير مباشرة، والذي يرى الناسُ وراءه يدَ الله تتحرك، وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ جاء للإشارة إلى نتائج هذه القارعة، إذ هي عذاب تُرى وراءه يدُ مشيئة الله تعالى. فكما أن الله تعالى قد نسب إلى نفسه هجماتِ الصحابة على الكفار، وعذابَ "الطاغية" التي أهلكتْ ثمود، وعذابَ "ريح صرصر" التي دمّرتْ عادًا، لكون هذه العذابات كلها قد جاءت بمشيئة الله وإرادته الخاصة، كذلك ينسب الله تعالى هنا نتائج هذه القارعة إلى نفسه، لأنها جاءت طبق النبوءات الإلهية. لقد أخبر الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام سلفًا في وحيه ما تعريبه:

"ستظهر آيات كثيرة، وستُدمّر بيوت العديد من الأعداء، وسوف يرحلون من الدنيا. ستبعث رؤية تلك المدن على البكاء، وستكون تلك أيام القيامة. وسوف يتمّ الرقيّ بالآيات القاهرة". (التذكرة ص ٦٠٧-٦٠٨)

فلأن الله تعالى قد أخبر عن هذه العذابات في وحيه سلفًا، فعذاب القنبلة الذرية يُنسب إلى الله تعالى وإن كان من اختراع العباد.. تمامًا كما أن الله تعالى عذَّب الكفار بأيدي الصحابة، لكن القرآن قد سماه القارعة، وذلك لأن ذلك العذاب قد حلَّ بالكافرين بحسب الخطة الإلهية. باختصار، إن البلاء الذي لا يأتي صدفةً، بل يقع بحسب خطة ربانية أو نبوءة إلهية يسمى قارعةً للتدليل على أن نتائج هذا العذاب إنما تظهر بحسب المشيئة الإلهية.

لقد أخبر الله تعالى هنا أن الأمة التي تكون كفّتها راجحةً ستعيش في بحبوحة عيش ورخاء، أما الأمة التي تكون كفتها خفيفةً فسوف تهلك. وهذا ما يقوله الحلفاء اليوم بأننا قد انتصرنا لأن كفتنا كانت راجحة، بينما تقول قوات المحور بأننا انهزمنا لأن كفتنا كانت خفيفة.

ومن معاني رجاحة الكفة أن الذين تكون سفنهم أثقل وزنًا هم سينتصرون. وهذا التعبير شائع بكثرة في هذا الزمن، حيث تقول الحكومات في إعلاناتها دائما أن زنة سفننا كذا وكذا من الأطنان، أو أننا ألقينا على العدو قنابل تزن كذا وكذا من الأطنان. فالله تعالى أيضًا يخبر هنا أن الذين يكونون أكثر زنةً أو أكثر عتادًا فهم في عيشة راضية، أما الذين تكون زنتهم أقل فسيُلقَون في الهاوية. وهذا كما قال الإمبراطور الياباني إن أكبر أسباب هزيمتنا قلّة عتادنا. وهذا ما قاله هتلر أيضا. مما يعني أن الحروب في هذا العصر لا تُكسَب بالشجاعة والقوة الجسدية، بل مدار الحروب اليوم هو على كثرة العتاد، فمن زادت زنته انتصر، ومن خفت زنته انهزم.

ويتضح من القرآن الكريم أن كلمات ﴿مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ تُستعمل لمن كانت حسناته أكثر، وكلمات ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ تُستعمل لمن كانت حسناته أقل، وعليه فالمفهوم الثاني لهذه الآية أن الذين كثرت حسناتهم ينتصرون وأن الذين قلت حسناتهم ينهزمون. وهذا يعني أن النتيجة ستظهر بطريقين: فعند المواجهة المادية

ينتصر الذين هم أكثرُ عتادًا ماديًا، وينهزم الذين هم أقل عتادا ماديا، أما عند المواجهة الروحانية فسينتصر الذين تستحق أعمالهم أن تسمى أعمالاً روحانية، وينهزم الذين لا تستحق أعمالهم أن تسمى روحانية. فالانتصار الأول مداره المادية، والانتصار الثاني مداره الروحانية.

لقد ذكرتُ في بداية هذه السورة أنها تتحدث عن غلبة الإسلام ثانيةً، حيث بين الله تعالى أنه سيأتي على الإسلام أيام المصاعب والمحن في الزمن الأخير، ثم يهيئ الله ظروفًا وأسبابًا ستؤدي إلى انتصاره مرة أخرى، وهذه الآيات تدعم دعواي هذه، حيث أخبر الله تعالى فيها المسلمين أن لا داعي لليأس عند غلبة الكفر والفساد في ذلك العصر، لأنه عندما تندلع الحروب بين الناس بشدة، فيحاولون تدمير بعضهم البعض وتسقط القوى الكبرى، فإننا سنكتب الغلبة في هذه المواجهة المادية للذين هم أكثر عتادا ماديًا، ولكننا لن نبالي بهم مطلقا عند المواجهة الروحانية، فلن نكتب الغلبة إلا للذين تكون كفة حسناتهم راجحة. ما دمنا لن نكتب النصر في المواجهة المادية إلا للشعب الذي هو الأكثرُ عتادا ماديًا، فكيف يمكن أن نكتب النصر في المواجهة الروحانية لَمن هو أقل عتادا روحانيا؟ إن المبدأ نفسه يعمل في الحالتين، فكما أن رجاحة الكفة تضمن النجاح في المواجهة المادية، فكذلك لن يُكتب النصر إلا لأمة تكون كفتها راجحة في المواجهة الروحانية وتكون أكثر عتادا روحانيا، ولن تنتفع الأُمة التي هي أقل عتادا روحانيا.

لا شك أنه قد وردت هنا ﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ مقابل ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، مما يعني أنهم سيملكون الموازين، لكنها أقل مما عند الآخرين، ولكن الله تعالى قد بين في آيات أخرى أن الكافرين لن يملكوا أي وزن إذ قال ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(الكهف:١٠٦)، وحيث إنه ستكون هناك أمة تملك عندها عتادا روحانيا بكثرة، بينما تفتقر أمة أخرى إلى العتاد الروحاني كلية، فسوف ترجح كفة الذين تكون قلوبهم عامرة بحب الله تعالى ويحظون بقربه تعالى، أما الذين تكون موازينهم قليلة أو لا يكون عندهم الوزن أصلا، فتخفّ كفتهم. وكأنه ستقع أولاً المواجهة المادية التي سترجح فيها كفة الذين يكونون أكثر عتادا ماديا، وتخف كفة الذين هم

أقل عتادا، ثم تظهر نتيجة المواجهة الروحانية على هذه القاعدة نفسها.. أي أن الذين يكونون أكثر روحانية وتقوى وورعا ساعين ليل نهار لرفع اسمه وطاعة أوامره ﷻ، فسوف تُكتب لهم الفتوحات، أما الذين قلّت أسبابهم الروحانية أو يفتقرون إليها كلية، فلن ينالوا نصيبا من نصرة الله.

باختصار، لن ينعم بالراحة في ذلك العصر إلا نوعان من الناس: إما أولئك الشعوب التي ستعمل بجدّ وكفاح وتتوفر لديها أسباب مادية، أو الأمة التي تكون محبوبة عند الله تعالى، أما الذين تكون موازينهم المادية خفيفة أو لن تكون عندهم الأسباب المادية مطلقا فأمُّهم هاوية أي يكونون في عذاب، وأما الذين يفتقرون إلى الأسباب المادية ولا يكونون من أحباء الله تعالى فسيُدمَّرون. وكأنه تعالى يقول إن من يملكون العتاد المادي أكثر ينتصرون أولاً، ثم ترجح كفةُ الذين لا يباريهم أحد فيما يتعلق بالأسباب الروحانية.

ولما كان واردًا أن يساور البعض شبهة بشأن الذين ينتصرون في المواجهة المادية فيقول إنهم انتصروا لكونهم مؤيَّدين بنصر الله، فلذلك استعمل الله هنا كلمة ﴿ثقلت﴾ وكلمة ﴿خفت﴾، ليبين أن انتصارهم لن يكون نتيجة تأييد الله تعالى، إنما سببه كونهم أكثر عتادا من خصومهم. إذ لو كان نصر الله تعالى حليفًا لهم، فكان ينبغي أن ينتصروا في المواجهة الروحانية أيضا، ولكن هذا لن يحدث، بل إن الأمة المنتصرة في المواجهة المادية بسبب كثرة عتادها سوف تنهزم هزيمة نكراءَ في المواجهة الروحانية، أما الذين يبدون ضعفاء من الناحية المادية فإنهم سينتصرون في هذه المواجهة الروحانية لكثرة عتادهم الروحاني. وكما قلت من قبل إن قوله تعالى ﴿خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ يعني في الحقيقة أنه لن يكون عند الأمة المنتصرة في المواجهة المادية أي وزن روحاني يساعدهم، إذ قال الله تعالى في موضع آخر ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا﴾.

باختصار، لن ينتصر في المواجهات المادية إلا الأمة الأكثر مادية، ولن تنتصر في المواجهة الروحانية إلا الأمة التي هي أكثر أسبابا روحانية. وهذان قراران لا رادَّ لهما، فإذا ظهر أحدهما فعليكم أن تتوقعوا ظهور الثاني قريبا.

بعد ذكر الأسباب الأساسية للرقي والانحطاط يبين الله تعالى الآن كيف يكون مصير القوم الذين تكون موازينهم خفيفة، فقال ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن من معاني الهاوية حالة الزوال والانحطاط، فالمراد من قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أن أُمّه حالة الانحطاط، بمعنى: يكون فيه بذرة الانحطاط، فكما أن الأم تكون سببًا لاستمرار النسل كذلك لن يبقى الزوال منحصرا في ذات هذا الإنسان، بل سوف ينتقل إلى أجياله أيضا. الواقع أن الزوال نوعان: أولهما ما يختصّ بالقوم أو الفرد، وثانيهما ما يكون كالبذر، فيصيب الفرد أو القوم بنفسه ثم ينتقل إلى أجياله القادمة أيضا. وقوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ إشارة إلى النوع الثاني من الزوال، حيث بين الله تعالى أنه كما تلد الأم أولادا، كذلك الأمة التي خفَّت موازينها سوف تزداد انحطاطا باستمرار.. أي أن الأمم التي سيُنــزل الله تعالى عليها هذا العذاب ستأخذ في الانحطاط المطرد.

ومن معاني قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أن أُمَّه تثكله وتبكيه يومئذ.. أي أنهم سيُدمَّرون كليةً، حيث يقال: ثَكِلَتْك أُمُّك، كما تعني الهاوية الثاكلة. لا شك أنه إذا مات المرء، بكاه أبناؤه وبناته وزوجته وغيرهم، ولكن إذا قيل للمرء: ثكلتك أمك، فهو دعاءٌ إلى موته المبكر غير الطبيعي؛ ذلك أن المرء عندما يموت موتًا طبيعيًا بعد قضاء عمره الطبيعي يكون أبواه قد تُوُفيا، فلا يمكن أن يبكيا عليه، وإنما يبكي عليه زوجته وأبناؤه، ولكنه إذا مات مبكرًا فيكون أبواه حيينِ فيبكيانه. إذن، فالمراد من قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أنهم يموتون موتًا غير طبيعي، ويُبادون. كما كان موت الشعبين الياباني والألماني غير طبيعي في هذه الحرب العالمية؟! إن حياة الشعوب تمتد إلى قرنين أو ثلاثة أو أربعة قرون، أما هذان الشعبان فكان موقما مصداقًا لقول الشاعر بالأردية:

پھول تو دو دن بہارِ جانفزا دکھلا گئے
حسرت ان غنچوں پہ ہے جو بِن کھلے مرجھا گئے

أي أن الأزهار قد أظهرتْ بتفتُّحِها الربيعَ الساحر بضعة أيام، ولكن ياالحسرة البراعم التي ذبلت قبل أن تتفتح.

لقد سُحقت هذه الشعوب وهي تحلم بالرقي. لذلك يخبر الله تعالى هنا أن أُمّة هذه الشعوب ستبكيها على موتها غير الطبيعي.

وقد ذكرتُ من قبل أن أُمَّ الدماغ أو أُمَّ الرأس هي الجلدة التي تجمع الدماغ، وعليه فقوله تعالى ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يعني أن الهاوية ستحيط بهم من كل ناحية، فلن يجدوا سبيلاً للنجاة والرقي، بل يرون الهلاك والدمار من كل طرف وصوب، كأم الدماغ التي تغطيه من كل جانب.

ومن معاني قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أن الهدف الأساس من نـــزول العذاب أن يُصلح العباد ما بأنفسهم ويمتنعوا عن المعاصي، وليس أن ينتقم الله منهم، فكما أن الطفل يدخل في رحم أمه في صورة نطفةٍ ويبقى هناك في ظلمات ثلاث لينموَ ويرتقي ثم يخرج منه، كذلك إنما ينـــزل عذاب الله على العباد لإزالة أدرانهم وإصلاح ما بأنفسهم في ظلمة العذاب ليحظوا برضا الله تعالى ويدخلوا في عباده المقربين في نهاية المطاف.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١١﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

حامية: حَمَى الشيءَ من الناس يحيمه حَمْيًا وحِمية وحِمايةً: منَعه عنهم. وحَمِي من الشيء يحمَى حَمِيّةً: أَنِفَ أن يفعله. وحَمِيت الشمس والنارُ حَمْيًا وحُمِيًّا وحُمُوًّا: اشتدَّ حَرُّهما. وحَمِيَ عليه: غَضِبَ (الأقرب). فقوله تعالى ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.. أي أنها نار شديدة الحر.

التفسير: قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ يعني: كيف تعرفون حقيقة الدمار الذي نتحدث عنه! بمعنى أنه دمار شديد تعجز الكلمات عن وصفه، فهو نار شديدة الحرارة. ولا جرم أن هذا الوصف ينطبق على القنبلة الذرية تمامًا، لأنها تُولِّد

حرًّا شديدا يحرق الناس لأميال وأميال، حتى إنها تغيّر بِنْيَة جسم الإنسان بتأثيرها المدمر. لقد أعلن اليابانيون أنهم قد عالجوا جرحى القنبلة الذرية بكل طريق ممكن ولكنهم لا يتماثلون للشفاء، ويبدو أن خلايا أجسادهم قد تغيرت. هناك مائتا ألف جريح خلّفتهم القنبلة الذرية لا يتماثلون للشفاء رغم مختلف أنواع العلاج. ويقول أحد العلماء: حيث إن خلايا أجسادهم قد تغيرت، فقد يولد في نسلهم مَن ليس له أعين أو آذان أو له عشر عيون أو خمسة رؤوس أو ست أيدٍ أو أربع أرجل، أو له يدان ولكن لا رجل له، وله أرجل لكن لا يد له، أو قد يولد عندهم أطفال ليسوا أناسا بل يشبهون دويبة تسمى" أم أربعة وأربعين"، ذلك لأن خلايا أجسادهم قد تعرضت لتغييرات كثيرة. هذا رأي عالم من العلماء، لكن واقع الأمر الذي يعترف به اليابانيون هو أنهم ظنوا أن هؤلاء سوف يُشفون بالعلاج، ولكن أجسادهم لم تتأثر مع علاجهم بكل سبيل، لقد تغيرتْ تغيرًا لا ينفعهم معه دواء.

ومن معاني قوله تعالى ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أنها نار غاضبة، ومعلوم أن النار لا تغضب بنفسها، وإنما هي إشارة إلى شدّة حرها. إذن، فقد نبه الله تعالى الناس هنا ألا يظنوها نارا عادية، بل هي نار هائلة، وكأنها تهاجم الناس في غضب شديد. وقد قال الله تعالى في صفة نار جهنم ﴿تَكاد تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾، وهذا هو وصف هذه النار الحامية أيضا، إذ تكون أشدَّ حرًّا من النار المادية العادية بآلاف المرات. لقد قلت إنها أشدُّ حرًّا منها بآلاف المرات بينما ورد في الحديث أنها أشد منها بسبعين ضعفًا، ذلك أن عدد السبع والسبعين يُستعمل أحيانًا للمبالغة لا لبيان العدد فقط، والواضح أن الزيادة لا تنحصر في السبع أو السبعين ضعفًا، فثبت أنها إشارة إلى المبالغة والزيادة.

باختصار، إن القارعة عذاب قد ظهر في العصر الحاضر بصورة القنبلة الذرية والتي قد ظهرت نتائجها المدمرة اليوم في العالم، لكنها مجرد البداية والخطوة الأولى فحسب، ولسوف تُخترع المزيد من الأسلحة الفتاكة ثم المزيد منها حتى تدمِّر بها الشعوبُ الأوروبية نفسَها. وكما يقال بلغتنا إن ضربة واحدة من الحداد كمائة ضربة من الصائغ، كذلك إن الهجمة الأخيرة تكون من الله تعالى، فينتصر القوم الذين تكون أعمالهم ذات وزن حقًّا، فتُكتب لهم الغلبة والحكم.

سورة التكاثر

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

وهي مكية عند الجمهور، وروى البخاري أنها مدنية. وقال ابن عباس نزلت بمكة. (فتح البيان)

أما عند المستشرقين فهي من أوائل السور المكية (تفسير القرآن لـــ"ويري").

وعندي هي مكية إذ تحتوي على الأنباء مثل السور المكية السابقة، ولا يمكن اعتبارها مدنية لمجرد ذكر المال فيها، لأن أهل مكة أيضا كانوا أهل مال في نطاق ظروف بلدهم المعيشية، وهذه السورة تتحدث عن أموال الكافرين أنفسهم.

الترابط والترتيب:

إن ما يربط هذه السورة بما قبلها هو أن السور السابقة تحدثت عن طوائف الكفر كلها، مبينةً أن الرسول ﷺ سيقوم بإصلاح الناس في زمنه وفي المستقبل أيضا. كانت السورتان السابقتان تتحدثان خاصة عن أنواع العذاب الذي سيحلّ في زمن الرسول ﷺ وفي الأزمنة الآتية بعده نتيجة كفر الناس، أما هذه السورة فتبين أسباب كفر الناس وبُعدهم عن الله ثم بُعدهم عن الدين في نهاية المطاف، رغم اهتدائهم إلى الحق على أيدي أنبيائهم أول الأمر.

لقد نقل الحاكم والبيهقي بصدد هذه السورة عن ابن عمر: قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: ما يستطيع أحدكم أن يقرأ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ؟" (شعب الإيمان للبيهقي، والمستدرك للحاكم)

وهذا يعني أن رسول الله ﷺ قد اعتبر سورة التكاثر تماثل ألف آية.

كذلك ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَن قرأ في ليلةٍ ألفَ آية لقي الله وهو ضاحك في وجهه. قيل يا رسول الله، ومَن يقوى على ألف آية؟ فقرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده إنها لتَعدِل ألفَ آية." أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق والديلميُّ. (فتح البيان)

المراد مما قاله الرسول ﷺ هنا أن التكاثر نوعان: فمِنه ما يكون سببًا لازدهار الأمة، ومِنه ما يسبّب دمارها، وحيث إن هذه السورة تتحدث عن التكاثر المؤدي إلى دمار الأمة، فعلى المرء أن يعمل بما ورد فيها ليُحفَظ من الدمار. لهذا السبب اعتبر رسول الله ﷺ أن هذه السورة تساوي ألفَ آية. وليس المراد أنها تساوي سُدس القرآن حيث يحتوي القرآن، على ستة آلاف آية تقريبا، إنما المعنى أن هذه السورة تبيّن الهدف من نـــزول القرآن. ذلك أن عدد الألف لا يعني في العربية الألف فقط، بل يعني الزيادة التي لا نهاية لها أيضًا. والواضح أن المرء لا يمكن أن ينتفع من القرآن نفعًا لا نهاية له إلا إذا فهم الغرض الذي من أجله يقيم الله تعالى النبوة، والذي من أجل تحقيقه لم يزل يبعث المأمورين من عنده لإصلاح العالم منذ آدم عليه السلام. فقول الرسول ﷺ إن هذه السورة تساوي ألف آية يعني أنكم إذا تدبرتم فيها وأخذتم مفاهيمها في الحسبان ووضعتم معانيها نصب أعينكم دائمًا، عندها يمكن القول إنكم انتفعتم منها نفعًا يُعتبر الهدفَ مِن بعثة الأنبياء كلهم. إنما الهدف من بعثة الأنبياء أن يخمد حب الدنيا في القلوب ويحلّ مكانه حبّ الله تعالى، ومن تدبر هذه السورة وتخلى عن حب الدنيا ورجع من حالته السيئة إلى الحالة الطيبة، فلا شك أنه قد حقق الهدف الذي من أجله نزل القرآن والذي من أجله أقام الله سلسلة النبوة في العالم. وقد ركز المسيح الموعود عليه السلام أيضا على هذا الأمر في كتبه وخطبه كثيرا، وبيّن أن الهدف الأساس لبعثة الأنبياء أن يبرد حب الدنيا في القلوب ويحلّ حبّ الله محلّه. (مجموعة الإعلانات ج ١ ص ٣٠٢). فحيث إن سورة التكاثر تبيّن الهدف الأساس من النبوة وتحث على ترك حب الدنيا، لذلك فمن جعل مطالبها في الحسبان شابَه الأنبياء حالةً.

وهناك روايات أخرى عن أهمية مضمون هذه السورة، فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وفي لفظٍ: وقد أُنزلتْ عليه ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وهو يقول: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي؟ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ. (فتح البيان). وقد أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة و لم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها. وكلمات الرواية طويلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿٢﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

أَلْهَاكم: ألهاه اللعب عن كذا: شَغَلَه. (الأقرب)

التَّكَاثُرُ: تكاثَرَ القومُ: كثُروا وتَغالبوا في الكثرة (الأقرب). وقال صاحب المفردات: "التكاثرُ التباري في كثرة المال والعزّ."

فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾: شَغَلَكم التفاخرُ في المال والعزّ والعدد وغيرها من متع الدنيا.

التفسير: يقال عادةً: ألهاه عن كذا، وتكاثرَ في كذا، ولكن القرآن الكريم قد ذكر الفعل مجردا دونما تخصيص، أعني لم يقل: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ في كذا عن كذا، مما أدّى إلى توسيع نطاق مفهوم هذه الآية جدًّا. أما لو خصّص الإلهاء والتكاثر لصار المعنى محدودًا و لم يعُدْ الكلام فصيحًا كما هو مع هذا الإيجاز؛ لأن التكاثر لا يكون في شيء واحد، ثم إنه لا يلهي الإنسان عن حسنة واحدة، بل يجعله غافلا عن جميع الحسنات، فالتكاثر يعني غلبة الكبر والأنانية. لماذا يتفاخر المرء على غيره؟ إنما سببه أنه يرى نفسه كبيرا بدلاً من أن يُرجع ما عنده إلى فضل الله تعالى. إنه يتناسى أن كل ما عنده من كفاءات أو ميزات إنما هي من عطايا الله، ولكنه يغضّ الطرف عن

هذه الحقيقة مركّزًا على كبريائه وأنانيته فيظن أن كل ما حققه إنما حققه بقوته وكفاءته. فأولُ نتائج التفاخر على الآخرين أن الإنسان يُصاب بالكبرياء والأنانية غافلاً عن الله تعالى الذي لم يحصل له الرقي إلا بفضْله ﷻ.

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر مرة شيئًا من خصوصيّاته ثم قال: ولا فخر، أي لم توجد فيّ هذه الميزة إلا بفضل الله تعالى. وهذا يعني أن المؤمن لا يتفاخر رغم كونه كبيرًا، لإدراكه أن ما يوجب الفخر لم يتيسر له تلقائيا، وإنما الله الذي خلَقه فيه، أما غير المؤمن فلا يفعل هكذا، لذا فكلما أصيب المرء بالتكاثر، تفاخرَ بكثرة نفره وعزه وماله وقوته، وبالتالي غضّ الطرف عن الله تعالى ونسب إنجازه إلى نفسه. فالتكاثر يحجب فضل الله عن الإنسان أولاً، ثم ذاتَ الله أيضًا. إن الذي لا يبرح يصرخ بين الناس: أنا أنا، لا يمكنه أن يرى أحدًا أكبر منه. وإلا فمتى يمكن لشخص واقف أمام الشمس أن يتفاخر بحمل سراج قائلا: انظروا ما أشدَّ ضوءَ سراجي! يمكنه أن يتفاخر بضوء مصباحه بالليل، لكن لا يمكنه ذلك وقت النهار، وإذا فعل ذلك فهذا دليل بيّن على أن الشمس محجوبة عنه، وإلا لما تفاخر بضوء السراج بيده والشمس طالعة؟ كذلك إذا اعتبر المرء نفسه أكبر من الآخرين فليس معنى ذلك إلا أن الله تعالى قد غاب عن أنظاره واختفى. فثبت أن أول نتائج التكاثر أن موجبات الفخر -وهي الصفات الإلهية- تختفي عن أنظاره، ثم يختفي عنه الله ﷻ أيضا بالتدريج. فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.. أي أنه جعلكم غافلين عن صفات الله وذاته.

ثم إن كل ما ينـــزل على المرء من أفضال الله تعالى إنما ينـــزل بواسطة الملائكة. إن الملائكة وسيلة من وسائل رقي الإنسان ورفعته، ومن واجبه ألا يغضّ الطرف عنها أبدا. ولكنه إذا تكبر وتفاخر فلا يغفل عن ذات الله وعن صفاته فحسب، بل ينسى أيضا أنه لم يحرز ما أحرزه من عز ومال وصيت بجهوده الذاتية فقط، بل بمساعدة الملائكة، فهي التي تهيئ بأمر الله تعالى جميع أسباب النجاح والرقي.

ثم إن أيّ عز أو ميزة أمرٌ نسبيّ دائمًا، إذ لا يُعتبر أحد كبيرًا إلا مقارنةً بغيره، ولولا هذه النسبيّة لا يبقى هناك كبير. هذه حكمة بالغة بيّنها القرآن الكريم، لكن

بعض الحمقى يعترضون عليه نتيجة جهلهم بهذه الحقيقة، فيقولون إن القرآن كتاب عجيب، حيث يعتبر البعض كبيرا في مكان ويعتبر البعضَ الآخر كبيرًا في مكان آخر، مع أنه من المحال أن يكون الجميع من الكبراء؟ هؤلاء الأغبياء لا يدركون أن اعتراضهم يدل على حمقهم وغبائهم، وإلا فإن ما بيّنه القرآن الكريم هو الحكمة بعينها. إن ما يعنيه القرآن هو أنكم إذا رأيتم في الدنيا عظيمًا فإن عظمته أمر نسبيّ فقط، إذ لا يعلم الجزئيات كلها إلا الله. عندما تحرز أمة تقدّمًا في الدنيا تظنّ خطأً أنها قد أحرزت إنجازًا كبيرا لم يسبق له مثيل لدى أي أمة، ولكن انكشاف حقائق التاريخ الماضي بالتدريج يبين أنه قد كان في الماضي مَن قاموا بإنجازات مماثلة. هناك عشرات المخترعات التي كانت أوروبا تدعي قبل نصف قرن أنها أول مَن اخترعها، ولكنها اضطرت اليوم للاعتراف أن هذه الأشياء كانت موجودة في العالم قبلهم. ثم إننا لا ندري كم من مخترعات عظيمة كانت موجودة في عصور سحيقة قد انمحى تاريخها كليّةً. وعندما ينمحي التاريخ الحاضر مستقبلا فلا ندري كيف تكون الدنيا، وما هي الأمور التي سوف يتفاخر بها أهلها؟

كنتُ متأثرا جدًّا من تقدم الأوروبيين في مجال الجراحة، وكنت أظن أنهم قد طوَّروا هذا العلم كثيرا، لكني قرأت ذات يوم كتيبًا صغيرا لأبقراط حول الجراحة، فانبهرت مما قرأت فيه، حيث أحصى العمليات الجراحية المعقدة التي قام بها لمختلف أعضاء الجسم مِن كُلى وغيرها، فقال: قمت بعمليات للعضو الفلاني كذا مرة والعضو الفلاني كذا مرة. كما ذكر أسماء الأجهزة التي استعملها فيها. مما يعني أن علم الجراحة كان متطورا في الماضي، وكان الأطباء ماهرين في هذا الفن وكانوا يُجرون العمليات الجراحية، وكانت هناك أجهزة مختلفة للجراحة. ولكن قد أتى على الناس زمان بعد ذلك اندرست فيه هذه العلوم من الدنيا. هناك مخترعات كثيرة اخترعها المسلمون، لكن أهل أوروبا يظنون اليوم أنهم مخترعوها. خذوا مثلاً علم البكتيريا والجراثيم الذي يُعتبر ذروة البحوث الطبية المعاصرة، حيث يظن هؤلاء أن هذا العلم لم يوجد في الماضي، لكن أحد الكتّاب الأوروبيين قد تناول هذا الموضوع في كتاب له حيث أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن علم الجراثيم كان

موجودا، وأن المسلمين هم أول من قاموا بالبحوث والتجارب بشأنه حتى وصلوا إلى آخر مراحلها، ولكن لم يكن عندهم "المجهر" فلم يستطيعوا أن يطلقوا اسمًا على هذه الكائنات، وإلا فإنهم كانوا قد اطّلعوا على كل ما يذكره علماؤنا اليوم من مواصفات الجراثيم والبكتيريا. وقد ضرب لذلك مثالاً فقال: إن الملك المسلم عندما أراد إنشاء مدينة بغداد دعا طبيبًا وأمره أن يخبره بالمكان المناسب لبناء المدينة بعد تفحّص الأمر. ويذكر هذا الكاتب الأوروبي إن اختيارَ الملك طبيبًا وأمْرَه بأن يشير عليه بالمكان المناسب لتأسيس المدينة لدليل ساطع على أن الملوك المسلمين كانوا ملمّين بعلم الطب لدرجة أنهم كانوا يدركون أن أمرَ تأسيس مدينة وثيقُ الصلة بالطب، فعيّن هذا الطبيب لفحص الأمر. ثم يقول الكاتب إن هذا الطبيب أمر بذبح خروف ووضع لحمه في مناطق مختلفة، ثم فحص هذا اللحم، وبناءً على ذلك أشار على الملك أن يبني قصره في مكان كذا، ومعسكره في مكان كذا، ومساكن الناس في مكان كذا، إذ وجد أن اللحم قد تعفن وفسد في بعض الأماكن بينما لم يفسد كثيرًا في بعضها، مما يعني أن هواءَ المكان الذي فسد فيه اللحم أكثرُ عفونة وتلوثًا، وأن هواءَ المكان الذي كان لحمه أقل فسادا أنقى وأصفى. ثم يقول هذا الكاتب إن هذه الواقعة تدل بوضوح أن المسلمين كانوا على علم بوجود البكتيريا قبل مئات السنين، كل ما في الأمر أننا رأينا اليوم البكتيريا من خلال المجهر، أما المسلمون فقد علموا من خلال البحوث العلمية أن نقاء الهواء أو عدمه متوقف على وجود بعض الأشياء غير المرئية، فالمكان الذي توجد فيه هذه الكائنات غير المرئية فإن هواءه متعفن وضار بصحة الإنسان، والمكان الذي يكون خاليا منها فإن هواءه جيد للصحة.

فهذا هو العلم الذي اخترعه المسلمون وانتفعوا به في عصر نهضتهم، ولكن أجيالهم اللاحقة نسوه كما نسي العالم مَن الذي اخترعه، حتى أتى الباحثون الأوروبيون اليوم فاكتشفوا وجود الجراثيم والبكتيريا فظنوا أنهم أول مكتشفيها، مع أن الواقع أن المسلمين سبقوهم في هذا العلم.

فثبت أن الإنسان المتفاخر يتناسى الحقيقة أنه قد كان في الماضي أُناس عظام، وكانوا ذوي صيت وشهرة في عصورهم، فلا داعي له للتفاخر بالإنجاز؟ إذن، فالمتكاثر لا يتناسى صفات الله تعالى ولا ذاته ولا الملائكة فحسب، بل ينكر علوم الماضي ومخترعاته أيضًا، ويظن أن آباءه وأجداده كانوا جاهلين، وأنه هو صاحب العلم الكامل.

فأول نتائج التكاثر إنكارُ الحقائق الثابتة، ثم الكبر، ثم ظلم الفقراء، لأن المتكاثر لا يفكر أن الله تعالى قد أعطاه المال لخدمة الفقراء، إنما يقول في نفسه إنني كبير، ومن حقي أن أُخدَم وعلى الآخرين أن يدخلوا في طاعتي، وبالتالي يغض الطرف عن الأخلاق الفاضلة تدريجيا.

فحيث إن التكاثر يحرم الإنسان من حسنات كثيرة، فلم يذكر الله تعالى هنا الأمر الذي يلهي التكاثرُ الإنسانَ عنه. فلم يقل مثلا: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عن الله وعن صفاته وعن ملائكته وعن أنبيائه وعن الأخلاق وعن العبادات وعن حقائق التاريخ وما إلى ذلك، لأنه تعالى لو ذكر هذا التفصيل لظلّ البيان ناقصا أيضًا، فذكر الأمر مجملا، لكي يفكر الإنسان في كل الأمور التي يمكن أن يتغافل عنها نتيجة التكاثر، وهكذا اتسع نطاق العبرة من هذا البيان جدًا. فالحكمة في إطلاق التكاثر هنا أولا: الإشارةُ إلى أن كل الأمور التي يمكن أن ينساها المرء نتيجة التكاثر متضمَّنةٌ في هذه الآية، وأن التفاخر لا يحرم الناس من حسنة واحدة، بل من جميع الحسنات.

وثانيا: لم يذكر الله تعالى الشيء الذي كانوا يتكاثرون فيه ويتفاخرون. وهذا الإطلاق أيضا يفيد توسيع مفهوم الآية. ذلك أن الكافرين كانوا يملكون كل شيء أكثرَ مما عند المسلمين. فكانوا يتفاخرون بتجارتهم وسعة علاقاتهم وكثرة أموالهم وفتيانهم وفرسانهم وخبرتهم الحربية وشعرائهم الذين كانوا يسحرون ببيانهم، وخطبائهم الذين كانوا يُذْكُون عواطف القوم، وشيوخهم وكبارهم وحكمائهم الشهيرين بحكمتهم وحنكتهم، وبالأمهات اللواتي كانت قلوبهن عامرة بالمشاعر القومية، وبجنودهم الذين كانوا يفدون بأرواحهم من أجل الشعب، وغيرِ ذلك من الأمور التي كانوا يحتقرون المسلمين لقصر باعهم فيها معتبرين دعاويهم غير معقولة

وغير مستندة إلى دليل وبرهان. والقرآن الكريم لم ينكر ادعاء كثرتهم في كل شيء، بل سلّم بأنهم أكثر من المسلمين عددًا ومالا وعتادا وأحزابا، ولكنه قال لهم إن كثرتكم في هذه الأمور قد حرمتْكم من الأخلاق الفاضلة والدين. والإنسان لا يعيش بالمال والثراء، بل بالأخلاق والتواضع. فهذه الكثرة لن تنفعكم بل ستضركم. لو كنتم أقلّ عتادا وأسبابًا لاجتهدتم لرقيكم، ولكن كثرة الوسائل والأسباب جعلتكم غافلين كسالى ومجردين من الأخلاق التي لا بد منها للإنسان، والتي من دونها لا يمكنه أن ينال ثراءً دائما. فالحق أن ثروتكم لن تنجيكم، بل ستؤدي إلى هلاككم، لأن الراكب الموشك على السقوط أضعفُ من طفل، والبناء المتهافت أضعف من كوخ.

وقد حاول البعض في بعض الروايات تضييق عموم هذه السورة وبالتالي تحديد مطالبها الواسعة، فروى الكلبي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيُّهم أعزُّ في الإسلام، فأخذ الطرفان يُحْصُون رؤساءهم وقادتهم وقضاتهم، فسبقت بنو عبد مناف بني سهم، فقالت بنو سهم: قد سبقتمونا بالأحياء، فتعالوا نتسابق بالأموات لنرى أيّنا ضحّى في سبيل الإسلام أكثر، فذهب الطرفان إلى المقابر وتكاثروا بالأموات، فنزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (الكشاف). بينما تقول رواية عن أبي هريرة أن هذه السورة نزلت في قبيلتين أنصاريتين بني حارثة وبني الحرث حيث تفاخروا وتكاثروا بالأحياء أولاً ثم بالأموات (روح المعاني). بينما يقول مقاتل وقتادة إن هذه السورة لا تتحدث عن بني عبد مناف ولا بني سهم ولا بني حارثة ولا بني الحرث، بل نزلت في اليهود (فتح البيان).

إن تشتُّت هذه الروايات واختلافها يؤكد أنه لم يثبت عن الرسول ﷺ أي قول قطعي بهذا الشأن، وإلا لما روَوا ثلاث روايات متناقضة؛ إذ قال بعضهم إنها نزلت في الأنصار وبعضهم في اليهود وبعضهم في بني عبد مناف وبني سهم. لقد بيّنت مرارا أن القول أن هذه السورة نزلت في فلان لا يعني إلا أنها تنطبق على ذلك الحادث أيضا، وليس أن الله تعالى أنزلها بعد هذا الحادث. من الممكن أن بني حارثة وبني الحرث تنافسوا مرةً، فقال لهم البعض إنكم كالذين قال الله فيهم ﴿أَلْهَاكُمُ

التَّكَاثُرُ﴾، أو قد يكون بنو عبد مناف وبنو سهم قد تفاخروا فيما بينهم فقال لهم الرسول ﷺ: ما هذا العبث الذي خضتم فيه؟ إن مثلكم كمثل قوم قال الله فيهم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، لكن هذا لا يعني أن هذه السورة نزلت من أجلهم، ذلك لأن القرآن الكريم قد نزل لإقامة النبوة الحقّة ولإرساء الإسلام، وليس لبيان قصص الشجار بين هذه القبائل. نعم، لو كان خصام كهذا قد حصل فعلاً فيمكن تطبيق هذه الآية عليه. فمثلاً لو كنتَ تمر في السوق، فوجدتَ اثنين من أصحاب المحلات يتشاجران وقال أحدهما للآخر: من أنت؟ فأنت لا تساوي أمامي شيئًا، فعندي كذا من المال والأرض والعقار والماشية والخيل، أما أنت فلا تملك شيئا، فيمكن أن تقول لهما: ما هذا العبث الذي أنتما فيه؟ قد حرمكم التكاثر من الأخلاق الفاضلة كلية. فقولك هذا لا يعني أن هذه السورة نزلت من أجل هذين المتخاصمين فقط، إنما المراد أن مفهومها ينطبق عليهما أيضًا. إذن، فإن ما ورد بشأن نـــزول هذه الآية إنما يعني فقط أنه قد وقعت في زمن الصحابة أحداث تنطبق عليها هذه السورة، وإلا فإنها تحتوي على مفاهيم واسعة.

ولأن هذه السورة تتحدث بصيغة الماضي، فتساءل البعض عن حكمة ذلك. وحيث إن المفسرين قد فسروا قوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ بمعنى موهم ودخولهم القبور فقالوا قد استُخدم الفعل الماضي هنا للتأكيد على وقوع هذا الأمر.. أي لأن هذا الأمر سيتحقق حتمًا ولا مفر لأحد من الموت فاستخدم الله هنا الفعل الماضي بدلاً من المضارع لبيان أنه أمر قطعي يقيني.

ولكني أراه قولاً سليما، لأن صيغة الماضي تُستعمل للتأكيد على وقوع أمر يكون خفيا عن أعين الناس. فمثلا قد أنبأ القرآن سلفًا عن انتصار محمد رسول الله ﷺ ودخوله مكة فاتحًا، وكان هذا أمرًا خفيا عن أعين الكفار أعني أنهم ما كانوا ليسلِّموا أنه ﷺ سيدخل مكة مع أصحابه فاتحًا منتصرًا عليهم، فاستعمل الله صيغة الماضي ليخبرهم أنهم لا يصدقون هذه النبوءة، لكنه أمر قطعي يقيني كالحدث الماضي الذي لا شبهة في وقوعه. أما زيارة القبور أو الدخول فيها فأمرٌ لم ينكره

الكفار قط، وكانوا يعترفون أن كل إنسان يموت حتمًا، فلا تنطبق هذه القاعدة هنا، وإنما تنطبق حين يريد المتكلم تأكيد أمر يرفضه الآخر.

وقال البعض: القاعدة الكلية أن الأمم لم تزل تتكاثر فيما بينها دائما، وحيث إن الأموات أكثرُ من الأحياء فاستعمل الله صيغة الماضي نظرًا إلى كثرة السابقين. ويبررون رأيهم بقولهم أن الحديث يخبرنا أن الرسول ﷺ قد بُعث في الزمن الأخير، كما أنه من الحقائق الثابتة أنه قد خلت قبله ﷺ أمم كثيرة زَمَنُها عِدَّة آلافٍ من السنين، فاستعمل الله صيغة الماضي لأن أكثر الناس كانوا في الماضي. فمن قواعد العربية استعمال الكلمة نظرًا إلى الجماعة التي تشكّل الكثرة والغلبة؛ كذِكْرِ القرآن الرجالَ دون النساء في أحكام الصلاة والصوم مرارا كونهن مشمولات في ذكرهم، كذلك يقول أصحاب هذا الرأي بأن الذين خلوا في الماضي هم أكثر من الذين يأتون في المستقبل فاستعمل الله هنا الفعل الماضي وقال ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

هذا المعنى أكثر معقولية من السابق، ولكن فيما يتعلق بحجتهم أن الرسول ﷺ جاء في الزمن الأخير فلا بد أن يكون الذين خلوا في الماضي أكثر من الذين يأتون فيما بعد، فهو مجرد ادعاء لا دليل عليه. لا شك أن الرسول ﷺ بُعث في الزمن الأخير، إلا أنه لا يسع أحدًا إنكار أن عدد سكان العالم كله في الماضي كان أقل من عدد سكان الهند وحدها اليوم. في الماضي ما كان الناس يعرفون أهمية الأمن والسلام ولم تتيسر لهم وسائل الانتقال والاختلاط فيما بينهم، ولم تكن العلوم ولا المخترعات كثيرة، كما كان الناس يجهلون المبادئ التي ترفع مستوى حياتهم والوسائل التي تزيد عددهم. كان التمدن والسياسة والعلم في حالتها البدائية، ولم يكن بين سكان مختلف أنحاء العالم اتصال واختلاط كما هو حالهم اليوم. لقد جعل الله تعالى عصر النبي ﷺ عصر تكميل الهداية وتكميل إشاعتها، ولذلك بدأ في العالم منذ بعثته ﷺ انقلاب غير عادي، حيث أدرك الناس أهمية الأمن والسلام، وانتشر العلم في مختلف أنحاء العالم وأخذ التمدن يتطور بسرعة، وبدأت مرحلة جديدة من وسائل التنّقل والاتصالات، وأخذ الناس يعيشون كبلد واحد بدلاً من أن يعيشوا

قبائلَ متفرقة مشتّتة، وقامت بين أمة وأخرى ومِصرٍ وآخر أواصر قوية، وتيسرت للناس مرافق السفر، فأخذت الأمم تلتقي وتختلط بكثرةٍ. كما تيسرت لهم لعمران الأرض وسائلُ لم تخطر ببال أحد في الماضي، فكل هذه الأسباب أدّت إلى ازدياد سكان العالم زيادة كبيرة.

إذن، فلا شك أن الرسول ﷺ بُعث في الزمن الأخير، لكن من المحال الجزمُ أن سكان العالم قبله كانوا أكثر عددًا من الذين سيأتون بعده. فلا دليل على القول أن عدد المؤمنين والكافرين بعد زمن ظهوره ﷺ إلى يوم القيامة أقل من عدد المؤمنين والكافرين الذين خلوا من قبل. هذا ليس صحيحًا على الأغلب، وإن كنا لا نستطيع الجزم بذلك.

وأرى أن كل هذه الأقوال لا علاقة لها بالآية، وإنما يخاطب الله تعالى هنا أهل مكة مبيِّنًا لهم سبب انحطاطهم وهلاكهم دينيا وماديا. وحيث إن الدليل العقلي ينطبق دائما وعلى كل حالة، فقد صارت هذه الآية قاعدة كلية أيضا، ولا بد من الاعتراف أنها إذا انطبقت عليهم فستنطبق على الأمم مستقبلا أيضًا. فمثلا إذا قلنا لزيد لا تأكل السم وإلا فتهلك، فلا يعني ذلك أن هذا الأمر خاص بزيد، بل كل من يأكله يهلك، وهكذا صار هذا الأمر قاعدة كلية.

وعندي أن المقابر هنا ليست المقابر المادية، بل هي إشارة إلى الهلاك والدمار، وهكذا تتسع معاني هذه الآية من دون أن نحتاج إلى تأويل غير عادي. يقول الله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إذ جعلكم غافلين بحيث لم تعودوا قادرين على العودة إلى الحسنات التي منعكم منها التكاثر حتى أوشكتم على الهلاك وحان دماركم. فقوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إنما هو أسلوب للكلام ولا يعني مقابر مادية، ويماثلها قولنا: هذا الشعب قد مات، أو ذلك الشخص ليس بحي بل هو ميت، والمراد أنه لم تعُدْ فيه الحيوية والصحوة، بل مات من الناحية الأخلاقية والدينية والعائلية والسياسية. فالله تعالى ينفي هنا عن كفار مكة كلَّ المزايا والحسنات التي يحول دونها التكاثر، فلم يبق فيهم دين ولا دنيا ولا أخلاق ولا علم، ومثل هذه الأمة لا تموت ميتة واحدة، بل قد تموت ألف ميتة. فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾

أنه قد جاء عليكم فترة زوال وهلاك لا يحيا بعدها أي قوم. ورغم أن الخطاب هنا موجه إلى أهل مكة إلا أن الآية تبين قاعدة كلية بأن الأمة التي تخوض في التكاثر تصل إلى المقابر، أي تَهلك وتُباد من العالم إلى الأبد في نهاية المطاف.

باختصار، لقد نبه الله هنا الكافرين إلى ما يؤدي بالأمم إلى الغفلة عن الله وعن رسالته وإلى هلاكهم في النهاية. وبالفعل نرى أن الله تعالى كان قد كتب لأهل مكة عزًّا كبيرا بواسطة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. لقد بعث الله تعالى بينهم هذين النبيّين اللذين بلّغاهم رسالة الله التي نفخت فيهم روح الحياة وشحنتهم بصحوة. كانت مكة واديًا غير ذي زرع وعمران، وكانت أمم عاد وثمود تحكم بلادهم منذ زمن طويل، ولكن الله تعالى قد أحدث فيهم الثورة ببركة إيمانهم بهذين النبيين (إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام) حتى نالوا الملك ودانَ لهم العرب جميعا. ومِن سنن الله تعالى أنه إذا نالت أمةٌ عزًّا روحانيا فإنما تناله من خلال بعثة نبي ومأمور رباني، ولكن من نتائجه الحتمية أن ينالوا العز المادي أيضا، ذلك لأن الناس لا يتمالكون برؤية عظمتهم المادية إلا أن يثنوا عليهم. كان إبراهيم عليه السلام نبيًا ولم يكن صنّاعًا أو تاجرًا كبيرا، ولم يُبعث إلى أمته ليمنحهم صناعة أو تجارة أو حكومة، بل ليمنحهم قرب الله تعالى، ولكنهم بسبب دينهم نالوا الحكم المادي، فلم ينالوا قرب الله تعالى فحسب، بل المُلك والحكم أيضا. فثبت أن من سنن الله تعالى أن أمة إذا حازت قرب الله تعالى بواسطة نبيها حازت الدنيا أيضا. وسبب ذلك أن قرب الله تعالى يقوّم أخلاق الإنسان، وإذا صلحت أخلاق الإنسان خضعت له أعناق العالم تلقائيا. لم يُبعث حتى اليوم نبيٌّ لم يرفع قومه المقهورين الأذلاء من الحضيض إلى القمة. كيف كانت أمة موسى عليه السلام؟ كانوا يقومون بأعمال الطين واللبن، ولكنهم ببركة إيمانهم به أصبحوا ملوكا. وكيف كانت أمة عيسى عليه السلام؟ كانوا صيادي سمك عاديين، ولكنهم ببركة إيمانهم به نالوا المُلك. وكيف كانت أمة الرسول ﷺ؟ كانوا رعاة إبل، ولكنهم ببركة إيمانهم به ﷺ صاروا ملوك العالم. فالأنبياء لا يأتون بالدين فحسب، بل تحرز جماعاتهم الغلبة المادية أيضا بمرور الأيام. وفي أيام غلبتهم تتأثر مِن شوكتهم المادية الأممُ التي لا تتأثر بورعهم

وتقواهم وروحانيتهم، ويقولون: لا قِبل لنا بهؤلاء القوم، فقد نالوا قوة عظيمة. باختصار، إن جماعة المؤمنين لها وجهان: وجهها الذاتي، والوجه الآخر الذي يراه الناس. عندما يفكر المؤمنون في أنفسهم يقولون الحمد لله إننا مؤمنون بوحدانيته، ونتحلى بالأخلاق، ونعمل بأحكامه بصدق وأمانة. لقد منّ الله علينا إذ بعث فينا نبيًا من عنده، ووفّقنا للإيمان به وطاعته. أما غيرهم فلا يفهمون هذه الحقيقة، وإنما يثنون عليهم برؤية شوكتهم وعظمتهم المادية ويقولون: ما أعظمَ هؤلاء قوةً ومنعة! عندما كان الصحابة ينظرون إلى أبي بكر ؓ بإعجاب فليس لأنه مِلكٌ، بل لأنه عاش في صحبة الرسول ﷺ وقدّم في سبيل الإسلام تضحيات جسيمة، وإذا نظروا إلى عمر ؓ فلم ينظروا إليه من حيث شوكته المادية، إنما من حيث خدماته العظيمة للإسلام. إنهم كانوا يرون أن ميزتهما أن في صلواتهما وأدعيتهما وصيامهما وتقواهما بركةً، وأن الله تعالى قد اصطفاهما لقربه. لكن ما الذي كان يراه النصارى واليهود فيهما؟ لم يكونوا يرون أن أبا بكر إنسان عابد، وأن أدعيته مجابة أو أنه قد ضحى في سبيل الإسلام ومحمد رسول الله ﷺ كثيرا. كانوا عميانا بالنسبة إلى هذه الأمور، وإنما كانوا يرون أن أبا بكر وعمر مِلكانِ عظيمان قد هزما قيصر ودمّرا كسرى واستوليا على بلادهما، وضما إلى جماعتهما كبار الناس. هذا يعني أنه عندما تحرز أمةٌ الغلبة من خلال نبي تسمع صوتًا جديدا بأن هؤلاء القوم قد صاروا عظماء حقًّا. قبل إحرازهم الرقي المادي ترتفع الأصوات بأن هؤلاء قوم يصلّون ويصومون ويدْعون الله ويُخرجون الصدقات والتبرعات ويتفقدون الفقراء واليتامى والمساكين، ولكن عندما يصبحون غالبين على الأمم الأخرى يسمعون الناسَ يقولون عنهم: كيف نقاوم هؤلاء القوم، فقد أصبحوا ذوي ثراء ونفوذ وصارت لهم رعايا كُثُر. وتكون نتيجة هذا الثناء أن أتباع النبي عندما يتعدون زمنًا، ويموت الذين عاشوا في صحبته والذين كانوا يدركون أنهم ليسوا بشيء وأن كل ما أحرزوه إنما هو فضل الله، وأن ما سيحرزونه في المستقبل إنما يحرزونه بفضله أيضا، فإن أجيالهم وأولادهم يُصغون إلى الأصوات التي تثني عليهم بدلاً من أن يُصغوا إلى أصوات ضمائرهم، فيقولون في أنفسهم: مِن واجب الناس الآن أن يصبحوا عبيدًا

لنا. وبالفعل ترى أن الصحابة نالوا عزًّا كبيرا بعد إيمانهم بفترة، وأعطاهم الله المُلك والحكم، ومع ذلك كانوا يقولون في أنفسهم: كنا رعاة إبل. ولذلك لم ينشأ فيهم الكبر والغرور مِن حكمهم. فعندما فُتحت كنوز كسرى جاء في الغنائم المنديل الذي كان يضعه كسرى في يده وقت جلوسه على العرش. ربما كان كسرى يعظم هذا المنديل، ولكن الصحابة ما كانوا ليقيموا لمثل هذا المنديل وزنا، إذ كان يرون العظمة كلها في الصلاة والصيام والحج والزكاة والصدقة والتبرعات وإطعام الفقراء وتعليمهم وتربيتهم. لا أقول أنهم كانوا لا يقدرون نِعم الله المادية، إنما أقول إنهم كانوا يحتقرون الأشياء المادية مقابل نعمة الإيمان بمحمد ﷺ التي أنعم الله بها عليهم. فكما أن الشباب الذين يحبون كل صرعة جديدة يضعون اليوم في جيبهم منديلا ويخرجون جزءا منه لكي يراه الناس، كذلك كان كسرى يحمل هذا المنديل في يده أثناء جلوسه على العرش، فصار هذا المنديل من نصيب أبي هريرة عند توزيع الغنائم، وفي أحد الأيام أصابه سعال فبصق في هذا المنديل، ثم خطرت بباله فكرة وأخذ يقول: بخ بخ أبا هريرة.. أي ما أعظمَ شأنَك يا أبا هريرة، فقد كنت تُضرَب بالنعال من شدة الجوع، أما اليوم فتبصق في منديل كسرى؟! فسأله مَن حوله: ماذا تقول يا أبا هريرة؟ قال: لقد أسلمتُ متأخرًا إذ لم يعش النبي ﷺ بعد إيماني إلا ثلاث سنوات، فعاهدت نفسي أن لا أترك باب رسول الله ﷺ، فإن الناس قد سمعوا من حديثه كثيرا وأنا لم أسمع منه شيئا، ولا أدري كم بقي من حياته ﷺ، فأسمع الآن كل ما يقول وأحفظه دون أن أفارق بابه. فكنت ألازم المسجد كل الأوقات ولا أتحرك من هنالك لكسب المعاش مخافة أن يخرج النبي ﷺ من بيته ويقول قولاً فيسمعه الناس ﷺ وأظل محروما منه. فإذا أعطاني إنسان طعامًا أكلتُه شاكرًا لله تعالى، وأحيانًا كنت أعاني من الفاقة لأيام إذ لم يكن أحد يأتيني بطعام، فكان الضعف يبلغ مني مبلغًا حتى يُغمى عليّ، فكان الناس يظنون أني قد أُصبت بنوبة من الصرع، فكانوا يضربونني بالنعال وأنا مغشي عليّ بناء على ظنهم قبل الإسلام أنه إذا أصيب أحد بنوبة الصرع فعلاجه ضربه بالنعال. فأفكر فيما أنعم الله

الآن، فشتان بين أن يغمى عليّ من شدة الجوع والفاقة فيضربني الناس بالنعال، وبين أن أبصق في منديل ما كان كسرى يطيق أن يتّسخ.

زبدة القول ما كان الصحابة ينسون ما كانوا عليه من ضيق في أوائل الإسلام. كانوا يعرفون جيدًا كيف كانوا في البداية وكيف ازدهروا الآن. كانوا يرون أن كل ما أحرزوه من رقي إنما أحرزوه بفضل الله ونصرته فقط، وليس بأية ميزة ذاتية. كانوا يدركون أنّهم لم يحرزوا هذه النعم المادية لأنها عظيمة في حد ذاتها، بل الأهم هو التقوى والورع، أما هذه النعم فإنما أنعم الله بها عليهم عطاء فحسب. ولكن عندما جاء أولادهم الذين لم يروا زمن الرسول ﷺ، ولم يشاهدوا ضعف الإسلام والمسلمين، ظنوا أن لهم حقًّا على الله وعلى الملائكة وعلى الجماعة وعلى الدين وعلى الناس، وأن من واجب الجميع أن يعملوا على خدمتهم وراحتهم ورخائهم. كما تناهت إلى أسماعهم أصواتُ اليهود والنصارى بأن هؤلاء القوم يملكون ثروات هائلة، فابتُلوا بالتكاثر ناسين ما أنعمَ الله عليهم من نعم. لقد حصل ذلك بأتباع كل نبي بعده. لقد حصل هذا بعد موسى وبعد عيسى وبعد محمد ﷺ، وإن ظل المسلمون متحلين بالتقوى لزمن طويل بفضل الله تعالى، وقليل منهم الذين وقعوا في التكاثر.

باختصار، عندما يثني الناس على جماعات الأنبياء نظرًا إلى مجدهم المادي يتوجهون إلى التكاثر، فيسلكون نفسَ المسلك الذي سلكته الأمم السابقة، وينسون الأصل الذي هو الدين والتقوى، فيسارعون بشدةٍ إلى الدنيا جاعلين إياها هدفهم المنشود، مما يؤدي إلى نتائج ثلاث:

الأولى: تتولد في الناس ردّةُ فعل ضدهم، وذلك أن التكاثر يؤدي إلى الكبر، والكبر يؤدي إلى ظلم الناس وسلب أموالهم، فيثور الناس ضدهم للقضاء على حكمهم.

الثانية: وأحيانًا لا تتولد أي ردّة فعل عند الناس، لكن أولاد هؤلاء الملوك أنفسهم يهدرون أموال آبائهم في الانغماس في الملذات، وهكذا تظهر فيهم آثار الزوال والانحطاط. إن ثروة الآباء تقع في أيديهم مجانًا فينغمسون في الملذات

ويدمِّرون كل ما في أيديهم. وفضلاً عن ذلك شاهدنا أن ملوكا كبارًا انغمسوا في الملذات والملاهي بالعيش مع البغايا وتعاطي الخمر، وأهملوا شؤون الدولة فدمروا أنفسهم وملكهم بأيديهم، حيث تقاسمَه كبار رجالات الدولة فيما بينهم.

الثالثة: أو أنهم يصطدمون بالله تعالى مباشرة، بمعنى أنه لا يكون هناك أي سبب مادي لهلاكهم، وإنما يُنـــزل الله عذابه عليهم غضبًا عليهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم.

باختصار، عندما تبلغ أمةٌ المقابرَ نتيجة تكاثرها فلا بد من إحدى هذه الحالات الثلاث، فإما أنّ ردة فعل تتولد في الرعايا فيقضون على الحكام، أو أنّ الملوك أنفسهم يُحطّمون أنفسهم بأنفسهم؛ أو أن غضب الله يحلّ بهم فيدمرهم.

واعلم أن السور السابقة العديدة كان تخاطب أهل مكة، حيث حذرهم الله تعالى أن معارضتكم لمحمد ستدفع بكم إلى الهلاك والدمار، ولن تنجحوا مهما سعيتم، أما السورة قيد التفسير فهي أيضًا تخاطب أهل مكة. في السور الماضية قال الله تعالى لهؤلاء الكافرين: لا تطعمون الفقراء، وتدُعّون المساكين دعًّا، ولا تتفقدون اليتامى، وتهدرون أموالكم منغمسين في الملذات، وتكنـــزون أموالكم وتبخلون بها بخلا ولا تنفقونها إنفاقا مفيدا عند الحاجات الضرورية للأمة، كما تظلمون العبيد وتهضمون حقوق النساء وتؤذونهن أنواع الإيذاء، وأما محمد وأصحابه فقد بلغوا في الصلاح والورع الذروةَ، فيطعمون الفقراء، ويرحمون المساكين، ويتفقدون اليتامى، ولا يضيعون أموالهم، ويؤثرون حاجات الأمة على حاجاتهم الشخصية، ويحسنون إلى العبيد، ويدفعون حقوق النساء بأمانة، ولا يظلمونهن بأي طريق. فشتان بينكم وبين محمد وأصحابه. فكيف تحلمون بالانتصار على محمد؟ أما في هذه السورة فقال الله تعالى للكافرين ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.. أي احذروا وانفضوا من رؤوسكم فكرة الانتصار على محمد. هلا فكرتم في أنفسكم لتعلموا أنكم قد سقطتم في الحضيض؟ تحبّون الدنيا ومتعها والمال والعزّ، ولم يعُدْ فيكم ما تحيا به الأمم. هناك طريقان للحياة: إما بالدين أو بالدنيا، ولكن المتكاثر يغفل عن دينه، كما يسقط في الحضيض من الناحية الدنيوية أيضا. إنه يغفل عن

دينه لأن ذات الله تعالى وصفاته تختفي عن أنظاره، ويلقَى الخزي والهوان في دنياه لأن تكاثُره يدفعه إلى الكبر والعُجب، فيهضم حقوق الناس ويظلمهم بطرق شتى. هناك طريقان اثنان فقط لحياة أمة: فإما أن تحيا نتيجة الحماس الديني، أو تحيا نتيجة الحماس المادي، ولكن التكاثر يقضي على الطريقين، ولذلك يقول الله للكافرين: لقد ظهرتْ فيكم آثار الانحطاط الكامل، فكيف تظنون بعدها أنكم ستسحقون محمدا وأصحابه وتحُولون دون الهدف الذي قاموا من أجله؟ الموت يُطلّ على رؤوسكم، وتلفظون آخر أنفاسكم، ومع ذلك تحلمون بالقضاء على الإسلام ومحمد بدلاً من أن تفكروا في حالتكم المتردية؟ والحق أن مَثَلهم كان كمَثَل ثَرِيٍّ موشك على الموت، ويدرك كلٌّ مَن حوله أن الموت يطرق بابه وأنه سيرتحل خلال ساعات، فيسقط الدواء من يد الخادم وهو يريد أن يسقيه إياه، فيتميز غيظا وينهره قائلا: ألا تستحي؟ أسْقَطْتَ الدواء؟ لو عُدتَ لمثله فسوف أضربك ضربًا لن تنساه. هذا هو حال الكافرين بالضبط، فإن عادة التكاثر قد دفعت بهم إلى القبور، وأصبح هلاكهم أمرًا يقينا. لقد بلغ بهم الخزي والهوان الذروةَ وماتوا -دينيًا وماديا- ميتةً لن يعودوا منها كما لا يعود أصحاب القبور، لذا فانتصارهم على محمد ليس إلا ضربًا من الجنون. يعود الميت إلى الحياة إذا نُفخ فيه الروح من جديد، أما مِن دون نفخ الروح فيه فلا يعود إلى الحياة أبدا.

هنا ينشأ سؤال لا بد من الرد عليه: إن هذه السورة تخاطب أهل مكة الذين لم يكن عندهم أموال كثيرة، فكيف يُتَّهمون بجريمة التكاثر؟

والجواب أن ثراء كل شعب أمرٌ نسبيّ، إذا كان أثرياء مكة صِغارًا فإن فقراءها أيضًا كانوا أشدّ فقرًا، فثبت أن التكاثر أمر نسبي. لا يمكن لأحد أن يقول إني لا أملك الملايين فلا أرتكب جريمة التكاثر، ذلك أن تكاثُرَ الأمريكان غيرُ تكاثُرِ الإنجليز، وتكاثر الإنجليز غير تكاثر الهنود، وتكاثر الهندوس من الهند غير تكاثر مسلمي الهند، ثم إن تكاثر الأحمديين غيرُ تكاثر المسلمين الآخرين. إذا عُهدتْ إلى أمةٍ مسؤوليةٌ -صغيرة أو كبيرة- فقصّرت في أدائها فقد جنت جناية التكاثر. بل الواقع أنه إذا كان هناك من لا يملك إلا كسرة خبز، فبخل بها عند مساس الحاجة

إلى التضحية في سبيل الدين أو في سبيل عمل خيري دنيوي فقد ارتكب التكاثر، إذ بخل بما ضحّى به الآخرون، أو بما كان دينه أو أمته بحاجة إليه. والأمة التي تصاب بهذا العيب وتتردد في تقديم التضحيات تهلك وتباد حتمًا، ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. أي أن هذا المرض يؤدي إلى هلاك الأمة.

وهناك سؤال آخر: هل التكاثر والتفاخر ممنوع كليًّا؟

الجواب: إن التكاثر المذكور هنا هو ما يؤدي إلى الهلاك، كما قال الله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. أي أنه ألهاكم عن الحسنات كلها حتى أوشكتم على الهلاك، مما يعني أن التفاخر بالحسنات وبما يحثّ الآخرين على الصلاح والتقوى ليس بممنوع. إذن، التفاخر نوعان: الأول ما يوصل الإنسان إلى المقابر، والثاني ما ينفخ الحياة في الناس. والأول ممنوع والثاني جائز. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ." (ابن ماجة: كتاب الزهد، ومسلم: كتاب الرؤيا).. أي أن الله تعالى جعلني سيد الناس جميعًا، وليس في ذلك مدعاة للفخر.. أي هذا لا يعني أن أحتقركم وأعتبر نفسي أفضل منكم، بل من واجبي أن أخدمكم وآخذكم إلى أرقى الدرجات رغم كوني سيد ولد آدم.

وكذلك يقول ﷺ: "تَزَوّجوا الوَلودَ الوَدودَ، فإني مُكاثرٌ بكم الأمم." (أبو داود: كتاب النكاح).. أي تزوجوا المرأة التي تلد وتحبّ كثيرا، لأنني مفاخر بكم الأمم الأخرى. وهذا يعني أن الإسلام لا يبيح كثرة العدد فحسب، بل يستحبه، ولكن بعض الكثرة شر، ولذلك قال النبي ﷺ إني لا أريد أن تسبقوا الأمم الأخرى كثرةً فقط، بل أود أن تكونوا صلحاء أطهارا مع كثرتكم، لكي أفاخر بكم الأمم الأخرى يوم القيامة. فكلمة الولود هنا تشير إلى الكثرة وكلمة الودود إلى التفاخر، لأن الرسول ﷺ ما كان ليفخر بأمته بكثرتها فحسب، إنما بأخلاقها الحسنة. وأي شك في أن الوالدين إذا قاما بتربية أولادهما على نحو حسن -سعيًا منهما أن لا يبقى صلاحهما منحصرا فيهما، بل ينتقل إلى أولادهما نسلا بعد نسل- فسوف يُخرجون أجيالا عظيمة تكون مفخرة للإسلام وللرسول ﷺ؟

من المؤسف أن قليلا هم الذين يربّون أولادهم تربية سليمة. إنهم يتحلون بالتقوى والروحانية والأخلاق السامية والرأفة والشفقة والحلم والعطش العلمي والتسابق في الخيرات، ولكنهم لا يهتمون بنقل هذه المحاسن إلى أولادهم. لا شك أن بعض محاسن الآباء تنتقل إلى أولادهم بالوراثة، لكن إعداد الجيل بمستوى أعلى منوطٌ إلى حد كبير بتربيته تربية عالية، ومن واجب المؤمن ألا يغفل أبدًا عن هذا الأمر المهم جدا. فلو أن كل إنسان -صغيرا أو كبيرا- اعتنى بتربية أولاده تربية حسنة سعيًا منه أن يكونوا أكثر منه إخلاصا وفداء للإسلام لما تطرق الانحطاط إلى المسلمين. إن أكبر أسباب انحطاط الأمة عدم العناية بتربية الأولاد، فيصبح أكثرهم عاطلين، وبالتالي تذهب ريح الأمة كليّةً. فالأمر الذي يجب التركيز عليه هو أن تكون أجيالنا القادمة أكثر منا صلاحا وورعا، لأن هذا هو الأمر الذي يمكن أن يتفاخر به الرسول ﷺ، أما الكثرة العددية فليس مما يجلب الاطمئنان.

ثم هناك قول لسيدنا علي رضي الله عنه: "أنا قطعتُ خرطوم الكفر بسيفي، فصار الكفرُ مُثْلةً" (روح البيان).. أي أن الله تعالى قد وفّقني لخدمة الإسلام حتى قضيت بيدي على كل ما يتعلق بالكفر والوثنية، فلا يقدر الكفر أن يرفع رأسه أمامي. لكن قوله رضي الله عنه هذا لا يعني أنه كان مصابًا بالكبر واحتقر الآخرين بسبب خدماته، بل المراد أنه يتمنى أن يتأسوا بأسوته في خدمة الإسلام فيسعوا لخدمته مثله.

كما أوصى الله المؤمنين في القرآن الكريم بقوله ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٩). والاستباق لا يعني أن يسعى المرء للسبق، بل يعني أن يحاول التقدم آخذًا معه الآخرين. فهذه الآية لا تعني أن يتقدم الإنسان بنفسه في الحسنات فقط، بل عليه أن يشرك الآخرين في سباق الخيرات أيضا، فيسعى الجميع للتقرب إلى الله تعالى متكاتفين. والأمة التي تتحلى بروح الاستباق تقطع في ساعاتٍ من أشواط الرقي ما يقطعه الآخرون في شهور وسنين. فمثلا إذا كان المرء قد قرأ جزءًا من القرآن فعليه أن يعلِّمه الآخرين، عملاً بقوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، وإذا كان قد تعلّمَ ترجمةَ معاني هذا الجزء فعليه أن يعلّم الآخرين ترجمة معانيه، وإذا كان

مطّلعًا على معارف القرآن وأسراره، فعليه أن يسعى لتعليم الآخرين إياها. باختصار، إن روح الاستباق ترفع الأمة جدًا وبسرعة فائقة.

وقال الله تعالى في موضع آخر ﴿وَمِنْهُم سابِقٌ بِالْخَيْراتِ﴾(فاطر:٣٣)، وقال أيضا ﴿فالسّابِقَاتِ سَبْقًا﴾(النازعات:٥). فمن علامات المؤمنين أنهم يتنافسون في الخيرات ويسعون لسبق الآخرين فيها. وكما قلت إن هذه هي علامة الأمم التي تتحلى بروح الحياة، فإنها تسعى دائما إلى أن تسبق الآخرين في الخيرات ولا يسبقها غيرها.

وقال الله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(آل عمران:١٣٤).. أي عليكم أن تتقدموا بسرعة ساعين لنيل مغفرة الله تعالى في أسرع وقت. ولا شك أن الذين يتقدمون إلى مغفرة الله بسرعة سيسبق بعضهم ويتأخر البعض، وبالتالي سيفتخر السابق أنه أسرع وفاز بمغفرة الله تعالى، ويتحسر المتأخر ويتأسف على أنه أضاع الوقت ولم يحظ بمغفرة الله نتيجة تقصيره.

باختصار، توضح هذه الآيات أن بعض أنواع التفاخر ليس ممنوعا في الإسلام. أما التكاثر الذي يحث المرء على التفاني في خدمة الإنسانية ويزيده روحانيةً وتقوى ويرفع مستوى أمته فليس بسيئ، بل هو حسن، ومن واجب كل عاقل أن يشترك في هذا التكاثر، إذ لا تحيا الأمة من دونه. فمثلا لو بعثتَ ابنك إلى إحدى الكليّات، فقال لن أذهب لأن زملائي لا يذهبون، ولو تعلمتُ فيها فيتأخرون عني، فلا شك أن قوله حماقة، لأن سبْقَه الآخرين بالتخرج من الكلية نافع لأمته وليس بضار لها، لأنه إذا تعلّم فسوف يعلّم الآخرين ويرفع مستوى الأمة علميًا.

فليس كل تكاثُر وتفاخر ممنوع، إنما الممنوع منه ما يؤدي بالإنسان إلى المقابر، ولهذه الحكمة نفسها أردف الله تعالى قولَه ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ بقوله ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. ذلك أنه فيما يتعلق بالموت المادي فإنه بنفسه يأتي إلى الإنسان، أما الموت الديني والأخلاقي أو القومي فيدعوه الإنسان بنفسه، فإنه بقَدَمه يمشي إلى قبره ويستلقي فيه. وبيان هذا المعنى كان محالاً لو قال الله تعالى هنا "حتى متم"، بدلاً من قوله ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾. فقول الله هذا بيّن موضوعا جديدا رائعا منبّهًا الناس إلى أمرٍ مهمٍّ للغاية وهو أن أكبر أسباب هلاك الأمم التكاثُرُ غيرُ المسموح به

والاستهانة بالأخلاق الحسنة التي هي أساس حياة الإنسان أُمّةً ودينًا، لأن هذا التكاثر يلقيهم في الحضيض أخيرًا حتى يستولي عليهم الموت كلية، فيصبحون جسدًا بلا حياة فيما يتعلق بسباق الأمم.

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥

التفسير: (كَلاَّ) تفيد الزجر دائما، وقد وردت هنا لتحذير أهل مكة وزجرهم، حيث يحذرهم الله تعالى أن حالتكم خطيرة جدا. فإنكم لا تصدّقون ما قلنا لكم بأنكم قد سقطتم في الحضيض جراء تكاثُركم حتى وصلتم إلى المقابر، بل تعتبرون قولنا ضربًا من الخبل، وستعلمون بعد أيام أن ما قلناه لكم حق وصدق، وأنه لا يوجد فيكم آثار الحياة.

لو كانت المقابر هنا القبور المادية لم يستقم هنا قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ألم يكن أبو جهل وعتبة وشيبة يسلِّمون بأنهم سيموتون حتما؟ وما داموا يعترفون أن الإنسان عرضة للفناء وأنه جاء إلى الدنيا بعمر قصير، فكيف يصح أن يقال لهم: ها نحن نخبركم مرة بعد مرة أنكم ميتون حتما؟ هذه مهزلة. إذا كان المرء يعترف بشيء فتأكيدك إياه له يماثل قولك لأحد: إنك إنسان، والله إنك إنسان، تالله إنك لإنسان، فكل من يسمع كلامك سيضحك عليك ويعتبرك مجنونا. إذن، لو كانت المقابر هنا بمعنى القبور المادية لما كانت هناك حاجة أن يقول الله تعالى هنا ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، لأن كل فرد من الكفار يسلِّم بهذا الموت، والذي يسلِّم به الجميع لا معنى للتأكيد عليه. فثبت أن المقابر هنا بمعنى مقابر الذل والهوان والدمار، وهذا ما كان ينكره كفار مكة أشد الإنكار. أما المقابر الترابية فكان أبو جهل يسلم بوجودها، لكنه ما كان ليسلِّم بأنه سينهزم أمام محمد ﷺ. فلا شك أن الدمار القوميّ هو الذي أُطلق عليه المقابر هنا، حيث حذر الله الكافرين وقال لهم: اعلموا

أنكم قد وصلتم إلى المقابر، وها نحن نحذركم مرة أخرى، وسوف تعلمون أن ما نقوله هو الحق.

أما التكرار الوارد في قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فقد قال البعض إنه للتأكيد (تفسير الرازي)، إذ كان من عادة النبي ﷺ أن يعيد كلامه في مناسبات خاصة، وعليه فسوف يُعتبر هنا محذوف والتقدير: "كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ أقول كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُون".

أما سيدنا عليّ ؓ فيرى أنه ليس تكرارا، بل هو إشارة إلى حدثين: الأول في القبور والثاني في النشور. (روح المعاني)

وأرى أن الجملة الأولى تتعلق بالدنيا والثانية بالآخرة، كما قال الله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾(الإسراء:٧٣).. أي أنهم سيرون مصير أعمالهم في الدنيا كما يلقون العذاب في الآخرة.

كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٦ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٧ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٨

التفسير: هذه الآيات استمرار للموضوع السابق حيث يقول الله تعالى هنا لكفار مكة ها إننا نحذركم مرة أخرى. لماذا لا تدركون أنكم قد سقطتم في هوّة الهلاك والدمار؟ إن هلاككم قطعي يقيني، إذ لم يبق فيكم علامة للحياة، بل تهيأت كل الأسباب لهلاككم. فقد نسيتم الله تعالى، وتقاعستم عن أداء حقوق البشر كلية، مع أن أداء حقوق الله وحقوق العباد هما العلامتان لحياة الأمم. إن الأمة التي يحيا الله في قلوب أفرادها هي التي تسمى حية، والإنسان الذي تتّقد في قلبه عاطفة خدمة الإنسانية هو الذي يسمى إنسانا حيًّا، أما أنتم فلا تؤمنون بقدرة الله، كما أن قلوبكم خالية من مشاعر خدمة الإنسانية. ليت عندكم علم اليقين حتى تدركوا أن ما نقوله لكم حق وصدق. دَعُوا جانبًا ما ننبئكم به من أنباء الهلاك التي لا

تصدّقوها، وفَكِّرُوا -على الأقل- أن كل فعلٍ في الدنيا يأتي بنتيجة طبيعية حتمًا، وكل إنسان حين يقوم بعمل فإنه يعلم ماذا ستكون نتيجته. فهلا فكرتم في حالتكم من هذا المنظور المادي على الأقل؟

يقال إن أحدًا رأى جُحا على شجرة وهو يقطع الغصن الذي هو جالس عليه. فقال له: يا جحا، لا تقطعه وإلا فستسقط على الأرض. فقال له: من ذا الذي أخبرك أني سأسقط على الأرض؟ أتعلمُ الغيب؟ اذهبْ لشأنك. وبعد قليل انقطع الغصن وسقط جحا على الأرض، فجرى وراء الرجل وقال له: لا شك أنك من أولياء الله، إذ تحقق ما قلتَ وسقطتُ من الشجرة. فقال الرجل: أنا لستُ بوَلِيٍّ، وإنما أخبرتك بالنتيجة الطبيعية الحتمية، فما دمت تقطع الغصن الذي أنت جالس عليه فلا بد أن تسقط حتمًا.

فكل فعل لا بد له من نتيجة طبيعية تظهر في الدنيا، وكل عاقل يدرك ماذا ستكون نتيجة فعله، لذلك يقول الله تعالى هنا للكافرين: لقد فقدتم الصواب كلية ولا تفكرون في مصيركم مطلقا. لو فكرتم في القضية من ناحية علمية فقط لأيقنتم بأن موتكم وشيك، وأن أسباب هلاككم محيطة بكم من كل طرف وصوب، ذلك لأن بعض أسباب هلاك الأمم تكون سماوية وبعضها تكون مادية، ومن الأسباب السماوية: كفرهم بالله تعالى وبأنبيائه ومخالفتهم لأحكامه، ومن الأسباب المادية: الظلم وعدم العناية بالفقراء والمساكين والانغماس في الملذات ليل نهار، وكلا النوعين من أسباب الهلاك موجودة فيكم. لقد أثرتم سخط الله تعالى، وأسأتم معاملة البشر، فكيف تظنون أنكم في مأمن من الهلاك؟ ولذلك يقول الله تعالى للكافرين ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.. أي يمكنكم أن ترفضوا قولي وتعتبروه كذبا وباطلا، ولكن هلا فكّرتم في حالتكم من الناحية الدنيوية؟ ليتكم تتمتعون بعلم اليقين فتدركوا أن الأمة التي تفتقر إلى التعليم والعدل والنظام ولا

تهتم بالصدقات ومعاملة الناس بالرأفة والرحمة فهَلاكُها مؤكد لا يحتاج إلى أن يبيّنه نبيّ. فإذا كنتم ترفضون ما أقوله لكم، فليته يتيسر لكم علم اليقين لتروا الجحيم أمامكم. إنكم تدركون جيدًا أنكم لا تهتمون بتعليم القوم، ولا تعدلون بينهم، وتهضمون حقوقهم، وتفتقرون إلى الأمانة والتقوى والورع، ولا تنفقون الأموال إنفاقا سليما، بل تدمرون أموال آبائكم منغمسين في الملذات، ولو تدبرتم في هذه الأمور بجدية لرأيتم الجحيم ماثلة أمامكم من دون أن تصدّقوا ما أقوله لكم.

لقد قال البعض عن قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ﴾ أنه جوابُ قسمٍ محذوف، لأن تيسُّر علم اليقين للكفار لا يستلزم رؤيتَهم للجحيم.

هذا القول ليس بصحيح، لأن الرؤية أنواع: رؤية عقلية أو علمية، ورؤية العين والمشاهدة. وعلم اليقين أيضا يمكّن من الرؤية العلمية، لأن المرء إذا علم بناء على الأدلة أن المصيبة قادمة، شعر قلبه بالألم. وقد بين المسيح الموعود عليه السلام أن هذه الآية تذكر أنواع العلم الثلاثة، علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين المذكور في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾. (فلسفة التعاليم الإسلامية، الخزائن الروحانية ج ١٠ ص ٤٠٢). فقوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ يشير إلى الرؤية العقلية أو العلمية.

ثم قال الله تعالى ﴿ثم لَتَرَوُنَّها عَيْن اليَقين﴾.. أي لم تتيسر لكم الرؤية العلمية بعد، ولكني أؤكد لكم أنه لن تتيسر لكم الرؤية العلمية فقط بل تتيسر لكم الرؤية العينية أيضا عن قريب، بمعنى: لن تشعروا باقتراب الدمار فحسب، بل سوف يحل بكم هذا الدمار فعلاً فترونه بأم أعينكم، لأن الله تعالى قد أخبرني أنكم هالكون حتما.

ومن معاني هذه الآيات أنكم سترون هذا الدمار في الدنيا أولا، ثم ترون في الآخرة عذابًا أليما.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

التفسير: يظن الذين يجهلون العربية أن ﴿النعيم﴾ جمعٌ، وهذا ما كنتُ أرى في صغري، وهذا ما نجده في عامة ترجمات القرآن بالأردية، لكنه خطأ، فالنعيم يعني النعمة وليس النِّعَم.

وعندي أن النعيم هنا هو محمد رسول الله ﷺ. وكأن الله تعالى يقول هنا للكافرين: عندما تهلكون سأسألكم هل كان محمد نعمةً عظيمة أم لا؟ إنه ما زال يحذّركم من السقوط في هوة الهلاك، ولكنكم لم تصغوا لنصحه، حتى حان وقت دماركم. كم كانت عظيمة النعمة التي بعثناها لكم، لكنكم لم تنتفعوا بها. لقد حذّركم مرارا ولكنكم لم تلقوا لتحذيره بالاً و لم تنجوا من الهلاك.

وقد يكون المراد من ﴿النعيم﴾ كل نعمة عظيمة، وعليه فالمراد من الآية أن الله تعالى سوف يعدّد عليهم نعمه الكبرى قائلا: لقد أعطيتكم كذا وكذا من النعم العظيمة، لكنكم ضيعتموها كلها. لقد أعطيناكم المال، فكنــزتموه في بيوتكم و لم تنفقوا على الفقراء، و لم تتصدقوا به على اليتامى والمساكين. لقد أعطيناكم الحُكم، فظلمتم الناس. لقد أعطيناكم العز، فاحتقرتم الناس. لقد أعطيتكم كل نعمة عظيمة، فأسأتم استعمالها.

باختصار، فالنعيم يمكن أن يفسَّر بمعنيين: النعمة الكاملة وهو محمد رسول الله ﷺ، والمعنى أن الله تعالى سيقول لهم: لقد بعثت لكم محمدًا فلم تعملوا بنصائحه، والمعنى الثاني أن الله سيسألهم عن كل نعمة عظيمة من مال وعز ونفوذ وحكم ويقول: لقد أنعمت عليكم هذه النّعم العظيمة فما الذي انتفعتم منها؟

إنه لمما يسبب الندم الشديد للإنسان أن تظهر نتيجة خطئه فيقال له: لقد حذرناك من هذا فلم تأخذ الحذر، ونصحناك في وقت كذا وكذا فلم تنتصح.

هكذا سيعامل الله هؤلاء المجرمين فيذكرهم بكل نعمة كبيرة أو بالنعمة الكاملة بشخص الرسول ﷺ قائلاً: كيف ساغ لكم -رغم ذلك- أن تركنوا إلى الإباء والاستكبار؟ لقد حاولتُ إنقاذكم رغم أني إلهكم، فلم تريدوا أن تنجوا من الهلاك مع كونكم عبادًا لي. وهكذا سيلومهم الله تعالى ويدينهم بتذكيرهم بكل نعمة عظيمة.

هذا المعنى بينتُه من منظور الآخرة، أما من منظور الدنيا فإن الأمم الهالكة أيضا سترى يومًا تُسأل فيه عن النعيم. تتأسف الأمم عند اقتراب هلاكها قائلة: لقد أتيحت لنا فرصة كذا لكننا فوّتْناها، وسنحت لنا فرصة كذا لكننا لم ننتفع منها. ليتنا تَنبّهْنا إلى الخطر و لم نحفر قبورنا بأيدينا.

ذات مرة ذهب سيدنا عمر رضي الله عنه إلى الحجّ في عهد خلافته، وبعد فراغه من الحج جاء كبار القوم يسلمون عليه ويهنئونه كما نفعل يوم العيد. ولم تكن في تلك الأيام صالات كبيرة لجلوس الناس، إنما كانت غرفًا صغيرة لا تتسع إلا لقليل من الناس. وكان عمر رضي الله عنه من عائلة شهيرة بعلم الأنساب، فحضر إليه أولاد عِلْية القوم هؤلاء ظانين أنه سوف يخصهم في مجلسه بإكرام أكثر من غيرهم لمعرفته بما كان آباؤهم وعائلاتهم يحظون به من عز واحترام بين الناس. فلما حضروه أكرمهم بالجلوس عنده، وأخذ يتحدث معهم، ولم يمض وقت طويل حتى جاءه أحد العبيد المسلمين، فقال عمر للجالسين: تأخروا قليلا، وأفسحوا له المكان. فتأخروا، فأجلس عمر هذا العبد قريبا منه. ثم أخذ في الحديث، وبعد برهة من الزمان جاءه عبد مسلم آخر، فأمرهم عمر بإفساح المكان له وأجلسه بالقرب منه، وما إن جلس حتى جاءه عبد مسلم ثالث، ثم رابع وخامس ثم سادس وسابع، وفي كل مرة كان عمر رضي الله عنه يأمرهم بإفساح المكان له. ويبدو أن الله تعالى أراد ابتلاءَ هؤلاء الكبار ليكشف لهم أن العزّ كله في خدمة الإسلام، لا في كون المرء من عائلة

عريقة. فلم يزل هؤلاء العِلية يتأخرون في مجلس عمر ﵁ ويفسحون المجال للصحابة العبيد حتى وصلوا مكان الأحذية، ثم خرجوا من المجلس وقالوا فيما بينهم: لقد رأيتم ما لقيناه من الذل والهوان، ولم نكن نتوقع ذلك من عمر، إنه يعلم أسرنا العريقة التي ننحدر منها، ولكنه لم يكترث لذلك، وفضّل علينا هؤلاء العبيد في مجلسه. فقال أحدهم وكان أذكاهم: ماذا تقولون؟ ألا تعلمون أن الذَّنْب ذنبُنا لا ذَنْبَ عمر. لقد جاء محمد رسول الله ﷺ، ولم يزل يدعو الناس إلى الإيمان به، لكن آباءنا كفروا به كل مرة وآذوه أشد الأذى، فإذا عوقبنا اليوم بسبب ذلك فأيّ ذنب لعمر في ذلك؟ لقد كفر آباؤنا بمحمد رسول الله ﷺ، بينما آمن به هؤلاء العبيد وضحّوا للإسلام بكل غال ورخيص، ولذلك فضّلهم علينا اليوم، ولو أن آباءنا ضحوا في سبيل الإسلام أيضا لخصنا اليوم بالعز والإكرام. فما داموا لم يضحوا بشيء عندها، بل عارضوا الإسلام فلا يحق لنا أن نشتكي إذا كان عمر قد فضّلهم علينا. فقالوا فيما بينهم: هذا صحيح، ولكن هل من سبيل لدفع هذا الذل والخزي؟ ثم قالوا: تعالوا نذهب إلى عمر ونسأله. فجاءوه وكان المجلس قد انفضّ وذهب الصحابة إلى بيوتهم، وقالوا: لقد رأيتَ ما حدث اليوم، وقد جئناك لنحدّثك بشأنه. فلما كان عمر ﵁ يعلم جيدا ما كان يتمتع به هؤلاء الكبار من قوة ومَنَعَة، وما كان لآبائهم من عز ومجد، فقد اغرورقت عيناه لما سمع كلامهم وقال: لقد كنتُ معذورًا فيما فعلتُ، فهؤلاء قوم قد آمنوا برسول الله ﷺ حين عارضته الدنيا كلها، وتحملوا كبار المصاعب في سبيل الإسلام، وما دام الله تعالى قد أعزهم في الإسلام فمن واجبي أن أُكرمهم في مجلسي. فقال القوم: نحن نعلم أن لا ذَنْبَ لك فيما فعلتَ، إنما الذنب ذنبنا، وإنهم يستحقون هذا الإكرام بلا شك، لكننا نسألك هل من كفّارة تمحو من جبيننا وصمة العار هذه؟ فلما سمع عمر ﵁ قولهم أخذته الرقة، فلم يطق أن يجيب بلسانه، إنما أشار بيده ناحية الشام، حيث

كانت الجيوش الإسلامية تحارب جنود قيصر الروم، فكان يعني أنكم لو انضممتم إلى جنود المسلمين وضحيتم بأرواحكم في سبيل الإسلام فلعل ذلك يكون كفّارةً عن هذه الذنوب. ففَهِمَ أولئك الفتية قوله فما لبثوا أن خرجوا من مجلسه وركبوا الإبل متوجهين إلى أرض المعركة. ويخبرنا التاريخ أنه لم يعُدْ أحد منهم حيًّا، بل استُشهدوا هنالك جميعا. (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ لابن الجوزي ص ٩٨)

فلا شك أن الله تعالى سيسأل العبادَ يوم القيامة كيف استعملوا النعم التي خوَّلها لهم، إلا أنه من معاني هذه الآية أنه حين يحلّ الدمار بالأمم في الدنيا سيقولون فيما بينهم متأسفين: لقد سنحت لنا فرص كثيرة للرقي، لكنا لم ننتهزها وضيعناها.

باختصار، إن الله تعالى قد علّمنا في هذه السورة وبكلمات وجيزة سرّ نجاة الأمم من الدمار، ولو أنها عملتْ به دائمًا لما حلّ بها الدمار. لقد حذر محمد رسول الله ﷺ الناسَ بكل وضوح أن أكبر سبب لدمار الأمم هو التكاثر، ولكن رغم وجود هذا التحذير الواضح الموجود في القرآن الكريم لا تزال الأمم ترتكب الخطأ نفسه. إنها تنسى نعم الله تعالى، وتركن إلى التكاثر، وتدفع نفسها إلى هوة الهلاك.

سورة العصر

مكية وهي أربع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند معظم المفسرين (فتح البيان). وهي من أوائل السور المكية عند المستشرقين، وقد اعتبرها "وليام موير" مما يسميه الخواطر النفسية للرسول ﷺ، أي من السور التي يعتبرها مناجاة الرسول ﷺ مع نفسه. ولأنه يعتبر مثل هذه السور من أوائل ما نزل في مكة فهذه السورة عنده من أوائل السور المكية. (تفسير القرآن لـــ"ويري").

قد وردت عن هذه السورة قصة عجيبة في الروايات التي هي غير معروفة عادة، فقد روي عن عمرو بن العاص أنه ذهب قبل إسلامه مرة إلى مسيلمة الكذاب لبعض شأنه، فسأله "ماذا أُنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال عمرو: لقد أُنزلت عليه سورةٌ وجيزة بليغة"، ثم قرأ عليه سورة العصر. ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أُنزل عليّ مثلها، ثم قرأ عليه عبارة تافهة مسجّعة، وقال له: كيف ترى يا عمرو؟ فقال: "والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب." (ابن كثير)

هذا يعني أن الكافرين كانوا متأثرين من هذه السورة الموجزة.

وقال الإمام الشافعي: إن هذه السورة شملت جميع علوم القرآن، ولو تدبر الناس هذه السورةَ لوسعتْهم. (ابن كثير، وروح المعاني)

وورد في الحديث: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر. (روح المعاني). وهذا يعني أن الصحابة كانوا مدركين سعة مفاهيم هذه السورة.

الترتيب والترابط:

لقد بينتُ من قبل أنه بدءًا من بضع سور سابقة تتحدث سورةٌ منها عن الزمن الأول للإسلام وسورةٌ أخرى عن الزمن الأخير للإسلام. لقد تحدثت سورة التكاثر

عن الزمن الأول له، وهذه السورة (العصر) تتحدث عن الزمن الأخير له. لقد بين الله فيها أن الرقي المادي لا ينقذ أي أمة من الدمار. يأتي على الأمم زمان يظنون فيه أن لا زوال لهم الآن، ولما كان من المقدر أن يأتي على الإسلام زمان يدّعي فيه أعداؤه بسبب ما حقّقوه من تقدُّمٍ مادي أن لا سبيل لهلاكهم الآن، ويقول المسلمون برؤية رقي أعدائهم ألا سبيل لرقي الإسلام الآن، فلذلك قد رسم الله تعالى في سورة العصر حالة الزمن الأخير، بتعبير آخر إنها تتنبأ عن عصر المسيح الموعود عليه السلام. وبالفعل قد طبّق عليه السلام هذه السورة على عصره. (الخطبة الالهامية، ص ٦٤ طبعة بريطانيا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالْعَصْرِ ﴿٢﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

العصر: عصَر العنبَ ونحوه عصرًا: استخرجَ ماءه. وعصَر الشيءَ عنه: منَعه. وعصَر فلانًا: أعطاه العطيّةَ. وعصَره حبَسه. والعصر مصدر؛ ومِن معانيه: اليومُ؛ الليلةُ؛ العشيُّ إلى احمرار الشمس؛ الغداةُ -فهذه الكلمة من الأضداد- وجمعُها أعْصُر وعُصور. ومن معاني العصر: الرهطُ والعشيرةُ؛ المطرُ من المعصِرات؛ العطيّةُ. والعَصْر والعِصر والعُصر: الدهرُ. وجمعُها عُصور وأعْصُر وعُصُر وأَعْصار وأَعاصِر. (الأقرب)

والواو في قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ﴾ للقَسم، والمراد: نقدّم العصرَ شهادةً على أن الإنسان لفي خسر.

الخُسر: خسِر التاجر في بيعه خَسْرا وخَسَرًا وخُسْرًا وخُسُرًا وخُسْرانا وخسارًا وخَسارة: وُضِعَ في تجارته وضِدُّ ربِح. وخسِر الرجلُ: ضلَّ؛ هلَك. (الأقرب)

التفسير: نظرًا إلى معاني العصر المختلفة فإن هذه الآية تنطوي على مفاهيم مختلفة. اعلم أن القرآن ذو بطون ووجوه، فإن كل آية منه تحوي مفاهيم عِدّة، ولا بد من أخذ كل المفاهيم التي يمكن أن تفيدها كلمة ما لغةً أو عُرْفًا والتي يمكن تطبيقها على آية ما. فمن معاني العصر: العشيُّ إلى احمرار الشمس؛ والغداةُ، ولو أخذنا بهذين المعنيين فلا نعتبر الحديث هنا عن عشي وغداة النهار المعروف المتعلق بالشمس المادية، بل يراد به عشيٌّ وغداةُ نهارِ رسالةِ النبي ﷺ، لأن القرآن الكريم قد اعتبر الرسول ﷺ شمسا بكل صراحة كما ذكرنا في سورة الشمس. وحيث إن النبي ﷺ شمس، فلا بد أن يُعتبر عهدُه نهارًا، وعليه، فأحد معاني قوله تعالى ﴿والعصر﴾: أننا نقدّم الغداةَ أي الجزء الأول من عهد النبوة المحمدية شهادةً على أن الإنسان لفي خسر. والمراد من الإنسان هنا مَن يقف معارضًا للنبي ﷺ، ذلك أن الكلمات تُفسَّر نظرًا إلى سياقها دائمًا، فما دام الرسول ﷺ شمسًا، فلا بد أن يكون الإنسان الخاسر هنا مَن يعارض الشمس المحمدية ولا ينتفع منها، خاصة وإن الله تعالى قد استثنى بعد ذلك المؤمنين بقوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾. فثبت أن الإنسان المذكور هنا هو مَن ليس مؤمنا ويعارض الشمس المحمدية.

والسؤال هنا: لماذا قيل للكفار هنا الإنسان؟

والجواب أن من سنة الله المستمرة أنه كلما بعث نبيًا كان أوائل المؤمنين به من بسطاء الناس عادةً، ومهما بلغ هؤلاء المؤمنون الأوائل من العلم والتقوى وفهمِ أحكام الدين وإصابة الرأي في الأمور الدينية والقرب والروحانية، إلا أن الناس يعتبرونهم من الطبقة الدنيا ماديا، إذ لا يملكون مالاً ولا ثراء ولا حُكما ولا قوة، بينما يملك أعداؤهم كلّ هذه الماديات؛ من مال وجاه وحكم وملك، ولذلك لا يعتبرون المؤمنين في عداد البشر. وهذه المحاورة تُستخدم بلغتنا -الأردية- أيضا، فإذا أراد المرء احتقار أحد قال: هو ليس من عداد البشر. فقوله تعالى ﴿الإنسان﴾ هنا إشارة إلى هذه العقلية الكافرة، إذ يعتبرون أنفسهم أناسًا، أما المسلمون فيزدرونهم حتى لا يعدّوهم من عداد الناس. إذن، فالحق أن قوله تعالى ﴿الإنسان﴾ جاء هنا

تعييرًا للكافرين الذين يزدرون أتباع الأنبياء. وكأنه ﷻ يقول: نقدّم العصر شهادةً على أن هذا الإنسان -الذي يعتبر نفسه وحده إنسانا- مندفعٌ نحو الهلاك. فمهما ازدرى هؤلاء المؤمنين بمحمد ﷺ، ومهما قالوا أنهم ليسوا من عداد البشر، إلا أن الواقع أنهم يسارعون إلى الدمار. إذن، فالقرآن الكريم قد عيّرهم بنفس الكلمة التي يتباهون بها على المؤمنين. ويماثله قول الله تعالى في القرآن لمن يُلقى في النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: ٥٠). فيقول الله له: ذُقْ هذا العذاب لأنك أنت صاحبُ العز والجاه، مع أنه لا مجال لعزه ومكانته عند إلقائه في الجحيم، إذ لو كان صاحب عزٍّ حقًا لما أُدخلَ النار، ولو كان صاحب مكانة لما لقي الذل في الآخرة. إن دخوله النارَ دليل على أن لا عز له ولا مكانة. فقوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تعيير له في الواقع.. أي لقد كنتَ تعتبر نفسك عزيزا كريما في الدنيا، فادخُل اليوم النارَ لتعرف حقيقة ادعائك هذا.

وبالمثل إن قوله تعالى ﴿الإنسان﴾ إشارةٌ إلى ما كان يدعيه أعداء الإسلام بأنهم هم الناس، أما المسلمون فليسوا بأناس. فكأن الله تعالى يقول لهذا الإنسان المتباهي (أي للكافرين): ستعرف أيها الإنسان أنك مندفع إلى الخسارة، وسيظهر بطلان دعاويك كلها، وسوف تلقى من الذل والخزي على أيدي أولئك القوم الذين لا تعتبرهم من الناس ما سيجعلك عبرة لمن يعتبر.

والسؤال الآن: لماذا كان عدو الإسلام هذا يقول إنه هو الإنسان، وغيره ليس بإنسان؟ ذلك لأنه وقومه كانوا يملكون الأسباب التي ينتصر بها الإنسان على الآخرين حتما، بينما كان المسلمون يفتقرون إلى الأشياء التي يؤدي فقدانها إلى الهزيمة دائمًا. كانوا يسمّون أنفسهم "الإنسان" لأن الحُكم بيدهم والمسلمون محكومون، ولا شكّ أن الحاكم هو الذي ينتصر عادة وليس المحكوم. لا شك أن الحاكم يُمنى بالهزيمة أحيانا، ولكن لا يكون ذلك إلا إذا كان رعاياه ضده، أما إذا كانت الرعية معه فلن يلقى الهزيمة من المحكومين.

وكذلك كانوا يعنون من عدم اعتبارهم المسلمين أناسًا أنهم أكثرية والمسلمون أقلية؛ وكأنهم كانوا يقولون ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾(الشعراء: ٥٥)، فكيف

ينتصرون علينا؟ الواقع أن النصر يخالف الأكثريةَ عادة لا الأقلية، ثم إن التحزّب يضمن الغلبة للشعوب، وكان أهل مكة يتمتعون بهذه الميزة أيضا، وكان محمد رسول الله ﷺ يفتقر إليها. ثم من عوامل غلبة الأمم الأموال، وكان الأعداء يملكون الأموال، أما محمد ﷺ فلم يملك مالا. وتنتصر الأمم نتيجة سياساتها وعلاقتها الطيبة مع الأمم المجاورة، وكان أعداء الإسلام هم الغالبين على المستوى السياسي. ومن دواعي غلبة الشعوب الصنعة والحرفة، وكان الكفار يتمتعون بهذه الميزة، وكان محمد ﷺ يفتقر إلى ذلك أيضا. إذن، فكل العوامل التي تلعب دورًا في انتصار الأمم وغلبتها كانت في أيدي أعداء النبي ﷺ، وكل الأمور التي تؤدي إلى الهزيمة كانت عند الرسول ﷺ وصحابته، ولذلك يقول الله تعالى هنا: يا مَن تدّعي أنك أنت الإنسان، نحن نسلّم أنك تستحق أن تسمى إنسانا، بمعنى أنك تملك كل ما يجعل الإنسان إنسانًا ويجعل الأممَ غالبة في الدنيا ظاهرًا، إذ تملك الحُكمَ والمال والسياسة والصنعة والحرفة والتجارة، بينما يفتقر محمد وأصحابه إلى هذه الوسائل، وبالتالي هم ليسوا في عِداد البشر من الناحية المادية، ومع ذلك نخبرك أيها "الإنسان" المتسلح بكل أنواع الأسلحة أنك ستكون في خسر، ولن ينفعك ما تملكه من عدة وعتاد في هذا العصر المحمدي. لا شك أن القانون الجاري في الدنيا هو أن من ملَك السياسة والجماهير والعلم والحكم والثراء والصنعة والحرفة انتصر حتما، لكن لن يحدث هكذا في هذه المرة، إذ جاء زمن النبوة المحمدية، وسوف يسنّ الآن قانون آخر بدلاً من هذا القانون، الآن سيُهزم أهل المال رغم أموالهم، وأهل السياسة رغم سياستهم، وأهل العلم رغم علمهم، وأهل الحكم رغم حكمهم، وأهل الصنعة والحرفة رغم صنعتهم وحرفتهم، لتكون هزيمتهم دليلا على صدق محمد (ﷺ) في دعواه. لو انهزم أحدٌ لقلّةِ نفره أو علمه أو لافتقارِه إلى السلطة والحكم أو لضعف سياسته، فأي هزيمة هذه! أما إذا انهزم القوم وخسروا رغم امتلاكهم كل هذه المزايا، فهذا هو الخسران الحقيقي. هذا هو الزوال والدمار الذي حذر الله تعالى منه أهلَ مكة هنا قائلا: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.. أي نقدم هذا العصرَ

شهادةً أنه مهما امتلك هذا الإنسان من قوة وعتاد مادي إلا أنه سوف يكون في خسر حتمًا لبُعده عن الله تعالى.

والسؤال هنا: عَلامَ هذه الشهادة؟

والجواب: إن القاعدة العامة في الدنيا هي أن الأمم تزدهر بالأسباب المادية، لذا يقول الناس: ينبغي أن نثقّف أنفسنا لأن الدنيا تتقدم بالتعليم، أو علينا أن ندخل مجال السياسة لأن الدنيا تتغلب بالسياسة. إن التدابير المادية هي مدار الرقي عند الناس، فيقولون إن السبيل الوحيد لتقدُّمنا أن نجمع الوسائل المادية من علم ومال وقوة وأعوان وصناعة وحرفة، فإذا وفّرناها فتقدُّمنا مضمون ورقينا مؤكد. وإذا قيل لأصحاب هذه الفكرة أنكم إذا عملتم بأحكام الله تعالى أحرزتم التقدم، وإلا سقطتم في الحضيض، ضحكوا ساخرين وقالوا: كيف تقولون ذلك؟! فإن ما نراه في الدنيا هو أنّ من اتخذ التدابير المادية كما ينبغي حقّق هدفَه حتمًا رغم رَفْضِه أحكامَ الشريعة الإلهية، فدَعْوتُكم إيانا للإيمان بالله تعالى وزعمكم أن الانحراف عن أحكامه يدفعنا إلى الحضيض أمرٌ مخالف للعقل تماما. إننا لا نرى أي أثر لحكومة الله على الأرض حيث يزدهر الناس باتخاذ التدابير المادية رغم إنكارهم لوجود الله تعالى وتمردهم عليه، فما دامت كل الأمور تتم هكذا، فكيف نصدق قولكم؟ وكيف نعلم أن حُكم الله وسلطانه يعمل عمله في أمور الدنيا؟ فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، وإلا فقد ثبت بوضوح أن الترقيات المادية لا دخل لله فيها، وإنما مدارها على التدابير المادية فقط، فكلُّ مَن اتخذها على أحسن وجه نجح، ومن لم يتخذها فشل.

يجيب الله على هذا السؤال ويقول إن غلبة البعض في العالم باتخاذ التدابير المادية لا يعني أن الله تعالى لا يحكم هذه الدنيا، والدليل الواضح على ذلك أن الله تعالى عندما يبعث نبيًا فإنه ينتصر على الجميع وينال الغلبة رغم كونه وحيدًا، ويرجع خصومه خاسرين خائبين رغم امتلاكهم كل وسائل الرقي والغلبة، وعندها تدرك الدنيا أن هناك إلهًا، وإلا فكيف انتصر الشخص الوحيد عديم الحيلة على الجميع رغم امتلاكهم جميع الأسباب المادية؟ لقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ

الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ - بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن ينتصر مقابل الله تعالى - أن هذه القاعدة لا تُشاهَد في كل عصر، إنما تُشاهد في عصر النبوة، إذ يتجلى الله تعالى عندها بقوته وقدرته وجلاله، ولو انتصر أعداء الله تعالى حينها لَحُقَّ للناس أن يقولوا: ما دام أعداء الله قد غلبوا في عصر نبيّ فما الدليل على ألوهية الله وحُكمه؟ ولكن فشل الدنيا أمام النبي رغم امتلاك كل الأسباب والوسائل يشكّل دليلا على أن الله تعالى هو من يحكم هذا العالم. فإذا كان الله تعالى لا يتجلّى بحُكمه وسلطانه في بعض العصور فهذا لا ينفي حُكمه في العالم نهائيا، بل غاية ما يمكن قوله هو أن هناك عصورًا لا يريد الله أن يجلّي فيها حُكمه، وليس أنه تعالى لا يحكم هذا العالم مطلقا، لأنه عندما يتجلى بحكمه في عصر نبي، ترجع كل الدنيا خاسرة خائبة رغم امتلاكها أسباب الغلبة والانتصار.

باختصار، إن أمر حكم الله تعالى وجلاله وعظمته يُحسَم في عصر النبي، فإذا حقق الناس التقدّمَ في غير عصر النبيّ بدون الإيمان، فلا يصحّ القول قياسًا على ذلك أن الله لا يحكم هذا العالم. هذا الاستدلال باطل، إذ لولا حُكم الله تعالى على الكون لما انتصر في عصر النبوة شخص وحيد ضعيف وعديم الحيلة على خصومه الذين يملكون كل الأسباب. يجب أن يكون لانتصار النبي سبب طبيعي مادي، ولكنا لا نجد أي مبرر مادي أو طبيعي له من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أنه يدّعي أنه مبعوث من عند الله تعالى وأنه تعالى سيكتُب له الغلبة على المعارضين، ثم يحالفه النجاح فعلا، مما يدل على أن حُكم الله تعالى لا يزال جاريًا على الكون.

ونجد في حياتنا أيضًا مثالاً لهذا، فإن الأولاد يثيرون الضجة في البيت دائمًا ولا يبالي بها الآباء على العموم، ولكن في وقت آخر حين يثير أحدهم ضجة يلطمه أبوه فيسكت الجميع فورا، وعندها يُعرف أن الأب يحكم البيت فعلاً. وكم من مرة لا يحفظ الطالب دروسه ومع ذلك لا يعاقبه المعلّم، ولكن يأتي يوم يسأله المعلم عما حفظه مِن درسٍ فلا يستطيع الإجابة فيعاقبه، فيعرف الجميع أن حكم المعلّم قائم. فعدمُ معاقبة الوالدين أولادَهما على صراخهم وعدمُ معاقبةِ المعلّم الطالبَ لعدم حفظه الدروس ليس دليلا أن حُكم الوالدين أو حُكم المعلم ليس قائما؛ لأن

الوالدين أو الأستاذ عندما يعاقِب يعرف الجميع أن حكمه قائم، كل ما في الأمر أنهم لم يمارسوا هذه السلطة في الحالات العادية. كما نشاهد الناس يثيرون ضجة ضد حكوماتهم مرارا، ولكنها لا تتخذ أي إجراء ضدهم، ثم يأتي يوم يثير البعض ضجة بسيطة ضدها فتعتقله فورا. فإذا كانت الحكومة لا تعتقل مثيري الشغب أحيانا، فهذا لا يعني أنه لا سلطة لها، لأنها تعتقلهم في وقت آخر، مما يدل على أن سلطتها قائمة.

هذا هو الدليل الذي يذكره الله تعالى هنا، فيقول إننا نقدّم عصر النبوة المحمدية دليلاً على أن الإنسان لن يحرز التقدم والرقي معرضًا عن الله تعالى، وإذا حققه فليس معنى ذلك إلا أن الله تعالى منحه بعض المهلة، إذ الحقيقة أن الإنسان إذا أعرض عن الله تعالى كان في خسر دائم، والدليل على ذلك أن الله تعالى حين يريد أن يعيش الناس منقادين لأحكامه يبعث إليهم نبيًّا من عنده، فلا يستطيعون أن يتغلبوا عليه مهما امتلكوا من الأسباب والوسائل والتدابير.

والمعنى الثاني للعصر "العشي إلى احمرار الشمس"، أي الجزء الآخر من النهار، بتعبير آخر الجزء الأخير من نهار الشمس المحمدية، وعليه فإنّ مفهوم قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أنه عندما يأتي زمن الانحطاط على الإسلام في الزمن الأخير ويبعث الله تعالى محمدًا رسول الله ﷺ لإحياء دينه ثانية لن يمتلك المؤمنون بمحمد أيةَ أسباب مادية، وستقول الدنيا إن جماعة محمد ضعيفة عديمة الحيلة جدا وأن أعداءها يملكون القوة والقدرة والأسباب والعتاد كلها، فكيف تنتصر جماعته وينهزم أعداؤها؟ ولكننا نعلن أنه رغم هذا الواقع نعلن: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.. أي ستكون النتيجة النهائية أن الأعداء -الذين يتباهون مغرورين بقوتهم بأنهم هم الناس وأن جماعة محمد لشرذمةٌ قليلون- هم الذين سيَلقَون الهزيمة، وتنتصر بتأييد الله جماعته التي لا تُعَدّ في عداد البشر ولا يؤبه لها. لقد جرّبَت الدنيا صدق هذه القاعدة في الماضي عند البعثة الأولى لمحمد ﷺ، ورأتْ كيف انهزم القوم الذين كانوا يحتقرونه وأتباعه وانتصر هو وجماعته رغم قلة أسبابهم ووسائلهم. ثم إن عصر فتوحات المسلمين ونهضتهم لم ينحصر في سنوات قلائل، بل امتد لقرون.

لم يكن للمسلمين في بداية عصرهم شأن يُذكر في المخترعات والاكتشافات، كما لم يكونوا مميزين عن غيرهم في العلم والتجارة والثروة والمال، بل كانوا في كل هذه المجالات كغيرهم من الأمم، ومع ذلك قد أناط الله تعالى كل أنواع الرقيّ بالإسلام دون أوروبا ودون الصين ودون اليابان. فكل مَن التحق بالمسلمين نُفخ فيه روح الرقيّ والتقدّم. كانت العلوم موجودة والأمم المجتهدة موجودة والمستثمرون موجودين، إلا أنه لم يأخذ الناسَ إلى الرقيّ لقرون إلا الإسلام. لماذا فشلت التدابير الإنسانية عندها يا ترى؟ إنما سببه أن ذلك العصر كان عصرَ ظهورِ النبوة الذي أراد الله أن يسنّ فيه قانونا جديدا حيث لا تنفع التدابير المادية، بل يناط العمل الناجح بالإيمان. عندها قرّر الله تعالى أن لا تزدهر الدنيا الآن إلا باتباع محمد ﷺ، وأن ينتصر من يدخل في طاعته ﷺ، أما الذي لا ينضم إلى أتباعه فسينهزم. وهذا ما حصل بالفعل. فكل أمة ظلتْ بعيدةً عن الإسلام ظلت بعيدة عن الرقي أيضا، وكل أمة ارتبطت بالإسلام تقدمت وازدهرت. ولذلك يخبر الله تعالى هنا أن المشهد الذي شاهدتموه في عصر الإسلام الأول سوف تشاهدونه في عصره الأخير أيضا. وبالفعل نجد اليوم - عند البعثة الثانية للرسول ﷺ في شخص المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر - أممًا تدّعي أنها هي الإنسان، فهي عندما تستخدم اصطلاح (Humanitarian) أي البشرية، فليس له أي مفهوم عندهم إلا أن مِن واجب الأوروبيين ألا يقسوا على الأوروبيين، أو أن من واجب الأمريكان ألا يعاملوا الأمريكان بقسوة، وكذلك عندما ينادي هؤلاء بالحرية والمساواة في العالم، فإنما يعنون به أن أهل الغرب يجب أن يتمتعوا بالحرية والمساواة، أما أهل آسيا فلا يخطرون ببالهم عند ترديدهم هذا الهتاف، إذ لا يعتبرون الآسيويين أناسا. من أجل ذلك يقول الله تعالى هنا إنه سيأتي على الناس ذلك العصر مرة أخرى حين تزعم شريحة من الناس أنهم هم الإنسان، وأما سواهم من الناس فلا يساوون شيئا، وفي ذلك العصر أيضًا سيمتلك أعداء الإسلام كل الأسباب والوسائل، ويقول أهل الدنيا نظرًا إلى قوتهم إن هؤلاء لا يمكن أن يُهزموا، ولا يمكن أن يندرس مجدهم، ويزول رعبهم؛ ولكنا نخبركم أن ذلك العصر يكون عصرَ النبوة أي البعثة الثانية

لمحمد، ولذلك فلا بد أن ينهزم أعداء الإسلام وتُسحَق قوتهم رغم امتلاكهم كل الأسباب في مواجهة محمدٍ ﷺ وجماعتِه المستضعَفة، وسترى الدنيا تلك الآية الربانية ثانية بأن الذين يخرجون لمعارضة أنبياء الله في عصر النبوة يرجعون خائبين خاسرين دومًا.

اليوم أيضًا يقال لنا: كيف تقولون أن تقدُّم الأمة محال من دون الإيمان بالنبي، مع أن الرقيّ منوط بالأسباب المادية لا بالإيمان بالله ورسله، فما دمنا نشاهد أن الأمم التي تتخذ الأسباب المادية هي التي تنتصر دائما، فلماذا تعارضون الأمر الواقع، وتقدّمون نظرية جديدة بأن الناس لا يمكن أن يزدهروا من دون الإيمان بمأمور رباني؟ هذا السؤال يثار اليوم ضد الأحمدية أيضًا من قبل المسلمين الآخرين وغيرهم. يقولون: إنما سبيل الرقي تأسيسُ المدارس والجامعات وإنشاء المصانع والاشتراك في النشاطات السياسية والعمل على ما يزيدنا قوةً وعددًا! أما إهمالُ هذه الأمور ودعوة الناس إلى الإيمان بنبي فليس سبيلا للرقي. إن الإيمان بنبي لن يحقق الرقي لأي قوم، كلا بل إن سبيل الرقي هو في اتّخاذ التدابير المادية وجمع الأسباب اللازمة إلى أقصى حدّ!!

والجواب: لا شك أن الناس يتقدمون بالوسائل المادية عادةً، ولكن ليس الأمر هكذا في زمن النبوة، إنما يزدهرون عندها بالأسباب الروحانية، ذلك لكي يظهر جلال الله تعالى ولتسخَّر الدنيا لخدمة الدين، أما بدون ذلك فلا يمكن أن يظهر على الأرض ملكوت الله الذي دعا المسيح الناصري عليه السلام من أجله بقوله: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ"(متى ٦: ١٠). فكيف يظهر لهم ملكوتُ الله إذا كانوا ينتصرون بالأسباب المادية دائما؟ وكيف يعلمون أن هناك إلهًا حيًّا قويًّا لو اجتمعت قوى الدنيا كلها خلاف مشيئته لدمّرها بغضبه تدميرا، إذ لولا ذلك لَحُرِمَ كثير من الناس من الهدى، ولظل أمرُ أفضلية الدين مشتبهًا على معظم الناس. لكن عندما يعلن النبي -الذي يكون عديم الحيلة- أنه سينتصر وأن كل القوى التي تحاربه سوف تهزم رغم امتلاكها الأسباب كلها، ثم يقع كما يقول، فهذا يشكّل دليلاً ساطعًا على أن ملكوت الله لا يزال قائما على الأرض.

يقول الكُتّاب الغربيون اليوم بكل شدة إذا كان محمد قد حالفه النجاح فلا غرابة في ذلك، إذ كانت إمبراطورية قيصر عندها تتهاوى بسبب ضعفها الداخلي، وكانت أمارات الضعف والاختلال قد بدأت في الظهور في إمبراطورية كسرى أيضا، وكان الجميع يدرك أنهما على وشك الانهيار، فأي معجزة لمحمد في انتصاره على هؤلاء القوم؟

لكنا نقول: هل كانت حالة العرب كهاتين الإمبراطوريتين؟ لو كانوا أحسنَ حالاً منهما فيمكن القول أنهم دكّوهما دكًّا بسبب ضعفهما. ولكن كل من عنده إلمامٌ بالتاريخ يدرك أن العرب ما كان لهم شأن يذكر أمام قيصر وكسرى. فما السبب، يا ترى، في تحطُّم هاتين الإمبراطوريتين بيد العرب؟ لا سيما أولئك العرب الذين كان إخوانهم العرب قد هبّوا للقضاء عليهم، بل كان أهل مكة يرون أنهم يستطيعون بمفردهم سحق المسلمين، دعْك عن باقي العرب وعن قيصر وكسرى. فكل من يقدر على التوصل إلى النتائج السليمة بالنظر في الأوضاع يستحيل عليه أن يقول -ولو لحظة واحدة- أنه كان بوسع ذلك الشخص الوحيد- الذي كان أهل مكة يرون أنه غير قادر على مقاومتهم وأنهم سيسحقونه سحقا- أن يدكّ إمبراطورية قيصر وكسرى دكًّا. فبينما كان أهل مكة يعلنون أنهم يقضون على هذا الشخص الضعيف الوحيد، كان يُعلن للدنيا أنه لن ينتصر على أهل مكة وأهل الجزيرة العربية فحسب، بل سيقضي على إمبراطوريتي قيصر وكسرى. وهذا ما حصل بالضبط. لو كانت الظروف ملائمة لانتصار محمد ﷺ -كما يزعم الكتاب الغربيون اليوم- فكيف أعلن أهل مكة أنهم سيقضون عليه ﷺ؟ ولماذا قال أهل الجزيرة العربية أنهم سيسحقونه سحقا؟ إن إعلان أهل مكة بكل قوة على الملأ بأنهم سيسحقون الإسلام سحقًا لدليلٌ ساطع على أنهم كانوا يعرفون أن محمدا لا يملك أية قوة، وأنه غير قادر على مقاومتهم، ناهيك عن مقاومة إمبراطورتي قيصر وكسرى، ومع ذلك نرى أن ذلك الشخص الوحيد الضعيف نال القوة باضطراد حتى لم يقدر قيصر وكسرى على مقاومته.

وهذا هو حال جماعتنا اليوم أيضا. فإننا اليوم أضعفُ الناس قوةً وأقلُّهم أسبابًا، ومن المحال أن يقول أحد بالنظر إلى الأسباب المادية بغلبتنا على العالم كله في يوم من الأيام، ولكن عندما تصبح الأحمدية غالبة على الدنيا كلها بعد قرنين أو ثلاثة، سيخرج عندها مِن بين الناس أمثالُ هؤلاء الكُتّاب الغربيين، فيقولون أيضًا: ما الغرابة في غلبة الأحمدية؟ إن غلبتها كانت مؤكدة جليّة للعيان، لأن الظروف كانت تتهيّأ لذلك، إذ كانت آثار زوال أوروبا وآسيا قد بدأت في الظهور، وأصبحت الحكومات المادية منخورة من داخلها، وإذا كان مؤسس الأحمدية قد أخبر بأنها سوف تصبح غالبة على العالم، فليس في ذلك أي نبوءة ولا معجزة. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل يوجد في الدنيا اليوم مَن يتفق مع هذه الدعوى: بأن الأحمدية ستنتصر وتصبح غالبة على العالم كله؟ فإذا كان هذا محالاً اليوم فيكون أيضًا باطلاً قولُهم عند غلبة الأحمدية بعد قرنين أو ثلاثة قرون بأن هذه الغلبة كانت متوقعة بحسب الظروف. إن مثل هذه الأقوال علامة الكاذبين الذين يختلقون ألف عذر لإخفاء الآيات الربانية عند مرور الوقت. إنهم يسعون لأن يقلّلوا من شأن النبوءات الإلهية بقولهم: إن هذه كانت نتيجة حتمية للظروف السائدة.

لا شك أنه قد انقضى العصر الذي كان الرسول ﷺ موجودًا فيه بشخصه، ولكنا نعيش اليوم في عصر المسيح الموعود عليه السلام الذي أعلن أمام العالم بناءً على وحي الله تعالى، فقال:

"اسمعوا جيدًا أيها الناس جميعًا، إنه لمما أنبأ به خالقُ السماوات والأرض أنه سوف ينشر جماعتَه هذه في أنحاء العالم كلها، ويجعلهم غالبين على الجميع بالحجة والبرهان، وأن الأيام لآتية، بل إنها لقريبةٌ حين لا يُذكر في الدنيا بالعز والشرف إلا هذا المذهب. إن الله سوف يبارك هذا المذهب وهذه الجماعة بركاتٍ كبرى خارقةً للعادة، ويخيّب كلَّ مَن يفكّر في القضاء عليها، وسوف تستمر هذه الغلبة إلى يوم القيامة". (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية مجلد ٢٠، ص ٦٦)

كان المولوي ثناء الله الأمرتسري يعترض على هذه النبوءة كثيرًا قائلا: لقد مضى على هذه النبوءة زمن طويل، ولكن الأحمدية لم تحرز هذه الغلبة بعد. ولكن

حين يكتب الله الغلبة الكاملة للأحمدية بعد مدة من الزمن فعلاً، سيقول أتباع الأمرتسري: أيُّ غرابة في غلبة الأحمدية؟ كانت الظروف مهيأة لغلبتها، إذ كانت آثار الانحطاط في أوروبا وعند الهندوس وعند المسلمين الآخرين تلوح في الأفق، فكانت الظروف تحتّم غلبة الأحمدية وانتصارها.

فالحق أن مِن دَأْبِ المعارضين أنهم في أول الأمر يعتبرون غلبةَ جماعات الأنبياء ضربًا من المحال، ثم عندما تصبح جماعاتهم غالبة يقولون: ما الغرابة في ذلك؟ كانت الظروف تحتّم ذلك.

على أية حال، إن الغلبة في الدنيا منوطة بالأسباب المادية عادةً، ولكن في زمن بعثة نبي يجعلها الله تعالى منوطة بالنبوة أي بالإيمان به، للتدليل على أن حُكم الله تعالى لا يزال قائمًا في الأرض، وإلا فالواقع أن الأنبياء لا علاقة لهم بالحُكم المادي، إنهم يُبعثون إلى الدنيا لإظهار ألوهية الله وقدرته، فتتجلى ألوهيته في عصرهم أيَّما تجلٍّ فينهضون بأمتهم من الحضيض ويجعلونهم غالبين على الدنيا رغم افتقارهم إلى الأسباب المادية، فيدرك الناس أن رقيهم المادي لم يتمّ بجهودهم فحسب، بل بأمر الله أيضا. إن التدابير المادية للرقي تعمل عملها ما لم يتدخل الله في الأمر، لكنه حين يتدخّل تصبح الدنيا عاجزة كليًا، فلا ينفعها أي تدبير.

هذا لا يعني أن التدابير المادية تصبح باطلة عندها، كلا، إنها لا تبطل، وإنما تأتي بنتائجها مرتبطةً بالإيمان لا بدونه، كما بين الله تعالى هذا المعنى في الآية التالية في هذه السورة.

لقد اعتبر النبي ﷺ أيضًا زمنه عصرًا، ولكن ليس بالمعنى الذي ذكرتُه آنفًا بل بمعنى آخر، حيث ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال إن رجلا اسْتَعْمَلَ عُمَّالاً، فعملوا له حتى الظهر، ثم استعمل جماعة أخرى من العمال فعملوا حتى العصر، ثم جماعة ثالثة عملتْ حتى المساء، ثم أعطى الجميعَ الأجرة متساوية، فقال الأولون: لقد عمِلْنا فترة أطول ولكننا أُعطينا كأجرة الذين عملوا من الظهر إلى العصر أو من العصر إلى المغرب، فقال صاحب العمل: ألم أُعْطِكم ما وعدتُكم؟ وما دمتُ لم أظلمكم فلا يحق لكم أن تعترضوا إذا أعطيتُ مثل أجركم مَن عملوا فترةً أقلّ. ثم

قال إن الجماعة الأولى من العُمال هم اليهود، والثانية هم النصارى، والثالثة هم أنتم أيها المسلمون*. فثبت من هنا أن الرسول ﷺ قد اعتبر زمنه عصرًا بمفهوم خاص.

ومن معاني العصر: الرهط والعشيرة، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أننا نقدِّم قومَ محمد ﷺ شهادةً على أن الإنسان مندفع نحو الخسران. وسنعتبر الإنسان في هذه الحالة بمفهومه العام، ويكون المراد من هذه الآية: دَعُوا جانبًا باقي الناس الذين لا تعرفون أحوالهم، وانظروا إلى حالة أهل مكة الذين تعرفون أحوالهم. إنهم مِن نسل النبيَّيْن المقدَّسَيْن إبراهيم وإسماعيل، وجيرانُ الكعبة التي عُهِدَ إليهم حفظها، ولكنهم بدلاً من أن يؤدوا واجبهم ويرفعوا اسم الله تعالى، ابتعدوا عن الله تعالى كلية حتى أصبحوا سدنةً للبيت يسعون ليل نهار أن يسجد الناس للاّت والعُزّى ومناة ويقرّبوا لها القرابين، ليقتاتوا من ذلك. لقد كان هؤلاء أحقَّ الناس أن ينشروا اسم الله في العالم، ولكنهم جلسوا مجاورين البيت واتبعوا أهواء النفس، بدلا من أن يرفعوا اسم الله تعالى في العالم، مما يوضح بكل جلاء أن الغواية كانت قد أحاطت بالدنيا كليةً، فكان لا بد من أن يبعث الله نبيًّا لإصلاحها.

ومن معاني العصر: الليل، وعليه فإن الله تعالى قد بين بقوله ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قاعدةً كليّةً بأنه إذا حل بأُمةٍ ليلُ الانحطاط والدمار فليس السبيل لنجاتها إلا الإيمان والعمل الصالح.. أي أنها

---

* نص الحديث كما أخرجه البخاري في صحيحه هو: عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى نصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نصْفِ النَّهَارِ إلى صَلاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِن الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ. فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي، أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ. (البخاري، كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار)

لا يمكن أن تزدهر إلا بهداية سماوية. ذلك أن زمنَ الليل هو زمنُ الظلمة، فقوله تعالى ﴿والعصر﴾ يعني ذلك الزمن الذي يحل فيه الدمار بقوم، فلا يجدون بارقة أمل. فالله تعالى يقول هنا إننا نقدّم وقت دمار الأمم وانحطاطها شهادةً على أن ﴿الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. أي في زمن الانحطاط من المحال أن تنجو الجماعة الإلهية من الدمار إلا بطريق واحد، وهو أن يُبعث إليهم نبي من عند الله تعالى لإحيائهم من جديد، فيؤمنوا به وينجوا. هذه قاعدة كلية لا نجد خلافها مثالاً واحدا في التاريخ. فكلما سقطت جماعة إلهية لم تحيَ ثانيةً إلا على يد نبي دائما، أما بدون ذلك فلم يتم إحياء أي أمة حتى اليوم. يخبرنا التاريخ مثلاً أن الأمة الهندوسية ازدهرت ببعثة "كرشنا" عليه السلام بينهم، ثم عاشوا فترة طويلة من الانحطاط لم تنته إلا حين بعث الله إليهم "رام شندر" عليه السلام -أو بحسب عقيدة الهندوس أنهم ازدهروا أولاً ببعثة "رام شندر" بينهم ثم ازدهروا ببعثة كرشنا بينهم حيث بلغوا ذروة الازدهار عن طريقه- ثم أصابهم الانحطاط، فبعث الله لهدايتهم "بوذا" عليه السلام، فآمنوا به وازدهروا مرة ثالثة.

باختصار، كلما ازدهرت جماعة ربانية بعد انحطاطها ازدهرت نتيجة الإيمان والعمل الصالح فقط. لم تزدهر حتى اليوم جماعة ربانية واحدة بالتدابير المادية. هذا قانون إلهي لا تبديل فيه، فلن تجد نظيرا في التاريخ أن جماعة إلهية سقطت بعد الرقي ثم ازدهرت ثانية باتخاذ التدابير المادية فقط. لقد أناط الله رقي الجماعات الدينية بعد الزوال بالنبوة، فالأمة التي ترتبط بالنبي تعرج مرة أخرى، والتي لا ترتبط به لا تنهض من الحضيض أبدًا مهما اتخذت من تدابير. خذوا مثلا بني إسرائيل لقد بعث الله تعالى أولاً إبراهيم عليه السلام فأخذ بهم إلى الذروة، ثم سقطوا فبعث الله فيهم موسى عليه السلام، فنهض بهذا الشعب المنهار إلى ذروة الرقيّ، ثم أصيبوا بالانحطاط، فجاء شمعون عليه السلام فقام بإصلاحهم، ثم أصابهم الانحطاط فجاء داود عليه السلام وأصلح حالهم، وعندما دمرتهم الدولة البابلية أقام الله لهم النبي عزرا عليه السلام الذي عمل على رفع الذل عنهم، ثم سقطوا فبعث الله عيسى عليه السلام، ولم يحدث ولا مرة واحدة أنهم عرجوا ثانيةً من خلال التدابير المادية أو اتباع الزعماء الدينيين من دون الإيمان بنبي.

وهذا هو القانون الإلهي الجاري بالنسبة إلى المسلمين، ولكنهم يظنون لجهلهم أن السبيل إلى نجاحهم وإزالة ذلتهم ونكبتهم هو تأسيس الجمعيات والأحزاب وإنشاء المدارس والكليات والجامعات والعناية بالصنعة والحرفة والتجارة، وعندها يقفون ثانيةً في صفوف الأمم المتقدمة. إنهم لا يرون أنه لا يوجد في تاريخ الأديان مثال واحد أن جماعة ربانية نالت الغلبة بعد انحطاطها بالتدابير المادية فقط. كلا، بل كلما نهضت جماعة إلهية بعد انهيارها إنما نهضت على يد نبي، أما من دون ذلك فلم يسبق له نظير في التاريخ.

ويقول البعض هنا: إذا كان هذا صحيحا، فكيف ازدهرت إنجلترا وأمريكا؟ بأي نبي آمن أهلها حتى أصبحوا غالبين على العالم كله؟

والجواب: من الخطأ القول أن إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الشعوب أحرزوا الرقي بعد الانحطاط. كلا، بل إنهم قد تطوروا وبلغوا أوج الرقيّ بعد أن كانوا همجيين، ولا يصحّ القول أنهم سقطوا بعد رقيّ ثم نالوا هذه الغلبة على العالم كله من خلال التدابير المادية. إن ما أركّز عليه هو أنه إذا سقطتْ جماعة إلهية -أعني التي تنتمي إلى دين حقّ- بعد ازدهارها، فلا يمكن أن تنهض ثانيةً إلا إذا بعث الله إليها نبيًّا. أما هذه الأمم فهي لم تسقط أبدًا بعد إحراز الرقيّ. لا شك أنها تطورت من الحالة الأدنى وبلغت أوج الرقيّ، لكنها لم تحرزه بعد الانحطاط.

هناك أمة واحدة فقط حققت الرقي بعد الانحطاط وهي اليابان، لكن مثالها لا ينطبق هنا، لأن الحديث هنا عن رقي الأمة التي لا تزال على صلة بالوحي، أما الأمة التي قد انقطع عنها نور الإلهام فيمكن أن تزدهر بعد انحطاطها ثانيةً باتخاذها الأسباب المادية فقط، ولكن الأمة التي لم ينقطع عنها الوحي والإلهام وكانت مؤمنة بنبي صادق عهدُه مستمر، فإنها لا يمكن أن تحرز الرقي بعد الانحطاط إلا من خلال مبعوث من الله تعالى. وحيث إن كل الأمم -سوى المسلمين- قد انقطعت صلتها بدين حق، فلذلك يمكن أن يزدهر الهندوس متخذين التدابير المادية الخالصة، لأنهم ليسوا أتباع دين حقّ اليوم. لا شك أنهم كانوا يُعتبرون أتباعَ دين حقّ حين كانت الهندوسية دينًا حيًّا، وقد أحرزوا عندها الرقيّ بالإيمان بكرشنا أولاً، ثم ازدهروا

بالإيمان برام شندر، ثم ازدهروا بالإيمان ببوذا - أو ازدهروا أولاً من خلال رام شندر ثم على يد كرشنا ثم عن طريق بوذا كما يقول الهندوس- أما بعد بوذا فأصبحت الهندوسية ثم البوذية منسوختين، فلو ازدهر الهندوس الآن بالتدابير المادية وحدها فلا اعتراض على ذلك. وبالمثل إنْ تقدّمَ المسيحيون بعد انحطاطهم بالتدابير المادية فقط، فلا حرج في ذلك أيضا، لأن الله تعالى قد قطع صلة محبته عنهم كلية، وأصبحت ديانتهم منسوخة. أما المسلمون فمن المحال أن يحرزوا الرقيّ بالتدابير المادية وحدها أبدا، لأنهم أتباعُ دين حقّ، وهم مثالٌ للجماعة الربانية التي إذا أصابها الانحطاط فلا يمكن أن تزدهر ثانية إلا إذا بعث الله لها نبيًّا.

فلا يغيبنّ عن البال أبدًا أن قانون الرقي هذا ليس عامًّا، بل هو خاصٌّ بالأمة التي لم يحرمها الله من الوحي. فإنه تعالى قد ربط رقيهم المادي بدينهم، لأنهم لو أحرزوا الرقي المادي من دون العمل بدينهم، لاندثر الدين في العالم، ولم يعُدْ لله أي مكانة في حياة الناس. لذا فمن المستحيل أن يكتب الله تعالى الرقي للمسلمين ما لم يصبحوا من الذين قال الله فيهم ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. لقد تخلّى الله تعالى اليوم عن أتباع الديانات كلها سواء الزرادشتية والكونفوشيوسية والبوذية والهندوسية والمسيحية وغيرها. مثالهم كمثال ثورٍ هرِمٍ يسرّحه صاحبه من البيت، فلا يبالي إذا رجع إلى البيت أم لا. أما مثال المسلمين فهو مثال بقرة حلوب، فإذا لم ترجع إلى البيت خرج صاحبها في طلبها. فكما أن للثور الهرم والبقرة الحلوب قانونين مختلفين، كذلك للإسلام والأديان الأخرى قانونان ربانيان مختلفان؛ فإذا ازدهرت الطوائف الدينية - المنقطعةُ صلتُها مع الله - بالأسباب المادية لم يكترث الله لذلك، أما الجماعات الربانية التي لا تزال على صلتها الروحانية بالله تعالى، فإن القانون الرباني الخاص بها هو أن إصلاحها ورقيها لا يتم إلا من خلال نبيّ. فالحق أن مثال إنجلترا وأمريكا واليابان وغيرها لا ينطبق هنا، لأن هذا القانون خاص بالأمة التي لا تزال على صلة مع الله تعالى، وليس بالأمم المحرومة من نور الوحي كليّةً جراء عصيانها لله تعالى.

ومن معاني العصر: النهارُ، وعليه فمفهوم هذه الآية أننا نقدّم النهارَ شهادةً على أن الإنسان في خسر، بمعنى: إذا طلعت شمس الرسالة، فإن الأمة التي تكون مقابلها، لا يمكن أن تنجو من الدمار إلا بالإيمان بها.

ومن معاني العصر: العطية، وعليه فالمعنى أننا نقدّم العطيةَ شهادةً على أن الإنسان في خسر، بمعنى أن الله تعالى عندما يُنعم على الدنيا بعطية النبوة والوحي، فلا يزدهر إلا المؤمنون، أما الآخرون فيظلون محرومين من الرقيّ.

لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن الخسر يعني: ضِدّ الربح والضلال والهلاك. ونظرًا إلى معنى الهلاك، لو طبّقنا هذه الآية على الزمن الأخير للإسلام فالإنسان هنا إنسان الغرب، وعليه ستكون هذه الآية نبوءة بأن الإنسان الغربي سيعتبر نفسه هو إنسانًا فقط، أما باقي البشر فلن يعتبرهم أناسًا، والمراد من قوله تعالى ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أن إنسان الغرب كلّما سعى لإحراز الكمال في زعمه دفع نفسه إلى هوة الهلاك. وبالفعل قد انكشفت هذه الحقيقة الآن على العالم كله، فكلما تقدمت حضارتهم زادت من أسباب الدمار والهلاك، ومثالها القنبلة الذرية التي اخترعوها في الحرب العالمية الأخيرة (الثانية). إنه سلاح فتّاك ومدمر للغاية، حتى أعلن الجنرال مكارثر Douglas MacArthur صراحة: علينا أن نحسّن أخلاقنا بشكل ملحوظ في استعمال هذه الأسلحة، وإلا فلا شكّ في دمار العالم. وهذا ما أنبأ الله به هنا بأن الغرب كلما زعم أنه الإنسان.. أي كلما ادعى أهل الغرب أنهم كبار العلماء والرياضيين والتجار والصناع والمخترعين والمكتشفين اقتربوا إلى الهلاك، وحفروا قبورهم بأيديهم.

ومن معاني الخسر: الضلالُ، فقوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني أن الناس في الزمن الأخير سيعتبرون أنفسهم وحدهم أناسا ويحتقرون المؤمنين ويزدرونهم، بينما لا يكون الهدى إلا عند المؤمنين. إن ذلك العصر الكامل -أي الذي يُبعَث فيه موعود رباني- سيشكّل دليلاً على ضلال إنسان الغرب الذي يبدو كاملا في الظاهر. بمعنى أنه لن يكون عندها سبيل لكشف خطأ إنسان الغرب وضلاله أمام العالم إلا السبيل الروحاني، أي شخصيةُ نبي موعود. إذن فالعصر في

هذه الحالة يعني العصر الكامل، ولا شك أن العصر الكامل إنما هو الذي يبعث الله فيه نبيًا لهداية الناس. وعليه، فمفهوم الآية أنه سيوجد في الزمن الأخير شعب يعلن أنه هو "الإنسان" أما الآخرون فليسوا في عِداد البشر، بينما الواقع أن هذا "الإنسان" يكون في ضلال، ولكن الناس لم يستطيعوا كشف ضلاله، إذ لا سبيل لذلك إلا السبيل الروحاني. وبالفعل نرى أن كشف ضلال الغرب لم يعُدْ صعبًا بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام، فبوسع كل واحد منا أن يعلن على الملأ أن أهل الغرب في ضلال، ذلك لأن الله تعالى قد بعث نبيًا فآمنّا به، ولكن الغرب يرفضه، لذلك نحن على الهدى والغرب على الضلال. أما الأديان والفِرق الإسلامية الأخرى فكيف يمكنها أن تثبت فضلها على الغرب وتقول نحن على الهدى والغرب على الضلال؟ إنهم واقفون حيارى مذهولين إذ ليس بيدهم سبيل يستطيعون به كشف ضلال الغرب. خذوا مثلاً غيرنا من المسلمين، فلا شك أنهم يهتفون بملء أفواههم: يحيا الإسلام، والويل للأديان الأخرى، ولكن علينا أن نرى: هل للإسلام تأثير في قلوبهم اليوم، أم أن هتافاتهم مجرد ثرثرة لسان؟ كل مَن يتدبر أحوالهم بإمعان لا بد أن يقول أَنْ لا تأثير للإسلام فيهم. إنهم يهتفون في الظاهر: يحيا الإسلام، يحيا الإسلام، لكنهم في الواقع يتّبعون الغرب إذ يظنون أن تعاليم الإسلام لن تنجيهم من الدمار، ولكن تقليدهم الغرب سينجيهم من الهلاك.

لو صرفنا النظر عن الجهود السياسية للمسلمين ودرسنا أحوالهم لنرى ماذا يريد المسلم أن يكون بعد تحرّره سياسيًا مِن الغرب، لرأينا جليًّا أن المسلم بعد تحرُّره السياسي يريد أن يكون "تشرشل" الإنجليزي، ولا يريد أن يكون "أبا بكر الصديق" العربي. إنه يريد التحرر من قبضة الغرب سياسيًا، لكنه لا يريد بعدها أن يكون عمر أو عثمان، بل يريد أن يكون مثل إيطالي ITALY الإنجليزي أو ترومان الأمريكي أو ستالين الروسي. فترتسم أمام عينيه الشخصيات الغربية القوية واحدةً بعد أخرى، فيقول بكل حسرة: ليتني أجد فرصة واحدة لحكم البلاد، فأحكمها على شاكلة حُكْم هؤلاء الغربيين العظام! إنه لا يرغب أبدا، بل لا تخطر بباله أبدًا، أن يصبح مثل جلال الدين السيوطي أو الإمام البخاري أو السيد عبد القادر

الجيلاني. ولذلك ينبئ الله تعالى هنا أنه لن توجد في الزمن الأخير أمة أو طائفة تعتبر إنسان الغرب في ضلال وتكشفه للعالم، بل سيقلّد الجميع ويرى أن نجاحه في تقليده. الواقع أن مطالبتهم بالاستقلال السياسي شيء مختلف عن العمل بالإسلام تمامًا، إذ لا يعنون به إلا أن يتمتعوا بالسلطة كما يتمتع بها الغرب. أما الذي يتسبب في كشف ضلال إنسان الغرب فهو النبيّ، فإن جماعته وحدها ستعلن عندها بكل ثقة - بسبب إيمانها به - أن انتصار الغرب محال، ولن يُكتَب النصر إلا لنا لأننا آمنّا بنبيّ. مما يعني أن الأمل -وهو السبيل الوحيد للانتصار- لن يكون إلا عند المؤمنين به فقط، أما الطوائف الأخرى التي لن تكون من هؤلاء المؤمنين، كما لن تكون من حلفاء إنسان الغرب، فلن يضمّها إنسان الغرب إلى حزبه، كما لن ينكشف عليها ضلاله وضعفه، فتكون في حيرة من أمرها، فلن تجد بارقة أمل. ومن أجل ذلك نجد كبار زعماء المسلمين يعتذرون أمام الغرب. ليس عندهم شجاعةٌ أن يخبروا الغرب صراحةً بشناعته وضلاله. خُذوا مثلا السيد "سيد أمير علي"، فقد حاول في كتبه الردَّ على مطاعن الغربيين على الإسلام، لكن أسلوبه اعتذاريٌّ في كل مكان. فيقول مثلاً إننا نسلّم بصحة اعتراضاتهم، لكننا نرجوهم ألا يكونوا شديدين إلى هذا الحد في موقفهم ضد الإسلام، ذلك أن الإسلام ظهر في عصر متخلف، ولذلك نجد عديدًا من القضايا الإسلامية لا تسدّ الحاجات المعاصرة. أما سيدنا المسيح الموعود عليه السلام فرفض هذا الأسلوب الاعتذاري كليةً، وكشف على الغربيين ضلالهم بكلمات واضحة صريحة، وأعلن أن ما يقوله الإسلام صحيح ١٠٠%، والمعترض على تعاليمه لا يدل إلا على حمقه هو. هذا هو السبب في أن خصومنا من المسلمين يسبوننا حتى اليوم. لقد انتقدْنا الآريين الهندوسَ والسيخ والجَيْنيّين والبوذيين والزراشتتيين واليهود والمسيحيين وغيرهم، وما من ديانة ولا طائفة إلا وأثبتنا ضلالها دفاعًا عن الإسلام، ووجّهنا إليها اعتراضات قوية يستحيل أن يجيبوا عليها، وكان على المسلمين الآخرين أن يشكرونا على هذا العمل العظيم، ولكنهم بدلاً من ذلك أخذوا يسبّوننا قائلين: إن الأحمديين يثيرون أعداءَ الإسلام ضدّه، فقبْلَ فترة قرأتُ ما كتبه السيد "مَظْهَر علي أظهر" في المجلة التي يحررها، فقال بكل شدّة أن أكبر سبب

وراء ما كاله الآريون الهندوسُ للإسلام ومحمد ﷺ من شتائم هو أن حضرة الميرزا (مؤسس الأحمدية) بدأ يطعن في ديانتهم، ولولا طعنه هذا لما عارضوا الإسلام. فكأنما يريد السيد مظهر أن يقول: كان من واجب مؤسس الأحمدية أن يتبع الأسلوب الاعتذاري في مواجهة أعداء الإسلام، فبدلاً من الرد على مطاعنهم ضد الإسلام كان عليه أن يقول لهم: أناشدكم بالله أن لا تقسوا علينا، فإن محمدا ﷺ كان سيدَ أُمّة جاهلة -والعياذ بالله- فما كان بوسعه إدراك قضايا هذا العصر، وما كان لتعاليم القرآن الكريم أن تسدّ حاجات هذا الزمن، إنما كانت تعاليمه خاصة بالعرب فقط، أما اليوم فإن العلوم الغربية هي التي يمكن أن تصل بالإنسان إلى الذروة. ولكن مؤسس الأحمدية عليه السلام لم يتبع هذا الأسلوب، وأعلن للعالم أن محمدا رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء قاطبة، وأن تعاليم الإسلام أفضل التعاليم كلها، والذين يعترضون عليه ﷺ إنما هم جهال حمقى لا يفهمون حقيقة تعاليم القرآن. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٥٥٧). هذا ما أغضب الآريين الهندوس -بزعم السيد مظهر- فانبروا لمحاربة الإسلام، ولولا هذا التصرف من مؤسس الأحمدية لما حاربوه.

باختصار، لم يبق الأمل في قلوب المسلمين كلهم اليوم، وإن جماعتنا هي الوحيدة التي قلبها عامر بالأمل والتي تكشف ضلال الغرب موقنة أن من المحال أن ينتصر في مواجهتها.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أننا نقدم شهادةً زمن النبوة على أن كل الأمم والطوائف في الزمن الأخير سوف تصاب بالرعب من شوكة الغرب وسطوته، وتظنّ أن نجاة العالم في تقليده، وتكون هناك جماعة ربانية واحدة فقط تتمتع بقوة الإيمان والعمل الصالح، وسوف يُبطِل أبناؤها الفكرةَ السائدة في العالم عن الغرب فيعلنون أن انتصار الغرب محال وأن دماره يقينيّ. الأمم الأخرى ستنظر إلى الغرب من منظور مادي فقط، فترى في الإنسان الغربي إنسانا كاملا، أما هذه الجماعة الربانية فسوف تنظر إلى الغرب من منظور روحاني، وترى في الإنسان الغربي إنسانا مريضا. وهذا هو المشهد الذي نراه في العالم اليوم؛ فالغرب يَرى في تركيا إنسانًا مريضًا، بينما ترى الدول الآسيوية في الغرب إنسانا

صحيحًا قويا، أما أبناء الجماعة الإسلامية الأحمدية فيعارضون ما يراه العالم كله ويعلنون أن إنسان الغرب إنسان مريض ويوقنون أن من المحال أن يتغلب عليهم هذا الإنسان المريض أبدا.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الصَّالِحَات: صلَح الشيءُ صلاحًا وصُلوحًا وصلاحيةً: ضدُّ فَسَد؛ أو زالَ عنه الفساد. والصالحُ: القائمُ بما عليه مِن حقوق العباد وحقوق الله تعالى؛ وهو صالحٌ لكذا، أي له أهليّةُ القيام به. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني إلا الذين قاموا بأعمال لا فساد فيها، أو أعمالٍ بحسب المقتضى، أو أعمالٍ تؤدي حقوق الله وحقوق العباد.

تَواصَوا: تَواصَى القومُ: وصَّى بعضُهم بعضًا. (الأقرب)

الحقّ: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المَقْضِيّ؛ العدلُ؛ المالُ؛ المُلْكُ؛ الموجودُ الثابت؛ اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزمُ؛ والحقُّ مِن أسماء الله عز وجلّ. (الأقرب)

الصبر: تركُ الشكوى مِن أَلَمِ البَلْوى لغيرِ الله لا إلى الله، فإذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الضر عنه لا يُقدَح في صبره. وقال (أي أبو البقاء) في "الكليات": "الصبرُ في المصيبة، وأما في المحاربة فشجاعةٌ، وفي إمساك النفس عن الفضول.. أي عن طلب ما يفضُل عن قوام المعيشة.. فقناعةٌ وعفّة، وفي إمساكِ كلام الضمير كتمانٌ" (الأقرب).

إن قوله "وفي إمساك النفس عن الفضول.. أي عن طلبِ ما يفضُل عن قوام المعيشة.. فقناعة وعفة" يعني: أن الإنسان إذا أمسك نفسه عن فضول الأمور فيصبح الصبر نوعيْن: فإذا تجنّبَ إسرافَ ماله فهذا الصبر يسمى قناعةً، وإذا تحلّى بالأخلاق ونهى النفس عن الرذائل، فيسمى هذا الصبر عفةً.

إذن، فمن معاني الصبر: الشجاعة والقناعة والعفة وكتمان السرّ.

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في قوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قاعدةً هامة بشأن أعمال الإنسان التي يؤدي إهمالها إلى العثار في أحيان كثيرة. إن من عادة الناس أنهم يعتبرون -مِن عند أنفسهم- بعض الأعمال حسنة وبعضها سيئة، ثم يحاولون القيامَ بما هو حسن عندهم واجتنابَ ما هو سيئ عندهم، ثم يسمّون هذه الأعمال الحسنة عندهم أعمالاً صالحة، وغيرها أعمالا سيئة، مع أن العمل الصالح ليس عملاً خاصًا ومحددا، بل كل عمل كان بحسب مقتضى الحال وسدّ حاجة الإنسان الروحانية أو المادية فهو صالح. إن من أكبر مزايا القرآن الكريم أنه قد أوجد للأعمال التي تتفق مع الدين اصطلاحا "العمل الصالح" هو كامل بحد ذاته ويوضح جليًّا ما هو حسن وما هو سيئ، أما الأديان الأخرى فاكتفت بقولها للإنسان عليك أن تعمل الأعمال الحسنة من غير أن تبين له ما هي هذه الأعمال الحسنة وما تعريفها، فإذا سألت أحدا من أتباعها: ما هي الأعمال الحسنة؟ قال من فوره: العمل الحسن أن نعبد الله تعالى ونصوم ونعين الفقراء ونتصدق وما إلى ذلك، مع أن هذا ليس جوابا مكتملا في الحقيقة. إن الإسلام لا يعتبر الصلاة ولا الصيام ولا الزكاة ولا الصدقة في حد ذاتها عملاً صالحا، وإنما العمل الصالح عند الإسلام ما يناسب مقتضى الحال، ويكون موافقا لحاجة الإنسان الروحانية والمادية. فالصيام مثلا حسنة كبيرة، ولكنه يصبح حسنةً حينًا وسيئةً حينا، فمثلا قال الرسول ﷺ إن الصائم يوم العيد شيطان.* فلو كان الصوم عملا صالحا في كل حال، فلماذا سمى النبي ﷺ الصائمَ يوم العيد شيطانا؟ مما يدل على أن الصوم في حد ذاته ليس حسنة، إنما يكون حسنةً حين يكون بحسب أمر الله تعالى. وكذلك الصلاة حسنة عظيمة، ومع ذلك قال الرسول ﷺ إن الذي يصلي والشمسُ تطلع

* أقرب ما وجدناه في الحديث بهذا المعنى: "يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما: يوم فطركم من صيامكم، واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم." (متفق عليه)

أو تغرب أو تكون في نصف النهار فهو شيطان.◈ فلو كانت الصلاة في حد ذاتها عملاً صالحا، فلماذا اعتبر النبي ﷺ مَن يصلي في هذه الأوقات آثمًا؟

غير أنها أحكام لا يعرف الجميع الحِكم الكامنة وراءها، ولكن المثال التالي يفهمه كل إنسان، أعني لو شنّ العدو هجومًا شرسًا وكان النبي والمؤمنون مشغولين بالدفاع عن أنفسهم، فيتركهم أحد في معركة القتال ويفرش السجادة جانبًا ويبدأ الصلاة، فلن يقول أحد إنه رجل صالح يعبد الله تعالى على انفراد باكيا مبتهلا، بل كل من يراه سيسميه شيطانًا، ويعتبره منافقا غدارا؛ حيث ترك الجهاد وأخذ يعبد الله تعالى منفردا غير مكترث للهجوم الشديد من قِبل العدو ولا بمصيبة المسلمين الكبرى. إنه ليس مصليًا، بل هو عدوّ الإسلام وعاصٍ لله تعالى.

كذلك الصوم عمل حسن، ولكن في إحدى الغزوات صام فريق من الصحابة ولم يصم آخرون، وعندما وصلوا إلى أرض القتال سقط الصائمون منهَكين مرهَقين، بينما بدأ غير الصائمين يُعِدّون عُدّتهم للقتال بكل نشاط وحيوية، فقال الرسول ﷺ برؤيتهم: "ذهب المُفْطِرون اليومَ بالأجر" (النسائي، كتاب الصوم). فلو كان الصيام عملاً صالحا في كل حال، لما قال النبي ﷺ ذلك. إن تفضيله المفطِرين على الصائمين يبين بكل وضوح أن الصوم يكون عملاً صالحا في حالات وعملاً غير صالح في حالات أخرى. إن الجهاد والقتال يتطلب قوة وشجاعة وهمّة، ولذلك فضّل النبي ﷺ المفطرين على الصائمين.

باختصار، إنما العمل الصالح هو ما تُراعَى فيه حقوق الله وحقوق العباد بأحسن وجه، أما من دون ذلك فلا يسمى أي عمل صالحا، وإن كان حسنا في الظاهر. الواقع أن النظرية الإسلامية تقول إن العمل وحده ليس بشيء، إنما حُسن العمل أو سوءه أمرٌ نسبي دائما، فتكون بعض الأعمال حسنة في ظرف وسيئةً في ظرف آخر.

◈ أقرب ما وجدناه في الحديث بهذا المعنى: "لا تصلوا عند طلوع الشمس فإنها تطلع بين قرني شيطان ويسجد لها كل كافر، ولا عند غروبها فإنها تغرب بين قرني شيطان ويسجد لها كل كافر، ولا نصف النهار، فإنه عند سجر جهنم." (مسند أحمد: مسند الأنصار ﷺ)

فالعمل الصالح في هذه الآية لا يعني ما هو حسن فقط، بل يعني ما هو حسن حسب الظرف والمقتضى. إن الإسلام لا يأمرنا أن نقوم بكل عمل نراه حسنًا، بل يأمرنا بما هو أنسبُ بحسب الظرف؛ لأن العمل مَهما بدا حسنًا في ظرف، فإنه يصبح سيئا في ظرف آخر. فمثلاً لو سألت أحدًا عن الرحمة لأجابك: الرحمة أفضلُ من كل شيء، إنها حسنة كبيرة. مع أن الحق أن الرحمة تصبح جريمة خطيرة في بعض الظروف. فمثلاً هناك شخص يرى سارقًا يسرق من بيت، فيترحّمَ عليه قائلا: لو أخبرتُ الشرطة لاعتقلتْه ورفعتْ ضده قضية وألقته في غياهب السجن لسنوات، فيعاني أهله وأولاده، فهذا القائل لن يثني عليه أحد، بل كل من يسمعه يقول إنه قد عمل عملا سيئا جدًّا، إذ كان عليه أن يلقي القبض على السارق. إن ترحُّمه عليه وعدم قبضه عليه ليس حسنةً، بل هو إثم كبير. فرأيتَ أن الرحمة تكون حسنة في ظرف وسيئة في آخر، ويستنكرها الجميع.

كذلك لو خرج شخص بنية قتل إنسان، وعلمتَ بذلك، ثم لم تخبر الشرطة ظنا منك أنك لو أخبرتها لألقت عليه القبض فعانى أهله وأولاده معاناة كبيرة، فعملُك هذا لن يُعَدَّ من الرحمة في شيء.

فهناك حالات كثيرة يصبح فيها أفضل الأعمال سيئًا ولا بد للإنسان من تجنُّبه، ولذلك قد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم دائما اصطلاح العمل الصالح، وأمَر المؤمنين ألا يعملوا أعمالاً تبدو حسنةً بغض النظر عن الظرف، بل عليهم أن يعملوا أعمالاً هي حسنة بالنظر إلى الظرف. فقوله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني أن الجميع في خسران إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا أعمالاً هي حسنة بالنسبة إلى الظرف والواقع.

يتفاخر الأوروبيون بأن النظرية النسبية من اختراع آينشتاين، مع أن القرآن الكريم قدّم هذه النظرية أول مرة قبل ثلاثة عشر قرنا، حيث استعمل دائما اصطلاح العمل الصالح، وليس ذلك إلا النظرية النسبية في الحقيقة، بمعنى أن العمل لا يُعتبر حسنًا في حد ذاته، بل بالنسبة إلى ظرفه وواقعه. لقد ضربتُ آنفًا أمثلة على أعمال تبدو حسنةً عادةً، ولكنها تصبح سيئة بالنسبة إلى الظروف الأخرى. والآن أضرب مثالاً للعمل السيئ الذي يصبح حسنًا بالنسبة إلى الظرف والواقع. هناك ابنٌ يرى حيّةً تصعد على جسد أبيه من دون أن يدري، فيدرك أنه لو تأخّرَ قليلاً فستلدغ أباه حتمًا، فيضربها فورا بالحذاء أو العصا مثلاً

ويقتلها أو يخوّفها فتهرب. والآن فيما يتعلق بضربه أباه بالنعل أو العصى فهو عمل سيئ في الظاهر، ولكن كل من يسمع بالحادث فلن يلوم الابن باعتباره خبيثًا عديم الحياء يضرب أباه، بل سوف يشيد الجميع بذكائه وصلاحه؛ إذ تصرّف تصرفًا ذكيا وحمى أباه من الحية. فكما أن العمل الحسن يصبح سيئًا في بعض الأحيان نظرًا إلى ظرف خاص، كذلك أحيانًا يصبح العمل السيئ حسنًا بالنسبة إلى الواقع والظرف. فثبت أن النظرية النسبية لم يبتكرها آينشتاين، بل القرآن الكريم هو الذي قدّمها للعالم أول مرة، حيث أكد مرارًا أن العمل الحسن ليس إلا ما يكون مناسبًا للظرف والواقع.

فالحق أن قوله تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقدّم النظرية النسبية. يقول الناس اعملوا العمل الحسن، ثم يسمّون بعض الأعمال حسنة وبعضها سيئة، متناسين أن أي عمل في حد ذاته لا يكون حسنًا أو سيئًا، بل يكون كذلك نسبةً إلى ظرفه وواقعه. فالقتل مثلاً عمل سيئ جدا، لكنه يصبح حسنًا جدا وقت القتال. هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. أي على المؤمنين أن يعملوا ما هو الأحسن والأفضل بالنسبة إلى الظرف والواقع.

علمًا أن القرآن الكريم لا يخيّر الإنسان أن يقرّر بنفسه ما هو الأفضل والأحسن بالنسبة إلى الواقع، بل إنه بنفسه قد بيّن كلَّ المبادئ والتفاصيل الضرورية بهذا الصدد، أو بيّنها الرسول ﷺ.

لقد سبق أن ذكرتُ أن للخسر ثلاثة معانٍ: الضلال، ضِدُّ الربحِ، والهلاك. وقد ألقى الله الضوء على هذه المعاني الثلاثة بذكر ثلاث جمل إزاءها وهي: ١-إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ٢ -وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٣- وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ. بمعنى أن المتحلّين بهذه الخصال الثلاث هم الذين يُحفظون من الخسران: أي من الضلال، والخسارة، والهلاك، فكل خصلة تحميهم من أحد أنواع الخسر، مما يدل دلالة قطعية على أن القرآن الكريم يراعي المعاني اللغوية للكلمات كل المراعاة. فالمعنى الأول للخسر هو الضلال، وقد ذكر الله تعالى إزاءها قوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ليبين أنه لن ينجو في الزمن الأخير من الضلال إلا الجماعة المؤمنة، لأنها تؤمن بالمأمور الرباني، أما الآخرون فيكونون في الضلال بعيدين عن الحق. فقوله ﴿آمنوا﴾ نفى عنهم الضلال.

والمعنى الثاني للخسر هو عدم الربح، وذكَر الله تعالى إزاءه قوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ليبين أنه لن يكون أحد محفوظًا من الخسران في الزمن الأخير إلا جماعة المؤمنين هؤلاء. لماذا يصاب الإنسان بالخسارة؟ لأنه لا يعمل عملاً مناسبًا للظرف، فالتاجر مثلا إذا لم يشترِ البضاعة في الوقت المناسب، ولم يبعها في الوقت المناسب، فلا بد أن يخسر، لكنه لو قام بالعمل الصالح، أي ما يكون مناسبًا لتجارته، ربِح فيها وتجنّبَ الخسارة. فثبت أن العمل الصالح يحمي الإنسان من الخسارة. وحيث إن المؤمنين يقومون بالأعمال الصالحة فيتجنبون الخسارة أيضا.

والمعنى الثالث للخسر هو الهلاك، وقد قال الله تعالى إزاءه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.. أي أن المؤمنين لا ينجون من الضلال والخسران فقط، بل ينجون من الهلاك أيضا، لأنهم يتَواصَون بِالْحَقِّ ويتَواصَون بِالصَّبْرِ. ذلك أن من الواضح أن الله تعالى إذا أنزل شيئًا من الحقائق الجديدة عارضَه الناس، وسعى معظمهم للقضاء عليه، وعندما تتعرض أقلية لمعارضة الأكثرية أعني إذا حاول الجميع.. مِن حكام ورعايا وتجّار وصنّاع وعلماء وجهّال وصغار وكبار.. القضاءَ عليها، فليس أمامها إلا سبيلان للنجاة، الأول: أن تتوافر لها أسباب كاملة للنجاة، والثانية أن تستعمل هذه الأسباب المهيأة. ذلك أن الإنسان إذا لم يوجد عنده أسباب النجاة هلك، وإذا لم يستعمل الأسباب المتاحة هلك أيضا. فمثلا إذا لم يوجد عنده ماء مات عطشًا، وإذا كان عنده ماء ولم يشربه مات أيضا. والوسيلة الأولى تكون مهيأة للمؤمنين، إذ يؤمنون بالمبعوث الرباني ويتمتعون بقوة العمل على أحسن وجه، ويعملون دائما أعمالاً تتفق مع مقتضى الحال والظرف، ثم إنهم يتمتعون بميزة إضافية بأنهم ينظرون إلى وعود الله تعالى بنجاحهم، فيوقنون أن الدنيا لن تقدر على القضاء عليهم مهما عارضتهم. إذن، ففيما يتعلق بوسائل النجاة من الهلاك، فهي ميسرة للمؤمنين على أحسن وجه، فعندهم الإيمان والقوة الدافعة للعمل، واليقين الكامل بوعود الله تعالى بنجاحهم. ولكن لا بد للنجاح من استعمال هذه الوسائل أيضا، وإلى هذا يشير الله بقوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ﴾.. أي أن العمل الصالح وحده لا يكفي الإنسان، بل لا بد للأمة من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، لكي تنجو من الهلاك.

ما هو المراد من قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾؟

اعلمْ أن من معاني الحق الصدق، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين لا يتمسكون بالصدق فحسب، بل يجعلون الآخرين أيضا يتمسكون به. بمعنى أن كل واحد منهم لا يكون مستعدا لقبول الحق والصدق بنفسه، بل يوصي الآخرين أن يظلوا مستعدين لقبول الحق دائما. إن أكبر سبب لهلاك الأمم التمسكُ بالنظريات الخاطئة؛ إذا تمسكت أمة بالنظريات الخاطئة فلا بد أن تتوصل إلى نتائج خاطئة تؤدي إلى أعمال خاطئة. فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يشير إلى أن هؤلاء القوم لا يقبلون بالنظريات الخاطئة، لكن إذا عُرض عليهم الحق والصدق قبلوه على الفور. علمًا أن من فطرة الإنسان أنه إذا اعتاد أمرًا فلا يحيد عنه ولا يتركه، إنما الإحساس بضرورة البحث عن الحقّ هو ما يخلصه من قيود العادات. أما القوم إذا اعتادوا أمرًا خاطئا فترة طويلة، وفقدوا الإحساس بضرورة البحث عن الحق، فيصعب عليهم التخلُّص من الخطأ الذي اعتادوه، وإنما يسارعون إلى الطعن في الحق، ولا يصلحون خطئهم.

عندما اكتشف "كولومبس" القارة الأمريكية حسده البعض فأخذوا يقولون: ما الغرابة في ذلك؟ فكل من يُبحِر بسفينته سيصل إلى هذه القارة يوما ما؛ فليس في هذا ما يوجب الإشادة والثناء على كولومبس. فلما بلغه ذلك دعاهم إلى مأدبة طعام، ثم أخرج من جيبه بيضةً، وقال لهم أن يثبّتوها رأسيًا على الطاولة، فأخذ الجميع ينظرون يمنة ويسرة، ولم يدروا ماذا يفعلون. فأخرج كولومبس من جيبه إبرةً وثقب بها البيضة وأخرج شيئا من مائها، ووضعه على الطاولة ثم ثبَّت به البيضة. فقالوا: ما الغرابة في ذلك؟ كنا نستطيع أن نعمل ذلك. فقال كولومبس: سمعتُ أنكم تقولون ما الغرابة في اكتشاف كولومبس لأمريكا، فكنا نستطيع أن نكتشفها. إن فرصة اكتشاف أمريكا كانت قد فاتتكم، ولكن كانت لديكم فرصة تثبيت البيضة على الطاولة، فلم تنتهزوها أيضا.

فالواقع أن مبادئ الحقّ والصدق بسيطة جدًّا، كل ما في الأمر أن يتمسك المرء بالصدق ويعمل به. إن الذين في قلوبهم إحساس بضرورة البحث عن الصدق، يتوصلون إلى نتائج هامة من أمور بسيطة أيضًا. إنهم لا يفكِّرون من أين يجدون الحقّ، أو ما هو مصدره، وإنما يُقبِلون عليه إقبال العطشان على الماء، نابذين أفكارهم الخاطئة القديمة ضاربين بها عرض الحائط. أما الذين لا يوجد عندهم إحساس بضرورة قبول الصدق فيتعذَّر عليهم جدًّا التخلي عن أخطائهم السابقة. خذوا مثلاً مسألة حياة المسيح عليه السلام وبقائه في السماء حيًّا ومدى ضعفها وركاكتها. فما دام الناس كلهم يموتون منذ آدم عليه السلام وحتى يومنا هذا، فكيف يمكن أن ينجو المسيح عليه السلام من الموت ويصعد إلى السماء حيًّا خلافًا لسنة الله المستمرة في البشر؟ ولكن المسلمين تمسكوا بهذه العقيدة الخاطئة مرةً فأصبح من الصعب عليهم أن يتخلوا عنها. وهناك مسائل عديدة خاطئة أخرى تسربت إلى المسلمين نتيجة بُعدهم عن زمن البعثة النبوية، وقد أصبح تركها الآن صعبًا عليهم. ولكن إذا تشجّعَ المرء وآمن بالمسيح الموعود عليه السلام تحطّمت أطواق هذه العقائد الخاطئة وسلاسلها في لمح البصر من دون أن يعاني شيئا. يقول المسلمون الآخرون في أنفسهم قد أفتى بذلك الإمام الغزالي أو الجنيد البغدادي أو عبد القادر الجيلاني أو الإمام الرازي أو الإمام أبي حنفية أو الإمام الشافعي، فكيف نتخلى عن أقوالهم ونتركها؟ ولكن ليس صعبًا على المسلم الأحمدي التخلي عن هذه الأفكار الخاطئة، لإدراكه أنه قد آمن بالمأمور الرباني، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم -الذي أنزل الله عليه كلامه القرآنَ الكريم- قد أخبر أن ما يقوله هذا المأمور الرباني يكون هو الصحيح، وأن ما يرفضه فهو الخطأ، فلا يفكر المسلم الأحمدي أن الإمام الرازي أو الغزالي أو أبو حنيفة قد قال هذا وذاك، وإنما ينظر إلى ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قاله المسيح الموعود عليه السلام.

باختصار، كل أمة تقع في شتى الأخطاء، ولكن عندما يُبعث نبي من عند الله تعالى يتخلصون من أخطائهم السابقة. وأيّ شك في أن كبار القوم أيضا يمكن أن يقعوا في الخطأ، فلو كانوا صائبين في ألف قضية فقد يخطئون في قضية أو قضيتين،

وتتراكم أخطاء من الكبار على مر العصور وتصبح كومة كبيرة، فلا يعرف الناس كيف يخرجون من وحلها، لأنهم لو فعلوا ذلك لعُدّوا ممن يعارض كبار الأسلاف. فالإنسان يظلّ مقيَّدًا في أنواع الأخطاء قبل الإيمان بالنبي، ولكن بمجرد أن يؤمن به تتمزق حبال الأخطاء التي قيّدته واحدًا بعد الآخر، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله أن "الإسلام يهدم ما كان قبله" (مسلم، كتاب الإيمان).. ومن معاني هذا الحديث أن إيمان المرء بنبيّ الله يحرّره من أصفاد التقاليد السابقة، ويقطع عنه كل حبلٍ أُسر فيه، فيتنفس في حرية، لأن المؤمنين بالنبيّ يقولون سنؤمن بكل ما هو حق وصدق، ونرفض كل ما ليس بحق أيًّا كان قائله، وهكذا يتحررون من كل الأغلال التي طوّقتهم وتتمزق كل السلاسل التي قيَّدَتْهم، فيصبحون حملة لواء الحق والصدق.

باختصار، قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يتمسكون بالحق والصدق ويسعون لأن يُثبتوا عليه الآخرين أيضا.

ومن معاني الحق اللهُ ﷻ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين ينشئون صلة مخلصة مع الله تعالى، كما يوصون الآخرين بإنشاء صلة إخلاص وصدق مع الله تعالى.

الواقع أن وجود الله تعالى يغيب عن أنظار الأمم تدريجيًا نتيجة طقوسهم القديمة، ويصبح عندهم إله آخر زائف يعبدونه. هذا هو حال جميع الأديان الموجودة اليوم من مسيحية وهندوسية وغيرهما. فلو تبيّنتَ أمرهم لوجدت أن صورة الله الحقيقية قد انمحت عندهم، وقد خلقتْ رواياتهم الشفوية إلهًا جديدًا يعبدونه. هذه الصورة الجديدة لله تعالى ليست مما قدّمه دينهم في البداية، بل إنما رسمتْه أوهامهم وتصوراتهم. وعندما يبعث الله تعالى نبيًا تسقط هذه الأصنام كلها واحدًا تلو الآخر، ويتراءى للناس وجهُ الله الحقيقي، ويخرج الناس من حضيض الوثنية ويسعون قُدمًا في مجال قرب الله ومحبته ﷻ. فمن معاني قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أن المؤمنين يكونون على صلة مخلصة مع الله تعالى، كما يحثّون الآخرين على أن يعبدوا الإله الحقّ ويُنشئوا معه صلة إخلاص متينة ولا يضيّعوا وقتهم في عبادة الأصنام.

ومن معاني الحقّ العدلُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يعدِلون كما ينصحون الآخرين بالعدل. الواقع أن من أكبر المساوئ التي هي نتاجُ التقاليد القومية أن الناس يحيدون عن العدل والإنصاف. هناك آلاف الآلاف من الأُسر التي تتمسك بتقاليدها البالية، وإذا أخطأَ بعض أفرادها قالوا نحن نعلم أنه مخطئ، ومع ذلك لا يمكننا التخلي عنه، بل نحن مضطرّون إلى الانحياز إليه، ولن ندَعه يذلّ ويَخْزى أمام الآخرين. فثبت أن العلاقات القديمة تمنع الناس من العدل، ولكن عندما يُبعث نبيّ تحدث في العالم ثورة، وتُنفخ فيهم ثانيةً روحُ الإنصاف الذي كانوا يدوسونه من قبل تحت النعال. فيعاهد المؤمنون على يده بإرساء العدل في العالم واسترداد حق المظلوم ومعاقبة الظالم، وأنهم لن يَدَعوا صاحبَ العمل ليظلم الأجير، ولا الثري ليسلب الفقير، وهكذا يتمسكون بالعدل حقًّا، ويدْعون الآخرين أيضا إلى العدل والإنصاف دائما.

ومن معاني الحق اليقينُ بعد الشك، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمن لا يكون إيمانه مبنيًا على الشكوك والشبهات أو القياس والتخمين، بل يؤسس عقائده على اليقين، كما يوصي الآخرين أن لا يؤمنوا إيمانا تقليديا فقط، بل يتحلّوا بإيمان مبني على المشاهدة. الحق أن أكبر وسيلة لليقين هي وجود النبيّ، فعندما يُبعث نبي من الله تعالى يقدِّم للناس آياتٍ حيّةً بيّنةً على صدقه، فتزول شكوك الناس وشبهاتهم، فيتأسس إيمانهم على المشاهدة لا على القياس والتخمين. فالله تعالى يخبر هنا أن المؤمنين يكونون ثابتين على اليقين، كما يحثّون الآخرين على أن يتحلوا بيقين كامل بوجود الله تعالى، لأن الإيمان التقليدي لن ينفعهم شيئا. هذا هو حال المسلمين اليوم، فإيمانهم تقليدي فحسب، ولا يوجد عندهم ذلك الإيمان الراسخ على أسس اليقين، والذي لا يتزعزع ولا يتزلزل أبدا. لا شك أنهم يؤمنون بصدق الإسلام ورسالة النبي ﷺ، ولكنك لو سألتهم لماذا تؤمنون بالإسلام وبرسالة محمد ﷺ لعرفتَ أن أكثرهم يفعلون ذلك لأنهم ورثوا هذه العقيدة من آبائهم أو ولدوا في بيوت المسلمين، وليس بيدهم أي دليل آخر على صدق دينهم. لقد وجّهت هذا السؤال للعديد من المسلمين المثقفين، فتلقيت منهم جوابًا مخيبًا للآمال

دائما، مما يدل أن مسلمي اليوم لا يوقنون بصدق دينهم، وإنما ينتمون إليه انتماء تقليديا، وقلوبهم خالية من أي يقين وثقة بصدق الإسلام. لقد سألتُ مرة شخصًا كبيرا قد بلغ الذروة في المجالات العلمية في هذه الأيام: لماذا تؤمن برسول الله ﷺ؟ قال: حقًا، لا أعرف. فالحقيقة أن إيمان مسلمي اليوم قد أصبح إيمانًا تقليديا فحسب، فلم يعودوا يتدبرون في دينهم، ومن أجل ذلك عندما أعلن المسيح الموعود عليه السلام دعواه أخذوا يعترضون عليه، إذ كانوا يؤمنون بوجودٍ وَهْمِيٍّ للرسول ﷺ، أما حقيقتُه فهي خفية عن أعينهم. فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين بنبي قائمون على اليقين، كما أنهم يسعون ليُخرجوا غيرهم من الإيمان التقليدي ويصبحوا من أصحاب الإيمان الحقيقي. وبما أنهم لا يقلّدون تقليدًا أعمى، بل يصدّقون كل شيء بعد التدبر العميق، فيحاولون معرفة حِكمة كل حُكم من أحكام الدين؛ فيصلّون ويصومون ويحجّون ويتصدقون ويتبرعون مع إدراك الحكمة وراءَ هذه الأحكام وأهميتها، فيقومون بكل عمل ببشاشة وينتفعون منه. ذلك لأن أساس أعمالهم اليقين لا القياس والتخمين.

ومن معاني الحق الحزم، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يتّسمون بالحزم والحيطة، كما يدْعون الآخرين إلى الحزم. ويتحلى الناس بهذه الميزة نتيجة إيمانهم بالنبي، أما الأمم الأخرى فدأبها التهوّر الذي يُهْدِرون به قدراتهم وجهودهم كلية. إن المؤمنين بالنبي يضعون في حسبانهم هدفًا ساميًا جدا. إنهم حَمَلةُ لواءِ الدين الواجب حمايته على كل فرد منهم. ولأنهم حَمَلةُ أمانة عظيمة فيتخذون كل خطوة بحذر وحيطة مخافة أن يتعثروا فتنخفض الراية التي عليهم أن يرْكزوها في أرض العدو فاتحين منتصرين. أما الأمم الأخرى فيقول أبناؤها إما أن نَقتُل أو نُقتَل، فيهاجمون العدو متهورين بلا تروٍّ، ويهدرون قدراتهم ويضيعون قوتهم. فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أيضا أن المؤمنين يتحلّون بالحزم والحيطة، كما ينصحون الآخرين بأن يسيروا بحذر.

ومن معاني الحق الموتُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يرضون بالموت ببشاشة، كما يوصون الآخرين ألا يخافوا من التضحية بأرواحهم في

سبيل الله. مما يعني أن جماعة المؤمنين تجسيد للتضحية والإيثار، ولا يخافون الموت مطلقا، لإدراكهم أن أنباء الله تعالى تؤكد نجاحهم، فإذا رجعوا من المعركة أحياء عُدّوا من الفاتحين، وإذا قُتلوا نعموا بحياة السكينة والطمأنينة في الآخرة. فهم يربحون في الحالتين: الحياة والموت. فإذا نجوا من الموت فنجاحهم مضمون، وإذا قُتلوا فازوا برضا الله تعالى في الآخرة. والشجاعة التي تتولد بهذا اليقين لا يوجد عُشْرُ مِعْشارِها في الأمم الأخرى. عندما عسكر الطرفان في ميدان بدر، بعث الكافرون أحدًا منهم ليعرف عدد المسلمين وعتادهم. ويبدو أنه كان ذكيا جدا، فلما رجع قال لقومه: أرى أن عدد المسلمين قرابة ٣٠٠ محارب - وبالفعل كان عددهم ٣١٣ - ولكنه أضاف وقال لأصحابه: ولكني أنصحكم ألا تحاربوهم، لأنني "رأيت البلايا (أي النُوق) تحمل المنايا" (السيرة لابن هشام). بمعنى أن وجوههم تنبئ بوضوح أن كل واحد منهم قد جاء بنية ألا يرجع إلى بيته حيًّا. والأمةُ التي تخرج إلى ساحة القتال بهذه النية فقتالها ليس بأمر هيّن. فالله تعالى قد أشار بقوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إلى أن المسلمين شجعان وبواسل لا يخافون الموت، بل يعانقونه فرحين، كما ينصحون الآخرين ألا يخافوا الموت أبدا. فكأنما قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى قوة إيمانهم ويقينهم؛ فإنهم يوقنون بالحق يقينًا كاملا فيعتبرون الموت بشارةً بدلاً من أن يستاءوا منه، ثم إنهم لا يكونون مستعدين للموت فحسب، بل ينصحون أصحابهم أيضا أنكم إذا أردتم النجاح فاستعِدّوا للموت.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.. أي أن من ميزات المؤمنين أنهم يصبرون، كما يوصون إخوانهم بالصبر. والصبر هو قوةُ تحمُّلِ الظلم، وأيضا هو الثبات والاستقامة على الخير. فكأن الله تعالى يخبر هنا أن المؤمنين إذا آمنوا بالحقّ لم يبالوا بما يصبّ عليهم العدو من مصائب ويضيق عليهم الخناق، بل يتحملون الشدائد بهمّة وشجاعة، كما يظلون متمسكين ثابتين على الخيرات، وينصحون الآخرين بتحمل المصاعب والثبات على الحسنات.

لقد اتضح من هذه الآيات أن دين المؤمن دين جماعي، فنيّاته الحسنة لا تنحصر في ذاته، بل يوسّعها لجميع الإنسانية. إنه يدعو إلى المؤاخاة العالمية، ويريد أن ينخرط الجميع.. الصغير والكبير.. في سلك واحد. إنه لا يريد أن يكون صالحا فقط، بل يريد أن يكون أصحابه كلهم صالحين، حتى يُرسى في الدنيا الصلحُ والسلام على أسس قوية متينة لا يهزّها زلزال. هذه هي الأمور التي تنقذ الأمم من الهلاك، والأمة التي يتحلى أفرادها بهذه الخصال لا يقدر أحد على إهلاكها، سواء كانت عشرة أفراد أو مائة أو ألف أم عشرة آلاف، فإنهم غالبون في الدنيا حتمًا، وتستمر غلبتهم.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يعني أننا نقدّم شهادةً زمنَ النبوة أو الدهر أو الزمن الأخير للنبي ﷺ على أن المؤمنين سينتصرون حتمًا لكونهم متحلين بهذه الخصال الثلاث، وأن أعداءهم سينهزمون حتمًا لافتقارهم إليها.

سورة الهمزة

مكية وهي عشر آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند المفسرين (فتح البيان). والمستشرقون أيضًا قد اعتبروها من أوائل السور. (تفسير القرآن لـ"ويري")

لقد تحدثتْ هذه السورة عن أحوال المسلمين في عهد الرسول ﷺ، حيث أخبرت أن الكفار يؤذونهم مغرورين بأموالهم. علمًا أن الهمز واللمز يعني العيب والاغتياب، والإيذاء، وكلا المعنيين ينطبق هنا. ثم أخبر الله في هذه السورة أن أهل مكة يتفاخرون اليوم بمالهم، ويحتقرون المسلمين ويعيبونهم بشتى العيوب ويغتابونهم ويؤذونهم، ولكنهم سيُلقون في عذاب يقضّ عليهم المضاجع، ويُدمَّرون في نهاية المطاف.

الترتيب والترابط:

لقد ذكرتُ مِن قبل أن الحديث منذ السور الماضية العديدة هو كالآتي: تتحدث سورة منها عن الزمن الأول للإسلام، وأخرى عن الزمن الأخير له. فقد تحدثت السورة السابقة "العصر" في غالبها عن الزمن الأخير للإسلام، أما هذه السورة فتتحدث عن الزمن الأول للإسلام. الواقع أن معظم هذه السور الصغار المدونة في آخر المصحف بترتيب محكم فريد قد نزلت في بداية الإسلام -ما عدا سورة أو سورتين نزلتا بعد الهجرة- وقد تحدثتْ عن بعثتَيْ النبي ﷺ بتعاقب، فإحداها تتحدث عن البعثة الأولى والأخرى عن البعثة الثانية، بحيث ينتفع الأولون من السور التي تتحدث عن البعثة الثانية، وينتفع الآخرون أيضًا من السور التي تتحدث عن البعثة الأولى. وهذه معجزة قرآنية عظيمة، حيث تنبأ القرآن عن رقي الإسلام ثم عن انحطاطه ثم عن ازدهاره ثانية، وذلك في زمن لم يكن عدد المسلمين فيه إلا بضعة

أفراد. الحق أنه لا نظير لعلمِ الغيب العظيم هذا في أي كتاب آخر. فكأنما الصفة الإلهية المتعلقة بالإظهار على الغيب قد تجلّت في القرآن الكريم بأروع وأكمل صورها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝٢

شرح الكلمات:

وَيْل: الويل: كلمةُ عذاب (الأقرب).. أي أن الذي وردت هذه الكلمة بحقه سيصاب في ماله أو عزه أو راحته، وكأنها تشير إلى ضياع ما يعتبره مدعاةً لخيره وعزه وراحته. فقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ يعني أن العذاب على وشك أن يحل بكل هُمَزةٍ لُمَزةٍ، أو أن هذا سيفقد كل ما يسبب له العزّ والراحة. علمًا أن كلمة الويل لا تُستعمل في حق أحد إلا إذا استحق العذاب والهلاك، لبيان أنه لا يعاقَب صدفةً أو ظلما، لأن أحدا إذا تعرّضَ للأذى صدفةً فلا تُستعمل بحقه كلمة الويل.

إنّ الهمز واللمز بمعنى واحد؛ إذ يوجد في الكلمتين ميم وزاي؛ ومن قواعد العربية أن كل حرف يفيد معنى معيَّنًا، فإذا كان بين حروف كلمتين اشتراكٌ لفظي فلا بد أن يكون بينهما اشتراك معنوي أيضا. والهمز واللمز متشابهتان معنًى، والفرق الوحيد أن إحداها تبدأ بالهاء والثانية باللام، فقد ورد في القاموس:

همَزه هَمْزًا: غمَزه؛ نخَسه؛ دفَعه؛ ضرَبه؛ عضَّه؛ اغتابه؛ كسَره. وهمَز الشيطانُ الإنسانَ: همَس في قلبه وَسْواسًا. وهمَز به الأرضَ: صرَعه. وهمَز الفرسَ: نخَسه بالمِهْماز لِيعْدُوَ. وهمزَ رأسَه: عصَره. (الأقرب)

لــمَزه يلمِز لَمْزًا: عابَه؛ أشارَ إليه بعينه ونحوِها مع كلام خفيّ؛ دفَعه؛ ضرَبه. (الأقرب)

فثبت أن هناك اشتراكا معنويا شديدا بين الهُمَزة واللُّمَزة، والفرق الوحيد أن الهَمْز يعني الاغتياب، أي ذِكْر عيبِ المرء في غيابه، أما اللمز فيعني ذِكْر عيبه بحضوره مع كلام خفيّ، كأن يشير الأصدقاء بعيونهم إذا جاء في مجلسهم شخص يزدرونه

ويحتقرونه، ويقولوا: ها قد تفضّلَ، ويقصدون بذلك أنه قد جاء ليُفسِد مجلسهم. وهناك معنى زائد آخر في الهمز وهو العصر.

التفسير: هناك اختلاف كبير حول هذه الآية بين المفسرين حتى بين الصحابة والتابعين أيضا، وذلك لكون الهُمَزة واللُمَزة متقاربتين في المعنى، فبعضهم قال أن هَمَزَه يعني عَابَه، ولَمَزَه يعني اغتابه، بينما قال الآخرون العكس، فلم يستطيعوا تحديد معنى اللمز والهمز هنا. وأكبر سببٍ لذلك هو أن القواميس دُوِّنت بعد زمن هؤلاء المفسرين بكثير. والمعروف أنه عندما تروج لغةٌ عِلمية في الدنيا فلا تكتمل قواميسها فورا، بل تُدوَّن بالتدريج، وعندها يتوصل الناس إلى فهم صحيح لمفردات اللغة بالاستعانة بالقواميس، ولذلك لا نجد أوائل المفسرين يحدّدون معاني مفردات القرآن الكريم كما حدّدها الذين أتوا فيما بعد؛ إذ توفرتْ لديهم قواميس لم تتوفر عند الأولين. فمثلاً عندنا قاموسان عظيمان "تاج العروس" و"لسان العرب"، وهما يحويان معلومات واسعة للُّغة، وتبيّن أدقَّ تفاصيلها وأسرارها. وقد دُوِّنَ "تاجُ العروس" قبل ثلاثة قرون، و"لسان العرب" قبل ستة أو سبعة قرون، أما الفترة الطويلة قبل ذلك فلم تكنْ فيها قواميس مدوّنة. ولا جرم أن من عظيم محاسن اللغة العربية أن قواميسها بلغت القمّةَ في فترة بسيطة، إلا أني أرى أنه لا يزال هناك مجال لتحسينها أكثر، لأن أئمة اللغة لم يقوموا ببحوث مستفيضة في بعض الأمور. ومع ذلك فإن الذخيرة العلمية التي حوتها هذه القواميس عظيمة جدا، حتى قال الكاتب الإنجليزي الشهير "لين بول" بكل حسرة مشيرًا إلى أحد القواميس العربية: ليت في لغتنا قاموسًا بمستوى قواميس اللغة العربية. ورغم اعترافه باكتمال القاموس العربي، فإني أرى أنه لا زال هناك مجال للمزيد من البحث والتحقيق لتحسين مستوى القواميس العربية نظرًا إلى حاجتنا إلى بحث لغوي دقيق لمفردات القرآن الكريم عند التفسير. هناك عيب بسيط في هذه القواميس، وهو أنهم أدخلوا في اللغة أقوال المفسرين، ولو أزلنا هذا العيب، وبيّنا الحكمة البلاغية للمفردات بطريق أوضح لاكتمل قاموس للعربية لا مثال له في أي لغة في العالم.

باختصار، مِن قواعد البلاغة أنه إذا استُعملت كلمتان متقاربتان في المعنى في العبارة ذاتها، فلا بد من تفسير الكلمة الثانية بالمعنى الزائد الذي ليس موجودا في الكلمة الأولى؛ إذ لا داعي لاستعمال كلمتين لبيان معنى واحد، بل تكفي واحدة.
وبناء على هذه القاعدة يمكن تفسير الهُمَزة واللُمَزة بطريقتين، وهما:

أولاً: أن نفسّر الهَمْز بمعنى الضرب، لكونه أكثرَ استعمالا للضرب المادي، فمعناه الأساسي هو الكسر، بينما نفسر اللمز بمعنى عيب الآخرين.

ثانيًا: أن نفسّر الهمز بمعنى الاغتياب، واللمز عيب الآخرين.

وجعلتُ هذا الفرق بين معنى الهمز واللمز لأن الكلام الفصيح يتسم بالتدريج دائما، وهذا التدريج يكون إما من حيث بيان أنواع الشيء أو درجاته، فمثلاً إذا أراد الأديب أن يبين أنّ فلانا قادر على رفع حمل ثقيل، قال: إنه يمكن أن يحمل ٥٠ كغ، بل ١٠٠ أيضا، ولكن الشخص غير الفصيح سيقول: إن فلانا يمكن أن يحمل ١٠٠ كغ، بل ٥٠ أيضا، وكل من يسمعه يعرف أن كلامه ساقط عن مستوى الفصاحة والبلاغة، إذ قال أولاً إن فلانا من الناس يمكن أن يحمل ١٠٠ كغ، فلا حاجة لأن يقول بعدها أنه يمكن أن يحمل ٥٠ أيضا. لأن الـ٥٠ متضمَّنة في الـ ١٠٠. كذلك لا يقول عاقل أن فلانا يقدر على القيام بعمل عظيم وبسيط أيضا، أو أن فلانا قد حصل على الماجستير والبكالوريس أيضا، كلا بل يقول إن فلانا حصل على البكالوريوس بل الماجستير أيضا، أو إنه قادر على هذا العمل بل أكبر منه، أو إنه أديب، بل شاعر أيضا. أما إذا ذكر الأكبر ثم الأصغر سقط كلامه عن الفصاحة والبلاغة.

وبناءً على هذه القاعدة لو فسّرنا الهمز بمعنى الاغتياب، واللمز بمعنى عيب الآخرين، لكان صحيحا تماما، إذ يوجد في المعنيين التدريج الذي هو ميزة الكلام الفصيح. ذلك أن المغتاب يفتقر إلى الشجاعة ويكون فيه شيء من الجبن. لا شك أن المغتاب والعيّاب كلاهما آثم، ولكن الفرق أن المغتاب يعيب الآخر خلف ظهره، أما العيّاب فيكون أكثرَ شرًّا، فيعيب الآخرين وراءَ ظهورهم كما لا يتردد في نسبة العيب إليهم أمامهم، وهكذا نجد أولا: أن التدريج في الهمزة واللمزة كان من حيث

المعنى، فالهُمَزة: هو الذي يغتاب الآخر وراء ظهره، واللمزة: مَن لا يغتاب الآخرَ فقط، بل يسبه في وجهه أيضًا.

وثانيًا: يتدرج الكلام لبيان أنواع الشيء، ولا أعني أنواعه الظاهرة، إنما أنواعه بحسب علم النفس. فمثلاً ضربُ المرء غيرَه بيده أشدُّ من اعتراضه عليه بلسانه في الظاهر، ولكنا نشاهد أيضًا أن المرء يمكن أن يثور غضبًا ويضرب صاحبَه ويسبّه، أما إنكار الحق فهو أشدُّ عليه من ضرب الآخرين أو سبّهم. إن إنكار الحق أقلُّ وقعًا من الضرب والسبّ في الظاهر، ولكن الضرب أخفُّ من إنكار الحقّ من منظور علم النفس. فالوالدان مثلاً يضربان أولادهما، أو المعلم يضرب التلميذ، ولكنك لو سألتهم: أيهما أشدُّ وقعًا عندكم، ضربُكم الأولادَ أم تورُّطُهم في الكذب والاغتياب مثلاً؟ فلا بد أن يقولوا إن الضرب لا شيء إزاء تورُّطهم في المساوئ الأخلاقية.

فنظرًا إلى هذا التدريج النفسي سنفسِّر الهمز بمعنى الضرب واللمزَ بمعنى الاغتياب، أي أن هؤلاء الكفار لا يضربون المسلمين فحسب، بل ينكرون الحقائق الواضحة الجلية. بمعنى أنهم ينكرون كل ما يوجد في محمد ﷺ وأصحابه من محاسن، وفي الإسلام من مزايا، وفي تعاليم القرآن من جمال، فإذا بيّن لهم محمد وصحابته الحقائق الثابتة اعتبروهم كذابين، وإذا عدَلوا بين الناس سموهم ظالمين، وإذا سعوا لإرساء الأمن والسلام اتهموهم بالفساد في الأرض. فما من ميزة في المسلمين إلا وينكرها الكافرون، ولا شك أن هذا أشدُّ وأشقُّ من الضرب والأذى، لأن الضرب تعبير عن الغضب فقط، أما إنكار الحقّ وعيب الآخرين واحتقارهم وازدراؤهم فدليل على فقدان الأخلاق والروحانية، مما له تأثير عميق بعيد المدى. ولذلك قال الشاعر:

جراحات السِنانِ لها الْتيامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَح اللسانُ

فالاغتياب والاحتقار والازدراء أشدُّ وقعًا من الضرب المادي.

إذن، فالهمز يشير إلى الضرب، واللمز يشير إلى الاحتقار والازدراء وإنكار الحقائق. فمع أن الضرب أشدّ في الظاهر، إلا أنه أخفُّ من إنكار الحقائق من الناحية النفسية. وهذه هي الحكمة في ورود الهمز قبل اللمز في قوله تعالى ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.

يظن البعض جهلاً منهم أن الله تعالى لم يقدّم ﴿همزة﴾ على ﴿لمزة﴾ لحكمةٍ من الحِكم. والحق أن هذا خطأ منهم إذ الواقع يتطلب تقديم الهمز على اللمز، وإلا سقط الكلام من مستوى البلاغة. إنه لمن كبرى مزايا القرآن الكريم أنه استعمل كل كلمة في محلها، وتغييرها من مكانها يؤدي إلى خلل كبير.

هذا، ومع أن الله تعالى يتحدث هنا عن أهل عصر النبي ﷺ، إلا أنه يمكننا أن نستنبط من هنا قاعدة عامة أيضًا، ذلك لأن من مزايا القرآن الكريم أنه يتحدث بأسلوب ينتفع به أهل كل عصر من دون أن يظن أحد أن الحديث لا يخصه، بل يخص أهل عصر مضى. فقد كتب البعض أن في ﴿همزة﴾ و﴿لمزة﴾ إشارة إلى المغيرة والعاص بن وائل والأخنس بن شريق (روح المعاني)، فكان هؤلاء يسيئون إلى الإسلام وأهله، فحذّرهم الله تعالى أنهم إذا لم يرتدعوا عن شرورهم فسوف يحل بهم العذاب.

لكني أرى أنه لا مبرّر لتحديد نطاق مضامين هذه السورة الواسعة. فأولاً: إذا كانت هذه السورة نزلت من أجل المغيرة أو العاص بن وائل والأخنس بن شريق، فكان يمكن أن يقول الله تعالى مثلا: "ويلٌ للمغيرة وويل للعاص وويل للأخنس بن شريق"، لكنه ﷻ يقول ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، ذلك أن الكلام إذا خُصِّصَ بأحد صار مفهومه ناقصا، فمثلا لو قيل: ويل لزيد، تجسَّسَ الجميع لمعرفة عيبه الذي قيل له هذا بسببه، ولكن لو قيل ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قال الجميع هذا صحيح، فأي شك في أن الذي يغتاب الآخرين ويعيبهم وينكر الحق هو سيئ ويجب أن يُعاقَب.

وثانيا: إن القرآن الكريم هديٌ لأهل كل زمان، وقد جعله الله تعالى دستورا لحياة الناس إلى يوم القيامة، ولذلك لو قيل هنا: ويل لفلان، لما نفعنا اليوم هذا التعبير. فمثلا لو قيل: "ويل للعاص بن وائل أو للمغيرة أو للأخنس بن شريق" فماذا ينفعنا ذلك؟ فقد مات، ومات أولاده وأجياله بل صاروا مسلمين وقضوا أعمارهم في خدمة الإسلام. أما قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ فينفع كلَّ إنسان إلى يوم القيامة، فسيحاول ألا يكون من الهُمَزة اللُّمَزَة. فبما أن القرآن الكريم شريعة كاملة تحتوي على وسائلِ إصلاحِ أهل كل زمن، فاستعمل كلماتٍ تنفع الناس في كل عصر إلى يوم القيامة. ولكن الله تعالى لو سمى هنا بعض الأشخاص لانحصر نفع

كلامه في ذلك العصر فقط، وأصبح هذا الكلام قصة بالية بالنسبة إلينا، وقلنا نعم، كان هناك شخص اسمه العاص بن وائل أو المغيرة أو الأخنس بن شريق، وكان مصابًا بكذا وكذا من العيوب، ومررنا بهذه القصة القديمة بسرعة وقلنا إنها لا تهمّنا كثيرًا، أما في هذه الحالة فلا نستطيع قول ذلك، بل لا بد لكل واحد منا أن يقرأ هذه الآيات ويسعى ألا يكون من الهُمَزَة اللُّمَزَة حتى لا يجلب عليه غضب الله.

إذن، فسواء كانت هذه الآيات تتحدث عن المغيرة أو العاص أو الأخنس بن شريق، إلا أن الله تعالى لم يتناول هنا موضوعًا يخصّ شخصا واحدًا، وإنما تناول موضوعًا فلسفيًّا عامًا، إذ لو جعله الله تعالى موضوعا شخصيا لصار هذا الكلام متروكًا، ولكن كونه موضوعًا عاما فلسفيا، قد جعله نافعا في الماضي ولا يزال نافعا إلى اليوم وسيظل كذلك إلى يوم القيامة، فكل من هو مصاب بهذه العيوب فسوف يهتم بإصلاح نفسه حتى لا يجلب عليه سخط الله تعالى.

باختصار، قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ تحذير رباني لكل من يتكبر بِسَحق الآخرين أو يعيبهم، بأنه إذا لم يرتدع عن شروره فسوف ينـــزل عليه عذاب الله. وفي هذه الحالة سيعني اللمز: الكبر والغرور، لأن من دأب المتكبرين ضرب الآخرين وسحقهم إظهارًا لقوتهم، أما اللمز فيعني: عيب الآخرين.

ونظرًا إلى المعنى الثاني، سيعني قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ أن الذي لا يغتاب الآخرين وراء ظهورهم، بل يعيبهم في وجوههم ويجرح مشاعرهم غيرَ مكترث بكذبه، فسوف يحرم مما عنده من نِعَم وسوف يتأسف بحسرة.

فيما يتعلق بالغيبة، فيظن البعض أن ذِكر عيب الآخر في غيابه ليس غيبة، إنما الغيبة أن يعيبه في غيابه بما ليس فيه. الواقع أن هذا ظن خاطئ، إنما الغيبة ذِكرُ المرء عيب غيره في غيابه بقصد الإساءة إليه، أما إذا عابه في غيابه بما ليس فيه فهذا ليس بغيبة بل هو بهتان. ورد في الحديث أن شخصًا قال يا رسول الله، لا شك أن الغيبة أمر مكروه، ولكن هل يجوز أن يذكر المرء صاحبه في غيابه بما فيه من عيب؟ فقال الرسول ﷺ: الغيبةُ ذِكرُك أخاك في غيابه بما يكره، أما إذا ذكرتَه بما ليس فيه فهو بهتان. (مسلم، كتاب البر والصلة والآداب)

والحكمة في نهي الإسلام عن الغيبة أن الإنسان أحيانًا يرى في الآخر رأيًا وهو يظن أنه مصيب فيما يرى، مع أنه يكون مخطئًا في رأيه في الواقع. فلقد جرَّبنا مرارًا أن المرء يرى في صاحبه رأيًا قطعيًّا، موقنًا أنه مصيب فيه، مع أنه يكون مخطئًا في الحقيقة، ولو كان صاحبه هذا أمامه وذَكَر الأمر له لبرّأ ساحته مما ظنّه فيه، وقال: لقد أخطأتَ الفهم، فليس الأمر كما ترى. فحتى ولو كان المرء مصيبا فيما يذكره في غياب أخيه مما ينال من عزه وعلمه ودرجته، فهو آثم بحسب القرآن والحديث إذ لم يتح لأخيه فرصة تبرئة ساحته مما نسب إليه.

لقد ذكرتُ من قبل أن هذه السورة تتحدث عن زمن الرسول ﷺ، حيث تبيّن أن الكفار يظلمون المسلمين ويؤذونهم ويضربونهم ويصبّون عليهم أنواع الاضطهاد، ويقومون ضدهم بدعاية زائفة.. بتعبير آخر إنهم لا يعادون المسلمين فحسب، بل يسعون لأن يعاديهم الآخرون أيضا، إذ لا يذكر المرء عيب غيره للآخرين إلا لإثارتهم ضده -فقوله تعالى ﴿هُمَزَةٍ﴾ إشارة إلى إيذائهم المسلمين وصَبِّهم أنواعَ الاضطهاد عليهم، أما قوله تعالى ﴿لمزة﴾ فيعني أنهم يسعون جاهدين ليعادي الناسُ المسلمين- فالله تعالى يحذِّر أصحابَ هذه الأعمال المخجلة أن يتذكروا أن كل أولئك الذين يؤذون محمدا وأصحابه ويثيرون الناس ضدهم، سيحل بهم من عند الله تعالى عذاب يقض عليهم المضاجع ويخيّب آمالهم كلية.

ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

عدّدَه: عدَّد المالَ: جعَله عُدّةً للدهر. (الأقرب)

اعلمْ أنّ ما يدّخره المرءُ لحاجاته من زواج أو مرض وما إلى ذلك فيسمى عدةً، فالمراد من قوله: جعَله عُدّةً للدهر، أي اعتبر ماله وسيلةً تسدّ حاجاته وتحميه من نوائب الدهر.

ومن معاني عدّد: عَدَّ وأحصى. (الأقرب)

اعلمْ أنّ العَدَّ يعني إحصاء الأشياء المتعددة القابلة للعدّ، كقولهم: عَدَّ الدراهم، أما عدّد المال فيعني الاحتفاظ به للحوائج، لا عدّه وأحصاه. أما إذا اعتبرنا المال شيئًا قابلاً للعدّ، فعندها يمكن أن يعني القول عدّد ماله أنه عدّه وأحصاه، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أن هذا طمّاع يجمع المال من ناحية، ومن ناحية لا يبرح يعدّه ويحصيه ليعرف كم صار عنده من مال.

وعدّد الميتَ: عَدَّ مناقبه. (الأقرب)

فحيث إن الأخلاق والصفات أنواع، فيقال عدّدها، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أنه يعدّد المال ويذكر محاسنه قائلا: إذا أمسك المرء ماله و لم ينفقه عند الحاجة لنَفَعَه كثيرًا.

وقد قرأ البعضُ: عدَده بالتخفيف، ولكن القراءة المتواترة والمشهورة: عدّده. (الرازي)

التفسير: كان ينبغي بحسب التعبير العام أن يقال: جمَع المال، ولكن الله قال هنا: جمَع مالاً، ما الحكمة في ذلك؟

اعلمْ أن التنوين يفيد معاني عديدة منها: التحقير، التقبيح، والتعظيم، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ سيعني أولاً: أنه جمع مالاً قليلاً ومع ذلك يتفاخر به، وليس المراد أن ما جمعه قليل، بل المراد أن مال الدنيا متاع قليل حقير فانٍ ولا يساوي شيئا مقابل الدين وإنْ كان قناطير مقنطرة، وذلك كما صرح القرآن الكريم ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ ذلك أن الإنسان لو ملك الأرض وما فيها فلا بد له من الموت بعد ٤٠ أو ٥٠ سنة. ثم إن متاع الحياة الدنيا قليل من حيث إن الإنسان سوف يرتحل من هذه الدنيا إلى الآخرة، فإذا لم يدّخر شيئا للآخرة فلن تنفعه أموال الدنيا هناك شيئًا. وإذا كان المرء قد ادّخر للآخرة ما ينفعه هناك فأيضا لا يساوي أمامه متاعُ الحياة الدنيا شيئا. فمتاع الحياة الدنيا قليل من كل منظور. باختصار، إن أحد معاني قوله تعالى ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ هو أنه جمع مالاً لا قيمة له، ومع ذلك يتفاخر بأنه أصبح ثريًا.

ونظرًا إلى معنى التقبيح، ستعني هذه الآية أنه جمع مالاً حرامًا خبيثًا، مع أن العاقل يرمي الشيء الخبيث بدلاً من أن يأخذه إلى بيته، فمثلاً لو وجد عملة زائفة فلا يضعها في جيبه، أو لو وجد شيئًا ملوَّثًا بالنجاسة فلا يُحضِره إلى بيته. أما هؤلاء القوم فيحتفظون بالمال النجس الذي جمعوه بخلاف مشيئة الله تعالى، مع أن الواجب أن يرموه فورًا، ولا يحتفظوا به لحظة.

أما نظرًا إلى معنى التعظيم، فالمعنى أنه جمع مالاً كثيرا. لا شك أن الملايين من المال متاع حقير عند الله تعالى، ولكنه كثير عند الإنسان. والواقع أن أحدًا إذا جمع ألف روبية اعتبر نفسه ثريًا، مع أنه لا قيمة لها. فقد قال المفسرون -الذين يرون أن هذه الآيات تتحدث عن كفار أهل مكة- في قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ أن الأخنس بن شريق كان يملك ١٥ ألف درهم وكان يتفاخر بها على الآخرين (البحر المحيط). مع أن هذا المبلغ يساوي خمسة آلاف روبية بحسب قيمتها في هذه الأيام، وهذا لا يساوي شيئا في العصر الحاضر، فلو قيل مثلاً إن فلانا صار ثريًا إذ يملك خمسة آلاف روبية لضحك الجميع باعتباره قولاً يدل على الغباء. لكن هذا المال كان كثيرًا بالنسبة إلى العرب، فمن اجتمع عنده مثله تفاخر به على الناس. في هذه الأيام لا يُعتبر في معظم مناطق الهند ثريًا إلا من يملك مليونا أو مليونا ونصف المليون من الروبيات، ولكنه لا يُعتبر في "مومباي" ثريا، إنما الثري فيها من يملك عشرة ملايين مثلا. أما إنجلترا فليس الثري هنالك من يملك ١٠ ملايين روبية، إنما الثري عندهم من يملك ١٠٠ مليون أو ١٥٠ مليون. أما أمريكا فلن يُعتبر هذا ثريا هنالك، بل الثري عند الأمريكان مَن دَخْله السنوي ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ مليون من الروبيات. فمستوى الثراء قد ارتفع كثيرا في هذا الزمن، لكن في زمن نزول القرآن لو اجتمع عند أحد العرب خمسة آلاف روبية لَتفاخر بماله، ولذلك أقول إن التنوين في قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ قد يكون للتعظيم.. أي أن هذا الإنسان أو قومه، يعظمون ما جمعه من مال معتبرين إياه ثروة كبيرة.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أنه جمع مالاً قليلا، أو جمع مالاً حرامًا رديئًا، أو جمع مالاً كثيرا.

أما قوله تعالى ﴿وَعَدَّدَه﴾ فينطبق عليه كل ما ذكرنا من معانٍ لِفعل ﴿عَدَّدَ﴾ عند شرح الكلمات. فأما بالنسبة للعدّ بمعنى الإحصاء: فمِن عادة البخلاء أنهم يجمعون المال، ثم لا يبرحون يعدّدونه ليروا كم صار. إن البخيل لا يفكر أنه لو استثمر ماله في مشروعٍ نافعٍ، أو أنفقه في المشاريع الخيرية الأخرى التي تنفع بني جنسه، لكان خيرًا له ولكثير من الناس. ثم من العيب الشائع بين البخلاء أنهم يجمعون الأموال ولا ينفقونها لسدّ حاجاتهم الشخصية، فضلاً عن أن ينفقوا لسد حاجات الأمة. وأما بالنسبة لعدّ المال بمعنى جعله عُدّة للدهر: فمن أكبر علامات البخيل أنه إذا سئل عن سبب عدم الإنفاق قال: لقد احتفظت به ليوم أحتاج إليه بشدة، فكيف أُنفقه قبل ذلك؟ فينفد عمره ولا يأتي ذلك اليوم الموعود، ويظل ماله مخزونًا في الخزينة حتى يموت، فيُبدّد أولاده بعده كل ما اختزنه في شرب الخمر ولعب القمار ومراقصة البغايا. إن البخيل لا ينفقه حتى في مرضه أو مرض زوجته أو ابنه أو أخيه، وإذا سئل لماذا لا تعالجهم، قال: لقد ادّخرته ليوم صعب، فيقضي حياته كلها عاريًا جائعا مريضا في بؤس وفقر، كما يعاني أهله وأولاده، ولكن لا يأتي يومه الذي ادخر ماله للإنفاق فيه.

أما بالنسبة للعدّ بمعنى عدّ المناقب: فالمراد أنه بدلاً من أن ينفق ماله وينفع الأمة باستثماره، يعدّد محاسن بخله ويقول للآخرين: عليكم أن تحتفظوا بأموالكم دائما، لأن في ذلك كذا وكذا من المنافع. مما يعني أنه لا يندم على فعله، بل يتفاخر بكونه بخيلا، ويقول للآخرين: إن الإنسان يحتاج إلى ماله كثيرا في حياته، فعليه أن يحتفظ به ولا ينفقه لسد حاجاته ولا لسد حاجات أمته.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٤﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا سبب بخل هذا الإنسان بماله، فقال ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.. أي أنه يظن أن ماله يكون سببًا لبقائه، بمعنى أن أكبر سبب بخل الأثرياء هو ظنهم أن مالهم المدّخر يتسبب في عز عائلتهم، فيعانون في حياتهم ولا ينفقون مالهم عند الحاجة. فالبخيل العادي يفكر أن عليه أن يجمع هذا المال لينفقه على تزويج ابنه أو

بناء بيته بعد عشر سنوات مثلا، أما البخيل الكبير فلا يفكر هكذا، وإنما يدخر هو وأولاده وحفدته حتى تشتهر أسرته بالثراء، ظنًا منه أن هذا سيخلّد اسمه ويزيد عائلته عزًّا. مع أن الواقع أنه لو أمعن النظر لوجد فيما حوله أمثلة كثيرة لأناس جمعوا المال وهم يقاسون الجوع والعطش والعري، ولم ينفقوه لتجتمع عندهم ثروة كبيرة، ولكنهم لما ماتوا بدّد أولادهم كل ما جمعوه في الانغماس في الملذات.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود رضي الله عنه طبيبًا ملَكيًا عند المهراجا لجامون، وكانت له صلات مع الأثرياء هنالك، وكان يحكي لنا قصةً بأن أحدًا منهم مات، فأخبرني البعض بعد أيام أن ابنه أخذ يهدر ثروته بطريق عجيب. فقلت: كيف؟ قال: ذات يوم كان يمرّ بالسوق أمام دكان بائع قماش وهو يشقّ قطعة من القماش من أجل أحد الزبائن، فأُعجبَ بصوت شق القماش، فبدأ يشتري أكوامًا من الأقمشة ويأمر خدمه بشقّها أمامه من الصباح حتى المساء ليستمتع بهذا الصوت. ويتابع الخليفة الأول رضي الله عنه قائلا: فدعوتُ ابن الثري هذا ونصحته أن لا يضيع مال أبيه بهذا الطريق. فقال: حضرة الشيخ، لا أجد في أي شيء المتعةَ التي أجدها في شقّ القماش.

لا شك أن عمله هذا كان ضربًا من الخبل، فكانت النتيجة أن دمر كل ثروة أبيه. لا ندري كم تكبّد من المشاق في جمع هذا المال، ولكن الله تعالى أفسد عقل ابنه، فدمّر ثروته تدميرا. وكذلك هناك كثير من البخلاء الذين يدخرون المال ولا يذوقون طيلة حياتهم طعامًا لذيذًا، ولكن أولادهم يدمرون ثروتهم في لعب القمار وما شابهَ ذلك. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.. أي أنه يظن أن ماله سيكتب له البقاء، مع أن المال لا يكتب البقاء للإنسان، إنما هو فضل الله تعالى الذي يكتب البقاء. يقول داود عليه السلام: لم أرَ أحدًا من الصلحاء تعرّضَ أولاده لسبعة أجيال للجوع والفاقة*، مع أننا نعرف حالات كثيرة لأصحاب المليارات الذين عاش

* نص ما ورد في المزامير هو كالآتي: "كُنْتُ فَتىً وَقَدْ شِخْتُ، وَلَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلاَ ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا." (اَلْمَزَامِيرُ ٣٧ : ٢٥)

أولادهم بعدهم جوعًا وفاقة! فالحق أن وصال المرء بربه هو ما يكتب له الخلود. إن الذي ينفق ماله في سبيل الله تعالى دونما تردّد هو الذي يُخلده ماله. قال النبي ﷺ مرة لصحابته: أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَال وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ (البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له). فهذا الحديث أيضا يبين المعنى نفسه، أعني أن المال النافع ما ينفقه المرء في سبيل الله تعالى، أما ما سواه من ماله فلا ينفعه بل ينفع الآخرين. فالذي لا يؤمن بيوم القيامة، ولا بالجنة ولا بالنار، ولا بأي أجر على إنفاق المال في سبيل الله تعالى، فهو يدرك على الأقل أن إنفاق المرء ماله على حاجات الأمة يُكسِبه الصيت وثناء الناس، حيث يقولون إنه يخدم القوم ويشفق على الفقراء ويتفقد أحوال اليتامى والمساكين والأرامل. أفليس غريبًا أن الناس من ناحية يعترفون أن مالهم أحبُ إليهم من مال الآخرين، ومن ناحية أخرى إن ما يفعلونه عمليًا هو أنهم لا يحبون المال الذي سيأخذونه معهم إلى الآخرة، أو الذي يُكسِبهم الصيت بين القوم. إنهم يحبون المال الذي ينفع الآخرين بعدهم؛ إذ يجمعونه ولا ينفقونه في سبيل الدين أو سبيل الأمة. الحق أن المال الذي ينفقه الإنسان في سبيل الله تعالى هو الذي يخلّده، أما المال الذي جمعه فلا يخلّده أبدا.

كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٥ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٦ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٧ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٨

شرح الكلمات:

الحُطَمة: حطَمه حَطْمًا: كسَره. والحُطَمة: النارُ الشديدة (المنجد). فمعنى الحطمة: الكاسرة، أو النار الشديدة الحرّ.

التفسير: لقد حذر الله هنا الكافرين من مصيرهم، فقال إهم يؤذون المسلمين ويضربوهم في نشوة قوهم، كما يظنون أنفسهم أهل عز ومجد مغرورين بأموالهم فيزدرون المسلمين، أو إذا أنفق المسلمون قالوا إنما يريد هؤلاء به صيتًا، وإذا صلّوا أو تصدّقوا قالوا إنما يصلي هؤلاء ويتصدقون رياءً. فما من خير يفعله المسلمون إلا ويطعن فيهم الكافرون بسببه. والواقع أن الكافرين ليسوا في وضعٍ يُحسَدون عليه، ولذلك قال الله تعالى عنهم ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾.. أي يجب ألا يظن الكافرون أن المسلمين عرضة للدمار وأهم في مأمن من الهلاك، كلا، بل سيُلقى الكافرون في نار ملتهبة.

ما هي هذه النار الملتهبة؟ قال المفسرون كعادهم إها نار القيامة، أي أهم سيُقذَفون في نار جهنم. (جامع البيان)

لكني أرى غير ذلك، إذ يتضح من القرآن الكريم أن الله تعالى قد قدر للبعض في الدنيا عذابا شديدا جدا يمكن أن يسمى عذاب الجحيم لشدته، فالحطمة هنا تعني عذاب النار في الدنيا.

أما لو فسّرنا الحطمة بمعنى الحاطمة والكاسرة، فالمراد أن شوكتهم ستُكسر كليّة.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾، فاعلم أنه إذا وردت في القرآن الكريم كلمة ذات مدلولات عديدة فهي تُفسَّر عادة بكل مفاهيمها اللغوية، ولكن إذا أراد الله تعالى تحديد معنى كلمة قال دائما ﴿ما أدراك﴾.. أي أها تحمل مفاهيم كثيرة، لكننا نخبرك الآن ما هو المعنى الذي نعنيه هنا.

ثم يقول الله تعالى ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.. أي أن المراد من الحُطمة هنا نارُ الله التي تُوقَد إيقادًا وتُلهَب إلهابًا.

والنار نوعان: مادية ومعنوية. فالمادية ما توقَد بالأخشاب مثلاً، حيث يجمعون الخشب ويُشعِلون فيه النار بعود ثقاب وغيره، أما المعنوية فهي النار التي يوقدها الله تعالى. ثم إن النار التي يوقدها الله تعالى نوعان: أولهما نار الله التي تكون في الآخرة في شكل الجحيم، وثانيهما النار التي يوقدها الله في هذه الدنيا، وتسمى عذابا.

فـــ﴿نارُ اللهِ﴾ هنا يعني العذاب الذي قدره الله تعالى في الدنيا. إن النار التي تلتهب بالخشب تنطفئ بالماء، كما حصل مع إبراهيم عليه السلام، حيث أوقد الكافرون النار لحرقه، فأنزل الله تعالى المطر الذي أخمدها تمامًا، فقرروا حرقه في فرصة أخرى، وبما أن ثورة الكفر تكون مؤقتة، فقال بعض قومه: إنه من أقاربنا، فما الفائدة من حرقه؟ فلم يحاولوا حرقه بعد ذلك. فثبت أن النار التي يوقدها العباد يمكن أن تنطفئ، كما أخرج الله تعالى إبراهيم سليمًا من النار التي أوقدها العباد، لكن النار التي يوقدها الله تعالى لا يقدر أحد على إخراج غيره منها، لأنها تشتعل في القلب أحيانًا، فيسعى المعذَّب أن يخرج منها، ولكن بدون جدوى، حيث عرّف الله تعالى هذه النار هنا بقوله ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أن النار التي نوقدها ستهاجم القلوب، إنها ليست نار الخشب التي تنطفئ بالماء، بل هي نار القلب التي يحرقهم لهيبها كل حين. إنهم سيحترقون حسدًا وكمدًا برؤية ازدهار المسلمين. ستقضّ الحسرة مضاجعهم، ولكنهم لن يدروا ما السبيل للخروج منها.

عندما خرج أبو جهل بجيشه إلى ميدان بدر لم يكن يتصور أنه سيخوض حربًا مع المسلمين، بل كان المسلمون أنفسهم يظنون أنهم سيواجهون قافلة الكافرين التجارية، ولذلك لم يشترك في هذه المعركة كثير من الصحابة الفدائيين، ولكن الله بحكمته الكاملة قد جعل جيشَ الكافرين والمسلمين يلتقون وجهًا لوجه، فأخبر النبيُّ ﷺ صحابته أن الله تعالى يريد أن نقاتل الكافرين. يقول الصحابي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كنتُ أتمنى منذ فترة أن تقع الحرب فأنتقم من الكافرين لاضطهادهم للمسلمين، ولكن المحارب لا يقدر على القتال جيدا إلا إذا كانت ميمنته وميسرته محميّتين لكيلا يهاجَم مِن خلفه. ولما اصطفّ الفريقان نظرتُ إلى يميني وشمالي فهبط قلبي إذ كان على يميني وشمالي صبيّانِ أنصاريان عمرهما قرابة ١٥ سنة، فقلت في حيرة: كيف أحقق أمنيّتي القلبية التي أربّيها منذ زمان؟ ليتني كان معي محاربان محنكان لكي أظهر مهاراتي القتالية، فماذا عسى أن يفعل هذان الصبيان؟ وبينما أنا في ذلك إذ غمزني الذي على يميني وقال: يا عمّ قرِّبْ إليّ أذنك. ثم همس في أذني: يا عم، مَن هو أبو جهل الذي كان يؤذي النبي ﷺ، فإني أريد أن أنتقم له منه؟

فأخذتني الحيرة من سؤاله، وقلت ما هذا السؤال الغريب يوجّهه إليّ هذا الصبي الصغير؟ وقبل أن أجيبه غمزني الذي على يساري قائلا: يا عَمِّ قرِّبْ إليّ أذنك، فانحنيت، فهمس: مَن هو أبو جهل الذي كان يؤذي النبي ﷺ، فإني أريد أن أنتقم له منه؟ وقد همس كل واحد منهما في أذني مخافة أن يسمعه صاحبه فيشترك معه في شرف قتل أبي جهل. يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ورغم أني كنتُ مقاتلاً محنَّكًا إلا أنني لم يخطر ببالي أني قادر على قتله. فاندهشت من قولهما، وأشرت بيدي وقلت: ذلك أبو جهل قائمًا بين الجنود لابسًا خوذة ودرعًا يغطي جسده كله، ويحرسه من أمامه جنديان بسيفيهما، أحدهما ابنه عكرمة، والآخر بطل آخر. وما إن أنزلتُ يدي بعد الإشارة حتى انقضّ الصبيّان انقضاضَ البازي على فريسته وأخذا يركضان بسرعة نحوه، حتى وصلا إليه في قلب الأعداء وهم ينظرون، ولم يستطيعوا إيقافهما، فضرب أحدُ الحارسين أحدَ الصبيين فقطع ساعده، فلم يبال بيده المقطوعة بل وضعها تحت قدمه وفصلها من جسده، ثم انقضّ الاثنان على أبي جهل وأصاباه بجراح بالغة، فسقط على الأرض، ولكنه لم يمت إلا بعد فترة.

باختصار، لم تكن المعركة قد بدأتْ بعد حتى وقع أبو جهل على الأرض مضرَّجًا بدمائه نتيجة هجوم هذين الصقرين الصغيرين من الأنصار الذين كان أهل مكة يحتقرونهم بشدة (البخاري، كتاب الجهاد والسير). ذلك أننا كما نجد بعض المزارعين عندنا يحتقرون بسبب جهالتهم عائلةَ "الأرائين" الذين يزرعون الخضار ويبيعونها، كذلك كان أهل مكة يزدرون أهلَ المدينة الذين كانت مهنتهم الزراعة وبيع الخضار والثمار، قائلين: ما لهؤلاء الأكّارين وللحرب! ولكن انظروا إلى آيات الله، فقد قُتل أبو جهل بيد صبيين من المدينة.

ويقول الصحابي عبد الله بن مسعود: وجدتُ بعد انتهاء المعركة أبا جهل يئنّ من شدة جروحه، فسألته عن حاله فقال: لست حزينًا لموتي فكل محارب عرضة للموت آجلاً أو عاجلاً، ولكن يحزنني أن صبيين من المدينة صرعاني. فاعمَلْ بي معروفًا واقطَعْ رقبتي بسيفك لتنتهي معاناتي، ولكن اقطعها طويلة إذ هكذا تقطع

رقاب القادة. يقول ابن مسعود ﷺ فقلت له: لن أحقّق لك حسرتك هذه، ثم قطعتها قريبًا من ذقنه. (السيرة الحلبية، الجزء الثاني: غزوة بدر الكبرى).

فيمكنك أن تقدّر شدة النار التي كان يحترق بها أبو جهل يوم بدر. لقد جاء إلى ساحة القتال بِنيّة قتل النبي ﷺ، ولكنه نفسه قُتِلَ بيد صبيين أنصاريين، مع أن اثنين من المحاربين المحنكين -أحدهما ابنه- كانا يحرسانه، وكان لابسًا درعًا وخوذة، ولكن لم تنفعه حيلة فمات بحسرة. من ذا الذي يمكنه أن يقدّر شدة النار التي كانت مضطرمة في قلبه، وشدة الحسرة التي مات بها؟

وفي صلح الحديبية بعث الكافرون زعيمًا لهم للتفاوض مع النبي ﷺ، وبينما هو يتكلم معه ﷺ في كبرياء وغطرسة، إذ سُمع صوت السلاسل، فرأى الناس أن ابنه قادم نحو النبي ﷺ وهو يرسف في أصفاده، ثم ألقى نفسه عند قدميه قائلا: لقد آمنت بك يا رسول الله، لكن أبي ألقاني في البيت مصفدًا بالسلاسل كي لا أهرب وألتحق بك في المدينة، وقد جاء إلى هنا اليوم لعقد الصلح معك، فوجدتُ فرصة للهروب فجئتك في هذا الحال. (البخاري، كتاب الشروط)

كم من حسرات أحرقتْ قلب ذلك الزعيم الكافر في تلك المناسبة! كم تعذّبَ عند سماع كلام ابنه وهو يلقي بنفسه عند قدم الرسول ﷺ قائلا: يا رسول الله قد آمنت بك.

باختصار، قد هيأ الله من الأسباب ما جعل قلوب الكافرين تحترق دائمًا وتصبح رمادا، وكانوا لا يدرون كيف يطفئون هذه النار التي تطلع على أفئدتهم. لم تكن هناك أسرة عريقة إلا ودخل أفراد منها في الإسلام. فكان الزبير وطلحة وعمر وعثمان وعثمان بن مظعون -رضي الله عنهم- من الأسر العريقة من مكة، كما كان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد من كبار أسرها. كان العاص عدوًا للإسلام، ولكن ابنه أسلم. كان الوليد شديد المعارضة للإسلام ولكن ابنه خالد أسلم. فهناك آلاف عادوا الإسلام عداء شديدًا، ولكن أولادهم ألقوا بأنفسهم عند قدم الرسول ﷺ، وحاربوا آباءهم وأقاربهم الكافرين بالسيوف في المعارك. فقد ورد أن أبا بكر ﷺ كان يتناول الطعام مع النبي ﷺ ذات مرة، وكان هناك ابنه عبد

الرحمن الذي كان أكبر أولاده، وقد أسلم فيما بعد، وكان قد خرج لمحاربة المسلمين يوم بدر أو أحد، فقال لأبيه أثناء الحديث: يا أبتِ، لقد كنتُ ذات مرة مختفيًا وراء حجر أثناء القتال، وكنتُ قادرا على قتلك، ولكني تركتُك لأنك أبي، فردّ عليه أبو بكر: لقد نجوتَ لأن الله أراد لك الإيمان، والله لو رأيتُك خلال المعركة لقتلتُك. (الروض الأُنف ج ٣ ص ٨٩-٩٠)

لا شك أن هذا كان عذابًا أليمًا للكافرين، إذ كانوا يرون أبناءهم وإخوانهم وأقاربهم الآخرين يدخلون في الدِّين الذي خرجوا للقضاء عليه. كم كانت حسرتهم كبيرة عندها، إذ كان بعضهم يرى زوجته تدخل في الإسلام وأباه يؤمن وابنه يُسلِم وقريبه أو صديقه يصدّق، مما يعني أنهم بينما كانوا يُزهِقون أرواحهم للقضاء على الإسلام، كان الله تعالى يُخرِج منهم الواحد تلو الآخر إلى حظيرة الدين الحنيف. لا جرم أنه كان عذابا أليما. لقد دخل في الدين الذي هبّوا للقضاء عليه وسحقه أقربُ أقاربهم وأصدقائهم، وليس هذا فحسب بل حملوا السيوف على آبائهم وإخوانهم الكافرين حاملين راية الإسلام في أيديهم، ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أنه تعالى سوف يُلهِب في قلوب الكافرين نارًا شديدة الحر. عندما كان الناس يرون العاص بن وائل أو الوليد يتبختر في ثوبه ويجرّه على الأرض فكانوا يهابونه ويقولون ما أعظمَ هذا الرجلَ! بينما كانت قلوب هؤلاء العِظام تحترق حسرةً وكمدًا حين يرون أولادهم وإخوانهم وأقاربهم يدخلون في الإسلام، وهم لا يستطيعون فعل شيء إزاء ذلك.

إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٩﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

مُؤْصَدَةٌ: المؤصَد: المطبَق والمغلَق. (الأقرب)

عَمَدٍ: جمعُ عمودٍ. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا شدة النار التي تُلهِب قلوب الكافرين، فقال لا تظنوها نارا عادية، بل هي شديدة كشدة النار التي توقد في الكير لكونها مغلقة من كل الجوانب، فلا تفقد من حرارتها شيئا.

ومثالُ النار المؤصدة على كفار مكة ذلك القرار الذي اتخذوه بعد معركة بدر بصدد كبار زعمائهم الذين قُتلوا هنالك، فقالوا فيما بينهم أن لا يبكي أحد قتلاه ولا يقيم مأتمًا عليهم كي لا تُلطّخ عزّتهم بالوحل. لقد كان قرارا قاسيا جدًا، ولكن القوم احترموه، فلم يبك أحد على قتلاه كابتًا في قلبه نار الهم والحزن. كانت عيونهم تريد أن تنهمر، وكانت ألسنتهم تريد أن تصرخ وتثير ضجة من شدة البكاء، ولكنهم ما كانوا ليفعلوا شيئا، لأن القوم قد قرروا عدم البكاء على قتلى بدر وأن يَكُمَّ الجميعُ أفواههم ممسكين دموعهم خوفًا من شماتة المسلمين. لقد استمر هذا الوضع فترة طويلة، فلم يُسمح للنساء أن يبكين أزواجهن، ولا للأمهات أن يبكين أبناءهن، ولا للإخوان أن يبكوا إخوانهم، ولا للأصدقاء أن يبكوا على أصدقائهم. كانت صدورهم تلتهب بنار الحزن المضطرمة، ولكن ما كان لهم أن يجرؤوا على خرق قرار القوم. وذات يوم ماتت ناقةُ مسافر، فأخذ يبكيها بالشعر في شوارع مكة، فسمعه شيخ عجوز قد قُتل اثنان من أولاده في بدر، فخرج من بيته وقال بصوت عالٍ: وا أسفاه! يُسمح لهذا أن يبكي ناقته، ولا يُسمَح لي أن أبكي ابنيّ اللذين قُتلا في بدر؟ فما لبث الجميع أن خرجوا من بيوتهم، وأخذوا في البكاء والصراخ قائلين: لقد حرقتنا نار الحزن وحولتنا رمادًا ولا نقدر على المزيد من الصبر. فاجتمعوا في ميادين مكة وأسواقها وأخذوا يبكون ويندبون حتى صارت مكة كلها مأتما. (السيرة لابن هشام، غزوة بدر)

هذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أن هذه النار سوف تضطرم في قلوبهم اضطرامًا وتحيطهم من كل طرف، ويصل لهيبها من أخمص أقدامهم إلى قمة رؤوسهم وتحوِّلهم رمادًا.

أما قوله تعالى ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ فهو حال لضمير الغائب في ﴿عليهم﴾، والمراد أن تلك النار توقد على الكافرين وهم موثَقون في عمد ممددة، شأن الشخص المربوط جسمه بعمود فلا يقدر على الحراك رغم المحاولة، فإننا سوف نعذب هؤلاء الكافرين عذابًا لن يجدوا منه مهربا رغم كل محاولاتهم. وقد تحققت هذه النبوءة بدخول أولادهم وإخوانهم وأقاربهم وأصدقائهم في الإسلام أمام أعينهم. لو أسلم قوم آخرون لما تأذوا كثيرًا، ولكنهم لما رأوا أفلاذ أكبادهم يدخلون في دين محمد، وينذرون أنفسهم لخدمة الإسلام، فأصبحوا كالذين شُدّ وثاقهم بالأعمدة العالية فلا يستطيعون الحراك فضلاً عن الهروب.

وقد وصف الله تعالى الأعمدة بكونها ممدّدة أي عاليةً لأنهم كانوا إذا أرادوا رجم أحد أو حرقه أوثقوه حتى ظهره بعمود خشبي، فالأعمدة العالية إشارةٌ إلى أن الجزء العلوي من أبدانهم يكون موثقا.

وقد يكون قوله تعالى ﴿عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ وصفًا لِـــ ﴿مُؤْصَدة﴾، وبما أن ﴿ممدَّدة﴾ تعني مطوَّلة، وعليه فالمراد من الآية أن تلك النار ستُضرَم في أعمدة كبيرة طويلة، أي أن الموقد الذي تُضرَم فيه النار يكون عاليا بين جدران مرتفعة. والقاعدة أنه كلما كانت الكير عالية كانت النار أشدَ حرارة. فقوله تعالى ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ إشارةٌ إلى شدة النار أولاً، وإلى قلة حيلة الكفار ثانيًا، فكأنما يكونون موثقين بأعمدة عالية، سيحاولون كثيرا لينجوا منها، ولكن لن يجدوا منها مهربًا.

هكذا كانت حالة الكافرين في النهاية، فما دام أولادهم قد آمنوا بالرسول ﷺ، فما كان هنالك من يستمع لهم؟ إذ لو قالوا لهم: ارجعوا إلينا وإلى دين آبائكم فما كانوا ليستجيوا لهم، لأن القضية قضية الإيمان، لا دخل فيها لأب أو أم. فما كان هنالك من يطيعهم؟

باختصار، فقوله تعالى ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ يمكن أن يفسر بمفهومين: أحدهما أنه ستُعَدّ لتعذيبهم النار في كير عالية، وأيضا أنهم لا يملكون حيلة ولا يجدون مهربا، إذ يعذَّبون وكأنهم موثقون من أخمص القدم إلى قمة الرأس، فلن يستطيعوا فعل شيء؟

ملحقات

وَضَعَ الأصلَ الأردو: الأستاذ سيد عبد الحي شاه

ناظر التصنيف بالجماعة بباكستان

(١)

فهرس الموضوع

الله جَلَّ جَلالُهُ

العقيدة السليمة عن الله عز وجل ٣٤٥
العقيدة الإسلامية عن الله عز وجل ٦٣٣
رؤية الله عز وجل ٦٩١
نورٌ أنّى أراه (الحديث) ٦٩١
رأى النبي ﷺ ربه في صورة شاب ٦٩١
حقيقة طاعة الله عز وجل ٥١٦-٥١٧
يتجلى الله على كل واحد حسب مقامه الروحاني ٦٩٢
المراد من نسْبة بعض الأعمال إلى الله عز وجل ٢٩٧
صيام رمضان علامة عهد الله مع المسلمين ٤٤٣
سنة الله عز وجل في التكلم مع أحبائه ١٠٢
غيرة النبي ﷺ على ربه عز وجل ١٠٩
سببُ الكفر والابتعاد عن الله عز وجل ٧٠٥

وجود البارئ تعالى

الفطرة الإنسانية دليل مفحم على وجود الله ٤٦
دليل على وجود الله عز وجل في اللاشعور الإنساني ٣٨، ٣٩-٤٠
دليل حُكم الله عز وجل على العالم ٧٣٨
عصر نبوة النبي ﷺ دليل على وجود الله ٧٣٩
لا عقلانية في إنكار وجود الله عز وجل ٣٩
ضرورة نبيٍّ من أجل الإيمان بالله عز وجل ٥٠١-٥٠٢، ٥٠٩
سبعة تجليات ربانية على النبي ﷺ ١٦٨

صفاته تعالى

ضرورة الدعاء بواسطة صفة إلهية لها صلة بحاجتنا ٣٧٠
ضرورة التخلق بأخلاق الله ٥٢٢
هو الأعلى ٩٢
الله أعلى وأجل ١٠٩
الأكرم ٣٧٢
الخبير ٦٨٣
القابض والباسط ١١٣
مالك يوم الدين ٦٩٨
خالق الأرض والسماء ٣٠
تجلّي بعض صفاته عز وجل نتيجة ذنوب الناس ٦٤٠
صفات إلهية يمكن أن يوصف بها الإنسان ٢٤١

الإثم

دحض عقيدة الخطيئة الموروثة والفداء ٢٥٥
هل حرّر المسيحُ الإنسانَ من الخطيئة الموروثة ٢٥٩
إقرار الكتاب المقدس بنجاة الناس من الإثم قبل المسيح ٢٥٩

الأحرار/ الأحراريون

فتنة الأحرار ضد الأحمدية عام ١٩٣٤م ٢٢٣
نهضة الأحمدية بعد فتنتهم ٢٢٣

الأحمدية الجماعة الإسلامية

تضحياتها بالنفس والمال لنشر الإسلام ٤٠١
وهبها الله الإيمان والعلم والمال ١٩٢
إثبات تفوُّق الإسلام على الغرب ليس إلا بوسع الأحمدية ٧٥٢-٧٥٣
الضيق المالي في زمن المسيح الموعود عليه السلام ٤٧٣
قلق الأحمديين عند نهاية موعد النبأ عن عبد الله آتهم ٥٩٤
فتنة الأحرار عام ١٩٣٤ ونهضة الأحمدية ٢٢٣
يقبلون الصدق بسهولة ٧٦١
لم يكن فيها نفاق في زمن المسيح الموعود عليه السلام ٣٣١
هي تَعتبر أوروبا "رجلا مريضا" ٧٥٣

عقائدها

تؤمن بالمسيح الموعود عليه السلام نبيًا ٥٨٤
موقفها من التكفير ٤٨٤-٤٨٥، ٤٩٦

حكمة عدم صلاتهم وراء الآخرين وعدم الزواج منهم ٢٢٤
تأييد الأحمدية في موقفها من الوحي ٥٨٤

نصائح لأبنائها

نصائح المسيح الموعود لجماعته عند قرب وفاته ٢٣
نُصحوا بالصبر ٣٣١
نُصحوا بالدعوة بلطف وحب ٢٥، ٤٥
نُصحوا بالتحلي بالأخلاق الفاضلة ٥٣٨
قرارُ المسيح الموعود عن التبرعات ٦٢٩
واجب الجماعة التضحيةُ بالمال ٤٧٤
استراتيجية عند نقاش المسيحيين ٢٥٩
أمر هام عن البهائيين ٦١٨
أهمية تربية الأجيال المقبلة ٥٣٨

مستقبلها

مستقبلها في ضوء أنباء المسيح الموعود عليه السلام ٤٦٠
أنباء رقيها ٣٣٢
أكد المسيح الموعود عليه السلام رقيها مرارًا ٤٧٢
يوم الوعد الخالد وذكر القدرة الثانية ٢٣
أنباء عن الابتلاءات والشدائد ٣٣٢
نبأ وجود منافقين في الجماعة ٣٣١

معارضتها

الكونغرس الهندوسي يعارض الأحمدية عام ١٩٣٤م ٦٢٧
اتصال منافقين من قاديان بالأحرار في فتنة ١٩٣٤م ٣٣١
توجُّه الناس إلى الأحمدية نتيجة المعارضة ١٩٩
يعتبر المعارضون ما تُقدّمه الجماعة من معارف القرآن تأويلا ٦٢٢
تساؤل للمسلمين وغيرهم عن الأحمدية ٧٤٢
تحوّلُ معارضتها من الفردية إلى الجماعية ٦٢٧

الآخرة (راجع الجنة أيضًا)

الرؤى والكشوف والإلهامات دليل على حقيقة نعيم الآخرة ٢٠٣

الأخلاق

الخُلق هو استخدام المواهب الفطرية في محلها ٥٣
تَخلّقوا بأخلاق الله (الحديث) ٥٢٢
إيمان أبي بكر رضي الله عنه نتيجة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ٦١٩
أخلاق المسلمين في الحروب ٦٥٧
طريقة تكميل الأخلاق ٤١
رقي الأمم منوط بالأخلاق الفاضلة ٧
ضرورة الدوام على الحسنات ٥٣٣
أخلاق الأمم الهالكة ٧٢٧
أخلاق كفار مكة ٧٢٠
العفو والانتقام في محلهما يساعدان على الرقي ٥٣
تعاليم الإسلام المعتدلة في العفو والعقوبة ٥٠٤
أهمية الاعتدال في العفو والانتقام ٥٣
تكاثُر الأموال يُفسد الأخلاق ٧١١
الحكمة في منع الغيبة ٧٧٣
المراد من هُمزة ولُمزة ٧٧٠
انقلاب موازين الأخلاق في العصر الحاضر ٥٦٣
مفهوم العفة قد تغيرَ في هذا الزمان ٥٦٧
حلت الدبلوماسية محل الصدق ٥٦٣
معيار الأمانة لدى الأمم الغربية المثقفة ٥٦٦
سيدمَّر العالَم إذا لم نتحلَّ بالأخلاق بعد اكتشاف القنبلة النووية (الجنـــرال ميكارثر) ٧٥٠

الأرض

الأرض وحدها قابلة لسكن الإنسان ٣٠
لا يحدث شيء في الأرض دون تدخُّل السماء ٣٤
حقيقة تكلُّمِ الأرض ٥٧٦-٥٧٧
رقي الجيولوجيا في هذا الزمان ٥٧٤-٥٧٥

نهضة أهل الأرض والتغيرات العالمية ٥٥٩
المراد من "وأخرجت الأرض أثقالها" ٥٧٢
إخراج الأرض ثرواتها المعدنية ٥٧٣
علمُ آثار الأرض ٥٧٥

الآريا سماج الهندوسية (راجع الهندوسية أيضًا)

حركة هندوسية تأثرت بعقائد الإسلام ٥٠٩
اعتقادهم أن التعاليم الكاملة نزلت عند بدء الخلق ٣٥١
ينفقون مئات الآلاف على إدخال المسلمين في الهندوسية ٦٢٩

الاستقامة (انظر في الأخلاق)

الإسراء

المراد من الإسراء ٦١٠
حكمة إراءة الإسراء في مشاهد تصويرية ٦١٠

الإسلام/المسلمون

معنيان للإسلام ٥١٥
أنباء إبراهيم وإشعيا عن الإسلام ٣٥٩
أنباء عظيمة تدل على صدق الإسلام ١٥٥
أعمدةُ الإسلام الأوائل ١٩٣
هل دعوته تقتصر على غير أهل الكتاب ٤٧٩

فضائله

الدين الوحيد الذي سماه الله ﷻ بنفسه ٣٦١
معجزاته ٢٣١
الدين الأخير ١٢٢
يبقى شرعه محفوظًا في كل زمن ١٢٢
تدبير رباني لحفظه دائمًا ١٣٧
المراد من عدم كونه دينًا فرديًا ٥٣٥
أحدثَ الثورة في العرب ٦٧٩-٦٨٠
جانب مشرق للحكم الإسلامي ٥٢٦
ميزات الحكم الإسلامي ٤٦٢
الإسلام يفوق كل النظم الإصلاحية ١٣٤
أصلحَ تعاليمَ اليهودية والمسيحية ٥٠٣-٥٠٥
تأثير عقيدته التوحيدية على العالم ٤٩٤، ٥٠٩
هيبةُ الإسلام في زمن الشيخين ٢٢

تعاليمه

روعة تعاليم الإسلام ١٩٣
سهولة العمل بها ٤٣٤
البساطة في أحكامه وعباداته ٥٠٣-٥٠٤
تصوُّرُ الإله في الإسلام ٦٣٣
تعاليمه الرائعة عن التوحيد ٣٧٩
تعاليمه الكاملة عن النبوة ٣٧٩
تفصيله للحياة بعد الموت ٣٨٠
يعلن أن الإنسان يولد بفطرة سليمة ٢٨٢
لا يقتل الإسلام القدرات الإنسانية بل يسوّيها ٥٢
يقول بإمكانية إصلاح الفطرة المشوهة ٢٨٥
يقرّ بتأثير البيئة على الإنسان ٢٨٥
يرى أن الشعور بالخير والشر يبدأ منذ الولادة ٢٨٣
تعريف الإسلام للعمل الصالح ٧٥٥
تعاليمه المعتدلة عن العفو والعقاب ٥٠٤-٥٠٥
فلسفة جزاء الأعمال في الإسلام ٥٥١-٥٥٢
تفوُّق تعاليمه في مؤتمر الأديان بلاهور ٣٨١
يأمرنا بالانتفاع من نعم الله ١٥٤
تعليمه برعاية اليتامى والمساكين ١٥١
بعض التفاخر ليس بممنوع في الإسلام ٧٢٣
التفاخر بالعدد ليس مباحًا فقط بل مستحب ٧٢٢
حكمة نهي الإسلام عن الغيبة ٧٧٤
نهى عن نهر السائل ١٥٣
لا يحب التقاليد الفارغة ٤٥٤
اختلافه مع القائلين بنظرية التطور ٢٩٨

ازدهاره وانحطاطه

هيبة الإسلام في زمن الشيخين ٢٢
معالم غلبته الظاهرة ٤٧١
عصر النبي وعصر الذين اقتبسوا من نوره ﷺ ١٩
أناس اشتهروا ببركة الإسلام ٤٥٨
رقي الشعوب المنتمية للإسلام ٧٤١
أقوام أسلمت من أهل الكتاب ٤٩٤
إسلام ٩٥% من المجوس ٤٩٤
لا يبقى من الإسلام إلا اسمه... (الحديث) ٤٤٠
انحطاط الإسلام عابر ١٢١-١٢٢
حال مسلمي اليوم ٧٥١
سبب غفلة المسلمين ٥١٢
وسيلة وحيدة للقضاء على انحطاطهم ١٢٠

مستقبله

نبأ رقيه بعد تعرضه للانحطاط كل مرة ٢٠٣-٢٠٤
نبأ رقي الإسلام المتدرج الخالد ٢٠٣-٢٠٤
نبأ غلبة الإسلام على النُظم الأخرى ٦٢٩
نظام أقامه المسيح الموعود عليه السلام لإحياء الإسلام ٦٢٩

المسلمون

تعريف المسلم ٤٨٥
الله سماهم بهذا الاسم ٣٦٠
الأمة الوحيدة التي سماها الله ٣٦٠
العلامة الروحانية لعهد الله مع المسلمين ٤٤٤
فتحُهم مكةَ والحجاز وفق العهد الإبراهيمي ٤٤٩
شعوب أسلمت من أهل الكتاب ٤٩٤
الغرب تلميذهم في العلوم المعاصرة ٣٧٦
ظلم الكفار للعبيد المسلمين ٣٩٤-٣٩٥
علامة المسلمين الحقيقيين ٨٩
حماسهم للجهاد والاستشهاد ٦٥٨
شجاعتهم ٦٥٩
أخلاق المسلمين الفاضلة خلال الحرب ٦٥٨
المقارنة بين أخلاق المسلمين والكفار ٧٢٠
لم يحرفوا القرآن رغم فسادهم ٥٢٢
حفاظهم على سبتهم (الجمعة) ٣٥٩
جانبٌ مُشرق للحكومات الإسلامية ٥٢٦-٥٢٧
اختراعاتهم في الطب والفيزياء ٧٠٩

مسلمو اليوم ٧٥١، ٧٦٣

فساد بعضهم بعد زمن النبوة ٧١٩، ٧٦١
تركوا الأخلاق المتعلقة بقيادة العالم ٥٣٨
أحوالهم الدينية ٧٦٣
هجرُهم القرآن ٥٥٦
عدم احترامهم العلماء وعواقبه ٥٢٩
التعقيدات الفقهية فيهم ٥٠٤، ٥٠٥
استغلالهم العبادة للشهرة ٥٢٨
لا يحظون بالإلهام رغم عبادتهم ٥٤٣
اعتقادهم أن أربعة كتب نزلتْ فقط ٤٢٠
أشركوا عيسى في صفة الله الخالق ٣٤٨-٣٤٩
سبب غفلتهم ٥١٢
تدابيرهم الخاطئة للقضاء على انحطاطهم ٤٦١
اعتقادهم أن تقليد الغرب سينجيهم ٧٥١
موقفهم الاعتذاري أمام الغرب ٧٥٢
الجكرالويون والمعتزلة والحنفية ٤٨٣
قضية هامّة سبّبتْ عثرتهم اليوم ٥٨٤

علاج انحطاطهم

طريقة وحيدة للقضاء على الانحطاط ١٢١
رقي المسلمين بالوسائل الدنيوية محال
١٢١-١٢٢، ٧٤٩
ينبغي ألا يعتمدوا على علماء الظاهر ٤٦١
أنباء المسيح الموعود عليه السلام عن ازدهار المسلمين ٤٦٥
الاشتراكية/ الشيوعية ٥٦٢

الثورة في روسيا ٦٣٠

الإصلاح

لن يقدر على الإصلاح إلا النفس الكاملة (الشمس) والمتبع الكامل (القمر) ٢٣

الاقتصاد (انظر في المال)

الإلحاد

حقيقة الإلحاد من الناحية النفسية ٣٩

الإلهام (انظرْ في الوحي)

الأمانة

معيار الأمانة لدى الأمم الغربية المثقفة ٥٦٦

الأمة

الأمة بمعنى كل الذين تُوجَّه إليهم رسالة النبي ٤٨٣

الأُمة الحية والأمّة الميتة ٦٧٨

تأتي فترتا الليل والنهار على الأمم ٧٤

أعمال تقود إلى رقي الأمم وانحطاطها ٨٢-٨٣

علامة الأمة الحية ٧٢٤، ٧٢٦

ثلاث ميزات للأمم التي تزدهر ٨١

صفات الأمة التي تقود العالم ٥٣٧

الوسائل المادية لغلبة الأمم ٧٣٨

ضرورة إيثار رضا الله على المصالح الشخصية والقومية ٥٢٦

الأمة التي تستبق بالخيرات تسبق الزمن ٧٢٣

طريق رقي الأمم وتربية الأجيال ٣٦

أهمية الإنفاق للمصالح القومية ٨٢، ٦٧٣

نوعان من الأمم التي تنعم بالراحة والأمان ٧٠١

لا يحمي الأُمة من العذاب إلا الإيمان والعمل الصالح ٧٤٦

لا يمكن رقي الأمة دون قائد ومعلم جيد ٦٢

قانون جديد لرقي الأمم في زمن النبوة ٧٣٧

المؤمنون يغلبون العالم لإيمانهم ٧١٦

لا يمكن إحياء الجماعة الدينية إلا بنبي ٧٤٨

ازدهار المسلمين، بعيدين عن دينهم، محال ١١٩

لا يمكن للعلماء إحياء الأمة الميتة ٤٦٦

الأمة المحرومة من نور الوحي يمكن أن تزدهر ماديًا ٧٤٩

معيار الأمانة لدى الأمم الغربية المثقفة ٥٦٦

الأمة الألمانية أكثر الأمم تنظيمًا وتضحية ١٣٦

انحطاط الأمم

سبب أساسي لانحطاط الأمم ٥١٩، ٧٠٢

أمور مادية وروحانية تُهلك الأمم ٧٢٧

ثلاث نتائج لتهافت الأمم على الدنيا ٧١٩

أخلاق الأمة الهالكة ٧٢٧

تفاخرٌ قومي ٧١٠

التكاثر في الأموال يلهي الأمم عن مسؤولياتها ٧٢١

التكاثر أكبر سبب لهلاك الأمم ٧٠٦، ٧١٥، ٧٣٢

عدم تربية الأولاد سبب كبير لانحطاط الأمم ٧٢٢

الأمم الكافرة تصاب بالتهور ٧٦٤

إذا استحقت أكثرية الأمة عذابًا هلك الصامتون أيضًا ٥٧-٥٨

اكتشافات الأمم الغربية ستُهلكها ٧٠٤

الأمة المحمدية ٣٠٧-٣٠٨

مقارنتها مع أمم الأنبياء الآخرين ٥٤١

مثال في المقارنة بين الأمة المحمدية وغيرها ٧٤٦

"مَثلُ أمتي كالمطر لا يُدرى أولها..." (الحديث) ١٣٢

"تَزوجوا ودودًا... فإني مكاثر بكم..."(الحديث) ٧٢٢

أهمية تربية الأجيال المقبلة ٥٣٨

ازدهار الأمة دون التمسك بالدين محال ١١٩

فرصة للعبادة لضعفاء الأمة ٤٥٤

عصرا الضحى والليلِ على الأمة ٢٣، ١١٩

تخلّفتْ أمتنا لاعتقادها الخاطئ عن نــزول عيسى ٥١٢

نبأُ تطوُّر الأمة بعد كل انحطاط ١٣٢

نبأ بعث المجددين والمصلحين في الأمة

النبي ﷺ موجود في الأمة روحانيًا ١٢٥
تعليمُ النبي ﷺ أُمّتَه الصلاةَ عليه ٢٥٧
إشارة إلى البعثة المحمدية والأحمدية ٢٠٤
نبأ بعثة أظلال كاملين للرسول ﷺ ٤٣٩-٤٤٠
نبأ بعثة المجددين على رأس كل قرن ٤٤٠-٤٦١
كل مصلح في الأمة يكون تابعًا للرسول ﷺ ٥٨٢
عقيدة النانوتوي عن مجيء نبي غير مشرع ٥٢٦
تراجُع المشايخ عن العقائد المتفق عليها ٤٤٠

الإنجيل

أُنزلتْ الأناجيل لثلاث عشر خلت من رمضان (الحديث) ٤١٢
لا دليل على نزول الإنجيل دفعة واحدة ٤١٧
معنى الإنجيل البشارةُ ٢٣٠
لم تُدوّن الأناجيل في زمن المسيح عليه السلام ٣٧٤
الأناجيل من تأليف البشر ٢٦٦
الأناجيل مجموعة روايات ٢٦٦
اعتراف لوقا أن الأناجيل تشتمل على روايات ٢٦٦
الأناجيل خالية من الشريعة ٤١٥
لم يأت المسيح عليه السلام لينقض الناموس ٣٦٢
استخدام المسيح عليه السلام كلمات قاسية ضد معارضيه ٥٠٦
تعاليمه لاستخدام اللطف المبالغ فيه ٥٠٧
مثال إنجيلي عن عقم بني إسرائيل ٢١٤
مثال الكرّامين يحرّم بني إسرائيل من النبوة ٢٦٥
قول الله فيه:" كنتُ جائعًا فلم تطعمني..." الخ ١٥١
غلَب الشيطانُ يسوعَ وفق الأناجيل ٣٣٩
نبأ عيسى عليه السلام عن بعثة روح حق ٢٦٥-٢٦٦

الإنسان

خَلْقه

التطور في خلق الإنسان ٣٥٣
خلق الذكر والأنثى ٧٦

مقامه

حقيقة خلافته على الأرض ٥٢٥
علامات الإنسان ٦٧٨
خُلِقَ "في أحسن تقويم" ٢٤١
دليل على خلق الإنسان في أحسن تقويم ٢٤٨
حقيقة خلق الإنسان بالقوى المعتدلة ٤٠
الهدف العظيم لخلق الإنسان ٣٤٩
تضارُب عقائد المسيحية حول الهدف النهائي لخلق الإنسان ٣٥٢
نبأ بعثة النبي ﷺ من نسل إبراهيم ٣٥٥

فطرته وقواه

الإنسان يفوق جميع الخلائق ٢٤٠
يفيض ويستفيض ٧٨
عنده إحساس بالخير والشر ٤٦
وهبه الله قوة كبيرة للتعليم والتربية ٢٤٢
قدرته على فعل الخير والشر وحكمتها ٦٤٠
تعطُّشه لمعرفة ما وراء الطبيعة ٣٧
مِن فطرته معرفة العلوم الغيبية ٣٦
دليل وجود الله في لاشعور الإنسان ٣٨
تمييزه بين الخير والشر دليل على وجود الله ٤٦
سبب إنكار وجود الله عز وجل ٣٩
ست نظريات عن خلق الإنسان وفطرته ٢٤٤
يولد الإنسان بفطرة سليمة ٢٤٥
يتطور الإنسان بتمسكه بالاعتدال ٣٤
حقيقة إلهام النفس فجورها وتقواها ٤٥

الشعور بالخير والشر يبدأ منذ الولادة ٢٨٣
في كل إنسان نفس لوّامة ٤٥
تأثير البيئة على الإنسان ٢٨٦، ٣٨٣
الرد على نظرية فرويد عن التطور ٢٨٢
تربية الأنبياء تجعل الإنسان مظهرًا لصفات الله ٢٩٦
صفات إلهية يمكن للإنسان الاتصاف بها ٢٤١
على الإنسان بذل كل جهده لله ٥٢٤
ينصلح الإنسان بالعمل الصحيح والإحساس الصحيح والفكر الصحيح ٨١
مقام الإنسان محدود رغم قواه الخارقة ٣٨٣
ضرورة الوحي مع وجود العقل ٣٨٢
حالة القبض والبسط نعمة ربانية ١١٧
سبب التفاوت في حياة الناس ٢٩٢
هيجان مشاعر الحب والكره في الإنسان ٣٦٦
اعتزازه بالنفس ٧٠٧
خَلْق الصحوة والتغير في الإنسان ٥٥٨-٥٥٩
نظرية التناسخ الهندوسية ٢٤٦
الرد على التناسخ ٢٩٠
هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟ ٢٤٦
الرد على أن الإنسان مسيَّر ٢٨٧
نظرية المسيحية عن توارث الخطيئة ٢٤٤
خطر انتهاء الحضارة الحالية نتيجة الحرب النووية ٦٩٧
تغيرات كبيرة في حياة الإنسان على كافة الصعد ٥٥٩-٥٦٠

أهل القرآن/ منكرو الحديث

(راجع: "الجكْراليون")

أهل الكتاب

ألم ينـــزل القرآن لدعوة أهل الكتاب؟ ٤٧٩
الأقوام التي أسلمت من أهل الكتاب ٤٩٤
أهل الكتاب من الصين والهند ٤٩٤
إسلام معظم أهل الكتاب من المجوس ٤٩٤

الآية

حقيقة أسباب نزول الآيات ٦٥٢

الإيمان/المؤمن

الصفات الثلاث للمؤمن الحق ٧٥٨
المؤمن يستبق الخيرات ٧٢٤
مقامان للمؤمن ٧١٧
الإيمان والعمل الصالح يعني استخدام القوى الفطرية في محلها ٣٠٠
حالة القبض والبسط من علامات المؤمنين ١١٣
لماذا ينفق المؤمن ٩٢
المؤمنون يغلبون العالم لإيمانهم ٧١٦
المبشرات هي رؤيا المؤمن ٦٠٣
ليلة القدر ليلة يستحق فيها المؤمن الجنة ٤٥٤-٤٥٥
مقام المؤمنين بالنبي ٤٥٩-٤٦٠
المؤمنون يزدهرون بالأسباب الروحانية في زمن النبي ٧٤٥
المؤمن يؤسس عقائده على اليقين ٧٦٣
يأمر الله ببقاء جماعة المؤمنين منفصلة عن الكفار ٢٢٤
أثر هجرته ﷺ على المؤمنين والمنكرين ٢٢٠-٢٢١

"البراهين الأحمدية" (كتاب للمسيح الموعود عليه السلام)

نُشر ما بين ١٨٨٠ و ١٨٨٤م ٣٢٧
نسختان منه موجودتان في متحف لندن ٣٢٧
رأي المولوي محمد حسين البطالوي فيه ٢٢٨

البهائية

خطؤها في فهم حقيقة الوحي ٦١٨
قضية ادعاء بهاء الله بتلقّي الوحي ٥٦٩

البوذية ٢٤٩، ٢٩٧، ٤٣٨

عقيدتها ببعثة الأنبياء في زمن مظلم ٤٣٨
عقيدتها بولادة الإنسان بفطرة خبيثة ٢٤٥

تعاليمها غير قابلة للعمل ٢٤٨
تعارُض تعاليمها ٢٤٨، ٢٥٢
لا تمنعُ من الزواج إلا النُسّاك ٢٤٨

البيغاميون (راجِع: "غيرُ المبايعين")

التطور

التطور في خلق الإنسان ٣٥٣
اختلاف الإسلام مع القائلين بنظرية التطور ٢٩٨
التطور جارٍ في الوحي والإلهام والأمور الروحانية أيضًا ٢٩٨، ٣٥٣
التطور الروحاني للرسول ﷺ مستمر ٤٢٧
ردّ على آراء فلاسفة الغرب في تطور الأديان ٢٩٨
الخلائق بحاجة إلى التدريج لكمالها ٣٦٧

التفاخر

بعض أقسام التفاخر ليس بممنوع ٧٢٢، ٧٢٤
تفاخُرُ علي ﷺ باستئصال الكفر ٧٢٣

التواضع

قول عمر ﷺ "رب لا لي ولا عليَّ" ٣١٧
تواضع الصحابة ﷺ ٧١٩

الثواب (انظر في الجزاء)

الجبر والقدر

الإنسان ليس مسيَّرا عند الإسلام ٢٨٧
نظريات تعتبر الإنسان مسيَّرًا وليس مخيّرًا ٢٤٦
دحض عقيدة الجبر والإكراه ٢٨٧-٢٨٩
منعُ أحد من العبادة غيرُ منطقي ٣٨٩
الحسنة الحقيقية تصدر دون إكراه ٢٤٧

الجزاء (راجع العقوبة والعذاب أيضًا)

فلسفة الإسلام عن جزاء الأعمال ٥٥١-٥٥٢
قانون جزاء الأعمال ٦٣٨-٦٣٩
قانون العقاب ٣٩٦، ٦٣٨-٦٣٩
جزاء الحسنة قد يُضاعف سبعين مرة ٦٤١
الجزاء بحسب مَدى التضحية لا كمية العمل ٥٤٩

الجَكْرالويون (منكرو الحديث النبوي)

دحض عقيدتهم ١٧٦، ٤٨٤-٤٨٣، ٥٠٢-٥٠١

الجماعة الإسلامية الأحمدية (انظر في الأحمدية)

الجنة

"ما لا عين رأت ولا أذن سمعت..." (الحديث) ٦٩٠
المراد من جنات عدن ٥٤٢
المراد من ورق الجنة ٢٢٢
كانت جنة آدم ﷺ على الأرض ٢٢٥

الجنون (انظر في الطب)

الجهاد (راجع أيضًا الحرب والغزوات) ٥٣٢
الصوم أثناء الجهاد ٧٥٦

الجيولوجيا (راجع الأرض)

الحجة

لا ينـــزل العذاب دون الحجة القاطعة ٤٨٤

الحديث

حديث بدء الوحي في البخاري ومسند أحمد ٣٠٦
المراد من قوله ﷺ "ما أنا بقارئ" ٣٠٨
حقيقة الأحاديث التي تبين فضائل السور ٥٤٧
مسند أحمد موثوق به ولكن دُستْ فيها روايات ضعيفة ٤١٩
الرد على منكري الحديث ٤٨٣، ٤٩٩ -٥٠٠

أحاديث وردت في هذا المجلد

أَبْشِرْ يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها... ٦٤١

أَقْرِئْني يا رسول الله ... ٥٤٦
أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ١٥١
اعتكف النبي ﷺ العشر الأُوَل من رمضان.. ٤٥١
ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم.. ٧٠٥
التمِسوها في العشر الأول والعشر الأواخر ٤٥٠، ٤٥٢
إلى الرفيق الأعلى ١٣٦
أما أنا فأُرسلت إلى الناس كلهم عامة... ٤٨١
أُمرتُ بيوم الأضحى جعله الله عيدًا.. ٥٤٨
أنا سيدُ وَلَدِ آدم ولا فخر ٧٢٢
أنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان ٤١٢
أُنزلْت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان.. ٤١٢
انقطع الوحي وبقيت المبشرات ٥٨٨، ٥٩١
المبشرات هي رؤيا المؤمن ٦٠٣
إن الله أعانني عليه فأسلم... ١٧٣
إن الله حرم مكة و لم تحل لأحد قبلي... ٢٣٨
إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة ... ١٧٢
إنها ليلة سابعة أو تاسعة أو عشرين ٤٥٠
إني تارك فيكم الثقلين... ٥٧٢
أول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي... ٣٠٥
بُعثت إلى الناس كافة.. ٤٨١
تَحرَّوا ليلة القدر في الوتر.... ٤٥٢
تَخلَّقوا بأخلاق الله ٥٢٢
تَزوّجوا الوَلود الوَدود... ٧٢٢
تُنكَح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها... ٢٩
خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر... ٤٥٢
الخيل معقود في نواصيها الخير... ٦٥٥
عُذّبتْ امرأة في هرّةٍ حبستْها ٤١٢
قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك ٤٤١
قرأ النبي ﷺ هذه الآية يومئذ تحدِّثُ... ٥٧٧
كان النبي ﷺ في سفر فصلى العشاء... ٢٠٧
كل مولود يولد على فطرة الإسلام... ٢٨٢
الكنود الذي يأكل وحده... ٦٦٨
الكيّسُ مَن دان نفسه وعمل... ٥١٤
لا يبقى من الإسلام إلا اسمه... ٤٤٠
لا يَبقَيَنَّ في المسجد نافذةٌ إلا سُدّتْ..." ١٣٥
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور... ٥٢٠
لن ينجو أحدكم بعمله ٦٤١
لو كنتُ متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر ١٣٥
لولا أنكم تخطئون وتذنبون.... ٦٤٠
لولاك لما خلقت الأفلاك ٣٥٠
ليلة القدر في العشر البواقي... ٤٥٠
ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية... ٦٣٢
ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ... ٦٩٠
من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانا... ٦٥٥
من سمع بي من أمتي أو يهودي... ٤٨٢
من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا... ٤٤١
من قرأ في ليلة القدر إذا زُلزلتْ... ٥٤٨
من قرأ في ليلة القدر ألف آية لقي الله... ٧٠٦
نظِّفوا أفواهكم ٥٠٠
نورٌ أنَّى أراه ٦٩١
وإن للشيطان لَمّة الشر... ٥٨٤
والذي نفسي بيده لا يسمع بي... ٤٨٣
يا أبا بكر ما رأيتَ في الدنيا مما تكره... ٦٤٠
يقول ابن آدم: مالي مالي... ٧٠٧
لا يُدرَى أوله خير أم آخره ١٣٢
يقول الله يوم القيامة كنت جائعًا فلم تطعمني ١٥١
شيطان من صام يوم العيد ٧٥٥
رأيت العسر يعدو وراء اليسر... ٢٠٣
تمثيلٌ عن الأمة المحمدية ٧٤٥- ٧٤٦
مثال المغتاب ٦٣٢
روايات مختلفة عن تحديد ليلة القدر ٤٤٩

الحرب (راجع الغزوات أيضًا)

نظام الاقتصاد الراهن سببُ الحروب ٥٧٠
تكتيك التراجع المنتظم في الحروب ٦٦٥

الحرب العالمية الأولى

استيلاء دول على الذهب المودع لديها أمانةً ٥٦٦
نشر الإنجليز والألمان دعايات كاذبة ٥٦٣

الحرب العالمية الثانية ٣١٦، ٥٧٠

ظلم أهل الغرب المتبادل ٣٩٧
سلاح القوى المتحالفة ٦٩٩
معاملة الإنجليز مع والي حيدر آباد ٥٦٦
دعاية الحلفاء والألمان الكاذبة ٥٦٣
إدمان العسكريين على الكحول ٥٣٢
قيامة "هيروشيما" و"ناجازاكي" بالقنبلة النووية ٦٩٦

الحكومة/السياسة

صفات المسؤولين ٥٣٨
سبب فشل النظم السياسية ٥١٩
ميزات الحكومة الإسلامية ٤٦٢
جانب مُشرق للحكم الإسلامي ٥٢٧
نموذج الحكم المثالي ٤٦٢
تدخُّل العامة في الحكم في العصر الحاضر ٥٥٨- ٥٥٩
نهاية الإمبراطوريات في العصر الراهن ٥٧٢
تغيرت مبادئ السياسة في الزمن الراهن ٥٥٨
تسلُّط البلاد القوية على البلاد الضعيفة ٥٦٠
حلّت الدبلوماسية محل الصدق اليوم ٥٦٣
المقارنة بين الديموقراطية والخلافة ٥٢١

الحواريون

تلقّي الحواريين الوحيَ ٥٩٨
إيقاظ المسيح للحواريين من أجل الدعاء ٢٦٨

الخشية

خشية النبي ﷺ منقطعة النظير ٣١٩
الخشية عند نزول الوحي ٣١٩-٣٢٠

الخلافة

حقيقة خلافة الإنسان على الأرض ٥٢٥
عهد عمر ﷺ عصر الانتصارات ٣١٧
المقارنة بين الديمقراطية المعاصرة والخلافة ٥٢١
الخلفاء الراشدون نموذج لأداء حقوق العباد ٥٢٠
خلود النبي ﷺ في قلوب الخلفاء الراشدين ١٢٥
عصر الخلافة الراشدة عصرُ رقي الإسلام ١٢٠
حفظ الخلفاء الراشدين مال العامة ٥٢١
هيبة الخلفاء الراشدين ٤٧١

الخلافة الأحمدية

النبأ عن القدرة الثانية (الخلافة) ٤٦٩

الخير

حقبة الخير سبقتْ حقبة الشر ٢٩٩
الخير استخدامُ مقتضيات الفطرة بتوجيه العقل ٢٥١
الخير الحقيقي يأتي دون إكراه ٢٤٧
لا يُقبَل الخير ما لم يُداوَم عليه ٥٣٣

الخيل

كان المقاتلون في سرية بني كنانة فرسانًا ٦٥٢
لم يكن لدى المسلمين إلا فرَسان في غزوة بدر ٦٥٠
"والعاديات ضبحًا" هي الخيل والفرسان في غزوات الإسلام ٦٥٤
الخيل معقود في نواصيها الخير... ٦٥٥
وصية النبي ﷺ بتربية الخيل ٦٥٥

الدامارغيون (فرقة هندوسية)

يرون أن تحقيق كل رغبةٍ حسنةٌ ٢٥٣

الدعاء

طريق الدعاء ٣٧٠
دعاء إبراهيم عليه السلام لبعثة نبي في مكة ٨
دعاء موسى عليه السلام لانشراح الصدر ١٨٧
دعاء موسى عليه السلام لوزير من أهله ١٩٠
دعاء عيسى عليه السلام لمجيء حُكم الله على الأرض ٧٤٢
دعاؤه عليه السلام للنجاة من موت الصليب ٢٦٨
دعاء النبي ﷺ لهداية أهل الطائف ١٧٣
دعاء مزعوم باسم "خزينة العرش" ٥٥١

الدنيا

ثلاث نتائج للتهافت على الدنيا ٧١٩

ديانة "شنتو" ٥٦٢

الدين

غرضه الحقيقي عند المسيح الموعود عليه السلام ٤٠
حقيقة الدين الحق ٥٤٢-٥٤٣
ليس بوسع الإنسان إنشاء دين له ٣٨٤
الاعتدال روح الدين ٤٠
علاقة الدين بالحياة الأخروية ٣٨٨
لا يمكن رقي جماعة دينية بدون نبي ٧٤٧
لا يمكن إحياء الدين بالتدابير الإنسانية ٤٦٦
تعقُّد المسائل الفقهية في الدين بطول الأمد ٥٠٤
فساد الدين ٧٦٢
مصير الأديان التي يتخلى الله عنها ٧٤٩
نظريات الأديان عن الفطرة الإنسانية ٢٤٥
تغيُّرُ تفكير الناس عن الدين في هذا الزمن ٥٦٢
تحرُّر الناس من سلطة الدين في هذا الزمان ٥٧٣
الرد على نظرية الغرب في تطور الدين ٢٩٨
الرد على أن اليهودية والمسيحية والإسلام دين واحد ٥٣٩
لا يقدّم أي دين تعاليم التوحيد مثل الإسلام ٣٧٩
لا يركز أي دين على العبادة الجماعية مثل الإسلام ٥٣٥
صحف الأديان الأولى معقَّدة وغير مفهومة ٤٣٣
تفوُّق تعاليم الإسلام في مؤتمر الأديان بلاهور ٣٨١

الديمقراطية (راجع الحكومة)

الرؤيا (راجع الوحي أيضًا)

الوحي على صورة الرؤيا ٣١٤-٣١٥
حكمة الرؤى والكشوف مقابل الوحي ٦٠٩-٦١٠
المبشرات رؤيا المؤمن (الحديث) ٦٠٣
أقسام الرؤى ٦١١
رؤى تتطلب التأويل ورؤى لا تتطلبه ٦١١
﴿مِن وراء حجاب﴾ يعني رؤى تتطلب التأويل ٦٠٤
رؤى تتحقق مثل فلق الصبح ٦١٢
الفرق بين الرؤى الصادقة والكاذبة ١٨٤
بدأ نزول الوحي على النبي ﷺ على صورة رؤيا ٣٠٧
واقعة بدء الوحي رؤيا عند ابن هشام ٣١٢
يمكن أن ترى العاهرات أيضا رؤى صادقة ٣١٣
رؤيا الملك المصري في زمن يوسف عليه السلام ٦٠٤
رؤيا عيسى عليه السلام ٣٣٨
رؤيا زوجة بيلاطس ٢٧٤
رؤيا المسيح الموعود عليه السلام ٦٥٢
رأى المسيح الموعود عليه السلام عصا قيصر روسيا في يده ٣٣٢
تجارب شخصية للمفسّر عن رؤى مثل فلق الصبح ٦١٢
رؤيا للمفسر ٤٦٥
إفتاء المفسر في رؤيا له ٣٩٥
رؤيا المفسر رآها غير أحمدي أيضًا ٦١٢

الربا

لم يكن الربا محرمًا كليًّا قبل الإسلام ٥٠٣

الرسول (انظر في النبي)

رمضان ٤٠٨

نزول صحف الرسل فيه وفق الأحاديث ٤١١
حقيقة نزول كلام الله ﷻ فيه ٤٢١
الحكمة في مدارسة جبريل القرآن في كل رمضان ٥٩٥
حديث عن فضائل رمضان ٤٤١
صيام رمضان علامة عهد الله مع المسلمين ٤٤٣
شهر رمضان لم يكن معروفًا بين اليهود ٤١٣

الروح

حقيقتها ٤٦٤

روح القدس

نزوله على عيسى عليه السلام على شكل حمامة ٣٣٩
إلقاؤه أمرًا على قلب النبي ﷺ ٥٨٨

الرهبانية

القرآن ينهى عن الرهبانية ٥٢

الزبور

نزل الزبور بعد الثاني عشر من رمضان (الحديث) ٤١٣
لا دليل على نزوله دفعة واحدة ٤١٦
يحتوي على أناشيد في حب الله ﷻ، ٤١٤
نبأُ إعطاءِ حُكم كنعان للعباد الصالحين ٤٤٥

الزرادشتية

نبأ مجيء نبي مشرع في كتاب الزرادشتيين ٣٥٣
عقيدة الزرادشتيين عن بعثة مبعوث في الزمن المظلم ٤٣٨

الزكاة

حكمة ذكر القرآن الزكاةَ بعد الصلاة ٥٣٥
الحث على إيتاء الزكاة يتم بإقامة الصلاة ٥٣٦

الزمان/ العصر

يتمركز الناس حول النفس الكاملة في كل زمن ٤٣
المراد من "والعصر" زمانُ النبوة المحمدية ٧٣٥
بُعث النبي ﷺ في آخر الزمان ٧١٤
نبأٌ عن زمن المسيح الموعود عليه السلام في سورة العصر ٧٣٤
نبأُ تشكُّل الاتحادات في زمن بعثة ثانية للرسول ﷺ ٦٢٤
التغيرات العالمية المعاصرة سُميت قيامة ٥٥٨-٥٥٧
نبأ غلبة نظام الإسلام على النظم الأخرى في آخر الزمان ٦٢٩
الثورة العلمية في هذا العصر ٥٦٩
تقدُّم علوم الطبيعة في هذا العصر ٥٧٤-٥٧٥
الثورة في علم السياسة والاقتصاد والأديان ٥٥٩ -٥٦٢
نهاية الإمبراطوريات في الزمن الأخير ٥٧٣
إقامة الحكومات الجمهورية في الزمن الأخير ٥٥٩
قيام المنظمات السياسية والاتحادات وأهميتها ٦٢٥
إخراج الأرض خزائنها في هذا العصر ٥٧٣
كشف الناس أسرارهم ٥٧٨
حالة الصدق والأمانة في العصر الراهن ٥٦٣- ٥٦٤

الزواج

تُنكَح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها... (الحديث) ٢٩
ضرورة تفضيل الدين عند النكاح ٢٩
القرآن ينهى عن الرهبانية ٥٢

السجود

أهمية السجود الخاص ٤٠٠- ٤٠١

السلام

القاعدة الذهبية للسلام العالمي ٥٢٦

السماء

المراد من السماء في القرآن ٣٣
لا يمكن للأرض فعل شيء مستغنية عن السماء ٣٤

السورة

هدف نزول بعض السور قصيرةً ٦٤٧
حقيقة فضائل السور المختلفة ٥٤٧

سورة الانشراح

ترتيبها وعلاقتها بالسورة السابقة ١٥٥

سورة البينة

علاقتها بسابقتها ٤٧٧

قول الله للرسول ﷺ أن يحفّظها أُبي بن كعب ٤٧٥

فيها ذكرُ بعثة النبي ﷺ الأولى ٦٤٨

سورة التكاثر

علاقتها بما سبق ٧٠٥

فضائلها ٧٠٦

محاولة تحديد معانيها من خلال السور الأخرى ٧١٢

سورة التين

ترتيبها وعلاقتها لما سبق ٢١٠

سورة الزلزلة

علاقتها بسورة البيّنة ٥٤٦

فيها ذكر بعثة النبي ﷺ الثانية ٦٤٨

سورة الشمس

ترتيبها ٥

علاقتها بما سبق ٧

سورة الضحى

الترتيب والترابط ١٠٠

روايات عن سبب نزولها ٩٥

سورة العاديات

ترتيب مضمونها ٦٤٨

فيها نبأ الغزوات الإسلامية ٦٤٩

سورة العصر

الترتيب والترابط ٧٣٣

اعتراف الكفار بسعة معانيها ٧٣٣

فيها نبأ عن زمن المسيح الموعود ؏ ٧٣٤

يعتبرها وليام موير مناجاة النبي ﷺ مع نفسه ٧٣٣

سورة العلق

أول سور القرآن نزولا ٣٠٨

الترتيب والترابط ٣٤١

أهميتها ٣١٠

خلاصة تعاليم القرآن ٤٢٩

معاني "اقرأْ" ٣٤٢

الرد على اعتراض وليام موير ٣٢٥

سورة الفاتحة

هي خلاصة مضامين القرآن كله ٥٥٠

سورة القارعة

ترتيبها ٦٨٧

سورة القدر

علاقتها بسورة العلق وخلاصة مضامينها ٤٠٦

سبب نزولها المذكور في التفاسير ٤٠٣

سورة الليل

الترتيب والترابط ٦١

خلاصة مضامينها ٦٢

كان النبي ﷺ يتلوها في الظهر والعصر ٦١

سورة الهُمزة

الترتيب والترابط ٧٦٧

السيئة

تعريف السيئة ٢٤٨

السياسة (راجع الحكومة)

السيخية

يجمعون تبرعات هائلة لأهداف دينية ٦٣١

الشريعة

بدأت الشريعة من زمن آدم وتطورت إلى زمن النبي ﷺ ٣٥٢
نوحٌ مؤسسُ عصر التشريع ٢٤٣
صفات النبي التشريعي المنفِّذ للشريعة ٢٤
ينـــزل الشرع على النفس الكاملة ويُطبق بيد نبي تابع له ٢٤
عقيدة الهندوس أن الشرع الكامل نزل في البدء ٣٥٢
نبأ موسى عليه السلام عن نبي يأتي بشريعة نارية ٣٥٦
لم يأت المسيح الموعود عليه السلام بشرع جديد ٣٦٤
الإنجيل والزبور ليسا كتابَي شرع ٤٢٠
تحريف الناس للشرائع ٥٢١-٥٢٢
اعتبار المسيحيين الشريعةَ لعنةً ٣٥٢، ٥٤٣
تحثّ الشريعة على الحب الكامل لله والكره التام للشيطان ٣٦٨
أُعطي النبي ﷺ الشريعة الأخيرة والكاملة ١٣٧
الإسلام شريعة كاملة ٢٤٣، ٤٦٦

الشكر

طُرقُ تحديثِ النعمة ١٥٣

الشمس

ضوءها ذاتي ١٩
الشمس بمعنى النبي المشرع ١٨
ميزات نبيٍّ يكون بمثابة الشمس ٢٤
حقيقة كون النبي ﷺ سراجًا منيرًا ٢٠، ٤٢٧
الفرق بين الشمس المادية والروحانية ٢٣

الشهادة

نطق بلال رضي الله عنه بالشهادة أثناء الاضطهاد ٣٩٦
آية "اقرأْ باسم ربك" تؤيد الشهادتين ٣٤٧
الشهادتان على جدران حصن ملكي قديم في برايتون بإنجلترا ٣٧٨

الشيطان

وإن للشيطان لَمّة الشر (الحديث) ٥٨٤
إغواء الشيطان آدمَ عليه السلام ٢٢٣
شيطانُ آدم عليه السلام كان رجلَ كهوف ٢٢٤
إسلامُ شيطان النبي ﷺ ١٧٣، ٣٦٨
شيطانٌ مَن صام يوم العيد (الحديث) ٧٥٥
طريق وحيد للتخلص من الشيطان ٦٧٥

الشيعة

ينسب الشيعة ترتيب السور إلى عثمان رضي الله عنه ٤٧٦
يبالغون في بيان أحداث كربلاء ٢٧٦
معارضتهم للأحمدية ٦٢٧
أمر جدير بأن يفكر فيه الشيعة ١٩٠

الصبر

أُمر المسيح الموعود عليه السلام بالصبر على إيذاء معارضيه ٣٣٠

الصحابة رضي الله عنهم

مقامهم

أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم (الحديث) ١٥١، ٤٧١
نالوا مقام "رضي الله عنهم ورضوا عنه" ٥٤٢
تحوّلوا من رعاة الإبل إلى رعاة العالم بطاعة النبيّ ﷺ ٧١٦
فضل الأنصار ٢٢٨
تفضيل عمر للصحابة العبيد رضي الله عنهم ٧٣٠
عظمة الصحابة رضي الله عنهم مقابل الملوك ٤٥٩
استشارة النبي ﷺ صحابته يوم بدر ٤٨٢
ثقة النبي ﷺ بإيمان الصحابة ٥٥٥
نبأ الطمأنينة الداخلية والخارجية للصحابة ٢٠٢
غيرة المفسر على الصحابة رضي الله عنهم ٦٤٤

أخلاقهم وإخلاصهم

إيمانهم بصدق النبي ﷺ ٦٢٠
طاعتهم الكاملة للرسول ﷺ ٥٨٦
أدبهم مع النبي ﷺ ٦٦٣
الصحابة المخلصون الأوائل ١٩١
حماسهم للفداء من أجل النبي ﷺ ١٢٦- ١٢٧
قدرتهم للاستفاضة من النبي ﷺ ٧٨
ذهولهم إثر خبر وفاة النبي ﷺ ١٢٨
حماسهم المفرط للإسلام ٦٦٢- ٦٦٣
حماسهم للجهاد ٦٦١
حالة قلوبهم عند الذهاب للجهاد ٦٤٩
شجاعتهم وبسالتهم ٧٨١- ٧٨٢
إتقانهم أساليب القتال ٦٦٣
تواضعهم ٧١٩
تضحيتهم بكرامتهم ٤٥٩
ظنوا خطأً أن الجزاء مقصور على الأعمال الكبيرة ٦٤٣
مقارنة تضحياتهم مع تضحيات قوم موسى ٢٢٥
مقارنتهم مع كفار مكة من حيث الخُلق ٧٢٠
الفرق بين جهدهم وجهد المعارضين ٧٨- ٧٩

أحداث شهيرة في حياتهم

تمثُّلُ جبريل عليه السلام لهم على صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ٥٨٥
اضطهاد الكفار للصحابة العبيد رضي الله عنهم ٣٩٤
قتل الكافرين سبعين صحابيًّا خِداعًا ٦٨٢
قصة صحابي فقير ٦٤٥

الصلاة

معنى إقامة الصلاة عند المسيح الموعود عليه السلام ٥٣٤
معان أخرى لإقامة الصلاة ٥٣٤

صلح الحديبية

سبب معاناة نفسية لممثلي أهل مكة ٧٨١- ٧٨٢

الطاعة

حقيقة طاعة الله عز وجل ٥١٦-٥١٧
"أعطُوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (المسيح عليه السلام) ٥١٨
سبب طاعة المسيح الموعود عليه السلام للإنجليز ٥١٨

الطب

تقدُّم المسلمين في الطب والجراحة ٧٠٩- ٧١٠
عَلِمَ الأطبّاء المسلمون عن البكتيريا قبل الغرب ٧١٠
صفات الطبيب الكامل ٢١٦
مزيج من الخمر والمرّ يخفف الألم ٢٧٦
تقدُّم الطب في الزمن الحاضر ٢٦٧
معالجة النبي ﷺ للمرضى ٦٨٢
الفرق بين المجنون وغيره عند الإسلام ٣٢١
الفرق بين حالة الجنون وحالة نزول الوحي ٣١٩-٣٢٠
مآثر النبي ﷺ وتعاليمه تبطل كونه مجنونًا ٣٢٢
علاقة القلب بالوحي والإلهام ٣٢-٣٣

العادة

العلاقة بين العادة والفطرة ٤٥
حقيقة العبادة التي تتم كعادة ٥٣٠
ضرورة التحلي بالعادات الحسنة ٥٣١
ضررُ تعاطي المخدرات ٥٣١

العالم الروحاني

الشبه بين العالمين المادي والروحاني ٣١-٣٢

العبادة

العبادة الجماعية لا توجد إلا في الإسلام ٥٣٥
شروط للعبادة في اليهودية والهندوسية لا تطاق ٤٣٣
سهولة العبادات في الإسلام ٤٣٤، ٥٠٣
لا فائدة من عبادة لا يُداوَم عليها ٥٣٣
المراد من إقامة الصلاة ٥٣٤

أهمية أداء الصلاة في المسجد جماعةً ٥٣٦
فضلُ عبادةِ ليلةٍ واحدة على عبادة ثلاثة وثمانين عامًا ٤٠٥- ٤٠٦
ضرورة تجنُّب الرياء في العبادة ٥٢٨
حقيقة العبادة التي تتم كعادة ٥٣٠
قد تصبح جميع أعمال المرء عبادةً ٥١٧- ٥١٨
منعُ أحد من العبادة غيرُ معقول ٣٨٩

العدل

ظلم الأمم الغربية باسم العدل ٥٦٨

العذاب

سبب نزول العذاب في الدنيا ٥٣٧
لا ينـــزل العذاب دون الحجة القاطعة ٤٨٤
القارعة عذابٌ يحل لكشف صدق الأنبياء ٦٨٩، ٦٩٨
عُذِّبتْ امرأةٌ في هِرّةٍ حبستْها (الحديث) ٤١٢
وعيد العذاب للمتقوّل ٥٩٦- ٥٩٧
يشمل العذاب الساكتين عن الحق أيضا ٥٧-٥٨
عذاب أبي جهل ٧٨٢-٧٨٣
نار العذاب النفسي لكفار مكة ٧٨٥

العربية

أفضليتها على اللغات الأخرى ٣١٤
من ميزاتها توسيع المعاني ٨٣
ثناء "لين باول" الإنجليزي عليها ٧٦٩
قواميس عربية شهيرة ٧٦٩
مناسبة وضع علم النحو ٣٧٥
ترجمة ورقة بن نوفل التوراةَ بالعربية ٣٠٦
اختلاف اللهجات باختلاف المناطق والقبائل ٦٥-٦٧
"أو" يأتي للمغايرة ٦٠٦
شتى استخدامات "ما" ٧١
استخدام "ما" مكان "من" للإشارة إلى صفة غالبة في المذكور ٢٨
الفرق بين "ليل" و"ليلة" ٤٠٧
المراد مِن "ثكلتك أمك" ٧٠٢
الفرق بين الإعلام والإعلان ٥٩٠
المراد من انشراح الصدر ١٥٧
سبع كلمات للتعبير عن الطهارة ٤٩٨
استعمال "الأَلْف" لعدد غير محدّد ٤٦١، ٧٠٦
استعمال السبع أو السبعين للمبالغة ٧٠٤
الاستفهام للتهديد والوعيد ٦٧٧
الإنكار التقريري ١٦٠
الشر والخير اسمَا تفضيلٍ ٥٤٠
إضافة التاء إلى اسم الفاعل للمبالغة ٤١٠
التكرار للتوكيد ٧٢٦
الباء الزائدة ٢٥٢
النكرة للتفخيم والتعظيم ٤١، ٢٠١
زيادة الحروف أو استبدالها زيادةً في المعنى ٤١٠
الماضي مكان المضارع للتأكيد ٣٧٣، ٧١٣

العصر (راجع الزمان)

العفة (راجع الأخلاق)

العفو (راجع الأخلاق والعقوبة)

العقل

ضرورة الإلهام مع العقل ٣٨٢

العقوبة (انظرْ أيضا الجزاء والنجاة)

لا ينـــزل العقاب بدون إتمام الحجة ٤٨٤
تعاليم الإسلام المعتدلة في العفو والعقاب ٥٠٤- ٥٠٥
أهمية العفو والانتقام في محلَّيْهما ٥٣

العلم

شغفُ النبي ﷺ بالعلم ٤٣
النبي ﷺ وسيلة للعلوم والمعارف ٣٤٢

القرآن مليء بعلوم لم توجد قبله ٣٨٢
علوم ظهرت بفضل القرآن ٣٧٥-٣٧٦
حقيقة التفقه في الدين ١٧٦
ثلاثة أقسام للعلم ٧٢٨
وسائل تكميل العلم ١٧٤
العلم الخاطئ يؤدي إلى المشاعر والأعمال الخاطئة ٨١
نبوغ المسلمين في علوم الطبيعة ٧٠٩
الأطباء المسلمون عرفوا البكتيريا ٧١٠
ظهور العلوم المعاصرة بفضل القرآن ٣٧٦
اعتراف الغربيين بفضل المسلمين في نشر العلوم ٣٧٧
تعلمت أوروبا الفلسفة من المسلمين ٣٧٨
ثورة العلوم في الزمن الراهن ٥٦٩
تقدم العلوم الطبيعية الحالية ٥٧٥
تقدم الجيولوجيا ٥٧٦
نظام الاقتصاد الحالي يؤدي إلى الحروب ٥٧٠-٥٧١
معرفة علم الغيب من فطرة الإنسان ٣٧
تعلمت أوروبا علم الموسيقى من مسلمي إسبانيا ٣٧٧
للنباتات حاسة وحياة ٢٩٥

علم النفس (راجع النفس أيضًا)

النكات المهمة لعلم النفس ٨١، ١٧٤
علم التحليل النفسي ٢٨٣-٢٨٤
تأثير توارد الأفكار في أعمال الإنسان ٤٤٢
دحض القول أن الذكاء المفرط علامة الجنون ٣٢٤
المغتاب جبان حقيقةً ٧٧٠
تفكير وتصرفات الحكام المؤقتين ٥٢٠
إنكار الصدق أخطر من ضرب الناس ٧٧١
الإسلام لا ينكر تأثير البيئة في الإنسان ٢٨٦
الأمراض النفسية الخاصة بالغربيين ٢٨٥
معالجة المرضى النفسيين بالتحليل النفسي ٢٨٥

علم الفلك

علم الفَلك والقرآن ٣٠
تقدُّم علم الفلك في الزمن الراهن ٥٦٩
قانون التطور في الكون ٣٥٣
إنكار غاليليو نظرية دوران الشمس حول الأرض ١٩٨
كثرة المعلومات عن الكواكب باختراع المطياف ٣٠
الكواكب غير صالحة لحياة الإنسان ٣١

العمل (راجع الجزاء أيضا)

أي عمل في حد ذاته ليس قبيحًا ولا حسنًا ٧٥٨
تعريف الإيمان والعمل الصالح ٣٠٠
العمل الصالح يعني أداء حقوق الله وحقوق العباد ٧٥٤
أهمية المشاعر السليمة للعمل السليم ٨١
الفرق بين العمل الصالح والعمل الحسن ٧٥٥-٧٥٦
الصوم في الجهاد ليس بعمل صالح ٧٥٦
ضرورة العمل إيمانًا واحتسابًا ١١٤
إطعام الزوجة صدقةٌ ٥١٧
لا يضيع أي عمل صالحًا أو طالحا ٦٣٢
حساب الأعمال وجزاؤها ٦٣٥-٦٣٦
الحسنات يُذهِبن السيئاتِ ٦٣٦
الثواب بحسب نوعية العمل لا كميته ٥٤٩
العمل لا ينفع دون فضل الله ٦٤١-٦٤٢
هل يولد الإنسان عقابًا على أعماله السابقة؟ ٢٤٦
لن ينجو أحدكم بعمله (الحديث) ٦٤١
نبأُ تشكُّل نقابات العمال في الزمن الأخير ٦٢٤
إضرابات نقابات العمال وتأثيرها ٦٣٠
العمل الجماعي أكثرُ ثمرًا من الفردي ٦٢٨

الغرب

لا يعتبرون غيرهم بشرًا ٧٥٠
وجودُ نبيٍّ الوسيلةُ الوحيدة لإثبات خطئهم ٧٥٠

الغزوات/ السرايا

نتائج غزوات النبي ﷺ ظهرت خلال ساعات ٦٦٥- ٦٦٧
لم يهاجم الصحابة ﷺ دون إعلان قط ٦٥٨
تدرُّب الصحابة ﷺ على القتال ٦٦٣
نبأ الغزوات الإسلامية في سورة العاديات ٦٥١
سُنة النبي ﷺ في الغزوات ٦٥٧
شارك النبي ﷺ في سبع وعشرين غزوة ٦٦٧
بعث النبي ﷺ ثماني وثلاثين سرية في حياته ٦٦٧

غزوة أحد

هجوم أهل مكة على المسلمين ٦٨٠
خروج ألف صحابي مع النبي ﷺ ١٢٦
خرج عبد الرحمن بن أبي بكر مع الكفار ٧٨٤
أخطأ بعض الصحابة بتركهم مقاعدهم للقتال ١٠٨
تفرَّقَ الصحابةُ وجُرح النبي ﷺ ١٠٨
ثبات النبي ﷺ في القتال ١٠٨
يقين النبي ﷺ بوعد الله في أوقات عصيبة ١٦٨
غيرة النبي ﷺ على الله ﷻ ١٠٩
نماذج فداء الصحابة ١٢٧

غزوة الأحزاب (الخندق)

اعتداء أهل مكة على المسلمين ٦٨٠
حصار الكفار المدينةَ ١٧١
ثلاثة آلاف صحابي مع النبي ﷺ ١٢٦
ظروف المسلمين الصعبة ونصرة الله ١١٠
كان القتال للدفاع فقط ٦٦٦

غزوة بدر (الأولى والثانية)

هجوم أهل مكة على المسلمين ٦٨٠
حدثت في السابع عشر من رمضان ٤٥٠
رافق فيها النبي ﷺ ٣١٣ صحابيا ١٢٥
كان عند المسلمين فيها حصانان فقط ٦٥٠
قتل أبي جهل على أيدي صبيين أنصاريين ٣٩٥، ٧٨١
انتهت المعركة بقتل أبي جهل في الحقيقة ٦٦٧
إخلاص الصحابة ١٢٧
حماس الصحابة ﷺ للاستشهاد ٧٦٥
سبب عدم مشاركة معظم الصحابة المخلصين فيها ٧٨١
قرار أهل مكة بعدم العزاء لموتاهم ٧٨٥

غزوة خيبر ٤٧٦

قتال اليهود متحصنين ٦٦٦

غزوة غطفان

بدوي يسلّ السيف على النبي ﷺ ١٧٠

الغيبة

تعريف الغيبة ٧٧٣
الفرق بين الغيبة والبهتان ٧٧٣
مثال المغتاب (الحديث) ٦٣٢
المغتاب جبان ٧٧٠

"غيرُ المبايعين" ٣٧٩، ٤٩٢

دحض قولهم بعدم ضرورة بعثة رسول ٥٠٢
دحض زعمهم أن النبي لا يكون تابعًا ٥٩٩
الرد على قضية مختلف فيها ٤٨٤

الفداء

الرد على عقيدة الفداء ٢٥٩، ٢٦٩-٢٧٠
دليل على بطلانها ٢٨٢
كفّارة أخطاء الأجداد ٧٣١

الفطرة

الفرق بين العادة والفطرة ٤٦
ما يتولد في قلب المرء في ظروف معينة ليس فطرةً ٥٣
الحب والكره في الفطرة الإنسانية ٣٦٧

الاستخدام الصحيح للقوى الفطرية هو الإيمان والعمل الصالح ٣٠٠
الاستخدام الخاطئ لمتطلبات الفطرة يحوّلها سيئة ٢٥١
كل مولود يولد على فطرة الإسلام (الحديث) ٢٨٢
نظريات مختلفة عن فطرة الإنسان ٢٤٥-٢٤٦
الإسلام وحده يرى أن الإنسان لا يولد بفطرة سيئة ٢٤٧
الرد على نظرية فرويد حول فطرة الإنسان ٢٨٢
تُتاح فرصة ثانية لمن لم تَنْمُ فطرته جيدًا بتأثير الظروف ٢٨٦
إمكانية إصلاح الفطرة المشوهة ٢٨٥-٢٨٦
حادث الخليفة الأول عن إصلاح فطرة ممسوخة ٤٧-٤٨
التعاليم الحقة تتفق مع الفطرة السليمة ٥٢
ينـــزل الوحي الإلهي لتنمية القوى الفطرية ٥٢
وجوب إظهار المواهب الفطرية ٥٢-٥٣
الإلهام الفطري يكون مجملا ٥٠

الفقه

الفقهُ استنباطُ مسائل ليس عنها نصّ مباشر ٥٠٤
اعتبار النبي ﷺ شهادة صحابي شهادتين ٦٢١
إصلاح الإسلام للتعقيد الفقهي لدى أهل الكتاب ٥٠٥
الإباحية نتيجة التعقيد الفقهي ٥٠٤
تضارُب آراء المسلمين في الأمور الفقهية ٥٢٢

الفيدا "كتاب الهندوس"

لم يُدوَّن الوحي النازل على "الريشيين" في حياهم ٣٧٤
الفيدا يحتوي على كلام فاحش أيضًا ٥٠٦

القبض والبسط

حالتا القبض والبسط ضروريتان لرقي الإنسان ١١٤- ١١٦

القرآن

نبأ عيسى عليه السلام عن نزول القرآن ٢٦٦
المراد من كونه كتابًا مكنونا ٥٠٨
القرآن خرج من نفس محمد المطهّرة ١٩
فيه حوالي ست آلاف آية ٧٠٦
هل نزل القرآن لدعوة أهل الكتاب أم لا؟ ٤٧٩
الحقائق القرآنية التي ذكرها المسيح الموعود عليه السلام ٣٨١
سببُ عدم فهم المستشرقين للقرآن ٣٢٥

نزوله

بداية نزوله ٤٥٣
سورة العلق أول سورة نزولا ٣٢١
أنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان (الحديث) ٤١٢
المراد من نزوله في رمضان ٤١٢
هل نزل القرآن دفعة واحدة أم خلال ٢٣ سنة؟ ٤١١
حكمة نزوله على فترات ٤١٦
معنى نزوله ثانيةً عن طريق "ظلّ" النبي ﷺ ٤٤٠

غاية نزوله

الهدف من نزوله ٥١٣
نزل لإرساء دعائم النبوة وتقوية الإسلام ٧١٣

قراءاته المختلفة

المراد من نزوله بالقراءات السبع ٦٥
اختلاف القراءات يدل على سعة معانيه ٧٢
نشر عثمان رضي الله عنه المصحف بقراءة الحجاز ٦٧-٦٩
حقيقة المصحف العثماني رضي الله عنه ٦٧
حقيقة اكتشاف نسخه الثلاث في حلب ٧٢-٧٣

ترتيبه

للقرآن ترتيبان ٣٤١
ينسب المستشرقون ترتيب السور إلى عثمان رضي الله عنه ٤٧٦

صدقه

دليل على صدقه ٢٨٥

دليل على كونه كلام الله ٣٠

تعاليمه

يحتوي على تعاليم جميع الأنبياء ٥١٠، ٥٤١
خلاصة تعاليمه ٤٢٩
لم يركّز أي كتاب على حب الله أكثرَ منه ٣٦٩
ذكَر الأخلاق الفاضلة المتعلقة برقي الأمم ٧
نهى عن الرهبانية ٥٢
قسَم الناس جميعًا إلى مشركين وأهل كتاب ٤٧٨
فيه الرد على مذهب الجبر ٢٨٧
ليس فيه آية تؤيد حياة المسيح ١٩٤

فضائله

أفضلية القرآن ٤٦٠
هو خاتم الكتب وآخرها ٤٣١
هو صحف مطهرة ٥٤١-٥٤٢
هو غاية الكون ٣٤٩
هو مميز عن الكتب الأخرى ٣٤٣
شريعته كاملة ٤٦٦
شريعته خالدة وهدى لكل زمان ٧٧٢
معجزته العظيمة ٣٢٣
إعجازه ٣٢١
يراعي جميع الطبائع ١٩٦
تأثيره في الطبائع ١٩٦-١٩٧
هو مناط الحياة المتسمة بالإيمان ٥٤٩
هو دستور العمل إلى يوم القيامة ٧٧٢
يحتوي على أخبار رقي الأمم وانحطاطها ٤٠٦-٤٠٧
تعاليمه الحكيمة قابلة للعمل ٤٣٢-٤٣٣
تعاليمه الجذابة ١٩٦
هو جامع لجميع العلوم ١٧٩
هو جامع لعلوم لم ترد في الكتب السابقة ٣٧٦، ٣٧٨
أحيى العلوم في العرب ٣٧٦
فيه علم الفَلَك ٣٠
نجح في القضاء على الشرك ٥٠٩
لم يقصّر في بيان المطالب المقصودة ٥٠٦
برّأ ساحة عيسى عليه السلام ٢٦٧

كتاب محفوظ وغير محرف

محفوظ إلى يوم القيامة ١٢١-١٢٢
حرّف الناس جميع الكتب إلا القرآن ٢٦٧
اعتراف المستشرقين بعدم تحريفه ٣٤٣، ٣٧٦
ثبوت لعدم تحريفه ٧٢-٧٣

فصاحته وبلاغته

القرآن تاج الفصاحة والبلاغة ٥٧، ٧١١
لغته مبرّأة من العيوب ٢٦٧، ٥٠٥
يراعي أساليب العرب ٢١٨
الفرق بين القرآن وكلام أدباء العرب ٢٠٩
اعترافُ مستشرق بجاذبية لغته وأسلوبه ٥٠٥
القرآن ذو وجوهٍ وبطونٍ كثيرة ٧٣٥
فرّق بين ليل وليلة ٤٠٧-٤٠٨
مناسبة استخدام "وما أدراك" ٧٨٠
المراد من السماء في القرآن ٣٣

أنباؤه

في "اقرأْ" نبأُ كتابتِه وقراءته ٣٤٢
نبأُ كتابةِ علومه بكثرة ٣٨١
نبأ الهجرة وفتح مكة في السور المكية ١٠٢
فيه نبأُ تغيرات عظيمة في آخر الزمان ٥٥٨، ٥٧١
لا يبقى من القرآن إلا رسمه (الحديث) ٤٤٠
ردُّ المسيح الموعود عليه السلام على اعتراضات المستشرقين
على أنباء القرآن ٣٢٥

القلب

علاقته بالوحي والإلهام ٣٢-٣٣

لا يطمئن القلب بالعلوم المادية بل يتطلع إلى علم ما
وراء الطبيعة ٣٨

القمر

ضوء القمر مستعار من الشمس ١٩
خصائصه في الانعكاس ١٥
مدارج القمر: الهلال والقمر والبدر ١٦
القمر بمعنى النبي التابع غير المشرع ١٨
ميزات النبي ذي الصفات القمرية ٢٥
أشخاص اكتسبوا نورًا من النبي ﷺ ٢٠

القنبلة النووية

نبؤها في القرآن ٦٩٦
تأثيراها المدمرة ٧٠٣، ٧٢٤
إلقاؤها على "هيروشيما" و"ناجازاكي" ٦٩٦
اعتبرها القساوسة آية إلهية ٥٢٢
سيدمَّر العالَم إذا لم نتحلَّ بالأخلاق بعد اكتشاف
القنبلة النووية (الجنـــرال ميكارثر) ٧٥٠

القيامة

القيامة الكبرى ٥٥٧
القيامة بمعنى الحوادث المقدر ظهورها في زمن المسيح
الموعود ٥٥٧

الكتاب المقدس ١٩٨

هو كتاب بني إسحاق وتاريخهم ٤٤٥
هو خليط من كلام الله وكلام البشر ٢٦٧
تنبأ بظهور النبي ﷺ من فاران ٢١٣، ٢١٩، ٣٥٧
يعتبر الأنبياءَ السابقين صادقين ٢٥٨-٢٥٩
صمتُه عن كيفية تجديد عهد الله مع إبراهيم ٤٤٣
ناقص في بيان علوم الدين ٣٨٠
فيه ردٌّ على عقيدة الفداء ٢٥٥
يحتوي على التعاليم القاسية ٥٠٦
فيه كلام فاحش ٥٠٦

الكشف (انظر الوحي أيضًا)

﴿مِن وراء حجاب﴾ يعني الرؤى والكشوف ٦٠٦
حكمة الرؤى والكشوف مقابل الوحي ٦٠٩
حقيقة الكشف ٣١٣
يمكن أن يشترك في الكشف أكثر من شخص ١٨٢
الغرب لا يفهم حقيقة الكشف ٣١٣
شق صدر النبي ﷺ كشفٌ ١٨٢-١٨٣، ١٨٥
كشف رآه المفسِّر عن أنوار ليلة القدر ٤٥٦
رؤية النبي ﷺ نفسه على الجبال في الكشف ٣١٨
رأى النبي ﷺ أن العسر يركض وراء اليسر ٢٠٢
رؤية الصحابة ﵃ جبريل عليه السلام ١٨٢
تحقُّق بعض كشوف المسيح الموعود عليه السلام ٦١٣
كشف للمسيح الموعود عليه السلام سقطت فيه قطرات
حمراء على قميصه ١٨٢

الكَفّارة (انظر الفداء)

الكُفر

نوعان للكفر: جهلاً وعمدًا ٥٤٠
أكبر مانع في قبول الحق ٨٩
سببُ الكفر والبُعد عن الله ٧٠٥
النبي لا يجعل الناس كافرين بل يكشف كفرهم ٤٨٩
الفرق بين الكافر وأهل النار ٤٨٤
مثلُ طالبي الدنيا ٨٩-٩٠
رذائل كفار أهل مكة ٣٩٥-٣٩٦، ٦٨٤
يفتخر الكفار بأكثريتهم ٧٣٦-٧٣٧
عقم الكفار ٧٩
نبأُ هزيمة الكفار ٧٣٧
نبأُ غلبة نظام الإسلام على النظم الأخرى ٦٢٩

كلام الله (انظرْ الوحي والإلهام أيضًا)

لماذا يسمى كلام الله وحيًا؟ ٦٠٣
يشتمل كلام الله على الظاهر والمجاز ٦٢٢
الكلام الخالد يكون باللفظ وليس بالصورة ٦١١

الكون (راجع الأرض والشمس والقمر أيضًا)

سعته ٥٦٩

الكونفوشوسية ٧٤٩

اللاهوريون (راجِع: "غيرُ المبايعين")

ليلة القدر

حقيقتها ٤٢٣
ذكرى عهد الله ﷻ مع المسلمين ٤٤٣
ستة معانٍ لليلة القدر ٤٣١
إحدى علامات ليلة القدر ٤٥٦
لا يراها إلا المتقون والصالحون ٤٦٣
روايات تحدد ليلة القدر ٤٤٩-٤٥٢
هل ليلة القدر ليلة معينة؟ ٤٤٩
حكمة عدم تحديد ليلة معينة ٤٥٣
تقع في العشر الأواخر ٤٥٢-٤٥٣
إنها ليلةُ سابعةٍ أو تاسعةٍ وعشرين (الحديث) ٤٥٠
من معانيها زمن يأتي فيه النبي الموعود أو تنـــزل فيه الشريعة الموعودة ٤٣٠-٤٣١
من معانيها ليلة من رمضان نزل فيها القرآن ٤٠٨
من معانيها زمنُ نمو الحسنات الفطرية ٤٥٧-٤٥٨
من معانيها ليلة يستحق فيها المؤمن الجنة ٤٥٤-٤٥٥
من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا... (الحديث) ٤٤١
غفران الذنوب في ليلة واحدة فحسب؟ ٤٤٢
هي مستمرة إلى يوم القيامة (الحديث) ٤٥٠

المال (راجع أيضًا التبرعات)

استغلال البلاد الفقيرة بالنظام الاقتصادي الجديد ٥٧٠
قصة صحابي فقير ٦٤٥
تضحيات الأحمدية بالنفس والمال لنشر الإسلام ٤٠١
وهب الله للأحمدية الإيمان والعلم والمال ١٩٢

المجاز

المجاز والاستعارة في كلام الله ٦٢١
لا بد من قرينة في الكلام المجازي ٦٢٣

المجدد

خبر بعثة المجددين في الأمة المحمدية ٤٤٠، ٤٦١
نطاق عمل المجددين محدود ٤٦٧

المجوس (راجع الزرداشتية)

أسلمَ ٩٥ بالمائة من المجوس ٤٩٤

المسجد

المسجد ومعابد الآخرين ٥٠٣
أهمية الصلاة في المسجد جماعةً ٥٣٥
الرماية في المسجد النبوي ٦٦٣
لا يَبقَيَنَّ في المسجد نافذةٌ إلا سُدّتْ..." ١٣٥
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (الحديث) ٥٢٠
المسجد الأقصى ٢١١
مسجد نوح ٢١٢

المسكين

ضرورة مساعدة الفقراء والمساكين ٧، ١٥٢، ٦٤٢
رغبة النبي ﷺ في إعانة المساكين ١٤٩، ٥١٩
من يسعى لمساعدة المساكين ٥٣٥
إهمال أهل مكة المساكين ٦٦٨-٦٧١، ٧٢٠
إهمال المساكين أحد أسباب هلاك الأمم ٧٢٧
معاني ﴿ويطعمون الطعام... مسكينا﴾ ٦٤٢- ٦٤٣

المسلمون (راجِع الإسلام)

المسيحية/المسيحيون

مثل اليهودية والمسيحية والإسلام ٧٥٤-٧٥٥
انتظار المسيحيين ظهور "فارقليط" قبل بعثة النبي ﷺ ٥١١
شعوب من أهل الكتاب أسلمت ٤٩٤
لم يسمِّ الله المسيحية بهذا الاسم ٣٦٠
المسيحية لا تحظى اليوم بتأييد الله ٧٤٩
تبشير ورقة بن نوفل بالمسيحية قبل بعثة النبي ﷺ ٢٠٠
نهى المسيح حوارييه عن التبليغ في غير بني إسرائيل ٣٦٣
تنفق المسيحية عشرات الملايين على التبشير ٦٢٩
احترام يحظى بها القساوسة في المسيحية ٥٢٩
المسيحيون لم يتطوروا إلا بعيدين عن الدين ١٢٠
تعصُّب المسيحيين ٣٧٧
تكفيرهم واستتابتهم لغاليليو ١٩٨
دحض مطاعن المسيحيين بصدد بدء وحي للنبي ﷺ ٣١١، ٣٣٣
تعصُّبُ القساوسة ضد الإسلام والنبي ﷺ ٤
اعتراف لوقا أن الأناجيل مجموعة روايات ٣٤٣
اعتراف المسيحيين أن التوراة خاصة باليهود ٣٦٢
عجزهم عن بيان أمور النبوة والحياة بعد الموت ٣٧٩-٣٨٠

عقائدها

تحريف المسيحيين لعقائدها ٣٦١
ادعاؤهم بالتوحيد مع التثليث ٥٧٤
إساءتهم إلى وحدانية الله باتخاذ ابن له ٣٤٤
الرد على توارُث الخطيئة ٢٥٥، ٢٥٨
الرد على عقيدة الفداء ٢٥٩، ٢٦٩-٢٧٠
دحضُ زعمهم أن الأنبياء السابقين آمنوا بالفداء ٢٦٠
أمرٌ لا بد من مراعاته عند نقاش المسيحيين ٢٦٠
عقيدتهم أن الشريعة لعنة ٣٥٢، ٥٢٢
اعتبارهم المسيحَ عليه السلام ملعونًا ٢٦٧
تسلُّط الشيطان على يسوع وفق الأناجيل ٣٣٨
انتهاكهم الشريعةَ الموسوية وأوامر المسيح ٥٢١-٥٢٢
لم يكن المسيح غاية خلق العالم ٢٦٨
تضارُب عقائد المسيحية حول غاية خلق الكون ٣٥١-٣٥٢
زعمهم أن العهد الإبراهيمي كان لبني إسحاق فقط ٤٤٣
اعتبارهم يوسف النجار أبًا لعيسى عليه السلام ٢٦١
تركُهم الختان ٤٤٢
غيّروا يوم السبت إرضاءً للرومان ٣٦١
لعنهم الله لجعلِهم قبور أنبيائهم مساجد ٥٢٠
مبالغتهم في تعليم الرفق ٥٠٤
مبالغتهم في بيان قصة الصلب ٢٧٦
تحريفهم أحكامَ الشرع أيام رقيهم ١٢٣
اعتبارهم النظم السياسية الغربية مطابقةً لتعاليم المسيحية ٥٦٢
اعتبارهم القنبلة النووية آيةً إلهية ٥٢٢

المسيحيون (راجع المسيحية)

المصلح الموعود رضي الله عنه (أحد ألقاب المفسِّر) ٤٧٧

المعتزلة ٤٨٣

يعتبرون أهل الكتاب مجموعة ثالثة سوى المؤمنين والكافرين ٤٨٦

المعجزة

إعجاز القرآن الكريم ٣٢١، ٣٢٣
قول المسيح "لا تعطى لهم آية إلا آية يونان النبي" ٢٧٠
معجزة المسيح الحقيقية آيةُ يونان النبي ٢٧١

المعراج

حكمة استخدام اللغة التصويرية في المعراج ٦١٠

الملائكة

ليس لدى الناس معرفة كافية عن الملائكة ٣٨٠
الملائكة هم أهل السماء ٦٠١
الملائكة وسيلة لرقي الإنسان ٧٠٨
تنــزل الملائكة لتأييد المبعوث الرباني ٤٦٤
نزولهم مع كل وحي للنبي ٥٩٢
هي لا تحتاج إلى أدوات مادية لإنجاز مهامها ١٨١
إذا أحبَّ الله عبدًا أمر ملائكته أن يحبّوه... ٢٠٠
الصورة التي يتمثّل بها الملا تدل على نوعية الوحي ٥٨٦
هل الإنسان أفضل من الملائكة؟ ٢٤٠
النبي أفضل من الملائكة ٢٤١
دورها في حادث شق الصدر ١٨٠
لم يكن في قلب النبي سواد أزالته الملائكة ١٨٦

المؤمن (راجع الإيمان)

النبوة

ضرورة النبوة ٥١٦
ضرورة الأنبياء مع وجود كتاب شرعي ٥٠١
النبي أكبر وسيلة لليقين ٧٦٣
النبي يكون مرجوًا عند الناس قبل بعثته ٤٢
النبي أفضل من الملائكة ٢٤١
وجود النبي الوسيلة الوحيدة لإثبات خطأ الغرب ٧٥٠
الرد على أن النبي لا يكون تابعًا لأحد ٥٩٩
كل نبي بمنــزلة مرآة لوحيه ٤١٧
إنكار نبي واحد كإنكار الأنبياء جميعًا ٤٩١
كل نبي يعطى ثباتًا خارقًا بأول وحيه ٥٩٣
ينال الأنبياء مرتبة حق اليقين ١٦٥
في زمن النبي يصدر قانون جديد لرقي الأمم ٧٤١
نزول العذاب لتصديق الأنبياء ٦٩٧
نجاحهم دليل على خلق الإنسان في أحسن تقويم ٢٨٦
حياة الأنبياء الشخصية والاجتماعية ١١٨
فائدة معارضة المعارضين للأنبياء ١٩٧
إلهام الفطرة مجمل وإلهام النبي مفصل ٥٠
لا ينــزل الوحي على النبي دفعة واحدة ٤١٩
ينقطع الوحي عن الأنبياء لبعض الوقت ٩٨
وعيد العذاب للمدعي الكاذب بوحي النبوة ٥٩٦
اعتقاد الصوفية بأن الوحي خاص بالأنبياء والمرسلين ٦٠٧
الإسلام فصّل النبوة أكثر من الأديان الأخرى ٣٧٩

غرض بعثة الأنبياء

الهدف مِن بعثتهم ٤٩٣-٤٩٤، ٧٠٦
مهمتهم الأساسية ٣٤٢
غرض بعثتهم كمؤسسين ومصلحين ٤٣٥
يجعلون الإنسان مظهرًا لصفات الله ٢٩٧
حدوث الثورة ببعثة نبي ٧٦٣
يُبعثون لإثبات ألوهية الله ٧٤٥
نزول الأنوار والبركات والوحي مع بعثة الأنبياء ٤٧٠
تغيُّرانِ عند بعثة النبي ٤٧٠
الوقت المناسب لبعثة النبي ٤٣٨
وقت بعثة الأنبياء العظام ٤٣٧

أنواع النبوة

الأنبياء قسمان: قسم للتأسيس وقسم للإصلاح
٤٣٥، ٣٣٨
صفات النبي المشرّع والنبي التابع ٢٥
هل يمكن تفوُّق نبي تابع على نبي مشرع؟ ٢٥
الفرق بين المدعي الصادق والكاذب ١٩١-١٩٢

الأنبياء العظام

خمسة أنبياء عظام من نسل إبراهيم ٤٢٠-٤٢١
ذكرُ ثلاثة أنبياء عظام في التوراة ٢١٢-٢١٣
أربعة أنبياء لم يرتكبوا إثمًا خلال ثمانين سنة عند اليهود
٤٠٤
تنبأ المسيح عن ذلك "النبي" قبل بعثته الثانية ٣٦٤

تمثيل للمسيح يدل على انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل ٢٦٥

النبوة المحمدية

كان الأنبياء يُبعثون في أقوامهم قبل بعثة النبي ﷺ ٤٨١
الفرق بين بدء وحي النبي ﷺ وغيره من الأنبياء ٣٣٣
"والعصر" يعني زمان النبوة المحمدية ٧٣٥
عقيدة قاسم النانوتوي بمجيء نبي غير مشرع بعد النبي ﷺ ٥١٢

جماعة النبي

مقام المؤمنين بالنبي ٤٥٩-٤٦٠
النبي ينفخ في جماعته روحًا منقطعة النظير ٤٦٥
ثمرة طاعة النبي ٥١
السنة الإلهية عن رقي جماعات الأنبياء ٤٧٤
يتوقف رقي الجماعات الربانية وإحياؤها على الأنبياء ٧٤٧
المؤمنون يزدهرون بالأسباب الروحانية في زمن النبي ٧٤٥
قوم النبي ينال العزّ الروحاني والمادي ٧١٦
لا يؤمن بالنبي في البداية إلا البسطاء ٧٣٥
المؤمن يؤسس عقائده على اليقين ٧٦٣
يأمر الله ببقاء جماعة المؤمنين منفصلة عن الكفار ٢٢٤
النبي لا يجعل أحدًا كافرا إنما يُظهر كفره ٤٨٩
"مطلع الفجر" بمعنى زمن الغلبة الذي يبدأ بوفاة النبي ٤٦٩
نتائج البُعد عن زمن النبوة ٧١٧
حال أتباع النبي بعد انتهاء فترة فيوضه ٤٩٣
تنـــزل الملائكة لتأييد المبعوث الرباني ٤٦٤
يخلُق الله ظروفا قبل بعث المبعوث تدفع الناس إلى الإيمان به ٦١٨-٦١٩
النبأ الذي يكون آيةَ صدقِ المبعوث لا يلغى أبدًا ٥٨١
يكون المبعوث مرجع الخلائق ٤٢
فائدة الإيمان بالمبعوث ٧٦١
خصائص الجماعة المؤمنة بالمبعوث ٧٥٨

بعثة المجددين لإحياء الإسلام وخدمة القرآن ٤٦٤
بعثة مثيل النبي ﷺ في الأمة ٥٨٢

النجاة (راجع أيضًا الجزاء)

النجاة منوطة بفضل الله لا بالعمل ٦٤١-٦٤٢
يدبر الله النجاة لمحبه وعاشقه ٦٤٥
دحضُ اعتقاد البوذية أنْ لا نجاةَ إلا بترك الأماني ٢٤٨
عقيدة المسيحية أن النجاة منوطة بالإيمان بفداء المسيح ٢٤٥

النجاح (راجع العمل أيضًا)

نجاح الإنسان منوط بيقينه ١٦٣
وسائل النجاح ١٨٧، ١٩٣

النصارى (راجع المسيحية)

النفاق

سبب عدم وجود منافقين في جماعتنا زمن المسيح الموعود ٣٣١

النفس

في كل إنسان نفسٌ لوّامة ٤٥
النفس اللوامة دليل على وجود الله ٤٧
ضرورة النفس الكاملة في كل عصر ٥٠
النفس الكاملة تكون مرجعًا للناس ٤٣
في الإنسان ما يُشعره بالخير والشر ٤٨-٤٩
التمييز بين الخير والشر ٤٦
شغف الإنسان بمعرفة ما وراء الطبيعة ٣٨
التحليل النفسي للإلحاد ٣٩
مناجاة النفس ٧٣٣
لماذا يكسر الطفل لعبته ٣٥، ٣٩
يبدأ الأولاد بالتساؤلات عند نشوء الدماغ ٣٥
أثر الرؤى على أحوال الإنسان الطبيعية ١٨٣-١٨٤
أصلحَ الخليفة الأول ﷺ سارقًا بتحليله النفسي ٤٧

الهجرة

هجرة آدم الطَّيْلاً ٢٢٤، ٢٣٣
نبأ الهجرة وفتح مكة في السور المكية ١٠٢
هجرة النبي ﷺ بشجاعة ١٦٩
شجاعته في غار ثور وغزوة أحد ١٠٨
قلق أبي بكر على النبي ﷺ في غار ثور ١٠٣، ١٦٢
أثر هجرته ﷺ على المؤمنين والمنكرين ٢٢٠-٢٢١
زعيم يجيره حين أراد الهجرة وحده ١٩٦
هجرة بين إسرائيل ٢٣٤

الهدى

قسمان للهدى: الشرعي والفطري ١٤٤
كان الهدى أولاً ثم أتى الضلال ٢٩٨

الهندوسية

رقيُّها بكرشنا وإحياؤها برام تشندر ٧٤٧
تشترط للعبادة شروطا لا تطاق ٤٣٣
دحض عقيدة التناسخ والكارما عندها ٢٤٦، ٢٩٠
دحض زعمها أن الشريعة الكاملة نزلت منذ البداية ٣٥٣
لا يمكن لأهلها إثبات مَن نزل عليه الفيدا من الريشيين ٣٥٤
انقطع الوحي بعد الفيدا بحسبها ٣٥١
عقيدة بعثة كرشنا الثانية في العالم ٤٣٨
إيمان فرقتي البرهموسماج والآريا بالتوحيد بتأثير الإسلام ٥٠٩

الوحي

تعريف الوحي لغةً واصطلاحًا ٥٧٨
تعريف الوحي وأقسامه ٥٨٠
سبب تسمية كلام الله وحيًا ٦٠٣
الوحي من خواص الأنبياء ٦٠٨
ثلاثة أنواع للوحي ٦١٢
ثلاثة وعشرون نوعًا للوحي ٦١١-٦١٧
الوحي اللفظي أفضل أقسام الوحي ٦١٥
الإلقاء في الروع من أقسام الوحي ٦١٧
وحي إعلام ووحي إلهام ٥٧٩
الوحي المتلو وغير المتلو ٦٠٨
الوحي الخفي والجلي ٥١
الوحي الخفي يتعلق بأمور الغيب لا بالأحكام ٦٢١
وحيُ تسخير ٥٨٨
نظرية المفسِّر ﷺ عن الوحي ٥٨٩، ٦٠٦، ٦٢١
لا فرق بين الوحي والإلهام ٥٨٩-٥٩١
كلام الله المنـــزل على الأولياء وحي ٥٨٤
نزول الوحي على الصوفية ٥٩١
ضرورة الوحي ٣٣-٣٤
الوحي ينمّي القوى الفطرية ٥٢
قانون التطور في الوحي والإلهام ٣٥٣
نزول غيث الوحي مع بعثة النبي ٤٧٠
وحي الشرع لا يُنسى أبداً ٥٨٣
الفرق بين حالة نزول الوحي وحالة الجنون ٣٢٠
الوحي ينـــزل بعظمة وسرعة ٥٨٣
استيلاء الخشية على الموحى إليه وقت النـــزول ٣١٩
حكمة الوحي "من وراء حجاب" ٦٠٨-٦٠٩
المراد من "الوحي إلى السماوات والأرض" ٦٠١
تصحيح أخطاء "الراغب" حول الوحي ٥٨٩
ضرورة الوحي بعد العقل الإنساني ٣٨٢
وحي الفطرة مجملٌ ووحي النبي مفصّلٌ ٥٠
كل نبي مرآةٌ لوحيه ٤١٧
نزول الملائكة مع كل وحي للنبي ٥٩٢
نزول الوحي على القلب أو اللسان ٦١٦
استيلاء الخشية على الموحى إليه وقت الوحي ٣٩١
وحي الفطرة ووحي النبي ٥٠
فهم معاني الوحي من ترتيبه ٩٦

التوحيد لا يثبُت إلا بالوحي ٤٧٨
حقيقة إلهام النفس بفجورها وتقواها ٤٥
خطأ الناس في فهم معنى الوحي ٥٩١-٥٩٢
الفرق بين الإلهام والإعلام ٥٩٠
الخواطر القلبية وحي عند البهائيين ٦١٨
لماذا لم ينـــزل العذاب على بهاء الله رغم ادعائه الوحي؟ ٥٩٦
الفرق بين كلام الله ﷻ وكلام الأدباء ٢٠٩
دحضُ الزعم أن الوحي خواطر قلبية ٥٧٩
الفرق بين الوحي الكاذب والوحي الصادق ١٨٤- ١٨٥
"رمضان" بمعنى سلسلة الوحي مجازا ٤٢١
انقطع الوحي وبقيت المبشرات (الحديث) ٥٩١
عقيدة الهندوس واليهود عن انقطاع الوحي ٣٥١
وعيد العذاب للمدعي الكاذب للوحي ٥٩٦
ضرورة المجاهدات من أجل الوحي ٥٠
لم يكن أهل مكة يؤمنون بالوحي ١٨٨
المشركون الذين ينكرون الوحي ٤٩٦
إمكانية تقدُّم الأمم البعيدة عن الوحي ماديًا ٧٤٨
الفرق بين الإلهام والوحي لدى الصوفية ٥٩١-٥٩٢، ٦٠٨
لا فرق بين الإلهام والوحي في الشرع ٥٧٩، ٥٩١

حادث بدء الوحي على النبي ﷺ

حديث عن بدء الوحي ٣٠٥
الفرق بين روايات البخاري وأحمد ٣٠٦
تحليل رواية ابن هشام ٣١٥
بدء الوحي على النبي ﷺ مسألة هامة ٣١٠
الفرق بين بدء وحي النبي ﷺ وغيره من الأنبياء ٣٣٣، ٣٣٧
أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤى الصالحة ٣٠٥
يعتبر ابن هشام حادث بدء الوحي رؤيا ٣١٢
اعتراضات غير المسلمين على حادثة بدء الوحي ٣١١
سبب ادّثار النبي ﷺ بعد نزول الوحي ٣١٩

فترة انقطاع الوحي

انقطاع الوحي على النبي ﷺ فترةً ٣٠٦، ٣٠٨، ٥٨٥
أثر انقطاع الوحي على قلب النبي ﷺ ٣١٨
قول الكفار ضد النبي ﷺ خلال ذلك ٩٥
انقطاع الوحي عن كل نبي لفترة ٩٨
حكمة هذه الظاهرة ٩٧

المتفرقات عن الوحي

بدأ الوحي من آدم عليه السلام ٣٤١
الوحي إلى أم موسى عليه السلام ٥٧٩
الوحي إلى هارون عليه السلام ٥٩٩
الوحي إلى حواريي عيسى عليه السلام ٥٧٩
نزول الوحي المنـــزل على النبي ﷺ ثانيةً على المسيح الموعود عليه السلام ٥٨١

إلهامات للمسيح الموعود عليه السلام

"أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا..." ٣٣٢
"إني مع الأفواج آتيك بغتة" ٥٩٢، ٦١٤
"تلطَّفْ بالناس وترحَّمْ عليهم" ٣٣١
"أنت فيهم بمنـــزلة موسى واصبرْ..." ٣٣١
"جاءني آيل" ٥٩٢، ٦١١
"قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم..." ٣٢٩
"لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب..." ٣٢٩-٣٣٠
"وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض..." ٣٣٠
"قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق...." ٣٣٠
"العدو أيضا نجح في هجوم له" ١٠٥
"جاء نذير إلى الدنيا ولكنها..." ٢، ٤
"ربحتَ القضيةَ، مسلم؟" ٦٥٣
"كلمة وبنتان" ٩٦
مدى يقين المسيح الموعود عليه السلام بإلهاماته ٥٩٣

ملاك يخبرُ المفسِّرَ رضي الله عنه بما أوحيَ إلى المسيح الموعود ٦١٤

اليتيم

الحث على رعاية الأيتام وإكرامهم ١٥١، ٦٤٢-٦٤٣
ضرورة الاعتدال في تربية اليتيم ١٥٢

اليقين

علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ١٦٤، ٧٢٨
النبي أكبر وسيلة لإرساء اليقين ٧٦٢
التجلي الإلهي يخلق اليقين بأمور الغيب ١٦٦
ينال الأنبياء والمرسلون حق اليقين ١٦٥
انشراح الصدر يعني اليقين الكامل ١٥٧، ١٦٢
انشراح صدر النبي ﷺ ١٦٢
انشراح صدره ﷺ لحقائق الأشياء ١٧٤
مقارنة بين النبي ﷺ وموسى في انشراح الصدر ١٦٦
سبعة تجليات إلهية على النبي ﷺ لخلق اليقين ١٦٨
يقين النبي ﷺ بغلبة الإسلام ٣٧١
يقين النبي ﷺ الكامل بوعود الله ١٦٨
يقين الصحابة في غزوة بدر ٧٦٥

اليهودية

دين خاص بشعب ٣٥٥
زعمُ أهلها باستحقاق بني إسحاق وحدَهم الوعدَ الإبراهيمي ٤٤٣
مثال اليهودية والمسيحية والإسلام ٧٤٥
دور الأنبياء في ازدهار اليهودية وإحيائها ٧٤٧
استمر حكم اليهود قويًّا لألف سنة ٢٣٥
دمار اليهود بيد الدولة البابلية ٧٤٧
ضياع التوراة بعد هجوم نبوخذ نصر وجمعُ النبي عزرا لها ١٢٣
قتال يهود خيبر وبني قريظة في قرى محصنة ٦٦٦
لعنهم الله لجعلهم قبور أنبيائهم مساجد ٥٢٠
يهودي يطالب النبيَّ ﷺ بسداد دينه ٦٢٠
ثناء اليهود على عبد الله بن سلام ٤٥٧
انتظارهم نبيًّا يحمل شريعة نارية ٥١١
اليهود محرومون من كلام الله ٥٤٣
استيلاؤهم على فلسطين مؤقتة ٤٤٩

عقائدها

اليهودية قاصرة في بيان الوحدانية والنبوة وأحوال الآخرة ٣٧٩
تعتقد ببداية الوحي بآدم وانتهائه على ملاخي ٣٥١
ترى أن الله لا يُشرّف بحبه وكلامه إلا اليهود ٣٤٤
بعد بعثة النبي ﷺ قالوا "لا نبي بعد موسى" ٥١١
تركيزهم على تعاليم العقوبات ٥٠٤
وضعوا للعبادة شروطًا لا تطاق ٤٣٣
تعليق أحد على الصليب يوم السبت حرام وفق تعاليمهم ٢٧٥، ٢٧٧
يعتبرون عيسى عليه السلام ملعونًا ٢٦٧
يُنسب عندهم الولد إلى الأب لا إلى الأم ٢٦١
حفاظهم على عادة الختان ٤٤٢-٤٤٣
لم يكن شهر رمضان رائجاً عندهم ٤١٣
يعتبرون أهل الكتاب مجموعة ثالثة سوى المؤمنين والكافرين ٤٨٦

(٢)

فهرس الأعلام

شعوب وشخصيات

آدم عليه السلام

٢١٠، ٢٢١- ٢٢٢، ٢٥٧، ٢٩٧، ٣٠٤،

٣٠٧، ٣٥١، ٣٧١، ٤٦٤، ٥٣٩، ٥٥١، ٥٩٦

غرض بعثته ٢٩٦

به بدأ نزول الوحي ٣٤١

به بدأت الشريعة ٣٥٢

به بدأ التمدن ٢٤٣، ٢٩٩

تعاليمه دامت لقرون ٢٤٢

سجود الملائكة له ٤٦٤

هجرته من الجنة الأرضية ونتائجها ٢٢٤-٢٢٦

المراد من ورق الجنة ٢٢٢

علاقته بالتين ٢٢٢

حوّاء سببُ ذنبه وفقًا للتوراة ٢٦٢

كان مقربًا إلى الله بحسب التوراة ٢٦٠

آتهم القس عبد الله

نبأُ المسيح الموعود عن موت آتهم ٥٩٣

آينشتاين

اكتشف النظرية النسبية ٧٥٧

إبراهيم عليه السلام ٨- ٩، ١٠٤، ٢٤٢، ٢٥٧، ٢٦٠،

٢٦٨، ٤٠٤، ٤٩٠، ٥١٥، ٥٩٦، ٧٤٦

كان تابعاً لشريعة نوح ٤١٥

كل مَن تبِعه يسمى حنيفًا ٥١٤

صحف إبراهيم عليه السلام ٣٠٧، ٤١٢

لم تُدوَّن صحفُه عند نزولها ٣٧٤

لحظةُ استعداده لذبح ابنه خيرٌ من عبادة قرون ٤٠٥

عهدُه مع الله وذكراه ٤٤٢-٤٤٣

علامة عهده ٤٤٢

كان العهد الإبراهيمي لابنيه كليهما ٤٤٥

وعده الله ببركات غير محدودة وفق الكتاب المقدس ٢٥٧

عهد الله إليه تطهير الكعبة ٤٩٨

أخمد الله ناراً أُوقدتْ لحرقه ٧٨١

أخذ بقومه إلى الذروة ٧٤٧

بسببه نال أهلِ مكة العزة ٧١٦

حماية الله لمكةَ منذ زمنه ١٠٤

دعاؤه لبعثة رسول في مكة ٩

نبأُ ولادةِ النقطة النهائية من نسله ٣٦٢

نبؤُه عن ظهور دين عالمي ٣٦٢

لم يبشّر بمجيء المسيح عليه السلام ٢٦٠

لم يكن نقطة أخيرة للبشرية ٣٥٥

أبرهة

هجومه على مكة وهلاكه ١٠٤

أبقراط (طبيب يوناني) ٥٦٩

ابن أبي حاتم ٦٦٨

ابن أبي قحافة رضي الله عنه (راجعْ أبو بكر)

ابن الأسقع ٤١٢

ابن الأعرابي ١٥٦

ابن أم عبد ٧١

ابن جرير ٦٤٠، ٦٥٠

ابن حجر العسقلاني ٤٢٤

ابن حيان (راجع أبو حيان)

ابن زيد ٢١١

ابن صياد ٥٤٦

ابن الضريس ٢٠٧

ابن عباس رضي الله عنه ١، ٦١، ٦٥، ٢١١- ٢١٢،

٣٠٨، ٤٠٣، ٤١١، ٤٢٣، ٤٥٢، ٤٦٨، ٤٧٥،

٤٨١، ٥٤٥، ٥٤٨، ٦٥٠، ٦٥٦، ٧٠٥

يرى أن سورة العاديات أنبأت عن الغزوات الإسلامية ٦٤٩، ٦٥١
ترعرع في المدينة ٦٤٧
فسّر التين والزيتون ببيت المقدس ٢١١

ابن عمر رضي الله عنه ٤٥٠، ٤٥٢، ٧٠٥

ابن كثير ٢١١، ٣١٠، ٣٠٨
كان صائب الرأي في مواقع كثيرة ٢١٣
عدّ عيسى أقل مرتبة من موسى خلافا لعامة المفسرين ٢١٤

ابن مردوَيه ٤١١، ٤١٢، ٤١٩، ٤٥٩، ٤٧٥

ابن مسعود رضي الله عنه ٦٩، ٧٠، ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٥٤، ٦٤٧، ٦٥٠
هو من السابقين وشهادته موثوق بها أكثر من غيره ٦٤٧
حواره مع أبي جهل عند موته ٧٨٢
قراءته في آية: "لم يكن الذين كفروا" ٤٨٩

ابن هشام
يعدّ حادث بدء الوحي رؤيا ٣١٢
تأويل روايته المتعلقة ببدء الوحي ٣١٥

أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه
وضع قواعد علم النحو بتوجيهات علي رضي الله عنه ٣٧٥

أبو أمامة ٦٦٨

أبو بكر سيتهــ رضي الله عنه ٦٦

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ١٠٩، ١٧٢، ١٩٠، ٤٥٧، ٥٥٢، ٦١٩، ٦٣٨، ٦٤٠، ٧٥١

مقامه
كان يماثل إبراهيم في طبعه الرقيق ١٩٦
كان صديق النبي ﷺ في الشباب ١٣٩
تصديقه للنبيّ ﷺ ١٨٩
فدائيته ١٢٦-١٢٧
كان النبي ﷺ حيًا في قلبه ١٢٥
لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذتُ أبا بكر (الحديث) ١٣٥
لا يَبقَيَنَّ في المسجد نافذةٌ إلا سُدّتْ إلا نافذة أبي بكر" (الحديث) ١٣٥
هو مِن أعمدة الإسلام ١٩٣
غيرته للإسلام ٧٨٣
تضحياته العظيمة للإسلام ٧١٧
أنفق كل ماله في سبيل الله ٥٥٢
تلاوته القرآن الكريم بخشوع ١٩٧
خشوعه عند سماع سورة الزلزلة ٦٤٠
بكاؤه عند نزول سورة النصر ١٣٥
اعتراف الباحثين الغربيين بإخلاصه ١٩١-١٩٢

وقائع حياته
أسلم دون رؤية آية ٦١٩
أجاره أحد الزعماء حين أراد الهجرة ١٩٦
قلقه على النبي ﷺ في غار ثور ١٠٣، ١٦٢
كلمته الشهيرة بعد وفاة النبي ﷺ ١٢٨
الحروب في زمنه ٦٦٧
فتنة مسيلمة الكذاب في عهده ١٧١
هيبة الإسلام في زمنه ٢٢
ما كان لقيصر أن يرفض كلمته ٤٧١

أبو جهل ٧٢٥
غيظه على عبادة المسلمين ٣٨٩، ٣٩٤
قتَله صبيّان أنصاريان ٦٦٦، ٧٨١
أُخذ بناصيته وأُلقي في الحفرة ٣٩٥

أبو حبة البدري رضي الله عنه ٤٧٥

أبو حنيفة ٧٦١

أبو حيان ٧، ١٠

احترام المفسّر له ٨

أبو داود صاحب السنن ٤٥٠، ٤٥١

أبو داود الطيالسي ٤٥٠، ٤٥١

أبو الدرداء رضي الله عنه ٧١- ٧٢

غلوُّه في قراءة آية ٦٥

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ٢٠١، ٤٥٠

امتناع الكفار عن تعذيبه ٦٦٩

أبو رزين ٤٥٠

أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ٤٥١، ٦٤١

أبو سفيان رضي الله عنه

هتافه "اعلُ هُبل" في غزوة أُحد ١٠٩

أبو طالب

ربى النبي ﷺ بحب وحنان ١٣٩

ضغط الكفار عليه ليتخلى عن النبي ﷺ ١٠٦

أبو عبيدة رضي الله عنه ٤٤١، ٤٥٩، ٤٦٠

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه

أبو هريرة رضي الله عنه ٧٠٧، ٧١٢

شوقه لسماع الأحاديث النبوية ٧١٨

عظمته مقابل الملوك ٤٥٩

أعطي منديل كسرى ٧١٨

رواياته عن عيسى عليه السلام ٢١٣

أبي بن كعب رضي الله عنه

كان أنصاريًا وأسلم في المدينة ٤٧٥

ذكَر الله اسمه على لسان جبريل ٤٧٥

أحمد الله الحافظ

خطؤه عن فهم إلهامٍ للمسيح الموعود ٩٦

أحمد البريلوي رحمه الله

كان بمنـــزلة إلياس ٢٣٢

أحمد بن حنبل رحمه الله

٣٠٦، ٤٥٨، ٤٦٠، ٥٧٧

تسرُّبُ روايات خاطئة في مسنده بعدَه ٤١٩

أحمد جان الصوفي اللدهيانوي

بيتُ شعره في مدح المسيح الموعود ٤٢

الأخنس بن شريق ٧٧٢

أخنوخ (جد أبي نوح عليه السلام) ٢٥٦-٢٦٠

حقيقة رفعه إلى السماء حيا ٢٥٥

أدوايرِ السير ٥٦٥

إسحاق عليه السلام ٥٩٨

عهد الله مع بني إسحاق ٤٤٤

مقارنة عهده مع عهد إسماعيل عليه السلام ٤٤٥

إسرافيل ٦٨٨

الاسكندر المقدوني

تقدُّمه السريع وعاقبته الوخيمة ١٢٤

إسماعيل عليه السلام ٧٤٦

استعداده للذبح ٤٠٥

العهد لتطهير الكعبة ٤٩٨

إقامته في بريّة فاران ٣٥٧

بسببه نال أهل مكة العز ٧١٦

ذكرُ عهده في القرآن الكريم ٤٤٦

وعد الله بالبركات لبني إسماعيل ٤٤٥

مقارنة عهده مع عهد إسحاق عليه السلام ٤٤٥

الأشعري الفلسفي
تعلمَ منه الغربُ الفلسفةَ ٣٧٨
إشعياء الطَّيْلا ٢٦٠
كان نبيا مهمًا وفقًا للتوراة ٣٥٨
نبوءته عن ديانة عالمية ٣٥٩
أكمل ظهور الدين القاضي رضي الله عنه
كان يكتب ملحوظات مختصرة لدروس الخليفة الأول رضي الله عنه ٢١٥
الألمان
دعايات الإنجليز الكاذبة ضدهم في الحرب ٥٦٣
إلياسين
ثلاثة إلياسين هم إلياس ويوحنا وسيد أحمد البريلوي ٢٣٢
إليكزيندريا اللواء ٣١٦
أمُّ موسى الطَّيْلا ٥٨٨، ٥٩١
أوحي إليها ٥٧٩
أمير علي السيد
أسلوبه الاعتذاري أمام الغرب ٧٥٢
أمين الرشيد
تعلّمَ على يد الإمام مالك ٥٦١
الإنجليز
نهبوا خيرات الهند ٦٧٩
دعايتهم الكاذبة ضد الألمان في الحرب ٥٦٣
معاملتهم الظالمة مع والي حيدر آباد ٥٦٦
هجومهم على الأعداء النائمين ٦٦٤
حقيقة تطوُّرهم في العمليات الجراحية ٧٠٩
أنس بن مالك رضي الله عنه ٥٤٨، ٦٤٧
إيطالي رئيس الوزراء البريطاني ٧٥١
إيليا (إلياس الطَّيْلا)
نجاته من الموت وصعوده إلى السماء ٢٥٩
أيوب الطَّيْلا ٤٠٤
البخاري الإمام محمد بن إسماعيل ٧٠٥، ٧٥١
البراء بن عازب رضي الله عنه ٢٠٧
برهان الدين الجهلمي المولوي رضي الله عنه
زار المسيح الموعود الطَّيْلا وآمن به ٤٢-٤٣
بشارت الرحمن الصوفي ٥٨٦
بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه المصلح الموعود (صاحب هذا التفسير)
رؤياه ٣٩٥
رؤياه الثانية ٤٦٥
رؤياه التي رآها غير أحمدي أيضًا ٦١٢
أخبره الملاك أن المسيح الموعود الطَّيْلا أُلهم اليوم بكذا ٦١٤
رأى علامات ليلة القدر في كشف ٤٥٦
وهبه الله علماً جديداً لسورة التين ٢١٩
رأيه عن الوحي وأقسامه ٦٠١
طلبه من زعماء الأديان تعريفَ النبوة ٣٧٩
تجربتُه في الدعاء ٣٧٠
غيرته على الصحابة رضي الله عنهم ٦٤٤
حديثه عن زمن المسيح الموعود الطَّيْلا ٤٧٢
ثناؤه على ابن كثير ٢١٣
إعجابه بأبي حيان المفسر ٨
نقاشه مع أحد القسوس ٢٦١
لعبته في الطفولة ٢٠٥
بايعه رجل يناهز ١٢٥ سنة ٤٠٥

سفره إلى البلاد العربية ٦٦-٦٧
حواره مع تاجر من كراتشي ٧٠
مخالفة شاب له في سفره للحج ٥٢٨
بحثه عن فرس لسفر الحج ٦٥٤-٦٥٥
سفره إلى إنجلترا عام ١٩٢٤م ٣٨٦
زيارته الحِصن الملكي في مدينة "برايتون" ٣٧٨
تجربته الشخصية عن كذب الجرائد البريطانية ٥٦٦
ذكر في كتابه عملياته الجراحية ٧٠٩

بطرس الحواري ٢٦٩

بلال رضي الله عنه ٦٦٩

ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على بلال رضي الله عنه ٣٩٦
احترام عمر رضي الله عنه له ٣٩٩
عظمته مقابل الملوك ٤٥٩

بنو إسحاق

علامة عهدهم مع الله ٤٤٤
حرمانهم من الحكم على كنعان ثلاثة عشر قرنًا ٤٤٣

بنو إسرائيل (راجع إسحاق أيضًا) ٤٨٠

هجرتهم ٢٣٤
إجلاؤهم إلى أفغانستان وكشمير ٣٦٢
انقطعت النبوة فيهم ٢٦٥
شُبهوا بالتين في الكتاب المقدس ٢١٤

بنو إسماعيل (راجِعْ إسماعيل أيضًا) ٤٤٥، ٤٤٨

بنو أمية ٤٥٩

بنو حارثة (أنصار المدينة) ٧١٢

بنو الحرث (أنصار المدينة) ٧١٢

بنو سهيم ٧١٢

بنو العباس ٤٥٩

بنو عبد مناف ٧١٢- ٧١٣

بنو غفار ٦٦٩

بنو قريظة

حاربوا المسلمين متحصنين ٦٦٦

بنو كنانة

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية إليهم ٦٥١

بهاء الله (مؤسس البهائية)

اعتبر خواطر قلبه وحيًا ٥٩٦

إزالة سوء فهم عن ادعائه بتلقِّي الوحي ٥٩٦

بهيم سين لاله الهندوسي

كان يحب المسيح الموعود عليه السلام ٣٢٧

بوتلر القسيس

تبجيله للمسيح الموعود عليه السلام ٣٢٨

بوذا غوتم عليه السلام ٧٤٩

إحياء الهندوس على يديه ٧٤٧

بيلاطس

زوجتُه رأت رؤيا منذرة عن المسيح ٢٧٥
تعليق المسيح يوم الجمعة كان مخالفًا لقانون اليهود ٢٧٧-٢٧٨
عيّن عند الصلب ضباطًا متعاطفين مع المسيح ٢٧٨
طلب منه اليهود مراقبة قبر المسيح ٢٨٠

البيهقي ٧٠٥

تأبّطَ شرًّا ٧٣

الترمذي أبو عيسى ٥٤٨، ٥٧٧

ترومان ٧٥١

تشرتشل ٧٥١
سبب هزيمته بعد الحرب ٥٣٢
توما الحواري
تحسّسَ جروح المسيح للتأكد ٢٨١
تيمور لنك
تقدُّمه السريع ثم فشله الذريع ١٢٤
ثَاوُفِيلُسُ ٣٤٣، ٢٦٧
ثمود
كانوا من العرب ٥٤، ٧١٦
تركوا الاعتدال ٥٤
هلاكهم ٦٨٨، ٦٩٨
معجزة صالح عليه السلام في ناقته ٥٥
ثناء الله الأمرتسري ٤٩٣، ٦٢٧
اعتراضاته على نبوءات غلبة الأحمدية ٧٤٤
جابر بن سمرة رضي الله عنه ٦١
جابر بن عبد الله رضي الله عنه ٣٠٨، ٤١٢، ٦٤٧
جبريل عليه السلام ٢٤٢، ٤٧٥
نزوله على النبي ﷺ بأول وحي ٣١٢، ٣١٥
أرى النبي ﷺ منديلا فيه آيات مكتوبة ٣٠٩
تجليه عند نزول الوحي ٥٨٥
لا توجد صورة معينة له ٥٨٥
حكمة نزوله بصور مختلفة ٥٨٧
ظهوره بصورة دحية الكلبي ٥٨٥، ٦١٧
رآه الصحابة ١٨٢
حكمة مدارسته القرآن مع النبي ﷺ في رمضان ٥٩٣
أمر تبليغ الآية "الم ذلك الكتاب لا ريب فيه" ٥٩٣
تسليمه على عائشة رضي الله عنها ٦١٧
نزوله على المسيح الموعود عليه السلام ٥٩٢، ٦١١
جلال الدين السيوطي رحمه الله ٧٥١
جندب رضي الله عنه ٩٥
جنيد البغدادي رحمه الله ٧٦١
الحاكم صاحب المستدرك ٧٠٥
حامد علي رضي الله عنه
خادم المسيح الموعود عليه السلام ٤٣
الحريري
ما كان بإمكانه أن يفهم حقائق الإلهام ٢٠٩
حزقيال عليه السلام ٢٦٠، ٤٠٤
حسان بن ثابت رضي الله عنه
قصيدته في رثاء النبي ﷺ ١٢٩
حسرت موهاني ٥٦٣
حسن البصري رضي الله عنه ٤٥٠، ٦٤٧
حكيم بن حزام رضي الله عنه
صداقته مع النبي ﷺ ١٣٩
حليمة السعدية
أرضعت وربّت النبي ﷺ ١٣٩
وقع حادث شق الصدر أثناء إقامة النبي ﷺ عندها ١٨٠
ابنها أيضا رأى هذا الكشف ١٨٠
الحماسي (اللغوي) ٥١٤
حمزة رضي الله عنه ١٩١
حوّاء عليها السلام ٢٤٤، ٢٦٣
أخطأت وفق التوراة ٢٦٣
خالد بن الوليد رضي الله عنه ٧٨٣

انتهز الفرصة للهجوم في غزوة أحد ١٠٨
وفاته ٦٦١
خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ١٤٧
ركن الإسلام ١٩٣
تحضيرها الزاد للنبي ﷺ ليذهب إلى غار حراء ٣٠٥
قوله ﷺ لها:"قد خشيت على نفسي" ٣١٥
طمأنت النبي ﷺ عند بدء الوحي ١٤٧، ١٨٩
أخذت النبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل بعد بدء الوحي ٤، ٤٧٤
شهادة ورقة بن نوفل في النبي ﷺ ١٨٨-١٩٠
وفقها الله لتحقيق رغبته ﷺ في خدمة الضعفاء ١٤٩
حالتها المادية وتضحياتها المنقطعة النظير ١٤٩
قدمت جميع أموالها إلى النبي ﷺ ١٤٩
الخطيب البغدادي ٢٠٧، ٧٠٦
داود عليه السلام ٢٤٢، ٣٧٢، ٤١٣، ٤٢٠
وُلد بعد إبراهيم عليه السلام بألف ومائتي سنة ٤٤٨
نهض بقومه بعد أن كانوا متأخرين ٧٤٧
أنبأ عن النبي ﷺ بلفظ (محمديم) ٣٥٨
نبؤُه عن انتقال حكم كنعان إلى المسلمين ٤٤٩
لم يكن خاتم البشرية ٣٥٨
هدف المسيحيين من اعتبارهم يوسف النجار من أولاده ٢٦١
الديلمي ٧٠٦
زكريا عليه السلام ٩٩، ٤٠٤
ذوق محمد إبراهيم (شاعر باللغة الأردية) ٢١٢
استخدامه المجاز والاستعارات ٦٢٢
الرازي الإمام فخر الدين ٢١٢، ٧٦١
الراغب الأصفهاني ١٤٠، ١٥٦، ٤٢٤، ٤٢٦
أخطاؤه في بيان معاني الوحي وتصحيحها ٥٨٨، ٥٩٨
رام تشندر عليه السلام ٢٣١، ٤٣٩، ٧٤٩
تجديد الهندوسية على يديه ٧٤٧
رنجيت سنغ المهاراجا ٤٠٥
روشن دين ٦١٢
زبدي ٢٦٩
الزبير رضي الله عنه ١٤٩، ١٥٠، ١٩١، ١٩٢، ٤٥٩
الزجاج النحوي ٢٩
زرادشت عليه السلام ٢٣١، ٤٣٩
لم يدوّن "زند أفستا" عند نزولهما ٣٧٤
لم يكن خاتم البشرية ٣٥٤
الزرقاني شارح المواهب اللدنية ٤٢٤
زكريا عليه السلام ٩٩- ١٠٠، ٤٠٤، ٥٧٩، ٥٨٣، ٦٠٣
الزمخشري صاحب الكشاف ٢٨، ٣٠١، ٦٠١، ٦٢٤
زيد بن حارثة رضي الله عنه ١٤٠، ١٩٠، ١٩٢
أسلم في البداية ١٨٩
ركن الإسلام ١٩٣
زيد بن عمرو ٢٠٠، ٥٩٨
سارة عليها السلام ٤٤٥
سبرنجر المستشرق
اعترافه بأن القرآن الكريم محفوظ ٣٧٤
ستالين ٧٥١
سعد بن معاذ رضي الله عنه
مثّل الأنصار في غزوة بدر ٤٨٢

سعيد بن جبير رضي الله عنه ٤١٩
سليمان عليه السلام ٢٤٢، ٣٧٢
سيل المستشرق ٤٩٥، ٥٣٩
الشافعي رحمه الله ٤٥٠- ٤٥١، ٤٥٨، ٧٦١
اعتبر سورة العصر ذات معانٍ عميقة ٧٣٣
شمعون عليه السلام
إصلاحه لقوم ٧٤٧
شهاب الدين السهروَردي رحمه الله ٤٥٨
شيبة ١١٢، ٧٢٥
صالح عليه السلام
بُعث في العرب ٥٥
كان مرجوّ القوم قبل البعثة ٤٢
حقيقة معجزة ناقته ٥٥
صدّيق حسن خان نواب (صاحب فتح البيان)
٢١١- ٢١٢
الضحّاك ٦٥٠
شرح التين والزيتون بالمسجد الأقصى ٢١١
طلحة رضي الله عنه
١٤٠، ١٥٠، ١٩١- ١٩٢، ٤٥٩، ٧٨٣
تضحيته المنقطعة النظير في غزوة أحد ١٢٧
ظفر الله خان رضي الله عنه ٥٦٤
عائشة الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها
٢٢، ١٨٨، ٣٠٥، ٣١٢، ٤٠٣، ٤٥٢، ٤٧٦
سمعت كلام جبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم ٦١٧
تسليم جبريل عليه السلام عليها ٦١٧
لم تستطع تناول الخبز الناعم لتذكُّرها أيام النبي صلى الله عليه وسلم
العصيبة ٢٢
عاد ٧١٦
هلاكهم بريح صرصر عاتية ٦٨٩
العاص بن وائل ٧٧٢، ٧٨٤
عبادة بن الصامت رضي الله عنه ٤٥٠، ٤٥٢
عبد الله بن أنيس ٤٥١
عبد الله بن زبير رضي الله عنه ٢٠٧، ٤٠٣
عبد الله بن سلام رضي الله عنه ٤٥٧
ثناء اليهود عليه ٤٥٧
عبد الله بن الشخير رضي الله عنه ٧٠٦
عبد الله بن عباس رضي الله عنه (راجع ابن عباس)
عبد الله بن عمر رضي الله عنه (راجع ابن عمر)
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ٦٤٠
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (راجع ابن مسعود)
عبد الله التيمابوري ٦١٨
عبد الله الجكرالوي ١٧٦
عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه
قوله لأبيه: كان بإمكاني قتلك في غزوة أحد ٧٨٤
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
اشتراكه في غزوة بدر ٦٦٦
بيانه قصة قتل أبي جهل ٧٨١
عبد الرحيم بهاي رضي الله عنه ٤٦
عبد الرحيم نير رضي الله عنه ٥٦٥

عبد العزيز بتهان رضي الله عنه ٥٩٤

عبد العزيز الشيخ (قاديان) ٤٦

عبد القادر الجيلاني رحمه الله ٤٥٨، ٧٥١، ٧٦١

عبد المطلب

أُلقِيَ في قلبه حب النبي ﷺ ١٣٨

عبد الملك بن مروان ٤٥٩

عتبة ١١٢، ٧٢٥

عثمان بن عفان رضي الله عنه ٦٧، ١٤٩، ١٩٢، ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٥٢، ٧٥١، ٧٨٣

كان النبي ﷺ حيًّا في قلبه ١٢٥

تضحياته للإسلام ٥٢١- ٥٥٢

هيبته ٤٧١

نشَر القرآن بالقراءة الحجازية ٦٨-٦٩، ٧١

نسب إليه المؤرخون المسيحيون وضعَ ترتيب سور القرآن ٤٧٦

عثمان بن مظعون رضي الله عنه ١٩١، ٧٨٣

العرب

حالتهم قبل الإسلام ١٦٣-١٦٤

حفاظهم على الختان قبل الإسلام ٤٤٣

كرمهم وضيافتهم ١٦٣

تحايُلهم على البسطاء أيام الحج ٦٨١

هضمُهم حقوقَ الوَرثة ١٩٣

نقضُهم العهدَ مع المسلمين ٦٨٢

إسلام جميع المشركين ٤٩٤

جعَلهم الإسلام أُمةً واحدة ٧١

أحدث الإسلام انقلابا فيهم ٦٨٠

أناس أحبوا لقاء الله تعالى ١٤٩

هزموا قيصر وكسرى ٧١٧

عروة بن الزبير رضي الله عنه ٣٠٥

عزرا عليه السلام

قام بإصلاح اليهود أيام أسرهم في بابل ٧٤٧

العزّى (إحدى آلهة العرب)

٢٣٦، ٣٤٤،٣٤٥، ٣٩٦، ٣٩٩، ٦٨١- ٦٨٢

عطاء ٥٤٥، ٥٤٧، ٥٥٠، ٦٥٠

عقبة بن عامر رضي الله عنه ١

عكرمة ٢١١، ٦٤٧، ٦٥٠

عكرمة رضي الله عنه (بن أبي جهل)

حراسته أباه في غزوة بدر ٧٨٢

علقمة ٦٥

علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٤٠، ١٤٩، ١٤٩-١٥٠، ١٩٠، ٣٧٥، ٤٥٨- ٤٥٩، ٦٥٠، ٦٥٤، ٦٦١

آمن في بداية الإسلام ١٨٩

هو أحد أعمدة الإسلام ١٩٣

فدائيته ١٢٦

كان النبي ﷺ حيًا في قلبه ١٢٥

قوله عن تكرار الآية "كلا سوف تعلمون" ٧٢٦

شرحه للآية "والعاديات ضبحا" ٦٤٩

بيّن مبادئ النحو ٣٧٥

قوله: أنا قطعتُ خرطوم الكفر ... ٧٢٣

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

٦٩-١٥٠،٧٠،١٩١-٢٠٠، ٤٥٢، ٤٥٨- ٤٥٩، ٤٧٢، ٦١٠، ٦٣٨

كان عالمًا بأنساب العرب ٤٥٧

إيمانه نتيجة تأثير القرآن الكريم فيه ١٩٧

اشترى حلّةً للنبي ﷺ فأعادها إليه ١٢٦

انزعاجه من بكاء أبي بكر رضي الله عنه ١٣٥
وطــأة وفاة النبي ﷺ عليه ١٢٨
كان النبي ﷺ حيًّا في قلبه ١٢٥
أُمنيّته لأن يسبق أبا بكر في الإنفاق ٥٥٢
خدَم الإسلام كثيرًا ٧١٧
ظهرتْ شوكة الإسلام في عصره ٢٢
كان القيصر يهابه ٤٧١
الحروب في عصره ٦٦٧
مقولته الشهيرة لدى الوفاة: "لا لي ولا عليّ" ٣١٧
تفضيله العبيد المسلمين على أولاد زعماء مكة
٣٩٩، ٧٣٠-٧٣١
قدّم لعائشة أولَ طحين طُحن بالطاحونة الهوائية ٢٢

عمرو بن شعيب ٤٨١

عمرو بن العاص رضي الله عنه ٤٨١، ٦٤٠، ٧٨٣
اعترافه بروعة سورة العصر قبل إسلامه ٧٣٣

عوفي النحوي ٢١٢

عيسى بن مريم عليه السلام

١٨٥، ٢١٣- ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٢، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦٧- ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٩، ٤١٣-٤١٦، ٥٩٣، ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٠٣، ٦٩٢، ٧١٦، ٧١٩، ٧٤٧
وُلد بعد موسى عليه السلام بثلاثة عشر قرنًا ٤٢٢
حادث الصليب وقع بعد إبراهيم بـــ ١٩٢٠عام ٤٢٢

مكانته

تعمَّد على يد يوحنا ٣٣٧، ٣٤٠
ظهوره من جبل سعير ٣٥٦-٣٥٧
وحيُه الأول ٣٣٩
المقارنة بينه وبين النبي ﷺ من حيث الوحي الأول ٣٣٧
نزول روح القدس عليه بشكل حمامة
٣٣٧، ٣٣٩، ٦٩٢
مقامه بين الرسل ٣٣٧
قال: لم آتِ لأنقض الناموس ٣٦٢
كان نبيًا تابعًا لموسى ٢٥
قال: "لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"
٣٦٣
بُعث عند ضلال بني إسرائيل ٤٣٨
أصلح قوما متدنيا ٧٤٧
جعَل صيّادي السمك ملوكا ٧١٦

حادث الصليب

آية يونان النبي وشرحها ٢٧٠-٢٧٢، ٢٨٠، ٢٨٢
دعاؤه للنجاة من الصلب ٢٦٩
تفصيل حادثة تعليقه وإنزاله من على الصليب
٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٠
إثبات نزوله من الصليب حيًّا ٢٧٠
ظهوره أمام الحواريين بجروحه ٢٨١

تعاليمه

دعاؤه ليأتي ملكوت الله على الأرض ٧٤٢
نهى أتباعَه عن تبليغ الرسالة إلى غير بني إسرائيل ٣٦٠
قال: أعطُوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ٥١٨
تصرُّف المسيحيين مع تعاليمه ٥٢١

نبوءاته

نبوءته عن بعثة روح الحق أي النبي ﷺ ٢٦٦
نبؤه عن القرآن الكريم ٢٦٦ -٢٦٧
نبؤه عن بعثته الثانية ٣٦٤

وفاته ومعجزاته

مسألة وفاته ٧٦١
لا توجد آية تدل على حياته ١٩٤

إنشاد العلماء شعرا عن وفاة عيسى قبل بعثة المسيح الموعود ٥١٢
جعَل المشايخ عيسى شريكًا مع الله ٣٤٨
نفخ الروح ٤٦٤- ٤٦٥

دحض العقائد المسيحية

لم يكن المسيح مصداقًا لنبأ إبراهيم ٢٦١، ٣٦٤
لم يكن خاتم البشرية ٢٦٤، ٣٥٢
ليس هو الوحيدَ في ولادته بدون أب ٢٦٢
الرد على عقيدة الفداء ٢٥٤
كيف يمكن أن يكون طاهرًا من "الخطيئة الموروثة" ٢٦٢
غلَبه الشيطان وفقًا للأناجيل ٣٣٧
قوله في الإنجيل إنه ليس بصالح ٢٦٤
هل مجيئه غيّر طبيعة الإنسان؟ ٢٥٩
يعدّه اليهود والنصارى ملعونا ٢٦٧
اعتبرَ فقهاءَ اليهود والفريسيين أولاد حرام ٥٠٦
لعَن شجرة التين ٢١٤

غالب أسد الله خان (شاعر اللغة الأردية) ٢١٢
كثرة المجاز والاستعارة في شعره ٦٢١

غاليليو

أجبره المسيحيون على التخلي عن نظريته ١٩٨

الغزالي رحمه الله ١٦٤، ٤٥٨

غلام أحمد مرزا القادياني المسيح الموعود

والإمام المهدي عليه السلام ٤٨-٤٩، ٦١٢

وقائع تاريخية من حياته

وظيفته في محكمة بمدينة سيالكوت ٣٢٧- ٣٢٨
طُبع كتابه البراهين الأحمدية ما بين ١٨٨٠-١٨٨٤ ٣٢٧
نسخة كتابه موجودة في متحف لندن ٣٢٧
تقريظ البطالوي على "البراهين الأحمدية" ٣
إعلانه عن بعثته ٧٦٣
قوله في الجلسة السنوية الأخيرة: يبدو أن مهمّتنا قد أُنجزتْ ٤٧٢

مكانته

ترجّاه أحمد جان الصوفي أن يأخذ بيعته ٤٢
قوله إن الله أخرجه من زاوية الخمول ١٣١
كان خادمَ النبي ﷺ ٤
كان حاملَ الصفات القمرية أي نبيا تابعًا ٢٥
نعدُّه نبيًا ونؤمن برسالته ٥٨٤
كان أحمد البريلوي إرهاصًا له ٢٣٢
شَبَهُه بموسى عليه السلام ٣٣١
هو أفضل الأنبياء بعد النبي ﷺ ٢٦
بعثُته بعثة ثانية للنبي ﷺ ٧٤٢
"كنا أقل عددا في زمنه ولكن كنا في أمن وسلام" (المفسر) ٤٧٢
عشقه لله تعالى ١١٦
أسّس نظام التبرعات ٦٢٩
فوائد الإيمان به ٧٦١
هاجمَ الغربَ دفاعًا عن الإسلام ٧٥١
بعثته تثبت ضلال أهل الغرب ٧٥٠

صدقه

صدّقه برهان الدين الجهلمي في أول زيارة ٣٢
تأليفه كتابه المعجز "البراهين الأحمدية" ٦٢٠
ثقته بالوحي النازل عليه ٥٨٤، ٥٩٢
إيمان المثقفين به ١٩١
اطمئنان المؤمنين بالإيمان به دليلٌ على صدقه ١٤٩
رزق الله جماعته الإيمان والعلم والمال ١٩٢
لم يوجَد النفاق في الجماعة في حياته ٣٣١
أقر الأغيار بصدقه وسداده قبل بعثته ٣٢٧

وجودُه ردٌّ على مطاعن المستشرقين ٣٢٥- ٣٢٦
اعتراف الأغيار بعظمته بعد وفاته ٢٠١
الزلازل من علامات صدقه ٥٨١
تفوُّق مقالِه في مؤتمر الأديان ٣٨١

وحيه وكشوفه ورؤاه

بدأ نزول الوحي عليه قبل نشرِه "البراهين" ١٨٨٠م ٢
وحي نزل عليه بالكلمات والمشهد ٦١١

بعضُ وحيه

"أحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا... ٣٣٢
إني مع الأفواج آتيك بغتةً ٥٩٢، ٦١٤
تلطَّفْ بالناس وترحّمْ عليهم... ٣٣١
جاءني آيل ٥٩٢
قُلْ للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ٣٢٩
لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ٣٢٩
وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ٣٣٠
نجح العدو أيضًا في هجوم له ١٠٥
جاء إلى الدنيا نذير والدنيا لم تقبله... ٢
ربحتَ القضيةَ، مُسْلِم؟ ٦٥٣
كلمةٌ وصبيّتان ٩٦
كشفُ سقوط قطرات الحبر الأحمر على قميصه ١٨٣، ٦١٧
تحقُّق كشوف له ٦١٤
رأى أن والده خسر الدعوى... ٦٥٣
رأى عصا "زار" الروسي في يده ٣٣٢

نبوءاته

نبوءاته عن رقي المسلمين ٤٦٤
مستقبل الأحمدية في ضوء نبوءاته ٤٦٠، ٧٤٤
نبوءته عن دمار المدن ٦٩٨

علومه ومعارفه

لم يقدّمْ للدنيا إلا علوم النبي ﷺ ٤٩٢
بيعة شخص بقراءة قصائده الأردية ١٩٩
بيانه الهدف الحقيقي من الدين ٤٠
تقديمه النفسَ اللوامة دليلاً على وجود الله ٤٧
بيانه غرضَ بعثة الأنبياء ٧٠٦
بيّن الفرقَ بين التجلّي المحمدي والتجلي العيسوي ٣٣٧
بيّن الفرقَ بين الأنبياء ذوي الصفات القمرية والصفات الشمسية ٢٦-٢٥
بيانه القدرتين الإلهيتين (النبوة والخلافة) ٤٦٩
تميّزُه عن الآخرين في بيان مسائل التصوف ١٦٥
بيّنَ أقسام العلوم ومدارج اليقين ١٦٤
بيّن معارف قرآنية عظيمة في "فلسفة تعاليم الإسلام" ٣٨١
قوله" لو وُجدتْ آية عن حياة المسيح لتخليت عن دعواي ١٩٤
بيانه معاني إقامة الصلاة ٥٣٤
تفسيره لآية "بأن ربك أوحى لها" ٥٨١
قال إن سورة العصر تبين أحوال زمانه ٧٣٤
تقديمه قراءات قرآنية مختلفة ٧٢
بيانه حقيقةَ الوحي ٦٠٥- ٦٠٦
أعلن أن الإلهام والوحي بمعنى واحد ٥٩١
بيانه تجاربه الشخصية عن الوحي ٥٨٣
بيانه الفرق بين الوحي الصادق والكاذب ١٨٤
بين الفرق بين الوحي وكلام الأدباء ٢٠٩
تنـزل الملائكة مع كل وحي ينـزل على نبي ٥٩٢
أخبر أن البغايا أيضا قد ترى رؤى صادقة ٣١٣
النبوءات المنذرة التي تكون آية على صدق المبعوث لا تُلغى أبدًا ٥٨١
إقامته الحجة على المسيحيين ٢١٤

نصائحه لجماعته

ألقى خطابات على النساء ثم امتحنهن ١٧٥
نصيحة له في كتابه "الوصية" ٢٣
حث الجماعة على الحب والرفق وترك السياسة ٢٥

عاداته

كان يمشي بسرعة ٤٣
كان يستريح قليلا بعد صلاة الفجر ٧٥
كان يسجل وحيه في دفتر ٦١٤
كان يسجل أمانيه الطاهرة في مذكّرة ١١٦

معارضته

العلماء الذين عارضوه ٦٢٧
تصرّفٌ مشين من بعض زائريه ٦٨٢- ٦٨٣
قبْل بعثته كان المشايخ يعتقدون بوفاة المسيح ومجيء نبي غير مشرع ٥١١- ٥١٢
زعم البعض أنهم ليسوا بحاجة للإيمان به لأن عندهم القرآن ٥٠١
سمّوه كافرًا وملحدا بسبب ادعائه الوحي ٥٨٤
دحض طعنهم فيه بسبب طاعته للإنجليز ٥١٨
إقبال الناس إليه نتيجة معارضته ١٩٩
ألقى الله قبوله وعظمته في القلوب ٢٠١

غلام محمد (ادعى أنه المصلح الموعود) ٥٩٦

فارقليط

اسم النبي ﷺ في النبوءة الإنجيلية عن بعثته ٥١٢

فاطمة رضي الله عنها

رَفَعتْ سلا جزور عن النبي ﷺ ٤٠٢

الفرّاء ١٤، ٢١٢

فرعون

كان معاصرًا لموسى عليه السلام ٣٣٤

حادث غرقه ٢٣٥

فرويد (عالم النفس) ٢٨٦

نظريته حول تأثر الإنسان بالبيئة ٢٤٥
دحضُ نظريته عن الفطرة الإنسانية ٢٨٣
إنكاره وجود موسى عليه السلام ٢٣١

فضل حق سردار (أسلمَ من السيخ)

قصة كراهته للحم البقر ٤٦

قتادة رضي الله عنه ١٤، ٢٩، ٢٠٧، ٢١١، ٤٥٤، ٦٤٧، ٦٥٠

القرطبي ٢٠٧، ٢١٢

قطب الدين الحكيم رضي الله عنه ٥٩٤

قيصر الروم ٤٤٨

حربه ضد المسلمين ٧٣١
هزيمته على يد المسلمين ٧٤٣

كرشنا عليه السلام ٢٣١، ٤٣٨، ٥٤١- ٥٤٢

ازدهار الهندوس على يديه ٧٤٧
عقيدة بعثته الثانية في العالم ٤٣٨-٤٣٩

كرم دين الجهلمي

رفع قضية ضد المسيح الموعود عليه السلام ٣٢٧

كسرى إيران ٧١٧- ٧١٩

هزيمته على يد العرب ٧٤٣
قصة منديله مع أبي هريرة رضي الله عنه ٧١٧

كعب الأحبار ٢١١

الكلبي ٧١٢

كمال الدين خواجه

قصة خطابه في مؤتمر الأديان بلندن ٥٦٢

كنورسين لاله الهندوسي
نصحه والده بمتابعة قضايا المسيح الموعود عليه السلام في المحكمة مجانًا ٣٢٧

كولومبوس
اكتشف قارة أمريكا وحسده الناس ٧٦٠

كونفوشيوس عليه السلام
سبعون مليون شخص من أتباعه أسلموا ٤٩٤
تخلى اللهُ عن أتباع دينه ٧٤٩

كينار السير البريطاني
ترك الوزارة وتوظف في شركة تجارية ٦٣١

اللات (إحدى آلهة العرب في الجاهلية) ٣٤٤

لامك (والد نوح عليه السلام) ٢٥٦

لاوي (قبيلة هارون عليه السلام) ٣٣٦

لبيد رضي الله عنه (شاعر جاهلي) ٦٦١

لوقا الإنجيلي
اعترافه أن الأناجيل مجموعة روايات ٢٤٣

لين بول (مؤلف إنجليزي)
مدحه القواميس العربية ٧٦٩

مالك الأنصاري رضي الله عنه
تمنّيه الشهادة في غزوة أحد ١٢٧

مالك بن أنس الإمام ٤٥٨، ٤٦٠
طلب منه هارون الرشيد أن يدرّس أولاده ٥٦١

مأمون الرشيد
كان يحمل أحذية أستاذه الإمام مالك ٥٦١

ماند لورد البريطاني
ترك الوزارة وتوظف في شركة تجارية ٦٣١

المبرد صاحب الكامل ٢٩

متى الإنجيلي ٣٤٣

مجاهد ٥٤٥، ٦٥٠

محمد المصطفى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم
٣٣، ٩٥، ٤٩٠، ٥٩٦

نزول الوحي عليه
حديث مفصل عن بدء الوحي ٣٠٥
المراد من قوله: "ما أنا بقارئ" ٣٠٨
سبب ادّثاره بعد نزول الوحي ٣٢١
سبب قوله لخديجة: "لقد خشيتُ على نفسي" ٣١٥
أخبره ورقة بن نوفل أن قومه سيخالفونه ٤
فترة انقطاع الوحي عنه ٩٥
حقيقة محاولة قفزه من الجبل عند انقطاع الوحي ٣١٨
الفرق بين بدء وحيه ووحي الأنبياء الآخرين
٣٣٣، ٣٣٧
يعتبر المستشرقون السور الأولى حديث نفسه ٥

بعثته
حالة العالم الاجتماعية قبل بعثته ٤٦٤
تأمُّلاته في غار حراء ٣٤٥
ظهَر من جبل فاران ٣٥٦
بُعِثَ في البلد الأمين ٢١٣
بعث بعد المسيح بـــ ٦٠٨ أعوام ٤٢٢
أخرجه الله من زاوية الخفاء ١٤١
بُعِثَ في آخر الزمان ٧١٥
"والعصرِ" يعني عصر محمد صلى الله عليه وسلم ٧٣٥
عصره دليل على وجود الله تعالى ٧٤٠
ضرورة بعثته ٥١٦
جاءت دعواه في وقت مناسب جدا ٤٣٨
غرضُ بعثته في ضوء القرآن ٢٩٦، ٤٣٦

دعواه وآثار قبوله ١٩٩
رافق بعثتَه انقلابٌ روحاني عظيم ٤٦٥
رافق بعثتَه انقلاب حضاري ٧١٤
دحض الزعم أنه لم يُبعث إلى أهل الكتاب
٤٧٩ -٤٨٠

مكانته ١١٨

"لولاك ما خلقت الأفلاك" (حديث قدسي) ٣٥٠
الهدف من خلق الكون هو ذات محمد ﷺ ٣٧٠، ٤٩١
رفعة المقام المحمدي ١١٨
مقامه "دنى فتدلى..." ١٨٥
قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر ٧٢٢
هو خاتم النبيين ﷺ والقرآن خاتم الكتب ٤٣١
أُعطيَ الشريعة الأخيرة والكاملة ١٣٧، ٤٣١
حقيقة كونه سراجا منيرا ٢٤٣
هو دليل على خلق الإنسان في أحسن تقويم ٢٨٧
المراد من "النعيم" شخصه ﷺ ٧٢٩
كان كاملا في جميع مجالات الحياة ٤٤
هو مؤسس الدورة التكميلية ٢٤٣
هو أفضل الناس والملائكة ١٧٦
هو أفضل من عيسى عليه السلام ١٧٨- ١٨٧
الفرق بين التجلي المحمدي والعيسوي ٣٣٧
عظمته وعلو مرتبته ١٧٤
قوته الإحيائية ٤٦٤
مكانته عند خديجة رضي الله عنها ١٨٨
حبه في قلوب الناس يزداد كل يوم ١٢٧
إنجازاته ٤٢٦
فيوضه الروحانية جارية منذ بعثته ٤٢٨
أُعطيَ من العلم اللّدني كثيرًا ١٧٨
تفقُّهه العظيم ١٧٩
لقد حُمّل عبئًا لا يحمله شخص واحد ١٨٧

فضائله

مِنن الله عليه ١٤٣
أُعطيَ العلوم الباطنية والظاهرية ١٧٦
قوله "لقد خشيت على نفسي" لدليل على علمه الكامل ٣١٦
سلمتْ قواه الذهنية إلى آخر لحظة حياته ١٢٩
قوله: قد أسلمَ شيطاني ١٧٣، ٣٦٨
التأكيد الرباني لسلامة عقائده الفطرية ٣٤٣
لم يشرك بالله عز وجل قط ٥٩٩
لم يُطِق الشرك ٣٤٤
لم يأكل مما ذُبح باسم الأصنام ٥٩٨
حقيقة كونه "ضالا" ١٤١، ٣٤٥
سبعة تجليات إلهية لتثبيته على اليقين ١٦٨
نال أعلى مرتبة اليقين لكونه سيد الأنبياء ١٦٢، ١٦٥
ثقته من غلبة الإسلام ٣٧١
كلامه مع جبريل وجها لوجه ٥٨٥
إلقاء روح القدس أمرًا في قلبه ٥٨٨
عصمته من الأعداء ٤٢٨
كان أوّلَ المؤمنين بالحق ١٦١
تطوّرَ تطورًا مطّردًا ٢٠٤
علامات عهده ٤٤٣
إيمانه برسالته هو ٥٥٥
انشراح صدره ١٦٢
ثقته بإيمان أصحابه ٥٥٥
شكرُه على نعم الله تعالى ١١٤
رسالته موجهة إلى العالم كله ٤٨٣
نجاة الملايين من خلاله ٤٩٤

حُبُّه لله تعالى

شوقه للقاء الله عز وجل ١٣٦، ١٤١-١٤٢
علاقته الوطيدة مع الله عز وجل ٣٦٨

حالته المستقرة في العسر واليسر ١٠٦
غيرته على الله تعالى ١٠٩
رأى الله على صورة شاب ٣٣٨

خُلقه العظيم

طهارته قبل البعثة ١١٢ -١١٣
سُمّي أمينًا وصدّيقا قبل البعثة ١٤٦، ١٦٣
شهادة خديجة وعبيدِها على خُلقه ١٤٧ -١٤٨
أحبه الناس بسبب أخلاقه ١٢٧
حزنه على قومه ٥
قلقه على الفقراء والمساكين ١٤٩
بذله أوقاته وأمواله في سبيل أمته ٤٣
تواضُعه ١٢٦، ٣٠٩
حالته عند فتح مكة ١١٢
دعاؤه لأهل الطائف رغم ظلمهم ١٧٣
قوله "لا تثريب عليكم اليوم" ١١٢
تحمُّله منقطع النظير ١٠٨، ١٨٦
استقامته منقطعة النظير ١٠٦ -١٠٧
خروجه الجريء من بين المحاصرين ١٦٢
شجاعته في غار ثور وغزوة أحد ١٠٨
ظل خادمًا رغم كونه حاكمًا ٥١٩
لم يكن ﷺ يهاجم في الليل ٦٥٨
أعماله ﷺ في الليل والنهار ١١٣
مداواته ﷺ المرضى ٦٨٢
كان ﷺ يحب الخلوة ١١٣
عمل ﷺ دائمًا ابتغاءَ رضا الله ١١٤

صدقه ﷺ

دليل على صدقه ﷺ ١٦١، ١٦٩
"فقد لبثت فيكم عمرًا" دليل على صدقه ﷺ ١١٢
فتح مكة دليل على صدقه ﷺ ١٠٥
إصلاحه ﷺ قومَه في مدة وجيزة محيِّرٌ ١٣٦
وقائع الأنبياء السابقين دليل على صدقه ﷺ ٢٢٠
أعمال المستشرقين دليل على صدقه ٤٣٩
طمأنينة أصحابه دليل على صدقه ١٥١

وقائع من حياته ﷺ

معاملة الله الخاصة معه ﷺ ١٣٨-١٣٩
حقيقة شق صدره ﷺ ١٨٥-١٨٦
وضعُه الحجر الأسود عند اختلاف قريش ١٤٧
أصدقاؤه ﷺ قبل البعثة ١٣٩
رده ﷺ على إغراءات المكيين ١٠٦، ١٦٨
حكمة معراجه وإسرائه ٦٠٨، ٦١١
الضحى والليل الخاصان في حياته ﷺ ١٠١
أوقات صعبة في حياته ﷺ ١٠٩، ١١١
معية الله في هجرته ﷺ ١٠٣ -١٠٤
شارك في ٢٧ غزوة وأرسل ٣٨ سرية ٦٦٧
مشاهدته لعب الأحباش ٦٦٣
اقتنى ﷺ حوالي ١٠ خيول ٦٥١
عاش ﷺ بعد حجة الوداع ٨٠ يوما ٤٧٧

صحابته وأتباعه ﷺ

أوائل المؤمنين به ١٩٠
أصحابه الفدائيون الأوائل ١٩٠
له ﷺ خمسة أطهار ماديين وخمسة أطهار روحانيين ١٩١
أعطيَ ﷺ تلامذة نجباء ٦٢
وزراؤه ﷺ الذين حملوا أعباءه ١٩٠
أعطاه الله أتباعا من كل فئة ١٩٢
قوته للإفاضة وقوة أصحابه للاستفاضة ٧٨
إيمان الصحابة به ﷺ ٦٢٠
استشارته ﷺ الصحابة في غزوة بدر ٤٨٢
شدة حزن الصحابة عند وفاته ﷺ ١٢٨
المقارنة بين أصحابه وأصحاب آدم ٢٢٥

نبوءات عن ظهوره ﷺ

نبأُ لموسى عليه السلام عنه ﷺ ٣٥٦- ٣٥٧
نبأ التوراة عن ظهوره من جبال فاران ٢١٣، ٢١٩
نبأ داود عليه السلام عن بعثة "محمديم" ٣٥٨
نبأ المسيح عن بعثته ﷺ قبل بعثته الثانية ٣٦٤
نبأ دخوله ﷺ مكة فاتحا ٢٣٥
نبأ غلبته وغلبة أتباعه ﷺ ٧٤٠
نبأ وفاته في سورة النصر ٤٧٠
نبأ عن حالتَي قبضه ﷺ وبسطه ١١٧

بعثته ﷺ الثانية

له ﷺ بعثتان ٢٠٤
نبأ بعثته الثانية ٤٤٠
نبأ بعثته في آخر الزمان ٥٨٢
نبأ ظهور مثيله لإعادة مجد الإسلام ٤٤٠
نبأ ظهور أظلاله الكاملين ٤٤٠
نبأُ ظهور ظلّه الكامل ٤٤٠
بعثتُه عليه السلام الثانية بشخص المسيح الموعود ٧٤١
نبأ ظهور أظلاله القمرية ٢١-٢٢
إنه ﷺ موجود في أمته روحانيًا ١٣٧

أحاديثه الوارده في هذا المجلد

قال عن الله تعالى: "نورٌ أنّى أراه" ٦٩١
قال ﷺ: "لم أشرك قط" ٢٠١
نصيحته ﷺ للمداومة على العبادة ٥٣٣
حثّ ﷺ المسلمين على تربية الخيول ٦٥٥
نصائحه ﷺ للأمة عند الوفاة ٥٢٠
رسالته ﷺ للعالم ٥٣٨

معارضته

التعارض عند معارضيه ٢٠١
الفرق بين عمله ﷺ وعمل المخالفين ٣٨٩-٣٩٠
منَعه الكفار من العبادة ٣٩٠
وضع الكفار كرش الجمل عليه ﷺ وهو ساجد ٤٠١
تفسير المستشرقين المادي لإنجازاته المعجزة ٧٤٣
دحض مطاعن المستشرقين ٣٢٥
إنجازاته وأخلاقه ردٌّ على من يصمه بالجنون
٣٢٣، ٣٩٢

محمد أحسن الأمروهي

عادته في مقاطعة كلام المسيح الموعود ٢٠٨

محمد إقبال الدكتور

زعمه أن المسيح الموعود أخذ المعارف من كتب الصوفية ١٦٤-١٦٥

محمد بن إسماعيل البخاري ٧٠٥، ٧٥١

محمد بن كعب رضي الله عنه ٢١١- ٢١٢

محمد حسين آزاد ١٢٤

محمد حسين البطالوي ١٩٢

كان من مادحي المسيح الموعود عليه السلام ١٩٢
تعليقه على البراهين الأحمدية ٣٢٨
قصة مناظرة له مع الخليفة الأول ١٩٥
إقبال الناس على الأحمدية بقراءة مجلته "إشاعة السنة"
١٩٩

محمد صادق المفتي رضي الله عنه

نشرَ إلهامات المسيح الموعود عليه السلام ٦١٤
تسجيلُه دروس الخليفة الأول رضي الله عنه ٢١٥

محمد علي المولوي اللاهوري

مؤسس جماعة "غيرِ المبايعين" ٢١٤
قال: ينبغي اختبار صدق الميرزا على منهاج النبوة ٤٩١
نسب تفاسير الخليفة الأول رضي الله عنه إلى نفسه ٢١٦

محمد قاسم النانوتوي (مؤسس مدرسة ديوبند)
عقيدته ببعثة نبي غير مشرع ٥١٢
محيي الدين ابن عربي ٤٥٩
المرزوقي اللغوي ٤٠٨
مرقس الإنجيلي ٢٧٩، ٣٤٣
مريم عليها السلام
٢٧، ٢٩، ٢١٣، ٢٦٣، ٤٨٠، ٦٧٨
ولادتها وصفاتها ٢٨
مريم المجدلية ٢١٨
المسيح الموعود عليه السلام (انظرْ في غلام أحمد مرزا عليه السلام)
المسيح الناصري عليه السلام (انظرْ في عيسى)
مسيلمة الكذاب
طلب من النبي صلى الله عليه وسلم نصيبًا في الحكم ١٧١
وحيه المختلَق ٧٣٣
معاوية رضي الله عنه ٤٥٢
المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ٧٧٢- ٧٧٣
مقاتل ٥٤٥
مقداد بن الأسود رضي الله عنه ٦٥٠
مِقسم ٤١١
ملاخي النبي عليه السلام ٣٥١
ختم عليه الوحي عند اليهود ٣٥١
ملك صادق ساليم ٢٥٨
شبّهته التوراة بابن الله ٢٥٨
لم يكن له أب ولا أم وفقًا للتوراة ٢٥٨
مناة (إحدى آلهة العرب في الجاهلية) ٢٣٦
منذر بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه
رئيس السرية إلى بني كنانة ٦٥١
موسوليني
زوجاته غير الشرعيات ٥٦٨
موسى عليه السلام ٢٥، ٩٨، ١٢٣، ١٦٦، ١٨٥، ١٩٠، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٥١، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧١، ٤٠٩، ٤١٣، ٤٢٠، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٧٢

وقائع حياته
نزول الوحي إلى أُمه ٥٧٩
هجرته من مصر ٢٣٣
كانت الهجرة قبل حادث الطور ٢٣٣
وُعد أربعين ليلة ٢٣٣، ٤٠٩
أول ما نزل عليه من الوحي ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٤٢
طريقة نزول الوحي عليه ٥٨٧
كلامه مع الله على الطور ٢١٣، ٢٣٢، ٢٣٤
تواضُعه عند نيل النبوة ٣٠٩
تردُّده في الذهاب إلى فرعون ٣٠٩
غرضُ بعثته عليه السلام ٢٩٦
أنشأ جماعة أظهرتْ جلال الله وجماله ٢٤٢
علّم البدائيين القيادةَ ٧١٦، ٧٤٧
قول أصحابه له "فاذهبْ أنت وربك فقاتِلا" ٢٢٥
ابتعاد قومه عن الحق بعد فترة من نبوته ٧١٩
كان يتصف بصفات النبي المشرع ٢٥
كان مؤسس "فترة تفصيل الشرع" ٢٤٣
تعاليمه أوضحُ من الأنبياء الإسرائيليين الآخرين ٣٥٥
كان هارون من أتباعه ٥٩٩
اتّبعَ جميعُ أنبياء بني إسرائيل شريعته ٤١٥
لم يكن النقطةَ الأخيرة للخَلْق ٣٥٦

دعاؤه لانشراح صدره ٢٢٥
دعاؤه ليعطى وزيرًا ١٩١
نبوءته عن بعثة نبي عظيم ٣٥٦، ٣٥٧
مقارنته مع النبي ﷺ من حيث بدء الوحي ٣٣٤
مقارنته مع النبي في "انشراح الصدر" ١٦٦
ما أنزِلَ عليه في الطور أقلُّ من سورة يوسف ٤١٩
مشابهة للمسيح الموعود معه ٣٣٢

مكارثر اللواء
قال: دمار العالم محتم بعد اكتشاف القنبلة الذرية إذا لم نطوّر أخلاقنا ٧٥٠

مونت بيتون اللورد ٣١٦

مونتغمري اللواء ٣١٦

موير وليام السير ٦١، ٩٩، ٦٨٧
اعترافه بعدم تدوين أي كتاب مباشرة إلا القرآن ٣٤٣
اعترافه بحفظ القرآن ٣٧٤
يعتبر قلق النبي ﷺ في غار حراء حديث النفس ٥
يعتبر سورة العصر حديث النفس ٧٣٣
دحض زعمه عن نزول سورة الشمس ٥
اعتراضه على سورة العلق والرد عليه ٣٢٤

نابليون
تطوره السريع وهزيمته ١٢٤، ١٣٦

نبوخذنصر
أجلى اليهودَ من فلسطين إلى أفغانستان وكشمير ١٢٣

النحّاس ٢٠٧، ٢١٢

نذير حسين الدهلوي ٦٢٧

النسائي صاحب السنن ٤٤١، ٥٤٦، ٥٤٨، ٥٧٧

نظام (والي حيدر آباد دكن)
استيلاء الإنجليز على جزيرة من ولايته ٥٦٦

نظام الدين ميان اللدهيانوي رضي الله عنه
قصة إيمانه بالمسيح الموعود عليه السلام ١٩٤-١٩٦
طلب من البطالوي عشر آيات في حياة المسيح ١٩٤-١٩٦

نوح عليه السلام ٢١٠، ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٤١، ٣٥١، ٣٦٨، ٣٧١، ٤١٤، ٤٢٠
كان صادقا وكاملا وملتزما مع الله وفق التوراة ٢٥٦
غرضُ بعثته ٢٩٦
هو مؤسس "فترة التشريع" ٢٤٣
أنشأ جماعة طاهرة ٢٤٢
الطوفان وسفينته ٢٢٦
"والزيتون" إشارة إلى هجرته ٢٢٦
بشارة النجاح بالزيتون ٢٢٨
مسجد نوح على الجودي ٢١٢

نور الدين رضي الله عنه الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام ٧١، ١٦٩
آمن بالمسيح الموعود عليه السلام في البداية ١٩٢
آمن به دون رؤية آية ٦١٨
تفسيره الجميل لسورة التين ٢١٥، ٢١٦
قصه اتفاقه مع البطالوي على شروط المناظرة ١٩٤
عالج سارقًا بالتحليل النفسي ٤٧

نولدكه (مستشرق ألماني) ٩٩، ٢٠٨، ٣٢٥، ٣٤٣، ٤٠٤، ٤٧٥
اعترافه بعدم تدوين أي كتاب مباشرة إلا القرآن ٣٤٣
اعترافه بحفظ القرآن ٣٧٤

النقشبندي رحمه الله ٤٥٨

هارون عليه السلام ٣٠٩، ٣٣٦
كان نبيا تابعًا نزل عليه وحي غير تشريعي ٥٩٩
شِرْكُ بني إسرائيل رغم وجوده بينهم ٣٠٩
توفي في حياة موسى عليه السلام ١٩٠

هارون الرشيد ٤٥٩

طلب من الإمام مالك أن يدرِّس أولاده ٥٦١

هُبَل (إحدى آلهة العرب في الجاهلية) ١٠٩، ٢٣٦

هتلر

تطوره السريع وعاقبته بالفشل ١٢٤

عاقبته الجديرة بالعبرة ١٣٦

اعتبر قلة حيلته سببًا للهزيمة ٦٩٩

زوجاته غير الشرعية ٥٦٨

هند رضي الله عنها

لامت الكافرين على إيذائهم لبنت النبي ﷺ ٦٨٤

الواحدي ٤٠٣

اعتبر آية "لم يكن الذين كفروا" أصعب الآيات ٤٩٣

ورقة بن نوفل ١٩٣

أحدُ أعمدة الإسلام ١٩٣

كان يبشر بالمسيحية قبل الإسلام ٢٠٠

كان ينقل التوراة إلى العربية ٣٠٥

قولُه للنبي ﷺ عند نزول أول وحي عليه ٣٠٥

عَدَّ وحي النبي ﷺ شبيهًا بوحي موسى

٩٨، ١٨٨، ٣٠٧

أخبر النبي ﷺ بأن قومه سيخالفونه ٤

الوليد بن المغيرة ٧٨٣- ٧٨٤

"ويري" ريفرند القس

١- ٢، ٤، ٦١، ١٥٥، ٢٠٧- ٢٠٨، ٢١٠،

٢١٤، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٤٣، ٤٠٤

جهله ٤٧٦

بغضُه للإسلام ٢٠٧- ٢٠٨، ٢١٠

تعامُله مع القرآن الكريم ٦٤٧

اعترافه بعدم تدوين أي كتاب مباشرة إلا القرآن ٣٤٣

آراؤه السخيفة عن زمن نزول الآيات ٣٢٩

دحضُ رأيه حول نزول سورة الشمس ٥

اعتباره سورة العاديات مكية ليس بأمر هين ٦٤٩

الرد على اعتراض له ٣٣٥

دحض اعتراض له على النبي ﷺ ٣٣٤

يار محمد المولوي ٣٤٠

كان يعاني من التوهم ٣٤٠

يثرون

صهر موسى عليه السلام ٣٣٣

يعقوب عليه السلام ١٤٠، ١٤٢،

٢٥٨، ٣١٤، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٥١، ٤٣٥

اشتياقه إلى يوسف عليه السلام ١٤٠

يعقوب علي عرفاني رضي الله عنه

اشترك في مؤتمر الأديان بلندن كصحفي ٥٦٤

يوحنا (يحيى) عليه السلام

كان مثيلاً لإيليا وجاء قبل عيسى ٢٣٢

تعمّد عيسى على يده ٣٣٧

يوحنا الإنجيلي ٣٤٣

يوسف عليه السلام ١١٢، ١٤٠، ١٤٢، ٢١٧، ٢٥٨

يوسف الرامي

كان تابعًا للمسيح وذا نفوذ ومال ٢٨٠

يوسف النجار ٢٦١

يوشع عليه السلام ٤٠٤

يونس عليه السلام ٢٧٠، ٢٨٠

تفصيل حادثه في التوراة ٢٧٠

قول عيسى: لا تُعطَى لهم آية إلا آية يونان النبي

٢٧٠- ٢٧٢

(٣)

فهرس الأعلام

أماكن

آسيا ٥٦١، ٥٧٢، ٥٧٦
سكانها ليسوا بشرًا في نظر الغرب ٧٤١
أراراط (جبال) ٢٢٨
استوت عليها سفينة نوح بحسب التوراة ٢٢٨
إسبانيا ٣٧٧، ٥٧٣
مسلمو إسبانيا تعلّموا العلوم من الشام ٣٧٨
الغرب تعلّم العلوم من مسلمي إسبانيا ٣٧٨
حكم الإسبان على أمريكا الجنوبية ٥٧٢
أستراليا
القضاء على سكانها الأصليين ٥٦٨
إفريقيا
حافظ المسلمون على استقلالها ٥٢٧
احتلال المسيحيين لها وتعاملهم مع أهلها ٥٢٧-٥٢٨
استغلال الغرب سكانها الأصليين ٥٦٨
أفغانستان ٢٣٠
حدودها في أزمنة مختلفة ٢٣٣
إقامة بني إسرائيل فيها في زمن نبوخد نصر ٣٦٣
يوجد فيها نظام ملكي شكلي ٥٧٢
ألمانيا
يُعَدّ الألمان أكثرَ الشعوب تنظيما وتضحية ١٣٧
انتهاء النظام الملكي فيها ٥٧٢
أمريكا
مناخها ٣٨٦
اكتشفها كولومبس ٧٦٠

القضاء على سكانها الأصليين (الهنود الحمر) ٥٦٨
الغربيون وحدهم بشرٌ من وجهة النظر الأمريكية ٧٥٠
انتهاء النظام الملكي فيها ٥٧٢
تعُدّ كنيستُها حاليا المسيحيةَ مخالفة للاشتراكية ٥٦٢
انتشار كتب غير أخلاقية فيها ٥٧٦
هجومهم على الأعداء ليلاً ٦٦٤
سبب تطورهم ٧٤٨
أنباله ٧٠
إنجلترا
لا صلاحية عند ملكتها اليوم ٥٧٣
كنسيتها اليوم تعُدّ نظام الملكية المحدودة متوافقا مع تعاليم المسيحية ٥٦٢
اعتبر أحد القساوسة الظلم الغربي مطابقاً للشريعة ٥٢٢
تمليك الأراضي الإفريقية لصالح إنجلترا ٥٦٨
صحافتها الكاذبة ٥٦٣، ٥٦٤
قوة شركاتها التجارية ٦٣١
قصة مثيرة لطيارين إنجليزيين ٣٨٤
أورشليم (راجع بيت المقدس)
أوروبا
كانت مملكة هارون الرشيد ممتدة من أوروبا إلى آسيا ٥٦٢
اعتراف الباحثين الغربيين بفضل علوم المسلمين ٣٧٧
الغرب تلامذة الأشعري في الفلسفة ٣٧٩
سبب لهفة الغربيين لتعلُّم علوم ما وراء الطبيعة ٣٦-٣٧
تفاخُر أهلها باكتشاف نظرية النسبة ٧٥٧
نذر أغنياؤها أولادهم للكنيسة ٥٢٩
يعملون رغم غناهم ٥٢٥
سبيل وحيد للتفوق على أوروبا ٧٤٢
الجماعة الأحمدية تعُدّها رجلاً مريضاً ٧٥٣
سببُ عدم فهم المستشرقين للقرآن الكريم؟ ٥٤٥
تحليلات الأوروبيين المادية لمعجزات النبي ﷺ ٧٤٣
أمراض نفسية خاصة بالأوروبيين ٢٨٥
لماذا لا يرى الأوروبيون الرؤى الصالحة والكشوف؟ ٣١٣

سبب ذهابهم إلى المنجمين لمعرفة أسرار المستقبل ٣٦
قلة علم المستشرقين ٥٤٥
تفاخُرهم القومي ٧٥٧
نكرانهم للجميل ٣٧٧
حبهم للاستيطان والسيطرة على الآخرين ٥٢٧
يهاجمون أعداءهم ليلاً على عكس المسلمين ٦٦٠
ظلمهم المتبادل في الحرب العالمية الثانية ٣٩٧
انتشار الكتب الجنسية عندهم ٥٧٦-٥٧٧
سيهلكون بسبب اكتشافاتهم الجديدة ٧٠٤

أوغندا

لم يزعج المسلمون أهلها في أيام غلبتهم أيضًا ٥٢٧

إيران

سيطرت عليها روسيا بعد الحرب العالمية الثانية ٥٦٧

إيطاليا

نهاية النظام الملكي عندها ٥٧٢

بابل

الحكومة البابلية دمَّرت اليهود ٧٤٧

باريس ١٢٥

بتياله ٧٢

البرار (جزيرة) ٥٦٦

لم يردّها الإنجليز لصاحبها ٥٦٦

برايْتون

توجد في قلعتها زخارف وكتابات إسلامية ٣٧٨

البرتغال

حُكمها على أمريكا الجنوبية ٥٧٢

بطاله ٦٢٧

بغداد

بُنيتْ مدينة بغداد بعد استشارة الأطباء ٧١٠

بلجيكا

حُكمها الملَكي تحت سيطرة الشعب ٥٥٩

بلغاريا

احتلتها روسيا ٥٦٧
نهاية نظامها الملَكي ٥٧٣

البنجاب

ظهر فيها المسيح الموعود عليه السلام ٤٢
لهجات متعددة في مناطقها المختلفة ٧٠، ٧١

البنغال ٢٣٣، ٤٧٢

بورما ٦٥٧

بيت المقدس

دُمِّر مرارًا على أيدي أعداء الدين ٤٤٧
بُعث فيها عيسى ابن مريم عليه السلام ٢١٣
رآها النبي ﷺ في الإسراء ٦١٠

بيشاور ٢٣٣

تركيا

نهاية نظامها الملَكي ٥٧٢
يعُدّها الغرب رجلاً مريضًا ٧٥٣

تشيكوسلوفاكيا

نهاية نظامها الملَكي ٥٧٢

ثور (غار) ١٠٤، ١٦٢

اختفاء النبي ﷺ فيه مع أبي بكر ١٠٣، ١٠٧، ١٦٣
زيارة المفسر رضي الله عنه له ٦٥٥

جامون (ولاية كشمير) ١٩٤، ٣٢٧

جَشْسَيْمَاني ٢٦٩

الجليل ٢٨١

جمياري ١٧٧

الجودي (جبل)
استوت عليه سفينة نوح ﷺ ٢٢٦

الحبشة
حِفاظ المسلمين على حريتها أيام غلبتهم ٥٢٧

الحجاز ٦٨، ٤٤٩

حِراء (غار) ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٥، ٣٤٥
كان النبي ﷺ يعبد الله تعالى فيه قبل البعثة ١٣١، ٣٠٥
قلقه على قومه في حراء ٥-٦
يتفكر فيه في الأديان ٣٤٤
يأتيه جبريل ﷺ بالوحي هنالك ٥٨٥
قد أراه ملاك هناك كتابةً على الحرير ٦١٦

الحطيم ٦٥٠

حلب
حقيقة ثلاث نسخ قديمة للقرآن اكتُشفتْ هنالك ٧٢

حلوان (جبال) ٢١٢

حوريب (جبل)
فيه بدأ نزول الوحي على موسى ﷺ ٣٣٣

حيدر آباد دكّن (الهند)
قصة استئجار الإنجليز مِن واليها منطقة "البرار" ٥٦٦

الدانمارك ٥٧٢

دلهوزي ١٤٦

دلهي ٦٢٧

ديوبند (مدرسة في الهند)
عقيدة مؤسسها عن إمكانية بعثة نبي غير مشرع ٥١٢

رام بور ١٩٩

روسيا ٥٢٤، ٥٦٧، ٦١٣، ٦٣٠، ٧٥١
الثورة الاشتراكية فيها ٦٣٠
نهاية الحكم الإمبراطوري فيها ٥٧٢
كنيستها تعُدّ دستور روسيا موافقًا لتعاليم المسيحية ٥٦٢
الإباحية هنالك ٥٧٤
هجوم أهلها على الأعداء ليلاً ٦٦٤
رأى المسيح الموعود عصا قيصر روسيا في يده ٣٣٢

رومانيا
احتلال روسيا لها ومصيرها ٥٦٧
نهاية نظامها الملَكي ٥٧٢

ريتي تشله (حي في قاديان)
هنالك عُقدتْ الجلسة السنوية الأخيرة في حياة المسيح الموعود ﷺ ٤٧٢

ساعير ٢١٣، ٢١٩، ٣٥٦
بعثة عيسى ابن مريم من جبل ساعير ٣٥٧

سبأ
ملكة سبأ ٤٦٧

سرجودا ٧١

سرحد ١٣٤، ٣٩٦

السند ١٣٤
نهر السند ٢٣٣

سورت (الهند)
حجّ أحد تجارها لتوسيع تجارته ٥٢٩

السويد
نظام الملَكية هنالك ٥٧٢

سيالكوت
توظف فيها المسيح الموعود ﷺ في محكمة ٣٢٧-٣٢٨

علاقة محام هندوسي سيالكوتي مع المسيح الموعود عليه السلام
٣٢٧

سيناء ٢١٣، ٢١٥، ٢١٩-٢٣١-٢٣٦، ٣٥٧
هي تقع في شمال خليج العقبة ٢٢٩
الفرق بين سينين وسيناء ٢٢٩

الشام ٦٥، ١٢٥، ١٤٧، ١٤٩، ٢١٢، ٢٨٥، ٣٣١
حرب المسلمين هنالك ضد جيش قيصر ٤٠٠، ٧٣٢
معظم سكانها أسلموا ٤٩٤
تعلّمَ أهل إسبانيا منهم ٣٧٨
تمرُّدهم على الأتراك ٥٦٧
نهاية النظام الملَكي فيها ٥٧٢

الصفا
كان النبي ﷺ واقفًا عليه عندما أنذر أقاربه لأول مرة
١٤٦

الصين ٢٤٥، ٢٨٥، ٣٣١، ٥٧٢
الملايين من سكانها أسلموا ٤٩٤
نهاية النظام الملَكي فيها ٥٧٢

الطائف ٦٧
دعاء النبي ﷺ لأهلها ١٧٣

طور سيناء ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٧، ٤١٨
هنالك تكلم موسى عليه السلام مع ربه ٢١٣
الطور ليس اسم جبل معين بل معناه الجبل ٢٢٩، ٢٣٠

عدن
خروج آدم من جنة عدن ٢٦٢

العراق ١٢٥، ٥٧٢
تمردهم على الأتراك ٥٦٧

العرب ٢٠، ٦٩، ٧١، ١١١، ١٣٨، ١٥٩، ١٦٤، ١٧١، ٢٠٠، ٢٣٣، ٤٦٢، ٤٩٩، ٥٠٥، ٦٢٧، ٦٥٨
إسلام معظم النصارى العرب ٤٩٤

عرفات ٦٥٠، ٦٦١

العقبة (الخليج) ٢٢٩، ٢٣٢

غجرات ٧٠

غورداسبور ٧١، ٣٣٢
قصة مقابلة برهان الدين الجهلمي المسيحَ الموعود هنالك ٤٢-٤٣

فاران ٢١٩، ٣٥٦
اسم جبال واقعة بين مكة والمدينة وفق التوراة ٣٥٧
ظهر النبي ﷺ من جبال فاران بحسب نبوءة التوراة
٢١٣

فرنسا ١٢٤، ٥٢٤، ٥٧٢
يعتبر قساوستها الحُكمَ الجمهوري موافقا للإنجيل ٥٦٢

فلسطين (راجع كنعان أيضًا)
٢١٧، ٢٢٩، ٢٨٥، ٣٣١، ٣٦٠، ٥٧٢
مرّ بها موسى عليه السلام ٩٨
أسلم معظم أهلها ٤٩٤
فتحها المسلمون ٣٦١
امتلاك المسلمين لها علامة ظاهرية للعهد الإبراهيمي ٤٤٤
فتحها المسلمون وفق نبأ داود عليه السلام ٤٤٨-٤٤٩
تمرُّد أهلها على الأتراك ٥٦٧
ينبئ القرآن والحديث أن احتلال اليهود لها مؤقت ٤٤٩

قاديان ٤٢، ٤٦، ٧١، ٩٦، ٣٣١، ٣٨٨، ٤٠٥
كثرة الوافدين إليها زمن المسيح الموعود ٤٧٣
زيارة أحد المدّعين بتلقي الوحي لها ١٨٥

القطب الشمالي ٣٨٦

قندهار ٢٣٣

كاليفورنيا ٥٦٠

كراتشي

قصة أحد تجارها مع المفسر ٧٠

غلاء أسعار القطن فيها لقولِ منجِّمٍ ٣٧

كربلاء ٢٧٦

كشمير ٢٣٠

سكنها بنو إسرائيل زمن نبوخدنصر ٣٦٢

الكعبة المشرفة

حماية الله لها ١٠٤

عُهد تطهيرها إلى إبراهيم وإسماعيل ٤٩٨

اختلاف قريش لوضع الحجر الأسود فيها ١٤٧

كندا

نهاية النظام الملَكي فيها ٥٧٢

كنعان (راجع فلسطين أيضًا) ٤٤٤

نبأ الزبور عن حق ملكية كنعان ٤٤٩

عهدُ ملكية كنعان لنبي إسحاق ٤٤٥

حرمان بني إسحاق من الحكم عليها ١٣ قرناً ٤٤٣

كوريا

نهاية النظام الملَكي فيها ٥٧٢

لاهور ٥٢، ٣٢٧، ٤٠٥، ٦٢٧

تفوُّقُ مقال المسيح الموعود في مؤتمر الأديان المعقود هنالك ٣٨١

قصة حوار جرى هنالك بين البطالوي وشخص طلب منه عشر آيات على حياة عيسى ١٩٤، ١٩٥

لبنان ٥٧٢

لدهيانه ٦٢٧

قصة أحد سكانها مع المسيح الموعود ١٩٤

لندن

نُسَخ "البراهين الأحمدية" من الطبعة الأولى موجودة في متحف لندن ٣٢٧

حضور المفسر ﷺ في مؤتمر أديان العالم المنعقد في لندن ٥٦٦

صحفها تنشر معلومات شخصية للناس ٥٧٦

لنكاشاير ٣٧

لويلبور (فيصل آباد حاليًا) ١٧٧

مؤاب

فيها توفي موسى ؑ ٢٦٦

المجر (هنغاريا)

انتهاء النظام الملَكي فيها ٥٧٢

المدينة المنورة ١٢٥، ١٧١، ٢٠٠، ٦٤٥

كان طقسها وماؤها سيئين ٦٨٢

احتقار أهل مكة لأهل المدنية ٧٨٢

هي طور سيناء الثاني ٢٣٣

نزول جبريل فيها ٥٨٥

تضحيات قدمها أهلها للنبي ﷺ ٩٧، ١٢٩

سعد بن معاذ يتكلم عن أهلها يوم بدر ٤٨٢

نُصبت فيها طواحين هوائية في زمن عمر ٢٢

كانت مركز الإسلام زمن عثمان ٦٧

مزدلفة ٦٥٠، ٦٦١

مسجد أصحاب الكهف ٢١٢

المسجد الأقصى ٢١١

مسجد إيليا ٢١٢

مسجد "تشينيان والي" (بلاهور) ١٩٥

المسجد الملَكي (بلاهور) ١٩٥

قصة ميان غلام محمد الذي ادعى بأنه المصلح الموعود ٥٩٦

مسجد نوح ٢١٢

مصر ١٢٥، ٢٣٣- ٢٣٤، ٢٨٥، ٣٣١، ٥٦٧

أُمر موسى بالخروج منها ببني إسرائيل ٣٣٥

معظم سكانها أسلموا ٤٩٤

سفر المفسر من فلسطين إلى مصر ٩٨

تشتهر بالقطن ١٧٧

كثيرون يفقدون فيها بصرهم بتأثير الرمال ١٥

مكة المكرمة

٦٨، ١٢٩، ١٤٧، ٤٧٩- ٤٨١، ٥٢٩

أسست القواعد لنظام واسع عظيم ٩

أهلها من نسل إبراهيم وإسماعيل ٧٤٦

جعلها الله مركزًا لأولاد إسماعيل ٤٤٥

نال أهلها إكراما كبيرا بسبب إبراهيم وإسماعيل ٧١٦

دعاء إبراهيم لتكون دار أمن وسلام ٩

إن الله حرّم مكة و لم يحلّ لأحد قبلي ... (الحديث) ٢٣٨

حُلّت مكة للنبي ﷺ فقط ٢٣٨

أصبحت بلدًا أمينًا بعد الفتح ٢٣٩

المقارنة بين مكة وأورشليم ٤٤٧

كان أهلها أمواتًا ٦٧٨

انحطاط أهلها أخلاقيًا

٦٦٩- ٦٧٠، ٦٨٣- ٦٨٤،٧٢٠- ٧٢١

تفاخُر أهلها ٧١٢

وصلت عبادة الأصنام فيها ذروتها ٢٣٨

نهضة أهلها بسبب الإسلام ٦٧٩

القوة المادية لأهلها ٧٣٧

كان أهلها قبل الإسلام مهذّبين ظاهريًا ٦٨٠

ظلمُ أهلِها النبي ﷺ والمسلمين ٢٣٨

قصة هجرة أبي بكر منها وحده ١٩٦

خبر فتح مكة ٧١٣

فتحُها دليل على صدق النبي ﷺ ١٠٤

عشرة آلاف صحابي مع النبي ﷺ عند الفتح ١٢٩

حالة قلب النبي ﷺ عند الفتح ١١١

عاقبة أهلها الوخيمة ٣٩٩

عذاب نفسي لأهلها ٧٨٢

قرار أهلها بعدم عزاء قتلاهم في بدر ٧٨٥

شُبِّه أهلها بقوم عاد وثمود ٥٨

حكمة عدم هلاكهم جسديًا ٥٨

إسلام أولاد زعمائها ٧٨٣

مجيء أولاد زعمائها إلى مجلس عمر ٧٣٠

أبناء قريش وتقديمهم الكفّارة ٤٠٠

مليح آباد ١٧٨

منى ٤٧٧، ٦٦١

مومباي ٣٧

نابه ١٧٥

ناجازاكي

دمار القنبلة النووية ٦٩٦

ناغبور

تشتهر بالبرتقال ١٧٨

نجد ٦٨

أهل مكة كانوا يهابون أهل نجد ٦٥٨

النقع (موضع قرب مكة) ٦٦١

نينوى

بُعث يونس عليه السلام إلى أهلها ٢٧٠

نيويورك ٣٧

هزاره ٢٣٠

همدان ٢١٢

هملايا ٢٣٠، ٢٤٠

الهند ٢٨٥، ٢٩٢، ٣٢٧، ٣٨٦-٣٨٨، ٥٦٠، ٥٦٣، ٥٦٦، ٦٦٢

حدودها في أزمنة مختلفة ٢٣٣

اعتنق الإسلام تسعون مليون هندي ٤٩٤

تأثيرات الإسلام العميقة في الهندوسية ٥٠٩

حالة مسلميها الدينية ٧٦٤-٧٦٣

شوقهم لتعلُّم علوم الميتافيزيقيا ٣٨

عدد سكّانها اليوم يفوق عدد سكان العالم سابقًا ٧١٤

سبب زوالها ٥٢٥-٥٢٤

آثار نهضتها ٦٧٨

تقدمها نحو الاستقلال ٥٦٨

أقاليمها المتأثرة بالكونغرس تظن القرآن مليئا بتعاليم العنف ٥٦٢

هولندا

حُكمها الملَكي خاضع للشعب ٥٥٩، ٥٧٢

هيروشيما

دمار القنبلة النووية ٦٩٦

وزيرآباد ١٨١

اليابان ٢٨٥، ٣٣١، ٥٦٠، ٧٤١، ٧٥٠

ديانتها "الشنتو" متوافقة مع النظام الإمبراطوري ٥٦٢

يريد الاتحاديون القضاء على نظامها الإمبراطوري ٥٧٢

يرجع مَلِكُها هزيمَتها إلى قلة العتاد ٦٩٩

تطورها بعد التدهور ٧٤٨

دعايتها الكاذبة في الحرب العالمية الثانية ٥٦٣

دمارها الرهيب ٧٠٢

تأثيرات القنبلة النووية على أهلها ٧٠٤

استسلامها بعد الانفجار النووي ٦٩٧

اليمن ٦٦، ٢٠١

يوغوسلافيا

انتهاء النظام الملَكي فيها ٥٧٢

اليونان

انتهاء النظام الملَكي فيها ٥٧٢

(٤)

المراجع والمصادر

المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب التفسير

* الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير

* العلامة أبو حيّان محمد بن يوسف، البحر المحيط

* العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان

* الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم

* الإمام جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور

* عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن

* محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

* أبو الفضل بن حسين بن الفضل الطبرسي الطوسي، مجمع البيان في تفسير القرآن

*علاء الدين بن علي بن محمد البغدادي، تفسير الخازن

* محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير

* الشيخ الأكبر محيي الدين المعروف بابن عربي، تفسير ابن عربي

* الشيخ إسماعيل حقي البروسوي، روح البيان

* أبو محمد الحسين الفراء البغوي، تفسير البغوي

* العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني

* أبو محمد عبد الحق الحقاني، تفسير فتح المنان المشهور بـــ تفسير حقاني
* أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي، تفسير فتح البيان
* الإمام الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن

الحديث وشرحه

* الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري
* الحافظ أحمد بن عيسى بن حجر العسقلاني، فتح الباري
* الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم
*الإمام محيي الدين بن يحيى بن شرف النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بـــن الحجاج
* الإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي
* الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود
* أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي
* الإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه
* الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل
* الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير
* الشيخ ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، مشكاة المصابيح، دار الفكر بيروت لبنان ١٩٩١
* الحافظ نور الدين علي، مجمع الزوائد ومنبع الفرائد، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠١
* العلامة علاء الدين المتقي الهندي، كنـــز العمال

* الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان
* الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى
* سليمان بن داود بن الجارود المعروف بأبي داود الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة بيروت لبنان
* محمد سعيد مفتي، تشييد المباني في تخريج الأحاديث مكتوبات الإمام الرباني، مطبعة فيض الكريم حيدر آباد دكن
* الإمام محمد طاهر الكجراتي، مجمع بحار الأنوار، دار الإيمان، المدينة المنورة
* ملا علي القاري، الموضوعات الكبرى، قديمي كتب خانه كراتشي

كتب عربية للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

* الخطبة الإلهامية

السيرة والتاريخ

* ابن هشام، السيرة النبوية، تراث الإسلام ٢٠٠١
* أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دارالكتب العلمية بيروت ٢٠٠١
* العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، دار الكتب العربية، بيروت
* العلامة العسقلاني، شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية، دار الكتب العلمية، بيروت
* أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر

* الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، الفصول في سيرة الرسـول، دار الكلـم الطيب ٢٠٠٤

* الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروضُ الأُنُفُ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧

* الإمام محمد بن يوسف الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣

*علي بن برهان الدين الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٢

* أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة المكرمة، السيرة النبوية، دار إحيـاء التـراث العربي، بيروت

* محمد بن عمر واقد الواقدي، كتاب المغازي، دار الكتب العلمية، بيروت

* الإمام جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الكتـاب العـربي بـيروت ١٩٩٩

* العلامة أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير، أُسْدُ الغابـة في معرفـة الصحابة، دار المعرفة ٢٠٠١

* محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار إحياء التراث العربي ١٩٩٦

* أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار الكتاب العربي

* الزبير بن بكّار، جمهرة نسب قريش وأخبارها، مطبعة المدني القاهرة، ١٣٨١ هـ.

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٢
* الإمام شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت
* العلامة محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، قلائد الجواهر، الشركة المساهمة المصرية، مصر
* كتاب العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، مطبعة الهلال بالفجالة مصر، ١٩٠٨م
* محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية بيروت
* صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار المعرفة، بيروت

اللغة والأدب

* أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، إملاء ما منّ به الرّحمن
* محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، مطبعة النهضة، قُم، إيران ١٤١٢هـ
* إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩
* العلامة ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب
* محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس

* أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير
* سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، أقرب الموارد
* أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢
* المنجد في اللغة والأعلام
* معجم النحو
* الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المطبعة العصرية للطباعة
* ديوان حسان بن ثابت، حققه وعلق عليه الدكتور وليد عرفات، الجزء الأول

كتب متفرقة

* الشيخ عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تعبير المنام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
* علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحسيني الحنفي، التعريفات
* محمد بن إسحاق ابن النديم، الفهرست، إداره ثقافت إسلامية ١٩٩٠
* دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الكتاب المقدس، طبعة العيد المئوي ١٨٨٣ – ١٩٨٣
* دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الكتاب المقدس، الإصدار الثاني ١٩٩٥ الطبعة الرابعة، الناشر جمعية الكتاب المقدس في لبنان

المراجع الإنجليزية

❖ *Black's Bible Dictionary*, London, Adam and Charles Black. 1954.

❖ *Encyclopaedia* Britannica, Cambridge University Press, 11th Edition, 1911

❖ *Encyclopaedia* Britannica (The New) Vol:8 Publisher, William Benton,1943-1973, 15th Edition

❖ *The New Webster's International Encyclopaedia*, Michel D. Harkvey, Trident International.

❖ *The New Encyclopedia Britanica,* USA 2003

❖ *Encyclopaedia of religion and Ethics*, Edited by James Hastings, Book craft ltd. Great Britain.

❖ *New Age Encyclopedia, by Blinda Whitworth*

❖ *The Jewish Encyclopaedia*

❖ Ernest Jones, *Life & Work of Sigmund Freud*, 1999

❖ Sir MUIR, W., *The life of Mahomet,* Smith, Elder & Co. Waterloo London,1878

❖ Sir MUIR, W, *The Coran*, Its composition and teaching, Society for promoting Christian knowledge London

❖ WHERRY, E.M., 1896. *A comprehensive commentary on the Quran (comprising Sale's translation and preliminary discourse by E M Wherry)* London: Trubner & Co.Ltd.

❖ Rev. Alphonse Mingana D.D, *Leaves from Three Ancient Qurâns*, Cambridge University Press, 1914

❖ W. Bellew,C.S.I., *Races of Afghanistan*, Thacker Spink and co, Calcutta

❖ George Sale, *The Koran*, Frederick Warne And Co. Ltd. London And New York

المراجع الأردية والفارسية

کتب حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام، (طبعہ روحانی خزائن) پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ، پاکستان

- براہین احمدیہ (ہر چہار حصص)
- اسلامی اصول کی فلاسفی
- الحق، مباحثہ لدھیانہ
- چشمہ معرفت
- چشمہ مسیحی
- کشتی نوح
- انوار الاسلام
- نزول المسیح
- آئینہ کمالات اسلام
- سرمہ چشم آریہ
- انجام آتھم
- تذکرۃ الشہادتین
- حقیقۃ الوحی
- الوصیت

- فتح اسلام
- مجموعہ اشتہارات جلد اول ۔ جلد سوم
- تذکرہ (مجموعہ الہامات، کشوف ورؤیا حضرت مرزا غلام احمد قادیانی) الشرکۃ الاسلامیۃ لمیٹڈ ربوہ پاکستان
- ملفوظات جلد دوم، چہارم
- مکتوبات احمد جلد اول

دیگر کتب واخبارات سلسلہ

- حقائق الفرقان جلد اول ۔ حضرت مولانا نورالدین خلیفۃ المسیح الاول، الشرکۃ الاسلامیہ لمیٹڈ ربوہ
- سیرت المہدی جلد اول، قمرالانبیاء حضرت صاحبزادہ مرزا بشیر احمد
- تذکرۃ المہدی، پیر سراج الحق نعمانی ۱۹۱۵ء، قادیان
- حیات احمدؑ، یعقوب علی عرفانی صاحب، اسلامی پریس حیدرآباد دکن ۱۹۵۲ء
- اخبار الحکم، ایڈیٹر یعقوب علی عرفانی، انوار احمدیہ پریس قادیان
- اخبار بدر، قادیان ۱۱ جنوری ۱۹۱۲ء
- مجلّہ ریویو آف ریلیجنز، قادیان، جون جولائی ۱۹۰۸ء
- رؤیا وکشوف سیدنا محمود رضی اللہ عنہ، فضل عمر فاؤنڈیشن ربوہ پاکستان
- تاریخ احمدیت جلد اول ودوم، مؤلفہ مولانا دوست محمد شاہد

دیگر کتب، رسائل واخبارات

- بیان القرآن، مولوی محمد علی صاحب، جلد سوم
- النبوۃ فی الاسلام، مولوی محمد علی، سٹیم پریس لاہور ۱۹۱۵ء
- تفہیم القرآن، ابوالاعلی مودودی، مکتبہ تعمیر انسانیت لاہور
- معارف القرآن، مولانا مفتی محمد شفیع، ادارۃ المعارف کراچی ۱۹۷۴ء
- تحذیر الناس، محمد قاسم نانوتوی، دارالاشاعت کراچی
- اخبار اشاعۃ السنۃ النبویۃ، ابوسعید محمد حسین بٹالوی، اسلامیہ پریس لاہور
- تاریخ احرار، امیر افضل حق، مکتبہ مجلس احرار اسلام، لاہور ملتان، پاکستان
- وقائع سیر و سیاحت ڈاکٹر برنیئر، ناشر محمد حسین مراد آبادی ۱۸۸۶ء
- انجیل مقدس، برٹش اینڈ فارن بائبل سوسائٹی، لندن، ۱۹۲۲ء
- کتاب مقدس، پاکستان برٹش اینڈ فارن بائبل سوسائٹی انارکلی لاہور، ۱۹۲۲ء
- انجیل مقدس، یسوع مسیح کا نیا عہد نامہ برٹش اینڈ فارن بائبل سوسائٹی لندن ۱۸۸۷ء
- کتاب مقدس پرانا عہد نامہ، لاہور، ۱۹۰۸ء
- انجیل مقدس، نیا عہد نامہ، مرزا پور انڈیا ۱۸۷۰ء
- کتاب مقدس، نیا اور پرانا عہد نامہ، پاکستان بائبل سوسائٹی انارکلی لاہور۔
- میزان الحق، پادری فنڈر، امریکن مشن ۱۸۳۲ء
- اوم ستیارتھ پرکاش، (اردو ترجمہ) آریہ پرتی ندھی از چموپتی ایم اے
- نسخہ خبط احمدیہ، پنڈت لیکھرام، مطبع سیوک لاہور، ۱۸۹۵ء